مقدمة
العلامة ابن خلدون

كتاب قد حوى درر المعاني ... وبحر فوائد للمقتنيه
فلا تعجب لهاتيك المباني ... فإن البحر كل الدر فيه

روجعت هذه الطبعة بمعرفة لجنة من الجامعيين

دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت - لبنان

مُقَدِّمَة

العلامة ابن خلدون

كتاب قد حوى درر المعاني ... وبحر فوائد للمقتنيه
فلا تعجب لهاتيك المباني ... فإن البحر كل الدر فيه

روجعت هذه الطبعة بمعرفة لجنة من الجامعيين

الجزء الأول

من

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

في

أيام العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

وهو

تاريخ وحيد عصره العلامة

عبد الرحمن بن خلدون

المغربي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَقُولُ ٱلْعَبْدُ ٱلْفَقِيرُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلْغَنِيُّ بِلُطْفِهِ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ خَلْدُونَ ٱلْحَضْرَمِيُّ وَفَّقَهُ ٱللهُ ٠

أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي لَهُ ٱلْعِزَّةُ وَٱلْجَبَرُوتُ * وَبِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَٱلْمَلَكُوتُ * وَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى وَٱلنُّعُوتُ * أَلْعَالِمِ فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مَا تُظْهِرُهُ ٱلنَّجْوَى أَوْ يُخْفِيهِ ٱلسُّكُوتُ * أَلْقَادِرُ فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا يَفُوتُ * أَنْشَأَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ نَسَماً ، وَٱسْتَعْمَرَنَا فِيهَا أَجْيَالاً وَأُمَماً وَيَسَّرَ لَنَا مِنْهَا أَرْزَاقاً وَقِسَماً ، تَكْنُفُنَا ٱلْأَرْحَامُ وَٱلْبُيُوتُ * وَيَكْفُلُنَا ٱلرِّزْقُ وَٱلْقُوتُ * وَتُبْلِينَا ٱلْأَيَّامُ وَٱلْوُقُوتُ ، وَتَعْتَوِرُنَا ٱلْآجَالُ ٱلَّتِي خَطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا ٱلْمَوْقُوتُ وَلَهُ ٱلْبَقَاءُ وَٱلثُّبُوتُ * وَهُوَ ٱلْحَيُّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ * وَٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ ٱلنَّبِيِّ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلْمَكْتُوبِ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ ٱلْمَنْعُوتِ * ٱلَّذِي تَمَخَّضَ لِفِصَالِهِ ٱلْكَوْنُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ ٱلْآحَادُ وَٱلسُّبُوتُ * وَيَتَبَايَنَ زُحَلُ وَٱلْيَهْمُوتُ[1] * وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ٱلَّذِينَ لَهُمْ فِي صُحْبَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ ٱلْأَثَرُ ٱلْبَعِيدُ وَٱلصِّيتُ ، وَٱلشَّمْلُ ٱلْجَمِيعُ فِي مُظَاهَرَتِهِ وَلِعَدُوِّهِمِ ٱلشَّمْلُ ٱلشَّتِيتُ * صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا ٱتَّصَلَ بِٱلْإِسْلَامِ جَدُّهُ ٱلْمَبْخُوتُ * وَٱنْقَطَعَ بِٱلْكُفْرِ حَبْلُهُ ٱلْمَبْتُوتُ * وَسَلَّمَ كَثِيراً .

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فَنَّ ٱلتَّارِيخِ مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي تَتَدَاوَلُهُ ٱلْأُمَمُ وَٱلْأَجْيَالُ وَتُشَدُّ إِلَيْهِ ٱلرَّكَائِبُ وَٱلرِّحَالُ * وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ ٱلسُّوقَةُ وَٱلْأَغْفَالُ * وَتَتَنَافَسُ فِيهِ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأَقْيَالُ * وَتَتَسَاوَى فِي فَهْمِهِ ٱلْعُلَمَاءُ وَٱلْجُهَّالُ * إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَخْبَارٍ

---

(١) قوله اليهموت هو النون اي الحوت الذي على ظهره الارض السابعة ويسمى ايضاً لوتيا كما في الزهر وروح البيان واللهجة ومعلوم ان بينه وبين زحل الذي هو في الفلك السابع بوناً بعيداً وقال الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي اه في اول سورة نون اليهموت بفتح المثناة التحتية وسكون الهاء وما اشتهر من انه بالباء الموحـــدة غلط على ما ذكره الفاضل المحشى ومثله في روح البيان قاله نصر الهوريني اقره المصحح الثاني .

عن الأيام والدول * والسوابق من القرون الأول * تنمو فيها الأقوال * وتضرب فيها الأمثال * وتطارف بها الأندية إذا غصها الاحتفال * وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال * واتسع للدول فيها النطاق والمجال * وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال * وحان منهم الزوال * وفي باطنه نظر وتحقيق * وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق * وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق * فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق * وجدير بأن يعد في علومها وخليق * وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها * وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها * وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها * وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها * واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها * وأدوها إلينا كما سمعوها * ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها * ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها * فالتحقيق قليل * وطرف التنقيح في الغالب كليل * والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل * والتقليد عريق في الآدميين وسليل * والتطفل على الفنون عريض طويل * ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل * والحق لا يقاوم سلطانه * والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه * والناقل إنما هو يملي وينقل * والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل * والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل *

هذا وقد دون الناس في الأخبار وأكثروا * وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطروا * والذين ذهبوا بفضل الشهرة والإمامة المعتبرة * واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة * هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل * ولا حركات العوامل * مثل ابن إسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الأسدي وغيرهم من المشاهير * المتميزين عن الجماهير * وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الأثبات * ومشهور بين الحفظة الثقات * إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم * واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم * والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم * فللعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار * وتحمل عليها الروايات

وَالْآثَارُ * ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ التَّوَارِيخِ لِهَؤُلَاءِ عَامَّةُ الْمَنَاهِجِ وَالْمَسَالِكِ * لِعُمُومِ الدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ الْإِسْلَامِ فِي الْآفَاقِ وَالْمَمَالِكِ * وَتَنَاوُلِهَا الْبَعِيدَ مِنَ الْغَايَاتِ فِي الْمَآخِذِ وَالْمَتَارِكِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنِ اسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ الْمِلَّةِ مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ * وَالْأَمْرِ الْعَمَمِ * كَالْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْإِطْلَاقِ إِلَى التَّقْيِيدِ وَوَقَفَ فِي الْعُمُومِ وَالْإِحَاطَةِ عَنِ الشَّأْوِ الْبَعِيدِ * فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ * وَاسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفُقِهِ وَقُطْرِهِ * وَاقْتَصَرَ عَلَى تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ * كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ الْأَنْدَلُسِ وَالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِهَا وَابْنُ الرَّقِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَّةَ وَالدَّوْلَةِ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَيْرَوَانِ ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ * وَبَلِيدُ الطَّبْعِ وَالْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ * يَنْسِجُ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْوَالِ * وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِالْمِثَالِ * وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ الْأَيَّامُ مِنَ الْأَحْوَالِ * وَاسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ * فَيَجْلِبُونَ الْأَخْبَارَ عَنِ الدُّوَلِ * وَحِكَايَاتِ الْوَقَائِعِ فِي الْعُصُورِ الْأُوَلِ * صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا * وَصِفَاحًا انْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا * وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا * إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا * وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تُحُقِّقَتْ فُصُولُهَا * يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا الْأَخْبَارَ الْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا * اتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا * وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا * بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجُمَانِهَا * فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا * ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا * مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا * لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا * وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ الَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا * وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا * وَلَا عِلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا * فَيَبْقَى النَّاظِرُ مُتَطَلِّعًا بَعْدُ إِلَى افْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِئِ الدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا * مُفَتِّشًا عَنْ أَسْبَابِ تَزَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا * بَاحِثًا عَنِ الْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُبِهَا * حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الِاخْتِصَارِ * وَذَهَبُوا إِلَى الِاكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوكِ وَالْأَنْصَارِ * مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ * مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ الْغُبَارِ * كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ * وَمَنِ اقْتَفَى هَذَا الْأَثَرَ مِنَ الْهَمَلِ * وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهَؤُلَاءِ مَقَالٌ * وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا انْتِقَالٌ * لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ الْفَوَائِدِ * وَأَخَلُّوا بِالْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ

وَلَمَّا طَالَعْتُ كُتُبَ الْقَوْمِ * وَسَبَرْتُ غَوْرَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ * نَبَّهْتُ عَيْنَ الْقَرِيحَةِ مِنْ

سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلنَّوْمِ * وَسِمْتُ ٱلتَّصْنِيفَ مِنْ نَفْسِي وَأَنَا ٱلْمُفْلِسُ أَحْسِنُ ٱلسَّوْمَ * فَأَنْشَأْتُ فِي ٱلتَّارِيخِ كِتَاباً * رَفَعْتُ بِهِ عَنْ أَحْوَالِ ٱلنَّاشِئَةِ مِنَ ٱلْأَجْيَالِ حِجَاباً * وَفَصَّلْتُهُ فِي ٱلْأَخْبَارِ وَٱلِاعْتِبَارِ بَاباً بَاباً * وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوَّلِيَّةِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْعُمْرَانِ عِلَلاً وَأَسْبَاباً * وَبَنَيْتُهُ عَلَى أَخْبَارِ ٱلْأُمَمِ ٱلَّذِينَ عَمَرُوا ٱلْمَغْرِبَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَعْصَارِ * وَمَلَأُوا أَكْنَافَ ٱلضَّوَاحِي مِنْهُ وَٱلْأَمْصَارِ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلطِّوَالِ أَوِ ٱلْقِصَارِ * وَمَنْ سَلَفَ لَهُمْ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْأَنْصَارِ * وَهُمَا ٱلْعَرَبُ وَٱلْبَرْبَرُ * إِذْ هُمَا ٱلْجِيلَانِ ٱللَّذَانِ عُرِفَ بِٱلْمَغْرِبِ مَأْوَاهُمَا وَطَالَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَحْقَابِ مَثْوَاهُمَا * حَتَّى لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُ فِيهِ مَا عَدَاهُمَا * وَلَا يَعْرِفُ أَهْلُهُ مِنْ أَجْيَالِ ٱلْآدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا * فَهَذَّبْتُ مَنَاحِيَهُ تَهْذِيباً * وَقَرَّبْتُهُ لِأَفْهَامِ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْخَاصَّةِ تَقْرِيباً * وَسَلَكْتُ فِي تَرْتِيبِهِ وَتَبْوِيبِهِ مَسْلَكاً غَرِيباً * وَٱخْتَرَعْتُهُ مِنْ بَيْنِ ٱلْمَنَاحِي مَذْهَباً عَجِيباً * وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وَأُسْلُوباً * وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلتَّمَدُّنِ وَمَا يَعْرِضُ فِي ٱلِاجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلذَّاتِيَّةِ مَا يُمَتِّعُكَ بِعِلَلِ ٱلْكَوَائِنِ وَأَسْبَابِهَا * وَيُعَرِّفُكَ كَيْفَ دَخَلَ أَهْلُ ٱلدُّوَلِ مِنْ أَبْوَابِهَا * حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ ٱلتَّقْلِيدِ يَدَكَ * وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ مَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْأَيَّامِ وَٱلْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ وَرَتَّبْتُهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ

أَلْمُقَدِّمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ ٱلتَّارِيخِ وَتَحْقِيقِ مَذَاهِبِهِ وَٱلْإِلْمَاعِ بِمَغَالِطِ ٱلْمُؤَرِّخِينَ

أَلْكِتَابُ ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَذِكْرِ مَا يَعْرِضُ فِيهِ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلذَّاتِيَّةِ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْكَسْبِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلصَّنَائِعِ وَٱلْعُلُومِ وَمَا لِذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلَلِ وَٱلْأَسْبَابِ

أَلْكِتَابُ ٱلثَّانِي فِي أَخْبَارِ ٱلْعَرَبِ وَأَجْيَالِهِمْ وَدُوَلِهِمْ مُنْذُ مَبْدَإِ ٱلْخَلِيقَةِ إِلَى هٰذَا ٱلْعَهْدِ وَفِيهِ مِنَ ٱلْإِلْمَاعِ بِبَعْضِ مَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْمَشَاهِيرِ وَدُوَلِهِمْ مِثْلِ ٱلنَّبَطِ وَٱلسُّرْيَانِيِّينَ وَٱلْفُرْسِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَٱلْقِبْطِ وَٱلْيُونَانِ وَٱلرُّومِ وَٱلتُّرْكِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ

أَلْكِتَابُ ٱلثَّالِثُ فِي أَخْبَارِ ٱلْبَرْبَرِ وَمَوَالِيهِمْ مِنْ زَنَاتَةَ وَذِكْرِ أَوَّلِيَّتِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ وَمَا كَانَ بِدِيَارِ ٱلْمَغْرِبِ خَاصَّةً مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ ثُمَّ كَانَتِ ٱلرِّحْلَةُ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ لِاجْتِنَاءِ أَنْوَارِهِ * وَقَضَاءِ ٱلْفَرْضِ وَٱلسُّنَّةِ فِي مَطَافِهِ وَمَزَارِهِ * وَٱلْوُقُوفِ عَلَى آثَارِهِ فِي دَوَاوِينِهِ وَأَسْفَارِهِ * فَزِدْتُ مَا نَقَصَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِ ٱلْعَجَمِ بِتِلْكَ ٱلدِّيَارِ * وَدُوَلِ ٱلتُّرْكِ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ * وَأَتْبَعْتُ بِهَا مَا كَتَبْتُهُ فِي تِلْكَ ٱلْأَسْطَارِ * وَأَدْرَجْتُهَا فِي ذِكْرِ لِلْمُعَاصِرِينَ لِتِلْكَ ٱلْأَجْيَالِ مِنْ أُمَمِ ٱلنَّوَاحِي * وَمُلُوكِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلضَّوَاحِي * سَالِكاً سَبِيلَ

الاختصار والتلخيص * مقتديا بالمرام السهل من العويص * داخلا من باب الأسباب على العموم إلى الإخبار على الخصوص فاستوعب أخبار الخليقة استيعابا * وذلل من الحكم النافرة صعابا * وأعطى لحوادث الدول عللا وأسبابا * فأصبح للحكمة صوانا * وللتاريخ جرابا

ولما كان مشتملا على أخبار العرب والبربر * من أهل المدر والوبر * والإلماع بمن عاصرهم من الدول الكبر * وأفصح بالذكرى والعبر * في مبتدإ الأحوال وما بعدها من الخبر * سميته كتاب العبر * وديوان المبتدإ والخبر * في أيام العرب والعجم والبربر * ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر * ولم أترك شيئا في أولية الأجيال والدول * وتعاصر الأمم الأول * وأسباب التصرف والحول * في القرون الخالية والملل * وما يعرض في العمران من دولة وملة * ومدينة وحلة * وعزة وذلة * وكثرة وقلة * وعلم وصناعة * وكسب وإضاعة * وأحوال متقلبة مشاعة * وبدو وحضر * وواقع ومنتظر * إلا واستوعبت جمله * وأوضحت براهينه وعلله * فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته من العلوم الغريبة * والحكم المحجوبة القريبة * وأنا من بعدها موقن بالقصور * بين أهل العصور * معترف بالعجز عن المضاء * في مثل هذا القضاء * راغب من أهل اليد البيضاء * والمعارف المتسعة الفضاء * في النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء * والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء * فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة * والاعتراف من اللوم منجاة * والحسنى من الإخوان مرتجاة * والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل

وبعد أن استوفيت علاجه * وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجه * وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه * وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه وأدرت سياجه * أتحفت بهذه النسخة منه (1) خزانة مولانا السلطان الإمام المجاهد * الفاتح

(1) قوله أتحفت بهذه النسخة منه الخ وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله أتحفت وبعد قوله وادرت سياجه ونصها التمست له الكف الذي يلح بعين الاستبصار فنونه . ويلحظ بمداركه الشريفة معياره الصحيح وقانونه. ويميز رتبته في المعارف عما دونه. فسرحت فكري في فضا الوجود. واجلت نظري ليل التمام والهجود . بين التهائم والنجود . في العلماء الركع والسجود . والخلفاء اهل الكرم والجود حتى وقف الاختيار بساحة الكمال . وطافت الافكار بموقف الامال . وظفرت ايدي المساعي والاعمال

المَاهِدِ * المتجلي مُنذُ خلع التَّمَائِمِ * وَلَوْثِ الْعَمَائِمِ * بحلى القَانِتِ الزَّاهِدِ * المُتَوَشِّحِ بِزَكَاءِ المَنَاقِبِ وَالمَحَامِدِ * وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ وَالشَّوَاهِدِ * بِأَجْمَلَ مِنَ القَلَائِدِ * فِي نُحُورِ الوَلَائِدِ * المُتَنَاوِلِ بِالعَزْمِ القَوِيِّ السَّاعِدِ * وَالجَدِّ المُوَاتِي المُسَاعِدِ * وَالمَجْدِ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ * ذَوَائِبَ مُلْكِهِمِ الرَّاسِي القَوَاعِدِ * الكَرِيمِ المَعَالِي وَالمَصَاعِدِ * جَامِعِ أَشْتَاتِ العُلُومِ وَالفَوَائِدِ * وَنَاظِمِ شَمْلِ المَعَارِفِ وَالشَّوَارِدِ * وَمُظْهِرِ الآيَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ * فِي فَضْلِ المَدَارِكِ الإِنْسَانِيَّةِ * بِفِكْرِهِ الثَّاقِبِ النَّاقِدِ * وَرَأْيِهِ الصَّحِيحِ المَعَاقِدِ * النَّيِّرِ المَذَاهِبِ وَالعَقَائِدِ * نُورِ اللهِ الوَاضِحِ المَرَاشِدِ * وَنِعْمَتِهِ العَذْبَةِ المَوَارِدِ * وَلُطْفِهِ الكَامِنِ بِالمَرَاصِدِ لِلشَّدَائِدِ * وَرَحْمَتِهِ الكَرِيمَةِ المَقَالِدِ * الَّتِي وَسِعَتْ صَلَاحَ الزَّمَانِ الفَاسِدِ * وَاسْتِقَامَةَ المَائِدِ مِنَ الأَحْوَالِ وَالعَوَائِدِ * وَذَهَبَتْ بِالخُطُوبِ الأَوَابِدِ * وَخَلَعَتْ عَلَى الزَّمَانِ رَوْنَقَ الشَّبَابِ العَائِدِ * وَحُجَّتِهِ الَّتِي لَا يُبْطِلُهَا إِنْكَارُ الجَاحِدِ وَلَا شُبُهَاتُ المُعَانِدِ * (أَمِيرِ المؤمنين) أَبِي فَارِسٍ عَبْدِ العَزِيزِ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ المُعَظَّمِ الشَّهِيرِ الشَّهِيدِ أَبِي سَالِمٍ إِبْرٰهِيمَ ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ المُقَدَّسِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ * أَبِي الحَسَنِ ابْنِ السَّادَةِ الأَعْلَامِ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرِينَ * الَّذِينَ جَدَّدُوا الدِّينَ * وَنَهَجُوا السَّبِيلَ لِلْمُهْتَدِينَ * وَمَحَوْا آثَارَ البُغَاةِ المُفْسِدِينَ * أَفَاءَ اللهُ عَلَى الأُمَّةِ ظِلَالَهُ * وَبَلَّغَهُ فِي نَصْرِ دَعْوَةِ الإِسْلَامِ آمَالَهُ * وَبَعَثْتُهُ إِلَى خِزَانَتِهِمِ المُوقَفَةِ لِطَلَبَةِ العِلْمِ بِجَامِعِ القَرَوِيِّينَ مِنْ مَدِينَةِ فَاسَ حَاضِرَةِ مُلْكِهِمْ وَكُرْسِيِّ سُلْطَانِهِمْ * حَيْثُ مَقَرُّ الهُدَى * وَرِيَاضُ المَعَارِفِ خَضِلَةُ النَّدَى * وَفَضَاءُ الأَسْرَارِ

عتندي المعارف مشرقة فيه غرر الجمال . وحدائق العلوم الوارفة الظلال . عن اليمين والشمال . فانخت مطي الافكار في عرصاتها* وجلوت محاسن الانظار على منصاتها. واتحفت بديوانها مقاصير ابوابها. واطلعته كوكباً وقاداً في افق خزانتها وصوانهــا . ليكون آية للعقلاء يهتدون بمناره : ويعرفون فضل المدارك لانسانية في آثاره . وهي خزانة مولانا السلطان المجاهد . الفاتح الماهد الى آخر النعوت المذكورة هنـا. ثم قال الخليفة امير المؤمنين المتوكل على رب العـــالمين ابو العباس احمد ابن مولانا الامير الطاهر المقدس ابي عبد الله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس امير المؤمنين . ابي يحيي ابي بكر ابن الخلفـــاء الراشدين . من أئمة الموحدين الذين جددوا الدين . ونهجوا السبل للمهتدين . ومحوا آثار البغـــاة المفسدين من المجسمة والمعتدين . سلالة ابي الحفص والفـــاروق . والنبعة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق . والنور المتلالي من تلك الاشعة والبروق . فاوردته مودعها الى العلي بحيث مقر الهـــدى . ورياض المعارف خضلة الندى. الى آخر ما ذكر هنا الا انه لم يقيد الامامة بالفارسية لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة الكتب الفارسية ولم يقل فيها ثم كانت الرحلة الى المشرق الخ .

ٱلرَّبَّانِيَّةِ فَسِيحُ ٱلْمَدَى * وَٱلْإِمَامَةُ ٱلْفَارِسِيَّةُ ٱلْكَرِيمَةُ[1] ٱلْغَرِيزَةُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ بِنَظَرِهَا ٱلشَّرِيفِ* وَفَضْلِهَا ٱلْغَنِيِّ عَنِ ٱلتَّعْرِيفِ* تَبْسُطُ لَهُ مِنَ ٱلْعِنَايَةِ مِهَادًا* وَتَفْسَحُ لَهُ فِي جَانِبِ ٱلْقَبُولِ آمَادًا* فَتُوضِحُ بِهَا أَدِلَّةً عَلَى رُسُوخِهِ وَأَشْهَادًا* فَفِي سُوقِهَا تَنْفُقُ بَضَائِعُ ٱلْكُتَّابِ وَعَلَى حَضْرَتِهَا تَعْكُفُ رَكَائِبُ ٱلْعُلُومِ وَٱلْآدَابِ * وَمِنْ مَدَدِ بَصَائِرِهَا ٱلْمُنِيرَةِ نَتَائِجُ ٱلْقَرَائِحِ وَٱلْأَلْبَابِ* وَٱللهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ نِعْمَتِهَا * وَيُوَفِّرُ لَنَا حُظُوظَ ٱلْمَوَاهِبِ مِنْ رَحْمَتِهَا وَيُعِينُنَا عَلَى حُقُوقِ خِدْمَتِهَا* وَيَجْعَلُنَا مِنَ ٱلسَّابِقِينَ فِي مَيْدَانِهَا ٱلْمُجَلِّينَ فِي حَوْمَتِهَا * وَيُضْفِي عَلَى أَهْلِ إِيَالَتِهَا * وَمَا أُوِيَ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ إِلَى حَرَمِ عَمَالَتِهَا * لَبُوسَ حِمَايَتِهَا وَحُرْمَتِهَا * وَهُوَ سُبْحَانَهُ ٱلْمَسْؤُولُ أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً فِي وِجْهَتِهَا * بَرِيئَةً مِنْ شَوَائِبِ ٱلْغَفْلَةِ وَشُبْهَتِهَا * وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من اسبابها

إِعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلتَّارِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ ٱلْمَذْهَبِ جَمُّ ٱلْفَوَائِدِ شَرِيفُ ٱلْغَايَةِ إِذْ هُوَ يُوقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ . وَٱلْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ . وَٱلْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ . حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ ٱلْاِقْتِدَاءِ فِي ذَٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ٱلْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ ٱلْمَزَلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ لِأَنَّ ٱلْأَخْبَارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ ٱلْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْأَحْوَالُ فِي ٱلْاِجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ ٱلْغَائِبُ مِنْهَا بِٱلشَّاهِدِ وَٱلْحَاضِرُ بِٱلذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ ٱلْقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ ٱلصِّدْقِ وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْمُفَسِّرِينَ وَأَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ مِنَ ٱلْمَغَالِطِ فِي ٱلْحِكَايَاتِ وَٱلْوَقَائِعِ لِٱعْتِمَادِهِمْ عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا وَلَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا وَلَا قَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ

(١) قوله الفارسية اي المنسوبة الى ابي فارس المتقدم ذكره اه

وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ وَلَا سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ وَهٰذَا كَمَا نَقَلَ ٱلْمَسْعُودِيُّ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي جُيُوشِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَحْصَاهُمْ فِي ٱلتِّيهِ بَعْدَ أَنْ أَجَازَ مَنْ يُطِيقُ حَمْلَ ٱلسِّلَاحِ خَاصَّةً مِنِ ٱبْنِ عِشْرِينَ فَمَا فَوْقَهَا فَكَانُوا سِتَّمِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَيَذْهَلُ فِي ذٰلِكَ عَنْ تَقْدِيرِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَٱتِّسَاعِهِمَا لِمِثْلِ هٰذَا ٱلْعَدَدِ مِنَ ٱلْجُيُوشِ لِكُلِّ مَمْلَكَةٍ مِنَ ٱلْمَمَالِكِ حِصَّةٌ مِنَ ٱلْحَامِيَةِ تَتَّسِعُ لَهَا وَتَقُومُ بِوَظَائِفِهَا وَتَضِيقُ عَمَّا فَوْقَهَا تَشْهَدُ بِذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱلْمَعْرُوفَةُ وَٱلْأَحْوَالُ ٱلْمَأْلُوفَةُ ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلْجُيُوشِ ٱلْبَالِغَةِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلْعَدَدِ يَبْعُدُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَحْفٌ أَوْ قِتَالٌ لِضِيقِ سَاحَةِ ٱلْأَرْضِ عَنْهَا وَبُعْدِهَا إِذَا ٱصْطَفَّتْ عَنْ مَدَى ٱلْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَزْيَدَ فَكَيْفَ يَقْتَتِلُ هٰذَانِ ٱلْفَرِيقَانِ أَوْ تَكُونُ غَلَبَةُ أَحَدِ ٱلصَّفَّيْنِ وَشَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ لَا يَشْعُرُ بِٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ وَٱلْحَاضِرُ يَشْهَدُ بِذٰلِكَ فَٱلْمَاضِي أَشْبَهُ بِٱلْآتِي مِنَ ٱلْمَاءِ بِٱلْمَاءِ . وَلَقَدْ كَانَ مُلْكُ ٱلْفُرْسِ وَدَوْلَتُهُمْ أَعْظَمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ يَشْهَدُ لِذٰلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ بُخْتَنَصَّرَ لَهُمْ وَٱلْتِهَامِهِ بِلَادَهُمْ وَٱسْتِيلَائِهِ عَلَى أَمْرِهِمْ وَتَخْرِيبِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ قَاعِدَةِ مِلَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَهُوَ مِنْ بَعْضِ عُمَّالِ مَمْلَكَةِ فَارِسَ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مَرْزُبَانُ ٱلْمَغْرِبِ مِنْ تُخُومِهَا وَكَانَتْ مَمَالِكُهُمْ بِٱلْعِرَاقَيْنِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَٱلْأَبْوَابُ أَوْسَعُ مِنْ مَمَالِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ تَبْلُغْ جُيُوشُ ٱلْفُرْسِ قَطُّ مِثْلَ هٰذَا ٱلْعَدَدِ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ وَأَعْظَمُ مَا كَانَتْ جُمُوعُهُمْ بِٱلْقَادِسِيَّةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتْبُوعٌ عَلَى مَا نَقَلَهُ سَيْفٌ قَالَ وَكَانُوا فِي أَتْبَاعِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ أَلْفٍ وَعَنْ عَائِشَةَ وَٱلزُّهْرِيِّ فَإِنَّ جُمُوعَ رُسْتُمَ ٱلَّذِينَ زَحَفَ بِهِمْ سَعْدٌ بِٱلْقَادِسِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا سِتِّينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتْبُوعٌ وَأَيْضًا فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِثْلَ هٰذَا ٱلْعَدَدِ لَاتَّسَعَ نِطَاقُ مُلْكِهِمْ وَٱنْفَسَحَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ فَإِنَّ ٱلْعِمَالَاتِ وَٱلْمَمَالِكَ فِي ٱلدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْحَامِيَةِ وَٱلْقَبِيلِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا فِي قِلَّتِهَا وَكَثْرَتِهَا حَسْبَمَا نُبَيِّنُ فِي فَصْلِ ٱلْمَمَالِكِ مِنَ ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلْقَوْمُ لَمْ تَتَّسِعْ مَمَالِكُهُمْ إِلَى غَيْرِ ٱلْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ مِنَ ٱلشَّامِ وَبِلَادِ يَثْرِبَ وَخَيْبَرَ مِنَ ٱلْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ ٱلْمَعْرُوفُ وَأَيْضًا فَٱلَّذِي بَيْنَ مُوسَى وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ٱلْمُحَقِّقُونَ فَإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ يَصْهُرَ

بن قاهت بفتح الهاء وكسرها ابن لاوي بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو إسرائيل الله هكذا نسبه في التوراة والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل إسرائيل مصر مع ولده الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً وكان مقامهم بمصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضاً إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أباً فإنه سليمان بن داود بن يشا بن عوفيذ. ويقال ابن عوفذ ابن باعز ويقال بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب ويقال حميناذاب بن رم بن حصرون ويقال حسرون بن بارس ويقال بيرس بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم إلى المئتين والآلاف فربما يكون وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة وأن مقرباته كانت ألفاً وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت إلى خرافات العامة منهم وفي أيام سليمان (عليه السلام) وملكه كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه وتفاوضوا في الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الإغراب فإذا استكشف أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجليت عوائد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونه وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطإ ولا عمد ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه ويتخذ آيات الله هزؤاً ويشتري لهو الحديث ليضل عن

سَبِيلِ لَقَوِ وَحَسْبُكَ بِهَا صَفْقَةً خَاسِرَةً وَمِنَ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْوَاهِيَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي أَخْبَارِ ٱلتَّبَابِعَةِ مُلُوكِ ٱلْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ ٱلْعَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْزُونَ مِنْ قُرَاهُمْ بِٱلْيَمَنِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْبَرْبَرِ مِنْ بِلَادِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَنَّ أَفْرِيقِشَ بْنَ قَيْسِ بْنِ صَيْفِيٍّ مِنْ أَعَاظِمِ مُلُوكِهِمِ ٱلْأُوَلِ وَكَانَ لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ غَزَا أَفْرِيقِيَّةَ وَأَثْخَنَ فِي ٱلْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ ٱلَّذِي سَمَّاهُمْ بِهَذَا ٱلِٱسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَانَتَهُمْ وَقَالَ مَا هٰذِهِ ٱلْبَرْبَرَةُ فَأُخِذَ هٰذَا ٱلِٱسْمُ عَنْهُ وَدُعُوا بِهِ مِنْ حِينَئِذٍ وَأَنَّهُ لَمَّا ٱنْصَرَفَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ حَجَزَ هُنَالِكَ قَبَائِلَ مِنْ حِمْيَرَ فَأَقَامُوا بِهَا وَٱخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا وَمِنْهُمْ صَنْهَاجَةُ وَكِتَامَةُ وَمِنْ هٰذَا ذَهَبَ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْجُرْجَانِيُّ وَٱلْمَسْعُودِيُّ وَٱبْنُ ٱلْكَلْبِيِّ وَٱلْبِيلِيُّ إِلَى أَنَّ صَنْهَاجَةَ وَكِتَامَةَ مِنْ حِمْيَرَ وَتَأْبَاهُ نَسَّابَةُ ٱلْبَرْبَرِ وَهُوَ ٱلصَّحِيحُ وَذَكَرَ ٱلْمَسْعُودِيُّ أَيْضًا أَنَّ ذَا ٱلْإِذْعَارِ مِنْ مُلُوكِهِمْ قَبْلَ أَفْرِيقِشَ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ (عليه السلام) غَزَا ٱلْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ وَكَذٰلِكَ ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَاسِرَ ٱبْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِيَ ٱلرَّمْلِ فِي بِلَادِ ٱلْمَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مَسْلَكًا لِكَثْرَةِ ٱلرَّمْلِ فَرَجَعَ وَكَذٰلِكَ يَقُولُونَ فِي تُبَّعٍ ٱلْآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرِبٍ وَكَانَ عَلَى عَهْدِ يَسْتَاسِفَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْفُرْسِ ٱلْكِيَانِيَّةِ أَنَّهُ مَلَكَ ٱلْمَوْصِلَ وَأَذْرَبِيجَانَ وَلَقِيَ ٱلتُّرْكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَثْخَنَ ثُمَّ غَزَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذٰلِكَ وَأَنَّهُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَغْزَى ثَلَاثَةً مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ وَإِلَى بِلَادِ ٱلصُّغْدِ مِنْ بِلَادِ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَإِلَى بِلَادِ ٱلرُّومِ فَمَلَكَ ٱلْأَوَّلُ ٱلْبِلَادَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَطَعَ ٱلْمَفَازَةَ إِلَى ٱلصِّينِ فَوَجَدَ أَخَاهُ ٱلثَّانِيَ ٱلَّذِي غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأَثْخَنَا فِي بِلَادِ ٱلصِّينِ وَرَجَعَا جَمِيعًا بِٱلْغَنَائِمِ وَتَرَكُوا بِبِلَادِ ٱلصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ حِمْيَرَ فَهُمْ بِهَا إِلَى هٰذَا ٱلْعَهْدِ وَبَلَغَ ٱلثَّالِثُ إِلَى قُسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَهَا وَدَوَّخَ بِلَادَ ٱلرُّومِ وَرَجَعَ وَهٰذِهِ ٱلْأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ ٱلصِّحَّةِ عَرِيقَةٌ فِي ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ وَأَشْبَهُ بِأَحَادِيثِ ٱلْقَصَصِ ٱلْمَوْضُوعَةِ . وَذٰلِكَ أَنَّ مُلْكَ ٱلتَّبَابِعَةِ إِنَّمَا كَانَ بِجَزِيرَةِ ٱلْعَرَبِ وَقَرَارُهُمْ وَكُرْسِيُّهُمْ بِصَنْعَاءِ ٱلْيَمَنِ. وَجَزِيرَةُ ٱلْعَرَبِ يُحِيطُ بِهَا ٱلْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا فَبَحْرُ ٱلْهِنْدِ مِنَ ٱلْجَنُوبِ وَبَحْرُ فَارِسَ ٱلْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى ٱلْبَصْرَةِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ وَبَحْرُ ٱلسُّوَيْسِ ٱلْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى ٱلسُّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَغْرِبِ كَمَا تَرَاهُ فِي مُصَوَّرِ ٱلْجُغْرَافِيَا فَلَا يَجِدُ ٱلسَّالِكُونَ مِنَ ٱلْيَمَنِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ طَرِيقًا مِنْ غَيْرِ ٱلسُّوَيْسِ وَٱلْمَسْلَكُ هُنَاكَ مَا بَيْنَ بَحْرِ ٱلسُّوَيْسِ وَٱلْبَحْرِ ٱلشَّامِيِّ قَدْرُ مَرْحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهَذَا ٱلْمَسْلَكِ

مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرَ مَوفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيدَ مِنْ أَعْمَالِ هٰذِهِ مُمْتَنِعٌ فِي ٱلْعَادَةِ . وَقَدْ كَانَ بِتِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْعَمَالِقَةُ وَكَنْعَانُ بِٱلشَّامِ وَٱلْقِبْطُ بِمِصْرَ ثُمَّ مَلَكَ ٱلْعَمَالِقَةُ مِصْرَ وَمَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ٱلشَّامَ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ ٱلتَّبَابِعَةَ حَارَبُوا أَحَداً مِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْأُمَمِ وَلَا مَلَكُوا شَيْئاً مِنْ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَأَيْضاً فَالشُّقَّةُ مِنَ ٱلْبَحْرِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ وَٱلْأَزْوِدَةُ وَٱلْعُلُوفَةُ لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمِ ٱحْتَاجُوا إِلَى ٱنْتِهَابِ ٱلزَّرْعِ وَٱلنَّعَمِ وَٱنْتِهَابِ ٱلْبِلَادِ فِيمَا يَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَلَا يَكْفِي ذٰلِكَ ٱلْأَزْوِدَةِ وَٱلْعُلُوفَةِ عَادَةً وَإِنْ نَقَلُوا كِفَايَتَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَا تَفِي لَهُمُ ٱلرَّوَاحِلُ بِنَقْلِهِ فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَمُرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ كُلِّهَا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكُوهَا وَدَوَّخُوهَا لِتَكُونَ ٱلْمِيرَةُ مِنْهَا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ تِلْكَ ٱلْعَسَاكِرَ تَمُرُّ بِهٰؤُلَاءِ ٱلْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهِيجَهُمْ فَتَحْصُلُ لَهُمُ ٱلْمِيرَةُ بِٱلْمُسَالَمَةِ فَذٰلِكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُّ ٱمْتِنَاعاً فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَخْبَارَ وَاهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ

وَأَمَّا وَادِي ٱلرَّمْلِ ٱلَّذِي يُعْجِزُ ٱلسَّالِكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي ٱلْمَغْرِبِ عَلَى كَثْرَةِ سَالِكِهِ وَمَنْ يَقُصُّ طُرُقَهُ مِنَ ٱلرُّكَّابِ وَٱلْقُرَى فِي كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ ٱلْغَرَابَةِ تَتَوَفَّرُ ٱلدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ . وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ ٱلشَّرْقِ وَأَرْضَ ٱلتُّرْكِ وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ ٱلسُّوَيْسِ إِلَّا أَنَّ ٱلشُّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ وَأُمَمَ فَارِسَ وَٱلرُّومِ مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ ٱلتُّرْكِ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ ٱلتَّبَابِعَةَ مَلَكُوا بِلَادَ فَارِسَ وَلَا بِلَادَ ٱلرُّومِ وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلَادِ ٱلْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ وَٱلْحِيرَةِ وَٱلْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَٱلْفُرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي ٱلْأَعْمَالِ وَقَدْ وَقَعَ ذٰلِكَ بَيْنَ ذِي ٱلْإِذْعَارِ مِنْهُمْ وَكَيكَاوُسَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْكِيَانِيَّةِ وَبَيْنَ تُبَّعٍ ٱلْأَصْغَرِ أَبِي كَرِبَ وَيَسْتَاسِفَ مِنْهُمْ أَيْضاً وَمَعَ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بَعْدَ ٱلْكِيَانِيَّةِ وَٱلسَّاسَانِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ بِمُجَاوَزَةِ أَرْضِ فَارِسَ بِٱلْغَزْوِ إِلَى بِلَادِ ٱلتُّرْكِ وَٱلتُّبَّتِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَادَةً مِنْ أَجْلِ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُعْتَرِضَةِ مِنْهُمْ وَٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْأَزْوِدَةِ وَٱلْعُلُوفَاتِ مَعَ بُعْدِ ٱلشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ فَٱلْأَخْبَارُ بِذٰلِكَ وَاهِيَةٌ مَدْخُولَةٌ وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةَ ٱلنَّقْلِ لَكَانَ ذٰلِكَ قَادِحاً فِيهَا فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ وَقَوْلُ ٱبْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرِ يَثْرِبَ وَٱلْأَوْسِ وَٱلْخَزْرَجِ أَنَّ تُبَّعاً ٱلْآخِرَ سَارَ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ مَحْمُولاً عَلَى ٱلْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَمَّا بِلَادُ ٱلتُّرْكِ وَٱلتُّبَّتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا بِوَجْهٍ لِمَا تَقَرَّرَ فَلَا تَثِقَنَّ بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ ذٰلِكَ وَتَأَمَّلِ ٱلْأَخْبَارَ وَٱعْرِضْهَا عَلَى ٱلْقَوَانِينِ

ٱلصَّحِيحَةِ يَقَعُ لَكَ تَمْحِيصُهَا بِأَحْسَنِ وَجْهٍ وَٱللَّهُ ٱلْهَادِي إِلَى ٱلصَّوَابِ

فصل

وَأَبْعَدُ مِنْ ذٰلِكَ وَأَعْرَقُ فِي ٱلْوَهْمِ مَا يَتَنَاقَلُهُ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ ٱلْفَجْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ فَيَجْعَلُونَ لَفْظَةَ إِرَمَ ٱسْماً لِمَدِينَةٍ وُصِفَتْ بِأَنَّهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَيْ أَسَاطِينَ وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ عُوصِ بْنِ إِرَمَ ٱبْنَانِ هُمَا شَدِيدٌ وَشَدَّادٌ مَلَكَا مِنْ بَعْدِهِ وَهَلَكَ شَدِيدٌ فَخَلُصَ ٱلْمُلْكُ لِشَدَّادٍ وَدَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ وَسَمِعَ وَصْفَ ٱلْجَنَّةِ فَقَالَ لَأَبْنِيَنَّ مِثْلَهَا فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي صَحَارَى عَدَنَ فِي مُدَّةِ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ عُمُرُهُ تِسْعَمِائَةِ سَنَةٍ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ قُصُورُهَا مِنَ ٱلذَّهَبِ وَأَسَاطِينُهَا مِنَ ٱلزَّبَرْجَدِ وَٱلْيَاقُوتِ وَفِيهَا أَصْنَافُ ٱلشَّجَرِ وَٱلْأَنْهَارُ ٱلْمُطَّرِدَةُ وَلَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بَعَثَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ . ذَكَرَ ذٰلِكَ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلثَّعَالِبِيُّ وَٱلزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ ٱلْمُفَسِّرِينَ وَيَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ قِلَابَةَ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَلَ مِنْهَا مَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَبَلَغَ خَبَرُهُ مُعَاوِيَةَ فَأَحْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ فَبَحَثَ عَنْ كَعْبِ ٱلْأَحْبَارِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ هِيَ إِرَمُ ذَاتُ ٱلْعِمَادِ وَسَيَدْخُلُهَا رَجُلٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ أَحْمَرُ أَشْقَرُ قَصِيرٌ عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ وَعَلَى عُنُقِهِ خَالٌ يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ فَأَبْصَرَ ٱبْنَ قِلَابَةَ فَقَالَ هٰذَا وَٱللَّهِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلُ . وَهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا خَبَرٌ مِنْ يَوْمَئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بِقَاعِ ٱلْأَرْضِ وَصَحَارَى عَدَنَ ٱلَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا بُنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسَطِ ٱلْيَمَنِ وَمَا زَالَ عُمْرَانُهُ مُتَعَاقِباً وَٱلْأَدِلَّاءُ تَقُصُّ طُرُقَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ خَبَرٌ وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنَ ٱلْإِخْبَارِيِّينَ وَلَا مِنَ ٱلْأُمَمِ وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دُرِسَتْ فِيمَا دُرِسَ مِنَ ٱلْآثَارِ لَكَانَ أَشْبَهَ إِلَّا إِنَّ ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا دِمَشْقُ بِنَاءً عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكُوهَا وَقَدْ يَنْتَهِي ٱلْهَذَيَانُ بِبَعْضِهِمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ وَإِنَّمَا يَعْثُرُ عَلَيْهَا أَهْلُ ٱلرِّيَاضَةِ وَٱلسِّحْرِ مَزَاعِمُ كُلُّهَا أَشْبَهُ بِٱلْخُرَافَاتِ وَٱلَّذِي حَمَلَ ٱلْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذٰلِكَ مَا ٱقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ ٱلْإِعْرَابِ فِي لَفْظَةِ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ أَنَّهَا صِفَةُ إِرَمَ وَحَمَلُوا ٱلْعِمَادَ عَلَى ٱلْأَسَاطِينِ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ بِنَاءً وَرَشَّحَ لَهُمْ ذٰلِكَ قِرَاءَةُ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ عَادُ إِرَمَ عَلَى ٱلْإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِٱلْأَقَاصِيصِ ٱلْمَوْضُوعَةِ ٱلَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْكَذِبِ ٱلْمَنْقُولَةِ

فِي عِدَادِ ٱلْمُضْحِكَاتِ وَإِلَّا فَٱلْعِمَادُ هِيَ عِمَادُ ٱلْأَخْبِيَةِ بَلِ ٱلْخِيَامِ وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا ٱلْأَسَاطِينُ فَلَا بِدْعَ فِي وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينَ عَلَى ٱلْعُمُومِ بِمَا ٱشْتَهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ لِأَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَإِنْ أُضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ فَعَلَى إِضَافَةِ ٱلْفَصِيلَةِ إِلَى ٱلْقَبِيلَةِ كَمَا تَقُولُ قُرَيْشُ كِنَانَةَ وَإِلْيَاسُ مُضَرَ وَرَبِيعَةُ نِزَارٍ وَأَيُّ ضَرُورَةٍ إِلَى هٰذَا ٱلْمَحْمِلِ ٱلْبَعِيدِ ٱلَّذِي تُمُحِّلَتْ لِتَوْجِيهِهِ لِأَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلْوَاهِيَةِ ٱلَّتِي يُنَزَّهُ كِتَابُ ٱللهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ ٱلصِّحَّةِ وَمِنَ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ ٱلرَّشِيدِ لِلْبَرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ ٱلْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مَوْلَاهُ وَأَنَّهُ لِكَلَفِهِ بِمَكَانِهِمَا مِنْ مُعَاقَرَتِهِ إِيَّاهُمَا ٱلْخَمْرَ أَذِنَ لَهُمَا فِي عَقْدِ ٱلنِّكَاحِ دُونَ ٱلْخَلْوَةِ حِرْصاً عَلَى ٱجْتِمَاعِهِمَا فِي مَجْلِسِهِ وَأَنَّ ٱلْعَبَّاسَةَ تَحَيَّلَتْ عَلَيْهِ فِي ٱلْتِمَاسِ ٱلْخَلْوَةِ بِهِ لِمَا شَغَفَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَهَا (زعموا في حالة السكر) فَحَمَلَتْ وَوُشِيَ بِذٰلِكَ لِلرَّشِيدِ فَٱسْتَغْضَبَ وَهَيْهَاتَ ذٰلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ٱلْعَبَّاسَةِ فِي دِينِهَا وَأَبَوَيْهَا وَجَلَالِهَا وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ هُمْ أَشْرَافُ ٱلدِّينِ وَعُظَمَاءُ ٱلْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَٱلْعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ٱلْمَهْدِيِّ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلسَّجَّادِ ٱبْنِ عَلِيٍّ أَبِي ٱلْخُلَفَاءِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ تَرْجُمَانِ ٱلْقُرْآنِ ٱبْنِ ٱلْعَبَّاسِ عَمِّ ٱلنَّبِيِّ (صلعم) ٱبْنَةُ خَلِيفَةٍ أُخْتُ خَلِيفَةٍ مَحْفُوفَةٌ بِٱلْمُلْكِ ٱلْعَزِيزِ وَٱلْخِلَافَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ وَصُحْبَةِ ٱلرَّسُولِ وَعُمُومَتِهِ وَإِقَامَةِ ٱلْمِلَّةِ وَنُورِ ٱلْوَحْيِ وَمَهْبِطِ ٱلْمَلَائِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِبِدَاوَةِ ٱلْعُرُوبِيَّةِ وَسَذَاجَةِ ٱلدِّينِ ٱلْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَمَرَاتِعِ ٱلْفَوَاحِشِ فَأَيْنَ يُطْلَبُ ٱلصَّوْنُ وَٱلْعَفَافُ إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا أَوْ أَيْنَ تُوجَدُ ٱلطَّهَارَةُ وَٱلذَّكَاءُ إِذَا فُقِدَا مِنْ بَيْتِهَا أَوْ كَيْفَ تَلْحَمُ نَسَبَهَا بِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَتُدَنِّسُ شَرَفَهَا ٱلْعَرَبِيَّ بِمَوْلًى مِنْ مَوَالِي ٱلْعَجَمِ بِمِلْكَةِ جَدِّهِ مِنَ ٱلْفُرْسِ أَوْ بِوَلَاءِ جَدِّهَا مِنْ عُمُومَةِ ٱلرَّسُولِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوْلَتُهُمْ بِضَبْعِهِ وَضَبْعِ أَبِيهِ وَٱسْتَخْلَصَتْهُمْ وَرَقَّتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ ٱلْأَشْرَافِ وَكَيْفَ يَسُوغُ مِنَ ٱلرَّشِيدِ أَنْ يُصْهِرَ إِلَى مَوَالِي ٱلْأَعَاجِمِ عَلَى بُعْدِ هِمَّتِهِ وَعِظَمِ آبَائِهِ وَلَوْ نَظَرَ ٱلْمُتَأَمِّلُ فِي ذٰلِكَ نَظَرَ ٱلْمُنْصِفِ وَقَاسَ ٱلْعَبَّاسَةَ بِٱبْنَةِ مَلِكٍ مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ لَٱسْتَنْكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ مَوْلًى مِنْ مَوَالِي دَوْلَتِهَا وَفِي سُلْطَانِ قَوْمِهَا وَٱسْتَنْكَرَهُ وَلَجَّ فِي تَكْذِيبِهِ وَأَيْنَ قَدْرُ ٱلْعَبَّاسَةِ وَٱلرَّشِيدِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنَّمَا نَكَبَ ٱلْبَرَامِكَةَ مَا كَانَ مِنِ ٱسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَٱحْتِجَافِهِمْ

أموالَ الجِبايَةِ حتّى كانَ الرَّشيدُ يطلُبُ اليسيرَ مِنَ المالِ فلا يصِلُ إليهِ فغلبوهُ على أمرِهِ وشاركوهُ في سُلطانِهِ ولَمْ يكُنْ لهُ معهُمْ تصرُّفٌ في أمورِ مُلكِهِ فعظُمَتْ آثارُهُمْ وبعُدَ صيتُهُمْ وعمَّروا مراتِبَ الدَّولةِ وخِطَطَها بالرُّؤساءِ مِنْ وُلدِهِمْ وصنائعِهِمْ واحتازوها عمَّنْ سواهُم مِنْ وزارةٍ وكتابةٍ وقيادةٍ وحِجابةٍ وسيفٍ وقلمٍ. يُقالُ إنَّهُ كانَ بدارِ الرَّشيدِ مِنْ وُلدِ يحيى بنِ خالدٍ خمسةٌ وعشرونَ رئيساً مِنْ بينِ صاحبِ سيفٍ وصاحبِ قلمٍ زاحموا فيها أهلَ الدَّولةِ بالمناكبِ ودفعوهُم عنها بالرَّاحِ لمكانِ أبيهِمْ يحيى مِنْ كفالةِ هارونَ وليِّ عهدٍ وخليفةً حتّى شبَّ في حِجرِهِ ودرجَ مِنْ عُشِّهِ وغلبَ على أمرِهِ وكانَ يدعوهُ يا أبتِ فتوجَّهَ الإيثارُ مِنَ السُّلطانِ إليهِمْ وعظُمَتِ الدّالَّةُ منهُمْ وانبسطَ الجاهُ عندَهُمْ وانصرفَتْ نحوَهُمُ الوجوهُ وخضعَتْ لهُمُ الرِّقابُ وقُصِرَتْ عليهِمُ الآمالُ وتخطَّتْ إليهِمْ مِنْ أقصى التُّخومِ هدايا الملوكِ وتُحَفُ الأمراءِ وتسرَّبَتْ إلى خزائنِهِمْ في سبيلِ التَّزلُّفِ والاستمالةِ أموالُ الجِبايةِ وأفاضوا في رجالِ الشِّيعةِ وعُظماءِ القرابةِ العطاءَ وطوَّقوهُمُ المِنَنَ وكسبوا مِنْ بيوتاتِ الأشرافِ المُعدَمَ وفكّوا العانيَ ومُدِحوا بما لَمْ يُمدَحْ بهِ خليفتُهُمْ وأسنَوا لِعُفاتِهِمُ الجوائزَ والصِّلاتِ واستولَوا على القُرى والضِّياعِ مِنَ الضَّواحي والأمصارِ في سائرِ الممالكِ حتّى أسفُوا البطانةَ وأحقدوا الخاصَّةَ وأغصّوا أهلَ الولايةِ فكُشِفَتْ لهُمْ وجوهُ المنافسةِ والحسدِ ودبَّتْ إلى مِهادِهِمُ الوثيرِ مِنَ الدَّولةِ عقاربُ السِّعايةِ حتّى لقدْ كانَ بنو قحطبةَ أخوالُ جعفرٍ مِنْ أعظمِ السّاعينَ عليهِمْ لَمْ تعطِفْهُمْ لِما وقرَ في نفوسِهِمْ مِنَ الحسدِ عواطفُ الرَّحمِ ولا وزعَتْهُمْ أواصرُ القرابةِ وقارنَ ذلكَ عندَ مخدومِهِمْ نواشئُ الغيرةِ والاستنكافِ مِنَ الحَجْرِ والأنفةِ وكانَ الحقودُ الّتي بعثَتْها منهُمْ صغائرُ الدّالَّةِ وانتهى بها الإصرارُ على شأنِهِمْ إلى كبائرِ المخالفةِ كقصَّتِهِمْ في يحيى بنِ عبدِ اللهِ بنِ حسنِ بنِ الحسنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ أخي محمَّدٍ المهديِّ الملقَّبِ بالنَّفسِ الزَّكيَّةِ الخارجِ على المنصورِ ويحيى هذا هوَ الّذي استنزلَهُ الفضلُ بنُ يحيى مِنْ بلادِ الدَّيلمِ على أمانِ الرَّشيدِ بخطِّهِ وبذلَ لهُمْ فيهِ ألفَ ألفِ درهمٍ على ما ذكرَهُ الطَّبريُّ ودفعَهُ الرَّشيدُ إلى جعفرٍ وجعلَ اعتقالَهُ بدارِهِ وإلى نظرِهِ فحبسَهُ مدَّةً ثُمَّ حملَتْهُ الدّالَّةُ على تخليةِ سبيلِهِ والاستبدادِ بحلِّ عِقالِهِ حرماً لدماءِ أهلِ البيتِ بزعمِهِ ودالَّةً على السُّلطانِ في حُكمِهِ. وسألَهُ الرَّشيدُ عنهُ لمّا وُشِيَ بهِ إليهِ ففطِنَ وقالَ أطلقتُهُ فأبدى لهُ وجهَ

الاستحسان وأسرّها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثُلّ عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد عم جده داود بن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقد في محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تتفهم أنه إنما قتلتهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيّل به أعداؤهم من البطانة فيما دسّوه للمغنين من الشعر احتيالاً على إسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله

لَيتَ هِنداً أنجزتنا ما تعِدْ وشفت أنفسنا مما نجدْ

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وإن الرشيد لما سمعها قال إي والله إني عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال * وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها * حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحج عاماً ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ وما لي لا أعبد الذي فطرني وقال والله ما أدري لم فما تمالك الرشيد أن ضحك ثم التفت إليه مغضباً وقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً إياك إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما وأيضاً فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن إنما خلفه غلاماً وقد كان أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف الموطإ يا أبا عبد الله

إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ ٱلْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلَتْنِي ٱلْخِلَافَةُ فَضَعْ أَنْتَ لِلنَّاسِ كِتَاباً يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَجَنَّبْ فِيهِ رُخَصَ ٱبْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ٱبْنِ عُمَرَ وَوَطِّئْهُ لِلنَّاسِ تَوْطِئَةً قَالَ مَالِكٌ فَوَٱللَّهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي ٱلتَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ٱبْنُهُ ٱلْمَهْدِيُّ أَبُو ٱلرَّشِيدِ هٰذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كُسْوَةِ ٱلْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ ٱلْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْماً وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يُبَاشِرُ ٱلْخَيَّاطِينَ فِي إِرْقَاعِ ٱلْخُلْقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ فَٱسْتَنْكَفَ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ ذٰلِكَ وَقَالَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ كُسْوَةُ هٰذِهِ ٱلْعِيَالِ عَامَنَا هٰذَا مِنْ عَطَائِي فَقَالَ لَهُ لَكَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ وَلَا سَمَحَ بِٱلْإِنْفَاقِ فِيهِ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِٱلرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ ٱلْعَهْدِ مِنْ هٰذَا ٱلْخَلِيفَةِ وَأُبُوَّتِهِ وَمَا رُبِّيَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلسِّيَرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ ٱلْخَمْرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا وَقَدْ كَانَتْ حَالَةُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي ٱجْتِنَابِ ٱلْخَمْرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ يَكُنِ ٱلْكَرْمُ شَجَرَتَهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذَمَّةً عِنْدَ ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ وَٱلرَّشِيدُ وَآبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى ثَبَجٍ مِنِ ٱجْتِنَابِ ٱلْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَٱلتَّخَلُّقِ بِٱلْمَحَامِدِ وَأَوْصَافِ ٱلْكَمَالِ وَنَزَعَاتِ ٱلْعَرَبِ * وَٱنْظُرْ مَا نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْمَسْعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جِبْرِيلَ بْنِ بَخْتَيْشُوعَ ٱلطَّبِيبِ حِينَ أُحْضِرَ لَهُ ٱلسَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ ٱلْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَفَطِنَ ٱلرَّشِيدُ وَٱرْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمَهُ حَتَّى عَايَنَهُ يَتَنَاوَلُهُ فَأَعَدَّ ٱبْنُ بَخْتَيْشُوعَ لِلِٱعْتِذَارِ ثَلَاثَ قِطَعٍ مِنَ ٱلسَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ إِحْدَاهَا بِٱللَّحْمِ ٱلْمُعَالَجِ بِٱلتَّوَابِلِ وَٱلْبُقُولِ وَٱلْبَوَارِدِ وَٱلْحَلْوَى وَصَبَّ عَلَى ٱلثَّانِيَةِ مَاءً مُثَلَّجاً وَعَلَى ٱلثَّالِثَةِ خَمْراً صِرْفاً وَقَالَ فِي ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي هٰذَا طَعَامُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنْ خَلَطَ ٱلسَّمَكَ بِغَيْرِهِ أَوْ لَمْ يَخْلِطْهُ وَقَالَ فِي ٱلثَّالِثِ هٰذَا طَعَامُ ٱبْنِ بَخْتَيْشُوعَ وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ ٱلْمَائِدَةِ حَتَّى إِذَا ٱنْتَبَهَ ٱلرَّشِيدُ وَأَحْضَرَهُ لِلتَّوْبِيخِ أَحْضَرَ ثَلَاثَةَ ٱلْأَقْدَاحِ فَوَجَدَ صَاحِبَ ٱلْخَمْرِ قَدِ ٱخْتَلَطَ وَأَمَاعَ وَتَفَتَّتَ وَوَجَدَ ٱلْآخَرَيْنِ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا فَكَانَتْ لَهُ فِي ذٰلِكَ مَعْذِرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ حَالَ ٱلرَّشِيدِ فِي ٱجْتِنَابِ ٱلْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بِطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ وَلَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهِدَ بِحَبْسِ أَبِي نُوَاسٍ لِمَا بَلَغَهُ مِنِ ٱنْهِمَاكِهِ فِي ٱلْمُعَاقَرَةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ وَإِنَّمَا كَانَ ٱلرَّشِيدُ يَشْرَبُ نَبِيذَ ٱلتَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ وَفَتَاوِيهِمْ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ وَأَمَّا ٱلْخَمْرُ ٱلصِّرْفُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى ٱتِّهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدِ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْوَاهِيَةِ فِيهَا فَلَمْ يَكُنِ ٱلرَّجُلُ بِحَيْثُ يُوَاقِعُ مُحَرَّماً مِنْ أَكْبَرِ ٱلْكَبَائِرِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمِلَّةِ وَلَقَدْ كَانَ

أُولَئِكَ ٱلْقَوْمُ كَأَنَّهُمْ بِمَنْجَاةٍ مِنِ ٱرْتِكَابِ ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّرَفِ فِي مَلاَبِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ مُتَنَاوَلاَتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ ٱلْبِدَاوَةِ وَسَذَاجَةِ ٱلدِّينِ ٱلَّتِي لَمْ يُفَارِقُوهَا بَعْدُ فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ ٱلْإِبَاحَةِ إِلَى ٱلْحَظْرِ وَعَنِ ٱلْحِلَّةِ إِلَى ٱلْحُرْمَةِ وَلَقَدِ ٱتَّفَقَ ٱلْمُؤَرِّخُونَ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْمَسْعُودِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي ٱلْعَبَّاسِ إِنَّمَا كَانُوا يَرْكَبُونَ بِٱلْحِلْيَةِ ٱلْخَفِيفَةِ مِنَ ٱلْفِضَّةِ فِي ٱلْمَنَاطِقِ وَٱلسُّيُوفِ وَٱللُّجُمِ وَٱلسُّرُوجِ وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ أَحْدَثَ ٱلرُّكُوبَ بِحِلْيَةِ ٱلذَّهَبِ هُوَ ٱلْمُعْتَزُّ بْنُ ٱلْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ ٱلْخُلَفَاءِ بَعْدَ ٱلرَّشِيدِ وَهٰكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضاً فِي مَلاَبِسِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ وَيَتَبَيَّنُ ذٰلِكَ بِأَتَمَّ مِنْ هَذَا إِذَا فَهِمْتَ طَبِيعَةَ ٱلدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلْغَضَاضَةِ كَمَا نَشْرَحُ فِي مَسَائِلِ ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ وَٱللهُ ٱلْهَادِي إِلَى ٱلصَّوَابِ. وَيُنَاسِبُ هَذَا أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قَاضِي ٱلْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ وَأَنَّهُ كَانَ يُعَاقِرُ ٱلْخَمْرَ وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرْبِهِ فَدُفِنَ فِي ٱلرَّيْحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشِدُونَ عَلَى لِسَانِهِ

يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ ... قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي

إِنِّي غَفَلْتُ عَنِ ٱلسَّاقِي فَصَيَّرَنِي ... كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ ٱلْعَقْلِ وَٱلدِّينِ

وَحَالُ ٱبْنِ أَكْثَمَ وَٱلْمَأْمُونِ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ ٱلرَّشِيدِ وَشَرَابُهُمْ إِنَّمَا كَانَ ٱلنَّبِيذَ وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُوراً عِنْدَهُمْ وَأَمَّا ٱلسُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا كَانَتْ خِلَّةً فِي ٱلدِّينِ وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي ٱلْبَيْتِ وَنُقِلَ فِي فَضَائِلِ ٱلْمَأْمُونِ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ أَنَّهُ ٱنْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَطْشَانَ فَقَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَلْتَمِسُ ٱلْإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ يُوقِظَ يَحْيَى ٱبْنَ أَكْثَمَ وَثَبَتَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ ٱلصُّبْحَ جَمِيعاً فَأَيْنَ هَذَا مِنَ ٱلْمُعَاقَرَةِ وَأَيْضاً فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ عِلْيَةِ أَهْلِ ٱلْحَدِيثِ وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ ٱلْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْمَاعِيلُ ٱلْقَاضِي وَخَرَّجَ عَنْهُ ٱلتِّرْمِذِيُّ كِتَابَهُ ٱلْجَامِعَ وَذَكَرَ ٱلْمُزَنِيُّ ٱلْحَافِظُ أَنَّ ٱلْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ ٱلْجَامِعِ فَٱلْقَدْحُ فِيهِ قَدْحٌ فِي جَمِيعِهِمْ وَكَذَلِكَ مَا يَنْبِزُهُ ٱلْمُجَّانُ بِٱلْمَيْلِ إِلَى ٱلْغِلْمَانِ بُهْتَاناً عَلَى ٱللهِ وَفِرْيَةً عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ وَيَسْتَنِدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخْبَارِ ٱلْقُصَّاصِ ٱلْوَاهِيَةِ ٱلَّتِي لَعَلَّهَا مِنِ ٱفْتِرَاءِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّهُ كَانَ مَحْسُوداً فِي كَمَالِهِ وَخِلَّتِهِ لِلسُّلْطَانِ وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ مُنَزَّهاً عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ وَقَدْ ذُكِرَ لِٱبْنِ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ ٱلنَّاسُ فَقَالَ سُبْحَانَ ٱللهِ سُبْحَانَ ٱللهِ وَمَنْ يَقُولُ هَذَا وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَاراً شَدِيداً وَأَثْنَى

عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ ٱلْقَاضِي فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَاذَ ٱللهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَةُ مِثْلِهِ بِتَكْذِيبِ بَاغٍ وَحَاسِدٍ وَقَالَ أَيْضاً يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ أَبْرَأُ إِلَى ٱللهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ ٱلْغِلْمَانِ وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ ٱلْخَوْفِ مِنَ ٱللهِ لَكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خُلُقٍ فَرُمِيَ بِمَا رُمِيَ بِهِ ٱبْنُ حَبَّانَ فِي ٱلثِّقَاتِ وَقَالَ لَا يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لِأَنَّ أَكْثَرَهَا لَا يَصِحُّ عَنْهُ وَمِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ مَا نَقَلَهُ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ ٱلْعِقْدِ مِنْ حَدِيثِ ٱلزَّنْبِيلِ فِي سَبَبِ إِصْهَارِ ٱلْمَأْمُونِ إِلَى ٱلْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ فِي بِنْتِهِ بُورَانَ وَأَنَّهُ عَثَرَ فِي بَعْضِ ٱللَّيَالِي فِي تَطْوَافِهِ بِسِكَكِ بَغْدَادَ فِي زَنْبِيلٍ مُدَلًّى مِنْ بَعْضِ ٱلسُّطُوحِ بِمَعَالِقَ وَجُدُلٍ مُغَارَةِ ٱلْفَتْلِ مِنَ ٱلْحَرِيرِ فَٱعْتَقَدَهُ وَتَنَاوَلَ ٱلْمَعَالِقَ فَٱهْتَزَّتْ وَذَهَبَ بِهِ صُعُداً إِلَى مَجْلِسٍ شَأْنُهُ كَذَا وَوَصَفَ مِنْ زِينَةِ فُرُشِهِ وَتَنْضِيدِ أَبْنِيَتِهِ وَجَمَالِ رُؤْيَتِهِ مَا يَسْتَوْقِفُ ٱلطَّرْفَ وَيَمْلِكُ ٱلنَّفْسَ وَأَنَّ ٱمْرَأَةً بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلَلِ ٱلسُّتُورِ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَجْلِسِ رَائِقَةَ ٱلْجَمَالِ فَتَّانَةَ ٱلْمَحَاسِنِ فَحَيَّتْهُ وَدَعَتْهُ إِلَى ٱلْمُنَادَمَةِ فَلَمْ يَزَلْ يُعَاقِرُهَا ٱلْخَمْرَ حَتَّى ٱلصَّبَاحِ وَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِمَكَانِهِمْ مِنِ ٱنْتِظَارِهِ وَقَدْ شَغَفَتْهُ حُبًّا بَعَثَهُ عَلَى ٱلْإِصْهَارِ إِلَى أَبِيهَا وَأَيْنَ هٰذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ ٱلْمَأْمُونِ ٱلْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ وَعِلْمِهِ وَٱقْتِفَائِهِ سُنَنَ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ وَأَخْذِهِ بِسِيَرِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْأَرْبَعَةِ أَرْكَانِ ٱلْمِلَّةِ وَمُنَاظَرَتِهِ ٱلْعُلَمَاءَ وَحِفْظِهِ لِحُدُودِ ٱللهِ تَعَالَى فِي صَلَوَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ فَكَيْفَ تَصِحُّ عَنْهُ أَحْوَالُ ٱلْفُسَّاقِ ٱلْمُسْتَهْتِرِينَ [1] فِي ٱلتَّطْوَافِ بِٱللَّيْلِ وَطُرُوقِ ٱلْمَنَازِلِ وَغِشْيَانِ ٱلسَّمَرِ سَبِيلَ عُشَّاقِ ٱلْأَعْرَابِ وَأَيْنَ ذٰلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ٱبْنَةِ ٱلْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ بِدَارِ أَبِيهَا مِنَ ٱلصَّوْنِ وَٱلْعَفَافِ وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ وَفِي كُتُبِ ٱلْمُؤَرِّخِينَ مَعْرُوفَةٌ وَإِنَّمَا يَبْعَثُ عَلَى وَضْعِهَا وَٱلْحَدِيثِ بِهَا ٱلْاِنْهِمَاكُ فِي ٱللَّذَّاتِ ٱلْمُحَرَّمَةِ وَهَتْكِ قِنَاعِ ٱلْمُخَدَّرَاتِ وَيَتَعَلَّلُونَ بِٱلتَّأَسِّي بِٱلْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونَهُ مِنْ طَاعَةِ لَذَّاتِهِمْ فَلِذٰلِكَ تَرَاهُمْ كَثِيراً مَا يَلْهَجُونَ بِأَشْبَاهِ هٰذِهِ ٱلْأَخْبَارِ وَيَنْقُرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَفُّحِهِمْ لِأَوْرَاقِ ٱلدَّوَاوِينِ وَلَوِ ٱئْتَسَوْا بِهِمْ فِي غَيْرِ هٰذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصِفَاتِ ٱلْكَمَالِ ٱللَّائِقَةِ بِهِمِ ٱلْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَذَلْتُ يَوْماً بَعْضَ ٱلْأُمَرَاءِ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلْمُلُوكِ فِي كَلَفِهِ بِتَعَلُّمِ ٱلْغِنَاءِ وَوَلُوعِهِ بِٱلْأَوْتَارِ وَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ هٰذَا مِنْ شَأْنِكَ وَلَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِكَ فَقَالَ لِي أَفَلَا

(١) المستهتر بالشيء بالفتح المولع به لا يبالي بما فعل فيه وشتم له والذي كثرت اباطيله اه قاموس

ترى إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له يا سبحان الله وهلا تأسيت بأبيه أو أخيه أو ما رأيت كيف قعد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي وأعرض والله يهدي من يشاء . ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفاً إليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفنناً في الشمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدإ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعي بكتامة الرضى من آل محمد واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم خشيا على أنفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأنهما خرجا من الاسكندرية في زي التجار ونمي خبرهما إلى عيسى النوشري عامل مصر والاسكندرية فسرح في طلبهما الخيالة حتى إذا أدركا خفي حالهما على تابعهما بما لبسوا به من الشارة والزي فأفلتوا إلى المغرب وأن المعتضد أوعز إلى الأغالبة أمراء أفريقيا بالقيروان وبني مدرار أمراء سجلماسة بأخذ الآفاق عليهما وإذكاء العيون في طلبهما فعثر أليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل أن تظهر الشيعة على الأغالبة بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وأفريقية ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز وقاسموا بني العباس في ممالك الإسلام شق الأبلمة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويزايلون من أمرهم ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الأمير البساسيري من موالي الديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس في مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم وخطب لهم على منابرها حولاً كاملاً وما زال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بني أمية وراء البحر ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعي في النسب يكذب في انتحال الأمر واعتبر حال القرمطي إذ كان دعياً في

انْتِسَابِهِ كَيْفَ تَلَاشَتْ دَعْوَتُهُ وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ وَظَهَرَ سَرِيعاً عَلَى خُبْثِهِمْ وَمَكْرِهِمْ فَسَاءَتْ عَاقِبَتُهُمْ وَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَوْ كَانَ أَمْرُ الْعُبَيْدِيِّينَ بِذَلِكَ لَعُرِفَ وَلَوْ بَعْدَ مُهْلَةٍ

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ   وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

فَقَدِ اتَّصَلَتْ دَوْلَتُهُمْ نَحْواً مِنْ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَمَلَكُوا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُصَلَّاهُ وَمَوْطِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَدْفَنَهُ وَمَوْقِفَ الْحَجِيجِ وَمَهْبِطَ الْمَلَائِكَةِ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَشِيعَتُهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى أَتَمِّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُمْ وَالْحُبِّ فِيهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ بِنَسَبِ الْإِمَامِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَلَقَدْ خَرَجُوا مِرَاراً بَعْدَ ذَهَابِ الدَّوْلَةِ وَدُرُوسِ أَثَرِهَا دَاعِينَ إِلَى بِدْعَتِهِمْ هَاتِفِينَ بِأَسْمَاءِ صِبْيَانٍ مِنْ أَعْقَابِهِمْ يَزْعُمُونَ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِلْخِلَافَةِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَعْيِينِهِمْ بِالْوَصِيَّةِ مِمَّنْ سَلَفَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَلَوِ ارْتَابُوا فِي نَسَبِهِمْ لَمَا رَكِبُوا أَعْنَاقَ الْأَخْطَارِ فِي الِانْتِصَارِ لَهُمْ فَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ لَا يُلَبِّسُ فِي أَمْرِهِ وَلَا يُشَبِّهُ فِي بِدْعَتِهِ وَلَا يُكَذِّبُ نَفْسَهُ فِيمَا يَنْتَحِلُهُ وَالْعَجَبُ مِنَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِيِّ شَيْخِ النُّظَّارِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ كَيْفَ يَجْنَحُ إِلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ الْمَرْجُوحَةِ وَيَرَى هَذَا الرَّأْيَ الضَّعِيفَ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِلْحَادِ فِي الدِّينِ وَالتَّعَمُّقِ فِي الرَّافِضِيَّةِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ فِي صَدْرِ دَعْوَتِهِمْ وَلَيْسَ إِثْبَاتُ مُنْتَسَبِهِمْ بِالَّذِي يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً فِي كُفْرِهِمْ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَأْنِ ابْنِهِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَاطِمَةَ يَعِظُهَا يَا فَاطِمَةُ اعْمَلِي فَلَنْ أُغْنِيَ عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَمَتَى عَرَفَ امْرُؤٌ قَضِيَّةً أَوِ اسْتَيْقَنَ أَمْراً وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْدَعَ بِهِ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ وَالْقَوْمُ كَانُوا فِي مَجَالِ لِظُنُونِ الدُّوَلِ بِهِمْ وَتَحْتَ رِقْبَةٍ مِنَ الطُّغَاةِ لِتَوَفُّرِ شِيعَتِهِمْ وَانْتِشَارِهِمْ فِي الْقَاصِيَةِ بِدَعْوَتِهِمْ وَتَكَرُّرِ خُرُوجِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَلَاذَتْ رِجَالَاتُهُمْ بِالِاخْتِفَاءِ وَلَمْ يَكَادُوا يُعْرَفُونَ كَمَا قِيلَ

فَلَوْ تَسْأَلِ الْأَيَّامَ مَا اسْمِيَ مَا دَرَتْ   وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِيَا

حَتَّى لَقَدْ سُمِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامُ جَدُّ عُبَيْدِ اللهِ الْمَهْدِيِّ بِالْمَكْتُومِ سَمَّتْهُ بِذَلِكَ شِيعَتُهُمْ لِمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْفَائِهِ حَذَراً مِنَ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِمْ فَتَوَصَّلَ شِيعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِهِمْ إِلَى الطَّعْنِ فِي نَسَبِهِمْ وَازْدَلَفُوا بِهَذَا الرَّأْيِ الْقَائِلِ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ

منْ خلفائهم وأُعجِبَ بهِ أولياؤُهمْ وأُمراءُ دولتِهِم المتوالونَ لجرو بهمْ مع الأعداء يدفعونَ بِهِ عَنْ أنفسِهِمْ وسُلطانِهِمْ معرّةَ العجزِ عنِ المقاومةِ والمدافعةِ لِمَنْ غلبهُم على الشّام ومِصرَ والحجازِ مِنَ البربرِ الكتامينَ شيعةَ العُبيدِيينَ وأهلِ دعوتِهِمْ حتّى لقدْ أسجلَ القُضاةُ ببغدادَ بنفيِهِمْ عنْ هذا النّسبِ وشهِدَ بذلكَ عِندهُم منْ أعلامِ النّاسِ جماعةٌ منهُمُ الشّريفُ الرّضيُّ وأخوهُ المرتضى وابنُ البطحاويِّ ومنَ العُلماءِ أبو حامدٍ الإسفرايينيُّ والقُدوريُّ والصّيمريُّ وابنُ الأكفانيِّ والأبيورديُّ وأبو عبدِ اللهِ بنُ النُّعمانِ فقيهُ الشّيعةِ وغيرُهُمْ منْ أعلامِ الأُمّةِ ببغدادَ في يومٍ مشهودٍ وذلكَ سنةَ ستّينَ وأربعمائةٍ في أيّامِ القادرِ وكانتْ شهادتُهُمْ في ذلكَ على السّماعِ لما اشتهرَ وعُرِفَ بينَ النّاسِ ببغدادَ وغالبُها شيعةُ بني العبّاسِ الطّاعنونَ في هذا النّسبِ فنقلَهُ الأخباريّونَ كما سمعوهُ ورووهُ حسبما وعوهُ والحقُّ منْ ورائهِ وفي كتابِ المعتضدِ في شأنِ عُبيدِ اللهِ إلى ابنِ الأغلبِ بالقيروانِ وابنِ مدرارٍ بسجلماسةَ أصدقُ شاهدٍ وأوضحُ دليلٍ على صحّةِ نسبِهِمْ فالمعتضدُ أقعدُ بنسبِ أهلِ البيتِ منْ كلِّ أحدٍ والدّولةُ والسّلطانُ سوقٌ للعالَمِ تُجلَبُ إليهِ بضائعُ العلومِ والصّنائعِ وتُلتمسُ فيهِ ضوالُّ الحِكَمِ وتُحدى إليهِ ركائبُ الرّواياتِ والأخبارِ وما نفقَ فيها نفقَ عندَ الكافّةِ فإنْ تنزّهتِ الدّولةُ عنِ التّعسّفِ والميلِ والأفنِ والسّفسفةِ وسلكتِ النّهجَ الأممَ ولمْ تجُرْ (1) عنْ قصدِ السّبيلِ نفقَ في سوقِها الإبريزُ الخالصُ واللُّجينُ المصفّى وإنْ ذهبتْ معَ الأغراضِ والحقودِ وماجتْ بسماسرةِ البغيِ والباطلِ نفقَ البهرجُ والزّائفُ والنّاقدُ البصيرُ قسطاسُ نظرِهِ وميزانُ بحثِهِ وملتمسِهِ ومثلُ هذا وأبعدُ منهُ كثيراً ما يتناجى بهِ الطّاعنونَ في نسبِ إدريسَ بنِ إدريسَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ حسنِ بنِ الحسنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ (رضوان الله عليهم) الإمامِ بعدَ أبيهِ بالمغربِ الأقصى ويُعرّضونَ تعريضَ الحدِّ بالتّظنّنِ في الحملِ المخلّفِ عنْ إدريسَ الأكبرِ إنّهُ لراشدٍ مولاهُمْ قبّحهُمُ اللهُ وأبعدَهُمْ ما أجهلَهُمْ أما يعلمونَ أنّ إدريسَ الأكبرَ كانَ إصهارُهُ في البربرِ وأنّهُ منذُ دخلَ المغربَ إلى أنْ توفّاهُ اللهُ عزّ وجلّ عريقٌ في البدوِ وأنّ حالَ الباديةِ في مثلِ ذلكَ غيرُ خافيةٍ إذْ لا مكامنَ لهُمْ يتأتّى فيها الرّيبُ وأحوالُ حُرَمِهِمْ أجمعينَ بمرأى منْ جاراتِهِنّ ومسمعٍ منْ جيرانِهِنّ لتلاصُقِ الجدرانِ وتطامُنِ البُنيانِ وعدمِ الفواصلِ بينَ المساكنِ وقدْ كانَ راشدٌ يتولّى

(1) قوله ولم تجر بضم الجيم مضارع جار اي لم تمل اه

خدمة الحرم أجمع من بعد مولاه بمشهد من أوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم وقد اتفق برابرة المغرب الأقصى عامة على بيعة أدريس الأصغر من بعد أبيه وآتوه طاعتهم عن رضى وإصفاق وبايعوه على الموت الأحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته. ولو حدثوا أنفسهم بمثل هذه الريبة أو قرعت أسماعهم ولو من عدو كاشح أو منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم كلا والله إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس أقتالهم ومن بني الأغلب عمالهم كانوا بأفريقية وولاتهم وذلك أنه لما فر أدريس الأكبر إلى المغرب من وقعة فخ أوعز الهادي إلى الأغالبة أن يقعدوا له بالمراصد ويذكوا عليه العيون فلم يظفروا به وخلص إلى المغرب فتم أمره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الاسكندرية من دسيسة التشيع للعلوية وإدهانه في نجاة أدريس إلى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالي المهدي أبيه للتحيل على قتل أدريس فأظهر اللحاق به والبراءة من بني العباس مواليه فاشتمل عليه أدريس وخلطه بنفسه وناوله الشماخ في بعض خلواته سماً استهلكه به ووقع خبر مهلكه من بني العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولما تأدى إليهم خبر الحمل المخلف لأدريس فلم يكن لهم إلا كلا ولا وإذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بأدريس بن أدريس قد تجددت فكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام وكان الفشل والهرم قد نزلا بدولة العرب عن أن يسموا إلى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على أدريس الأكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه إلا التحيل في إهلاكه بالسموم فعند ذلك فزعوا إلى أوليائهم من الأغالبة بأفريقية في سد تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل أن تشج منهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الأغالبة عن برابرة المغرب الأقصى أعجز ولمثلها من الزبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من انتزاء مماليك العجم على سدتها وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها وجبايتها وأهل خططها وسائر نقضها وإبرامها كما قال شاعرهم

خليفةٌ في قفص ٍ بينَ وَصيفٍ وَبغَا
يقولُ ما قالَا لَهُ كمَا تقولُ البَبغَا

فخشيَ هؤلاء الأمراءُ الأغالبةُ بوادرَ السِّعاياتِ وتلَوْا بالمعاذيرِ فطوراً باحتقارِ المغربِ وأهلهِ وطوراً بالإرهابِ بشأنِ أدريسَ الخارجِ بهِ ومَنْ قامَ مقامَهُ منْ أعقابهِ يخاطبونَهُمْ بتجاوزهِ حدودَ التخومِ منْ عملهِ ويُنفذونَ سكَّتَهُ في تُحفِهِمْ وهداياهُمْ ومُرتفعِ جباياتِهِمْ تعريضاً باستفحالهِ وتهويلاً باشتداءِ شوكتهِ وتعظيماً لما دُفعوا إليهِ منْ مطالبتهِ ومراسهِ وتهديداً بقلبِ الدعوةِ إنْ أُلجئوا إليهِ وطوراً يطعنونَ في نسبِ أدريسَ بمثلِ ذلكَ الطعنِ الكاذبِ تخفيضاً لشأنهِ لا يبالونَ بصدقهِ منْ كذبهِ لبعدِ المسافةِ وأفنِ عقولِ مَنْ خلفَ منْ صبيةِ بني العباسِ ومماليكِهِمْ العجمِ في القبولِ منْ كلِّ قائلٍ والسمعِ لكلِّ ناعقٍ ولمْ يزلْ هذا دأبُهُمْ حتَّى انقضى أمرُ الأغالبةِ فقرعتْ هذهِ الكلمةُ الشنعاءُ أسماعَ الغوغاءِ وصرَّ عليها بعضُ الطاعنينَ أذنَهُ واعتدَّها ذريعةً إلى النيلِ منْ خلفِهِمْ عندَ المنافسةِ وما لهُمْ قبَّحهُمُ اللهُ والعدولَ عنْ مقاصدِ الشريعةِ فلا تعارضَ فيها بينَ المقطوعِ والمظنونِ وأدريسُ وُلدَ على فراشِ أبيهِ والولدُ للفراشِ على أنَّ تنزيهَ أهلِ البيتِ عنْ مثلِ هذا منْ عقائدِ أهلِ الإيمانِ فاللهُ سبحانهُ قدْ أذهبَ عنهُمُ الرجسَ وطهَّرهُمْ تطهيراً ففراشُ أدريسَ طاهرٌ منَ الدنسِ ومنزَّهٌ عنِ الرجسِ بحكمِ القرآنِ ومَنِ اعتقدَ خلافَ هذا فقدْ باءَ بإثمهِ وولجَ الكفرَ منْ بابهِ وإنَّما أطنبتُ في هذا الردِّ سدّاً لأبوابِ الريبِ ودفعاً في صدرِ الحاسدِ لما سمعتْهُ أذنايَ منْ قائلهِ المعتدي عليهِمِ القادحِ في نسبِهِمْ بفريتهِ وينقلُهُ بزعمهِ عنْ بعضِ مؤرخي المغربِ ممَّنِ انحرفَ عنْ أهلِ البيتِ وارتابَ في الإيمانِ بسلفِهِمْ وإلاَّ فالمحلُّ منزَّهٌ عنْ ذلكَ معصومٌ منهُ ونفيُ العيبِ حيثُ يستحيلُ العيبُ عيبٌ لكنِّي جادلتُ عنهُمْ في الحياةِ الدنيا وأرجو أنْ يجادلوا عنِّي يومَ القيامةِ ولتعلمَ أنَّ أكثرَ الطاعنينَ في نسبِهِمْ إنَّما هُمُ الحسدةُ لأعقابِ أدريسَ هذا منْ منتمٍ إلى أهلِ البيتِ أوْ دخيلٍ فيهِمْ فإنَّ ادِّعاءَ هذا النسبِ الكريمِ دعوى شرفٍ عريضةٌ على الأممِ والأجيالِ منْ أهلِ الآفاقِ فتعرضُ التهمةُ فيهِ ولمَّا كانَ نسبُ بني أدريسَ هؤلاءِ بمواطنِهِمْ منْ فاسٍ وسائرِ ديارِ المغربِ قدْ بلغَ منَ الشهرةِ والوضوحِ مبلغاً لا يكادُ يُلحقُ ولا يطمعُ أحدٌ في

مَدْرَكِه إذْ هُوَ نَقْلُ ٱلأُمَّةِ وَٱلْجِيلِ مِنَ ٱلْخَلَفِ عَنِ ٱلأُمَّةِ وَٱلْجِيلِ مِنَ ٱلسَّلَفِ وَبَيْتُ جَدِّهِم أَدْرِيسَ مُخْتَطِّ فَاسَ وَمُؤَسِّسِهَا مِنْ بُيُوتِهِمْ وَمَسْجِدُهُ لِصْقُ مَحَلَّتِهِمْ وَدُرُوبِهِمْ وَسَيْفُهُ مُنْتَضىً بِرَأْسِ ٱلمَأْذَنَةِ ٱلعُظْمَى مِنْ قَرَارِ بَلَدِهِمْ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ مِنْ آثَارِهِ ٱلَّتِي جَاوَزَتْ أَخْبَارُهَا حُدُودَ ٱلتَّوَاتُرِ مَرَّاتٍ وَكَادَتْ تَلْحَقُ بِٱلْعِيَانِ فَإِذَا نَظَرَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلنَّسَبِ إِلَى مَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ أَمْثَالِهَا وَمَا عَضَدَ شَرَفَهُمُ ٱلنَّبَوِيَّ مِنْ جَلاَلِ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي كَانَ لِسَلَفِهِمْ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱسْتَيْقَنَ أَنَّهُ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذٰلِكَ وَأَنَّهُ لاَ يَبْلُغُ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ وَأَنَّ غَايَةَ أَمْرِ ٱلْمُنْتَمِينَ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْكَرِيمِ مِمَّنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ أَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلشَّوَاهِدِ أَنْ يُسَلَّمَ لَهُمْ حَالُهُمْ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَبَوْنٌ مَا بَيْنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلظَّنِّ وَٱلْيَقِينِ وَٱلتَّسْلِيمِ فَإِذَا عَلِمَ بِذٰلِكَ مِنْ نَفْسِهِ غَصَّ بِرِيقِهِ وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَوْ يَرُدُّونَهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذٰلِكَ سُوقَةً وَوُضَعَاءَ (١) حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى ٱلْعِنَادِ وَٱرْتِكَابِ ٱللَّجَاجِ وَٱلْبُهْتِ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلطَّعْنِ ٱلْفَائِلِ وَٱلْقَوْلِ ٱلْمَكْذُوبِ تَعَلُّلاً بِٱلْمُسَاوَاةِ فِي ٱلظِّنَّةِ وَٱلْمُشَابَهَةِ فِي تَطَرُّقِ ٱلاِحْتِمَالِ وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ فِي ٱلْمَغْرِبِ فِيمَا نَعْلَمُهُ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلْكَرِيمِ مَنْ يَبْلُغُ فِي صَرَاحَةِ نَسَبِهِ وَوُضُوحِهِ مَبَالِغَ أَعْقَابِ أَدْرِيسَ هٰذَا مِنْ آلِ ٱلْحَسَنِ وَكُبَرَاؤُهُمْ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بَنُو عِمْرَانَ بِفَاسَ مِنْ وُلْدِ يَحْيَى ٱلْجُوطِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى ٱلْعَوَّامِ بْنِ ٱلْقَاسِمِ بْنِ أَدْرِيسَ بْنِ أَدْرِيسَ وَهُمْ نُقَبَاءُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ هُنَاكَ وَٱلسَّاكِنُونَ بِبَيْتِ جَدِّهِمْ أَدْرِيسَ وَلَهُمُ ٱلسِّيَادَةُ عَلَى أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ كَافَّةً حَسْبَمَا نَذْكُرُهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْأَدَارِسَةِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى وَيُلْحَقُ بِهٰذِهِ ٱلْمَقَالاَتِ ٱلْفَاسِدَةِ وَٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفَائِلَةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ ضَعَفَةُ ٱلرَّأْيِ مِنْ فُقَهَاءِ ٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْقَدْحِ فِي ٱلْإِمَامِ ٱلْمَهْدِيِّ صَاحِبِ دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَنِسْبَتِهِ إِلَى ٱلشَّعْوَذَةِ وَٱلتَّلْبِيسِ فِيمَا أَتَاهُ مِنَ ٱلْقِيَامِ بِٱلتَّوْحِيدِ ٱلْحَقِّ وَٱلنَّعْيِ عَلَى أَهْلِ ٱلْبَغْيِ قَبْلَهُ وَتَكْذِيبِهِمْ لِجَمِيعِ مُدَّعَيَاتِهِ فِي ذٰلِكَ حَتَّى فِيمَا يَزْعُمُ ٱلْمُوَحِّدُونَ أَتْبَاعُهُ مِنِ ٱنْتِسَابِهِ فِي أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَإِنَّمَا حَمَلَ ٱلْفُقَهَاءَ عَلَى تَكْذِيبِهِ مَا كَمَنَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ حَسَدِهِ عَلَى شَأْنِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُنَاهَضَتَهُ فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْفُتْيَا وَفِي ٱلدِّينِ بِزَعْمِهِمْ ثُمَّ ٱمْتَازَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُ مَتْبُوعُ ٱلرَّأْيِ مَسْمُوعُ ٱلْقَوْلِ مَوْطُوءُ ٱلْعَقِبِ نَفِسُوا ذٰلِكَ عَلَيْهِ وَغَضُّوا مِنْهُ بِٱلْقَدْحِ فِي مَذَاهِبِهِ وَٱلتَّكْذِيبِ لِمُدَّعَيَاتِهِ وَأَيْضاً فَكَانُوا يُؤْنِسُونَ مِنْ

(١) قوله ووضعاء بضم الواو جمع وضيع اه

مُلوكِ ٱلمُتُونَةِ أَعدَائِهِ تَجِلَّةً وَكَرَامَةً لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسَّذَاجَةِ وَٱنْتِحَالِ ٱلدِّيَانَةِ فَكَانَ لِحَمَلَةِ ٱلعِلْمِ بِدَوْلَتِهِمْ مَكَانٌ مِنَ ٱلوَجَاهَةِ وَٱلِانْتِصَابِ لِلشُّورَى كُلٌّ فِي بَلَدِهِ وَعَلَى قَدْرِهِ فِي قَوْمِهِ فَأَصْبَحُوا بِذٰلِكَ شِيعَةً لَهُمْ وَحَرْباً لِعَدُوِّهِمْ وَنَقَمُوا عَلَى ٱلمَهْدِيِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ خِلَافِهِمْ وَٱلتَّثْرِيبِ عَلَيْهِمْ وَٱلمُنَاصَبَةِ لَهُمْ تَشَيُّعاً لِلْمُتُونَةِ وَتَعَصُّباً لِدَوْلَتِهِمْ وَمَكَانُ ٱلرَّجُلِ غَيْرُ مَكَانِهِمْ وَحَالُهُ عَلَى غَيْرِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ نَقَمَ عَلَى أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ مَا نَقَمَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَخَالَفَ ٱجْتِهَادَهُ فُقَهَاؤُهُمْ فَنَادَى فِي قَوْمِهِ وَدَعَا إِلَى جِهَادِهِمْ بِنَفْسِهِ فَٱقْتَلَعَ ٱلدَّوْلَةَ مِنْ أُصُولِهَا وَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا أَعْظَمَ مَا كَانَتْ قُوَّةً وَأَشَدَّ شَوْكَةً وَأَعَزَّ أَنْصَاراً وَحَامِيَةً وَتَسَاقَطَتْ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَتْبَاعِهِ نُفُوسٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا خَالِقُهَا قَدْ بَايَعُوهُ عَلَى ٱلمَوْتِ وَوَقَوْهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلهَلَكَةِ وَتَقَرَّبُوا إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِإِتْلَافِ مُهَجِهِمْ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ ٱلدَّعْوَةِ وَٱلتَّعَصُّبِ لِتِلْكَ ٱلكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى ٱلكَلِمِ. وَدَالَتْ بِٱلعُدْوَتَيْنِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَهُوَ بِحَالَةٍ مِنَ ٱلتَّقَشُّفِ وَٱلحَصْرِ وَٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلمَكَارِهِ وَٱلتَّقَلُّلِ مِنَ ٱلدُّنْيَا حَتَّى قَبَضَهُ ٱللهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ ٱلحَظِّ وَٱلمَتَاعِ فِي دُنْيَاهُ حَتَّى ٱلوَلَدُ ٱلَّذِي رُبَّمَا تَجْنَحُ إِلَيْهِ ٱلنُّفُوسُ وَتَخَادَعَ عَنْ تَمَنِّيهِ فَلَيْتَ شِعْرِي مَا ٱلَّذِي قَصَدَ بِذٰلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَجْهَ ٱللهِ وَهُوَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَظٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا فِي عَاجِلِهِ وَمَعَ هٰذَا فَلَوْ كَانَ قَصْدُهُ غَيْرَ صَالِحٍ لَمَا تَمَّ أَمْرُهُ وَٱنْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ سُنَّةَ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَأَمَّا إِنْكَارُهُمْ نَسَبَهُ فِي أَهْلِ ٱلبَيْتِ فَلَا تَعْضُدُهُ حُجَّةٌ لَهُمْ مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ ٱدَّعَاهُ وَٱنْتَسَبَ إِلَيْهِ فَلَا دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى بُطْلَانِهِ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ مُصَدَّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إِنَّ ٱلرِّئَاسَةَ لَا تَكُونُ عَلَى قَوْمٍ فِي غَيْرِ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَمَا هُوَ ٱلصَّحِيحُ حَسْبَمَا يَأْتِي فِي ٱلفَصْلِ ٱلأَوَّلِ مِنْ هٰذَا ٱلكِتَابِ وَٱلرَّجُلُ قَدْ رَأَسَ سَائِرَ ٱلمَصَامِدَةِ وَدَانُوا بِٱتِّبَاعِهِ وَٱلِانْقِيَادِ إِلَيْهِ وَإِلَى عِصَابَتِهِ مِنْ هَرْغَةَ حَتَّى تَمَّ أَمْرُ ٱللهِ فِي دَعْوَتِهِ فَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلنَّسَبَ ٱلفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرُ ٱلمَهْدِيِّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وَلَا ٱتَّبَعَهُ ٱلنَّاسُ بِسَبَبِهِ وَإِنَّمَا كَانَ ٱتِّبَاعُهُمْ لَهُ بِعَصَبِيَّةِ ٱلهَرْغِيَّةِ وَٱلمَصْمُودِيَّةِ وَمَكَانِهِ مِنْهَا وَرُسُوخِ شَجَرَتِهِ فِيهَا وَكَانَ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبُ ٱلفَاطِمِيُّ خَفِيّاً قَدْ دُرِسَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَبَقِيَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ عَشِيرَتِهِ يَتَنَاقَلُونَهُ بَيْنَهُمْ فَيَكُونُ ٱلنَّسَبُ ٱلأَوَّلُ كَأَنَّهُ ٱنْسَلَخَ مِنْهُ وَلَبِسَ جِلْدَةَ هٰؤُلَاءِ وَظَهَرَ فِيهَا فَلَا يَضُرُّهُ ٱلِانْتِسَابُ ٱلأَوَّلُ فِي عَصَبِيَّتِهِ إِذْ هُوَ مَجْهُولٌ عِنْدَ أَهْلِ ٱلعِصَابَةِ وَمِثْلُ هٰذَا وَاقِعٌ كَثِيراً إِذَا كَانَ ٱلنَّسَبُ ٱلأَوَّلُ خَفِيّاً وَٱنْظُرْ

قِصَّةَ عَرْفَجَةَ وَجَرِيرٍ فِي رِئَاسَةِ بَجِيلَةَ وَكَيْفَ كَانَ عَرْفَجَةُ مِنَ ٱلْأَزْدِ وَأَلْبَسَ جِلْدَةَ بَجِيلَةَ حَتَّى تَنَازَعَ مَعَ جَرِيرٍ رِئَاسَتَهُم عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ تَتَفَهَّمُ مِنْهُ وَجْهَ ٱلْحَقِّ وَٱللهُ ٱلْهَادِي لِلصَّوَابِ وَقَدْ كِدْنَا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ غَرَضِ ٱلْكِتَابِ بِٱلْإِطْنَابِ فِي هَذِهِ ٱلْمَغَالِطِ فَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَثْبَاتِ وَٱلْمُؤَرِّخِينَ ٱلْحُفَّاظِ فِي مِثْلِ هَذِهِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱلْآرَاءِ وَعَلِقَتْ أَفْكَارُهُمْ وَنَقَلَهَا عَنْهُمُ ٱلْكَافَّةُ مِنْ ضَعَفَةِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضاً كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَٱنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ فَنُّ ٱلتَّارِيخِ وَاهِياً مُخْتَلِطاً وَنَاظِرُهُ مُرْتَبِكاً وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي ٱلْعَامَّةِ فَإِذاً يَحْتَاجُ صَاحِبُ هَذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْبِقَاعِ وَٱلْأَعْصَارِ فِي ٱلسِّيَرِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْعَوَائِدِ وَٱلنِّحَلِ وَٱلْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْإِحَاطَةِ بِٱلْحَاضِرِ مِنْ ذَلِكَ وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْغَائِبِ مِنَ ٱلْوِفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ ٱلْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَٱلْمُخْتَلِفِ وَٱلْقِيَامِ عَلَى أُصُولِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْمِلَلِ وَمَبَادِئِ ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا وَأَحْوَالِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِباً لِأَسْبَابِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينَئِذٍ يَعْرِضُ خَبَرَ ٱلْمَنْقُولِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ وَٱلْأُصُولِ فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحاً وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَٱسْتَغْنَى عَنْهُ وَمَا ٱسْتَكْبَرَ ٱلْقُدَمَاءُ عِلْمَ ٱلتَّارِيخِ إِلَّا لِذَلِكَ حَتَّى ٱنْتَحَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْبُخَارِيُّ وَٱبْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأُمَّةِ وَقَدْ ذَهَلَ ٱلْكَثِيرُ عَنْ هَذَا ٱلسِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ ٱنْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً وَٱسْتَخَفَّ ٱلْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي ٱلْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَٱلْخَوْضَ فِيهِ وَٱلتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ وَٱللُّبَابُ بِٱلْقِشْرِ وَٱلصَّادِقُ بِٱلْكَاذِبِ وَإِلَى ٱللهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ وَمِنَ ٱلْغَلَطِ ٱلْخَفِيِّ فِي ٱلتَّارِيخِ ٱلذُّهُولُ عَنْ تَبَدُّلِ ٱلْأَحْوَالِ فِي ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ بِتَبَدُّلِ ٱلْأَعْصَارِ وَمُرُورِ ٱلْأَيَّامِ وَهُوَ دَاءٌ دَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْخَفَاءِ إِذْ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ فَلَا يَكَادُ يَتَفَطَّنُ لَهُ إِلَّا ٱلْآحَادُ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَلِيقَةِ وَذَلِكَ أَنَّ أَحْوَالَ ٱلْعَالَمِ وَٱلْأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنِحَلَهُمْ لَا تَدُومُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَاجٍ مُسْتَقِرٍّ إِنَّمَا هُوَ ٱخْتِلَافٌ عَلَى ٱلْأَيَّامِ وَٱلْأَزْمِنَةِ وَٱنْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي ٱلْأَشْخَاصِ وَٱلْأَوْقَاتِ وَٱلْأَمْصَارِ فَكَذَلِكَ يَقَعُ فِي ٱلْآفَاقِ وَٱلْأَقْطَارِ وَٱلْأَزْمِنَةِ وَٱلدُّوَلِ سُنَّةُ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَقَدْ كَانَتْ فِي ٱلْعَالَمِ أُمَمُ ٱلْفُرْسِ ٱلْأُولَى وَٱلسِّرْيَانِيُّونَ

وَٱلنَّبطُ وَٱلتَّبَابِعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَٱلْقِبْطُ وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دُوَلِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَٱصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشَارَكَاتِهِمْ مَعَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ وَأَحْوَالُ ٱعْتِمَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثَارُهُمْ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمِ ٱلْفُرْسُ ٱلْأُولَى وَٱلرُّومُ وَٱلْعَرَبُ فَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالُ وَٱنْقَلَبَتْ بِهَا ٱلْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا أَوْ يُشَابِهُهَا وَإِلَى مَا يُبَايِنُهَا أَوْ يُبَاعِدُهَا ثُمَّ جَاءَ ٱلْإِسْلَامُ بِدَوْلَةِ مُضَرَ فَٱنْقَلَبَتْ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالُ أَجْمَعُ ٱنْقِلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارَفٌ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ يَأْخُذُهُ ٱلْخَلَفُ عَنِ ٱلسَّلَفِ ثُمَّ دَرَسَتْ دَوْلَةُ ٱلْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَتِ ٱلْأَسْلَافُ ٱلَّذِينَ شَيَّدُوا عِزَّهُمْ وَمَهَّدُوا مُلْكَهُمْ وَصَارَ ٱلْأَمْرُ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ ٱلْعَجَمِ مِثْلِ ٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلْفَرَنْجَةِ بِٱلشَّمَالِ فَذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَمٌ وَٱنْقَلَبَتْ أَحْوَالٌ وَعَوَائِدُ نُسِيَ شَأْنُهَا وَأُغْفِلَ أَمْرُهَا وَٱلسَّبَبُ ٱلشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْعَوَائِدِ أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي ٱلْأَمْثَالِ ٱلْحِكَمِيَّةِ ٱلنَّاسُ عَلَى دِينِ ٱلْمَلِكِ وَأَهْلُ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ إِذَا ٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْأَمْرِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَفْزَعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَيَأْخُذُونَ ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفِلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ ٱلدَّوْلَةِ بَعْضُ ٱلْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ ٱلْجِيلِ ٱلْأَوَّلِ فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَفَتْ أَيْضاً بَعْضَ ٱلشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلْأُولَى أَشَدَّ مُخَالَفَةً ثُمَّ لَا يَزَالُ ٱلتَّدْرِيجُ فِي ٱلْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْمُبَايَنَةِ بِٱلْجُمْلَةِ فَمَا دَامَتِ ٱلْأُمَمُ وَٱلْأَجْيَالُ تَتَعَاقَبُ فِي ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ ٱلْمُخَالَفَةُ فِي ٱلْعَوَائِدِ وَٱلْأَحْوَالِ وَاقِعَةً وَٱلْقِيَاسُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلْإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنَ ٱلْغَلَطِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ تُخْرِجُهُ مَعَ ٱلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ عَنْ قَصْدِهِ وَتَعْوَجُّ بِهِ عَنْ مَرَامِهِ فَرُبَّمَا يَسْمَعُ ٱلسَّامِعُ كَثِيراً مِنْ أَخْبَارِ ٱلْمَاضِينَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغَيُّرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱنْقِلَابِهَا فَيُجْرِيهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَيَقِيسُهَا بِمَا شَهِدَ وَقَدْ يَكُونُ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيراً فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ ٱلْغَلَطِ فَمِنْ هَذَا ٱلْبَابِ مَا يَنْقُلُهُ ٱلْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْحَجَّاجِ وَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُعَلِّمِينَ مَعَ أَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمَعَاشِيَّةِ ٱلْبَعِيدَةِ مِنِ ٱعْتِزَازِ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلْمُعَلِّمُ مُسْتَضْعَفٌ مِسْكِينٌ مُنْقَطِعُ ٱلْجِذْمِ (1) فَيَتَشَوَّفُ ٱلْكَثِيرُ مِنَ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلِ ٱلْحِرَفِ وَٱلصَّنَائِعِ

(1) الجذم الاصل اه قاموس

ٱلْمَعَاشِيَّةِ إِلَى نَيْلِ ٱلرُّتَبِ ٱلَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلٍ وَيَعُدُّونَهَا مِنَ ٱلْمُمْكِنَاتِ لَهُمْ فَتَذْهَبُ بِهِمْ وَسَاوِسُ ٱلْمَطَامِعِ وَرُبَّمَا ٱنْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاةِ ٱلْهَلَكَةِ وَٱلتَّلَفِ وَلَا يَعْلَمُونَ ٱسْتِحَالَتَهَا فِي حَقِّهِمْ وَأَنَّهُمْ أَهْلُ حِرَفٍ وَصَنَائِعَ لِلْمَعَاشِ وَأَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ وَٱلدَّوْلَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِٱلْجُمْلَةِ صِنَاعَةً إِنَّمَا كَانَ نَقْلًا لِمَا سُمِعَ مِنَ ٱلشَّارِعِ وَتَعْلِيمًا لِمَا جُهِلَ مِنَ ٱلدِّينِ عَلَى جِهَةِ ٱلْبَلَاغِ فَكَانَ أَهْلُ ٱلْأَنْسَابِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّذِينَ قَامُوا بِٱلْمِلَّةِ هُمُ ٱلَّذِينَ يُعَلِّمُونَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَعْنَى ٱلتَّبْلِيغِ ٱلْخَبَرِيِّ لَا عَلَى وَجْهِ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلصِّنَاعِيِّ إِذْ هُوَ كِتَابُهُمُ ٱلْمُنَزَّلُ عَلَى ٱلرَّسُولِ مِنْهُمْ وَبِهِ هِدَايَاتُهُمْ وَٱلْإِسْلَامُ دِينُهُمْ قَاتَلُوا عَلَيْهِ وَقُتِلُوا وَٱخْتَصُّوا بِهِ مِنْ بَيْنِ ٱلْأُمَمِ وَشُرِّفُوا فَيَحْرِصُونَ عَلَى تَبْلِيغِ ذَلِكَ وَتَفْهِيمِهِ لِلْأُمَّةِ لَا تَصُدُّهُمْ عَنْهُ لَائِمَةُ ٱلْكِبْرِ وَلَا يَزَعُهُمْ عَاذِلُ ٱلْأَنَفَةِ وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ بَعْثُ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبَارَ أَصْحَابِهِ مَعَ وُفُودِ ٱلْعَرَبِ يُعَلِّمُونَهُمْ حُدُودَ ٱلْإِسْلَامِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ ٱلدِّينِ بَعَثَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِهِ ٱلْعَشَرَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ فَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ ٱلْإِسْلَامُ وَوَشَجَتْ عُرُوقُ ٱلْمِلَّةِ حَتَّى تَنَاوَلَهَا ٱلْأُمَمُ ٱلْبَعِيدَةُ مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا وَٱسْتَحَالَتْ بِمُرُورِ ٱلْأَيَّامِ أَحْوَالُهَا وَكَثُرَ ٱسْتِنْبَاطُ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنُّصُوصِ لِتَعَدُّدِ ٱلْوَقَائِعِ وَتَلَاحُقِهَا فَٱحْتَاجَ ذَلِكَ لِقَانُونٍ يَحْفَظُهُ مِنَ ٱلْخَطَإِ وَصَارَ ٱلْعِلْمُ مَلَكَةً يَحْتَاجُ إِلَى ٱلتَّعَلُّمِ فَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْحِرَفِ كَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي فَصْلِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ وَٱشْتَغَلَ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِٱلْقِيَامِ بِٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ فَدُفِعَ لِلْعِلْمِ مَنْ قَامَ بِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَصْبَحَ حِرْفَةً لِلْمَعَاشِ وَشَمَخَتْ أُنُوفُ ٱلْمُتْرَفِينَ وَأَهْلِ ٱلسُّلْطَانِ عَنِ ٱلتَّصَدِّي لِلتَّعْلِيمِ وَٱخْتَصَّ ٱنْتِحَالُهُ بِٱلْمُسْتَضْعَفِينَ وَصَارَ مُنْتَحِلُهُ مُحْتَقَرًا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلْمُلْكِ وَٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ كَانَ أَبُوهُ مِنْ سَادَاتِ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافِهِمْ وَمَكَانُهُمْ مِنْ عَصَبِيَّةِ ٱلْعَرَبِ وَمُنَاهَضَةِ قُرَيْشٍ فِي ٱلشَّرَفِ مَا عَلِمْتَ وَلَمْ يَكُنْ تَعْلِيمُهُ لِلْقُرْآنِ عَلَى مَا هُوَ ٱلْأَمْرُ عَلَيْهِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ مِنْ أَنَّهُ حِرْفَةٌ لِلْمَعَاشِ وَإِنَّمَا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنَ ٱلْأَمْرِ ٱلْأَوَّلِ فِي ٱلْإِسْلَامِ وَمِنْ هَذَا ٱلْبَابِ أَيْضًا مَا يَتَوَهَّمُهُ ٱلْمُتَصَفِّحُونَ لِكُتُبِ ٱلتَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ ٱلْقُضَاةِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلرِّيَاسَةِ فِي ٱلْحُرُوبِ وَقَوْدِ ٱلْعَسَاكِرِ فَتَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوِسُ ٱلْهِمَمِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ ٱلرُّتَبِ يَحْسَبُونَ أَنَّ ٱلشَّأْنَ خُطَّةُ ٱلْقَضَاءِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَيَظُنُّونَ بِٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ صَاحِبِ

هِشَامٍ ٱلْمُسْتَبِدِّ عَلَيْهِ وَٱبْنِ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بِإِشْبِيلِيَّةَ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا قُضَاةً أَنَّهُمْ مِثْلُ ٱلْقُضَاةِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلَا يَتَفَطَّنُونَ لِمَا وَقَعَ فِي رُتْبَةِ ٱلْقَضَاءِ مِنْ مُخَالَفَةِ ٱلْعَوَائِدِ كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي فَصْلِ ٱلْقَضَاءِ مِنَ ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ وَٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ وَٱبْنُ عَبَّادٍ كَانَا مِنْ قَبَائِلِ ٱلْعَرَبِ ٱلْقَائِمِينَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَأَهْلِ عَصَبِيَّتِهَا وَكَانَ مَكَانُهُمْ فِيهَا مَعْلُوماً وَلَمْ يَكُنْ نَيْلُهُمْ لِمَا نَالُوهُ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلْمُلْكِ بِخُطَّةِ ٱلْقَضَاءِ كَمَا هِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بَلْ إِنَّمَا كَانَ ٱلْقَضَاءُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْقَدِيمِ لِأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنْ قَبِيلِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَوَالِيهَا كَمَا هِيَ ٱلْوِزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِٱلْمَغْرِبِ وَٱنْظُرْ خُرُوجَهُمْ بِٱلْعَسَاكِرِ فِي ٱلطَّوَائِفِ وَتَقْلِيدَهُمْ عَظَائِمَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي لَا تُقَلَّدُ إِلَّا لِمَنْ لَهُ ٱلْغِنَى فِيهَا بِٱلْعَصَبِيَّةِ فَيَغْلَطُ ٱلسَّامِعُ فِي ذٰلِكَ وَيَحْمِلُ ٱلْأَحْوَالَ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِي هٰذَا ٱلْغَلَطِ ضُعَفَاءُ ٱلْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ لِفِقْدَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي مَوَاطِنِهِمْ مُنْذُ أَعْصَارٍ بَعِيدَةٍ بِفَنَاءِ ٱلْعَرَبِ وَدَوْلَتِهِمْ بِهَا وَخُرُوجِهِمْ عَنْ مَلَكَةِ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ [1] مِنَ ٱلْبَرْبَرِ فَبَقِيَتْ أَنْسَابُهُمُ ٱلْعَرَبِيَّةُ مَحْفُوظَةً وَٱلذَّرِيعَةُ إِلَى ٱلْعِزِّ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلتَّنَاصُرِ مَفْقُودَةً بَلْ صَارُوا مِنْ جُمْلَةِ ٱلرَّعَايَا ٱلْمُتَخَاذِلِينَ ٱلَّذِينَ تَعَبَّدَهُمُ ٱلْقَهْرُ وَرَئِمُوا لِلْمَذَلَّةِ يَحْسَبُونَ أَنَّ أَنْسَابَهُمْ مَعَ مُخَالَطَةِ ٱلدَّوْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ لَهُمْ بِهَا ٱلْغَلَبُ وَٱلتَّحَكُّمُ فَتَجِدُ أَهْلَ ٱلْحِرَفِ وَٱلصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَصَدِّينَ لِذٰلِكَ سَاعِينَ فِي نَيْلِهِ فَأَمَّا مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ وَدُوَلَهُمْ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ وَكَيْفَ يَكُونُ ٱلتَّغَلُّبُ بَيْنَ ٱلْأُمَمِ وَٱلْعَشَائِرِ فَقَلَّمَا يَغْلَطُونَ فِي ذٰلِكَ وَيُخْطِئُونَ فِي ٱعْتِبَارِهِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ أَيْضاً مَا يَسْلُكُهُ ٱلْمُؤَرِّخُونَ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلدُّوَلِ وَنَسَقِ مُلُوكِهَا فَيَذْكُرُونَ ٱسْمَهُ وَنَسَبَهُ وَأَبَاهُ وَأُمَّهُ وَنِسَاءَهُ وَلَقَبَهُ وَخَاتَمَهُ وَقَاضِيَهُ وَحَاجِبَهُ وَوَزِيرَهُ كُلُّ ذٰلِكَ تَقْلِيدٌ لِمُؤَرِّخِي ٱلدَّوْلَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَفَطُّنٍ لِمَقَاصِدِهِمْ وَٱلْمُؤَرِّخُونَ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ كَانُوا يَضَعُونَ

(١) العصبية بفتحتين التعصب وهو ان يذب الرجل عن حريم صاحبه ويشمر عن ساق الجد في نصره منسوبة الى العصبة محركة وهم اقارب الرجل من قبل ابيه لانهم هم القابون عن حريم من هو منتهاهم. وهي بهذا المعنى ممدوحة واما العصبية المذمومة في الحديث الجامع الصغير ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية فهي تعصب رجال لقبيلة على رجال لقبيلة اخرى لغير ديانة كما كان يقع من قيام سعد على حرام نسبة الى العصبة بمعنى قوم الرجل الذين يتعصبون له ولو من غير اقاربه ظالماً كان او مظلوماً وفي الفتاوي الخيرية من موانع قبول الشهادة العصبية وهي ان يبغض الرجل الرجل لأنه من بني فلان او من قبيلة كذا والوجه في ذلك ظاهر وهو ارتكاب المحرم ففي الحديث ليس منا من دعا الى عصبية وهو موجب للفسق ولا شهادة لمرتكبه . قاله الاستاذ ابو الوفاء . اهـ

تَوَارِيخُهُمْ لِأَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَبْنَاؤُهَا مُتَشَوِّفُونَ إِلَى سِيَرِ أَسْلَافِهِمْ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ لِيَقْتَفُوا آثَارَهُمْ وَيَنْسِجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ حَتَّى فِي ٱصْطِنَاعِ ٱلرِّجَالِ مِنْ خَلَفِ دَوْلَتِهِمْ وَتَقْلِيدِ ٱلْخِطَطِ وَٱلْمَرَاتِبِ لِأَبْنَاءِ صَنَائِعِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَٱلْقُضَاةُ أَيْضاً كَانُوا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّةِ ٱلدَّوْلَةِ وَفِي عِدَادِ ٱلْوُزَرَاءِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ لَكَ فَيَحْتَاجُونَ إِلَى ذِكْرِ ذَٰلِكَ كُلِّهِ وَأَمَّا حِينَ تَبَايَنَتِ ٱلدُّوَلُ وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ ٱلْعُصُورِ وَوَقَفَ ٱلْغَرَضُ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱلْمُلُوكِ بِأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً وَنَسَبِ ٱلدُّوَلِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فِي قُوَّتِهَا وَغَلَبَتِهَا وَمَنْ كَانَ يُنَاهِضُهَا مِنَ ٱلْأُمَمِ أَوْ يُقَصِّرُ عَنْهَا فَمَا ٱلْفَائِدَةُ لِلْمُصَنِّفِ فِي هٰذَا ٱلْعَهْدِ فِي ذِكْرِ ٱلْأَبْنَاءِ وَٱلنِّسَاءِ وَنَقْشِ ٱلْخَاتَمِ وَٱللَّقَبِ وَٱلْقَاضِي وَٱلْوَزِيرِ وَٱلْحَاجِبِ مِنْ دَوْلَةٍ قَدِيمَةٍ لَا يُعْرَفُ فِيهَا أُصُولُهُمْ وَلَا أَنْسَابُهُمْ وَلَا مَقَامَاتُهُمْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَٰلِكَ ٱلتَّقْلِيدُ وَٱلْغَفْلَةُ عَنْ مَقَاصِدِ ٱلْمُؤَلِّفِينَ ٱلْأَقْدَمِينَ وَٱلذُّهُولُ عَنْ تَحَرِّي ٱلْأَغْرَاضِ مِنَ ٱلتَّارِيخِ ٱللّٰهُمَّ إِلَّا ذِكْرَ ٱلْوُزَرَاءِ ٱلَّذِينَ عَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَعَفَتْ عَنِ ٱلْمُلُوكِ أَخْبَارُهُمْ كَٱلْحَجَّاجِ وَبَنِي ٱلْمُهَلَّبِ وَٱلْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتَ وَكَافُورٍ ٱلْأَخْشِيدِيِّ وَٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ فَغَيْرُ نَكِيرٍ ٱلْإِلْمَاعُ بِآبَائِهِمْ وَٱلْإِشَارَةُ إِلَى أَحْوَالِهِمْ لِٱنْتِظَامِهِمْ فِي عِدَادِ ٱلْمُلُوكِ. وَلْنَذْكُرْ هُنَا فَائِدَةً نَخْتِمُ كَلَامَنَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ بِهَا وَهِيَ أَنَّ ٱلتَّارِيخَ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْخَاصَّةِ بِعَصْرٍ أَوْ جِيلٍ فَأَمَّا ذِكْرُ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْعَامَّةِ لِلْآفَاقِ وَٱلْأَجْيَالِ وَٱلْأَعْصَارِ فَهُوَ أُسٌّ لِلْمُؤَرِّخِ تَنْبَنِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَقَاصِدِهِ وَتَتَبَيَّنُ بِهِ أَخْبَارُهُ وَقَدْ كَانَ ٱلنَّاسُ يُفْرِدُونَهُ بِٱلتَّأْلِيفِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ فِي كِتَابِ مُرُوجِ ٱلذَّهَبِ شَرَحَ فِيهِ أَحْوَالَ ٱلْأُمَمِ وَٱلْآفَاقِ لِعَهْدِهِ فِي عَصْرِ ٱلثَّلَاثِينَ وَٱلثَّلَاثِمِائَةِ غَرْباً وَشَرْقاً وَذَكَرَ نِحَلَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ وَوَصَفَ ٱلْبُلْدَانَ وَٱلْجِبَالَ وَٱلْبِحَارَ وَٱلْمَمَالِكَ وَٱلدُّوَلَ وَفَرَّقَ شُعُوبَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ فَصَارَ إِمَاماً لِلْمُؤَرِّخِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَأَصْلاً يُعَوِّلُونَ فِي تَحْقِيقِ ٱلْكَثِيرِ مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ ثُمَّ جَاءَ ٱلْبَكْرِيُّ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْمَسَالِكِ وَٱلْمَمَالِكِ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّ ٱلْأُمَمَ وَٱلْأَجْيَالَ لِعَهْدِهِ لَمْ يَقَعْ فِيهَا كَثِيرُ ٱنْتِقَالٍ وَلَا عَظِيمُ تَغَيُّرٍ وَأَمَّا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَهُوَ آخِرُ ٱلْمِائَةِ ٱلثَّامِنَةِ فَقَدِ ٱنْقَلَبَتْ أَحْوَالُ ٱلْمَغْرِبِ ٱلَّذِي نَحْنُ شَاهِدُوهُ وَتَبَدَّلَتْ بِٱلْجُمْلَةِ وَٱعْتَاضَ مِنْ أَجْيَالِ ٱلْبَرْبَرِ أَهْلُهُ عَلَى ٱلْقِدَمِ بِمَا طَرَأَ فِيهِ مِنْ لَدُنِ ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ مِنْ أَجْيَالِ ٱلْعَرَبِ بِمَا كَسَرُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ وَٱنْتَزَعُوا مِنْهُمْ عَامَّةَ ٱلْأَوْطَانِ وَشَارَكُوهُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنَ ٱلْبُلْدَانِ لِمُلْكِهِمْ هٰذَا إِلَى مَا نَزَلَ بِٱلْعُمْرَانِ

شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلّص من ظلالها وفلّ من حدّها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدّل الساكن وكأنّي بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنّما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها وإذا تبدّلت الأحوال جملة فكأنّما تبدّل الخلق من أصله وتحوّل العالم بأسره وكأنّه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنّحل التي تبدّلت لأهلها ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلاً يقتدي به من يأتي من المؤرّخين من بعده وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إمّا صريحاً أو مندرجاً في أخباره وتلويحاً لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطّلاعي على أحوال المشرق وأممه وأنّ الأخبار المتناقلة لا تفي كنه ما أريده منه والمسعودي إنّما استوفى ذلك لبعد رحلته وتقلّبه في البلاد كما ذكر في كتابه مع أنّه لمّا ذكر المغرب قصّر في استيفاء أحواله وفوق كلّ ذي علم عليم ومردّ العلم كلّه إلى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعيّن واجب ومن كان الله في عونه تيسّرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب ونحن آخذون بعون الله فيما رمناه من أغراض التأليف والله المسدّد والمعين وعليه التكلان وقد بقي علينا أن نقدّم مقدّمة في كيفيّة وضع الحروف التي ليست من لغات العرب إذا عرضت في كتابنا هذا

إعلم أنّ الحروف في النطق كما يأتي شرحه بعد هي كيفيّات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والأضراس أو بقرع الشفتين أيضاً فتتغاير كيفيّات الأصوات بتغاير ذلك القرع

وَتَجِيءُ ٱلْحُرُوفُ مُتَمَايِزَةً فِي ٱلسَّمْعِ وَتَتَرَكَّبُ مِنْهَا ٱلْكَلِمَاتُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى مَا فِي ٱلضَّمَائِرِ وَلَيْسَتِ ٱلْأُمَمُ كُلُّهَا مُتَسَاوِيَةً فِي ٱلنُّطْقِ بِتِلْكَ ٱلْحُرُوفِ فَقَدْ يَكُونُ لِأُمَّةٍ مِنَ ٱلْحُرُوفِ مَا لَيْسَ لِأُمَّةٍ أُخْرَى وَٱلْحُرُوفُ ٱلَّتِي نَطَقَتْ بِهَا ٱلْعَرَبُ هِيَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفاً كَمَا عَرَفْتَ وَنَجِدُ لِلْعِبْرَانِيِّينَ حُرُوفاً لَيْسَتْ فِي لُغَتِنَا وَفِي لُغَتِنَا أَيْضاً حُروفٌ لَيْسَتْ فِي لُغَتِهِمْ وَكَذٰلِكَ ٱلْإِفْرَنْجُ وَٱلتُّرْكُ وَٱلْبَرْبَرُ وَغَيْرُ هٰؤُلَاءِ مِنَ ٱلْعَجَمِ ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱصْطَلَحُوا فِي ٱلدِّلَالَةِ عَلَى حُرُوفِهِمِ ٱلْمَسْمُوعَةِ بِأَوْضَاعِ حُرُوفٍ مَكْتُوبَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بِأَشْخَاصِهَا كَوَضْعِ أَلِفٍ وَبَاءٍ وَجِيمٍ وَرَاءٍ وَطَاءٍ إِلَى آخِرِ ٱلثَّمَانِيَةِ وَٱلْعِشْرِينَ وَإِذَا عَرَضَ لَهُمُ ٱلْحَرْفُ ٱلَّذِي لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ لُغَتِهِمْ بَقِيَ مُهْمَلاً عَنِ ٱلدِّلَالَةِ ٱلْكِتَابِيَّةِ مُغْفَلاً عَنِ ٱلْبَيَانِ وَرُبَّمَا يَرْسُمُهُ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ بِشَكْلِ ٱلْحَرْفِ ٱلَّذِي يَكْتَنِفُهُ مِن لُغَتِنَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ وَلَيْسَ بِكَافٍ فِي ٱلدِّلَالَةِ بَلْ هُوَ تَغْيِيرٌ لِلْحَرْفِ مِنْ أَصْلِهِ . وَلَمَّا كَانَ كِتَابُنَا مُشْتَمِلاً عَلَى أَخْبَارِ ٱلْبَرْبَرِ وَبَعْضِ ٱلْعَجَمِ وَكَانَتْ تَعْرِضُ لَنَا فِي أَسْمَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوفٌ لَيْسَتْ مِنْ لُغَةِ كِتَابَتِنَا وَلَا ٱصْطِلَاحِ أَوْضَاعِنَا ٱضْطُرِرْنَا إِلَى بَيَانِهِ وَلَمْ نَكْتَفِ بِرَسْمِ ٱلْحَرْفِ ٱلَّذِي يَلِيهِ كَمَا قُلْنَاهُ لِأَنَّهُ عِنْدَنَا غَيْرُ وَافٍ بِٱلدِّلَالَةِ عَلَيْهِ فَٱصْطَلَحْتُ فِي كِتَابِي هٰذَا عَلَى أَنْ أَضَعَ ذٰلِكَ ٱلْحَرْفَ ٱلْعَجَمِيَّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْحَرْفَيْنِ ٱللَّذَيْنِ يَكْتَنِفَانِهِ لِيَتَوَسَّطَ ٱلْقَارِئُ بِٱلنُّطْقِ بِهِ بَيْنَ مَخْرَجَيْ ذَيْنِكَ ٱلْحَرْفَيْنِ فَتَحْصُلَ تَأْدِيَتُهُ وَإِنَّمَا ٱقْتَبَسْتُ ذٰلِكَ مِنْ رَسْمِ أَهْلِ ٱلْمُصْحَفِ حُرُوفَ ٱلْإِشْمَامِ كَٱلصِّرَاطِ فِي قِرَاءَةِ خَلَفٍ فَإِنَّ ٱلنُّطْقَ بِصَادِهِ فِيهَا مُعْجَمٌ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ ٱلصَّادِ وَٱلزَّايِ فَوَضَعُوا ٱلصَّادَ وَرَسَمُوا فِي دَاخِلِهَا شَكْلَ ٱلزَّايِ وَدَلَّ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ ٱلْحَرْفَيْنِ فَكَذٰلِكَ رَسَمْتُ أَنَا كُلَّ حَرْفٍ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ حُرُوفِنَا كَٱلْكَافِ ٱلْمُتَوَسِّطَةِ عِنْدَ ٱلْبَرْبَرِ بَيْنَ ٱلْكَافِ ٱلصَّرِيحَةِ عِنْدَنَا وَٱلْجِيمِ أَوِ ٱلْقَافِ مِثْلَ ٱسْمِ بَلْكِينَ فَأَضَعُهَا كَافاً وَأُنَقِّطُهَا بِنُقْطَةِ ٱلْجِيمِ وَاحِدَةً مِنْ أَسْفَلُ أَوْ بِنُقْطَةِ ٱلْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ فَوْقُ أَوِ ٱثْنَتَيْنِ فَيَدُلُّ ذٰلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ ٱلْكَافِ وَٱلْجِيمِ أَوِ ٱلْقَافِ وَهٰذَا ٱلْحَرْفُ أَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي لُغَةِ ٱلْبَرْبَرِ وَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِهِ فَعَلَى هٰذَا ٱلْقِيَاسِ أَضَعُ ٱلْحَرْفَ ٱلْمُتَوَسِّطَ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ لُغَتِنَا بِٱلْحَرْفَيْنِ مَعاً لِيَعْلَمَ ٱلْقَارِئُ أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ فَيَنْطِقَ بِهِ كَذٰلِكَ فَنَكُونُ قَدْ دَلَلْنَا عَلَيْهِ وَلَوْ وَضَعْنَاهُ بِرَسْمِ ٱلْحَرْفِ ٱلْوَاحِدِ عَنْ جَانِبَيْهِ لَكُنَّا قَدْ صَرَفْنَاهُ مِنْ مَخْرَجِهِ إِلَى مَخْرَجِ ٱلْحَرْفِ ٱلَّذِي مِنْ لُغَتِنَا وَغَيَّرْنَا

لَةَ ٱلْقَوْمِ فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

الكتاب الاول

في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب

إِعلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ ٱلتَّأْرِيخِ أَنَّهُ خَبَرٌ عَنِ ٱلِاجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ ٱلَّذِي هُوَ عُمْرَانُ ٱلْعَالَمِ وَمَا يَعْرِضُ لِطَبِيعَةِ ذٰلِكَ ٱلْعُمْرَانِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ مِثْلِ ٱلتَّوَحُّشِ وَٱلتَّأَنُّسِ وَٱلْعَصَبِيَّاتِ وَأَصْنَافُ ٱلتَّغَلُّبَاتِ لِلْبَشَرِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا وَمَا يَنْتَحِلُهُ ٱلْبَشَرُ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَسَاعِيهِمْ مِنَ ٱلْكَسْبِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَسَائِرِ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْعُمْرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ . وَلَمَّا كَانَ ٱلْكَذِبُ مُتَطَرِّقاً لِلْخَبَرِ بِطَبِيعَتِهِ وَلَهُ أَسْبَابٌ تَقْتَضِيهِ . فَمِنْهَا ٱلتَّشَيُّعَاتُ لِلْآرَاءِ وَٱلْمَذَاهِبِ فَإِنَّ ٱلنَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ ٱلِاعْتِدَالِ فِي قَبُولِ ٱلْخَبَرِ أَعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ ٱلتَّمْحِيصِ وَٱلنَّظَرِ حَتَّى تَتَبَيَّنَ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ وَإِذَا خَامَرَهَا تَشَيُّعٌ لِرَأْيٍ أَوْ نِحْلَةٍ قَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنَ ٱلْأَخْبَارِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ ذٰلِكَ ٱلْمَيْلُ وَٱلتَّشَيُّعُ غِطَاءً عَلَى عَيْنِ بَصِيرَتِهَا عَنِ ٱلِانْتِقَادِ وَٱلتَّمْحِيصِ فَتَقَعُ فِي قَبُولِ ٱلْكَذِبِ وَنَقْلِهِ . وَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْمُقْتَضِيَةِ لِلْكَذِبِ فِي ٱلْأَخْبَارِ أَيْضاً ٱلثِّقَةُ بِٱلنَّاقِلِينَ وَتَمْحِيصُ ذٰلِكَ يَرْجِعُ إِلَى ٱلتَّعْدِيلِ وَٱلتَّجْرِيحِ . وَمِنْهَا ٱلذُّهُولُ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ فَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاقِلِينَ لَا يَعْرِفُ ٱلْقَصْدَ بِمَا عَايَنَ أَوْ سَمِعَ وَيَنْقُلُ ٱلْخَبَرَ عَلَى مَا فِي ظَنِّهِ وَتَخْمِينِهِ فَيَقَعُ فِي ٱلْكَذِبِ . وَمِنْهَا تَوَهُّمُ ٱلصِّدْقِ وَهُوَ كَثِيرٌ وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلْأَكْثَرِ مِنْ جِهَةِ ٱلثِّقَةِ بِٱلنَّاقِلِينَ وَمِنْهَا ٱلْجَهْلُ بِتَطْبِيقِ ٱلْأَحْوَالِ عَلَى ٱلْوَقَائِعِ لِأَجْلِ مَا يُدَاخِلُهَا مِنَ ٱلتَّلْبِيسِ وَٱلتَّصَنُّعِ فَيَنْقُلُهَا ٱلْمُخْبِرُ كَمَا رَآهَا وَهِيَ بِٱلتَّصَنُّعِ عَلَى غَيْرِ ٱلْحَقِّ فِي نَفْسِهِ . وَمِنْهَا تَقَرُّبُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَصْحَابِ ٱلتَّجِلَّةِ وَٱلْمَرَاتِبِ بِٱلثَّنَاءِ وَٱلْمَدْحِ وَتَحْسِينِ ٱلْأَحْوَالِ وَإِشَاعَةِ ٱلذِّكْرِ بِذٰلِكَ فَيَسْتَفِيضُ ٱلْأَخْبَارُ بِهَا عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ فَٱلنُّفُوسُ مُولَعَةٌ بِحُبِّ ٱلثَّنَاءِ وَٱلنَّاسُ مُتَطَلِّعُونَ إِلَى ٱلدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا مِنْ جَاهٍ أَوْ ثَرْوَةٍ وَلَيْسُوا فِي ٱلْأَكْثَرِ بِرَاغِبِينَ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَلَا مُتَنَافِسِينَ فِي أَهْلِهَا . وَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْمُقْتَضِيَةِ لَهُ أَيْضاً وَهِيَ سَابِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ ٱلْجَهْلُ بِطَبَائِعِ ٱلْأَحْوَالِ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَإِنَّ كُلَّ حَادِثٍ مِنَ ٱلْحَوَادِثِ

ذَاتاً كَانَ أَوْ فِعْلاً لاَ بُدَّ مِنْ طَبِيعَةٍ تَخُصُّهُ فِي ذَاتِهِ وَفِيمَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلسَّامِعُ عَارِفاً بِطَبَائِعِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأَحْوَالِ فِي ٱلْوُجُودِ وَمُقْتَضَيَاتِهَا أَعَانَهُ ذَلِكَ فِي تَمْحِيصِ ٱلْخَبَرِ عَلَى تَمْيِيزِ ٱلصِّدْقِ مِنَ ٱلْكَذِبِ وَهٰذَا أَبْلَغُ فِي ٱلتَّمْحِيصِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ يَعْرِضُ وَكَثِيراً مَا يَعْرِضُ لِلسَّامِعِينَ قَبُولُ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُسْتَحِيلَةِ وَيَنْقُلُونَهَا وَتُؤْثَرُ عَنْهُمْ كَمَا نَقَلَهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ عَنِ ٱلْإِسْكَنْدَرِ لَمَّا صَدَّتْهُ دَوَابُّ ٱلْبَحْرِ عَنْ بِنَاءِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَيْفَ ٱتَّخَذَ صُنْدُوقَ ٱلزُّجَاجِ وَغَاصَ فِيهِ إِلَى قَعْرِ ٱلْبَحْرِ حَتَّى صَوَّرَ تِلْكَ ٱلدَّوَابَّ ٱلشَّيْطَانِيَّةَ ٱلَّتِي رَآهَا وَعَمِلَ تَمَاثِيلَهَا مِنْ أَجْسَادٍ مَعْدَنِيَّةٍ وَنَصَبَهَا حِذَاءَ ٱلْبُنْيَانِ فَفَرَّتْ تِلْكَ ٱلدَّوَابُّ حِينَ خَرَجَتْ وَعَايَنَتْهَا وَتَمَّ بِنَاؤُهَا فِي حِكَايَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْ أَحَادِيثِ خُرَافَةٍ مُسْتَحِيلَةٍ مِنْ قِبَلِ ٱتِّخَاذِهِ ٱلتَّابُوتَ ٱلزُّجَاجِيَّ وَمُصَادَمَةِ ٱلْبَحْرِ وَأَمْوَاجِهِ بِجُرْمِهِ وَمِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْمُلُوكَ لاَ تَحْمِلُ أَنْفُسَهَا عَلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلْغُرُورِ وَمَنِ ٱعْتَمَدَهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ وَٱنْتِقَاضِ ٱلْعُقْدَةِ وَٱجْتِمَاعِ ٱلنَّاسِ إِلَى غَيْرِهِ وَفِي ذَلِكَ إِتْلاَفُهُ وَلاَ يَنْتَظِرُونَ بِهِ رُجُوعَهُ مِنْ غُرُورِهِ ذَلِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَمِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْجِنَّ لاَ يُعْرَفُ لَهَا صُوَرٌ وَلاَ تَمَاثِيلُ تَخْتَصُّ بِهَا إِنَّمَا هِيَ قَادِرَةٌ عَلَى ٱلتَّشَكُّلِ وَمَا يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلرُّؤُوسِ لَهَا فَإِنَّمَا ٱلْمُرَادُ بِهِ ٱلْبَشَاعَةُ وَٱلتَّهْوِيلُ لاَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ . وَهٰذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تِلْكَ ٱلْحِكَايَةِ وَٱلْقَادِحُ ٱلْمُحِيلُ لَهَا مِنْ طَرِيقِ ٱلْوُجُودِ أَبْيَنُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ وَهُوَ أَنَّ ٱلْمُنْغَمِسَ فِي ٱلْمَاءِ وَلَوْ كَانَ فِي ٱلصُّنْدُوقِ يَضِيقُ عَلَيْهِ ٱلْهَوَاءُ لِلتَّنَفُّسِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَتَسْخُنُ رُوحُهُ بِسُرْعَةٍ لِقِلَّتِهِ فَيَفْقُدُ صَاحِبُهُ ٱلْهَوَاءَ ٱلْبَارِدَ ٱلْمُعَدِّلَ لِمِزَاجِ ٱلرِّئَةِ وَٱلرُّوحِ ٱلْقَلْبِيِّ وَيَهْلِكُ مَكَانَهُ وَهٰذَا هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي هَلاَكِ أَهْلِ ٱلْحَمَّامَاتِ إِذَا أُطْبِقَتْ عَلَيْهِمْ عَنِ ٱلْهَوَاءِ ٱلْبَارِدِ وَٱلْمُتَدَلِّينَ فِي ٱلْآبَارِ وَٱلْمَطَامِيرِ ٱلْعَمِيقَةِ ٱلْمَهْوَى إِذَا سَخُنَ هَوَاؤُهَا بِٱلْعُفُونَةِ وَلَمْ تُدَاخِلْهَا ٱلرِّيَاحُ فَتُخَلْخِلُهَا فَإِنَّ ٱلْمُتَدَلِّي فِيهَا يَهْلِكُ لِحِينِهِ وَبِهٰذَا ٱلسَّبَبِ يَكُونُ مَوْتُ ٱلْحُوتِ إِذَا فَارَقَ ٱلْبَحْرَ فَإِنَّ ٱلْهَوَاءَ لاَ يَكْفِيهِ فِي تَعْدِيلِ رِئَتِهِ إِذْ هُوَ حَارٌّ بِإِفْرَاطٍ وَٱلْمَاءُ ٱلَّذِي يُعَدِّلُهُ بَارِدٌ وَٱلْهَوَاءُ ٱلَّذِي خَرَجَ إِلَيْهِ حَارٌّ فَيَسْتَوْلِي ٱلْحَارُّ عَلَى رُوحِهِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَيَهْلِكُ دَفْعَةً وَمِنْهُ هَلاَكُ ٱلْمَصْعُوقِينَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَمِنَ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُسْتَحِيلَةِ مَا نَقَلَهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ أَيْضاً فِي تِمْثَالِ ٱلزَّرْزُورِ ٱلَّذِي بِرُومَةَ تَجْتَمِعُ إِلَيْهِ ٱلزَّرَازِيرُ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ مِنَ ٱلسَّنَةِ حَامِلَةً لِلزَّيْتُونِ وَمِنْهُ يَتَّخِذُونَ زَيْتَهُمْ وَٱنْظُرْ مَا أَبْعَدَ ذَلِكَ عَنِ ٱلْمَجْرَى ٱلطَّبِيعِيِّ فِي ٱتِّخَاذِ ٱلزَّيْتِ وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ ٱلْبَكْرِيُّ

في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودي أيضاً في حديث مدينة النحاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في غزوته إلى المغرب وأنها مغلقة الأبواب وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ثم إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وأن المعادن غاية الموجود منها أن يصرف في الآنية والخرثي (١) وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد وأمثال ذلك كثيرة وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح ولقد عد أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط . وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب أن ننظر في إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق

(١) الخرثي بالضم أثاث البيت اهـ قاموس

مِنَ ٱلْكَذِبِ بِوَجْهٍ بُرْهَانِيٍّ لَا مَدْخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ وَحِينَئِذٍ فَإِذَا سَمِعْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ فِي ٱلْعُمْرَانِ عَلِمْنَا مَا نَحْكُمُ بِقَبُولِهِ مِمَّا نَحْكُمُ بِتَزْيِيفِهِ وَكَانَ ذٰلِكَ لَنَا مِعْيَاراً صَحِيحاً يَتَحَرَّى بِهِ ٱلْمُؤَرِّخُونَ طَرِيقَ ٱلصِّدْقِ وَٱلصَّوَابِ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ وَهٰذَا هُوَ غَرَضُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ تَأْلِيفِنَا وَكَأَنَّ هٰذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ ذُو مَوْضُوعٍ وَهُوَ ٱلْعُمْرَانُ ٱلْبَشَرِيُّ وَٱلِاجْتِمَاعُ ٱلْإِنْسَانِيُّ وَذُو مَسَائِلَ وَهِيَ بَيَانُ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ وَٱلْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَهٰذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِنَ ٱلْعُلُومِ وَضْعِيّاً كَانَ أَوْ عَقْلِيّاً . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي هٰذَا ٱلْغَرَضِ مُسْتَحْدَثُ ٱلصَّنْعَةِ غَرِيبُ ٱلنَّزْعَةِ عَزِيزُ ٱلْفَائِدَةِ أَعْثَرَ عَلَيْهِ ٱلْبَحْثُ وَأَدَّى إِلَيْهِ ٱلْغَوْصُ وَلَيْسَ مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْأَقْوَالُ ٱلْمُقْنِعَةُ ٱلنَّافِعَةُ فِي ٱسْتِمَالَةِ ٱلْجُمْهُورِ إِلَى رَأْيٍ أَوْ صَدِّهِمْ عَنْهُ وَلَا هُوَ أَيْضاً مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَدَنِيَّةِ إِذِ ٱلسِّيَاسَةُ ٱلْمَدَنِيَّةُ هِيَ تَدْبِيرُ ٱلْمَنْزِلِ أَوِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَجِبُ بِمُقْتَضَى ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْحِكْمَةِ لِيُحْمَلَ ٱلْجُمْهُورُ عَلَى مِنْهَاجٍ يَكُونُ فِيهِ حِفْظُ ٱلنَّوْعِ وَبَقَاؤُهُ فَقَدْ خَالَفَ مَوْضُوعُهُ مَوْضُوعَ هٰذَيْنِ ٱلْفَنَّيْنِ ٱللَّذَيْنِ رُبَّمَا يُشْبِهَانِهِ وَكَأَنَّهُ عِلْمٌ مُسْتَنْبَطُ ٱلنَّشْأَةِ وَلَعَمْرِي لَمْ أَقِفْ عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي مَنْحَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْخَلِيقَةِ مَا أَدْرِي أَلِغَفْلَتِهِمْ عَنْ ذٰلِكَ وَلَيْسَ ٱلظَّنُّ بِهِمْ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَتَبُوا فِي هٰذَا ٱلْغَرَضِ وَٱسْتَوْفَوْهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا فَٱلْعُلُومُ كَثِيرَةٌ وَٱلْحُكَمَاءُ فِي أُمَمِ ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ مُتَعَدِّدُونَ وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنَ ٱلْعُلُومِ أَكْثَرُ مِمَّا وَصَلَ فَأَيْنَ عُلُومُ ٱلْفُرْسِ ٱلَّتِي أَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ بِمَحْوِهَا عِنْدَ ٱلْفَتْحِ وَأَيْنَ عُلُومُ ٱلْكِلْدَانِيِّينَ وَٱلسِّرْيَانِيِّينَ وَأَهْلِ بَابِلَ وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَنَتَائِجِهَا وَأَيْنَ عُلُومُ ٱلْقِبْطِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ وَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْنَا عُلُومُ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ يُونَانُ خَاصَّةً لِكَلَفِ ٱلْمَأْمُونِ بِإِخْرَاجِهَا مِنْ لُغَتِهِمْ وَٱقْتِدَارِهِ عَلَى ذٰلِكَ بِكَثْرَةِ ٱلْمُتَرْجِمِينَ وَبَذْلِ ٱلْأَمْوَالِ فِيهَا وَلَمْ نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عُلُومِ غَيْرِهِمْ وَإِذَا كَانَتْ كُلُّ حَقِيقَةٍ مُتَعَقِّلَةٍ طَبِيعِيَّةٍ يَصْلُحُ أَنْ يُبْحَثَ عَمَّا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ ٱلْعَوَارِضِ لِذَاتِهَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ بِٱعْتِبَارِ كُلِّ مَفْهُومٍ وَحَقِيقَةٍ عِلْمٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ يَخُصُّهُ لٰكِنَّ ٱلْحُكَمَاءَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا لَاحَظُوا فِي ذٰلِكَ ٱلْعِنَايَةَ بِٱلثَّمَرَاتِ وَهٰذَا إِنَّمَا ثَمَرَتُهُ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَقَطْ كَمَا رَأَيْتَ وَإِنْ كَانَتْ مَسَائِلُهُ فِي ذَاتِهَا وَفِي ٱخْتِصَاصِهَا شَرِيفَةً لٰكِنَّ ثَمَرَتَهُ تَصْحِيحُ ٱلْأَخْبَارِ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ فَلِهٰذَا هَجَرُوهُ وَٱللهُ أَعْلَمُ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً . وَهٰذَا ٱلْفَنُّ ٱلَّذِي لَاحَ لَنَا ٱلنَّظَرُ فِيهِ نَجِدُ مِنْهُ مَسَائِلَ تَجْرِي بِٱلْعَرَضِ

لِأَهْلِ ٱلْعُلُومِ فِي بَرَاهِينِ عُلُومِهِمْ وَهِيَ مِنْ جِنْسِ مَسَائِلِهِ بِالْمَوْضُوعِ وَٱلطَّلَبِ مِثْلَ مَا يَذْكُرُهُ ٱلْحُكَمَاءُ وَٱلْعُلَمَاءُ فِي إِثْبَاتِ ٱلنُّبُوَّةِ مِنْ أَنَّ ٱلْبَشَرَ مُتَعَاوِنُونَ فِي وُجُودِهِمْ فَيَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى ٱلْحَاكِمِ وَٱلْوَازِعِ وَمِثْلَ مَا يُذْكَرُ فِي أُصُولِ ٱلْفِقْهِ فِي بَابِ إِثْبَاتِ ٱللُّغَاتِ أَنَّ ٱلنَّاسَ مُحْتَاجُونَ إِلَى ٱلْعِبَارَةِ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ بِطَبِيعَةِ ٱلتَّعَاوُنِ وَٱلِاجْتِمَاعِ وَتِبْيَانُ ٱلْعِبَارَاتِ أَخَفُّ وَمِثْلَ مَا يَذْكُرُهُ ٱلْفُقَهَاءُ فِي تَعْلِيلِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ بِالْمَقَاصِدِ فِي أَنَّ ٱلزِّنَا مُخَلِّطٌ لِلْأَنْسَابِ مُفْسِدٌ لِلنَّوْعِ وَأَنَّ ٱلْقَتْلَ أَيْضاً مُفْسِدٌ لِلنَّوْعِ وَأَنَّ ٱلظُّلْمَ مُؤْذِنٌ بِخَرَابِ ٱلْعُمْرَانِ ٱلْمُفْضِي لِفَسَادِ ٱلنَّوْعِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ سَائِرِ ٱلْمَقَاصِدِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فِي ٱلْأَحْكَامِ فَإِنَّهَا كُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى ٱلْمُحَافَظَةِ عَلَى ٱلْعُمْرَانِ فَكَانَ لَهَا ٱلنَّظَرُ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُ وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنْ كَلَامِنَا هٰذَا فِي هٰذِهِ ٱلْمَسَائِلِ ٱلْمُمَثَّلَةِ وَكَذٰلِكَ أَيْضاً يَقَعُ إِلَيْنَا ٱلْقَلِيلُ مِنْ مَسَائِلِهِ فِي كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ لِحُكَمَاءِ ٱلْخَلِيقَةِ لٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَوْفُوهُ فَمِنْ كَلَامِ ٱلْمُوبَذَانِ بَهْرَامَ بْنِ بَهْرَامَ فِي حِكَايَةِ ٱلْبُومِ ٱلَّتِي نَقَلَهَا ٱلْمَسْعُودِيُّ. أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّ ٱلْمُلْكَ لَا يَتِمُّ عِزُّهُ إِلَّا بِالشَّرِيعَةِ وَٱلْقِيَامِ لِلّٰهِ بِطَاعَتِهِ وَٱلتَّصَرُّفِ تَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَلَا قِوَامَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْمُلْكِ وَلَا عِزَّ لِلْمُلْكِ إِلَّا بِالرِّجَالِ وَلَا قِوَامَ لِلرِّجَالِ إِلَّا بِالْمَالِ وَلَا سَبِيلَ لِلْمَالِ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَلَا سَبِيلَ لِلْعِمَارَةِ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَٱلْعَدْلُ ٱلْمِيزَانُ ٱلْمَنْصُوبُ بَيْنَ ٱلْخَلِيقَةِ نَصَبَهُ ٱلرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قَيِّماً وَهُوَ ٱلْمَلِكُ. وَمِنْ كَلَامِ أَنُوشِرْوَانَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى بِعَيْنِهِ ٱلْمُلْكُ بِالْجُنْدِ وَٱلْجُنْدُ بِالْمَالِ وَٱلْمَالُ بِالْخَرَاجِ وَٱلْخَرَاجُ بِالْعِمَارَةِ وَٱلْعِمَارَةُ بِالْعَدْلِ وَٱلْعَدْلُ بِإِصْلَاحِ ٱلْعُمَّالِ وَإِصْلَاحُ ٱلْعُمَّالِ بِاسْتِقَامَةِ ٱلْوُزَرَاءِ وَرَأْسُ ٱلْكُلِّ بِافْتِقَادِ ٱلْمَلِكِ حَالَ رَعِيَّتِهِ بِنَفْسِهِ وَٱقْتِدَارِهِ عَلَى تَأْدِيبِهَا حَتَّى يَمْلِكَهَا وَلَا تَمْلِكَهُ. وَفِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمَنْسُوبِ لِأَرِسْطُو فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمُتَدَاوَلِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ جُزْءٌ صَالِحٌ مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَوْفٍ وَلَا مُعْطًى حَقَّهُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ وَمُخْتَلِطٌ بِغَيْرِهِ وَقَدْ أَشَارَ فِي ذٰلِكَ ٱلْكِتَابِ إِلَى هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلَّتِي نَقَلْنَاهَا عَنِ ٱلْمُوبَذَانِ وَأَنُوشِرْوَانَ وَجَعَلَهَا فِي ٱلدَّائِرَةِ ٱلْقَرِيبَةِ ٱلَّتِي أَعْظَمَ ٱلْقَوْلَ فِيهَا هُوَ قَوْلُهُ. ٱلْعَالَمُ بُسْتَانٌ سِيَاجُهُ ٱلدَّوْلَةُ ٱلدَّوْلَةُ سُلْطَانٌ تَحْيَا بِهِ ٱلسُّنَّةُ ٱلسُّنَّةُ سِيَاسَةٌ يَسُوسُهَا ٱلْمَلِكُ ٱلْمَلِكُ نِظَامٌ يَعْضُدُهُ ٱلْجُنْدُ ٱلْجُنْدُ أَعْوَانٌ يَكْفُلُهُمُ ٱلْمَالُ ٱلْمَالُ رِزْقٌ تَجْمَعُهُ ٱلرَّعِيَّةُ ٱلرَّعِيَّةُ عَبِيدٌ يَكْنُفُهُمُ ٱلْعَدْلُ ٱلْعَدْلُ مَأْلُوفٌ وَبِهِ قِوَامُ ٱلْعَالَمِ ٱلْعَالَمُ بُسْتَانٌ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ ٱلْكَلَامِ. فَهٰذِهِ ثَمَانُ

كَلِمَاتٍ حِكَمِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ ارْتَبَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَارْتَدَّتْ أَعْجَازُهَا إِلَى صُدُورِهَا وَاتَّصَلَتْ فِي دَائِرَةٍ لَا يَتَعَيَّنُ طَرَفُهَا فَخَرَ بِعُثُورِهِ عَلَيْهَا وَعَظَّمَ مِنْ فَوَائِدِهَا . وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ كَلَامَنَا فِي فَصْلِ الدُّوَلِ وَالْمُلْكِ وَأَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ مِنَ التَّصَفُّحِ وَالتَّفَهُّمِ عَثَرْتَ فِي أَثْنَائِهِ عَلَى تَفْسِيرِ هٰذِهِ الْكَلِمَاتِ وَتَفْصِيلِ إِجْمَالِهَا مُسْتَوْفًى بَيِّنًا بِأَوْعَبِ بَيَانٍ وَأَوْضَحِ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ أَطْلَعَنَا اللّٰهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمِ أَرِسْطُو وَلَا إِفَادَةِ مُوبَذَانٍ وَكَذٰلِكَ تَجِدُ فِي كَلَامِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ وَمَا يُسْتَطْرَدُ فِي رَسَائِلِهِ مِنْ ذِكْرِ السِّيَاسَاتِ الْكَثِيرَ مِنْ مَسَائِلِ كِتَابِنَا هٰذَا غَيْرَ مُبَرْهَنَةٍ كَمَا بَرْهَنَّاهُ إِنَّمَا يُجَلِّيهَا فِي الذِّكْرِ عَلَى مَنْحَى الْخَطَابَةِ فِي أُسْلُوبِ التَّرَسُّلِ وَبَلَاغَةِ الْكَلَامِ وَكَذٰلِكَ حَوَّمَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ الطَّرْطُوشِيُّ فِي كِتَابِ سِرَاجِ الْمُلُوكِ وَبَوَّبَهُ عَلَى أَبْوَابٍ تَقْرُبُ مِنْ أَبْوَابِ كِتَابِنَا هٰذَا وَمَسَائِلِهِ لٰكِنَّهُ لَمْ يُصَادِفْ فِيهِ الرَّمِيَّةَ وَلَا أَصَابَ الشَّاكِلَةَ وَلَا اسْتَوْفَى الْمَسَائِلَ وَلَا أَوْضَحَ الْأَدِلَّةَ إِنَّمَا يُبَوِّبُ الْبَابَ لِلْمَسْأَلَةِ ثُمَّ يَسْتَكْثِرُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ وَيَنْقُلُ كَلِمَاتٍ مُتَفَرِّقَةً لِحُكَمَاءِ الْفُرْسِ مِثْلِ بُزُرْجُمِهْرَ وَالْمُوبَذَانِ وَحُكَمَاءِ الْهِنْدِ وَالْمَأْثُورِ عَنْ دَانْيَالَ وَهُرْمُسَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَكَابِرِ الْخَلِيقَةِ وَلَا يَكْشِفُ عَنِ التَّحْقِيقِ قِنَاعًا وَلَا يَرْفَعُ بِالْبَرَاهِينِ الطَّبِيعِيَّةِ حِجَابًا إِنَّمَا هُوَ نَقْلٌ وَتَرْكِيبٌ شَبِيهٌ بِالْمَوَاعِظِ وَكَأَنَّهُ حَوَّمَ عَلَى الْغَرَضِ وَلَمْ يُصَادِفْهُ وَلَا تَحَقَّقَ قَصْدَهُ وَلَا اسْتَوْفَى مَسَائِلَهُ وَنَحْنُ أَلْهَمَنَا اللّٰهُ إِلَى ذٰلِكَ إِلْهَامًا وَأَعْثَرَنَا عَلَى عِلْمٍ جَعَلْنَا بَيْنَ نَكِرَةٍ وَجُهَيْنَةَ خَبَرَهُ فَإِنْ كُنْتُ قَدِ اسْتَوْفَيْتُ مَسَائِلَهُ وَمَيَّزْتُ عَنْ سَائِرِ الصَّنَائِعِ أَنْظَارَهُ وَأَنْحَاءَهُ فَتَوْفِيقٌ مِنَ اللّٰهِ وَهِدَايَةٌ وَإِنْ فَاتَنِي شَيْءٌ فِي إِحْصَائِهِ وَاشْتَبَهَتْ بِغَيْرِهِ فَلِلنَّاظِرِ الْمُحَقِّقِ إِصْلَاحُهُ وَلِيَ الْفَضْلُ لِأَنِّي نَهَجْتُ لَهُ السَّبِيلَ وَأَوْضَحْتُ لَهُ الطَّرِيقَ وَاللّٰهُ يَهْدِي بِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ . وَنَحْنُ الْآنَ نُبَيِّنُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ مَا يَعْرِضُ لِلْبَشَرِ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمْرَانِ فِي الْمُلْكِ وَالْكَسْبِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِوُجُوهٍ بُرْهَانِيَّةٍ يَتَّضِحُ بِهَا التَّحْقِيقُ فِي مَعَارِفِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَتَنْدَفِعُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَتُرْفَعُ الشُّكُوكُ . وَنَقُولُ لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ مُتَمَيِّزًا عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِخَوَاصَّ اخْتُصَّ بِهَا فَمِنْهَا الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةُ الْفِكْرِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ وَشُرِّفَ بِوَصْفِهِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَمِنْهَا الْحَاجَةُ إِلَى الْحُكْمِ الْوَازِعِ وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ إِذْ لَا يُمْكِنُ وُجُودُهُ دُونَ ذٰلِكَ مِنْ بَيْنِ الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا إِلَّا مَا يُقَالُ عَنِ النَّحْلِ وَالْجَرَادِ وَهٰذِهِ وَإِنْ كَانَ لَهَا

مِثْلُ ذٰلِكَ فَبِطَرِيقٍ إِلْهَامِيٍّ لَا بِفِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ وَمِنْهَا ٱلسَّعْيُ فِي ٱلْمَعَاشِ وَٱلِاعْتِمَالُ فِي تَحْصِيلِهِ مِنْ وُجُوهِهِ وَٱكْتِسَابِ أَسْبَابِهِ لِمَا جَعَلَ ٱللهُ فِيهِ مِنَ ٱلِافْتِقَارِ إِلَى ٱلْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَبَقَائِهِ وَهَدَاهُ إِلَى ٱلْتِمَاسِهِ وَطَلَبِهِ قَالَ تَعَالَى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى وَمِنْهَا ٱلْعُمْرَانُ وَهُوَ ٱلتَّسَاكُنُ وَٱلتَّنَازُلُ فِي مِصْرٍ أَوْ حِلَّةٍ لِلْأُنْسِ بِٱلْعَشِيرِ وَٱقْتِضَاءِ ٱلْحَاجَاتِ لِمَا فِي طِبَاعِهِمْ مِنَ ٱلتَّعَاوُنِ عَلَى ٱلْمَعَاشِ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَمِنْ هٰذَا ٱلْعُمْرَانِ مَا يَكُونُ بَدَوِيًّا وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي ٱلضَّوَاحِي وَفِي ٱلْجِبَالِ وَفِي ٱلْحِلَلِ ٱلْمُنْتَجِعَةِ فِي ٱلْقِفَارِ وَأَطْرَافِ ٱلرِّمَالِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ حَضَرِيًّا وَهُوَ ٱلَّذِي بِٱلْأَمْصَارِ وَٱلْقُرَى وَٱلْمُدُنِ وَٱلْمَدَرِ لِلِاعْتِصَامِ بِهَا وَٱلتَّحَصُّنِ بِجُدْرَانِهَا وَلَهُ فِي كُلِّ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ أُمُورٌ تَعْرِضُ مِنْ حَيْثُ ٱلِاجْتِمَاعُ عُرُوضًا ذَاتِيًّا لَهُ فَلَا جَرَمَ ٱنْحَصَرَ ٱلْكَلَامُ فِي كُلِّ هٰذَا ٱلْكِتَابِ فِي سِتَّةِ ابْوَابٍ. ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْبَشَرِيِّ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقِسْطِهِ مِنَ ٱلْأَرْضِ. وَٱلثَّانِي فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْبَدَوِيِّ وَذِكْرِ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْأُمَمِ ٱلْوَحْشِيَّةِ. وَٱلثَّالِثُ فِي ٱلدُّوَلِ وَٱلْخِلَافَةِ وَٱلْمُلْكِ وَذِكْرِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَمْصَارِ. وَٱلْخَامِسُ فِي ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْمَعَاشِ وَٱلْكَسْبِ وَوُجُوهِهِ. وَٱلسَّادِسُ فِي ٱلْعُلُومِ وَٱكْتِسَابِهَا وَتَعَلُّمِهَا. وَقَدْ قَدَّمْتُ ٱلْعُمْرَانَ ٱلْبَدَوِيَّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ وَكَذَا تَقْدِيمُ ٱلْمُلْكِ عَلَى ٱلْبُلْدَانِ وَٱلْأَمْصَارِ وَأَمَّا تَقْدِيمُ ٱلْمَعَاشِ فَلِأَنَّ ٱلْمَعَاشَ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعَلُّمَ ٱلْعِلْمِ كَمَالِيٌّ أَوْ حَاجِيٌّ وَٱلطَّبِيعِيُّ أَقْدَمُ مِنَ ٱلْكَمَالِيِّ وَجَعَلْتُ ٱلصَّنَائِعَ مَعَ ٱلْكَسْبِ لِأَنَّهَا مِنْهُ بِبَعْضِ ٱلْوُجُوهِ وَمِنْ حَيْثُ ٱلْعُمْرَانُ كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ وَٱلْمُعِينُ عَلَيْهِ

الباب الاول

من الكتاب الاول

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

ٱلْأُولَى فِي أَنَّ ٱلِاجْتِمَاعَ ٱلْإِنْسَانِيَّ ضَرُورِيٌّ وَيُعَبِّرُ ٱلْحُكَمَاءُ عَنْ هٰذَا بِقَوْلِهِمِ ٱلْإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِٱلطَّبْعِ أَيْ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلِاجْتِمَاعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمَدِينَةُ فِي ٱصْطِلَاحِهِمْ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْعُمْرَانِ وَبَيَانُهُ أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لَا يَصِحُّ

حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري وهب أنه يأكله حبا من غير علاج فهو أيضا يحتاج في تحصيله أيضا حبا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلابد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان فقدرة الفرس مثلا أعظم بكثير من قدرة الإنسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته . ولما كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره وجعل للإنسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة والتراس النائبة عن البشرات الجاسية إلى غير ذلك وغيره مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الأعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفي قدرته أيضا باستعمال الآلات المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضا

دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع إثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له وهذا وإن لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم إثبات الموضوع في ذلك العلم فليس أيضا من الممنوعات عندهم فيكون إثباته من التبرعات والله الموفق بفضله .

ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أن للإنسان خاصة طبيعية ولا بد لهم منها وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما استقرئ فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنهم في خلقه وجثمانه إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة طبيعية للإنسان فيقررون هذا البرهان إلى غايته وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنه لا بد أن يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزيف وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من

دُونَ ذَلِكَ بِمَا يَفْرِضُهُ ٱلْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ أَوْ بِالْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَّتِهِ فَأَهْلُ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْمَجُوسِ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ ٱلْعَالَمِ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْآثَارُ فَضْلًا عَنِ ٱلْحَيَاةِ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ فِي ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُنْحَرِفَةِ فِي ٱلشَّمَالِ وَٱلْجَنُوبِ بِخِلَافِ حَيَاةِ ٱلْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَازِعٍ لَهُمُ ٱلْبَتَّةَ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُهُمْ فِي وُجُوبِ ٱلنُّبُوَّاتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِيٍّ وَإِنَّمَا مُدْرَكُهُ ٱلشَّرْعُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ ٱلسَّلَفِ مِنَ ٱلْأُمَّةِ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلتَّوْفِيقِ وَٱلْهِدَايَةِ

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم

إِعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلنَّاظِرِينَ فِي أَحْوَالِ ٱلْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ ٱلْأَرْضِ كُرَوِيٌّ وَأَنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِعُنْصُرِ ٱلْمَاءِ كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ فَٱنْحَسَرَ ٱلْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا لِمَا أَرَادَ ٱللَّهُ مِنْ تَكْوِينِ ٱلْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَعُمْرَانِهَا بِالنَّوْعِ ٱلْبَشَرِيِّ ٱلَّذِي لَهُ ٱلْخِلَافَةُ عَلَى سَائِرِهَا وَقَدْ يُتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ٱلْمَاءَ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا ٱلتَّحْتُ ٱلطَّبِيعِيُّ قَلْبُ ٱلْأَرْضِ وَوَسَطُ كُرَتِهَا ٱلَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا وَٱلْكُلُّ يَطْلُبُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ ٱلثِّقَلِ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِهَا وَأَمَّا ٱلْمَاءُ ٱلْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ ٱلْأَرْضِ وَإِنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ فَبِالْإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا ٱلَّذِي ٱنْحَسَرَ عَنْهُ ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْأَرْضِ فَهُوَ ٱلنِّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةٍ أَحَاطَ ٱلْعُنْصُرُ ٱلْمَائِيُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بَحْرًا يُسَمَّى ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ وَيُسَمَّى أَيْضًا لَبْلَايَه بِتَفْخِيمِ ٱللَّامِ ٱلثَّانِيَةِ وَيُسَمَّى أُوقْيَانُوسَ أَسْمَاءٌ أَعْجَمِيَّةٌ وَيُقَالُ لَهُ ٱلْبَحْرُ ٱلْأَخْضَرُ وَٱلْأَسْوَدُ ثُمَّ إِنَّ هَذَا ٱلْمُنْكَشِفَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِلْعُمْرَانِ فِيهِ ٱلْقِفَارُ وَٱلْخَلَاءُ أَكْثَرُ مِنْ عُمْرَانِهِ وَٱلْخَالِي مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَإِنَّمَا ٱلْمَعْمُورُ مِنْهُ أَمْيَلُ إِلَى ٱلْجَانِبِ ٱلشَّمَالِيِّ عَلَى شَكْلٍ مُسَطَّحٍ كُرَوِيٍّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ إِلَى خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ إِلَى خَطٍّ كُرَوِيٍّ وَوَرَاءَهُ ٱلْجِبَالُ ٱلْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمَاءِ ٱلْعُنْصُرِيِّ ٱلَّذِي

بَيْنَهُمَا سَدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهٰذِهِ ٱلْجِبَالُ مَائِلَةٌ إِلَى جِهَةِ ٱلْمَشْرِقِ وَيَنْتَهِي مِنَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ إِلَى عُنْصُرِ ٱلْمَاءِ أَيْضاً بِقِطْعَتَيْنِ مِنَ ٱلدَّائِرَةِ ٱلْمُحِيطَةِ وَهٰذَا ٱلْمُنْكَشِفُ مِنَ ٱلْأَرْضِ قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ ٱلنِّصْفِ مِنَ ٱلْكُرَةِ أَوْ أَقَلُّ وَٱلْمَعْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ رُبْعِهِ وَهُوَ ٱلْمُنْقَسِمُ بِٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ وَخَطُّ ٱلْإِسْتِوَاءِ يَقْسِمُ ٱلْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ وَهُوَ طُولُ ٱلْأَرْضِ وَأَكْبَرُ خَطٍّ فِي كُرَتِهَا كَمَا أَنَّ مِنْطَقَةَ فَلَكِ ٱلْبُرُوجِ وَدَائِرَةَ مُعَدَّلِ ٱلنَّهَارِ أَكْبَرُ خَطٍّ فِي ٱلْفَلَكِ وَمِنْطَقَةُ ٱلْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَٱلدَّرَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ ٱلْأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرْسَخاً وَٱلْفَرْسَخُ ٱثْنَا عَشَرَ أَلْفَ ذِرَاعٍ وَٱلذِّرَاعُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إِصْبَعاً وَٱلْإِصْبَعُ سِتُّ حَبَّاتِ شَعِيرٍ مَصْفُوفَةٌ مُلْصَقٌ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ظَهْراً لِبَطْنٍ وَبَيْنَ دَائِرَةِ مُعَدَّلِ ٱلنَّهَارِ ٱلَّتِي تَقْسِمُ ٱلْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ وَتُسَامِتُ خَطَّ ٱلْإِسْتِوَاءِ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً لَكِنِ ٱلْعِمَارَةُ فِي ٱلْجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ خَطِّ ٱلْإِسْتِوَاءِ أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَٱلْبَاقِي مِنْهَا خَلَاءٌ لَا عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَّةِ ٱلْبَرْدِ وَٱلْجُمُودِ كَمَا كَانَتِ ٱلْجِهَةُ ٱلْجَنُوبِيَّةُ خَلَاءً كُلُّهَا لِشِدَّةِ ٱلْحَرِّ كَمَا نُبَيِّنُ ذٰلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ تَعَالَى. ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُخْبِرِينَ عَنْ هٰذَا ٱلْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ وَعَمَّا فِيهِ مِنَ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْمُدُنِ وَٱلْجِبَالِ وَٱلْبِحَارِ وَٱلْأَنْهَارِ وَٱلْقِفَارِ وَٱلرِّمَالِ مِثْلَ بَطْلَيْمُوسَ فِي كِتَابِ ٱلْجُغْرَافِيَا وَصَاحِبِ كِتَابِ زُخَارٍ مِنْ بَعْدِهِ قَسَمُوا هٰذَا ٱلْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ يُسَمُّونَهَا ٱلْأَقَالِيمَ ٱلسَّبْعَةَ بِحُدُودٍ وَهْمِيَّةٍ بَيْنَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةٍ فِي ٱلْعَرْضِ مُخْتَلِفَةٍ فِي ٱلطُّولِ فَٱلْإِقْلِيمُ ٱلْأَوَّلُ أَطْوَلُ مِمَّا بَعْدَهُ وَهٰكَذَا ٱلثَّانِي إِلَى آخِرِهَا فَيَكُونُ ٱلسَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا ٱقْتَضَاهُ وَضْعُ ٱلدَّائِرَةِ ٱلنَّاشِئَةِ عَنِ ٱنْحِسَارِ ٱلْمَاءِ عَنْ كُرَةِ ٱلْأَرْضِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ عِنْدَهُمْ مُنْقَسِمٌ بِعَشَرَةِ أَجْزَاءٍ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ عَلَى ٱلتَّوَالِي وَفِي كُلِّ جُزْءٍ ٱلْخَبَرُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ عُمْرَانِهِ. وَذَكَرُوا أَنَّ هٰذَا ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَغْرِبِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ ٱلْبَحْرُ ٱلرُّومِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ يَبْدَأُ فِي خَلِيجٍ مُتَضَايِقٍ فِي عَرْضِ ٱثْنَيْ عَشَرَ مِيلاً أَوْ نَحْوِهَا مَا بَيْنَ طَنْجَةَ وَطَرِيفَ وَيُسَمَّى ٱلزُّقَاقَ ثُمَّ يَذْهَبُ مُشَرِّقاً وَيَنْفَسِحُ إِلَى عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ وَنِهَايَتُهُ فِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ عَلَى أَلْفِ فَرْسَخٍ وَمِائَةٍ وَسِتِّينَ فَرْسَخاً مِنْ مَبْدَإِهِ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ سَوَاحِلُ ٱلشَّامِ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ سَوَاحِلُ ٱلْمَغْرِبِ أَوَّلُهَا طَنْجَةُ عِنْدَ ٱلْخَلِيجِ ثُمَّ

إفريقيّةَ ثُمَّ بَرْقَةَ إلى الإسكندرِيَّةِ وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ سَوَاحِلُ القِسطَنطِينِيَّةِ عِندَ الخَلِيجِ ثُمَّ البَنَادِقَةُ ثُمَّ رُومَةُ ثُمَّ الإفرَنجَةُ ثُمَّ الأندَلُسُ إلى طَرِيفَ عِندَ الزُّقَاقِ قُبَالَةَ طَنجَةَ وَيُسَمَّى هذا البَحرُ الرُّومِيَّ وَالشَّامِيَّ وَفِيهِ جُزُرٌ كَثِيرَةٌ عَامِرَةٌ كِبَارٌ مِثلَ أقرِيطِشَ وَقُبرُص وَصِقِلِّيَةَ وَمُيُورقَةَ وَسردَانِيَةَ قَالُوا وَيَخرُجُ مِنهُ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ بَحرَانِ آخرَانِ مِن خَلِيجَينِ . أحَدُهُمَا مُسَامِتٌ لِلقِسطَنطِينِيَّةِ يَبدَأُ مِن هٰذا البَحرِ مُتَضَايِقاً فِي عَرضِ رَمْيَةِ السَّهمِ وَيَمُرُّ ثَلاثَةَ بِحَارٍ فَيَتَّصِلُ بِالقِسطَنطِينِيَّةِ ثُمَّ يَنفَسِحُ فِي عَرضِ أربَعَةِ أميَالٍ وَيَمُرُّ فِي جَرْيِهِ سِتِّينَ مِيلاً وَيُسَمَّى خَلِيجَ القِسطَنطِينِيَّةِ ثُمَّ يَخرُجُ مِن فُوهَةٍ عَرضُهَا سِتَّةُ أميَالٍ فَيُمِدُّ بَحرَ نِيطِشَ وَهُوَ بَحرٌ يَنحَرِفُ مِن هُنَالِكَ فِي مَذَاهِبِهِ إلى نَاحِيَةِ الشَّرقِ فَيَمُرُّ بِأرضِ هِرَقلَةَ وَيَنتَهِي إلى بِلَادِ الخَزَرِيَّةِ عَلَى ألفٍ وَثَلاثِمَائَةِ مِيلٍ مِن فُوهَتِهِ وَعَلَيهِ مِن الجَانِبَينِ أُمَمٌ مِنَ الرُّومِ وَالتُّركِ وَبُرجَانَ وَالرُّوسِ . وَالبَحرُ الثَّانِي مِن خَلِيجَي هٰذَا البَحرِ الرُّومِيِّ وَهُوَ بَحرُ البَنَادِقَةِ يَخرُجُ مِن بِلَادِ الرُّومِ عَلَى سَمتِ الشَّمَالِ فَإذَا انتَهَى إلى سَمتِ الجَبَلِ انحَرَفَ فِي سَمتِ المَغرِبِ إلى بِلَادِ البَنَادِقَةِ وَيَنتَهِي إلى بِلَادِ إنكِلَايَة على ألفٍ وَمِائَةِ مِيلٍ مِن مَبدَإِهِ وَعَلَى حَافَتَيهِ مِنَ البَنَادِقَةِ وَالرُّومِ وَغَيرِهِم أُمَمٌ وَيُسَمَّى خَلِيجَ البَنَادِقَةِ. قَالُوا وَيَنسَاحُ مِن هٰذَا البَحرِ المُحِيطِ أيضاً مِنَ الشَّرقِ وَعَلَى ثَلاثَ عَشرَةَ دَرَجَةً فِي الشَّمَالِ مِن خَطِّ الاستِوَاءِ بَحرٌ عَظِيمٌ مُتَّسِعٌ يَمُرُّ فِي الجَنُوبِ قَلِيلاً حَتَّى يَنتَهِي إلى الإقلِيمِ الأوَّلِ ثُمَّ يَمُرُّ فِيهِ مَغرِباً إلى أن يَنتَهِيَ فِي الجُزءِ الخَامِسِ مِنهُ إلى بِلَادِ الحَبَشَةِ وَالزِّنجِ وَإلى بِلَادِ بَابِ المَندَبِ مِنهُ عَلَى أربَعَةِ آلافِ فَرسَخٍ مِن مَبدَإِهِ وَيُسَمَّى البَحرَ الصِّينِيَّ وَالهِندِيَّ وَالحَبَشِيَّ وَعَلَيهِ مِن جِهَةِ الجَنُوبِ بِلَادُ الزِّنجِ وَبِلَادُ بَربَرَ الَّتِي ذَكَرَهَا امرُؤُ القَيسِ فِي شِعرِهِ وَلَيسُوا مِنَ البَربَرِ الَّذِينَ هُم قَبَائِلُ المَغرِبِ ثُمَّ بَلَدُ مَقدَشُو ثُمَّ بَلَدُ سُفَالَةَ وَأرضُ الوَقوَاقِ وَأُمَمٌ أُخَرُ لَيسَ بَعدَهُم إلَّا القِفَارُ وَالخَلَاءُ وَعَلَيهِ مِن جِهَةِ الشَّمَالِ الصِّينُ مِن عِندِ مَبدَإِهِ ثُمَّ الهِندُ ثُمَّ السِّندُ ثُمَّ سَوَاحِلُ اليَمَنِ مِنَ الأحقَافِ وَزَبِيدَ وَغَيرِهَا ثُمَّ بِلَادُ الزِّنجِ عِندَ نِهَايَتِهِ وَبَعدَهُم الحَبَشَةُ. قَالُوا وَيَخرُجُ مِن هذا البَحرِ الحَبَشِيِّ بَحرَانِ آخرَانِ أحَدُهُمَا يَخرُجُ مِن نِهَايَتِهِ عِندَ بَابِ المَندَبِ فَيَبدَأُ مُتَضَايِقاً ثُمَّ يَمُرُّ مُستَبحِراً إلى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَمُغَرِّباً قَلِيلاً إلى أن يَنتَهِيَ إلى القُلزُمِ فِي الجُزءِ الخَامِسِ مِنَ الإقلِيمِ الثَّانِي عَلَى ألفٍ وَأربَعِمائَةِ مِيلٍ مِن مَبدَإِهِ وَيُسَمَّى بَحر

ٱلقُلْزُم وَبَحْرَ ٱلسُّوَيْس وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ فِسْطَاطِ مِصْرَ مِنْ هُنَالِكَ ثَلاثُ مَرَاحِلَ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ سَوَاحِلُ ٱلْيَمَنِ ثُمَّ ٱلْحِجَازُ وَجِدَّةُ ثُمَّ مَدْيَنُ وَأَيْلَةُ وَفَارَانُ عِنْدَ نِهَايَتِهِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلْغَرْبِ سَوَاحِلُ ٱلصَّعِيدِ وَعِيذَابُ وَسَوَاكِنُ وَزَيْلَعُ ثُمَّ بِلاد ٱلْحَبَشَةِ عِنْدَ مَبْدَإِهِ وَآخِرُهُ عِنْدَ ٱلْقُلْزُمِ يُسَامِتُ ٱلْبَحْرَ ٱلرُّومِيَّ عِنْدَ ٱلْعَرِيشِ وَبَيْنَهُمَا نَحْوَ سِتِّ مَرَاحِلَ وَمَا زَالَ ٱلْمُلُوكُ فِي ٱلْإِسْلامَ وَقَبْلَهُ يَرُومُونَ خَرْقَ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَتِمَّ ذٰلِكَ وَٱلْبَحْرُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْحَبَشِيِّ وَيُسَمَّى ٱلْخَلِيجَ ٱلْأَخْضَرَ يَخْرُجُ مَا بَيْنَ بِلادِ ٱلسِّنْدِ وَٱلْأَحْقَافِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَيَمُرُّ إِلَى نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ مُغَرِّباً قَلِيلاً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْأُبُلَّةِ مِنْ سَوَاحِلِ ٱلْبَصْرَةِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّانِي عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ فَرْسَخٍ وَأَرْبَعِينَ فَرْسَخاً مِنْ مَبْدَإِهِ وَيُسَمَّى بَحْرَ فَارِسَ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ سَوَاحِلُ ٱلسِّنْدِ وَمُكْرَانَ وَكَرْمَانَ وَفَارِسَ وَٱلْأُبُلَّةُ وَعِنْدَ نِهَايَتِهِ مِنْ جِهَةِ ٱلْغَرْبِ سَوَاحِلُ ٱلْبَحْرَيْنِ وَٱلْيَمَامَةِ وَعُمَانَ وَٱلشِّحْرِ وَٱلْأَحْقَافِ عِنْدَ مَبْدَإِهِ وَفِيمَا بَيْنَ بَحْرِ فَارِسَ وَٱلْقُلْزُمِ وَجَزِيرَةِ ٱلْعَرَبِ كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ مِنَ ٱلْبَرِّ فِي ٱلْبَحْرِ يُحِيطُ بِهَا ٱلْبَحْرُ ٱلْحَبَشِيُّ مِنَ ٱلْجَنُوبِ وَبَحْرُ ٱلْقُلْزُمِ مِنَ ٱلْغَرْبِ وَبَحْرُ فَارِسَ مِنَ ٱلشَّرْقِ وَتُفْضِي إِلَى ٱلْعِرَاقِ بَيْنَ ٱلشَّامِ وَٱلْبَصْرَةِ عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ بَيْنَهُمَا وَهُنَالِكَ ٱلْكُوفَةُ وَٱلْقَادِسِيَّةُ وَبَغْدَادُ وَإِيوَانُ كِسْرَى وَٱلْحِيرَةُ وَوَرَاءَ ذٰلِكَ أُمَمُ ٱلْأَعَاجِمِ مِنَ ٱلتُّرْكِ وَٱلْخَزَرِ وَغَيْرِهِمْ وَفِي جَزِيرَةِ ٱلْعَرَبِ بِلادُ ٱلْحِجَازِ فِي جِهَةِ ٱلْغَرْبِ مِنْهَا وَبِلادُ ٱلْيَمَامَةِ وَٱلْبَحْرَيْنِ وَعُمَانَ فِي جِهَةِ ٱلشَّرْقِ مِنْهَا وبِلادُ ٱلْيَمَنِ فِي جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ مِنْهَا وَسَوَاحِلُهُ عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْحَبَشِيِّ. قَالُوا وَفِي هٰذَا ٱلْمَعْمُورِ بَحْرٌ آخَرُ مُنْقَطِعٌ مِنْ سَائِرِ ٱلْبِحَارِ فِي نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ بِأَرْضِ ٱلدَّيْلَمِ يُسَمَّى بَحْرَ جُرْجَانَ وَطَبَرِسْتَانَ طُولُهُ أَلْفُ مِيلٍ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ فِي غَرْبِيِّهِ أَذْرَبِيجَانُ وَٱلدَّيْلَمُ وَفِي شَرْقِيِّهِ أَرْضُ ٱلتُّرْكِ وَخُوَارَزْمَ وَفِي جَنُوبِيِّهِ طَبَرِسْتَانُ وَفِي شَمَالِيِّهِ أَرْضُ ٱلْخَزَرِ وَٱللَّانِ. هٰذِهِ جُمْلَةُ ٱلْبِحَارِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ ٱلْجُغْرَافِيَا. قَالُوا وَفِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ أَعْظَمُهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ وَهِيَ ٱلنِّيلُ وَٱلْفُرَاتُ وَدِجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخَ ٱلْمُسَمَّى جَيْحُونَ. فَأَمَّا ٱلنِّيلُ فَمَبْدَأُهُ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ خَطِّ ٱلْاِسْتِوَاءِ بِسِتَّ عَشْرَةَ دَرَجَةً عَلَى سَمْتِ ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَيُسَمَّى جَبَلَ ٱلْقَمَرِ وَلاَ يُعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ جَبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ. تَخْرُجُ مِنْهُ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ فَيَصُبُّ بَعْضُهَا فِي بُحَيْرَةٍ هُنَاكَ وَبَعْضُهَا فِي أُخْرَى ثُمَّ تَخْرُجُ أَنْهَارٌ مِنَ ٱلْبُحَيْرَتَيْنِ فَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي بُحَيْرَةٍ

وَاحِدَةٍ عِنْدَ خَطِّ ٱلْاَسْتِوَاءِ عَلَى عَشْرِ مَرَاحِلَ مِنَ ٱلْجَبَلِ وَيَخْرُجُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْبُحَيْرَةِ نَهْرَانِ يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ ٱلشَّمَالِ عَلَى سَمْتِهِ وَيَمُرُّ بِبِلَادِ ٱلنُّوبَةِ ثُمَّ بِلَادِ مِصْرَ فَإِذَا جَاوَزَهَا تَشَعَّبَ فِي شُعَبٍ مُتَقَارِبَةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَلِيجاً وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ عِنْدَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَيُسَمَّى نِيلَ مِصْرَ وَعَلَيْهِ ٱلصَّعِيدُ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَٱلْوَاحَاتُ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَيَذْهَبُ ٱلْآخَرُ مُنْعَطِفاً إِلَى ٱلْمَغْرِبِ ثُمَّ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَهُوَ نَهْرُ ٱلسُّودَانِ وَأُمَمُهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى ضِفَّتَيْهِ. وَأَمَّا ٱلْفُرَاتُ فَمَبْدَأُهُ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَمُرُّ جَنُوباً فِي أَرْضِ ٱلرُّومِ وَمَلَطْيَةَ إِلَى مَنْبِجَ ثُمَّ يَمُرُّ بِصِفِّينَ ثُمَّ بِٱلرَّقَّةِ ثُمَّ بِٱلْكُوفَةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْبَطْحَاءِ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلْبَصْرَةِ وَوَاسِطٍ وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْحَبَشِيِّ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ وَيَخْرُجُ مِنْهُ أَنْهَارٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دِجْلَةَ. وَأَمَّا دِجْلَةُ فَمَبْدَأُهَا عَيْنٌ بِبِلَادِ خِلَاطٍ مِنْ أَرْمِينِيَّةَ أَيْضاً وَتَمُرُّ عَلَى سَمْتِ ٱلْجَنُوبِ بِٱلْمَوْصِلِ وَأَذْرَبِيجَانَ وَبَغْدَادَ إِلَى وَاسِطَ فَتَتَفَرَّقُ إِلَى خُلْجَانٍ كُلُّهَا تَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ ٱلْبَصْرَةِ وَتُفْضِي إِلَى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ فِي ٱلشَّرْقِ عَلَى يَمِينِ ٱلْفُرَاتِ وَيَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَفِيمَا بَيْنَ ٱلْفُرَاتِ وَدِجْلَةَ مِنْ أَوَّلِهِ جَزِيرَةُ ٱلْمَوْصِلِ قُبَالَةَ ٱلشَّامِ مِنْ عُدْوَتَيِ ٱلْفُرَاتِ وَقُبَالَةَ أَذْرَبِيجَانَ مِنْ عُدْوَةِ دِجْلَةَ. وَأَمَّا نَهْرُ جَيْحُونَ فَمَبْدَأُهُ مِنْ بَلْخَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ مِنْ عُيُونٍ هُنَاكَ كَثِيرَةٍ وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ عِظَامٌ وَيَذْهَبُ مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فَيَمُرُّ بِبِلَادِ خُرَاسَانَ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ خُوَارَزْمَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فَيَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ ٱلْجُرْجَانِيَّةِ ٱلَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهَا وَهِيَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ فِي مِثْلِهِ وَإِلَيْهَا يَنْصَبُّ نَهْرُ فَرْغَانَةَ وَٱلشَّاشِ ٱلْآتِي مِنْ بِلَادِ ٱلتُّرْكِ وَعَلَى غَرْبِيِّ نَهْرِ جَيْحُونَ بِلَادُ خُرَاسَانَ وَخُوَارَزْمَ وَعَلَى شَرْقِيِّهِ بِلَادُ بُخَارَى وَتِرْمِذَ وَسَمَرْقَنْدَ وَمِنْ هُنَالِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ بِلَادُ ٱلتُّرْكِ وَفَرْغَانَةَ وَٱلْخَزْلَجِيَّةِ وَأُمَمُ ٱلْأَعَاجِمِ وَقَدْ ذَكَرَ ذٰلِكَ كُلَّهُ بَطْلِيمُوسُ فِي كِتَابِهِ وَٱلشَّرِيفُ فِي كِتَابِ زُخَارٍ وَصَوَّرُوا فِي ٱلْجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي ٱلْمَعْمُورِ مِنَ ٱلْجِبَالِ وَٱلْبِحَارِ وَٱلْأَوْدِيَةِ وَٱسْتَوْفَوْا مِنْ ذٰلِكَ مَا لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطُولِهِ وَلِأَنَّ عِنَايَتَنَا فِي ٱلْأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلَّذِي هُوَ وَطَنُ ٱلْبَرْبَرِ وَبِٱلْأَوْطَانِ ٱلَّتِي لِلْعَرَبِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ.

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في ان الربع الشمالي من الارض اكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

وَنَحْنُ نَرَى بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ الْأَوَّلَ وَالثَّانِيَ مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمَعْمُورَةِ أَقَلُّ عُمْرَاناً مِمَّا بَعْدَهُمَا وَمَا وُجِدَ مِنْ عُمْرَانِهِ فَيَتَخَلَّلُهُ الْخَلَاءُ وَالْقِفَارُ وَالرِّمَالُ وَالْبَحْرُ الْهِنْدِيُّ الَّذِي فِي الشَّرْقِ مِنْهُمَا وَأُمَمُ هٰذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ وَأَنَاسِيُّهُمَا لَيْسَتْ لَهُمُ الْكَثْرَةُ الْبَالِغَةُ وَأَمْصَارُهُ وَمُدُنُهُ كَذٰلِكَ وَالثَّالِثُ وَالرَّابِعُ وَمَا بَعْدَهُمَا بِخِلَافِ ذٰلِكَ فَالْقِفَارُ فِيهَا قَلِيلَةٌ وَالرِّمَالُ كَذٰلِكَ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَأُمَمُهَا وَأَنَاسِيُّهَا تَجُوزُ الْحَدَّ مِنَ الْكَثْرَةِ وَأَمْصَارُهَا وَمُدُنُهَا تُجَاوِزُ الْحَدَّ عَدَداً وَالْعُمْرَانُ فِيهَا مُنْدَرِجٌ مَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالسَّادِسِ وَالْجَنُوبُ خَلَاءٌ كُلُّهُ وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ أَنَّ ذٰلِكَ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَقِلَّةِ مَيْلِ الشَّمْسِ فِيهَا عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فَلْنُوضِحْ ذٰلِكَ بِبُرْهَانِهِ وَيَتَبَيَّنُ مِنْهُ سَبَبُ كَثْرَةِ الْعِمَارَةِ فِيمَا بَيْنَ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ جَانِبِ الشَّمَالِ إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّابِعِ. فَنَقُولُ إِنَّ قُطْبَيِ الْفَلَكِ الْجَنُوبِيَّ وَالشَّمَالِيَّ إِذَا كَانَا عَلَى الْأُفُقِ فَهُنَالِكَ دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ هِيَ أَعْظَمُ الدَّوَائِرِ الْمَارَّةِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَتُسَمَّى دَائِرَةَ مُعَدَّلِ النَّهَارِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْهَيْئَةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يُحَرِّكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفْلَاكِ فِي جَوْفِهِ قَهْراً وَهٰذِهِ الْحَرَكَةُ مَحْسُوسَةٌ وَكَذٰلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا حَرَكَةً مُخَالِفَةً لِهٰذِهِ الْحَرَكَةِ وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَخْتَلِفُ آمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ فِي السُّرْعَةِ وَالْبُطْءِ وَمَمَرَّاتُ هٰذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا تُوَازِيهَا كُلَّهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفَلَكِ الْأَعْلَى تَقْسِمُهُ بِنِصْفَيْنِ وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكِ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِاثْنَيْ عَشَرَ بُرْجاً وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ عَلَى نُقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْبُرُوجِ هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدَّلِ النَّهَارِ بِنِصْفَيْنِ نِصْفٌ مَائِلٌ عَنْ مُعَدَّلِ النَّهَارِ إِلَى الشَّمَالِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ وَنِصْفٌ مَائِلٌ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحُوتِ وَإِذَا وَقَعَ الْقُطْبَانِ عَلَى الْأُفُقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ

عَلَى سَطحِ ٱلأَرْضِ خطٌ وَاحِدٌ يُسَامِتُ دَائِرَةَ مُعَدَّلِ ٱلنَّهَارِ يَمُرُّ مِنَ ٱلمَغرِبِ إِلَى ٱلمَشرِق وَيُسَمَّى خطَّ ٱلاَسْتِوَاء وَوَقَعُ هذَا ٱلخَطِّ بِٱلرَّصدِ عَلى مَا زَعَمُوا في مَبْدَإِ ٱلإِقْلِيمِ الأَوَّلِ منَ ٱلأَقَالِيمِ ٱلسَّبعَةِ وَٱلعُمْرَانُ كُلُّهُ في ٱلجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ يَرْتَفِعُ عَنْ آفَاقِ هذَا ٱلمَعْمُور بِٱلتَّدْرِيجِ إِلى أَنْ يَنْتَهِيَ ٱرْتِفَاعُهُ إِلَى أَرْبعٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً وَهُنَالِكَ يَنْقَطِعُ ٱلعُمْرَان وَهُوَ آخِرُ ٱلإِقْلِيمِ ٱلسَّابع وَإِذَا ٱرْتَفَعَ عَلى ٱلأُفُقِ تِسْعِينَ دَرَجَةً وَهِيَ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلقُطْب وَدَائِرَةِ مُعَدَّلِ ٱلنَّهَارِ عَلى ٱلأُفقِ وَبَقِيَتْ سِتَّةٌ مِنَ ٱلبُرُوجِ فَوْقَ ٱلأُفقِ وَهِيَ ٱلشَّمَالِيَّةُ وَسِتَّة تحتَ ٱلأُفقِ وَهِيَ ٱلجَنُوبِيَّةُ وَٱلعِمَارَةُ فيمَا بَيْنَ ٱلأَرْبعَةِ وَٱلسِّتِّينَ إِلى ٱلتِّسعِينَ مُمْتَنِعَةٌ لِأَنَّ ٱلحَرَّ وَٱلبَرْدَ حِينَئذٍ لا يَحْصُلانِ مُمْتَزِجَيْنِ لِبُعْدِ ٱلزَّمَانِ بَيْنَهُمَا فَلَا يَحْصُلُ ٱلتَّكوِينُ فَإِذَا ٱلشَّمْسُ تُسَامِتُ ٱلرُّؤُوسَ عَلى خَطِّ ٱلاَسْتِوَاء في رَأْسِ ٱلحَمَلِ وَٱلمِيزَانِ ثُمَّ تَمِيلُ عَن ٱلمُسَامَتَةِ إِلى رَأْسِ ٱلسَّرَطَانِ وَرَأْسِ ٱلجَدْيِ وَيَكُونُ نِهَايَةُ مَيْلِهَا عَنْ دَائِرَةِ مُعَدَّل ٱلنَّهَارِ أَرْبعاً وَعِشرِينَ دَرَجَةً ثُمَّ إِذَا ٱرْتَفَعَ ٱلقُطْبُ ٱلشَّمَالِيُّ عَنِ ٱلأُفقِ مَالَتْ دَائِرَةُ مُعَدَّل ٱلنَّهَارِ عَنْ سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ بِمقْدَارِ ٱرْتِفَاعِهِ وَٱنْخَفَضَ ٱلقُطْبُ ٱلجَنُوبِيُّ كَذلِكَ بِمِقْدَار مُتَسَاوٍ في ٱلثَّلَاثَةِ وَهُوَ ٱلمُسَمَّى عِنْدَ أَهلِ ٱلمَوَاقِيتِ عَرْضَ ٱلبَلَدِ وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَة مُعَدَّلِ ٱلنَّهَارِ عَنْ سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ عَلَتْ عَلَيْهَا ٱلبُرُوجُ ٱلشَّمَالِيَّةُ مُندَرِجَةً في مِقْدَارِ عُلُوِّهَا إِلى رَأْسِ ٱلسَّرَطَانِ وَٱنْخَفَضَتِ ٱلبُرُوجُ ٱلجَنُوبِيَّةُ مِنَ ٱلأُفقِ كَذلِكَ إِلَى رَأْسِ ٱلجَدْيِ لٱنْحِرَافِهَا إِلى ٱلجَانِبَيْنِ فِي أُفقِ ٱلاِسْتِوَاء كَمَا قُلْنَاهُ فَلَا يَزَالُ ٱلأُفقُ ٱلشَّمَالِيُّ يَرْتَفِعُ حَتَّى يَصِيرَ أَبْعَدَ ٱلشَّمَالِيَّةِ وَهُوَ رَأْسُ ٱلسَّرَطَانِ في سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ وَذلِكَ حَيْثُ يَكُونُ عَرض ٱلبَلَدِ أَرْبعاً وَعِشرِينَ في ٱلحِجَازِ وَمَا يَلِيهِ وَهذَا هُوَ ٱلمَيْلُ ٱلَّذِي إِذَا مَالَ رَأْسُ ٱلسَّرَطَان عنْ مُعَدَّلِ ٱلنَّهَارِ في أُفقِ ٱلاِسْتِوَاء ٱرْتَفَعَ بِٱرْتِفَاعِ ٱلقُطْبِ ٱلشَّمَالِي حَتَّى صَارَ مُسَامِتاً فَإِذَا ٱرْتَفَعَ ٱلقُطْبُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبعٍ وَعِشْرِينَ نَزَلَتِ ٱلشَّمْسُ عَنِ ٱلمُسَامَتَةِ وَلَا تَزَال في ٱنْخِفَاضٍ إِلى أَنْ يَكُونَ ٱرْتِفَاعُ ٱلقُطْبِ أَرْبعاً وَسِتِّينَ وَيَكُونُ ٱنْخِفَاضُ ٱلشَّمْسِ عَن ٱلمُسَامَتَةِ كَذلِكَ وَٱنْخِفَاضُ ٱلقُطْبِ ٱلجَنُوبِيِّ عَنِ ٱلأُفقِ مِثْلَهَا فَيَنْقَطِعُ ٱلتَّكوِينُ لِإِفرَاطِ ٱلبَرْدِ وَٱلجَمَدِ وَطُولِ زَمَانِهِ غَيْرَ مُمْتَزِجٍ بِٱلحَرِّ. ثُمَّ إِنَّ ٱلشَّمْسَ عِنْدَ ٱلمُسَامَتَةِ وَمَا يُقَارِبُهَا تَبْعَثُ ٱلأَشِعَّةَ قَائِمَةً وَفِيمَا دُونَ ٱلمُسَامَتَةِ عَلى زَوَايَا مُنفَرِجَةٍ وَحَادَّةٍ وَإِذَا كَانَت زَوَايَا ٱلأَشِعَّةِ قَائِمَةً عَظُمَ ٱلضَّوءُ وَٱنْتَشَرَ بِخِلَافِهِ في ٱلمُنفَرِجَةِ وَٱلحَادَّةِ فَلِهذَا يَكُون

ٱلْحَرُّ عِندَ ٱلْمُسَامَتَةِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيمَا بَعْدُ لِأَنَّ ٱلضَّوْءَ سَبَبُ ٱلْحَرِّ وَٱلتَّسْخِين

ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُسَامَتَةَ فِي خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فِي ٱلسَّنَةِ عِندَ نُقْطَتَيِ ٱلْحَمَلِ وَٱلْمِيزَانِ وَإِذَا مَالَتْ فَغَيْرُ بَعِيدٍ وَلَا يَكَادُ ٱلْحَرُّ يَعْتَدِلُ فِي آخِرِ مَيْلِهَا عِندَ رَأْسِ ٱلسَّرَطَانِ وَٱلْجَدْيِ إِلَّا إِنْ صَعِدَتْ إِلَى ٱلْمُسَامَتَةِ فَتَبْقَى ٱلْأَشِعَّةُ ٱلْقَائِمَةُ ٱلزَّوَايَا تُلِحُّ عَلَى ذَٰلِكَ ٱلْأُفُقِ وَيَطُولُ مُكْثُهَا أَوْ يَدُومُ فَيَشْتَعِلُ ٱلْهَوَاءُ حَرَارَةً وَيُفْرِطُ فِي شِدَّتِهَا وَكَذَا مَا دَامَتِ ٱلشَّمْسُ تُسَامِتُ مَرَّتَيْنِ فِيمَا بَعْدَ خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ إِلَى عَرْضِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ فَإِنَّ ٱلْأَشِعَّةَ مُلِحَّةٌ عَلَى ٱلْأُفُقِ فِي ذَٰلِكَ بِقَرِيبٍ مِنْ إِلْحَاحِهَا فِي خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ وَإِفْرَاطُ ٱلْحَرِّ يَفْعَلُ فِي ٱلْهَوَاءِ تَجْفِيفاً وَيُبْساً يَمْنَعُ مِنَ ٱلتَّكْوِينِ لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ ٱلْحَرُّ جَفَّتِ ٱلْمِيَاهُ وَٱلرُّطُوبَاتُ وَفَسَدَ ٱلتَّكْوِينُ فِي ٱلْمَعْدِنِ وَٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ إِذِ ٱلتَّكْوِينُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرُّطُوبَةِ ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ ٱلسَّرَطَانِ عَنْ سَمْتِ ٱلرُّؤُوسِ فِي عَرْضِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ فَمَا بَعْدَهُ نَزَلَتِ ٱلشَّمْسُ عَنِ ٱلْمُسَامَتَةِ فَيَصِيرُ ٱلْحَرُّ إِلَى ٱلِاعْتِدَالِ أَوْ يَمِيلُ عَنْهُ مَيْلاً قَلِيلاً فَيَكُونُ ٱلتَّكْوِينُ وَيَتَزَايَدُ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ إِلَى أَنْ يُفْرِطَ ٱلْبَرْدُ فِي شِدَّتِهِ لِقِلَّةِ ٱلضَّوْءِ وَكَوْنِ ٱلْأَشِعَّةِ مُنْفَرِجَةَ ٱلزَّوَايَا فَيَنْقُصُ ٱلتَّكْوِينُ وَيَفْسُدُ بَيْدَ أَنَّ فَسَادَ ٱلتَّكْوِينِ مِن جِهَةِ شِدَّةِ ٱلْحَرِّ أَعْظَمُ مِنْهُ مِن جِهَةِ شِدَّةِ ٱلْبَرْدِ لِأَنَّ ٱلْحَرَّ أَسْرَعُ تَأْثِيراً فِي ٱلتَّجْفِيفِ مِنْ تَأْثِيرِ ٱلْبَرْدِ فِي ٱلْجَمَدِ فَلِذَٰلِكَ كَانَ ٱلْعُمْرَانُ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي قَلِيلاً وَفِي ٱلثَّالِثِ وَٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ مُتَوَسِّطاً لِاعْتِدَالِ ٱلْحَرِّ بِنُقْصَانِ ٱلضَّوْءِ وَفِي ٱلسَّادِسِ وَٱلسَّابِعِ كَثِيراً لِنُقْصَانِ ٱلْحَرِّ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ ٱلْبَرْدِ لَا تُؤَثِّرُ عِندَ أَوَّلِهَا فِي فَسَادِ ٱلتَّكْوِينِ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْحَرُّ إِذْ لَا تَجْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِندَ ٱلْإِفْرَاطِ بِمَا يَعْرِضُ لَهَا حِينَئِذٍ مِنَ ٱلْيُبْسِ كَمَا بَعْدَ ٱلسَّابِعِ فَلِهَٰذَا كَانَ ٱلْعُمْرَانُ فِي ٱلرُّبْعِ ٱلشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ هُنَا أَخَذَ ٱلْحُكَمَاءُ خَلَاءَ خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُتَوَاتِرَةِ فَكَيْفَ يَتِمُّ ٱلْبُرْهَانُ عَلَى ذَٰلِكَ وَٱلظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا ٱمْتِنَاعَ ٱلْعُمْرَانِ فِيهِ بِٱلْكُلِّيَّةِ إِنَّمَا أَدَّاهُمُ ٱلْبُرْهَانُ إِلَى أَنَّ فَسَادَ ٱلتَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ ٱلْحَرِّ وَٱلْعُمْرَانُ فِيهِ إِمَّا مُمْتَنِعٌ أَوْ مُمْكِنٌ أَقَلِّيٌّ وَهُوَ كَذَٰلِكَ فَإِنَّ خَطَّ ٱلِاسْتِوَاءِ وَٱلَّذِي وَرَاءَهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمْرَانٌ كَمَا نُقِلَ فَهُوَ قَلِيلٌ جِدّاً . وَقَدْ زَعَمَ ٱبْنُ رُشْدٍ أَنَّ خَطَّ ٱلِاسْتِوَاءِ مُعْتَدِلٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي ٱلْجَنُوبِ بِمَثَابَةِ مَا وَرَاءَهُ فِي ٱلشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا

غمر من هذا والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكوين ولما امتنع المعتدل لغيبة الماء تبعه ما سواه لأن العمران متدرج ويأخذ في التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر والله أعلم . ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب زخار ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها إلى آخره

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

إعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب يسمون كل قسم منها إقليما فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . فالأول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء بحده من جهة الجنوب وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة إن صحت فهي كلا عمارة ويليه من جهة شماليه الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من جهة الشمال وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب إلا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب . ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الإقليم الأول وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي لليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الإقليم الثاني مما يلي الشمال فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقلبها الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدي ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهي دورة الفلك الكاملة

وكذلك في آخر الإقليم الثالث مما يلي الشمال أيضا ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة وفي آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس إلى خمس عشرة ساعة وفي آخر السادس إلى خمس عشرة ساعة ونصف وإلى آخر السابع إلى ست عشرة ساعة وهنالك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطوال من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل إقليم يتزايد من أوله في ناحية الجنوب إلى آخره في ناحية الشمال موزعة على أجزاء هذا البعد. وأما عرض البلدان في هذه الأقاليم وهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء وبمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل.
والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الأقاليم السبعة في طوله من المغرب إلى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والأمصار والجبال والأنهار والمسافات بينها في المسالك ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار في كل جزء منها ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألفه العلوي الأدريسي الحمودي لملك صقلية من الإفرنج وهو رجار بن رجار عند ما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج صقلية من إمارة مالقة وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة وجمع له كتبا جمة للمسعودي وابن خرداذبه والحوقلي والقدري وابن إسحاق المنجم وبطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالإقليم الأول إلى آخرها والله سبحانه وتعالى يعصمنا بمنه وفضله

الإقليم الأول * وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد وليست في بسيط الإقليم وإنما هي في البحر المحيط جزر متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاث ويقال إنها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أسراهم بسواحل المغرب الأقصى وصاروا إلى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون وأن

اَلْحَدِيدَ مَفْقُودٌ بِأَرْضِهِمْ وَعَيْشُهُمْ مِنَ ٱلشَّعِيرِ وَمَاشِيَتُهُمُ ٱلْمَعْزُ وَقِتَالُهُمْ بِٱلْحِجَارَةِ يَرْمُونَهَا إِلَى خَلْفُ وَعِبَادَتُهُمُ ٱلسُّجُودُ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا يَعْرِفُونَ دِيناً وَلَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةٌ وَلَا يُوقَفُ عَلَى مَكَانِ هٰذِهِ ٱلْجَزَائِرِ إِلَّا بِٱلْعُثُورِ لَا بِٱلْقَصْدِ إِلَيْهَا لِأَنَّ سَيْرَ ٱلسُّفُنِ فِي ٱلْبَحْرِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلرِّيَاحِ وَمَعْرِفَةِ جِهَاتِ مَهَابِّهَا وَإِلَى أَيْنَ يُوصِلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي فِي مَمَرِّ ذٰلِكَ ٱلْمَهَبِّ وَإِذَا ٱخْتَلَفَ ٱلْمَهَبُّ وَعُلِمَ حَيْثُ يُوصِلُ عَلَى ٱلِٱسْتِقَامَةِ حُوذِيَ بِهِ ٱلْقِلْعُ مُحَاذَاةً يَحْمِلُ ٱلسَّفِينَةَ بِهَا عَلَى قَوَانِينَ فِي ذٰلِكَ مُحَصَّلَةٍ عِنْدَ ٱلنَّوَاتِيَةِ وَٱلْمَلَّاحِينَ ٱلَّذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ ٱلسُّفُنِ فِي ٱلْبَحْرِ وَٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي فِي حَافَاتِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِي وَفِي عُدْوَتِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ وَفِي وَضْعِهَا فِي سَوَاحِلِ ٱلْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَمَهَابُّ ٱلرِّيَاحِ وَمَمَرَّاتُهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا مَرْسُومٌ مَعَهَا فِي تِلْكَ ٱلصَّحِيفَةِ وَيُسَمُّونَهَا ٱلْكُنْبَاصَ وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ وَهٰذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فَلِذٰلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ ٱلسُّفُنُ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ عَنْ مَرْأَى ٱلسَّوَاحِلِ فَقَلَّ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَعَ مَا يَنْعَقِدُ فِي جَوِّ هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ ٱلْأَبْخِرَةِ ٱلْمُمَانِعَةِ لِلسُّفُنِ فِي مَسِيرِهَا وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُدْرِكُهَا أَضْوَاءُ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُنْعَكِسَةُ مِنْ سَطْحِ ٱلْأَرْضِ فَتُحَلِّلُهَا فَلِذٰلِكَ عَسُرَ ٱلِٱهْتِدَاءُ إِلَيْهَا وَصَعُبَ ٱلْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا. وَأَمَّا ٱلْجُزْءُ ٱلْأَوَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فَفِيهِ مَصَبُّ ٱلنِّيلِ ٱلْآتِي مِنْ مَبْدَإِهِ عِنْدَ جَبَلِ ٱلْقَمَرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيُسَمَّى نِيلَ ٱلسُّودَانِ وَيَذْهَبُ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أَوْلِيلَ وَعَلَى هٰذَا ٱلنِّيلِ مَدِينَةُ سَلَا وَتَكْرُورُ وَغَانَةُ وَكُلُّهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ مَلِكِ مَالِي مِنْ أُمَمِ ٱلسُّودَانِ وَإِلَى بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تُجَّارُ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَبِٱلْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شَمَالِيِّهَا بِلَادُ لِمْتُونَةَ وَسَائِرُ طَوَائِفِ ٱلْمُلَثَّمِينَ وَمَفَاوِزُ يَجُولُونَ فِيهَا وَفِي جَنُوبِيِّ هٰذَا ٱلنِّيلِ قَوْمٌ مِنَ ٱلسُّودَانِ يُقَالُ لَهُمْ لِمْلَمُ وَهُمْ كُفَّارٌ وَيَكْتَوُونَ فِي وُجُوهِهِمْ وَأَصْدَاغِهِمْ وَأَهْلُ غَانَةَ وَٱلتَّكْرُورِ يُغِيرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونَهُمْ وَيَبِيعُونَهُمْ لِلتُّجَّارِ فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَكُلُّهُمْ عَامَّةُ رَقِيقِهِمْ وَلَيْسَ وَرَاءَهُمْ فِي ٱلْجَنُوبِ عُمْرَانٌ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنَاسِيُّ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْحَيَوَانِ ٱلْعُجْمِ مِنَ ٱلنَّاطِقِ يَسْكُنُونَ ٱلْفَيَافِيَ وَٱلْكُهُوفَ وَيَأْكُلُونَ ٱلْعُشْبَ وَٱلْحُبُوبَ غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ ٱلْبَشَرِ. وَفَوَاكِهُ بِلَادِ ٱلسُّودَانِ كُلُّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ ٱلْمَغْرِبِ مِثْلِ تُوَاتٍ وَتِكْدَرَارِينَ وَوَرْكَلَانَ. فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيمَا يُقَالُ مَلِكٌ وَدَوْلَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ ٱلْعَلَوِيِّينَ

يعرفون ببني صالح وقال صاحب كتاب زخار إنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من الإقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك ويمر مغرباً فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائماً بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كانم من أمم السودان وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه وفي شرقي بلاد ونغارة وكانم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم وفيه يمر نيل مصر ذاهباً من مبدإه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشمال ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة إلى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربي منه إلى بلاد السودان مغرباً حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرقي منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم الأول وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صباً هائلاً فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد

أَسْوَانَ قَاعِدَةِ ٱلصَّعِيدِ إِلَى فَوْقِ ٱلْجَنَادِلِ وَبَيْنَ ٱلْجَنَادِلِ وَأُسْوَانَ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ مَرْحَلَةً
وَٱلْوَاحَاتُ فِي غَرْبِيِّهَا عُدْوَةَ ٱلنِّيلِ وَهِيَ ٱلْآنَ خَرَابٌ وَبِهَا آثَارُ ٱلْعِمَارَةِ ٱلْقَدِيمَةِ. وَفِي وَسَطِ
هذا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْهُ بِلَادُ ٱلْحَبَشَةِ عَلَى وَادٍ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ خَطِّ ٱلْاسْتِوَاءِ
ذَاهِبًا إِلَى أَرْضِ ٱلنُّوبَةِ فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي ٱلنِّيلِ ٱلْهَابِطِ إِلَى مِصْرَ وَقَدْ وَهِمَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ
ٱلنَّاسِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ نِيلِ ٱلْقَمَرِ وَبَطْلِيمُوسُ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ ٱلْجُغْرَافِيَا وَذَكَرَ أَنَّهُ
لَيْسَ مِنْ هٰذَا ٱلنِّيلِ. وَإِلَى وَسَطِ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ يَنْتَهِي بَحْرُ ٱلْهِنْدِ ٱلَّذِي
يَدْخُلُ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلصِّينِ وَيَغْمُرُ عَامَّةَ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ إِلَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ
عُمْرَانٌ إِلَّا مَا كَانَ فِي ٱلْجَزَائِرِ ٱلَّتِي فِي دَاخِلِهِ وَهِيَ مُتَعَدِّدَةٌ يُقَالُ تَنْتَهِي إِلَى أَلْفِ جَزِيرَةٍ
أَوْ فِيمَا عَلَى سَوَاحِلِهِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ إِلَّا طَرَفٌ مِنْ
بِلَادِ ٱلصِّينِ فِي جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَفِي بِلَادِ ٱلْيَمَنِ. وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِيمَا
بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ ٱلْهَابِطَيْنِ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَهُمَا بَحْرُ قُلْزُمَ وَبَحْرُ
فَارِسَ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا جَزِيرَةُ ٱلْعَرَبِ وَتَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ ٱلْيَمَنِ وَبِلَادُ ٱلشِّحْرِ فِي شَرْقِيِّهِ
عَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَعَلَى بِلَادِ ٱلْحِجَازِ وَٱلْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهِمَا كَمَا نَذْكُرُهُ فِي
ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ فَأَمَّا ٱلَّذِي عَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيِّهِ فَبَلَدُ زَالِعَ مِنْ
أَطْرَافِ بِلَادِ ٱلْحَبَشَةِ وَمَجَالَاتُ ٱلْبُجَةِ [1] فِي شَمَالِيِّ ٱلْحَبَشَةِ مَا بَيْنَ جَبَلِ ٱلْعَلَاقِي فِي أَعَالِي
ٱلصَّعِيدِ وَبَيْنَ بَحْرِ ٱلْقُلْزُمِ ٱلْهَابِطِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَتَحْتَ بِلَادِ زَالِعَ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ
فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ خَلِيجُ بَابِ ٱلْمَنْدَبِ يَضِيقُ ٱلْبَحْرُ ٱلْهَابِطُ هُنَالِكَ بِمُزَاحَمَةِ جَبَلِ ٱلْمَنْدَبِ
ٱلْمَاثِلِ فِي وَسَطِ ٱلْبَحْرِ ٱلْهِنْدِيِّ مُمْتَدًّا مَعَ سَاحِلِ ٱلْيَمَنِ مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فِي
طُولِ ٱثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا فَيَضِيقُ ٱلْبَحْرُ بِسَبَبِ ذٰلِكَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ فِي عَرْضِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ
أَوْ نَحْوِهَا وَيُسَمَّى بَابَ ٱلْمَنْدَبِ وَعَلَيْهِ تَمُرُّ مَرَاكِبُ ٱلْيَمَنِ إِلَى سَاحِلِ ٱلسُّوَيْسِ قَرِيبًا
مِنْ مِصْرَ وَتَحْتَ بَابِ ٱلْمَنْدَبِ جَزِيرَةُ سَوَاكِنَ وَدَهْلَكَ وَقُبَالَتَهُ مِنْ غَرْبِيِّهِ مَجَالَاتُ ٱلْبُجَةِ
مِنْ أُمَمِ ٱلسُّودَانِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ شَرْقِيِّهِ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ تَهَائِمُ ٱلْيَمَنِ وَمِنْهَا عَلَى سَاحِلِهِ
بَلَدُ عَلِيِّ بْنِ يَعْقُوبَ وَفِي جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ مِنْ بَلَدِ زَالِعَ وَعَلَى سَاحِلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ مِنْ غَرْبِيِّهِ قُرَى
بَرْبَرَ يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَنْعَطِفُ مِنْ جَنُوبِيِّهِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَيَلِيهَا هُنَالِكَ مِنْ

(١) ويقال ايضاً البجاة واما زالع فهي زيلع .ا.

جهة شرقيها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة من ساحله الجنوبي بلاد الوقواق متصلة إلى آخر الجزء العاشر من هذا الإقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط . وأما جزائر هذا البحر فكثيرة . من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل . وبها الجبل المشهور يقال ليس في الأرض أعلى منه وهي قبالة سفالة . ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب إلى الشرق منحرفة بكثير إلى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ويحتف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الوقواق ومن شرقيها جزائر السيلان إلى جزائر أخر في هذا البحر كثيرة العدد وفيها أنواع الطيب والأفاويه وفيها يقال معادن الذهب والزمرد وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعددون وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الإقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد صعدة مقر الإمامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شماليها صنعاء وبعدهما إلى المشرق أرض الأحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس . وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الإقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة خانكو وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها وهذا آخر الكلام في الإقليم الأول والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وفضله

الإقليم الثاني * وهو متصل بالأول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منهما أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان وفي الجانب الأسفل منهما صحراء نستر متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة ومسراتة ولمطة ووريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقاً أرض فزان ثم مجالات أركار من قبائل

ٱلبَرْبَرِ ذَاهِبَةً إلى أَعَالي ٱلجُزْءِ ٱلثَّالِثِ عَلى سَمْتِهَا في ٱلشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ ٱلثَّالِث وَهِيَ جِهَةُ ٱلشَّمَالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانَ وَعَلى سَمْتِهَا شَرْقاً أَرْضُ سِنْتِرِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلوَاحَات ٱلدَّاخِلَةَ وَفي ٱلجُزْءِ ٱلرَّابِعِ مِنْ أَعْلاهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ ٱلبَاحُوِيِّينَ ثُمَّ يَعْتَرِضُ في وَسَطِ هٰذَا ٱلجُزْءِ بِلادُ ٱلصَّعِيدِ حافَاتُ ٱلنِّيلِ ٱلذَّاهِبِ مِنْ مَبْدَإِهِ في ٱلإقْلِيمِ ٱلأَوَّلِ إلى مَصَبِّهِ في ٱلبَحْرِ فَيَمُرُّ في هٰذَا ٱلجُزْءِ بَيْنَ ٱلجَبَلَيْنِ ٱلحَاجِزَيْنِ وَهُمَا جَبَلُ ٱلوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَجَبَل ٱلمُقَطَّمِ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَعَلَيْهِ مِنْ أَعْلاهُ بَلَدُ أَسْنَا وَأَرْمَنْتَ وَيَتَّصِلُ كَذٰلِكَ حَافَاتُهُ إلى أَسْيُوطَ وَقُوصٍ ثُمَّ إلى صُولٍ وَيَفْتَرِقُ ٱلنِّيلُ هُنَالِكَ عَلى شُعْبَتَيْنِ يَنْتَهِي ٱلأَيْمَنُ مِنْهُمَا في هٰذَا ٱلجُزْءِ عِنْدَ ٱللاَّهُونِ وَٱلأَيْسَرُ عِنْدَ دِلاَصٍ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالي دِيَارِ مِصْرَ وَفي ٱلشَّرْقِ مِن جَبَلِ ٱلمُقَطَّمِ صَحَارَى عِيذَابَ ذَاهِبَةً في ٱلجُزْءِ ٱلخَامِسِ إلى أَنْ تَنْتَهِيَ إلى بَحْرِ ٱلسُّوَيْس وَهُوَ بَحْرُ ٱلقُلْزُمِ الهَابِطُ مِنَ ٱلبَحْرِ الهِنْدِيِّ في ٱلجَنُوبِ إلى جِهَةِ ٱلشَّمَالِ وَفي عُدْوَتِهِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ أَرْضُ ٱلحِجَازِ مِنْ جَبَلِ يَلَمْلَمَ إلى بِلادِ يَثْرِبَ في وَسَطِ ٱلحِجَاز مَكَّةُ شَرَّفَهَا ٱللهُ وَفي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جِدَّةَ تُقَابِلُ بَلَدَ عِيذَابَ في ٱلعُدْوَةِ ٱلغَرْبِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلبَحْرِ . وَفي ٱلجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ غَرْبِيِّهِ بِلادُ نَجْدٍ أَعْلاهَا في ٱلجَنُوبِ وَتُبَالَةُ وَجُرَشُ إلى عُكَاظَ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَتَحْتَ نَجْدٍ مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ ٱلحِجَازِ وَعَلى سَمْتِهَا في ٱلشَّرْقِ بِلادُ نَجْرَانَ وَخَيْبَرَ وَتَحْتَهَا أَرْضُ ٱليَمَامَةِ وَعَلى سَمْتِ نَجْرَانَ في ٱلشَّرْقِ أَرْضُ سَبأ وَمأْرِب ثُمَّ أَرْضُ ٱلشِّحْرِ وَيَنْتَهِي إلى بَحْرِ فَارِسَ وَهُوَ ٱلبَحْرُ ٱلثَّانِي ٱلهَابِطُ مِنَ ٱلبَحْرِ ٱلهِنْدِيِّ إلى ٱلشَّمَالِ كَمَا مَرَّ وَيَذْهَبُ في هٰذَا ٱلجُزْءِ بِٱنْحِرَافٍ إلى ٱلغَرْبِ فَيَمُرُّ مَا بَيْنَ شَرْقِيِّهِ وَجُوفِيِّهِ قِطْعَةٌ مُثَلَّثَةٌ عَلَيْهَا مِنْ أَعْلاهُ مَدِينَةُ قَلْهَاتَ وَهِيَ سَاحِلُ ٱلشِّحْرِ ثُمَّ تَحْتَهَا عَلى سَاحِلِهِ بِلادُ عُمَانَ. ثُمَّ بِلادُ ٱلبَحْرَيْنِ وَهَجَرُ مِنْهَا في آخِرِ ٱلجُزْءِ وَفي ٱلجُزْءِ ٱلسَّابِعِ في ٱلأَعْلى مِن غَرْبِيِّهِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ فَارِسَ تَتَّصِلُ بِالقِطْعَةِ ٱلأُخْرَى في ٱلسَّادِسِ وَيَغْمُرُ بَحْرُ ٱلهِندِ جَانِبَهُ ٱلأَعْلى كُلَّهُ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ بِلادُ ٱلسِّنْدِ إلى بِلادِ مَكْرَانَ وَيُقَابِلُهَا بِلادُ ٱلطُّوبَرَانِ وَهِيَ مِن ٱلسِّنْدِ أَيْضاً فَيَتَّصِلُ ٱلسِّنْدُ كُلُّهُ في ٱلجَانِبِ ٱلغَرْبِيِّ مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ وَتَحُولُ ٱلمَفَاوِزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ ٱلهِندِ وَيَمُرُّ فِيهِ نَهْرُهُ ٱلآتِي مِنْ نَاحِيَةِ بِلادِ ٱلهِندِ وَيَصُبُّ في ٱلبَحْرِ ٱلهِندِي في ٱلجَنُوبِ وَأَوَّلُ بِلادِ ٱلهِندِ عَلى سَاحِلِ ٱلبَحْرِ ٱلهِندِيِّ وَفي سَمْتِهَا شَرْقاً بِلادُ بَلَهْرَا وَتَحْتَهَا في ٱلجَانِبِ ٱلأَسْفَلِ أَرْضُ كَابِلَ وَبَعْدَهَا شَرْقاً إلى ٱلبَحْرِ ٱلمُحِيطِ بِلادُ ٱلقَنُّوجِ مَا بَين

قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الإقليم وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم

الإقليم الثالث * وهو متصل بالثاني من جهة الشمال ففي الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم إلا خالقهم حسبما يأتي ذكره وفي القطعة التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة ويتصل به شرقاً بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقاً بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء نستر المفازة التي ذكرناها في الإقليم الثاني وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه إلى أن ينتهي وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتانة ثم تينملك ثم كدميوه ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس وهو جبل كتامة وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم . ثم إن جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفيه ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش وأغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط أسفى ومدينة سلا وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان أصيلا والعرايش وفي سمت هذه البلاد شرقاً بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الإقليم الرابع ويذهب مشرقاً فينتهي إلى بلاد الشام فإذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوباً وشمالاً فدخل في الإقليم الثالث والخامس

فلهذا كانَ عَلَى ساحِلِهِ مِنْ هٰذا ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثّالِثِ ٱلْكَثِيرُ مِنْ بِلادِهِ ثُمَّ يَتَّصِلُ بِبِلادِ ٱلْجَزائِرِ مِنْ شَرْقِيِّها بِلادُ بِجايَةَ فِي ساحِلِ ٱلْبَحْرِ ثُمَّ قُسَنْطِينِيَّةُ فِي ٱلشَّرْقِ مِنْها وَفِي آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ وَعَلَى مَرْحَلَةٍ مِنْ هٰذا ٱلْبَحْرِ فِي جَنُوبِيِّ هٰذِهِ ٱلْبِلادِ وَمُرْتَفِعاً إِلَى جَنُوبِ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَوْسَطِ بَلَدُ أَشِيرَ ثُمَّ بَلَدُ ٱلْمَسِيلَةِ ثُمَّ ٱلزّابُ وَقاعِدَتُهُ بِسْكَرَةُ تَحْتَ جَبَلِ أُوراسَ ٱلْمُتَّصِلِ بِدَرَنَ كَما مَرَّ وَذٰلِكَ عِنْدَ آخِرِ هٰذا ٱلْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَٱلْجُزْءُ ٱلثّانِي مِنْ هٰذا ٱلْإِقْلِيمِ عَلَى هَيْئَةِ ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ ثُمَّ جَبَلُ دَرَنَ عَلَى نَحْوِ ٱلثُّلُثِ مِنْ جَنُوبِهِ ذاهِباً فِيهِ مِنْ غَرْبٍ إِلَى شَرْقٍ فَيَقْسِمُهُ بِقِطْعَتَيْنِ وَيَغْمُرُ ٱلْبَحْرُ ٱلرُّومِيُّ مَسافَةً مِنْ شَمالِهِ فَٱلْقِطْعَةُ ٱلْجَنُوبِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنَ غَرْبِيُّها كُلُّهُ مَفاوِزُ وَفِي ٱلشَّرْقِ مِنْها بَلَدُ غُدامِسَ وَفِي سَمْتِها شَرْقاً أَرْضُ وَدّانَ ٱلَّتِي بَقِيَّتُها فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثّانِي كَما مَرَّ وَٱلْقِطْعَةُ ٱلْجَوْفِيَّةُ عَنْ جَبَلِ دَرَنَ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ فِي ٱلْغَرْبِ مِنْها جَبَلُ أُوراسَ وَتَبَسَّةُ وَٱلْأُرْبُسُ وَعَلَى ساحِلِ ٱلْبَحْرِ بَلَدُ بُونَةَ ثُمَّ فِي سَمْتِ هٰذِهِ ٱلْبِلادِ شَرْقاً بِلادُ أَفْرِيقِيَّةَ فَعَلَى ساحِلِ ٱلْبَحْرِ مَدِينَةُ تُونِسَ ثُمَّ ٱلسُّوسَةُ ثُمَّ ٱلْمَهْدِيَّةُ وَفِي جَنُوبِ هٰذِهِ ٱلْبِلادِ تَحْتَ جَبَلِ دَرَنَ بِلادُ ٱلْجَرِيدِ تُوزَرُ وَقَفْصَةُ وَنَفْزاوَةُ وَفِيما بَيْنَها وَبَيْنَ ٱلسَّواحِلِ مَدِينَةُ ٱلْقَيْرَوانِ وَجَبَلُ وَسْلاتٍ وَسَبِيطَلَةُ وَعَلَى سَمْتِ هٰذِهِ ٱلْبِلادِ كُلِّها شَرْقاً بَلَدُ طَرابُلُسَ عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَبِإِزائِها فِي ٱلْجَنُوبِ جَبَلُ دُمَّرَ وَنَقْرَةُ مِنْ قَبائِلِ هَوارَةَ مُتَّصِلَةً بِجَبَلِ دَرَنَ وَفِي مُقابَلَةِ غُدامِسَ ٱلَّتِي مَرَّ ذِكْرُها فِي آخِرِ ٱلْقِطْعَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ وَآخِرُ هٰذا ٱلْجُزْءِ فِي ٱلشَّرْقِ سُوَيْقَةُ ٱبْنِ مَشْكُورَةَ عَلَى ٱلْبَحْرِ وَفِي جَنُوبِها مَجالاتُ ٱلْعَرَبِ فِي أَرْضِ وَدّانَ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثّالِثِ مِنْ هٰذا ٱلْإِقْلِيمِ يَمُرُّ أَيْضاً فِيهِ جَبَلُ دَرَنَ إِلّا أَنَّهُ يَنْعَطِفُ عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى ٱلشَّمالِ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَيُسَمَّى هُنالِكَ طَرَفَ أُوثانَ وَٱلْبَحْرُ ٱلرُّومِيُّ مِنْ شَمالِيِّهِ يَغْمُرُ طائِفَةً مِنْهُ إِلَى أَنْ يُضايِقَ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبَلِ دَرَنَ فَٱلَّذِي وَراءَ ٱلْجَبَلِ فِي ٱلْجَنُوبِ وَفِي ٱلْغَرْبِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدّانَ وَمَجالاتُ ٱلْعَرَبِ فِيها ثُمَّ زَوِيلَةُ ٱبْنِ خَطّابٍ ثُمَّ رِمالٌ وَقِفارٌ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ فِي ٱلشَّرْقِ وَفِيما بَيْنَ ٱلْجَبَلِ وَٱلْبَحْرِ فِي ٱلْغَرْبِ مِنْهُ بَلَدُ سُرْتَ عَلَى ٱلْبَحْرِ ثُمَّ خَلاءٌ وَقِفارٌ تَجُولُ فِيها ٱلْعَرَبُ ثُمَّ أَجْدابِيَةُ ثُمَّ بَرْقَةُ عِنْدَ مُنْعَطَفِ ٱلْجَبَلِ ثُمَّ طَلْمَسَةُ عَلَى ٱلْبَحْرِ هُنالِكَ ثُمَّ فِي شَرْقِ ٱلْمُنْعَطَفِ مِنَ ٱلْجَبَلِ مَجالاتُ هَيْبٍ وَرُواحَةَ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلرّابِعِ مِنْ هٰذا ٱلْإِقْلِيمِ وَفِي ٱلْأَعْلَى مِنْ غَرْبِيِّهِ صَحارَى بَرْقِيقٍ وَأَسْفَلُ مِنْها

بِلَادُ هَيبٍ وَرُوَاحَةَ ثُمَّ يَدْخُلُ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ فِي هٰذَا الْجُزْءِ فَيَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يُزَاحِمَ طَرَفُهُ الْأَعْلَى وَيَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ قِفَارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقاً بِلَادُ الْفَيُّومِ وَهِيَ عَلَى مَصَبِّ أَحَدِ الشُّعْبَيْنِ مِنَ النِّيلِ الَّذِي يَمُرُّ عَلَى اللَّاهُونِ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَيَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ فَيُّومَ وَعَلَى سَمْتِهِ شَرْقاً أَرْضُ مِصْرَ وَمَدِينَتُهَا الشَّهِيرَةُ عَلَى الشُّعْبِ الثَّانِي الَّذِي يَمُرُّ بِدَلَاصٍ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ الثَّانِي وَيَفْتَرِقُ هٰذَا الشُّعْبُ افْتِرَاقَةً ثَانِيَةً مِنْ تَحْتِ مِصْرَ عَلَى شُعْبَيْنِ آخَرَيْنِ مِنْ شَطَنُوفٍ وَزِفْتِي وَيَنْقَسِمُ الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا مِنْ قُرْمُطٍ بِشُعْبَيْنِ آخَرَيْنِ وَيَصُبُّ جَمِيعُهَا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فَعَلَى مَصَبِّ الْغَرْبِيِّ مِنْ هٰذَا الشُّعْبِ بَلَدُ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَعَلَى مَصَبِّ الْوَسَطِ بَلَدُ رَشِيدَ وَعَلَى مَصَبِّ الشَّرْقِيِّ بَلَدُ دِمْيَاطَ وَبَيْنَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ وَبَيْنَ هٰذِهِ السَّوَاحِلِ الْبَحْرِيَّةِ أَسَافِلُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ كُلُّهَا مَحْشُوَّةٌ عُمْرَاناً وَفَلَحاً وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الشَّامِ وَأَكْثَرُهَا عَلَى مَا أَصِفُ وَذٰلِكَ لِأَنَّ بَحْرَ الْقُلْزُمِ يَنْتَهِي مِنَ الْجَنُوبِ وَفِي الْغَرْبِ مِنْهُ عِنْدَ السُّوَيْسِ لِأَنَّهُ فِي مَمَرِّهِ مُبْتَدِئاً مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ إِلَى الشَّمَالِ يَنْعَطِفُ آخِذاً إِلَى جِهَةِ الْغَرْبِ فَتَكُونُ قِطْعَةٌ مِنِ انْعِطَافِهِ فِي هٰذَا الْجُزْءِ طَوِيلَةً فَيَنْتَهِي فِي الطَّرَفِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ وَعَلَى هٰذِهِ الْقِطْعَةِ بَعْدَ السُّوَيْسِ فَارَانُ ثُمَّ جَبَلُ الطُّورِ ثُمَّ أَيْلَةُ مَدْيَنَ ثُمَّ الْحَوْرَاءُ فِي آخِرِهَا وَمِنْ هُنَالِكَ يَنْعَطِفُ بِسَاحِلِهِ إِلَى الْجَنُوبِ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَمَا مَرَّ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ غَمَرَتْ كَثِيراً مِنْ غَرْبِيِّهِ عَلَيْهَا الْفَرَمَا وَالْعَرِيشُ وَقَارَبَ طَرَفُهَا بَلَدَ الْقُلْزُمِ فَيُضَايِقُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هُنَالِكَ وَيَبْقَى شِبْهُ الْبَابِ مُفْضِياً إِلَى أَرْضِ الشَّامِ وَفِي غَرْبِيِّ هٰذَا الْبَابِ فَحْصُ التِّيهِ أَرْضٌ جَرْدَاءُ لَا تُنْبِتُ كَانَتْ مَجَالاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى الشَّامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً كَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ وَفِي هٰذِهِ الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي هٰذَا الْجُزْءِ طَائِفَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ قُبْرُصَ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ كَمَا نَذْكُرُهُ وَعَلَى سَاحِلِ هٰذِهِ الْقِطْعَةِ عِنْدَ الطَّرَفِ الْمُتَضَايِقِ لِبَحْرِ السُّوَيْسِ بَلَدُ الْعَرِيشِ وَهُوَ آخِرُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَعَسْقَلَانُ وَبَيْنَهُمَا طَرَفُ هٰذَا الْبَحْرِ ثُمَّ تَنْحَطُّ هٰذِهِ الْقِطْعَةُ فِي انْعِطَافِهَا مِنْ هُنَالِكَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ طَرَابُلُسَ وَغَزَّةَ وَهُنَالِكَ يَنْتَهِي الْبَحْرُ الرُّومِيُّ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَعَلَى هٰذِهِ

ٱلقطعة أكثرُ سواحلِ ٱلشامِ ففي شرقِهِ غزّةُ ثمّ عسقلانُ وبانحرافٍ يسيرٍ عنها إلى ٱلشمالِ بلدُ قيساريّةَ ثمّ كذلكَ بلدُ عكّاءَ ثمّ صورُ ثمّ صيداءُ ثمّ ينعطفُ ٱلبحرُ إلى ٱلشمالِ في ٱلإقليمِ ٱلرابعِ ويقابلُ هذه ٱلبلادَ ٱلساحليّةَ من هذه ٱلقطعةِ في هذا ٱلجزءِ جبلٌ عظيمٌ يخرجُ من ساحلِ أيلةَ من بحرِ ٱلقلزمِ ويذهبُ من ناحيةِ ٱلشمالِ منحرفاً إلى ٱلشرقِ إلى أن يجاوزَ هذا ٱلجزءَ ويسمّى جبلَ ٱللكامِ وكأنّهُ حاجزٌ بينَ أرضِ مصرَ وٱلشامِ ففي طرفِهِ عندَ أيلةَ ٱلعقبةُ ٱلتي يمرُّ عليها ٱلحجّاجُ من مصرَ إلى مكّةَ ثمّ بعدها في ناحيةِ ٱلشمالِ مدفنُ ٱلخليلِ عليهِ ٱلصلاةُ وٱلسلامُ عندَ جبلِ ٱلسراةِ يتّصلُ من عندِ جبلِ ٱللكامِ ٱلمذكورِ من شمالِ ٱلعقبةِ ذاهباً على سمتِ ٱلشرقِ ثمّ ينعطفُ قليلاً وفي شرقِهِ هنالكَ بلدُ ٱلحجرِ وديارُ ثمودَ وتيماءُ ودومةُ ٱلجندلِ وهيَ أسافلُ ٱلحجازِ وفوقها جبلُ رضوى وحصونُ خيبرَ في جهةِ ٱلجنوبِ عنها وفيما بينَ جبلِ ٱلسراةِ وبحرِ ٱلقلزمِ صحراءُ تبوكَ وفي شمالِ جبلِ ٱلسراةِ مدينةُ ٱلقدسِ عندَ جبلِ ٱللكامِ ثمّ ٱلأردنُّ ثمّ طبريّةُ وفي شرقيها بلادُ ٱلغورِ إلى أذرعاتٍ وفي سمتها شرقاً دومةُ ٱلجندلِ آخرُ هذا ٱلجزءِ وهيَ آخرُ ٱلحجازِ. وعندَ منعطفِ جبلِ ٱللكامِ إلى ٱلشمالِ من آخرِ هذا ٱلجزءِ مدينةُ دمشقَ مقابلةَ صيدا وبيروتَ منَ ٱلقطعةِ ٱلبحريّةِ وجبلُ ٱللكامِ يعترضُ بينها وبينها وعلى سمتِ دمشقَ في ٱلشرقِ مدينةُ بعلبكَّ ثمّ مدينةُ حمصَ في ٱلجهةِ ٱلشماليّةِ آخرِ ٱلجزءِ عندَ منقطعِ جبلِ ٱللكامِ وفي ٱلشرقِ عن بعلبكَّ وحمصٍ بلدُ تدمرَ ومجالاتُ ٱلباديةِ إلى آخرِ ٱلجزءِ. وفي ٱلجزءِ ٱلسادسِ من أعلاهُ مجالاتُ ٱلأعرابِ تحتَ بلادِ نجدٍ وٱليمامةِ ما بينَ جبلِ ٱلعرجِ وٱلصمّانِ إلى ٱلبحرينِ وهجرُ على بحرِ فارسَ وفي أسافلِ هذا ٱلجزءِ تحتَ ٱلمجالاتِ بلدُ ٱلحيرةِ وٱلقادسيّةِ ومغايضُ ٱلفراتِ. وفيما بعدها شرقاً مدينةُ ٱلبصرةِ وفي هذا ٱلجزءِ ينتهي بحرُ فارسَ عندَ عبّادانَ وٱلأبلّةِ من أسافلِ ٱلجزءِ من شمالِهِ ويصبُّ فيهِ عندَ عبّادانَ نهرُ دجلةَ بعدَ أن ينقسمَ بجداولَ كثيرةٍ وتختلطَ بهِ جداولُ أخرى منَ ٱلفراتِ ثمّ تجتمعُ كلّها عندَ عبّادانَ وتصبُّ في بحرِ فارسَ وهذه ٱلقطعةُ منَ ٱلبحرِ متّسعةٌ في أعلاهُ متضايقةٌ في آخرِهِ في شرقيّهِ وضيّقةٌ عندَ منتهاه مضايقةٌ للحدِّ ٱلشماليِّ منهُ وعلى عدوتِها ٱلغربيّةِ منهُ أسافلُ ٱلبحرينِ وهجرُ وٱلأحساءُ وفي غربِها أخطبُ وٱلصمّانُ وبقيّةُ أرضِ ٱليمامةِ وعلى عدوتِهِ ٱلشرقيّةِ سواحلُ فارسَ من

أَعلَاهَا وَهو مِنْ عِندِ آخرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّرْقِ عَلَى طَرَفٍ قَدِ امْتَدَ مِنْ هٰذَا الْبَحْرِ مُشرِّقاً وَوَرَاءَهُ إِلَى الْجَنُوبِ فِي هٰذَا الْجُزْءِ جِبَالُ القُفْصِ مِنْ كُرْمَانَ وَتَحتَ هرمز بِلَادُ فَارِس مِثْلَ سَابُورَ وَدَارَ أَبْجِرْدَ وَنَسَا وَإِصطَخْرَ وَالشَّاهِجَانِ وَشِيرَازَ وَهِيَ قَاعِدَتُهَا كُلُّهَا وَتَحتَ بِلَادِ فارِسَ إِلَى الشَّمَالِ عِندَ طَرَفِ الْبَحرِ بِلَادُ خُوزِسْتَانَ وَمِنهَا الْأَهوَازُ وَتُسْتَرُ وَصَدَى وَسَابُور وَالسُّوسُ وَرَامَ هرمز وَغيرُهَا وَأَرَّجَانُ وَهِيَ حَدٌّ مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُوزِسْتَانَ جِبَالُ الأَكْرَادِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ وَبِهَا مَسَاكِنُهُمْ وَمَجَالَاتُهُمْ وَرَاءَهَا فِي أَرْضِ فَارِسَ وَتُسَمَّى الرُّسُومَ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْهُ مِنَ الْمَغْرِبِ بَقِيَّةُ جِبَالِ الْقُفْصِ وَيَلِيهَا مِنَ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ بِلَادُ كُرْمَانَ وَمُكْرَانَ وَمِنْ مُدُنِهَا الرُّودَنُ وَالشِّيرَجَانُ وَجِيرَفْتُ وَيَزْدَشِير وَالْبَهْرَجُ وَتَحتَ أَرْضِ كُرْمَانَ إِلَى الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ وَمَدِينَةُ أَصْبَهَانَ فِي طَرَفِ هٰذَا الْجُزْءِ مَا بَيْنَ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ ثُمَّ فِي الْمَشْرِقِ عَنْ بِلَادِ كُرْمَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ أَرْضُ سِجِسْتَانَ وَكُوهِسْتَانَ فِي الْجَنُوبِ وَأَرْضُ كُوهِسْتَانَ فِي الشَّمَالِ غَرْباً وَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ كُرْمَانَ وَفَارِسَ وَبَيْنَ سِجِسْتَانَ وَكُوهِسْتَانَ وَفِي وَسَطِ هٰذَا الْجُزْءِ الْمَفَاوِزُ الْعُظْمَى الْقَلِيلَةُ الْمَسَالِكِ لِصُعُوبَتِهَا وَمِنْ مُدُنِ سِجِسْتَانَ بُسْتُ وَالطَّاقُ وَأَمَّا كُوهِسْتَانُ فَهِيَ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَمِنْ مَشَاهِيرِ بِلَادِهَا سَرْخَسُ وَقُوهِسْتَانُ آخرَ الْجُزْءِ وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مَجَالَاتُ الْخَلْجِ مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ سِجِسْتَانَ مِنْ غَرْبِهَا وَبِأَرْضِ كَابِلِ الْهِنْدِ مِنْ جَنُوبِهَا . وَفِي الشَّمَالِ عَنْ هٰذِهِ الْمَجَالَاتِ جِبَالُ الْغَوْرِ وَبِلَادُهَا وَقَاعِدَتُهَا غَزْنَةُ فُرْضَةُ الْهِنْدِ وَفِي آخِرِ الْغَوْرِ مِنَ الشَّمَالِ بِلَادُ أَسْتَرَابَاذَ ثُمَّ فِي الشَّمَالِ غَرْباً إِلَى آخرِ الْجُزْءِ بِلَادُ هَرَاةَ أَوْسَطُ خُرَاسَانَ وَبِهَا أَسْفَرَايِنُ وَقَاشَانُ وَبُوشَنْجُ وَمَرْوُ الرُّوذِ وَالطَّالَقَانُ وَالْجُوزَجَانُ وَتَنْتَهِي خُرَاسَانُ هُنَالِكَ إِلَى نَهْرِ جَيْحُونَ. وَعَلَى هٰذَا النَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ مِنْ غَرْبِيِّهِ مَدِينَةُ بَلْخَ وَفِي شَرْقِيِّهِ مَدِينَةُ تِرْمِذَ وَمَدِينَةُ بَلْخَ كَانَتْ كُرْسِيَّ مَمْلَكَةِ التُّرْكِ وَهٰذَا النَّهْرُ نَهْرُ جَيْحُونَ مَخْرَجُهُ مِنْ بِلَادِ وَخَّارَ فِي حُدُودِ بَدَخْشَانَ مِمَّا يَلِي الْهِنْدَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَنُوبِ هٰذَا الْجُزْءِ وَعِندَ آخِرِهِ مِنَ الشَّرْقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبٍ مُغَرِّباً إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ نَهْرَ خَرْنَابَ ثُمَّ يَنعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَاسَانَ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي بُحَيْرَةِ خُوَارَزْمَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كَمَا نَذْكُرُهُ وَيُمِدُّهُ عِندَ انْعِطَافِهِ فِي وَسَطِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ عَظِيمَةٌ مِنْ بِلَادِ الْخُتَّلِ وَالْوَخْش

مِنْ شَرْقِيِّهِ وأنهارٌ أُخرى مِن جِبالِ البُتْمِ مِنْ شَرْقِيِّهِ أيضاً وَجوفي الجَبَلِ حتّى يَتَّسِعَ وَيَعظُمَ بِما لا كِفاءَ لَهُ مِنْ هٰذِهِ الأنهارِ الخَمسَةِ المُمِدَّةِ لَهُ نَهرُ وَخشابَ يَخرُجُ مِنْ بِلادِ التِّبْتِ وَهِيَ بَيْنَ الجَنوبِ وَالشَّرقِ مِنْ هٰذا الجُزءِ فَيَمُرُّ مُغَرِّباً بِانحِرافٍ إلى الشَّمالِ إلى أنْ يَخرُجَ إلى الجُزءِ التّاسِعِ قَريباً مِنْ شَمالِ هٰذا الجُزءِ يَعتَرِضُهُ في طَريقِهِ جَبَلٌ عَظيمٌ يَمُرُّ مِنْ وَسَطِ الجَنوبِ في هٰذا الجُزءِ مُشَرِّقاً بِانحِرافٍ إلى الشَّمالِ إلى أنْ يَخرُجَ إلى الجُزءِ التّاسِعِ قَريباً مِنْ شَمالِ هٰذا الجُزءِ فَيَجوزُ بِلادَ التِّبْتِ إلى القِطعَةِ الشَّرقِيَّةِ الجَنوبِيَّةِ مِنْ هٰذا الجُزءِ وَيَحولُ بَيْنَ التُّركِ وَبَيْنَ بِلادِ الخُتَّلِ وَلَيسَ فيهِ إلّا مَسلَكٌ واحِدٌ في وَسَطِ الشَّرقِ مِنْ هٰذا الجُزءِ جَعَلَ فيهِ الفَضلُ بْنُ يَحيى سَدّاً وَبَنى فيهِ باباً كَسَدِّ يَأجوجَ وَمَأجوجَ فَإذا خَرَجَ نَهرُ وَخشابَ مِنْ بِلادِ التِّبْتِ وَاعتَرَضَهُ هٰذا الجَبَلُ فَيَمُرُّ تَحتَهُ في مَدًى بَعيدٍ إلى أنْ يَمُرَّ في بِلادِ الوَخشِ وَيَصُبَّ في نَهرِ جَيحونَ عِندَ حُدودِ بَلْخَ ثُمَّ يَمُرُّ هابِطاً إلى التِّرمِذِ في الشَّمالِ إلى بِلادِ الجوزَجانِ وَفي الشَّرقِ عَنْ بِلادِ الغورِ فيما بَينَها وَبَينَ نَهرِ جَيحونَ بِلادُ البامِيانِ مِنْ خُراسانَ وَفي العُدوَةِ الشَّرقِيَّةِ هُنالِكَ مِنَ النَّهرِ بِلادُ الخُتَّلِ وَأكثَرُها جِبالٌ وَبِلادُ الوَخشِ وَيَحُدُّها مِنْ جِهَةِ الشَّمالِ جِبالُ البُتْمِ تَخرُجُ مِنْ طَرَفِ خُراسانَ غَربِيَّ نَهرِ جَيحونَ وَتَذهَبُ مُشَرِّقَةً إلى أنْ يَتَّصِلَ طَرَفُها بِالجَبَلِ العَظيمِ الّذي خَلفَهُ بِلادُ التِّبْتِ وَيَمُرُّ تَحتَهُ نَهرُ وَخشابَ كَما قُلناهُ فَيَتَّصِلُ عِندَ بابِ الفَضلِ بْنِ يَحيى وَيَمُرُّ نَهرُ جَيحونَ بَيْنَ هٰذِهِ الجِبالِ وَأنهارٍ أُخرى تَصُبُّ فيهِ مِنها نَهرُ بِلادِ الوَخشِ يَصُبُّ فيهِ مِنَ الشَّرقِ تَحتَ التِّرمِذِ إلى جِهَةِ الشَّمالِ وَنَهرُ بَلْخَ يَخرُجُ مِنْ جِبالِ البُتْمِ مَبدَإِهِ عِندَ الجوزَجانِ وَيَصُبُّ فيهِ مِنْ غَربِيِّهِ وَعَلى هٰذا النَّهرِ مِنْ غَربِيِّهِ بِلادُ آمِدَ مِنْ خُراسانَ وَفي شَرقِيِّ النَّهرِ مِنْ هُنالِكَ أرضُ الصُّغدِ وَأُسروشَنَةُ مِنْ بِلادِ التُّركِ وَفي شَرقِيِّها أرضُ فَرغانَةَ أيضاً إلى آخِرِ الجُزءِ شَرقاً وَكُلُّ بِلادِ التُّركِ تَحوزُها جِبالُ البُتْمِ إلى شَمالِها وَفي الجُزءِ التّاسِعِ مِنْ غَربِهِ أرضُ التِّبْتِ إلى وَسَطِ الجُزءِ وَفي جَنوبِيِّها بِلادُ الهِندِ وَفي شَرقِيِّها بِلادُ الصّينِ إلى آخِرِ الجُزءِ وَفي أسفَلِ هٰذا الجُزءِ شَمالاً عَنْ بِلادِ التِّبْتِ بِلادُ الخَزلَجِيَّةِ مِنْ بِلادِ التُّركِ إلى آخِرِ الجُزءِ شَرقاً وَشَمالاً وَيَتَّصِلُ بِها مِنْ غَربِيِّها أرضُ فَرغانَةَ أيضاً إلى آخِرِ الجُزءِ شَرقاً وَمِنْ شَرقِيِّها أرضُ التَّغَزغُزِ مِنَ التُّركِ إلى الجُزءِ شَرقاً وَشَمالاً . وَفي الجُزءِ العاشِرِ في الجَنوبِ مِنهُ جَميعاً بَقِيَّةُ الصّينِ وَأسافِلُهُ وَفي الشَّمالِ بَقِيَّةُ

بلادُ ٱلتغزغزِ ثمَّ شرقاً عنهم بلادُ خرخيزَ من ٱلتركِ أيضاً إلى آخرِ ٱلجزءِ شرقاً وفي ٱلشمالِ من أرضِ خرخيزَ بلادُ كتمانَ من ٱلتركِ وقبالتها في ٱلبحرِ ٱلمحيطِ جزيرةَ ٱلياقوتِ في وسطِ جبلٍ مستديرٍ لا منفذَ منهُ إليها ولا مسلكَ وٱلصعودُ إلى أعلاهُ من خارجهِ صعبٌ في ٱلغايةِ وفي ٱلجزيرةِ حياتٌ قتالةٌ وحصىً من ٱلياقوتِ كثيرةٌ فيحتالُ أهلُ تلكَ ٱلناحيةِ بما يلهمُهُمُ ٱللهُ إليهِ وأهلُ هذهِ ٱلبلادِ في هذا ٱلجزءِ ٱلتاسعِ وٱلعاشرِ فيما وراءَ خراسانَ وٱلجبالُ كلُّها مجالاتٌ للتركِ أممٌ لا تحصى وهم ظواعنُ رحالةٌ أهلُ إبلٍ وشاءٍ وبقرٍ وخيلٍ للنتاجِ وٱلركوبِ وٱلأكلِ وطوائفُهم كثيرةٌ لا يحصيهم إلا خالقُهم وفيهم مسلمونَ مما يلي بلادَ ٱلنهرِ نهرِ جيحونَ ويغزونَ ٱلكفارَ منهمُ ٱلدائنينَ بٱلمجوسيةِ فيبيعونَ رقيقَهم لمن يليهم ويخرجونَ إلى بلادِ خراسانَ وٱلهندِ وٱلعراقِ

ألإقليمُ ٱلرابعُ * يتصلُ بٱلثالثِ من جهةِ ٱلشمالِ . وٱلجزءُ ٱلأولُ منهُ في غربيهِ قطعةٌ من ٱلبحرِ ٱلمحيطِ مستطيلةٌ من أولهِ جنوباً إلى آخرهِ شمالاً وعليها في ٱلجنوبِ مدينةُ طنجةَ ومن هذهِ ٱلقطعةِ تحتَ طنجةَ من ٱلبحرِ ٱلمحيطِ إلى ٱلبحرِ ٱلروميِّ في خليجٍ متضايقٍ بمقدارِ اثني عشرَ ميلاً ما بينَ طريفَ وٱلجزيرةِ ٱلخضراءِ شمالاً وقصرِ ٱلمجازِ وسبتةَ جنوباً ويذهبُ مشرقاً إلى أن ينتهيَ إلى وسطِ ٱلجزءِ ٱلخامسِ من هذا ٱلإقليمِ وينفسحُ في ذهابهِ بتدريجٍ إلى أن يغمرَ ٱلأربعةَ ٱلأجزاءَ وأكثرَ ٱلخامسِ من هذا ٱلإقليمِ ٱلثالثِ وٱلخامسِ كما سنذكرُهُ ويسمى هذا ٱلبحرَ ٱلبحرُ ٱلشاميُّ أيضاً وفيهِ جزائرُ كثيرةٌ أعظمُها في جهةِ ٱلغربِ يابسةُ ثمَّ مايرقةُ ثمَّ منرقةُ ثمَّ سردانيةُ ثمَّ صقليةُ وهي أعظمُها ثمَّ بلونسُ ثمَّ أقريطشُ ثمَّ قبرصُ كما نذكرُها كلَّها في أجزائها ٱلتي وقعت فيها ويخرجُ من هذا ٱلبحرِ ٱلروميِّ عندَ آخرِ ٱلجزءِ ٱلثالثِ منهُ وفي ٱلجزءِ ٱلثالثِ من ٱلإقليمِ ٱلخامسِ خليجُ ٱلبنادقةِ يذهبُ إلى ناحيةِ ٱلشمالِ ثمَّ ينعطفُ عندَ وسطِ ٱلجزءِ من جوفهِ ويمرُّ مغرباً إلى أن ينتهيَ في ٱلجزءِ ٱلثاني من ٱلخامسِ ويخرجُ منهُ أيضاً في آخرِ ٱلجزءِ ٱلرابعِ شرقاً من ٱلإقليمِ ٱلخامسِ خليجُ ٱلقسطنطينيةِ يمرُّ في ٱلشمالِ متضايقاً في عرضِ رميةِ ٱلسهمِ إلى آخرِ ٱلإقليمِ ثمَّ يفضي إلى ٱلجزءِ ٱلرابعِ من ٱلإقليمِ ٱلسادسِ وينعطفُ إلى بحرِ نيطشَ ذاهباً إلى ٱلشرقِ في ٱلجزءِ ٱلخامسِ كلِّهِ ونصفِ ٱلسادسِ من ٱلإقليمِ ٱلسادسِ كما نذكرُ ذلكَ في أماكنهِ وعندما يخرجُ هذا ٱلبحرِ

ٱلرُّومِيُّ مِنَ ٱلبَحْرِ ٱلمُحِيطِ فِي خُلِيجِ طَنْجَةَ وَيَنْفَسِحُ إِلَى ٱلإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ يَبْقَى فِي ٱلجَنُوبِ عَنِ ٱلخَلِيجِ قِطْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ فِيهَا مَدِينَةُ طَنْجَةَ عَلَى مَجْمَعِ ٱلبَحْرَيْنِ وَبَعْدَهَا مَدِينَةُ سَبْتَةَ عَلَى ٱلبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ ثُمَّ قَطَاوُنُ ثُمَّ بَادِيسُ ثُمَّ يَغْمُرُ هٰذَا ٱلبَحْرُ بَقِيَّةَ هٰذَا ٱلجُزْءِ شَرْقاً وَيَخْرُجُ إِلَى ٱلثَّالِثِ وَأَكْثَرُ ٱلعِمَارَةِ فِي هٰذَا ٱلجُزْءِ فِي شَمَالِهِ وَشَمَالِ ٱلخَلِيجِ مِنْهُ وَهِيَ كُلُّهَا بِلَادُ ٱلأَنْدَلُسِ ٱلغَرْبِيَّةُ مِنْهَا مَا بَيْنَ ٱلبَحْرِ ٱلمُحِيطِ وَٱلبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ أَوَّلُهَا طَرِيفُ عِنْدَ مَجْمَعِ ٱلبَحْرَيْنِ وَفِي ٱلشَّرْقِ مِنْهَا عَلَى سَاحِلِ ٱلبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ ٱلجَزِيرَةُ ٱلخَضْرَاءُ ثُمَّ مَالِقَةُ ثُمَّ ٱلمَنَكَّبُ ثُمَّ ٱلمَرِيَّةُ وَتَحْتَ هٰذِهِ مِنْ لَدُنِ ٱلبَحْرِ ٱلمُحِيطِ غَرْباً وَعَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ شَرِيشُ ثُمَّ لَبْلَةُ وَقُبَالَتَهَا فِيهِ جَزِيرَةُ قَادِسَ وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْ شَرِيشَ وَلَبْلَةَ إِشْبِيلِيَّةُ ثُمَّ أَسْتِجَةُ وَقُرْطُبَةُ وَمَدِيلَةُ ثُمَّ غِرْنَاطَةُ وَجَيَّانُ وَأُبَّدَةُ ثُمَّ وَادِيَاشُ وَبَسْطَةُ وَتَحْتَ هٰذِهِ شَنْتَمَرِيَّةُ وَشِلْبُ عَلَى ٱلبَحْرِ ٱلمُحِيطِ غَرْباً وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْهُمَا بَطَلْيُوسُ وَمَارِدَةُ وَيَابِرَةُ ثُمَّ غَافِقُ وَبَزْجَالَةُ ثُمَّ قَلْعَةُ رِبَاحَ وَتَحْتَ هٰذِهِ أَشْبُونَةُ عَلَى ٱلبَحْرِ ٱلمُحِيطِ غَرْباً وَعَلَى نَهْرِ بَاجَةَ وَفِي ٱلشَّرْقِ عَنْهَا شَنْتَرِينُ وَمَوْزِيَّةُ عَلَى ٱلنَّهْرِ ٱلمَذْكُورِ ثُمَّ قَنْطَرَةُ ٱلسَّيْفِ وَيُسَامِتُ أَشْبُونَةَ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ جَبَلُ ٱلشَّارَاتِ يَبْدَأُ مِنَ ٱلمَغْرِبِ هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ مُشَرِّقاً مَعَ آخِرِ ٱلجُزْءِ مِنْ شَمَالِيهِ فَيَنْتَهِي إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ فِيمَا بَعْدَ ٱلنِّصْفِ مِنْهُ وَتَحْتَ هٰذَا ٱلجَبَلِ طَلَبِيرَةُ فِي ٱلشَّرْقِ مِنْ فُورِنَةَ ثُمَّ طُلَيْطِلَةُ ثُمَّ وَادِي ٱلحِجَارَةِ ثُمَّ مَدِينَةُ سَالِمٍ وَعِنْدَ أَوَّلِ هٰذَا ٱلجَبَلِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَشْبُونَةَ بَلَدُ قَلَمَرِيَّةَ وَهٰذِهِ غَرْبِيُّ ٱلأَنْدَلُسِ. وَأَمَّا شَرْقِيُّ ٱلأَنْدَلُسِ فَعَلَى سَاحِلِ ٱلبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ مِنْهَا بَعْدَ ٱلمَرِيَّةِ قَرْطَاجَنَّةُ ثُمَّ لَقَنْتُ ثُمَّ دَانِيَةُ ثُمَّ بَلَنْسِيَةُ إِلَى طَرْطُوشَةَ آخِرِ ٱلجُزْءِ فِي ٱلشَّرْقِ وَتَحْتَهَا شَمَالاً لِيُورَقَةُ وَشَقُّورَةُ تُتَاخِمَانِ بَسْطَةَ وَقَلْعَةَ رِبَاحَ مِنْ غَرْبِ ٱلأَنْدَلُسِ ثُمَّ مُرْسِيَةُ شَرْقاً ثُمَّ شَاطِبَةُ تَحْتَ بَلَنْسِيَةَ شَمَالاً ثُمَّ شُقْرُ ثُمَّ طَرْطُوشَةُ ثُمَّ طَرَّكُونَةُ آخِرَ ٱلجُزْءِ ثُمَّ تَحْتَ هٰذِهِ شَمَالاً أَرْضُ مِنْجَالَةَ وَرِيدَةُ مُتَاخِمَانِ لِشَقُّورَةَ وَطُلَيْطِلَةَ مِنَ ٱلغَرْبِ ثُمَّ أَفْرَاغَةُ شَرْقاً تَحْتَ طَرْطُوشَةَ وَشَمَالاً عَنْهَا ثُمَّ فِي ٱلشَّرْقِ عَنْ مَدِينَةِ سَالِمٍ قَلْعَةُ أَيُّوبَ ثُمَّ سِرَقُسْطَةُ ثُمَّ لَارِدَةُ آخِرُ ٱلجُزْءِ شَرْقاً وَشَمَالاً وَٱلجُزْءُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلإِقْلِيمِ غَمَرَ ٱلمَاءُ جَمِيعَهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنْ غَرْبِيهِ فِي ٱلشَّمَالِ فِيهَا بَقِيَّةُ جَبَلِ ٱلبُرْتَاتِ وَمَعْنَاهُ جَبَلُ ٱلثَّنَايَا وَٱلسَّالِكُ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ ٱلجُزْءِ ٱلأَوَّلِ مِنَ ٱلإِقْلِيمِ ٱلخَامِسِ يَبْدَأُ مِنَ ٱلطَّرَفِ ٱلمُنْتَهِي مِنَ ٱلبَحْرِ ٱلمُحِيطِ عِنْدَ آخِرِ ذٰلِكَ ٱلجُزْءِ جَنُوباً وَشَرْقاً وَيَمُرُّ فِي ٱلجَنُوبِ

بانحراف إلى الشرق فيخرج في هذا الإقليم الرابع منحرفاً عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثناياها إلى البر المتصل وتسمى أرض غشكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برسلونة ثم أربونة وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففي غربيه جزيرة سردانية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الأقطار يقال إن دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرم وطرابغة ومازر ومسيني وهذه الجزيرة تقابل أرض أفريقية وفيما بينهما جزيرة أعدوش ومالطة . والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر إلا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قلورية والوسطى من أرض أبكيردة والشرقية من بلاد البنادقة. والجزء الرابع من هذا الإقليم مغمور أيضاً بالبحر كما مر وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث والمعمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة أقريطش مستطيلة من وسط الجزء إلى ما بين الجنوب والشرق منه. والجزء الخامس من هذا الإقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها إلى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع الجنوبي منها إلى نحو الثلاثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها إلى الغرب منعطفاً مع البحر كما قلناه وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهباً إلى القطر الشرقي الشمالي ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج إلى الإقليم الخامس ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة إلى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض إلى أن ينتهي إلى طرف خارج من البحر الرومي متأخر إلى آخر الجزء من الشمال وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي إلى بلاد الأرمن وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب إلى الشمال فعلى ساحل البحر بلد أنطرطوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة

لِغَزَّةَ وَطَرَابُلُسَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَفِي شَمَالِ أَنْطَرْطُوسَ جَبْلَةُ ثُمَّ ٱللَّاذِقِيَّةُ ثُمَّ إِسْكَنْدَرُونَةُ ثُمَّ سَلُوقِيَّةُ وَبَعْدَهَا شَمَالاً بِلَادُ ٱلرُّومِ وَأَمَّا جَبَلُ ٱللُّكَامِ ٱلْمُعْتَرِضُ بَيْنَ ٱلْبَحْرِ وَآخِرِ ٱلْجُزْءِ بِحَافَاتِهِ فَيُصَاقِبُهُ مِنْ بِلَادِ ٱلشَّامِ مِنْ أَعْلَى ٱلْجُزْءِ جَنُوباً مِنْ غَرْبِيِّهِ حِصْنُ ٱلْخَوَابِي وَهُوَ لِلْحَشِيشَةِ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَيُعْرَفُونَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْفَدَاوِيَّةِ وَيُسَمَّى مِصْيَاتَ وَهُوَ قُبَالَةَ أَنْطَرْطُوسَ وَقُبَالَةَ هَذَا ٱلْحِصْنِ فِي شَرْقِ ٱلْجَبَلِ بَلَدُ سِلْمِيَّةَ فِي ٱلشَّمَالِ عَنْ حِمْصَ وَفِي ٱلشَّمَالِ وَفِي مِصْيَاتَ بَيْنَ ٱلْجَبَلِ وَٱلْبَحْرِ بَلَدُ أَنْطَاكِيَّةَ وَيُقَابِلُهَا فِي شَرْقِ ٱلْجَبَلِ ٱلْمَعَرَّةُ وَفِي شَرْقِهَا ٱلْمَرَاغَةُ وَفِي شَمَالِ أَنْطَاكِيَّةَ ٱلْمَصِيصَةُ ثُمَّ أَذَنَةُ ثُمَّ طَرْسُوسُ آخِرَ ٱلشَّامِ وَيُحَاذِيهَا مِنْ غَرْبِ ٱلْجَبَلِ قِنَّسْرِينُ ثُمَّ عَيْنُ زُرْبَةَ وَقُبَالَةَ قِنَّسْرِينَ فِي شَرْقِ ٱلْجَبَلِ حَلَبُ وَيُقَابِلُ عَيْنَ زُرْبَةَ مَنْبِجُ آخِرَ ٱلشَّامِ . وَأَمَّا ٱلدُّرُوبُ فَعَنْ يَمِينِهَا مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ بِلَادُ ٱلرُّومِ ٱلَّتِي هِيَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ لِلتُّرْكُمَانِ وَسُلْطَانُهَا ٱبْنُ عُثْمَانَ وَفِي سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ مِنْهَا بَلَدُ أَنْطَاكِيَّةَ وَٱلْعَلَايَا . وَأَمَّا بِلَادُ ٱلْأَرْمَنِ ٱلَّتِي بَيْنَ جَبَلِ ٱلدُّرُوبِ وَجَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فَفِيهَا بَلَدُ مَرْعَشَ وَمَلَطْيَةُ وَٱلْمَعَرَّةُ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ ٱلشَّمَالِي وَيَخْرُجُ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فِي بِلَادِ ٱلْأَرْمَنِ نَهْرُ جَيْحَانَ وَنَهْرُ سَيْحَانَ فِي شَرْقِيِّهِ فَيَمُرُّ بِهَا جَيْحَانُ جَنُوباً حَتَّى يَتَجَاوَزَ ٱلدُّرُوبَ ثُمَّ يَمُرُّ بِطَرْطُوسَ ثُمَّ بِٱلْمَصِيصَةِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ هَابِطاً إِلَى ٱلشَّمَالِ وَمُغَرِّباً حَتَّى يَصُبَّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ جَنُوبَ سَلُوقِيَّةَ وَيَمُرُّ نَهْرُ سَيْحَانَ مُوَازِياً لِنَهْرِ جَيْحَانَ فَيُحَاذِي ٱلْمَعَرَّةَ وَمَرْعَشَ وَيَتَجَاوَزُ جِبَالَ ٱلدُّرُوبِ إِلَى أَرْضِ ٱلشَّامِ ثُمَّ يَمُرُّ بِعَيْنِ زُرْبَةَ وَيَجُوزُ عَنْ نَهْرِ جَيْحَانَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى ٱلشَّمَالِ مُغَرِّباً فَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ جَيْحَانَ عِنْدَ ٱلْمَصِيصَةِ وَمِنْ غَرْبِهَا وَأَمَّا بِلَادُ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلَّتِي يُحِيطُ بِهَا مُنْعَطَفُ جَبَلِ ٱللُّكَامِ إِلَى جَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فَفِي جَنُوبِهَا بَلَدُ ٱلرَّافِضَةِ وَٱلرَّقَّةِ ثُمَّ حَرَّانُ ثُمَّ سَرُوجُ وَٱلرَّهَا ثُمَّ نَصِيبِينُ ثُمَّ سُمَيْسَاطُ وَآمِدُ تَحْتَ جَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ وَآخِرُ ٱلْجُزْءِ مِنْ شَمَالِهِ وَهُوَ أَيْضاً آخِرُ ٱلْجُزْءِ مِنْ شَرْقِيِّهِ وَيَمُرُّ فِي وَسَطِ هَذِهِ ٱلْقِطْعَةِ نَهْرُ ٱلْفُرَاتِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ يَخْرُجَانِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَمُرَّانِ فِي بِلَادِ ٱلْأَرْمَنِ جَنُوباً إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلَ ٱلسِّلْسِلَةِ فَيَمُرُّ نَهْرُ ٱلْفُرَاتِ مِنْ غَرْبِيِّ سُمَيْسَاطَ وَسَرُوجَ وَيَنْحَرِفُ إِلَى ٱلشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ ٱلرَّافِضَةِ وَٱلرَّقَّةِ وَيَخْرُجُ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَيَمُرُّ دِجْلَةُ فِي شَرْقِ آمِدَ وَيَنْعَطِفُ قَرِيباً إِلَى ٱلشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيباً إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنْ هَذَا ٱلْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيِّهِ بِلَادُ ٱلْجَزِيرَةِ وَفِي

ٱلشَّرْقِ مِنْهَا بِلادُ ٱلعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا تَنْتَهِي فِي ٱلشَّرْقِ إِلَى قُرْبِ آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَيَعْتَرِض مِنْ آخِرِ ٱلْعِرَاقِ هُنَالِكَ جَبَلُ أَصْبَهَانَ هَابِطاً مِنْ جَنُوبِ ٱلْجُزْءِ مُنْحَرِفاً إِلَى ٱلغَرْبِ فَإِذَا ٱنْتَهَى إِلَى وَسَطِ ٱلْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي ٱلشَّمَالِ يَذْهَبُ مُغَرِّباً إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَيَتَّصِلَ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ ٱلسِّلْسِلَةِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ فَيَنْقَطِعُ هٰذَا ٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ فَفِي ٱلغَرْبِيَّةِ مِنْ جَنُوبِيِّهَا مَخْرَجُ ٱلْفُرَاتِ مِنَ ٱلْخَامِسِ وَفِي شَمَالِيِّهَا مَخْرَجُ دِجْلَةَ مِنْهُ أَمَّا ٱلْفُرَاتُ فَأَوَّلُ مَا يَخْرُجُ إِلَى ٱلسَّادِسِ يَمُرُّ بِقَرْقِيسِيَا وَيَخْرُجُ مِنْ هُنَالِكَ جَدْوَلٌ إِلَى ٱلشَّمَالِ يَنْسَابُ فِي أَرْضِ ٱلْجَزِيرَةِ وَيَغُوصُ فِي نَوَاحِيهَا وَيَمُرُّ مِنْ قَرْقِيسِيَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى ٱلْجَنُوبِ فَيَمُرُّ بِقُرْبِ ٱلْخَابُورِ إِلَى غَرْبِ ٱلرَّحْبَةِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدَاوِلُ مِنْ هُنَالِكَ يَمُرُّ جَنُوباً وَيَبْقَى صِفِّينُ فِي غَرْبِيِّهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقاً وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ فَيَمُرُّ بَعْضُهَا بِٱلْكُوفَةِ وَبَعْضُهَا بِقَصْرِ ٱبْنِ هُبَيْرَةَ وَبِٱلْجَامِعَيْنِ وَتَخْرُجُ جَمِيعاً فِي جَنُوبِ ٱلْجُزْءِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ فَيَغُوصُ هُنَالِكَ فِي شَرْقِ ٱلْحِيرَةِ وَٱلْقَادِسِيَّةِ وَيَخْرُجُ ٱلْفُرَاتُ مِنَ ٱلرَّحْبَةِ مُشَرِّقاً عَلَى سَمْتِهِ إِلَى هِيتَ مِنْ شَمَالِهَا يَمُرُّ إِلَى ٱلزَّابِ وَٱلْأَنْبَارِ مِنْ جَنُوبِهِمَا ثُمَّ يَصُبُّ فِي دِجْلَةَ عِنْدَ بَغْدَادَ. وَأَمَّا نَهْرُ دِجْلَةَ فَإِذَا دَخَلَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ إِلَى هٰذَا ٱلْجُزْءِ يَمُرُّ بِجَزِيرَةِ ٱبْنِ عُمَرَ عَلَى شَمَالِهَا ثُمَّ بِٱلْمَوْصِلِ كَذٰلِكَ وَتَكْرِيتَ وَيَنْتَهِي إِلَى ٱلْحَدِيثَةِ فَيَنْعَطِفُ جَنُوباً وَتَبْقَى ٱلْحَدِيثَةُ فِي شَرْقِهِ وَٱلزَّابُ ٱلْكَبِيرُ وَٱلصَّغِيرُ كَذٰلِكَ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ جَنُوباً وَفِي غَرْبِ ٱلْقَادِسِيَّةِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى بَغْدَادَ وَيَخْتَلِطَ بِٱلْفُرَاتِ ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوباً عَلَى غَرْبِ جَرْجَرَايَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ ٱلْجُزْءِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ فَتَنْتَشِرُ هُنَالِكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ فَارِسَ عِنْدَ عَبَّادَانَ وَفِيمَا بَيْنَ نَهْرِ ٱلدِّجْلَةِ وَٱلْفُرَاتِ قَبْلَ مَجْمَعِهِمَا بِبَغْدَادَ هِيَ بِلادُ ٱلْجَزِيرَةِ وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجْلَةَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بِبَغْدَادَ نَهْرٌ آخَرُ يَأْتِي مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إِلَى بِلادِ ٱلنَّهْرَوَانِ قُبَالَةَ بَغْدَادَ شَرْقاً ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوباً وَيَخْتَلِطُ بِدِجْلَةَ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَيَبْقَى مَا بَيْنَ هٰذَا ٱلنَّهْرِ وَبَيْنَ جَبَلِ ٱلْعِرَاقِ وَٱلْأَعَاجِمِ بَلَدُ جَلُولَاءَ وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ ٱلْجَبَلِ بَلَدُ حُلْوَانَ وَصَيْمَرَةَ. وَأَمَّا ٱلْقِطْعَةُ ٱلْغَرْبِيَّةُ مِنَ ٱلْجُزْءِ فَيَعْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنْ جَبَلِ ٱلْأَعَاجِمِ مُشَرِّقاً إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ وَيُسَمَّى جَبَلَ شَهْرَزُورَ وَيَقْسِمُهَا بِقِطْعَتَيْنِ فِي ٱلْجَنُوبِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ ٱلصُّغْرَى بَلَدُ خُونَجَانَ مِنَ ٱلْغَرْبِ وَٱلشَّمَالِ عَنْ أَصْبَهَانَ وَتُسَمَّى هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةُ بَلَدَ ٱلْبَهْلُوس

وَفِي وَسَطِهَا بَلَدُ نِهَاوَنْدَ وَفِي شَمَالِهَا بَلَدُ شَهْرَزُورَ غَرْباً عِنْدَ مُلْتَقَى الْجَبَلَيْنِ وَالدِّينَوَرُ شَرْقاً عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ وَفِي الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى الثَّانِيَةِ طَرَفٌ مِنْ بِلادِ أَرْمِينِيَّةَ قَاعِدَتُهَا الْمَرَاغَةُ وَالَّذِي يُقَابِلُهَا مِنْ جَبَلِ الْعِرَاقِ يُسَمَّى بَارِيَا وَهُوَ مَسَاكِنُ لِلأَكْرَادِ وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ الَّذِي عَلَى دِجْلَةَ مِنْ وَرَائِهِ وَفِي آخِرِ هٰذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ بِلادُ أَذْرَبِيجَانَ وَمِنْهَا تَبْرِيزُ وَالْبَيْدَقَانُ وَفِي الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطَشَ وَهُوَ بَحْرُ الْخَزَرِ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مُعْظَمُ بِلادِ الْهُلُوسِ وَفِيهَا هَمَذَانُ وَقَزْوِينُ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَفِيهَا هُنَالِكَ أَصْبَهَانُ وَيُحِيطُ بِهَا مِنَ الْجَنُوبِ جَبَلٌ يَخْرُجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِالْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ فِي شَرْقِيِّهِ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ هُنَالِكَ وَإِنَّهُ مُحِيطٌ بِبِلادِ الْهُلُوسِ فِي الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ وَيَهْبِطُ هٰذَا الْجَبَلُ الْمُحِيطُ بِأَصْبَهَانَ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ وَيَخْرُجُ إِلَى هٰذَا الْجُزْءِ السَّابِعِ فَيُحِيطُ بِبِلادِ الْهُلُوسِ مِنْ شَرْقِهَا وَتَحْتَهُ هُنَالِكَ قَاشَانُ ثُمَّ قُمّ وَيَنْعَطِفُ فِي قُرْبِ النِّصْفِ مِنْ طَرِيقِهِ مُغَرِّباً بَعْضَ الشَّيْءِ ثُمَّ يَرْجِعُ مُسْتَدِيراً فَيَذْهَبُ مُشَرِّقاً وَمُنْحَرِفاً إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى مُنْعَطَفِهِ وَاسْتِدَارَتِهِ عَلَى بَلَدِ الرَّيِّ فِي شَرْقِيِّهِ وَيَبْدَأُ مِنْ مُنْعَطَفِهِ جَبَلٌ آخَرُ يَمُرُّ غَرْباً إِلَى آخِرِ هٰذَا الْجُزْءِ وَمِنْ جَنُوبِهِ مِنْ هُنَالِكَ قَزْوِينُ وَمِنْ جَانِبِهِ الشَّمَالِيِّ وَجَانِبِ جَبَلِ الرَّيِّ الْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِباً إِلَى الشَّرْقِ وَالشَّمَالِ إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ ثُمَّ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ بِلادُ طَبَرِسْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هٰذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَيَدْخُلُ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي هٰذَا الْجُزْءِ فِي نَحْوِ النِّصْفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَيَعْتَرِضُ عِنْدَ جَبَلِ الرَّيِّ وَعِنْدَ انْعِطَافِهِ إِلَى الْغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ يَمُرُّ عَلَى سَمْتِهِ مُشَرِّقاً وَبِانْحِرَافٍ قَلِيلٍ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَيَبْقَى بَيْنَ جَبَلِ الرَّيِّ وَهٰذَا الْجَبَلِ مِنْ عِنْدِ مَبْدَإِهِمَا بِلادُ جُرْجَانَ فِيمَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ وَمِنْهَا بِسْطَامُ وَوَرَاءَ هٰذَا الْجَبَلِ قِطْعَةٌ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ فِيهَا بَقِيَّةُ الْمَفَازَةِ الَّتِي بَيْنَ فَارِسَ وَخُرَاسَانَ وَهِيَ فِي شَرْقِيِّ قَاشَانَ وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ هٰذَا الْجَبَلِ بَلَدُ أَسْتَرَابَاذَ وَحَافَاتُ هٰذَا الْجَبَلِ مِنْ شَرْقِيِّهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلادُ نِيسَابُورَ مِنْ خُرَاسَانَ فَفِي جَنُوبِ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَفَازَةِ بَلَدُ نِيسَابُورَ ثُمَّ مَرْوُ الشَّاهِجَانِ آخِرَ الْجُزْءِ وَفِي شَمَالِهِ وَشَرْقِيِّ جُرْجَانَ بَلَدُ مِهْرَجَانَ وَخَازَرُونَ وَطُوسٍ آخِرَ الْجُزْءِ شَرْقاً

وَكُلُّ هٰذَا تَحْتَ ٱلْجَبَلِ وَفِي ٱلشَّمَالِ عَنْهَا بِلَادُ نَسَاوَ يُحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ ٱلْجُزْئَيْنِ ٱلشَّمَالِ وَٱلشَّرْقِ مَفَاوِزُ مُعَطَّلَةٌ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ وَفِي غَرْبِيِّهِ نَهْرُ جَيْحُونَ ذَاهِباً مِنَ ٱلْجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ فَفِي عُدْوَتِهِ ٱلْغَرْبِيَّةِ زَمَمُ وَآمُلُ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَٱلطَّاهِرِيَّةُ وَٱلْجُرْجَانِيَّةُ مِنْ بِلَادِ خَوَارِزْمَ وَيُحِيطُ بِالزَّاوِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلُ أَسْتَرَابَاذَ ٱلْمُعْتَرِضُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ قَبْلَهُ وَيَخْرُجُ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَيُحِيطُ بِهٰذِهِ ٱلزَّاوِيَةِ وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةَ وَٱلْجُوزْجَانِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ ٱلْبُتَّمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَالِكَ وَفِي شَرْقِيِّ نَهْرِ جَيْحُونَ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَفِي ٱلْجَنُوبِ مِنْهُ بِلَادُ بُخَارَى ثُمَّ بِلَادُ ٱلصُّغْدِ وَقَاعِدَتُهَا سَمَرْقَنْدُ ثُمَّ سَرْدَارَا وَأَشْنَهُ وَمِنْهَا خُجَنْدَةُ آخِرَ ٱلْجُزْءِ شَرْقاً وَفِي ٱلشَّمَالِ عَنْ سَمَرْقَنْدَ وَسَرْدَارَ وَأَشْنَهُ أَرْضُ إِيلَاقَ[1] ثُمَّ فِي ٱلشَّمَالِ عَنْ إِيلَاقَ أَرْضُ ٱلشَّاشِ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقاً وَيَأْخُذُ قِطْعَةً مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ فِي جَنُوبِ تِلْكَ ٱلْقِطْعَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ فَرْغَانَةَ وَيَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ ٱلْقِطْعَةِ ٱلَّتِي فِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ نَهْرُ ٱلشَّاشِ يَمُرُّ مُعْتَرِضاً فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ إِلَى أَنْ يَنْصَبَّ فِي نَهْرِ جَيْحُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلثَّامِنِ فِي شَمَالِهِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ فِي أَرْضِ إِيلَاقَ نَهْرٌ يَأْتِي مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ مِنْ تُخُومِ بِلَادِ ٱلتُّبَّتِ وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ قَبْلَ مَخْرَجِهِ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ نَهْرُ فَرْغَانَةَ وَعَلَى سَمْتِ نَهْرِ ٱلشَّاشِ جَبَلُ جَبْرَاغُونَ يَبْدَأُ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَيَنْعَطِفُ شَرْقاً وَمُنْحَرِفاً إِلَى ٱلْجَنُوبِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مُحِيطاً بِأَرْضِ ٱلشَّاشِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ فَيُحِيطُ بِالشَّاشِ وَفَرْغَانَةَ هُنَاكَ إِلَى جَنُوبِهِ فَيَدْخُلُ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ وَبَيْنَ نَهْرِ ٱلشَّاشِ وَطَرَفِ هٰذَا ٱلْجَبَلِ فِي وَسَطِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ بِلَادُ فَارَابَ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْضِ بُخَارَى وَخَوَارَزْمَ مَفَاوِزُ مُعَطَّلَةٌ وَفِي زَاوِيَةِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَٱلشَّرْقِ أَرْضُ خُجَنْدَةَ وَفِيهَا بَلَدُ إِسْبِيجَابَ وَطِرَازُ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِيِّهِ بَعْدَ أَرْضِ فَرْغَانَةَ وَٱلشَّاشِ أَرْضُ ٱلْخَزْلَجِيَّةِ فِي ٱلْجَنُوبِ وَأَرْضُ ٱلْخَلِيجِيَّةِ فِي ٱلشَّمَالِ وَفِي شَرْقِ ٱلْجُزْءِ كُلِّهِ أَرْضُ ٱلْكِيمَاكِيَّةِ وَيَتَّصِلُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى جَبَلِ قُوقِيَا آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقاً وَعَلَى قِطْعَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ هُنَالِكَ وَهُوَ جَبَلُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهٰذِهِ ٱلْأُمَمُ كُلُّهَا مِنْ شُعُوبِ ٱلتُّرْكِ . انتهى

أَلْإِقْلِيمُ ٱلْخَامِسُ * ٱلْجُزْءُ ٱلْأَوَّلُ مِنْهُ أَكْثَرُهُ مَغْمُورٌ بِالْمَاءِ إِلَّا قَلِيلاً مِنْ جَنُوبِهِ وَشَرْقِهِ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ بِهٰذِهِ ٱلْجِهَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ دَخَلَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ وَٱلسَّادِسِ

---

(١) في المشترك اقليم ايلاق متصل باقليم الشاش لا فصل بينهما وهو بكسر الهمزة وسكون اليا بعدها. اهـ

وَالسَّابِعِ عَنِ الدَّائِرَةِ المُحِيطَةِ بِالإِقْلِيمِ. فَأَمَّا المُنْكَشِفُ مِنْ جَنُوبِهِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُتَّصِلَةٌ مِنْ هُنَالِكَ بِالأَنْدَلُسِ وَعَلَيْهَا بَقِيَّتُهَا وَيُحِيطُ بِهَا البَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ كَأَنَّهُمَا ضِلْعَانِ مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ المُثَلَّثِ فَفِيهَا مِنْ بَقِيَّةِ غَرْبِ الأَنْدَلُسِ سَعِيُورُ عَلَى البَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ الجُزْءِ مِنَ الجَنُوبِ وَالغَرْبِ وَسَلَمَنْكَةُ شَرْقاً عَنْهَا وَفِي جَوْفِهَا سَمُّورَةُ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ سَلَمَنْكَةَ أَبِلَةُ آخِرَ الجَنُوبِ وَأَرْضُ قَشْتَالِيَةَ شَرْقاً عَنْهَا وَفِيهَا مَدِينَةُ شَقُوبِيَّةَ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ لِيُونَ وَبَرْغَشْتُ ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي الشَّمَالِ أَرْضُ جِلِيقِيَّةَ إِلَى زَاوِيَةِ القِطْعَةِ وَفِيهَا عَلَى البَحْرِ المُحِيطِ فِي آخِرِ الضِّلَعِ الغَرْبِيِّ بَلَدُ شَنْتَيَاقُو وَمَعْنَاهُ يَعْقُوبُ وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الأَنْدَلُسِ مَدِينَةُ شَطِلِيَّةَ عِنْدَ آخِرِ الجُزْءِ فِي الجَنُوبِ وَشَرْقاً عَنْ قَشْتَالِيَةَ وَفِي شَمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشْقَةُ وَبَنْبَلُونَةُ عَلَى سَمْتِهَا شَرْقاً وَشَمَالاً وَفِي غَرْبِ بَنْبَلُونَةَ قَسْطَالَةُ ثُمَّ نَاجِرَةُ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْغَشْتَ وَيَعْتَرِضُ وَسَطَ هٰذِهِ القِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ مُحَاذٍ لِلبَحْرِ وَلِلضِّلَعِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ وَعَلَى قُرْبٍ وَيَتَّصِلُ بِهِ وَبِطَرَفِ البَحْرِ عِنْدَ بَنْبَلُونَةَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَتَّصِلَ فِي الجَنُوبِ بِالبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَصِيرَ حَجْراً عَلَى بِلَادِ الأَنْدَلُسِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَثَنَايَاهُ لَهَا أَبْوَابٌ تُفْضِي إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَّةَ مِنْ أُمَمِ الفِرَنْجِ فَمِنْهَا مِنَ الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ بَرْشَلُونَةُ وَأَرْبُونَةُ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَرِيدَةُ وَقَرْقَشُونَةُ وَرَاءَهُمَا فِي الشَّمَالِ وَمِنْهَا مِنَ الإِقْلِيمِ الخَامِسِ طَلُوشَةُ شَمَالاً عَنْ خَرِيدَةَ. وَأَمَّا المُنْكَشِفُ فِي هٰذَا الجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فَقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَتُهُ الحَادَّةُ وَرَاءَ البُرْنَاتِ شَرْقاً وَفِيهَا عَلَى البَحْرِ المُحِيطِ عَلَى رَأْسِ القِطْعَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ البُرْنَاتِ بَلَدُ نِيُونَةَ وَفِي آخِرِ هٰذِهِ القِطْعَةِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الجُزْءِ أَرْضُ بِنْطُو مِنَ الفِرَنْجِ إِلَى آخِرِ الجُزْءِ. وَفِي الجُزْءِ الثَّانِي مِنَ النَّاحِيَةِ الغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَرْضُ غَشْكُونِيَّةَ وَفِي شَمَالِهَا أَرْضُ بِنْطُو وَبَرْغَشْتَ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُمَا وَفِي شَرْقِ بِلَادَ غَشْكُونِيَّةَ فِي شَمَالِهَا قِطْعَةُ أَرْضٍ مِنَ البَحْرِ الرُّومِيِّ دَخَلَتْ فِي هٰذَا الجُزْءِ كَالضِّرْسِ مَائِلَةً إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلاً وَصَارَتْ بِلَادُ غَشْكُونِيَّةَ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةً فِي جُونٍ مِنَ البَحْرِ وَعَلَى رَأْسِ هٰذِهِ القِطْعَةِ شَمَالاً بِلَادُ جَنْوَةَ وَعَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلُ نِيتْ جُونَ وَفِي شَمَالِهِ وَعَلَى سَمْتِهِ أَرْضُ بِرْغُونَةَ وَفِي الشَّرْقِ عَنْ طَرَفِ جَنْوَةَ الخَارِجِ مِنَ البَحْرِ الرُّومِيِّ طَرَفٌ آخَرُ خَارِجٌ مِنْهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جُونٌ دَاخِلٌ مِنَ البَرِّ فِي البَحْرِ فِي غَرْبِيِّهِ نِيشُ وَفِي شَرْقِيِّهِ مَدِينَةُ رُومَةَ

ٱلعُظمى كُرسِيّ مَلِكِ ٱلإِفرَنجَةِ وَمَسكِن ٱلبَابَا بَطرَكِهِم ٱلأَعظَم وَفِيهَا مِنَ ٱلمَبَانِي ٱلضَّخمَةِ وَٱلهَيَاكِلِ ٱلهَائِلَةِ وَٱلكَنَائِسِ ٱلعَادِيَّةِ مَا هُوَ مَعرُوفُ ٱلأَخبَارِ وَمِن عَجَائِبِهَا ٱلنَّهرُ ٱلجَارِي فِي وَسَطِهَا مِنَ ٱلمَشرِقِ إِلَى ٱلمَغرِبِ مَفرُوشٌ قَاعُهُ بِبلَاطِ ٱلنُّحَاسِ وَفِيهَا كَنِيسَةُ بُطرُسَ وَبُولُسَ مِنَ ٱلحَوَارِيِّينَ وَهُمَا مَدفُونَانِ بِهَا وَفِي ٱلشَّمَالِ عَن بِلَادِ رُومَةَ بِلَادُ أَقرَنصِيصَةَ إِلَى آخِرِ ٱلجزءِ وَعَلَى هٰذَا ٱلطَّرَفِ مِنَ ٱلبَحرِ ٱلَّذِي فِي جَنُوبِهِ رُومَةُ بِلَادُ نَابِلَ فِي ٱلجَانِبِ ٱلشَّرقِيِّ مِنهُ مُتَّصِلَةً بِبِلَدِ قَلورِيَّةَ مِن بِلَادِ ٱلفَرَنجِ وَفِي شَمَالِهَا طَرَفٌ مِن خَلِيجِ ٱلبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هٰذَا ٱلجزءِ مِنَ ٱلجزءِ ٱلثَّالِثِ مُغَرِّبًا وَمُحَاذِيًا لِلشَّمَالِ مِن هٰذَا ٱلجزءِ وَٱنتَهَى إِلَى نَحوِ ٱلثُّلُثِ مِنهُ وَعَلَيهِ كَثِيرٌ مِن بِلَادِ ٱلبَنَادِقَةِ دَخَلَ فِي هٰذَا ٱلجزءِ مِن جَنُوبِهِ فِيمَا بَينَهُ وَبَينَ ٱلبَحرِ ٱلمُحِيطِ وَمِن شَمَالِهِ بِلَادُ إِنكِلَايَةَ فِي ٱلإِقلِيمِ ٱلسَّادِسِ . وَفِي ٱلجزءِ ٱلثَّالِثِ مِن هٰذَا ٱلإِقلِيمِ فِي غَربِيِّهِ بِلَادُ قَلورِيَّةَ بَينَ خَلِيجِ ٱلبَنَادِقَةِ وَٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ يُحِيطُ بِهَا مِن شَرقِيِّهِ يَصِلُ مِن بَرِّهَا فِي ٱلإِقلِيمِ ٱلرَّابِعِ فِي ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ فِي جُونٍ بَينَ طَرَفَينِ خَرَجَا مِنَ ٱلبَحرِ عَلَى سَمتِ ٱلشَّمَالِ إِلَى هٰذَا ٱلجزءِ فِي شَرقِيِّ بِلَادِ قَلورِيَّةَ بِلَادُ أَنكِبَردَةَ فِي جُونٍ بَينَ خَلِيجِ ٱلبَنَادِقَةِ وَٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ وَيَدخُلُ طَرَفٌ مِن هٰذَا ٱلجزءِ فِي ٱلجُونِ فِي ٱلإِقلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَفِي ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ وَيُحِيطُ بِهِ مِن شَرقِيِّهِ خَلِيجُ ٱلبَنَادِقَةِ مِنَ ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ ذَاهِبًا إِلَى سَمتِ ٱلشَّمَالِ ثُمَّ يَنعَطِفُ إِلَى ٱلغَربِ مُحَاذِيًا لِآخِرِ ٱلجزءِ ٱلشَّمَالِيِّ وَيَخرُجُ عَلَى سَمتِهِ مِنَ ٱلإِقلِيمِ ٱلرَّابِعِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُوَازِيهِ وَيَذهَبُ مَعَهُ إِلَى ٱلشَّمَالِ ثُمَّ يُغَرِّبُ مَعَهُ فِي ٱلإِقلِيمِ ٱلسَّادِسِ إِلَى أَن يَنتَهِيَ قُبَالَةَ خَلِيجٍ فِي شَمَالِيِّهِ فِي بِلَادِ إِنكِلَايَةَ مِن أُمَمِ ٱللَّمَانِيِّينَ كَمَا نَذكُرُ وَعَلَى هٰذَا ٱلخَلِيجِ وَبَينَهُ وَبَينَ هٰذَا ٱلجَبَلِ مَا دَامَا ذَاهِبَينِ إِلَى ٱلشَّمَالِ بِلَادُ ٱلبَنَادِقَةِ فَإِذَا ذَهَبَا إِلَى ٱلمَغرِبِ فَبَينَهُمَا بِلَادُ حَرَوَايَا ثُمَّ بِلَادُ ٱلأَلمَانِيِّينَ عِندَ طَرَفِ ٱلخَلِيجِ . وَفِي ٱلجزءِ ٱلرَّابِعِ مِن هٰذَا ٱلإِقلِيمِ قِطعَةٌ مِنَ ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ خَرَجَت إِلَيهِ مِنَ ٱلإِقلِيمِ ٱلرَّابِعِ مُضَرَّسَةً كُلُّهَا بِقِطَعٍ مِنَ ٱلبَحرِ وَيَخرُجُ مِنهَا إِلَى ٱلشَّمَالِ وَبَينَ كُلِّ ضِرسَينِ مِنهَا طَرَفٌ مِنَ ٱلبَحرِ فِي ٱلجُونِ بَينَهُمَا وَفِي آخِرِ ٱلجزءِ شَرقًا قِطَعٌ مِنَ ٱلبَحرِ وَيَخرُجُ مِنهَا إِلَى ٱلشَّمَالِ خَلِيجُ ٱلقُسطَنطِينِيَّةِ يَخرُجُ مِن هٰذَا ٱلطَّرَفِ ٱلجَنُوبِيِّ وَيَذهَبُ عَلَى سَمتِ ٱلشَّمَالِ إِلَى أَن يَدخُلَ فِي ٱلإِقلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَيَنعَطِفَ مِن هُنَالِكَ عَن قُربٍ مُشَرِّقًا إِلَى بَحرِ نِيطَشَ فِي ٱلجزءِ ٱلخَامِسِ وَبَعضِ ٱلرَّابِعِ

قبلَهُ وَالسَّادِسِ بَعْدَهُ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ كَمَا نَذْكُرُ وَبَلَدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَرْقِيِّ هٰذَا الْخَلِيجِ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي كَانَتْ كُرْسِيَّ الْقَيَاصِرَةِ وَبِهَا مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وَالضَّخَامَةِ مَا كَثُرَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالْقِطْعَةُ الَّتِي مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَخَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ وَفِيهَا بِلَادُ مَقْدُونِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ لِلْيُونَانِيِّينَ وَمِنْهَا ابْتِدَاءُ مُلْكِهِمْ وَفِي شَرْقِيِّ هٰذَا الْخَلِيجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ بَاطُوسَ وَأَظُنُّهَا لِهٰذَا الْعَهْدِ مَجَالَاتٍ لِلتُّرْكُمَانِ وَبِهَا مُلْكُ ابْنِ عُثْمَانَ وَقَاعِدَتُهُ بِهَا بُرْصَةُ وَكَانَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ لِلرُّومِ وَغَلَبَهُمْ عَلَيْهَا الْأُمَمُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِلتُّرْكُمَانِ. وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيِّهِ وَجَنُوبِيِّهِ أَرْضُ بَاطُوسَ وَفِي الشَّمَالِ عَنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ عَمُّورِيَّةَ وَفِي شَرْقِيِّ عَمُّورِيَّةَ نَهْرُ قَبَاقِبَ الَّذِي يُمِدُّ الْفُرَاتَ وَيَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ فِي الْجَنُوبِ حَتَّى يُخَالِطَ الْفُرَاتَ قَبْلَ وُصُولِهِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ إِلَى مَمَرِّهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَهُنَالِكَ فِي غَرْبِيِّهِ آخِرُ الْجُزْءِ فِي مَبْدَإِ نَهْرِ سِيحَانَ ثُمَّ نَهْرِ جِيحَانَ غَرْبِيَّهُ الذَّاهِبَيْنِ عَلَى سَمْتِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُمَا وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ مَبْدَأُ نَهْرِ دِجْلَةَ الذَّاهِبِ عَلَى سَمْتِهِ وَفِي موازرته حَتَّى يُخَالِطَهُ عِنْدَ بَغْدَادَ وَفِي الزَّاوِيَةِ الَّتِي بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ وَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ دِجْلَةَ بَلَدُ مَيَّافَارِقِينَ وَنَهْرُ قَبَاقِبَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَقْسِمُ هٰذَا الْجُزْءَ بِقِطْعَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا غَرْبِيَّةٌ جَنُوبِيَّةٌ وَفِيهَا أَرْضُ بَاطُوسَ كَمَا قُلْنَاهُ وَأَسَافِلُهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَمَالًا وَوَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ قَبَاقِبَ أَرْضُ عَمُّورِيَّةَ كَمَا قُلْنَاهُ وَالْقِطْعَةُ الثَّانِيَةُ شَرْقِيَّةٌ شَمَالِيَّةٌ عَلَى الثُّلُثِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهَا مَبْدَأُ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ وَفِي الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَيْلَقَانِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ عَمُّورِيَّةَ مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ قَبَاقِبَ وَهِيَ عَرِيضَةٌ وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ مَبْدَإِ الْفُرَاتِ بَلَدُ خَرْشَنَةَ وَفِي الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ الَّذِي يُمِدُّهُ خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ. وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ فِي جَنُوبِهِ وَغَرْبِهِ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةَ مُتَّصِلَةٌ إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَ وَسَطَ الْجُزْءِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ وَفِيهَا بَلَدَانُ أَرْزَنَ فِي الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَفِي شَمَالِهَا تَفْلِيسُ وَدَبِيلُ وَفِي شَرْقِ أَرْزَنَ مَدِينَةُ خِلَاطَ ثُمَّ بَرْذَعَةُ فِي جَنُوبِهَا بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ مَدِينَةُ أَرْمِينِيَّةَ وَمِنْ هُنَالِكَ مَخْرَجُ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَفِيهَا هُنَالِكَ بَلَدُ الْمَرَاغَةِ فِي شَرْقِيِّ جَبَلِ الْأَكْرَادِ الْمُسَمَّى بِأَرْمِي وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ وَيُتَاخِمُ بِلَادَ أَرْمِينِيَّةَ فِي هٰذَا الْجُزْءِ وَفِي الْإِقْلِيمِ

اَلرَّابع قَبْلَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ فِيهَا بِلادُ أَذْرَبِيجَانَ وَآخِرُهَا فِي هٰذا الْجُزْءِ شَرْقاً بِلادُ اردَبِيل أَعْلَى قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ دَخَلَتْ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ وَيُسَمَّى بَحْر طَبَرِسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ شَمَالِهِ فِي هٰذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلادِ الْخَزَرِ وَهُمُ التُّرْكُمَانُ وَيَبْدَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ هٰذِهِ الْقِطْعَةِ الْبَحْرِيَّةِ فِي الشَّمَالِ جِبَالٌ يَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عَلَى سَمْتِ الْغَرْب إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَتَمُرُّ فِيهِ مُنْعَطِفَةً وَمُحِيطَةً بِبَلَدِ مَيَّافَارِقِينَ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عِنْدَ آمِدَ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ السِّلْسِلَةِ فِي أَسَافِلِ الشَّامِ وَمِنْ هُنَالِكَ يَتَّصِلُ بِجَبَلِ اللُّكَام كَمَا مَرَّ وَبَيْنَ هٰذِهِ الْجِبَالِ الشَّمَالِيَّةِ فِي هٰذَا الْجُزْءِ ثَنَايَا كَالْأَبْوابِ تُفْضِي مِنَ الْجَانِبَيْن فَفِي جَنُوبِيِّهَا بِلادُ الْأَبْوَابِ مُتَّصِلَةٌ فِي الشَّرْقِ إِلَى بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَعَلَيْهِ مِنْ هٰذِهِ الْبِلاد مَدِينَةُ بَابِ الْأَبْوابِ وَتَتَّصِلُ بِلادُ الْأَبْوَابِ فِي الْغَرْبِ مِنْ نَاحِيَةِ جَنُوبِيِّهَا بِبَلَدِ أَرْمِينِيَة وَبَيْنَهُمَا فِي الشَّرْقِ وَبَيْنَ بِلادِ أَذْرَبِيجَانَ الْجَنُوبِيَّةِ بِلادُ الزَّابِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى بَحْرِ طَبَرِسْتَان وَفِي شَمَالِ هٰذِهِ الْجِبَالِ قِطْعَةٌ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ فِي غَرْبِهَا مَمْلَكَةُ السَّرِيرِ فِي الزَّاوِيَة الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْهَا وَفِي زَاوِيَةِ الْجُزْءِ كُلِّهِ قِطْعَةٌ أَيْضاً مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ الَّذِي يُمِدُّه خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ وَيَحُفُّ بِهٰذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ نِيطِشَ بِلادُ السَّرِيرِ وَعَلَيْهَا مِنْهَا بَلَدُ أَطْرَابَزِيدَةَ وَتَتَّصِلُ بِلادُ السَّرِيرِ بَيْنَ جَبَلِ الْأَبْوَابِ وَالْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنَ الْجُزْء إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ شَرْقاً إِلَى جَبَلٍ حَاجِزٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صُول وَوَرَاءَ هٰذَا الْجَبَلِ الْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ تَنْتَهِي إِلَى الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّة مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَآخِرِ الْجُزْءِ شَمَالاً . وَالْجُزْءُ السَّابِعُ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيم غَرْبِيُّهُ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِبَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا هُنَالِكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلادَ طَبَرِسْتَانَ وَجِبَالَ الدَّيْلَمِ إِلَى قَزْوِينَ وَفِي غَرْبِيِّ تِلْكَ الْقِطْعَة مُتَّصِلَةٌ بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شَمَالِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِهِ أَيْضاً وَيَنْكَشِفُ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَتِه الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ أَثَلٍ فِي هٰذَا الْبَحْرِ وَيَبْقَى مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ فِي نَاحِية الشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ هِيَ مَجَالَاتٌ لِلْغُزِّ مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ يُحِيطُ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَة الْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَيَذْهَبُ فِي الْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ وَسَطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يُلاقِيَ بَحْرَ طَبَرِسْتَانَ فَيَحْتَفُّ بِهِ ذَاهِباً مَعَهُ إِلَى بَقِيَّتِهِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِس

ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيُفَارِقُهُ وَيُسَمَّى هُنَالِكَ جَبَلَ سِيَاهَ وَيَذْهَبُ مُغَرِّباً إِلَى ٱلجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوباً إِلَى ٱلجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلخَامِسِ وَهٰذَا ٱلطَّرَفُ مِنْهُ وَهُوَ ٱلَّذِي ٱعْتَرَضَ فِي هٰذَا ٱلجُزْءِ بَيْنَ أَرْضِ ٱلسَّرِيرِ وَأَرْضِ ٱلخَزَرِ وَٱتَّصَلَتْ بِأَرْضِ ٱلخَزَرِ فِي ٱلجُزْءِ ٱلسَّادِسِ وَٱلسَّابِعِ حَافَاتُ هٰذَا ٱلجَبَلِ ٱلْمُسَمَّى جَبَلَ سِيَاهَ كَمَا سَيَأْتِي. وَٱلجُزْءُ ٱلثَّامِنُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ ٱلخَامِسِ كُلُّهُ مَجَالَاتٌ لِلْغُزِّ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ وَفِي ٱلجِهَةِ ٱلجُنُوبِيَّةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ خُوَارَزْمَ ٱلَّتِي يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ جَيْحُونَ دَوْرُهَا ثَلَاثُمِائَةِ مِيلٍ وَيَصُبُّ فِيهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَرْضِ هٰذِهِ ٱلْمَجَالَاتِ وَفِي ٱلجِهَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ بُحَيْرَةُ عُرْعُونَ دَوْرُهَا أَرْبَعُمِائَةِ مِيلٍ وَمَاؤُهَا حُلْوٌ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ جَبَلُ مِرْغَارَ وَمَعْنَاهُ جَبَلُ ٱلثَّلْجِ لِأَنَّهُ لَا يَذُوبُ فِيهِ وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِآخِرِ ٱلجُزْءِ وَفِي ٱلجَنُوبِ عَنْ بُحَيْرَةِ عُرْعُونَ جَبَلٌ مِنَ ٱلحَجَرِ ٱلصَّلْدِ لَا يُنْبِتُ شَيْئاً يُسَمَّى عُرْعُونَ وَبِهِ سُمِّيَتِ ٱلْبُحَيْرَةُ وَيَنْجَلِبُ مِنْهُ وَمِنْ جَبَلِ مِرْغَارَ شَمَالِيَّ ٱلْبُحَيْرَةِ أَنْهَارٌ لَا تَنْحَصِرُ عِدَّتُهَا فَتَصُبُّ فِيهَا مِنَ ٱلجَانِبَيْنِ. وَفِي ٱلجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ بِلَادُ أَرْكَسَ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ فِي غَرْبِ بِلَادِ ٱلْغُزِّ وَشَرْقِ بِلَادِ ٱلْكِيمَاكِيَّةِ وَيَحُفُّ بِهِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ آخِرَ ٱلجُزْءِ جَبَلُ قُوقِيَا ٱلْمُحِيطِ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَعْتَرِضُ هُنَالِكَ مِنَ ٱلجَنُوبِ إِلَى ٱلشَّمَالِ حَتَّى يَنْعَطِفَ أَوَّلَ دُخُولِهِ مِنَ ٱلجُزْءِ ٱلعَاشِرِ وَقَدْ كَانَ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ ٱلجُزْءِ ٱلعَاشِرِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ قَبْلَهُ وَٱحْتَفَّ هُنَالِكَ بِٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ إِلَى آخِرِ ٱلجُزْءِ فِي ٱلشَّمَالِ ثُمَّ ٱنْعَطَفَ مُغَرِّباً فِي ٱلجُزْءِ ٱلعَاشِرِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ إِلَى مَا دُونَ نِصْفِهِ وَأَحَاطَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى هُنَا بِبِلَادِ ٱلْكِيمَاكِيَّةِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى ٱلجُزْءِ ٱلعَاشِرِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلخَامِسِ فَذَهَبَ فِيهِ مُغَرِّباً إِلَى آخِرِهِ وَبَقِيَتْ فِي جَنُوبِيِّهِ مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى ٱلْغَرْبِ قَبْلَ آخِرِ بِلَادِ ٱلْكِيمَاكِيَّةِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى ٱلجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ فِي شَرْقِيِّهِ وَفِي ٱلْأَعْلَى مِنْهُ وَٱنْعَطَفَ قَرِيباً إِلَى ٱلشَّمَالِ وَذَهَبَ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى ٱلجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَفِيهِ ٱلسَّدُّ هُنَالِكَ كَمَا نَذْكُرُهُ وَبَقِيَتْ مِنْهُ ٱلْقِطْعَةُ ٱلَّتِي أَحَاطَ بِهَا جَبَلُ قُوقِيَا عِنْدَ ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ مُسْتَطِيلَةً إِلَى ٱلجَنُوبِ وَهِيَ مِنْ بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَفِي ٱلجُزْءِ ٱلعَاشِرِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ أَرْضُ يَأْجُوجَ مُتَّصِلَةً فِيهِ كُلِّهِ إِلَّا قِطْعَةً مِنَ ٱلْبَحْرِ غَمَرَتْ طَرَفاً فِي شَرْقِيِّهِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ إِلَّا ٱلْقِطْعَةَ ٱلَّتِي يَفْصِلُهَا إِلَى ٱلجَنُوبِ وَٱلْغَرْبِ جَبَلُ قُوقِيَا حِينَ مَرَّ فِيهِ وَمَا

سوى ذلكَ فأرضُ يأجوجَ ومأجوجَ وَاللهُ سُبحانَهُ وتعالى أعلمُ

أَلإِقليمُ ٱلسَّادِسُ . فَٱلجُزْءُ ٱلأَوَّلُ مِنْهُ غَمَرَ ٱلبَحْرُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِهِ وَٱسْتَدَارَ شَرْقاً مَعَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ إِلَى ٱلجَنُوبِ وَٱنْتَهَى قَرِيباً مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلجَنُوبِيَّةِ فَٱنْكَشَفَ قِطْعَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَرْضِ فِي هٰذَا ٱلجُزْءِ دَاخِلَةٌ بَيْنَ ٱلطَّرَفَيْنِ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلجَنُوبِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنَ ٱلبَحْرِ ٱلمُحِيطِ كَٱلجُونِ فِيهِ وَيَنْفَسِحُ طُولاً وَعَرْضاً وَهِيَ كُلُّهَا أَرْضُ بَرِيطَانِيَةَ وَفِي بَابِهَا بَيْنَ ٱلطَّرَفَيْنِ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلجَنُوبِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ بِلَادُ صَاقِسَ مُتَّصِلَةً بِبِلَادِ بِنطُو ٱلَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي ٱلجُزْءِ ٱلأَوَّلِ وَٱلثَّانِي مِنَ ٱلإِقْلِيمِ ٱلخَامِسِ . وَٱلجُزْءُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلإِقْلِيمِ دَخَلَ ٱلبَحْرُ ٱلمُحِيطُ مِنْ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ فَمِنْ غَرْبِهِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ أَكْبَرُ مِنْ نِصْفِهِ ٱلشَّمَالِيِّ مِنْ شَرْقِ أَرْضِ بَرِيطَانِيَةَ فِي ٱلجُزْءِ ٱلأَوَّلِ وَٱتَّصَلَتْ بِهَا ٱلقِطْعَةُ ٱلأُخْرَى فِي ٱلشَّمَالِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَٱنْفَسَحَتْ فِي ٱلنِّصْفِ ٱلغَرْبِيِّ مِنْهُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ وَفِيهِ هُنَالِكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ أَنْكِلْتِرَّا وَهِيَ جَزِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مُدُنٍ وَبِهَا مُلْكٌ ضَخْمٌ وَبَقِيَّتُهَا فِي ٱلإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ وَفِي جَنُوبِ هٰذِهِ ٱلقِطْعَةِ وَجَزِيرَتِهَا فِي ٱلنِّصْفِ ٱلغَرْبِيِّ مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ بِلَادُ أَرْمَنْدِيَةَ وَبِلَادُ أَفْلَادَشَ مُتَّصِلَيْنِ بِهَا ثُمَّ بِلَادُ إِفْرَنْسِيَةَ جَنُوباً وَغَرْباً مِنْ هٰذَا ٱلجُزْءِ بِلَادُ بَرَغُونِيَةَ شَرْقاً عَنْهَا وَكُلُّهَا لِأُمَمِ ٱلإِفْرَنْجَةِ وَبِلَادُ ٱللَّمَانِيِّينَ فِي ٱلنِّصْفِ ٱلشَّرْقِيِّ مِنَ ٱلجُزْءِ فَجَنُوبُهُ بِلَادُ أَنْكِلَارِيَةَ ثُمَّ بِلَادُ بَرَغُونِيَةَ شَمَالاً ثُمَّ أَرْضُ لَهْوِيكَةَ وَشَطُونِيَةَ وَعَلَى قِطْعَةِ ٱلبَحْرِ ٱلمُحِيطِ فِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ أَفْرِيزَةَ وَكُلُّهَا لِأُمَمِ ٱللَّمَانِيِّينَ . وَفِي ٱلجُزْءِ ٱلثَّالِثِ مِنْ هٰذَا ٱلإِقْلِيمِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلغَرْبِيَّةِ بِلَادُ مَرَاتِيَةَ فِي ٱلجَنُوبِ وَبِلَادُ شَطُونِيَةَ فِي ٱلشَّمَالِ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ بِلَادُ أَنْكَوَّيَةَ فِي ٱلجَنُوبِ وَبِلَادُ بَلُونِيَةَ فِي ٱلشَّمَالِ يَعْتَرِضُ بَيْنَهُمَا جَبَلُ بَلْوَاط دَاخِلًا مِنَ ٱلجُزْءِ ٱلرَّابِعِ وَيَمُرُّ مُغَرِّباً بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّمَالِ إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي بِلَادِ شَطُونِيَةَ آخِرِ ٱلنِّصْفِ ٱلغَرْبِيِّ . وَفِي ٱلجُزْءِ ٱلرَّابِعِ فِي نَاحِيَةِ ٱلجَنُوبِ أَرْضُ جَثُولِيَةَ وَتَحْتَهَا فِي ٱلشَّمَالِ بِلَادُ ٱلرُّوسِيَةِ وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلُ بَلْوَاطَ مِنْ أَوَّلِ ٱلجُزْءِ غَرْباً إِلَى أَنْ يَقِفَ فِي ٱلنِّصْفِ ٱلشَّرْقِيِّ وَفِي شَرْقِ أَرْضِ جَثُولِيَةَ بِلَادُ جُرْمَانِيَةَ وَفِي ٱلزَّاوِيَةِ ٱلجَنُوبِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ ٱلقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَمَدِينَتُهَا عِنْدَ آخِرِ ٱلخَلِيجِ ٱلخَارِجِ مِنَ ٱلبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَعِنْدَ مَدْفَعِهِ فِي بَحْرِ نِيطِشَ فَيَقَعُ قُطَيْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ فِي أَعَالِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا

ٱلجزء ويمدُّها ٱلخليج وبينهما في ٱلزَّاوية بلد مسيناه وفي ٱلجزء ٱلخامس من ٱلإقليم ٱلسَّادس ثمَّ في ٱلنَّاحية ٱلجنوبيَّة عند بحر نيطش يتَّصل من ٱلخليج في آخر ٱلجزء ٱلرَّابع ويخرج من سمته مشرقاً فيمرُّ في هذا ٱلجزء كلِّه وفي بعض ٱلسَّادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من مبدإه في عرض ستمائة ميل ويبقى وراء هذا ٱلبحر في ٱلنَّاحية ٱلجنوبيَّة من هذا ٱلجزء في غربها إلى شرقها برٌّ مستطيل في غربه هرقليَّة على ساحل بحر نيطش متَّصلة بأرض ٱلبيلقان من ٱلإقليم ٱلخامس وفي شرقه بلاد ٱللَّانية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطش وفي شمال بحر نيطش في هذا ٱلجزء غرباً أرض ترخان وشرقاً بلاد ٱلرُّوسيَّة وكلُّها على ساحل هذا ٱلبحر وبلاد ٱلرُّوسيَّة محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا ٱلجزء ومن شمالها في ٱلجزء ٱلخامس من ٱلإقليم ٱلسَّابع ومن غربها في ٱلجزء ٱلرَّابع من هذا ٱلإقليم . وفي ٱلجزء ٱلسَّادس في غربيِّه بقيَّة بحر نيطش وينحرف قليلاً إلى ٱلشَّمال ويبقى بينه هنالك وبين آخر ٱلجزء شمالاً بلاد قمانية وفي جنوبه منفسحاً إلى ٱلشَّمال بما ٱنحرف هو كذلك بقيَّة بلاد ٱللَّانية ٱلَّتي كانت آخر جنوبه في ٱلجزء ٱلخامس وفي ٱلنَّاحية ٱلشَّرقيَّة من هذا ٱلجزء متَّصل أرض ٱلخزر وفي شرقها أرض برطاس وفي ٱلزَّاوية ٱلشَّرقيَّة ٱلشَّماليَّة أرض بلغار وفي ٱلزَّاوية ٱلشَّرقيَّة ٱلجنوبيَّة أرض بلجر يجوزها هناك قطعة من جبل سياكوه ٱلمنعطف مع بحر ٱلخزر في ٱلجزء ٱلسَّابع بعده ويذهب بعد مفارقته مغرباً فيجوز في هذه ٱلقطعة ويدخل إلى ٱلجزء ٱلسَّادس من ٱلإقليم ٱلخامس فيتَّصل هنالك بجبل ٱلأبواب وعليه من هنالك ناحية بلاد ٱلخزر . وفي ٱلجزء ٱلسَّابع من هذا ٱلإقليم في ٱلنَّاحية ٱلجنوبيَّة ما جازه جبل سياه بعد مفارقته بحر طبرستان وهو قطعة من أرض ٱلخزر إلى آخر ٱلجزء غرباً وفي شرقها ٱلقطعة من بحر طبرستان ٱلَّتي يجوزها هذا ٱلجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل سياه في ٱلنَّاحية ٱلغربيَّة ٱلشماليَّة أرض برطاس وفي ٱلنَّاحية ٱلشرقيَّة من ٱلجزء أرض شحرب وبخناك وهم أمم ٱلتُّرك . وفي ٱلجزء ٱلثَّامن وٱلنَّاحية ٱلجنوبيَّة منه كلُّها أرض ٱلخولخ من ٱلتُّرك في ٱلنَّاحية ٱلشماليَّة غرباً وٱلأرض ٱلمنتنة وشرق ٱلأرض ٱلَّتي يقال إنَّ يأجوج ومأجوج خرباها قبل بناء ٱلسدِّ وفي هذه ٱلأرض ٱلمنتنة مبدأ نهر ٱلأثل من أعظم أنهار ٱلعالم وممرُّه في بلاد ٱلتُّرك ومصبُّه في بحر طبرستان في ٱلاقليم

ٱلْخَامِسِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْهُ وَهُوَ كَثِيرُ ٱلِٱنْعِطَافِ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ ٱلْمُنْتِنَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ يَنَابِيعَ تَجْتَمِعُ فِي نَهْرٍ وَاحِدٍ وَيَمُرُّ عَلَى سَمْتِ ٱلْغَرْبِ إِلَى آخِرِ ٱلسَّابِعِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فَيَنْعَطِفُ شَمَالاً إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلْمَغْرِبِ فَيَخْرُجُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلسَّابِعِ وَيَذْهَبُ مُغَرِّباً غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى ٱلْجَنُوبِ وَيَرْجِعُ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدْوَلٌ يَذْهَبُ مُغَرِّباً وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ نِيطِشَ فِي ذٰلِكَ ٱلْجُزْءِ وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ ٱلشَّمَالِ وَٱلشَّرْقِ فِي بِلَادِ بَلْغَارَ فَيَخْرُجُ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً إِلَى ٱلْجَنُوبِ وَيَنْفُذُ فِي جَبَلِ سِيَاهَ وَيَمُرُّ فِي بِلَادِ ٱلْخَزَرِ وَيَخْرُجُ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّابِعِ مِنْهُ فَيَصُبُّ هُنَالِكَ فِي بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ فِي ٱلْقِطْعَةِ ٱلَّتِي ٱنْكَشَفَتْ مِنَ ٱلْجُزْءِ عِنْدَ ٱلزَّاوِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلتَّاسِعُ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خِفْشَاخَ مِنَ ٱلتُّرْكِ وَهُمْ قِفْجَاقُ وَبِلَادُ ٱلتُّرْكُسِ مِنْهُمْ أَيْضاً وَفِي ٱلشَّرْقِ مِنْهُ بِلَادُ يَأْجُوجَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلُ قُوقِيَا ٱلْمُحِيطُ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ يَبْدَأُ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فِي شَرْقِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى آخِرِ ٱلْإِقْلِيمِ فِي ٱلشَّمَالِ وَيُفَارِقُهُ مُغَرِّباً وَبِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْخَامِسِ فَيَرْجِعُ إِلَى سَمْتِهِ ٱلْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَفِي وَسَطِهِ هٰهُنَا ٱلسَّدُّ ٱلَّذِي بَنَاهُ ٱلْإِسْكَنْدَرُ ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ مِنْهُ فَيَمُرُّ فِيهِ إِلَى ٱلْجَنُوبِ إِلَى أَنْ يَلْقَى ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ فِي شَمَالِهِ ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَالِكَ مُغَرِّباً إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلسَّابِعِ إِلَى ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْهُ فَيَتَّصِلُ هُنَالِكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فِي غَرْبِيِّهِ وَفِي وَسَطِ هٰذَا ٱلْجُزْءِ ٱلتَّاسِعِ هُوَ ٱلسَّدُّ ٱلَّذِي بَنَاهُ ٱلْإِسْكَنْدَرُ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱلصَّحِيحُ مِنْ خَبَرِهِ فِي ٱلْقُرْآنِ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ خُرْدَاذْبَةَ فِي كِتَابِهِ فِي ٱلْجُغْرَافِيَا أَنَّ ٱلْوَاثِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ ٱلسَّدَّ ٱنْفَتَحَ فَٱنْتَبَهَ فَزِعاً وَبَعَثَ سَلَاماً إِلَى ٱلتُّرْجُمَانِ فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَجَاءَ بِخَبَرِهِ وَوَصْفِهِ فِي حِكَايَةٍ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هٰذَا وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْعَاشِرِ مِنْ هٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ بِلَادُ مَأْجُوجَ مُتَّصِلَةً فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَالِكَ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةً فِي ٱلشَّمَالِ وَعَرِيضَةً بَعْضَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلشَّرْقِ

اَلْإِقْلِيمُ اَلسَّابِعُ * وَٱلْبَحْرُ ٱلْمُحِيطُ قَدْ غَمَرَ عَامَّتَهُ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّمَالِ إِلَى وَسَطِ ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِجَبَلِ قُوقِيَا ٱلْمُحِيطِ بِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ . فَٱلْجُزْءُ ٱلْأَوَّلُ وَٱلثَّانِي مَغْمُورَانِ بِٱلْمَاءِ إِلَّا مَا ٱنْكَشَفَ مِنْ جَزِيرَةِ أَنْكِلِتْرَا ٱلَّتِي مُعْظَمُهَا فِي ٱلثَّانِي وَفِي ٱلْأَوَّلِ مِنْهَا طَرَفٌ ٱنْعَطَفَ بِٱنْحِرَافٍ إِلَى ٱلشَّمَالِ وَبَقِيَّتُهَا مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ مُسْتَدِيرَةٍ عَلَيْهِ فِي ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْاقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَٱلْمَجَازُ مِنْهَا إِلَى ٱلْبَرِّ فِي هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةِ سَعَةَ ٱثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا وَوَرَاءَ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ فِي شَمَالِ ٱلْجُزْءِ ٱلثَّانِي جَزِيرَةُ رَسْلَانْدَةَ مُسْتَطِيلَةً مِنَ ٱلْغَرْبِ إِلَى ٱلشَّرْقِ . وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ مِنْ هٰذَا ٱلْاقْلِيمِ مَغْمُور أَكْثَرُهُ بِٱلْبَحْرِ إِلَّا قِطْعَةً مُسْتَطِيلَةً فِي جَنُوبِهِ وَتَتَّسِعُ فِي شَرْقِهَا وَفِيهَا هُنَالِكَ مُتَّصِلُ أَرْض فَلُونِيَةَ ٱلَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلْاقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَأَنَّهَا فِي شَمَالِهِ وَفِي ٱلْقِطْعَةِ مِن ٱلْبَحْرِ ٱلَّتِي تَغْمُرُ هٰذَا ٱلْجُزْءَ ثُمَّ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْهَا مُسْتَدِيرَةً فَسِيحَةً وَتَتَّصِلُ بِٱلْبَرِّ مِن بَابٍ فِي جَنُوبِهَا يُفْضِي إِلَى بِلَادِ فَلُونِيَةَ وَفِي شَمَالِهَا جَزِيرَةُ بَرْغَاقِيَةَ (وفي نسخة بوقاعة) مُسْتَطِيلَةً مَعَ ٱلشَّمَالِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ . وَٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ مِنْ هٰذَا ٱلْاقْلِيمِ شَمَالُهُ كُلُّهُ مَغْمُورٌ بِٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ وَجَنُوبُهُ مُنْكَشِفٌ وَفِي غَرْبِهِ أَرْضُ قِيَازَكَ مِنَ ٱلتُّرْكِ وَفِي شَرْقِهَا بِلَادُ طَبْسَتَ ثُمَّ أَرْضُ رَسْلَانَ إِلَى آخِرِ ٱلْجُزْءِ شَرْقًا وَهِيَ دَائِمَةُ ٱلثُّلُوجِ وَعُمْرَانُهَا قَلِيلٌ وَيَتَّصِلُ بِبِلَادِ ٱلرُّوسِيَّةِ فِي ٱلْاقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلْخَامِسِ مِنْ هٰذَا ٱلْاقْلِيمِ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ بِلَادُ ٱلرُّوسِيَّةِ وَيَنْتَهِي فِي ٱلشَّمَالِ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ ٱلَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَل قُوقِيَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَفِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْهُ مُتَّصِلُ أَرْضِ ٱلْقَمَانِيَةِ ٱلَّتِي عَلَى قِطْعَةِ بَحْرِ نِيطِشَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلْاقْلِيمِ ٱلسَّادِسِ وَيَنْتَهِي إِلَى بُحَيْرَةِ طَرْمَى مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ وَهِيَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ ٱلْجِبَالِ عَنِ ٱلْجَنُوبِ وَٱلشَّمَالِ وَفِي شَمَالِ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْجُزْءِ أَرْضُ ٱلتَّتَارِيَّةِ مِنَ ٱلتُّرْكِ (وفي نسخة التركمان) إِلَى آخِرِهِ . وَفِي ٱلْجُزْءِ ٱلسَّادِسِ مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلْغَرْبِيَّةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مُتَّصِلُ بِلَادِ ٱلْقَمَانِيَةِ وَفِي وَسَطِ ٱلنَّاحِيَةِ بُحَيْرَةُ غُثُورَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا ٱلْأَنْهَارُ مِنَ ٱلْجِبَالِ فِي ٱلنَّوَاحِي ٱلشَّرْقِيَّةِ وَهِيَ جَامِدَةٌ دَائِمًا لِشِدَّةِ ٱلْبَرْدِ إِلَّا قَلِيلًا فِي زَمَنِ ٱلصَّيْفِ وَفِي شَرْقِ بِلَادِ ٱلْقَمَانِيَةِ بِلَاد

الرُّوسِيَةِ الَّتِي كَانَ مَبْدَأُهَا فِي الْاقْلِيمِ السَّادِسِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَةِ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ وَفِي الزَّاوِيَةِ الْجُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بُلْغَرَ الَّتِي كَانَ مَبْدَأُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَةِ الشَّمَالِيَةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْهُ وَفِي وَسَطِ هٰذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَرَ مُنْعَطَفُ نَهْرِ أَتَلَ الْقِطْعَةُ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ كَمَا مَرَّ وَفِي آخِرِ هٰذَا الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَمَالِهِ جَبَلُ قُوقِيَا مُتَّصِلٌ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بَجْنَاكَ مِنْ أُمَمِ التُّرْكِ وَكَانَ مَبْدَأُهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ قَبْلَهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَةِ الْغَرْبِيَةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْأَقْلِيمِ السَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ سُحْرَتَ ثُمَّ بَقِيَةُ الْأَرْضِ الْمُنْتِنَةِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا وَفِي آخِرِ الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ جَبَلُ قُوقِيَا الْمُحِيطُ مُتَّصِلاً مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هٰذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَنُوبِيَةِ الْغَرْبِيَةِ مِنْهُ مُتَّصَلُ الْأَرْضِ الْمُنْتِنَةِ وَفِي شَرْقِهَا الْأَرْضُ الْمَحْفُورَةُ وَهِيَ مِنَ الْعَجَائِبِ خَرْقٌ عَظِيمٌ فِي الْأَرْضِ بَعِيدُ الْمَهْوَى فَسِيحُ الْأَقْطَارِ مُمْتَنِعُ الْوُصُولِ إِلَى قَعْرِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى عُمْرَانِهِ بِالدُّخَانِ فِي النَّهَارِ وَالنِّيرَانِ فِي اللَّيْلِ تُضِيءُ وَتَخْفَى وَرُبَّمَا رُئِيَ فِيهَا نَهْرٌ يَشُقُّهَا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ الْبِلَادُ الْخَرَابُ الْمُتَاخِمَةُ لِلسَّدِّ وَفِي آخِرِ الشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلُ قُوقِيَا مُتَّصِلاً مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هٰذَا الْاقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ خَفْشَاخَ وَهُمْ قَفْجَق يَجُوزُهَا جَبَلُ قُوقِيَا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شَمَالِهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ وَيَذْهَبُ فِي وَسَطِهِ إِلَى الْجَنُوبِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْاقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ مُعْتَرِضاً فِيهِ وَفِي وَسَطِهِ هُنَالِكَ سَدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَةِ مِنْ هٰذَا الْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجَ وَرَاءَ جَبَلِ قُوقِيَا عَلَى الْبَحْرِ قَلِيلَةَ الْعَرْضِ مُسْتَطِيلَةً أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ. وَالْجُزْءُ الْعَاشِرُ غَمَرَ الْبَحْرُ جَمِيعَهُ . هٰذَا آخِرُ الْكَلَامِ عَلَى الْجُغْرَافِيَا وَأَقَالِيمِهَا السَّبْعَةِ وَفِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٌ لِلْعَالَمِينَ

المقدمة الثانية

في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في الوان البشر والكثير في احوالهم

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ٱلْمَعْمُورَ مِنْ هٰذَا ٱلْمُنْكَشِفِ مِنَ ٱلْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ وَسَطُهُ لِإِفْرَاطِ ٱلْحَرِّ فِي ٱلْجَنُوبِ مِنْهُ وَٱلْبَرْدِ فِي ٱلشَّمَالِ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْجَانِبَانِ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَٱلْجَنُوبِ مُتَضَادَّيْنِ مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ وَجَبَ أَنْ تَتَدَرَّجَ ٱلْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى ٱلْوَسَطِ فَيَكُونَ مُعْتَدِلاً. فَٱلْإِقْلِيمُ ٱلرَّابِعُ أَعْدَلُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلَّذِي حَافَاتُهُ مِنَ ٱلثَّالِثِ وَٱلْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْإِعْتِدَالِ وَٱلَّذِي يَلِيهِمَا وَٱلثَّانِي وَٱلسَّادِسُ بَعِيدَانِ مِنَ ٱلْإِعْتِدَالِ وَٱلْأَوَّلُ وَٱلسَّابِعُ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ فَلِهٰذَا كَانَتِ ٱلْعُلُومُ وَٱلصَّنَائِعُ وَٱلْمَبَانِي وَٱلْمَلَابِسُ وَٱلْأَقْوَاتُ وَٱلْفَوَاكِهُ بَلْ وَٱلْحَيَوَانَاتُ وَجَمِيعُ مَا يَتَكَوَّنُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمُتَوَسِّطَةِ مَخْصُوصَةً بِٱلْإِعْتِدَالِ وَسُكَّانُهَا مِنَ ٱلْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَاماً وَأَلْوَاناً وَأَخْلَاقاً وَأَدْيَاناً حَتَّى ٱلنُّبُوَّاتُ فَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي ٱلْأَكْثَرِ فِيهَا وَلَمْ نَقِفْ عَلَى خَبَرِ بَعْثَةٍ فِي ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ وَلَا ٱلشَّمَالِيَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَنْبِيَاءَ وَٱلرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ ٱلنَّوْعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ قَالَ تَعَالَى كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَذٰلِكَ لِيَتِمَّ ٱلْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ ٱلْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَأَهْلُ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لِوُجُودِ ٱلْإِعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةٍ مِنَ ٱلتَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِنِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ يَتَّخِذُونَ ٱلْبُيُوتَ ٱلْمُنَجَّدَةَ بِٱلْحِجَارَةِ ٱلْمُنَمَّقَةِ بِٱلصِّنَاعَةِ وَيَتَنَاغَوْنَ فِي ٱسْتِجَادَةِ ٱلْآلَاتِ وَٱلْمَوَاعِينِ وَيَذْهَبُونَ فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلْغَايَةِ وَتُوجَدُ لَدَيْهِمُ ٱلْمَعَادِنُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْحَدِيدِ وَٱلنُّحَاسِ وَٱلرَّصَاصِ وَٱلْقَصْدِيرِ وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ بِٱلنَّقْدَيْنِ ٱلْعَزِيزَيْنِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ ٱلْإِنْحِرَافِ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ وَهٰؤُلَاءِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلشَّامِ وَٱلْحِجَازِ وَٱلْيَمَنِ وَٱلْعِرَاقَيْنِ وَٱلْهِنْدِ وَٱلسِّنْدِ وَٱلصِّينِ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قَرُبَ مِنْهَا مِنَ ٱلْفَرَنْجَةِ وَٱلْجَلَالِقَةِ وَٱلرُّومِ وَٱلْيُونَانِيِّينَ وَمَنْ كَانَ مَعَ هٰؤُلَاءِ أَوْ قَرِيباً مِنْهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُعْتَدِلَةِ وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْعِرَاقُ وَٱلشَّامُ أَعْدَلَ هٰذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسَطٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ. وَأَمَّا ٱلْأَقَالِيمُ ٱلْبَعِيدَةُ مِنَ ٱلْإِعْتِدَالِ مِثْلَ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي وَٱلسَّادِسِ وَٱلسَّابِعِ فَأَهْلُهَا أَبْعَدُ مِنَ ٱلْإِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ فَبِنَاؤُهُمْ بِٱلطِّينِ

وَٱلْقَصَبِ وَأَقْوَاتُهِمْ مِنَ ٱلذُّرَةِ وَٱلْعُشْبِ وَمَلَابِسُهُمْ مِنْ أَوْرَاقِ ٱلشَّجَرِ يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِم أَوِ ٱلْجُلُودِ وَأَكْثَرُهُم عَرَايَا مِنَ ٱللِّبَاسِ وَفَوَاكِهُ بِلَادِهِمْ وَأَدَمُهَا غَرِيبَةُ ٱلتَّكْوِينِ مَائِلَةٌ إِلَى ٱلِٱنْحِرَافِ وَمُعَامَلَاتُهُمْ بِغَيْرِ ٱلْحَجَرَيْنِ ٱلشَّرِيفَيْنِ مِنْ نُحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ جُلُود يُقَدِّرُونَهَا لِلْمُعَامَلَاتِ وَأَخْلَاقُهُمْ مَعَ ذَٰلِكَ قَرِيبَةٌ مِنْ خُلُقِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ حَتَّى لَيُنْقَلُ عَنِ ٱلْكَثِيرِ مِنَ ٱلسُّودَانِ أَهْلِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ ٱلْكُهُوفَ وَٱلْغِيَاضَ وَيَأْكُلُونَ ٱلْعُشْبَ وَأَنَّهُمْ مُتَوَحِّشُونَ غَيْرُ مُسْتَأْنِسِينَ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَكَذَا ٱلصَّقَالِبَةُ وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ لِبُعْدِهِمْ عَنِ ٱلِٱعْتِدَالِ يَقْرُبُ عَرَضُ أَمْزِجَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ عَرَضِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِمِقْدَارِ ذَٰلِكَ وَكَذَٰلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي ٱلدِّيَانَةِ أَيْضاً فَلَا يَعْرِفُونَ نُبُوَّةً وَلَا يَدِينُونَ بِشَرِيعَةٍ إِلَّا مَنْ قَرُبَ مِنْهُمْ مِنْ جَوَانِبِ ٱلِٱعْتِدَالِ وَهُوَ فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ مِثْلَ ٱلْحَبَشَةِ ٱلْمُجَاوِرِينَ لِلْيَمَنِ ٱلدَّائِنِينَ بِٱلنَّصْرَانِيَّةِ فِيمَا قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَمَا بَعْدَهُ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَمِثْلَ أَهْلِ مَالِي وَكُوكُو وَٱلتَّكْرُورِ ٱلْمُجَاوِرِينَ لِأَرْضِ ٱلْمَغْرِبِ ٱلدَّائِنِينَ بِٱلْإِسْلَامِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَمِثْلَ مَنْ دَانَ بِٱلنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ أُمَمِ ٱلصَّقَالِبَةِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلتُّرْكِ مِنَ ٱلشَّمَالِ وَمَنْ سِوَى هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُنْحَرِفَةِ جَنُوباً وَشَمَالاً فَٱلدِّينُ مَجْهُولٌ عِنْدَهُمْ وَٱلْعِلْمُ مَفْقُود بَيْنَهُمْ وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْأَنَاسِيِّ قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْبَهَائِمِ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى هَٰذَا ٱلْقَوْلِ بِوُجُودِ ٱلْيَمَنِ وَحَضْرَمَوْتَ وَٱلْأَحْقَافِ وَبِلَاد ٱلْحِجَازِ وَٱلْيَمَامَةِ وَمَا يَلِيهَا مِنْ جَزِيرَةِ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي فَإِنَّ جَزِيرَةَ ٱلْعَرَبِ كُلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا ٱلْبِحَارُ مِنَ ٱلْجِهَاتِ ٱلثَّلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَا فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي رُطُوبَةِ هَوَائِهَا فَنَقَصَ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْيُبْسِ وَٱلِٱنْحِرَافِ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ ٱلْحَرُّ وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ ٱلِٱعْتِدَالِ بِسَبَبِ رُطُوبَةِ ٱلْبَحْرِ . وَقَدْ تَوَهَّمَ بَعْضُ ٱلنَّسَّابِينَ مِمَّنْ لَا عِلْمَ لَدَيْهِ بِطَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ أَنَّ ٱلسُّودَانَ هُمْ وُلْدُ حَامِ بْنِ نُوحٍ ٱخْتُصُّوا بِلَوْنِ ٱلسَّوَادِ لِدَعْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ وَفِيمَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلرِّقِّ فِي عَقِبِهِ وَيَنْقُلُونَ فِي ذَٰلِكَ حِكَايَةً مِنْ خُرَافَاتِ ٱلْقُصَّاصِ وَدُعَاءُ نُوحٍ عَلَى ٱبْنِهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلسَّوَادِ وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وُلْدُهُ عَبِيداً لِوُلْدِ إِخْوَتِهِ لَا غَيْرُ وَفِي ٱلْقَوْلِ بِنِسْبَةِ ٱلسَّوَادِ إِلَى حَامٍ غَفْلَةٌ عَنْ طَبِيعَةِ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ وَأَثَرِهِمَا فِي ٱلْهَوَاءِ وَفِيمَا يَتَكَوَّنُ فِيهِ

منَ ٱلحَيَوَانَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّ هٰذَا ٱللَّوْنَ شَمَلَ أَهلَ ٱلاقليمِ ٱلأَوَّلِ وَٱلثَّانِي مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِم لِلحَرَارَةِ ٱلمُتَضَاعِفَةِ بِٱلجَنُوبِ فَإِنَّ ٱلشَّمسَ تُسَامِتُ رُؤُوسَهُم مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَرِيبَةٍ إِحدَاهُمَا مِنَ ٱلأُخرَى فَتَطُولُ ٱلمُسَامَتَةُ عَامَّةَ ٱلفُصُولِ فَيَكثُرُ ٱلضَّوءُ لِأَجلِهَا وَيُلِحُّ ٱلقَيظُ ٱلشَّدِيدُ عَلَيهِمْ وَتَسوَدُّ جُلُودُهُمْ لِإِفرَاطِ ٱلحَرِّ وَنَظِيرُ هٰذَينِ ٱلإِقلِيمَينِ مِمَّا يُقَابِلُهُمَا مِنَ ٱلشَّمَالِ ٱلإِقلِيمُ ٱلسَّابِعُ وَٱلسَّادِسُ شَمَلَ سُكَّانَهُمَا أَيضاً ٱلبَيَاضُ مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِم لِلبَرْدِ ٱلمُفرِطِ بِٱلشَّمَالِ إِذِ ٱلشَّمسُ لَا تَزَالُ بِأُفُقِهِمْ فِي دَائِرَةِ مَرأَى ٱلعَينِ أَوْ مَا قَرُبَ مِنهَا وَلا تَرتَفِعُ إِلَى ٱلمُسَامَتَةِ وَلا مَا قَرُبَ مِنهَا فَيَضعُفُ ٱلحَرُّ فِيهَا وَيَشتَدُّ ٱلبَرْدُ عَامَّةَ ٱلفُصُولِ فَتَبيَضُّ أَلوَانُ أَهلِهَا وَتَنْتَهِي إِلَى ٱلزُّعُورَةِ وَيَتبَعُ ذٰلِكَ مَا يَقتَضِيهِ مِزَاجُ ٱلبَرْدِ ٱلمُفرِطِ مِنْ زُرْقَةِ ٱلعُيُونِ وَبَرَشِ ٱلجُلُودِ وَصُهُوبَةِ ٱلشُّعُورِ وَتَوَسَّطَتْ بَيْنَهُمَا ٱلأَقَالِيمُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلخَامِسُ وَٱلرَّابِعُ وَٱلثَّالِثُ فَكَانَ لَهَا فِي ٱلِاعتِدَالِ ٱلَّذِي هُوَ مِزَاجُ ٱلمُتَوَسِّطِ حَظٌّ وَافِرٌ وَٱلرَّابِعُ أَبلَغُهَا فِي ٱلِاعتِدَالِ غَايَةً لِنِهَايَتِهِ فِي ٱلتَّوَسُّطِ كَمَا قَدَّمنَاهُ فَكَانَ لِأَهلِهِ مِنَ ٱلِاعتِدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلقِهِمْ مَا ٱقتَضَاهُ مِزَاجُ أَهوِيَتِهِم وَتَبِعَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ ٱلثَّالِثُ وَٱلخَامِسُ وَإِنْ لَمْ يَبلُغَا غَايَتَهُ ٱلتَّوَسُّطِ لِمَيْلِ هٰذَا قَلِيلاً إِلَى ٱلجَنُوبِ ٱلحَارِّ وَهٰذَا قَلِيلاً إِلَى ٱلشَّمَالِ ٱلبَارِدِ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يَنْتَهِيَا إِلَى ٱلِانحِرَافِ وَكَانَتِ ٱلأَقَالِيمُ ٱلأَربَعَةُ مُنحَرِفَةً وَأَهلُهَا كَذٰلِكَ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلقِهِمْ فَٱلأَوَّلُ وَٱلثَّانِي لِلحَرِّ وَٱلسَّوَادِ وَٱلسَّابِعُ لِلبَرْدِ وَٱلبَيَاضِ وَيُسَمَّى سُكَّانُ ٱلجَنُوبِ مِنَ ٱلإِقلِيمَينِ ٱلأَوَّلِ وَٱلثَّانِي بِٱسمِ ٱلحَبَشَةِ وَٱلزَّنجِ وَٱلسُّودَانِ أَسمَاءٌ مُتَرَادِفَةٌ عَلَى ٱلأُمَمِ ٱلمُتَغَيِّرَةِ بِٱلسَّوَادِ وَإِنْ كَانَ ٱسمُ ٱلحَبَشَةِ مُختَصّاً مِنهُم بِمَنْ تِجَاهَ مَكَّةَ وَٱليَمَنِ وَٱلزَّنجِ بِمَنْ تِجَاهَ بَحرِ ٱلهِندِ وَلَيسَتْ هٰذِهِ ٱلأَسمَاءُ لَهُمْ مِنْ أَجلِ ٱنتِسَابِهِم إِلَى آدَمِيٍّ أَسوَدَ لا حَامٍ وَلا غَيرِهِ وَقَدْ نَجِدُ مِنَ ٱلسُّودَانِ أَهلِ ٱلجَنُوبِ مَنْ يَسكُنُ ٱلرُّبعَ ٱلمُعتَدِلَ أَوِ ٱلسَّابِعَ ٱلمُنحَرِفَ إِلَى ٱلبَيَاضِ فَتَبيَضُّ أَلوَانُ أَعقَابِهِم عَلَى ٱلتَّدرِيجِ مَعَ ٱلأَيَّامِ وَبِٱلعَكسِ فِيمَنْ يَسكُنُ مِنْ أَهلِ ٱلشَّمَالِ أَوِ ٱلرَّابِعِ بِٱلجَنُوبِ فَتَسوَدُّ أَلوَانُ أَعقَابِهِم وَفِي ذٰلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ٱللَّوْنَ تَابِعٌ لِمِزَاجِ ٱلهَوَاءِ قَالَ ٱبنُ سِينَا فِي أُرجُوزَتِهِ فِي ٱلطِّبِّ:

بِٱلزَّنجِ حَرٌّ غَيَّرَ ٱلأَجسَادَا ... حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادَا

وَٱلصِّقلَبُ ٱكتَسَبَتِ ٱلبَيَاضَا ... حَتَّى غَدَتْ جُلُودُهَا بِضَاضَا

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّمَالِ فَلَمْ يُسَمَّوْا بِاعْتِبَارِ أَلْوَانِهِمْ لِأَنَّ الْبَيَاضَ كَانَ لَوْنًا لِأَهْلِ تِلْكَ اللُّغَةِ الْوَاضِعَةِ لِلْأَسْمَاءِ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَحْمِلُ عَلَى اعْتِبَارِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ وَاعْتِيَادِهِ وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ التُّرْكِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالطُّغُرْغُرِ وَالْخَزَرِ وَاللَّانِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الْإِفْرَنْجَةِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَسْمَاءً مُتَفَرِّقَةً وَأَجْيَالًا مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَأَمَّا أَهْلُ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ أَهْلِ الِاعْتِدَالِ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ وَكَافَّةِ الْأَحْوَالِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلِاعْتِمَارِ لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِنِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالرِّئَاسَاتِ وَالْمُلْكِ فَكَانَتْ فِيهِمُ النُّبُوَّاتُ وَالْمُلْكُ وَالدُّوَلُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ وَالْأَمْصَارُ وَالْمَبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي وَقَفْنَا عَلَى أَخْبَارِهِمْ مِثْلَ الْعَرَبِ وَالرُّومِ وَفَارِسَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانِ وَأَهْلِ السِّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ . وَلَمَّا رَأَى النَّسَّابُونَ اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأُمَمِ بِسِمَاتِهَا وَشِعَارِهَا حَسِبُوا ذَلِكَ لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ مِنْ وُلْدِ حَامٍ وَارْتَابُوا فِي أَلْوَانِهِمْ فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكَايَةِ الْوَاهِيَةِ وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كُلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ مِنْ وُلْدِ يَافِثَ وَأَكْثَرَ الْأُمَمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلَ الْوَسَطِ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَالْمِلَلِ وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ وُلْدِ سَامٍ وَهَذَا الزَّعْمُ وَإِنْ صَادَفَ الْحَقَّ فِي انْتِسَابِ هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ مُطَّرِدٍ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ لَا أَنَّ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِالسُّودَانِ وَالْحُبْشَانِ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامٍ الْأَسْوَدِ . وَمَا أَدَّاهُمْ إِلَى هَذَا الْغَلَطِ إِلَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَقَعُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ لِلْجِيلِ أَوِ الْأُمَّةِ يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كَمَا لِلْعَرَبِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفُرْسِ وَيَكُونُ بِالْجِهَةِ وَالسِّمَةِ كَمَا لِلزِّنْجِ وَالْحَبَشَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالسُّودَانِ وَيَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالشِّعَارِ وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ . وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ وَخَوَاصِّهِمْ وَمُمَيِّزَاتِهِمْ فَتَعْمِيمُ الْقَوْلِ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْ شَمَالٍ بِأَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ فُلَانٍ الْمَعْرُوفِ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ نِحْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سِمَةٍ وُجِدَتْ لِذَلِكَ الْأَبِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْأَغَالِيطِ الَّتِي أَوْقَعَ فِيهَا الْغَفْلَةُ عَنْ طَبَائِعِ الْأَكْوَانِ وَالْجِهَاتِ وَإِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا تَتَبَدَّلُ فِي الْأَعْقَابِ وَلَا يَجِبُ اسْتِمْرَارُهَا سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ وَأَحْكَمُ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعِمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ

المقدمة الرابعة

في اثر الهواء في اخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ ٱلسُّودَانِ عَلَى ٱلْعُمُومِ ٱلْخِفَّةَ وَٱلطَّيْشَ وَكَثْرَةَ ٱلطَّرَبِ فَتَجِدُهُم مولَعِينَ بِٱلرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوْقِيعٍ مَوْصُوفِينَ بِٱلْحُمْقِ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَٱلسَّبَبُ ٱلصَّحِيحُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ هِيَ ٱنْتِشَارُ ٱلرُّوحِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَتَفَشِّيهِ وَطَبِيعَةُ ٱلْحُزْنِ بِٱلْعَكْسِ وَهُوَ ٱنْقِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ. وَتَقَرَّرَ أَنَّ ٱلْحَرَارَةَ مفَشِّيَةٌ لِلْهَوَاءِ وَٱلْبُخَارِ مُخَلْخِلَةٌ لَهُ زَائِدَةٌ فِي كَمِيَّتِهِ وَلِهَذَا يَجِدُ ٱلْمُنْتَشِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ مَا لَا يُعَبَّرُ عَنْهُ وَذَٰلِكَ بِمَا يُدَاخِلُ بُخَارَ ٱلرُّوحِ فِي ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَرَارَةِ ٱلْغَرِيزِيَّةِ ٱلَّتِي تَبْعَثُهَا سَوْرَةُ ٱلْخَمْرِ فِي ٱلرُّوحِ مِنْ مِزَاجِهِ فَيَتَفَشَّى ٱلرُّوحُ وَتَجِيءُ طَبِيعَةُ ٱلْفَرَحِ وَكَذَٰلِكَ نَجِدُ ٱلْمُتَنَعِّمِينَ بِٱلْحَمَّامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا وَٱتَّصَلَتْ حَرَارَةُ ٱلْهَوَاءِ فِي أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ لِذَٰلِكَ حَدَثَ لَهُمْ فَرَحٌ وَرُبَّمَا ٱنْبَعَثَ ٱلْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِٱلْغِنَاءِ ٱلنَّاشِئِ عَنِ ٱلسُّرُورِ. وَلَمَّا كَانَ ٱلسُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْحَارِّ وَٱسْتَوْلَى ٱلْحَرُّ عَلَى أَمْزِجَتِهِمْ وَفِي أَصْلِ تَكْوِينِهِمْ كَانَ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ ٱلْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَبْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ فَتَكُونُ أَرْوَاحُهُمْ بِٱلْقِيَاسِ إِلَى أَرْوَاحِ أَهْلِ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا فَتَكُونُ أَكْثَرَ تَفَشِّيًا فَتَكُونُ أَسْرَعَ فَرَحًا وَسُرُورًا وَأَكْثَرَ ٱنْبِسَاطًا وَيَجِيءُ ٱلطَّيْشُ عَلَى أَثَرِ هَٰذِهِ وَكَذَٰلِكَ يَلْحَقُ بِهِم قَلِيلًا أَهْلُ ٱلْبِلَادِ ٱلْبَحْرِيَّةِ لَمَّا كَانَ هَوَاؤُهَا مُتَضَاعِفَ ٱلْحَرَارَةِ بِمَا يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ مِن أَضْوَاءِ بَسِيطِ ٱلْبَحْرِ وَأَشِعَّتِهِ كَانَتْ حِصَّتُهُمْ مِنْ تَوَابِعِ ٱلْحَرَارَةِ فِي ٱلْفَرَحِ وَٱلْخِفَّةِ مَوْجُودَةً أَكْثَرَ مِنْ بِلَادِ ٱلتُّلُولِ وَٱلْجِبَالِ ٱلْبَارِدَةِ وَقَدْ نَجِدُ يَسِيرًا مِنْ ذَٰلِكَ فِي أَهْلِ ٱلْبِلَادِ ٱلْجَزِيرِيَّةِ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ لِتَوَفُّرِ ٱلْحَرَارَةِ فِيهَا وَفِي هَوَائِهَا لِأَنَّهَا عَرِيقَةٌ فِي ٱلْجَنُوبِ عَنِ ٱلْأَرْيَافِ وَٱلتُّلُولِ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ أَيْضًا بِأَهْلِ مِصْرَ فَإِنَّهَا مِثْلُ عَرْضِ ٱلْبِلَادِ ٱلْجَزِيرِيَّةِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا كَيْفَ غَلَبَ ٱلْفَرَحُ عَلَيْهِمْ وَٱلْخِفَّةُ وَٱلْغَفْلَةُ عَنِ ٱلْعَوَاقِبِ حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَدَّخِرُونَ أَقْوَاتَ سَنَتِهِمْ وَلَا شَهْرِهِمْ وَعَامَّةُ مَآكِلِهِمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ. وَلَمَّا كَانَتْ فَاسُ مِنْ بِلَادِ ٱلْمَغْرِبِ بِٱلْعَكْسِ مِنْهَا فِي ٱلتَّوَغُّلِ فِي ٱلتُّلُولِ ٱلْبَارِدَةِ كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مُطْرِقِينَ إِطْرَاقَ ٱلْحُزْنِ وَكَيْفَ أَفْرَطُوا فِي نَظَرِ ٱلْعَوَاقِبِ حَتَّى إِنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَدَّخِرُ قُوتَ سَنَتَيْنِ مِنْ حُبُوبِ

ٱلحِنطَةِ وَيُبَاكِرُ ٱلأَسْوَاقَ لِشَرَاءِ قُوتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةَ أَنْ يُرْزَأَ شَيْئاً مِنْ مُدَّخَرِهِ وَتَتَبَّع ذٰلِكَ فِي ٱلأَقَالِيمِ وَٱلبِلْدَانِ تَجِدْ فِي ٱلأَخلاقِ أَثَرًا مِنْ كَيْفِيَّاتِ ٱلهَوَاءِ وَٱللهُ ٱلخَلَّاقُ ٱلعَلِيم وَقَدْ تَعَرَّضَ ٱلمَسْعُودِيُّ لِلبَحْثِ عَنِ ٱلسَّبَبِ فِي خِفَّةِ ٱلسُّودَانِ وَطَيْشِهِمْ وَكَثْرَةِ ٱلطَّرَبِ فِيهِمْ وَحَاوَلَ تَعْلِيلَهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِينُوسَ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاق ٱلكِنْدِي أَنَّ ذٰلِكَ لِضُعْفِ أَدْمِغَتِهِمْ وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنْ ضُعْفِ عُقُولِهِمْ وَهٰذَا كَلَامٌ لا مُحَصَّلَ لَهُ وَلَا بُرْهَانَ فِيهِ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

المقدمة الخامسة

في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في ابدان البشر واخلاقهم

إِعلَمْ أَنَّ هٰذِهِ ٱلأَقَالِيمَ ٱلمُعْتَدِلَةَ لَيْسَ كُلُّهَا يُوجَدُ بِهَا ٱلخِصْبُ وَلَا كُلُّ سُكَّانِهَا فِي رَغَدٍ مِنَ ٱلعَيْشِ بَلْ فِيهَا مَا يُوجَدُ لِأَهْلِهِ خِصْبُ ٱلعَيْشِ مِنَ ٱلحُبُوبِ وَٱلأُدْمِ وَٱلحِنطَةِ وَٱلفَوَاكِهِ لِزَكَاءِ ٱلمَنَابِتِ وَٱعْتِدَالِ ٱلطِّينَةِ وَوُفُورِ ٱلعُمْرَانِ وَفِيهَا ٱلأَرْضُ ٱلحَرَّةُ ٱلَّتِي لا تُنبِتُ زَرْعاً وَلَا عِشْباً بِٱلجُمْلَةِ فَسُكَّانُهَا فِي شَظَفٍ مِنَ ٱلعَيْشِ مِثْلُ أَهْلِ ٱلحِجَازِ وَجَنُوبِ ٱليَمَنِ وَمِثْلُ ٱلمُلَثَّمِينَ مِنْ صِنْهَاجَةَ ٱلسَّاكِنِينَ بِصَحْرَاءِ ٱلمَغْرِبِ وَأَطْرَافِ ٱلرِّمَالِ فِيمَا بَيْنَ ٱلبَرْبَرِ وَٱلسُّودَانِ فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ يَفْقِدُونَ ٱلحُبُوبَ وَٱلأُدْمَ جُمْلَةً وَإِنَّمَا أَغْذِيَتُهُم وَأَقْوَاتُهُمْ ٱلأَلبَانُ وَٱللُّحُومُ وَمِثْلُ ٱلعَرَبِ أَيْضاً ٱلجَائِلِينَ فِي ٱلقِفَارِ فَإِنَّهُمْ وَإِن كَانُوا يَأْخُذُونَ ٱلحُبُوبَ وَٱلأُدْمَ مِنَ ٱلتُّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ فِي ٱلأَحَايِينِ وَتَحْتَ رِبْقَةٍ مِنْ حَامِيَتِهَا وَعَلَى ٱلإِقْلَالِ لِقِلَّةِ وَجْدِهِمْ فَلا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلى سَدِّ ٱلخَلَّةِ أَوْ دُونَهَا فَضْلاً عَنِ ٱلرَّغَدِ وَٱلخِصْبِ وَتَجِدُهُمْ يَقْتَصِرُونَ فِي غَالِبِ أَحوَالِهِمْ عَلى ٱلأَلبَانِ وَتُعَوِّضُهُمْ مِنَ ٱلحِنطَةِ أَحسَنَ مَعَاضٍ وَتَجِدُ مَعَ ذٰلِكَ هٰؤُلَاءِ ٱلفَاقِدِينَ لِلحُبُوبِ وَٱلأُدْمِ مِنْ أَهْلِ ٱلقِفَارِ أَحسَنَ حالاً فِي جُسُومِهِمْ وَأَخلاقِهِم مِنْ أَهْلِ ٱلتُّلُولِ ٱلمُنْغَمِسِينَ فِي ٱلعَيْشِ فَأَلوَانُهُمْ أَصفى وَأَبْدَانُهُمْ أَنقَى وَأَشْكَالُهُمْ أَتَمُّ وَأَحسَنُ وَأَخلاقُهُمْ أَبْعَدُ مِنَ ٱلانْحِرَافِ وَأَذهَانُهُم أَثقَبُ فِي ٱلمَعَارِفِ وَٱلإِدْرَاكَاتِ هٰذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ ٱلتَّجْرِبَةُ فِي كُلِّ جِيلٍ مِنْهُم فَكَثِيرٌ مَا بَيْنَ ٱلعَرَبِ وَٱلبَرْبَرِ فِيمَا وَصَفْنَاهُ وَبَيْنَ ٱلمُلَثَّمِينَ وَأَهْلِ ٱلتُّلُولِ يَعْرِفُ ذٰلِكَ مَنْ خَبَرَهُ

وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ وَاللّهُ أَعلَمُ أَنَّ كَثْرَةَ ٱلأَغذِيَةِ وَكَثْرَةَ ٱلأَخلاطِ ٱلفَاسِدَةِ ٱلعَفِنَةِ وَرُطُوبَاتِهَا تُوَلِّدُ فِي ٱلجِسْمِ فَضَلاتٍ رَدِيئَةً تَنْشَأُ عَنهَا بَعْدَ إِقطَارِهَا فِي غَيْرِ نِسْبَةٍ وَيَتْبَعُ ذٰلِكَ ٱنْكِسَافُ ٱلأَلْوَانِ وَقُبْحُ ٱلأَشْكَالِ مِنْ كَثْرَةِ ٱللَّحْمِ كَمَا قُلْنَاهُ وَتُغَطِّي ٱلرُّطُوبَاتُ عَلَى ٱلأَذْهَانِ وَٱلأَفْكَارِ بِمَا يَصْعَدُ إِلَى ٱلدِّمَاغِ مِنْ أَبْخِرَتِهَا ٱلرَّدِيئَةِ فَتَجِيءُ ٱلبَلادَةُ وَٱلغَفْلَةُ وَٱلانْحِرَافُ عَنِ ٱلاعْتِدَالِ بِالجُمْلَةِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي حَيَوَانِ ٱلقَفْرِ وَمَوَاطِنِ ٱلجَدْبِ مِنَ ٱلغَزَالِ وَٱلنَّعَامِ وَٱلمَهَا وَٱلزَّرَافَةِ وَٱلحُمُرِ ٱلوَحْشِيَّةِ وَٱلبَقَرِ مَعَ أَمْثَالِهَا مِنْ حَيَوَانِ ٱلتُّلُولِ وَٱلأَرْيَافِ وَٱلمَرَاعِي ٱلخَصِبَةِ كَيْفَ تَجِدُ بَيْنَهَا بَوْنًا بَعِيدًا فِي صَفَاءِ أَدِيمِهَا وَحُسْنِ رَوْنَقِهَا وَأَشْكَالِهَا وَتَنَاسُبِ أَعْضَائِهَا وَحِدَّةِ مَدَارِكِهَا فَٱلغَزَالُ أَخُو ٱلمَعْزِ وَٱلزَّرَافَةُ أَخُو ٱلبَعِيرِ وَٱلحِمَارُ وَٱلبَقَرُ أَخُو ٱلحِمَارِ وَٱلبَقَرِ وَٱلبَوْنُ بَيْنَهَا مَا رَأَيْتَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَجْلِ أَنَّ ٱلخِصْبَ فِي ٱلتُّلُولِ فَعَلَ فِي أَبْدَانِ هٰذِهِ مِنَ ٱلفَضَلاتِ ٱلرَّدِيئَةِ وَٱلأَخلاطِ ٱلفَاسِدَةِ مَا ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُهُ وَٱلجُوعُ لِحَيَوَانِ ٱلقَفْرِ حَسَّنَ فِي خَلْقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلآدَمِيِّينَ أَيْضًا فَإِنَّا نَجِدُ أَهْلَ ٱلأَقَالِيمِ ٱلمُخْصِبَةِ ٱلعَيْشِ ٱلكَثِيرَةِ ٱلزَّرْعِ وَٱلضَّرْعِ وَٱلأُدْمِ وَٱلفَوَاكِهِ يَتَّصِفُ أَهْلُهَا غَالِبًا بِٱلبَلادَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَٱلخُشُونَةِ فِي أَجْسَامِهِمْ وَهٰذَا شَأْنُ ٱلبَرْبَرِ ٱلمُنْغَمِسِينَ فِي ٱلأُدْمِ وَٱلحِنْطَةِ مَعَ ٱلمُتَقَشِّفِينَ فِي عَيْشِهِمِ ٱلمُقْتَصِرِينَ عَلَى ٱلشَّعِيرِ أَوِ ٱلذُّرَةِ مِثْلَ ٱلمَصَامِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ غُمَارَةَ وَٱلسُّوسِ فَتَجِدُ هٰؤُلاءِ أَحْسَنَ حَالًا فِي عُقُولِهِمْ وَجُسُومِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ بِلادِ ٱلمَغْرِبِ عَلَى ٱلجُمْلَةِ ٱلمُنْغَمِسِينَ فِي ٱلأُدْمِ وَٱلبُرِّ مَعَ أَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ ٱلمَفْقُودِ بِأَرْضِهِمِ ٱلسَّمْنُ جُمْلَةً وَغَالِبُ عَيْشِهِمِ ٱلذُّرَةُ فَتَجِدُ لِأَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ مِنْ ذَكَاءِ ٱلعُقُولِ وَخِفَّةِ ٱلأَجْسَامِ وَقَبُولِ ٱلتَّعْلِيمِ مَا لَا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ ٱلضَّوَاحِي مِنَ ٱلمَغْرِبِ بِٱلجُمْلَةِ مَعَ أَهْلِ ٱلحَضَرِ وَٱلأَمْصَارِ فَإِنَّ ٱلأَمْصَارَ وَإِنْ كَانُوا مُكْثِرِينَ مِثْلَهُمْ مِنَ ٱلأُدْمِ وَمُخْصِبِينَ فِي ٱلعَيْشِ إِلَّا أَنَّ ٱسْتِعْمَالَهُمْ إِيَّاهَا بَعْدَ ٱلعِلاجِ بِٱلطَّبْخِ وَٱلتَّلْطِيفِ بِمَا يَخْلِطُونَ مَعَهَا فَيَذْهَبُ لِذٰلِكَ غِلَظُهَا وَيَرِقُّ قِوَامُهَا وَعَامَّةُ مَآكِلِهِمْ لُحُومُ ٱلضَّأْنِ وَٱلدَّجَاجِ وَلَا يَغْبِطُونَ ٱلسَّمْنَ مِنْ بَيْنِ ٱلأُدْمِ لِتَفَاهَتِهِ فَتَقِلُّ ٱلرُّطُوبَاتُ لِذٰلِكَ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَيَخِفُّ مَا تُؤَدِّيهِ إِلَى أَجْسَامِهِمْ مِنَ ٱلفَضَلاتِ ٱلرَّدِيئَةِ فَلِذٰلِكَ تَجِدُ جُسُومَ أَهْلِ ٱلأَمْصَارِ أَلْطَفَ مِنْ جُسُومِ ٱلبَادِيَةِ ٱلمُخْشَنِينَ فِي ٱلعَيْشِ وَكَذٰلِكَ تَجِدُ ٱلمُعَوَّدِينَ بِٱلجُوعِ مِنْ أَهْلِ ٱلبَادِيَةِ لَا فَضَلاتَ فِي جُسُومِهِمْ غَلِيظَةً وَلَا لَطِيفَةً. وَٱعْلَمْ

أنّ أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة من أهل الترف والخصب بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما يعمّها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأدم ولباب البر ويختص وجود العبّاد والزهّاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيباته من أهل البادية ومن أهل الحواضر والأمصار إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا لا مثل العرب أهل القفر والصحراء ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل أهل أفريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت وأهل الأندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فإنّ هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر والسبب في ذلك والله أعلم أنّ المنغمسين في الخصب المتعودين للأدم والسمن خصوصاً تكتسب من ذلك أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الأصلية المزاجية حتى تجاوز حدها فإذا خولف بها العادة بقلة الأقوات وفقدان الأدم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع إلى المعا اليبس والانكماش وهو ضعيف في الغاية فيسرع إليه المرض ويهلك صاحبه دفعة لأنه من المقاتل فالهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق. وأمّا المتعودون لقلة الأدم والسمن فلا تزال رطوبتهم الأصلية واقفة عند حدها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الأغذية الطبيعية فلا يقع في معاهم بتبدل الأغذية يبس ولا انحراف فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الأدم في المآكل وأصل هذا كله أن تعلم أنّ الأغذية وائتلافها أو تركها إنما هو بالعادة فمن عوّد نفسه غذاء ولاءمه تناوله كان له مألوفاً وصار الخروج عنه والتبدل به داء ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع (١) وما أفرط في الانحراف

(١) قال في القاموس اليتوع كصبور او تنور نبات له لبن دار مسهل محرق مقطع والمشهور منه سبعة

فأَمَّا مَا وُجِدَ فِيهِ ٱلتَّغَذِّي وَٱلمُلاءَمَةُ فَيَصِيرُ غِذَاءً مَأْلُوفاً بِٱلعَادَةِ فَإِذَا أَخَذَ ٱلإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِٱسْتِعْمَالِ ٱللَّبَنِ وَٱلبَقْلِ عِوَضاً عَنِ ٱلحِنْطَةِ حَتَّى صَارَ لَهُ دَيْدَناً فَقَدْ حَصَلَ لَهُ ذٰلِكَ غِذَاءً وَٱسْتَغْنَى بِهِ عَنِ ٱلحِنْطَةِ وَٱلحُبُوبِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَكَذَا مَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ ٱلصَّبْرَ عَلَى ٱلجُوعِ وَٱلِاسْتِغْنَاءَ عَنِ ٱلطَّعَامِ كَمَا يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِ ٱلرِّيَاضِيَّاتِ فَإِنَّا نَسْمَعُ عَنْهُمْ فِي ذٰلِكَ أَخْبَاراً غَرِيبَةً يَكَادُ يُنْكِرُهَا مَنْ لا يَعْرِفُهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ ٱلعَادَةُ فَإِنَّ ٱلنَّفْسَ إِذَا أَلِفَتْ شَيْئاً صَارَ مِنْ جِبِلَّتِهَا وَطَبِيعَتِهَا لِأَنَّهَا كَثِيرَةُ ٱلتَّلَوُّنِ فَإِذَا حَصَلَ لَهَا ٱعْتِيَادُ ٱلجُوعِ بِٱلتَّدْرِيجِ وَٱلرِّيَاضَةِ فَقَدْ حَصَلَ ذٰلِكَ عَادَةً طَبِيعِيَّةً لَهَا وَمَا يَتَوَهَّمُهُ ٱلأَطِبَّاءُ مِنْ أَنَّ ٱلجُوعَ مُهْلِكٌ فَلَيْسَ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ إِلَّا إِذَا حُمِلَتِ ٱلنَّفْسُ عَلَيْهِ دَفْعَةً وَقُطِعَ عَنْهَا ٱلغِذَاءُ بِٱلكُلِّيَّةِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَنْحَسِمُ ٱلمِعَاءُ وَيَنَالُهُ ٱلمَرَضُ ٱلَّذِي يُخْشَى مَعَهُ ٱلهَلَاكُ وَأَمَّا إِذَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلقَدَرُ تَدْرِيجاً وَرِيَاضَةً بِإِقْلَالِ ٱلغِذَاءِ شَيْئاً فَشَيْئاً كَمَا يَفْعَلُهُ ٱلمُتَصَوِّفَةُ فَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ ٱلهَلَاكِ وَهٰذَا ٱلتَّدْرِيجُ ضَرُورِيٌّ حَتَّى فِي ٱلرُّجُوعِ عَنْ هٰذِهِ ٱلرِّيَاضَةِ فَإِنَّهُ إِذَا رَجَعَ بِهِ إِلَى ٱلغِذَاءِ ٱلأَوَّلِ دَفْعَةً خِيفَ عَلَيْهِ ٱلهَلَاكُ وَإِنَّمَا يَرْجِعُ بِهِ كَمَا بَدَأَ فِي ٱلرِّيَاضَةِ بِٱلتَّدْرِيجِ وَلَقَدْ شَاهَدْنَا مَنْ يَصْبِرُ عَلَى ٱلجُوعِ أَرْبَعِينَ يَوْماً وِصَالاً وَأَكْثَرَ وَحَضَرَ أَشْيَاخُنَا بِمَجْلِسِ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي ٱلحَسَنِ وَقَدْ رُفِعَ إِلَيْهِ ٱمْرَأَتَانِ مِنْ أَهْلِ ٱلجَزِيرَةِ ٱلخَضْرَاءِ وَرُنْدَةَ حَبَسَتَا أَنْفُسَهُمَا عَنِ ٱلأَكْلِ جُمْلَةً مُنْذُ سِنِينَ وَشَاعَ أَمْرُهُمَا وَوَقَعَ ٱخْتِبَارُهُمَا فَصَحَّ شَأْنُهُمَا وَٱتَّصَلَ عَلَى ذٰلِكَ حَالُهُمَا إِلَى أَنْ مَاتَتَا وَرَأَيْنَا كَثِيراً مِنْ أَصْحَابِنَا أَيْضاً مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى حَلِيبِ شَاةٍ مِنَ ٱلمَعْزِ يَلْتَقِمُ ثَدْيَهَا فِي بَعْضِ ٱلنَّهَارِ أَوْ عِنْدَ ٱلإِفْطَارِ وَيَكُونُ ذٰلِكَ غِذَاءَهُ وَٱسْتَدَامَ عَلَى ذٰلِكَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ وَلَا يُسْتَنْكَرُ ذٰلِكَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلجُوعَ أَصْلَحُ لِلْبَدَنِ مِنْ إِكْثَارِ ٱلأَغْذِيَةِ بِكُلِّ وَجْهٍ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَى ٱلإِقْلَالِ مِنْهَا وَإِنَّ لَهُ أَثَراً فِي ٱلأَجْسَامِ وَٱلعُقُولِ فِي صَفَائِهَا وَصَلَاحِهَا كَمَا قُلْنَاهُ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِآثَارِ ٱلأَغْذِيَةِ ٱلَّتِي تَحْصُلُ عَنْهَا فِي ٱلجُسُومِ فَقَدْ رَأَيْنَا ٱلمُتَغَذِّينَ بِلُحُومِ ٱلحَيَوَانَاتِ ٱلفَاخِرَةِ ٱلعَظِيمَةِ ٱلجُثْمَانِ تَنْشَأُ أَجْيَالُهُمْ كَذٰلِكَ وَهٰذَا مُشَاهَدٌ فِي أَهْلِ ٱلبَادِيَةِ مَعَ أَهْلِ ٱلحَاضِرَةِ وَكَذَا ٱلمُتَغَذُّونَ بِأَلْبَانِ ٱلإِبِلِ وَلُحُومِهَا أَيْضاً مَعَ مَا يُؤَثِّرُ فِي

الشبرم واللاعبة والعرطنثيا واللاهودانة والمازريون والفلجلشت والعشر وكل اليتوعات اذا استعملت في غير وجهها هلكت . اه

أَخْلَاقِهِمْ مِنَ ٱلصَّبْرِ وَٱلِٱحْتِمَالِ وَٱلْقُدْرَةِ عَلَى حَمْلِ ٱلْأَثْقَالِ ٱلْمَوْجُودِ ذٰلِكَ لِلْإِبِلِ وَتَنْشَأُ أَمْعَاؤُهُمْ أَيْضاً عَلَى نِسْبَةِ أَمْعَاءِ ٱلْإِبِلِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْغِلَظِ فَلَا يَطْرُقُهَا ٱلْوَهَنُ وَلَا يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ ٱلْأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ فَيَشْرَبُونَ ٱلْيَتُّوعَاتِ لِاسْتِطْلَاقِ بُطُونِهِمْ غَيْرَ مَحْجُوبَةٍ كَالْحَنْظَلِ قَبْلَ طَبْخِهِ وَٱلدِّرْيَاسِ وَٱلْقَرْبِيُونِ وَلَا أَمْعَاءُهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِيَ لَوْ تَنَاوَلَهَا أَهْلُ ٱلْحَضَرِ ٱلرَّقِيقَةُ أَمْعَاؤُهُمْ بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ ٱلْأَغْذِيَةِ لَكَانَ ٱلْهَلَاكُ أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرْفَةِ ٱلْعَيْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّمِّيَّةِ وَمِنْ تَأْثِيرِ ٱلْأَغْذِيَةِ فِي ٱلْأَبْدَانِ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ ٱلْفِلَاحَةِ وَشَاهَدَهُ أَهْلُ ٱلتَّجْرِبَةِ أَنَّ ٱلدَّجَاجَ إِذَا غُذِّيَتْ بِٱلْحُبُوبِ ٱلْمَطْبُوخَةِ فِي بَعَرِ ٱلْإِبِلِ وَٱتُّخِذَ بَيْضُهَا ثُمَّ حَضَنَتْ عَلَيْهِ جَاءَ ٱلدَّجَاجُ مِنْهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ وَقَدْ يَسْتَغْنُونَ عَنْ تَغْذِيَتِهَا وَطَبْخِ ٱلْحُبُوبِ بِطَرْحِ ذٰلِكَ ٱلْبَعَرِ مَعَ ٱلْبَيْضِ ٱلْمُحَضَّنِ فَيَجِيءُ دَجَاجُهَا فِي غَايَةِ ٱلْعِظَمِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ فَإِذَا رَأَيْنَا هٰذِهِ ٱلْآثَارَ مِنَ ٱلْأَغْذِيَةِ فِي ٱلْأَبْدَانِ فَلَا شَكَّ أَنَّ لِلْجُوعِ أَيْضاً آثَاراً فِي ٱلْأَبْدَانِ لِأَنَّ ٱلضِّدَّيْنِ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي ٱلتَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ ٱلْجُوعِ فِي نَقَاءِ ٱلْأَبْدَانِ مِنَ ٱلزِّيَادَاتِ ٱلْفَاسِدَةِ وَٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْمُخْتَلِطَةِ ٱلْمُخِلَّةِ بِٱلْجِسْمِ وَٱلْعَقْلِ كَمَا كَانَ ٱلْغِذَاءُ مُؤَثِّراً فِي وُجُودِ ذٰلِكَ ٱلْجِسْمِ وَٱللهُ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ

المقدمة السادسة

في اصناف المدركين من البشر بالفطرة او الرياضة

ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

إِعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ ٱصْطَفَى مِنَ ٱلْبَشَرِ أَشْخَاصاً فَضَّلَهُمْ بِخِطَابِهِ وَفَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادِهِ يُعَرِّفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَيَأْخُذُونَ بِحُجُزَاتِهِمْ عَنِ ٱلنَّارِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلنَّجَاةِ وَكَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ ٱلْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ ٱلْخَوَارِقِ وَٱلْأَخْبَارِ ٱلْكَائِنَاتِ ٱلْمُغَيَّبَةِ عَنِ ٱلْبَشَرِ ٱلَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا إِلَّا مِنَ ٱللهِ بِوَاسِطَتِهِمْ وَلَا يَعْلَمُونَهَا إِلَّا بِتَعْلِيمِ ٱللهِ إِيَّاهُمْ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي ٱللهُ وَٱعْلَمْ أَنَّ خَبَرَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنْ خَاصِّيَّتِهِ وَضَرُورَتِهِ ٱلصِّدْقُ لِمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ ٱلنُّبُوَّةِ وَعَلَامَةُ هٰذَا ٱلصِّنْفِ

مِنَ ٱلْبَشَرِ أَنْ تُوجَدَ لَهُمْ فِي حَالِ ٱلْوَحْيِ غَيْبَةٌ عَنِ ٱلْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ غَطِيطٍ كَأَنَّهَا غَشْيٌ أَوْ إِغْمَاءٌ فِي رَأْيِ ٱلْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهُمَا فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ ٱسْتِغْرَاقٌ فِي لِقَاءِ ٱلْمَلَكِ ٱلرُّوحَانِيِّ بِإِدْرَاكِهِمِ ٱلْمُنَاسِبِ لَهُمُ ٱلْخَارِجِ عَنْ مَدَارِكِ ٱلْبَشَرِ بِٱلْكُلِّيَّةِ ثُمَّ يَتَنَزَّلُ إِلَى ٱلْمَدَارِكِ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِمَّا بِسَمَاعِ دَوِيٍّ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ أَوْ يَتَمَثَّلُ لَهُ صُورَةُ شَخْصٍ يُخَاطِبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ ٱلْحَالُ وَقَدْ وَعَى مَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ ٱلْوَحْيِ أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ ٱلْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ ٱلْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ وَيُدْرِكُهُ أَثْنَاءَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلشِّدَّةِ وَٱلْغَطِّ مَا لَا يُعَبَّرُ عَنْهُ فَفِي ٱلْحَدِيثِ كَانَ مِمَّا يُعَالِجُ مِنَ ٱلتَّنْزِيلِ شِدَّةٌ وَقَالَتْ عَائِشَةُ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ ٱلْوَحْيُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلشَّدِيدِ ٱلْبَرْدِ فَيُفْصَمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا وَقَالَ تَعَالَى إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا وَلِأَجْلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ فِي تَنَزُّلِ ٱلْوَحْيِ كَانَ ٱلْمُشْرِكُونَ يَرْمُونَ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِٱلْجُنُونِ وَيَقُولُونَ لَهُ رَئِيٌّ أَوْ تَابِعٌ مِنَ ٱلْجِنِّ وَإِنَّمَا لُبِّسَ عَلَيْهِمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمِنْ عَلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُمْ قَبْلَ ٱلْوَحْيِ خُلُقُ ٱلْخَيْرِ وَٱلزَّكَاءِ وَمُجَانَبَةِ ٱلْمَذْمُومَاتِ وَٱلرِّجْسِ أَجْمَعَ وَهٰذَا هُوَ مَعْنَى ٱلْعِصْمَةِ وَكَأَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى ٱلتَّنَزُّهِ عَنِ ٱلْمَذْمُومَاتِ وَٱلْمُنَافَرَةِ لَهَا وَكَأَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِجِبِلَّتِهِ وَفِي ٱلصَّحِيحِ أَنَّهُ حَمَلَ ٱلْحِجَارَةَ وَهُوَ غُلَامٌ مَعَ عَمِّهِ ٱلْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ ٱلْكَعْبَةِ فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ فَٱنْكَشَفَ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ حَتَّى ٱسْتَتَرَ بِإِزَارِهِ وَدُعِيَ إِلَى مُجْتَمَعِ وَلِيمَةٍ فِيهَا عُرْسٌ وَلَعِبٌ فَأَصَابَهُ غَشْيُ ٱلنَّوْمِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ وَلَمْ يَحْضُرْ شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ بَلْ نَزَّهَهُ ٱللهُ عَنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ حَتَّى إِنَّهُ بِجِبِلَّتِهِ يَتَنَزَّهُ عَنِ ٱلْمَطْعُومَاتِ ٱلْمُسْتَكْرَهَةِ فَقَدْ كَانَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَقْرَبُ ٱلْبَصَلَ وَٱلثُّومَ فَقِيلَ لَهُ فِي ذٰلِكَ فَقَالَ إِنِّي أُنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجُونَ وَٱنْظُرْ لَمَّا أَخْبَرَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا بِحَالِ ٱلْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَأَتْهُ وَأَرَادَتِ ٱخْتِبَارَهُ فَقَالَتِ ٱجْعَلْنِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ ثَوْبِكَ فَلَمَّا فَعَلَ ذٰلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ فَقَالَتْ إِنَّهُ مَلَكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرَبُ ٱلنِّسَاءَ . وَكَذٰلِكَ سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ ٱلثِّيَابِ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِيهَا فَقَالَ ٱلْبَيَاضُ وَٱلْخُضْرَةُ فَقَالَتْ إِنَّهُ ٱلْمَلَكُ يَعْنِي أَنَّ ٱلْبَيَاضَ وَٱلْخُضْرَةَ مِنْ أَلْوَانِ ٱلْخَيْرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلسَّوَادُ مِنْ أَلْوَانِ ٱلشَّرِّ وَٱلشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ .

وَمِنْ عَلامَاتِهِمْ أَيضاً دُعَاؤُهُمْ إِلى ٱلدِّينِ وَٱلعِبَادَةِ مِنَ ٱلصَّلاةِ وَٱلصَّدَقَةِ وَٱلعَفَافِ وَقَد ٱستَدَلَّتْ خَدِيجَةُ عَلى صِدقِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَحْتَاجَا فِي أَمْرِهِ إِلى دَلِيلٍ خَارِجٍ عَنْ حَالِهِ وَخُلُقِهِ وَفِي ٱلصَّحِيحِ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ إِلى ٱلإِسْلامِ أَحضَرَ مَنْ وَجَدَ بِبَلَدِهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَفِيهِم أَبُو سُفيَانَ لِيَسأَلَهُمْ عَنْ حَالِهِ فَكَانَ فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ بِمَ يَأْمُرُكُمْ فَقَالَ أَبُو سُفيَانَ بِالصَّلاةِ وَٱلزَّكَاةِ وَٱلصِّلَةِ وَٱلعَفَافِ إِلى آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ فَقَالَ إِنْ يَكُنْ مَا تَقُول حَقّاً فَهُوَ نَبِيٌّ وَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَٱلعَفَافُ ٱلَّذِي أَشَارَ إِلَيهِ هِرَقْلُ [1] هُوَ ٱلعِصْمَةُ فَٱنظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ ٱلعِصْمَةِ وَٱلدُّعَاءِ إِلى ٱلدِّينِ وَٱلعِبَادَةِ دَلِيلاً عَلى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَلَم يَحتَجْ إِلى مُعْجِزَةٍ فَدَلَّ عَلى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عَلامَاتِ ٱلنُّبُوَّةِ . وَمِنْ عَلامَاتِهِمْ أَيضاً أَنْ يَكُونُوا ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ وَفِي ٱلصَّحِيحِ مَا بَعَثَ ٱللَّهُ نَبِيّاً إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَفِي رِوَايَةٍ أُخرَى فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ ٱستَدرَكَهُ ٱلحَاكِمُ عَلى ٱلصَّحِيحَيْنِ وَفِي مَسْئَلَةِ هِرَقْلَ لِأَبِي سُفيَانَ كَمَا هُوَ فِي ٱلصَّحِيحِ قَالَ كَيْفَ هُوَ فِيكُمْ فَقَالَ أَبُو سُفيَانَ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ فَقَالَ هِرَقْلُ وَٱلرُّسُلُ تُبعَثُ فِي أَحسَابِ قَوْمِهَا وَمَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ لَهُ عَصَبَةٌ وَشَوْكَةٌ تَمْنَعُهُ عَنْ أَذَى ٱلكُفَّارِ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيُتِمَّ مُرَادَ ٱللَّهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ . وَمِن عَلامَاتِهِمْ أَيضاً وُقُوعُ ٱلخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِمْ وَهِيَ أَفعَالٌ يَعجَزُ ٱلبَشَرُ عَنْ مِثْلِهَا فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ مُعجِزَةً وَلَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ ٱلعِبَادِ وَإِنَّمَا تَقَعُ فِي غَيْرِ مَحَلِّ قُدْرَتِهِم وَلِلنَّاسِ فِي كَيْفِيَّةِ وُقُوعِهَا وَدِلالَتِهَا عَلى تَصْدِيقِ ٱلأَنبِيَاءِ خِلافٌ فَٱلمُتَكَلِّمُونَ بِنَاءً عَلى ٱلقَوْلِ بِٱلفَاعِلِ ٱلمُخْتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَةِ ٱللَّهِ لَا بِفِعْلِ ٱلنَّبِيِّ وَإِنْ كَانَتْ أَفعَالُ ٱلعِبَادِ عِندَ ٱلمُعتَزِلَةِ صَادِرَةً عَنهُمْ إِلَّا أَنَّ ٱلمُعجِزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَفعَالِهِمْ وَلَيْسَ لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِندَ سَائِرِ ٱلمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا ٱلتَّحَدِّي بِهَا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَهُوَ أَنْ يَستَدِلَّ بِهَا ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وُقُوعِهَا عَلى صِدقِهِ فِي مُدَّعَاهُ فَإِذَا وَقَعَتْ تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَةَ ٱلقَوْلِ ٱلصَّرِيحِ مِنَ ٱللَّهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ وَتَكُونُ دِلالَتُهَا حِينَئِذٍ عَلى ٱلصِّدْقِ قَطْعِيَّةً فَٱلمُعجِزَةُ ٱلدَّالَّةُ بِمَجْمُوعِ ٱلخَارِقِ وَٱلتَّحَدِّي وَلِذَلِكَ كَانَ ٱلتَّحَدِّي جُزْءاً مِنْهَا وَعِبَارَةُ ٱلمُتَكَلِّمِينَ صِفَةُ نَفْسِهَا وَهُوَ وَاحِدٌ لِأَنَّهُ مَعْنَى ٱلذَّاتِيِّ عِندَهُمْ وَٱلتَّحَدِّي هُوَ ٱلفَارِقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلكَرَامَةِ

(١) قوله الذي اشار اليه هرقل الظاهر ابو سفيان

وَٱلسِّحْرِ إِذْ لاَ حَاجَةَ فِيهِمَا إِلى ٱلتَّصْدِيقِ فَلَا وُجودَ لِلتَّحَدِّي إِلّا إِنْ وُجِدَ ٱتِّفَاقاً وَإِن وَقَعَ ٱلتَّحَدِّي فِي ٱلْكَرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُجِيزُهَا وَ كَانَتْ لَهَا دِلَالَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ عَلى ٱلْوِلَايَةِ وَهِيَ غَيْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَمِنْ هُنَا مَنَعَ ٱلْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَقَ وَغَيْرُهُ وُقُوعَ ٱلْخَوَارِقِ كَرَامَةً فِرَاراً مِنَ ٱلِٱلْتِبَاسِ بِٱلنُّبُوَّةِ عِنْدَ ٱلتَّحَدِّي بِٱلْوِلَايَةِ وَقَدْ أَرَيْنَاكَ ٱلْمُغَايَرَةَ بَيْنَهُمَا وَإِنَّهُ يَتَحَدَّى بِغَيْرِ مَا يَتَحَدَّى بِهِ ٱلنَّبِيُّ فَلَا لَبْسَ عَلى أَنَّ ٱلنَّقْلَ عَنِ ٱلْأُسْتَاذِ فِي ذٰلِكَ لَيْسَ صَرِيحاً وَرُبَّمَا حُمِلَ عَلى إِنْكَارِ لِأَنْ تَقَعَ خَوَارِقُ ٱلْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ بِنَاءً عَلى ٱخْتِصَاصِ كُلٍّ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ بِخَوَارِقِهِ . وَأَمَّا ٱلْمُعْتَزِلَةُ فَٱلْمَانِعُ مِنْ وُقُوعِ ٱلْكَرَامَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّ ٱلْخَوَارِقَ لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِ ٱلْعِبَادِ وَأَفْعَالُهُمْ مُعْتَادَةٌ فَلاَ فَرْقَ وَأَمَّا وُقُوعُهَا عَلى يَدِ ٱلْكَاذِبِ تَلْبِيساً فَهُوَ مُحَالٌ أَمَّا عِنْدَ ٱلْأَشْعَرِيَّةِ فَلِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ ٱلْمُعْجِزَةِ ٱلتَّصْدِيقُ وَٱلْهِدَايَةُ فَلَوْ وَقَعَتْ بِخِلَافِ ذٰلِكَ ٱنْقَلَبَ ٱلدَّلِيلُ شُبْهَةً وَٱلْهِدَايَةُ ضَلَالَةً وَٱلتَّصْدِيقُ كَذِباً وَٱسْتَحَالَتِ ٱلْحَقَائِقُ وَٱنْقَلَبَتْ صِفَاتُ ٱلنَّفْسِ وَمَا يَلْزَمُ مِنْ فَرْضِ وُقُوعِهِ ٱلْمُحَالُ لاَ يَكُونُ مُمْكِناً وَأَمَّا عِنْدَ ٱلْمُعْتَزِلَةِ فَلِأَنَّ وُقُوعَ ٱلدَّلِيلِ شُبْهَةً وَٱلْهِدَايَةِ ضَلَالَةً قَبِيحٌ فَلَا يَقَعُ مِنَ ٱللهِ. وَأَمَّا ٱلْحُكَمَاءُ فَٱلْخَارِقُ عِنْدَهُمْ مِنْ فِعْلِ ٱلنَّبِيِّ وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ مَحَلِّ ٱلْقُدْرَةِ بِنَاءً عَلى مَذْهَبِهِمْ فِي ٱلْإِيجَابِ ٱلذَّاتِيِّ وَوُقُوعُ ٱلْحَوَادِثِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ مُتَوَقِّفٌ عَلى ٱلْأَسْبَابِ وَٱلشُّرُوطِ ٱلْحَادِثَةِ مُسْتَنِدَةٌ أَخِيراً إِلى ٱلْوَاجِبِ ٱلْفَاعِلِ بِٱلذَّاتِ لاَ بِٱلِٱخْتِيَارِ وَإِنَّ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّبَوِيَّةَ عِنْدَهُمْ لَهَا خَوَاصُّ ذَاتِيَّةٌ مِنْهَا صُدُورُ هٰذِهِ ٱلْخَوَارِقِ بِقُدْرَتِهِ وَطَاعَةُ ٱلْعَنَاصِرِ لَهُ فِي ٱلتَّكْوِينِ وَٱلنَّبِيُّ عِنْدَهُمْ مَجْبُولٌ عَلى ٱلتَّصْرِيفِ فِي ٱلْأَكْوَانِ مَهْمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهَا وَٱسْتَجْمَعَ لَهَا بِمَا جَعَلَ ٱللهُ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلْخَارِقُ عِنْدَهُمْ يَقَعُ لِلنَّبِيِّ سَوَاءٌ كَانَ لِلتَّحَدِّي أَمْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ شَاهِدٌ بِصِدْقِهِ مِنْ حَيْثُ دِلَالَتُهُ عَلى تَصَرُّفِ ٱلنَّبِيِّ فِي ٱلْأَكْوَانِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّبَوِيَّةِ لَا بِأَنَّهُ يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلْقَوْلِ ٱلصَّرِيحِ بِٱلتَّصْدِيقِ فَلِذٰلِكَ لَا تَكُونُ دِلَالَتُهَا عِنْدَهُمْ قَطْعِيَّةً كَمَا هِيَ عِنْدَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ وَلَا يَكُونُ ٱلتَّحَدِّي جُزْءاً مِنَ ٱلْمُعْجِزَةِ وَلَمْ يَصِحَّ فَارِقاً لَهَا عَنِ ٱلسِّحْرِ وَٱلْكَرَامَةِ وَفَارِقُهَا عِنْدَهُمْ عَنِ ٱلسِّحْرِ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ مَجْبُولٌ عَلى أَفْعَالِ ٱلْخَيْرِ مَصْرُوفٌ عَنْ أَفْعَالِ ٱلشَّرِّ فَلَا يُلِمُّ ٱلشَّرُّ بِخَوَارِقِهِ وَٱلسَّاحِرُ عَلى ٱلضِّدِّ فَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا شَرٌّ وَفِي مَقَاصِدِ ٱلشَّرِّ وَفَارِقُهَا عَنِ ٱلْكَرَامَةِ أَنَّ خَوَارِقَ ٱلنَّبِيِّ مَخْصُوصَةٌ كَٱلصُّعُودِ إِلى ٱلسَّمَاءِ وَٱلنُّفُوذِ فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلْكَثِيفَةِ وَإِحْيَاءِ ٱلْمَوْتَى وَتَكْلِيمِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلطَّيَرَانِ

في الهواء وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء ويأتي النبي بجميع خوارقه ولا يقدر هو على مثل خوارق الأنبياء وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه في طريقتهم ولقنوه عمن أخبرهم وإذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحي إلي فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر لوضوحها فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة

ولنذكر الان تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين
ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم شان العرافين
وغير ذلك من من مدارك الغيب فنقول

إعلم . أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني وأولاً عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً ويستحيل بعض الأوقات والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط وبها

يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك تشهد كلها بأن لها مؤثراً مباينا للأجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها ولذلك هو النفس المدركة والمحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضاً ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعقلاً محضاً وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات في لمحة من اللمحات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل وهي متصلة بالبدن من أسفل منها وتكتسب به المدارك الحسية التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية فإن عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها أما الفاعلية فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية

بالبَدَنِ مُتَدَافِعاً وَأَمَّا ٱلمُدْرِكَةُ وَإِنْ كَانَتْ قُوَى ٱلإِدْرَاكِ مُرَتَّبَةً وَمُرْتَقِيَةً إِلَى ٱلقُوَّةِ ٱلعُلْيَا مِنهَا وَمِنَ ٱلمُفَكِّرَةِ ٱلَّتِي يُعَبَّرُ عَنهَا بِالنَّاطِقَةِ فَقُوَى ٱلحِسِّ ٱلظَّاهِرَةُ بِآلَاتِهِ مِنَ ٱلسَّمْعِ وَٱلبَصَرِ وَسَائِرُهَا يَرْتَقِي إِلَى ٱلبَاطِنِ وَأَوَّلُهُ ٱلحِسُّ ٱلمُشْتَرَكُ وَهُوَ قُوَّةٌ تُدْرِكُ ٱلمَحْسُوسَاتِ مُبْصِرَةً وَمَسْمُوعَةً وَمَلْمُوسَةً وَغَيْرَهَا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وَبِذَٰلِكَ فَارَقَتْ قُوَّةَ ٱلحِسِّ ٱلظَّاهِرِ لِأَنَّ ٱلمَحْسُوسَاتِ لا تَزْدَحِمُ عَلَيْهَا فِي ٱلوَقْتِ ٱلوَاحِدِ ثُمَّ يُؤَدِّيهِ ٱلحِسُّ ٱلمُشْتَرَكُ إِلَى ٱلخَيَالِ وَهِيَ قُوَّةٌ تُمَثِّلُ ٱلشَّيْءَ ٱلمَحْسُوسَ فِي ٱلنَّفْسِ كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ ٱلمَوَادِّ ٱلخَارِجَةِ فَقَطْ وَآلَةُ هَاتَيْنِ ٱلقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيفِهِمَا ٱلبَطْنُ ٱلأَوَّلُ مِنَ ٱلدِّمَاغِ مُقَدَّمُهُ لِلْأُولَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلثَّانِيَةِ ثُمَّ يَرْتَقِي ٱلخَيَالُ إِلَى ٱلوَاهِمَةِ وَٱلحَافِظَةِ فَٱلوَاهِمَةُ لِإِدْرَاكِ ٱلمَعَانِي ٱلمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ كَعَدَاوَةِ زَيْدٍ وَصَدَاقَةِ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ ٱلأَبِ وَٱفْتِرَاسِ ٱلذِّئْبِ وَٱلحَافِظَةُ لِإِيدَاعِ ٱلمُدْرَكَاتِ كُلِّهَا مُتَخَيَّلَةً وَهِيَ لَهَا كَٱلخِزَانَةِ تَحْفَظُهَا لِوَقْتِ ٱلحَاجَةِ إِلَيْهَا وَآلَةُ هَاتَيْنِ ٱلقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيفِهِمَا ٱلبَطْنُ ٱلمُؤَخَّرُ مِنَ ٱلدِّمَاغِ أَوَّلُهُ لِلْأُولَى وَمُؤَخَّرُهُ لِلْأُخْرَى ثُمَّ تَرْتَقِي جَمِيعُهَا إِلَى قُوَّةِ ٱلفِكْرِ وَآلَتُهُ ٱلبَطْنُ ٱلأَوْسَطُ مِنَ ٱلدِّمَاغِ وَهِيَ ٱلقُوَّةُ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا حَرَكَةُ ٱلرُّؤْيَةِ وَٱلتَّوَجُّهُ نَحْوَ ٱلتَّعَقُّلِ فَتُحَرِّكُ ٱلنَّفْسُ بِهَا دَائِماً لِمَا رُكِّبَ فِيهَا مِنَ ٱلنُّزُوعِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ دَرَكِ ٱلقُوَّةِ وَٱلِاسْتِعْدَادِ ٱلَّذِي لِلْبَشَرِيَّةِ وَتَخْرُجُ إِلَى ٱلفِعْلِ فِي تَعَقُّلِهَا مُتَشَبِّهَةً بِٱلمَلَإِ ٱلأَعْلَى ٱلرُّوحَانِيِّ وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ فِي إِدْرَاكِهَا بِغَيْرِ ٱلآلَاتِ ٱلجِسْمَانِيَّةِ فَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِماً وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَٰلِكَ وَقَدْ تَنْسَلِخُ بِٱلكُلِّيَّةِ مِنَ ٱلبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى ٱلمَلَكِيَّةِ مِنَ ٱلأُفُقِ ٱلأَعْلَى مِنْ غَيْرِ ٱكْتِسَابٍ بَلْ بِمَا جَعَلَ ٱللهُ فِيهَا مِنَ ٱلجِبِلَّةِ وَٱلفِطْرَةِ ٱلأُولَى فِي ذَٰلِكَ وَٱلنُّفُوسُ ٱلبَشَرِيَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ صِنْفٌ عَاجِزٌ بِٱلطَّبْعِ عَنِ ٱلوُصُولِ فَيَنْقَطِعُ بِٱلحَرَكَةِ إِلَى ٱلجِهَةِ ٱلسُّفْلَى نَحْوَ ٱلمَدَارِكِ ٱلحِسِّيَّةِ وَٱلخَيَالِيَّةِ وَتَرْكِيبِ ٱلمَعَانِي مِنَ ٱلحَافِظَةِ وَٱلوَاهِمَةِ عَلَى قَوَانِينَ مَحْصُورَةٍ وَتَرْتِيبٍ خَاصٍّ يَسْتَفِيدُونَ بِهِ ٱلعُلُومَ ٱلتَّصَوُّرِيَّةَ وَٱلتَّصْدِيقِيَّةَ ٱلَّتِي لِلْفِكْرِ فِي ٱلبَدَنِ وَكُلُّهَا خَيَالِيٌّ مُنْحَصِرٌ نِطَاقُهُ إِذْ هُوَ مِنْ جِهَةِ مَبْدَإِهِ يَنْتَهِي إِلَى ٱلأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا وَإِنْ فَسَدَ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا وَهٰذَا هُوَ فِي ٱلأَغْلَبِ نِطَاقُ ٱلإِدْرَاكِ ٱلبَشَرِيِّ ٱلجِسْمَانِيِّ وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي مَدَارِكُ ٱلعُلَمَاءِ وَفِيهِ تَرْسَخُ أَقْدَامُهُمْ وَصِنْفٌ مُتَوَجِّهٌ بِتِلْكَ ٱلحَرَكَةِ ٱلفِكْرِيَّةِ نَحْوَ ٱلعَقْلِ ٱلرُّوحَانِيِّ وَٱلإِدْرَاكِ ٱلَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى ٱلآلَاتِ ٱلبَدَنِيَّةِ بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ ٱلِاسْتِعْدَادِ

لذلكَ فيتَّسعُ نِطَاقُ إدراكهِ عن الأوَّلياتِ الَّتي هيَ نطاقُ الإدراكِ الأوَّلِ البَشَرِي وَيَسرَحُ في فَضاءِ المُشاهَداتِ الباطِنيَّةِ وَهيَ وِجدانٌ كُلُّها نِطاقٌ لها مِنْ مَبْدَإِها ولا مِن منتَهاها وَهذهِ مَدارِكُ العُلَماءِ الأَوْلياءِ أَهلِ العُلومِ الدِّينيَّةِ والمَعارفِ الرَّبَّانيَّةِ وَهي الحاصِلَةُ بَعدَ المَوتِ لِأَهلِ السَّعادَةِ في البَرزَخِ وَصِنفٍ مَفطُورٍ عَلَى الانسِلاخِ مِن البَشَرِيَّةِ جُمْلَةً جِسمانِيَّتِها وَرُوحانِيَّتِها إلى المَلائكةِ مِنَ الأُفقِ الأَعلَى لِيَصيرَ في لَمحَةٍ مِنَ اللَّمَحاتِ مَلَكاً بالفِعلِ وَيَحصُلُ لهُ شُهودُ المَلَإِ الأَعلَى في أُفقِهِم وَسَماعُ الكَلامِ النَّفسانِيِّ وَالخِطابِ الإلهِيِّ في تِلكَ اللَّمحَةِ وَهؤلاءِ الأَنبياءُ صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِم جَعَلَ اللهُ لَهُمُ الانسِلاخَ مِنَ البَشَرِيَّةِ في تِلكَ اللَّمحَةِ وَهيَ حالَةُ الوَحيِ فِطرَةً فَطَرَهُمُ اللهُ عَلَيها وَجِبِلَّةً صَوَّرَهُم فيها وَنَزَّهَهُم عَن مَوانِعِ البَدَنِ وَعَوائِقِهِ ما دامُوا مُلابِسينَ لَها بِالبَشَرِيَّةِ بِما رُكِّبَ في غَرائِزِهِم مِنَ القَصدِ وَالاستِقامَةِ الَّتي يُحاذُونَ بِها تِلكَ الوِجهَةَ وَرُكِّزَ في طَبائِعِهِم رَغبَةٌ في العِبادَةِ تُكشَفُ بِتِلكَ الوِجهَةِ وَتُسيغُ نَحوَها فَهُم يَتَوَجَّهونَ إلى ذلكَ الأُفقِ بِذلكَ النَّوعِ مِنَ الانسِلاخِ مَتَى شاءُوا بِتِلكَ الفِطرَةِ الَّتي فُطِرُوا عَلَيها لا بِاكتِسابٍ وَلا صِناعَةٍ فَلِذا تَوَجَّهوا وَانسَلَخوا عَن بَشَرِيَّتِهِم وَتَلَقَّوا في ذلكَ المَلَإِ الأَعلَى ما يَتَلَقَّونَهُ عاجُوا بِهِ عَلَى المَدارِكِ البَشَرِيَّةِ مُنَزَّلاً في قُواها لِحِكمَةِ التَّبليغِ لِلعِبادِ فَتارَةً يَسمَعُ أَحَدُهُم دَوِيّاً كَأَنَّهُ رَمزٌ مِنَ الكَلامِ يَأخُذُ مِنهُ المَعنَى الَّذي أُلقِيَ إلَيهِ فَلا يَنقَضي الدَّوِيُّ إلَّا وَقَد وَعاهُ وَفَهِمَهُ وَتارَةً يَتَمَثَّلُ لَهُ المَلَكُ الَّذي يُلقي إلَيهِ رَجُلاً فَيُكَلِّمُهُ وَيَعي ما يَقولُهُ وَالتَّلَقِّي مِنَ المَلَكِ وَالرُّجوعُ إلى المَدارِكِ البَشَرِيَّةِ وَفَهمُهُ ما أُلقِيَ عَلَيهِ كُلُّهُ كَأَنَّهُ في لَحظَةٍ وَاحِدَةٍ بَل أَقرَبَ مِن لَمحِ البَصَرِ لِأَنَّهُ لَيسَ في زَمانٍ بَل كُلُّها تَقَعُ جَميعاً فَيَظهَرُ كَأَنَّها سَريعَةٌ وَلِذلكَ سُمِّيَت وَحياً لِأَنَّ الوَحيَ في اللُّغَةِ الإسراعُ وَاعلَم أَنَّ الأُولَى وَهيَ حالَةُ الدَّوِيِّ هِيَ رُتبَةُ الأَنبياءِ غَيرِ المُرسَلينَ عَلَى ما حَقَّقُوهُ وَالثَّانِيَةُ وَهيَ حالَةُ تَمَثُّلِ المَلَكِ رَجُلاً يُخاطِبُ هِيَ رُتبَةُ الأَنبياءِ المُرسَلينَ وَلِذلكَ كانَت أَكمَلَ مِنَ الأُولَى وَهذا مَعنَى الحَديثِ الَّذي فَسَّرَ فيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ الوَحيَ لَمَّا سَأَلَهُ الحارِثُ بنُ هِشامٍ وَقالَ كَيفَ يَأتيكَ الوَحيُ فَقالَ أَحياناً يَأتيني مِثلَ صَلصَلَةِ الجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفصَمُ عَنِّي وَقَد وَعَيتُ ما قالَ وَأَحياناً يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ فَيُكَلِّمُني فَأَعي ما يَقولُ. وَإِنَّما كانَتِ الأُولَى أَشَدَّ لِأَنَّها مَبدَأُ الخُروجِ في ذلكَ الاتِّصالِ مِنَ القُوَّةِ إلى الفِعلِ

فيعسُرُ بعضَ العُسْرِ ولذلكَ لمَّا عاجَ فيها على المداركِ البشريَّةِ اختصَّتْ بالسَّمعِ وصعُب ما سِواهُ وعندَ ما يتكرَّرُ الوحيُ ويكثُرُ التلقّي يسهُلُ ذلكَ الاتّصالُ فعندَ ما يُعرَجُ إلى المداركِ البشريَّةِ يأتي على جميعِها وخصوصاً الأوضحِ منها وهوَ إدراكُ البصرِ وفي العبارةِ عنِ الوعيِ في الأولى بصيغةِ الماضي وفي الثانيةِ بصيغةِ المضارعِ لطيفةٌ منَ البلاغةِ وهيَ أنَّ الكلامَ جاءَ مجيءَ التمثيلِ لحالَتَي الوحيِ فمثَّلَ الحالةَ الأولى بالدويِّ الذي هوَ في المتعارفِ غيرُ كلامٍ وأخبرَ أنَّ الفهمَ والوعيَ يتبعُهُ غِبَّ انقضائِهِ فناسبَ عندَ تصويرِ انقضائِهِ وانفصالِهِ العبارةَ عنِ الوعيِ بالماضي المطابقِ للانقضاءِ والانقطاعِ ومثَّلَ الملَكَ في الحالةِ الثانيةِ برجلٍ يخاطبُ ويتكلَّمُ والكلامُ يساوقُهُ الوعيُ فناسبَ العبارةَ بالمضارعِ المقتضي للتجدُّدِ. واعلمْ أنَّ في حالةِ الوحيِ كلِّها صعوبةً على الجملةِ وشدَّةً قدْ أشارَ إليها القرآنُ قالَ تعالى إنّا سنُلقي عليكَ قولاً ثقيلا وقالتْ عائشةُ كانَ ممّا يعاني منَ التنزيلِ شدَّةٌ وقالتْ كانَ يُنزَّلُ عليهِ الوحيُ في اليومِ الشديدِ البردِ فيُفصَمُ عنهُ وإنَّ جبينَهُ ليتفصَّدُ عرقاً. ولذلكَ كانَ يحدُثُ عنهُ في تلكَ الحالةِ منَ الغيبةِ والغطيطِ ما هوَ معروفٌ وسببُ ذلكَ أنَّ الوحيَ كما قرَّرنا مفارقةُ البشريَّةِ إلى المداركِ الملكيَّةِ وتلقّي كلامِ النفسِ فيحدُثُ عنهُ شدَّةٌ منْ مفارقةِ الذاتِ ذاتَها وانسلاخِها عنها منْ أفقِها إلى ذلكَ الأفقِ الآخرِ وهذا هوَ معنى الغطِّ الذي عبَّرَ بهِ في مبدإِ الوحيِ في قولِهِ فغطَّني حتّى بلغَ منّي الجهدُ ثمَّ أرسلَني فقالَ اقرأْ فقلتُ ما أنا بقارئٍ وكذا ثانيةً وثالثةً كما في الحديثِ وقدْ يُفضي الاعتيادُ بالتدريجِ فيهِ شيئاً فشيئاً إلى بعضِ السهولةِ بالقياسِ إلى ما قبلَهُ ولذلكَ كانَ تنزُّلُ نجومِ القرآنِ وسُوَرِهِ وآيِهِ حينَ كانَ بمكَّةَ أقصرَ منها وهوَ بالمدينةِ وانظرْ إلى ما نُقلَ في نزولِ سورةِ براءةَ في غزوةِ تبوكَ وأنَّها نزلتْ كلُّها أوْ أكثرُها عليهِ وهوَ يسيرُ على ناقتِهِ بعدَ أنْ كانَ بمكَّةَ يُنزَّلُ عليهِ بعضُ السورةِ منْ قصارِ المفصَّلِ في وقتٍ ويُنزَّلُ الباقي في حينٍ آخرَ وكذلكَ كانَ آخرُ ما نزلَ بالمدينةِ آيةُ الدَّينِ وهيَ ما هيَ في الطولِ بعدَ أنْ كانتِ الآيةُ تنزلُ بمكَّةَ مثلَ آياتِ الرحمنِ والذارياتِ والمدثِّرِ والضحى والفلقِ وأمثالِها واعتبرْ منْ ذلكَ علامةً تميِّزُ بها بينَ المكّيِّ والمدنيِّ منَ السورِ والآياتِ واللهُ المرشدُ إلى الصوابِ. هذا محصَّلُ أمرِ النبوَّةِ وأمَّا الكهانةُ فهيَ أيضـ

من خواص النفس الإنسانية وذلك أنه قد تقدم لنا في جميع ما مر أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر في صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الأمور إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجوداً في الطبيعة البشرية فيعطى التقسيم العقلي وإن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل لأن عدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما فإذا أعطي تقسيم الوجود إلى هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالمشيع له وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكليات ولذلك تكون المخيلة فيهم في غاية القوة لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاً تاماً في نوم أو يقظة وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المخيلة وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيهجس في قلبه عن تلك الحركة والذي يشيعها من ذلك الأجنبي ما يقذفه على لسانه فربما صدق ووافق الحق وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ولا يكون موثوقاً به وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه وتمويهاً على السائلين وأصحاب هذا السجع هم

ٱلْمَخْصُوصُونَ بِٱسْمِ ٱلْكُهَّانِ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مِثْلِهِ هٰذَا مِنْ سَجْعِ ٱلْكُهَّانِ فَجَعَلَ ٱلسَّجْعَ مُخْتَصًّا بِهِمْ بِمُقْتَضَى ٱلْإِضَافَةِ وَقَدْ قَالَ لِٱبْنِ صَيَّادٍ حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ حَالِهِ بِٱلْأَخْبَارِ كَيْفَ يَأْتِيكَ هٰذَا ٱلْأَمْرُ قَالَ يَأْتِينِي صَادِقًا وَكَاذِبًا فَقَالَ خُلِطَ عَلَيْكَ ٱلْأَمْرُ يَعْنِي أَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ خَاصَّتُهَا ٱلصِّدْقُ فَلَا يَعْتَرِيهَا ٱلْكَذِبُ بِحَالٍ لِأَنَّهَا ٱتِّصَالٌ مِنْ ذَاتِ ٱلنَّبِيِّ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ مُشَيِّعٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ بِأَجْنَبِيٍّ وَٱلْكَهَانَةُ لِمَا ٱحْتَاجَ صَاحِبُهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى ٱلْاسْتِعَانَةِ بِٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْأَجْنَبِيَّةِ كَانَتْ دَاخِلَةً فِي إِدْرَاكِهِ وَٱلْتَبَسَتْ بِٱلْإِدْرَاكِ ٱلَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَصَارَ مُخْتَلِطًا بِهَا وَطَرَقَهُ ٱلْكَذِبُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ فَٱمْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ نُبُوَّةً وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ أَرْفَعَ مَرَاتِبِ ٱلْكَهَانَةِ حَالَةُ ٱلسَّجْعِ لِأَنَّ مَعْنَى ٱلسَّجْعِ أَخَفُّ مِنْ سَائِرِ ٱلْمُغَيَّبَاتِ مِنَ ٱلْمَرْئِيَّاتِ وَٱلْمَسْمُوعَاتِ وَتَدُلُّ خِفَّةُ ٱلْمَعْنَى عَلَى قُرْبِ ذٰلِكَ ٱلْإِتِّصَالِ وَٱلْإِدْرَاكِ وَٱلْبُعْدِ فِيهِ عَنِ ٱلْعَجْزِ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ ٱلنَّاسِ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْكَهَانَةَ قَدِ ٱنْقَطَعَتْ مُنْذُ زَمَنِ ٱلنُّبُوَّةِ بِمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ رَجْمِ ٱلشَّيَاطِينِ بِٱلشُّهُبِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْبَعْثَةِ وَأَنَّ ذٰلِكَ كَانَ لِمَنْعِهِمْ مِنْ خَبَرِ ٱلسَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱلْكُهَّانُ إِنَّمَا يَتَعَرَّفُونَ أَخْبَارَ ٱلسَّمَاءِ مِنَ ٱلشَّيَاطِينِ فَبَطَلَتِ ٱلْكَهَانَةُ مِنْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَقُومُ مِنْ ذٰلِكَ دَلِيلٌ لِأَنَّ عُلُومَ ٱلْكُهَّانِ كَمَا تَكُونُ مِنَ ٱلشَّيَاطِينِ تَكُونُ مِنْ نُفُوسِهِمْ أَيْضًا كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَأَيْضًا فَٱلْآيَةُ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَنْعِ ٱلشَّيَاطِينِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنْ أَخْبَارِ ٱلسَّمَاءِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَبَرِ ٱلْبَعْثَةِ وَلَمْ يُمْنَعُوا مِمَّا سِوَى ذٰلِكَ وَأَيْضًا فَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلْإِنْقِطَاعُ بَيْنَ يَدَيِ ٱلنُّبُوَّةِ فَقَطْ وَلَعَلَّهَا عَادَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَهٰذَا هُوَ ٱلظَّاهِرُ لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْمَدَارِكَ كُلَّهَا تَخْمُدُ فِي زَمَنِ ٱلنُّبُوَّةِ كَمَا تَخْمُدُ ٱلْكَوَاكِبُ وَٱلسُّرُجُ عِنْدَ وُجُودِ ٱلشَّمْسِ لِأَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ هِيَ ٱلنُّورُ ٱلْأَعْظَمُ ٱلَّذِي يَخْفَى مَعَهُ كُلُّ نُورٍ وَيَذْهَبُ. وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ أَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ بَيْنَ يَدَيِ ٱلنُّبُوَّةِ ثُمَّ تَنْقَطِعُ وَهٰكَذَا كُلُّ نُبُوَّةٍ وَقَعَتْ لِأَنَّ وُجُودَ ٱلنُّبُوَّةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَضْعٍ فَلَكِيٍّ يَقْتَضِيهِ وَفِي تَمَامِ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعِ تَمَامُ تِلْكَ ٱلنُّبُوَّةِ ٱلَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا وَنَقْصُ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعِ عَنِ ٱلتَّمَامِ يَقْتَضِي وُجُودَ طَبِيعَةٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ نَاقِصَةً وَهُوَ مَعْنَى ٱلْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ فَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ ٱلْكَامِلُ يَقَعُ ٱلْوَضْعُ ٱلنَّاقِصُ وَيَقْتَضِي وُجُودَ ٱلْكَاهِنِ إِمَّا وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا فَإِذَا تَمَّ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ تَمَّ وُجُودُ ٱلنَّبِيِّ بِكَمَالِهِ وَٱنْقَضَتِ ٱلْأَوْضَاعُ

الدَّالَّةُ على مِثْلِ تِلْكَ الطَّبِيعةِ فَلا يُوجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدُ وَهٰذا بِناءٌ عَلى أَنَّ بَعْضَ الوَضْعِ الفَلَكِيِّ يَقْتَضِي بَعْضَ أَثَرِهِ وَهُوَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ. فَلَعَلَّ الوَضْعَ إِنَّمَا يَقْتَضِي ذٰلِكَ الأَثَرَ بِهَيْئَتِهِ الخَالِصَةِ وَلَوْ نَقَصَ بَعْضُ أَجزائِهَا فَلا يَقْتَضِي شَيْئاً لا إِنَّهُ يَقْتَضِي ذٰلِكَ الأَثَرَ نَاقِصاً كَمَا قالُوهُ ثُمَّ إِنَّ هٰؤُلاءِ الكُهَّانَ إِذا عَاصَرُوا زَمَنَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُمْ عَارِفُونَ بِصِدْقِ النَّبِيِّ وَدِلالَةِ مُعْجِزَتِهِ لِأَنَّ لَهُمْ بَعْضَ الوِجْدَانِ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ كَمَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَمْرِ النَّوْمِ وَمَعْقُولِيَّةُ تِلْكَ النِّسْبَةِ مَوْجُودَةٌ لِلْكَاهِنِ بِأَشَدَّ مِمَّا لِلنَّائِمِ وَلا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذٰلِكَ وَيُوقِعُهُمْ فِي التَّكْذِيبِ إِلَّا قُوَّةُ المَطَامِعِ فِي أَنَّهَا نُبُوَّةٌ لَهُمْ فَيَقَعُونَ فِي العِنَادِ كَمَا وَقَعَ لِأُمَيَّةَ ابْنِ أَبِي الصَّلْتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَتَنَبَّأَ وَكَذَا وَقَعَ لِابْنِ صَيَّادٍ وَلِمُسَيْلَمَةَ وَغَيْرِهِم فَإِذَا غَلَبَ الإِيمَانُ وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الأَمَانِيُّ آمَنُوا أَحسَنَ إِيمَانٍ كَمَا وَقَعَ لِطُلَيْحَةَ الأَسَدِي وَسَوَادِ بْنِ قَارِبٍ وَكَانَ لَهُمَا فِي الفُتُوحَاتِ الإِسْلامِيَّةِ مِنَ الآثَارِ الشَّاهِدَةِ بِحُسْنِ الإِيمَانِ . وَأَمَّا الرُّؤْيَا فَحَقِيقَتُهَا مُطَالَعَةُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ فِي ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ لَمْحَةً مِنْ صُوَرِ الوَاقِعَاتِ فَإِنَّهَا عِنْدَمَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً تَكُونُ صُوَرُ الوَاقِعَاتِ فِيهَا مَوْجُودَةً بِالفِعْلِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الذَّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ كُلِّهَا وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً بِأَنْ تَتَجَرَّدَ عَنِ المَوَادِّ الجِسْمَانِيَّةِ وَالمَدَارِكِ البَدَنِيَّةِ وَقَدْ يَقَعُ لَهَا ذٰلِكَ لَمْحَةً بِسَبَبِ النَّوْمِ كَمَا نَذْكُرُ فَتَقْتَبِسُ بِهَا عِلْمَ مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ مِنَ الأُمُورِ المُسْتَقْبَلَةِ وَتَعُودُ بِهِ إِلى مَدَارِكِهَا فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ الاقْتِبَاسُ ضَعِيفاً وَغَيْرَ جَلِيٍّ بِالمُحَاكَاةِ وَالمِثَالِ فِي الخَيَالِ لِتَخَلُّصِهِ فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجلِ هٰذِهِ المُحَاكَاةِ إِلى التَّعْبِيرِ وَقَدْ يَكُونُ الاقْتِبَاسُ قَوِيّاً يُسْتَغْنَى فِيهِ عَنِ المُحَاكَاةِ فَلا يَحْتَاجُ إِلى تَعْبِيرٍ لِخُلُوصِهِ مِنَ المِثَالِ وَالخَيَالِ وَالسَّبَبُ فِي وُقُوعِ هٰذِهِ اللَّمْحَةِ لِلنَّفْسِ أَنَّهَا ذَاتٌ رُوحَانِيَّةٌ بِالقُوَّةِ مُسْتَكْمِلَةٌ بِالبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ حَتَّى تَصِيرَ ذَاتُهَا تَعَقُّلاً مَحْضاً وَيَكْمُلَ وُجُودُهَا بِالفِعْلِ فَتَكُونَ حِينَئِذٍ ذَاتاً رُوحَانِيَّةً مُدْرِكَةً بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ الآلاتِ البَدَنِيَّةِ إِلاَّ أَنَّ نَوْعَهَا فِي الرُّوحَانِيَّاتِ دُونَ نَوْعِ المَلائِكَةِ أَهْلِ الأُفُقِ الأَعْلَى عَلى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا ذَوَاتِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ مَدَارِكِ البَدَنِ وَلا غَيْرِهِ فَهٰذَا الاسْتِعْدَادُ حَاصِلٌ لَهَا مَا دَامَتْ فِي البَدَنِ وَمِنْهُ خَاصٌّ كَالَّذِي لِلأَوْلِيَاءِ وَمِنْهُ عَامٌّ لِلْبَشَرِ عَلَى العُمُومِ وَهُوَ أَمْرُ الرُّؤْيَا وَأَمَّا الَّذِي لِلأَنْبِيَاءِ فَهُوَ اسْتِعْدَادٌ بِالانْسِلاخِ مِنَ البَشَرِيَّةِ إِلى المَلَكِيَّةِ المَحْضَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الرُّوحَانِيَّاتِ وَيَخْرُجُ هٰذَا الاسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّراً فِي حَالاتِ الوَحْيِ وَهُوَ عِنْدَمَا

يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الإدراك شبيهاً بحال النوم شبهاً بيناً وإن كان حال النوم أدون منه بكثير فلأجل هذا الشبه عبّر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وفي رواية ثلاثة وأربعين وفي رواية سبعين وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات وإنما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وما ذهب إليه بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبدإه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق لأنه إنما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء مع أن ذلك إنما يعطي نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطي حقيقتها من حقيقة النبوة وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري لهم صلوات الله عليهم إذ هو الاستعداد البعيد وإن كان عاماً في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه في عالم الحق فتدرك في بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما في كتب التشريح لجالينوس وغيره وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدل من برده وتتم أفعال القوى التي في بطونه فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخاري وهي متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين في أن اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية

صار محلا لآثار الذات المباينة له في جسمانيته وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته وقد كنا قدمنا أن إدراكها على نوعين إدراك بالظاهر وهو الحواس الخمس وإدراك بالباطن وهو القوى الدماغية وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتغشي الروح بكثرة التصرف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه إلى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره إلى باطنه فتكون مشيعة مركبها وهو الروح الحيواني إلى الباطن ولذلك كان النوم للبشر في الغالب إنما هو بالليل فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بإدراكها الروحاني لأنها مفطورة عليه وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي أضغاث أحلام وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلي من الله والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم وهي خواص للنفس الإنسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم بل كل واحد من الإنساني رأى في نومه ما صدر

لَهُ في يَقْظَتِهِ مِرَاراً غَيْرَ وَاحِدَةٍ وَحَصَلَ لَهُ عَلى ٱلْقَطْعِ أَنَّ ٱلنَّفْسَ مُدْرِكَةٌ لِلْغَيْبِ في ٱلنَّوْمِ وَلاَ بُدَّ وَإِذَا جَازَ ذٰلِكَ في عَالَمِ ٱلنَّوْمِ فَلا يَمْتَنِعُ في غَيْرِهِ مِنَ ٱلأَحوالِ لِأَنَّ ٱلذَّاتَ ٱلْمُدْرِكَةَ وَاحِدَةٌ وَخَوَاصُّهَا عَامَّةٌ في كُلِّ حَالٍ وَٱللّٰهُ ٱلْهَادِي إِلى ٱلْحَقِّ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ

فَصْلٌ * وَوُقُوعُ مَا يَقَعُ لِلْبَشَرِ مِنْ ذٰلِكَ غَالِباً إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلاَ قُدْرَةٍ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا تَكُونُ ٱلنَّفْسُ مُتَشَوِّفَةً لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فَيَقَعُ لَهَا بِتِلْكَ ٱللَّمْحَةِ في ٱلنَّوْمِ لِأَنَّهَا تَقْصِدُ إِلى ذٰلِكَ فَتَرَاهُ وَقَدْ وَقَعَ في كِتَابِ ٱلْغَايَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ ٱلرِّيَاضِيَّاتِ ذِكْرُ أَسْمَاءٍ تُذْكَرُ عِنْدَ ٱلنَّوْمِ فَتَكُونُ عَنْهَا ٱلرُّؤْيَا فِيمَا يُتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَيُسَمُّونَهَا ٱلْحَالُومِيَّةَ وَذَكَرَ مِنْهَا مَسْلَمَةُ في كِتَابِ ٱلْغَايَةِ حَالُومَةً سَمَّاهَا حَالُومَةَ ٱلطِّبَاعِ ٱلتَّامِّ وَهُوَ أَنْ يُقَالَ عِنْدَ ٱلنَّوْمِ بَعْدَ فَرَاغِ ٱلسِّرِّ وَصِحَّةِ ٱلتَّوَجُّهِ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتُ ٱلأَعْجَمِيَّةُ وَهِيَ تماغس بعد ان يسواد وغداس نوفنا غادس وَيَذْكُرُ حَاجَتَهُ فَإِنَّهُ يَرَى ٱلْكَشْفَ عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ في ٱلنَّوْمِ * وَحُكِيَ أَنَّ رَجُلاً فَعَلَ ذٰلِكَ بَعْدَ رِيَاضَةِ لَيَالٍ في مَأْكَلِهِ وَذِكْرِهِ فَتَمَثَّلَ لَهُ شَخْصٌ يَقُولُ لَهُ أَنَا طِبَاعُكَ ٱلتَّامُّ فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ عَمَّا كَانَ يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ وَقَدْ وَقَعَ لِي أَنَا بِهٰذِهِ ٱلأَسْمَاءِ مَرَاءٍ عَجِيبَةٌ وَٱطَّلَعْتُ بِهَا عَلى أُمُورٍ كُنْتُ أَتَشَوَّفُ عَلَيْهَا مِنْ أَحْوَالِي وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِدَلِيلٍ عَلى أَنَّ ٱلْقَصْدَ لِلرُّؤْيَا يُحْدِثُهَا وَإِنَّمَا هٰذِهِ ٱلْحَالُومَاتُ تُحْدِثُ ٱسْتِعْدَاداً في ٱلنَّفْسِ لِوُقُوعِ ٱلرُّؤْيَا فَإِذَا قَوِيَ ٱلاسْتِعْدَادُ كَانَ أَقْرَبَ إِلى حُصُولِ مَا يُسْتَعَدُّ لَهُ وَلِلشَّخْصِ أَنْ يَفْعَلَ مِنَ ٱلاسْتِعْدَادِ مَا أَحَبَّ وَلَا يَكُونُ دَلِيلاً عَلى إِيقَاعِ ٱلْمُسْتَعَدِّ لَهُ فَٱلْقُدْرَةُ عَلى ٱلاسْتِعْدَادِ غَيْرُ ٱلْقُدْرَةِ عَلى ٱلشَّيْءِ فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَتَدَبَّرْهُ فِيمَا تَجِدُ مِنْ أَمْثَالِهِ وَٱللّٰهُ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ

فَصْلٌ * ثُمَّ إِنَّا نَجِدُ في ٱلنَّوْعِ ٱلإِنْسَانِيِّ أَشْخَاصاً يُخْبِرُونَ بِٱلْكَائِنَاتِ قَبْلَ وُقُوعِهَا بِطَبِيعَةٍ فِيهِمْ يَتَمَيَّزُ بِهَا صِنْفُهُمْ عَنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ وَلَا يَرْجِعُونَ في ذٰلِكَ إِلى صِنَاعَةٍ وَلا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَثَرٍ مِنَ ٱلنُّجُومِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا إِنَّمَا نَجِدُ مَدَارِكَهُمْ في ذٰلِكَ بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ ٱلَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا وَذٰلِكَ مِثْلُ ٱلْعَرَّافِينَ وَٱلنَّاظِرِينَ في ٱلأَجْسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ كَٱلْمَرَايَا وَطِسَاسِ ٱلْمَاءِ وَٱلنَّاظِرِينَ في قُلُوبِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا وَعِظَامِهَا وَأَهْلِ ٱلزَّجْرِ في ٱلطَّيْرِ وَٱلسِّبَاعِ وَأَهْلِ ٱلطَّرْقِ بِٱلْحَصَى وَٱلْحُبُوبِ مِنَ ٱلْحِنْطَةِ وَٱلنَّوَى وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ في عَالَمِ ٱلإِنْسَانِ لاَ يَسَعُ أَحَداً جَحْدُهَا وَلَا إِنْكَارُهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْمَجَانِينُ يُلْقَى عَلى أَلْسِنَتِهِمْ

كلماتٌ مِنَ ٱلغَيبِ فَيُخبِرُونَ بِهَا وَكَذَلِكَ ٱلنَّائِمُ وَٱلمَيتُ لِأَوَّلِ مَوتِهِ أَو نَومِهِ يَتَكَلَّم بِٱلغَيبِ وَكَذَلِكَ أَهلُ ٱلرِّيَاضِيَّاتِ مِنَ ٱلمُتَصَوِّفَةِ لَهُم مَدَارِكُ فِي ٱلغَيبِ عَلَى سَبِيل ٱلكَرَامَةِ مَعرُوفَةٌ. وَنَحنُ ٱلآنَ نَتَكَلَّمُ عَن هَذِهِ ٱلإِدرَاكَاتِ كُلِّهَا وَنَبتَدِئُ مِنهَا بِٱلكَهَانَةِ ثُمَّ نَأتِي عَلَيهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً إِلَى آخِرِهَا وَنُقَدِّمُ عَلَى ذَلِكَ مُقَدِّمَةً فِي أَنَّ ٱلنَّفس ٱلإِنسَانِيَّةَ كَيفَ تَستَعِدُّ لِإِدرَاكِ ٱلغَيبِ فِي جَمِيعِ ٱلأَصنَافِ ٱلَّتِي ذَكَرنَاهَا وَذَلِكَ أَنَّهَا ذَاتٌ رُوحَانِيَّةٌ مَوجُودَةٌ بِٱلقُوَّةِ إِلَى ٱلفِعلِ بِٱلبَدَنِ وَأَحوَالِهِ وَهَذَا أَمرٌ مُدرَكٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَكُلُّ مَا بِٱلقُوَّةِ فَلَهُ مَادَّةٌ وَصُورَةٌ. وَصُورَةُ هَذِهِ ٱلنَّفسِ ٱلَّتِي بِهَا يَتِمُّ وُجُودُهَا هُوَ عَينُ ٱلإِدرَاكِ وَٱلتَّعَقُّلِ فَهِيَ تُوجَدُ أَوَّلاً بِٱلقُوَّةِ مُستَعِدَّةً لِلإِدرَاكِ وَقَبُولِ ٱلصُّوَرِ ٱلكُلِّيَّةِ وَٱلجُزئِيَّةِ ثُمَّ يَتِمُّ نُشُؤُهَا وَوُجُودُهَا بِٱلفِعلِ بِمُصَاحَبَةِ ٱلبَدَنِ وَمَا يَعُودُهَا بِوُرُودِ مُدرَكَاتِهَا ٱلمَحسُوسَةِ عَلَيهَا وَمَا تَنتَزِعُ مِن تِلكَ ٱلإِدرَاكَاتِ مِنَ ٱلمَعَانِي ٱلكُلِّيَّةِ فَتَتَعَقَّلُ ٱلصُّوَرَ مَرَّةً بَعدَ أُخرَى حَتَّى يَحصُلَ لَهَا ٱلإِدرَاكُ وَٱلتَّعَقُّلُ بِٱلفِعلِ فَتَتِمُّ ذَاتُهَا وَتَبقَى ٱلنَّفسُ كَٱلهَيُولَى وَٱلصُّوَرُ مُتَعَاقِبَةٌ عَلَيهَا بِٱلإِدرَاكِ وَاحِدَةً بَعدَ وَاحِدَةٍ وَلِذَلِكَ نَجِدُ ٱلصَّبِيَّ فِي أَوَّلِ نَشأَتِهِ لَا يَقدِرُ عَلَى ٱلإِدرَاكِ ٱلَّذِي لَهَا مِن ذَاتِهَا لَا بِنَومٍ وَلَا بِكَشفٍ وَلَا بِغَيرِهِمَا وَذَلِكَ أَنَّ صُورَتَهَا ٱلَّتِي هِيَ عَينُ ذَاتِهَا وَهِيَ ٱلإِدرَاكُ وَٱلتَّعَقُّلُ لَم تَتِمَّ بَعدُ بَل لَم يَتِمَّ لَهَا ٱنتِزَاعُ ٱلكُلِّيَّاتِ ثُمَّ إِذَا تَمَّت ذَاتُهَا بِٱلفِعلِ حَصَلَ لَهَا مَا دَامَت مَعَ ٱلبَدَنِ نَوعَانِ مِنَ ٱلإِدرَاكِ إِدرَاكٌ بِآلَاتِ ٱلجِسمِ تُؤَدِّيهِ إِلَيهَا ٱلمَدَارِكُ ٱلبَدَنِيَّةُ وَإِدرَاكٌ بِذَاتِهَا مِن غَيرِ وَاسِطَةٍ وَهِيَ مَحجُوبَةٌ عَنهُ بِٱلِانغِمَاسِ فِي ٱلبَدَنِ وَٱلحَوَاسِّ وَبِشَوَاغِلِهَا لِأَنَّ ٱلحَوَاسَّ أَبَداً جَاذِبَةٌ لَهَا إِلَى ٱلظَّاهِرِ بِمَا فُطِرَت عَلَيهِ أَوَّلاً مِنَ ٱلإِدرَاكِ ٱلجُسمَانِيِّ وَرُبَّمَا تَنغَمِسُ مِنَ ٱلظَّاهِرِ إِلَى ٱلبَاطِنِ فَيَرتَفِعُ حِجَابُ ٱلبَدَنِ لَحظَةً إِمَّا بِٱلخَاصِّيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ لِلإِنسَانِ عَلَى ٱلإِطلَاقِ مِثلَ ٱلنَّومِ أَو بِٱلخَاصِّيَّةِ ٱلمَوجُودَةِ لِبَعضِ ٱلبَشَرِ مِثلَ ٱلكَهَانَةِ وَٱلطَّرقِ أَو بِٱلرِّيَاضَةِ مِثلَ أَهلِ ٱلكَشفِ مِنَ ٱلصُّوفِيَّةِ فَتَلتَفِتُ حِينَئِذٍ إِلَى ٱلذَّوَاتِ ٱلَّتِي فَوقَهَا مِنَ ٱلمَلَإِ لِمَا بَينَ أُفُقِهَا وَأُفُقِهِم مِنَ ٱلِاتِّصَالِ فِي ٱلوُجُودِ كَمَا قَرَّرنَا قَبلُ وَتِلكَ ٱلذَّوَاتُ رُوحَانِيَّةٌ وَهِيَ إِدرَاكٌ مَحضٌ وَعُقُولٌ بِٱلفِعلِ وَفِيهَا صُوَرُ ٱلمَوجُودَاتِ وَحَقَائِقُهَا كَمَا مَرَّ فَيَتَجَلَّى فِيهَا شَيءٌ مِن تِلكَ ٱلصُّوَرِ وَتَقتَبِسُ مِنهَا عُلُوماً وَرُبَّمَا دُفِعَت تِلكَ ٱلصُّوَرُ ٱلمُدرَكَةُ إِلَى ٱلخَيَالِ فَيُصَرِّفُهُ فِي ٱلقَوَالِبِ ٱلمُعتَادَةِ ثُمَّ يُرَاجِعُ ٱلحِسَّ بِمَا أَدرَكَت إِمَّا مُجَرَّداً أَو فِي

قوالبه فتخبر به . هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي . ولنرجع إلى
ما وعدنا به من بيان أصنافه . فأما الناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس
المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من
قبيل الكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقتهم لأن الكاهن لا يحتاج في
رفع حجاب الحس إلى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها في
نوع واحد منها وأشرفها البصر فيعكف على المرئي البسيط حتى يبدو له مدركه
الذي يخبر به عنه وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرآة وليس
كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم
وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور هي مداركهم فيشيرون إليهم
بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفي أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو ما
أدركوه وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وإنما ينشأ
لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك وهو نفساني ليس من إدراك البصر بل
يتشكل به المدرك النفساني للحس كما هو معروف ومثل ذلك ما يعرض للناظرين
في قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك . وقد
شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما
أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون
لى إدراكه بالمثال والإشارة وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين والعالم
أبو الغرائب . وأما الزجر وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند
سنوح طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه وهي قوة في النفس تبعث على الحرص
والفكر فيما زجر فيه من مرئي أو مسموع وتكون قوته المخيلة كما قدمناه قوية
فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما كما تفعله القوة
المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس المرئي في يقظته وتجمعه
مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا . وأما المجانين فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن
لفساد أمزجتهم غالبا وضعف الروح الحيواني فيها فتكون نفسه غير مستغرقة في
الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص ومرضه وربما زاحمها على

ٱلتَّعَلُّقِ بِهِ رُوحَانِيَّةٌ أُخرَى شَيطَانِيَّةٌ تَتَشَبَّثُ بِهِ وَتَضعُفُ هٰذِهِ عَن مُتَابَعَتِهَا فَيَكُونُ عَنهُ ٱلتَّخَبُّطُ فَإِذَا أَصَابَهُ ذٰلِكَ ٱلتَّخَبُّطُ إِمَّا لِفَسَادِ مِزَاجِهِ مِنْ فَسَادٍ فِي ذَاتِهَا أَوْ لِمُزَاحَمَةٍ مِن ٱلنُّفُوسِ ٱلشَّيطَانِيَّةِ فِي تَعَلُّقِهِ غَابَ عَنْ حِسِّهِ جُملَةً فَأَدرَكَ لَمحَةً مِنْ عَالَمِ نَفسِهِ وَٱنطَبَعَ فِيهَا بَعضُ ٱلصُّوَرِ وَصَرَفَهَا ٱلخَيَالُ وَرُبَّمَا نَطَقَ عَنْ لِسَانِهِ فِي تِلكَ ٱلحَالِ مِنْ غَيرِ إِرَادَةِ ٱلنُّطقِ وَإِدرَاكُ هٰؤُلَاءِ كُلِّهِم مَشُوبٌ فِيهِ ٱلحَقُّ بِٱلبَاطِلِ لِأَنَّهُ لَا يَحصُلُ لَهُمُ ٱلِاتِّصَال وَإِنْ فَقَدُوا ٱلحِسَّ إِلَّا بَعدَ ٱلِاستِعَانَةِ بِٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلأَجنَبِيَّةِ كَمَا قَرَّرنَاهُ وَمِنْ ذٰلِكَ يَجِيءُ ٱلكَذِبُ فِي هٰذِهِ ٱلمَدَارِكِ وَأَمَّا ٱلعَرَّافُونَ فَهُمُ ٱلمُتَعَلِّقُونَ بِهٰذَا ٱلإِدرَاكِ وَلَيسَ لَهُم ذٰلِكَ ٱلِاتِّصَالُ فَيُسَلِّطُونَ ٱلفِكرَ عَلَى ٱلأَمرِ ٱلَّذِي يَتَوَجَّهُونَ إِلَيهِ وَيَأخُذُونَ فِيهِ بِٱلظَّنِّ وَٱلتَّخمِينِ بِنَاءً عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِن مَبَادِىءِ ذٰلِكَ ٱلِاتِّصَالِ وَٱلإِدرَاكِ وَيَدَّعُونَ بِذٰلِكَ مَعرِفَةَ ٱلغَيبِ وَلَيسَ مِنهُ عَلَى ٱلحَقِيقَةِ هٰذَا تَحصِيلُ هٰذِهِ ٱلأُمُورِ وَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيهَا ٱلمَسعُودِي فِي مُرُوجِ ٱلذَّهَبِ فَمَا صَادَفَ تَحقِيقاً وَلَا إِصَابَةً وَيَظهَرُ مِنْ كَلَامِ ٱلرَّجُلِ أَنَّهُ كَانَ بَعِيداً عَنِ ٱلرُّسُوخِ فِي ٱلمَعَارِفِ فَيَنقُلُ مَا سَمِعَ مِنْ أَهلِهِ وَمِن غَيرِ أَهلِهِ وَهٰذِهِ ٱلإِدرَاكَاتُ ٱلَّتِي ذَكَرنَاهَا مَوجُودَةٌ كُلُّهَا فِي نَوعِ ٱلبَشَرِ فَقَدْ كَانَ ٱلعَرَبُ يَفزَعُونَ إِلَى ٱلكُهَّانِ فِي تَعَرُّفِ ٱلحَوَادِثِ وَيَتَنَافَرُونَ إِلَيهِم فِي ٱلخُصُومَاتِ لِيُعَرِّفُوهُم بِٱلحَقِّ فِيهَا مِنْ إِدرَاكِ غَيبِهِم وَفِي كُتُبِ أَهلِ ٱلأَدَبِ كَثِيرٌ مِنْ ذٰلِكَ وَٱشتَهَرَ مِنهُم فِي ٱلجَاهِلِيَّةِ شِقُّ بْنُ أَنمَار ٱبنِ نِزَارٍ وَسَطِيحُ بْنُ مَازِنِ بْنِ غَسَّانَ وَكَانَ يُدرَجُ كَمَا يُدرَجُ ٱلثَّوبُ وَلَا عَظمَ فِيهِ إِلَّا ٱلجُمجُمَةُ وَمِنْ مَشهُورِ ٱلحِكَايَاتِ عَنهُمَا تَأوِيلُ رُؤيَا رَبِيعَةَ بْنِ مُضَرَ وَمَا أَخبَرَاهُ بِهِ مِلكُ ٱلحَبَشَةِ لِليَمَنِ وَمُلكُ مُضَرَ مِنْ بَعدِهِم وَظُهُورِ ٱلنُّبُوَّةِ ٱلمُحَمَّدِيَّةِ فِي قُرَيشٍ وَرُؤيَا ٱلمُوبَذَانِ ٱلَّتِي أَوَّلَهَا سَطِيحٌ لَمَّا بَعَثَ إِلَيهِ بِهَا كِسرَى عَبدَ ٱلمَسِيحِ فَأَخبَرَهُ بِشَأنِ ٱلنُّبُوَّةِ وَخَرَابِ مُلكِ فَارِسَ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَشهُورَةٌ وَكَذٰلِكَ ٱلعَرَّافُونَ كَانَ فِي ٱلعَرَبِ مِنهُم كَثِيرٌ وَذَكَرُوهُم فِي أَشعَارِهِم قَالَ

فَقُلتُ لِعَرَّافِ ٱليَمَامَةِ دَاوِنِي ... فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيتَنِي لَطَبِيبُ

وقال الآخر

جَعَلتُ لِعَرَّافِ ٱليَمَامَةِ حُكمَهُ ... وَعَرَّافِ نَجدٍ إِنْ هُمَا شَفَيَانِي

فَقَالَا شَفَاكَ ٱللهُ وَٱللهِ مَا لَنَا ... بِمَا حُمِّلَتْ مِنكَ ٱلضُّلُوعُ يَدَانِ

وَعَرَّافُ ٱلْيَمَامَةِ هُوَ رَبَاحُ بْنُ عِجْلَةَ وَعَرَّافُ نَجْدَ ٱلْأَبْلَقُ ٱلْأَسَدِيُّ . وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْمَدَارِكِ ٱلْغَيْبِيَّةِ مَا يَصْدُرُ لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْيَقْظَةِ وَٱلْتِبَاسِهِ بِٱلنَّوْمِ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ غَيْبُ ذٰلِكَ ٱلْأَمْرِ كَمَا يُرِيدُ وَلَا يَقَعُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَبَادِىءِ ٱلنَّوْمِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْيَقْظَةِ وَذَهَابِ ٱلْاِخْتِيَارِ فِي ٱلْكَلَامِ فَيَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ مَجْبُولٌ عَلَى ٱلنُّطْقِ وَغَايَتُهُ أَنْ يَسْمَعَهُ وَيَفْهَمَهُ وَكَذٰلِكَ يَصْدُرُ عَنِ ٱلْمَقْتُولِينَ عِنْدَ مُفَارَقَةِ رُؤُوسِهِمْ وَأَوْسَاطِ أَبْدَانِهِمْ كَلَامٌ بِمِثْلِ ذٰلِكَ . وَلَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ بَعْضِ ٱلْجَبَابِرَةِ ٱلظَّالِمِينَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا مِنْ سُجُونِهِمْ أَشْخَاصاً لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ عِنْدَ ٱلْقَتْلِ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَعْلَمُوهُمْ بِمَا يُسْتَبْشَعُ . وَذَكَرَ مَسْلَمَةُ فِي كِتَابِ ٱلْغَايَةِ لَهُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ أَنَّ آدَمِيًّا إِذَا جُعِلَ فِي دَنٍّ مَمْلُوءٍ بِدُهْنِ ٱلسِّمْسِمِ وَمَكَثَ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً يُغَذَّى بِٱلتِّينِ وَٱلْجَوْزِ حَتَّى يَذْهَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا ٱلْعُرُوقُ وَشُؤُونُ رَأْسِهِ فَيَخْرُجُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلدُّهْنِ فَحِينَ يَجِفُّ عَلَيْهِ ٱلْهَوَاءُ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَاصَّةِ وَٱلْعَامَّةِ وَهٰذَا فِعْلٌ مِنْ مَنَاكِيرِ أَفْعَالِ ٱلسَّحَرَةِ لٰكِنْ يُفْهَمُ مِنْهُ عَجَائِبُ ٱلْعَالَمِ ٱلْإِنْسَانِي وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُحَاوِلُ حُصُولَ هٰذَا ٱلْمُدْرَكِ ٱلْغَيْبِيِّ بِٱلرِّيَاضَةِ فَيُحَاوِلُونَ بِٱلْمُجَاهَدَةِ مَوْتاً صِنَاعِيًّا بِإِمَاتَةِ جَمِيعِ ٱلْقُوَى ٱلْبَدَنِيَّةِ ثُمَّ مَحْوِ آثَارِهَا ٱلَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا ٱلنَّفْسُ ثُمَّ تَغْذِيَتِهَا بِٱلذِّكْرِ لِتَزْدَادَ قُوَّةً فِي نَشْئِهَا وَيَحْصُلُ ذٰلِكَ بِجَمْعِ ٱلْفِكْرِ وَكَثْرَةِ ٱلْجُوعِ وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ عَلَى ٱلْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ ٱلْمَوْتُ بِٱلْبَدَنِ ذَهَبَ ٱلْحِسُّ وَحِجَابُهُ وَٱطَّلَعَتِ ٱلنَّفْسُ عَلَى ٱلْمُغَيَّبَاتِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ أَهْلُ ٱلرِّيَاضَةِ ٱلسِّحْرِيَّةِ يَرْتَاضُونَ بِذٰلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ ٱلْاِطِّلَاعُ عَلَى ٱلْمُغَيَّبَاتِ وَٱلتَّصَرُّفَاتِ فِي ٱلْعَوَالِمِ وَأَكْثَرُ هٰؤُلَاءِ فِي ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْمُنْحَرِفَةِ جَنُوباً وَشَمَالاً خُصُوصاً بِلَادَ ٱلْهِنْدِ وَيُسَمَّوْنَ هُنَالِكَ ٱلْحُوكِيَّةَ وَلَهُمْ كُتُبٌ فِي كَيْفِيَّةِ هٰذِهِ ٱلرِّيَاضَةِ كَثِيرَةٌ وَٱلْأَخْبَارُ عَنْهُمْ فِي ذٰلِكَ غَرِيبَةٌ . وَأَمَّا ٱلْمُتَصَوِّفَةُ فَرِيَاضَتُهُمْ دِينِيَّةٌ وَعَرِيَّةٌ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْمَذْمُومَةِ وَإِنَّمَا يَقْصِدُونَ جَمْعَ ٱلْهِمَّةِ وَٱلْإِقْبَالَ عَلَى ٱللّٰهِ بِٱلْكُلِّيَّةِ لِيَحْصُلَ لَهُمْ أَذْوَاقُ أَهْلِ ٱلْعِرْفَانِ وَٱلتَّوْحِيدِ وَيَزِيدُونَ فِي رِيَاضَتِهِمْ إِلَى ٱلْجَمْعِ وَٱلْجُوعِ ٱلتَّغْذِيَةَ بِٱلذِّكْرِ فِيهَا تَتِمُّ وِجْهَتُهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلرِّيَاضَةِ لِأَنَّهُ إِذَا نَشَأَتِ ٱلنَّفْسُ عَلَى ٱلذِّكْرِ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْعِرْفَانِ بِٱللّٰهِ وَإِذَا عَرِيَتْ عَنِ ٱلذِّكْرِ كَانَتْ شَيْطَانِيَّةً وَحُصُولُ مَا يَحْصُلُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْغَيْبِ وَٱلتَّصَرُّفِ لِهٰؤُلَاءِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْعَرَضِ وَلَا يَكُونُ مَقْصُوداً مِنْ أَوَّلِ

ٱلْأَمرِ لِأَنَّهُ إِذَا قُصِدَ ذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْوِجْهَةُ فِيهِ لِغَيْرِ ٱللهِ وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ ٱلتَّصَرُّفِ وَٱلِاطِّلَاعِ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَأَخسِرْ بِهَا صَفْقَةً وَإِنَّمَا فِي ٱلْحَقِيقَةِ شِرْكٌ قَالَ بَعْضُهُمْ مَنْ آثَرَ ٱلْعِرْفَانَ لِلْعِرْفَانِ فَقَدْ قَالَ بِٱلثَّانِي فَهُمْ يَقْصُدُونَ بِوِجْهَتِهِمِ ٱلْمَعْبُودَ لَا لِشَيْءٍ سِوَاهُ وَإِذَا حَصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذٰلِكَ مَا يَحْصُلُ فَبِٱلْعَرَضِ وَغَيْرُ مَقْصُودٍ لَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَفِرُّ مِنْهُ إِذَا عَرَضَ لَهُ وَلَا يَحْفَلُ بِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ ٱللهَ لِذَاتِهِ لَا لِغَيْرِهِ وَحُصُولُ ذٰلِكَ لَهُمْ مَعْرُوفٌ وَيُسَمُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ ٱلْغَيْبِ وَٱلْحَدِيثِ عَلَى ٱلْخَوَاطِرِ فِرَاسَةً وَكَشْفاً وَمَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ كَرَامَةً وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ بِنَكِيرٍ فِي حَقِّهِمْ وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى إِنْكَارِهِ ٱلْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَقَ ٱلْإِسْفِرَايِينِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ ٱلْمَالِكِيُّ فِي آخَرِينَ فِرَاراً مِنَ ٱلْتِبَاسِ ٱلْمُعْجِزَةِ بِغَيْرِهَا وَٱلْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ حُصُولُ ٱلتَّفْرِقَةِ بِٱلتَّحَدِّي فَهُوَ كَافٍ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي ٱلصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ فِيكُمْ مُحَدَّثِينَ وَإِنَّ مِنْهُمْ عُمَرَ وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ مِنْ ذٰلِكَ وَقَائِعُ مَعْرُوفَةٌ تَشْهَدُ بِذٰلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ يَا سَارِيَةُ ٱلْجَبَلَ وَهُوَ سَارِيَةُ بْنُ زَنِيمٍ كَانَ قَائِداً عَلَى بَعْضِ جُيُوشِ ٱلْمُسْلِمِينَ بِٱلْعِرَاقِ أَيَّامَ ٱلْفُتُوحَاتِ وَتَوَرَّطَ مَعَ ٱلْمُشْرِكِينَ فِي مُعْتَرَكٍ وَهَمَّ بِٱلِانْهِزَامِ وَكَانَ بِقُرْبِهِ جَبَلٌ يَتَحَيَّزُ إِلَيْهِ فَرُفِعَ لِعُمَرَ ذٰلِكَ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ بِٱلْمَدِينَةِ فَنَادَاهُ يَا سَارِيَةُ ٱلْجَبَلَ وَسَمِعَهُ سَارِيَةُ وَهُوَ بِمَكَانِهِ وَرَأَى شَخْصَهُ هُنَالِكَ وَٱلْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ وَوَقَعَ مِثْلُهُ أَيْضاً لِأَبِي بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ عَائِشَةَ ٱبْنَتَهُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا فِي شَأْنِ مَا نَحَلَهَا مِنْ أَوْسُقِ ٱلتَّمْرِ مِنْ حَدِيقَتِهِ ثُمَّ نَبَّهَهَا عَلَى جِذَاذِهِ لِتَحُوزَهُ عَنِ ٱلْوَرَثَةِ فَقَالَ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ وَإِنَّمَا هُمَا أَخَوَاكِ وَأُخْتَاكِ فَقَالَتْ إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ فَمَنِ ٱلْأُخْرَى فَقَالَ إِنَّ ذَا بَطْنِ بِنْتِ خَارِجَةَ أُرَاهَا جَارِيَةً فَكَانَتْ جَارِيَةً وَقَعَ فِي ٱلْمُوَطَّإِ فِي بَابِ مَا لَا يَجُوزُ مِنَ ٱلنِّحَلِ وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلْوَقَائِعِ كَثِيرَةٌ لَهُمْ وَلِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ وَأَهْلِ ٱلْإِقْتِدَاءِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ ٱلتَّصَوُّفِ يَقُولُونَ إِنَّهُ يَقِلُّ فِي زَمَنِ ٱلنُّبُوَّةِ إِذْ لَا يَبْقَى لِلْمُرِيدِ حَالَةٌ بِحَضْرَةِ ٱلنَّبِيِّ حَتَّى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ ٱلْمُرِيدَ إِذَا جَاءَ لِلْمَدِينَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ يَسْلُبُ حَالَهُ مَا دَامَ فِيهَا حَتَّى يُفَارِقَهَا وَٱللهُ يَرْزُقُنَا ٱلْهِدَايَةَ وَيُرْشِدُنَا إِلَى ٱلْحَقِّ

وَمِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْمُرِيدِينَ مِنَ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ قَوْمٌ بَهَالِيلُ مَعْتُوهُونَ أَشْبَهُ بِٱلْمَجَانِينِ مِنَ ٱلْعُقَلَاءِ وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ قَدْ صَحَّتْ لَهُمْ مَقَامَاتُ ٱلْوِلَايَةِ وَأَحْوَالُ ٱلصِّدِّيقِينَ وَعَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ

أَحوَالِهِمْ مَنْ يَفهَمُ عَنهُم مِنْ أَهلِ ٱلذَّوْقِ مَعَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ وَيقَعُ لَهُمْ مِنَ ٱلْأَخبَارِ عنِ ٱلْمُغَيَّبَاتِ عَجَائِبُ لِأَنَّهُمْ لا يَتَقَيَّدُونَ بِشَيْءٍ فَيُطلِقُونَ كَلامَهُم فِي ذٰلِكَ وَيَأْتُونَ مِنهُ بِالعَجَائِبِ وَرُبَّمَا يُنكِرُ ٱلْفُقَهَاءُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ سُقُوطِ ٱلتَّكْلِيفِ عَنْهُمْ وَٱلْوِلايَةُ لا تَحصُلُ إِلّا بِٱلْعِبَادَةِ وَهُوَ غَلَطٌ فَإِنَّ فَضْلَ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَن يشَاءُ وَلا يَتَوَقَّفُ حُصُولُ ٱلْوِلايَةِ عَلَى ٱلْعِبَادَةِ وَلا غَيْرِهَا وَإِذَا كَانَتِ ٱلنَّفْسُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ ثَابِتَةَ ٱلْوُجُودِ فَٱللهُ تَعَالَى يَخُصُّهَا بِمَا شَاءَ مِنْ مَوَاهِبِهِ وَهٰؤُلاءِ ٱلْقَوْمُ لَمْ تَعدَمْ نُفُوسُهُمُ ٱلنَّاطِقَةُ وَلا فَسَدَتْ كَحَالِ ٱلْمَجَانِينِ وَإِنَّمَا فُقِدَ لَهُمُ ٱلْعَقْلُ ٱلَّذِي يُنَاطُ بِهِ ٱلتَّكْلِيفُ. وَهِيَ صِفَةٌ خَاصَّةٌ لِلنَّفْسِ وَهِيَ عُلُومٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلإِنْسَانِ يَشْتَدُّ بِهَا نَظَرُهُ وَيَعْرِفُ أَحوَالَ مَعَاشِهِ وَٱستِقَامَةَ مَنْزِلِهِ وَكَأَنَّهُ إِذَا مَيَّزَ أَحوَالَ مَعَاشِهِ وَٱستِقَامَةَ مَنْزِلِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ عُذْرٌ فِي قَبُولِ ٱلتَّكَالِيفِ لِإِصْلاحِ مَعَادِهِ وَلَيسَ مَنْ فَقَدَ هٰذِهِ ٱلصِّفَةَ بِفَاقِدٍ لِنَفْسِهِ وَلا ذَاهِلٍ عنْ حَقِيقَتِهِ فَيَكُونَ مَوْجُودَ ٱلْحَقِيقَةِ مَعْدُومَ ٱلْعَقْلِ ٱلتَّكْلِيفِيِّ ٱلَّذِي هُوَ مَعْرِفَةُ ٱلْمَعَاشِ. وَلا ٱستِحَالَةَ فِي ذٰلِكَ وَلا يَتَوَقَّفُ ٱصْطِفَاءُ ٱللهِ عِبَادَهُ لِلْمَعْرِفَةِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ ٱلتَّكَالِيفِ. وَإِذَا صَحَّ ذٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ رُبَّمَا يَلتَبِسُ حَالُ هٰؤُلاءِ بِٱلْمَجَانِينِ ٱلَّذِينَ تَفْسُدُ نُفُوسُهُمُ ٱلنَّاطِقَةُ وَيَلتَحِقُونَ بِٱلْبَهَائِمِ وَلَكَ فِي تَمْيِيزِهِمْ عَلامَاتٌ مِنهَا أَنَّ هٰؤُلاءِ ٱلْبَهَالِيلَ لا تَجِدُ لَهُم وِجْهَةً أَصْلًا وَمِنهَا أَنَّهُمْ يُخْلَقُونَ عَلَى ٱلْبَلَهِ مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِهِمْ وَٱلْمَجَانِينُ يَعْرِضُ لَهُمُ ٱلْجُنُونُ بَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ لِعَوَارِضَ بَدَنِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ ذٰلِكَ وَفَسَدَتْ نُفُوسُهُمُ ٱلنَّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِٱلْخَيْبَةِ وَمِنهَا كَثْرَةُ تَصَرُّفِهِمْ فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ لِأَنَّهُمْ لا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى إِذْنٍ لِعَدَمِ ٱلتَّكْلِيفِ فِي حَقِّهِمْ وَٱلْمَجَانِينُ لا تَصَرُّفَ لَهُمْ وَهٰذَا فَصْلٌ ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْكَلامُ إِلَيهِ وَٱللهُ ٱلْمُرْشِدُ لِلصَّوَابِ.

وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ ٱلنَّاسِ أَنَّ هُنَا مَدَارِكَ لِلْغَيْبِ مِنْ دُونِ غَيْبَةٍ عَنِ ٱلْحِسِّ فَمِنْهُمُ ٱلْمُنَجِّمُونَ ٱلْقَائِلُونَ بِٱلدَّلالاتِ ٱلنُّجُومِيَّةِ وَمُقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِي ٱلْفَلَكِ وَآثَارِهَا فِي ٱلْعَنَاصِرِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ ٱلِٱمْتِزَاجِ بَيْنَ طِبَاعِهَا بِٱلتَّنَاظُرِ وَيَتَأَدَّى مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمِزَاجِ إِلَى ٱلْهَوَاءِ. وَهٰؤُلاءِ ٱلْمُنَجِّمُونَ لَيسُوا مِنَ ٱلْغَيْبِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ حَدْسِيَّةٌ وَتَخْمِينَاتٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى ٱلتَّأْثِيرِ ٱلنُّجُومِيَّةِ وَحُصُولُ ٱلْمِزَاجِ مِنْهُ لِلْهَوَاءِ مَعَ مَزِيدِ حَدْسٍ يَقِفُ بِهِ ٱلنَّاظِرُ عَلَى تَفْصِيلِهِ فِي ٱلشَّخْصِيَّاتِ فِي ٱلْعَالَمِ كَمَا قَالَهُ بَطْلِيمُوسُ وَنَحْنُ نُبَيِّنُ بُطْلانَ ذٰلِكَ فِي مَحَلِّهِ

إنْ شاءَ اللهُ وَهُوَ لَوْ ثَبَتَ فَغَايَتُهُ حَدسٌ وَتَخْمِينٌ وَلَيسَ بِمَا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيءٍ . وَمِن هؤلاءِ قومٌ مِنَ العَامَّةِ اسْتَنْبَطُوا لِاسْتِخْرَاجِ الغَيْبِ وَتَعَرُّفِ الكَائِنَاتِ صِنَاعَةً سَمَّوهَا خطَّ الرَّمْلِ نِسْبَةً إلى المادَّةِ الَّتِي يَضَعُونَ فِيهَا عَمَلَهُمْ وَمَحصُولُ هذِهِ الصِّنَاعَةِ أَنَّهُم صَيَّرُوا مِنَ النُّقَطِ أَشْكَالاً ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاتِبَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ مَرَاتِبِهَا فِي الزَّوْجِيَّةِ وَالفَرْدِيَّةِ وَاسْتِوَائِهَا فِيهِمَا فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلاً لِأَنَّهَا إنْ كَانَتْ أَزْوَاجاً كُلَّهَا أَوْ أَفْرَاداً كُلَّهَا فَشَكْلانِ وَإنْ كَانَ الفَرْدُ فِيهِمَا فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ وَإن كَانَ الفَرْدُ فِي مَرْتَبَتَيْنِ فَسِتَّةُ أَشْكَالٍ وَإنْ كَانَ فِي ثَلاثِ مَرَاتِبَ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ وَإن جَاءَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلاً مَيَّزُوهَا كُلَّهَا بِأَسْمَائِهَا وَأَنْوَاعِهَا إلَى سُعُودٍ وَنُحُوسٍ شَأْنَ الكَوَاكِبِ وَجَعَلُوا لَهَا سِتَّةَ عَشَرَ بَيْتاً طَبِيعِيَّةً بِزَعْمِهِمْ وَكَأَنَّهَا البُرُوجُ الإثْنَا عَشَرَ الَّتِي لِلفَلَكِ وَالأَوْتَادِ الأَرْبَعَةِ وَجَعَلُوا لِكُلِّ شَكْلٍ مِنْهَا بَيْتاً وَخُطُوطاً وَدِلالَةً عَلَى صِنْفٍ مِنْ مَوْجُودَاتِ عَالَمِ العَنَاصِرِ يَخْتَصُّ بِهِ وَاسْتَنْبَطُوا مِنْ ذَلِكَ فَنّاً حَاذَوا بِهِ فَنَّ التِّجَامَةِ وَنَوْعَ قَضَائِهِ إلَّا أَنَّ أَحْكَامَ التِّجَامَةِ مُسْتَنِدَةٌ إلى أَوْضَاعٍ طَبِيعِيَّةٍ كَمَا يَزْعُمُ بَطْلِيمُوس وَهذِهِ إنَّمَا مُسْتَنَدُهَا أَوْضَاعٌ تَحْكِيمِيَّةٌ وَأَهْوَاءٌ اتِّفَاقِيَّةٌ وَلا دَلِيلَ يَقُومُ عَلَى شَيءٍ مِنْهَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّ أَصْلَ ذَلِكَ مِنَ النُّبُوَّاتِ القَدِيمَةِ فِي العَالَمِ وَرُبَّمَا نَسَبُوهَا إلى دَانِيَالَ أَو إلى أَدْرِيسَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا شَأْنَ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا وَرُبَّمَا يَدَّعُونَ مَشْرُوعِيَّتَهَا وَيَحْتَجُّون بِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَبِيٌّ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ وَلَيسَ فِي الحَدِيثِ دَلِيل عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ خَطِّ الرَّمْلِ كَمَا يَزْعُمُهُ بَعْضُ مَنْ لا تَحْصِيلَ لَدَيْهِ لِأَنَّ مَعْنَى الحَدِيثِ كَانَ نَبِيٌّ يَخُطُّ فَيَأْتِيهِ الوَحْيُ عِنْدَ ذَلِكَ الخَطِّ وَلا اسْتِحَالَةَ فِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَادَةً لِبَعْض الأَنْبِيَاءِ فَمَنْ وَافَقَ خَطُّهُ ذَلِكَ النَّبِيَّ فَهُوَ ذَاكَ أَي فَهُوَ صَحِيحٌ مِنْ بَيْنِ الخَطِّ وَأَمَّا عَضَدُه مِنَ الوَحْيِ لِذَلِكَ النَّبِيِّ الَّذِي كَانَتْ عَادَتُهُ أَنْ يَأْتِيَهُ الوَحْيُ عِنْدَ الخَطِّ بِمَا إذَا أَخَذ ذَلِكَ مِنَ الخَطِّ مُجَرَّداً مِنْ غَيْرِ مُوَافَقَةِ وَحيٍ فَلا وَهذَا مَعْنَى الحَدِيثِ وَاللهُ أَعْلَمُ . فَإذَا أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ مُغَيَّبٍ بِزَعْمِهِمْ عَمَدُوا إلى قِرْطَاسٍ أَوْ رَمْلٍ أَوْ دَقِيقٍ فَوَضَعُوا النُّقَط سُطُوراً عَلَى عَدَدِ المَرَاتِبِ الأَرْبَعِ ثُمَّ كَرَّرُوا ذَلِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فَتَجِيءُ سِتَّةَ عَشَر سَطْراً ثُمَّ يَطْرَحُونَ النُّقَطَ أَزْوَاجاً وَيَضَعُونَ مَا بَقِيَ مِنْ كُلِّ سَطْرٍ زَوْجاً كَانَ أَوْ فَرْداً فِي مَرْتَبَتِهِ عَلَى التَّرْتِيبِ فَتَجِيءُ أَرْبَعَةَ أَشْكَالٍ يَضَعُونَهَا فِي سَطْرٍ مُتَتَالِيَةً ثُمَّ يُوَلِّدُونَ مِنْهَا

أَرْبَعَةَ أَشْكَالٍ أُخْرَى مِنْ جَانِبِ ٱلْعَرْضِ بِٱعْتِبَارِ كُلِّ مَرْتَبَةٍ وَمَا قَابَلَهَا مِنَ ٱلشَّكْلِ ٱلَّذِي بِإِزَائِهِ وَمَا يَجْتَمِعُ مِنْهُمَا مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ ثَمَانِيَةَ أَشْكَالٍ مَوْضُوعَةً فِي سَطْرٍ ثُمَّ يُوَلِّدُونَ مِنْ كُلِّ شَكْلَيْنِ شَكْلاً تَحْتَهُمَا بِٱعْتِبَارِ مَا يَجْتَمِعُ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ ٱلشَّكْلَيْنِ أَيْضاً مِنْ زَوْجٍ أَوْ فَرْدٍ فَتَكُونُ أَرْبَعَةً أُخْرَى تَحْتَهَا ثُمَّ يُوَلِّدُونَ مِنَ ٱلْأَرْبَعَةِ شَكْلَيْنِ كَذٰلِكَ تَحْتَهَا مِنَ ٱلشَّكْلَيْنِ شَكْلاً كَذٰلِكَ تَحْتَهُمَا ثُمَّ مِنْ هٰذَا ٱلشَّكْلِ ٱلْخَامِسَ عَشَرَ مَعَ ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ شَكْلاً يَكُونُ آخِرَ ٱلسِّتَّةَ عَشَرَ ثُمَّ يَحْكُمُونَ عَلَى ٱلْخَطِّ كُلِّهِ بِمَا ٱقْتَضَتْهُ أَشْكَالُهُ مِنَ ٱلسُّعُودَةِ وَٱلنُّحُوسَةِ بِٱلذَّاتِ وَٱلنَّظَرِ وَٱلْحُلُولِ وَٱلِٱمْتِزَاجِ وَٱلدِّلَالَةِ عَلَى أَصْنَافِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ ذٰلِكَ تَحَكُّماً غَرِيباً وَكَثُرَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَوُضِعَتْ فِيهَا ٱلتَّآلِيفُ وَٱشْتَهَرَ فِيهَا ٱلْأَعْلَامُ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ تَحَكُّمٌ وَهَوًى وَٱلتَّحْقِيقُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ نُصْبَ فِكْرِكَ أَنَّ ٱلْغُيُوبَ لا تُدْرَكُ بِصِنَاعَةٍ ٱلْبَتَّةَ وَلاَ سَبِيلَ إِلَى تَعَرُّفِهَا إِلاَّ لِلْخَوَاصِّ مِنَ ٱلْبَشَرِ ٱلْمَفْطُورِينَ عَلَى ٱلرُّجُوعِ مِنْ عَالَمِ ٱلْحِسِّ إِلَى عَالَمِ ٱلرُّوحِ وَلِذٰلِكَ يُسَمِّي ٱلْمُنَجِّمُونَ هٰذَا ٱلصِّنْفَ كُلَّهُمْ بِٱلزُّهَرِيِّينَ نِسْبَةً إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ دِلَالَةُ ٱلزُّهَرَةِ بِزَعْمِهِمْ فِي أَصْلِ مَوَالِيدِهِمْ عَلَى إِدْرَاكِ ٱلْغَيْبِ فَٱلْخَطُّ وَغَيْرُهُ مِنْ هٰذِهِ إِنْ كَانَ ٱلنَّاظِرُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْخَاصِّيَّةِ وَقَصَدَ بِهٰذِهِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَنْظُرُ فِيهَا مِنَ ٱلنُّقَطِ أَوِ ٱلْعِظَامِ أَوْ غَيْرِهَا إِشْغَالَ ٱلْحِسِّ لِتَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ إِلَى عَالَمِ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ لَحْظَةً مَا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلطَّرْقِ بِٱلْحَصَى وَٱلنَّظَرِ فِي قُلُوبِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْمَرَايَا ٱلشَّفَّافَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا قَصَدَ مَعْرِفَةَ ٱلْغَيْبِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَأَنَّهَا تُفِيدُهُ ذٰلِكَ فَهَذَرٌ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَٱلْعَمَلِ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَٱلْعَلَامَةُ لِهٰذِهِ ٱلْفِطْرَةِ ٱلَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا أَهْلُ هٰذَا ٱلْإِدْرَاكِ ٱلْغَيْبِيِّ أَنَّهُمْ عِنْدَ تَوَجُّهِهِمْ إِلَى تَعَرُّفِ ٱلْكَائِنَاتِ يَعْتَرِيهِمْ خُرُوجٌ عَنْ حَالَتِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ كَٱلتَّثَاؤُبِ وَٱلتَّمَطُّطِ وَمَبَادِئِ ٱلْغَيْبَةِ عَنِ ٱلْحِسِّ وَيَخْتَلِفُ ذٰلِكَ بِٱلْقُوَّةِ وَٱلضُّعْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ وُجُودِهَا فِيهِمْ فَمَنْ لَمْ تُوجَدْ لَهُ هٰذِهِ ٱلْعَلَامَةُ فَلَيْسَ مِنْ إِدْرَاكِ ٱلْغَيْبِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ سَاعٍ فِي تَنْفِيقِ كَذِبِهِ

وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ يَضَعُونَ قَوَانِينَ لِٱسْتِخْرَاجِ ٱلْغَيْبِ لَيْسَتْ مِنَ ٱلطَّوْرِ ٱلْأَوَّلِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْ مَدَارِكِ ٱلنَّفْسِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ وَلَا مِنَ ٱلْحَدْسِ ٱلْمَبْنِيِّ عَلَى تَأْثِيرَاتِ ٱلنُّجُومِ كَمَا

زَعَمَهُ بَطْلِيمُوسُ وَلَا مِنَ ٱلظَّنِّ وَٱلتَّخْمِينِ ٱلَّذِي يُحَاوِلُ عَلَيْهِ ٱلعَرَّافُونَ وَإِنَّمَا هِيَ مَغَالِطُ يَجْعَلُونَهَا كَٱلْمَصَائِدِ لِأَهْلِ ٱلعُقُولِ ٱلْمُسْتَضْعَفَةِ وَلَسْتُ أَذْكُرُ مِنْ ذَٰلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرَهُ ٱلْمُصَنِّفُونَ وَوَلِعَ بِهِ ٱلْخَوَاصُّ فَمِنْ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْحِسَابُ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ ٱلنِّيمِ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي آخِرِ كِتَابِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَنْسُوبِ لِأَرِسْطُو يُعْرَفُ بِهِ ٱلغَالِبُ مِنَ ٱلْمَغْلُوبِ فِي ٱلْمُتَحَارِبِينَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَهُوَ أَنْ تَحْسَبَ ٱلْحُرُوفَ ٱلَّتِي فِي ٱسْمِ أَحَدِهِمَا بِحِسَابِ ٱلْجُمَلِ ٱلْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ فِي حُرُوفِ أَبْجَدَ مِنَ ٱلْوَاحِدِ إِلَى ٱلْأَلْفِ آحَاداً وَعَشَرَاتٍ وَمِئِينَ وَأُلُوفاً فَإِذَا حَسِبْتَ ٱلِٱسْمَ وَتَحَصَّلَ لَكَ مِنْهُ عَدَدٌ فَٱحْسِبِ ٱسْمَ ٱلْآخَرِ كَذَٰلِكَ ثُمَّ أَطْرَحْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تِسْعَةً تِسْعَةً وَٱحْفَظْ بَقِيَّةَ هٰذَا وَبَقِيَّةَ هٰذَا ثُمَّ ٱنْظُرْ بَيْنَ ٱلْعَدَدَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ حِسَابِ ٱلِٱسْمَيْنِ فَإِنْ كَانَ ٱلْعَدَدَانِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَكَانَا مَعاً زَوْجَيْنِ أَوْ فَرْدَيْنِ مَعاً فَصَاحِبُ ٱلْأَقَلِّ مِنْهُمَا هُوَ ٱلغَالِبُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجاً وَٱلْآخَرُ فَرْداً فَصَاحِبُ ٱلْأَكْثَرِ هُوَ ٱلغَالِبُ وَإِنْ كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَهُمَا مَعاً زَوْجَانِ فَٱلْمَطْلُوبُ هُوَ ٱلغَالِبُ وَإِنْ كَانَا مَعاً فَرْدَيْنِ فَٱلطَّالِبُ هُوَ ٱلغَالِبُ وَيُقَالُ هُنَالِكَ بَيْتَانِ فِي هٰذَا ٱلْعَمَلِ ٱشْتَهَرَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَهُمَا

أَرَى ٱلزَّوْجَ وَٱلْأَفْرَادَ يَسْمُو أَقَلُّهَا ... وَأَكْثَرُهَا عِنْدَ ٱلتَّخَالُفِ غَالِبُ
وَيُغْلَبُ مَطْلُوبٌ إِذَا ٱلزَّوْجُ يَسْتَوِي ... وَعِنْدَ ٱسْتِوَاءِ ٱلْفَرْدِ يُغْلَبُ طَالِبُ

ثُمَّ وَضَعُوا لِمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلْحُرُوفِ بَعْدَ طَرْحِهَا بِتِسْعَةٍ قَانُوناً مَعْرُوفاً عِنْدَهُمْ فِي طَرْحِ تِسْعَةٍ وَذَٰلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا ٱلْحُرُوفَ ٱلدَّالَّةَ عَلَى ٱلْوَاحِدِ فِي ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْأَرْبَعِ وَهِيَ (ا) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْوَاحِدِ و (ي) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْعَشَرَةِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْعَشَرَاتِ و (ق) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْمِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْمِئِينَ و (ش) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْأَلْفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْآلَافِ وَلَيْسَ بَعْدَ ٱلْأَلْفِ عَدَدٌ يُدَلُّ عَلَيْهِ بِٱلْحُرُوفِ لِأَنَّ ٱلشِّينَ هِيَ آخِرُ حُرُوفِ أَبْجَد ثُمَّ رَتَّبُوا هٰذِهِ ٱلْأَحْرُفَ ٱلْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ ٱلْمَرَاتِبِ فَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةٌ رُبَاعِيَّةٌ وَهِيَ (ايقش) ثُمَّ فَعَلُوا ذَٰلِكَ بِٱلْحُرُوفِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْمَرَاتِبِ ٱلثَّلَاثِ وَأَسْقَطُوا مَرْتَبَةَ ٱلْآلَافِ مِنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ آخِرَ حُرُوفِ أَبْجَد فَكَانَ مَجْمُوعُ حُرُوفِ ٱلِٱثْنَيْنِ فِي ٱلْمَرَاتِبِ ٱلثَّلَاثِ ثَلَاثَةَ حُرُوفٍ وَهِيَ (ب) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْآحَادِ و (ك) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْعَشَرَاتِ وَهِيَ عِشْرُونَ و (ر) ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْمِئِينَ

وَهِيَ مِائَتَانِ وَصَيَّرُوهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً ثُلَاثِيَّةً عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ وَهِيَ بكر ثُمَّ فَعَلُوا ذٰلِكَ بِالْحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَى ثَلَاثَةٍ فَنَشَأَتْ عَنْهَا كَلِمَةُ جلس وَكَذٰلِكَ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ أَبجد وَصَارَتْ تِسْعَ كَلِمَاتٍ نِهَايَةَ عَدَدِ الْآحَادِ وَهِيَ ايقش بكر جلس دمت هنث وصخ زعد حفظ طضغ مُرَتَّبَةً عَلَى تَوَالِي الْأَعْدَادِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا الَّذِي هِيَ فِي مَرْتَبَتِهِ فَالْوَاحِدُ لِكَلِمَةِ ايقش وَالِاثْنَانِ لِكَلِمَةِ بكر وَالثَّلَاثَةُ لِكَلِمَةِ جلس وَكَذٰلِكَ إِلَى التَّاسِعَةِ الَّتِي هِيَ طضغ فَتَكُونُ لَهَا التِّسْعَةُ فَإِذَا أَرَادُوا طَرْحَ الِاسْمِ بِتِسْعَةٍ نَظَرُوا كُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ فِي أَيِّ كَلِمَةٍ هُوَ مِنْ هٰذِهِ الْكَلِمَاتِ وَأَخَذُوا عَدَدَهَا مَكَانَهُ ثُمَّ جَمَعُوا الْأَعْدَادَ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا بَدَلًا مِنْ حُرُوفِ الِاسْمِ فَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى التِّسْعَةِ أَخَذُوا مَا فَضَلَ عَنْهَا وَإِلَّا أَخَذُوهُ كَمَا هُوَ ثُمَّ يَفْعَلُونَ كَذٰلِكَ بِالِاسْمِ الْآخَرِ وَيَنْظُرُونَ بَيْنَ الْخَارِجَيْنِ بِمَا قَدَّمْنَاهُ وَالسِّرُّ فِي هٰذَا بَيِّنٌ وَذٰلِكَ أَنَّ الْبَاقِيَ مِنْ كُلِّ عَقْدٍ مِنْ عُقُودِ الْأَعْدَادِ بِطَرْحِ تِسْعَةٍ إِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ فَكَأَنَّهُ يَجْمَعُ عَدَدَ الْعُقُودِ خَاصَّةً مِنْ كُلِّ مَرْتَبَةٍ فَصَارَتْ أَعْدَادُ الْعُقُودِ كَأَنَّهَا آحَادٌ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ وَالْعِشْرِينَ وَالْمِائَتَيْنِ وَالْأَلْفَيْنِ وَكُلُّهَا اثْنَانِ وَكَذٰلِكَ الثَّلَاثَةُ وَالثَّلَاثُونَ وَالثَّلَاثُمِائَةِ وَالثَّلَاثَةُ الْآلَافِ كُلُّهَا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ فَوُضِعَتِ الْأَعْدَادُ عَلَى التَّوَالِي دَالَّةً عَلَى أَعْدَادِ الْعُقُودِ لَا غَيْرُ وَجُعِلَتِ الْحُرُوفُ الدَّالَّةُ عَلَى أَصْنَافِ الْعُقُودِ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْآحَادِ وَالْعَشَرَاتِ وَالْمِئِينَ وَالْأُلُوفِ [1] وَصَارَ عَدَدُ الْكَلِمَةِ الْمَوْضُوعِ عَلَيْهَا نَائِبًا عَنْ كُلِّ حَرْفٍ فِيهَا سَوَاءٌ دَلَّ عَلَى الْآحَادِ أَوِ الْعَشَرَاتِ أَوِ الْمِئِينَ فَيُؤْخَذُ عَدَدُ كُلِّ كَلِمَةٍ عِوَضًا مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي فِيهَا وَتُجْمَعُ كُلُّهَا إِلَى آخِرِهَا كَمَا قُلْنَاهُ هٰذَا هُوَ الْعَمَلُ الْمُتَدَاوَلُ بَيْنَ النَّاسِ مُنْذُ الْأَمْرِ الْقَدِيمِ وَكَانَ بَعْضُ مَنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا يَرَى أَنَّ الصَّحِيحَ فِيهَا كَلِمَاتٌ أُخْرَى تِسْعَةٌ مَكَانَ هٰذِهِ وَمُتَوَالِيَةً كَتَوَالِيهَا وَيَفْعَلُونَ بِهَا فِي الطَّرْحِ بِتِسْعَةٍ مِثْلَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سَوَاءٌ وَهِيَ هٰذِهِ ارب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عش خع ثضظ تِسْعُ كَلِمَاتٍ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا الَّذِي فِي مَرْتَبَتِهِ فِيهَا الثُّلَاثِيُّ وَالرُّبَاعِيُّ وَالثُّنَائِيُّ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً عَلَى أَصْلٍ مُطَّرِدٍ كَمَا تَرَاهُ لٰكِنْ كَانَ شُيُوخُنَا يَنْقُلُونَهَا عَنْ شَيْخِ الْمَغْرِبِ فِي هٰذِهِ الْمَعَارِفِ مِنَ السِّيمِيَاءِ وَأَسْرَارِ الْحُرُوفِ وَالنِّجَامَةِ وَهُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ الْبَنَّاءِ وَيَقُولُونَ عَنْهُ أَنَّ الْعَمَلَ بِهٰذِهِ

---

(١) قوله والالوف فيه نظر لان الحروف ليس فيها ما يزيد عن الالف كما سبق في كلامه

الْكَلِمَاتِ فِي طَرْحِ حِسَابِ النِّيمِ أَصَحُّ مِنَ الْعَمَلِ بِكَلِمَاتِ ايقش وَاللهُ يَعْلَمُ كَيْفَ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَدَارِكُ لِلْغَيْبِ غَيْرَ مَعْزُوٍّ إِلَى أَرِسْطُو عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْآرَاءِ الْبَعِيدَةِ عَنِ التَّحْقِيقِ وَالْبُرْهَانُ يَشْهَدُ لَكَ بِذٰلِكَ تَصَفَّحْهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الرُّسُوخِ اهـ . وَمِنْ هٰذِهِ الْقَوَانِينِ الصِّنَاعِيَّةِ لِاسْتِخْرَاجِ الْغُيُوبِ فِيمَا يَزْعُمُونَ الزَّايِرْجَةُ الْمُسَمَّاةُ بِزَايِرْجَةِ الْعَالَمِ الْمَعْزُوَّةِ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ سَيِّدِي أَحْمَدَ السَّبْتِيِّ مِنْ أَعْلَامِ الْمُتَصَوِّفَةِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي آخِرِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ بِمَرَاكُشَ وَلِعَهْدِ أَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ مِنْ مُلُوكِ الْمُوَحِّدِينَ وَهِيَ غَرِيبَةُ الْعَمَلِ صِنَاعَةً وَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِّ يُولَعُونَ بِإِفَادَةِ الْغَيْبِ مِنْهَا بِعَمَلِهَا الْمَعْرُوفِ الْمُلْغَزِ فَيُحَرِّضُونَ بِذٰلِكَ عَلَى حَلِّ رَمْزِهِ وَكَشْفِ غَامِضِهِ وَصُورَتُهَا الَّتِي يَقَعُ الْعَمَلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا دَائِرَةٌ عَظِيمَةٌ فِي دَاخِلِهَا دَوَائِرُ مُتَوَازِيَةٌ لِلْأَفْلَاكِ وَالْعَنَاصِرِ وَالْمُكَوَّنَاتِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْكَائِنَاتِ وَالْعُلُومِ وَكُلُّ دَائِرَةٍ مَقْسُومَةٌ بِأَقْسَامِ فَلَكِهَا إِمَّا الْبُرُوجُ وَإِمَّا الْعَنَاصِرُ أَوْ غَيْرُهُمَا وَخُطُوطُ كُلِّ قِسْمٍ مَارَّةٌ إِلَى الْمَرْكَزِ وَيُسَمُّونَهَا الْأَوْتَارَ وَعَلَى كُلِّ وَتَرٍ حُرُوفٌ مُتَتَابِعَةٌ مَوْضُوعَةٌ فِيهَا بِرُشُومِ (١) الزِّمَامِ الَّتِي هِيَ أَشْكَالُ الْأَعْدَادِ عِنْدَ أَهْلِ الدَّوَاوِينِ وَالْحُسَّابِ بِالْمَغْرِبِ لِهٰذَا الْعَهْدِ وَمِنْهَا بِرُشُومِ الْغُبَارِ الْمُتَعَارَفَةِ فِي دَاخِلِ الزَّايِرْجَةِ وَبَيْنَ الدَّوَائِرِ أَسْمَاءُ الْعُلُومِ وَمَوَاضِعُ الْأَكْوَانِ وَعَلَى ظَاهِرِ الدَّوَائِرِ جَدْوَلٌ مُتَكَثِّرُ الْبُيُوتِ الْمُتَقَاطِعَةِ طُولًا وَعَرْضًا يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةٍ وَخَمْسِينَ بَيْتًا فِي الْعَرْضِ وَمِائَةٍ وَوَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِي الطُّولِ جَوَانِبُ مِنْهُ مَعْمُورَةُ الْبُيُوتِ تَارَةً بِالْعَدَدِ وَأُخْرَى بِالْحُرُوفِ وَجَوَانِبُ خَالِيَةُ الْبُيُوتِ وَلَا تُعْلَمُ نِسْبَةُ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فِي أَوْضَاعِهَا وَلَا الْقِسْمَةُ الَّتِي عَيَّنَتِ الْبُيُوتَ الْعَامِرَةَ مِنَ الْخَالِيَةِ وَحَافَاتُ الزَّايِرْجَةِ أَبْيَاتٌ مِنْ عَرُوضِ الطَّوِيلِ عَلَى رَوِيِّ اللَّامِ الْمَنْصُوبَةِ تَتَضَمَّنُ صُورَةَ الْعَمَلِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّايِرْجَةِ إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْأَلْغَازِ فِي عَدَمِ الْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ وَفِي بَعْضِ جَوَانِبِ الزَّايِرْجَةِ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ مَنْسُوبٌ لِبَعْضِ أَكَابِرِ أَهْلِ الْحَدَثَانِ بِالْمَغْرِبِ وَهُوَ مَالِكُ بْنُ وَهِيبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَشْبِيلِيَّةَ كَانَ فِي الدَّوْلَةِ اللَّمْتُونِيَّةِ وَنَصُّ الْبَيْتِ

سُؤَالٌ عَظِيمُ الْخَلْقِ حُزْتَ فَصُنْ إِذَنْ غَرَائِبَ شَكٍّ ضَبْطُهُ الْجِدَّ مَثِّلَا

وَهُوَ الْبَيْتُ الْمُتَدَاوَلُ عِنْدَهُمْ فِي الْعَمَلِ لِاسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ السُّؤَالِ فِي هٰذِهِ الزَّايِرْجَةِ

(١) قوله برشوم اي موضوعة بضم الراء جمع رشم بالشين المعجمة اهـ

وَغَيْرِهَا فَإِذَا أَرَادُوا ٱسْتِخْرَاجَ ٱلْجَوَابِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مِنَ ٱلْمَسَائِلِ كَتَبُوا ذٰلِكَ ٱلسُّؤَالَ وَقَطَّعُوهُ حُرُوفاً ثُمَّ أَخَذُوا ٱلطَّالِعَ لِذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ مِنْ بُرُوجِ ٱلْفَلَكِ وَدَرَجِهَا وَعَمَدُوا إِلَى ٱلزَّايِرْجَةِ ثُمَّ إِلَى ٱلْوَتَرِ ٱلْمُكْتَنِفِ فِيهَا بِٱلْبُرْجِ ٱلطَّالِعِ مِنْ أَوَّلِهِ مَاراً إِلَى ٱلْمَرْكَزِ ثُمَّ إِلَى مُحِيطِ ٱلدَّائِرَةِ قِبَالَةَ ٱلطَّالِعِ فَيَأْخُذُونَ جَمِيعَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْمَكْتُوبَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَٱلْأَعْدَادَ ٱلْمَرْسُومَةَ بَيْنَهُمَا وَيُصَيِّرُونَهَا حُرُوفاً بِحِسَابِ ٱلْجُمَّلِ وَقَدْ يَنْقُلُونَ آحَادَهَا إِلَى ٱلْعَشَرَاتِ وَعَشَرَاتِهَا إِلَى ٱلْمِئِينَ وَبِٱلْعَكْسِ فِيهِمَا كَمَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ ٱلْعَمَلِ عِنْدَهُمْ وَيَضَعُونَهَا مَعَ حُرُوفِ ٱلسُّؤَالِ وَيُضِيفُونَ إِلَى ذٰلِكَ جَمِيعَ مَا عَلَى ٱلْوَتَرِ ٱلْمُكْتَنِفِ بِٱلْبُرْجِ ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلطَّالِعِ مِنَ ٱلْحُرُوفِ وَٱلْأَعْدَادِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى ٱلْمَرْكَزِ فَقَطْ لَا يَتَجَاوَزُونَهُ إِلَى ٱلْمُحِيطِ وَيَفْعَلُونَ بِٱلْأَعْدَادِ مَا فَعَلُوهُ بِٱلْأَوَّلِ وَيُضِيفُونَهَا إِلَى ٱلْحُرُوفِ ٱلْأُخْرَى ثُمَّ يُقَطِّعُونَ حُرُوفَ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلْعَمَلِ وَقَانُونُهُ عِنْدَهُمْ وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ بْنِ وَهِيبٍ ٱلْمُتَقَدِّمِ وَيَضَعُونَهَا نَاحِيَةً ثُمَّ يَضْرِبُونَ عَدَدَ دَرَجِ ٱلطَّالِعِ فِي أُسِّ ٱلْبُرْجِ وَأُسُّهُ عِنْدَهُمْ هُوَ بُعْدُ ٱلْبُرْجِ عَنْ آخِرِ ٱلْمَرَاتِبِ عَكْسَ مَا عَلَيْهِ ٱلْأُسُّ عِنْدَ أَهْلِ صِنَاعَةِ ٱلْحِسَابِ فَإِنَّهُ عِنْدَهُمُ ٱلْبُعْدُ عَنْ أَوَّلِ ٱلْمَرَاتِبِ ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ فِي عَدَدٍ آخَرَ يُسَمُّونَهُ ٱلْأُسَّ ٱلْأَكْبَرَ وَٱلدَّوْرَ ٱلْأَصْلِيَّ وَيُدْخِلُونَ بِمَا تَجَمَّعَ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ فِي بُيُوتِ ٱلْجَدْوَلِ عَلَى قَوَانِينَ مَعْرُوفَةٍ وَأَعْمَالٍ مَذْكُورَةٍ وَأَدْوَارٍ مَعْدُودَةٍ وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حُرُوفاً وَيُسْقِطُونَ أُخْرَى وَيُقَابِلُونَ بِمَا مَعَهُمْ فِي حُرُوفِ ٱلْبَيْتِ وَيَنْقُلُونَ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَ إِلَى حُرُوفِ ٱلسُّؤَالِ وَمَا مَعَهَا ثُمَّ يَطْرَحُونَ تِلْكَ ٱلْحُرُوفَ بِأَعْدَادٍ مَعْلُومَةٍ يُسَمُّونَهَا ٱلْأَدْوَارَ وَيُخْرِجُونَ فِي كُلِّ دَوْرٍ ٱلْحَرْفَ ٱلَّذِي يَنْتَهِي عِنْدَهُ ٱلدَّوْرُ وَيُعَاوِدُونَ ذٰلِكَ بِعَدَدِ ٱلْأَدْوَارِ ٱلْمُعَيَّنَةِ عِنْدَهُمْ لِذٰلِكَ فَيَخْرُجُ آخِرَهَا حُرُوفٌ مُتَقَطِّعَةٌ وَتُؤَلَّفُ عَلَى ٱلتَّوَالِي فَتَصِيرُ كَلِمَاتٍ مَنْظُومَةً فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ عَلَى وَزْنِ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي يُقَابَلُ بِهِ ٱلْعَمَلُ وَرَوِيِّهِ وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ بْنِ وَهِيبٍ ٱلْمُتَقَدِّمِ حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِي فَصْلِ ٱلْعُلُومِ عِنْدَ كَيْفِيَّةِ ٱلْعَمَلِ بِهٰذِهِ ٱلزَّايِرْجَةِ وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيراً مِنَ ٱلْخَوَاصِّ يَتَهَافَتُونَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْغَيْبِ مِنْهَا بِتِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا وَقَعَ مِنْ مُطَابَقَةِ ٱلْجَوَابِ لِلسُّؤَالِ فِي تَوَافُقِ ٱلْخِطَابِ دَلِيلٌ عَلَى مُطَابَقَةِ ٱلْوَاقِعِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ ٱلْغَيْبَ لَا يُدْرَكُ بِأَمْرٍ صِنَاعِيٍّ ٱلْبَتَّةَ وَإِنَّمَا ٱلْمُطَابَقَةُ ٱلَّتِي فِيهَا بَيْنَ ٱلْجَوَابِ وَٱلسُّؤَالِ مِنْ حَيْثُ ٱلْإِفْهَامُ وَٱلتَّوَافُقُ فِي ٱلْخِطَابِ حَتَّى يَكُونَ

ٱلْجَوَابُ مُسْتَقِيمًا أَوْ مُوَافِقًا لِلسُّؤَالِ وَوُقُوعُ ذٰلِكَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي تَكْسِيرِ ٱلْحُرُوفِ ٱلْمُجْتَمِعَةِ مِنَ ٱلسُّؤَالِ وَٱلْأَوْتَارِ وَٱلدُّخُولُ فِي ٱلْجَدْوَلِ بِٱلْأَعْدَادِ ٱلْمُجْتَمِعَةِ مِنْ ضَرْبِ ٱلْأَعْدَادِ ٱلْمَفْرُوضَةِ وَٱسْتِخْرَاجُ ٱلْحُرُوفِ مِنَ ٱلْجَدْوَلِ بِذٰلِكَ وَطَرْحُ أُخْرَى وَمُعَاوَدَةُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأَدْوَارِ ٱلْمَعْدُودَةِ وَمُقَابَلَةُ ذٰلِكَ كُلِّهِ بِحُرُوفِ ٱلْبَيْتِ عَلَى ٱلتَّوَالِي غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ وَقَدْ يَقَعُ ٱلِٱطِّلَاعُ مِنْ بَعْضِ ٱلْأَذْكِيَاءِ عَلَى تَنَاسُبٍ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ فَيَقَعُ لَهُ مَعْرِفَةُ ٱلْمَجْهُولِ فَٱلتَّنَاسُبُ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ هُوَ سَبَبُ ٱلْحُصُولِ عَلَى ٱلْمَجْهُولِ مِنَ ٱلْمَعْلُومِ ٱلْحَاصِلِ لِلنَّفْسِ وَطَرِيقٌ لِحُصُولِهِ سِيَّمَا مِنْ أَهْلِ ٱلرِّيَاضَةِ فَإِنَّهَا تُفِيدُ ٱلْعَقْلَ قُوَّةً عَلَى ٱلْقِيَاسِ وَزِيَادَةً فِي ٱلْفِكْرِ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ ذٰلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَمِنْ أَجْلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى يَنْسِبُونَ هٰذِهِ ٱلزَّايِرَجَةَ فِي ٱلْغَالِبِ لِأَهْلِ ٱلرِّيَاضَةِ فَهِيَ مَنْسُوبَةٌ لِلسَّبْتِيِّ وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى أُخْرَى مَنْسُوبَةٍ لِسَهْلِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ وَلَعَمْرِي إِنَّهَا مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْغَرِيبَةِ وَٱلْمُعَانَاةِ ٱلْعَجِيبَةِ وَٱلْجَوَابُ ٱلَّذِي يَخْرُجُ مِنْهَا فَٱلسِّرُّ فِي خُرُوجِهِ مَنْظُومًا يَظْهَرُ لِي إِنَّمَا هُوَ ٱلْمُقَابَلَةُ بِحُرُوفِ ذٰلِكَ ٱلْبَيْتِ وَلِهٰذَا يَكُونُ ٱلنَّظْمُ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيِّهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّا وَجَدْنَا أَعْمَالًا أُخْرَى لَهُمْ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ أَسْقَطُوا فِيهَا ٱلْمُقَابَلَةَ بِٱلْبَيْتِ فَلَمْ يَخْرُجِ ٱلْجَوَابُ مَنْظُومًا كَمَا تَرَاهُ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ذٰلِكَ فِي مَوْضِعِهِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ تَضِيقُ مَدَارِكُهُمْ عَنِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهٰذَا ٱلْعَمَلِ وَنُفُوذِهِ إِلَى ٱلْمَطْلُوبِ فَيُنْكِرُ صِحَّتَهَا وَيَحْسَبُ أَنَّهَا مِنَ ٱلتَّخَيُّلَاتِ وَٱلْإِيهَامَاتِ وَأَنَّ صَاحِبَ ٱلْعَمَلِ بِهَا يُثْبِتُ حُرُوفَ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي يَنْظِمُهُ كَمَا يُرِيدُ بَيْنَ أَثْنَاءِ حُرُوفِ ٱلسُّؤَالِ وَٱلْأَوْتَارِ وَيَفْعَلُ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَاتِ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَلَا قَانُونٍ ثُمَّ يَجِيءُ بِٱلْبَيْتِ وَيُوهِمُ أَنَّ ٱلْعَمَلَ جَاءَ عَلَى طَرِيقَةٍ مُنْضَبِطَةٍ وَهٰذَا ٱلْحُسْبَانُ تَوَهُّمٌ فَاسِدٌ حَمَلَ عَلَيْهِ ٱلْقُصُورُ عَنْ فَهْمِ ٱلتَّنَاسُبِ بَيْنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَٱلْمَعْدُومَاتِ وَٱلتَّفَاوُتُ بَيْنَ ٱلْمَدَارِكِ وَٱلْعُقُولِ وَلٰكِنْ مِنْ شَأْنِ كُلِّ مُدْرِكٍ إِنْكَارُ مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِ إِدْرَاكُهُ وَيَكْفِينَا فِي رَدِّ ذٰلِكَ مُشَاهَدَةُ ٱلْعَمَلِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْحَدْسُ ٱلْقَطْعِيُّ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَّرِدٍ وَقَانُونٍ صَحِيحٍ لَا مِرْيَةَ فِيهِ عِنْدَ مَنْ يُبَاشِرُ ذٰلِكَ مِمَّنْ لَهُ ذَكَاءٌ وَحَدْسٌ وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُعَايَاةِ فِي ٱلْعَدَدِ ٱلَّذِي هُوَ أَوْضَحُ ٱلْوَاضِحَاتِ يَعْسُرُ عَلَى ٱلْفَهْمِ إِدْرَاكُهُ لِبُعْدِ ٱلنِّسْبَةِ فِيهِ وَخَفَائِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِمِثْلِ هٰذَا مَعَ خَفَاءِ ٱلنِّسْبَةِ فِيهِ وَغَرَابَتِهَا فَلْنَذْكُرْ مَسْأَلَةً مِنَ ٱلْمُعَايَاةِ يَتَّضِحُ لَكَ بِهَا شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْنَا مِثَالُهُ لَوْ قِيلَ لَكَ خُذْ عَدَداً مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ وَٱجْعَلْ بِإِزَاءِ كُلِّ دِرْهَمٍ ثَلَاثَةً مِنْ

ٱلفُلُوسِ ثُمَّ ٱجمَعِ ٱلفُلُوسَ ٱلَّتِي أُخِذَتْ وَٱشْتَرِ بِهَا طَائِراً ثُمَّ ٱشْتَرِ بِٱلدَّرَاهِمِ كُلِّهَا طُيُوراً بِسِعْرِ ذَٰلِكَ ٱلطَّائِرِ فَكَمِ ٱلطُّيُورُ ٱلْمُشْتَرَاةُ بِٱلدَّرَاهِمِ فَجَوَابُهُ أَنْ تَقُولَ هِيَ تِسْعَةٌ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ فُلُوسَ ٱلدَّرَاهِمِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ وَأَنَّ ٱلثَّلَاثَةَ ثَمَنُهَا وَأَنَّ عِدَّةَ أَثْمَانِ ٱلْوَاحِدِ ثَمَانِيَةٌ فَإِذَا جَمَعْتَ ٱلثَّمَنَ مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ إِلَى ٱلثَّمَنِ ٱلْآخَرِ فَكَانَ كُلُّهُ ثَمَنَ طَائِرٍ فَهِيَ ثَمَانِيَةُ طُيُورٍ عِدَّةُ أَثْمَانِ ٱلْوَاحِدِ وَتَزِيدُ عَلَى ٱلثَّمَانِيَةِ طَائِراً آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُشْتَرَى بِٱلْفُلُوسِ ٱلْمَأْخُوذَةِ أَوَّلاً وَعَلَى سِعْرِهِ ٱشْتَرَيْتَ بِٱلدَّرَاهِمِ فَتَكُونُ تِسْعَةً فَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ خَرَجَ لَكَ ٱلْجَوَابُ ٱلْمُضْمَرُ بِسِرِّ ٱلتَّنَاسُبِ ٱلَّذِي بَيْنَ أَعْدَادِ ٱلْمَسْئَلَةِ وَٱلْوَهْمُ أَوَّلَ مَا يُلْقِي إِلَيْكَ هٰذِهِ وَأَمْثَالَهَا إِنَّمَا يَجْعَلُهُ مِنْ قَبِيلِ ٱلْغَيْبِ ٱلَّذِي لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ وَظَهَرَ أَنَّ ٱلتَّنَاسُبَ بَيْنَ ٱلْأُمُورِ هُوَ ٱلَّذِي يُخْرِجُ مَجْهُولَهَا مِنْ مَعْلُومِهَا وَهٰذَا إِنَّمَا هُوَ فِي ٱلْوَاقِعَاتِ ٱلْحَاصِلَةِ فِي ٱلْوُجُودِ أَوِ ٱلْعِلْمِ وَأَمَّا ٱلْكَائِنَاتُ ٱلْمُسْتَقْبَلَةُ إِذَا لَمْ تُعْلَمْ أَسْبَابُ وُقُوعِهَا وَلَا يَثْبُتُ لَهَا خَبَرٌ صَادِقٌ عَنْهَا فَهُوَ غَيْبٌ لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذَٰلِكَ فَٱلْأَعْمَالُ ٱلْوَاقِعَةُ فِي ٱلزَّايِرْجَةِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْجَوَابِ مِنْ أَلْفَاظِ ٱلسُّؤَالِ لِأَنَّهَا كَمَا رَأَيْتَ ٱسْتِنْبَاطُ حُرُوفٍ عَلَى تَرْتِيبٍ مِنْ تِلْكَ ٱلْحُرُوفِ بِعَيْنِهَا عَلَى تَرْتِيبٍ آخَرَ وَسِرُّ ذَٰلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَنَاسُبٍ بَيْنَهُمَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ فَمَنْ عَرَفَ ذَٰلِكَ ٱلتَّنَاسُبَ تَيَسَّرَ عَلَيْهِ ٱسْتِخْرَاجُ ذَٰلِكَ ٱلْجَوَابِ بِتِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ وَٱلْجَوَابُ يَدُلُّ فِي مَقَامٍ آخَرَ مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعِ أَلْفَاظِهِ وَتَرَاكِيبِهِ عَلَى وُقُوعِ أَحَدِ طَرَفَيِ ٱلسُّؤَالِ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ وَلَيْسَ هٰذَا مِنَ ٱلْمَقَامِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ إِنَّمَا يَرْجِعُ لِمُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمَا فِي ٱلْخَارِجِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَٰلِكَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَعْمَالِ بَلِ ٱلْبَشَرُ مَحْجُوبُونَ عَنْهُ وَقَدِ ٱسْتَأْثَرَ ٱللهُ بِعِلْمِهِ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ



الباب الثاني

في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الاول

في ان اجيال البدو والحضر طبيعية

إعلَمْ أنَّ ٱختلافَ ٱلأجيالِ في أحوالِهِمْ إنّما هُوَ بٱختلافِ نِحلَتِهِمْ مِنَ ٱلمَعاشِ فإنَّ ٱجتماعَهُمْ إنّما هُوَ للتَّعاوُنِ عَلَى تَحصيلِهِ وَٱلابتداءِ بما هُوَ ضَروريٌّ مِنهُ وَنَشيطٌ قَبلَ ٱلحاجيِّ وَٱلكَماليِّ فَمِنهُم مَنْ يَستَعمِلُ ٱلفَلحَ مِنَ ٱلغِراسَةِ وَٱلزِّراعَةِ وَمِنهُم مَنْ يَنتَحِلُ ٱلقيامَ عَلَى ٱلحَيَوانِ مِنَ ٱلغَنَمِ وَٱلبَقَرِ وَٱلمَعزِ وَٱلنَّحلِ وَٱلدُّودِ لِنِتاجِها وَٱستِخراجِ فَضَلاتِها وَهؤلاءِ ٱلقائِمونَ عَلَى ٱلفَلحِ وَٱلحَيَوانِ تَدعوهُمُ ٱلضَّرورَةُ ولا بُدَّ إلى ٱلبَدوِ لِأنَّهُ مُتَّسِعٌ لِما لا يَتَّسِعُ لَهُ ٱلحَواضِرُ مِنَ ٱلمَزارِعِ وَٱلفُدُنِ وَٱلمَسارِحِ لِلحَيَوانِ وَغَيرِ ذلِكَ فَكانَ ٱختِصاصُ هؤلاءِ بِٱلبَدوِ أمراً ضَرورِيّاً لَهُمْ وَكانَ حِينَئِذٍ ٱجتِماعُهُمْ وَتَعاوُنُهُمْ في حاجاتِهِم وَمَعاشِهِمْ وَعُمرانِهِم مِنَ ٱلقوتِ وَٱلكِنِّ وَٱلدِّفءِ إنّما هُوَ بِٱلمِقدارِ ٱلَّذي يَحفَظُ ٱلحَياةَ وَيُحَصِّلُ بُلغَةَ ٱلعَيشِ مِنْ غَيرِ مَزيدٍ عَلَيهِ لِلعَجزِ عَمّا وَراءَ ذلِكَ ثُمَّ إذا ٱتَّسَعَتْ أحوالُ هؤلاءِ ٱلمُنتَحِلينَ لِلمَعاشِ وَحَصَلَ لَهُمْ ما فَوقَ ٱلحاجَةِ مِنَ ٱلغِنَى وَٱلرَّفَهِ دَعاهُمْ ذلِكَ إلى ٱلسُّكونِ وَٱلدَّعَةِ وَتَعاوَنوا في ٱلزّائِدِ عَلَى ٱلضَّرورَةِ وَٱستَكثَروا مِنَ ٱلأقواتِ وَٱلمَلابِسِ وَٱلتَّأَنُّقِ فيها وَتَوسِعَةِ ٱلبُيوتِ وَٱختِطاطِ ٱلمُدُنِ وَٱلأمصارِ لِلتَّحَضُّرِ ثُمَّ تَزيدُ أحوالُ ٱلرَّفَهِ وَٱلدَّعَةِ فَتَجيءُ عَوائِدُ ٱلتَّرَفِ ٱلبالِغَةُ مَبالِغَها في ٱلتَّأَنُّقِ في عِلاجِ ٱلقوتِ وَٱستِجادَةِ ٱلمَطابِخِ وَٱنتِقاءِ ٱلمَلابِسِ ٱلفاخِرَةِ في أنواعِها مِنَ ٱلحَريرِ وَٱلدِّيباجِ وَغَيرِ ذلِكَ وَمُعالاةِ ٱلبُيوتِ وَٱلصُّروحِ وَإحكامِ وَضعِها في تَنجيدِها وَٱلانتِهاءِ في ٱلصَّنائِعِ في ٱلخُروجِ مِنَ ٱلقُوَّةِ إلى ٱلفِعلِ إلى غايَتِها فَيَتَّخِذونَ ٱلقُصورَ وَٱلمَنازِلَ وَيُجرونَ فيها ٱلمِياهَ وَيُعالونَ في صَرحِها وَيُبالِغونَ في تَنجيدِها وَيَختَلِفونَ في ٱستِجادَةِ ما يَتَّخِذونَهُ لِمَعاشِهِم مِنْ مَلبوسٍ أوْ فِراشٍ أوْ آنِيَةٍ أوْ ماعونٍ وَهؤلاءِ هُمُ ٱلحَضَرُ وَمَعناهُ ٱلحاضِرونَ أهلُ ٱلأمصارِ وَٱلبُلدانِ وَمِنْ هؤلاءِ مَنْ يَنتَحِلُ في مَعاشِهِ ٱلصَّنائِعَ وَمِنهُمْ مَنْ يَنتَحِلُ ٱلتِّجارَةَ

وَتَكُونُ مَكَاسِبُهُمْ أَنْمَى وَأَرْفَهَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَمَعَاشُهُمْ عَلَى نِسْبَةِ وَجْدِهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ ٱلْبَدْوِ وَٱلْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَاهُ

الفصل الثاني

في ان جيل العرب في الخلقة طبيعيٌّ

قَدْ قَدَّمْنَا فِي ٱلْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ هُمُ ٱلْمُنْتَحِلُونَ لِلْمَعَاشِ ٱلطَّبِيعِيِّ مِنَ ٱلْفَلْحِ وَٱلْقِيَامِ عَلَى ٱلْأَنْعَامِ وَأَنَّهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ مِنَ ٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلْمَسَاكِنِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْعَوَائِدِ وَمُقَصِّرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذٰلِكَ مِنْ حَاجِيٍّ أَوْ كَمَالِيٍّ يَتَّخِذُونَ ٱلْبُيُوتَ مِنَ ٱلشَّعْرِ وَٱلْوَبَرِ أَوِ ٱلشَّجَرِ أَوْ مِنَ ٱلطِّينِ وَٱلْحِجَارَةِ غَيْرَ مُنَجَّدَةٍ إِنَّمَا هُوَ قَصْدُ ٱلِٱسْتِظْلَالِ وَٱلْكِنِّ لَا مَا وَرَاءَهُ وَقَدْ يَأْوُونَ إِلَى ٱلْغِيرَانِ وَٱلْكُهُوفِ وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ فَيَتَنَاوَلُونَ بِهَا يَسِيراً بِعِلَاجٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلَاجٍ ٱلْبَتَّةَ إِلَّا مَا مَسَّتْهُ ٱلنَّارُ فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ مِنْهُمْ فِي ٱلزِّرَاعَةِ وَٱلْقِيَامِ بِٱلْفَلْحِ كَانَ ٱلْمُقَامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ ٱلظَّعْنِ وَهٰؤُلَاءِ سُكَّانُ ٱلْمَدَرِ وَٱلْقُرَى وَٱلْجِبَالِ وَهُمْ عَامَّةُ ٱلْبَرْبَرِ وَٱلْأَعَاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي ٱلسَّائِمَةِ مِثْلِ ٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ فَهُمْ ظُعَّنٌ فِي ٱلْأَغْلَبِ لِٱرْتِيَادِ ٱلْمَسَارِحِ وَٱلْمِيَاهِ لِحَيَوَانَاتِهِمْ فَٱلتَّقَلُّبُ فِي ٱلْأَرْضِ أَصْلَحُ بِهِمْ وَيُسَمَّوْنَ شَاوِيَةً وَمَعْنَاهُ ٱلْقَائِمُونَ عَلَى ٱلشَّاءِ وَٱلْبَقَرِ وَلَا يُبْعِدُونَ فِي ٱلْقَفْرِ لِفُقْدَانِ ٱلْمَسَارِحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَهٰؤُلَاءِ مِثْلُ ٱلْبَرْبَرِ وَٱلتُّرْكِ وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ ٱلتُّرْكُمَانِ وَٱلصَّقَالِبَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي ٱلْإِبِلِ فَهُمْ أَكْثَرُ ظَعْناً وَأَبْعَدُ فِي ٱلْقَفْرِ مَجَالاً لِأَنَّ مَسَارِحَ ٱلتُّلُولِ وَنَبَاتَهَا وَشَجَرَهَا لَا يَسْتَغْنِي بِهَا ٱلْإِبِلُ فِي قِوَامِ حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِي ٱلشَّجَرِ بِٱلْقَفْرِ وَوُرُودِ مِيَاهِهِ ٱلْمِلْحَةِ وَٱلتَّقَلُّبِ فَصْلَ ٱلشِّتَاءِ فِي نَوَاحِيهِ فِرَاراً مِنْ أَذَى ٱلْبَرْدِ إِلَى دِفْءِ هَوَائِهِ وَطَلَباً لِمَاخِضِ ٱلنِّتَاجِ فِي رِمَالِهِ إِذِ ٱلْإِبِلُ أَصْعَبُ ٱلْحَيَوَانِ فِصَالاً وَمَخَاضاً وَأَحْوَجُهَا فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلدِّفْءِ فَٱضْطُرُّوا إِلَى إِبْعَادِ ٱلنُّجْعَةِ وَرُبَّمَا ذَادَتْهُمُ ٱلْحَامِيَةُ عَنِ ٱلتُّلُولِ أَيْضاً فَأَوْغَلُوا فِي ٱلْقِفَارِ نَفْرَةً عَنِ ٱلضَّعَةِ مِنْهُمْ فَكَانُوا لِذٰلِكَ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ تَوَحُّشاً وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَوَاضِرِ مَنْزِلَةَ ٱلْوَحْشِ غَيْرِ ٱلْمَقْدُورِ عَلَيْهِ وَٱلْمُفْتَرِسِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ ٱلْعُجْمِ وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْعَرَبُ وَفِي مَعْنَاهُمْ ظُعُونُ ٱلْبَرْبَرِ وَزَنَاتَةَ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَكْرَادِ وَٱلتُّرْكُمَانِ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ إِلَّا أَنَّ ٱلْعَرَبَ أَبْعَدُ نُجْعَةً وَأَشَدُّ بَدَاوَةً لِأَنَّهُمْ مُخْتَصُّونَ بِٱلْقِيَامِ عَلَى

ٱلإِبِلِ فَقَطْ وَهٰؤُلاءِ يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى ٱلشِّيَاهِ وَٱلْبَقَرِ مَعَهَا فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِيلَ ٱلْعَرَبِ طَبِيعِيٌّ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثالث

في ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار مدد لها

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ ٱلْبَدْوَ هُمُ ٱلْمُقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ فِي أَحْوَالِهِمِ ٱلْعَاجِزُونَ عَمَّا فَوْقَهُ وَأَنَّ ٱلْحَضَرَ ٱلْمُعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْكَمَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَلَا شَكَّ أَنَّ ٱلضَّرُورِيَّ أَقْدَمُ مِنَ ٱلْحَاجِيِّ وَٱلْكَمَالِيِّ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ وَلِأَنَّ ٱلضَّرُورِيَّ أَصْلٌ وَٱلْكَمَالِيَّ فَرْعٌ نَاشِئٌ عَنْهُ فَٱلْبَدْوُ أَصْلٌ لِلْمُدُنِ وَٱلْحَضَرِ وَسَابِقٌ عَلَيْهِمَا لِأَنَّ أَوَّلَ مَطَالِبِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلضَّرُورِيُّ وَلَا يَنْتَهِي إِلَى ٱلْكَمَالِ وَٱلتَّرَفِ إِلَّا إِذَا كَانَ ٱلضَّرُورِي حَاصِلاً فَخُشُونَةُ ٱلْبَدَاوَةِ قَبْلَ رِقَّةِ ٱلْحَضَارَةِ وَلِهٰذَا نَجِدُ ٱلتَّمَدُّنَ غَايَةً لِلْبَدَوِيِّ يَجْرِي إِلَيْهَا وَيَنْتَهِي بِسَعْيِهِ إِلَى مُقْتَرَحِهِ مِنْهَا وَمَتَى حَصَلَ عَلَى ٱلرِّيَاشِ ٱلَّذِي يَحْصُلُ لَهُ بِهِ أَحْوَالُ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ عَاجَ إِلَى ٱلدَّعَةِ وَأَمْكَنَ نَفْسَهُ إِلَى قِيَادِ ٱلْمَدِينَةِ وَهٰكَذَا شَأْنُ ٱلْقَبَائِلِ ٱلْمُتَبَدِّيَةِ كُلِّهِمْ وَٱلْحَضَرِيُّ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَى أَحْوَالِ ٱلْبَادِيَةِ إِلَّا لِضَرُورَةٍ تَدْعُوهُ إِلَيْهَا أَوْ لِتَقْصِيرٍ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَمِمَّا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ ٱلْبَدْوَ أَصْلٌ لِلْحَضَرِ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ أَنَّا إِذَا فَتَّشْنَا أَهْلَ مِصْرٍ مِنَ ٱلْأَمْصَارِ وَجَدْنَا أَوَّلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ ٱلَّذِينَ بِنَاحِيَةِ ذٰلِكَ ٱلْمِصْرِ وَعَدَلُوا إِلَى ٱلدَّعَةِ وَٱلتَّرَفِ ٱلَّذِي فِي ٱلْحَضَرِ وَذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحْوَالَ ٱلْحَضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنْ أَحْوَالِ ٱلْبَدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلٌ لَهَا فَتَفَهَّمْهُ. ثُمَّ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْبَدْوِ وَٱلْحَضَرِ مُتَفَاوِتُ ٱلْأَحْوَالِ مِنْ جِنْسِهِ فَرُبَّ حَيٍّ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ وَقَبِيلَةٍ أَعْظَمُ مِنْ قَبِيلَةٍ وَمِصْرٍ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ وَمَدِينَةٍ أَكْثَرُ عُمْرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وُجُودَ ٱلْبَدْوِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ وَأَصْلٌ لَهَا بِمَا أَنَّ وُجُودَ ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلدَّعَةِ ٱلَّتِي هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ ٱلضَّرُورَةِ ٱلْمَعَاشِيَّةِ وَٱللهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع

في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

وَسَبَبُهُ أَنَّ ٱلنَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلأُولَى كَانَتْ مُتَهَيِّئَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا وَيَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ وَبِقَدْرِ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ ٱلْخُلُقَيْنِ تَبْعُدُ عَنِ ٱلآخَرِ وَيَصْعُبُ عَلَيْهَا ٱكْتِسَابُهُ فَصَاحِبُ ٱلْخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدُ ٱلْخَيْرِ وَحَصَلَتْ لَهَا مَلَكَتُهُ بَعُدَ عَنِ ٱلشَّرِّ وَصَعُبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ وَكَذَا صَاحِبُ ٱلشَّرِّ إِذَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ أَيْضاً عَوَائِدُهُ وَأَهْلُ ٱلْحَضَرِ لِكَثْرَةِ مَا يُعَانُونَ مِنْ فُنُونِ ٱلْمَلَاذِّ وَعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْإِقْبَالِ عَلَى ٱلدُّنْيَا وَٱلْعُكُوفِ عَلَى شَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا وَقَدْ تَلَوَّثَتْ أَنْفُسُهُمْ بِكَثِيرٍ مِنْ مَذْمُومَاتِ ٱلْخُلُقِ وَٱلشَّرِّ وَبَعُدَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقُ ٱلْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ ٱلْحِشْمَةِ فِي أَحْوَالِهِمْ فَتَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهُمْ يُقْذِعُونَ فِي أَقْوَالِ ٱلْفَحْشَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَبَيْنَ كُبَرَائِهِمْ وَأَهْلِ مَحَارِمِهِمْ لَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَازِعُ ٱلْحِشْمَةِ لِمَا أَخَذَتْهُمْ بِهِ عَوَائِدُ ٱلسُّوءِ فِي ٱلتَّظَاهُرِ بِٱلْفَوَاحِشِ قَوْلاً وَعَمَلاً وَأَهْلُ ٱلْبَدْوِ وَإِنْ كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى ٱلدُّنْيَا مِثْلَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ فِي ٱلْمِقْدَارِ ٱلضَّرُورِيِّ لَا فِي ٱلتَّرَفِ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱللَّذَّاتِ وَدَوَاعِيهَا فَعَوَائِدُهُمْ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ عَلَى نِسْبَتِهَا وَمَا يَحْصُلُ فِيهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلسُّوءِ وَمَذْمُومَاتِ ٱلْخُلُقِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ ٱلْحَضَرِ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلأُولَى وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ سُوءِ ٱلْمَلَكَاتِ بِكَثْرَةِ ٱلْعَوَائِدِ ٱلْمَذْمُومَةِ وَقُبْحِهَا فَيَسْهُلُ عِلَاجُهُمْ عَنْ عِلَاجِ ٱلْحَضَرِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَقَدْ يَتَوَضَّحُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ هِيَ نِهَايَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَخُرُوجُهُ إِلَى ٱلْفَسَادِ وَنِهَايَةُ ٱلشَّرِّ وَٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلْخَيْرِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَضَرِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ ٱلْبُخَارِيِّ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ بْنِ ٱلْأَكْوَعِ وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى ٱلْبَادِيَةِ فَقَالَ لَهُ ٱرْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ فَقَالَ لَا وَلَكِنَّ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِي فِي ٱلْبَدْوِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْهِجْرَةَ ٱفْتُرِضَتْ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَكُونُوا مَعَ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ حَلَّ مِنَ ٱلْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيَحْرُسُونَهُ وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى ٱلْأَعْرَابِ

أهلِ ٱلبَادِيَةِ لِأَنَّ أهلَ مَكَّةَ يَمَسُّهُم مِنْ عَصَبِيَّةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ٱلْمُظَاهَرَةِ وَٱلْحِرَاسَةِ مَا لاَ يَمَسُّ غَيْرَهُم مِنْ بَادِيَةِ ٱلْأَعْرَابِ وَقَدْ كَانَ ٱلْمُهَاجِرُونَ يَسْتَعِيذُونَ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلتَّعَرُّبِ وَهُوَ سُكْنَى ٱلبَادِيَةِ حَيْثُ لاَ تَجِبُ ٱلْهِجْرَةُ وَقَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حديثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عِنْدَ مَرَضِهِ بِمَكَّةَ ٱللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُم عَلَى أَعْقَابِهِم وَمَعْنَاهُ أَنْ يُوَفِّقَهُمْ لِمُلَازَمَةِ ٱلْمَدِينَةِ وَعَدَمِ ٱلتَّحَوُّلِ عَنْهَا فَلاَ يَرْجِعُوا عنْ هِجْرَتِهِمْ ٱلَّتِي ٱبْتَدَأُوا بِهَا وَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلرُّجُوعِ عَلَى ٱلْعَقِبِ فِي ٱلسَّعْيِ إِلَى وَجْهٍ مِنَ ٱلْوُجُوهِ وَقِيلَ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ خَاصًّا بِمَا قَبْلَ ٱلْفَتْحِ حِينَ كَانَتِ ٱلْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى ٱلْهِجْرَةِ لِقِلَّةِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا بَعْدَ ٱلْفَتْحِ وَحِينَ كَثُرَ ٱلْمُسْلِمُونَ وَٱعْتَزُّوا وَتَكَفَّلَ ٱللَّهُ لِنَبِيِّهِ بِٱلْعِصْمَةِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ٱلْهِجْرَةَ سَاقِطَةٌ حِينَئِذٍ لِقَوْلِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ ٱلْفَتْحِ وَقِيلَ سَقَطَ إِنْشَاؤُهَا عَمَّنْ يُسْلِمُ بَعْدَ ٱلْفَتْحِ وَقِيلَ سَقَطَ وُجُوبُهَا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ قَبْلَ ٱلْفَتْحِ وَٱلْكُلُّ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهَا بَعْدَ ٱلْوَفَاةِ سَاقِطَةٌ لِأَنَّ ٱلصَّحَابَةَ ٱفْتَرَقُوا مِنْ يَوْمِئِذٍ فِي ٱلْآفَاقِ وَٱنْتَشَرُوا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَضْلُ ٱلسُّكْنَى بِٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ هِجْرَةٌ فَقَوْلُ ٱلْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ حِينَ سَكَنَ ٱلبَادِيَةَ ٱرْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ نَعَى عَلَيْهِ فِي تَرْكِ ٱلسُّكْنَى بِٱلْمَدِينَةِ بِٱلْإِشَارَةِ إِلَى ٱلدُّعَاءِ ٱلْمَأْثُورِ ٱلَّذِي قَدَّمْنَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لاَ تَرُدَّهُم عَلَى أَعْقَابِهِم وَقَوْلُهُ تَعَرَّبْتَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ صَارَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ٱلَّذِينَ لاَ يُهَاجِرُونَ وَأَجَابَ سَلَمَةُ بِإِنْكَارِ مَا أَلْزَمَهُ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ وَإِنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لَهُ فِي ٱلْبَدْوِ وَيَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا بِهِ كَشَهَادَةِ خُزَيْمَةَ وَعَنَاقِ أَبِي بُرْدَةَ أَوْ يَكُونُ ٱلْحَجَّاجُ إِنَّمَا نَعَى عَلَيْهِ تَرْكَ ٱلسُّكْنَى بِٱلْمَدِينَةِ فَقَطْ لِعِلْمِهِ بِسُقُوطِ ٱلْهِجْرَةِ بَعْدَ ٱلْوَفَاةِ وَأَجَابَهُ سَلَمَةُ بِأَنَّ ٱغْتِنَامَهُ لِإِذْنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى وَأَفْضَلُ فَمَا آثَرَهُ بِهِ وَٱخْتَصَّهُ إِلَّا لِمَعْنًى عَلِمَهُ فِيهِ وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى مَذَمَّةِ ٱلْبَدْوِ ٱلَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِٱلتَّعَرُّبِ لِأَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ ٱلْهِجْرَةِ إِنَّمَا كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ لِمُظَاهَرَةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِرَاسَتِهِ لاَ لِمَذَمَّةِ ٱلْبَدْوِ فَلَيْسَ فِي ٱلنَّعْيِ عَلَى تَرْكِ هَذَا ٱلْوَاجِبِ دَلِيلٌ عَلَى مَذَمَّةِ ٱلتَّعَرُّبِ وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الخامس

في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ أَلْقَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مِهَادِ الرَّاحَةِ وَالدَّعَةِ وَانْغَمَسُوا فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ وَوَكَلُوا أَمْرَهُمْ فِي الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ وَالْحَاكِمِ الَّذِي يَسُوسُهُمْ وَالْحَامِيَةِ الَّتِي تَوَلَّتْ حِرَاسَتَهُمْ وَاسْتَنَامُوا إِلَى الْأَسْوَارِ الَّتِي تَحُوطُهُمْ وَالْحِرْزِ الَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلَا تَهِيجُهُمْ هَيْعَةٌ وَلَا يَنْفِرُ لَهُمْ صَيْدٌ فَهُمْ غَارُّونَ آمِنُونَ قَدْ أَلْقَوُا السِّلَاحَ وَتَوَالَتْ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمُ الْأَجْيَالُ وَتَنَزَّلُوا مَنْزِلَةَ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى أَبِي مَثْوَاهُمْ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ خُلُقاً يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ وَأَهْلُ الْبَدْوِ لِتَفَرُّدِهِمْ عَنِ الْمُجْتَمَعِ وَتَوَحُّشِهِمْ فِي الضَّوَاحِي وَبُعْدِهِمْ عَنِ الْحَامِيَةِ وَانْتِبَاذِهِمْ عَنِ الْأَسْوَارِ وَالْأَبْوَابِ قَائِمُونَ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا يَكِلُونَهَا إِلَى سِوَاهُمْ وَلَا يَثِقُونَ فِيهَا بِغَيْرِهِمْ فَهُمْ دَائِماً يَحْمِلُونَ السِّلَاحَ وَيَتَلَفَّتُونَ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي الطُّرُقِ وَيَتَجَافَوْنَ عَنِ الْهُجُوعِ إِلَّا غِرَاراً فِي الْمَجَالِسِ وَعَلَى الرِّحَالِ وَفَوْقَ الْأَقْتَابِ وَيَتَوَجَّسُونَ لِلنَّبَآتِ وَالْهَيْعَاتِ وَيَتَفَرَّدُونَ فِي الْقَفْرِ وَالْبَيْدَاءِ مُدِلِّينَ بِبَأْسِهِمْ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ قَدْ صَارَ لَهُمُ الْبَأْسُ خُلُقاً وَالشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مَتَى دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوِ اسْتَنْفَرَهُمْ صَارِخٌ وَأَهْلُ الْحَضَرِ مَهْمَا خَالَطُوهُمْ فِي الْبَادِيَةِ أَوْ صَاحَبُوهُمْ فِي السَّفَرِ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُمْ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ أَنْفُسِهِمْ وَذَلِكَ مُشَاهَدٌ بِالْعِيَانِ حَتَّى فِي مَعْرِفَةِ النَّوَاحِي وَالْجِهَاتِ وَمَوَارِدِ الْمِيَاهِ وَمَشَارِعِ السُّبُلِ وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا شَرَحْنَاهُ وَأَصْلُهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ عَوَائِدِهِ وَمَأْلُوفِهِ لَا ابْنُ طَبِيعَتِهِ وَمِزَاجِهِ فَالَّذِي أَلِفَهُ فِي الْأَحْوَالِ حَتَّى صَارَ خُلُقاً وَمَلَكَةً وَعَادَةً تَنَزَّلَ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ وَالْجِبِلَّةِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْآدَمِيِّينَ تَجِدْهُ كَثِيراً صَحِيحاً وَاللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل السادس

في ان معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ مَالِكَ أَمْرِ نَفْسِهِ إِذِ الرُّؤَسَاءُ وَالْأُمَرَاءُ الْمَالِكُونَ لِأَمْرِ النَّاسِ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ فَمِنَ الْغَالِبِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي مَلَكَةِ غَيْرِهِ وَلَا بُدَّ فَإِنْ كَانَتِ الْمَلَكَةُ رَفِيقَةً وَعَادِلَةً لَا يُعَانَى مِنْهَا حُكْمٌ وَلَا مَنْعٌ وَصَدٌّ كَانَ النَّاسُ مِنْ تَحْتَ

يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الإدلال جبلة لا يعرفون سواها وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه وقد نهى عمر سعداً رضي الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوية سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفاً من الذهب وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فانتزعه منه سعد وقال له هلا انتظرت في اتباعه إذني وكتب إلى عمر يستأذنه فكتب إليه عمر تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه وتفسد قلبه وأمضى له عمر سلبه وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمذهبة للبأس بالكلية لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لمرباه على المخافة والانقياد فلا يكون مدلاً ببأسه ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذه الأحكام ونجد أيضاً الذين يعانون الأحكام وملكتها من لدن مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيراً ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة والأخذ عن المشايخ والأيمة الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة فيهم هذه الأحوال وذهابها بالمنعة والبأس ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأساً لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلي عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي إنما هي أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلا يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم قال عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله حرصاً على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقيناً بأن الشارع أعلم بمصالح العباد

وَلَمَّا تَنَاقَصَ الدِينُ في ٱلنَّاسِ وَأَخذُوا بِٱلأَحكَامِ ٱلوَازِعَةِ ثُمَّ صَارَ ٱلشَّرْعُ عِلماً وَصِنَاعَة يؤخذُ بِٱلتَّعلِيمِ وَٱلتَّأدِيبِ وَرَجعَ ٱلنَّاسُ إلى ٱلحَضَارَةِ وَخُلُقِ ٱلانقِيَادِ إلى ٱلأَحكَامِ نقصَتْ بِذَلِكَ سَورَةُ ٱلبَأسِ فِيهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلأَحكَامَ ٱلسُّلطَانِيَّةَ وَٱلتَّعلِيمِيَّةَ مُفسِدَة لِلبَأسِ لِأَنَّ ٱلوَازِعَ فِيهَا ذَاتِي وَلِهَذَا كَانَتْ هذِهِ ٱلأَحكَامُ ٱلسُّلطَانِيَّةُ وَٱلتَّعلِيمِيَّةُ مِمَّا تؤثِّرُ في أَهلِ ٱلحَوَاضِرِ في ضَعفِ نُفُوسِهِمْ وَخَضدِ ٱلشَّوكَةِ مِنهُمْ بِمُعَانَاتِهِمْ في وَلِيدِهِم وَكُهُولِهِمْ وَٱلبَدْوُ بِمَعزِلٍ مِنْ هذِهِ ٱلمَنزِلَةِ لِبُعدِهِمْ عَنْ أَحكَامِ ٱلسُّلطَانِ وَٱلتَّعلِيمِ وَٱلآدَابِ وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي زَيدٍ في كِتَابِهِ في أَحكَامِ ٱلمُعَلِّمِينَ وَٱلمُتَعَلِّمِينَ أَنَّهُ لَا يَنبَغِي لِلمُؤَدِّبِ أَنْ يَضرِبَ أَحداً مِنَ ٱلصِّبيَانِ في ٱلتَّعلِيمِ فَوقَ ثَلَاثَةِ أَسوَاطٍ نَقَلَهُ عَنْ شُرَيحٍ ٱلقَاضِي وَٱحتَجَّ لَهُ بَعضُهُمْ بِمَا وَقَعَ في حَدِيثِ بَدءِ ٱلوَحيِ مِنْ شَأنِ ٱلغَطِّ وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَلَا يَصلُحُ شَأنُ ٱلغَطِّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلاً عَلَى ذَلِكَ لِبُعدِهِ عَنِ ٱلتَّعلِيمِ ٱلمُتَعَارَفِ وَٱللّهُ ٱلحَكِيمُ ٱلخَبِيرُ

الفصل السابع

في ان سكنى البدو لا تكون الا للقبائل اهل العصبية

إِعلَمْ أَنَّ ٱللّهَ سُبحَانَهُ رَكَّبَ في طَبَائِعِ ٱلبَشَرِ ٱلخَيرَ وَٱلشَّرَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى وَهَدَينَاهُ ٱلنَّجدَينِ وَقَالَ فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقوَاهَا وَٱلشَّرُّ أَقرَبُ ٱلخِلَالِ إِلَيهِ إِذَا أُهمِلَ في مَرعَى عَوَائِدِهِ وَلَمْ يُهَذِّبهُ ٱلاقتِدَاءُ بِٱلدِّينِ وَعَلَى ذَلِكَ ٱلجَمُّ ٱلغَفِيرُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ ٱللّهُ وَمِنْ أَخلَاقِ ٱلبَشَرِ فِيهِمِ ٱلظُّلمُ وَٱلعُدوَانُ بَعضٌ عَلَى بَعضٍ فَمَنِ ٱمتَدَّتْ عَينُهُ إِلَى مَتَاعِ أَخِيهِ فَقَدِ ٱمتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى أَخذِهِ إِلَّا أَنْ يَصُدَّهُ وَازِعٌ كَمَا قَالَ

وَٱلظُّلمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظلِمُ

فَأَمَّا ٱلمُدُنُ وَٱلأَمصَارُ فَعُدوَانُ بَعضِهِمْ عَلَى بَعضٍ تَدفَعُهُ ٱلحُكَّامُ وَٱلدَّولَةُ بِمَا قَبَضُوا عَلَى أَيدِي مَنْ تَحتَهُمْ مِنَ ٱلكَافَّةِ أَنْ يَمتَدَّ بَعضُهُمْ عَلَى بَعضٍ أَوْ يَعدُوَ عَلَيهِ فَهُمْ مَكبُوحُونَ بِحَكَمَةِ ٱلقَهرِ وَٱلسُّلطَانِ عَنِ ٱلتَّظَالُمِ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ ٱلحَاكِمِ بِنَفسِهِ وَأَمَّا ٱلعُدوَانُ ٱلَّذِي مِنْ خَارِجِ ٱلمَدِينَةِ فَيَدفَعُهُ سِيَاجُ ٱلأَسوَارِ عِندَ ٱلغَفلَةِ أَوِ ٱلغِرَّةِ لَيلاً أَوِ ٱلعَجزِ عَنِ ٱلمُقَاوَمَةِ نَهَاراً أَوْ يَدفَعُهُ ٱزدِيَادُ ٱلحَامِيَةِ مِنْ أَعوَانِ ٱلدَّولَةِ عِندَ ٱلاستِعدَادِ وَٱلمُقَاوَمَةِ وَأَمَّا أَحيَاءُ ٱلبَدْوِ فَيَزَعُ بَعضَهُمْ عَنْ بَعضٍ مَشَائِخُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ بِمَا وَقَرَ في

نُفوسِ ٱلكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَٱلتَّجِلَّةِ وَأَمَّا حِلَلُهُمْ فَإِنَّمَا يَذُودُ عَنْهَا مِنْ خَارِجٍ حَامِيَةُ ٱلْحَيِّ مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفِتْيَانِهِمِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِٱلشَّجَاعَةِ فِيهِمْ وَلَا يَصْدُقُ دِفَاعُهُمْ وَذِيَادُهُمْ إِلاَّ إِذَا كَانُوا عَصَبِيَّةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ وَيُخْشَى جَانِبُهُمْ إِذْ نُعْرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ أَهَمُّ وَمَا جَعَلَ ٱللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ ٱلشَّفَقَةِ وَٱلنُّعْرَةِ[1] عَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَاهُمْ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلطَّبَائِعِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَبِهَا يَكُونُ ٱلتَّعَاضُدُ وَٱلتَّنَاصُرُ وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ ٱلْعَدُوِّ لَهُمْ وَٱعْتَبِرْ ذَلِكَ فِيمَا حَكَاهُ ٱلْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حِينَ قَالُوا لِأَبِيهِ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ وَٱلْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُتَوَهَّمُ ٱلْعُدْوَانُ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ ٱلْعُصْبَةِ لَهُ وَأَمَّا ٱلْمُتَفَرِّدُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ فَقَلَّ أَنْ تُصِيبَ أَحَداً مِنْهُمْ نُعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَإِذَا أَظْلَمَ ٱلْجَوُّ بِٱلشَّرِّ يَوْمَ ٱلْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَبْغِي ٱلنَّجَاةَ لِنَفْسِهِ خِيفَةً وَٱسْتِيحَاشاً مِنَ ٱلتَّخَاذُلِ فَلَا يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سُكْنَى ٱلْقَفْرِ لِمَا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ طُعْمَةٌ لِمَنْ يَلْتَهِمُهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي ٱلسُّكْنَى ٱلَّتِي تَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَٱلْحِمَايَةِ فَبِمِثْلِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَحْمِلُ ٱلنَّاسَ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ إِقَامَةِ مُلْكٍ أَوْ دَعْوَةٍ إِذْ بُلُوغُ ٱلْغَرَضِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِٱلْقِتَالِ عَلَيْهِ لِمَا فِي طَبَائِعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلِٱسْتِعْصَاءِ وَلَا بُدَّ فِي ٱلْقِتَالِ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفاً فَٱتَّخِذْهُ إِمَاماً تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيْكَ بَعْدُ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ

الفصل الثامن

في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه

وَذَلِكَ أَنَّ صِلَةَ ٱلرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلْبَشَرِ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَمِنْ صِلَتِهَا ٱلنُّعْرَةُ عَلَى ذَوِي ٱلْقُرْبَى وَأَهْلِ ٱلْأَرْحَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ ضَيْمٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَلَكَةٌ فَإِنَّ ٱلْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً مِنْ ظُلْمِ قَرِيبِهِ أَوِ ٱلْعِدَاءِ عَلَيْهِ وَيَوَدُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ ٱلْمَعَاطِبِ وَٱلْمَهَالِكِ نَزْعَةٌ طَبِيعِيَّةٌ فِي ٱلْبَشَرِ مُذْ كَانُوا فَإِذَا كَانَ ٱلنَّسَبُ ٱلْمُتَوَاصِلُ بَيْنَ ٱلْمُتَنَاصِرِينَ قَرِيباً جِدّاً بِحَيْثُ حَصَلَ بِهِ ٱلِٱتِّحَادُ وَٱلِٱلْتِحَامُ كَانَتِ ٱلْوُصْلَةُ ظَاهِرَةً فَٱسْتَدْعَتْ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِهَا وَوُضُوحِهَا وَإِذَا بَعُدَ ٱلنَّسَبُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ فَرُبَّمَا تُنُوسِيَ بَعْضُهَا وَيَبْقَى مِنْهَا شُهْرَةٌ

(١) النعرة والنعار بالضم فيهما والنعير الصراخ والصياح في حرب او شر كما في القاموس

فَتَحْمِلُ عَلَى ٱلنُّصْرَةِ لِذَوِي نَسَبِهِ بِٱلْأَمْرِ ٱلْمَشْهُورِ مِنْهُ فِرَاراً مِنَ ٱلْغَضَاضَةِ ٱلَّتِي يَتَوَهَّمُهَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ظُلْمِ مَنْ هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ ٱلْوَلَاءُ وَٱلْحِلْفُ إِذْ نُعْرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى أَهْلِ وَلَائِهِ وَحِلْفِهِ لِلْأَلَفَةِ ٱلَّتِي تَلْحَقُ ٱلنَّفْسَ مِنَ ٱهْتِضَامِ جَارِهَا أَوْ قَرِيبِهَا أَوْ نَسِيبِهَا بِوَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ ٱلنَّسَبِ وَذٰلِكَ لِأَجْلِ ٱللُّحْمَةِ ٱلْحَاصِلَةِ مِنَ ٱلْوَلَاءِ مِثْلَ لُحْمَةِ ٱلنَّسَبِ أَوْ قَرِيباً مِنْهَا وَمِنْ هٰذَا تَفْهَمُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ بِمَعْنَى أَنَّ ٱلنَّسَبَ إِنَّمَا فَائِدَتُهُ هٰذَا ٱلِٱلْتِحَامُ ٱلَّذِي يُوجِبُ صِلَةَ ٱلْأَرْحَامِ حَتَّى تَقَعَ ٱلْمُنَاصَرَةُ وَٱلنُّعْرَةُ وَمَا فَوْقَ ذٰلِكَ مُسْتَغْنًى عَنْهُ إِذِ ٱلنَّسَبُ أَمْرٌ وَهْمِيٌّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَنَفْعُهُ إِنَّمَا هُوَ فِي هٰذِهِ ٱلْوُصْلَةِ وَٱلِٱلْتِحَامِ فَإِذَا كَانَ ظَاهِراً وَاضِحاً حَمَلَ ٱلنُّفُوسَ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ ٱلنُّعْرَةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ ٱلْخَبَرِ ٱلْبَعِيدِ ضَعُفَ فِيهِ ٱلْوَهْمُ وَذَهَبَتْ فَائِدَتُهُ وَصَارَ ٱلشُّغْلُ بِهِ مَجَّاناً وَمِنْ أَعْمَالِ ٱللَّهْوِ ٱلْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَمِنْ هٰذَا ٱلِٱعْتِبَارِ مَعْنَى قَوْلِهِمْ ٱلنَّسَبُ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ وَجَهَالَةٌ لَا تَضُرُّ بِمَعْنَى أَنَّ ٱلنَّسَبَ إِذَا خَرَجَ عَنِ ٱلْوُضُوحِ وَصَارَ مِنْ قَبِيلِ ٱلْعُلُومِ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ ٱلْوَهْمِ فِيهِ عَنِ ٱلنَّفْسِ وَٱنْتَفَتِ ٱلنُّعْرَةُ ٱلَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا ٱلْعَصَبِيَّةُ فَلَا مَنْفَعَةَ فِيهِ حِينَئِذٍ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع

في ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم

وَذٰلِكَ لِمَا ٱخْتُصُّوا بِهِ مِنْ نَكَدِ ٱلْعَيْشِ وَشَظَفِ ٱلْأَحْوَالِ وَسُوءِ ٱلْمَوَاطِنِ حَمَلَتْهُمْ عَلَيْهَا ٱلضَّرُورَةُ ٱلَّتِي عَيَّنَتْ لَهُمْ تِلْكَ ٱلْقِسْمَةَ وَهِيَ لَمَّا كَانَ مَعَاشُهُمْ مِنَ ٱلْقِيَامِ عَلَى ٱلْإِبِلِ وَنِتَاجِهَا وَرِعَايَتِهَا وَٱلْإِبِلُ تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلتَّوَحُّشِ فِي ٱلْقَفْرِ لِرَعْيِهَا مِنْ شَجَرِهِ وَنِتَاجِهَا فِي رِمَالِهِ كَمَا تَقَدَّمَ وَٱلْقَفْرُ مَكَانُ ٱلشَّظَفِ وَٱلسَّغَبِ فَصَارَ لَهُمْ إِلْفاً وَعَادَةً وَرَبِيَتْ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ حَتَّى تَمَكَّنَتْ خُلُقاً وَجِبِلَّةً فَلَا يَنْزِعُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْأُمَمِ أَنْ يُسَاهِمَهُمْ فِي حَالِهِمْ وَلَا يَأْنَسُ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْأَجْيَالِ بَلْ لَوْ وَجَدَ وَاحِدٌ مِنْهُمُ ٱلسَّبِيلَ إِلَى ٱلْفِرَارِ مِنْ حَالِهِ وَأَمْكَنَهُ ذٰلِكَ لَمَا تَرَكَهُ فَيُؤْمَنُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ ذٰلِكَ مِنِ ٱخْتِلَاطِ أَنْسَابِهِمْ وَفَسَادِهَا وَلَا تَزَالُ بَيْنَهُمْ مَحْفُوظَةً صَرِيحَةً وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي مُضَرَ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ وَثَقِيفَ وَبَنِي أَسَدٍ وَهُذَيْلٍ وَمَنْ جَاوَرَهُمْ مِنْ خُزَاعَةَ لَمَّا كَانُوا أَهْلَ شَظَفٍ وَمَوَاطِنَ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ

وَلاَ ضَرْعٍ وَبَعُدُوا مِنْ أَرْيَافِ ٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَمَعَادِنِ ٱلْأَدَمِ وَٱلْحُبُوبِ كَيْفَ كَانَتْ أَنْسَابُهُمْ صَرِيحَةً مَحْفُوظَةً لَمْ يَدْخُلْهَا ٱخْتِلاَطٌ وَلاَ عُرِفَ فِيهَا شَوْبٌ وَأَمَّا ٱلْعَرَبُ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِٱلتُّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ ٱلْخِصْبِ لِلْمَرَاعِي وَٱلْعَيْشِ مِنْ حِمْيَرَ وَكَهْلاَنَ مِثْلَ لَخْمٍ وَجُذَامٍ وَغَسَّانَ وَطَيٍّ وَقُضَاعَةَ وَإِيَادَ فَٱخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ فَفِي كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ مِنَ ٱلْخِلاَفِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَا تَعْرِفُ وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذٰلِكَ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَجَمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ وَهُمْ لاَ يَعْتَبِرُونَ ٱلْمُحَافَظَةَ عَلَى ٱلنَّسَبِ فِي بُيُوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ وَإِنَّمَا هٰذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ . قَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ تَعَلَّمُوا ٱلنَّسَبَ وَلاَ تَكُونُوا كَنَبَطِ ٱلسَّوَادِ إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قَرْيَةِ كَذَا هٰذَا أَيْ مَا لَحِقَ هٰؤُلاَءِ ٱلْعَرَبَ أَهْلَ ٱلْأَرْيَافِ مِنَ ٱلِازْدِحَامِ مَعَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱلْبَلَدِ ٱلطَّيِّبِ وَٱلْمَرَاعِي ٱلْخَصِيبَةِ فَكَثُرَ ٱلِاخْتِلاَطُ وَتَدَاخَلَتِ ٱلْأَنْسَابُ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي صَدْرِ ٱلْإِسْلاَمِ ٱلِانْتِمَاءُ إِلَى ٱلْمَوَاطِنِ فَيُقَالُ جُنْدُ قِنَّسْرِينَ جُنْدُ دِمَشْقَ جُنْدُ ٱلْعَوَاصِمِ وَٱنْتَقَلَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُنْ لِاطِّرَاحِ ٱلْعَرَبِ أَمْرَ ٱلنَّسَبِ وَإِنَّمَا كَانَ لِاخْتِصَاصِهِمْ بِٱلْمَوَاطِنِ بَعْدَ ٱلْفَتْحِ حَتَّى عُرِفُوا بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلاَمَةً زَائِدَةً عَلَى ٱلنَّسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أُمَرَائِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ ٱلِاخْتِلاَطُ فِي ٱلْحَوَاضِرِ مَعَ ٱلْعَجَمِ وَغَيْرِهِمْ وَفَسَدَتِ ٱلْأَنْسَابُ بِٱلْجُمْلَةِ وَفُقِدَتْ ثَمَرَتُهَا مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَٱطُّرِحَتْ ثُمَّ تَلاَشَتِ ٱلْقَبَائِلُ وَدُثِرَتْ فَدُثِرَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ بِدُثُورِهَا وَبَقِيَ ذٰلِكَ فِي ٱلْبَدْوِ كَمَا كَانَ وَٱللهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل العاشر

في اختلاط الانساب كيف يقع

إِعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ ٱلْبَيِّنِ أَنَّ بَعْضاً مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ بِقَرَابَةٍ إِلَيْهِمْ أَوْ حِلْفٍ أَوْ وَلاَءٍ أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجِنَايَةٍ أَصَابَهَا فَيَدَّعِي بِنَسَبِ هٰؤُلاَءِ وَيُعَدُّ مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ ٱلنُّعْرَةِ وَٱلْقَوَدِ وَحَمْلِ ٱلدِّيَاتِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَإِذَا وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ ٱلنَّسَبِ فَكَأَنَّهُ وُجِدَ لِأَنَّهُ لاَ مَعْنَى لِكَوْنِهِ مِنْ هٰؤُلاَءِ وَمِنْ هٰؤُلاَءِ إِلاَّ جَرَيَانُ أَحْكَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ ٱلْتَحَمَ بِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى ٱلنَّسَبَ ٱلْأَوَّلَ بِطُولِ ٱلزَّمَانِ وَيَذْهَبُ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ بِهِ فَيَخْفَى عَلَى ٱلْأَكْثَرِ وَمَا زَالَتِ ٱلْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شَعْبٍ إِلَى شَعْبٍ وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلاَمِ وَٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ وَٱنْظُرْ خِلاَفَ ٱلنَّاسِ فِي نَسَبِ

آلِ ٱلْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَبَيَّنْ لكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ وَمِنْهُ شَأْنُ بَجِيلَةَ فِي عَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ لَمَّا وَلَّاهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ ٱلْإِعْفَاءَ مِنْهُ وَقَالُوا هُوَ فِينَا لَزِيقٌ أَيْ دَخِيلٌ وَلَصِيقٌ وَطَلَبُوا أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ جَرِيراً فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ عَرْفَجَةُ صَدَقُوا يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنَا رَجُلٌ مِنَ ٱلْأَزْدِ أَصَبْتُ دَماً فِي قَوْمِي وَلَحِقْتُ بِهِمْ وَٱنْظُرْ مِنْهُ كَيْفَ ٱخْتَلَطَ عَرْفَجَةُ بِبَجِيلَةَ وَلَبِسَ جِلْدَتَهُمْ وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى تَرَشَّحَ لِلرِّئَاسَةِ عَلَيْهِمْ لَوْلَا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِجِهِ وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذٰلِكَ وَٱمْتَدَّ ٱلزَّمَنُ لَتُنُوسِيَ بِٱلْجُمْلَةِ وَعُدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهٍ وَمَذْهَبٍ فَٱفْهَمْهُ وَٱعْتَبِرْ سِرَّ ٱللّٰهِ فِي خَلِيقَتِهِ وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلِمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلْعُهُودِ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

الفصل الحادي عشر (١)

في ان الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية

إِعْلَمْ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ أَوْ بَطْنٍ مِنَ ٱلْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عِصَابَةً وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمِ ٱلْعَامِّ فَفِيهِمْ أَيْضاً عَصَبِيَّاتٌ أُخْرَى لِأَنْسَابٍ خَاصَّةٍ هِيَ أَشَدُّ ٱلْتِحَاماً مِنَ ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ لَهُمْ مِثْلِ عَشِيرٍ وَاحِدٍ أَوْ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ أَوْ إِخْوَةٍ بَنِي أَبٍ وَاحِدٍ لَا مِثْلَ بَنِي ٱلْعَمِّ ٱلْأَقْرَبِينَ أَوِ ٱلْأَبْعَدِينَ فَهٰؤُلَاءِ أَقْعَدُ بِنَسَبِهِمِ ٱلْمَخْصُوصِ وَيُشَارِكُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ ٱلْعَصَائِبِ فِي ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ وَٱلنُّعْرَةُ تَقَعُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِمُ ٱلْمَخْصُوصِ وَمِنْ أَهْلِ ٱلنَّسَبِ ٱلْعَامِّ إِلَّا أَنَّهَا فِي ٱلنَّسَبِ ٱلْخَاصِّ أَشَدُّ لِقُرْبِ ٱللُّحْمَةِ وَٱلرِّئَاسَةُ فِيهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي نِصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَكُونُ فِي ٱلْكُلِّ وَلَمَّا كَانَتِ ٱلرِّئَاسَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْغَلَبِ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ عَصَبِيَّةُ ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ أَقْوَى مِنْ سَائِرِ ٱلْعَصَائِبِ لِيَقَعَ ٱلْغَلَبُ بِهَا وَتَتِمَّ ٱلرِّئَاسَةُ لِأَهْلِهَا فَإِذَا وَجَبَ ذٰلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ ٱلرِّئَاسَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَزَالُ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِأَهْلِ ٱلْغَلَبِ عَلَيْهِمْ إِذْ لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَارَتْ فِي ٱلْعَصَائِبِ ٱلْأُخْرَى ٱلنَّازِلَةِ عَنْ عِصَابَتِهِمْ فِي ٱلْغَلَبِ لَمَا تَمَّتْ لَهُمُ ٱلرِّئَاسَةُ فَلَا تَزَالُ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ مُتَنَاقِلَةً مِنْ فَرْعٍ مِنْهُمْ إِلَى فَرْعٍ وَلَا تَنْتَقِلُ إِلَّا إِلَى ٱلْأَقْوَى مِنْ فُرُوعِهِ لِمَا قُلْنَاهُ مِنْ سِرِّ ٱلْغَلَبِ لِأَنَّ ٱلِٱجْتِمَاعَ وَٱلْعَصَبِيَّةَ بِمَثَابَةِ ٱلْمِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ وَٱلْمِزَاجُ فِي ٱلْمُتَكَوِّنِ لَا يَصْلُحُ إِذَا تَكَافَأَتِ

(١) هذا الفصل ساقط من النسخ الفارسية وموجود في النسخة التونسية واثباته اولى ليطابق كلامه اول الفصل ١٢ اهـ قاله نصر الهوريني

ٱلْعَنَاصِرُ فَلا بُدَّ مِنْ غَلَبَةِ أَحَدِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ ٱلتَّكْوِينُ فَهَذَا هُوَ سِرُّ ٱشْتِرَاطِ ٱلْغَلَبِ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ وَمِنْهُ تَعَيَّنَ ٱسْتِمْرَارُ ٱلرِّئَاسَةِ فِي ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ

الفصل الثاني عشر

في ان الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلرِّئَاسَةَ لا تَكُونُ إِلَّا بِٱلْغَلَبِ وَٱلْغَلَبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلا بُدَّ فِي ٱلرِّئَاسَةِ عَلَى ٱلْقَوْمِ أَنْ تَكُونَ مِنْ عَصَبِيَّةٍ غَالِبَةٍ لِعَصَبِيَّاتِهِمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً لِأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِنْهُمْ إِذَا أَحَسَّتْ بِغَلَبِ عَصَبِيَّةِ ٱلرَّئِيسِ لَهُمْ أَقَرُّوا بِٱلْإِذْعَانِ وَٱلِٱتِّبَاعِ وَٱلسَّاقِطُ فِي نَسَبِهِمْ بِٱلْجُمْلَةِ لا تَكُونُ لَهُ عَصَبِيَّةٌ فِيهِمْ بِٱلنَّسَبِ إِنَّمَا هُوَ مُلْصَقٌ لَزِيقٌ وَغَايَةُ ٱلتَّعَصُّبِ لَهُ بِٱلْوَلَاءِ وَٱلْحِلْفِ وَذٰلِكَ لا يُوجِبُ لَهُ غَلَباً عَلَيْهِمِ ٱلْبَتَّةَ وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ قَدِ ٱلْتَحَمَ بِهِمْ وَٱخْتَلَطَ وَتُنُوسِيَ عَهْدُهُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلِٱلْتِصَاقِ وَلَبِسَ جِلْدَتَهُمْ وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ فَكَيْفَ لَهُ ٱلرِّئَاسَةُ قَبْلَ هٰذَا ٱلِٱلْتِحَامِ أَوْ لِأَحَدٍ مِنْ سَلَفِهِ وَٱلرِّئَاسَةُ عَلَى ٱلْقَوْمِ إِنَّمَا تَكُونُ مُتَنَاقِلَةً فِي مَنْبَتٍ وَاحِدٍ تَعَيَّنَ لَهُ ٱلْغَلَبُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ فَٱلْأَوَّلِيَّةُ ٱلَّتِي كَانَتْ لِهٰذَا ٱلْمُلْصَقِ قَدْ عُرِفَ فِيهَا ٱلْتِصَاقُهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَمَنَعَهُ ذٰلِكَ ٱلِٱلْتِصَاقُ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ حِينَئِذٍ فَكَيْفَ تُنُوقِلَتْ عَنْهُ وَهُوَ عَلَى حَالِ ٱلْإِلْصَاقِ وَٱلرِّئَاسَةُ لا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَوْرُوثَةً عَنْ مُسْتَحِقِّهَا لِمَا قُلْنَاهُ مِنَ ٱلتَّغَلُّبِ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَقَدْ يَتَشَوَّفُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ عَلَى ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَصَائِبِ إِلَى أَنْسَابٍ يَلْهَجُونَ بِهَا إِمَّا لِخُصُوصِيَّةِ فَضِيلَةٍ كَانَتْ فِي أَهْلِ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ كَرَمٍ أَوْ ذِكْرٍ كَيْفَ ٱتَّفَقَ فَيَنْزِعُونَ إِلَى ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ وَيَتَوَرَّطُونَ بِٱلدَّعْوَى فِي شُعُوبِهِ وَلا يَعْلَمُونَ مَا يَتَوَقَّعُونَ فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ ٱلْقَدْحِ فِي رِئَاسَتِهِمْ وَٱلطَّعْنِ فِي شَرَفِهِمْ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي ٱلنَّاسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَدَّعِيهِ زَنَاتَةُ جُمْلَةً أَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ ٱدِّعَاءُ أَوْلَادِ رَبَّابَ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِٱلْحِجَازِيِّينَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَحَدِ شُعُوبِ زُغْبَةَ أَنَّهُمْ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ مِنَ ٱلشَّرِيدِ مِنْهُمْ لَحِقَ جَدُّهُمْ بِبَنِي عَامِرٍ نَجَّاراً يَصْنَعُ ٱلْحَرَجَانَ (١) وَٱخْتَلَطَ بِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى رَأَسَ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْحِجَازِيَّ . وَمِنْ ذٰلِكَ ٱدِّعَاءُ بَنِي عَبْدِ ٱلْقَوِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ تُوجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ رَغْبَةً فِي هٰذَا ٱلنَّسَبِ ٱلشَّرِيفِ وَغَلَطاً بِٱسْمِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةَ أَبِي عَبْدِ ٱلْقَوِيِّ وَلَمْ يُعْلَمْ دُخُولُ أَحَدٍ

---

(١) قوله الحرجان بكسر الحاء جمع حرج بفتحتين نعش الموتى . اه

مِنَ ٱلعَبَّاسِيِّينَ إلى ٱلمَغْرِب لِأَنَّهُ كَانَ مُنْذُ أَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ عَلى دَعْوَةِ ٱلعَلَوِيِّينَ أَعْدَائِهِم مِنَ ٱلأَدَارِسَةِ وَٱلعُبَيْدِيِّينَ فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ سِبْطِ ٱلعَبَّاسِ أَحَدٌ مِنْ شِيعَةِ ٱلعَلَوِيِّينَ. وَكَذٰلِكَ مَا يَدَّعِيهِ أَبْنَاءُ زَيَّانَ مُلُوكُ تِلِمْسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ ٱلوَاحِدِ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ ٱلقَاسِمِ بْنِ أَدْرِيسَ ذَهَاباً إلى مَا ٱشْتَهَرَ فِي نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ ٱلقَاسِمِ فَيَقُولُونَ بِلِسَانِهِمِ ٱلزَّنَاتِي أَنْتَ ٱلقَاسِمُ أَيْ بَنُو ٱلقَاسِمِ ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّ ٱلقَاسِمَ هٰذَا هُوَ ٱلقَاسِمُ بْنُ أَدْرِيسَ أَوِ ٱلقَاسِمِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَدْرِيسَ وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ صَحِيحاً فَغَايَةُ ٱلقَاسِمِ هٰذَا أَنَّهُ فَرَّ مِنْ مَكَانِ سُلْطَانِهِ مُسْتَجِيراً بِهِمْ فَكَيْفَ تَتِمُّ لَهُ ٱلرِّئَاسَةُ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَتِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ غَلَطٌ مِنْ قِبَلِ ٱسْمِ ٱلقَاسِمِ فَإِنَّهُ كَثِيرُ ٱلوُجُودِ فِي ٱلأَدَارِسَةِ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ قَاسِمَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ وَهُم غَيْرُ مُحْتَاجِينَ لِذٰلِكَ فَإِنَّ مَنَالَهُمْ لِلْمُلْكِ وَٱلعِزَّةِ إِنَّمَا كَانَ بِعَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ بِٱدِّعَاءِ عَلَوِيَّةٍ وَلَا عَبَّاسِيَّةٍ وَلَا شَيْءٍ مِنَ ٱلأَنْسَابِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَلى هٰذَا ٱلمُتَقَرِّبُونَ إلى ٱلمُلُوكِ بِمَنَازِعِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَيَشْتَهِرُ حَتَّى يَبْعُدَ عَنِ ٱلرَّدِّ وَلَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ يَغْمُرَاسِنَ بْنِ زَيَّانَ مُؤَثِّلِ سُلْطَانِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ ذٰلِكَ أَنْكَرَهُ وَقَالَ بِلُغَتِهِ ٱلزَّنَاتِيَّةِ مَا مَعْنَاهُ أَمَّا ٱلدُّنْيَا وَٱلمُلْكُ فَنِلْنَاهُمَا بِسُيُوفِنَا لَا بِهٰذَا ٱلنَّسَبِ وَأَمَّا نَفْعُهُمَا فِي ٱلآخِرَةِ فَمَرْدُودٌ إلى ٱللهِ وَأَعْرَضَ عَنِ ٱلتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمَا بِذٰلِكَ. وَمِنْ هٰذَا ٱلبَابِ مَا يَدَّعِيهِ بَنُو سَعْدٍ شُيُوخُ بَنِي يَزِيد مِنْ زُغْبَةَ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ أَبِي بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَبَنُو سَلَامَةَ شُيُوخُ بَنِي يَدْلَلْتَنَ مِنْ تُوجِينَ أَنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمٍ وَٱلزَّوَاوِدَةُ شُيُوخُ رِيَاحٍ أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِ ٱلبَرَامِكَةِ وَكَذَا بَنُو مُهَنَّا أُمَرَاءُ طَيِّءٍ بِٱلمَشْرِقِ يَدَّعُونَ فِيمَا بَلَغَنَا أَنَّهُمْ مِنْ أَعْقَابِهِمْ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ وَرِئَاسَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ مَانِعَةٌ مِنِ ٱدِّعَاءِ هٰذِهِ ٱلأَنْسَابِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ بَلْ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ صَرِيحِ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ وَأَقْوَى عَصَبِيَّاتِهِ فَٱعْتَبِرْهُ وَٱجْتَنِبِ ٱلمَغَالِطَ فِيهِ وَلَا تَجْعَلْ مِنْ هٰذَا ٱلبَابِ إِلْحَاقَ مَهْدِيِّ ٱلمُوَحِّدِينَ بِنَسَبِ ٱلعَلَوِيَّةِ فَإِنَّ ٱلمَهْدِيَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنْبِتِ ٱلرِّئَاسَةِ فِي هَرْثَمَةَ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا رَأَسَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ٱشْتِهَارِهِ بِٱلعِلْمِ وَٱلدِّينِ وَدُخُولِ قَبَائِلِ ٱلمَصَامِدَةِ فِي دَعْوَتِهِ وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ مِنْ أَهْلِ ٱلمَنَابِتِ ٱلمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ وَٱللهُ عَالِمُ ٱلغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ

الفصل الثالث عشر

في ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّرَفَ وَٱلْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْخِلَالِ وَمَعْنَى ٱلْبَيْتِ أَنْ يَعُدَّ ٱلرَّجُلُ فِي آبَائِهِ أَشْرَافاً مَذْكُورِينَ يَكُونُ لَهُ بِوِلَادَتِهِمْ إِيَّاهُ وَٱلِانْتِسَابِ إِلَيْهِمْ تَجِلَّةٌ فِي أَهْلِ جِلْدَتِهِ لِمَا وَقَرَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ تَجِلَّةِ سَلَفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِخِلَالِهِمْ وَٱلنَّاسُ فِي نَشْأَتِهِمْ وَتَنَاسُلِهِمْ مَعَادِنُ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلنَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي ٱلْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا فَمَعْنَى ٱلْحَسَبِ رَاجِعٌ إِلَى ٱلْأَنْسَابِ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ ٱلْأَنْسَابِ وَفَائِدَتَهَا إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَصَبِيَّةُ لِلنُّعْرَةِ وَٱلتَّنَاصُرِ فَحَيْثُ تَكُونُ ٱلْعَصَبِيَّةُ مَرْهُوبَةً وَٱلْمَنْبِتُ فِيهَا زَكِيٌّ مَحْمِيٌّ تَكُونُ فَائِدَةُ ٱلنَّسَبِ أَوْضَحَ وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى وَتَعْدِيدُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْآبَاءِ زَائِدٌ فِي فَائِدَتِهَا فَيَكُونُ ٱلْحَسَبُ وَٱلشَّرَفُ أَصْلِيَّيْنِ فِي أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِوُجُودِ ثَمَرَةِ ٱلنَّسَبِ وَتَفَاوُتِ ٱلْبُيُوتِ فِي هٰذَا ٱلشَّرَفِ بِتَفَاوُتِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لِأَنَّهُ سِرُّهَا وَلَا يَكُونُ لِلْمُنْفَرِدِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ بَيْتٌ إِلَّا بِٱلْمَجَازِ وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ فَزُخْرُفٌ مِنَ ٱلدَّعَاوَى وَإِذَا ٱعْتَبَرْتَ ٱلْحَسَبَ فِي أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَجَدْتَ مَعْنَاهُ أَنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْهُمْ يُعَدُّ سَلَفاً فِي خِلَالِ ٱلْخَيْرِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ مَعَ ٱلرُّكُونِ إِلَى ٱلْعَافِيَةِ مَا ٱسْتَطَاعَ وَهٰذَا مُغَايِرٌ لِسِرِّ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ ٱلنَّسَبِ وَتَعْدِيدِ ٱلْآبَاءِ لٰكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ حَسَبٌ وَبَيْتٌ بِٱلْمَجَازِ لِعَلَاقَةِ مَا فِيهِ مِنْ تَعْدِيدِ ٱلْآبَاءِ ٱلْمُتَعَاقِبِينَ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَسَالِكِهِ وَلَيْسَ حَسَباً بِٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ فَيَكُونُ مِنَ ٱلْمُشَكِّكِ ٱلَّذِي هُوَ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِهِ أَوْلَى وَقَدْ يَكُونُ لِلْبَيْتِ شَرَفٌ أَوَّلٌ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلْخِلَالِ ثُمَّ يَنْسَلِخُونَ مِنْهُ لِذَهَابِهَا بِٱلْحَضَارَةِ كَمَا تَقَدَّمَ وَيَخْتَلِطُونَ بِٱلْغِمَارِ وَيَبْقَى فِي نُفُوسِهِمْ وَسْوَاسُ ذٰلِكَ ٱلْحَسَبِ يَعُدُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَشْرَافِ ٱلْبُيُوتَاتِ أَهْلِ ٱلْعَصَائِبِ وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ لِذَهَابِ ٱلْعَصَبِيَّةِ جُمْلَةً وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلنَّاشِئِينَ فِي بُيُوتِ ٱلْعَرَبِ أَوِ ٱلْعَجَمِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمْ مُوَسْوَسُونَ بِذٰلِكَ وَأَكْثَرُ مَا رَسَخَ ٱلْوَسْوَاسُ فِي ذٰلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ كَانَ لَهُمْ بَيْتٌ مِنْ أَعْظَمِ بُيُوتِ ٱلْعَالَمِ بِٱلْمَنْبَتِ أَوَّلاً لِمَا تَعَدَّدَ فِي سَلَفِهِمْ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلرُّسُلِ مِنْ لَدُنْ إِبْرٰهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلَى مُوسَى صَاحِبِ مِلَّتِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ ثُمَّ بِٱلْعَصَبِيَّةِ ثَانِياً وَمَا

أَتَاهُمُ ٱللَّهُ بِهَا مِنَ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ ثُمَّ ٱنْسَلَخُوا مِنْ ذٰلِكَ أَجْمَعَ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَاءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱنْفَرَدُوا بِٱلِٱسْتِعْبَادِ لِلْكُفْرِ آلَافاً مِنَ ٱلسِّنِينَ وَمَا زَالَ هٰذَا ٱلْوَسْوَاسُ مُصَاحِباً لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ يَقُولُونَ هٰذَا هَارُونِيٌّ هٰذَا مِنْ نَسْلِ يُوشَعَ هٰذَا مِنْ عَقِبِ كَالِبَ هٰذَا مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا مَعَ ذَهَابِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَرُسُوخِ ٱلذُّلِّ فِيهِمْ مُنْذُ أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَغَيْرِهِمِ ٱلْمُنْقَطِعِينَ فِي أَنْسَابِهِمْ عَنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ يَذْهَبُ إِلَى هٰذَا ٱلْهَذَيَانِ . وَقَدْ غَلِطَ أَبُو ٱلْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ فِي هٰذَا لَمَّا ذَكَرَ ٱلْحَسَبَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْ تَلْخِيصِ كِتَابِ ٱلْمُعَلِّمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلْحَسَبُ هُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ قَدِيمٍ نُزُلُهُمْ بِٱلْمَدِينَةِ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَلَيْتَ شِعْرِي مَا ٱلَّذِي يَنْفَعُهُ قِدَمُ نُزُلِهِمْ بِٱلْمَدِينَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عِصَابَةٌ يُرْهَبُ بِهَا جَانِبُهُ وَتَحْمِلُ غَيْرَهُمْ عَلَى ٱلْقَبُولِ مِنْهُ فَكَأَنَّهُ أَطْلَقَ ٱلْحَسَبَ عَلَى تَعْدِيدِ ٱلْآبَاءِ فَقَطْ مَعَ أَنَّ ٱلْخَطَابَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱسْتِمَالَةُ مَنْ تُؤَثِّرُ ٱسْتِمَالَتُهُ وَهُمْ أَهْلُ ٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ وَأَمَّا مَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ ٱلْبَتَّةَ فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱسْتِمَالَةِ أَحَدٍ وَلَا يُسْتَمَالُ هُوَ وَأَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ مِنَ ٱلْحَضَرِ بِهٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ إِلَّا أَنَّ ٱبْنَ رُشْدٍ رَبَا فِي جِيلٍ وَبَلَدٍ وَلَمْ يُمَارِسُوا ٱلْعَصَبِيَّةَ وَلَا أَنِسُوا أَحْوَالَهَا فَبَقِيَ فِي أَمْرِ ٱلْبَيْتِ وَٱلْحَسَبِ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلْمَشْهُورِ مِنْ تَعْدِيدِ ٱلْآبَاءِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلَمْ يُرَاجِعْ فِيهِ حَقِيقَةَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَسِرَّهَا فِي ٱلْخَلِيقَةِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الفصل الرابع عشر

في ان البيت والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم

وَذٰلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلشَّرَفَ بِٱلْأَصَالَةِ وَٱلْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ لِأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَإِذَا ٱصْطَنَعَ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ قَوْماً مِنْ غَيْرِ نَسَبِهِمْ أَوِ ٱسْتَرَقُّوا ٱلْعِبْدَانَ وَٱلْمَوَالِيَ وَٱلْتَحَمُوا بِهِ كَمَا قُلْنَاهُ ضَرَبَ مَعَهُمْ أُولٰئِكَ ٱلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنَعُونَ بِنَسَبِهِمْ فِي تِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَلَبِسُوا جِلْدَتَهَا كَأَنَّهَا عَصَبَتُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ ٱلِٱنْتِظَامِ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ مُسَاهَمَةٌ فِي نَسَبِهَا كَمَا قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْلَى ٱلْقَوْمِ مِنْهُمْ وَسَوَاءٌ كَانَ مَوْلَى رِقٍّ أَوْ مَوْلَى ٱصْطِنَاعٍ وَحِلْفٍ وَلَيْسَ نَسَبُ وِلَادَتِهِ بِنَافِعٍ لَهُ فِي تِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ إِذْ هِيَ مُبَايِنَةٌ لِذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ وَعَصَبِيَّةُ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ مَفْقُودَةٌ لِذَهَابِ سِرِّهَا عِنْدَ ٱلْتِحَامِهِ بِهٰذَا ٱلنَّسَبِ ٱلْآخَرِ وَفِقْدَانِهِ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهَا فَيَصِيرُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَيَنْدَرِجُ فِيهِمْ فَإِذَا تَعَدَّدَتْ لَهُ ٱلْآبَاءُ فِي هٰذِهِ ٱلْعَصَبِيَّةِ كَانَ لَهُ بَيْتُهُم

شَرَفٌ وَبَيْتٌ عَلَى نِسْبَتِهِ فِي وِلائِهِمْ وَٱصْطِنَاعِهِمْ لا يَتَجَاوَزُهُ إِلَى شَرَفِهِمْ بَلْ يَكُونُ أَدْوَنَ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمَوَالِي فِي ٱلدُّوَلِ وَٱلْخَدَمَةِ كُلِّهِمْ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْرُفُونَ بِٱلرُّسُوخِ فِي وَلاءِ ٱلدَّوْلَةِ وَخِدْمَتِهَا وَتَعَدُّدِ ٱلآبَاءِ فِي وِلايَتِهَا أَلا تَرَى إِلَى مَوَالِي ٱلأَتْرَاكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَإِلَى بَنِي بَرْمَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَبَنِي نُوبَخْتَ كَيْفَ أَدْرَكُوا ٱلْبَيْتَ وَٱلشَّرَفَ وَبَنَوُا ٱلْمَجْدَ وَٱلأَصَالَةَ بِٱلرُّسُوخِ فِي وَلاءِ ٱلدَّوْلَةِ فَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بنِ خَالِدٍ مِنْ أَعْظَمِ ٱلنَّاسِ بَيْتاً وَشَرَفاً بِٱلانْتِسَابِ إِلَى وَلاءِ ٱلرَّشِيدِ وَقَوْمِهِ لا بِٱلانْتِسَابِ فِي ٱلْفُرْسِ وَكَذَا مَوَالِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَخَدَمُهَا إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ ٱلْبَيْتُ وَٱلْحَسَبُ بِٱلرُّسُوخِ فِي وَلائِهَا وَٱلأَصَالَةِ فِي ٱصْطِنَاعِهَا وَيَضْمَحِلُّ نَسَبُهُ ٱلأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا وَيَبْقَى مُلْغىً لا عِبْرَةَ بِهِ فِي أَصَالَتِهِ وَمَجْدِهِ وَإِنَّمَا ٱلْمُعْتَبَرُ نِسْبَةُ وَلائِهِ وَٱصْطِنَاعِهِ إِذْ فِيهِ سِرُّ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا ٱلْبَيْتُ وَٱلشَّرَفُ فَكَانَ شَرَفُهُ مُشْتَقّاً مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ وَبِنَاؤُهُ مِنْ بِنَائِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعْهُ نَسَبُ وِلادَتِهِ وَإِنَّمَا بَنَى مَجْدَهُ نَسَبُ ٱلْوَلاءِ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَلُحْمَةُ ٱلاصْطِنَاعِ فِيهَا وَٱلتَّرْبِيَةُ وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ ٱلأَوَّلُ فِي لُحْمَةِ عَصَبِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وَلاؤُهُ وَٱصْطِنَاعُهُ فِي أُخْرَى لَمْ تَنْفَعْهُ ٱلأُولَى لِذَهَابِ عَصَبِيَّتِهَا وَٱنْتَفَعَ بِٱلثَّانِيَةِ لِوُجُودِهَا وَهٰذَا حَالُ بَنِي بَرْمَكَ إِذِ ٱلْمَنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ فِي ٱلْفُرْسِ مِنْ سَدَنَةِ بُيُوتِ ٱلنَّارِ عِنْدَهُمْ وَلَمَّا صَارُوا إِلَى وَلاءِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ لَمْ يَكُنْ بِٱلأَوَّلِ ٱعْتِبَارٌ وَإِنَّمَا كَانَ شَرَفُهُمْ مِنْ حَيْثُ وِلايَتُهُمْ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَٱصْطِنَاعُهُمْ وَمَا سِوَى هٰذَا فَوَهْمٌ تُوَسْوِسُ بِهِ ٱلنُّفُوسُ ٱلْجَامِحَةُ وَلا حَقِيقَةَ لَهُ وَٱلْوُجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَاهُ وَإِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ وَٱللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ

الفصل الخامس عشر

في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة اباء

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْعَالَمَ ٱلْعُنْصُرِيَّ بِمَا فِيهِ كَائِنٌ فَاسِدٌ لا مِنْ ذَوَاتِهِ وَلا مِنْ أَحْوَالِهِ فَٱلْمُكَوَّنَاتُ مِنَ ٱلْمَعْدِنِ وَٱلنَّبَاتِ وَجَمِيعِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ كَائِنَةٌ فَاسِدَةٌ بِٱلْمُعَايَنَةِ وَكَذٰلِكَ مَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ ٱلأَحْوَالِ وَخُصُوصاً ٱلإِنْسَانِيَّةُ فَٱلْعُلُومُ تَنْشَأُ ثُمَّ تَدْرُسُ وَكَذَا ٱلصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا وَٱلْحَسَبُ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلآدَمِيِّينَ فَهُوَ كَائِنٌ فَاسِدٌ لا مَحَالَةَ وَلَيْسَ يُوجَدُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَلِيقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ فِي آبَائِهِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَيْهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ذٰلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرَامَةً بِهِ وَحِيَاطَةً عَلَى ٱلسِّرِّ فِيهِ

وَأَوَّلُ كُلِّ شَرَفٍ خَارِجِيَّةٌ كَمَا قِيلَ وَهِيَ ٱلْخُرُوجُ عَنِ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلشَّرَفِ إِلَى ٱلضَّعَةِ وَٱلِٱبْتِذَالِ وَعَدَمِ ٱلْحَسَبِ وَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ شَرَفٍ وَحَسَبٍ فَعَدَمُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ شَأْنَ كُلِّ مُحْدَثٍ ثُمَّ إِنَّ نِهَايَتَهُ فِي أَرْبَعَةِ آبَاءٍ وَذَلِكَ أَنَّ بَانِيَ ٱلْمَجْدِ عَالِمٌ بِمَا عَانَاهُ فِي بِنَائِهِ وَمُحَافِظٌ عَلَى ٱلْخِلَالِ ٱلَّتِي هِيَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبَقَائِهِ وَٱبْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ مُبَاشِرٌ لِأَبِيهِ فَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ وَأَخَذَهُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي ذَلِكَ تَقْصِيرَ ٱلسَّامِعِ بِٱلشَّيْءِ عَنِ ٱلْمُعَانِي لَهُ ثُمَّ إِذَا جَاءَ ٱلثَّالِثُ كَانَ حَظُّهُ ٱلِٱقْتِفَاءَ وَٱلتَّقْلِيدَ خَاصَّةً فَقَصَّرَ عَنِ ٱلثَّانِي تَقْصِيرَ ٱلْمُقَلِّدِ عَنِ ٱلْمُجْتَهِدِ ثُمَّ إِذَا جَاءَ ٱلرَّابِعُ قَصَّرَ عَنْ طَرِيقَتِهِمْ جُمْلَةً وَأَضَاعَ ٱلْخِلَالَ ٱلْحَافِظَةَ لِبِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَٱحْتَقَرَهَا وَتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ ٱلْبُنْيَانَ لَمْ يَكُنْ بِمُعَانَاةٍ وَلَا تَكَلُّفٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَجَبَ لَهُمْ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلنَّشْأَةِ بِمُجَرَّدِ ٱنْتِسَابِهِمْ وَلَيْسَ بِعِصَابَةٍ وَلَا بِخِلَالٍ لِمَا يَرَى مِنَ ٱلتَّجِلَّةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ حُدُوثُهَا وَلَا سَبَبُهَا وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ ٱلنَّسَبُ فَقَطْ فَيَرْبَأُ بِنَفْسِهِ عَنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَيَرَى ٱلْفَضْلَ لَهُ عَلَيْهِمْ وُثُوقاً بِمَا رُبِّيَ فِيهِ مِنِ ٱسْتِتْبَاعِهِمْ وَجَهْلاً بِمَا أَوْجَبَ ذَلِكَ ٱلِٱسْتِتْبَاعَ مِنَ ٱلْخِلَالِ ٱلَّتِي مِنْهَا ٱلتَّوَاضُعُ لَهُمْ وَٱلْأَخْذُ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَيَحْتَقِرُهُمْ بِذَلِكَ فَيَنْغَصُونَ عَلَيْهِ وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيُدِيلُونَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ ٱلْمَنْبَتِ وَمِنْ فُرُوعِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ ٱلْعَقِبِ لِلْإِذْعَانِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ كَمَا قُلْنَاهُ بَعْدَ ٱلْوُثُوقِ بِمَا يَرْضَوْنَهُ مِنْ خِلَالِهِ فَتَنْمُو فُرُوعُ هَذَا وَتَذْوِي فُرُوعُ ٱلْأَوَّلِ وَيَنْهَدِمُ بِنَاءُ بَيْتِهِ هَذَا فِي ٱلْمُلُوكِ وَهَكَذَا فِي بُيُوتِ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْأُمَرَاءِ وَأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ أَجْمَعَ ثُمَّ فِي بُيُوتِ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ إِذَا ٱنْحَطَّتْ بُيُوتٌ نَشَأَتْ بُيُوتٌ أُخْرَى مِنْ ذَلِكَ ٱلنَّسَبِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى ٱللهِ بِعَزِيزٍ وَٱشْتِرَاطُ ٱلْأَرْبَعَةِ فِي ٱلْأَحْسَابِ إِنَّمَا هُوَ فِي ٱلْغَالِبِ وَإِلَّا فَقَدْ يَدْثُرُ ٱلْبَيْتُ مِنْ دُونِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَيَتَلَاشَى وَيَنْهَدِمُ وَقَدْ يَتَّصِلُ أَمْرُهَا إِلَى ٱلْخَامِسِ وَٱلسَّادِسِ إِلَّا أَنَّهُ فِي ٱنْحِطَاطٍ وَذَهَابٍ وَٱعْتِبَارُ ٱلْأَرْبَعَةِ مِنْ قِبَلِ ٱلْأَجْيَالِ ٱلْأَرْبَعَةِ بَانٍ وَمُبَاشِرٌ لَهُ وَمُقَلِّدٌ وَهَادِمٌ وَهُوَ أَقَلُّ مَا يُمْكِنُ وَقَدِ ٱعْتُبِرَتِ ٱلْأَرْبَعَةُ فِي نِهَايَةِ ٱلْحَسَبِ فِي بَابِ ٱلْمَدْحِ وَٱلثَّنَاءِ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا ٱلْكَرِيمُ ٱبْنُ ٱلْكَرِيمِ ٱبْنُ ٱلْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ بَلَغَ ٱلْغَايَةَ مِنَ ٱلْمَجْدِ وَفِي ٱلتَّوْرَاةِ مَا مَعْنَاهُ إِنَّ ٱللهَ رَبَّكَ طَائِقٌ غَيُورٌ مُطَالِبٌ بِذُنُوبِ ٱلْآبَاءِ لِلْبَنِينَ عَلَى ٱلثَّوَالِثِ وَٱلرَّوَابِعِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأَرْبَعَةَ ٱلْأَعْقَابِ غَايَةٌ

في ٱلْأَنْسَابِ وَٱلْحَسَبِ . وَفِي كِتَابِ ٱلْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَزِيفِ ٱلْغَوَانِي أَنَّ كِسْرَى قَالَ لِلنُّعْمَانِ هَلْ فِي ٱلْعَرَبِ قَبِيلَةٌ تَتَشَرَّفُ عَلَى قَبِيلَةٍ قَالَ نَعَمْ قَالَ بِأَيِّ شَيْءٍ قَالَ مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ آبَاءٍ مُتَوَالِيَةٍ رُؤَسَاءَ ثُمَّ ٱتَّصَلَ ذٰلِكَ بِكَمَالِ ٱلرَّابِعِ فَٱلْبَيْتُ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَطَلَبَ ذٰلِكَ فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا فِي آلِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ ٱلْفَزَارِيِّ وَهُمْ بَيْتُ قَيْسٍ وَآلِ ذِي ٱلْجَدَّيْنِ بَيْتِ شَيْبَانَ وَآلِ ٱلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ مِنْ كِنْدَةَ وَآلِ حَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ وَآلِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ٱلْمِنْقَرِيِّ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَجَمَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلرَّهْطَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمْ ٱلْحُكَّامَ وَٱلْعُدُولَ فَقَامَ حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْرٍ ثُمَّ ٱلْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقَرَابَتِهِ مِنَ ٱلنُّعْمَانِ ثُمَّ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَيْبَانَ ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زُرَارَةَ ثُمَّ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ وَخَطَبُوا وَنَثَرُوا فَقَالَ كِسْرَى كُلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ لِمَوْضِعِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْبُيُوتَاتُ هِيَ ٱلْمَذْكُورَةَ فِي ٱلْعَرَبِ بَعْدَ بَنِي هَاشِمٍ وَمَعَهُمْ بَيْتُ بَنِي ٱلذُّبْيَانِ مِنْ بَنِي ٱلْحَرِثِ بْنِ كَعْبٍ ٱلْيَمَنِيِّ وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأَرْبَعَةَ ٱلْآبَاءَ نِهَايَةٌ فِي ٱلْحَسَبِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل السادس عشر

في ان الامم الوحشية اقدر على التغلب ممن سواها

إِعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْبِدَاوَةُ سَبَبًا فِي ٱلشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فِي ٱلْمُقَدِّمَةِ ٱلثَّالِثَةِ لَا جَرَمَ كَانَ هٰذَا ٱلْجِيلُ ٱلْوَحْشِيُّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ ٱلْجِيلِ ٱلْآخَرِ فَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى ٱلتَّغَلُّبِ وَٱنْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ بَلِ ٱلْجِيلُ ٱلْوَاحِدُ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُ فِي ذٰلِكَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَعْصَارِ فَكُلَّمَا نَزَلُوا ٱلْأَرْيَافَ وَتَفَنَّقُوا ٱلنَّعِيمَ وَأَلِفُوا عَوَائِدَ ٱلْخِصْبِ فِي ٱلْمَعَاشِ وَٱلنَّعِيمِ نَقَصَ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ بِمِقْدَارِ مَا نَقَصَ مِنْ تَوَحُّشِهِمْ وَبِدَاوَتِهِمْ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ بِدَوَاجِنِ ٱلظِّبَاءِ وَٱلْبَقَرِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَٱلْحُمُرِ إِذَا زَالَ تَوَحُّشُهَا بِمُخَالَطَةِ ٱلْآدَمِيِّينَ وَأَخْصَبَ عَيْشُهَا كَيْفَ يَخْتَلِفُ حَالُهَا فِي ٱلْإِنْتِهَاضِ وَٱلشِّدَّةِ حَتَّى فِي مِشْيَتِهَا وَحُسْنِ أَدِيمِهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْآدَمِيُّ ٱلْمُتَوَحِّشُ إِذَا أَنِسَ وَأَلِفَ وَسَبَبُهُ أَنَّ تَكَوُّنَ ٱلسَّجَايَا وَٱلطَّبَائِعِ إِنَّمَا هُوَ عَنِ ٱلْمَأْلُوفَاتِ وَٱلْعَوَائِدِ وَإِذَا كَانَ ٱلْغَلَبُ لِلْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْإِقْدَامِ وَٱلْبَسَالَةِ فَمَنْ كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْيَالِ أَعْرَقَ فِي ٱلْبِدَاوَةِ وَأَكْثَرَ تَوَحُّشًا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى ٱلتَّغَلُّبِ عَلَى سِوَاهُ إِذَا تَقَارَبَا فِي ٱلْعَدَدِ وَتَكَافَأَا فِي ٱلْقُوَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱنْظُرْ فِي ذٰلِكَ شَأْنَ مُضَرَ مَعَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ حِمْيَرَ وَكَهْلَانَ ٱلسَّابِقِينَ إِلَى ٱلْمُلْكِ وَٱلنَّعِيمِ وَمَعَ

رَبيعَةَ ٱلْمُتَوَطِّنِينَ أَرْيَافَ ٱلْعِرَاقِ وَنَعِيمِهِ لَمَّا بَقِيَ مُضَرُ فِي بِدَاوَتِهِمْ وَتَقَدَّمَهُمُ ٱلْآخَرُونَ إِلَى خِصْبِ ٱلْعَيْشِ وَغَضَارَةِ ٱلنَّعِيمِ كَيْفَ أَرْهَفَتِ ٱلْبِدَاوَةُ حَدَّهُمْ فِي ٱلتَّغَلُّبِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَهٰذَا حَالُ بَنِي طَيِّءٍ وَبَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ وَبَنِي سُلَيْمِ ٱبْنِ مَنْصُورٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ لَمَّا تَأَخَّرُوا فِي بَادِيَتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قَبَائِلِ مُضَرَ وَٱلْيَمَنِ وَلَمْ يَتَلَبَّسُوا بِشَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ حَالُ ٱلْبِدَاوَةِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ تُخْلِفْهَا مَذَاهِبُ ٱلتَّرَفِ حَتَّى صَارُوا أَغْلَبَ عَلَى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ وَكَذَا كُلُّ حَيٍّ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَلِي نَعِيمًا وَعَيْشًا خِصْبًا دُونَ ٱلْحَيِّ ٱلْآخَرِ فَإِنَّ ٱلْحَيَّ ٱلْمُبْتَدِيَ يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرَ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَآ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلْعَدَدِ سُنَّةُ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك

وَذٰلِكَ لِأَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلْعَصَبِيَّةَ بِهَا تَكُونُ ٱلْحِمَايَةُ وَٱلْمُدَافَعَةُ وَٱلْمُطَالَبَةُ وَكُلُّ أَمْرٍ يُجْتَمَعُ عَلَيْهِ وَقَدَّمْنَا أَنَّ ٱلْآدَمِيِّينَ بِٱلطَّبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ يَحْتَاجُونَ فِي كُلِّ ٱجْتِمَاعٍ إِلَى وَازِعٍ وَحَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَغَلِّبًا عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَإِلَّا لَمْ تَتِمَّ قُدْرَتُهُ عَلَى ذٰلِكَ وَهٰذَا ٱلتَّغَلُّبُ هُوَ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى ٱلرِّئَاسَةِ لِأَنَّ ٱلرِّئَاسَةَ إِنَّمَا هِيَ سُؤْدَدٌ وَصَاحِبُهَا مَتْبُوعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا ٱلْمُلْكُ فَهُوَ ٱلتَّغَلُّبُ وَٱلْحُكْمُ بِٱلْقَهْرِ وَصَاحِبُ ٱلْعَصَبِيَّةِ إِذَا بَلَغَ إِلَى رُتْبَةٍ طَلَبَ مَا فَوْقَهَا فَإِذَا بَلَغَ رُتْبَةَ ٱلسُّؤْدَدِ وَٱلِٱتِّبَاعِ وَوَجَدَ ٱلسَّبِيلَ إِلَى ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلْقَهْرِ لَا يَتْرُكُهُ لِأَنَّهُ مَطْلُوبٌ لِلنَّفْسِ وَلَا يَتِمُّ ٱقْتِدَارُهَا عَلَيْهِ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا مَتْبُوعًا فَٱلتَّغَلُّبُ ٱلْمُلْكِيُّ غَايَةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ كَمَا رَأَيْتَ ثُمَّ إِنَّ ٱلْقَبِيلَ ٱلْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ بُيُوتَاتٌ مُفْتَرِقَةٌ وَعَصَبِيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ فَلَا بُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِهَا تَغْلِبُهَا وَتَسْتَتْبِعُهَا وَتَلْتَحِمُ جَمِيعُ ٱلْعَصَبِيَّاتِ فِيهَا وَتَصِيرُ كَأَنَّهَا عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ كُبْرَى وَإِلَّا وَقَعَ ٱلِٱفْتِرَاقُ ٱلْمُفْضِي إِلَى ٱلِٱخْتِلَافِ وَٱلتَّنَازُعِ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ ٱلتَّغَلُّبُ بِتِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ عَلَى قَوْمِهَا طَلَبَتْ بِطَبْعِهَا ٱلتَّغَلُّبَ عَلَى أَهْلِ عَصَبِيَّةٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ عَنْهَا فَإِنْ كَافَأَتْهَا أَوْ مَانَعَتْهَا كَانُوا أَقْتَالًا وَأَنْظَارًا وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ٱلتَّغَلُّبُ عَلَى حَوْزَتِهَا

وَقَوْمِهَا شَأْنَ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْأُمَمِ ٱلْمُفْتَرِقَةِ فِي ٱلْعَالَمِ وَإِنْ غَلَبَتْهَا وَٱسْتَتْبَعَتْهَا ٱلْتَحَمَتْ بِهَا أَيْضاً وَزَادَتْ قُوَّةً فِي ٱلتَّغَلُّبِ إِلَى قُوَّتِهَا وَطَلَبَتْ غَايَةً مِنَ ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلتَّحَكُّمِ أَعْلَى مِنَ ٱلْغَايَةِ ٱلْأُولَى وَأَبْعَدَ وَهٰكَذَا دَائِماً حَتَّى تُكَافِئَ بِقُوَّتِهَا قُوَّةَ ٱلدَّوْلَةِ فِي هَرَمِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مُمَانِعٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ ٱلدَّوْلَةِ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا وَٱنْتَزَعَتِ ٱلْأَمْرَ مِنْ يَدِهَا وَصَارَ ٱلْمُلْكُ أَجْمَعُ لَهَا وَإِنِ ٱنْتَهَتْ قُوَّتُهَا وَلَمْ يُقَارِنْ ذٰلِكَ هَرَمُ ٱلدَّوْلَةِ وَإِنَّمَا قَارَنَ حَاجَتَهَا إِلَى ٱلِٱسْتِظْهَارِ بِأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ ٱنْتَظَمَتْهَا ٱلدَّوْلَةُ فِي أَوْلِيَائِهَا تَسْتَظْهِرُ بِهَا عَلَى مَا يَعِنُّ مِنْ مَقَاصِدِهَا وَذٰلِكَ مُلْكٌ آخَرُ دُونَ ٱلْمُلْكِ ٱلْمُسْتَبِدِّ وَهُوَ كَمَا وَقَعَ لِلتُّرْكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَلِصَنْهَاجَةَ وَزَنَاتَةَ مَعَ كُتَامَةَ وَلِبَنِي حَمْدَانَ مَعَ مُلُوكِ ٱلشِّيعَةِ مِنَ ٱلْعَلَوِيَّةِ وَٱلْعَبَّاسِيَّةِ فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ هُوَ غَايَةُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا حَصَلَ لِلْقَبِيلَةِ ٱلْمُلْكُ إِمَّا بِٱلِٱسْتِبْدَادِ أَوْ بِٱلْمُظَاهَرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا يَسَعُهُ ٱلْوَقْتُ ٱلْمُقَارِنُ لِذٰلِكَ وَإِنْ عَاقَهَا عَنْ بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَوَائِقُ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَقَفَتْ فِي مَقَامِهَا إِلَى أَنْ يَقْضِيَ ٱللّٰهُ بِأَمْرِهِ

الفصل الثامن عشر

في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

وسببُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقَبِيلَ إِذَا غَلَبَتْ بِعَصَبِيَّتِهَا بَعْضَ ٱلْغَلَبِ ٱسْتَوْلَتْ عَلَى ٱلنِّعْمَةِ بِمِقْدَارِهِ وَشَارَكَتْ أَهْلَ ٱلنِّعَمِ وَٱلْخِصْبِ فِي نِعْمَتِهِمْ وَخِصْبِهِمْ وَضَرَبَتْ مَعَهُمْ فِي ذٰلِكَ بِسَهْمٍ وَحِصَّةٍ بِمِقْدَارِ غَلَبِهَا وَٱسْتِظْهَارِ ٱلدَّوْلَةِ بِهَا فَإِنْ كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ بِحَيْثُ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي ٱنْتِزَاعِ أَمْرِهَا وَلَا مُشَارَكَتِهَا فِيهِ أَذْعَنَ ذٰلِكَ ٱلْقَبِيلُ لِوِلَايَتِهَا وَٱلْقُنُوعِ بِمَا يُسَوِّغُونَ مِنْ نِعْمَتِهَا وَيُشْرِكُونَ فِيهِ مِنْ جِبَايَتِهَا وَلَمْ تَسْمُ آمَالُهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَنَازِعِ ٱلْمُلْكِ وَلَا أَسْبَابِهِ إِنَّمَا هِمَّتُهُمُ ٱلنَّعِيمُ وَٱلْكَسْبُ وَخِصْبُ ٱلْعَيْشِ وَٱلسُّكُونُ فِي ظِلِّ ٱلدَّوْلَةِ إِلَى ٱلدَّعَةِ وَٱلرَّاحَةِ وَٱلْأَخْذِ بِمَذَاهِبِ ٱلْمُلْكِ فِي ٱلْمَبَانِي وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلتَّأَنُّقِ فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ ٱلرِّيَاشِ وَٱلتَّرَفِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذٰلِكَ فَتَذْهَبُ خُشُونَةُ ٱلْبِدَاوَةِ وَتَضْعُفُ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَٱلْبَسَالَةُ وَيَتَنَعَّمُونَ فِيمَا آتَاهُمُ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلْبَسْطَةِ وَتَنْشَأُ بَنُوهُمْ وَأَعْقَابُهُمْ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّرَفُّعِ عَنْ خِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ وَوِلَايَةِ حَاجَاتِهِمْ وَيَسْتَنْكِفُونَ عَنْ سَائِرِ ٱلْأُمُورِ ٱلضَّرُورِيَّةِ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذٰلِكَ خُلُقاً لَهُمْ وَسَجِيَّةً فَتَنْقُصُ عَصَبِيَّتُهُمْ وَبَسَالَتُهُمْ فِي ٱلْأَجْيَالِ بَعْدَهُمْ بِتَعَاقُبِهَا إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ ٱلْعَصَبِيَّةُ

فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء فضلاً عن الملك فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبة والتهمتهم الأمم سواهم فقد تبين أن الترف من عوائق الملك والله يؤتي ملكه من يشاء

الفصل التاسع عشر

في ان من عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رئموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزاتك يا موسى ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا وما ذلك إلا لما أنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذل للقبط أحقاباً حتى ذهبت العصبية منهم جملة مع أنهم لم يؤمنوا حق الإيمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وأن العمالقة الذين كانوا بأريحا فريستهم بحكم من الله قدره لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلاً على ما في أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به فعاقبهم الله بالتيه وهو أنهم تاهوا في قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها العمران ولا نزلوا مصراً ولا خالطوا بشراً كما قصه القرآن لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلة فنشأت بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها

عَلَى ٱلْمُطَالَبَةِ وَٱلتَّغَلُّبِ وَيَظْهَرُ لَكَ مِنْ ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَرْبَعِينَ سَنَةً أَقَلُّ مَا يَأْتِي فِيهَا فَنَاءُ جِيلٍ وَنَشْأَةُ جِيلٍ آخَرَ سُبْحَانَ ٱلْحَكِيمِ ٱلْعَلِيمِ وَفِي هٰذَا أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى شَأْنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهَا هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْمُدَافَعَةُ وَٱلْمُقَاوَمَةُ وَٱلْحِمَايَةُ وَٱلْمُطَالَبَةُ وَأَنَّ مَنْ فَقَدَهَا عَجَزَ عَنْ جَمِيعِ ذَٰلِكَ كُلِّهِ وَيُلْحَقُ بِهٰذَا ٱلْفَصْلِ فِيمَا يُوجِبُ ٱلْمَذَلَّةَ لِلْقَبِيلِ شَأْنُ ٱلْمَغَارِمِ وَٱلضَّرَائِبِ فَإِنَّ ٱلْقَبِيلَ ٱلْغَارِمِينَ مَا أَعْطَوُا ٱلْيَدَ مِنْ ذَٰلِكَ حَتَّى رَضُوا بِٱلْمَذَلَّةِ فِيهِ لِأَنَّ فِي ٱلْمَغَارِمِ وَٱلضَّرَائِبِ ضَيْماً وَمَذَلَّةً لا تَحْتَمِلُهَا ٱلنُّفُوسُ ٱلْأَبِيَّةُ إِلَّا إِذَا ٱسْتَهْوَنَتْهُ عَنِ ٱلْقَتْلِ وَٱلتَّلَفِ وَأَنَّ عَصَبِيَّتَهُمْ حِينَئِذٍ ضَعِيفَةٌ عَنِ ٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْحِمَايَةِ وَمَنْ كَانَتْ عَصَبِيَّتُهُ لا تَدْفَعُ عَنْهُ ٱلضَّيْمَ فَكَيْفَ لَهُ بِٱلْمُقَاوَمَةِ وَٱلْمُطَالَبَةِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ ٱلِٱنْقِيَادُ لِلذُّلِّ وَٱلْمَذَلَّةُ عَائِقَةٌ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَأْنُ ٱلْحَرْثِ لَمَّا رَأَى سِكَّةَ ٱلْمِحْرَاثِ فِي بَعْضِ دُورِ ٱلْأَنْصَارِ مَا دَخَلَتْ هٰذِهِ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا دَخَلَهُمُ ٱلذُّلُّ فَهُوَ دَلِيلٌ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ ٱلْمَغْرَمَ مُوجِبٌ لِلذِّلَّةِ هٰذَا إِلَى مَا يَصْحَبُ ذُلَّ ٱلْمَغَارِمِ مِنْ خُلُقِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ بِسَبَبِ مَلَكَةِ ٱلْقَهْرِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْقَبِيلَ بِٱلْمَغَارِمِ فِي رِبْقَةٍ مِنَ ٱلذُّلِّ فَلَا تَطْمَعَنَّ لَهَا بِمُلْكٍ آخِرَ ٱلدَّهْرِ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ زَنَاتَةَ بِٱلْمَغْرِبِ كَانُوا شَاوِيَةً يُؤَدُّونَ ٱلْمَغَارِمَ لِمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَهُوَ غَلَطٌ فَاحِشٌ كَمَا رَأَيْتَ إِذْ لَوْ وَقَعَ ذَٰلِكَ لَمَا ٱسْتَتَبَّ لَهُمْ مُلْكٌ وَلا تَمَّتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَٱنْظُرْ فِيمَا قَالَهُ شَهْرَبَرَازُ مَلِكُ ٱلْبَابِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱبْنِ رَبِيعَةَ لَمَّا أَطَلَّ عَلَيْهِ وَسَأَلَ شَهْرَبَرَازُ أَمَانَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ فَقَالَ أَنَا ٱلْيَوْمَ مِنْكُمْ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ وَصَعَرِي مَعَكُمْ فَمَرْحَباً بِكُمْ وَبَارَكَ ٱللّٰهُ لَنَا وَلَكُمْ وَجِزْيَتُنَا إِلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ لَكُمْ وَٱلْقِيَامُ بِمَا تُحِبُّونَ وَلا تُذِلُّونَا بِٱلْجِزْيَةِ فَتُوهِنُونَا لِعَدُوِّكُمْ فَٱعْتَبِرْ هٰذَا فِيمَا قُلْنَاهُ فَإِنَّهُ كَافٍ

الفصل العشرون

في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لَمَّا كَانَ ٱلْمُلْكُ طَبِيعِيّاً لِلْإِنْسَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ ٱلِٱجْتِمَاعِ كَمَا قُلْنَاهُ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى خِلَالِ ٱلْخَيْرِ مِنْ خِلَالِ ٱلشَّرِّ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ ٱلنَّاطِقَةِ ٱلْعَاقِلَةِ لِأَنَّ ٱلشَّرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ مِنْ قِبَلِ ٱلْقُوَى ٱلْحَيَوَانِيَّةِ ٱلَّتِي فِيهِ وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ الى ٱلْخَيْرِ وَخِلَالِهِ أَقْرَبُ وَٱلْمُلْكُ وَٱلسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُمَا

لِلْإِنْسَانِ خَاصَّةً لَا لِلْحَيَوَانِ فَإِذاً خِلالُ ٱلْخَيْرِ فيهِ هِيَ ٱلَّتِي تُنَاسِبُ ٱلسِّيَاسَةَ وَٱلْمُلْكَ إِذِ ٱلْخَيْرُ هُوَ ٱلْمُنَاسِبُ لِلسِّيَاسَةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ ٱلْمَجْدَ لَهُ أَصْلٌ يُبْنَى عَلَيْهِ وَتَتَحَقَّقُ بِهِ حَقِيقَتُهُ وَهُوَ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَٱلْعَشِيرُ وَفَرْعٌ يُتَمِّمُ وُجُودَهُ وَيُكَمِّلُهُ وَهُوَ ٱلْخِلَالُ وَإِذَا كَانَ ٱلْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصَبِيَّةِ فَهُوَ غَايَةٌ لِفُرُوعِهَا وَمُتَمِّمَاتِهَا وَهِيَ ٱلْخِلَالُ لِأَنَّ وُجُودَهُ دُونَ مُتَمِّمَاتِهِ كَوُجُودِ شَخْصٍ مَقْطُوعِ ٱلْأَعْضَاءِ أَوْ ظُهُورِهِ عُرْيَاناً بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَإِذَا كَانَ وُجُودُ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ ٱنْتِحَالِ ٱلْخِلَالِ ٱلْحَمِيدَةِ نَقْصاً فِي أَهْلِ ٱلْبُيُوتِ وَٱلْأَحْسَابِ فَمَا ظَنُّكَ بِأَهْلِ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي هُوَ غَايَةٌ لِكُلِّ مَجْدٍ وَنِهَايَةٌ لِكُلِّ حَسَبٍ وَأَيْضاً فَٱلسِّيَاسَةُ وَٱلْمُلْكُ هِيَ كَفَالَةٌ لِلْخَلْقِ وَخِلَافَةٌ لِلهِ فِي ٱلْعِبَادِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ وَأَحْكَامُ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ إِنَّمَا هِيَ بِٱلْخَيْرِ وَمُرَاعَاةِ ٱلْمَصَالِحِ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ ٱلشَّرَائِعُ وَأَحْكَامُ ٱلْبَشَرِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ ٱلْجَهْلِ وَٱلشَّيْطَانِ بِخِلَافِ قُدْرَةِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَقَدَرِهِ فَإِنَّهُ فَاعِلٌ لِلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ مَعاً وَمُقَدِّرُهُمَا إِذْ لَا فَاعِلَ سِوَاهُ فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ ٱلْعَصَبِيَّةُ ٱلْكَفِيلَةُ بِٱلْقُدْرَةِ وَأُونِسَتْ مِنْهُ خِلَالُ ٱلْخَيْرِ ٱلْمُنَاسِبَةُ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ فَقَدْ تَهَيَّأَ لِلْخِلَافَةِ فِي ٱلْعِبَادِ وَكَفَالَةِ ٱلْخَلْقِ وَوُجِدَتْ فِيهِ ٱلصَّلَاحِيَّةُ لِذَلِكَ وَهٰذَا ٱلْبُرْهَانُ أَوْثَقُ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَصَحُّ مَبْنًى فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ خِلَالَ ٱلْخَيْرِ شَاهِدَةٌ بِوُجُودِ ٱلْمُلْكِ لِمَنْ وُجِدَتْ لَهُ ٱلْعَصَبِيَّةُ فَإِذَا نَظَرْنَا فِي أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ ٱلْغَلَبِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّوَاحِي وَٱلْأُمَمِ فَوَجَدْنَاهُمْ يَتَنَافَسُونَ فِي ٱلْخَيْرِ وَخِلَالِهِ مِنَ ٱلْكَرَمِ وَٱلْعَفْوِ عَنِ ٱلزَّلَّاتِ وَٱلِاحْتِمَالِ مِنْ غَيْرِ ٱلْقَادِرِ وَٱلْقِرَى لِلضُّيُوفِ وَحَمْلِ ٱلْكَلِّ وَكَسْبِ ٱلْمُعْدِمِ وَٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ وَٱلْوَفَاءِ بِٱلْعَهْدِ وَبَذْلِ ٱلْأَمْوَالِ فِي صَوْنِ ٱلْأَعْرَاضِ وَتَعْظِيمِ ٱلشَّرِيعَةِ وَإِجْلَالِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْحَامِلِينَ لَهَا وَٱلْوُقُوفِ عِنْدَ مَا يُحَدِّدُونَهُ لَهُمْ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ وَحُسْنِ ٱلظَّنِّ بِهِمْ وَٱعْتِقَادِ أَهْلِ ٱلدِّينِ وَٱلتَّبَرُّكِ بِهِمْ وَرَغْبَةِ ٱلدُّعَاءِ مِنْهُمْ وَٱلْحَيَاءِ مِنَ ٱلْأَكَابِرِ وَٱلْمَشَايِخِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ وَٱلِانْقِيَادِ إِلَى ٱلْحَقِّ مَعَ ٱلدَّاعِي إِلَيْهِ وَإِنْصَافِ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَٱلتَّبَذُّلِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَٱلِانْقِيَادِ لِلْحَقِّ وَٱلتَّوَاضُعِ لِلْمِسْكِينِ وَٱسْتِمَاعِ شَكْوَى ٱلْمُسْتَغِيثِينَ وَٱلتَّدَيُّنِ بِٱلشَّرَائِعِ وَٱلْعِبَادَاتِ وَٱلْقِيَامِ عَلَيْهَا وَعَلَى أَسْبَابِهَا وَٱلتَّجَافِي عَنِ ٱلْغَدْرِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ وَنَقْضِ ٱلْعَهْدِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّ هٰذِهِ خُلُقُ ٱلسِّيَاسَةِ قَدْ حَصَلَتْ لَدَيْهِمْ وَٱسْتَحَقُّوا بِهَا أَنْ يَكُونُوا سَاسَةً لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ أَوْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَأَنَّهُ خَيْرٌ سَاقَهُ ٱللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ

مناسبٌ لعصبيّتهم وغلبهم وليس ذلك سُدًى فيهم ولا وُجد عبثاً منهم والملكُ أنسب المراتب والخيرات لعصبيّتهم فعلمنا بذلك أنّ الله تأذَّن لهم بالملك وساقه إليهم وبالعكس من ذلك إذا تأذَّن الله بانقراض الملك من أمةٍ حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتُفقد الفضائل السياسيّة منهم جملةً ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملكُ من أيديهم ويتبدّل به سواهم ليكون نعياً عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً واستقرِئْ ذلك وتتبّعه في الأمم السابقة تجد كثيراً ممّا قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار

واعلم أنّ من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أولو العصبيّة وتكون شاهدة لهم بالملك إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم وذلك أنّ إكرام القبائل وأهل العصبيّات والعشائر لمن يناهضهم في الشرف ويجاذبهم حبل العشير والعصبيّة ويشاركهم في اتّساع الجاه أمرٌ طبيعيٌّ يحمل عليه في الأكثر الرغبة في الجاه أو المخافة من قوم المكرم أو التماس مثلها منه وأمّا أمثال هؤلاء ممّن ليس لهم عصبيّةٌ تُتّقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشكّ في شأن كرامتهم ويتمحّض القصد فيهم أنّه للمجد وانتحال الكمال في الخلال والإقبال على السياسة بالكلّيّة لأنّ إكرام أقتاله وأمثاله ضروريٌّ في السياسة الخاصّة بين قبيله ونظرائه وإكرام الطارئين من أهل الفضائل والخصوصيّات كمالٌ في السياسة العامّة فالصالحون للدين والعلماء للجائي إليهم في إقامة مراسم الشريعة والتجّار للترغيب حتّى تعمّ المنفعة بما في أيديهم والغرباء من مكارم الأخلاق وإنزال الناس منازلهم من الإنصاف وهو من العدل فيُعلم بوجود ذلك من أهل عصبيّته انتماؤهم للسياسة العامّة وهي الملك وأنّ الله قد تأذّن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا كان أوّل ما يذهب من القبيل أهل الملك إذا تأذّن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرام هذا الصنف من الخلق فإذا رأيته قد ذهب من أمّةٍ من الأمم فاعلم أنّ الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردّ له والله تعالى أعلم

الفصل الحادي والعشرون

في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها اوسع

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلِٱسْتِبْدَادِ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱسْتِعْبَادِ ٱلطَّوَائِفِ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى مُحَارَبَةِ ٱلْأُمَمِ سِوَاهُمْ وَلِأَنَّهُمْ يَتَنَزَّلُونَ مِنَ ٱلْأَهْلِينَ مَنْزِلَةَ ٱلْمُفْتَرِسِ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ وَهٰؤُلَاءِ مِثْلُ ٱلْعَرَبِ وَزَنَاتَةَ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ ٱلْأَكْرَادِ وَٱلتُّرْكُمَانِ وَأَهْلِ ٱللِّثَامِ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَأَيْضاً فَهٰؤُلَاءِ ٱلْمُتَوَحِّشُونَ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ يَرْتَافُونَ مِنْهُ وَلَا بَلَدٌ يَجْنَحُونَ إِلَيْهِ فَنِسْبَةُ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْمَوَاطِنِ إِلَيْهِمْ عَلَى ٱلسَّوَاءِ فَلِهٰذَا لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَلَكَةِ قُطْرِهِمْ وَمَا جَاوَرَهُمْ مِنَ ٱلْبِلَادِ وَلَا يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ أُفُقِهِمْ بَلْ يَطْفُرُونَ إِلَى ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْبَعِيدَةِ وَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى ٱلْأُمَمِ ٱلنَّائِيَةِ وَٱنْظُرْ مَا يُحْكَى فِي ذٰلِكَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ لَمَّا بُويِعَ وَقَامَ يُحَرِّضُ ٱلنَّاسَ عَلَى ٱلْعِرَاقِ فَقَالَ إِنَّ ٱلْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ إِلَّا عَلَى ٱلنُّجْعَةِ وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذٰلِكَ أَيْنَ ٱلْقُرَّاءُ ٱلْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ ٱللّٰهِ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي وَعَدَكُمُ ٱللّٰهُ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمُوهَا فَقَالَ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ أَيْضاً بِحَالِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّالِفَةِ مِنْ قَبْلُ مِثْلِ ٱلتَّبَابِعَةِ وَحِمْيَرَ كَيْفَ كَانُوا يَخْطُونَ مِنَ ٱلْيَمَنِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ مَرَّةً وَإِلَى ٱلْعِرَاقِ وَٱلْهِنْدِ أُخْرَى وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ لِغَيْرِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلْأُمَمِ وَكَذَا حَالُ ٱلْمُلَثَّمِينَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ لَمَّا نَزَعُوا إِلَى ٱلْمُلْكِ طَفَرُوا مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَمَجَالَاتُهُمْ مِنْهُ فِي جِوَارِ ٱلسُّودَانِ إِلَى ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ فِي مَمَالِكِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهٰذَا شَأْنُ هٰذِهِ ٱلْأُمَمِ ٱلْوَحْشِيَّةِ فَلِذٰلِكَ تَكُونُ دَوْلَتُهُمْ أَوْسَعَ نِطَاقاً وَأَبْعَدَ مِنْ مَرَاكِزِهَا نِهَايَةً وَٱللّٰهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ لَا شَرِيكَ لَهُ

الفصل الثاني والعشرون

في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بَعْدَ سَوْرَةِ ٱلْغَلَبِ وَٱلْإِذْعَانِ لَهُمْ مِنْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ سِوَاهُمْ فَيَتَعَيَّنُ مِنْهُمُ ٱلْمُبَاشِرُونَ لِلْأَمْرِ ٱلْحَامِلُونَ سَرِيرَ ٱلْمُلْكِ وَلَا يَكُون

ذٰلِكَ لِجَمِيعِهِمْ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْكَثْرَةِ ٱلَّتِي يَضِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ ٱلْمُزَاحَمَةِ وَٱلْغَيْرَةِ ٱلَّتِي تَجْدَعُ أُنُوفَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُتَطَاوِلِينَ لِلرُّتْبَةِ فَإِذَا تَعَيَّنَ أُولٰئِكَ ٱلْقَائِمُونَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱنْغَمَسُوا فِي ٱلنَّعِيمِ وَغَرِقُوا فِي بَحْرِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْخِصْبِ وَٱسْتَعْبَدُوا إِخْوَانَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْجِيلِ وَأَنْفَقُوهُمْ فِي وُجُوهِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَبَقِيَ ٱلَّذِينَ بَعُدُوا عَنِ ٱلْأَمْرِ وَكُبِحُوا عَنِ ٱلْمُشَارَكَةِ فِي ظِلٍّ مِنْ عِزِّ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي شَارَكُوهَا بِنَسَبِهِمْ وَبِمَنْجَاةٍ مِنَ ٱلْهَرَمِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ ٱلتَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ فَإِذَا ٱسْتَوْلَتْ عَلَى ٱلْأَوَّلِينَ ٱلْأَيَّامُ وَأَبَادَ غَضْرَاءَهُمُ ٱلْهَرَمُ فَطَبَخَتْهُمُ ٱلدَّوْلَةُ وَأَكَلَ ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَشَرِبَ بِمَا أَرْهَفَ ٱلنَّعِيمُ مِنْ حَدِّهِمْ وَٱسْتَقَتْ غَرِيزَةُ ٱلتَّرَفِ مِنْ مَائِهِمْ وَبَلَغُوا غَايَتَهُمْ مِنْ طَبِيعَةِ ٱلتَّمَدُّنِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَٱلتَّغَلُّبِ ٱلسِّيَاسِيِّ (شعر)

كَدُودِ ٱلْقَزِّ يَنْسِجُ ثُمَّ يَفْنَى ... بِمَرْكَزِ نَسْجِهِ فِي ٱلِٱنْعِكَاسِ

كَانَتْ حِينَئِذٍ عَصَبِيَّةُ ٱلْآخَرِينَ مَوْفُورَةً وَسَوْرَةُ غَلْبِهِمْ مِنَ ٱلْكَاسِرِ مَحْفُوظَةً وَشَارَتُهُمْ فِي ٱلْغَلْبِ مَعْلُومَةً فَتَسْمُو آمَالُهُمْ إِلَى ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي كَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنْهُ بِٱلْقُوَّةِ ٱلْغَالِبَةِ مِنْ جِنْسِ عَصَبِيَّتِهِمْ وَتَرْتَفِعُ ٱلْمُنَازَعَةُ لِمَا عُرِفَ مِنْ غَلْبِهِمْ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَى ٱلْأَمْرِ وَيَصِيرُ إِلَيْهِمْ وَكَذَا يَتَّفِقُ فِيهِمْ مَعَ مَنْ بَقِيَ أَيْضاً مُنْتَبِذاً عَنْهُ مِنْ عَشَائِرِ أُمَّتِهِمْ فَلَا يَزَالُ ٱلْمُلْكُ مُلْجَأً فِي ٱلْأُمَّةِ إِلَى أَنْ تَنْكَسِرَ سَوْرَةُ ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنْهَا أَوْ يَفْنَى سَائِرُ عَشَائِرِهَا سُنَّةُ ٱللهِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ وَٱعْتَبِرْ هٰذَا بِمَا وَقَعَ فِي ٱلْعَرَبِ لَمَّا ٱنْقَرَضَ مُلْكُ عَادٍ قَامَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ ثَمُودَ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ ٱلْعَمَالِقَةُ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ حِمْيَرَ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ ٱلتَّبَابِعَةُ مِنْ حِمْيَرَ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِمُ ٱلْأَذْوَاءُ كَذٰلِكَ ثُمَّ جَاءَتِ ٱلدَّوْلَةُ لِمُضَرَ وَكَذَا ٱلْفُرْسُ لَمَّا ٱنْقَرَضَ أَمْرُ ٱلْكَيْنِيَّةِ مَلَكَ مِنْ بَعْدِهِمُ ٱلسَّاسَانِيَّةُ حَتَّى تَأَذَّنَ ٱللهُ بِٱنْقِرَاضِهِمْ أَجْمَعَ بِٱلْإِسْلَامِ وَكَذَا ٱلْيُونَانِيُّونَ ٱنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَٱنْتَقَلَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ مِنَ ٱلرُّومِ وَكَذَا ٱلْبَرْبَرُ بِٱلْمَغْرِبِ لَمَّا ٱنْقَرَضَ أَمْرُ مَغْرَاوَةَ وَكُتَامَةَ ٱلْمُلُوكِ ٱلْأُوَلِ مِنْهُمْ رَجَعَ إِلَى صَنْهَاجَةَ ثُمَّ ٱلْمُلَثَّمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ مَنْ بَقِيَ مِنْ شُعُوبِ زَنَاتَةَ وَهٰكَذَا سُنَّةُ ٱللهِ فِي عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ وَأَصْلُ هٰذَا كُلِّهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ فِي ٱلْأَجْيَالِ وَٱلْمُلْكُ يُخْلِقُهُ ٱلتَّرَفُ وَيُذْهِبُهُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ بَعْدُ فَإِذَا ٱنْقَرَضَتْ دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا يَتَنَاوَلُ ٱلْأَمْرَ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ عَصَبِيَّةٌ مُشَارِكَةٌ لِعَصَبِيَّتِهِمْ ٱلَّتِي عُرِفَ لَهَا ٱلتَّسْلِيمُ وَٱلِٱنْقِيَادُ وَأُونِسَ مِنْهَا ٱلْغَلْبُ لِجَمِيعِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ وَذٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ

فِي ٱلنَّسَبِ ٱلْقَرِيبِ مِنْهُمْ لِأَنَّ تَفَاوُتَ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قَرُبَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّسَبِ ٱلَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعُدَ حَتَّى إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمْرَانٍ أَوْ مَا شَاءَ ٱللهُ مِنْ قُدْرَتِهِ فَحِينَئِذٍ يَخْرُجُ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْجِيلِ إِلَى ٱلْجِيلِ ٱلَّذِي يَأْذَنُ ٱللهُ بِقِيَامِهِ بِذٰلِكَ ٱلتَّبْدِيلِ كَمَا وَقَعَ لِمُضَرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ وَأَخَذُوا ٱلْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ ٱلْعَالَمِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَحْقَاباً

الفصل الثالث والعشرون

في ان المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ أَبَداً تَعْتَقِدُ ٱلْكَمَالَ فِي مَنْ غَلَبَهَا وَٱنْقَادَتْ إِلَيْهِ إِمَّا لِنَظَرِهِ بِٱلْكَمَالِ بِمَا وَقَرَ عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ أَوْ لِمَا تُغَالِطُ بِهِ مِنْ أَنَّ ٱنْقِيَادَهَا لَيْسَ لِغَلَبٍ طَبِيعِيٍّ إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ ٱلْغَالِبِ فَإِذَا غَالَطَتْ بِذٰلِكَ وَٱتَّصَلَ لَهَا ٱعْتِقَاداً فَٱنْتَحَلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ ٱلْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلِاقْتِدَاءُ أَوْ لِمَا تَرَاهُ وَٱللهُ أَعْلَمُ مِنْ أَنَّ غَلَبَ ٱلْغَالِبِ لَهَا لَيْسَ بِعَصَبِيَّةٍ وَلَا قُوَّةِ بَأْسٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا ٱنْتَحَلَتْهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ وَٱلْمَذَاهِبِ تُغَالِطُ أَيْضاً بِذٰلِكَ عَنِ ٱلْغَلَبِ وَهٰذَا رَاجِعٌ لِلْأَوَّلِ وَلِذٰلِكَ تَرَى ٱلْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَداً بِٱلْغَالِبِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلَاحِهِ فِي ٱتِّخَاذِهَا وَأَشْكَالِهَا بَلْ وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ وَٱنْظُرْ ذٰلِكَ فِي ٱلْأَبْنَاءِ مَعَ آبَائِهِمْ كَيْفَ تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِماً وَمَا ذٰلِكَ إِلَّا لِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْكَمَالَ فِيهِمْ وَٱنْظُرْ إِلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زِيُّ ٱلْحَامِيَةِ وَجُنْدُ ٱلسُّلْطَانِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّهُمُ ٱلْغَالِبُونَ لَهُمْ حَتَّى أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ تُجَاوِرُ أُخْرَى وَلَهَا ٱلْغَلَبُ عَلَيْهَا فَيَسْرِي إِلَيْهِمْ مِنْ هٰذَا ٱلتَّشَبُّهِ وَٱلِاقْتِدَاءِ حَظٌّ كَبِيرٌ كَمَا هُوَ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَعَ أُمَمِ ٱلْجَلَالِقَةِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ وَٱلْكَثِيرِ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ حَتَّى فِي رَسْمِ ٱلتَّمَاثِيلِ فِي ٱلْجُدْرَانِ وَٱلْمَصَانِعِ وَٱلْبُيُوتِ حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ بِعَيْنِ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّهُ مِنْ عَلَامَاتِ ٱلِاسْتِيلَاءِ وَٱلْأَمْرُ لِلهِ. وَتَأَمَّلْ فِي هٰذَا سِرَّ قَوْلِهِمِ ٱلْعَامَّةُ عَلَى دِينِ ٱلْمَلِكِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ إِذِ ٱلْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ وَٱلرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لِٱعْتِقَادِ ٱلْكَمَالِ فِيهِ ٱعْتِقَادَ ٱلْأَبْنَاءِ بِآبَائِهِمْ وَٱلْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِيهِمْ وَٱللهُ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الرابع والعشرون

في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ مَا يَحْصُلُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلتَّكَاسُلِ إِذَا مُلِكَ أَمْرُهَا عَلَيْهَا وَصَارَتْ بِٱلِٱسْتِعْبَادِ آلَةً لِسِوَاهَا وَعَالَةً عَلَيْهِمْ فَيَقْصُرُ ٱلْأَمَلُ وَيَضْعُفُ ٱلتَّنَاسُلُ وَٱلِٱعْتِمَارُ إِنَّمَا هُوَ عَنْ جِدَّةِ ٱلْأَمَلِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ ٱلنَّشَاطِ فِي ٱلْقُوَى ٱلْحَيَوَانِيَّةِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْأَمَلُ بِٱلتَّكَاسُلِ وَذَهَبَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَكَانَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ ذَاهِبَةً بِٱلْغَلَبِ ٱلْحَاصِلِ عَلَيْهِمْ تَنَاقَصَ عُمْرَانُهُمْ وَتَلَاشَتْ مَكَاسِبُهُمْ وَمَسَاعِيهِمْ وَعَجَزُوا عَنِ ٱلْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَا خَضَدَ ٱلْغَلَبُ مِنْ شَوْكَتِهِمْ فَأَصْبَحُوا مُغَلَّبِينَ لِكُلِّ مُتَغَلِّبٍ وَطُعْمَةً لِكُلِّ آكِلٍ وَسَوَاءٌ كَانُوا حَصَلُوا عَلَى غَايَتِهِمْ مِنَ ٱلْمُلْكِ أَمْ لَمْ يَحْصُلُوا. وَفِيهِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ سِرٌّ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ رَئِيسٌ بِطَبْعِهِ بِمُقْتَضَى ٱلِٱسْتِخْلَافِ ٱلَّذِي خُلِقَ لَهُ وَٱلرَّئِيسُ إِذَا غُلِبَ عَلَى رِئَاسَتِهِ وَكُبِحَ عَنْ غَايَةِ عِزِّهِ تَكَاسَلَ حَتَّى عَنْ شِبَعِ بَطْنِهِ وَرِيِّ كَبِدِهِ وَهَٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَخْلَاقِ ٱلْأَنَاسِيِّ . وَلَقَدْ يُقَالُ مِثْلُهُ فِي ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْمُفْتَرِسَةِ وَإِنَّهَا لَا تُسَافِدُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِي مَلَكَةِ ٱلْآدَمِيِّينَ فَلَا يَزَالُ هَٰذَا ٱلْقَبِيلُ ٱلْمَمْلُوكُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فِي تَنَاقُصٍ وَٱضْمِحْلَالٍ إِلَى أَنْ يَأْخُذَهُمُ ٱلْفَنَاءُ وَٱلْبَقَاءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ فِي أُمَّةِ ٱلْفُرْسِ كَيْفَ كَانَتْ قَدْ مَلَأَتِ ٱلْعَالَمَ كَثْرَةً وَلَمَّا فَنِيَتْ حَامِيَتُهُمْ فِي أَيَّامِ ٱلْعَرَبِ بَقِيَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَأَكْثَرُ مِنَ ٱلْكَثِيرِ يُقَالُ إِنَّ سَعْداً أَحْصَى مَا وَرَاءَ ٱلْمَدَائِنِ فَكَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وَسَبْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفاً مِنْهُمْ سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفاً رَبُّ بَيْتٍ وَلَمَّا تَحَصَّلُوا فِي مَلَكَةِ ٱلْعَرَبِ وَقَبْضَةِ ٱلْقَهْرِ لَمْ يَكُنْ بَقَاؤُهُمْ إِلَّا قَلِيلاً وَدَثَرُوا كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ ذَٰلِكَ لِظُلْمٍ نَزَلَ بِهِمْ أَوْ عُدْوَانٍ شَمَلَهُمْ فَمَلَكَةُ ٱلْإِسْلَامِ فِي ٱلْعَدْلِ مَا عَلِمْتَ وَإِنَّمَا هِيَ طَبِيعَةٌ فِي ٱلْإِنْسَانِ إِذَا غُلِبَ عَلَى أَمْرِهِ وَصَارَ آلَةً لِغَيْرِهِ وَلِهَٰذَا إِنَّمَا تُذْعِنُ لِلرِّقِّ فِي ٱلْغَالِبِ أُمَمُ ٱلسُّودَانِ لِنَقْصِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنْ عَرَضِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ كَمَا قُلْنَاهُ أَوْ مَنْ يَرْجُو بِٱنْتِظَامِهِ فِي رِبْقَةِ ٱلرِّقِّ حُصُولَ رُتْبَةٍ أَوْ إِفَادَةَ مَالٍ أَوْ عِزٍّ كَمَا يَقَعُ لِمَمَالِكِ ٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْعُلُوجِ مِنَ ٱلْجَلَالِقَةِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ فَإِنَّ ٱلْعَادَةَ جَارِيَةٌ بِٱسْتِخْلَاصِ ٱلدَّوْلَةِ لَهُمْ فَلَا يَأْنَفُونَ مِنَ ٱلرِّقِّ لِمَا يَأْمُلُونَهُ مِنَ ٱلْجَاهِ وَٱلرُّتْبَةِ بِٱصْطِفَاءِ ٱلدَّوْلَةِ وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والعشرون

في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط

وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ بِطَبِيعَةِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلَّذِي فِيهِمْ أَهْلُ ٱنْتِهَابٍ وَعَيْثٍ يَنْتَهِبُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُغَالَبَةٍ وَلَا رُكُوبِ خَطَرٍ وَيَفِرُّونَ إِلَى مُنْتَجَعِهِمْ بِٱلْقَفْرِ وَلَا يَذْهَبُونَ إِلَى ٱلْمُزَاحَفَةِ وَٱلْمُحَارَبَةِ إِلَّا إِذَا دَفَعُوا بِذٰلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَكُلُّ مَعْقِلٍ أَوْ مُسْتَصْعَبٍ عَلَيْهِمْ فَهُمْ تَارِكُوهُ إِلَى مَا يَسْهُلُ عَنْهُ وَلَا يَعْرِضُونَ لَهُ وَٱلْقَبَائِلُ ٱلْمُمْتَنِعَةُ عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ ٱلْجِبَالِ بِمَنْجَاةٍ مِنْ عَيْثِهِمْ وَفَسَادِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَسَنَّمُونَ إِلَيْهِمِ ٱلْهِضَابَ وَلَا يَرْكَبُونَ ٱلصِّعَابَ وَلَا يُحَاوِلُونَ ٱلْخَطَرَ وَأَمَّا ٱلْبَسَائِطُ فَمَتَى ٱقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفِقْدَانِ ٱلْحَامِيَةِ وَضَعْفِ ٱلدَّوْلَةِ فَهِيَ نَهْبٌ لَهُمْ وَطُعْمَةٌ لِآكِلِهِمْ يُرَدِّدُونَ عَلَيْهَا ٱلْغَارَةَ وَٱلنَّهْبَ وَٱلزَّحْفَ لِسُهُولَتِهَا عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ أَهْلُهَا مُغَلَّبِينَ لَهُمْ ثُمَّ يَتَعَاوَرُونَهُمْ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَيْدِي وَٱنْحِرَافِ ٱلسِّيَاسَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ عُمْرَانُهُمْ وَٱللّٰهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

الفصل السادس والعشرون

في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَحْشِيَّةٌ بِٱسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ ٱلتَّوَحُّشِ وَأَسْبَابِهِ فِيهِمْ فَصَارَ لَهُمْ خُلُقاً وَجِبِلَّةً وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلْذُوذاً لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ ٱلْحُكْمِ وَعَدَمِ ٱلِٱنْقِيَادِ لِلسِّيَاسَةِ وَهٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمْرَانِ وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ فَغَايَةُ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْعَادِيَةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمُ ٱلرِّحْلَةُ وَٱلتَّغَلُّبُ وَذٰلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ ٱلَّذِي بِهِ ٱلْعُمْرَانُ وَمُنَافٍ لَهُ فَٱلْحَجَرُ مَثَلاً إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنَصْبِهِ أَثَافِيَّ ٱلْقِدْرِ فَيَنْقُلُونَهُ مِنَ ٱلْمَبَانِي وَيُخَرِّبُونَهَا عَلَيْهِ وَيُعِدُّونَهُ لِذٰلِكَ وَٱلْخَشَبُ أَيْضاً إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيَعْمُرُوا بِهِ خِيَامَهُمْ وَيَتَّخِذُوا ٱلْأَوْتَادَ مِنْهُ لِبُيُوتِهِمْ فَيُخَرِّبُونَ ٱلسَّقْفَ عَلَيْهِ لِذٰلِكَ فَصَارَتْ طَبِيعَةُ وُجُودِهِمْ مُنَافِيَةً لِلْبِنَاءِ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلْعُمْرَانِ هٰذَا فِي حَالِهِمْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَأَيْضاً فَطَبِيعَتُهُمُ ٱنْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ وَأَنَّ رِزْقَهُمْ فِي ظِلَالِ رِمَاحِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ حَدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ بَلْ كُلَّمَا ٱمْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلَى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ أَوْ مَاعُونٍ ٱنْتَهَبُوهُ فَإِذَا تَمَّ ٱقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذٰلِكَ بِٱلتَّغَلُّبِ وَٱلْمُلْكِ بَطَلَتِ ٱلسِّيَاسَةُ فِي حِفْظِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ وَخَرِبَ ٱلْعُمْرَانُ وَأَيْضاً فَلِأَنَّهُم

يـكَلِّفُونَ عَلَى أَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لَا يَرَوْنَ لَهَا قِيمَةً وَلَا قِسْطاً مِنَ ٱلْأَجْرِ وَٱلثَّمَنِ وَٱلْأَعْمَالُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ هِيَ أَصْلُ ٱلْمَكَاسِبِ وَحَقِيقَتُهَا وَإِذَا فَسَدَتِ ٱلْأَعْمَالُ وَصَارَتْ مَجَّانًا ضَعُفَتِ ٱلْآمَالُ فِي ٱلْمَكَاسِبِ وَٱنْقَبَضَتِ ٱلْأَيْدِي عَنِ ٱلْعَمَلِ وَٱبْذَعَرَّ ٱلسَّاكِنُ وَفَسَدَ ٱلْعُمْرَانُ وَأَيْضاً فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِٱلْأَحْكَامِ وَزَجْرِ ٱلنَّاسِ عَنِ ٱلْمَفَاسِدِ وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ إِنَّمَا هَمُّهُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ نَهْباً أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذٰلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ أَعْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَٱلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهْرِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَغْرَاضِ ٱلْمَفَاسِدِ وَرُبَّمَا فَرَضُوا ٱلْعُقُوبَاتِ فِي ٱلْأَمْوَالِ حِرْصاً عَلَى تَحْصِيلِ ٱلْفَائِدَةِ وَٱلْجِبَايَةِ وَٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنْهَا كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ وَذٰلِكَ لَيْسَ بِمُغْنٍ فِي دَفْعِ ٱلْمَفَاسِدِ وَزَجْرِ ٱلْمُتَعَرِّضِ لَهَا بَلْ يَكُونُ ذٰلِكَ زَائِداً فِيهَا لِٱسْتِسْهَالِ ٱلْغُرْمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ ٱلْغَرَضِ فَتَبْقَى ٱلرَّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ كَأَنَّهَا فَوْضَى [1] دُونَ حُكْمٍ وَٱلْفَوْضَى مُهْلِكَةٌ لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةٌ لِلْعُمْرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ وُجُودَ ٱلْمَلِكِ خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُمْ وَٱجْتِمَاعُهُمْ إِلَّا بِهَا وَتَقَدَّمَ ذٰلِكَ أَوَّلَ ٱلْفَصْلِ وَأَيْضاً فَهُمْ مُتَنَافِسُونَ فِي ٱلرِّئَاسَةِ وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ٱلْأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَعَلَى كُرْهٍ مِنْ أَجْلِ ٱلْحَيَاءِ فَيَتَعَدَّدُ ٱلْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَٱلْأُمَرَاءُ وَتَخْتَلِفُ ٱلْأَيْدِي عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ فِي ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْأَحْكَامِ فَيَفْسُدُ ٱلْعُمْرَانُ وَيَنْتَقِضُ قَالَ ٱلْأَعْرَابِيُّ ٱلْوَافِدُ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ ٱلْحَجَّاجِ وَأَرَادَ ٱلثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ ٱلسِّيَاسَةِ وَٱلْعُمْرَانِ فَقَالَ تَرَكْتُهُ يَظْلِمُ وَحْدَهُ وَٱنْظُرْ إِلَى مَا مَلَكُوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ ٱلْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَوَّضَ عُمْرَانُهُ وَأَقْفَرَ سَاكِنُهُ وَبُدِّلَتِ ٱلْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ فَٱلْيَمَنُ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ ٱلْأَمْصَارِ وَعِرَاقُ ٱلْعَرَبِ كَذٰلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمْرَانُهُ ٱلَّذِي كَانَ لِلْفُرْسِ أَجْمَعَ وَٱلشَّامُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ كَذٰلِكَ وَأَفْرِيقِيَّةُ وَٱلْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ وَتَمَرَّسُوا بِهَا لِثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ ٱلسِّنِينَ قَدْ لَحِقَ بِهَا وَعَادَتْ بَسَائِطُهُ خَرَاباً كُلُّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ ٱلسُّودَانِ وَٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ كُلُّهُ عُمْرَاناً تَشْهَدُ بِذٰلِكَ آثَارُ ٱلْعُمْرَانِ فِيهِ مِنَ ٱلْمَعَالِمِ وَتَمَاثِيلِ ٱلْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ ٱلْقُرَى وَٱلْمَدَرِ وَٱللّٰهُ

---

[1] ومما يعزى الى سيدنا علي: لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة اذا جهالهم سادوا

يرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل السابع والعشرون

في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمْ لِخُلُقِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلَّذِي فِيهِمْ أَصْعَبُ ٱلْأُمَمِ ٱنْقِيَاداً بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لِلْغِلْظَةِ وَٱلْأَنَفَةِ وَبُعْدِ ٱلْهِمَّةِ وَٱلْمُنَافَسَةِ فِي ٱلرِّئَاسَةِ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ أَهْوَاؤُهُمْ فَإِذَا كَانَ ٱلدِّينُ بِٱلنُّبُوَّةِ أَوِ ٱلْوِلَايَةِ كَانَ ٱلْوَازِعُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَذَهَبَ خُلُقُ ٱلْكِبْرِ وَٱلْمُنَافَسَةِ مِنْهُمْ فَسَهُلَ ٱنْقِيَادُهُمْ وَٱجْتِمَاعُهُمْ وَذٰلِكَ بِمَا يَشْمُلُهُمْ مِنَ ٱلدِّينِ ٱلْمُذْهِبِ لِلْغِلْظَةِ وَٱلْأَنَفَةِ ٱلْوَازِعِ عَنِ ٱلتَّحَاسُدِ وَٱلتَّنَافُسِ فَإِذَا كَانَ فِيهِمِ ٱلنَّبِيُّ أَوِ ٱلْوَلِيُّ ٱلَّذِي يَبْعَثُهُمْ عَلَى ٱلْقِيَامِ بِأَمْرِ ٱللّٰهِ يُذْهِبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتِ ٱلْأَخْلَاقِ وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لِإِظْهَارِ ٱلْحَقِّ تَمَّ ٱجْتِمَاعُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمُ ٱلتَّغَلُّبُ وَٱلْمُلْكُ وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ أَسْرَعُ ٱلنَّاسِ قَبُولاً لِلْحَقِّ وَٱلْهُدَى لِسَلَامَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عِوَجِ ٱلْمَلَكَاتِ وَبَرَاءَتِهَا مِنْ ذَمِيمِ ٱلْأَخْلَاقِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ ٱلتَّوَحُّشِ ٱلْقَرِيبِ ٱلْمُعَانَاةِ ٱلْمُتَهَيِّءِ لِقَبُولِ ٱلْخَيْرِ بِبَقَائِهِ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ ٱلْعَوَائِدِ وَسُوءِ ٱلْمَلَكَاتِ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ كَمَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ

الفصل الثامن والعشرون

في ان العرب أبعد الامم عن سياسة الملك

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بِدَاوَةً مِنْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ وَأَبْعَدُ مَجَالاً فِي ٱلْقَفْرِ وَأَغْنَى عَنْ حَاجَاتِ ٱلتُّلُولِ وَحُبُوبِهَا لِٱعْتِيَادِهِمِ ٱلشَّظَفَ وَخُشُونَةَ ٱلْعَيْشِ فَٱسْتَغْنَوْا عَنْ غَيْرِهِمْ فَصَعُبَ ٱنْقِيَادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لِإِيلَافِهِمْ ذٰلِكَ وَلِلتَّوَحُّشِ وَرَئِيسُهُمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ غَالِباً لِلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا ٱلْمُدَافَعَةُ فَكَانَ مُضْطَرًّا إِلَى إِحْسَانِ مَلَكَتِهِمْ وَتَرْكِ مُرَاغَمَتِهِمْ لِئَلَّا يَخْتَلَّ عَلَيْهِ شَأْنُ عَصَبِيَّتِهِ فَيَكُونَ فِيهَا هَلَاكُهُ وَهَلَاكُهُمْ وَسِيَاسَةُ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ٱلسَّائِسُ وَازِعاً بِٱلْقَهْرِ وَإِلَّا لَمْ تَسْتَقِمْ سِيَاسَتُهُ وَأَيْضاً فَإِنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَخْذَ مَا فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ خَاصَّةً وَٱلتَّجَافِيَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ مِنْ

ٱلْأَحكَامِ بَيْنَهُمْ وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ فَإِذَا مَلَكُوا أُمَّةً مِنَ ٱلْأُمَمِ جَعَلُوا غَايَةَ مُلْكِهِمِ ٱلِٱنْتِفَاعَ بِأَخْذِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَتَرَكُوا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَحكَامِ بَيْنَهُم وَرُبَّمَا جَعَلُوا ٱلْعُقُوبَاتِ عَلَى ٱلْمَفَاسِدِ فِي ٱلْأَمْوَالِ حِرْصاً عَلَى تَكْثِيرِ ٱلْجِبَايَاتِ وَتَحْصِيل ٱلْفَوَائِدِ فَلا يَكُونُ ذٰلِكَ وَازِعاً وَرُبَّمَا يَكُونُ بَاعِثاً بِحَسَبِ ٱلْأَغْرَاضِ ٱلْبَاعِثَةِ عَلَى ٱلْمَفَاسِدِ وَٱسْتِهَانَةِ مَا يُعْطِي مِنْ مَالِهِ فِي جَانِبِ غَرَضِهِ فَتَنْمُو ٱلْمَفَاسِدُ بِذٰلِكَ وَيَقَعُ تَخْرِيب ٱلْعُمْرَانِ فَتَبْقَى تِلْكَ ٱلْأُمَّةُ كَأَنَّهَا فَوْضَى مُسْتَطِيلَةٌ أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَلا يَسْتَقِيم لَهَا عُمْرَانٌ وَتَخْرَبُ سَرِيعاً شَأْنَ ٱلْفَوْضَى كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَبَعُدَتْ طِبَاعُ ٱلْعَرَبِ لِذٰلِكَ كُلِّهِ عَنْ سِيَاسَةِ ٱلْمُلْكِ وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ ٱنْقِلابِ طِبَاعِهِمْ وَتَبَدُّلِهَا بِصِبْغَةٍ دِينِيَّةٍ تَمْحُو ذٰلِكَ مِنْهُمْ وَتَجْعَلُ ٱلْوَازِعَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى دِفَاعِ ٱلنَّاسِ بَعْضِهِم عَنْ بَعْضٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِدَوْلَتِهِمْ فِي ٱلْمِلَّةِ لَمَّا شَيَّدَ لَهُمُ ٱلدِّينُ أَمْر ٱلسِّيَاسَةِ بِٱلشَّرِيعَةِ وَأَحكَامِهَا ٱلْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ ٱلْعُمْرَانِ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَتَتَابَعَ فِيهَا ٱلْخُلَفَاءُ عَظُمَ حِينَئِذٍ مُلْكُهُمْ وَقَوِيَ سُلْطَانُهُمْ كَانَ رُسْتُمُ إِذَا رَأَى ٱلْمُسْلِمِين يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلاةِ يَقُولُ أَكَلَ عُمَرُ كَبِدِي يُعَلِّمُ ٱلْكِلابَ ٱلْآدَابَ ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ ٱلدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَذُوا ٱلدِّينَ فَنَسُوا ٱلسِّيَاسَةَ وَرَجَعُوا إِلَى قَفْرِهِمْ وَجَهِلُوا شَأْنَ عَصَبِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ بِبُعْدِهِمْ عَنِ ٱلِٱنْقِيَادِ وَإِعْطَاءِ ٱلنَّصَفَةِ فَتَوَحَّشُوا كَمَا كَانُوا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنِ ٱسْمِ ٱلْمُلْكِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنْ جِنْسِ ٱلْخُلَفَاءِ وَمِنْ جِيلِهِمْ وَلَمَّا ذَهَب أَمْرُ ٱلْخِلافَةِ وَٱمَّحَى رَسْمُهَا ٱنْقَطَعَ ٱلْأَمْرُ جُمْلَةً مِنْ أَيْدِيهِمْ وَغَلَبَ عَلَيْهِمِ ٱلْعَجَمُ دُونَهُم وَأَقَامُوا فِي بَادِيَةِ قِفَارِهِمْ لا يَعْرِفُونَ ٱلْمُلْكَ وَلا سِيَاسَتَهُ بَلْ قَدْ يَجْهَلُ ٱلْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُم قَدْ كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي ٱلْقَدِيمِ وَمَا كَانَ فِي ٱلْقَدِيمِ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي ٱلْخَلِيقَةِ مَا كَان لِأَجْيَالِهِمْ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَدُوَلُ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلْعَمَالِقَةِ وَحِمْيَرَ وَٱلتَّبَابِعَةِ شَاهِدَةٌ بِذٰلِكَ ثُمَّ دَوْلَةُ مُضَرَ فِي ٱلْإِسْلامِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي ٱلْعَبَّاسِ لٰكِنْ بَعُدَ عَهْدُهُمْ بِٱلسِّيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا ٱلدِّينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِم مِنَ ٱلْبِدَاوَةِ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ غَلَب عَلَى ٱلدُّوَلِ ٱلْمُسْتَضْعَفَةِ كَمَا فِي ٱلْمَغْرِبِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَلا يَكُونُ مَآلُهُ وَغَايَتُهُ إِلَّا تَخْرِيب مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْعُمْرَانِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَٱللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل التاسع والعشرون

في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار

قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ عُمْرَانَ ٱلْبَادِيَةِ نَاقِصٌ عَنْ عُمْرَانِ ٱلْحَوَاضِرِ وَٱلْأَمْصَارِ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلضَّرُورِيَّةَ فِي ٱلْعُمْرَانِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةً لِأَهْلِ ٱلْبَدْوِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ لَدَيْهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ أُمُورُ ٱلْفَلْحِ وَمَوَادُّهَا مَعْدُومَةٌ وَمُعْظَمُهَا ٱلصَّنَائِعُ فَلَا تُوجَدُ لَدَيْهِمْ فِي ٱلْكُلِّيَّةِ مِنْ نَجَّارٍ وَخَيَّاطٍ وَحَدَّادٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يُقِيمُ لَهُمْ ضَرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فِي ٱلْفَلْحِ وَغَيْرِهِ وَكَذَا ٱلدَّنَانِيرُ وَٱلدَّرَاهِمُ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ وَإِنَّمَا بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاضُهَا مِنْ مُغَلِّ ٱلزِّرَاعَةِ وَأَعْيَانِ ٱلْحَيَوَانِ أَوْ فَضَلَاتِهِ أَلْبَانًا وَأَوْبَارًا وَأَشْعَارًا وَإِهَابًا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ فَيُعَوِّضُونَهُمْ عَنْهُ بِٱلدَّنَانِيرِ وَٱلدَّرَاهِمِ إِلَّا أَنَّ حَاجَتَهُمْ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ فِي ٱلضَّرُورِيِّ وَحَاجَةُ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ إِلَيْهِمْ فِي ٱلْحَاجِيِّ وَٱلْكَمَالِيِّ فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ بِطَبِيعَةِ وُجُودِهِمْ فَمَا دَامُوا فِي ٱلْبَادِيَةِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ مُلْكٌ وَلَا ٱسْتِيلَاءٌ عَلَى ٱلْأَمْصَارِ فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى أَهْلِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ مَتَى دَعَوْهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَطَالَبُوهُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلْمِصْرِ مَلِكٌ كَانَ خُضُوعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِغَلَبِ ٱلْمَلِكِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْمِصْرِ مَلِكٌ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رِئَاسَةٍ وَنَوْعِ ٱسْتِبْدَادٍ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَى ٱلْبَاقِينَ وَإِلَّا ٱنْتَقَضَ عُمْرَانُهُ وَذَلِكَ ٱلرَّئِيسُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَٱلسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ إِمَّا طَوْعًا بِبَذْلِ ٱلْمَالِ لَهُمْ ثُمَّ يُبْدِي لَهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلضَّرُورِيَّاتِ فِي مِصْرِهِ فَيَسْتَقِيمُ عُمْرَانُهُمْ وَإِمَّا كُرْهًا إِنْ تَمَّتْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَلَوْ بِٱلتَّغْرِيبِ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ جَانِبٌ مِنْهُمْ يُغَالِبُ بِهِ ٱلْبَاقِينَ فَيَضْطَرُّ ٱلْبَاقُونَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ لِذَلِكَ مِنْ فَسَادِ عُمْرَانِهِمْ وَرُبَّمَا لَا يَسَعُهُمْ مُفَارَقَةُ تِلْكَ ٱلنَّوَاحِي إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى لِأَنَّ كُلَّ ٱلْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِٱلْبَدْوِ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَيْهَا وَمَنَعُوهَا مِنْ غَيْرِهَا فَلَا يَجِدُ هَؤُلَاءِ مَلْجَأً إِلَّا طَاعَةَ ٱلْمِصْرِ فَهُمْ بِٱلضَّرُورَةِ مَغْلُوبُونَ لِأَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱللَّهُ قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْأَحَدُ ٱلْقَهَّارُ

الفصل الثالث من الكتاب الاول

في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك
كله من الاحوال وفيه قواعد ومتممات

الفصل الاول

في ان الملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبية

وَذٰلِكَ أَنَّا قَرَّرْنَا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْأَوَّلِ أَنَّ ٱلْمُغَالَبَةَ وَٱلْمُمَانَعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ لِمَا فِيهَا مِنَ ٱلنُّعْرَةِ وَٱلتَّذَامُرِ وَٱسْتِمَاتَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دُونَ صَاحِبِهِ . ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُلْكَ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ مَلْذُوذٌ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَوِيَّةِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلْبَدَنِيَّةِ وَٱلْمَلَاذِّ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ فَيَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَافُسُ غَالِبًا وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَهُ أَحَدٌ لِصَاحِبِهِ إِلَّا إِذَا غُلِبَ عَلَيْهِ فَتَقَعُ ٱلْمُنَازَعَةُ وَتُفْضِي إِلَى ٱلْحَرْبِ وَٱلْقِتَالِ وَٱلْمُغَالَبَةِ وَشَيْءٌ مِنْهَا لَا يَقَعُ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا هٰذَا ٱلْأَمْرُ بَعِيدٌ عَنْ أَفْهَامِ ٱلْجُمْهُورِ بِٱلْجُمْلَةِ وَمُتَنَاسُونَ لَهُ لِأَنَّهُمْ نَسُوا عَهْدَ تَمْهِيدِ ٱلدَّوْلَةِ مُنْذُ أَوَّلِهَا وَطَالَ أَمَدُ مَرْبَاهُمْ فِي ٱلْحَضَارَةِ وَتَعَاقُبِهِمْ فِيهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ فَلَا يَعْرِفُونَ مَا فَعَلَ ٱللّٰهُ أَوَّلَ ٱلدَّوْلَةِ إِنَّمَا يُدْرِكُونَ أَصْحَابَ ٱلدَّوْلَةِ وَقَدِ ٱسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهُمْ وَوَقَعَ ٱلتَّسْلِيمُ لَهُمْ وَٱلِٱسْتِغْنَاءُ عَنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ وَلَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ كَانَ ٱلْأَمْرُ مِنْ أَوَّلِهِ وَمَا لَقِيَ أَوَّلُهُمْ مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ دُونَهُ وَخُصُوصًا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي نِسْيَانِ هٰذِهِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَثَرِهَا لِطُولِ ٱلْأَمَدِ وَٱسْتِغْنَائِهِمْ فِي ٱلْغَالِبِ عَنْ قُوَّةِ [ٱلْعَصَبِيَّةِ بِمَا تَلَاشَى وَطَنُهُمْ وَخَلَا مِنَ ٱلْعَصَائِبِ وَٱللّٰهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ

الفصل الثاني

في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّوَلَ ٱلْعَامَّةَ فِي أَوَّلِهَا يَصْعُبُ عَلَى ٱلنُّفُوسِ ٱلِٱنْقِيَادُ لَهَا إِلَّا بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ ٱلْغَلَبِ لِلْغَرَابَةِ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ لَمْ يَأْلَفُوا مُلْكَهَا وَلَا ٱعْتَادُوهُ فَإِذَا ٱسْتَقَرَّتِ ٱلرِّئَاسَةُ فِي أَهْلِ ٱلنِّصَابِ ٱلْمَخْصُوصِ بِٱلْمُلْكِ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَتَوَارَثُوهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ فِي أَعْقَابٍ كَثِيرِينَ وَدُوَلٍ مُتَعَاقِبَةٍ نَسِيَتِ ٱلنُّفُوسُ شَأْنَ ٱلْأَوَّلِيَّةِ وَٱسْتَحْكَمَتْ لِأَهْلِ ذٰلِكَ ٱلنِّصَابِ صِبْغَةُ ٱلرِّئَاسَةِ وَرَسَخَ فِي ٱلْعَقَائِدِ دِينُ ٱلِٱنْقِيَادِ لَهُمْ وَٱلتَّسْلِيمِ وَقَاتَلَ ٱلنَّاسُ مَعَهُمْ

عَلَى أَمْرِهِمْ قِتَالَهُمْ عَلَى ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ فَلَمْ يَحْتَاجُوا حِينَئِذٍ فِي أَمْرِهِمْ إِلَى كَبِيرِ عِصَابَةٍ بَلْ كَأَنَّ طَاعَتَهَا كِتَابٌ مِنَ ٱللهِ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُعْلَمُ خِلَافُهُ وَلِأَمْرٍ مَا يُوضَعُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْإِمَامَةِ آخِرَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ عُقُودِهَا وَيَكُونُ ٱسْتِظْهَارُهُمْ حِينَئِذٍ عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِمُ ٱلْمَخْصُوصَةِ إِمَّا بِٱلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنَعِينَ ٱلَّذِينَ نَشَأُوا فِي ظِلِّ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَإِمَّا بِٱلْعَصَائِبِ ٱلْخَارِجِينَ عَنْ نَسَبِهَا ٱلدَّاخِلِينَ فِي وِلَايَتِهَا وَمِثْلُ هٰذَا وَقَعَ لِبَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ ٱلْعَرَبِ كَانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ ٱلْمُعْتَصِمِ وَٱبْنِهِ ٱلْوَاثِقِ وَٱسْتِظْهَارُهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِٱلْمَوَالِي مِنَ ٱلْعَجَمِ وَٱلتُّرْكِ وَٱلدَّيْلَمِ وَٱلسَّلْجُوقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ ثُمَّ تَغَلَّبَ ٱلْعَجَمُ ٱلْأَوْلِيَاءُ عَلَى ٱلنَّوَاحِي وَتَقَلَّصَ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُو أَعْمَالَ بَغْدَادَ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْهَا ٱلدَّيْلَمُ وَمَلَكُوهَا وَصَارَ ٱلْخَلَائِقُ فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ ٱنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَمَلَكَ ٱلسَّلْجُوقِيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَصَارُوا فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ ٱنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَزَحَفَ آخِرُ ٱلتَّتَارِ فَقَتَلُوا ٱلْخَلِيفَةَ وَمَحَوْا رَسْمَ ٱلدَّوْلَةِ وَكَذَا صِنْهَاجَةُ بِٱلْمَغْرِبِ فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ مُنْذُ ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا وَٱسْتَمَرَّتْ لَهُمُ ٱلدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةَ ٱلظِّلِّ بِٱلْمَهْدِيَّةِ وَبِجَايَةَ وَٱلْقَلْعَةِ وَسَائِرِ ثُغُورِ أَفْرِيقِيَّةَ وَرُبَّمَا ٱنْتَزَى بِتِلْكَ ٱلثُّغُورِ مَنْ نَازَعَهُمُ ٱلْمُلْكَ وَٱعْتَصَمَ فِيهَا وَٱلسُّلْطَانُ وَٱلْمُلْكُ مَعَ ذٰلِكَ مُسَلَّمٌ لَهُمْ حَتَّى تَأَذَّنَ ٱللهُ بِٱنْقِرَاضِ ٱلدَّوْلَةِ وَجَاءَ ٱلْمُوَحِّدُونَ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي ٱلْمَصَامِدَةِ فَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَكَذَا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ لَمَّا فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهَا مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱسْتَوْلَى مُلُوكُ ٱلطَّوَائِفِ عَلَى أَمْرِهَا وَٱقْتَسَمُوا خِطَّتَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ وَتَوَزَّعُوا مَمَالِكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱنْتَزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وِلَايَتِهِ وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ وَبَلَغَهُمْ شَأْنُ ٱلْعَجَمِ مَعَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِأَلْقَابِ ٱلْمُلْكِ وَلَبِسُوا شَارَتَهُ وَأَمِنُوا مِمَّنْ يَنْقُضُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ لِأَنَّ ٱلْأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَائِبَ وَلَا قَبَائِلَ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَٱسْتَمَرَّ لَهُمْ ذٰلِكَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ شَرَفٍ

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ … أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا … كَٱلْهِرِّ يَحْكِي ٱنْتِفَاخًا صُورَةَ ٱلْأَسَدِ

فَٱسْتَظْهَرُوا عَلَى أَمْرِهِمْ بِٱلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنَعِينَ وَٱلطُّرَّاءِ عَلَى ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُدْوَةِ مِنْ قَبَائِلِ ٱلْبَرْبَرِ وَزَنَاتَةَ وَغَيْرِهِمْ ٱقْتِدَاءً بِٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ أَمْرِهَا فِي ٱلِٱسْتِظْهَارِ بِهِمْ حِينَ ضَعُفَتْ عَصَبِيَّةُ ٱلْعَرَبِ وَٱسْتَبَدَّ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُمْ دُوَلٌ عَظِيمَةٌ

اُسْتَبَدَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَحَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ ٱلْمُلْكِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي ٱقْتَسَمُوهَا وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ ذَٰلِكَ حَتَّى جَازَ إِلَيْهِمِ ٱلْبَحْرَ ٱلْمُرَابِطُونَ أَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةَ فَٱسْتَبْدَلُوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ مَرَاكِزِهِمْ وَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَدِرُوا عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ لِفِقْدَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ لَدَيْهِمْ فَبِهَٰذِهِ ٱلْعَصَبِيَّةِ يَكُونُ تَمْهِيدُ ٱلدَّوْلَةِ وَحِمَايَتُهَا مِنْ أَوَّلِهَا وَقَدْ ظَنَّ ٱلطُّرْطُوشِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ ٱلدُّوَلِ بِإِطْلَاقٍ هُمُ ٱلْجُنْدُ أَهْلُ ٱلْعَطَاءِ ٱلْمَفْرُوضِ مَعَ ٱلْأَهِلَّةِ ذَكَرَ ذَٰلِكَ فِي كِتَابِهِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ سِرَاجَ ٱلْمُلُوكِ وَكَلَامُهُ لَا يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ ٱلدُّوَلِ ٱلْعَامَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ بِٱلدُّوَلِ ٱلْأَخِيرَةِ بَعْدَ ٱلتَّمْهِيدِ وَٱسْتِقْرَارِ ٱلْمُلْكِ فِي ٱلنِّصَابِ وَٱسْتِحْكَامِ ٱلصِّبْغَةِ لِأَهْلِهِ فَٱلرَّجُلُ إِنَّمَا أَدْرَكَ ٱلدَّوْلَةَ عِنْدَ هَرَمِهَا وَخَلَقِ جِدَّتِهَا وَرُجُوعِهَا إِلَى ٱلِٱسْتِظْهَارِ بِٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ ثُمَّ إِلَى ٱلْمُسْتَخْدَمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ بِٱلْأَجْرِ عَلَى ٱلْمُدَافَعَةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَدْرَكَ دُوَلَ ٱلطَّوَائِفِ وَذَٰلِكَ عِنْدَ ٱخْتِلَالِ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱنْقِرَاضِ عَصَبِيَّتِهَا مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱسْتِبْدَادِ كُلِّ أَمِيرٍ بِقُطْرِهِ وَكَانَ فِي إِيَالَةِ ٱلْمُسْتَعِينِ ٱبْنِ هُودَ وَٱبْنِهِ ٱلْمُظَفَّرِ أَهْلُ سَرَقُسْطَةَ وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِ ٱلْعَصَبِيَّةِ شَيْءٌ لِٱسْتِيلَاءِ ٱلتَّرَفِ عَلَى ٱلْعَرَبِ مُنْذُ ثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ وَهَلَاكِهِمْ وَلَمْ يَرَ إِلَّا سُلْطَانًا مُسْتَبِدًّا بِٱلْمُلْكِ عَنْ عَشَائِرِهِ قَدِ ٱسْتَحْكَمَتْ لَهُ صِبْغَةُ ٱلِٱسْتِبْدَادِ مُنْذُ عَهْدِ ٱلدَّوْلَةِ وَبَقِيَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَهُوَ لِذَٰلِكَ لَا يُنَازَعُ فِيهِ وَيَسْتَعِينُ عَلَى أَمْرِهِ بِٱلْأُجَرَاءِ مِنَ ٱلْمُرْتَزِقَةِ فَأَطْلَقَ ٱلطُّرْطُوشِيُّ ٱلْقَوْلَ فِي ذَٰلِكَ وَلَمْ يَتَفَطَّنْ لِكَيْفِيَّةِ ٱلْأَمْرِ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَتَفَطَّنْ أَنْتَ لَهُ وَٱفْهَمْ سِرَّ ٱللَّهِ فِيهِ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ

الفصل الثالث

في انه قد يحدث لبعض اهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية

وَذَٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِعَصَبِيَّةٍ غَلَبٌ كَبِيرٌ عَلَى ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ وَفِي نُفُوسِ ٱلْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقَاصِيَةِ إِذْعَانٌ لَهُمْ وَٱنْقِيَادٌ فَإِذَا نَزَعَ إِلَيْهِمْ هَٰذَا ٱلْخَارِجُ وَٱنْتَبَذَ عَنْ مَقَرِّ مُلْكِهِ وَمَنْبِتِ عِزِّهِ ٱشْتَمَلُوا عَلَيْهِ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ وَظَاهَرُوهُ عَلَى شَأْنِهِ وَعُنُوا بِتَمْهِيدِ دَوْلَتِهِ يَرْجُونَ ٱسْتِقْرَارَهُ فِي نِصَابِهِ وَتَنَاوُلَهُ ٱلْأَمْرَ مِنْ يَدِ أَعْيَاصِهِ وَجَزَاءَهُ لَهُمْ عَلَى مُظَاهَرَتِهِ بِٱصْطِفَائِهِمْ لِرُتَبِ ٱلْمُلْكِ وَخِطَطِهِ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ قِيَادَةٍ أَوْ وِلَايَةِ ثَغْرٍ وَلَا يَطْمَعُونَ فِي مُشَارَكَتِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ تَسْلِيمًا لِعَصَبِيَّتِهِ وَٱنْقِيَادًا لِمَا ٱسْتَحْكَمَ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مِنْ

صِبْغَةِ ٱلْغَلَبِ فِي ٱلْعَالَمِ وَعَقِيدَةٍ إِيَمَانِيَّةٍ ٱسْتَقَرَّتْ فِي ٱلْإِذْعَانِ لَهُمْ فَلَوْ رَامُوهَا مَعَهُ أَوْ دُونَهُ لَزُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَهٰذَا كَمَا وَقَعَ لِلْأَدَارِسَةِ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَمِصْرَ لَمَّا ٱنْتَبَذَ ٱلطَّالِبِيُّونَ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ إِلَى ٱلْقَاصِيَةِ وَٱبْتَعَدُوا عَنْ مَقَرِّ ٱلْخِلَافَةِ وَسَمَوْا إِلَى طَلَبِهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي ٱلْعَبَّاسِ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلصِّبْغَةُ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ أَوَّلًا ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ فَخَرَجُوا بِٱلْقَاصِيَةِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَدَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ وَقَامَ بِأَمْرِهِمِ ٱلْبَرَابِرَةُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَأَوْرُبَةُ وَمَغِيلَةُ لِلْأَدَارِسَةِ وَكُتَامَةُ وَصِنْهَاجَةُ وَهَوَّارَةُ لِلْعُبَيْدِيِّينَ فَشَيَّدُوا دَوْلَتَهُمْ وَمَهَّدُوا بِعَصَائِبِهِمْ أَمْرَهُمْ وَٱقْتَطَعُوا مِنْ مَمَالِكِ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ ٱلْمَغْرِبَ كُلَّهُ ثُمَّ أَفْرِيقِيَّةَ وَلَمْ يَزَلْ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ يَتَقَلَّصُ وَظِلُّ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ مَلَكُوا مِصْرَ وَٱلشَّامَ وَٱلْحِجَازَ وَقَاسَمُوهُمْ فِي ٱلْمَمَالِكِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ شَقَّ ٱلْأُبْلُمَةِ وَهٰؤُلَاءِ ٱلْبَرَابِرَةُ ٱلْقَائِمُونَ بِٱلدَّوْلَةِ مَعَ ذٰلِكَ كُلُّهُمْ مُسَلِّمُونَ لِلْعُبَيْدِيِّينَ أَمْرَهُمْ مُذْعِنُونَ لِمُلْكِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي ٱلرُّتْبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيمًا لِمَا حَصَلَ مِنْ صِبْغَةِ ٱلْمُلْكِ لِبَنِي هَاشِمٍ وَلِمَا ٱسْتَحْكَمَ مِنَ ٱلْغَلَبِ لِقُرَيْشٍ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ ٱلْأُمَمِ فَلَمْ يَزَلِ ٱلْمُلْكُ فِي أَعْقَابِهِمْ إِلَى أَنِ ٱنْقَرَضَتْ دَوْلَةُ ٱلْعَرَبِ بِأَسْرِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الرابع

في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين اما من نبوة او دعوة حق

وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمُلْكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِٱلتَّغَلُّبِ وَٱلتَّغَلُّبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱتِّفَاقِ ٱلْأَهْوَاءِ عَلَى ٱلْمُطَالَبَةِ وَجَمْعُ ٱلْقُلُوبِ وَتَأْلِيفُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةٍ مِنَ ٱللَّهِ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ قَالَ تَعَالَى لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَسِرُّهُ أَنَّ ٱلْقُلُوبَ إِذَا تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ ٱلْبَاطِلِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى ٱلدُّنْيَا حَصَلَ ٱلتَّنَافُسُ وَفَشَا ٱلْخِلَافُ وَإِذَا ٱنْصَرَفَتْ إِلَى ٱلْحَقِّ وَرَفَضَتِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاطِلَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى ٱللَّهِ ٱتَّحَدَتْ وِجْهَتُهَا فَذَهَبَ ٱلتَّنَافُسُ وَقَلَّ ٱلْخِلَافُ وَحَسُنَ ٱلتَّعَاوُنُ وَٱلتَّعَاضُدُ وَٱتَّسَعَ نِطَاقُ ٱلْكَلِمَةِ لِذٰلِكَ فَعَظُمَتِ ٱلدَّوْلَةُ كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الخامس

في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ ٱلصِّبْغَةَ ٱلدِّينِيَّةَ تَذْهَبُ بِٱلتَّنَافُسِ وَٱلتَّحَاسُدِ ٱلَّذِي فِي أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَتُفْرِدُ ٱلْوِجْهَةَ إِلَى ٱلْحَقِّ فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ ٱلِاسْتِبْصَارُ فِي أَمْرِهِمْ لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ لِأَنَّ ٱلْوِجْهَةَ وَاحِدَةٌ وَٱلْمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ وَهُمْ مُسْتَمِيتُونَ عَلَيْهِ وَأَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي هُمْ طَالِبُوهَا وَإِنْ كَانُوا أَضْعَافَهُمْ فَأَغْرَاضُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِٱلْبَاطِلِ وَتَخَاذُلُهُمْ لِتَقِيَّةِ ٱلْمَوْتِ حَاصِلٌ فَلَا يُقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ بَلْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ وَيُعَاجِلُهُمُ ٱلْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَٱلذُّلِّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهٰذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ فِي ٱلْفُتُوحَاتِ فَكَانَتْ جُيُوشُ ٱلْمُسْلِمِينَ بِٱلْقَادِسِيَّةِ وَٱلْيَرْمُوكِ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفاً فِي كُلِّ مُعَسْكَرٍ وَجُمُوعُ فَارِسَ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفاً بِٱلْقَادِسِيَّةِ وَجُمُوعُ هِرَقْلَ عَلَى مَا قَالَهُ ٱلْوَاقِدِيُّ أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ وَهَزَمُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ أَيْضاً فِي دَوْلَةِ لِمْتُونَةَ وَدَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ فَقَدْ كَانَ بِٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْقَبَائِلِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُقَاوِمُهُمْ فِي ٱلْعَدَدِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ أَوْ يَشِفُّ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنَّ ٱلِاجْتِمَاعَ ٱلدِّينِيَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِٱلِاسْتِبْصَارِ وَٱلِاسْتِمَاتَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ وَٱعْتَبِرْ ذَٰلِكَ إِذَا حَالَتْ صِبْغَةُ ٱلدِّينِ وَفَسَدَتْ كَيْفَ يَنْتَقِضُ ٱلْأَمْرُ وَيَصِيرُ ٱلْغَلَبُ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَحْدَهَا دُونَ زِيَادَةِ ٱلدِّينِ فَتَغْلِبُ ٱلدَّوْلَةُ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ ٱلْعَصَائِبِ ٱلْمُكَافِئَةِ لَهَا أَوِ ٱلزَّائِدَةِ ٱلْقُوَّةِ عَلَيْهَا ٱلَّذِينَ غَلَبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ ٱلدِّينِ لِقُوَّتِهَا وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصَبِيَّةً مِنْهَا وَأَشَدَّ بَدَاوَةً وَٱعْتَبِرْ هٰذَا فِي ٱلْمُوَحِّدِينَ مَعَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَتْ زَنَاتَةُ أَبْدَى مِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوَحُّشاً وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ ٱلدَّعْوَةُ ٱلدِّينِيَّةُ بِٱتِّبَاعِ ٱلْمَهْدِيِّ فَلَبِسُوا صِبْغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصَبِيَّتِهِمْ بِهَا فَغَلَبُوا عَلَى زَنَاتَةَ أَوَّلاً وَٱسْتَتْبَعُوهُمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَٱلْبَدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ تِلْكَ ٱلصِّبْغَةِ ٱلدِّينِيَّةِ ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى ٱلْأَمْرِ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَٱللّٰهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل السادس

في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وَهٰذَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ عَلَيْهِ ٱلْكَافَّةُ فَلا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَفِي ٱلْحَدِيثِ ٱلصَّحِيحِ كَمَا مَرَّ مَا بَعَثَ ٱللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مِنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَإِذَا كَانَ هٰذَا فِي ٱلْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِخَرْقِ ٱلْعَوَائِدِ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِمْ أَنْ لا تَخْرِقَ لَهُ ٱلْعَادَةُ فِي ٱلْغَلَبِ بِغَيْرِ عَصَبِيَّةٍ وَقَدْ وَقَعَ هٰذَا لِٱبْنِ قَسِيٍّ شَيْخِ ٱلصُّوفِيَّةِ وَصَاحِبِ كِتَابِ خَلْعِ ٱلنَّعْلَيْنِ فِي ٱلتَّصَوُّفِ ثَارَ بِٱلْأَنْدَلُسِ دَاعِيًا إِلَى ٱلْحَقِّ وَسُمِّيَ أَصْحَابُهُ بِٱلْمُرَابِطِينَ قُبَيْلَ دَعْوَةِ ٱلْمَهْدِيِّ فَٱسْتَتَبَّ لَهُ ٱلْأَمْرُ قَلِيلًا لِشُغْلِ لِمْتُونَةَ بِمَا دَهَمَهُمْ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَصَائِبُ وَلا قَبَائِلُ يَدْفَعُونَهُ عَنْ شَأْنِهِ فَلَمْ يَلْبَثْ حِينَ ٱسْتَوْلَى ٱلْمُوَحِّدُونَ عَلَى ٱلْمَغْرِبِ أَنْ أَذْعَنَ لَهُمْ وَدَخَلَ فِي دَعْوَتِهِمْ وَتَابَعَهُمْ مِنْ مَعْقِلِهِ بِحِصْنِ أَرْكَشَ وَأَمْكَنَهُمْ مِنْ ثَغْرِهِ وَكَانَ أَوَّلَ دَاعِيَةٍ لَهُمْ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَكَانَتْ ثَوْرَتُهُ تُسَمَّى ثَوْرَةَ ٱلْمُرَابِطِينَ وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ أَحْوَالُ ٱلثُّوَّارِ ٱلْقَائِمِينَ بِتَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ مِنَ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْفُقَهَاءِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْمُنْتَحِلِينَ لِلْعِبَادَةِ وَسُلُوكِ طُرُقِ ٱلدِّينِ يَذْهَبُونَ إِلَى ٱلْقِيَامِ عَلَى أَهْلِ ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ دَاعِينَ إِلَى تَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱلنَّهْيِ عَنْهُ وَٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ رَجَاءً فِي ٱلثَّوَابِ عَلَيْهِ مِنَ ٱللهِ فَيَكْثُرُ أَتْبَاعُهُمْ وَٱلْمُتَلَثِّلُونَ بِهِمْ مِنَ ٱلْغَوْغَاءِ وَٱلدَّهْمَاءِ وَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذٰلِكَ لِلْمَهَالِكِ وَأَكْثَرُهُمْ يَهْلِكُونَ فِي هٰذَا ٱلسَّبِيلِ مَأْزُورِينَ غَيْرَ مَأْجُورِينَ لِأَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكْتُبْ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّمَا أَمَرَ بِهِ حَيْثُ تَكُونُ ٱلْقُدْرَةُ عَلَيْهِ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَأَحْوَالُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلدُّوَلِ رَاسِخَةٌ قَوِيَّةٌ لا يُزَحْزِحُهَا وَيَهْدِمُ بِنَاءَهَا إِلَّا ٱلْمُطَالَبَةُ ٱلْقَوِيَّةُ ٱلَّتِي مِنْ وَرَائِهَا عَصَبِيَّةُ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَشَائِرِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهٰكَذَا كَانَ حَالُ ٱلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى ٱللهِ بِٱلْعَشَائِرِ وَٱلْعَصَائِبِ وَهُمُ ٱلْمُؤَيَّدُونَ مِنَ ٱللهِ بِٱلْكَوْنِ كُلِّهِ لَوْ شَاءَ لٰكِنَّهُ إِنَّمَا أَجْرَى ٱلْأُمُورَ عَلَى مُسْتَقَرِّ ٱلْعَادَةِ وَٱللهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبَ وَكَانَ فِيهِ مُحِقًّا قَصَّرَ بِهِ ٱلْاِنْفِرَادُ عَنِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَطَاحَ فِي هُوَّةِ ٱلْهَلاكِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُتَلَبِّسِينَ بِذٰلِكَ فِي

طلب الرئاسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتتقاطع به المهالك لأنه أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الأمين وأبطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق ثم عهد لعلي بن موسى الرضى من آل الحسين فكشف بنو العباس عن وجه النكير عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه وبويع إبرهيم بن المهدي فوقع الهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الأسواق واستعدى أهلها الحكام فلم يعدوهم فتوافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابه خلق وقاتل أهل الزعارة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الأنصاري ويكنى أبا حاتم وعلق مصحفاً في عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه الناس كافة من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخفارة لأولئك الشطار وقال له خالد الدريوس أنا لا أعيب على السلطان فقال له سهل لكنني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان وذلك سنة إحدى ومائتين وجهز له إبرهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسره وانحل أمره سريعاً وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء إما المداواة إن كانوا من أهل الجنون وإما التنكيل بالقتل أو الضرب إن أحدثوا هرجاً وإما إذاعة السخرية منهم وعدهم من جملة الصفاعين وقد ينتسب بعضهم إلى الفاطمي المنتظر إما بأنه هو أو بأنه داع له وليس مع ذلك على علم من أمر الفاطمي ولا ما هو وأكثر المنتحلين لمثل هذا

تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسة امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة فيسرع إليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التوبذري عمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هناك وزعم أنه الفاطمي المنتظر تلبيساً على العامة هنالك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك وأن من ذلك المسجد يكون أصل دعوته فتهافتت عليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش ثم خشي رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدس إليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوي من قتله في فراشه وكذلك خرج في غماره أيضاً لأول هذه المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيقه الأرذلون من سفهاء تلك القبائل وأغمارهم وزحف إلى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة ثم قتل لأربعين يوماً من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الأولين وأمثال ذلك كثير والغلط فيه من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها وأما إن كان التلبيس فأحرى أن لا يتم له أمر وأن يبوء بإثمه وذلك جزاء الظالمين والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه

الفصل السابع

في ان كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لا بد من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التي تصير إليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك فإذا توزعت العصائب كلها على الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددها وقد بلغت الممالك حينئذ إلى حد يكون ثغراً للدولة وتخماً لوطنها ونطاقاً لمركز ملكها فإن تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة

وَمَا كَانَتِ ٱلْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً وَلَمْ يَنْفَدْ عَدَدُهَا فِي تَوْزِيعِ ٱلْحِصَصِ عَلَى ٱلثُّغُورِ وَٱلنَّوَاحِي بَقِيَ فِي ٱلدَّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ ٱلْغَايَةِ حَتَّى يَنْفَسِحَ نِطَاقُهَا إِلَى غَايَتِهِ وَٱلْعِلَّةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ فِي ذَلِكَ هِيَ قُوَّةُ ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنْ سَائِرِ ٱلْقُوَى ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَكُلُّ قُوَّةٍ يَصْدُرُ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ فَشَأْنُهَا ذَلِكَ فِي فِعْلِهَا وَٱلدَّوْلَةُ فِي مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يَكُونُ فِي ٱلطَّرَفِ وَٱلنِّطَاقِ وَإِذَا ٱنْتَهَتْ إِلَى ٱلنِّطَاقِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ عَجِزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ شَأْنَ ٱلْأَشِعَّةِ وَٱلْأَنْوَارِ إِذَا ٱنْبَعَثَتْ مِنَ ٱلْمَرَاكِزِ وَٱلدَّوَائِرِ ٱلْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ ٱلْمَاءِ مِنَ ٱلنَّقْرِ عَلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا ٱلْهَرَمُ وَٱلضَّعْفُ فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي ٱلتَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ ٱلْأَطْرَافِ وَلَا يَزَالُ ٱلْمَرْكَزُ مَحْفُوظًا إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ ٱللهُ بِٱنْقِرَاضِ ٱلْأَمْرِ جُمْلَةً فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱنْقِرَاضُ ٱلْمَرْكَزِ وَإِذَا غُلِبَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ مِنْ مَرْكَزِهَا فَلَا يَنْفَعُهَا بَقَاءُ ٱلْأَطْرَافِ وَٱلنِّطَاقِ بَلْ تَضْمَحِلُّ لِوَقْتِهَا فَإِنَّ ٱلْمَرْكَزَ كَٱلْقَلْبِ ٱلَّذِي تَنْبَعِثُ مِنْهُ ٱلرُّوحُ فَإِذَا غُلِبَ عَلَى ٱلْقَلْبِ وَمُلِكَ ٱنْهَزَمَ جَمِيعُ ٱلْأَطْرَافِ وَٱنْظُرْ هَذَا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْفَارِسِيَّةِ كَانَ مَرْكَزُهَا ٱلْمَدَائِنَ فَلَمَّا غَلَبَ ٱلْمُسْلِمُونَ عَلَى ٱلْمَدَائِنِ ٱنْقَرَضَ أَمْرُ فَارِسَ أَجْمَعُ وَلَمْ يَنْفَعْ يَزْدَجِرْدَ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنْ أَطْرَافِ مَمَالِكِهِ وَبِٱلْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ ٱلدَّوْلَةُ ٱلرُّومِيَّةُ بِٱلشَّامِ لَمَّا كَانَ مَرْكَزُهَا ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَغَلَبَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ بِٱلشَّامِ تَحَيَّزُوا إِلَى مَرْكَزِهِمْ بِٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَلَمْ يَضُرَّهُمُ ٱنْتِزَاعُ ٱلشَّامِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَلَمْ يَزَلْ مُلْكُهُمْ مُتَّصِلًا بِهَا إِلَى أَنْ تَأَذَّنَ ٱللهُ بِٱنْقِرَاضِهِ وَٱنْظُرْ أَيْضًا شَأْنَ ٱلْعَرَبِ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَتْ عَصَائِبُهُمْ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ ٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَمِصْرَ لِأَسْرَعِ وَقْتٍ ثُمَّ تَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ ٱلسِّنْدِ وَٱلْحَبَشَةِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصَصًا عَلَى ٱلْمَمَالِكِ وَٱلثُّغُورِ وَنَزَلُوهَا حَامِيَةً وَنَفِدَ عَدَدُهُمْ فِي تِلْكَ ٱلتَّوْزِيعَاتِ أَقْصَرُوا عَنِ ٱلْفُتُوحَاتِ بَعْدُ وَٱنْتَهَى أَمْرُ ٱلْإِسْلَامِ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ تِلْكَ ٱلْحُدُودَ وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ ٱلدَّوْلَةُ حَتَّى تَأَذَّنَ ٱللهُ بِٱنْقِرَاضِهَا وَكَذَا كَانَ حَالُ ٱلدُّوَلِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كُلُّ دَوْلَةٍ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا فِي ٱلْقِلَّةِ وَٱلْكَثْرَةِ وَعِنْدَ نَفَادِ عَدَدِهِمْ بِٱلتَّوْزِيعِ يَنْقَطِعُ لَهُمُ ٱلْفَتْحُ وَٱلْاسْتِيلَاءُ سُنَّةَ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الثامن

في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَهْلُ ٱلْعَصَبِيَّةِ هُمُ ٱلْحَامِيَةُ ٱلَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِمَمَالِكِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا وَيَنْقَسِمُونَ عَلَيْهَا فَمَا كَانَ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَامَّةِ قَبِيلُهَا وَأَهْلُ عِصَابَتِهَا أَكْثَرَ كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ مَمَالِكَ وَأَوْطَانًا وَكَانَ مُلْكُهَا أَوْسَعَ لِذٰلِكَ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا أَلَّفَ ٱللَّهُ كَلِمَةَ ٱلْعَرَبِ عَلَى ٱلْإِسْلَامِ وَكَانَ عَدَدُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ آخِرِ غَزَوَاتِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةَ أَلْفٍ وَعَشْرَةَ آلَافٍ مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ مَا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ إِلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْوَفَاةِ فَلَمَّا تَوَجَّهُوا لِطَلَبِ مَا فِي أَيْدِي ٱلْأُمَمِ مِنَ ٱلْمُلْكِ لَمْ يَكُنْ دُونَهُ حِمًى وَلَا وَزَرٌ فَٱسْتُبِيحَ حِمَى فَارِسَ وَٱلرُّومِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ ٱلْعَظِيمَتَيْنِ فِي ٱلْعَالَمِ لِعَهْدِهِمْ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلْقُوطِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَخَطَوْا مِنَ ٱلْحِجَازِ إِلَى ٱلسُّوسِ ٱلْأَقْصَى وَمِنَ ٱلْيَمَنِ إِلَى ٱلتُّرْكِ بِأَقْصَى ٱلشَّمَالِ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ ثُمَّ ٱنْظُرْ بَعْدَ ذٰلِكَ دَوْلَةَ صَنْهَاجَةَ وَٱلْمُوَحِّدِينَ مَعَ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ قَبْلَهُمْ لَمَّا كَانَ كُتَامَةُ ٱلْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ أَكْثَرَ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَمِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ فَمَلَكُوا أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبَ وَٱلشَّامَ وَمِصْرَ وَٱلْحِجَازَ ثُمَّ ٱنْظُرْ بَعْدَ ذٰلِكَ دَوْلَةَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَ عَدَدُهُمْ أَقَلَّ مِنَ ٱلْمَصَامِدَةِ قَصُرَ مُلْكُهُمْ عَنْ مُلْكِ ٱلْمُوَحِّدِينَ لِقُصُورِ عَدَدِهِمْ عَنْ عَدَدِ ٱلْمَصَامِدَةِ مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ ثُمَّ ٱعْتَبِرْ بَعْدَ ذٰلِكَ حَالَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ لِزَنَاتَةَ بَنِي مَرِينَ وَبَنِي عَبْدِ ٱلْوَادِ كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعَ نِطَاقًا وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ ٱلْغَلَبُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. يُقَالُ إِنَّ عَدَدَ بَنِي مَرِينَ لِأَوَّلِ مُلْكِهِمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَإِنَّ بَنِي عَبْدِ ٱلْوَادِ كَانُوا أَلْفًا إِلَّا أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ بِٱلرَّفْهِ وَكَثْرَةِ ٱلتَّابِعِ كَثَّرَتْ مِنْ أَعْدَادِهِمْ وَعَلَى هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةِ فِي أَعْدَادِ ٱلْمُتَغَلِّبِينَ لِأَوَّلِ ٱلْمُلْكِ يَكُونُ ٱتِّسَاعُ ٱلدَّوْلَةِ وَقُوَّتُهَا وَأَمَّا طُولُ أَمَدِهَا أَيْضًا فَعَلَى تِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ لِأَنَّ عُمْرَ ٱلْحَادِثِ مِنْ قُوَّةِ مِزَاجِهِ وَمِزَاجُ ٱلدُّوَلِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلْعَصَبِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ قَوِيَّةً كَانَ ٱلْمِزَاجُ تَابِعًا لَهَا وَكَانَ أَمَدُ ٱلْعُمْرِ طَوِيلًا وَٱلْعَصَبِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ بِكَثْرَةِ ٱلْعَدَدِ وَوُفُورِهِ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱلسَّبَبُ ٱلصَّحِيحُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّقْصَ إِنَّمَا يَبْدُو فِي ٱلدَّوْلَةِ مِنَ

ٱلْأَطْرَافِ فَإِذَا كَانَتْ مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً وَكُلُّ نَقْصٍ يَقَعُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ فَتَكْثُرُ أَزْمَانُ ٱلنَّقْصِ لِكَثْرَةِ ٱلْمَمَالِكِ وَٱخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنَقْصٍ وَزَمَانٍ فَيَكُونُ أَمَدُهَا أَطْوَلَ ٱلدُّوَلِ لَا بَنُو ٱلْعَبَّاسِ أَهْلُ ٱلْمَرْكَزِ وَلَا بَنُو أُمَيَّةَ ٱلْمُسْتَبِدُّونَ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ ٱلْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ وَدَوْلَةُ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ كَانَ أَمَدُهَا قَرِيباً مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً وَدَوْلَةُ صِنْهَاجَةَ دُونَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ أَمْرَ أَفْرِيقِيَّةَ لِبُلُكِّينَ بْنِ زِيرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَمِائَةٍ إِلَى حِينِ ٱسْتِيلَاءِ ٱلْمُوَحِّدِينَ عَلَى ٱلْقَلْعَةِ وَبِجَايَةَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمَائَةٍ وَدَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ تُنَاهِزُ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً وَهَكَذَا نِسَبُ ٱلدُّوَلِ فِي أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا سُنَّةُ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ

الفصل التاسع

في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ٱخْتِلَافُ ٱلْآرَاءِ وَٱلْأَهْوَاءِ وَأَنَّ وَرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا وَهَوًى عَصَبِيَّةً تُمَانِعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ ٱلِٱنْتِقَاضُ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْخُرُوجُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ عَصَبِيَّةٍ لِأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِمَّنْ تَحْتَ يَدِهَا تَظُنُّ فِي نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً وَٱنْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ مُنْذُ أَوَّلِ ٱلْإِسْلَامِ وَلِهَذَا ٱلْعَهْدِ فَإِنَّ سَاكِنَ هَذِهِ ٱلْأَوْطَانِ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ أَهْلُ قَبَائِلَ وَعَصَبِيَّاتٍ فَلَمْ يُغْنِ فِيهِمِ ٱلْغَلَبُ ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي كَانَ لِٱبْنِ أَبِي سَرْحٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى ٱلْإِفْرَنْجَةِ شَيْئاً وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذَلِكَ ٱلثَّوْرَةَ وَٱلرِّدَّةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَعَظُمَ ٱلْإِثْخَانُ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ وَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ ٱلدِّينُ عِنْدَهُمْ عَادُوا إِلَى ٱلثَّوْرَةِ وَٱلْخُرُوجِ وَٱلْأَخْذِ بِدِينِ ٱلْخَوَارِجِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً قَالَ ٱبْنُ أَبِي زَيْدٍ ٱرْتَدَّتِ ٱلْبَرَابِرَةُ بِٱلْمَغْرِبِ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَلَمْ تَسْتَقِرَّ كَلِمَةُ ٱلْإِسْلَامِ فِيهِمْ إِلَّا لِعَهْدِ وِلَايَةِ مُوسَى ٱبْنِ نُصَيْرٍ فَمَا بَعْدَهُ وَهَذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عُمَرَ أَنَّ أَفْرِيقِيَّةَ مُفَرِّقَةٌ لِقُلُوبِ أَهْلِهَا إِشَارَةً إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ ٱلْعَصَائِبِ وَٱلْقَبَائِلِ ٱلْحَامِلَةِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ ٱلْإِذْعَانِ وَٱلِٱنْقِيَادِ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْعِرَاقُ لِذَلِكَ ٱلْعَهْدِ بِتِلْكَ ٱلصِّفَةِ وَلَا ٱلشَّامُ إِنَّمَا كَانَتْ حَامِيَتُهَا مِنْ فَارِسَ وَٱلرُّومِ وَٱلْكَافَّةُ دَهْمَاءُ أَهْلِ مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ فَلَمَّا غَلَبَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ عَلَى ٱلْأَمْرِ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا مُمَانِعٌ وَلَا مُشَاقٌّ وَٱلْبَرْبَرُ قَبَائِلُهُمْ بِٱلْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ

تحصى وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن أفريقية والمغرب وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم واليونان والعمالقة وأكريكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعاً في العصبية فصعب على بني إسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم ملك موطد سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء والله غالب على أمره وبعكس هذا أيضاً الأوطان الخالية من العصبيات يسهل تمهيد الدولة فيها ويكون سلطانها وازعاً لقلة الهرج والانتقاض ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير من العصبية كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد إذ هي خلو من القبائل والعصبيات كأن لم يكن الشام معدناً لهم كما قلناه فملك مصر في غاية الدعة والرسوخ لقلة الخوارج وأهل العصائب إنما هو سلطان ورعية ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الأمر واحداً بعد واحد وينتقل الأمر فيهم من منبت إلى منبت والخلافة مسماة للعباسي من أعقاب الخلفاء ببغداد وكذا شأن الأندلس لهذا العهد فإن عصبية ابن الأحمر سلطانها لم تكن لأول دولتهم بقوية ولا كانت كرات إنما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الأموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن أهل الأندلس لما انقرضت الدولة العربية منهم وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا ملكتهم وثقلت وطأتهم عليهم فأشربت القلوب بغضاءهم وأمكن الموحدون والسادة في آخر الدولة كثيراً من الحصون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم من تملك الحضرة مراكش فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشيء ورسخوا في العصبية مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم فقام ابن هود بالأمر ودعا بدعوة الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا إليهم العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالأمر في الأندلس ثم سما ابن

ٱلْأَحمَرِ لِلْأَمرِ وَخَالَفَ ٱبْنَ هُودٍ فِي دَعْوَتِهِ فَدَعَا هؤُلاء لِٱبْنِ أَبِي حَفْصٍ صَاحِبِ أَفرِيقِيَّةَ مِنَ ٱلمُوَحِّدِينَ وَقَامَ بِالْأَمرِ وَتَنَاوَلَهُ بِعصَابَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ قَرَابَتِهِ كَانُوا يُسَمَّوْنَ ٱلرُّؤَسَاءَ وَلَمْ يَحْتَجْ لِأَكْثَرَ مِنْهُمْ لِقِلَّةِ ٱلعَصَائِبِ بِٱلأَنْدَلُسِ وَإِنَّهَا سُلطَانٌ وَرَعِيَّةٌ ثُمَّ ٱسْتَظْهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى ٱلطَّاغِيَةِ بِمَنْ يُجِيزُ إِلَيْهِ ٱلبَحْرَ مِنْ أَعيَاصِ زَنَاتَةَ فَصَارُوا مَعَهُ عُصبَةً عَلَى ٱلمَثَاغِرَةِ وَٱلرِّبَاطِ ثُمَّ سَمَا لِصَاحِبِ مِنْ مُلُوكِ زَنَاتَةَ أَمَلٌ فِي ٱلِٱسْتِيلَاءِ عَلَى ٱلأَنْدَلُسِ فَصَارَ أُولَئِكَ ٱلأَعيَاصُ عِصَابَةً ٱبنِ ٱلأَحمَرِ عَلَى ٱلِٱمْتِنَاعِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَأَثَّلَ أَمرُهُ وَرَسَخَ وَأَلِفَتْهُ ٱلنُّفُوسُ وَعَجِزَ ٱلنَّاسُ عَنْ مُطَالَبَتِهِ وَوَرِثَهُ أَعقَابُهُ لِهَذَا ٱلعَهْدِ فَلَا تَظُنَّ أَنَّهُ بِغَيْرِ عِصَابَةٍ فَلَيْسَ كَذَلِكَ وَقَدْ كَانَ مَبْدَأُهُ بِعِصَابَةٍ إِلَّا أَنَّهَا قَلِيلَةٌ وَعَلَى قَدْرِ ٱلحَاجَةِ فَإِنَّ قُطْرَ ٱلأَنْدَلُسِ لِقِلَّةِ ٱلعَصَائِبِ وَٱلقَبَائِلِ فِيهِ يُغْنِي عَنْ كَثْرَةِ ٱلعَصَبِيَّةِ فِي ٱلتَّغَلُّبِ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ ٱلعَالَمِينَ

الفصل العاشر

في ان من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وَذَلِكَ أَنَّ ٱلمُلْكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِٱلعَصَبِيَّةِ وَٱلعَصَبِيَّةُ مُتَأَلِّفَةٌ مِنْ عُصَبَاتٍ كَثِيرَةٍ تَكُونُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا أَقْوَى مِنَ ٱلأُخْرَى كُلِّهَا فَتَغْلِبُهَا وَتَسْتَوْلِي عَلَيْهَا حَتَّى تُصَيِّرَهَا جَمِيعاً فِي ضِمْنِهَا وَبِذَلِكَ يَكُونُ ٱلِٱجْتِمَاعُ وَٱلغَلَبُ عَلَى ٱلنَّاسِ وَٱلدُّوَلِ وَسِرُّهُ أَنَّ ٱلعَصَبِيَّةَ ٱلعَامَّةَ لِلقَبِيلِ هِيَ مِثْلُ ٱلمِزَاجِ لِلمُتَكَوِّنِ وَٱلمِزَاجُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنِ ٱلعَنَاصِرِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ أَنَّ ٱلعَنَاصِرَ إِذَا ٱجْتَمَعَتْ مُتَكَافِئَةً فَلَا يَقَعُ مِنْهَا مِزَاجٌ أَصْلًا بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةٌ مِنْهَا هِيَ ٱلغَالِبَةَ عَلَى ٱلكُلِّ حَتَّى تَجْمَعَهَا وَتُؤَلِّفَهَا وَتُصَيِّرَهَا عَصَبِيَّةً وَاحِدَةً شَامِلَةً لِجَمِيعِ ٱلعَصَائِبِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ضِمْنِهَا وَتِلْكَ ٱلعَصَبِيَّةُ ٱلكُبْرَى إِنَّمَا تَكُونُ لِقَوْمٍ أَهْلِ بَيْتٍ وَرِئَاسَةٍ فِيهِمْ وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَئِيساً لَهُمْ غَالِباً عَلَيْهِمْ فَيَتَعَيَّنُ رَئِيساً لِلعَصَبِيَّاتِ كُلِّهَا لِغَلَبِ مَنْبِتِهِ لِجَمِيعِهَا وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ فَمِنَ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلحَيَوَانِيَّةِ خُلُقُ ٱلكِبْرِ وَٱلأَنَفَةِ فَيَأْنَفُ حِينَئِذٍ مِنَ ٱلمُسَاهَمَةِ وَٱلمُشَارَكَةِ فِي ٱسْتِتْبَاعِهِمْ وَٱلتَّحَكُّمِ فِيهِمْ وَيَجِيءُ خُلُقُ ٱلتَّأَلُّهِ ٱلَّذِي فِي طِبَاعِ ٱلبَشَرِ مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ ٱلسِّيَاسَةُ مِنِ ٱنْفِرَادِ ٱلحَاكِمِ لِفَسَادِ ٱلكُلِّ بِٱخْتِلَافِ ٱلحُكَّامِ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَتُجْدَعُ حِينَئِذٍ أُنُوفُ ٱلعَصَبِيَّاتِ وَتُفْلَجُ شَكَائِمُهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي ٱلتَّحَكُّمِ

وَتُقَوِّعُ عَصَبِيَّتَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا ٱسْتَطَاعَ حَتَّى لَا يَتْرُكَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ لَا نَاقَةَ وَلَا جَمَلاً فَيَنْفَرِدُ بِذَلِكَ ٱلْمَجْدُ بِكُلِّيَّتِهِ وَيَدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلْأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ ٱلدَّوْلَةِ وَقَدْ لَا يَتِمُّ إِلَّا لِلثَّانِي وَٱلثَّالِثِ عَلَى قَدْرِ مُمَانَعَةِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا إِلَّا أَنَّهُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي ٱلدُّوَلِ سُنَّةُ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَٱللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الحادي عشر

في ان من طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِي أَهْلِ ٱلْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُرَ رِيَاشُهَا وَنِعْمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوَزُونَ ضَرُورَاتِ ٱلْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِينَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى ٱتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَتَصِيرُ لِتِلْكَ ٱلنَّوَافِلِ عَوَائِدَ ضَرُورِيَّةً فِي تَحْصِيلِهَا وَيَنْزِعُونَ مَعَ ذَلِكَ إِلَى رِقَّةِ ٱلْأَحْوَالِ فِي ٱلْمَطَاعِمِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱلْفُرُشِ وَٱلْآنِيَةِ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي ذَلِكَ وَيُفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرَهُمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَكْلِ ٱلطَّيِّبِ وَلُبْسِ ٱلْأَنِيقِ وَرُكُوبِ ٱلْفَارِهِ وَيُنَاغِي خَلَفُهُمْ فِي ذَلِكَ سَلَفَهُمْ إِلَى آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ وَعَلَى قَدْرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرَفُهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ ٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهَا سُنَّةُ ٱللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَٱللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الثاني عشر

في ان من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْأُمَّةَ لَا يَحْصُلُ لَهَا ٱلْمُلْكُ إِلَّا بِٱلْمُطَالَبَةِ وَٱلْمُطَالَبَةُ غَايَتُهَا ٱلْغَلَبُ وَٱلْمُلْكُ وَإِذَا حَصَلَتِ ٱلْغَايَةُ ٱنْقَضَى ٱلسَّعْيُ إِلَيْهَا (قال الشاعر)

عَجِبْتُ لِسَعْيِ ٱلدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... فَلَمَّا ٱنْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ ٱلدَّهْرُ

فَإِذَا حَصَلَ ٱلْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنِ ٱلْمَتَاعِبِ ٱلَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فِي طَلَبِهِ وَآثَرُوا ٱلرَّاحَةَ وَٱلسُّكُونَ وَٱلدَّعَةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ ٱلْمُلْكِ مِنَ ٱلْمَبَانِي وَٱلْمَسَاكِنِ وَٱلْمَلَابِسِ فَيَبْنُونَ ٱلْقُصُورَ وَيُجْرُونَ ٱلْمِيَاهَ وَيَغْرِسُونَ ٱلرِّيَاضَ وَيَسْتَمْتِعُونَ بِأَحْوَالِ ٱلدُّنْيَا وَيُؤْثِرُونَ ٱلرَّاحَةَ عَلَى ٱلْمَتَاعِبِ وَيَتَأَنَّقُونَ فِي أَحْوَالِ ٱلْمَلَابِسِ وَٱلْمَطَاعِمِ وَٱلْآنِيَةِ وَٱلْفُرُشِ مَا ٱسْتَطَاعُوا وَيَأْلَفُونَ ذَلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْيَالِهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ يَتَزَايَدُ فِيهِمْ

إلى أَنْ يَتَأَذَّنَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ وَٱللَّهُ تعالى أَعْلَمُ

الفصل الثالث عشر

في انه اذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم

وَبَيَانُهُ مِنْ وُجُوهٍ . ٱلْأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِي ٱلْإِنْفِرَادَ بِٱلْمَجْدِ كَمَا قُلْنَاهُ وَمَهْمَا كَانَ ٱلْمَجْدُ مُشْتَرَكاً بَيْنَ ٱلْعِصَابَةِ وَكَانَ سَعْيُهُمْ لَهُ وَاحِداً كَانَتْ هِمَمُهُمْ فِي ٱلتَّغَلُّبِ عَلَى ٱلْغَيْرِ وَٱلذَّبِّ عَنِ ٱلْحَوْزَةِ أُسْوَةً فِي طُمُوحِهَا وَقُوَّةِ شَكَائِمِهَا وَمَرْمَاهُمْ إِلى ٱلْعِزِّ جَمِيعاً يَسْتَطِيبُونَ ٱلْمَوْتَ فِي بِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَيُؤْثِرُونَ ٱلْهَلَكَةَ عَلى فَسَادِهِ وَإِذَا ٱنْفَرَدَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِٱلْمَجْدِ قَرَعَ عَصَبِيَّتَهُمْ وَكَبَحَ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَٱسْتَأْثَرَ بِٱلْأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنِ ٱلْغَزْوِ وَفَشِلَ رِيحُهُمْ وَرَئِمُوا ٱلْمَذَلَّةَ وَٱلْإِسْتِعْبَادَ ثُمَّ رُبِيَ ٱلْجِيلُ ٱلثَّانِي مِنْهُمْ عَلى ذٰلِكَ يَحْسَبُونَ مَا يَنَالُهُمْ مِنَ ٱلْعَطَاءِ أَجْراً مِنَ ٱلسُّلْطَانِ لَهُمْ عَنِ ٱلْحِمَايَةِ وَٱلْمَعُونَةِ لَا يَجْرِي فِي عُقُولِهِمْ سِوَاهُ وَقَلَّ أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْمَوْتِ فَيَصِيرُ ذٰلِكَ وَهْناً فِي ٱلدَّوْلَةِ وَخَضْداً مِنَ ٱلشَّوْكَةِ وَتُقْبِلُ بِهِ عَلَى مَنَاحِي ٱلضُّعْفِ وَٱلْهَرَمِ لِفَسَادِ ٱلْعَصَبِيَّةِ بِذَهَابِ ٱلْبَأْسِ مِنْ أَهْلِهَا . وَٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي أَنَّ طَبِيعَةَ ٱلْمُلْكِ تَقْتَضِي ٱلتَّرَفَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيدُ نَفَقَاتُهُمْ عَلَى أَعْطِيَاتِهِمْ وَلَا يَفِي دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ فَٱلْفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ وَٱلْمُتْرَفُ يَسْتَغْرِقُ عَطَاءَهُ بِتَرَفِهِ ثُمَّ يَزْدَادُ ذٰلِكَ فِي أَجْيَالِهِمِ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ إِلى أَنْ يَقْصُرَ ٱلْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَتَمَسَّهُمُ ٱلْحَاجَةُ وَتُطَالِبُهُمْ مُلُوكُهُمْ بِحَصْرِ نَفَقَاتِهِمْ فِي ٱلْغَزْوِ وَٱلْحُرُوبِ فَلَا يَجِدُونَ وَلِيجَةً عَنْهَا فَيُوقِعُونَ بِهِمِ ٱلْعُقُوبَاتِ وَيَنْتَزِعُونَ مَا فِي أَيْدِي ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ يَسْتَأْثِرُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْثِرُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ فَيُضْعِفُونَهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ وَيَضْعُفُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ بِضُعْفِهِمْ وَأَيْضاً إِذَا كَثُرَ ٱلتَّرَفُ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ مُقَصِّراً عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمِ ٱحْتَاجَ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلسُّلْطَانُ إِلى ٱلزِّيَادَةِ فِي أَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى يَسُدَّ خَلَلَهُمْ وَيُزِيحَ عِلَلَهُمْ وَٱلْجِبَايَةُ مِقْدَارُهَا مَعْلُومٌ وَلَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ وَإِنْ زَادَتْ بِمَا يُسْتَحْدَثُ مِنَ ٱلْمُكُوسِ فَيَصِيرُ مِقْدَارُهَا بَعْدَ ٱلزِّيَادَةِ مَحْدُوداً فَإِذَا وُزِّعَتِ ٱلْجِبَايَةُ عَلَى ٱلْأَعْطِيَاتِ وَقَدْ حَدَثَتْ فِيهَا ٱلزِّيَادَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَثَ مِنْ تَرَفِهِمْ وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ نَقَصَ عَدَدُ ٱلْحَامِيَةِ حِينَئِذٍ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ ٱلْأَعْطِيَاتِ ثُمَّ

يعظُمُ ٱلتَّرَفُ وَتَكْثُرُ مَقَادِيرُ ٱلْأَعْطِيَاتِ لِذٰلِكَ فَيَنْقُصُ عَدَدُ ٱلْحَامِيَةِ وَثَالِثاً وَرَابِعاً إِلَى أَنْ يَعُودَ ٱلْعَسْكَرُ إِلَى أَقَلِّ ٱلْأَعْدَادِ فَتَضْعُفُ ٱلْحِمَايَةُ لِذٰلِكَ وَتَسْقُطُ قُوَّةُ ٱلدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا مَنْ يُجَاوِرُهَا مِنَ ٱلدُّوَلِ أَوْ مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَصَائِبِ وَيَأْذَنُ ٱللهُ فِيهَا بِٱلْفَنَاءِ ٱلَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلِيقَتِهِ وَأَيْضاً فَٱلتَّرَفُ مُفْسِدٌ لِلْخُلُقِ بِمَا يَحْصُلُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ أَلْوَانِ ٱلشَّرِّ وَٱلسَّفْسَفَةِ وَعَوَائِدِهَا كَمَا يَأْتِي فِي فَصْلِ ٱلْحَضَارَةِ فَتَذْهَبُ مِنْهُمْ خِلَالُ ٱلْخَيْرِ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَامَةً عَلَى ٱلْمُلْكِ وَدَلِيلاً عَلَيْهِ وَيَتَّصِفُونَ بِمَا يُنَاقِضُهَا مِنْ خِلَالِ ٱلشَّرِّ فَيَكُونُ عَلَامَةً عَلَى ٱلْإِدْبَارِ وَٱلِٱنْقِرَاضِ بِمَا جَعَلَ ٱللهُ مِنْ ذٰلِكَ فِي خَلِيقَتِهِ وَتَأْخُذُ ٱلدَّوْلَةُ مَبَادِئَ ٱلْعَطَبِ وَتَتَضَعْضَعُ أَحْوَالُهَا وَتَنْزِلُ بِهَا أَمْرَاضٌ مُزْمِنَةٌ مِنَ ٱلْهَرَمِ إِلَى أَنْ يُقْضَى عَلَيْهَا . ٱلْوَجْهُ ٱلثَّالِثُ أَنَّ طَبِيعَةَ ٱلْمُلْكِ تَقْتَضِي ٱلدَّعَةَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِذَا ٱتَّخَذُوا ٱلدَّعَةَ وَٱلرَّاحَةَ مَأْلَفاً وَخُلُقاً صَارَ لَهُمْ ذٰلِكَ طَبِيعَةً وَجِبِلَّةً شَأْنَ ٱلْعَوَائِدِ كُلِّهَا وَإِيلَافِهَا فَتَرْبَى أَجْيَالُهُمُ ٱلْحَادِثَةُ فِي غَضَارَةِ ٱلْعَيْشِ وَمِهَادِ ٱلتَّرَفِ وَٱلدَّعَةِ وَيَنْقَلِبُ خُلُقُ ٱلتَّوَحُّشِ وَيَنْسَوْنَ عَوَائِدَ ٱلْبِدَاوَةِ ٱلَّتِي كَانَ بِهَا ٱلْمُلْكُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْبَأْسِ وَتَعَوُّدِ ٱلِٱفْتِرَاسِ وَرُكُوبِ ٱلْبَيْدَاءِ وَهِدَايَةِ ٱلْقَفْرِ فَلَا يُفَرَّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلسُّوقَةِ مِنَ ٱلْحَضَرِ إِلَّا فِي ٱلثَّقَافَةِ وَٱلشَّارَةِ فَتَضْعُفُ حِمَايَتُهُمْ وَيَذْهَبُ بَأْسُهُمْ وَتَنْخَضِدُ شَوْكَتُهُمْ وَيَعُودُ وَبَالُ ذٰلِكَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ بِمَا تَلْبَسُ مِنْ ثِيَابِ ٱلْهَرَمِ ثُمَّ لَا يَزَالُونَ يَتَلَوَّنُونَ بِعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْحَضَارَةِ وَٱلسُّكُونِ وَٱلدَّعَةِ وَرِقَّةِ ٱلْحَاشِيَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَيَنْغَمِسُونَ فِيهَا وَهُمْ فِي ذٰلِكَ يَبْعُدُونَ عَنِ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلْخُشُونَةِ وَيَنْسَلِخُونَ عَنْهَا شَيْئاً فَشَيْئاً وَيَنْسَوْنَ خُلُقَ ٱلْبَسَالَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِهَا ٱلْحِمَايَةُ وَٱلْمُدَافَعَةُ حَتَّى يَعُودُوا عِيَالاً عَلَى حَامِيَةٍ أُخْرَى إِنْ كَانَتْ لَهُمْ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي أَخْبَارُهَا فِي ٱلصُّحُفِ لَدَيْكَ تَجِدْ مَا قُلْتُهُ لَكَ مِنْ ذٰلِكَ صَحِيحاً مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ وَرُبَّمَا يَحْدُثُ فِي ٱلدَّوْلَةِ إِذَا طَرَقَهَا هٰذَا ٱلْهَرَمُ بِٱلتَّرَفِ وَٱلرَّاحَةِ أَنْ يَتَخَيَّرَ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ أَنْصَاراً وَشِيعَةً مِنْ غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ مِمَّنْ تَعَوَّدَ ٱلْخُشُونَةَ فَيَتَّخِذُهُمْ جُنْداً يَكُونُ أَصْبَرَ عَلَى ٱلْحَرْبِ وَأَقْدَرَ عَلَى مُعَانَاةِ ٱلشَّدَائِدِ مِنَ ٱلْجُوعِ وَٱلشَّظَفِ وَيَكُونُ ذٰلِكَ دَوَاءً لِلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْهَرَمِ ٱلَّذِي عَسَاهُ أَنْ يَطْرُقَهَا حَتَّى يَأْذَنَ ٱللهُ فِيهَا بِأَمْرِهِ وَهٰذَا كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ فَإِنَّ غَالِبَ جُنْدِهَا ٱلْمَوَالِي مِنَ ٱلتُّرْكِ فَتَتَخَيَّرُ مُلُوكُهُمْ مِنْ أُولٰئِكَ ٱلْمَمَالِيكِ ٱلْمَجْلُوبِينَ إِلَيْهِمْ فُرْسَاناً وَجُنْداً فَيَكُونُونَ أَجْرَأَ عَلَى ٱلْحَرْبِ وَأَصْبَرَ عَلَى ٱلشَّظَفِ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلْمَمَالِيكِ ٱلَّذِينَ

كانُوا قَبْلَهُمْ وَرَبُوا فِي مَاءِ ٱلنَّعِيمِ وَٱلسُّلْطَانِ وَظِلِّهِ وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كَثِيراً مَا يَتَّخِذُ أَجْنَادَهُ مِنْ زَنَاتَةَ وَٱلْعَرَبِ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْهُمْ وَيَتْرُكُ أَهْلَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُتَعَوِّدِينَ لِلتَّرَفِ فَتَسْتَجِدُّ ٱلدَّوْلَةُ بِذَلِكَ عُمْراً آخَرَ سَالِماً مِنَ ٱلْهَرَمِ وَٱللَّهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل الرابع عشر

في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْعُمْرَ ٱلطَّبِيعِيَّ لِلْأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ ٱلْأَطِبَّاءُ وَٱلْمُنَجِّمُونَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً وَهِيَ سِنُو ٱلْقَمَرِ ٱلْكُبْرَى عِنْدَ ٱلْمُنَجِّمِينَ وَيَخْتَلِفُ ٱلْعُمْرُ فِي كُلِّ جِيلٍ بِحَسَبِ ٱلْقِرَانَاتِ فَيَزِيدُ عَنْ هٰذَا وَيَنْقُصُ مِنْهُ فَتَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ ٱلْقِرَانَاتِ مِائَةً تَامَّةً وَبَعْضِهِمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ أَدِلَّةُ ٱلْقِرَانَاتِ عِنْدَ ٱلنَّاظِرِينَ فِيهَا وَأَعْمَارُ هٰذِهِ ٱلْمِلَّةِ مَا بَيْنَ ٱلسِّتِّينَ إِلَى ٱلسَّبْعِينَ كَمَا فِي ٱلْحَدِيثِ وَلَا يَزِيدُ عَلَى ٱلْعُمْرِ ٱلطَّبِيعِيِّ ٱلَّذِي هُوَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ إِلَّا فِي ٱلصُّوَرِ ٱلنَّادِرَةِ وَعَلَى ٱلْأَوْضَاعِ ٱلْغَرِيبَةِ مِنَ ٱلْفَلَكِ كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَقَلِيلٍ مِنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَأَمَّا أَعْمَارُ ٱلدُّوَلِ أَيْضاً وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ ٱلْقِرَانَاتِ إِلَّا أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي ٱلْغَالِبِ لَا تَعْدُو أَعْمَارَ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ وَٱلْجِيلُ هُوَ عُمْرُ شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ ٱلْوَسَطِ فَيَكُونُ أَرْبَعِينَ ٱلَّذِي هُوَ ٱنْتِهَاءُ ٱلنُّمُوِّ وَٱلنُّشُوءِ إِلَى غَايَتِهِ قَالَ تَعَالَى حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلِهٰذَا قُلْنَا إِنَّ عُمْرَ ٱلشَّخْصِ ٱلْوَاحِدِ هُوَ عُمْرُ ٱلْجِيلِ وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي حِكْمَةِ ٱلتِّيهِ ٱلَّذِي وَقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِٱلْأَرْبَعِينَ فِيهِ فَنَاءُ ٱلْجِيلِ ٱلْأَحْيَاءِ وَنَشْأَةُ جِيلٍ آخَرَ لَمْ يَعْهَدُوا ٱلذُّلَّ وَلَا عَرَفُوهُ فَدَلَّ عَلَى ٱعْتِبَارِ ٱلْأَرْبَعِينَ فِي عُمْرِ ٱلْجِيلِ ٱلَّذِي هُوَ عُمْرُ ٱلشَّخْصِ ٱلْوَاحِدِ وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ عُمْرَ ٱلدَّوْلَةِ لَا يَعْدُو فِي ٱلْغَالِبِ ثَلَاثَةَ أَجْيَالٍ لِأَنَّ ٱلْجِيلَ ٱلْأَوَّلَ لَمْ يَزَالُوا عَلَى خُلُقِ ٱلْبَدَاوَةِ وَخُشُونَتِهَا وَتَوَحُّشِهَا مِنْ شَظَفِ ٱلْعَيْشِ وَٱلْبَسَالَةِ وَٱلِٱفْتِرَاسِ وَٱلِٱشْتِرَاكِ فِي ٱلْمَجْدِ فَلَا تَزَالُ بِذَلِكَ سَوْرَةُ ٱلْعَصَبِيَّةِ مَحْفُوظَةً فِيهِمْ فَحَدُّهُمْ مُرْهَفٌ وَجَانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ وَٱلنَّاسُ لَهُمْ مَغْلُوبُونَ وَٱلْجِيلُ ٱلثَّانِي تَحَوَّلَ حَالُهُمْ بِٱلْمُلْكِ وَٱلتَّرَفُّهِ مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ إِلَى ٱلْحَضَارَةِ وَمِنَ ٱلشَّظَفِ إِلَى ٱلتَّرَفِ وَٱلْخِصْبِ وَمِنَ ٱلِٱشْتِرَاكِ فِي ٱلْمَجْدِ إِلَى ٱنْفِرَادِ ٱلْوَاحِدِ بِهِ وَكَسَلِ ٱلْبَاقِينَ عَنْ

السعي فيه ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم في المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وإن ذهب منه ما ذهب ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنّقوه من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالاً على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموّهون بها وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما حملت فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن المجد والحسب إنما هو أربعة آباء وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعي كاف ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات فتأمله فلن تعدو وجه الحق إن كنت من أهل الإنصاف وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده إلا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلاً مستولياً والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعاً فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد إلى سن الوقوف ثم إلى سن الرجوع ولهذا يجري على ألسنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانوناً يصحح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية إذا كنت قد استربت في عددهم وكانت السنون الماضية منذ أولهم محصلة لديك فعد لكل مائة من السنين

ثلاثةٌ مِنَ ٱلآبَاءِ فَإِنْ نَفَدَتْ عَلَى هٰذَا ٱلقِيَاسِ مَعَ نُفُودِ عَدَدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ بِجِيلٍ فَقَدْ غُلِطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةِ وَاحِدٍ فِي عَمُودِ ٱلنَّسَبِ وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِد وَكَذٰلِكَ تَأْخُذُ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ مِنْ عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحَصَّلًا لَدَيْكَ فَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ فِي ٱلغَالِبِ صَحِيحاً وَٱللّٰهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

الفصل الخامس عشر

في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة

إِعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ ٱلأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوَلِ فَإِنَّ ٱلغَلَبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلمُلْكُ إِنَّمَا هُو بِٱلعَصَبِيَّةِ وَبِمَا يَتْبَعُهَا مِنْ شِدَّةِ ٱلبَأْسِ وَتَعَوُّدِ ٱلِافْتِرَاسِ وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ غَالِباً إِلَّا مَع ٱلبِدَاوَةِ فَطَوْرُ ٱلدَّوْلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بِدَاوَةٌ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ ٱلمُلْكُ تَبِعَهُ ٱلرَّفَهُ وَٱتِّسَاعُ ٱلأَحْوَالِ وَٱلحَضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَفَنُّنٌ فِي ٱلتَّرَفِ وَإِحْكَامِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلمُسْتَعْمَلَةِ فِي وُجُوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ مِنَ ٱلمَطَابِخِ وَٱلمَلَابِسِ وَٱلمَبَانِي وَٱلفُرُشِ وَٱلأَبْنِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ ٱلمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعُ فِي ٱسْتِجَادَتِهِ وَٱلتَّأَنُّقِ فِيهِ تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضاً وَتَتَكَثَّرُ بِٱخْتِلَافِ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ ٱلنُّفُوسُ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلمَلَاذِ وَٱلتَّنَعُّمِ بِأَحْوَالِ ٱلتَّرَفِ وَمَا تَتَلَوَّنُ بِهِ مِنَ ٱلعَوَائِدِ فَصَارَ طَوْرُ ٱلحَضَارَةِ فِي ٱلمُلْكِ يَتْبَعُ طَوْرَ ٱلبِدَاوَةِ ضَرُورَةً لِضَرُورَةِ تَبَعِيَّةِ ٱلرَّفَهِ لِلْمُلْكِ وَأَهْلُ ٱلدُّوَلِ أَبَداً يُقَلِّدُونَ فِي طَوْرِ ٱلحَضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا لِلدَّوْلَةِ ٱلسَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ فَأَحْوَالَهُمْ يُشَاهِدُونَ وَمِنْهُمْ فِي ٱلغَالِبِ يَأْخُذُونَ وَمِثْلُ هٰذَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ ٱلفَتْحُ وَمَلَكُوا فَارِسَ وَٱلرُّومَ وَٱسْتَخْدَمُوا بَنَاتِهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا لِذٰلِكَ ٱلعَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ ٱلحَضَارَةِ فَقَدْ حُكِيَ أَنَّهُ قُدِّمَ لَهُمُ ٱلمُرَقَّقُ فَكَانُوا يَحْسَبُونَهُ رِقَاعاً وَعَثَرُوا عَلَى ٱلكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى فَٱسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجِينِهِمْ مِلْحاً وَمِثَال ذٰلِكَ كَثِيرٌ فَلَمَّا ٱسْتَعْبَدُوا أَهْلَ ٱلدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَٱسْتَعْمَلُوهُمْ فِي مِهَنِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِم وَٱخْتَارُوا مِنْهُمُ ٱلمَهَرَةَ فِي أَمْثَالِ ذٰلِكَ وَٱلقَوَمَةَ عَلَيْهِمْ أَفَادُوهُمْ عِلَاجَ ذٰلِكَ وَٱلقِيَام عَلَى عَمَلِهِ وَٱلتَّفَنُّنِ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنِ ٱتِّسَاعِ ٱلعَيْشِ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِهِ فَبَلَغُوا ٱلغَايَةَ فِي ذٰلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطَوْرِ ٱلحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ فِي ٱلأَحْوَالِ وَٱسْتِجَادَةِ ٱلمَطَاعِمِ وَٱلمَشَارِبِ وَٱلمَلَابِسِ وَٱلمَبَانِي وَٱلأَسْلِحَةِ وَٱلفُرُشِ وَٱلآنِيَةِ وَسَائِرِ ٱلمَاعُونِ وَٱلخُرْثِيِّ وَكَذٰلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ ٱلمُبَاهَاةِ وَٱلوَلَائِمِ وَلَيَالِي ٱلأَعْرَاسِ فَأَتَوْا مِنْ ذٰلِكَ وَرَاءَ ٱلغَايَةِ وَٱنْظُر

ما نقله المسعودي والطبري وغيرهما في أعراس المأمون ببوران بنت الحسن ابن سهل وما بذل أبوها الحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها إلى داره بفم الصلح وركب إليها في السفين وما أنفق في أملاكها وما نحلها المأمون وأنفق في عرسها تقف من ذلك على العجب فمنه أن الحسن بن سهل نثر يوم الأملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون فنثر على الطبقة الأولى منهم بنادق المسك ملثوتة على الرقاع بالضياع والعقار مسوغة لمن حصلت في يده يقع لكل واحد منهم ما أداه إليه الاتفاق والبخت وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير في كل بدرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك بعد أن أنفق على مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك ومنه أن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وهو رطل وثلثان (١) وبسط لها فرشا كان الحصير منها منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت وقال المأمون حين رآه قاتل الله أبا نواس كأنه أبصر هذا حيث يقول في صفة الخمر

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

وأعد بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلا مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفني الحطب لليلتين وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت وأوعز إلى النواتية بإحضار السفن لإجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد إلى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحراقات (٢) المعدة لذلك ثلاثين ألفا أجازوا الناس فيها أخريات نهارهم وكثير من هذا وأمثاله وكذلك عرس المأمون بن ذي النون بطليطلة نقله ابن بسام في كتاب الذخيرة وابن حيان بعد أن كانوا كلهم في الطور الأول من البداوة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه في غضاضتهم وسذاجتهم يذكر أن الحجاج أولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال أخبرني بأعظم صنيع شهدته فقال له نعم أيها الأمير شهدت بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل

(١) قوله وثلثان الذي كتب في اللغة ان المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية ثلثان
(٢) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو ا ه مختار

فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة أربعاً على كل واحد وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس فإذا طعموا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصفائها فقال الحجاج يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس وعلم أنه لا يستقل بهذه الأبهة وكذلك كانت . ومن هذا الباب أعطية بني أمية وجوائزهم فإنما كان أكثرها الإبل أخذا بمذاهب العرب وبداوتهم ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيديين من بعدهم ماعلمت من أحمال المال وتخوت الثياب وإعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كتامة مع الأغالبة بأفريقية وكذا بني طفج بمصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالأندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين وهلم جرا تنتقل الحضارة من الدول السالفة إلى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمية وبني العباس وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد وانتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ثم إلى الترك ثم إلى السلجوقية ثم إلى الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة إذ أمور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولي عليه أهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحاً في العمران والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

الفصل السادس عشر

في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها

والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية فكثرت العصابة واستكثروا أيضاً من الموالي والصنائع وربيت أجيالهم. في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا به عدداً إلى عددهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد فإذا ذهب الجيل الأول والثاني وأخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالي بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لأنهم ليس لهم من الأمر شيء إنما كانوا عيالاً على أهلها ومعونة لها فإذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها

مِنَ ٱلْقُوَّةِ وَٱعْتَبِرْ هٰذَا بِمَا وَقَعَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فِي ٱلْإِسْلامِ كَانَ عَدَدُ ٱلْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا لِعَهْدِ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْخِلافَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفاً وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ وَلَمَّا بَلَغَ ٱلتَّرَفُ مَبَالِغَهُ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَتَوَفَّرَ نُمُوُّهُمْ بِتَوَفُّرِ ٱلنِّعْمَةِ وَٱسْتَكْثَرَ ٱلْخُلَفَاءُ مِنَ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ بَلَغَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدُ إِلى أَضْعَافِهِ يُقَالُ إِنَّ ٱلْمُعْتَصِمَ نَازَلَ عَمُّورِيَّةَ لَمَّا ٱفْتَتَحَهَا فِي تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ وَلا يَبْعُدُ مِثْلُ هٰذَا ٱلْعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحاً إِذَا ٱعْتَبَرْتَ حَامِيَتَهُمْ فِي ٱلثُّغُورِ ٱلدَّانِيَةِ وَٱلْقَاصِيَةِ شَرْقاً وَغَرْباً إِلى ٱلْجُنْدِ ٱلْحَامِلِينَ سَرِيرَ ٱلْمُلْكِ وَٱلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنِعِينَ وَقَالَ ٱلْمَسْعُودِيُّ أَحْصَى بَنُو ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ ٱلْمَأْمُونِ لِلْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلاثِينَ أَلْفاً بَيْنَ ذُكْرَانٍ وَإِنَاثٍ فَٱنْظُرْ مَبَالِغَ هٰذَا ٱلْعَدَدِ لِأَقَلَّ مِنْ مِائَتَيْ سَنَةٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ سَبَبَهُ ٱلرَّفَهُ وَٱلنَّعِيمُ ٱلَّذِي حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرَبِيَ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ وَإِلَّا فَعَدَدُ ٱلْعَرَبِ ٱلْأَوَّلِ ٱلْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هٰذَا وَلا قَرِيباً مِنْهُ وَٱللّٰهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ

الفصل السابع عشر

في اطوار الدولة واختلاف احوالها وخلق اهلها باختلاف الاطوار

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ تَنْتَقِلُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ وَيَكْتَسِبُ ٱلْقَائِمُونَ بِهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقاً مِنْ أَحْوَالِ ذٰلِكَ ٱلطَّوْرِ لا يَكُونُ مِثْلُهُ فِي ٱلطَّوْرِ ٱلْآخَرِ لِأَنَّ ٱلْخُلُقَ تَابِعٌ بِٱلطَّبْعِ لِمِزَاجِ ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ وَحَالاتُ ٱلدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهَا لا تَعْدُو فِي ٱلْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ . أَلطَّوْرُ ٱلْأَوَّلُ طَوْرُ ٱلظَّفَرِ بِٱلْبُغْيَةِ وَغَلَبِ ٱلْمُدَافِعِ وَٱلْمُمَانِعِ وَٱلِاسْتِيلاءِ عَلَى ٱلْمُلْكِ وَٱنْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ أُسْوَةَ قَوْمِهِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْمَجْدِ وَجِبَايَةِ ٱلْمَالِ وَٱلْمُدَافَعَةِ عَنِ ٱلْحَوْزَةِ وَٱلْحِمَايَةِ لا يَنْفَرِدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ لِأَنَّ ذٰلِكَ هُوَ مُقْتَضَى ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي وَقَعَ بِهَا ٱلْغَلَبُ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَعْدُ بِحَالِهَا . أَلطَّوْرُ ٱلثَّانِي طَوْرُ ٱلِاسْتِبْدَادِ عَلَى قَوْمِهِ وَٱلِانْفِرَادِ دُونَهُمْ بِٱلْمُلْكِ وَكَبْحِهِمْ عَنِ ٱلتَّطَاوُلِ لِلْمُسَاهَمَةِ وَٱلْمُشَارَكَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ مَعْنِيّاً بِٱصْطِنَاعِ ٱلرِّجَالِ وَٱتِّخَاذِ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ وَٱلِاسْتِكْثَارِ مِنْ ذٰلِكَ لِجَدْعِ أُنُوفِ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ ٱلْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي نَسَبِهِ ٱلضَّارِبِينَ فِي ٱلْمُلْكِ بِمِثْلِ سَهْمِهِ فَهُوَ يُدَافِعُهُمْ عَنِ ٱلْأَمْرِ وَيَصُدُّهُمْ عَنْ مَوَارِدِهِ وَيَرُدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَنْ يَخْلُصُوا إِلَيْهِ حَتَّى يُقِرَّ ٱلْأَمْرَ فِي نِصَابِهِ وَيُفْرِدَ أَهْلَ بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِي مِنْ مَجْدِهِ فَيُعَانِي مِنْ مُدَافَعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ ٱلْأَوَّلُونَ فِي طَلَبِ

ٱلْأَمرِ أَوْ أَشَدَّ لِأَنَّ ٱلْأَوَّلِينَ دَافَعُوا ٱلْأَجَانِبَ فَكَانَ ظُهَرَاؤُهُمْ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ أَهل ٱلْعَصَبِيَّةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَهٰذَا يُدَافِعُ ٱلْأَقَارِبَ لا يُظَاهِرُهُ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ إِلَّا ٱلْأَقَلُّ مِن ٱلْأَبَاعِدِ فَيَرْكَبُ صَعْباً مِنَ ٱلْأَمْرِ . ٱلطَّوْرُ ٱلثَّالِثُ طَوْرُ ٱلفَرَاغِ وَٱلدَّعَةِ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ ٱلْمُلْكِ مِمَّا تَنْزِعُ طِبَاعُ ٱلْبَشَرِ إِلَيْهِ مِنْ تَحْصِيلِ ٱلمَالِ وَتَخْلِيدِ ٱلآثَارِ وَبُعْدِ ٱلصِّيتِ فَيَسْتَفْرِغُ وُسْعَهُ فِي ٱلْجِبَايَةِ وَضَبْطِ ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ وَإِحْصَاءِ ٱلنَّفَقَاتِ وَٱلْقَصْدِ فِيهَا وَتَشْيِيدِ ٱلْمَبَانِي ٱلْحَافِلَةِ وَٱلْمَصَانِعِ ٱلْعَظِيمَةِ وَٱلْأَمْصَارِ ٱلْمُتَّسِعَةِ وَٱلْهَيَاكِلِ ٱلْمُرْتَفِعَةِ وَإِجَازَةِ ٱلْوُفُودِ مِنْ أَشْرَافِ ٱلْأُمَمِ وَوُجُوهِ ٱلْقَبَائِلِ وَبَثِّ ٱلْمَعْرُوفِ فِي أَهْلِهِ هٰذَا مَع ٱلتَّوْسِعَةِ عَلَى صَنَائِعِهِ وَحَاشِيَتِهِ فِي أَحْوَالِهِمْ بِٱلْمَالِ وَٱلْجَاهِ وَٱعْتِرَاضِ جُنُودِهِ وَإِدْرَار أَرْزَاقِهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ فِي أَعْطِيَاتِهِمْ لِكُلِّ هِلالٍ حَتَّى يَظْهَرُ أَثَرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ فِي مَلابِسِهِم وَشِكَكِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ ٱلزِّينَةِ فَيُبَاهِي بِهِمِ ٱلدُّوَلَ ٱلْمُسَالِمَةَ وَيُرْهِبُ ٱلدُّوَلَ ٱلْمُحَارِبَة وَهٰذَا ٱلطَّوْرُ آخِرُ أَطْوَارِ ٱلِٱسْتِبْدَادِ مِنْ أَصْحَابِ ٱلدَّوْلَةِ لِأَنَّهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْأَطْوَارِ كُلِّهَا مُسْتَقِلُّونَ بِآرَائِهِمْ بَانُونَ لِعِزِّهِمْ مُوضِحُونَ ٱلطُّرُقَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ . ٱلطَّوْرُ ٱلرَّابِعُ طَوْر ٱلْقُنُوعِ وَٱلْمُسَالَمَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا قَانِعاً بِمَا بَنَى أَوَّلُوهُ سِلْماً لِأَنْظَارِه مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَأَقْتَالِهِ مُقَلِّداً لِلْمَاضِينَ مِنْ سَلَفِهِ فَيَتَّبِعُ آثَارَهُمْ حَذْوَ ٱلنَّعْلِ بِٱلنَّعْلِ وَيَقْتَفِي طُرُقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاهِجِ ٱلِٱقْتِدَاءِ وَيَرَى أَنَّ فِي ٱلْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فَسَادَ أَمْرِهِ وَأَنَّهُم أَبْصَرُ بِمَا بَنَوْا مِنْ مَجْدِهِ . ٱلطَّوْرُ ٱلْخَامِسُ طَوْرُ ٱلْإِسْرَافِ وَٱلتَّبْذِيرِ وَيَكُونُ صَاحِب ٱلدَّوْلَةِ فِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ مُتْلِفاً لِمَا جَمَعَ أَوَّلُوهُ فِي سَبِيلِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمَلاذِّ وَٱلْكَرَمِ عَلى بِطَانَتِهِ وَفِي مَجَالِسِهِ وَٱصْطِنَاعِ أَخْدَانِ ٱلسُّوءِ وَخَضْرَاءِ ٱلدِّمَنِ وَتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَاتِ ٱلْأُمور ٱلَّتِي لا يَسْتَقِلُّونَ بِحَمْلِهَا وَلا يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مِنْهَا مُسْتَفْسِدَ ٱلْكِبَارِ ٱلْأَوْلِيَاء مِنْ قَوْمِهِ وَصَنَائِعِ سَلَفِهِ حَتَّى يَضْطَغِنُوا عَلَيْهِ وَيَتَخَاذَلُوا عَنْ نُصْرَتِهِ مُضَيِّعاً مِنْ جُنْدِه بِمَا أَنْفَقَ مِنْ أَعْطِيَاتِهِمْ فِي شَهَوَاتِهِ وَحَجَبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مُبَاشَرَتِهِ وَتَفَقُّدِهِ فَيَكُونُ مُخَرِّباً لِمَا كَانَ سَلَفُهُ يُؤَسِّسُونَ وَهَادِماً لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ وَفِي هٰذَا ٱلطَّوْرِ تَحْصُلُ فِي ٱلدَّوْلَةِ طَبِيعَة ٱلْهَرَمِ وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا ٱلْمَرَضُ ٱلْمُزْمِنُ ٱلَّذِي لا تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ وَلا يَكُونُ لَهَا مَعَهُ بُرْءٌ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي ٱلْأَحْوَالِ ٱلَّتِي نَسْرِدُهَا وَٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الثامن عشر

في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلآثَارَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عَنِ ٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوَّلاً وَعَلَى قَدَرِهَا يَكُونُ ٱلأَثَرُ فَمِنْ ذٰلِكَ مَبَانِي ٱلدَّوْلَةِ وَهَيَاكِلُهَا ٱلْعَظِيمَةُ فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ ٱلدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا لِأَنَّهَا لا تَتِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ ٱلْفَعَلَةِ وَٱجْتِمَاعِ ٱلأَيْدِي عَلَى ٱلْعَمَلِ بِٱلتَّعَاوُنِ فِيهِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسِيحَةَ ٱلْجَوَانِبِ كَثِيرَةَ ٱلْمَمَالِكِ وَٱلرَّعَايَا كَانَ ٱلْفَعَلَةُ كَثِيرِينَ جِدًّا وَحُشِرُوا مِنْ آفَاقِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا فَتَمَّ ٱلْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ هَيَاكِلِهِ أَلا تَرَى إِلَى مَصَانِعِ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَمَا قَصَّهُ ٱلْقُرْآنُ عَنْهُمَا وَٱنْظُرْ بِٱلْمُشَاهَدَةِ إِيوَانَ كِسْرَى وَمَا ٱقْتَدَرَ فِيهِ ٱلْفُرْسُ حَتَّى إِنَّهُ عَزَمَ ٱلرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَتَخْرِيبِهِ فَتَكَاءَدَ عَنْهُ وَشَرَعَ فِيهِ ثُمَّ أَدْرَكَهُ ٱلْعَجْزُ وَقِصَّةُ ٱسْتِشَارَتِهِ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ فِي شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ فَٱنْظُرْ كَيْفَ تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءٍ لا تَسْتَطِيعُ أُخْرَى عَلَى هَدْمِهِ مَعَ بَوْنِ مَا بَيْنَ ٱلْهَدْمِ وَٱلْبِنَاءِ فِي ٱلسُّهُولَةِ تَعْرِفْ مِنْ ذٰلِكَ بَوْنَ مَا بَيْنَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ وَٱنْظُرْ إِلَى بَلاطِ ٱلْوَلِيدِ بِدِمَشْقَ وَجَامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ بِقُرْطُبَةَ وَٱلْقَنْطَرَةِ ٱلَّتِي عَلَى وَادِيهَا وَكَذٰلِكَ بِنَاءُ ٱلْحَنَايَا لِجَلْبِ ٱلْمَاءِ إِلَى قَرْطَاجَنَّةَ فِي ٱلْقَنَاةِ ٱلرَّاكِبَةِ عَلَيْهَا وَآثَارِ شَرْشَالَ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلأَهْرَامِ بِمِصْرَ وَكَثِيرٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلآثَارِ ٱلْمَاثِلَةِ لِلْعِيَانِ يُعْلَمُ مِنْهُ ٱخْتِلافُ ٱلدُّوَلِ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ وَٱعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ ٱلأَفْعَالَ لِلأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِٱلْهِنْدَامِ وَٱجْتِمَاعِ ٱلْفَعَلَةِ وَكَثْرَةِ ٱلأَيْدِي عَلَيْهَا فَبِذٰلِكَ شُيِّدَتْ تِلْكَ ٱلْهَيَاكِلُ وَٱلْمَصَانِعُ وَلا تَتَوَهَّمْ مَا تَتَوَهَّمُهُ ٱلْعَامَّةُ أَنَّ ذٰلِكَ لِعِظَمِ أَجْسَامِ ٱلأَقْدَمِينَ عَنْ أَجْسَامِنَا فِي أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا فَلَيْسَ بَيْنَ ٱلْبَشَرِ فِي ذٰلِكَ كَبِيرُ بَوْنٍ كَمَا نَجِدُ بَيْنَ ٱلْهَيَاكِلِ وَٱلآثَارِ وَلَقَدْ وَلِعَ ٱلْقُصَّاصُ بِذٰلِكَ وَتَغَالَوْا فِيهِ وَسَطَّرُوا عَنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلْعَمَالِقَةِ فِي ذٰلِكَ أَخْبَاراً عَرِيقَةً فِي ٱلْكَذِبِ مِنْ أَغْرَبِهَا مَا يَحْكُونَ عَنْ عُوجِ بْنِ عِنَاقٍ[1] رَجُلٍ مِنَ ٱلْعَمَالِقَةِ ٱلَّذِينَ قَاتَلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي ٱلشَّامِ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لِطُولِهِ يَتَنَاوَلُ ٱلسَّمَكَ مِنَ ٱلْبَحْرِ وَيَشْوِيهِ إِلَى ٱلشَّمْسِ وَيَزِيدُونَ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِ ٱلْبَشَرِ ٱلْجَهْلَ بِأَحْوَالِ ٱلْكَوَاكِبِ لِمَا ٱعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قَرُبَ مِنْهَا وَلا يَعْلَمُونَ

---

(١) قوله ابن عناق الذي في القاموس في باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على السنة الناس عنق بالنون قاله نصر الهوريني

أَنَّ ٱلْحَرَّ هُوَ ٱلضَّوْءُ وَأَنَّ ٱلضَّوْءَ فِيمَا قَرُبَ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَكْثَرُ لِٱنْعِكَاسِ ٱلْأَشِعَّةِ مِنْ سَطْحِ ٱلْأَرْضِ بِمُقَابَلَةِ ٱلْأَضْوَاءِ فَتَتَضَاعَفُ ٱلْحَرَارَةُ هُنَا لِأَجْلِ ذَٰلِكَ وَإِذَا تَجَاوَزَتْ مَطَارِحَ ٱلْأَشِعَّةِ ٱلْمُنْعَكِسَةِ فَلَا حَرَّ هُنَالِكَ بَلْ يَكُونُ فِيهِ ٱلْبَرْدُ حَيْثُ مَجَارِي ٱلسَّحَابِ وَأَنَّ ٱلشَّمْسَ فِي نَفْسِهَا لَا حَارَّةٌ وَلَا بَارِدَةٌ وَإِنَّمَا هِيَ جِسْمٌ بَسِيطٌ مُضِيءٌ لَا مِزَاجَ لَهُ وَكَذَٰلِكَ عُوجُ بْنُ عِنَاقٍ هُوَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مِنَ ٱلْعَمَالِقَةِ أَوْ مِنَ ٱلْكَنْعَانِيِّينَ ٱلَّذِينَ كَانُوا فَرِيسَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ فَتْحِهِمِ ٱلشَّامَ وَأَطْوَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجُسْمَانُهُمْ لِذَٰلِكَ ٱلْعَهْدِ قَرِيبَةٌ مِنْ هَيَاكِلِنَا يَشْهَدُ لِذَٰلِكَ أَبْوَابُ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ فَإِنَّهَا وَإِنْ خُرِّبَتْ وَجُدِّدَتْ لَمْ تَزَلِ ٱلْمُحَافَظَةُ عَلَى أَشْكَالِهَا وَمَقَادِيرِ أَبْوَابِهَا وَكَيْفَ يَكُونُ ٱلتَّفَاوُتُ بَيْنَ عُوجٍ وَبَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بِهَٰذَا ٱلْمِقْدَارِ وَإِنَّمَا مَثَارُ غَلَطِهِمْ فِي هَٰذَا أَنَّهُمُ ٱسْتَعْظَمُوا آثَارَ ٱلْأُمَمِ وَلَمْ يَفْهَمُوا حَالَ ٱلدُّوَلِ فِي ٱلِٱجْتِمَاعِ وَٱلتَّعَاوُنِ وَمَا يَحْصُلُ بِذَٰلِكَ وَبِٱلْهِنْدَامِ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعَظِيمَةِ فَصَرَفُوهُ إِلَى قُوَّةِ ٱلْأَجْسَامِ وَشِدَّتِهَا بِعِظَمِ هَيَاكِلِهَا وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذَٰلِكَ وَقَدْ زَعَمَ ٱلْمَسْعُودِيُّ وَنَقَلَهُ عَنِ ٱلْفَلَاسِفَةِ مَزْعَمًا لَا مُسْتَنَدَ لَهُ إِلَّا ٱلتَّحَكُّمُ وَهُوَ أَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ ٱلَّتِي هِيَ جِبِلَّةٌ لِلْأَجْسَامِ لَمَّا بَرَأَ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ كَانَتْ فِي تَمَامِ ٱلْكُرَةِ وَنِهَايَةِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْكَمَالِ وَكَانَتِ ٱلْأَعْمَارُ أَطْوَلَ وَٱلْأَجْسَامُ أَقْوَى لِكَمَالِ تِلْكَ ٱلطَّبِيعَةِ فَإِنَّ طُرُوءَ ٱلْمَوْتِ إِنَّمَا هُوَ بِٱنْحِلَالِ ٱلْقُوَى ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً كَانَتِ ٱلْأَعْمَارُ أَزْيَدَ فَكَانَ ٱلْعَالَمُ فِي أَوَّلِيَّةِ نَشْأَتِهِ تَامَّ ٱلْأَعْمَارِ كَامِلَ ٱلْأَجْسَامِ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَتَنَاقَصُ لِنُقْصَانِ ٱلْمَادَّةِ إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى هَٰذِهِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَنَاقَصُ إِلَى وَقْتِ ٱلِٱنْحِلَالِ وَٱنْقِرَاضِ ٱلْعَالَمِ وَهَٰذَا رَأْيٌ لَا وَجْهَ لَهُ إِلَّا ٱلتَّحَكُّمُ كَمَا تَرَاهُ وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ وَلَا سَبَبٌ بُرْهَانِيٌّ وَنَحْنُ نُشَاهِدُ مَسَاكِنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَأَبْوَابَهُمْ وَطُرُقَهُمْ فِيمَا أَحْدَثُوهُ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ وَٱلْهَيَاكِلِ وَٱلدِّيَارِ وَٱلْمَسَاكِنِ كَدِيَارِ ثَمُودَ ٱلْمَنْحُوتَةِ فِي ٱلصَّلْدِ مِنَ ٱلصَّخْرِ بُيُوتًا صِغَارًا وَأَبْوَابُهَا ضَيِّقَةٌ وَقَدْ أَشَارَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنَّهَا دِيَارُهُمْ وَنَهَى عَنِ ٱسْتِعْمَالِ مِيَاهِهِمْ وَطَرْحِ مَا عُجِنَ بِهِ وَأُهْرِقَ وَقَالَ لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ وَكَذَٰلِكَ أَرْضُ عَادٍ وَمِصْرَ وَٱلشَّامِ وَسَائِرِ بِقَاعِ ٱلْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا وَٱلْحَقُّ مَا قَرَّرْنَاهُ وَمِنْ آثَارِ ٱلدُّوَلِ أَيْضًا حَالُهَا فِي ٱلْأَعْرَاسِ وَٱلْوَلَائِمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي وَلِيمَةِ بُورَانَ وَصَنِيعِ ٱلْحَجَّاجِ وَٱبْنِ ذِي ٱلنُّونِ وَقَدْ مَرَّ

ذٰلِكَ كُلُّهُ وَمِنْ آثَارِهَا أَيْضاً عَطَايَا ٱلدُّوَلِ وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا وَيَظْهَرُ ذٰلِكَ فِيهَا وَلَوْ أَشْرَفَتْ عَلَى ٱلْهَرَمِ فَإِنَّ ٱلْهِمَمَ ٱلَّتِي لِأَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ وَغَلَبِهِمْ لِلنَّاسِ وَٱلْهِمَمُ لاَ تَزَالُ مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى ٱنْقِرَاضِ ٱلدَّوْلَةِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِجَوَائِزِ ٱبْنِ ذِي يَزَنٍ لِوَفْدِ قُرَيْشٍ كَيْفَ أَعْطَاهُمْ مِنْ أَرْطَالِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْأَعْبُدِ وَٱلْوَصَائِفِ عَشْراً عَشْراً وَمِنْ كَرِشِ ٱلْعَنْبَرِ وَاحِدَةً وَأَضْعَفَ ذٰلِكَ بِعَشَرَةِ أَمْثَالِهِ لِعَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَإِنَّمَا مُلْكُهُ يَوْمَئِذٍ قَرَارَةُ ٱلْيَمَنِ خَاصَّةً تَحْتَ ٱسْتِبْدَادِ فَارِسَ وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذٰلِكَ هِمَّةُ نَفْسِهِ بِمَا كَانَ لِقَوْمِهِ ٱلتَّبَابِعَةِ مِنَ ٱلْمُلْكِ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْغَلَبِ عَلَى ٱلْأُمَمِ فِي ٱلْعِرَاقَيْنِ وَٱلْهِنْدِ وَٱلْمَغْرِبِ وَكَانَ ٱلصِّنْهَاجِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةَ أَيْضاً إِذَا أَجَازُوا ٱلْوَفْدَ مِنْ أُمَرَاءِ زَنَاتَةَ ٱلْوَافِدِينَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّمَا يُعْطُونَهُمُ ٱلْمَالَ أَحْمَالاً وَٱلْكِسَاءَ تُخُوتاً مَمْلُوءَةً وَٱلْحُمْلاَنَ جَنَائِبَ عَدِيدَةً وَفِي تَارِيخِ ٱبْنِ ٱلرَّقِيقِ مِنْ ذٰلِكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ وَكَذٰلِكَ كَانَ عَطَاءُ ٱلْبَرَامِكَةِ وَجَوَائِزُهُمْ وَنَفَقَاتُهُمْ وَكَانُوا إِذَا كَسَبُوا مُعْدِماً فَإِنَّمَا هُوَ ٱلْوِلاَيَةُ وَٱلنِّعْمَةُ آخِرَ ٱلدَّهْرِ لاَ ٱلْعَطَاءُ ٱلَّذِي يَسْتَنْفِدُهُ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ مَسْطُورَةٌ وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نِسْبَةِ ٱلدُّوَلِ جَارِيَةٌ هٰذَا جَوْهَرٌ ٱلصِّقِلِّيُّ ٱلْكَاتِبُ قَائِدُ جَيْشِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ لَمَّا ٱرْتَحَلَ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ ٱسْتَعَدَّ مِنَ ٱلْقَيْرَوَانِ بِأَلْفِ حِمْلٍ مِنَ ٱلْمَالِ وَلاَ تَنْتَهِي ٱلْيَوْمَ دَوْلَةٌ إِلَى مِثْلِ هٰذَا وَكَذٰلِكَ وُجِدَ بِخَطِّ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْحَمِيدِ عَمَلٌ بِمَا يُحْمَلُ إِلَى بَيْتِ ٱلْمَالِ بِبَغْدَادَ أَيَّامَ ٱلْمَأْمُونِ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّوَاحِي نَقَلْتُهُ مِنْ جِرَابِ ٱلدَّوْلَةِ (غلات السواد) سَبْعٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ ٱلْحُلَلِ ٱلنَّجْرَانِيَّةِ مِائَتَا حُلَّةٍ وَمِنْ طِينِ ٱلْخَتْمِ مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ رِطْلًا (كسكر) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسِتُّمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (كورد جلة) عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَثَمَانِيَةُ دَرَاهِمَ (حلوان) أَرْبَعَةُ آلاَفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَمَانِمِائَةِ أَلْفَ دِرْهَمٍ (الاهواز) خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً وَمِنَ ٱلسُّكَّرِ ثَلاَثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (فارس) سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنْ مَاءِ ٱلْوَرْدِ ثَلاَثُونَ أَلْفَ قَارُورَةٍ وَمِنَ ٱلزَّيْتِ ٱلْأَسْوَدِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (كرمان) أَرْبَعَةُ آلاَفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِائَتَا أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ ٱلْمَتَاعِ ٱلْيَمَانِيِّ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلتَّمْرِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (مكران) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّةً (السند وما يليه) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ

أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنَ ٱلْعُودِ ٱلْهِنْدِيِّ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ رِطْلًا (سجستان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلثِّيَابِ ٱلْمُعَيَّنَةِ ثَلَاثُمِائَةِ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْفَانِيدِ عِشْرُونَ رِطْلًا (خراسان) ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنْ نُقَرِ ٱلْفِضَّةِ أَلْفَا نُقْرَةٍ وَمِنَ ٱلْبَرَاذِينِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَمِنَ ٱلرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ وَمِنَ ٱلْمَتَاعِ عِشْرُونَ أَلْفَ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْإِهْلِيلَجِ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (جرجان) إِثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْإِبْرِيسِمِ أَلْفُ شُقَّةٍ (قومس) أَلْفُ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمِائَةٍ مِنْ نُقَرِ ٱلْفِضَّةِ (طبرستان والرويان ونهاوند) سِتَّةُ آلَافِ أَلْفٍ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ وَمِنَ ٱلْفَرْشِ ٱلطَّبَرِيِّ سِتُّمِائَةِ قِطْعَةٍ وَمِنَ ٱلْأَكْسِيَةِ مِائَتَانِ وَمِنَ ٱلثِّيَابِ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ وَمِنَ ٱلْمَنَادِيلِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَمِنَ ٱلْجَامَاتِ ثَلَاثُمِائَةٍ (الري) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ (همذان) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ وَمِنْ رُبِّ ٱلرُّمَّانِ أَلْفُ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ (ما بين البصرة والكوفة) عَشَرَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (ماسبذان والدينار [1]) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ (شهرزور) سِتَّةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ (الموصل وما يليها) أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ ٱلْأَبْيَضِ عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ رِطْلٍ (أذربيجان) أَرْبَعَةُ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ (الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات) أَرْبَعَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ وَمِنَ ٱلْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ زِقٍّ وَمِنَ ٱلْبُزَاةِ [2] عَشَرَةٌ وَمِنَ ٱلْأَكْسِيَةِ عِشْرُونَ (ارمينية) ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ ٱلْبُسُطِ [3] ٱلْمَحْفُورِ عِشْرُونَ وَمِنَ ٱلرَّقْمِ خَمْسُمِائَةٍ وَثَلَاثُونَ رِطْلًا وَمِنَ ٱلْمَسَايِحِ ٱلسُّورِ مَا هِيَ عَشَرَةُ آلَافِ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلصُّونَجِ عَشَرَةُ آلَافِ رِطْلٍ وَمِنَ ٱلْبِغَالِ مِائَتَانِ وَمِنَ ٱلْمُهْرَةِ ثَلَاثُونَ (قنسرين) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَمِنَ ٱلزَّيْتِ أَلْفُ حِمْلٍ (دمشق) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (الاردن) سَبْعَةٌ وَتِسْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (فلسطين) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفَ دِينَارٍ وَعَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ وَمِنَ

---

(١) قوله والدينار والظاهر أنها الدينور وفي الترجمة التركية ماسندان ور بان اه (٢) قوله ومن البزاة في التركية ومن السكر عشرة صناديق اه (٣) وفي نسخة القسط

الزَّيْتِ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ رِطْلٍ (مصر) أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ وَتِسْعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ (برقة) أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ (افريقية) ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ الْبُسُطِ مَائَةٌ وَعِشْرُونَ (اليمن) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ سِوَى الْمَتَاعِ (الحجاز) ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ انْتَهَى وَأَمَّا الْأَنْدَلُسُ فَالَّذِي ذَكَرَهُ الثِّقَاتُ مِنْ مُؤَرِّخِيهَا أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ النَّاصِرَ خَلَّفَ فِي بُيُوتِ أَمْوَالِهِ خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ مُكَرَّرَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَكُونُ جُمْلَتُهَا بِالْقَنَاطِيرِ خَمْسَمِائَةِ أَلْفِ قِنْطَارٍ وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ تَوَارِيخِ الرَّشِيدِ أَنَّ الْمَحْمُولَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فِي أَيَّامِهِ سَبْعَةُ آلَافِ قِنْطَارٍ وَخَمْسُمِائَةِ قِنْطَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي نِسَبِ الدُّوَلِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَلَا تُنْكِرَنَّ مَا لَيْسَ بِمَعْهُودٍ عِنْدَكَ وَلَا فِي عَصْرِكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْثَالِهِ فَتَضِيقَ حَوْصَلَتُكَ عِنْدَ مُلْتَقَطِ الْمُمْكِنَاتِ فَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِّ إِذَا سَمِعُوا أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ عَنِ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ بَادَرَ بِالْإِنْكَارِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الصَّوَابِ فَإِنَّ أَحْوَالَ الْوُجُودِ وَالْعُمْرَانِ مُتَفَاوِتَةٌ وَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهَا رُتْبَةً سُفْلَى أَوْ وُسْطَى فَلَا يَحْصُرُ الْمَدَارِكَ كُلَّهَا فِيهَا وَنَحْنُ إِذَا اعْتَبَرْنَا مَا يُنْقَلُ لَنَا عَنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَبَنِي أُمَيَّةَ وَالْعُبَيْدِيِّينَ وَنَاسَبْنَا الصَّحِيحَ مِنْ ذَلِكَ وَالَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ بِالَّذِي نُشَاهِدُهُ مِنْ هَذِهِ الدُّوَلِ الَّتِي هِيَ أَقَلُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وَجَدْنَا بَيْنَهَا بَوْنًا وَهُوَ لِمَا بَيْنَهَا مِنَ التَّفَاوُتِ فِي أَصْلِ قُوَّتِهَا وَعُمْرَانِ مَمَالِكِهَا فَالْآثَارُ كُلُّهَا جَارِيَةٌ عَلَى نِسْبَةِ الْأَصْلِ فِي الْقُوَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَلَا يَسَعُنَا إِنْكَارُ ذَلِكَ عَنْهَا إِذْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي غَايَةِ الشُّهْرَةِ وَالْوُضُوحِ بَلْ فِيهَا مَا يُلْحَقُ بِالْمُسْتَفِيضِ وَالْمُتَوَاتِرِ وَفِيهَا الْمُعَايَنُ وَالْمُشَاهَدُ مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وَغَيْرِهِ فَخُذْ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمَنْقُولَةِ مَرَاتِبَ الدُّوَلِ فِي قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا وَضَخَامَتِهَا أَوْ صِغَرِهَا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَا نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ الْمُسْتَظْرَفَةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ وَرَدَ بِالْمَغْرِبِ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرِينٍ رَجُلٌ مِنْ مَشْيَخَةِ طَنْجَةَ يُعْرَفُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ [1] كَانَ رَحَلَ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً قَبْلَهَا إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَقَلَّبَ فِي بِلَادِ الْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ وَالْهِنْدِ وَدَخَلَ مَدِينَةَ دِهْلِي حَاضِرَةَ مَلِكِ الْهِنْدِ وَهُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ شَاهْ وَاتَّصَلَ بِمَلِكِهَا لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَهُوَ فَيْرُوزْ جُوهْ وَكَانَ لَهُ مِنْهُ مَكَانٌ وَاسْتَعْمَلَهُ فِي خُطَّةِ الْقَضَاءِ بِمَذْهَبِ الْمَالِكِيَّةِ فِي عَمَلِهِ ثُمَّ انْقَلَبَ إِلَى الْمَغْرِبِ

(١) كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهاؤها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرها ٧ كراريس اه

وَٱتَّصَلَ بِٱلسُّلْطَانِ أبي عِنَانٍ وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رِحْلَتِهِ وَمَا رَأَى مِنَ ٱلعَجَائِبِ بِمَمَالِكِ ٱلأَرْضِ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ ٱلهِنْدِ وَيَأْتِي مِنْ أَحْوَالِهِ بِمَا يَسْتَغْرِبُهُ ٱلسَّامِعُونَ مِثْلَ أَنَّ مَلِكَ ٱلهِنْدِ إِذَا خَرَجَ إِلى ٱلسَّفَرِ أَحْصَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلوِلْدَانِ وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ تُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ وَأَنَّهُ عِنْدَ رُجُوعِهِ مِنْ سَفَرِهِ يَدْخُلُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْرُزُ فِيهِ ٱلنَّاسُ كَافَّةً إِلى صَحْرَاءِ ٱلبَلَدِ وَيَطُوفُونَ بِهِ وَيُنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذٰلِكَ ٱلحَفْلِ مَنْجَنِيقَاتٌ عَلى ٱلظَّهْرِ تُرْمَى بِهَا شَكَائِرُ ٱلدَّرَاهِمِ وَٱلدَّنَانِيرِ عَلى ٱلنَّاسِ إِلى أَنْ يَدْخُلَ إِيوَانَهُ وَأَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلحِكَايَاتِ فَتَنَاجَى ٱلنَّاسُ بِتَكْذِيبِهِ وَلَقِيتُ أَيَّامَئِذٍ وَزِيرَ ٱلسُّلْطَانِ فَارِسَ بْنَ وَرْدَارَ ٱلبَعِيدَ ٱلصِّيتِ فَفَاوَضْتُهُ فِي هٰذَا ٱلشَّأْنِ وَأَرَيْتُهُ إِنْكَارَ أَخْبَارِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ لِمَا ٱسْتَفَاضَ فِي ٱلنَّاسِ مِنْ تَكْذِيبِهِ فَقَالَ لِي ٱلوَزِيرُ فَارِسٌ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَنْكِرَ مِثْلَ هٰذَا مِنْ أَحْوَالِ ٱلدُّوَلِ بِمَا أَنَّكَ لَمْ تَرَهُ فَتَكُونَ كَابْنِ ٱلوَزِيرِ ٱلنَّاشِئِ فِي ٱلسِّجْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ وَزِيرًا ٱعْتَقَلَهُ سُلْطَانُهُ وَمَكَثَ فِي ٱلسِّجْنِ سِنِينَ رَبِيَ فِيهَا ٱبْنُهُ فِي ذٰلِكَ ٱلمَحْبِسِ فَلَمَّا أَدْرَكَ وَعَقَلَ سَأَلَ عَنِ ٱللُّحْمَانِ ٱلَّتِي كَانَ يَتَغَذَّى بِهَا فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ هٰذَا لَحْمُ ٱلغَنَمِ فَقَالَ وَمَا ٱلغَنَمُ فَيَصِفُهَا لَهُ أَبُوهُ بِشِيَاتِهَا وَنُعُوتِهَا فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تَرَاهَا مِثْلَ ٱلفَارِ فَيُنْكِرُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ أَيْنَ ٱلغَنَمُ مِنَ ٱلفَأْرِ وَكَذَا فِي لَحْمِ ٱلإِبِلِ وَٱلبَقَرِ إِذْ لَمْ يُعَايِنْ فِي مَحْبِسِهِ مِنَ ٱلحَيَوَانَاتِ إِلَّا ٱلفَارَ فَيَحْسَبُهَا كُلَّهَا أَبْنَاءَ جِنْسِ ٱلفَأْرِ وَلِهٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْتَرِي ٱلنَّاسَ فِي ٱلأَخْبَارِ كَمَا يَعْتَرِيهِمُ ٱلوَسْوَاسُ فِي ٱلزِّيَادَةِ عِنْدَ قَصْدِ ٱلإِغْرَابِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَوَّلَ ٱلكِتَابِ فَلْيَرْجِعِ ٱلإِنْسَانُ إِلى أُصُولِهِ وَلْيَكُنْ مُهَيْمِنًا عَلى نَفْسِهِ وَمُمَيِّزًا بَيْنَ طَبِيعَةِ ٱلمُمْكِنِ وَٱلمُمْتَنِعِ بِصَرِيحِ عَقْلِهِ وَمُسْتَقِيمِ فِطْرَتِهِ فَمَا دَخَلَ فِي نِطَاقِ ٱلإِمْكَانِ قَبِلَهُ وَمَا خَرَجَ عَنْهُ رَفَضَهُ وَلَيْسَ مُرَادُنَا ٱلإِمْكَانَ ٱلعَقْلِيَّ ٱلمُطْلَقَ فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسَعُ شَيْءٍ فَلا يُفْرَضُ حَدًّا بَيْنَ ٱلوَاقِعَاتِ وَإِنَّمَا مُرَادُنَا ٱلإِمْكَانُ بِحَسَبِ ٱلمَادَّةِ ٱلَّتِي لِلشَّيْءِ فَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا أَصْلَ ٱلشَّيْءِ وَجِنْسَهُ وَصِنْفَهُ وَمِقْدَارَ عِظَمِهِ وَقُوَّتِهِ أَجْرَيْنَا ٱلحُكْمَ مِنْ نِسْبَةِ ذٰلِكَ عَلى أَحْوَالِهِ وَحَكَمْنَا بِٱلِٱمْتِنَاعِ عَلى مَا خَرَجَ مِنْ نِطَاقِهِ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَأَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبيته بالموالي والمصطنعين

إِعلَمْ أَنَّ صَاحِبَ ٱلدَّوْلَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ أَمْرُهُ كَمَا قُلْنَاهُ بِقَوْمِهِ فَهُمْ عِصَابَتُهُ وَظُهَرَاؤُهُ عَلَى شَأْنِهِ وَبِهِمْ يُقَارِعُ ٱلْخَوَارِجَ عَلَى دَوْلَتِهِ وَمِنْهُمْ يُقَلِّدُ أَعْمَالَ مَمْلَكَتِهِ وَوِزَارَةَ دَوْلَتِهِ وَجِبَايَةَ أَمْوَالِهِ لِأَنَّهُمْ أَعْوَانُهُ عَلَى ٱلْغَلَبِ وَشُرَكَاؤُهُ فِي ٱلْأَمْرِ وَمُسَاهِمُوهُ فِي سَائِرِ مُهِمَّاتِهِ هٰذَا مَا دَامَ ٱلطَّوْرُ ٱلْأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فَإِذَا جَاءَ ٱلطَّوْرُ ٱلثَّانِي وَظَهَرَ ٱلِاسْتِبْدَادُ عَنْهُمْ وَٱلِانْفِرَادُ بِٱلْمَجْدِ وَدَافَعَهُمْ عَنْهُ بِٱلْمَرَاحِ صَارُوا فِي حَقِيقَةِ ٱلْأَمْرِ مِنْ بَعْضِ أَعْدَائِهِ وَٱحْتَاجَ فِي مُدَافَعَتِهِمْ عَنِ ٱلْأَمْرِ وَصَدِّهِمْ عَنِ ٱلْمُشَارَكَةِ إِلَى أَوْلِيَاءَ آخَرِينَ مِنْ غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ يَسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ دُونَهُمْ فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِمْ وَأَخَصَّ بِهِ قُرْبًا وَٱصْطِنَاعًا وَأَوْلَى إِيثَارًا وَجَاهًا لِمَا أَنَّهُمْ يَسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فِي مُدَافَعَةِ قَوْمِهِ عَنِ ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي كَانَ لَهُمْ وَٱلرُّتْبَةِ ٱلَّتِي أَلِفُوهَا فِي مُشَارَكَتِهِمْ فَيَسْتَخْلِصُهُمْ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ وَيَخُصُّهُمْ بِمَزِيدِ ٱلتَّكْرِمَةِ وَٱلْإِيثَارِ وَيُقَسِّمُ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ وَيُقَلِّدُهُمْ جَلِيلَ ٱلْأَعْمَالِ وَٱلْوِلَايَاتِ مِنَ ٱلْوِزَارَةِ وَٱلْقِيَادَةِ وَٱلْجِبَايَةِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ لِنَفْسِهِ وَتَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنْ أَلْقَابِ ٱلْمَمْلَكَةِ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ أَوْلِيَاؤُهُ ٱلْأَقْرَبُونَ وَنُصَحَاؤُهُ ٱلْمُخْلِصُونَ وَذٰلِكَ حِينَئِذٍ مُؤْذِنٌ بِٱهْتِضَامِ ٱلدَّوْلَةِ وَعَلَامَةٌ عَلَى ٱلْمَرَضِ ٱلْمُزْمِنِ فِيهَا لِفَسَادِ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَ بِنَاءُ ٱلْغَلَبِ عَلَيْهَا وَمَرَضُ قُلُوبِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنَ ٱلِامْتِهَانِ وَعَدَاوَةِ ٱلسُّلْطَانِ فَيَضْطَغِنُونَ عَلَيْهِ وَيَتَرَبَّصُونَ بِهِ ٱلدَّوَائِرَ وَيَعُودُ وَبَالُ ذٰلِكَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَلَا يُطْمَعُ فِي بُرْئِهَا مِنْ هٰذَا ٱلدَّاءِ لِأَنَّهُ مَا مَضَى يَتَأَكَّدُ فِي ٱلْأَعْقَابِ إِلَى أَنْ يُذْهِبَ رَسْمَهَا وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ كَيْفَ كَانُوا إِنَّمَا يَسْتَظْهِرُونَ فِي حُرُوبِهِمْ وَوِلَايَةِ أَعْمَالِهِمْ بِرِجَالِ ٱلْعَرَبِ مِثْلِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَٱلْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ وَٱلْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ وَخَالِدِ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْقَسْرِيِّ وَٱبْنِ هُبَيْرَةَ وَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَبِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى ٱلْأَشْعَرِيِّ وَنَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ رِجَالَاتِ ٱلْعَرَبِ وَكَذَا صَدْرٌ مِنْ دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ كَانَ ٱلِاسْتِظْهَارُ فِيهَا أَيْضًا بِرِجَالَاتِ ٱلْعَرَبِ فَلَمَّا صَارَتِ ٱلدَّوْلَةُ لِلِانْفِرَادِ بِٱلْمَجْدِ وَكُبِحَ ٱلْعَرَبُ عَنِ ٱلتَّطَاوُلِ لِلْوِلَايَاتِ صَارَتِ ٱلْوِزَارَةُ لِلْعَجَمِ وَٱلصَّنَائِعِ مِنَ ٱلْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتَ وَبَنِي

طَاهِرٍ ثُمَّ بَنِي بُوَيْهِ وَمَوَالِي ٱلتُّرْكِ مِثْلَ بَغَا وَوَصِيفٍ وَأُتَامِشَ وَبَاكِنَاكَ وَٱبْنِ طُولُونَ وَأَبْنَائِهِمْ وَغَيْرِ هٰؤُلَاءِ مِنْ مَوَالِي ٱلْعَجَمِ فَتَكُونُ ٱلدَّوْلَةُ لِغَيْرِ مَنْ مَهَّدَهَا وَٱلْعِزُّ لِغَيْرِ مَنِ ٱجْتَلَبَهُ سُنَّةَ ٱللهِ فِي عِبَادِهِ وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل العشرون

في احوال الموالي والمصطنعين في الدول

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْمُصْطَنِعِينَ فِي ٱلدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي ٱلِٱلْتِحَامِ بِصَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ بِتَفَاوُتِ قَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ فِي ٱلِٱلْتِحَامِ بِصَاحِبِهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ فِي ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنَ ٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْمُغَالَبَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِٱلنَّسَبِ لِأَجْلِ ٱلتَّنَاصُرِ فِي ذَوِي ٱلْأَرْحَامِ وَٱلْقُرْبَى وَٱلتَّخَاذُلِ فِي ٱلْأَجَانِبِ وَٱلْبُعَدَاءِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَٱلْوِلَايَةُ وَٱلْمُخَالَطَةُ بِٱلرِّقِّ أَوْ بِٱلْحِلْفِ تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ذٰلِكَ لِأَنَّ أَمْرَ ٱلنَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ وَٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي كَانَ بِهِ ٱلِٱلْتِحَامُ إِنَّمَا هُوَ ٱلْعِشْرَةُ وَٱلْمُدَافَعَةُ وَطُولُ ٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلصُّحْبَةِ بِٱلْمُرَبَّى وَٱلرَّضَاعِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْحَيَاةِ وَإِذَا حَصَلَ ٱلِٱلْتِحَامُ بِذٰلِكَ جَاءَتِ ٱلنُّعْرَةُ وَٱلتَّنَاصُرُ وَهٰذَا مُشَاهَدٌ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي ٱلِٱصْطِنَاعِ فَإِنَّهُ يَحْدُثُ بَيْنَ ٱلْمُصْطَنِعِ وَمَنِ ٱصْطَنَعَهُ نِسْبَةٌ خَاصَّةٌ مِنَ ٱلْوُصْلَةِ تَتَنَزَّلُ هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةَ وَتُؤَكِّدُ ٱللُّحْمَةَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَثَمَرَاتُ ٱلنَّسَبِ مَوْجُودَةٌ فَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْوِلَايَةُ بَيْنَ ٱلْقَبِيلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ ٱلْمُلْكِ لَهُمْ كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ وَنَسَبُهَا أَصْرَحَ لِوَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ ٱلْمُلْكِ أُسْوَةٌ فِي حَالِهِمْ فَلَا يَتَمَيَّزُ ٱلنَّسَبُ عَنِ ٱلْوِلَايَةِ إِلَّا عِنْدَ ٱلْأَقَلِّ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلِ أَرْحَامِهِمْ وَإِذَا ٱصْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ ٱلْمُلْكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ ٱلْمُلْكِ مُمَيِّزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ ٱلْمَوْلَى وَلِأَهْلِ ٱلْقَرَابَةِ عَنْ أَهْلِ ٱلْوِلَايَةِ وَٱلِٱصْطِنَاعِ لِمَا تَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلْمُلْكِ مِنْ تَمَيُّزِ ٱلرُّتَبِ وَتَفَاوُتِهَا فَتَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةَ ٱلْأَجَانِبِ وَيَكُونُ ٱلِٱلْتِحَامُ بَيْنَهُمْ أَضْعَفَ وَٱلتَّنَاصُرُ لِذٰلِكَ أَبْعَدَ وَذٰلِكَ أَنْقَصُ مِنَ ٱلِٱصْطِنَاعِ قَبْلَ ٱلْمُلْكِ . ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي أَنَّ ٱلِٱصْطِنَاعَ قَبْلَ ٱلْمُلْكِ يَبْعُدُ عَهْدُهُ عَنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ بِطُولِ ٱلزَّمَانِ وَيَخْفَى شَأْنُ تِلْكَ ٱللُّحْمَةِ وَيُظَنُّ بِهَا فِي ٱلْأَكْثَرِ ٱلنَّسَبُ فَيَقْوَى حَالُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَمَّا بَعْدَ ٱلْمُلْكِ فَيَقْرُبُ ٱلْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِهِ ٱلْأَكْثَرُ فَتَتَبَيَّنُ ٱللُّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلنَّسَبِ فَتَضْعُفُ ٱلْعَصَبِيَّةُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْوِلَايَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ قَبْلَ

الدَّوْلَةِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلدُّوَلِ وَٱلرِّئَاسَاتِ تَجِدْهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ ٱصْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلْمُلْكِ لِمُصْطَنِعِهِ تَجِدُهُ أَشَدَّ ٱلْتِحَامًا بِهِ وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْهِ وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةَ أَبْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ وَمَنْ كَانَ ٱصْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ ٱلْمُلْكِ وَٱلرِّئَاسَةِ لِمُصْطَنِعِهِ لَا يَكُونُ لَهُ مِنَ ٱلْقَرَابَةِ وَٱللُّحْمَةِ مَا لِلْأَوَّلِينَ وَهٰذَا مُشَاهَدٌ بِالْعِيَانِ حَتَّى إِنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي ٱخِرِ عُمُرِهَا تَرْجِعُ إِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَجَانِبِ وَٱصْطِنَاعِهِمْ وَلَا يُبْنَى لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ ٱلْمُصْطَنَعُونَ قَبْلَ ٱلدَّوْلَةِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوَّلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ ٱلدَّوْلَةِ عَلَى ٱلِٱنْقِرَاضِ فَيَكُونُونَ مُنْحَطِّينَ فِي مَهَاوِي ٱلضَّعَةِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبَ ٱلدَّوْلَةِ عَلَى ٱصْطِنَاعِهِمْ وَٱلْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَائِهَا ٱلْأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا ٱلْأَوَّلِينَ مَا يَعْتَرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ وَقِلَّةِ ٱلْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لِتَأَكُّدِ ٱللُّحْمَةِ مُنْذُ ٱلْعُصُورِ ٱلْمُتَطَاوِلَةِ بِالْمَرْبَى وَٱلِٱتِّصَالِ بِآبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَٱلِٱنْتِظَامِ مَعَ كُبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُمْ بِذٰلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَٱعْتِزَازٌ فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى ٱسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عَهْدُ ٱسْتِخْلَاصِهِمْ وَٱصْطِنَاعِهِمْ قَرِيبًا فَلَا يَبْلُغُونَ رُتَبَ ٱلْمَجْدِ وَيَبْقَوْنَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ ٱلْخَارِجِيَّةِ وَهٰكَذَا شَأْنُ ٱلدُّوَلِ فِي أَوَاخِرِهَا وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ ٱسْمُ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ عَلَى ٱلْأَوَّلِينَ وَأَمَّا هٰؤُلَاءِ ٱلْمُحْدَثُونَ فَخَدَمٌ وَأَعْوَانٌ وَٱللهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إِذَا ٱسْتَقَرَّ ٱلْمُلْكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمَنْبِتٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْقَبِيلِ ٱلْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ وَٱنْفَرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ ٱلْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ بِحَسَبِ ٱلتَّرْشِيحِ فَرُبَّمَا حَدَثَ ٱلتَّغَلُّبُ عَلَى ٱلْمَنْصِبِ مِنْ وُزَرَائِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ وَسَبَبُهُ فِي ٱلْأَكْثَرِ وِلَايَةُ صَبِيٍّ صَغِيرٍ أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَنْبِتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوِلَايَةِ بِعَهْدِ أَبِيهِ أَوْ بِتَرْشِيحِ ذَوِيهِ وَخَوَلِهِ وَيُؤْنَسُ مِنْهُ ٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِالْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وُزَرَاءِ أَبِيهِ وَحَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ وَيُوَرِّي بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْنَسَ مِنْهُ ٱلِٱسْتِبْدَادُ وَيَجْعَلَ ذٰلِكَ ذَرِيعَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْجُبُ ٱلصَّبِيَّ عَنِ ٱلنَّاسِ وَيُعَوِّدُهُ ٱللَّذَّاتِ الَّتِي يَدْعُوهُ إِلَيْهَا تَرَفُ أَحْوَالِهِ وَيُسِيمُهُ فِي مَرَاعِيهَا مَتَى أَمْكَنَهُ وَيُنْسِيهِ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَا عَوَّدَهُ يَعْتَقِدُ

أَنَّ حَظَّ ٱلسُّلْطَانِ مِنَ ٱلْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ ٱلسَّرِيرِ وَإِعْطَاءُ ٱلصَّفْقَةِ وَخِطَابُ ٱلتَّهْوِيلِ وَٱلْقُعُودُ مَعَ ٱلنِّسَاءِ خَلْفَ ٱلْحِجَابِ وَأَنَّ ٱلْحَلَّ وَٱلرَّبْطَ وَٱلْأَمْرَ وَٱلنَّهْيَ وَمُبَاشَرَةَ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ وَتَفَقُّدَهَا مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْجَيْشِ وَٱلْمَالِ وَٱلثُّغُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ وَيُسَلِّمُ لَهُ فِي ذَٰلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ صِبْغَةُ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلِاسْتِبْدَادِ وَيَتَحَوَّلَ ٱلْمُلْكُ إِلَيْهِ وَيُؤْثِرُ بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي بُوَيْهِ وَٱلتُّرْكِ وَكَافُورِ ٱلْأَخْشِيدِيِّ وَغَيْرِهِمْ بِٱلْمَشْرِقِ وَلِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَقَدْ يَتَفَطَّنُ ذَٰلِكَ ٱلْمَحْجُورُ ٱلْمُغَلَّبُ لِشَأْنِهِ فَيُحَاوِلُ عَلَى ٱلْخُرُوجِ مِنْ رِبْقَةِ ٱلْحَجْرِ وَٱلِاسْتِبْدَادِ وَيُرْجِعُ ٱلْمُلْكَ إِلَى نِصَابِهِ وَيَضْرِبُ عَلَى أَيْدِي ٱلْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِ إِمَّا بِقَتْلٍ أَوْ بِرَفْعٍ عَنِ ٱلرُّتْبَةِ فَقَطْ إِلَّا أَنَّ ذَٰلِكَ فِي ٱلنَّادِرِ ٱلْأَقَلِّ لِأَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فِي تَغَلُّبِ ٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ ٱسْتَمَرَّ لَهَا ذَٰلِكَ وَقَلَّ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهُ لِأَنَّ ذَٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ ٱلتَّرَفِ وَنَشْأَةِ أَبْنَاءِ ٱلْمُلْكِ مُنْغَمِسِينَ فِي نَعِيمِهِ قَدْ نَسُوا عَهْدَ ٱلرُّجُولَةِ وَأَلِفُوا أَخْلَاقَ ٱلدَّايَاتِ وَٱلْأَظْآرِ وَرَبَوْا عَلَيْهَا فَلَا يَنْزِعُونَ إِلَى رِئَاسَةٍ وَلَا يَعْرِفُونَ ٱسْتِبْدَادًا مِنْ تَغَلُّبٍ إِنَّمَا هَمُّهُمْ فِي ٱلْقُنُوعِ بِٱلْأُبَّهَةِ وَٱلتَّنَفُّسِ فِي ٱللَّذَّاتِ وَأَنْوَاعِ ٱلتَّرَفِ وَهَٰذَا ٱلتَّغَلُّبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي وَٱلْمُصْطَنَعِينَ عِنْدَ ٱسْتِبْدَادِ عَشِيرِ ٱلْمَلِكِ عَلَى قَوْمِهِمْ وَٱنْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونَهُمْ وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرُورِيٌّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَٰذَانِ مَرَضَانِ لَا بُرْءَ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

الفصل الثاني والعشرون

في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك

وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ وَٱلسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِيهِ مُذْ أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ بِعَصَبِيَّةِ قَوْمِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَتْبَعَتْهُمْ حَتَّى ٱسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبْغَةُ ٱلْمُلْكِ وَٱلْغَلَبِ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً وَبِهَا ٱنْحَفَظَ رَسْمُ ٱلدَّوْلَةِ وَبَقَاؤُهَا وَهَٰذَا ٱلْمُتَغَلِّبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصَبِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ ٱلْمَلِكِ أَوِ ٱلْمَوَالِي وَٱلصَّنَائِعِ فَعَصَبِيَّتُهُ مُنْدَرِجَةٌ فِي عَصَبِيَّةِ أَهْلِ ٱلْمَلِكِ وَتَابِعَةٌ لَهَا وَلَيْسَ لَهُ صِبْغَةٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَهُوَ لَا يُحَاوِلُ فِي ٱسْتِبْدَادِهِ ٱنْتِزَاعَ ثَمَرَاتِهِ مِنَ ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ وَٱلْإِبْرَامِ وَٱلنَّقْضِ يُوهِمُ فِيهَا أَهْلَ ٱلدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ سُلْطَانِهِ مُنَفِّذٌ فِي ذَٰلِكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ فَهُوَ يَتَجَافَى عَنْ سِمَاتِ ٱلْمَلِكِ وَشَارَاتِهِ

وَأَلْقَا بِهِ جُهْدَهُ وَيُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنِ التُّهْمَةِ بِذَلِكَ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ الِاسْتِبْدَادُ لِأَنَّهُ مُسْتَتِرٌ فِي اسْتِبْدَادِهِ وَذَلِكَ بِالْحِجَابِ الَّذِي ضَرَبَهُ السُّلْطَانُ وَأَوَّلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ الْقَبِيلِ مُنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ وَمُغَالِطٌ عَنْهُ بِالنِّيَابَةِ وَلَوْ تَعَرَّضَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَنَفِسَهُ (١) عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ وَقَبِيلُ الْمَلِكِ وَحَاوَلُوا الِاسْتِئْثَارَ بِهِ دُونَهُ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكِمْ لَهُ فِي ذَلِكَ صِبْغَةٌ تَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّسْلِيمِ لَهُ وَالِانْقِيَادِ فَيَهْلِكُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ النَّاصِرِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ حِينَ سَمَا إِلَى مُشَارَكَةِ هِشَامٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فِي لَقَبِ الْخِلَافَةِ وَلَمْ يَقْنَعْ بِمَا قَنِعَ بِهِ أَبُوهُ وَأَخُوهُ مِنَ الِاسْتِبْدَادِ بِالْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالْمَرَاسِمِ الْمُتَتَابِعَةِ فَطَلَبَ مِنْ هِشَامٍ خَلِيفَتِهِ أَنْ يَعْهَدَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فَنَفِسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بَنُو مَرْوَانَ وَسَائِرُ قُرَيْشٍ وَبَايَعُوا لِابْنِ عَمِّ الْخَلِيفَةِ هِشَامٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ النَّاصِرِ وَخَرَجُوا عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِي ذَلِكَ خَرَابُ دَوْلَةِ الْعَامِرِيِّينَ وَهَلَاكُ الْمُؤَيَّدِ خَلِيفَتِهِمْ وَاسْتُبْدِلَ مِنْهُ سِوَاهُ مِنْ أَعْيَاصِ الدَّوْلَةِ إِلَى آخِرِهَا وَاخْتَلَّتْ مَرَاسِمُ مُلْكِهِمْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك واصنافه

أَلْمُلْكُ مَنْصِبٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمْكِنُ حَيَاتُهُمْ وَوُجُودُهُمْ إِلَّا بِاجْتِمَاعِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيلِ قُوتِهِمْ وَضَرُورِيَّاتِهِمْ وَإِذَا اجْتَمَعُوا دَعَتِ الضَّرُورَةُ إِلَى الْمُعَامَلَةِ وَاقْتِضَاءِ الْحَاجَاتِ وَمَدِّ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِهِ يَأْخُذُهَا مِنْ صَاحِبِهِ لِمَا فِي الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيُمَانِعُهُ الْآخَرُ عَنْهَا بِمُقْتَضَى الْغَضَبِ وَالْأَنَفَةِ وَمُقْتَضَى الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ فَيَقَعُ التَّنَازُعُ الْمُفْضِي إِلَى الْمُقَاتَلَةِ وَهِيَ تُؤَدِّي إِلَى الْهَرْجِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ وَإِذْهَابِ النُّفُوسِ الْمُفْضِي ذَلِكَ إِلَى انْقِطَاعِ النَّوْعِ وَهُوَ مِمَّا خَصَّهُ الْبَارِي سُبْحَانَهُ بِالْمُحَافَظَةِ فَاسْتَحَالَ بَقَاؤُهُمْ فَوْضَى دُونَ حَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَاحْتَاجُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْوَازِعِ وَهُوَ الْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَلِكُ الْقَاهِرُ الْمُتَحَكِّمُ وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمُطَالَبَاتِ كُلَّهَا وَالْمُدَافَعَاتِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّةِ وَهَذَا الْمُلْكُ كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيفٌ تَتَوَجَّهُ نَحْوَهُ الْمُطَالَبَاتُ وَيَحْتَاجُ إِلَى الْمُدَافَعَاتِ وَلَا يَتِمُّ شَيْءٌ

---

(١) قوله لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال نفس عليه الشيء كفرح لم يره اهلا له كما في القاموس

مِنْ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْعَصَبِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصَبِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ . وَكُلُّ عَصَبِيَّةٍ فَلَهَا تَحَكُّمٌ وَتَغَلُّبٌ عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرِهَا وَلَيْسَ الْمُلْكُ لِكُلِّ عَصَبِيَّةٍ وَإِنَّمَا الْمُلْكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعْبِدُ الرَّعِيَّةَ وَيَجْبِي الْأَمْوَالَ وَيَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَحْمِي الثُّغُورَ وَلَا تَكُونُ فَوْقَ يَدِهِ يَدٌ قَاهِرَةٌ وَهَٰذَا مَعْنَى الْمُلْكِ وَحَقِيقَتُهُ فِي الْمَشْهُورِ فَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلِ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ جِبَايَةِ الْأَمْوَالِ أَوْ بَعْثِ الْبُعُوثِ فَهُوَ مُلْكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَرْبَرِ فِي دَوْلَةِ الْأَغَالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَلِمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدْرَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَمَنْ قَصُرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ أَيْضاً عَنِ الْاسْتِعْلَاءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ الْأَيْدِي وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمُ غَيْرِهِ فَهُوَ أَيْضاً مُلْكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ أُمَرَاءِ النَّوَاحِي وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِينَ تَجْمَعُهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَكَثِيراً مَا يُوجَدُ هَٰذَا فِي الدَّوْلَةِ الْمُتَّسِعَةِ النِّطَاقِ أَعْنِي تُوجَدُ مُلُوكٌ عَلَى قَوْمِهِمْ فِي النَّوَاحِي الْقَاصِيَةِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ مِثْلَ صِنْهَاجَةَ مَعَ الْعُبَيْدِيِّينَ وَزَنَاتَةَ مَعَ الْأُمَوِيِّينَ تَارَةً وَالْعُبَيْدِيِّينَ تَارَةً أُخْرَى وَمِثْلَ مُلُوكِ الْعَجَمِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمِثْلَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ مِنَ الْفُرْسِ مَعَ الْإِسْكَنْدَرِ وَقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّينَ وَكَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ فَاعْتَبِرْهُ تَجِدْهُ وَاللَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

الفصل الرابع والعشرون

في ان ارهاف الحد مضرّ بالملك ومفسد له في الاكثر

إِعْلَمْ أَنَّ مَصْلَحَةَ الرَّعِيَّةِ فِي السُّلْطَانِ لَيْسَتْ فِي ذَاتِهِ وَجِسْمِهِ مِنْ حُسْنِ شَكْلِهِ أَوْ مَلَاحَةِ وَجْهِهِ أَوْ عِظَمِ جُثْمَانِهِ أَوِ اتِّسَاعِ عِلْمِهِ أَوْ جَوْدَةِ خَطِّهِ أَوْ ثُقُوبِ ذِهْنِهِ وَإِنَّمَا مَصْلَحَتُهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَهِيَ نِسْبَةٌ بَيْنَ مُنْتَسِبَيْنِ فَحَقِيقَةُ السُّلْطَانِ أَنَّهُ الْمَالِكُ لِلرَّعِيَّةِ الْقَائِمُ فِي أُمُورِهِمْ عَلَيْهِمْ فَالسُّلْطَانُ مَنْ لَهُ رَعِيَّةٌ وَالرَّعِيَّةُ مَنْ لَهَا سُلْطَانٌ وَالصِّفَةُ الَّتِي لَهُ مِنْ حَيْثُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِمْ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَلَكَةُ وَهِيَ كَوْنُهُ يَمْلِكُهُمْ فَإِذَا كَانَتْ هَٰذِهِ الْمَلَكَةُ وَتَوَابِعُهَا مِنَ الْجَوْدَةِ بِمَكَانٍ حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً صَالِحَةً كَانَ ذَٰلِكَ مَصْلَحَةً لَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ سَيِّئَةً مُتَعَسِّفَةً كَانَ ذَٰلِكَ ضَرَراً عَلَيْهِمْ وَإِهْلَاكاً لَهُمْ وَيَعُودُ حُسْنُ الْمَلَكَةِ إِلَى الرِّفْقِ فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِراً بَاطِشاً بِالْعُقُوبَاتِ مُنَقِّباً عَنْ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ شَمِلَهُمُ الْخَوْفُ وَالذُّلُّ وَلَاذُوا مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ

وَٱلْخَدِيعَةِ فَتَخَلَّقُوا بِهَا وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ وَرُبَّمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ ٱلْحُرُوبِ وَٱلْمُدَافَعَاتِ فَفَسَدَتِ ٱلْحِمَايَةُ بِفَسَادِ ٱلنِّيَّاتِ وَرُبَّمَا أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ لِذَٰلِكَ فَتَفْسُدُ ٱلدَّوْلَةُ وَيَخْرَبُ ٱلسِّيَاجُ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ وَقَهْرُهُ فَسَدَتِ ٱلْعَصَبِيَّةُ لِمَا قُلْنَاهُ أَوَّلاً وَفَسَدَ ٱلسِّيَاجُ مِنْ أَصْلِهِ بِٱلْعَجْزِ عَنِ ٱلْحِمَايَةِ وَإِذَا كَانَ رَفِيقاً بِهِمْ مُتَجَاوِزاً عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ٱسْتَنَامُوا إِلَيْهِ وَلَاذُوا بِهِ وَأُشْرِبُوا مَحَبَّتَهُ وَٱسْتَمَاتُوا دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ فَٱسْتَقَامَ ٱلْأَمْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ ٱلْمَلَكَةِ فَهِيَ ٱلنِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَٱلْمُدَافَعَةُ عَنْهُمْ فَٱلْمُدَافَعَةُ بِهَا تَتِمُّ حَقِيقَةُ ٱلْمُلْكِ وَأَمَّا ٱلنِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَٱلْإِحْسَانُ لَهُمْ فَمِنْ جُمْلَةِ ٱلرِّفْقِ بِهِمْ وَٱلنَّظَرِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَهِيَ أَصْلٌ كَبِيرٌ مِنَ ٱلتَّحَبُّبِ إِلَى ٱلرَّعِيَّةِ وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَلَّمَا تَكُونُ مَلَكَةُ ٱلرِّفْقِ فِي مَنْ يَكُونُ يَقِظاً شَدِيدَ ٱلذَّكَاءِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّفْقُ فِي ٱلْغُفْلِ وَٱلْمُتَغَفِّلِ وَأَقَلُّ مَا يَكُونُ فِي ٱلْيَقِظِ لِأَنَّهُ يُكَلِّفُ ٱلرَّعِيَّةَ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ لِنُفُوذِ نَظَرِهِ فِيمَا وَرَاءَ مَدَارِكِهِمْ وَٱطِّلَاعِهِ عَلَى عَوَاقِبِ ٱلْأُمُورِ فِي مَبَادِئِهَا بِٱلْمَعِيَّةِ فَيَهْلِكُونَ لِذَٰلِكَ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِيرُوا عَلَى سَيْرِ أَضْعَفِكُمْ وَمِنْ هَٰذَا ٱلْبَابِ ٱشْتَرَطَ ٱلشَّارِعُ فِي ٱلْحَاكِمِ قِلَّةَ ٱلْإِفْرَاطِ فِي ٱلذَّكَاءِ وَمَأْخَذُهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا عَزَلَهُ عُمَرُ عَنِ ٱلْعِرَاقِ وَقَالَ لَهُ لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَلِعَجْزٍ أَمْ لِخِيَانَةٍ فَقَالَ عُمَرُ لَمْ أَعْزِلْكَ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَلَٰكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَحْمِلَ فَضْلَ عَقْلِكَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأُخِذَ مِنْ هَٰذَا أَنَّ ٱلْحَاكِمَ لَا يَكُونُ مُفْرِطَ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْكَيْسِ مِثْلَ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرِو ٱبْنِ ٱلْعَاصِ لِمَا يَتْبَعُ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلتَّعَسُّفِ وَسُوءِ ٱلْمَلَكَةِ وَحَمْلِ ٱلْوُجُودِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَبْعِهِ كَمَا يَأْتِي فِي آخِرِ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَالِكِينَ وَتَقَرَّرَ مِنْ هَٰذَا أَنَّ ٱلْكَيْسَ وَٱلذَّكَاءَ عَيْبٌ فِي صَاحِبِ ٱلسِّيَاسَةِ لِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ فِي ٱلْفِكْرِ كَمَا أَنَّ ٱلْبَلَادَةَ إِفْرَاطٌ فِي ٱلْجُمُودِ وَٱلطَّرَفَانِ مَذْمُومَانِ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ وَٱلْمَحْمُودُ هُوَ ٱلتَّوَسُّطُ كَمَا فِي ٱلْكَرَمِ مَعَ ٱلتَّبْذِيرِ وَٱلْبُخْلِ وَكَمَا فِي ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلْهَوَجِ وَٱلْجُبْنِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلصِّفَاتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَلِهَٰذَا يُوصَفُ ٱلشَّدِيدُ ٱلْكَيْسِ بِصِفَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَيُقَالُ شَيْطَانٌ وَمُتَشَيْطِنٌ وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ وَٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ

الفصل الخامس والعشرون

في معنى الخلافة والامامة

لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ ٱلْمُلْكِ أَنَّهُ ٱلِاجْتِمَاعُ ٱلضَّرُورِيُّ لِلْبَشَرِ وَمُقْتَضَاهُ ٱلتَّغَلُّبُ وَٱلْقَهْرِ ٱللَّذَانِ هُمَا مِنْ آثَارِ ٱلْغَضَبِ وَٱلْحَيَوَانِيَّةِ كَانَتْ أَحْكَامُ صَاحِبِهِ فِي ٱلْغَالِبِ جَائِرَةً عَنِ ٱلْحَقِّ مُجْحِفَةً بِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ مِنَ ٱلْخَلْقِ فِي أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ لِحَمْلِهِ إِيَّاهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ عَلى ما لَيْسَ فِي طَوْقِهِمْ مِنْ أَغْرَاضِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِٱخْتِلافِ ٱلْمَقَاصِدِ مِنَ ٱلْخَلَفِ وَٱلسَّلَفِ مِنْهُمْ فَتَعْسُرُ طَاعَتُهُ لِذَلِكَ وَتَجِيءُ ٱلْعَصَبِيَّةُ ٱلْمُفْضِيَةُ إِلى ٱلْهَرْجِ وَٱلْقَتْلِ فَوَجَبَ أَنْ يُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلى قَوَانِينَ سِيَاسِيَّةٍ مَفْرُوضَةٍ يُسَلِّمُهَا ٱلْكَافَّةَ يَنْقَادُونَ إِلى أَحْكَامِهَا كَمَا كَانَ ذَلِكَ لِلْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ وَإِذَا خَلَتِ ٱلدَّوْلَةُ مِنْ مِثْلِ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ لَمْ يَسْتَتِبَّ أَمْرُهَا وَلَمْ يَتِمَّ ٱسْتِيلاؤُهَا سُنَّةُ ٱللهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ . فَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينُ مَفْرُوضَةً مِنَ ٱلْعُقَلاءِ وَأَكَابِرِ ٱلدَّوْلَةِ وَبُصَرَائِهَا كَانَتْ سِيَاسَةً عَقْلِيَّةً وَإِذَا كَانَتْ مَفْرُوضَةً مِنَ ٱللهِ بِشَارِعٍ يُقَرِّرُهَا وَيَشْرَعُهَا كَانَتْ سِيَاسَةً دِينِيَّةً نَافِعَةً فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْخَلْقَ لَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ بِهِمْ دُنْيَاهُمْ فَقَطْ فَإِنَّهَا كُلَّهَا عَبَثٌ وَبَاطِلٌ إِذْ غَايَتُهَا ٱلْمَوْتُ وَٱلْفَنَاءُ وَٱللهُ يَقُولُ أَفَحَسِبْتُمْ إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً فَٱلْمَقْصُودُ بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ دِينُهُمُ ٱلْمُفْضِي بِهِمْ إِلى ٱلسَّعَادَةِ فِي آخِرَتِهِمْ صِرَاطُ ٱللهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ فَجَاءَتِ ٱلشَّرَائِعُ بِحَمْلِهِمْ عَلَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ مِنْ عِبَادَةٍ وَمُعَامَلَةٍ حَتَّى فِي ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي هُوَ طَبِيعِيٌّ لِلِاجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ فَأَجْرَتْهُ عَلى مِنْهَاجِ ٱلدِّينِ لِيَكُونَ ٱلْكُلُّ مَحُوطاً بِنَظَرِ ٱلشَّارِعِ فَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى ٱلْقَهْرِ وَٱلتَّغَلُّبِ وَإِهْمَالِ ٱلْقُوَّةِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي مَرْعَاهَا فَجَوْرٌ وَعُدْوَانٌ وَمَذْمُومٌ عِنْدَهُ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى ٱلْحِكْمَةِ ٱلسِّيَاسِيَّةِ وَمَا كَانَ مِنْهُ بِمُقْتَضَى ٱلسِّيَاسَةِ وَأَحْكَامِهَا فَمَذْمُومٌ أَيْضاً لِأَنَّهُ نَظَرٌ بِغَيْرِ نُورِ ٱللهِ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ لِأَنَّ ٱلشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ ٱلْكَافَّةِ فِيمَا هُوَ مُغَيَّبٌ عَنْهُمْ مِنْ أُمُورِ آخِرَتِهِمْ وَأَعْمَالُ ٱلْبَشَرِ كُلُّهَا عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي مَعَادِهِمْ مِنْ مُلْكٍ أَوْ غَيْرِهِ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ وَأَحْكَامُ ٱلسِّيَاسَةِ إِنَّمَا تَطَّلِعُ عَلَى مَصَالِحِ ٱلدُّنْيَا فَقَطْ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنْ حَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَمَقْصُودُ ٱلشَّارِعِ بِٱلنَّاسِ صَلاحُ آخِرَتِهِمْ فَوَجَبَ بِمُقْتَضَى ٱلشَّرَائِعِ حَمْلُ ٱلْكَافَّةِ

علَى ٱلْأَحكَامِ ٱلشَّرعِيَّةِ فِي أَحوَالِ دُنيَاهُم وَآخِرَتِهِم وَكَانَ هٰذَا ٱلحُكمُ لِأَهلِ ٱلشَّرِيعَةِ وَهُم ٱلْأَنبِيَاءُ وَمَن قَامَ فِيهِ مَقَامَهُم وَهُم ٱلخُلَفَاءُ فَقَد تَبَيَّنَ لَكَ مِن ذٰلِكَ مَعنَى ٱلخِلَافَةِ وَأَنَّ ٱلمُلكَ ٱلطَّبِيعِيَّ هُوَ حَملُ ٱلكَافَّةِ علَى مُقتَضَى ٱلغَرَضِ وَٱلشَّهوَةِ وَٱلسِّيَاسِيَّ هُوَ حَملُ ٱلكَافَّةِ عَلَى مُقتَضَى ٱلنَّظَرِ ٱلعَقلِيِّ فِي جَلبِ ٱلمَصَالِحِ ٱلدُّنيَوِيَّةِ وَدَفعِ ٱلمَضَارِّ وَٱلخِلَافَةُ هِيَ حَملُ ٱلكَافَّةِ عَلَى مُقتَضَى ٱلنَّظَرِ ٱلشَّرعِيِّ فِي مَصَالِحِهِم ٱلْأُخرَوِيَّةِ وَٱلدُّنيَوِيَّةِ ٱلرَّاجِعَةِ إِلَيهَا إِذ أَحوَالُ ٱلدُّنيَا تَرجِعُ كُلُّهَا عِندَ ٱلشَّارِعِ إِلَى ٱعتِبَارِهَا بِمَصَالِحِ ٱلآخِرَةِ فَهِيَ فِي ٱلحَقِيقَةِ خِلَافَةٌ عَن صَاحِبِ ٱلشَّرعِ فِي حِرَاسَةِ ٱلدِّينِ وَسِيَاسَةِ ٱلدُّنيَا بِهِ فَٱفهَم ذٰلِكَ وَٱعتَبِرهُ فِيمَا نُورِدُهُ عَلَيكَ مِن بَعدُ وَٱللّٰهُ ٱلحَكِيمُ ٱلعَلِيمُ

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه

وَإِذ قَد بَيَّنَّا حَقِيقَةَ هٰذَا ٱلمَنصِبِ وَأَنَّهُ نِيَابَةٌ عَن صَاحِبِ ٱلشَّرِيعَةِ فِي حِفظِ ٱلدِّينِ وَسِيَاسَةِ ٱلدُّنيَا بِهِ تُسَمَّى خِلَافَةً وَإِمَامَةً وَٱلقَائِمُ بِهِ خَلِيفَةً وَإِمَامًا فَأَمَّا تَسمِيَتُهُ إِمَامًا فَتَشبِيهًا بِإِمَامِ ٱلصَّلَاةِ فِي ٱتِّبَاعِهِ وَٱلِاقتِدَاءِ بِهِ وَلِهٰذَا يُقَالُ ٱلْإِمَامَةُ ٱلكُبرَى وَأَمَّا تَسمِيَتُهُ خَلِيفَةً فَلِكَونِهِ يَخلُفُ ٱلنَّبِيَّ فِي أُمَّتِهِ فَيُقَالُ خَلِيفَةٌ بِإِطلَاقٍ وَخَلِيفَةُ رَسُولِ ٱللّٰهِ وَٱختُلِفَ فِي تَسمِيَتِهِ خَلِيفَةَ ٱللّٰهِ فَأَجَازَهُ بَعضُهُم ٱقتِبَاسًا مِنَ ٱلخِلَافَةِ ٱلعَامَّةِ ٱلَّتِي لِلْآدَمِيِّينَ فِي قَولِهِ تَعَالَى إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرضِ خَلِيفَةً وَقَولِهِ جَعَلَكُم خَلَائِفَ ٱلْأَرضِ وَمَنَعَ ٱلجُمهُورُ مِنهُ لِأَنَّ مَعنَى ٱلآيَةِ لَيسَ عَلَيهِ وَقَد نَهَى أَبُو بَكرٍ عَنهُ لَمَّا دُعِيَ بِهِ وَقَالَ لَستُ خَلِيفَةَ ٱللّٰهِ وَلٰكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَلِأَنَّ ٱلِاستِخلَافَ إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّ ٱلغَائِبِ وَأَمَّا ٱلحَاضِرُ فَلَا ثُمَّ إِنَّ نَصبَ ٱلْإِمَامِ وَاجِبٌ قَد عُرِفَ وُجُوبُهُ فِي ٱلشَّرعِ بِإِجمَاعِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ لِأَنَّ أَصحَابَ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عِندَ وَفَاتِهِ بَادَرُوا إِلَى بَيعَةِ أَبِي بَكرٍ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنهُ وَتَسلِيمِ ٱلنَّظَرِ إِلَيهِ فِي أُمُورِهِم وَكَذَا فِي كُلِّ عَصرٍ مِن بَعدِ ذٰلِكَ وَلَم تُترَكِ ٱلنَّاسُ فَوضَى فِي عَصرٍ مِنَ ٱلْأَعصَارِ وَٱستَقَرَّ ذٰلِكَ إِجمَاعًا دَالًّا عَلَى وُجُوبِ نَصبِ ٱلْإِمَامِ وَقَد ذَهَبَ بَعضُ ٱلنَّاسِ إِلَى أَنَّ مُدرَكَ وُجُوبِهِ ٱلعَقلُ وَأَنَّ ٱلْإِجمَاعَ ٱلَّذِي وَقَعَ إِنَّمَا هُوَ قَضَاءٌ بِحُكمِ ٱلعَقلِ فِيهِ قَالُوا وَإِنَّمَا وَجَبَ بِٱلعَقلِ لِضَرُورَةِ ٱلِاجتِمَاعِ لِلْبَشَرِ وَٱستِحَالَةِ حَيَاتِهِم وَوُجُودِهِم مُنفَرِدِينَ وَمِن ضَرُورَةِ

الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نبهنا على فساده وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم لأن الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن شرع كما في أمم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه الدعوة أو نقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعاؤهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الإمام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو بامتناع الناس عن التنازع والتظالم فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع وهو الإجماع الذي قدمناه وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً لا بالعقل ولا بالشرع منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء الحكم الشرع فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون بالإجماع والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتلئة بذم ذلك والنعي على أهله ومرغبة في رفضه واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به وإنما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شك أن في هذه مفاسد محظورة وهي من توابعه كما أثنى على العدل والنصفة وإقامة مراسم الدين والذب عنه وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الملك فإذاً إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة إليها وأما المراد تصريفهما على مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده

ثمَّ نقولُ لهم إنَّ هذا الفِرارَ عنِ المُلكِ بعدمِ وُجوبِ هذا النَّصبِ لا يُغنيكم شيئاً لأنَّكم موافقونَ على وُجوبِ إقامةِ أحكامِ الشَّريعةِ وذلكَ لا يحصلُ إلَّا بالعَصبيَّةِ والشَّوكةِ والعَصبيَّةُ مُقتضيةٌ بطبعِها للمُلكِ فيحصلُ المُلكُ وإنْ لم يُنصَبْ إمامٌ وهو عينُ ما فررتم عنهُ وإذا تقرَّرَ أنَّ هذا النَّصبَ واجبٌ بإجماعٍ فهو من فُروضِ الكِفايةِ وراجعٌ إلى اختيارِ أهلِ العَقدِ والحَلِّ فيتعيَّنُ عليهم نَصبُهُ ويجبُ على الخلقِ جميعاً طاعتُهُ لقولِهِ تعالى أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ وأولي الأمرِ منكم وأمَّا شُروطُ هذا المَنصبِ فهي أربعةٌ العلمُ والعدالةُ والكِفايةُ وسلامةُ الحواسِّ والأعضاءِ ممَّا يؤثِّرُ في الرَّأيِ والعملِ واختُلِفَ في شرطٍ خامسٍ وهو النَّسبُ القُرشيُّ فأمَّا اشتراطُ العلمِ فظاهرٌ لأنَّهُ إنَّما يكونُ مُنفِّذاً لأحكامِ اللهِ تعالى إذا كانَ عالِماً بها وما لم يعلمْها لا يصحُّ تقديمُهُ لها ولا يكفي منَ العلمِ إلَّا أنْ يكونَ مُجتهِداً لأنَّ التَّقليدَ نقصٌ والإمامةَ تستدعي الكمالَ في الأوصافِ والأحوالِ وأمَّا العدالةُ فلأنَّهُ منصبٌ دينيٌّ ينظُرُ في سائرِ المَناصبِ الَّتي هي شرطٌ فيها فكانَ أولى باشتراطِها فيهِ ولا خلافَ في انتفاءِ العدالةِ فيهِ بفسقِ الجوارحِ منِ ارتكابِ المحظوراتِ وأمثالِها وفي انتفائِها بالبدعِ الاعتقاديَّةِ خلافٌ وأمَّا الكِفايةُ فهو أنْ يكونَ جريئاً على إقامةِ الحُدودِ واقتحامِ الحُروبِ بصيراً بها كفيلاً بحملِ النَّاسِ عليها عارفاً بالعَصبيَّةِ وأحوالِ الدَّهاءِ قويّاً على مُعاناةِ السِّياسةِ ليصحَّ لهُ بذلكَ ما جُعِلَ إليهِ منْ حمايةِ الدِّينِ وجهادِ العدوِّ وإقامةِ الأحكامِ وتدبيرِ المَصالحِ وأمَّا سلامةُ الحواسِّ والأعضاءِ منَ النَّقصِ والعُطلةِ كالجُنونِ والعمى والصَّممِ والخرسِ وما يؤثِّرُ فقدُهُ منَ الأعضاءِ في العملِ كفقدِ اليدينِ والرِّجلينِ والأُنثيينِ فتُشترَطُ السَّلامةُ منها كلِّها لتأثيرِ ذلكَ في تمامِ عملِهِ وقيامِهِ بما جُعِلَ إليهِ وإنْ كانَ إنَّما يشينُ في المَنظرِ فقط كفقدِ إحدى هذهِ الأعضاءِ فشرطُ السَّلامةِ منهُ شرطُ كمالٍ ويُلحَقُ بفقدانِ الأعضاءِ المنعُ منَ التَّصرُّفِ وهو ضربانِ ضربٌ يُلحَقُ بهذهِ في اشتراطِ السَّلامةِ منهُ شرطَ وُجوبٍ وهو القهرُ والعجزُ عنِ التَّصرُّفِ جملةً بالأسرِ وشبهِهِ وضربٌ لا يُلحَقُ بهذهِ وهو الحَجرُ باستيلاءِ بعضِ أعوانِهِ عليهِ منْ غيرِ عصيانٍ ولا مُشاقَّةٍ فينتقلُ النَّظرُ في حالِ هذا المُستولي فإنْ جرى على حُكمِ الدِّينِ والعدلِ وحميدِ السِّياسةِ جازَ قرارُهُ وإلَّا استنصرَ المُسلمونَ بمنْ يقبضُ يدَهُ عنْ ذلكَ ويدفعُ علَّتَهُ

حتّى يُنَفِّذَ فِعلُ ٱلْخَلِيفَةِ وَأَمّا ٱلنَّسَبُ ٱلْقُرَشِيُّ فَلِإِجْمَاعِ ٱلصَّحَابَةِ يَوْمَ ٱلسَّقِيفَةِ عَلَى ذٰلِكَ وَٱحْتَجَّتْ قُرَيْشٌ عَلَى ٱلْأَنْصَارِ لَمَّا هَمُّوا يَوْمَئِذٍ بِبَيْعَةِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَقَالُوا مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ بِقَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ وَبِأَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصَانَا بِأَنْ نُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ وَنَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ وَلَوْ كَانَتِ ٱلْإِمَارَةُ فِيكُمْ لَمْ تَكُنِ ٱلْوَصِيَّةُ بِكُمْ فَحَجُّوا ٱلْأَنْصَارَ وَرَجَعُوا عَنْ قَوْلِهِمْ مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ وَعَدَلُوا عَمَّا كَانُوا هَمُّوا بِهِ مِنْ بَيْعَةِ سَعْدٍ لِذٰلِكَ وَثَبَتَ أَيْضاً فِي ٱلصَّحِيحِ لَا يَزَالُ هٰذَا ٱلْأَمْرُ فِي هٰذَا ٱلْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلْأَدِلَّةِ كَثِيرَةٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ قُرَيْشٍ وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ بِمَا نَالَهُمْ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَٱلنَّعِيمِ وَبِمَا أَنْفَقَتْهُمُ ٱلدَّوْلَةُ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ ٱلْأَرْضِ عَجَزُوا بِذٰلِكَ عَنْ حَمْلِ ٱلْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمِ ٱلْأَعَاجِمُ وَصَارَ ٱلْحَلُّ وَٱلْعَقْدُ لَهُمْ فَٱشْتَبَهَ ذٰلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُحَقِّقِينَ حَتَّى ذَهَبُوا إِلَى نَفْيِ ٱشْتِرَاطِ ٱلْقُرَشِيَّةِ وَعَوَّلُوا عَلَى ظَوَاهِرَ فِي ذٰلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ وُلِّيَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ذُو زَبِيبَةٍ وَهٰذَا لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ فِي ذٰلِكَ فَإِنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ ٱلتَّمْثِيلِ وَٱلْغَرَضِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي إِيجَابِ ٱلسَّمْعِ وَٱلطَّاعَةِ وَمِثْلَ قَوْلِ عُمَرَ لَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى حُذَيْفَةَ حَيّاً لَوَلَّيْتُهُ أَوْ لَمَا دَخَلَتْنِي فِيهِ ٱلظِّنَّةُ وَهُوَ أَيْضاً لَا يُفِيدُ ذٰلِكَ لِمَا عَلِمْتَ أَنَّ مَذْهَبَ ٱلصَّحَابِيِّ لَيْسَ بِحُجَّةٍ وَأَيْضاً فَمَوْلَى ٱلْقَوْمِ مِنْهُمْ وَعَصَبِيَّةُ ٱلْوَلَاءِ حَاصِلَةٌ لِسَالِمٍ فِي قُرَيْشٍ وَهِيَ ٱلْفَائِدَةُ فِي ٱشْتِرَاطِ ٱلنَّسَبِ وَلَمَّا ٱسْتَعْظَمَ عُمَرُ أَمْرَ ٱلْخِلَافَةِ وَرَأَى شُرُوطَهَا كَأَنَّهَا مَفْقُودَةٌ فِي ظَنِّهِ عَدَلَ إِلَى سَالِمٍ لِتَوَفُّرِ شُرُوطِ ٱلْخِلَافَةِ عِنْدَهُ فِيهِ حَتَّى مِنَ ٱلنَّسَبِ ٱلْمُفِيدِ لِلْعَصَبِيَّةِ كَمَا نَذْكُرُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صَرَاحَةُ ٱلنَّسَبِ فَرَآهُ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ إِذِ ٱلْفَائِدَةُ فِي ٱلنَّسَبِ إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَصَبِيَّةُ وَهِيَ حَاصِلَةٌ مِنَ ٱلْوَلَاءِ فَكَانَ ذٰلِكَ حِرْصاً مِنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَلَى ٱلنَّظَرِ لِلْمُسْلِمِينَ وَتَقْلِيدِ أَمْرِهِمْ لِمَنْ لَا تَلْحَقُهُ فِيهِ لَائِمَةٌ وَلَا عَلَيْهِ فِيهِ عُهْدَةٌ وَمِنَ ٱلْقَائِلِينَ بِنَفْيِ ٱشْتِرَاطِ ٱلْقُرَشِيَّةِ ٱلْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ ٱلْبَاقِلَانِيُّ لَمَّا أَدْرَكَ عَلَيْهِ عَصَبِيَّةَ قُرَيْشٍ مِنَ ٱلتَّلَاشِي وَٱلِاضْمِحْلَالِ وَٱسْتِبْدَادِ مُلُوكِ ٱلْعَجَمِ مِنَ ٱلْخُلَفَاءِ فَأَسْقَطَ شَرْطَ ٱلْقُرَشِيَّةِ وَإِنْ كَانَ مُوَافِقاً لِرَأْيِ ٱلْخَوَارِجِ لِمَا رَأَى عَلَيْهِ حَالَ ٱلْخُلَفَاءِ لِعَهْدِهِ وَبَقِيَ ٱلْجُمْهُورُ عَلَى ٱلْقَوْلِ بِٱشْتِرَاطِهَا وَصِحَّةِ ٱلْإِمَامَةِ لِلْقُرَشِيِّ وَلَوْ كَانَ عَاجِزاً عَنِ ٱلْقِيَامِ بِأُمُورِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرُدَّ عَلَيْهِمْ سُقُوطُ شَرْطِ ٱلْكِفَايَةِ ٱلَّتِي يَقْوَى بِهَا عَلَى أَمْرِهِ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَتِ

الشَّوْكَةُ بِذَهَابِ الْعَصَبِيَّةِ فَقَدْ ذَهَبَتِ الْكِفَايَةُ وَإِذَا وَقَعَ الْإِخْلَالُ بِشَرْطِ الْكِفَايَةِ تَطَرَّقَ ذَلِكَ أَيْضًا إِلَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَسَقَطَ اعْتِبَارُ شُرُوطِ هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُوَ خِلَافُ الْإِجْمَاعِ. وَلْنَتَكَلَّمِ الْآنَ فِي حِكْمَةِ اشْتِرَاطِ النَّسَبِ لِيَتَحَقَّقَ بِهِ الصَّوَابُ فِي هَذِهِ الْمَذَاهِبِ فَنَقُولُ. إِنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ كُلَّهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَقَاصِدَ وَحِكَمٍ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا وَتُشْرَعُ لِأَجْلِهَا وَنَحْنُ إِذَا بَحَثْنَا عَنِ الْحِكْمَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ الْقُرَشِيِّ وَمَقْصِدِ الشَّارِعِ مِنْهُ لَمْ يُقْتَصَرْ فِيهِ عَلَى التَّبَرُّكِ بِوُصْلَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا هُوَ فِي الْمَشْهُورِ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْوُصْلَةُ مَوْجُودَةً وَالتَّبَرُّكُ بِهَا حَاصِلًا لَكِنَّ التَّبَرُّكَ لَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ كَمَا عَلِمْتَ فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّتِهَا وَإِذَا سَبَرْنَا وَقَسَمْنَا لَمْ نَجِدْهَا إِلَّا اعْتِبَارَ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَيَرْتَفِعُ الْخِلَافُ وَالْفُرْقَةُ بِوُجُودِهَا لِصَاحِبِ الْمَنْصِبِ فَتَسْكُنُ إِلَيْهِ الْمِلَّةُ وَأَهْلُهَا وَيَنْتَظِمُ حَبْلُ الْأُلْفَةِ فِيهَا وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا عُصْبَةَ مُضَرَ وَأَصْلَهُمْ وَأَهْلَ الْغَلَبِ مِنْهُمْ وَكَانَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ مُضَرَ الْعِزَّةُ بِالْكَثْرَةِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَالشَّرَفِ فَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَعْتَرِفُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَيَسْتَكِينُونَ لِغَلَبِهِمْ فَلَوْ جُعِلَ الْأَمْرُ فِي سِوَاهُمْ لَتُوُقِّعَ افْتِرَاقُ الْكَلِمَةِ بِمُخَالَفَتِهِمْ وَعَدَمِ انْقِيَادِهِمْ وَلَا يَقْدِرُ غَيْرُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ مُضَرَ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَنِ الْخِلَافِ وَلَا يَحْمِلَهُمْ عَلَى الْكَرَّةِ فَتَتَفَرَّقَ الْجَمَاعَةُ وَتَخْتَلِفَ الْكَلِمَةُ وَالشَّارِعُ مُحَذِّرٌ مِنْ ذَلِكَ حَرِيصٌ عَلَى اتِّفَاقِهِمْ وَرَفْعِ التَّنَازُعِ وَالشَّتَاتِ بَيْنَهُمْ لِتَحْصُلَ اللُّحْمَةُ وَالْعَصَبِيَّةُ وَتَحْسُنَ الْحِمَايَةُ بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ لِأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى سَوْقِ النَّاسِ بِعَصَا الْغَلَبِ إِلَى مَا يُرَادُ مِنْهُمْ فَلَا يُخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ خِلَافٍ عَلَيْهِمْ وَلَا فُرْقَةٍ لِأَنَّهُمْ كَفِيلُونَ حِينَئِذٍ بِدَفْعِهَا وَمَنْعِ النَّاسِ مِنْهَا فَاشْتُرِطَ نَسَبُهُمُ الْقُرَشِيُّ فِي هَذَا الْمَنْصِبِ وَهُمْ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي انْتِظَامِ الْمِلَّةِ وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ وَإِذَا انْتَظَمَتْ كَلِمَتُهُمُ انْتَظَمَتْ بِانْتِظَامِهَا كَلِمَةُ مُضَرَ أَجْمَعَ فَأَذْعَنَ لَهُمْ سَائِرُ الْعَرَبِ وَانْقَادَتِ الْأُمَمُ سِوَاهُمْ الى أَحْكَامِ الْمِلَّةِ وَوَطِئَتْ جُنُودُهُمْ قَاصِيَةَ الْبِلَادِ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ الْفُتُوحَاتِ وَاسْتَمَرَّ بَعْدَهَا فِي الدَّوْلَتَيْنِ إِلَى أَنِ اضْمَحَلَّ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَتَلَاشَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ وَيَعْلَمُ مَا كَانَ لِقُرَيْشٍ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالتَّغَلُّبِ عَلَى بُطُونِ مُضَرَ مَنْ مَارَسَ أَخْبَارَ الْعَرَبِ وَسِيَرَهُمْ وَتَفَطَّنَ لِذَلِكَ فِي أَحْوَالِهِمْ. وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ إسْحَاقَ

في كتاب السير وغيره فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب (١) في شأن النساء وأنهن في كثير من الأحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وإنما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم إلا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس ثم إن الوجود شاهد بذلك فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي والله تعالى أعلم

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

إعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر وإن

(١) قوله الامام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر

علياً رضيَ اللهُ عنهُ هوَ الذي عيَّنهُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ بنصوصٍ ينقُلونها ويؤوّلونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذةُ السُّنةِ ولا نقلةُ الشريعةِ بل أكثرُها موضوع أو مطعونٌ في طريقهِ أو بعيدٌ عن تأويلاتِهم الفاسدةِ وتنقسمُ هذهِ النصوصُ عندَهُم إلى جليٍّ وخفيٍّ فالجليُّ مثلُ قولهِ من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاهُ قالوا ولم تطَّرِدْ هذهِ الولايةُ إلّا في عليٍّ ولهذا قالَ لهُ عمرُ أصبحتَ مولى كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ ومنها قولهُ أقضاكُم علي ولا معنى للإمامةِ إلّا القضاءُ بأحكامِ اللهِ وهوَ المرادُ بأولي الأمرِ الواجبةِ طاعتُهم بقولهِ أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكُم والمرادُ الحكمُ والقضاءُ ولهذا كانَ حكماً في قضيةِ الإمامةِ يومَ السقيفةِ دونَ غيرهِ ومنها قولُهُ من يبايعني على روحهِ وهوَ وصيّ ووليُّ هذا الأمرِ من بعدي فلم يبايعهُ إلّا عليٌّ ومنَ الخفيِّ عندهُم بعث النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ علياً لقراءةِ سورةِ براءةَ في الموسمِ حينَ أُنزلت فإنهُ بعث بها أوّلاً أبا بكرٍ ثمَّ أوحيَ إليهِ ليبلّغهُ رجلٌ منكَ أو من قومكَ فبعثَ علياً ليكون القارئَ المبلّغَ قالوا وهذا يدلُّ على تقديمِ عليٍّ وأيضاً فلم يُعرفْ أنهُ قدَّمَ أحداً على عليٍّ وأمّا أبو بكرٍ وعمرُ فقدَّمَ عليهما في غزوتينِ أسامةَ بنَ زيدٍ مرَّةً وعمرَو بنَ العاص أخرى وهذهِ كلُّها أدلةٌ شاهدةٌ بتعيينِ عليٍّ للخلافةِ دونَ غيرهِ فمنها ما هوَ غيرُ معروف ومنها ما هوَ بعيدٌ عن تأويلِهم ثمَّ منهم من يرى أنَّ هذهِ النصوصَ تدلُّ على تعيينِ عليٍّ وتشخيصهِ وكذلكَ تنتقلُ منهُ إلى من بعدهُ وهؤلاءِ همُ الإماميةُ ويتبرَّأونَ منَ الشيخينِ حيثُ لم يقدِّموا علياً ويبايعوهُ بمقتضى هذهِ النصوصِ ويغمصونَ في إمامتهما ولا يُلتفت إلى نقلِ القدحِ فيهما من غلاتِهم فهوَ مردودٌ عندنا وعندهم ومنهم من يقولُ إنَّ هذهِ الأدلةَ إنّما اقتضتْ تعيينَ عليٍّ بالوصفِ لا بالشخصِ والناسُ مقصِّرونَ حيثُ لم يضعوا الوصفَ موضعهُ ولا همُ الزيديّةُ ولا يتبرَّأونَ منَ الشيخينِ ولا يغمصونَ في إمامتهما مع قولهم بأنَّ علياً أفضلُ منهما لكنّهم يجوِّزونَ إمامةَ المفضولِ معَ وجودِ الأفضلِ ثمّ اختلفتْ نقولُ هؤلاءِ الشيعةِ في مساقِ الخلافةِ بعدَ عليٍّ فمنهم من ساقها في ولدِ فاطمةَ بالنصِّ عليهم واحداً بعدَ واحدٍ على ما يُذكرُ بعدُ وهؤلاءِ يسمّونَ الإماميةَ نسبةً إلى مقالتِهم باشتراطِ معرفةِ الإمامِ وتعيينهِ في الإيمانِ وهيَ أصلٌ عندهم ومنهم من ساقها في ولدِ فاطمةَ لكن بالاختيارِ معَ الشيوخِ ويشترطُ أن يكونَ الإمامُ منهم عالماً

زَاهِداً جَوَّاداً شُجَاعاً وَيَخْرُجَ دَاعِياً إلى إِمَامَتِهِ وَهٰؤلاء هُمُ ٱلزَّيْدِيَّةُ نِسْبَةً إلى صَاحِبِ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ زَيْدُ بْنِ عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ ٱلسِّبْطُ وَقَدْ كَانَ يُنَاظِرُ أَخَاهُ مُحَمَّداً ٱلْبَاقِرَ عَلى ٱشْتِرَاطِ ٱلْخُرُوجِ فِي ٱلْإِمَامِ فَيُلْزِمُهُ ٱلْبَاقِرُ أَنْ لا يَكُونَ أَبُوهُمَا زَيْنُ ٱلعَابِدِينَ إِمَاماً لأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ وَلا تَعَرَّضَ لِلْخُرُوجِ وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ يَنْعَى عَلَيْهِ مَذَاهِبَ ٱلْمُعْتَزِلَةِ وَأَخْذَهُ إِيَّاهَا عَنْ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَلَمَّا نَاظَرَ ٱلإِمَامِيَّةُ زَيْداً فِي إِمَامَةِ ٱلشَّيْخَيْنِ وَرَأَوهُ يَقُولُ بِإِمَامَتِهِمَا وَلا يَتَبَرَّأُ مِنْهُمَا رَفَضُوهُ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ مِنَ ٱلأَئِمَّةِ وَبِذٰلِكَ سُمُّوا رَافِضَةً وَمِنْهُم مَنْ سَاقَهَا بَعْدَ عَلِيٍّ وَٱبْنَيْهِ ٱلسِّبْطَيْنِ عَلَى ٱخْتِلافِهِمْ فِي ذٰلِكَ إلى إِخِيهِمَا مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْحَنَفِيَّةِ ثُمَّ إلى وُلْدِهِ وَهُمُ ٱلْكَيْسَانِيَّةُ نِسْبَةً إلى كَيْسَانَ مَوْلاهُ وَبَيْنَ هٰذِهِ ٱلطَّوَائِفِ ٱخْتِلافَاتٌ كَثِيرَةٌ تَرَكْنَاهَا ٱخْتِصَاراً وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ يُسَمَّوْنَ ٱلْغُلاةَ تَجَاوَزُوا حَدَّ ٱلْعَقْلِ وَٱلْإِيمَانِ فِي ٱلْقَوْلِ بِأُلُوهِيَّةِ هٰؤلاء ٱلأَئِمَّةِ إِمَّا عَلَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ ٱتَّصَفُوا بِصِفَاتِ ٱلْأُلُوهِيَّةِ أَوْ أَنَّ ٱلإِلٰهَ حَلَّ فِي ذَاتِهِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَهُوَ قَوْلٌ بِٱلْحُلُولِ يُوَافِقُ مَذْهَبَ ٱلنَّصَارَى فِي عِيسَى صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ وَلَقَدْ حَرَقَ عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ بِٱلنَّارِ مَنْ ذَهَبَ فِيهِ إلى ذٰلِكَ مِنْهُمْ وَسَخَّطَ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْحَنَفِيَّةِ ٱلْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْهُ فَصَرَّحَ بِلَعْنَتِهِ وَٱلْبَرَاءَةِ مِنْهُ وَكَذٰلِكَ فَعَلَ جَعْفَرٌ ٱلصَّادِقُ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنْ بَلَغَهُ مِثْلُ هٰذَا عَنْهُ وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ إِنَّ كَمَالَ ٱلْإِمَامِ لا يَكُونُ لِغَيْرِهِ فَإِذَا مَاتَ ٱنْتَقَلَتْ رُوحُهُ إلى إِمَامٍ آخَرَ لِيَكُونَ فِيهِ ذٰلِكَ ٱلْكَمَالُ وَهُوَ قَوْلٌ بِٱلتَّنَاسُخِ وَمِنْ هٰؤلاء ٱلْغُلاةِ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلأَئِمَّةِ لا يَتَجَاوَزُهُ إلى غَيْرِهِ بِحَسَبِ مَنْ يُعَيِّنُ لِذٰلِكَ عِنْدَهُمْ وَهٰؤلاء هُمُ ٱلْوَاقِفِيَّةُ فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ هُوَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ إِلَّا أَنَّهُ غَائِبٌ عَنْ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ وَيَسْتَشْهِدُونَ لِذٰلِكَ بِقِصَّةِ ٱلْخَضِرِ قِيلَ مِثْلُ ذٰلِكَ فِي عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَإِنَّهُ فِي ٱلسَّحَابِ وَٱلرَّعْدُ صَوْتُهُ وَٱلْبَرْقُ فِي صَوْتِهِ وَقَالُوا مِثْلَهُ فِي مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْحَنَفِيَّةِ وَإِنَّهُ فِي جَبَلِ رَضْوَى مِنْ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ وَقَالَ شَاعِرُهُمْ

أَلا إِنَّ ٱلأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ... وُلاةِ ٱلْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلِيٌّ وَٱلثَّلاثَةُ مِنْ بَنِيهِ ... هُمُ ٱلأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
فَسِبْطٌ سِبْطُ إِيمَانٍ وَبِرٍّ ... وَسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاءُ
وَسِبْطٌ لا يَذُوقُ ٱلْمَوْتَ حَتَّى ... يَقُودَ ٱلْجَيْشَ يَقْدُمُهُ ٱللِّوَاءُ

تَغَيَّبَ لا يُرَى فِيهِمْ زَمَاناً   بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ

وَقَالَ مِثْلَهُ غُلاةُ الْإِمَامِيَّةِ وَخُصُوصاً الِاثْنَا عَشَرِيَّةَ مِنْهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الثَّانِي عَشَرَ مِن أَئِمَّتِهِمْ وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيُّ وَيُلَقِّبُونَهُ الْمَهْدِيَّ دَخَلَ فِي سِرْدَابٍ بِدَارِهِم فِي الْحِلَّةِ وَتَغَيَّبَ حِينَ اعْتُقِلَ مَعَ أُمِّهِ وَغَابَ هُنَالِكَ وَهُوَ يَخْرُجُ آخِرَ الزَّمَانِ فَيَمْلأُ الْأَرْضَ عدلاً يُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْحَدِيثِ الْوَاقِعِ فِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ فِي الْمَهْدِيِّ وَهُمْ إِلَى الْآنَ يَنْتَظِرُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ الْمُنْتَظَرَ لِذَلِكَ وَيَقِفُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْدَ صَلاةِ الْمَغْرِبِ بِبَابِ هذَا السِّرْدَابِ وَقَدْ قَدَّمُوا مَرْكَباً فَيَهْتِفُونَ بِاسْمِهِ وَيَدْعُونَهُ لِلْخُرُوجِ حَتَّى تَشْتَبِكَ النُّجُوم ثُمَّ يَنْفَضُّونَ وَيُرْجِئُونَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّيْلَةِ الْآتِيَةِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَبَعْضُ هَؤُلاءِ الْوَاقِفِيَّةِ يَقُولُ إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي مَاتَ يَرْجِعُ إِلَى حَيَاتِهِ الدُّنْيَا وَيَسْتَشْهِدُونَ لِذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَقَتِيلِ بَنِي إِسْرَائِيل حِينَ ضُرِبَ بِعِظَامِ الْبَقَرَةِ الَّتِي أُمِرُوا بِذَبْحِهَا وَمِثْلُ ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى طَرِيقِ الْمُعْجِزَةِ وَلا يَصِحُّ الِاسْتِشْهَادُ بِهَا فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَكَانَ مِنْ هَؤُلاءِ السَّيِّد الْحِمْيَرِيُّ وَمِنْ شِعْرِهِ فِي ذَلِكَ

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ قَذَالٌ   وَعَلَّلَهُ الْمَوَاشِطُ بِالْخِضَاب
فَقَدْ ذَهَبَتْ بَشَاشَتُهُ وَأَوْدَى   فَقُمْ يَا صَاحِ نَبْكِ عَلَى الشَّبَابِ
إِلَى يَوْمٍ تَثُوبُ النَّاسُ فِيهِ   إِلَى دُنْيَاهُمُ قَبْلَ الْحِسَابِ
فَلَيْسَ بِعَائِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ   إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الْإِيَابِ
أَدِينُ بِأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقٍّ   وَمَا أَنَا فِي النُّشُورِ بِذِي ارْتِيَابِ
كَذَاكَ اللهُ أَخْبَرَ عَنْ أُنَاسٍ   حَيُوا مِنْ بَعْدِ دَرْسٍ فِي التُّرَابِ

وَقَدْ كَفَانَا مَؤُونَةَ هَؤُلاءِ الْغُلاةِ أَئِمَّةُ الشِّيعَةِ فَإِنَّهُمْ لا يَقُولُونَ بِهَا وَيُبْطِلُونَ احْتِجَاجَاتِهِم عَلَيْهَا وَأَمَّا الْكَيْسَانِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى ابْنِهِ أَبِي هَاشِم وَهَؤُلاءِ هُمُ الْهَاشِمِيَّةُ ثُمَّ افْتَرَقُوا فَمِنْهُمْ مَنْ سَاقَهَا بَعْدَهُ إِلَى أَخِيهِ عَلِيٍّ ثُمَّ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَن ابْنِ عَلِيٍّ وَآخَرُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هَاشِمٍ لَمَّا مَاتَ بِأَرْضِ السَّرَاةِ مُنْصَرِفاً مِنَ الشَّام أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَأَوْصَى مُحَمَّدٌ إِلَى ابْنِهِ إِبْرٰهِيمَ الْمَعْرُوف بِالْإِمَامِ وَأَوْصَى إِبْرٰهِيمُ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِيَّةِ الْمُلَقَّبِ بِالسَّفَّاحِ وَأَوْصَى هو

إلى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد إلى آخرهم وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس وكان منهم أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعضدون ذلك بأن حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس لأنه كان حياً وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بعصبية العمومة وأما الزيدية فساقوا الإمامة على مذهبهم فيها وإنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص فقالوا بإمامة علي ثم ابنه الحسن ثم أخيه الحسين ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعية إلى الإمامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده فمضى إلى خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فقتل وعهد إلى أخيه إبراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم المنصور عساكره فهزم وقتل إبراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله . وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد بن عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر وعمر هو أخو زيد ابن علي فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون من الزيدية إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع منصور ونقلوا الإمامة في عقبه وإليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم وقال آخرون من الزيدية إن الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوه أدريس الذي فر إلى المغرب ومات هنالك وقام بأمره ابنه أدريس واختط مدينة فاس وكان من بعده عقبه ملوكاً بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الأطروش منهم وأسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن ابن علي بن عمر وعمر أخو زيد بن علي فكانت لبنيه بطبرستان دولة وتوصل

ٱلدَّيْلَمُ مِنْ نَسَبِهِمْ إِلَى ٱلْمُلْكِ وَٱلِاسْتِبْدَادِ عَلَى ٱلْخُلَفَاءِ بِبَغْدَادَ كَمَا نَذْكُرُ فِي أَخْبَارِهِمْ. وَأَمَّا ٱلْإِمَامِيَّةُ فَسَاقُوا ٱلْإِمَامَةَ مِنْ عَلِيٍّ ٱلرِّضَى إِلَى ٱبْنِهِ ٱلْحَسَنِ بِٱلْوَصِيَّةِ ثُمَّ إِلَى أَخِيهِ ٱلْحُسَيْنِ ثُمَّ إِلَى ٱبْنِهِ عَلِيٍّ زَيْنِ ٱلْعَابِدِينَ ثُمَّ إِلَى ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْبَاقِرِ ثُمَّ إِلَى ٱبْنِهِ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ وَمِنْ هُنَا ٱفْتَرَقُوا فِرْقَتَيْنِ فِرْقَةٌ سَاقُوهَا إِلَى وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَيَعْرِفُونَهُ بَيْنَهُمْ بِٱلْإِمَامِ وَهُمُ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَفِرْقَةٌ سَاقُوهَا إِلَى ٱبْنِهِ مُوسَى ٱلْكَاظِمِ وَهُمُ ٱلِاثْنَا عَشْرِيَّةُ لِوُقُوفِهِمْ عِنْدَ ٱلثَّانِي عَشَرَ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ وَقَوْلِهِمْ بِغَيْبَتِهِ إِلَى آخِرِ ٱلزَّمَانِ كَمَا مَرَّ فَأَمَّا ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ ٱلْإِمَامِ بِٱلنَّصِّ مِنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ وَفَائِدَةُ ٱلنَّصِّ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ إِنَّمَا هُوَ بَقَاءُ ٱلْإِمَامَةِ فِي عَقِبِهِ كَقِصَّةِ هَارُونَ مَعَ مُوسَى صَلَوَاتُ ٱللَّهِ عَلَيْهِمَا قَالُوا ثُمَّ ٱنْتَقَلَتِ ٱلْإِمَامَةُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْمَكْتُومِ وَهُوَ أَوَّلُ ٱلْأَئِمَّةِ ٱلْمَسْتُورِينَ لِأَنَّ ٱلْإِمَامَ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ شَوْكَةٌ فَيَسْتَتِرُ وَتَكُونُ دُعَاتُهُ ظَاهِرِينَ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَى ٱلْخَلْقِ وَإِذَا كَانَتْ لَهُ شَوْكَةٌ ظَهَرَ وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ قَالُوا وَبَعْدَ مُحَمَّدٍ ٱلْمَكْتُومِ ٱبْنُهُ جَعْفَرٌ ٱلصَّادِقُ وَبَعْدَهُ ٱبْنُهُ مُحَمَّدٌ ٱلْحَبِيبُ وَهُوَ آخِرُ ٱلْمَسْتُورِينَ وَبَعْدَهُ ٱبْنُهُ عَبْدُ ٱللَّهِ ٱلْمَهْدِيُّ ٱلَّذِي أَظْهَرَ دَعْوَتَهُ أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ ٱلشِّيعِيُّ فِي كُتَامَةَ وَتَتَابَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى دَعْوَتِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ مُعْتَقَلِهِ بِسِجِلْمَاسَةَ وَمَلَكَ ٱلْقَيْرَوَانَ وَٱلْمَغْرِبَ وَمَلَكَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ مِصْرَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِمْ وَيُسَمَّى هَؤُلَاءِ نِسْبَةً إِلَى ٱلْقَوْلِ بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ وَيُسَمَّوْنَ أَيْضاً بِٱلْبَاطِنِيَّةِ نِسْبَةً إِلَى قَوْلِهِمْ بِٱلْإِمَامِ ٱلْبَاطِنِ أَيِ ٱلْمَسْتُورِ وَيُسَمَّوْنَ أَيْضاً ٱلْمُلْحِدَةَ لِمَا فِي ضِمْنِ مَقَالَتِهِمْ مِنَ ٱلْإِلْحَادِ وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ قَدِيمَةٌ وَمَقَالَاتٌ جَدِيدَةٌ دَعَا إِلَيْهَا ٱلْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلصَّبَّاحِ فِي آخِرِ ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ وَمَلَكَ حُصُوناً بِٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَلَمْ تَزَلْ دَعْوَتُهُ فِيهِمَا إِلَى أَنْ تَوَزَّعَهَا ٱلْهَلَاكُ بَيْنَ مُلُوكِ ٱلتُّرْكِ بِمِصْرَ وَمُلُوكِ ٱلتَّتَرِ بِٱلْعِرَاقِ فَٱنْقَرَضَتْ وَمَقَالَةُ هَذَا ٱلصَّبَّاحِ فِي دَعْوَتِهِ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ ٱلْمِلَلِ وَٱلنِّحَلِ لِلشَّهْرَسْتَانِيِّ *

وَأَمَّا ٱلِاثْنَا عَشْرِيَّةُ فَرُبَّمَا خُصُّوا بِٱسْمِ ٱلْإِمَامِيَّةِ عِنْدَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ فَقَالُوا بِإِمَامَةِ مُوسَى ٱلْكَاظِمِ بْنِ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ لِوَفَاةِ أَخِيهِ ٱلْأَكْبَرِ إِسْمَاعِيلَ ٱلْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِمَا جَعْفَرٍ فَنَصَّ عَلَى إِمَامَةِ مُوسَى هَذَا ثُمَّ ٱبْنِهِ عَلِيٍّ ٱلرِّضَى ٱلَّذِي عَهِدَ إِلَيْهِ ٱلْمَأْمُونُ وَمَاتَ قَبْلَهُ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ ثُمَّ ٱبْنَهُ مُحَمَّدٍ ٱلتَّقِيِّ ثُمَّ ٱبْنِهِ عَلِيٍّ ٱلْهَادِي ثُمَّ ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْحَسَنِ ٱلْعَسْكَرِيِّ ثُمَّ ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْمَهْدِيِّ ٱلْمُنْتَظَرِ ٱلَّذِي قَدَّمْنَاهُ قَبْلُ وَفِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ

هـذه المقالات للشيعة اختلاف كثير إلا أن هذه أشهر مذاهبهم ومن أراد استيعابها ومطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما ففيها بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخلافة الى الملك

إعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه عنها باختيار إنما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وأن الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصبية إذ المطالبة لا تتم إلا بها كما قدمناه. فالعصبية ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها وفي الصحيح ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصبية وندب إلى اطراحها وتركها فقال إن الله أذهب عنكم عبية[1] الجاهلية وفخرها بالآباء أنتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم ووجدناه أيضاً قد ذم الملك وأهله ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاف والإسراف في غير القصد والتنكب عن صراط الله وإنما حض على الإلفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة * واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها مطية للآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية إنما قصده تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقاً وتتحد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الإنسان فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله وإنما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة فإذا كان الغضب لذلك كان مذموماً وإذا كان الغضب في الله ولله كان ممدوحاً وهو من شمائله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات أيضاً ليس المراد إبطالها بالكلية فإن من بطلت شهوته كان نقصاً في حقه وإنما المراد تصريفها فيما أبيح له باشتماله

(١) عبية بضم العين وكسرها وكسر الموحدة مشددةوتشديد المثناة التحتية الكبر والفخر والنخوةقاموس

على المَصالِحِ ليكونَ الإنسانُ عبداً متصرِّفاً طوعَ الأوامرِ الإلهيةِ وكذا العصبيةُ حيث ذمَّها الشارعُ وقال لن تنفعكم أرحامُكم ولا أولادُكم فإنَّما مرادُهُ حيث تكون العصبيةُ على الباطلِ وأحوالِهِ كما كانت في الجاهليةِ وأن يكون لأحدٍ فخرٌ بها أو حق على أحدٍ لأنَّ ذلك مجانٌ من أفعالِ العقلاءِ وغيرُ نافعٍ في الآخرةِ التي هي دارُ القرار فأمَّا إذا كانتِ العصبيةُ في الحقِّ وإقامةِ أمرِ اللهِ فأمرٌ مطلوبٌ ولو بطلَ لبطلتِ الشرائع إذ لا يتمُّ قوامُها إلَّا بالعصبيةِ كما قلناه من قبلُ وكذا المُلكُ لمَّا ذمَّهُ الشارعُ لم يذمَّ منهُ الغلبَ بالحقِّ وقهرَ الكافَّةِ على الدينِ ومراعاةِ المصالحِ وإنَّما ذمَّهُ لما فيه من التغلُّبِ بالباطلِ وتصريفِ الآدميينَ طوعَ الأغراضِ والشهواتِ كما قلناه فلو كان المُلكُ مخلصاً في غلبِهِ للناسِ أنَّهُ للهِ ولحملِهم على عبادةِ اللهِ وجهادِ عدوِّهِ لم يكن ذلك مذموماً وقد قال سليمانُ صلواتُ اللهِ عليه ربِّ هب لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي لما علم من نفسِهِ أنَّهُ بمعزلٍ عن الباطلِ في النبوَّةِ والمُلكِ * ولمَّا لقيَ معاويةُ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهما عند قدومِهِ إلى الشامِ في أبَّهةِ المُلكِ وزيِّهِ من العديدِ والعُدَّةِ استنكرَ ذلك وقال أكسرويَّةً يا معاويةُ فقال يا أميرَ المؤمنين أنا في ثغرٍ تجاهَ العدوِّ وبنا إلى مباهاتِهم بزينةِ الحربِ والجهادِ حاجةٌ فسكتَ ولم يخطِّئْهُ لمَّا احتجَّ عليه بمقصدٍ من مقاصدِ الحقِّ والدينِ فلو كان القصدُ رفضَ المُلكِ من أصلِهِ لم يُقنعْهُ الجوابُ في تلك الكسرويَّةِ وانتحالِها بل كان يحرِّضُ على خروجِهِ عنها بالجملةِ وإنَّما أرادَ عمرُ بالكسرويَّةِ ما كان عليه أهلُ فارسَ في مُلكِهم من ارتكابِ الباطلِ والظلمِ والبغيِ وسلوكِ سُبُلِهِ والغفلةِ عن اللهِ وأجابَهُ معاويةُ بأنَّ القصدَ بذلك ليس كسرويَّةَ فارسَ وباطلَهم وإنَّما قصدُهُ بها وجهُ اللهِ فسكتَ * وهكذا كان شأنُ الصحابةِ في رفضِ المُلكِ وأحوالِهِ ونسيانِ عوائدِهِ حذراً من التباسِها بالباطلِ فلمَّا استُحضِرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ استخلفَ أبا بكرٍ على الصلاةِ إذ هي أهمُّ أمورِ الدينِ وارتضاهُ الناسُ للخلافةِ وهي حملُ الكافَّةِ على أحكامِ الشريعةِ ولم يجرِ للمُلكِ ذِكرٌ لما أنَّهُ مظنَّةٌ للباطلِ ونحلةٌ يومئذٍ لأهلِ الكفرِ وأعداءِ الدينِ فقامَ بذلك أبو بكرٍ ما شاءَ اللهُ متَّبِعاً سُنَنَ صاحبِهِ وقاتلَ أهلَ الردَّةِ حتَّى اجتمعَ العربُ على الإسلامِ ثمَّ عهدَ إلى عمرَ فاقتفى أثرَهُ وقاتلَ الأممَ فغلبَهم وأذنَ للعربِ بانتزاعِ

مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمُلْكِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَٱنْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ثُمَّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا وَٱلْكُلُّ مُتَبَرِّئُونَ مِنَ ٱلْمُلْكِ مُنَكِّبُونَ عَنْ طُرُقِهِ وَأَكَّدَ ذٰلِكَ لَدَيْهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ غَضَاضَةِ ٱلْإِسْلَامِ وَبَدَاوَةِ ٱلْعَرَبِ فَقَدْ كَانُوا أَبْعَدَ ٱلْأُمَمِ عَنْ أَحْوَالِ ٱلدُّنْيَا وَتَرَفِهَا لَا مِنْ حَيْثُ دِينُهُمُ ٱلَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلزُّهْدِ فِي ٱلنَّعِيمِ وَلَا مِنْ حَيْثُ بَدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ ٱلْعَيْشِ وَشَظَفِهِ ٱلَّذِي أَلِفُوهُ فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ ٱلْأُمَمِ أَسْغَبَ عَيْشاً مِنْ مُضَرَ لَمَّا كَانُوا بِٱلْحِجَازِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ وَكَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ ٱلْأَرْيَافِ وَحُبُوبِهَا لِبُعْدِهَا وَٱخْتِصَاصِهَا بِمَنْ وَلِيَهَا مِنْ رَبِيعَةَ وَٱلْيَمَنِ فَلَمْ يَكُونُوا يَتَطَاوَلُونَ إِلَى خِصْبِهَا وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيراً مَا يَأْكُلُونَ ٱلْعَقَارِبَ وَٱلْخَنَافِسَ وَيَفْخَرُونَ بِأَكْلِ ٱلْعِلْهِزِ وَهُوَ وَبَرُ ٱلْإِبِلِ يَمْهُونَهُ بِٱلْحِجَارَةِ فِي ٱلدَّمِ وَيَطْبُخُونَهُ وَقَرِيباً مِنْ هٰذَا كَانَتْ حَالُ قُرَيْشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ حَتَّى إِذَا ٱجْتَمَعَتْ عَصَبِيَّةُ ٱلْعَرَبِ عَلَى ٱلدِّينِ بِمَا أَكْرَمَهُمُ ٱللهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَحَفُوا إِلَى أُمَمِ فَارِسَ وَٱلرُّومِ وَطَلَبُوا مَا كَتَبَ ٱللهُ لَهُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ بِوَعْدِ ٱلصِّدْقِ فَٱبْتَزُّوا مُلْكَهُمْ وَٱسْتَبَاحُوا دُنْيَاهُمْ فَزَخَرَتْ بِحَارُ ٱلرَّفَهِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كَانَ ٱلْفَارِسُ ٱلْوَاحِدُ يُقْسَمُ لَهُ فِي بَعْضِ ٱلْغَزَوَاتِ ثَلَاثُونَ أَلْفاً مِنَ ٱلذَّهَبِ أَوْ نَحْوُهَا فَٱسْتَوْلَوْا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ ٱلْحَصْرُ وَهُمْ مَعَ ذٰلِكَ عَلَى خُشُونَةِ عَيْشِهِمْ فَكَانَ عُمَرُ يُرَقِّعُ ثَوْبَهُ بِٱلْجِلْدِ وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غُرِّي غَيْرِي وَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَافَى عَنْ أَكْلِ ٱلدَّجَاجِ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْهَدْهَا لِلْعَرَبِ لِقِلَّتِهَا يَوْمَئِذٍ وَكَانَتِ ٱلْمَنَاخِلُ مَفْقُودَةً عِنْدَهُمْ بِٱلْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ ٱلْحِنْطَةَ بِنُخَالِهَا وَمَكَاسِبُهُمْ مَعَ هٰذَا أَتَمُّ مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَالَمِ قَالَ ٱلْمَسْعُودِيُّ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ ٱقْتَنَى ٱلصَّحَابَةُ ٱلضِّيَاعَ وَٱلْمَالَ فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قُتِلَ عِنْدَ خَازِنِهِ خَمْسُونَ وَمِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَقِيمَةُ ضِيَاعِهِ بِوَادِي ٱلْقُرَى وَحُنَيْنٍ وَغَيْرِهِمَا مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ وَخَلَّفَ إِبِلاً وَخَيْلاً كَثِيرَةً وَبَلَغَ ٱلثُّمُنُ ٱلْوَاحِدُ مِنْ مَتْرُوكِ ٱلزُّبَيْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَخَلَّفَ أَلْفَ فَرَسٍ وَأَلْفَ أَمَةٍ وَكَانَتْ غَلَّةُ طَلْحَةَ مِنَ ٱلْعِرَاقِ أَلْفَ دِينَارٍ كُلَّ يَوْمٍ وَمِنْ نَاحِيَةِ ٱلسَّرَاةِ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَكَانَ عَلَى مَرْبَطِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱبْنِ عَوْفٍ أَلْفُ فَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وَعَشَرَةُ آلَافٍ مِنَ ٱلْغَنَمِ وَبَلَغَ ٱلرُّبُعُ مِنْ مَتْرُوكِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةً وَثَمَانِينَ أَلْفاً وَخَلَّفَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ ٱلْفِضَّةِ وَٱلذَّهَبِ مَا كَانَ يُكَسَّرُ

بالفُؤُوس غَيْرَ مَا خَلَّفَ مِنَ ٱلأَمْوَالِ وَٱلضِّيَاعِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَبَنَى ٱلزُّبَيْرُ دَارَه بِالبَصْرَةِ وَكَذٰلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَٱلكُوفَةِ وَٱلإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَذٰلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَه بِالكُوفَةِ وَشَيَّدَ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَبَنَاهَا بِٱلجِصِّ وَٱلآجُرِّ وَٱلسَّاجِ وَبَنَى سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ دَارَهُ بِٱلعَقِيقِ وَرَفَعَ سَمْكَهَا وَأَوْسَعَ فَضَاءَهَا وَجَعَلَ عَلَى أَعْلاهَا شُرُفَاتٍ وَبَنَى ٱلمِقْدَادُ دَارَهُ بِٱلمَدِينَةِ وَجَعَلَهَا مُجَصَّصَةَ ٱلظَّاهِرِ وَٱلبَاطِنِ وَخَلَّفَ يَعْلَى بْنُ مُنَبِّهٍ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَعَقَاراً وَغَيْرَ ذٰلِكَ مَا قِيمَتُهُ ثَلاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .اه كَلامُ ٱلمَسْعُودِي فَكَانَتْ مَكَاسِبُ ٱلقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مَنْعِيّاً عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ إِذْ هِيَ أَمْوَالٌ حلالٌ لِأَنَّهَا غَنَائِمُ وَفُيُوءٌ وَلَمْ يَكُنْ تَصَرُّفُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ إِنَّمَا كَانُوا عَلَى قَصْدٍ فِي أَحْوَالِهِمْ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ بِقَادِحٍ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ ٱلاِسْتِكْثَارُ مِنَ ٱلدُّنْيَا مَذْمُوماً فَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلى مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنَ ٱلإِسْرَافِ وَٱلخُرُوجِ بِهِ عَنِ ٱلقَصْدِ وَإِذَا كَانَ حَالُهُمْ قَصْداً وَنَفَقَاتُهُمْ فِي سُبُلِ ٱلحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلاِسْتِكْثَارُ عَوْناً لَهُمْ عَلى طُرُقِ ٱلحَقِّ وَٱكْتِسَابِ ٱلدَّارِ ٱلآخِرَةِ فَلَمَّا تَدَرَّجَتِ ٱلبِدَاوَةُ وَٱلغَضَاضَةُ إِلى نِهَايَتِهَا وَجَاءَتْ طَبِيعَةُ ٱلمُلْكِ ٱلَّتِي هِيَ مُقْتَضَى ٱلعَصَبِيَّةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَحَصَلَ ٱلتَّغَلُّبُ وَٱلقَهْرُ كَانَ حُكْمُ ذٰلِكَ ٱلمُلْكِ عِنْدَهُمْ حُكْمَ ذٰلِكَ ٱلرَّفْهِ وَٱلاِسْتِكْثَارِ مِنَ ٱلأَمْوَالِ فَلَمْ يَصْرِفُوا ذٰلِكَ ٱلتَّغَلُّبَ فِي بَاطِلٍ وَلا خَرَجُوا بِهِ عَنْ مَقَاصِدِ ٱلدِّيَانَةِ وَمَذَاهِبِ ٱلحَقِّ * وَلَمَّا وَقَعَتِ ٱلفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَهِيَ مُقْتَضَى ٱلعَصَبِيَّةِ كَانَ طَرِيقُهُمْ فِيهَا ٱلحَقَّ وَٱلاِجْتِهَادَ وَلَمْ يَكُونُوا فِي مُحَارَبَتِهِمْ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ أَوْ لِإِيثَارِ بَاطِلٍ أَوْ لِٱسْتِشْعَارِ حِقْدٍ كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ مُتَوَهِّمٌ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ مُلْحِدٌ وَإِنَّمَا ٱخْتَلَفَ ٱجْتِهَادُهُمْ فِي ٱلحَقِّ وَسَفَّهَ كُلٌّ وَاحِدٍ نَظَرَ صَاحِبِهِ بِٱجْتِهَادِهِ فِي ٱلحَقِّ فَٱقْتَتَلُوا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ ٱلمُصِيبُ عَلِيّاً فَلَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةُ قَائِماً فِيهَا بِقَصْدِ ٱلبَاطِلِ إِنَّمَا قَصَدَ ٱلحَقَّ وَأَخْطَأَ وَٱلكُلُّ كَانُوا فِي مَقَاصِدِهِمْ عَلَى حَقٍّ ثُمَّ ٱقْتَضَتْ طَبِيعَةُ ٱلمُلْكِ ٱلاِنْفِرَادَ بِٱلمَجْدِ وَٱسْتِئْثَارَ ٱلوَاحِدِ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِمُعَاوِيَةَ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ فَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ سَاقَتْهُ ٱلعَصَبِيَّةُ بِطَبِيعَتِهَا وَٱسْتَشْعَرَتْهُ بَنُو أُمَيَّةَ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقَةِ مُعَاوِيَةَ فِي ٱقْتِفَاءِ ٱلحَقِّ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ فَٱعْصَوْصَبُوا عَلَيْهِ وَٱسْتَمَاتُوا دُونَهُ وَلَوْ حَمَلَهُمْ مُعَاوِيَةُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ ٱلطَّرِيقَةِ وَخَالَفَهُمْ فِي ٱلاِنْفِرَادِ بِٱلأَمْرِ لِوُقُوعٍ فِي ٱفْتِرَاقِ ٱلكَلِمَةِ ٱلَّتِي كَانَ جَمْعُهَا وَتَأْلِيفُهَا أَهَمَّ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ لَيْسَ وَرَاءَهُ كَبِيرُ مُخَالَفَةٍ

وَقَدْ كَانَ عمرُ بْنُ عَبْدِ ٱلعَزِيزِ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهِ يَقُولُ إِذَا رَأَى ٱلقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ لَوْ كَانَ لِي مِنَ ٱلأَمْرِ شَيْءٌ لَوَلَّيْتُهُ ٱلخِلافَةَ وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْهَدَ إِلَيْهِ لَفَعَلَ وَلَـكِنَّهُ كَانَ يَخْشَى مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ أَهْلِ ٱلحَلِّ وَٱلعَقْدِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَلا يَقْدِرُ أَنْ يُحَوِّلَ ٱلأَمْرَ عَنْهُمْ لِئَلَا تَقَعَ ٱلفُرْقَةُ وَهٰذَا كُلُّهُ إِنَّمَا حَمَلَ عَلَيْهِ مَنَازِعُ ٱلمُلْكِ ٱلَّتِي هِيَ مُقْتَضَى ٱلعَصَبِيَّةِ فَٱلمُلْكُ إِذَا حَصَلَ وَفَرَضْنَا أَنَّ ٱلوَاحِدَ ٱنفَرَدَ بِهِ وَصَرَفَهُ فِي مَذَاهِبِ ٱلحَقِّ وَوُجُوهِهِ لَمْ يَكُنْ فِي ذٰلِكَ نَكِيرٌ عَلَيْهِ وَلَقَدِ ٱنفَرَدَ سُلَيْمَانُ وَأَبُوهُ دَاوُدُ صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِمَا بِمُلْكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَا ٱقْتَضَتْهُ طَبِيعَةُ ٱلمُلْكِ مِنَ ٱلِٱنْفِرَادِ بِهِ وَكَانُوا مَا عَلِمْتَ مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلحَقِّ وَكَذٰلِكَ عَهِدَ مُعَاوِيَةُ إِلى يَزِيدَ خَوْفاً مِنَ ٱفْتِرَاقِ ٱلكَلِمَةِ بِمَا كَانَتْ بَنُو أُمَيَّةَ لَمْ يَرْضَوا تَسْلِيمَ ٱلأَمْرِ إِلى مَنْ سِوَاهُمْ فَلَوْ قَدْ عَهِدَ إِلى غَيْرِهِ ٱخْتَلَفُوا عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ ظَنَّهُمْ كَانَ بِهِ صَالِحاً . وَلا يَرْتَابُ أَحَدٌ فِي ذٰلِكَ وَلا يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَكُنْ لِيَعْهَدَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلفِسْقِ حَاشَا ٱللّٰهَ لِمُعَاوِيَةَ مِنْ ذٰلِكَ وَكَذٰلِكَ كَانَ مَرْوَانُ ٱبْنُ ٱلحَكَمِ وَٱبْنُهُ وَإِنْ كَانُوا مُلُوكاً لَمْ يَكُنْ مَذْهَبُهُمْ فِي ٱلمُلْكِ مَذْهَبَ أَهْلِ ٱلبِطَالَةِ وَٱلبَغْيِ إِنَّمَا كَانُوا مُتَحَرِّينَ لِمَقَاصِدِ ٱلحَقِّ جُهْدَهُمْ إِلَّا فِي ضَرُورَةٍ تَحْمِلُهُمْ عَلَى بَعْضِهَا مِثْلَ خَشْيَةِ ٱفْتِرَاقِ ٱلكَلِمَةِ ٱلَّذِي هُوَ أَهَمُّ لَدَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَقْصَدٍ يَشْهَدُ لِذٰلِكَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلِٱتِّبَاعِ وَٱلِٱقْتِدَاءِ وَمَا عَلِمَ ٱلسَّلَفُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ فَقَدِ ٱحْتَجَّ مَالِكٌ فِي ٱلمُوَطَّإِ بِعَمَلِ عَبْدِ ٱلمَلِكِ وَأَمَّا مَرْوَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلطَّبَقَةِ ٱلأُولى مِنَ ٱلتَّابِعِينَ وَعَدَالَتُهُمْ مَعْرُوفَةٌ ثُمَّ تَدَرَّجَ ٱلأَمْرُ فِي وُلْدِ عَبْدِ ٱلمَلِكِ وَكَانُوا مِنَ ٱلدِّينِ بِٱلمَكَانِ ٱلَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ وَتَوَسَّطَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ ٱلعَزِيزِ فَنَزَعَ إِلى طَرِيقَةِ ٱلخُلَفَاءِ ٱلأَرْبَعَةِ وَٱلصَّحَابَةِ جُهْدَهُ وَلَمْ يُهْمِلْ ثُمَّ جَاءَ خَلَفُهُمْ وَٱسْتَعْمَلُوا طَبِيعَةَ ٱلمُلْكِ فِي أَغْرَاضِهِمِ ٱلدُّنْيَوِيَّةِ وَمَقَاصِدِهِمْ وَنَسُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ مِنْ تَحَرِّي ٱلقَصْدِ فِيهَا وَٱعْتِمَادِ ٱلحَقِّ فِي مَذَاهِبِهَا فَكَانَ ذٰلِكَ مِمَّا دَعَا ٱلنَّاسَ إِلى أَنْ نَعَوا عَلَيْهِمْ أَفْعَالَهُمْ وَأَدَالُوا بِٱلدَّعْوَةِ ٱلعَبَّاسِيَّةِ مِنْهُمْ وَوَلِيَ رِجَالُهَا ٱلأَمْرَ فَكَانُوا مِنَ ٱلعَدَالَةِ بِمَكَانٍ وَصَرَفُوا ٱلمُلْكَ فِي وُجُوهِ ٱلحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ مَا ٱسْتَطَاعُوا حَتَّى جَاءَ بَنُو ٱلرَّشِيدِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانَ مِنْهُمُ ٱلصَّالِحُ وَٱلطَّالِحُ ثُمَّ أَفْضَى ٱلأَمْرُ إِلى بَنِيهِمْ فَأَعْطَوا ٱلمُلْكَ وَٱلتَّرَفَ حَقَّهُ وَٱنْغَمَسُوا فِي ٱلدُّنْيَا وَبَاطِلِهَا وَنَبَذُوا ٱلدِّينَ وَرَاءَهُمْ ظِهْرِيّاً فَتَأَذَّنَ ٱللّٰهُ بِحَرْبِهِمْ وَٱنْتِزَاعِ ٱلأَمْرِ مِنْ أَيْدِي ٱلعَرَبِ جُمْلَةً وَأَمْكَنَ سِوَاهُمْ وَٱللّٰهُ لا

يظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ سِيَرَ هٰؤلاء ٱلْخُلَفَاء وَٱلْمُلُوكِ وَٱخْتِلافَهُمْ في تَحَرِّي ٱلْحَق مِنَ ٱلْبَاطِلِ عَلِمَ صِحَّةَ مَا قُلْنَاهُ وَقَدْ حَكَاهُ ٱلْمَسْعُودِيُّ مِثْلَهُ في أَحْوَالِ بَنِي أُمَيَّةَ عَن إِلِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ وَقَدْ حَضَرَ عُمُومَتُهُ وَذَكَرُوا بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ أَمَّا عَبْدُ ٱلْمَلِكِ فَكَان جبَّاراً لَا يُبَالِي بِمَا صَنَعَ وَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَكَانَ هَمُّهُ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ وَأَمَّا عُمَرُ فَكَانَ أَعْوَر بَيْنَ عُمْيَانٍ وَكَانَ رَجُلَ ٱلْقَوْمِ هِشَامٌ قَالَ وَلَمْ يَزَلْ بَنُو أُمَيَّةَ ضَابِطِينَ لِمَا مُهِّدَ لَهُمْ مِن ٱلسُّلْطَانِ يَحُوطُونَهُ وَيَصُونُونَ مَا وَهَبَ ٱللهُ لَهُمْ مِنْهُ مَعَ تَسَنُّمِهِمْ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ وَرَفْضِهِم دَنِيَّاتِهَا حَتَّى أَفْضَى ٱلْأَمْرُ إلى أَبْنَائِهِمِ ٱلْمُتْرَفِينَ فَكَانَتْ هِمَّتُهُمْ قَصْدَ ٱلشَّهَوَاتِ وَرُكُوب ٱللَّذَّاتِ مِنْ مَعَاصِي ٱللهِ جَهْلاً بِٱسْتِدْرَاجِهِ وَأَمْناً لِمَكْرِهِ مَعَ ٱطِّرَاحِهِمْ صِيَانَةَ ٱلْخِلافَة وَٱسْتِخْفَافِهِمْ بِحَقِّ ٱلرِّئَاسَةِ وَضَعْفِهِمْ عَنِ ٱلسِّيَاسَةِ فَسَلَبَهُمُ ٱللهُ ٱلْعِزَّ وَأَلْبَسَهُمُ ٱلذُّلَّ وَنَفَى عنهُمُ ٱلنِّعْمَةَ ثُمَّ ٱسْتَحْضَرَ عَبْدَ ٱللهِ[1] بْنَ مَرْوَانَ فَقَصَّ عَلَيْهِ خَبَرَهُ مَعَ مَلِكِ ٱلنُّوبَةِ لَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُمْ فَارّاً أَيَّامَ ٱلسَّفَّاحِ قَالَ أَقَمْتُ مَلِيّاً ثُمَّ أَتَانِي مَلِكُهُمْ فَقَعَدَ عَلى ٱلْأَرْض وَقَدْ بُسِطَتْ لِي فُرُشٌ ذَاتُ قِيمَةٍ فَقُلْتُ مَا مَنَعَكَ عَنِ ٱلْقُعُودِ على ثِيَابِنا فَقَالَ إِنِّي مَلِك وَحَقٌّ لِكُلِّ مَلِكٍ أَنْ يَتَوَاضَعَ لِعَظَمَةِ ٱللهِ إِذْ رَفَعَهُ ٱللهُ ثُمَّ قَالَ لِي لِمَ تَشْرَبُونَ ٱلْخَمْر وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْكُمْ في كِتَابِكُمْ فَقُلْتُ ٱجْتَرَأَ على ذٰلِكَ عَبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا قَالَ فَلِمَ تَطَئُون ٱلزَّرْعَ بِدَوَابِّكُمْ وَٱلْفَسَادُ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ قُلْتُ فَعَلَ ذٰلِكَ عَبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا بِجَهْلِهِمْ قَال فَلِمَ تَلْبَسُونَ ٱلدِّيبَاجَ وَٱلذَّهَبَ وَٱلْحَرِيرَ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ في كِتَابِكُمْ قُلت ذَهَبَ مِنَّا ٱلْمُلْكُ وَٱنْتَصَرْنَا بِقَوْمٍ مِنَ ٱلْعَجَمِ دَخَلُوا في دِينِنَا فَلَبِسُوا ذٰلِكَ عَلى ٱلْكُرْهِ مِنَّا فَأَطْرَق يَنْكُتُ بِيَدِهِ في ٱلْأَرْضِ وَيَقُولُ عَبِيدُنَا وَأَتْبَاعُنَا وَأَعَاجِمُ دَخَلُوا في دِينِنَا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ ٱسْتَحْلَلْتُمْ مَا حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ وَأَتَيْتُمْ مَا عَنْهُ نُهِيتُمْ وَظَلَمْتُمْ فِيمَا مَلَكْتُمْ فَسَلَبَكُمُ ٱللهُ ٱلْعِزَّ وَأَلْبَسَكُمُ ٱلذُّلَّ بِذُنُوبِكُمْ وَلِلهِ نَقِمَةٌ لَمْ تَبْلُغْ غَايَتَهَا فِيكُمْ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَحِلَّ بِكُمُ ٱلْعَذَابُ وَأَنْتُمْ بِبَلَدِي فَيَنَالَنِي مَعَكُمْ وَإِنَّمَا ٱلضِّيَافَةُ ثَلاثٌ فَتَزَوَّدْ مَا ٱحْتَجْتَ إِلَيْهِ وَٱرْتَحِلْ عَنْ أَرْضِي فَتَعَجَّبَ ٱلْمَنْصُورُ وَأَطْرَقَ فَقَد تَبَيَّنَ لَكَ كَيْفَ ٱنْقَلَبَتِ ٱلْخِلافَةُ إلى ٱلْمُلْكِ وَأَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ في أَوَّلِهِ خِلافَةً وَوَازِع كُلِّ أَحَدٍ فِيهَا مِنْ نَفْسِهِ وَهُوَ ٱلدِّينُ وَكَانُوا يُؤْثِرُونَهُ عَلى أُمُورِ دُنْيَاهُمْ وَإِنْ أَفْضَتْ إلى

(١) قوله عبد الله كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية وفي بعضها عبد الملك واظنه تصحيفاً قاله نصر

هلاكهم وحدهم دون الكافة فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً للإلفة التي بها حفظ الكلمة ولو أدى إلى هلاكه وهذا علي أشار عليه المغيرة لأول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فراراً من الغش الذي ينافيه الإسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد أشرت عليك بالأمس بما أشرت ثم عدت إلى نظري فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة وأن الحق فيما رأيته أنت فقال علي لا والله بل أعلم أنك نصحتني بالأمس وغششتني اليوم ولكن منعني مما أشرت به زائد الحق وهكذا كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكاً بحتاً وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الأمر ملكاً بحتاً كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركاً والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين ومغراوة وبني يفرن أيضاً مع خلفاء بني أمية بالأندلس والعبيديين بالقيروان فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً ثم التبست معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة والله

مقدّرُ ٱللَّيلِ وَٱلنّهارِ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهّارُ

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة [1]

إعلَمْ أنَّ ٱلْبَيْعَةَ هِيَ ٱلْعَهْدُ عَلى ٱلطّاعَةِ كَأنَّ ٱلْمُبَايِعَ يُعاهِدُ أميرَهُ عَلى أنّهُ يُسلِّمُ لَهُ ٱلنّظَرَ في أمرِ نَفْسِهِ وَأُمورِ ٱلْمُسْلِمِينَ لاَ يُنازِعُهُ في شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا يُكَلِّفُهُ بِهِ مِنَ ٱلأَمرِ عَلى ٱلْمَنْشَطِ وَٱلْمَكْرِهِ وَكَانُوا إذَا بَايَعُوا ٱلأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ تأكِيداً لِلعَهْدِ فَأشْبَهَ ذَلِكَ فِعلَ ٱلبَائِعِ وَٱلْمُشْتَرِي فَسُمِّيَ بَيْعَةً مَصْدَر بَاعَ وَصَارَتِ ٱلْبَيْعَةُ مُصَافَحَةً بِٱلأَيْدِي هٰذَا مَدْلُولُهَا فِي عُرْفِ ٱللُّغَةِ وَمَعْهُودِ ٱلشَّرْعِ وَهُوَ ٱلْمُرَادُ فِي ٱلْحَدِيثِ فِي بَيْعَةِ ٱلنَّبِي صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ ٱلْعَقَبَةِ وَعِنْدَ ٱلشَّجَرَةِ وَحَيْثُمَا وَرَدَ هٰذَا ٱللَّفْظُ وَمِنْهُ بَيْعَةُ ٱلْخُلَفَاءِ وَمِنْهُ أَيْمَانُ ٱلبَيْعَةِ كَانَ ٱلْخُلَفَاءُ يَسْتَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ ٱلأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذَلِكَ فَسُمِّيَ هٰذَا ٱلِٱسْتِيعَابُ أَيْمَانَ ٱلْبَيْعَةِ وَكَانَ ٱلإِكْرَاه فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ وَلِهَذَا لَمَّا أَفْتَى مَالِكٌ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ يَمِينِ ٱلإِكْرَاهِ أَنْكَرَهَا ٱلْوُلاَةُ عَلَيْهِ وَرَأَوْهَا قَادِحَةً فِي أَيْمَانِ ٱلْبَيْعَةِ وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مِحْنَةِ ٱلإِمَامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَأَمَّا ٱلْبَيْعَةُ ٱلْمَشْهُورَةُ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ ٱلْمُلُوكِ ٱلْكِسْرَوِيَّةِ مِنْ تَقْبِيلِ ٱلأَرْضِ أَوِ ٱلْيَدِ أَوِ ٱلرِّجْلِ أَوِ ٱلذَّيْلِ أُطْلِقَ عَلَيْهَا ٱسْمُ ٱلْبَيْعَةِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْعَهْدُ عَلَى ٱلطَّاعَةِ مَجَازاً لِمَا كَانَ هٰذَا ٱلْخُضُوعُ فِي ٱلتَّحِيَّةِ وَٱلْتِزَامُ ٱلآدَابِ مِنْ لَوَازِمِ ٱلطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا وَغَلَبَ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً وَٱسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ مُصَافَحَةِ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْحَقِيقَةُ فِي ٱلأَصلِ لِمَا فِي ٱلْمُصَافَحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ ٱلتَّنَزُّلِ وَٱلِٱبْتِذَالِ ٱلْمُنَافِيَيْنِ لِلرِّئَاسَةِ وَصَوْنِ ٱلْمَنْصِبِ ٱلْمُلُوكِيِّ إِلَّا فِي ٱلأَقَلِّ مِمَّنْ يَقْصِدُ ٱلتَّوَاضُعَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِّهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ ٱلدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَٱفْهَمْ مَعْنَى ٱلْبَيْعَةِ فِي ٱلْعُرْفِ فَإِنَّهُ أَكِيدٌ عَلَى ٱلإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهُ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ وَلاَ تَكُونُ أَفْعَالُهُ عَبَثاً وَمَجَّاناً وَٱعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ ٱلْمُلُوكِ وَٱللهُ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) البيعة بفتح الموحدة اما بكسرها على وزن شيعة بسكون الباء فيها فهي معبد النصارى . اهـ

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

إعلَمْ أنَّا قدَّمْنا الكَلامَ في الإمامَةِ ومَشرُوعيَّتِها لِما فِيها مِنَ المَصلَحَةِ وأنَّ حَقيقَتَها لِلنَّظَرِ في مَصالِحِ الأُمَّةِ لِدينِهِم ودُنْياهُمْ فهُوَ وَلِيُّهُم والأَمينُ علَيهِم يَنظُرُ لَهُمْ ذٰلِكَ في حيَاتِهِ ويتْبَعُ ذٰلِكَ أنْ يَنظُرَ لَهُمْ بَعْدَ مَماتِهِ ويُقيمَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّى أُمورَهُمْ كَمَا كانَ هُوَ يتَوَلَّاهَا ويَثِقُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ في ذٰلِكَ كَمَا وَثِقُوا بِهِ فِيمَا قَبلُ وَقَدْ عُرِفَ ذٰلِكَ مِنَ الشَّرْعِ بِإجماعِ الأُمَّةِ عَلَى جَوازِهِ وانْعِقادِهِ إذْ وَقَعَ بِعَهْدِ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ لِعُمَر بِمَحْضَرٍ مِنَ الصَّحابَةِ وأَجازُوهُ وأَوْجَبُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ بِهِ طَاعَةَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وعَنهُم وكَذٰلِكَ عَهِدَ عُمَرُ في الشُّورَى إلَى السِّتَّةِ بَقيَّةِ العَشَرَةِ وَجَعَلَ لَهُمْ أنْ يَخْتَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ ففَوَّضَ بَعْضُهُمْ إلَى بَعضٍ حَتَّى أفضَى ذٰلِكَ إلَى عَبْدِ الرَّحمٰنِ بنِ عَوفٍ فاجتَهَدَ وناظَرَ المُسلِمِينَ فوَجَدَهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى عُثْمانَ وعَلَى عَلِيٍّ فآثَرَ عُثْمانَ بِالبَيْعَةِ عَلَى ذٰلِكَ لِمُوافَقَتِهِ إيَّاهُ عَلَى لُزُومِ الاقْتِداءِ بِالشَّيْخَيْنِ في كُلِّ ما يَعِنُّ دُونَ اجتِهادِهِ فانْعَقَدَ أمرُ عُثْمانَ لِذٰلِكَ وأوْجَبُوا طَاعَتَهُ والمَلأُ مِنَ الصَّحابَةِ حاضِرُونَ لِلأُولَى والثَّانِيَةِ ولَمْ يُنْكِرْهُ أحَد مِنهُمْ فدَلَّ عَلَى أنَّهُم مُتَّفِقُونَ عَلَى صِحَّةِ هٰذَا العَهْدِ عارِفُونَ بِمَشرُوعِيَّتِهِ والإجْماعُ حُجَّة كَما عُرِفَ ولاَ يُتَّهَمُ الإمامُ في هٰذَا الأمْرِ وإنْ عَهِدَ إلَى أبيهِ أوِ ابْنِهِ لأنَّهُ مَأمونٌ عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ في حَياتِهِ فأوْلَى أنْ لاَ يَحْتَمِلَ فِيهَا تَبِعَةً بَعْدَ مَماتِهِ خِلافاً لِمَنْ قالَ بِاتِّهامِهِ في الوَلَدِ والوالِدِ أوْ لِمَنْ خَصَّصَ التُّهْمَةَ بِالوَلَدِ دُونَ الوالِدِ فإنَّهُ بَعيدٌ عَنِ الظِّنَّةِ في ذٰلِكَ كُلِّهِ لاَ سِيَّمَا إذا كانَتْ هُناكَ داعِيَةٌ تَدْعُو إلَيْهِ مِنْ إيثارِ مَصلَحَةٍ أو تَوَقُّعِ مَفسَدَةٍ فتَنْتَفِي الظِّنَّةُ في ذٰلِكَ رَأساً كَمَا وَقَعَ في عَهْدِ مُعاوِيَةَ لابْنِهِ يَزِيدَ وإنْ كانَ فِعْلُ مُعاوِيَةَ مَعَ وِفاقِ النَّاسِ لَهُ حُجَّةً في البابِ والَّذي دَعا مُعاوِيَةَ لإيثارِ ابْنِهِ يَزِيد بِالعَهْدِ دُونَ مَنْ سِواهُ إنَّمَا هُوَ مُراعاةُ المَصلَحَةِ في اجتِماعِ النَّاسِ واتِّفاقِ أهْوائِهِم بِاتِّفاقِ أهْلِ الحَلِّ والعَقْدِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَني أُمَيَّةَ إذْ بَنُو أُمَيَّةَ يَوْمَئِذٍ لاَ يَرْضَوْنَ سِواهُم وهُمْ عِصابَةُ قُرَيْشٍ وأهْلُ المِلَّةِ أجْمَعَ وأهْلُ الغَلَبِ مِنهُمْ فآثَرَهُ بِذٰلِكَ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ يُظَنُّ أنَّهُ أوْلَى بِهَا وعَدَلَ عَنِ الفاضِلِ إلَى المَفضُولِ حِرْصاً عَلَى الاتِّفاقِ واجْتِماعِ الأهْواءِ الَّذي شَأنُهُ أهَمُّ عِنْدَ الشَّارِعِ وإنْ كانَ لاَ يُظَنُّ بِمُعاوِيَةَ غَيْرُ هٰذَا فعَدالَتُهُ

وَصُحبَتُهُ مَانِعَةٌ مِنْ سِوَى ذٰلِكَ وَحُضُورُ أَكَابِرِ ٱلصَّحَابَةِ لِذٰلِكَ وَسُكُوتُهُم عَنْهُ دَلِيل عَلَى ٱنْتِفَاءِ ٱلرَّيْبِ فِيهِ فَلَيْسُوا مِمَّنْ يَأْخُذُهُمْ فِي ٱلحَقِّ هَوَادَةٌ وَلَيْسَ مُعَاوِيَةُ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ ٱلعِزَّةُ فِي قَبُولِ ٱلحَقِّ فَإِنَّهُم كُلَّهُمْ أَجَلُّ مِنْ ذٰلِكَ وَعَدَالَتُهُمْ مَانِعَةٌ مِنْهُ وَفِرَارُ عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنِ عُمَرَ مِنْ ذٰلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ ٱلدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ مُبَاحاً كَانَ أَوْ مَحْظُوراً كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي ٱلمُخَالَفَةِ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ ٱلَّذِي ٱتَّفَقَ عَلَيْهِ ٱلجُمْهُورُ إِلَّا ٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ وَنُدُورُ ٱلمُخَالِفِ مَعْرُوفٌ ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذٰلِكَ مِنْ بَعْدِ مُعَاوِيَةَ مِنَ ٱلخُلَفَاءِ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ ٱلحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ ٱلمَلِكِ وَسُلَيْمَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱلسَّفَّاحِ وَٱلمَنْصُورِ وَٱلمَهْدِيِّ وَٱلرَّشِيدِ مِنْ بَنِي ٱلعَبَّاسِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ عُرِفَتْ عَدَالَتُهُمْ وَحُسْنُ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَٱلنَّظَرُ لَهُمْ وَلَا يُعَابُ عَلَيْهِمْ إِيثَارُ أَبْنَائِهِم وَإِخْوَانِهِمْ وَخُرُوجُهُمْ عَنْ سُنَنِ ٱلخُلَفَاءِ ٱلْأَرْبَعَةِ فِي ذٰلِكَ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أُولٰئِكَ ٱلخُلَفَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِينٍ لَمْ تَحْدُثْ طَبِيعَةُ ٱلمُلْكِ وَكَانَ ٱلوَازِعُ دِينِيّاً فَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ فَعَهِدُوا إِلَى مَنْ يَرْتَضِيهِ ٱلدِّينُ فَقَطْ وَآثَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ وَوَكَلُوا كُلَّ مَنْ يَسْمُو إِلَى ذٰلِكَ إِلَى وَازِعِهِ وَأَمَّا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَدُنْ مُعَاوِيَةَ فَكَانَتِ ٱلعَصَبِيَّةُ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنَ ٱلمُلْكِ وَٱلوَازِعُ ٱلدِّينِيُّ قَدْ ضَعُفَ وَٱحْتِيجَ إِلَى ٱلوَازِعِ ٱلسُّلْطَانِيِّ وَٱلعَصَبَانِيِّ فَلَوْ عُهِدَ إِلَى غَيْرِ مَنْ تَرْتَضِيهِ ٱلعَصَبِيَّةُ لَرَدَّتْ ذٰلِكَ ٱلعَهْدَ وَٱنْتَقَضَ أَمْرُهُ سَرِيعاً وَصَارَتِ ٱلجَمَاعَةُ إِلَى ٱلفُرْقَةِ وَٱلِٱخْتِلَافِ. سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيّاً رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مَا بَالُ ٱلمُسْلِمِينَ ٱخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا وَالِيَيْنِ عَلَى مِثْلِي وَأَنَا ٱليَوْمَ وَالٍ عَلَى مِثْلِكَ يُشِيرُ إِلَى وَازِعِ ٱلدِّينِ أَفَلَا تَرَى إِلَى ٱلمَأْمُونِ لَمَّا عَهِدَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ وَسَمَّاهُ ٱلرِّضَا كَيْفَ أَنْكَرَتِ ٱلعَبَّاسِيَّةُ ذٰلِكَ وَنَقَضُوا بَيْعَتَهُ وَبَايَعُوا لِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلمَهْدِيِّ وَظَهَرَ مِنَ ٱلهَرْجِ وَٱلخِلَافِ وَٱنْقِطَاعِ ٱلسُّبُلِ وَتَعَدُّدِ ٱلثُّوَّارِ وَٱلخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ يَصْطَلِمَ ٱلْأَمْرَ حَتَّى بَادَرَ ٱلمَأْمُونُ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمَعَاهِدِهِ فَلَا بُدَّ مِنِ ٱعْتِبَارِ ذٰلِكَ فِي ٱلعَهْدِ فَٱلعُصُورُ تَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ ٱلْأُمُورِ وَٱلقَبَائِلِ وَٱلعَصَبِيَّاتِ وَتَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلمَصَالِحِ وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يَخُصُّهُ لُطْفاً مِنَ ٱللهِ بِعِبَادِهِ وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلقَصْدُ بِٱلعَهْدِ حِفْظَ ٱلتُّرَاثِ عَلَى ٱلْأَبْنَاءِ فَلَيْسَ مِنَ ٱلمَقَاصِدِ ٱلدِّينِيَّةِ إِذْ هُوَ أَمْر

منَ ٱللهِ يَخُصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَنْبَغِي أَنْ تُحَسَّنَ فِيهِ ٱلنِّيَّةُ مَا أَمْكَنَ خَوْفاً مِن ٱلعَبَثِ بِٱلْمَنَاصِبِ ٱلدِّينِيَّةِ وَٱلْمُلْكُ لِلّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ * وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو ٱلضَّرُورَةُ إِلَى بَيَانِ ٱلحَقِّ فِيهَا * فَٱلأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مِنَ ٱلْفِسْقِ أَيَّامَ خِلافَتِهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ يَزِيدَ فَإِنَّهُ أَعدَلُ مِنْ ذٰلِكَ وَأَفْضَلُ بَلْ كَانَ يَعْذُلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ ٱلْغِنَاءِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ وَهُوَ أَقَلُّ مِنْ ذٰلِكَ وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً وَلَمَّا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَثَ مِنَ ٱلْفِسْقِ ٱخْتَلَفَ ٱلصَّحَابَةُ حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى ٱلْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَنَقْضَ بَيْعَتِهِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَمَا فَعَلَ ٱلْحُسَيْنُ وَعَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَهُمَا فِي ذٰلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ لِمَا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ ٱلْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ ٱلْقَتْلِ مَعَ ٱلعَجْزِ عَنِ ٱلْوَفَاءِ بِهِ لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمَئِذٍ هِيَ عِصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ ٱلحَلِّ وَٱلعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَتَسْتَتْبِعُ عَصَبِيَّةُ مُضَرَ أَجْمَعَ وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلَا تُطَاقُ مُقَاوَمَتُهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذٰلِكَ وَأَقَامُوا عَلَى ٱلدُّعَاءِ بِهِدَايَتِهِ وَٱلرَّاحَةِ مِنْهُ وَهٰذَا كَانَ شَأْنَ جُمْهُورِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ وَلَا يُنْكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي ٱلْبِرِّ وَتَحَرِّي ٱلحَقِّ مَعْرُوفَةٌ وَفَّقَنَا ٱللهُ لِلاقْتِدَاءِ بِهِمْ * وَٱلأَمْرُ ٱلثَّانِي هُوَ شَأْنُ ٱلْعَهْدِ مَعَ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا تَدَّعِيهِ ٱلشِّيعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصِحَّ وَلَا نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ وَٱلَّذِي وَقَعَ فِي ٱلصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ ٱلدَّوَاةِ وَٱلْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ ٱلْوَصِيَّةَ وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذٰلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فِي ٱلْعَهْدِ فَقَالَ إِنْ أَعْهَدْ فَقَدْ عَهِدَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَإِنْ أَتْرُكْ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْهَدْ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيٍّ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا فِي ٱلْعَهْدِ فَأَبَى عَلِيٌّ مِنْ ذٰلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعَنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ ٱلدَّهْرِ وَهٰذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيّاً عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوصِ وَلَا عَهِدَ إِلَى أَحَدٍ وَشُبْهَةُ ٱلْإِمَامِيَّةِ فِي ذٰلِكَ إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ ٱلْإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ ٱلدِّينِ كَمَا يَزْعُمُونَ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ ٱلْمَصَالِحِ ٱلْعَامَّةِ ٱلْمُفَوَّضَةِ إِلَى نَظَرِ ٱلْخَلْقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ ٱلدِّينِ لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ ٱلصَّلاةِ وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا كَمَا ٱسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي ٱلصَّلاةِ وَلَكَانَ يَشْتَهِر

كما اشتهر أمر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا دليل على أن الوصية لم تقع ويدل ذلك أيضاً على أن أمر الإمامة والعهد بها لم يكن مهماً كما هو اليوم وشأن العصبية المراعاة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لأن أمر الدين والإسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب عليه واستماتة الناس دونه وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم فلم يحتج إلى مراعاة العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والإذعان وما يستفزهم من تتابع المعجزات الخارقة والأحوال الإلهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجموا منها ودهشوا من تتابعها فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية وسائر هذه الأنواع مندرجاً في ذلك القبيل كما وقع فلما انحسر ذلك المدد بذهاب تلك المعجزات ثم بفناء القرون الذين شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلاً قليلاً وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهماً من المهمات الأكيدة كما زعموا ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم غير مهمة فلم يعهد فيها ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت الضرورة إليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات فكانوا بالخيار في الفعل والترك كما ذكرناه عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الأمور للألفة على الحماية والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق والكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها * والأمر الثالث شأن الحروب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتابعين فاعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون إذا اختلفوا فإن قلنا إن الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطىء فإن جهته لا تتعين بإجماع فيبقى الكل على احتمال الإصابة ولا يتعين المخطىء

منها وَالتَّأثِيمُ مَدفوعٌ عَنِ الكُلِّ إجْمَاعاً وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الكُلَّ حَقٌّ وَإِنَّ كُلَّ مُجْتَهِد مصِيبٌ فَأَحرَى بِنَفْيِ الخَطَإِ وَالتَّأْثِيمِ وَغَايَةُ الخِلافِ الَّذِي بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّهُ خِلافٌ اجْتِهادِيٌّ فِي مَسَائِلَ دِينِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ وَهٰذَا حُكْمُهُ وَالَّذِي وَقَعَ مِنْ ذٰلِكَ فِي الإِسْلام إِنَّمَا هُوَ وَاقِعَةُ عَلِيٍّ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَوَاقِعَةُ الحُسَيْنِ مَعَ يَزِيد وَوَاقِعَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ المَلِكِ فَأَمَّا وَاقِعَةُ عَلِيٍّ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَان مفْتَرِقِينَ فِي الأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بَيْعَةَ عَلِيٍّ وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ وَمِنْهُمْ مَن تَوَقَّفَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامٍ كَسَعْدٍ وَسَعِيدٍ وَابْنِ عُمَرَ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْد وَالمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلامٍ وَقُدَامَةَ بْنِ مَظْعُونٍ وَأَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ وَكَعْب بْنِ مَالِكٍ وَالنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ وَحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَمَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ وَفَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ وَأَمْثَالِهِم مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَالَّذِينَ كَانُوا فِي الأَمْصَارِ عَدَلُوا عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضاً إِلَى الطَّلَبِ بِدَم عُثْمَانَ وَتَرَكُوا الأَمْرَ فَوْضَى حَتَّى يَكُونَ شُورَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ لِمَنْ يُوَلُّونَهُ وَظَنُّوا بِعَلِي هَوَادَةً فِي السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ عُثْمَانَ مِنْ قَاتِلِيهِ لا فِي المُمَالأَةِ عَلَيْهِ فَحَاشَ للهِ مِنْ ذٰلِكَ وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَّحَ بِمَلامَتِهِ إِنَّمَا يُوَجِّهُهَا عَلَيْهِ فِي سُكُوتِهِ فَقَطْ ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذٰلِكَ فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّ بَيْعَتَهُ قَدِ انْعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعِ مَنِ اجْتَمَع عَلَيْهَا بِالمَدِينَةِ دَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَوْطِنِ الصَّحَابَةِ وَأَرْجَأَ الأَمْرَ فِي المُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِّفَاقِ الكَلِمَةِ فَيَتَمَكَّنُ حِينَئِذٍ مِنْ ذٰلِك وَرَأَى الآخَرُونَ أَنَّ بَيْعَتَهُ لَمْ تَنْعَقِدْ لافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ بِالآفَاقِ وَلَم يَحْضُرْ إِلَّا قَلِيلٌ وَلا تَكُونُ البَيْعَةُ إِلَّا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ وَلا تُلْزِمُ بِعَقْد مَنْ تَوَلَّاهَا مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ مِنَ القَلِيلِ مِنْهُمْ وَإِنَّ المُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوْضَى فَيُطَالِبُون أَوَّلاً بِدَمِ عُثْمَانَ ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ وَذَهَبَ إِلَى هٰذَا مُعَاوِيَةُ وَعَمْرُو بْنُ العَاص وَأُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَابْنُهُ عَبْدُ اللهِ وَطَلْحَةُ وَابْنُهُ مُحَمَّدٌ وَسَعْدٌ وَسَعِيد وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ حُدَيْجٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِين تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِالمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا إِلا أَنَّ أَهْلَ العَصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِم اتَّفَقُوا عَلَى انْعِقَادِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ وَلُزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ وَتَصْوِيبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَب إِلَيْهِ وَتَعْيِينِ الخَطَإِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ وَخُصُوصاً طَلْحَة

وَٱلزُّبَيْرُ لِأَنْتِقَاضِهِمَا عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ ٱلْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نُقِلَ مَعَ دَفْعِ ٱلتَّأْثِيمِ عَنْ كُلٍّ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَالشَّأْنِ فِي ٱلْمُجْتَهِدِينَ وَصَارَ ذَٰلِكَ إِجْمَاعاً مِنْ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ ٱلثَّانِي عَلَى أَحَدِ قَوْلَيْ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ ٱلْأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَتْلَى ٱلْجَمَلِ وَصِفِّينَ فَقَالَ وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَقَلْبُهُ نَقِيٌّ إِلَّا دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ يُشِيرُ إِلَى ٱلْفَرِيقَيْنِ نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ فَلَا يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِي عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا قَدْحَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَٰلِكَ فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ ٱلْمُسْتَنَدَاتِ وَعَدَالَتُهُمْ مَفْرُوغٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ إِلَّا قَوْلًا لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَقِّ وَلَا عَرَّجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ ٱلْإِنْصَافِ عَذَرْتَ ٱلنَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ ٱلِٱخْتِلَافِ فِي عُثْمَانَ وَٱخْتِلَافِ ٱلصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدُ وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً ٱبْتَلَى ٱللَّهُ بِهَا ٱلْأُمَّةَ بَيْنَمَا ٱلْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ ٱللَّهُ عَدُوَّهُمْ وَمَلَّكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَنَزَلُوا ٱلْأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِٱلْبَصْرَةِ وَٱلْكُوفَةِ وَٱلشَّامِ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ نَزَلُوا هٰذِهِ ٱلْأَمْصَارَ جُفَاةً لَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ صُحْبَةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا ٱرْتَاضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنَ ٱلْجَفَاءِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلتَّفَاخُرِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ سَكِينَةِ ٱلْإِيمَانِ وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ ٱسْتِفْحَالِ ٱلدَّوْلَةِ قَدْ أَصْبَحُوا فِي مَلَكَةِ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ وَثَقِيفٍ وَهُذَيْلٍ وَأَهْلِ ٱلْحِجَازِ وَيَثْرِبَ ٱلسَّابِقِينَ ٱلْأَوَّلِينَ إِلَى ٱلْإِيمَانِ فَٱسْتَنْكَفُوا مِنْ ذَٰلِكَ وَغَصُّوا بِهِ لِمَا يَرَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلتَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَمُصَادَمَةِ فَارِسَ وَٱلرُّومِ مِثْلِ قَبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَعَبْدِ ٱلْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقَبَائِلِ كِنْدَةَ وَٱلْأَزْدِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مُضَرَ فَصَارُوا إِلَى ٱلْغَضِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَٱلْأَنَفَةِ عَلَيْهِمْ وَٱلتَّمْرِيضِ فِي طَاعَتِهِمْ وَٱلتَّعَلُّلِ فِي ذَٰلِكَ بِٱلتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ وَٱلِٱسْتِعْدَاءِ عَلَيْهِمْ وَٱلطَّعْنِ فِيهِمْ بِٱلْعَجْزِ عَنِ ٱلسَّوِيَّةِ وَٱلْعَدْلِ فِي ٱلْقَسْمِ عَنِ ٱلسَّوِيَّةِ وَفَشَتِ ٱلْمَقَالَةُ بِذَٰلِكَ وَٱنْتَهَتْ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ مَنْ يَكْشِفُ لَهُ ٱلْخَبَرَ بَعَثَ ٱبْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى ٱلْأُمَرَاءِ شَيْئاً وَلَا رَأَوْا عَلَيْهِمْ طَعْناً وَأَدَّوْا ذَٰلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ ٱلطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ ٱلشَّنَاعَاتُ تَنْمُو وَرُمِيَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَهُوَ عَلَى ٱلْكُوفَةِ بِشُرْبِ ٱلْخَمْرِ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّهُ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ ثُمَّ جَاءَ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ

منْ أَهلِ ٱلأَمصارِ يَسأَلُونَ عَزْلَ ٱلعُمَّالِ وَشَكَوا إلى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَٱلزُّبَيْرِ وَطَلحَةَ وَعَزَلَ لَهُمْ عُثمَانُ بَعضَ ٱلعُمَّالِ فَلَمْ تَنقَطِعْ بِذٰلِكَ أَلسِنَتُهُمْ بَلْ وَفَدَ سَعِيدُ بْنُ ٱلعَاصِ وَهُو عَلى ٱلكُوفَةِ فَلَمَّا رَجعَ ٱعتَرَضُوهُ بِٱلطَّرِيقِ وَرَدُّوهُ مَعزُولاً ثُمَّ ٱنتَقَلَ ٱلخِلافُ بَينَ عُثمَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ بِٱلمَدِينَةِ وَنَقَمُوا عَلَيهِ ٱمتِنَاعَهُ مِنَ ٱلعَزْلِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَلى جُرحَةٍ ثُمَّ نَقَلُوا ٱلنَّكِيرَ إلى غَيرِ ذٰلِكَ مِنْ أَفعَالِهِ وَهُوَ مُتَمَسِّكٌ بِٱلاِجتِهَادِ وَهُمْ أَيضاً كَذٰلِكَ ثُمَّ تَجَمَّعَ قَومٌ مِنَ ٱلغَوغَاءِ وَجَاءُوا إلى ٱلمَدِينَةِ يُظهِرُونَ طَلَبَ ٱلنَّصَفَةِ مِنْ عُثمَانَ وَهُمْ يُضمِرُونَ خِلافَ ذٰلِكَ مِنْ قَتلِهِ وَفِيهِمْ مِنَ ٱلبَصرَةِ وَٱلكُوفَةِ وَمِصرَ وَقَامَ مَعَهُمْ فِي ذٰلِكَ عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ وَٱلزُّبَيْرُ وَطَلحَةُ وَغَيرُهُمْ يُحَاوِلُونَ تَسكِينَ ٱلأُمُورِ وَرُجُوعَ عُثمَانَ إلى رَأْيِهِمْ وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلَ مِصرَ فَٱنصَرَفُوا قَلِيلاً ثُمَّ رَجَعُوا وَقَدْ لَبَّسُوا بِكِتَابٍ مُدَلَّسٍ يَزعُمُونَ أَنَّهُمْ لَقُوهُ فِي يَدِ حَامِلِهِ الى عَامِلِ مِصرَ بِأَنْ يَقتُلَهُمْ وَحَلَفَ عُثمَانُ عَلى ذٰلِكَ فَقَالُوا مَكِّنَّا مِنْ مَروَانَ فَإِنَّهُ كَاتِبُكَ فَحَلَفَ مَروَانُ فَقَالَ لَيسَ فِي ٱلحُكمِ أَكثَرُ مِنْ هٰذَا فَحَاصَرُوهُ بِدَارِهِ ثُمَّ بَيَّتُوهُ عَلى حِينِ غَفلَةٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَقَتَلُوهُ وَٱنفَتَحَ بَابُ ٱلفِتنَةِ فَلِكُلٍّ مِنْ هٰؤُلاءِ عُذرٌ فِيمَا وَقَعَ وَكُلُّهُمْ كَانُوا مُهتَمِّينَ بِأَمرِ ٱلدِّينِ وَلاَ يُضِيعُونَ شَيئاً مِنْ تَعَلُّقَاتِهِ ثُمَّ نَظَرُوا بَعدَ هٰذَا ٱلوَاقِعِ وَٱجتَهَدُوا وَٱللهُ مُطَّلِعٌ عَلى أَحوَالِهِمْ وَعَالِمٌ بِهِمْ وَنَحنُ لاَ نَظُنُّ بِهِمْ إِلَّا خَيراً لِمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحوَالُهُمْ وَمَقَالاَتُ ٱلصَّادِقِ فِيهِمْ وَأَمَّا ٱلحُسَيْنُ فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فِسقُ يَزِيدَ عِندَ ٱلكَافَّةِ مِنْ أَهلِ عَصرِهِ بَعَثَتْ شِيعَةُ أَهلِ ٱلبَيتِ بِٱلكُوفَةِ لِلحُسَيْنِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمرِهِ فَرَأَى ٱلحُسَيْنُ أَنَّ ٱلخُرُوجَ عَلى يَزِيدَ مُتَعَيِّنٌ مِنْ أَجلِ فِسقِهِ لا سِيَّمَا مَنْ لَهُ ٱلقُدرَةُ عَلى ذٰلِكَ وَظَنَّهَا مِنْ نَفسِهِ بِأَهلِيَّتِهِ وَشَوكَتِهِ فَأَمَّا ٱلأَهلِيَّةُ فَكَانَت كَمَا ظَنَّ وَزِيَادَةً وَأَمَّا ٱلشَّوكَةُ فَغَلِطَ يَرحَمُهُ ٱللهُ فِيهَا لِأَنَّ عَصَبِيَّةَ مُضَرَ كَانَتْ فِي قُرَيشٍ وَعَصَبِيَّةَ عَبدِ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمَيَّةَ تَعرِفُ ذٰلِكَ لَهُمْ قُرَيشٌ وَسَائِرُ ٱلنَّاسِ وَلَا يُنكِرُونَهُ وَإِنَّمَا نُسِيَ ذٰلِكَ أَوَّلَ ٱلإِسلامِ لِمَا شَغَلَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلذُّهُولِ بِٱلخَوَارِقِ وَأَمرِ ٱلوَحيِ وَتَرَدُّدِ ٱلمَلائِكَةِ لِنُصرَةِ ٱلمُسلِمِينَ فَأَغفَلُوا أُمُورَ عَوَائِدِهِمْ وَذَهَبَت عَصَبِيَّةُ ٱلجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعُهَا وَنُسِيَتْ وَلَمْ يَبقَ إِلَّا ٱلعَصَبِيَّةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ فِي ٱلحِمَايَةِ وَٱلدِّفَاعِ يُنتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ ٱلدِّينِ وَجِهَادِ ٱلمُشرِكِينَ وَٱلدِّينُ فِيهَا مُحكَمٌ وَٱلعَادَةُ مَعزُولَةٌ حَتَّى إِذَا ٱنقَطَعَ أَمرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلخَوَارِقِ ٱلمَهُولَةِ تَرَاجَعَ ٱلحُكمُ بَعضَ ٱلشَّيءِ لِلعَوَائِدِ

فعادَتِ ٱلعَصبيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَلِمَنْ كَانَتْ وَأَصبَحَتْ مُضَرُ أَطوَعَ لِبَني أُمَيَّةَ مِنْ سِوَاهُم بمَا كَانَ لَهُم مِنْ ذٰلِكَ قَبلُ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ غَلَطُ ٱلْحُسَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ في أَمرٍ دُنيَوِيٍّ لا يُضِرُّه ٱلغَلَطُ فِيهِ وَأَمَّا ٱلْحُكْمُ ٱلشَّرْعِيُّ فَلَمْ يَغْلَطْ فِيهِ لِأَنَّهُ مَنُوطٌ بِظَنِّهِ وَكَانَ ظَنُّهُ ٱلقُدْرَةَ عَلى ذٰلِكَ وَلَقَدْ عَذَلَهُ ٱبْنُ ٱلعَبَّاسِ وَٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ وَٱبْنُ عُمَرَ وَٱبْنُ ٱلْحَنَفِيَّةِ أَخُوهُ وَغَيرُه في مَسِيرِهِ إِلى ٱلكُوفَةِ وَعَلِمُوا غَلَطَهُ في ذٰلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ لِمَا أَرَادَهُ ٱللهُ وَأَمَّا غَيْرُ ٱلْحُسَيْنِ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِٱلْحِجَازِ وَمَعَ يَزِيدَ بِٱلشَّامِ وَٱلعِرَاقِ وَمِن ٱلتَّابِعِينَ لَهُمْ فَرَأَوا أَنَّ ٱلْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَجُوزُ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِن ٱلْهَرْجِ وَٱلدِّمَاءِ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذٰلِكَ وَلَمْ يُتَابِعُوا ٱلْحُسَيْنَ وَلا أَنكَرُوا عَلَيْهِ وَلا أَثَّمُوه لِأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ وَهُوَ أُسْوَةُ ٱلْمُجْتَهِدِينَ وَلا يَذْهَبُ بِكَ ٱلغَلَطُ أَنْ تَقُولَ بِتَأْثِيمِ هٰؤُلاءِ بِمُخَالَفَةِ ٱلْحُسَيْنِ وَقُعُودِهِمْ عَنْ نَصْرِهِ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ ٱلصَّحَابَةِ وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ وَلَمْ يَرَوْا ٱلْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَكَانَ ٱلْحُسَيْنُ يَسْتَشْهِدُ بِهِمْ وَهُوَ بِكَرْبَلاءَ عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ وَيَقُولُ سَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ وَأَبَا سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيَّ وَأَنَسَ بْنَ مَالِكٍ وَسَهْلَ بْنَ سَعِيدٍ وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ وَأَمْثَالَهُم وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ قُعُودَهُمْ عَنْ نَصْرِهِ وَلا تَعَرَّضَ لِذٰلِكَ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ عَنِ ٱجْتِهَادٍ وَإِن كَانَ هُوَ عَلَى ٱجْتِهَادٍ وَيَكُونُ ذٰلِكَ كَمَا يَحُدُّ ٱلشَّافِعِيُّ وَٱلْمَالِكِيُّ وَٱلْحَنَفِيُّ عَلَى شُرْبِ ٱلنَّبِيذِ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلأَمْرَ لَيْسَ كَذٰلِكَ وَقِتَالُهُ لَمْ يَكُنْ عَنِ ٱجْتِهَادِ هٰؤُلاءِ وَإِنْ كَانَ خِلافُهُ عَنِ ٱجْتِهَادِهِمْ وَإِنَّمَا ٱنْفَرَدَ بِقِتَالِهِ يَزِيدُ وَأَصْحَابُهُ وَلا تَقُولَنَّ إِنَّ يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقاً وَلَمْ يُجِزْ هٰؤُلاءِ ٱلْخُرُوجَ عَلَيْهِ فَأَفْعَالُهُ عِنْدَهُمْ صَحِيحَةٌ وَٱعْلَمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْفُذُ مِنْ أَعْمَالِ ٱلْفَاسِقِ مَا كَانَ مَشْرُوعاً وَقِتَالُ ٱلْبُغَاةِ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلإِمَامِ ٱلعَادِلِ وَهُوَ مَفْقُودٌ في مَسْئَلَتِنَا فَلا يَجُوزُ قِتَالُ ٱلْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَلا لِيَزِيدَ بَلْ هِيَ مِنْ فَعَلاتِهِ ٱلْمُؤَكِّدَةِ لِفِسْقِهِ وَٱلْحُسَيْنُ فِيهَا شَهِيدٌ مُثَابٌ وَهُوَ عَلَى حَقٍّ وَٱجْتِهَادٍ وَٱلصَّحَابَةُ ٱلَّذِين كَانُوا مَعَ يَزِيدَ عَلَى حَقٍّ أَيضاً وَٱجْتِهَادٍ وَقَدْ غَلِطَ ٱلقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ ٱلعَرَبِيِّ ٱلْمَالِكِي في هٰذَا فَقَالَ في كِتَابِهِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ بِٱلعَوَاصِمِ وَٱلقَوَاصِمِ مَا مَعْنَاهُ . إِنَّ ٱلْحُسَيْنَ قُتِل بِشَرْعِ جَدِّهِ وَهُوَ غَلَطٌ حَمَلَتْهُ عَلَيْهِ ٱلغَفْلَةُ عَنِ ٱشْتِرَاطِ ٱلإِمَامِ ٱلعَادِلِ وَمَنْ أَعْدَلُ مِن ٱلْحُسَيْنِ في زَمَانِهِ في إِمَامَتِهِ وَعَدَالَتِهِ في قِتَالِ أَهْلِ ٱلآرَاءِ وَأَمَّا ٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ رَأَى في مَنَامِهِ مَا رَآهُ ٱلْحُسَيْنُ وَظَنَّ كَمَا ظَنَّ وَغَلَطُهُ في أَمْرِ ٱلشَّوْكَةِ أَعْظَمُ لِأَنَّ بَنِي أَسَد

لا يُقاوِمُونَ بَني أُمَيَّةَ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلا إِسْلامٍ وَالقَوْلُ بِتَعَيُّنِ الخَطَإِ فِي جِهَةِ مُعاوِيَةَ مَع عليٍّ لا سَبِيلَ إِلَيْهِ. لِأَنَّ الإِجمَاعَ هُنَالِكَ قَضَى لَنَا بِهِ وَلَمْ نَجِدْهُ هَا هُنَا. وَأَمَّا يَزِيدُ فَعَيَّنَ خَطَأَهُ فِسْقُهُ وَعَبْدُ المَلِكِ صَاحِبُ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَعْظَمُ النَّاسِ عَدَالَةً وَنَاهِيكَ بِعَدَالَتِهِ احْتِجَاجُ مَالِكٍ بِفِعْلِهِ وَعُدُولُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ إِلى بَيْعَتِهِ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَمْ تَنْعَقِد لِأَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْهَا أَهلُ العَقْدِ وَالحَلِّ كَبَيْعَةِ مَرْوَانَ وَابْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى خِلافِ ذَلِكَ وَالكُلُّ مجتَهِدُونَ مَحْمُولُونَ عَلَى الحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ فِي جِهَةٍ مِنْهُمَا وَالقَتْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَّرْنَاهُ يَجِيءُ عَلَى قَوَاعِدِ الفِقْهِ وَقَوَانِينِهِ مَعَ أَنَّهُ شَهِيدٌ مُثَابٌ بِاعْتِبَار قَصْدِهِ وَتَحَرِّيهِ الحَقَّ هٰذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُحمَلَ عَلَيْهِ أَفعَالُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَهُمْ خِيَارُ الأُمَّةِ وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عُرْضَةً لِلقَدْحِ فَمَنِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالعَدَالَةِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً ثُمَّ يَفْشُو الكَذِبُ فَجَعَلَ الخِيَرَةَ وَهِيَ العَدَالَةُ مُخْتَصَّةً بِالقَرْنِ الأَوَّلِ وَالَّذِي يَلِيهِ فَإِيَّاكَ أَن تعَوِّدَ نَفْسَكَ أَوْ لِسَانَكَ التَّعَرُّضَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلا يُشَوِّشْ قَلْبَكَ بِالرَّيْبِ فِي شَيْءٍ مِمَّا وَقَعَ مِنهُمْ وَالتَمِسْ لَهُمْ مَذَاهِبَ الحَقِّ وَطُرُقَهُ مَا اسْتَطَعْتَ فَهُمْ أَولَى النَّاسِ بِذَلِكَ وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا عَنْ بَيِّنَةٍ وَمَا قَاتَلُوا أَوْ قُتِلُوا إِلَّا فِي سَبِيلِ جِهَادٍ أَوْ إِظْهَارِ حَقٍّ وَاعْتَقِدْ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اخْتِلافَهُمْ رَحْمَةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الأُمَّةِ لِيَقْتَدِيَ كُلُّ وَاحِدٍ بِمَنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُم وَيَجْعَلُهُ إِمَامَهُ وَهَادِيَهُ وَدَلِيلَهُ فَافْهَمْ ذَلِكَ وَتَبَيَّنْ حِكْمَةَ اللهِ فِي خَلْقِهِ وَأَكْوَانِهِ وَاعْلَم أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِلَيْهِ المَلْجَأُ وَالمَصِيرُ وَاللهُ تَعَالى أَعْلَمُ

الفصل الحادي والثلاثون

في الخطط الدينية الخلافية

لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الخِلافَةِ نِيَابَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَسِيَاسَةِ الدُّنْيَا فَصَاحِبُ الشَّرْعِ مُتَصَرِّفٌ فِي الأَمْرَيْنِ أَمَّا فِي الدِّينِ فَبِمُقْتَضَى التَّكَالِيفِ الشَّرعِيَّةِ الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِهَا وَحَمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا سِيَاسَةُ الدُّنْيَا فَبِمُقْتَضَى رِعَايَتِهِ لِمَصَالِحِهِمْ فِي العُمْرَانِ البَشَرِيِّ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هٰذَا العُمْرَانَ ضَرُورِيٌّ لِلبَشَرِ وَأَنَّ رِعَايَةَ مَصَالِحِهِ كَذَلِكَ لِئَلَّا يَفْسُدَ إِنْ أُهْمِلَتْ وَقَدَّمْنَا أَنَّ المُلْكَ وَسَطْوَتَهُ كَافٍ فِي حُصُولِ هٰذِهِ المَصَالِحِ نَعَمْ إِنَّمَا تَكُونُ أَكْمَلَ إِذَا كَانَتْ بِالأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِهٰذِهِ

ٱلْمَصَالِحِ فَقَدْ صَارَ ٱلْمُلْكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَ ٱلْخِلَافَةِ إِذَا كَانَ إِسْلَامِيًّا وَيَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهَا وَقَدْ يَنْفَرِدُ إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ ٱلْمِلَّةِ وَلَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَاتِبُ خَادِمَةٌ وَوَظَائِفُ تَابِعَةٌ تَتَعَيَّنُ خِطَطًا وَتَتَوَزَّعُ عَلَى رِجَالِ ٱلدَّوْلَةِ وَظَائِفَ فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ بِوَظِيفَتِهِ حَسْبَمَا يُعَيِّنُهُ ٱلْمَلِكُ ٱلَّذِي تَكُونُ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَيْهِمْ فَيَتِمُّ بِذَلِكَ أَمْرُهُ وَيَحْسُنُ قِيَامُهُ بِسُلْطَانِهِ وَأَمَّا ٱلْمَنْصِبُ ٱلْخِلَافِيُّ وَإِنْ كَانَ ٱلْمَلِكُ يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ بِهَذَا ٱلِاعْتِبَارِ ٱلَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَتَصَرُّفُهُ ٱلدِّينِيُّ يَخْتَصُّ بِخِطَطٍ وَمَرَاتِبَ لَا تُعْرَفُ إِلَّا لِلْخُلَفَاءِ ٱلْإِسْلَامِيِّينَ فَلْنَذْكُرِ ٱلْآنَ ٱلْخِطَطَ ٱلدِّينِيَّةَ ٱلْمُخْتَصَّةَ بِٱلْخِلَافَةِ وَنَرْجِعُ إِلَى ٱلْخِطَطِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْخِطَطَ ٱلدِّينِيَّةَ ٱلشَّرْعِيَّةَ مِنَ ٱلصَّلَاةِ وَٱلْفُتْيَا وَٱلْقَضَاءِ وَٱلْجِهَادِ وَٱلْحِسْبَةِ كُلُّهَا مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَ ٱلْإِمَامَةِ ٱلْكُبْرَى ٱلَّتِي هِيَ ٱلْخِلَافَةُ فَكَأَنَّهَا ٱلْإِمَامُ ٱلْكَبِيرُ وَٱلْأَصْلُ ٱلْجَامِعُ وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَرِّعَةٌ عَنْهَا وَدَاخِلَةٌ فِيهَا لِعُمُومِ نَظَرِ ٱلْخِلَافَةِ وَتَصَرُّفِهَا فِي سَائِرِ أَحْوَالِ ٱلْمِلَّةِ ٱلدِّينِيَّةِ وَٱلدُّنْيَوِيَّةِ وَتَنْفِيذِ أَحْكَامِ ٱلشَّرْعِ فِيهَا عَلَى ٱلْعُمُومِ فَأَمَّا إِمَامَةُ ٱلصَّلَاةِ فَهِيَ أَرْفَعُ هَذِهِ ٱلْخِطَطِ كُلِّهَا وَأَرْفَعُ مِنَ ٱلْمُلْكِ بِخُصُوصِهِ ٱلْمُنْدَرِجِ مَعَهَا تَحْتَ ٱلْخِلَافَةِ وَلَقَدْ يَشْهَدُ لِذَلِكَ ٱسْتِدْلَالُ ٱلصَّحَابَةِ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بِٱسْتِخْلَافِهِ فِي ٱلصَّلَاةِ عَلَى ٱسْتِخْلَافِهِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ فِي قَوْلِهِمُ ٱرْتَضَاهُ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِينِنَا أَفَلَا نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا فَلَوْلَا أَنَّ ٱلصَّلَاةَ أَرْفَعُ مِنَ ٱلسِّيَاسَةِ لَمَا صَحَّ ٱلْقِيَاسُ وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ فِي ٱلْمَدِينَةِ صِنْفَانِ مَسَاجِدُ عَظِيمَةٌ كَثِيرَةُ ٱلْغَاشِيَةِ مُعَدَّةٌ لِلصَّلَوَاتِ ٱلْمَشْهُودَةِ وَأُخْرَى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ وَلَيْسَتْ لِلصَّلَوَاتِ ٱلْعَامَّةِ فَأَمَّا ٱلْمَسَاجِدُ ٱلْعَظِيمَةُ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ أَوْ مَنْ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ وَزِيرٍ أَوْ قَاضٍ فَيَنْصِبُ لَهَا ٱلْإِمَامَ فِي ٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ وَٱلْجُمُعَةِ وَٱلْعِيدَيْنِ وَٱلْخُسُوفَيْنِ وَٱلِاسْتِسْقَاءِ وَتَعَيُّنُ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ طَرِيقِ ٱلْأَوْلَى وَٱلِاسْتِحْسَانِ وَلِئَلَّا يَفْتَاتَ ٱلرَّعَايَا عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَصَالِحِ ٱلْعَامَّةِ وَقَدْ يَقُولُ بِٱلْوُجُوبِ فِي ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ بِوُجُوبِ إِقَامَةِ ٱلْجُمُعَةِ فَيَكُونُ نَصْبُ ٱلْإِمَامِ لَهَا عِنْدَهُ وَاجِبًا وَأَمَّا ٱلْمَسَاجِدُ ٱلْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ مَحَلَّةٍ فَأَمْرُهَا رَاجِعٌ إِلَى ٱلْجِيرَانِ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَلِيفَةٍ وَلَا سُلْطَانٍ وَأَحْكَامُ هَذِهِ ٱلْوِلَايَةِ وَشُرُوطُهَا وَٱلْمُوَلَّى فِيهَا مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ ٱلْفِقْهِ وَمَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ لِلْمَاوَرْدِيِّ وَغَيْرِهِ

فلا نُطوّلُ بذِكرِها ولقدْ كانَ الخلفاءُ الأوّلونَ لا يُقلّدونَها لغيرِهِمْ منَ النّاسِ وانظُرْ منْ طُعِنَ منَ الخلفاءِ في المسجِدِ عندَ الأذانِ بالصّلاةِ وترَصّدِهِمْ لذلكَ في أوقاتِها يشهدُ لكَ ذلكَ بمُباشرتِهِمْ لها وأنّهُمْ لمْ يكونوا مُستخلِفينَ فيها وكذا كانَ رجالُ الدّولةِ الأمويّةِ منْ بعدِهِمْ استئثاراً بها واستعظاماً لرُتبتِها يُحكى عنْ عبدِ الملكِ أنّهُ قالَ لحاجبِهِ قدْ جعلتُ لكَ حِجابةَ بابي إلّا عنْ ثلاثةٍ صاحبِ الطّعامِ فإنّهُ يفسُدُ بالتّأخيرِ والأذانِ بالصّلاةِ فإنّهُ داعٍ إلى اللهِ والبريدِ فإنّ في تأخيرِهِ فسادُ القاصيةِ فلمّا جاءتْ طبيعةُ المُلكِ وعوارِضُهُ منَ الغلظةِ والتّرفّعِ عنْ مُساواةِ النّاسِ في دينِهِمْ ودُنياهُمْ استنابوا في الصّلاةِ فكانوا يستأثِرونَ بها في الأحيانِ وفي الصّلواتِ العامّةِ كالعيدَيْنِ والجمعةِ إشارةً وتنويهاً فعلَ ذلكَ كثيرٌ منْ خلفاءِ بني العبّاسِ والعُبيديّينَ صدرَ دولتِهِمْ وأمّا الفُتيا فللخليفةِ تصفّحُ أهلِ العلمِ والتّدريسِ وردُّ الفُتيا إلى منْ هوَ أهلٌ لها وإعانتُهُ على ذلكَ ومنعُ منْ ليسَ أهلاً لها وزجرُهُ لأنّها منْ مصالحِ المُسلمينَ في أديانِهِمْ فتجبُ عليهِ مُراعاتُها لئلّا يتعرّضَ لذلكَ منْ ليسَ لهُ بأهلٍ فيُضِلَّ النّاسَ وللمُدرّسِ الانتصابُ لتعليمِ العلمِ وبثِّهِ والجلوسُ لذلكَ في المساجدِ فإنْ كانتْ منَ المساجدِ العظامِ الّتي للسّلطانِ الولايةُ عليها والنّظرُ في أئمّتِها كما مرّ فلا بُدَّ منِ استئذانِهِ في ذلكَ وإنْ كانتْ منْ مساجدِ العامّةِ فلا يتوقّفُ ذلكَ على إذنٍ على أنّهُ ينبغي أنْ يكونَ لكلِّ أحدٍ منَ المُفتينَ والمُدرّسينَ زاجرٌ منْ نفسِهِ يمنعُهُ عنِ التّصدّي لما ليسَ لهُ بأهلٍ فيُضِلُّ بهِ المُستهدي ويَضِلُّ بهِ المُسترشِدُ وفي الأثرِ أجرأُكُمْ على الفُتيا أجرأُكُمْ على جراثيمِ جهنّمَ فللسّلطانِ فيهِمْ لذلكَ منَ النّظرِ ما تُوجِبُهُ المصلحةُ منْ إجازةٍ أوْ ردٍّ وأمّا القضاءُ فهوَ منَ الوظائفِ الدّاخلةِ تحتَ الخلافةِ لأنّهُ منصبُ الفصلِ بينَ النّاسِ في الخصوماتِ حسماً للتّداعي وقطعاً للتّنازُعِ إلّا أنّهُ بالأحكامِ الشّرعيّةِ المُتلقّاةِ منَ الكتابِ والسُّنّةِ فكانَ لذلكَ منْ وظائفِ الخلافةِ ومُندرِجاً في عُمومِها وكانَ الخلفاءُ في صدرِ الإسلامِ يُباشِرونَهُ بأنفسِهِمْ ولا يجعلونَ القضاءَ إلى منْ سِواهُمْ وأوّلُ منْ دفعَهُ إلى غيرِهِ وفوّضَهُ فيهِ عُمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فولّى أبا الدّرداءِ معَهُ بالمدينةِ وولّى شُريحاً بالبصرةِ وولّى أبا موسى الأشعريَّ بالكوفةِ وكتبَ لهُ في ذلكَ الكتابَ المشهورَ الّذي تدورُ عليهِ أحكامُ القُضاةِ

وَهِيَ مُسْتَوْفَاةٌ فِيهِ يَقُولُ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ ٱلْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ فَٱفْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ وَآسِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ٱدَّعَى وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وَٱلصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحاً أَحَلَّ حَرَاماً أَوْ حَرَّمَ حَلَالاً وَلَا يَمْنَعُكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ أَمْسِ فَرَاجَعْتَ ٱلْيَوْمَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى ٱلْحَقِّ فَإِنَّ ٱلْحَقَّ قَدِيمٌ وَمُرَاجَعَةَ ٱلْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ ٱلتَّمَادِي فِي ٱلْبَاطِلِ ٱلْفَهْمَ ٱلْفَهْمَ فِيمَا يَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ثُمَّ ٱعْرِفِ ٱلْأَمْثَالَ وَٱلْأَشْبَاهَ وَقِسِ ٱلْأُمُورَ بِنَظَائِرِهَا وَٱجْعَلْ لِمَنِ ٱدَّعَى حَقّاً غَائِباً أَوْ بَيِّنَةً أَمَداً يَنْتَهِي إِلَيْهِ فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَتَهُ أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا ٱسْتَحْلَلْتَ ٱلْقَضَاءَ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَٰلِكَ أَنْفَى لِلشَّكِّ وَأَجْلَى لِلْعَمَى. ٱلْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُوداً فِي حَدٍّ أَوْ مُجَرَّباً عَلَيْهِ شَهَادَةَ زُورٍ أَوْ ظَنِيناً فِي نَسَبٍ أَوْ وَلَاءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ عَفَا عَنِ ٱلْإِيمَانِ وَدَرَأَ بِٱلْبَيِّنَاتِ وَإِيَّاكَ وَٱلْقَلَقَ وَٱلضَّجَرَ وَٱلتَّأَفُّفَ بِٱلْخُصُومِ فَإِنَّ ٱسْتِقْرَارَ ٱلْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ ٱلْحَقِّ يُعَظِّمُ ٱللَّهُ بِهِ ٱلْأَجْرَ وَيُحْسِنُ بِهِ ٱلذِّكْرَ وَٱلسَّلَامُ. إِنْتَهَى كِتَابُ عُمَرَ وَإِنَّمَا كَانُوا يُقَلِّدُونَ ٱلْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِٱلسِّيَاسَةِ ٱلْعَامَّةِ وَكَثْرَةِ أَشْغَالِهَا مِنَ ٱلْجِهَادِ وَٱلْفُتُوحَاتِ وَسَدِّ ٱلثُّغُورِ وَحِمَايَةِ ٱلْبَيْضَةِ وَلَمْ يَكُنْ ذَٰلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُمْ لِعِظَمِ ٱلْعِنَايَةِ فَٱسْتَحَقُّوا ٱلْقَضَاءَ فِي ٱلْوَاقِعَاتِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَخْلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ بِهِ تَخْفِيفاً عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَانُوا مَعَ ذَٰلِكَ إِنَّمَا يُقَلِّدُونَهُ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِٱلنَّسَبِ أَوِ ٱلْوَلَاءِ وَلَا يُقَلِّدُونَهُ لِمَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ فِي ذَٰلِكَ وَأَمَّا أَحْكَامُ هٰذَا ٱلْمَنْصِبِ وَشُرُوطُهُ فَمَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ ٱلْفِقْهِ وَخُصُوصاً كُتُبَ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْقَاضِيَ إِنَّمَا كَانَ لَهُ فِي عَصْرِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْفَصْلُ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ فَقَطْ ثُمَّ دُفِعَ لَهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ أُمُورٌ أُخْرَى عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ بِحَسَبِ ٱشْتِغَالِ ٱلْخُلَفَاءِ وَٱلْمُلُوكِ بِٱلسِّيَاسَةِ ٱلْكُبْرَى وَٱسْتَقَرَّ مَنْصِبُ ٱلْقَضَاءِ آخِرَ ٱلْأَمْرِ عَلَى أَنَّهُ يَجْمَعُ مَعَ ٱلْفَصْلِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ ٱسْتِيفَاءَ بَعْضِ ٱلْحُقُوقِ ٱلْعَامَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ بِٱلنَّظَرِ فِي أَمْوَالِ ٱلْمَحْجُورِ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلْمَجَانِينِ وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمُفْلِسِينَ وَأَهْلِ ٱلسَّفَهِ وَفِي وَصَايَا ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَوْقَافِهِمْ وَتَزْوِيجِ ٱلْأَيَامَى عِنْدَ فَقْدِ ٱلْأَوْلِيَاءِ عَلَى رَأْيِ مَنْ رَآهُ وَٱلنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ ٱلطُّرُقَاتِ وَٱلْأَبْنِيَةِ وَتَصَفُّحِ ٱلشُّهُودِ وَٱلْأُمَنَاءِ وَٱلنُّوَّابِ وَٱسْتِيفَاءِ

ٱلْعِلْمِ وَٱلْخِبْرَةِ فِيهِمْ بِٱلْعَدَالَةِ وَٱلْجَرْحِ لِيَحْصُلَ لَهُ ٱلْوُثُوقُ بِهِمْ وَصَارَتْ هٰذِهِ كُلُّهَا مِنْ تَعَلُّقَاتِ وَظِيفَتِهِ وَتَوَابِعِ وِلَايَتِهِ وَقَدْ كَانَ ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ قَبْلُ يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِي ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْمَظَالِمِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ مُمْتَزِجَةٌ مِنْ سَطْوَةِ ٱلسَّلْطَنَةِ وَنَصَفَةِ ٱلْقَضَاءِ وَتَحْتَاجُ إِلَى عُلُوِّ يَدٍ وَعَظِيمِ رَهْبَةٍ تَقْمَعُ ٱلظَّالِمَ مِنَ ٱلْخَصْمَيْنِ وَتَزْجُرُ ٱلْمُتَعَدِّيَ وَكَأَنَّهُ يُمْضِي مَا عَجِزَ ٱلْقُضَاةُ أَوْ غَيْرُهُمْ عَنْ إِمْضَائِهِ وَيَكُونُ نَظَرُهُ فِي ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلتَّقْرِيرِ وَٱعْتِمَادِ ٱلْأَمَارَاتِ وَٱلْقَرَائِنِ وَتَأْخِيرِ ٱلْحُكْمِ إِلَى ٱسْتِجْلَاءِ ٱلْحَقِّ وَحَمْلِ ٱلْخَصْمَيْنِ عَلَى ٱلصُّلْحِ وَٱسْتِحْلَافِ ٱلشُّهُودِ وَذٰلِكَ أَوْسَعُ مِنْ نَظَرِ ٱلْقَاضِي * وَكَانَ ٱلْخُلَفَاءُ ٱلْأَوَّلُونَ يُبَاشِرُونَهَا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى أَيَّامِ ٱلْمُهْتَدِي مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَهَا لِقُضَاتِهِمْ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مَعَ قَاضِيهِ أَبِي إِدْرِيسَ ٱلْخَوْلَانِيِّ وَكَمَا فَعَلَهُ ٱلْمَأْمُونُ لِيَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ وَٱلْمُعْتَصِمُ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ وَرُبَّمَا كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلْقَاضِي قِيَادَةَ ٱلْجِهَادِ فِي عَسَاكِرِ ٱلطَّوَائِفِ وَكَانَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ يَخْرُجُ أَيَّامَ ٱلْمَأْمُونِ بِٱلطَّائِفَةِ إِلَى أَرْضِ ٱلرُّومِ وَكَذَا مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ قَاضِي عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ فَكَانَتْ تَوْلِيَةُ هٰذِهِ ٱلْوَظَائِفِ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْخُلَفَاءِ أَوْ مَنْ يَجْعَلُونَ ذٰلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مُفَوَّضٍ أَوْ سُلْطَانٍ مُتَغَلِّبٍ وَكَانَ أَيْضاً ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْجَرَائِمِ وَإِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ وَٱلْأُمَوِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَٱلْمَغْرِبِ رَاجِعاً إِلَى صَاحِبِ ٱلشُّرْطَةِ وَهِيَ وَظِيفَةٌ أُخْرَى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِنَ ٱلْوَظَائِفِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فِي تِلْكَ ٱلدُّوَلِ تَوَسَّعَ ٱلنَّظَرُ فِيهَا عَنْ أَحْكَامِ ٱلْقَضَاءِ قَلِيلاً فَيَجْعَلُ لِلتُّهْمَةِ فِي ٱلْحُكْمِ مَجَالاً وَيَفْرِضُ ٱلْعُقُوبَاتِ ٱلزَّاجِرَةَ قَبْلَ ثُبُوتِ ٱلْجَرَائِمِ وَيُقِيمُ ٱلْحُدُودَ ٱلثَّابِتَةَ فِي مَحَالِّهَا وَيَحْكُمُ فِي ٱلْقَوَدِ وَٱلْقِصَاصِ وَيُقِيمُ ٱلتَّعْزِيرَ وَٱلتَّأْدِيبَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ ٱلْجَرِيمَةِ ثُمَّ تُنُوسِيَ شَأْنُ هَاتَيْنِ ٱلْوَظِيفَتَيْنِ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي تُنُوسِيَ فِيهَا أَمْرُ ٱلْخِلَافَةِ فَصَارَ أَمْرُ ٱلْمَظَالِمِ رَاجِعاً إِلَى ٱلسُّلْطَانِ كَانَ لَهُ تَفْوِيضٌ مِنَ ٱلْخَلِيفَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ وَٱنْقَسَمَتْ وَظِيفَةُ ٱلشُّرْطَةِ قِسْمَيْنِ مِنْهَا وَظِيفَةُ ٱلتُّهْمَةِ عَلَى ٱلْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا وَمُبَاشَرَةُ ٱلْقَطْعِ وَٱلْقِصَاصِ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ وَنُصِبَ لِذٰلِكَ فِي هٰذِهِ ٱلدُّوَلِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ فِيهَا بِمُوجَبِ ٱلسِّيَاسَةِ دُونَ مُرَاجَعَةِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَيُسَمَّى تَارَةً بِٱسْمِ ٱلْوَالِي وَتَارَةً بِٱسْمِ ٱلشُّرْطَةِ وَبَقِيَ قِسْمُ ٱلتَّعَازِيرِ وَإِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ فِي ٱلْجَرَائِمِ ٱلثَّابِتَةِ شَرْعاً فَجُمِعَ ذٰلِكَ لِلْقَاضِي مَعَ مَا تَقَدَّمَ وَصَارَ

ذٰلِكَ مِنْ تَوَابِعِ وَظِيفَةِ وِلايَتِهِ وَٱسْتَقَرَّ ٱلْأَمْرُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عَلَى ذٰلِكَ وَخَرَجَتْ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ عَنْ أَهْلِ عَصَبِيَّةِ ٱلدَّوْلَةِ لِأَنَّ ٱلْأَمْرَ لَمَّا كَانَ خِلافَةً دِينِيَّةً وَهٰذِهِ ٱلْخُطَّةُ مِنْ مَرَاسِمِ ٱلدِّينِ فَكَانُوا لا يُوَلُّونَ فِيهَا إِلَّا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِمْ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ بِٱلْحِلْفِ أَوْ بِٱلرِّقِّ أَوْ بِٱلِاصْطِنَاعِ مِمَّنْ يُوثَقُ بِكِفَايَتِهِ أَوْ غَنَائِهِ فِيمَا يُدْفَعُ إِلَيْهِ * وَلَمَّا ٱنْقَرَضَ شَأْنُ ٱلْخِلافَةِ وَطَوْرُهَا وَصَارَ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ مُلْكاً أَوْ سُلْطَاناً صَارَتْ هٰذِهِ ٱلْخُطَطُ ٱلدِّينِيَّةُ بَعِيدَةً عَنْهُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ أَلْقَابِ ٱلْمُلْكِ وَلا مَرَاسِمِهِ ثُمَّ خَرَجَ ٱلْأَمْرُ جُمْلَةً مِنَ ٱلْعَرَبِ وَصَارَ ٱلْمُلْكُ لِسِوَاهُمْ مِنْ أُمَمِ ٱلتُّرْكِ وَٱلْبَرْبَرِ فَٱزْدَادَتْ هٰذِهِ ٱلْخُطَطُ ٱلْخِلافِيَّةُ بُعْدًا عَنْهُمْ بِمَنْحَاهَا وَعَصَبِيَّتِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ ٱلشَّرِيعَةَ دِينُهُمْ وَأَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ نِحْلَتُهُمْ بَيْنَ ٱلْأُمَمِ وَطَرِيقُهُمْ وَغَيْرُهُمْ لا يَرَوْنَ ذٰلِكَ إِنَّمَا يُوَلُّونَهَا جَانِباً مِنَ ٱلتَّعْظِيمِ لِمَا دَانُوا بِٱلْمِلَّةِ فَقَطْ فَصَارُوا يُقَلِّدُونَهَا مِنْ غَيْرِ عِصَابَتِهِمْ مِمَّنْ كَانَ تَأَهَّلَ لَهَا فِي دُوَلِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلسَّالِفَةِ وَكَانَ أُولٰئِكَ ٱلْمُتَأَهِّلُونَ لِمَا أَخَذَهُمْ تَرَفُ ٱلدُّوَلِ مُنْذُ مِئِينَ مِنَ ٱلسِّنِينَ قَدْ نَسُوا عَهْدَ ٱلْبَدَاوَةِ وَخُشُونَتَهَا وَٱلْتَبَسُوا بِٱلْحَضَارَةِ فِي عَوَائِدِ تَرَفِهِمْ وَدَعَتِهِمْ وَقِلَّةِ ٱلْمُمَانَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَصَارَتْ هٰذِهِ ٱلْخُطَطُ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْخُلَفَاءِ مُخْتَصَّةً بِهٰذَا ٱلصِّنْفِ مِنَ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَنَزَلَ أَهْلُهَا عَنْ مَرَاتِبِ ٱلْعِزِّ لِفَقْدِ ٱلْأَهْلِيَّةِ بِأَنْسَابِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ فَلَحِقَهُمْ مِنَ ٱلِاحْتِقَارِ مَا لَحِقَ ٱلْحَضَرَ ٱلْمُنْغَمِسِينَ فِي ٱلتَّرَفِ وَٱلدَّعَةِ ٱلْبُعَدَاءَ عَنْ عَصَبِيَّةِ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى ٱلْحَامِيَةِ وَصَارَ ٱعْتِبَارُهُمْ فِي ٱلدَّوْلَةِ مِنْ أَجْلِ قِيَامِهَا بِٱلْمِلَّةِ وَأَخْذِهَا بِأَحْكَامِ ٱلشَّرِيعَةِ لِمَا أَنَّهُمُ ٱلْحَامِلُونَ لِلْأَحْكَامِ ٱلْمُقْتَدُونَ بِهَا وَلَمْ يَكُنْ إِيثَارُهُمْ فِي ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِكْرَاماً لِذَوَاتِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا يَتَلَمَّحُ مِنَ ٱلتَّجَمُّلِ بِمَكَانِهِمْ فِي مَجَالِسِ ٱلْمُلْكِ لِتَعْظِيمِ ٱلرُّتَبِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِنَ ٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ شَيْءٌ وَإِنْ حَضَرُوهُ فَحُضُورٌ رَسْمِيٌّ لا حَقِيقَةَ وَرَاءَهُ إِذْ حَقِيقَةُ ٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ إِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَمَنْ لا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلا حَلَّ لَهُ وَلا عَقْدَ لَدَيْهِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَخْذَ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ عَنْهُمْ وَتَلَقِّي ٱلْفَتَاوَى مِنْهُمْ فَنَعَمْ وَٱللَّهُ ٱلْمُوَفِّقُ وَرُبَّمَا يَظُنُّ بَعْضُ ٱلنَّاسِ أَنَّ ٱلْحَقَّ فِيمَا وَرَاءَ ذٰلِكَ وَأَنَّ فِعْلَ ٱلْمُلُوكِ فِيمَا فَعَلُوهُ مِنْ إِخْرَاجِ ٱلْفُقَهَاءِ وَٱلْقُضَاةِ مِنَ ٱلشُّورَى مَرْجُوحٌ وَقَدْ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ ٱلْأَنْبِيَاءِ فَٱعْلَمْ أَنَّ

ذٰلِكَ لَيسَ كَمَا ظَنَّهُ وَحُكْمُ ٱلمَلِكِ وَٱلسُّلطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ ٱلعُمْرَانِ وَإِلَّا كَانَ بَعِيداً عَنِ ٱلسِّيَاسَةِ فَطَبِيعَةُ ٱلعُمْرَانِ فِي هٰؤُلاءِ لا تَقْضِي لَهُمْ شَيْئاً مِنْ ذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلشُّورَى وَٱلحَلَّ وَٱلعَقْدَ لا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ عَصَبِيَّةٍ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى حَلٍّ أَوْ عَقْدٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ وَأَمَّا مَنْ لا عَصَبِيَّةَ لَهُ وَلا يَمْلُكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئاً وَلا مِنْ حِمَايَتِهَا وَإِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ فَأَيُّ مَدْخَلٍ لَهُ فِي ٱلشُّورَى أَوْ أَيُّ مَعْنًى يَدْعُو إِلى ٱعْتِبَارِهِ فِيهَا ٱللَّهُمَّ إِلَّا شُورَاهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ مِنَ ٱلأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فَمَوْجُودَةٌ فِي ٱلِاسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً وَأَمَّا شُورَاهُ فِي ٱلسِّيَاسَةِ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْهَا لِفُقْدَانِهِ ٱلعَصَبِيَّةَ وَٱلقِيَامَ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا وَأَحْكَامِهَا وَإِنَّمَا إِكْرَامُهُمْ مِنْ تَبَرُّعَاتِ ٱلمُلُوكِ وَٱلأُمَرَاءِ ٱلشَّاهِدَةِ لَهُمْ بِجَمِيلِ ٱلِاعْتِقَادِ فِي ٱلدِّينِ وَتَعْظِيمِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِأَيِّ جِهَةٍ ٱنْتَسَبَ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلعُلَمَاءُ وَرَثَةُ ٱلأَنْبِيَاءِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلفُقَهَاءَ فِي ٱلأَغْلَبِ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ وَمَا ٱحْتَفَّ بِهِ إِنَّمَا حَمَلُوا ٱلشَّرِيعَةَ أَقْوَالاً فِي كَيْفِيَّةِ ٱلأَعْمَالِ فِي ٱلعِبَادَاتِ وَكَيْفِيَّةِ ٱلقَضَاءِ فِي ٱلمُعَامَلاتِ يَنُصُّونَهَا عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلى ٱلعَمَلِ بِهَا هٰذِهِ غَايَةُ أَكَابِرِهِمْ وَلا يَتَّصِفُونَ إِلَّا بِالأَقَلِّ مِنْهَا وَفِي بَعْضِ ٱلأَحْوَالِ وَٱلسَّلَفُ رِضْوَانُ ٱللهِ عَلَيْهِمْ وَأَهْلُ ٱلدِّينِ وَٱلوَرَعِ مِنَ ٱلمُسْلِمِينَ حَمَلُوا ٱلشَّرِيعَةَ ٱتِّصَافاً بِهَا وَتَحَقُّقاً بِمَذَاهِبِهَا فَمَنْ حَمَلَهَا ٱتِّصَافاً وَتَحَقُّقاً دُونَ نَقْلٍ فَهُوَ مِنَ ٱلوَارِثِينَ مِثْلِ أَهْلِ رِسَالَةِ ٱلقُشَيْرِيِّ وَمَنِ ٱجْتَمَعَ لَهُ ٱلأَمْرَانِ فَهُوَ ٱلعَالِمُ وَهُوَ ٱلوَارِثُ عَلَى ٱلحَقِيقَةِ مِثْلَ فُقَهَاءِ ٱلتَّابِعِينَ وَٱلسَّلَفِ وَٱلأَئِمَّةِ ٱلأَرْبَعَةِ وَمَنِ ٱقْتَفَى طَرِيقَهُمْ وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِمْ وَإِذَا ٱنْفَرَدَ وَاحِدٌ مِنَ ٱلأُمَّةِ بِأَحَدِ ٱلأَمْرَيْنِ فَٱلعَابِدُ أَحَقُّ بِٱلوِرَاثَةِ مِنَ ٱلفَقِيهِ ٱلَّذِي لَيسَ بِعَابِدٍ لِأَنَّ ٱلعَابِدَ وَرِثَ بِصِفَةٍ وَٱلفَقِيهَ ٱلَّذِي لَيسَ بِعَابِدٍ لَمْ يَرِثْ شَيْئاً إِنَّمَا هُوَ صَاحِبُ أَقْوَالٍ يَنُصُّهَا عَلَيْنَا فِي كَيْفِيَّاتِ ٱلعَمَلِ وَهٰؤُلاءِ أَكْثَرُ فُقَهَاءِ عَصْرِنَا إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ.

(العدالة) * وَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ تَابِعَةٌ لِلْقَضَاءِ وَمِنْ مَوَادِّ تَصْرِيفِهِ وَحَقِيقَةُ هٰذِهِ ٱلوَظِيفَةِ ٱلقِيَامُ عَنْ إِذْنِ ٱلقَاضِي بِٱلشَّهَادَةِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ تَحَمُّلاً عِنْدَ ٱلإِشْهَادِ وَأَدَاءً عِنْدَ ٱلتَّنَازُعِ وَكَتْباً فِي ٱلسِّجِلَّاتِ تُحْفَظُ بِهِ حُقُوقُ ٱلنَّاسِ وَأَمْلاكُهُمْ وَدُيُونُهُمْ وَسَائِرُ مُعَامَلاتِهِمْ وَشَرْطُ هٰذِهِ ٱلوَظِيفَةِ ٱلِاتِّصَافُ بِٱلعَدَالَةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَٱلبَرَاءَةُ مِنَ ٱلجَرْحِ ثُمَّ ٱلقِيَامُ بِكَتْبِ ٱلسِّجِلَّاتِ وَٱلعُقُودِ مِنْ جِهَةِ عِبَارَاتِهَا وَٱنْتِظَامِ فُصُولِهَا وَمِنْ

جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران[1] على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه وإذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الأمصار واشتباه الأحوال واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيعولون غالباً في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه اللفظة مشتركاً بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي أخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله تعالى أعلم

الحسبة والسكة

أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه وليس له إمضاء الحكم في الدعاوي مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم وكأنها أحكام

(١) المران بكسر الميم التمرن والاعتياد على الشيء اه

يَتَنَزَّهُ ٱلْقَاضِي عَنْهَا لِعُمُومِهَا وَسُهُولَةِ أَغْرَاضِهَا فَتُدْفَعُ إِلَى صَاحِبِ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ لِيَقُومَ بِهَا فَوَضْعُهَا عَلَى ذٰلِكَ أَنْ تَكُونَ خَادِمَةً لِمَنْصِبِ ٱلْقَضَاءِ وَقَدْ كَانَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ مِثْلِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأُمَوِيِّينَ بِٱلْأَنْدَلُسِ دَاخِلَةً فِي عُمُومِ وِلَايَةِ ٱلْقَاضِي يُوَلِّي فِيهَا بِٱخْتِيَارِهِ ثُمَّ لَمَّا ٱنْفَرَدَتْ وَظِيفَةُ ٱلسُّلْطَانِ عَنِ ٱلْخِلَافَةِ صَارَ نَظَرُهُ عَامًّا فِي أُمُورِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱنْدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ ٱلْمُلْكِ وَأُفْرِدَتْ بِٱلْوِلَايَةِ .

وَأَمَّا ٱلسِّكَّةُ فَهِيَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلنُّقُودِ ٱلْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَحِفْظُهَا مِمَّا يُدَاخِلُهَا مِنَ ٱلْغِشِّ أَوِ ٱلنَّقْصِ إِنْ كَانَ يُتَعَامَلُ بِهَا عَدَداً أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ وَيُوصَلُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ ٱلْاعْتِبَارَاتِ ثُمَّ فِي وَضْعِ عَلَامَةِ ٱلسُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ ٱلنُّقُودِ بِٱلْاسْتِجَادَةِ وَٱلْخُلُوصِ بِرَسْمِ تِلْكَ ٱلْعَلَامَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمِ حَدِيدٍ ٱتُّخِذَ لِذٰلِكَ وَنُقِشَ فِيهِ نُقُوشٌ خَاصَّةٌ بِهِ فَيُوضَعُ عَلَى ٱلدِّينَارِ بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبَ عَلَيْهِ بِٱلْمِطْرَقَةِ حَتَّى تُرْسَمَ فِيهِ تِلْكَ ٱلنُّقُوشُ وَتَكُونَ عَلَامَةً عَلَى جُودَتِهِ بِحَسَبِ ٱلْغَايَةِ ٱلَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا ٱلسَّبْكُ وَٱلتَّخْلِيصُ فِي مُتَعَارَفِ أَهْلِ ٱلْقُطْرِ وَمَذَاهِبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْحَاكِمَةِ فَإِنَّ ٱلسَّبْكَ وَٱلتَّخْلِيصَ فِي ٱلنُّقُودِ لَا يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتُهُ إِلَى ٱلْاجْتِهَادِ فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أُفُقٍ أَوْ قُطْرٍ عَلَى غَايَةٍ مِنَ ٱلتَّخْلِيصِ وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَّوْهَا إِمَاماً وَعِيَاراً يَعْتَبِرُونَ بِهِ نُقُودَهُمْ وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمُمَاثَلَتِهِ فَإِنْ نَقَصَ عَنْ ذٰلِكَ كَانَ زَيْفاً وَٱلنَّظَرُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ وَهِيَ دِينِيَّةٌ بِهٰذَا ٱلْاعْتِبَارِ فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ ٱلْخِلَافَةِ وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ وِلَايَةِ ٱلْقَاضِي ثُمَّ أُفْرِدَتْ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْحِسْبَةِ هٰذَا آخِرُ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْوَظَائِفِ ٱلْخِلَافِيَّةِ وَبَقِيَتْ مِنْهَا وَظَائِفُ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ مَا يُنْظَرُ فِيهِ وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً فَوَظِيفَةُ ٱلْإِمَارَةِ وَٱلْوِزَارَةِ وَٱلْحَرْبِ وَٱلْخَرَاجِ صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِي أَمَاكِنِهَا بَعْدَ وَظِيفَةِ ٱلْجِهَادِ وَوَظِيفَةُ ٱلْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبُطْلَانِهِ إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلدُّوَلِ يُمَارِسُونَهُ وَيُدْرِجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِباً فِي ٱلسُّلْطَانِيَّاتِ وَكَذَا نِقَابَةُ ٱلْأَنْسَابِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى ٱلْخِلَافَةِ أَوِ ٱلْحَقِّ فِي بَيْتِ ٱلْمَالِ قَدْ بَطَلَتْ لِدُثُورِ ٱلْخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا وَبِٱلْجُمْلَةِ قَدِ ٱنْدَرَجَتْ رُسُومُ ٱلْخِلَافَةِ وَوَظَائِفُهَا فِي رُسُومِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ ٱلدُّوَلِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَٱللهُ مُصَرِّفُ ٱلْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بأمير المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ وَكَانَ ٱلصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُم وَسَائِرُ ٱلْمُسْلِمِينَ يُسَمُّونَهُ خَلِيفَةَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ فَلَمَّا بُويِعَ لِعُمَرَ بِعَهْدِهِ إِلَيْهِ كَانُوا يَدْعُونَهُ خَلِيفَةَ خَلِيفَةِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَأَنَّهُمُ ٱسْتَثْقَلُوا هٰذَا ٱللَّقَبَ بِكَثْرَتِهِ وَطُولِ إِضَافَتِهِ وَأَنَّهُ يَتَزَايَدُ فِيمَا بَعْدُ دَائِماً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْهُجْنَةِ وَيَذْهَبَ مِنْهُ ٱلتَّمْيِيزُ بِتَعَدُّدِ ٱلْإِضَافَاتِ وَكَثْرَتِهَا فَلَا يُعْرَفُ فَكَانُوا يَعْدِلُونَ عَنْ هٰذَا ٱللَّقَبِ إِلَى مَا سِوَاهُ مِمَّا يُنَاسِبُهُ وَيُدْعَى بِهِ مِثْلَهُ وَكَانُوا يُسَمُّونَ قُوَّادَ ٱلْبُعُوثِ بِٱسْمِ ٱلْأَمِيرِ وَهُوَ فَعِيلٌ مِنَ ٱلْإِمَارَةِ وَقَدْ كَانَ ٱلْجَاهِلِيَّةُ يَدْعُونَ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِيرَ مَكَّةَ وَأَمِيرَ ٱلْحِجَازِ وَكَانَ ٱلصَّحَابَةُ أَيْضاً يَدْعُونَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِإِمَارَتِهِ عَلَى جَيْشِ ٱلْقَادِسِيَّةِ وَهُمْ مُعْظَمُ ٱلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ وَٱتَّفَقَ أَنْ دَعَا بَعْضُ ٱلصَّحَابَةِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱسْتَحْسَنَهُ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَصْوَبُوهُ وَدَعَوْهُ بِهِ يُقَالُ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ دَعَاهُ بِذٰلِكَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ جَحْشٍ وَقِيلَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ وَٱلْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَقِيلَ بَرِيدٌ جَاءَ بِٱلْفَتْحِ مِنْ بَعْضِ ٱلْبُعُوثِ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ عُمَرَ وَيَقُولُ أَيْنَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَمِعَهَا أَصْحَابُهُ فَٱسْتَحْسَنُوهُ وَقَالُوا أَصَبْتَ وَٱللهِ ٱسْمَهُ إِنَّهُ وَٱللهِ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ حَقّاً فَدَعَوْهُ بِذٰلِكَ وَذَهَبَ لَقَباً لَهُ فِي ٱلنَّاسِ وَتَوَارَثَهُ ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ سِمَةً لَا يُشَارِكُهُم فِيهَا أَحَدٌ سِوَاهُمْ إِلَّا سَائِرُ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ ثُمَّ إِنَّ ٱلشِّيعَةَ خَصُّوا عَلِيّاً بِٱسْمِ ٱلْإِمَامِ نَعْتاً لَهُ بِٱلْإِمَامَةِ ٱلَّتِي هِيَ أُخْتُ ٱلْخِلَافَةِ وَتَعْرِيضاً بِمَذْهَبِهِمْ فِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِإِمَامَةِ ٱلصَّلَاةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ لِمَا هُوَ مَذْهَبُهُمْ وَبِدْعَتُهُمْ فَخَصُّوهُ بِهٰذَا ٱللَّقَبِ وَلِمَنْ يَسُوقُونَ إِلَيْهِ مَنْصِبَ ٱلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانُوا كُلُّهُمْ يُسَمَّوْنَ بِٱلْإِمَامِ مَا دَامُوا يَدْعُونَ لَهُمْ فِي ٱلْخَفَاءِ حَتَّى إِذَا يَسْتَوْلُونَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ يُحَوِّلُونَ ٱللَّقَبَ فِيمَا بَعْدَهُ إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ كَمَا فَعَلَهُ شِيعَةُ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَئِمَّتَهُمْ بِٱلْإِمَامِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي جَهَرُوا بِٱلدُّعَاءِ لَهُ وَعَقَدُوا ٱلرَّايَاتِ لِلْحَرْبِ عَلَى أَمْرِهِ فَلَمَّا هَلَكَ دُعِيَ أَخُوهُ ٱلسَّفَّاحُ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَكَذَا ٱلرَّافِضَةُ بِأَفْرِيقِيَةَ فَإِنَّهُمْ مَا زَالُوا يَدْعُونَ أَئِمَّتَهُمْ مِنْ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ بِٱلْإِمَامِ حَتَّى

ٱنْتَهَى ٱلْأَمْرُ إِلَى عُبَيْدِ ٱللَّهِ ٱلْمَهْدِيِّ وَكَانُوا أَيْضاً يَدْعُونَهُ بِٱلْإِمَامِ وَلِٱبْنِهِ أَبِي ٱلْقَاسِمِ مِنْ بَعْدِهِ فَلَمَّا ٱسْتَوْثَقَ لَهُمُ ٱلْأَمْرُ دُعُوا مِنْ بَعْدِهَا بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَكَذَا ٱلْأَدَارِسَةُ بِٱلْمَغْرِبِ كَانُوا يُلَقِّبُونَ أَدْرِيسَ بِٱلْإِمَامِ وَٱبْنَهُ أَدْرِيسَ ٱلْأَصْغَرَ كَذَلِكَ وَهَكَذَا شَأْنُهُمْ وَتَوَارَثَ ٱلْخُلَفَاءُ هَذَا ٱللَّقَبَ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَجَعَلُوهُ سِمَةً لِمَنْ يَمْلِكُ ٱلْحِجَازَ وَٱلشَّامَ وَٱلْعِرَاقَ وَٱلْمَوَاطِنَ ٱلَّتِي هِيَ دِيَارُ ٱلْعَرَبِ وَمَرَاكِزُ ٱلدَّوْلَةِ وَأَهْلُ ٱلْمِلَّةِ وَٱلْفَتْحِ وَٱزْدَادَ لِذَلِكَ فِي عُنْفُوَانِ ٱلدَّوْلَةِ وَبَذْخِهَا لَقَبٌ آخَرُ لِلْخُلَفَاءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنَ ٱلِٱشْتِرَاكِ بَيْنَهُمْ فَٱسْتَحْدَثَ لِذَلِكَ بَنُو ٱلْعَبَّاسِ حِجَاباً لِأَسْمَائِهِمُ ٱلْأَعْلَامِ عَنِ ٱمْتِهَانِهَا فِي أَلْسِنَةِ ٱلسُّوقَةِ وَصَوْناً لَهَا عَنِ ٱلِٱبْتِذَالِ فَتَلَقَّبُوا بِٱلسَّفَّاحِ وَٱلْمَنْصُورِ وَٱلْمَهْدِيِّ وَٱلْهَادِي وَٱلرَّشِيدِ إِلَى آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ وَٱقْتَفَى أَثَرَهُمْ فِي ذَلِكَ ٱلْعُبَيْدِيُّونَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَمِصْرَ وَتَجَافَى بَنُو أُمَيَّةَ عَنْ ذَلِكَ بِٱلْمَشْرِقِ قَبْلَهُمْ مَعَ ٱلْغَضَاضَةِ وَٱلسَّذَاجَةِ لِأَنَّ ٱلْعُرُوبِيَّةَ وَمَنَازِعَهَا لَمْ تُفَارِقْهُمْ حِينَئِذٍ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْهُمْ شِعَارُ ٱلْبَدَاوَةِ إِلَى شِعَارِ ٱلْحَضَارَةِ وَأَمَّا بِٱلْأَنْدَلُسِ فَتَلَقَّبُوا كَسَلَفِهِمْ مَعَ مَا عَلِمُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلْقُصُورِ عَنْ ذَلِكَ بِٱلْقُصُورِ عَنْ مُلْكِ ٱلْحِجَازِ أَصْلِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمِلَّةِ وَٱلْبُعْدِ عَنْ دَارِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلَّتِي هِيَ مَرْكَزُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا مَنَعُوا بِإِمَارَةِ ٱلْقَاصِيَةِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ مَهَالِكِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ حَتَّى إِذَا جَاءَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ ٱلدَّاخِلُ ٱلْآخِرُ مِنْهُمْ وَهُوَ ٱلنَّاصِرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْأَمِيرِ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلْأَوْسَطِ لِأَوَّلِ ٱلْمِائَةِ ٱلرَّابِعَةِ وَٱشْتَهَرَ مَا نَالَ ٱلْخِلَافَةَ بِٱلْمَشْرِقِ مِنَ ٱلْحَجْرِ وَٱسْتِبْدَادِ ٱلْمَوَالِي وَعَيْثِهِمْ فِي ٱلْخُلَفَاءِ بِٱلْعَزْلِ وَٱلِٱسْتِبْدَالِ وَٱلْقَتْلِ وَٱلسَّمْلِ ذَهَبَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ هَذَا إِلَى مِثْلِ مَذَاهِبِ ٱلْخُلَفَاءِ بِٱلْمَشْرِقِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَتَسَمَّى بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَتَلَقَّبَ بِٱلنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللَّهِ وَأُخِذَتْ مِنْ بَعْدِهِ عَادَةٌ وَمَذْهَبٌ لُقِّنَ عَنْهُ وَلَمْ يَكُنْ لِآبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَٱسْتَمَرَّ ٱلْحَالُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنِ ٱنْقَرَضَتْ عَصَبِيَّةُ ٱلْعَرَبِ أَجْمَعَ وَذَهَبَ رَسْمُ ٱلْخِلَافَةِ وَتَغَلَّبَ ٱلْمَوَالِي مِنَ ٱلْعَجَمِ عَلَى بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَٱلصَّنَائِعِ عَلَى ٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِٱلْقَاهِرَةِ وَصِنْهَاجَةُ عَلَى أُمَرَاءِ أَفْرِيقِيَّةَ وَزَنَاتَةُ عَلَى ٱلْمَغْرِبِ وَمُلُوكُ ٱلطَّوَائِفِ بِٱلْأَنْدَلُسِ عَلَى أَمْرِ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱقْتَسَمُوهُ وَٱفْتَرَقَ أَمْرُ ٱلْإِسْلَامِ فَٱخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُ ٱلْمُلُوكِ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلْمَشْرِقِ فِي ٱلِٱخْتِصَاصِ بِٱلْأَلْقَابِ بَعْدَ أَنْ تَسَمَّوْا جَمِيعاً بِٱسْمِ ٱلسُّلْطَانِ . فَأَمَّا مُلُوكُ ٱلْمَشْرِقِ مِنَ ٱلْعَجَمِ فَكَانَ ٱلْخُلَفَاءُ يَخُصُّونَهُمْ بِأَلْقَابِ

تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه وكان العبيديون أيضاً يخصون بها أمراء صنهاجة فلما استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب وتجافوا عن ألقاب الخلافة أدباً معها وعدولاً عن سماتها المختصة بها شأن المتغلبين المستبدين كما قلناه ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوي استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة إلى انتحال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور وزيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما أضافوها إلى الدين فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين . وأما ملوك الطوائف بالأندلس فاقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها كما قال ابن أبي شرف ينعى عليهم

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وأما صنهاجة فاقتصروا على الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتنويه مثل نصير الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما أدالوا من دعوة العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهدها فنسوا هذه الألقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئاً من هذه الألقاب إلا اسم السلطان جرياً على مذاهب البداوة والغضاضة ولما محي رسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين وكان من أهل الخير والاقتداء نزعت به همته إلى الدخول في طاعة الخليفة تكميلاً لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي وأوفد عليه ببيعته عبد الله بن العربي وابنه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية يطلبان توليته إياها على المغرب وتقليده ذلك فانقلبوا إليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورتبته وخاطبه فيه يا أمير المؤمنين تشريفاً واختصاصاً فاتخذها لقباً ويقال إنه كان دعي له بأمير

ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ أَدَباً مَعَ رُتْبَةِ ٱلْخِلَافَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَقَوْمُهُ ٱلْمُرَابِطُونَ مِنِ ٱنْتِحَالِ ٱلدِّينِ وَٱتِّبَاعِ ٱلسُّنَّةِ وَجَاءَ ٱلْمَهْدِيُّ عَلَى أَثَرِهِمْ دَاعِياً إِلَى ٱلْحَقِّ آخِذاً بِمَذَاهِبِ ٱلْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِياً عَلَى أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ عُدُولَهُمْ عَنْهَا إِلَى تَقْلِيدِ ٱلسَّلَفِ فِي تَرْكِ ٱلتَّأْوِيلِ لِظَوَاهِرِ ٱلشَّرِيعَةِ وَمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلتَّجْسِيمِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَذْهَبِ ٱلْأَشْعَرِيَّةِ وَسَمَّى أَتْبَاعَهُ ٱلْمُوَحِّدِينَ تَعْرِيضاً بِذَٰلِكَ ٱلتَّكْبِيرِ وَكَانَ يَرَى رَأْيَ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ فِي ٱلْإِمَامِ ٱلْمَعْصُومِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ يَحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامُ هَٰذَا ٱلْعَالَمِ فَسُمِّيَ بِٱلْإِمَامِ لِمَا قُلْنَاهُ أَوَّلاً مِنْ مَذْهَبِ ٱلشِّيعَةِ فِي أَلْقَابِ خُلَفَائِهِمْ وَأُرْدِفَ بِٱلْمَعْصُومِ إِشَارَةً إِلَى مَذْهَبِهِ فِي عِصْمَةِ ٱلْإِمَامِ وَتَنَزَّهَ عِنْدَ ٱتِّبَاعِهِ عَنْ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَخْذاً بِمَذَاهِبِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلشِّيعَةِ وَلِمَا فِيهَا مِنْ مُشَارَكَةِ ٱلْأَغْمَارِ وَٱلْوِلْدَانِ مِنْ أَعْقَابِ أَهْلِ ٱلْخِلَافَةِ يَوْمَئِذٍ بِٱلْمَشْرِقِ ثُمَّ ٱنْتَحَلَ عَبْدُ ٱلْمُؤْمِنِ وَلِيُّ عَهْدِهِ ٱللَّقَبَ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ خُلَفَاءُ بَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ وَآلُ أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمُ ٱسْتِئْثَاراً بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُمْ لِمَا دَعَا إِلَيْهِ شَيْخُهُمُ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ ذَٰلِكَ وَأَنَّهُ صَاحِبُ ٱلْأَمْرِ وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَذَٰلِكَ دُونَ كُلِّ أَحَدٍ لِٱنْتِفَاءِ عَصَبِيَّةِ قُرَيْشٍ وَتَلَاشِيهَا فَكَانَ ذَٰلِكَ دَأْبَهُمْ وَلَمَّا ٱنْتَقَضَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱنْتَزَعَهُ زَنَاتَةُ ذَهَبَ أَوَّلُهُمْ مَذَاهِبَ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلسَّذَاجَةِ وَأَتْبَاعِ لِمَتُونَةَ فِي ٱنْتِحَالِ ٱللَّقَبِ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَدَباً مَعَ رُتْبَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَى طَاعَتِهَا لِبَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ أَوَّلاً وَلِبَنِي أَبِي حَفْصٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ نَزَعَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ إِلَى ٱللَّقَبِ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱنْتَحَلُوهُ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱسْتِبْلَاغاً فِي مَنَازِعِ ٱلْمُلْكِ وَتَتْمِيماً لِمَذَاهِبِهِ وَسِمَاتِهِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْمِلَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ قَائِمٍ عِنْدَ غَيْبَةِ ٱلنَّبِيِّ يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَحْكَامِهَا وَشَرَائِعِهَا وَيَكُونُ كَٱلْخَلِيفَةِ فِيهِمْ لِلنَّبِيِّ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ ٱلتَّكَالِيفِ وَٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ أَيْضاً بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ضَرُورَةِ ٱلسِّيَاسَةِ فِيهِمْ لِلِٱجْتِمَاعِ ٱلْبَشَرِيِّ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَخْصٍ يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَيَزَعُهُمْ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ بِٱلْقَهْرِ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْمَلِكِ وَٱلْمِلَّةُ ٱلْإِسْلَامِيَّةُ لَمَّا كَانَ ٱلْجِهَادُ فِيهَا مَشْرُوعاً لِعُمُومِ ٱلدَّعْوَةِ وَحَمْلِ ٱلْكَافَّةِ عَلَى دِينِ ٱلْإِسْلَامِ طَوْعاً أَو

كُرْهاً اتُّخِذَتْ فِيهَا الْخِلافَةُ وَالْمُلْكُ لِتَوَجُّهِ الشَّوْكَةِ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا إِلَيْهِمَا مَعاً وَأَمَّا ما سِوَى الْمِلَّةِ الْإِسْلامِيَّةِ فَلَمْ تَكُنْ دَعْوَتُهُمْ عَامَّةً وَلا الْجِهَادُ عِنْدَهُمْ مَشْرُوعاً إِلَّا فِي الْمُدَافَعَةِ فَقَطْ فَصارَ الْقائِمُ بِأَمْرِ الدِّينِ فِيهَا لا يَعْنِيهِ شَيْءٌ مِنْ سِيَاسَةِ الْمُلْكِ وَإِنَّمَا وَقَعَ الْمُلْكُ لِمَنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بِالْعَرَضِ وَلِأَمْرٍ غَيْرِ دِينِيٍّ وَهُوَ مَا اقْتَضَتْهُ لَهُمُ الْعَصَبِيَّةُ لِمَا فِيهَا مِنَ الطَّلَبِ لِلْمُلْكِ بِالطَّبْعِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ بِالتَّغَلُّبِ عَلَى الْأُمَمِ كَمَا فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلامِيَّةِ وَإِنَّمَا هُمْ مَطْلُوبُونَ بِإِقَامَةِ دِينِهِمْ فِي خَاصَّتِهِمْ وَلِذٰلِكَ بَقِيَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَيُوشَعَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا نَحْوَ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ لا يَعْتَنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْمُلْكِ إِنَّمَا هَمُّهُمْ إِقَامَةُ دِينِهِمْ فَقَطْ وَكَانَ الْقَائِمُ بِهِ بَيْنَهُمْ يُسَمَّى الْكُوهِنَ كَأَنَّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ يُقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ الصَّلاةِ وَالْقُرْبَانِ وَيَشْتَرِطُونَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَارُونَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُوسَى لَمْ يُعَقِّبْ ثُمَّ اخْتَارُوا لِإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ الَّتِي هِيَ لِلْبَشَرِ بِالطَّبْعِ سَبْعِينَ شَيْخاً كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ أَحْكَامَهُمُ الْعَامَّةَ وَالْكُوهِنُ أَعْظَمُ مِنْهُمْ رُتْبَةً فِي الدِّينِ وَأَبْعَدُ عَنْ شَغَبِ الْأَحْكَامِ وَاتَّصَلَ ذٰلِكَ فِيهِمْ إِلَى أَنِ اسْتَحْكَمَتْ طَبِيعَةُ الْعَصَبِيَّةِ وَتَمَحَّضَتِ الشَّوْكَةُ لِلْمُلْكِ فَغَلَبُوا الْكَنْعَانِيِّينَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَوْرَثَهُمُ اللهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَمَا جَاوَرَهَا كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ فَحَارَبَتْهُمْ أُمَمُ الْفِلِسْطِينِ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْأَرْمَنِ وَأُرْدُنَّ وَعَمَّانَ وَمَآرِبَ وَرِئَاسَتُهُمْ فِي ذٰلِكَ رَاجِعَةٌ إِلَى شُيُوخِهِمْ وَأَقَامُوا عَلَى ذٰلِكَ نَحْواً مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ وَلَمْ تَكُنْ بِهِمْ صَوْلَةُ الْمُلْكِ وَضَجِرَ بَنُو طَالُوتَ وَغُلِبَ الْأُمَمُ وَقُتِلَ جَالُوتُ مَلِكُ الْفِلِسْطِينِ ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ دَاوُدُ ثُمَّ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا وَاسْتَفْحَلَ مُلْكُهُ وَامْتَدَّ إِلَى الْحِجَازِ ثُمَّ أَطْرَافِ الْيَمَنِ ثُمَّ إِلَى أَطْرَافِ بِلادِ الرُّومِ ثُمَّ افْتَرَقَ الْأَسْبَاطُ مِنْ بَعْدِ سُلَيْمَانَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ فِي الدُّوَلِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِلَى دَوْلَتَيْنِ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ لِلْأَسْبَاطِ الْعَشَرَةِ وَالْأُخْرَى بِالْقُدْسِ وَالشَّامِ لِبَنِي يَهُوذَا وَبِنْيَامِينَ ثُمَّ غَلَبَهُمْ بُخْتَنَصَّرُ مَلِكُ بَابِلَ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمُلْكِ أَوَّلاً الْأَسْبَاطَ الْعَشَرَةَ ثُمَّ ثَانِياً بَنِي يَهُوذَا وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ بَعْدَ اتِّصَالِ مُلْكِهِمْ نَحْوَ أَلْفِ سَنَةٍ وَخَرَّبَ مَسْجِدَهُمْ وَأَحْرَقَ تَوْرَاتَهُمْ وَأَمَاتَ دِينَهُمْ وَنَقَلَهُمْ إِلَى أَصْبَهَانَ وَبِلادِ الْعِرَاقِ إِلَى أَنْ رَدَّهُمْ بَعْضُ مُلُوكِ الْكِيَانِيَّةِ مِنَ الْفُرْسِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ

خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للكهنة فقط والملك للفرس ثم غلب الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكتهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمناي وقاتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيرودس أصهار بني حشمناي وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة وأفحشوا في القتل والهدم والتحريق وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى رومة وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك في ملكة الروم من بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن * ثم جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسلا إلى الآفاق داعين إلى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة وفي مدة هيرودس ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمناي أصهاره فحسده اليهود وكذبوه وكاتب هيرودس ملكهم ملك القياصرة أوغسطس يغريه به فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافترق الحواريون شيعا ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة ثم كتبوا الإنجيل الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم إلى اللسان اللاتيني وكتب لوقا منهم إنجيله باللاتيني إلى بعض أكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدي منهم إنجيله برومة وكتب بطرس إنجيله باللاتيني ونسبه إلى مرقاص تلميذه واختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل مع أنها ليست كلها وحيا صرفا بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحواريين وكلها مواعظ وقصص والأحكام فيها قليلة جدا واجتمع الحواريون الرسل لذلك العهد برومة

وَوَضَعُوا قَوانِينَ ٱلمِلَّةِ ٱلنَّصْرانِيَّةِ وَصَيَّرُوهَا بِيَدِ أَقْلِيمَنْطُسَ تِلْمِيذِ بِطْرُسَ وَكَتَبُوا فِيهَا عدَدَ ٱلكُتُبِ ٱلَّتِي يَجِبُ قَبُولُهَا وَٱلعَمَلُ بِهَا فَمِنْ شَرِيعَةِ ٱليَهُودِ ٱلتَّوْرَاةُ وَهِيَ خَمْسَةُ أَسْفَارٍ وَكِتَابُ يُوشَعَ وَكِتَابُ ٱلقُضَاةِ وَكِتَابُ رَاعُوثَ وَكِتَابُ يَهُوذَا وَأَسْفَارُ ٱلمُلُوكِ أَرْبَعَةٌ وَسِفْرُ بِنْيَامِينَ وَكُتُبُ ٱلمَقَابِيِّينَ لِٱبْنِ كِرْيُونَ ثَلَاثَةٌ وَكِتَابُ عَزْرَا ٱلإِمَامِ وَكِتَابُ أُوشِيرَ وَقِصَّةُ هَامَانَ وَكِتَابُ أَيُّوبَ ٱلصِّدِّيقِ وَمَزَامِيرُ دَاوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَكُتُبُ ٱبْنِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خَمْسَةٌ وَنُبُوَّاتُ ٱلأَنْبِيَاءِ ٱلكِبَارِ وَٱلصِّغَارِ سِتَّةَ عَشَرَ وَكِتَابُ يَشُوعَ بْنِ شَارِخَ وَزِيرِ سُلَيْمَانَ وَمِنْ شَرِيعَةِ عِيسَى صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ ٱلمُتَلَقَّاةِ مِنَ ٱلحَوَارِيِّينَ نُسَخُ ٱلإِنْجِيلِ ٱلأَرْبَعِ وَكُتُبُ ٱلقَتَالِيقُونَ سَبْعُ رَسَائِلَ وَثَامِنُهَا ٱلإِبْرِكْسِيسُ فِي قِصَصِ ٱلرُّسُلِ وَكِتَابُ بُولُسَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ رِسَالَةً وَكِتَابُ أَقْلِيمَنْطُسَ وَفِيهِ ٱلأَحْكَامُ وَكِتَابُ أَبُوغَالِمْسِيسَ وَفِيهِ رُؤْيَا يُوحَنَّا بْنِ زَبْدِي وَٱخْتَلَفَ شَأْنُ ٱلقَيَاصِرَةِ فِي ٱلأَخْذِ بِهٰذِهِ ٱلشَّرِيعَةِ تَارَةً وَتَعْظِيمِ أَهْلِهَا ثُمَّ تَرْكِهَا أُخْرَى وَٱلتَّسَلُّطِ عَلَيْهِمْ بِٱلقَتْلِ وَٱلبَغْيِ إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ وَأَخَذَ بِهَا وَٱسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا وَكَانَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلدِّينِ وَٱلمُقِيمُ لِمَرَاسِيمِهِ يُسَمُّونَهُ ٱلبَطْرَكَ وَهُوَ رَئِيسُ ٱلمِلَّةِ عِنْدَهُمْ وَخَلِيفَةُ ٱلمَسِيحِ فِيهِمْ يَبْعَثُ نُوَّابَهُ وَخُلَفَاءَهُ إِلَى مَا بَعُدَ عَنْهُ مِنْ أُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلأُسْقُفَ أَيْ نَائِبَ ٱلبَطْرَكِ وَيُسَمُّونَ ٱلإِمَامَ ٱلَّذِي يُقِيمُ ٱلصَّلَوَاتِ وَيُفْتِيهِمْ فِي ٱلدِّينِ بِٱلقِسِّيسِ وَيُسَمُّونَ ٱلمُنْقَطِعَ ٱلَّذِي حَبَسَ نَفْسَهُ فِي ٱلخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ بِٱلرَّاهِبِ وَأَكْثَرُ خَلَوَاتِهِمْ فِي ٱلصَّوَامِعِ وَكَانَ بِطْرُسُ ٱلرَّسُولُ رَأْسُ ٱلحَوَارِيِّينَ وَكَبِيرُ ٱلتَّلَامِيذِ بِرُومَةَ يُقِيمُ بِهَا دِينَ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ نِيرُونُ خَامِسُ ٱلقَيَاصِرَةِ فِيمَنْ قَتَلَ مِنَ ٱلبَطَارِقِ وَٱلأَسَاقِفَةِ ثُمَّ قَامَ بِخِلَافَتِهِ فِي كُرْسِيِّ رُومَةَ أَرْيُوسُ وَكَانَ مَرْقَاسُ ٱلإِنْجِيلِيُّ بِٱلإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَمِصْرَ وَٱلمَغْرِبِ دَاعِيًا سَبْعَ سِنِينَ فَقَامَ بَعْدَهُ حَنَانِيَا وَتَسَمَّى بِٱلبَطْرَكِ وَهُوَ أَوَّلُ ٱلبَطَارِكَةِ فِيهَا وَجَعَلَ مَعَهُ ٱثْنَيْ عَشَرَ قِسًّا عَلَى أَنَّهُ إِذَا مَاتَ ٱلبَطْرَكُ يَكُونُ وَاحِدٌ مِنَ ٱلٱثْنَيْ عَشَرَ مَكَانَهُ وَيَخْتَارُ مِنَ ٱلمُؤْمِنِينَ وَاحِدًا مَكَانَ ذٰلِكَ ٱلثَّانِي عَشَرَ فَكَانَ أَمْرُ ٱلبَطَارِكَةِ إِلَى ٱلقُسُوسِ ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ ٱلٱخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي قَوَاعِدِ دِينِهِمْ وَعَقَائِدِهِ وَٱجْتَمَعُوا بِنِيقِيَةَ أَيَّامَ قُسْطَنْطِينَ لِتَحْرِيرِ ٱلحَقِّ فِي ٱلدِّينِ وَٱتَّفَقَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنْ أَسَاقِفَتِهِمْ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ فِي ٱلدِّينِ فَكَتَبُوهُ وَسَمَّوْهُ ٱلإِمَامَ وَصَيَّرُوهُ أَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَكَانَ فِيمَا كَتَبُوهُ أَنْ

ٱلبَطْرَكَ ٱلقَائِمَ بِٱلدِّينِ لَا يُرْجِعُ فِي تَعيِينِهِ إِلَى ٱجْتِهَادِ ٱلأَقِسَّةِ كَمَا قَرَّرَهُ حَنَانِيَا تِلْمِيذ مِرْقَاس وَأَبْطَلُوا ذَٰلِكَ ٱلرَّأْيَ وَإِنَّمَا يُقَدَّمُ عَنْ بَلَاءٍ وَٱخْتِيَارٍ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرُؤَسَائِهِمْ فَبَقِيَ ٱلأَمْرُ كَذَٰلِكَ ثُمَّ ٱخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي تَقْرِيرِ قَوَاعِدِ ٱلدِّينِ وَكَانَتْ لَهُمْ مُجْتَمَعَاتٌ فِي تَقْرِيرِهِ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي هٰذِهِ ٱلْقَاعِدَةِ فَبَقِيَ ٱلأَمْرُ فِيهَا عَلَى ذَٰلِكَ وَٱتَّصَل فِيهِمْ نِيَابَةُ ٱلأَسَاقِفَةِ عَنِ ٱلبَطَارِكَةِ وَكَانَ ٱلأَسَاقِفَةُ يَدْعُونَ ٱلبَطْرَكَ بِٱلأَبِ أَيْضاً تَعْظِيماً لَهُ فَٱشْتَبَهَ ٱلِٱسْمُ فِي أَعْصَارٍ مُتَطَاوِلَةٍ يُقَالُ آخِرُهَا بَطْرَكِيَّةُ هِرَقْلَ بِإِسْكَنْدَرِيَّة فَأَرَادُوا أَنْ يُمَيِّزُوا ٱلبَطْرَكَ عَنِ ٱلأُسْقُفِ فِي ٱلتَّعْظِيمِ فَدَعَوْهُ ٱلبَابَا وَمَعْنَاهُ أَبُو ٱلآبَاءِ وَظَهَرَ هٰذَا ٱلِٱسْمُ أَوَّلَ ظُهُورِهِ بِمِصْرَ عَلَى مَا زَعَمَ جِرْجِيسُ بْنُ ٱلعَمِيدِ فِي تَأْرِيخِهِ ثُمَّ نَقَلُوهُ إِلَى صَاحِبِ ٱلكُرْسِيِّ ٱلأَعْظَمِ عِنْدَهُمْ وَهُوَ كُرْسِيُّ بِطْرُسَ ٱلرَّسُولِ كَمَا قَدَّمْنَاه فَلَمْ يَزَلْ سِمَةً عَلَيْهِ حَتَّى ٱلآنَ ثُمَّ ٱخْتَلَفَتِ ٱلنَّصَارَى فِي دِينِهِمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ وَفِيمَا يَعْتَقِدُونَهُ فِي ٱلمَسِيحِ وَصَارُوا طَوَائِفَ وَفِرَقاً وَٱسْتَظْهَرُوا بِمُلُوكِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ كُلٌّ عَلَى صَاحِبِهِ فَٱخْتَلَفَ ٱلحَالُ فِي ٱلعُصُورِ فِي ظُهُورِ فِرْقَةٍ دُونَ فِرْقَةٍ إِلَى أَنِ ٱسْتَقَرَّتْ لَهُمْ ثَلَاث طَوَائِفَ هِيَ فِرَقُهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى غَيْرِهَا وَهُمُ ٱلمَلَكِيَّةُ وَٱليَعْقُوبِيَّةُ وَٱلنِّسْطُورِيَّةُ ثُمَّ ٱخْتَصَّتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ بِبَطْرَكٍ فَبَطْرَكُ رُومَةَ ٱليَوْمَ ٱلمُسَمَّى بِٱلبَابَا عَلَى رَأْيِ ٱلمَلَكِيَّةِ وَرُومَةُ لِلإِفْرَنْجَةِ وَمَلِكُهُمْ قَائِمٌ بِتِلْكَ ٱلنَّاحِيَةِ وَبَطْرَكُ ٱلمُعَاهِدِينَ بِمِصْرَ عَلَى رَأْيِ ٱليَعْقُوبِيَّةِ وَهُوَ سَاكِنٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ وَٱلحَبَشَةُ يَدِينُونَ بِدِينِهِمْ وَلِبَطْرَكِ مِصْرَ فِيهِمْ أَسَاقِفَةٌ يَنُوبُونَ عَنْهُ فِي إِقَامَةِ دِينِهِمْ هُنَالِكَ وَٱخْتُصَّ ٱسْمُ ٱلبَابَا بِبَطْرَكِ رُومَةَ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ وَلَا تُسَمِّي ٱليَعَاقِبَةُ بَطْرَكَهُمْ بِهٰذَا ٱلِٱسْمِ وَضَبْطُ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةِ بِبَاءَيْنِ مُوَحَّدَتَيْنِ مِنْ أَسْفَلَ وَٱلنُّطْقُ بِهَا مُفَخَّمَةٌ وَٱلثَّانِيَةُ مُشَدَّدَةٌ وَمِنْ مَذَاهِبِ ٱلبَابَا عِنْدَ ٱلإِفْرَنْجَةِ أَنَّهُ يَحُضُّهُمْ عَلَى ٱلِٱنْقِيَادِ لِمَلِكٍ وَاحِدٍ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي ٱخْتِلَافِهِمْ وَٱجْتِمَاعِهِمْ تَحَرُّجاً مِنِ ٱفْتِرَاقِ ٱلكَلِمَةِ وَيَتَحَرَّى بِهِ ٱلعَصَبِيَّةَ ٱلَّتِي لَا فَوْقَهَا مِنْهُمْ لِتَكُونَ يَدُهُ عَالِيَةً عَلَى جَمِيعِهِمْ وَيُسَمُّونَهُ ٱلإِنْبِرَذُورَ (١) وَحَرْفُهُ ٱلوَسَطُ بَيْنَ ٱلذَّالِ وَٱلظَّاءِ ٱلمُعْجَمَتَيْنِ وَمُبَاشِرُهُ يَضَعُ ٱلتَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ لِلتَّبَرُّكِ فَيُسَمَّى ٱلمُتَوَّجَ وَلَعَلَّهُ مَعْنَى لَفْظَةِ ٱلإِنْبِرَذُورِ وَهٰذَا

(١) المشهور قديماً ايمبراطور بالطاء المهملة والفرنسيس تقول ايمبرور ومعناها عندهم ملك الملوك

مُلَخَّصُ مَا أَوْرَدْنَاهُ مِنْ شَرْحِ هٰذَيْنِ ٱلِٱسْمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ هُمَا ٱلْبَابَا وَٱلْكُوهِنُ وَٱللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان والقابها

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلسُّلْطَانَ فِي نَفْسِهِ ضَعِيفٌ يُحَمَّلُ أَمْراً ثَقِيلاً فَلاَ بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي ضَرُورَةِ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مِهَنِهِ (١) فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ نَوْعِهِ وَمَنِ ٱسْتَرْعَاهُ ٱللهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى حِمَايَةِ ٱلْكَافَّةِ مِنْ عَدُوِّهِمْ بِٱلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَإِلَى كَفِّ عُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي أَنْفُسِهِمْ بِإِمْضَاءِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلْوَازِعَةِ فِيهِمْ وَكَفِّ ٱلْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ بِإِصْلاَحِ سَابِلَتِهِمْ وَإِلَى حَمْلِهِمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَا تَعُمُّهُمْ بِهِ ٱلْبَلْوَى فِي مَعَاشِهِمْ وَمُعَامَلاَتِهِمْ مِنْ تَفَقُّدِ ٱلْمَعَايِشِ وَٱلْمَكَايِيلِ وَٱلْمَوَازِينِ حَذَراً مِنَ ٱلتَّطْفِيفِ وَإِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلسِّكَّةِ بِحِفْظِ ٱلنُّقُودِ ٱلَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا مِنَ ٱلْغِشِّ وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيدُهُ مِنْهُمْ مِنَ ٱلِٱنْقِيَادِ لَهُ وَٱلرِّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ وَٱنْفِرَادِهِ بِٱلْمَجْدِ دُونَهُمْ فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذٰلِكَ فَوْقَ ٱلْغَايَةِ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْقُلُوبِ قَالَ بَعْضُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ لَمُعَانَاةُ نَقْلِ ٱلْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِنِهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ ٱلرِّجَالِ ثُمَّ إِنَّ ٱلِٱسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِأُولِي ٱلْقُرْبَى مِنْ أَهْلِ ٱلنَّسَبِ أَوِ ٱلتَّرْبِيَةِ أَوِ ٱلِٱصْطِنَاعِ ٱلْقَدِيمِ لِلدَّوْلَةِ كَانَتْ أَكْمَلَ لِمَا يَقَعُ فِي ذٰلِكَ مِنْ مُجَانَسَةِ خُلُقِهِمْ لِخُلُقِهِ فَتَتِمُّ ٱلْمُشَاكَلَةُ فِي ٱلِٱسْتِعَانَةِ قَالَ تَعَالَى وَٱجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِي ذٰلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ أَوْ بِحِجَابِهِ عَنِ ٱلنَّاسِ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيُشْغِلُوهُ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي مُهِمَّاتِهِمْ أَوْ يَدْفَعَ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْمُلْكِ كُلِّهِ وَيُعَوِّلُ عَلَى كِفَايَتِهِ فِي ذٰلِكَ وَٱضْطِلاَعِهِ فَلِذٰلِكَ قَدْ تُوجَدُ فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ وَقَدْ تَفْتَرِقُ فِي أَشْخَاصٍ وَقَدْ يَتَفَرَّعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيرَةٍ كَٱلْقَلَمِ يَتَفَرَّعُ إِلَى قَلَمِ ٱلرَّسَائِلِ وَٱلْمُخَاطَبَاتِ وَقَلَمِ ٱلصُّكُوكِ وَٱلْإِقْطَاعَاتِ وَإِلَى قَلَمِ ٱلْمُحَاسَبَاتِ وَهُوَ صَاحِبُ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْعَطَاءِ وَدِيوَانُ ٱلْجَيْشِ وَكَٱلسَّيْفِ يَتَفَرَّعُ إِلَى صَاحِبِ ٱلْحَرْبِ

(١) المهنة الخدمة وجمعها مهن بكسر الميم

وَصَاحِبِ ٱلشُّرْطَةِ وَصَاحِبِ ٱلْبَرِيدِ وَوِلَايَةِ ٱلثُّغُورِ ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْوَظَائِفَ ٱلسُّلْطَانِيَّةَ فِي هٰذِهِ ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَ ٱلْخِلَافَةِ لِٱشْتِمَالِ مَنْصِبِ ٱلْخِلَافَةِ عَلَى ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَٱلْأَحْكَامُ ٱلشَّرْعِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِجَمِيعِهَا وَمَوْجُودَةٌ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فِي سَائِرِ وُجُوهِهَا لِعُمُومِ تَعَلُّقِ ٱلْحُكْمِ ٱلشَّرْعِيِّ بِجَمِيعِ أَفْعَالِ ٱلْعِبَادِ وَٱلْفَقِيهُ يَنْظُرُ فِي مَرْتَبَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَشُرُوطِ تَقْلِيدِهَا ٱسْتِبْدَاداً عَلَى ٱلْخِلَافَةِ وَهُوَ مَعْنَى ٱلسُّلْطَانِ أَوْ تَعْوِيضاً مِنْهَا وَهُوَ مَعْنَى ٱلْوِزَارَةِ عِنْدَهُمْ كَمَا يَأْتِي وَفِي نَظَرِهِ فِي ٱلْأَحْكَامِ وَٱلْأَمْوَالِ وَسَائِرِ ٱلسِّيَاسَاتِ مُطْلَقاً أَوْ مُقَيَّداً وَفِي مُوجِبَاتِ ٱلْعَزْلِ إِنْ عَرَضَتْ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ مَعَانِي ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَكَذَا فِي سَائِرِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلَّتِي تَحْتَ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ جِبَايَةٍ أَوْ وِلَايَةٍ لَا بُدَّ لِلْفَقِيهِ مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنِ ٱنْسِحَابِ حُكْمِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى رُتْبَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ إِلَّا أَنَّ كَلَامَنَا فِي وَظَائِفِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَرُتَبِهِ إِنَّمَا هُوَ بِمُقْتَضَى طَبِيعَةِ ٱلْعُمْرَانِ وَوُجُودِ ٱلْبَشَرِ لَا بِمَا يَخُصُّهَا مِنْ أَحْكَامِ ٱلشَّرْعِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا ٱلشَّرْعِيَّةِ مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاةٌ فِي كُتُبِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ مِثْلِ كِتَابِ ٱلْقَاضِي أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلْمَاوَرْدِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْلَامِ ٱلْفُقَهَاءِ فَإِنْ أَرَدْتَ ٱسْتِيفَاءَهَا فَعَلَيْكَ بِمُطَالَعَتِهَا هُنَالِكَ وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي ٱلْوَظَائِفِ ٱلْخِلَافِيَّةِ وَأَفْرَدْنَاهَا لِنُمَيِّزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْوَظَائِفِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ لَا لِتَحْقِيقِ أَحْكَامِهَا ٱلشَّرْعِيَّةِ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي ذٰلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ فِي ٱلْوُجُودِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ

الوزارة * وَهِيَ أُمُّ ٱلْخُطَطِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلرُّتَبِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ لِأَنَّ ٱسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ ٱلْإِعَانَةِ فَإِنَّ ٱلْوِزَارَةَ مَأْخُوذَةٌ إِمَّا مِنَ ٱلْمُؤَازَرَةِ وَهِيَ ٱلْمُعَاوَنَةُ أَوْ مِنَ ٱلْوِزْرِ وَهُوَ ٱلثِّقْلُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ مَعَ مُفَاعِلِهِ أَوْزَارَهُ وَأَثْقَالَهُ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى ٱلْمُعَاوَنَةِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ ٱلْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ ٱلسُّلْطَانِ وَتَصَرُّفَاتِهِ لَا تَعْدُو أَرْبَعَةً لِأَنَّهَا إِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ حِمَايَةِ ٱلْكَافَّةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْجُنْدِ وَٱلسِّلَاحِ وَٱلْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ ٱلْحِمَايَةِ وَٱلْمُطَالَبَةِ وَصَاحِبُ هٰذَا هُوَ ٱلْوَزِيرُ ٱلْمُتَعَارَفُ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلْقَدِيمَةِ بِٱلْمَشْرِقِ وَلِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَغْرِبِ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فِي أُمُورِ مُخَاطَبَاتِهِ لِمَنْ بَعُدَ عَنْهُ فِي

أمور جباية المال وإنفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضطلة وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق وإما أن يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه وكل خطة أو رتبة من رتب الملك والسلطان فإليها يرجع إلا أن الأرفع منها ما كانت الإعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف إذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائماً ومشاركته في كل صنف من أحوال ملكه وأما ما كان خاصاً ببعض الناس أو ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغر أو ولاية جباية خاصة أو النظر في أمر خاص كحسبة الطعام أو النظر في السكة فإن هذه كلها نظر في أحوال خاصة فيكون صاحبها تبعاً لأهل النظر العام وتكون رتبته مرؤوسة لأولئك وما زال الأمر في الدول قبل الإسلام هكذا حتى جاء الإسلام وصار الأمر خلافة فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك إلى ما هو طبيعي من المعاونة بالرأي والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله إذ هو أمر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الإسلام وكذا عمر مع أبي بكر وعلي وعثمان مع عمر وأما حال الجباية والإنفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة لأن القوم كانوا عرباً أميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالي العجم ممن يجيده وكان قليلاً فيهم وأما أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لأن الأمية كانت صفتهم التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصة للأمية التي كانت فيهم والأمانة العامة في كتمان القول وتأديته ولم تخرج السياسة إلى اختياره لأن الخلافة إنما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء وأيضاً فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة أحسنها لأن الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بأبلغ العبارات ولم يبق إلا الخط فكان الخليفة

يستَنِيبُ في كِتَابَتِهِ مَتَى عَنَّ لَهُ مَنْ يُحسِنُهُ وَأَمَّا مُدَافَعَةُ ذَوِي ٱلْحَاجَاتِ عَنْ أَبْوَابِهِم فَكَانَ مَحْظُوراً بِالشَّرِيعَةِ فَلَمْ يَفْعَلُوهُ فَلَمَّا ٱنْقَلَبَتِ ٱلْخِلافَةُ إِلى ٱلْمُلْكِ وَجَاءَتْ رُسُومُ ٱلسُّلْطَانِ وَأَلْقَابُهُ كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ بُدِئَ بِهِ فِي ٱلدَّوْلَةِ شَأْنَ ٱلْبَابِ وَسَدَّهُ دُونَ ٱلْجُمْهُورِ بِمَا كَانُوا يَخْشَوْنَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنِ ٱغْتِيَالِ ٱلْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ كَمَا وَقَعَ بِعُمَرَ وَعَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَعَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ وَغَيْرِهِمْ مَعَ مَا فِي فَتْحِهِ مِنِ ٱزْدِحَامِ ٱلنَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشُغْلِهِمْ بِهِمْ عَنِ ٱلْمُهِمَّاتِ فَٱتَّخَذُوا مَنْ يَقُومُ لَهُمْ بِذٰلِكَ وَسَمَّوْهُ ٱلْحَاجِبَ وَقَدْ جَاءَ أَنَّ عَبْدَ ٱلْمَلِكِ لَمَّا وَلَّى حَاجِبَهُ قَالَ لَهُ قَدْ وَلَّيْتُكَ حِجَابَةَ بَابِي إِلَّا عَنْ ثَلاثَةٍ ٱلْمُؤَذِّنُ لِلصَّلاةِ فَإِنَّهُ دَاعِي ٱللهِ وَصَاحِبِ ٱلْبَرِيدِ فَأَمْرٌ مَا جَاءَ بِهِ وَصَاحِبِ ٱلطَّعَامِ لِئَلَّا يَفْسُدَ ثُمَّ ٱسْتَفْحَلَ ٱلْمُلْكُ بَعْدَ ذٰلِكَ فَظَهَرَ ٱلْمُشَاوِرُ وَٱلْمُعِينُ فِي أُمُورِ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَصَائِبِ وَٱسْتِئْلافِهِمْ وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ ٱسْمُ ٱلْوَزِيرِ وَبَقِيَ أَمْرُ ٱلْحُسْبَانِ فِي ٱلْمَوَالِي وَٱلذِّمِّيِّينَ وَٱتُّخِذَ لِلسِّجِلَّاتِ كَاتِبٌ مَخْصُوصٌ حَوْطَةً عَلَى أَسْرَارِ ٱلسُّلْطَانِ أَنْ تَشْتَهِرَ فَتَفْسُدَ سِيَاسَتُهُ مَعَ قَوْمِهِ وَلَمْ يَكُنْ بِمَثَابَةِ ٱلْوَزِيرِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا ٱحْتِيجَ لَهُ مِنْ حَيْثُ ٱلْخَطُّ وَٱلْكِتَابُ لا مِنْ حَيْثُ ٱللِّسَانُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْكَلامُ إِذِ ٱللِّسَانُ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَفْسُدْ فَكَانَتِ ٱلْوِزَارَةُ لِذٰلِكَ أَرْفَعَ رُتَبِهِمْ يَوْمَئِذٍ فِي سَائِرِ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ فَكَانَ ٱلنَّظَرُ لِلْوَزِيرِ عَامّاً فِي أَحْوَالِ ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْمُفَاوَضَاتِ وَسَائِرِ أُمُورِ ٱلْحِمَايَاتِ وَٱلْمُطَالَبَاتِ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي دِيوَانِ ٱلْجُنْدِ وَفَرْضِ ٱلْعَطَاءِ بِالْأَهْلِيَّةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَٱسْتَفْحَلَ ٱلْمُلْكُ وَعَظُمَتْ مَرَاتِبُهُ وَٱرْتَفَعَتْ وَعَظُمَ شَأْنُ ٱلْوَزِيرِ وَصَارَتْ إِلَيْهِ ٱلنِّيَابَةُ فِي إِنْفَاذِ ٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ تَعَيَّنَتْ مَرْتَبَتُهُ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَعَنَتْ لَهَا ٱلْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهَا ٱلرِّقَابُ وَجُعِلَ لَهَا ٱلنَّظَرُ فِي دِيوَانِ ٱلْحُسْبَانِ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ خِطَّتُهُ مِنْ قَسْمِ ٱلْأَعْطِيَاتِ فِي ٱلْجُنْدِ فَٱحْتَاجَ إِلى ٱلنَّظَرِ فِي جَمْعِهِ وَتَفْرِيقِهِ وَأُضِيفَ إِلَيْهِ ٱلنَّظَرُ فِيهِ ثُمَّ جُعِلَ لَهُ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْقَلَمِ وَٱلتَّرْسِيلِ لِصَوْنِ أَسْرَارِ ٱلسُّلْطَانِ وَلِحِفْظِ ٱلْبَلاغَةِ لِمَا كَانَ ٱللِّسَانُ قَدْ فَسَدَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَجُعِلَ ٱلْخَاتَمُ لِسِجِلَّاتِ ٱلسُّلْطَانِ لِيَحْفَظَهَا مِنَ ٱلذِّيَاعِ وَٱلشِّيَاعِ وَدُفِعَ إِلَيْهِ فَصَارَ ٱسْمُ ٱلْوَزِيرِ جَامِعاً لِخِطَّتَيِ ٱلسَّيْفِ وَٱلْقَلَمِ وَسَائِرِ مَعَانِي ٱلْوِزَارَةِ وَٱلْمُعَاوَنَةِ حَتَّى لَقَدْ دُعِيَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ ٱلرَّشِيدِ إِشَارَةً إِلى عُمُومِ نَظَرِهِ وَقِيَامِهِ بِالدَّوْلَةِ وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ مِنَ ٱلرُّتَبِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا ٱلْحِجَابَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْقِيَامُ عَلَى ٱلْبَابِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ لِٱسْتِنْكَافِهِ عَنْ مِثْلِ ذٰلِكَ ثُمَّ جَاءَ فِي

ٱلدَّوْلةِ ٱلعَبَّاسِيَّةِ شَأْنُ ٱلاِسْتِبْدَادِ عَلَى ٱلسُّلطَانِ وَتَعَاوَرَ فِيهَا ٱسْتِبْدَادُ ٱلْوِزَارَةِ مَرَّةً وَٱلسُّلطَانِ أُخْرَى وَصَارَ ٱلْوَزِيرُ إِذَا ٱسْتَبَدَّ مُحْتَاجاً إِلَى ٱسْتِنَابَةِ ٱلْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ لِذٰلِكَ لِتَصِحَّ ٱلأَحْكَامُ ٱلشَّرْعِيَّةُ وَتَجِيءَ عَلَى حَالِهَا كَمَا تَقَدَّمَتْ فَٱنْقَسَمَتِ ٱلْوِزَارَةُ حِينَئِذٍ إِلَى وِزَارَةِ تَنْفِيذٍ وَهِيَ حَالُ مَا يَكُونُ ٱلسُّلْطَانُ قَائِماً عَلَى نَفْسِهِ وَإِلَى وِزَارَةِ تَفْوِيضٍ وَهِيَ حَالُ مَا يَكُونُ ٱلْوَزِيرُ مُسْتَبِداً عَلَيْهِ ثُمَّ ٱسْتَمَرَّ ٱلاِسْتِبْدَادُ وَصَارَ ٱلأَمْرُ لِمُلُوكِ ٱلعَجَمِ وَتَعَطَّلَ رَسْمُ ٱلخِلافَةِ وَلَمْ يَكُنْ لِأُولٰئِكَ ٱلمُتَغَلِّبِينَ أَنْ يَنْتَحِلُوا أَلقَابَ ٱلخِلافَةِ وَٱسْتَنْكَفُوا مِنْ مُشَارَكَةِ ٱلْوُزَرَاءِ فِي ٱللَّقَبِ لِأَنَّهُمْ خَوَلٌ لَهُمْ فَتَسَمَّوْا بِٱلإِمَارَةِ وَٱلسُّلْطَانِ وَكَانَ ٱلمُسْتَبِدُّ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ يُسَمَّى أَمِيرَ ٱلأُمَرَاءِ أَوْ بِٱلسُّلْطَانِ إِلَى مَا يُحَلِّيهِ بِهِ ٱلْخَلِيفَةُ مِنْ أَلقَابِهِ كَمَا تَرَاهُ فِي أَلقَابِهِمْ وَتَرَكُوا ٱسْمَ ٱلْوِزَارَةِ إِلَى مَنْ يَتَوَلَّاهَا لِلْخَلِيفَةِ فِي خَاصَّتِهِ وَلَمْ يَزَلْ هٰذَا ٱلشَّأْنُ عِنْدَهُمْ إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ وَفَسَدَ ٱللِّسَانُ خِلالَ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَصَارَتْ صِنَاعَةً يَنْتَحِلُهَا بَعْضُ ٱلنَّاسِ فَٱمْتُهِنَتْ وَتَرَفَّعَ ٱلْوُزَرَاءُ عَنْهَا لِذٰلِكَ وَلِأَنَّهُمْ عَجَمٌ وَلَيْسَتْ تِلْكَ ٱلبَلاغَةُ هِيَ ٱلمَقْصُودَةَ مِنْ لِسَانِهِمْ فَتُخُيِّرَ لَهَا مِنْ سَائِرِ ٱلطَّبَقَاتِ وَٱخْتُصَّتْ بِهِ وَصَارَتْ خَادِمَةً لِلْوَزِيرِ وَٱخْتُصَّ ٱسْمُ ٱلأَمِيرِ بِصَاحِبِ ٱلحُرُوبِ وَٱلْجُنْدِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَدُهُ مَعَ ذٰلِكَ عَالِيَةٌ عَلَى أَهْلِ ٱلرُّتَبِ وَأَمْرُهُ نَافِذٌ فِي ٱلكُلِّ إِمَّا نِيَابَةً أَوِ ٱسْتِبْدَاداً وَٱسْتَمَرَّ ٱلأَمْرُ عَلَى هٰذَا ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ ٱلتُّرْكِ آخِراً بِمِصْرَ فَرَأَوْا أَنَّ ٱلْوِزَارَةَ قَدِ ٱبْتُذِلَتْ بِتَرَفُّعِ أُولٰئِكَ عَنْهَا وَدَفْعِهَا لِمَنْ يَقُومُ بِهَا لِلْخَلِيفَةِ ٱلمَحْجُورِ وَنَظَرُهُ مَعَ ذٰلِكَ مُتَعَقَّبٌ بِنَظَرِ ٱلأَمِيرِ فَصَارَتْ مَرْؤُوسَةً نَاقِصَةً فَٱسْتَنْكَفَ أَهْلُ هٰذِهِ ٱلرُّتْبَةِ ٱلعَالِيَةِ فِي ٱلدَّوْلَةِ عَنِ ٱسْمِ ٱلْوِزَارَةِ وَصَارَ صَاحِبُ ٱلأَحْكَامِ وَٱلنَّظَرِ فِي ٱلْجُنْدِ يُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِٱلنَّائِبِ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ وَبَقِيَ ٱسْمُ ٱلحَاجِبِ فِي مَدْلُولِهِ وَٱخْتُصَّ ٱسْمُ ٱلْوَزِيرِ عِنْدَهُمْ بِٱلنَّظَرِ فِي ٱلجِبَايَةِ . وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلأَنْدَلُسِ فَأَنِفُوا ٱسْمَ ٱلْوَزِيرِ فِي مَدْلُولِهِ أَوَّلَ ٱلدَّوْلَةِ ثُمَّ قَسَمُوا خُطَّتَهُ أَصْنَافاً وَأَفْرَدُوا لِكُلِّ صِنْفٍ وَزِيراً فَجَعَلُوا لِحُسْبَانِ ٱلمَالِ وَزِيراً وَلِلتَّرْسِيلِ وَزِيراً وَلِلنَّظَرِ فِي حَوَائِجِ ٱلمُتَظَلِّمِينَ وَزِيراً وَلِلنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ أَهْلِ ٱلثُّغُورِ وَزِيراً وَجَعَلَ لَهُمْ بَيْتٌ يَجْلِسُونَ فِيهِ عَلَى فُرُشٍ مُنَضَّدَةٍ لَهُمْ وَيُنَفِّذُونَ أَمْرَ ٱلسُّلْطَانِ هُنَاكَ كُلٌّ فِيمَا جُعِلَ لَهُ وَأُفْرِدَ لِلتَّرَدُّدِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْخَلِيفَةِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ٱرْتَفَعَ عَنْهُمْ بِمُبَاشَرَةِ ٱلسُّلْطَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَٱرْتَفَعَ مَجْلِسُهُ عَنْ

مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره ثم جاءت دولة الشيعة بأفريقية والقيروان وكان للقائمين بها رسوخ في البداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتنقيح أسمائها كما تراه في أخبار دولتهم * ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولاً للبداوة ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاءوا ولم يزل الشأن ذلك إلى هذا العهد وأما في دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه الدويدار ويضيفون إليه استتباع كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية والحاضرة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولي الأمور لمن يشاء

(الحجابة) * قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته وكانت هذه منزلة يوماً عن الخطط مرؤوسة لها إذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد فهي بمصر مرؤوسة لصاحب الخطة العليا المسمى بالنائب * وأما في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت في دولتهم غاية رفيعة كما تراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره جاء من بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه شرفاً لهم وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين

يعْنُونَ بِهِ ٱلسَّيْفَ وَٱلْقَلَمَ وَيَدِلُّونَ بِٱلْحِجَابَةِ عَلَى حِجَابَةِ ٱلسُّلْطَانِ عَنِ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْخَاصَّةِ وَبِذِي ٱلْوِزَارَتَيْنِ عَنْ جَمْعِهِ لِخُطَّتَيِ ٱلسَّيْفِ وَٱلْقَلَمِ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي دُوَلِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ ذِكْرٌ لِهٰذَا ٱلِٱسْمِ لِلْبِدَاوَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ وَرُبَّمَا يُوجَدُ فِي دَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ عِنْدَ ٱسْتِعْظَامِهَا وَحِضَارَتِهَا إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ * وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ لَمْ تَسْتَمْكِنْ فِيهَا ٱلْحِضَارَةُ ٱلدَّاعِيَةُ إِلَى ٱنْتِحَالِ ٱلْأَلْقَابِ وَتَمْيِيزِ ٱلْخِطَطِ وَتَعْيِينِهَا بِٱلْأَسْمَاءِ إِلَّا آخِراً فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ ٱلرُّتَبِ إِلَّا ٱلْوَزِيرُ فَكَانُوا أَوَّلاً يَخُصُّونَ بِهٰذَا ٱلِٱسْمِ ٱلْكَاتِبَ ٱلْمُتَصَرِّفَ ٱلْمُشَارِكَ لِلسُّلْطَانِ فِي خَاصِّ أَمْرِهِ كَٱبْنِ عَطِيَّةَ وَعَبْدِ ٱلسَّلَامِ ٱلْكُومِيِّ وَكَانَ لَهُ مَعَ ذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْحِسَابِ وَٱلْأَشْغَالِ ٱلْمَالِيَّةِ ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱسْمُ ٱلْوَزِيرِ لِأَهْلِ نَسَبِ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْمُوَحِّدِينَ كَٱبْنِ جَامِعٍ وَغَيْرِهِ وَلَمْ يَكُنِ ٱسْمُ ٱلْحَاجِبِ مَعْرُوفاً فِي دَوْلَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ * وَأَمَّا بَنُو أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِيقِيَّةَ فَكَانَتِ ٱلرِّئَاسَةُ فِي دَوْلَتِهِمْ أَوَّلاً وَٱلتَّقَدُّمُ لِوَزِيرِ ٱلرَّأْيِ وَٱلْمَشُورَةِ وَكَانَ يُخَصُّ بِٱسْمِ شَيْخِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَكَانَ لَهُ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْوِلَايَاتِ وَٱلْعَزْلِ وَقَوْدِ ٱلْعَسَاكِرِ وَٱلْحُرُوبِ وَٱخْتَصَّ ٱلْحُسْبَانُ وَٱلدِّيوَانُ بِرُتْبَةٍ أُخْرَى وَيُسَمَّى مُتَوَلِّيهَا بِصَاحِبِ ٱلْأَشْغَالِ يَنْظُرُ فِيهَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمُطْلَقَ فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ وَيُحَاسِبُ وَيَسْتَخْلِصُ ٱلْأَمْوَالَ وَيُعَاقِبُ عَلَى ٱلتَّفْرِيطِ وَكَانَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَٱخْتُصَّ عِنْدَهُمُ ٱلْقَلَمُ أَيْضاً بِمَنْ يُجِيدُ ٱلتَّرْسِيلَ وَيُؤْتَمَنُ عَلَى ٱلْأَسْرَارِ لِأَنَّ ٱلْكِتَابَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مُنْتَحَلِ ٱلْقَوْمِ وَلَا ٱلتَّرْسِيلَ بِلِسَانِهِمْ فَلَمْ يُشْتَرَطْ فِيهِ ٱلنَّسَبُ وَٱحْتَاجَ ٱلسُّلْطَانُ لِٱتِّسَاعِ مُلْكِهِ وَكَثْرَةِ ٱلْمُرْتَزِقِينَ بِدَارِهِ إِلَى قَهْرَمَانٍ خَاصٍّ بِدَارِهِ فِي أَحْوَالِهِ يُجْرِيهَا عَلَى قَدْرِهَا وَتَرْتِيبِهَا مِنْ رِزْقٍ وَعَطَاءٍ وَكُسْوَةٍ وَنَفَقَةٍ فِي ٱلْمَطَابِخِ وَٱلْإِصْطَبْلَاتِ وَغَيْرِهِمَا وَحَصْرِ ٱلذَّخِيرَةِ وَتَنْفِيذِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ذٰلِكَ عَلَى أَهْلِ ٱلْجِبَايَةِ فَخَصُّوهُ بِٱسْمِ ٱلْحَاجِبِ وَرُبَّمَا أَضَافُوا إِلَيْهِ كِتَابَةَ ٱلْعَلَامَةِ عَلَى ٱلسِّجِلَّاتِ إِذَا ٱتَّفَقَ أَنَّهُ يُحْسِنُ صِنَاعَةَ ٱلْكِتَابَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوهُ لِغَيْرِهِ وَٱسْتَمَرَّ ٱلْأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ وَحَجَبَ ٱلسُّلْطَانُ نَفْسَهُ عَنِ ٱلنَّاسِ فَصَارَ هٰذَا ٱلْحَاجِبُ وَاسِطَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَبَيْنَ أَهْلِ ٱلرُّتَبِ كُلِّهِمْ ثُمَّ جُمِعَ لَهُ آخِرَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْحَرْبُ ثُمَّ ٱلرَّأْيُ وَٱلْمَشُورَةُ فَصَارَتِ ٱلْخُطَّةُ أَرْفَعَ ٱلرُّتَبِ وَأَوْعَبَهَا لِلْخِطَطِ ثُمَّ جَاءَ ٱلِٱسْتِبْدَادُ وَٱلْحَجْرُ مُدَّةً مِنْ بَعْدِ ٱلسُّلْطَانِ ٱلثَّانِي عَشَرَ مِنْهُمْ ثُمَّ ٱسْتَبَدَّ بَعْدَ ذٰلِكَ حَفِيدُهُ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَذْهَبَ آثَارَ ٱلْحَجْرِ

وَالِاسْتِبْدَادِ بِإِذْهَابِ خِطَّةِ الْحِجَابَةِ الَّتِي كَانَتْ سُلَّماً إِلَيْهِ وَبَاشَرَ أُمُورَهُ كُلَّهَا بِنَفْسِهِ مِن غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ وَالْأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ لِهٰذَا الْعَهْدِ

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِي مَرِينَ فَلا أَثَرَ لِاسْمِ الْحَاجِبِ عِنْدَهُم وَأَمَّا رِئَاسَةُ الْحَرْبِ وَالْعَسَاكِرِ فَهِيَ لِلْوَزِيرِ وَرُتْبَةُ الْقَلَمِ فِي الْحُسْبَانِ وَالرَّسَائِلِ رَاجِعَة إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَإِنِ اخْتَصَّتْ بِبَعْضِ الْبُيُوتِ الْمُصْطَنَعِينَ فِي دَوْلَتِهِمْ وَقَد تُجْمَعُ عِنْدَهُم وَقَدْ تُفَرَّقُ وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحَجْبُهُ عَنِ الْعَامَّةِ فَهِيَ رُتْبَةٌ عِنْدَهُمْ فَيُسَمَّى صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِالْمِزْوَارِ وَمَعْنَاهُ الْمُقَدَّمُ عَلَى الْجَنَادِرَةِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ السُّلْطَانِ فِي تَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ وَتَصْرِيفِ عُقُوبَاتِهِ وَإِنْزَالِ سَطَوَاتِهِ وَحِفْظِ الْمُعْتَقَلِينَ فِي سُجُونِهِ وَالْعَرِيف عَلَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ فَالْبَابُ لَهُ وَأَخْذُ النَّاسِ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِي دَارِ الْعَامَّةِ رَاجِع إِلَيْهِ فَكَأَنَّهَا وِزَارَةٌ صُغْرَى وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ فَلا أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَيْءٍ مِنْ هٰذِهِ الْأَلْقَابِ وَلَا تَمْيِيزِ الْخِطَطِ لِبَدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا وَإِنَّمَا يَخُصُّونَ بِاسْمِ الْحَاجِبِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ مُنَفِّذَ الْخَاصِّ بِالسُّلْطَانِ فِي دَارِهِ كَمَا كَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ وَقَد يَجْمَعُونَ لَهُ الْحُسْبَانَ وَالسِّجِلَّ كَمَا كَانَ فِيهَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِي تَبَعِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مُنْذُ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ

وَأَمَّا أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِهٰذَا الْعَهْدِ فَالْمَخْصُوصُ عِنْدَهُمْ بِالْحُسْبَانِ وَتَنْفِيذِ حَالِ السُّلْطَانِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمَالِيَّةِ يُسَمُّونَهُ بِالْوَكِيلِ وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلَّا أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ التَّرْسِيلِ وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى السِّجِلَّاتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خِطَّةُ الْعَلَامَةِ كَمَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ الدُّوَلِ وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ فَاسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضُوعٌ لِحَاكِمٍ مِنْ أَهْلِ الشَّوْكَةِ وَهُمُ التُّرْكُ يَنْفُذُ الْأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهٰذِهِ الْوَظِيفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظِيفَة النِّيَابَةِ الَّتِي لَهَا الْحُكْمُ فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِي الْعَامَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلِلنَّائِبِ التَّوْلِيَةُ وَالْعَزْل فِي بَعْضِ الْوَظَائِفِ عَلَى الْأَحْيَانِ وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَيَبُتُّهَا وَتُنَفَّذُ أَوَامِرُه كَمَا تُنَفَّذُ الْمَرَاسِمُ السُّلْطَانِيَّةُ وَكَأَنَّ لَهُ النِّيَابَةُ الْمُطْلَقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ وَلِلْحُجَّابِ الْحُكْمُ فَقَط فِي طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ وَالْجُنْدِ عِنْدَ التَّرَافُعِ إِلَيْهِمْ وَإِجْبَارِ مَنْ أَبَى الِانْقِيَادَ لِلْحُكْمِ وَطَوْرُهُم تَحْتَ طَوْرِ النِّيَابَةِ وَالْوَزِيرُ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جِبَايَةِ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جِزْيَةٍ ثُمَّ فِي تَصْرِيفِهَا فِي الْإِنْفَاقَاتِ السُّلْطَانِيَّة

أَوِ ٱلْجِرَايَاتِ ٱلْمُقَدَّرَةِ وَلَهُ مَعَ ذٰلِكَ ٱلتَّوْلِيَةُ وَٱلْعَزْلُ فِي سَائِرِ ٱلْعُمَّالِ ٱلْمُبَاشِرِينَ لِهٰذِهِ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلتَّنْفِيذِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَتَبَايُنِ أَصْنَافِهِمْ وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنْ يَكُونَ هٰذَا ٱلْوَزِيرُ مِنْ صِنْفِ ٱلْقِبْطِ ٱلْقَائِمِينَ عَلَى دِيوَانِ ٱلْحُسْبَانِ وَٱلْجِبَايَةِ لِٱخْتِصَاصِهِمْ بِذٰلِكَ فِي مِصْرَ مُنْذُ عُصُورٍ قَدِيمَةٍ وَقَدْ يُوَلِّيهَا ٱلسُّلْطَانُ بَعْضَ ٱلْأَحْيَانِ لِأَهْلِ ٱلشَّوْكَةِ مِنْ رِجَالَاتِ ٱلتُّرْكِ أَوْ أَبْنَائِهِمْ عَلَى حَسَبِ ٱلدَّاعِيَةِ لِذٰلِكَ وَٱللهُ مُدَبِّرُ ٱلْأُمُورِ وَمُصَرِّفُهَا بِحِكْمَتِهِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ

ديوان الاعمال والجبايات

إِعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةَ مِنَ ٱلْوَظَائِفِ ٱلضَّرُورِيَّةِ لِلْمُلْكِ وَهِيَ ٱلْقِيَامُ عَلَى أَعْمَالِ ٱلْجِبَايَاتِ وَحِفْظُ حُقُوقِ ٱلدَّوْلَةِ فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ وَإِحْصَاءُ ٱلْعَسَاكِرِ بِأَسْمَائِهِمْ وَتَقْدِيرُ أَرْزَاقِهِمْ وَصَرْفُ أَعْطِيَاتِهِمْ فِي إِبَّانَاتِهَا وَٱلرُّجُوعُ فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلْقَوَانِينِ ٱلَّتِي يُرَتِّبُهَا قَوَمَةُ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَقَهَارِمَةُ ٱلدَّوْلَةِ وَهِيَ كُلُّهَا مَسْطُورَةٌ فِي كِتَابٍ شَاهِدٍ بِتَفَاصِيلِ ذٰلِكَ فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ مَبْنِيٍّ عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ ٱلْحِسَابِ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا ٱلْمَهَرَةُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَيُسَمَّى ذٰلِكَ ٱلْكِتَابُ بِٱلدِّيوَانِ وَكَذٰلِكَ مَكَانُ جُلُوسِ ٱلْعُمَّالِ ٱلْمُبَاشِرِينَ لَهَا * وَيُقَالُ إِنَّ أَصْلَ هٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةِ أَنَّ كِسْرَى نَظَرَ يَوْماً إِلَى كُتَّابِ دِيوَانِهِ وَهُمْ يَحْسُبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَأَنَّهُمْ يُحَادِثُونَ فَقَالَ دِيوَانَهْ أَيْ مَجَانِينُ بِلُغَةِ ٱلْفُرْسِ فَسُمِّيَ مَوْضِعُهُمْ بِذٰلِكَ وَحُذِفَتِ ٱلْهَاءُ لِكَثْرَةِ ٱلْإِسْتِعْمَالِ تَخْفِيفاً فَقِيلَ دِيوَانٌ ثُمَّ نُقِلَ هٰذَا ٱلْإِسْمُ إِلَى كِتَابِ هٰذِهِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْمُتَضَمِّنِ لِلْقَوَانِينِ وَٱلْحُسْبَانَاتِ وَقِيلَ إِنَّهُ ٱسْمٌ لِلشَّيَاطِينِ بِٱلْفَارِسِيَّةِ سُمِّيَ ٱلْكُتَّابُ بِذٰلِكَ لِسُرْعَةِ نُفُوذِهِمْ فِي فَهْمِ ٱلْأُمُورِ وَوُقُوفِهِمْ عَلَى ٱلْجَلِيِّ مِنْهَا وَٱلْخَفِيِّ وَجَمْعِهِمْ لِمَا شَذَّ وَتَفَرَّقَ ثُمَّ نُقِلَ إِلَى مَكَانِ جُلُوسِهِمْ لِتِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَعَلَى هٰذَا فَيَتَنَاوَلُ ٱسْمُ ٱلدِّيوَانِ كِتَابَ ٱلرَّسَائِلِ وَمَكَانَ جُلُوسِهِ بِبَابِ ٱلسُّلْطَانِ عَلَى مَا يَأْتِي بَعْدُ وَقَدْ تُفْرَدُ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ بِنَاظِرٍ وَاحِدٍ يَنْظُرُ فِي سَائِرِ هٰذِهِ ٱلْأَعْمَالِ وَقَدْ يُفْرَدُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا بِنَاظِرٍ كَمَا يُفْرَدُ فِي بَعْضِ ٱلدُّوَلِ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْعَسَاكِرِ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ وَحُسْبَانِ أَعْطِيَاتِهِمْ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ عَلَى حَسَبِ مُصْطَلَحِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَا قَرَّرَهُ أَوَّلُوهَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةَ إِنَّمَا تَحْدُثُ فِي ٱلدُّوَلِ عِنْدَ تَمَكُّنِ ٱلْغَلَبِ وَٱلْإِسْتِيلَاءِ وَٱلنَّظَرِ فِي أَعْطَافِ ٱلْمُلْكِ وَفُنُونِ ٱلتَّمْهِيدِ وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ ٱلدِّيوَانَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ عُمَرُ

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يُقَالُ لِسَبَبِ مَالٍ أَتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مِنَ ٱلْبَحْرَيْنِ فَٱسْتَكْثَرُوهُ وَتَعِبُوا فِي قَسْمِهِ فَسَمَوْا إِلَى إِحْصَاءِ ٱلْأَمْوَالِ وَضَبْطِ ٱلْعَطَاءِ وَٱلْحُقُوقِ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ بِٱلدِّيوَانِ وَقَالَ رَأَيْتُ مُلُوكَ ٱلشَّامِ يُدَوِّنُونَ فَقَبِلَ مِنْهُ عُمَرُ وَقِيلَ بَلْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ ٱلْهُرْمُزَانُ لَمَّا رَآهُ يَبْعَثُ ٱلْبُعُوثَ بِغَيْرِ دِيوَانٍ فَقِيلَ لَهُ وَمَنْ يَعْلَمُ بِغَيْبَةِ مَنْ يَغِيبُ مِنْهُمْ فَإِنَّ مَنْ تَخَلَّفَ أَخَلَّ بِمَكَانِهِ وَإِنَّمَا يَضْبِطُ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ فَأَثْبَتَ لَهُمْ دِيوَانًا وَسَأَلَ عُمَرُ عَنِ ٱسْمِ ٱلدِّيوَانِ فَعُبِّرَ لَهُ وَلَمَّا ٱجْتَمَعَ ذَٰلِكَ أَمَرَ عَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَمَخْرَمَةَ ٱبْنَ نَوْفَلٍ وَجُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ وَكَانُوا مِنْ كُتَّابِ قُرَيْشٍ فَكَتَبُوا دِيوَانَ ٱلْعَسَاكِرِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى تَرْتِيبِ ٱلْأَنْسَابِ مُبْتَدَأً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا بَعْدَهَا ٱلْأَقْرَبُ فَٱلْأَقْرَبُ هٰكَذَا كَانَ ٱبْتِدَاءُ دِيوَانِ ٱلْجَيْشِ وَرَوَى ٱلزُّهْرِيُّ بْنُ سَعِيدِ بْنِ ٱلْمُسَيَّبِ أَنَّ ذَٰلِكَ كَانَ فِي ٱلْمُحَرَّمِ سَنَةَ عِشْرِينَ وَأَمَّا دِيوَانُ ٱلْخَرَاجِ وَٱلْجِبَايَاتِ فَبَقِيَ بَعْدَ ٱلْإِسْلَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ دِيوَانُ ٱلْعِرَاقِ بِٱلْفَارِسِيَّةِ وَدِيوَانُ ٱلشَّامِ بِٱلرُّومِيَّةِ وَكُتَّابُ ٱلدَّوَاوِينِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَهْدِ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَٱسْتَحَالَ ٱلْأَمْرُ مُلْكًا وَٱنْتَقَلَ ٱلْقَوْمُ مِنْ غَضَاضَةِ ٱلْبَدَاوَةِ إِلَى رَوْنَقِ ٱلْحَضَارَةِ وَمِنْ سَذَاجَةِ ٱلْأُمِّيَّةِ إِلَى حِذْقِ ٱلْكِتَابَةِ وَظَهَرَ فِي ٱلْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهَرَةٌ فِي ٱلْكُتَّابِ وَٱلْحُسْبَانِ فَأَمَرَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ سَعْدٍ وَالِي ٱلْأُرْدُنِّ لِعَهْدِهِ أَنْ يَنْقُلَ دِيوَانَ ٱلشَّامِ إِلَى ٱلْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةٍ مِنْ يَوْمِ ٱبْتِدَائِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرْجُونُ كَاتِبُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ فَقَالَ لِكُتَّابِ ٱلرُّومِ ٱطْلُبُوا ٱلْعَيْشَ فِي غَيْرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَقَدْ قَطَعَهَا ٱللَّهُ عَنْكُمْ . وَأَمَّا دِيوَانُ ٱلْعِرَاقِ فَأَمَرَ ٱلْحَجَّاجُ كَاتِبَهُ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَكْتُبُ بِٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْفَارِسِيَّةِ وَلَقِنَ ذَٰلِكَ عَنْ زَادَانَ فَرُّوخَ كَاتِبِ ٱلْحَجَّاجِ قَبْلَهُ وَلَمَّا قُتِلَ زَادَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ ٱلْأَشْعَثِ ٱسْتَخْلَفَ ٱلْحَجَّاجُ صَالِحًا هٰذَا مَكَانَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْقُلَ ٱلدِّيوَانَ مِنَ ٱلْفَارِسِيَّةِ إِلَى ٱلْعَرَبِيَّةِ فَفَعَلَ وَرَغَمَ لِذَٰلِكَ كُتَّابُ ٱلْفُرْسِ وَكَانَ عَبْدُ ٱلْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى يَقُولُ لِلَّهِ دَرُّ صَالِحٍ مَا أَعْظَمَ مِنَّتَهُ عَلَى ٱلْكُتَّابِ ثُمَّ جُعِلَتْ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ ٱلنَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكَ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ وُزَرَاءِ ٱلدَّوْلَةِ . وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةِ مِنَ ٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِٱلْجَيْشِ أَوْ بَيْتِ ٱلْمَالِ فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ وَتَمْيِيزِ ٱلنَّوَاحِي بِٱلصُّلْحِ وَٱلْعَنْوَةِ وَفِي تَقْلِيدِ

هذه الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسابات فأمر راجع إلى كتب الأحكام السلطانية وهي مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا وإنما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة أركانه لأن الملك لا بد له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك إلى الأعوان في أمر السيف وأمر القلم وأمر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رئاسة الملك وكذلك كان الأمر في دولة بني أمية بالأندلس والطوائف بعدهم وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الأشغال وكان ربما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها. ولما استبد بنو أبي حفص بأفريقية وكان شأن الجالية من الأندلس فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الأشغال كما كان لهم بالأندلس وداولوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤوساً للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرئاسة التي كانت له في الدولة. وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسبانات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخارج والعطاء هذه أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان. وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الأموال لأن النظر في الأموال عندهم يتنوع إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الأموال والجبايات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغه فتعين للنظر العام

منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمتولي من موالي السلطان وأهل عصبيته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير إلى نظره ويجتهد جهده في متابعته ويسمى عندهم أستاذ الدولة وهو أحد الأمراء الأكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كلها راجعة إلى الأموال والحسبان مقصورة النظر إلى أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعاته أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار وإن كان الوزير من الجند فلا يكون لأستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من مماليكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص. هذا بيان هذه الخطة بدولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف الأمور لا رب غيره

ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت عند بني العباس رفيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل عند طيه وإلصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته أولاً أو آخراً على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم

بعلامة الرئيس عليه يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة الحفصية لما ارتفع شأن الحجابة وصار أمرها إلى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة إتباعاً لما سلف من أمرها فصار الحاجب يرسم للكاتب إمضاء كتابه بذلك بخط يصنعه ويتخير له من صيغ الإنفاذ ما شاء فيأتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان لنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبداً بأمره قائماً على نفسه فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته * ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه فإما أن تصدر كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شأن الدول * واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد من أن يتخير أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة إلى أرباب السيوف لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لأجل سذاجة العصبية فيختص السلطان أهل عصبيته بخطط دولته وسائر رتبه فيقلد المال والسيف والكتابة منهم فأما رتبة السيف فتستغني عن معاناة العلم وأما المال والكتابة فيضطر إلى ذلك البلاغة في هذه والحسبان في الأخرى فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت إليه الضرورة ويقلدونه إلا أنه لا تكون يد آخر من أهل العصبية غالبة على يده ويكون نظره منصرفاً عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فإن الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء إلا أنه تحت يد أمير من أهل

عصبيَّةِ ٱلرُّومِ يُعرفُ بِٱلدَّويدارِ وَتَعويلُ ٱلسلطَانِ وَوُثُوقُهُ بِهِ وَٱسْتِنَامَتُهُ فِي غَالِبِ أَحوَالِهِ إِلَيْهِ وَتَعوِيلُهُ عَلَى ٱلآخِرِ فِي أَحوَالِ ٱلبَلاغَةِ وَتَطْبِيقِ ٱلمَقَاصِدِ وَكِتْمَانِ ٱلأَسرَارِ وَغَيرِ ذَلِكَ مِنْ تَوَابِعِهَا * وَأَمَّا ٱلشُّرُوطُ ٱلمُعْتَبَرَةُ فِي صَاحِبِ هٰذِهِ ٱلرُّتْبَةِ ٱلَّتِي يُلاحِظُهَا ٱلسلطَانُ فِي ٱخْتِيَارِهِ وَٱنْتِقَائِهِ مِنْ أَصنَافِ ٱلنَّاسِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَأَحسَنُ مَنِ ٱستَوْعَبَهَا عَبْدُ ٱلحَمِيدِ ٱلكَاتِبُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى ٱلكُتَّابِ وَهِيَ أَمَّا بَعْدُ حَفِظَكُمُ ٱللهُ يَا أَهلَ صِنَاعَةِ ٱلكِتَابَةِ وَحَاطَكُمْ وَوَفَّقَكُمْ وَأَرْشَدَكُمْ فَإِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ ٱلنَّاسَ بَعدَ ٱلأَنْبِيَاءِ وَٱلمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ ٱللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ أَجمَعِينَ وَمِنْ بَعدِ ٱلمُلُوكِ ٱلمُكَرَّمِينَ أَصنَافاً وَإِنْ كَانُوا فِي ٱلحَقِيقَةِ سَوَاءً وَصَرَّفَهُمْ فِي صُنُوفِ ٱلصِّنَاعَاتِ وَضُرُوبِ ٱلمُحَاوَلاتِ إِلَى أَسبَابِ مَعَاشِهِمْ وَأَبْوَابِ أَرزَاقِهِمْ فَجَعَلَكُمْ مَعْشَرَ ٱلكُتَّابِ فِي أَشْرَفِ ٱلجِهَاتِ أَهلَ ٱلأَدَبِ وَٱلمُرُوءَاتِ وَٱلعِلْمِ وَٱلرَّزَانَةِ بِكُمْ يَنْتَظِمُ لِلخِلافَةِ مَحَاسِنُهَا وَتَستَقِيمُ أُمُورُهَا وَبِنُصَحَائِكُمْ يُصلِحُ ٱللهُ لِلخَلقِ سُلطَانَهُمْ وَتَعمُرُ بُلدَانُهُمْ لا يَستَغنِي ٱلمَلِكُ عَنكُمْ وَلا يُوجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ ٱلمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمِ ٱلَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ وَأَبْصَارِهِمِ ٱلَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ وَأَلسِنَتِهِمِ ٱلَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ وَأَيْدِيهِمِ ٱلَّتِي بِهَا يَبْطِشُونَ فَأَمتَعَكُمُ ٱللهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ وَلا نَزَعَ عَنكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ ٱلنِّعمَةِ عَلَيكُمْ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهلِ ٱلصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحوَجَ إِلَى ٱجتِمَاعِ خِلالِ ٱلخَيرِ ٱلمَحمُودَةِ وَخِصَالِ ٱلفَضلِ ٱلمَذكُورَةِ ٱلمَعدُودَةِ مِنكُمْ أَيُّهَا ٱلكُتَّابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هٰذَا ٱلكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ فَإِنَّ ٱلكَاتِبَ يَحتَاجُ فِي نَفْسِهِ وَيَحتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَثِقُ بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ أَنْ يَكُونَ حَلِيماً فِي مَوضِعِ ٱلحِلْمِ فَهِيماً فِي مَوضِعِ ٱلحُكمِ مِقدَاماً فِي مَوضِعِ ٱلإِقدَامِ مُحجِماً فِي مَوضِعِ ٱلإِحجَامِ مُؤْثِراً لِلعَفَافِ وَٱلعَدْلِ وَٱلإِنْصَافِ كَتُوماً لِلأَسرَارِ وَفِيًّا عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ عَالِماً بِمَا يَأْتِي مِنَ ٱلنَّوَازِلِ يَضَعُ ٱلأُمُورَ مَوَاضِعَهَا وَٱلطَّوَارِقَ فِي أَمَاكِنِهَا قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلعِلْمِ فَأَحكَمَهُ وَإِنْ لَمْ يُحكِمْهُ أَخَذَ مِنْهُ بِمِقدَارِ مَا يَكْتَفِي بِهِ يَعرِفُ بِغَرِيزَةِ عَقلِهِ وَحُسنِ أَدَبِهِ وَفَضلِ تَجرِبَتِهِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ قَبْلَ وُرُودِهِ وَعَاقِبَةَ مَا يَصدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ فَيُعِدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ وَعَتَادَهُ وَيُهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهٍ هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ فَتَنَافَسُوا يَا مَعْشَرَ ٱلكُتَّابِ فِي صُنُوفِ ٱلآدَابِ وَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَٱبدَأُوا بِعِلمِ كِتَابِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلفَرَائِضِ ثُمَّ ٱلعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا ثِقَافُ أَلسِنَتِكُمْ ثُمَّ أَجِيدُوا ٱلخَطَّ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ

كُتُبِكُمْ وَارْوُوا الأَشْعَارَ وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيهَا وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيَرَهَا فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَمُكُمْ وَلَا تُضِيعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ فَإِنَّهُ قِوَامُ كُتَّابِ الْخَرَاجِ وَارْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ سَنِيِّهَا وَدَنِيِّهَا وَسَفْسَافِ الأُمُورِ وَمَحَاقِرِهَا فَإِنَّهَا مُذِلَّةٌ لِلرِّقَابِ مُفْسِدَةٌ لِلْكُتَّابِ وَنَزِّهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدَّنَاءَةِ وَارْبَأُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السِّعَايَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْجَهَالَاتِ وَإِيَّاكُمْ وَالْكِبْرَ وَالسُّخْفَ وَالْعَظَمَةَ فَإِنَّهَا عَدَاوَةٌ مُجْتَلَبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ وَتَحَابُّوا فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْيَقُ لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنُّبْلِ مِنْ سَلَفِكُمْ وَإِنْ نَبَا الزَّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَاعْطِفُوا عَلَيْهِ وَآسُوهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالُهُ وَيَثُوبَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَداً مِنْكُمُ الْكِبَرُ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ فَزُورُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَاوِرُوهُ وَاسْتَظْهِرُوا بِفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ وَلْيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنِ اصْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ لِيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحْوَطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَحْمَدَةٌ فَلَا يَصْرِفْهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهِ وَإِنْ عَرَضَتْ مَذَمَّةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ وَلْيَحْذَرِ السَّقْطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَلَلَ عِنْدَ تَغَيُّرِ الْحَالِ فَإِنَّ الْعَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعْشَرَ الْكُتَّابِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى الْقُرَّاءِ وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ لَهُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَبْذُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ وَشُكْرِهِ وَاحْتِمَالِهِ وَخَيْرِهِ وَنَصِيحَتِهِ وَكِتْمَانِ سِرِّهِ وَتَدْبِيرِ أَمْرِهِ مَا هُوَ جَزَاءٌ لِحَقِّهِ وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ بِفِعَالِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَالاضْطِرَارِ إِلَى مَا لَدَيْهِ فَاسْتَشْعِرُوا ذَلِكَ وَفَّقَكُمُ اللهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فِي حَالَةِ الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ وَالْحِرْمَانِ وَالْمُوَاسَاةِ وَالإِحْسَانِ وَالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَنِعْمَتِ السِّيمَةُ هَذِهِ مَنْ وُسِمَ بِهَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَإِذَا وُلِّيَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَوْ صُيِّرَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللهِ وَعِيَالِهِ أَمْرٌ فَلْيُرَاقِبِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيُؤْثِرْ طَاعَتَهُ وَلْيَكُنْ عَلَى الضَّعِيفِ رَفِيقاً وَلِلْمَظْلُومِ مُنْصِفاً فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَرْفَقُهُمْ بِعِيَالِهِ ثُمَّ لِيَكُنْ بِالْعَدْلِ حَاكِماً وَلِلأَشْرَافِ مُكْرِماً وَلِلْفَيْءِ مُوَفِّراً وَلِلْبِلَادِ عَامِراً وَلِلرَّعِيَّةِ مُتَأَلِّفاً وَعَنْ أَذَاهُمْ مُتَخَلِّفاً وَلْيَكُنْ فِي مَجْلِسِهِ مُتَوَاضِعاً حَلِيماً وَفِي سِجِلَّاتِ خَرَاجِهِ وَاسْتِقْصَاءِ حُقُوقِهِ رَفِيقاً وَإِذَا صَحِبَ أَحَدُكُمْ رَجُلاً فَلْيَخْتَبِرْ خَلَائِقَهُ فَإِذَا عَرَفَ حَسَنَهَا وَقَبِيحَهَا أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ مِنَ الْحَسَنِ وَاحْتَالَ عَلَى صَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ الْقَبِيحِ بِأَلْطَفِ حِيلَةٍ وَأَجْمَلِ وَسِيلَةٍ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ إِذَا كَانَ بَصِيراً بِسِيَاسَتِهَا

ٱلتَّمَسَ مَعرِفَةَ أَخلاقِهَا فَإِنْ كَانَتْ رَمُوحاً لَمْ يَهِجْهَا إِذَا رَكِبَهَا وَإِنْ كَانَتْ شَبُوباً ٱتَّقَاهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيهَا وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شُرُوداً تَوَقَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا وَإِنْ كَانَتْ حَرُوناً قَمَعَ بِرِفْقٍ هَوَاهَا فِي طُرُقِهَا فَإِنِ ٱسْتَمَرَّتْ عَطَفَهَا يَسِيراً فَيَسْلُسُ لَهُ قِيَادُهَا وَفِي هٰذَا ٱلْوَصْفِ مِنَ ٱلسِّيَاسَةِ دَلَائِلُ لِمَنْ سَاسَ ٱلنَّاسَ وَعَامَلَهُم وَجَرَّبَهُمْ وَدَاخَلَهُمْ وَٱلْكَاتِبُ بِفَضْلِ أَدَبِهِ وَشَرِيفِ صَنْعَتِهِ وَلَطِيفِ حِيلَتِهِ وَمُعَامَلَتِهِ لِمَنْ يُحَاوِرُهُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُنَاظِرُهُ وَيَفْهَمُ عَنْهُ أَوْ يَخَافُ سَطْوَتَهُ أَوْلَى بِٱلرِّفْقِ لِصَاحِبِهِ وَمُدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمِ أَوَدِهِ مِنْ سَائِسِ ٱلْبَهِيمَةِ ٱلَّتِي لَا تُحِيرُ جَوَاباً وَلَا تَعرِفُ صَوَاباً وَلَا تَفْهَمُ خِطَاباً إِلَّا بِقَدَرِ مَا يُصَيِّرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا ٱلرَّاكِبُ عَلَيْهَا أَلَا فَارْفُقُوا رَحِمَكُمُ ٱللّٰهُ فِي ٱلنَّظَرِ وَٱعْمَلُوا مَا أَمْكَنَكُمْ فِيهِ مِنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَٱلْفِكْرِ تَأْمَنُوا بِإِذْنِ ٱللّٰهِ مِمَّنْ صَحِبْتُمُوهُ ٱلنَّبْوَةَ وَٱلِٱسْتِثْقَالَ وَٱلْجَفْوَةَ وَيَصِيرُ مِنْكُمْ إِلَى ٱلْمُوَافَقَةِ وَتَصِيرُوا مِنْهُ إِلَى ٱلْمُؤَاخَاةِ وَٱلشَّفَقَةِ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ وَلَا يُجَاوِزَنَّ ٱلرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَبِنَائِهِ وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ فُنُونِ أَمْرِهِ قَدْرَ حَقِّهِ فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا فَضَّلَكُمُ ٱللّٰهُ بِهِ مِنْ شَرَفِ صَنْعَتِكُمْ خَدَمَةٌ لَا تُحْمَلُونَ فِي خِدْمَتِكُمْ عَلَى ٱلتَّقْصِيرِ وَحَفَظَةٌ لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ ٱلتَّضْيِيعِ وَٱلتَّبْذِيرِ وَٱسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُمْ بِٱلْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ وَٱحْذَرُوا مَتَالِفَ ٱلسَّرَفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ ٱلتَّرَفِ فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ ٱلْفَقْرَ وَيُذِلَّانِ ٱلرِّقَابَ وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا وَسِيَّمَا ٱلْكُتَّابِ وَأَرْبَابِ ٱلْآدَابِ وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهٌ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ فَٱسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفِ أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتُكُمْ ثُمَّ ٱسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ ٱلتَّدْبِيرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةً وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيرِ آفَةً مُتْلِفَةً وَهُوَ ٱلْوَصْفُ ٱلشَّاغِلُ لِصَاحِبِهِ عَنْ إِنْفَاذِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ فَلْيَقْصِدِ ٱلرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ ٱلْكَافِي مِنْ مَنْطِقِهِ وَلْيُوجِزْ فِي ٱبْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مَصْلَحَةٌ لِفِعْلِهِ وَمَدْفَعَةٌ لِلتَّشَاغُلِ عَنْ إِكْثَارِهِ وَلْيَضْرَعْ إِلَى ٱللّٰهِ فِي صِلَةِ تَوْفِيقِهِ وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةَ وُقُوعِهِ فِي ٱلْغَلَطِ ٱلْمُضِرِّ بِبَدَنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانٌّ أَوْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّ ٱلَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ فَقَدْ تَعَرَّضَ بِظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ وَذٰلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرُ بِٱلْأُمُورِ وَأَحْمَلُ

لِعِبْءِ ٱلتَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ فَإِنَّ أَعْقَلَ ٱلرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِٱلْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ ٱللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ ٱغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ وَلَا تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ وَلَا يُكَاثِرْ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ وَحَمْدُ ٱللهِ وَاجِبٌ عَلَى ٱلْجَمِيعِ وَذَلِكَ بِٱلتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ وَٱلتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ وَٱلتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هٰذَا مَا سَبَقَ بِهِ ٱلْمَثَلُ مَنْ تَلْزَمُهُ ٱلنَّصِيحَةُ يَلْزَمُهُ ٱلْعَمَلُ وَهُوَ جَوْهَرُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ بَعْدَ ٱلَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلِذٰلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَّمْتُهُ بِهِ تَوَلَّانَا ٱللهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ ٱلطَّلَبَةِ وَٱلْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ وَٱلسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ

(الشرطة) * وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِأَفْرِيقِيَّةَ ٱلْحَاكِمَ وَفِي دَوْلَةِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ صَاحِبَ ٱلْمَدِينَةِ وَفِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ ٱلْوَالِي وَهِيَ وَظِيفَةٌ مَرْؤُوسَةٌ لِصَاحِبِ ٱلسَّيْفِ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ وَكَانَ أَصْلُ وَضْعِهَا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ أَحْكَامَ ٱلْجَرَائِمِ فِي حَالِ ٱسْتِبْدَادِهَا أَوَّلًا ثُمَّ ٱلْحُدُودَ بَعْدَ ٱسْتِيفَائِهَا فَإِنَّ ٱلتُّهَمَ ٱلَّتِي تَعْرِضُ فِي ٱلْجَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي ٱسْتِيفَاءِ حُدُودِهَا وَلِلسِّيَاسَةِ ٱلنَّظَرُ فِي ٱسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِإِقْرَارٍ يُكْرِهُهُ عَلَيْهِ ٱلْحَاكِمُ إِذَا ٱحْتَفَّتْ بِهِ ٱلْقَرَائِنُ لِمَا تُوجِبُهُ ٱلْمَصْلَحَةُ ٱلْعَامَّةُ فِي ذٰلِكَ فَكَانَ ٱلَّذِي يَقُومُ بِهٰذَا ٱلِاسْتِبْدَادِ وَبِٱسْتِيفَاءِ ٱلْحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّهَ عَنْهُ ٱلْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ ٱلشُّرْطَةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْحُدُودِ وَٱلدِّمَاءِ بِإِطْلَاقٍ وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ ٱلْقَاضِي وَنَزَّهُوا هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةَ وَقَلَّدُوهَا كِبَارَ ٱلْقُوَّادِ وَعُظَمَاءَ ٱلْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ ٱلتَّنْفِيذِ فِي طَبَقَاتِ ٱلنَّاسِ إِنَّمَا كَانَ حُكْمُهُمْ عَلَى ٱلدَّهْمَاءِ وَأَهْلِ ٱلرِّيَبِ وَٱلضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي ٱلرَّعَاعِ وَٱلْفَجَرَةِ ثُمَّ عَظُمَتْ نَبَاهَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَنُوِّعَتْ إِلَى شُرْطَةٍ كُبْرَى وَشُرْطَةٍ صُغْرَى وَجُعِلَ حُكْمُ ٱلْكُبْرَى عَلَى ٱلْخَاصَّةِ وَٱلدَّهْمَاءِ وَجُعِلَ لَهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى أَهْلِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلضَّرْبُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي ٱلظُّلَامَاتِ وَعَلَى أَيْدِي أَقَارِبِهِمْ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَاهِ وَجُعِلَ صَاحِبُ ٱلصُّغْرَى مَخْصُوصًا بِٱلْعَامَّةِ وَنُصِبَ لِصَاحِبِ ٱلْكُبْرَى كُرْسِيٌّ بِبَابِ دَارِ ٱلسُّلْطَانِ وَرِجَالٌ يَتَبَوَّؤُونَ ٱلْمَقَاعِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَبْرَحُونَ عَنْهَا إِلَّا فِي تَصْرِيفِهِ وَكَانَتْ

وِلاَيَتُهَا لِلْأَكَابِرِ مِنْ رِجَالاَتِ ٱلدَّوْلَةِ حَتَّى كَانَتْ تَرْشِيحاً لِلْوِزَارَةِ وَٱلْحِجَابَةِ

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ بِٱلْمَغْرِبِ فَكَانَ لَهَا حَظٌّ مِنَ ٱلتَّنْوِيهِ وَإِنْ لَمْ يَجْعَلُوهَا عَامَّةً وَكَانَ لاَ يَلِيهَا إِلَّا رِجَالاَتُ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَكُبَرَاؤُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ٱلتَّحَكُّمُ عَلَى أَهْلِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ثُمَّ فَسَدَ ٱلْيَوْمَ مَنْصِبُهَا وَخَرَجَتْ عَنْ رِجَالِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَصَارَتْ وِلاَيَتُهَا لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِينَ . وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ بَنِي مُرِّينَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَشْرِقِ فوِلاَيَتُهَا فِي بُيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ ٱصْطِنَاعِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ ٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ فِي رِجَالاَتِ ٱلتُّرْكِ أَوْ أَعْقَابِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلتُّرْكِ يَتَخَيَّرُونَهُمْ لَهَا فِي ٱلنَّظَرِ بِمَا يَظْهَرُ مِنْهُم مِنَ ٱلصَّلاَبَةِ وَٱلْمَضَاءِ فِي ٱلْأَحْكَامِ لِقَطْعِ مَوَادِّ ٱلْفَسَادِ وَحَسْمِ أَبْوَابِ ٱلدَّعَارَةِ وَتَخْرِيبِ مَوَاطِنِ ٱلْفُسُوقِ وَتَفْرِيقِ مَجَامِعِهِ مَعَ إِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَٱلسِّيَاسِيَّةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ رِعَايَةُ ٱلْمَصَالِحِ ٱلْعَامَّةِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَٱللَّهُ مُقَلِّبُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ وَٱللَّهُ تَعَالَى أَعْلَم

(قيادة الاساطيل) * وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ ٱلدَّوْلَةِ وَخِطَطِهَا فِي مُلْكِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَمَرْؤُوسَةٌ لِصَاحِبِ ٱلسَّيْفِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا فِي عُرْفِهِمِ ٱلْبَلْمَنْدَ بِتَفْخِيمِ ٱللاَّمِ مَنْقُولاً مِنْ لُغَةِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ فَإِنَّهُ ٱسْمُهَا فِي ٱصْطِلاَحِ لُغَتِهِم وَإِنَّمَا ٱخْتَصَّتْ هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةُ بِمُلْكِ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّهُمَا جَمِيعاً عَلَى ضِفَّةِ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ مِنْ جِهَةِ ٱلْجَنُوبِ وَعَلَى عُدْوَتِهِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ بِلاَدُ ٱلْبَرْبَرِ كُلِّهِمْ مِنْ سَبْتَةَ إِلَى ٱلشَّامِ وَعَلَى عُدْوَتِهِ ٱلشَّمَالِيَّةِ بِلاَدُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلصَّقَالِبَةِ وَٱلرُّومِ إِلَى بِلاَدِ ٱلشَّامِ أَيْضاً وَيُسَمَّى ٱلْبَحْرَ ٱلرُّومِيَّ وَٱلْبَحْرَ ٱلشَّامِيَّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عُدْوَتِهِ وَٱلسَّاكِنُونَ بِسِيفِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَسَوَاحِلِهِ مِنْ عُدْوَتَيْهِ يُعَانُونَ مِنْ أَحْوَالِهِ مَا لاَ تُعَانِيهِ أُمَّةٌ مِنْ أُمَمِ ٱلْبِحَارِ فَقَدْ كَانَتِ ٱلرُّومُ وَٱلْإِفْرَنْجَةُ وَٱلْقُوطُ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ مِنْ هٰذَا ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ وَكَانَتْ أَكْثَرُ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِي ٱلسُّفُنِ فَكَانُوا مَهَرَةً فِي رُكُوبِهِ وَٱلْحَرْبِ فِي أَسَاطِيلِهِ وَلَمَّا أَسَفَّ مَنْ أَسَفَّ مِنْهُمْ إِلَى مُلْكِ ٱلْعُدْوَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِثْلَ ٱلرُّومِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْقُوطِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ أَجَازُوا فِي ٱلْأَسَاطِيلِ وَمَلَكُوهَا وَتَغَلَّبُوا عَلَى ٱلْبَرْبَرِ بِهَا وَٱنْتَزَعُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا وَكَانَ لَهَا بِهَا ٱلْمُدُنُ ٱلْحَافِلَةُ مِثْلَ قَرْطَاجَنَّةَ وَسَبِيطَلَةَ وَجَلُولاَءَ وَمِرْنَاقَ وَشَرْشَالَ وَطَنْجَةَ وَكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجَنَّةَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَةَ وَيَبْعَثُ ٱلْأَسَاطِيلَ لِحَرْبِهِ مَشْحُونَةً بِٱلْعَسَاكِرِ وَٱلْعُدَدِ فَكَانَتْ هٰذِهِ عَادَةً لِأَهْلِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ

اَلسَّاكِنِينَ حَفَافِيهِ مَعْرُوفَةٌ فِي ٱلْقَدِيمِ وَٱلْحَدِيثِ وَلَمَّا مَلَكَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِصْرَ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ إِلَى عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا أَنْ صِفْ لِيَ ٱلْبَحْرَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنَّ ٱلْبَحْرَ خَلْقٌ عَظِيمٌ يَرْكَبُهُ خَلْقٌ ضَعِيفٌ دُودٌ عَلَى عُودٍ فَأَوْعَزَ حِينَئِذٍ بِمَنْعِ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ رُكُوبِهِ وَلَمْ يَرْكَبْهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ إِلَّا مَنِ ٱفْتَاتَ عَلَى عُمَرَ فِي رُكُوبِهِ وَنَالَ مِنْ عِقَابِهِ كَمَا فَعَلَ بِعَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ ٱلْأَزْدِيِّ سَيِّدِ بَجِيلَةَ لَمَّا أَغْزَاهُ عَمَّانَ فَبَلَغَهُ غَزْوُهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَنَّفَهُ أَنَّهُ رَكِبَ ٱلْبَحْرَ لِلْغَزْوِ وَلَمْ يَزَلِ ٱلشَّأْنُ ذٰلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ لِعَهْدِ مُعَاوِيَةَ أَذِنَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي رُكُوبِهِ وَٱلْجِهَادِ عَلَى أَعْوَادِهِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ لِبَدَاوَتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا مَهَرَةً فِي ثِقَافَتِهِ وَرُكُوبِهِ وَٱلرُّومُ وَٱلْإِفْرَنْجَةُ لِمُمَارَسَتِهِمْ أَحْوَالَهُ وَمَرْبَاهُمْ فِي ٱلتَّقَلُّبِ عَلَى أَعْوَادِهِ مَرَنُوا عَلَيْهِ وَأَحْكَمُوا ٱلدِّرَايَةَ بِثِقَافَتِهِ فَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ ٱلْمُلْكُ لِلْعَرَبِ وَشَمَخَ سُلْطَانُهُمْ وَصَارَتْ أُمَمُ ٱلْعَجَمِ خَوَلاً لَهُمْ وَتَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِي صَنْعَةٍ إِلَيْهِمْ بِمَبْلَغِ صِنَاعَتِهِ وَٱسْتَخْدَمُوا مِنَ ٱلنَّوَاتِيَةِ فِي حَاجَاتِهِمُ ٱلْبَحْرِيَّةِ أُمَمًا وَتَكَرَّرَتْ مُمَارَسَتُهُمْ لِلْبَحْرِ وَثِقَافَتُهُ وَٱسْتَحْدَثُوا بُصَرَاءَ بِهَا فَشَرِهُوا إِلَى ٱلْجِهَادِ فِيهِ وَأَنْشَأُوا ٱلسُّفُنَ فِيهِ وَٱلشَّوَانِي وَشَحَنُوا ٱلْأَسَاطِيلَ بِٱلرِّجَالِ وَٱلسِّلَاحِ وَأَمْطَوْهَا ٱلْعَسَاكِرَ وَٱلْمُقَاتِلَةَ لِمَنْ وَرَاءَ ٱلْبَحْرِ مِنْ أُمَمِ ٱلْكُفْرِ وَٱخْتَصُّوا بِذٰلِكَ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَثُغُورِهِمْ مَا كَانَ أَقْرَبَ لِهٰذَا ٱلْبَحْرِ وَعَلَى حَافَتِهِ مِثْلَ ٱلشَّامِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَأَوْعَزَ ٱلْخَلِيفَةُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ إِلَى حَسَّانِ بْنِ ٱلنُّعْمَانِ عَامِلِ أَفْرِيقِيَّةَ بِٱتِّخَاذِ دَارِ صِنَاعَةٍ بِتُونِسَ لِإِنْشَاءِ ٱلْآلَاتِ ٱلْبَحْرِيَّةِ حِرْصًا عَلَى مَرَاسِمِ ٱلْجِهَادِ وَمِنْهَا كَانَ فَتْحُ صِقِلِّيَّةَ أَيَّامَ زِيَادَةِ ٱللهِ ٱلْأَوَّلِ ٱبْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْأَغْلَبِ عَلَى يَدِ أَسَدِ بْنِ ٱلْفُرَاتِ شَيْخِ ٱلْفُتْيَا وَفَتْحِ قُوصَرَّةَ أَيْضًا فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حَدِيجٍ أَغْزَى صِقِلِّيَّةَ أَيَّامَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَلَمْ يَفْتَحِ ٱللهُ عَلَى يَدَيْهِ وَفُتِحَتْ عَلَى يَدِ ٱبْنِ ٱلْأَغْلَبِ وَقَائِدِهِ أَسَدِ بْنِ ٱلْفُرَاتِ وَكَانَتْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ أَسَاطِيلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْأَنْدَلُسِ فِي دَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَٱلْأُمَوِيِّينَ تَتَعَاقَبُ إِلَى بِلَادِهِمَا فِي سَبِيلِ ٱلْفِتْنَةِ فَتَجُوسُ خِلَالَ ٱلسَّوَاحِلِ بِٱلْإِفْسَادِ وَٱلتَّخْرِيبِ وَٱنْتَهَى أُسْطُولُ ٱلْأَنْدَلُسِ أَيَّامَ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ إِلَى مِائَتَيْ مَرْكَبٍ أَوْ نَحْوِهَا وَأُسْطُولُ أَفْرِيقِيَّةَ كَذٰلِكَ مِثْلَهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ وَكَانَ قَائِدُ ٱلْأَسَاطِيلِ بِٱلْأَنْدَلُسِ ٱبْنُ دُمَاحِسٍ وَمَرْفَأُهَا لِلْحَطِّ وَٱلْإِقْلَاعِ بِجَايَةَ وَٱلْمَرِيَّةَ وَكَانَتْ أَسَاطِيلُهَا مُجْتَمِعَةً مِنْ سَائِرِ ٱلْمَمَالِكِ

منْ كُلِّ بَلَدٍ تُتَّخَذُ فِيهِ ٱلسُّفُنُ أَسطُولٌ يُرْجِعُ نَظَرَهُ إِلى قَائِدٍ مِنَ ٱلنَّوَاتِيَةِ يُدَبِّرُ أَمرَ حَرْبِهِ وَسِلاحِهِ وَمُقَاتِلَتِهِ وَرَئِيسٌ يُدَبِّرُ أَمرَ جَرْيَتِهِ بِٱلرِّيحِ أَوْ بِٱلْمَجَاذِيفِ وَأَمرَ إِرْسَائِهِ فِي مَرْفَئِهِ فَإِذَا ٱجْتَمَعَتِ ٱلْأَسَاطِيلُ لِغَزْوٍ مُحْتَفَلٍ أَوْ غَرَضٍ سُلطَانِيٍّ مُهِمٍّ عَسْكَرَتْ بِمَرْفَئِهَا ٱلْمَعْلُومِ وَشَحَنَهَا ٱلسُّلْطَانُ بِرِجَالِهِ وَأَنْجَادِ عَسَاكِرِهِ وَمَوَالِيهِ وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَرِّحُهُمْ لِوَجْهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ إِيَابَهُمْ بِٱلْفَتْحِ وَٱلْغَنِيمَةِ وَكَانَ ٱلْمُسْلِمُونَ لِعَهْدِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلامِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هٰذَا ٱلْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ وَعَظُمَتْ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلأُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ قِبَلٌ بِأَسَاطِيلِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ جَوَانِبِهِ وَٱمْتَطَوا ظَهْرَهُ لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ فَكَانَتْ لَهُم ٱلْمَقَامَاتُ ٱلْمَعْلُومَةُ مِنَ ٱلْفَتْحِ وَٱلْغَنَائِمِ وَمَلَكُوا سَائِرَ ٱلْجَزَائِرِ ٱلْمُنْقَطِعَةِ عَنِ ٱلسَّوَاحِلِ فِيهِ مِثْلَ مُيُورْقَةَ وَمَنُورْقَةَ وَيَابِسَةَ وَسِرْدَانِيَةَ وَصِقِلِّيَّةَ وَقُوصَرَةَ وَمَالِطَةَ وَأَقْرِيطِشَ وَقُبْرُسَ وَسَائِرِ مَمَالِكِ ٱلرُّومِ وَٱلإِفْرَنْجِ وَكَانَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلشِّيعِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ يَغْزُونَ أَسَاطِيلَهُمْ مِنَ ٱلْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنْوَةَ فَتَنْقَلِبُ بِٱلظَّفَرِ وَٱلْغَنِيمَةِ وَٱفْتَتَحَ مُجَاهِدٌ ٱلْعَامِرِي صَاحِبُ دَانِيَةَ مِنْ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ جَزِيرَةَ سِرْدَانِيَةَ فِي أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَٱرْتَجَعَهَا ٱلنَّصَارَى لِوَقْتِهَا وَٱلْمُسْلِمُونَ خِلالَ ذٰلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَغَلَّبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ لُجَّةِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِمْ جَائِيَةً وَذَاهِبَةً وَٱلْعَسَاكِرُ ٱلْإِسْلامِيَّةُ تُجِيزُ ٱلْبَحْرَ فِي ٱلْأَسَاطِيلِ مِنْ صِقِلِّيَّةَ الى ٱلْبَرِّ ٱلْكَبِيرِ ٱلْمُقَابِلِ لَهَا مِنَ ٱلْعُدْوَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ فَتُوقِعُ بِمُلُوكِ ٱلْأَفْرَنْجِ وَتُثْخِنُ فِي مَمَالِكِهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي أَيَّامِ بَنِي ٱلْحُسَيْنِ مُلُوكِ صِقِلِّيَّةَ ٱلْقَائِمِينَ فِيهَا بِدَعْوَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَٱنْحَازَتْ أُمَمُ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ بِأَسَاطِيلِهِمْ إِلى ٱلْجَانِبِ ٱلشَّمَالِيِّ ٱلشَّرْقِي مِنْهُ مِنْ سَوَاحِلِ ٱلإِفْرَنْجَةِ وَٱلصَّقَالِبَةِ وَجَزَائِرِ ٱلرُّومَانِيَّةِ لا يَعْدُونَهَا وَأَسَاطِيلُ ٱلْمُسْلِمِينَ قَدْ ضَرِيَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاءَ ٱلْأَسَدِ عَلَى فَرِيسَتِهِ وَقَدْ مَلَأَتِ ٱلْأَكْثَرَ مِنْ بَسِيطِ هٰذَا ٱلْبَحْرِ عُدَّةً وَعَدَداً وَٱخْتَلَفَتْ فِي طُرُقِهِ سِلْماً وَحَرْباً فَلَمْ تَظْهَرْ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِيهِ أَلْوَاحٌ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَ ٱلدَّوْلَةَ ٱلْعُبَيْدِيَّةَ وَٱلْأُمَوِيَّةَ ٱلْفَشَلُ وَٱلْوَهَنُ وَطَرَقَهَا ٱلاعْتِلَالُ مَدَّ ٱلنَّصَارَى أَيْدِيَهُم إِلى جَزَائِرِ ٱلْبَحْرِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مِثْلَ صِقِلِّيَّةَ وَإِقْرِيطِشَ وَمَالِطَةَ فَمَلَكُوهَا ثُمَّ أَلَحُّوا عَلَى سَوَاحِلِ ٱلشَّامِ فِي تِلْكَ ٱلْفَتْرَةِ وَمَلَكُوا طَرَابُلُسَ وَعَسْقَلانَ وَصُورَ وَعَكَّاءَ وَٱسْتَوْلَوا عَلَى جَمِيعِ ٱلثُّغُورِ بِسَوَاحِلِ ٱلشَّامِ وَغَلَبُوا عَلَى بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَبَنَوا عَلَيْهِ كَنِيسَةً لِمَظْهَرِ دِينِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَغَلَبُوا

بني خزرون على طرابلس ثمّ على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثمّ ملكوا المهدية مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين بن زيري وكانت لهم في المائة الخامسة الكرّة بهذا البحر وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحدّ كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بأفريقية والمغرب فصارت مختصّة بها وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد موفور الأساطيل ثابت القوّة لم يتحيّفه عدوّ ولا كانت لهم به كرّة فكان قائد الأسطول به لعهد لمتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين جميعاً * ولمّا استفحلت دولة الموحّدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطّة هذا الأسطول على أتمّ ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلّيّ أصله من صدغيار الموطنين بجزيرة سرويكش أسره النصارى من سواحلها وربي عندهم واستخلصه صاحب صقلّيّة واستكفاه ثمّ هلك وولي ابنه فأسخطه ببعض النزعات وخشي على نفسه ولحق بتونس ونزل على السيّد بها من بني عبد المؤمن وأجاز مراكش فتلقّاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرّة والكرامة وأجزل الصلة وقلّده أمر أساطيله فجلّى في جهاد أمم النصرانيّة وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحّدين * وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه ولمّا قام صلاح الدين يوسف بن أيّوب ملك مصر والشام لعهده باسترجاع ثغور الشام من يد أمم النصرانيّة وتطهير بيت المقدس تتابعت أساطيلهم بالمدد لتلك الثغور من كلّ ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه فأمدّوهم بالعدد والأقوات ولم تقاومهم أساطيل الإسكندريّة لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحريّة وتعدّد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل وأوفد صلاح الدين على أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحّدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بني منقذ

ملوك شيزر وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته فبعث عبد الكريم منهم هذا إلى ملك المغرب طالباً مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الأجانب وبين مرامهم من أمداد النصرانية بثغور الشام وأصحبه كتابه إليه في ذلك من إنشاء الفاضل البيساني يقول في افتتاحه فتح الله لسيدنا أبواب المناجح والميامن حسبما نقله العماد الأصفهاني في كتاب الفتح القسي فنقم عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بأمير المؤمنين وأسرها في نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة وردهم إلى مرسلهم ولم يجبه إلى حاجته من ذلك وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده لشأن الأساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة ولما هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت أمم الجلالقة على الأكثر من بلاد الأندلس وألجأوا المسلمين إلى سيف البحر وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي قويت ريحهم في بسيط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناتة بالمغرب فإن أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية ورجع النصارى فيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الأمم في لجته على أعواده وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلاً من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأنصار والأعوان أو قلة من الدولة تستجيش لهم أعواناً وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكاً وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معاناة الأساطيل بالإنشاء والركوب معهوداً لما عساه أن تدعو إليه الحاجة من الأغراض السلطانية في البلاد البحرية والمسلمون يستهبون الريح على الكفر وأهله فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحدثان أنه لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفرنجة وأن ذلك يكون في الأساطيل والله ولي المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

إعلَمْ أنَّ ٱلسَّيْفَ وَٱلْقَلَمَ كِلاَهُمَا آلَةٌ لِصَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلْحَاجَةَ فِي أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ إِلَى ٱلسَّيْفِ مَا دَامَ أَهْلُهَا فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ أَشَدُّ مِنَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْقَلَمِ لِأَنَّ ٱلْقَلَمَ فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ خَادِمٌ فَقَطْ مُنَفِّذٌ لِلْحُكْمِ ٱلسُّلْطَانِيِّ وَٱلسَّيْفُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمَعُونَةِ وَكَذٰلِكَ فِي آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ حَيْثُ تَضْعُفُ عَصَبِيَّتُهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَيَقِلُّ أَهْلُهَا بِمَا يَنَالُهُمْ مِنَ ٱلْهَرَمِ ٱلَّذِي قَدَّمْنَاهُ فَتَحْتَاجُ ٱلدَّوْلَةُ إِلَى ٱلِٱسْتِظْهَارِ بِأَرْبَابِ ٱلسُّيُوفِ وَتَقْوَى ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ فِي حِمَايَةِ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْمُدَافَعَةِ عَنْهَا كَمَا كَانَ ٱلشَّأْنُ أَوَّلَ ٱلْأَمْرِ فِي تَمْهِيدِهَا فَيَكُونُ لِلسَّيْفِ مَزِيَّةٌ عَلَى ٱلْقَلَمِ فِي ٱلْحَالَتَيْنِ وَيَكُونُ أَرْبَابُ ٱلسَّيْفِ حِينَئِذٍ أَوْسَعَ جَاهاً وَأَكْثَرَ نِعْمَةً وَأَسْنَى إِقْطَاعاً وَأَمَّا فِي وَسَطِ ٱلدَّوْلَةِ فَيَسْتَغْنِي صَاحِبُهَا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ عَنِ ٱلسَّيْفِ لِأَنَّهُ قَدْ تَمَهَّدَ أَمْرُهُ وَلَمْ يَبْقَ هَمُّهُ إِلَّا فِي تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ ٱلْمُلْكِ مِنَ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلضَّبْطِ وَمُبَاهَاةِ ٱلدُّوَلِ وَتَنْفِيذِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلْقَلَمُ هُوَ ٱلْمُعِينُ لَهُ فِي ذٰلِكَ فَتَعْظُمُ ٱلْحَاجَةُ إِلَى تَصْرِيفِهِ وَتَكُونُ ٱلسُّيُوفُ مُهْمَلَةً فِي مَضَاجِعِ أَغْمَادِهَا إِلَّا إِذَا أَنَابَتْ نَائِبَةٌ أَوْ دُعِيَتْ إِلَى سَدِّ فُرْجَةٍ وَمِمَّا سِوَى ذٰلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْهَا فَتَكُونُ أَرْبَابُ ٱلْأَقْلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلْحَاجَةِ أَوْسَعَ جَاهاً وَأَعْلَى رُتْبَةً وَأَعْظَمَ نِعْمَةً وَثَرْوَةً وَأَقْرَبَ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ مَجْلِساً وَأَكْثَرَ إِلَيْهِ تَرَدُّداً وَفِي خَلَوَاتِهِ نَجِيًّا لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ آلَتُهُ ٱلَّتِي بِهَا يَسْتَظْهِرُ عَلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ مُلْكِهِ وَٱلنَّظَرِ إِلَى أَعْطَافِهِ وَتَثْقِيفِ أَطْرَافِهِ وَٱلْمُبَاهَاةِ بِأَحْوَالِهِ وَيَكُونُ ٱلْوُزَرَاءُ حِينَئِذٍ وَأَهْلُ ٱلسُّيُوفِ مُسْتَغْنًى عَنْهُمْ مُبْعَدِينَ عَنْ بَاطِنِ ٱلسُّلْطَانِ حَذِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَوَادِرِهِ * وَفِي مَعْنَى ذٰلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو مُسْلِمٍ لِلْمَنْصُورِ حِينَ أَمَرَهُ بِالْقُدُومِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ مِمَّا حَفِظْنَاهُ مِنْ وَصَايَا ٱلْفُرْسِ أَخْوَفُ مَا يَكُونُ ٱلْوُزَرَاءُ إِذَا سَكَنَتِ ٱلدَّهْمَاءُ سُنَّةُ ٱللهِ فِي عِبَادِهِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

إعلَمْ أنَّ لِلسُّلْطَانِ شَارَاتٍ وَأَحْوَالاً تَقْتَضِيهَا ٱلْأُبَّهَةُ وَٱلْبَذْخُ فَيَخْتَصُّ بِهَا وَيَتَمَيَّزُ

بِٱنْتِحَالِهَا عَنِ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْبِطَانَةِ وَسَائِرِ ٱلرُّؤَسَاءِ فِي دَوْلَتِهِ فَلْنَذْكُرْ مَا هُوَ مُشْتَهِرٌ مِنْهَا بِمَبْلَغِ ٱلْمَعْرِفَةِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

الآلة * فَمِنْ شَارَاتِ ٱلْمُلْكِ ٱتِّخَاذُ ٱلْآلَةِ مِنْ نَشْرِ ٱلْأَلْوِيَةِ وَٱلرَّايَاتِ وَقَرْعِ ٱلطُّبُولِ وَٱلنَّفْخِ فِي ٱلْأَبْوَاقِ وَٱلْقُرُونِ وَقَدْ ذَكَرَ أَرِسْطُو فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ أَنَّ ٱلسِّرَّ فِي ذَٰلِكَ إِرْهَابُ ٱلْعَدُوِّ فِي ٱلْحَرْبِ فَإِنَّ ٱلْأَصْوَاتَ ٱلْهَائِلَةَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي ٱلنُّفُوسِ بِٱلرَّوْعَةِ وَلَعَمْرِي إِنَّهُ أَمْرٌ وِجْدَانِيٌّ فِي مَوَاطِنِ ٱلْحَرْبِ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَهٰذَا ٱلسَّبَبُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو إِنْ كَانَ ذَكَرَهُ فَهُوَ صَحِيحٌ بِبَعْضِ ٱلِٱعْتِبَارَاتِ * وَأَمَّا ٱلْحَقُّ فِي ذَٰلِكَ فَهُوَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ عِنْدَ سَمَاعِ ٱلنَّغَمِ وَٱلْأَصْوَاتِ يُدْرِكُهَا ٱلْفَرَحُ وَٱلطَّرَبُ بِلَا شَكٍّ فَيُصِيبُ مِزَاجَ ٱلرُّوحِ نَشْوَةٌ يَسْتَسْهِلُ بِهَا ٱلصَّعْبَ وَيَسْتَمِيتُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ وَهٰذَا مَوْجُودٌ حَتَّى فِي ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمِ بِٱنْفِعَالِ ٱلْإِبِلِ بِٱلْحُدَاءِ وَٱلْخَيْلِ بِٱلصَّفِيرِ وَٱلصَّرِيخِ كَمَا عَلِمْتَ وَيَزِيدُ ذَٰلِكَ تَأْثِيراً إِذَا كَانَتِ ٱلْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً كَمَا فِي ٱلْغِنَاءِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَحْدُثُ لِسَامِعِهِ مِنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى لِأَجْلِ ذَٰلِكَ تَتَّخِذُ ٱلْعَجَمُ فِي مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمِ ٱلْآلَاتِ ٱلْمُوسِيقِيَّةَ (1) لَا طَبْلًا وَلَا بُوقاً فَيُحْدِقُ ٱلْمُغَنُّونَ بِٱلسُّلْطَانِ فِي مَوْكِبِهِ بِآلَاتِهِمْ وَيُغَنُّونَ فَيُحَرِّكُونَ نُفُوسَ ٱلشُّجْعَانِ بِضَرْبِهِمْ إِلَى ٱلِٱسْتِمَاتَةِ وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي حُرُوبِ ٱلْعَرَبِ مَنْ يَتَغَنَّى أَمَامَ ٱلْمَوْكِبِ بِٱلشِّعْرِ وَيُطْرِبُ فَتَجِيشُ هِمَمُ ٱلْأَبْطَالِ بِمَا فِيهَا وَيُسَارِعُونَ إِلَى مَجَالِ ٱلْحَرْبِ وَيَنْبَعِثُ كُلُّ قِرْنٍ إِلَى قِرْنِهِ وَكَذَٰلِكَ زَنَاتَةُ مِنْ أُمَمِ ٱلْمَغْرِبِ يَتَقَدَّمُ ٱلشَّاعِرُ عِنْدَهُمْ أَمَامَ ٱلصُّفُوفِ وَيَتَغَنَّى فَيُحَرِّكُ بِغِنَائِهِ ٱلْجِبَالَ ٱلرَّوَاسِيَ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلِٱسْتِمَاتَةِ مَنْ لَا يَظُنُّ بِهَا وَيُسَمُّونَ ذَٰلِكَ ٱلْغِنَاءَ تَاصُوكَايِتْ وَأَصْلُهُ كُلُّهُ فَرَحٌ يَحْدُثُ فِي ٱلنَّفْسِ فَتَنْبَعِثُ عَنْهُ ٱلشَّجَاعَةُ كَمَا تَنْبَعِثُ عَنْ نَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ بِمَا حَدَثَ عَنْهَا مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱللهُ أَعْلَمُ وَأَمَّا تَكْثِيرُ ٱلرَّايَاتِ وَتَلْوِينُهَا وَإِطَالَتُهَا فَٱلْقَصْدُ بِهِ ٱلتَّهْوِيلُ لَا أَكْثَرُ وَرُبَّمَا تَحْدُثُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلتَّهْوِيلِ زِيَادَةٌ فِي ٱلْإِقْدَامِ وَأَحْوَالُ ٱلنُّفُوسِ وَتَلْوِينَاتُهَا غَرِيبَةٌ وَٱللهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ * ثُمَّ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ وَٱلدُّوَلَ يَخْتَلِفُونَ فِي ٱتِّخَاذِ هٰذِهِ ٱلشَّارَاتِ فَمِنْهُمْ مُكْثِرٌ وَمِنْهُمْ مُقِلٌّ بِحَسَبِ ٱتِّسَاعِ ٱلدَّوْلَةِ وَعِظَمِهَا فَأَمَّا ٱلرَّايَاتُ فَإِنَّهَا شِعَارُ ٱلْحُرُوبِ مِنْ عَهْدِ ٱلْخَلِيقَةِ

---

(1) قوله موسيقية وفي نسخة الموسيقارية وهي صحيحة لان الموسيقي بكسر القاف بين التحتيتين اسم للنغم والالحان وتوقيعها ويقال فيها موسيقير ويقال لضارب الآلة موسيقار انظر اول سفينة الشيخ محمد شهاب

وَلَمْ تَزَلِ ٱلْأُمَمُ تَعْقِدُهَا فِي مَوَاطِنِ ٱلْحُرُوبِ وَٱلْغَزَوَاتِ لِعَهْدِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْخُلَفَاءِ * وَأَمَّا قَرْعُ ٱلطُّبُولِ وَٱلنَّفْخُ فِي ٱلْأَبْوَاقِ فَكَانَ ٱلْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ ٱلْمِلَّةِ مُتَجَافِينَ عَنْهُ تَنَزُّهاً عَنْ غِلْظَةِ ٱلْمُلْكِ وَرَفْضاً لِأَحْوَالِهِ وَٱحْتِقَاراً لِأُبَّهَتِهِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ مِنَ ٱلْحَقِّ فِي شَيْءٍ حَتَّى إِذَا ٱنْقَلَبَتِ ٱلْخِلَافَةُ مُلْكاً وَتَبَجَّحُوا بِزَهْرَةِ ٱلدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا وَلَابَسَهُمُ ٱلْمَوَالِي مِنَ ٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ أَهْلِ ٱلدُّوَلِ ٱلسَّالِفَةِ وَأَرَوْهُمْ مَا كَانَ أُولٰئِكَ يَنْتَحِلُونَهُ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْبَذَخِ وَٱلتَّرَفِ فَكَانَ مِمَّا ٱسْتَحْسَنُوهُ ٱتِّخَاذُ ٱلْآلَةِ فَأَخَذُوهَا وَأَذِنُوا لِعُمَّالِهِمْ فِي ٱتِّخَاذِهَا تَنْوِيهاً بِٱلْمُلْكِ وَأَهْلِهِ فَكَثِيراً مَا كَانَ ٱلْعَامِلُ صَاحِبُ ٱلثَّغْرِ أَوْ قَائِدُ ٱلْجَيْشِ يَعْقِدُ لَهُ ٱلْخَلِيفَةُ مِنَ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ أَوِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ لِوَاءَهُ وَيَخْرُجُ إِلَى بَعْثِهِ أَوْ عَمَلِهِ مِنْ دَارِ ٱلْخَلِيفَةِ أَوْ دَارِهِ فِي مَوْكِبٍ مِنْ أَصْحَابِ ٱلرَّايَاتِ وَٱلْآلَاتِ فَلَا يُمَيَّزُ بَيْنَ مَوْكِبِ ٱلْعَامِلِ وَٱلْخَلِيفَةِ إِلَّا بِكَثْرَةِ ٱلْأَلْوِيَةِ وَقِلَّتِهَا أَوْ بِمَا ٱخْتَصَّ بِهِ ٱلْخَلِيفَةُ مِنَ ٱلْأَلْوَانِ لِرَايَتِهِ كَٱلسَّوَادِ فِي رَايَاتِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَإِنَّ رَايَاتِهِمْ كَانَتْ سُوداً حُزْناً عَلَى شُهَدَائِهِمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَنَعْياً عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ فِي قَتْلِهِمْ وَلِذٰلِكَ سُمُّوا ٱلْمُسَوِّدَةَ * وَلَمَّا ٱفْتَرَقَ أَمْرُ ٱلْهَاشِمِيِّينَ وَخَرَجَ ٱلطَّالِبِيُّونَ عَلَى ٱلْعَبَّاسِيِّينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَعَصْرٍ ذَهَبُوا إِلَى مُخَالَفَتِهِمْ فِي ذٰلِكَ فَٱتَّخَذُوا ٱلرَّايَاتِ بِيضاً وَسُمُّوا ٱلْمُبَيِّضَةَ لِذٰلِكَ سَائِرَ أَيَّامِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَمَنْ خَرَجَ مِنَ ٱلطَّالِبِيِّينَ فِي ذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَشْرِقِ كَٱلدَّاعِي بِطَبَرِسْتَانَ وَدَاعِي صَعْدَةَ أَوْ مَنْ دَعَا إِلَى بِدْعَةِ ٱلرَّافِضَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ كَٱلْقَرَامِطَةِ وَلَمَّا نَزَعَ ٱلْمَأْمُونُ عَنْ لُبْسِ ٱلسَّوَادِ وَشِعَارِهِ فِي دَوْلَتِهِ عَدَلَ إِلَى لَوْنِ ٱلْخُضْرَةِ فَجَعَلَ رَايَتَهُ خَضْرَاءَ وَأَمَّا ٱلِٱسْتِكْثَارُ مِنْهَا فَلَا يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ وَقَدْ كَانَتْ آلَةُ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ لَمَّا خَرَجَ ٱلْعَزِيزُ إِلَى فَتْحِ ٱلشَّامِ خَمْسَمِائَةٍ مِنَ ٱلْبُنُودِ وَخَمْسَمِائَةٍ مِنَ ٱلْأَبْوَاقِ وَأَمَّا مُلُوكُ ٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَغَيْرِهَا فَلَمْ يَخْتَصُّوا بِلَوْنٍ وَاحِدٍ بَلْ وَشَّوْهَا بِٱلذَّهَبِ وَٱتَّخَذُوهَا مِنَ ٱلْحَرِيرِ ٱلْخَالِصِ مُلَوَّنَةً وَٱسْتَمَرُّوا عَلَى ٱلْإِذْنِ فِيهَا لِعُمَّالِهِمْ حَتَّى إِذَا جَاءَتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ زَنَاتَةَ قَصَرُوا ٱلْآلَةَ مِنَ ٱلطُّبُولِ وَٱلْبُنُودِ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَحَظَرُوهَا عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِنْ عُمَّالِهِ وَجَعَلُوا لَهَا مَوْكِباً خَاصّاً يَتْبَعُ أَثَرَ ٱلسُّلْطَانِ فِي مَسِيرِهِ يُسَمَّى ٱلسَّاقَةَ وَهُمْ فِيهِ بَيْنَ مُكْثِرٍ وَمُقِلٍّ بِٱخْتِلَافِ مَذَاهِبِ ٱلدُّوَلِ فِي ذٰلِكَ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنَ ٱلْعَدَدِ تَبَرُّكاً بِٱلسَّبْعَةِ كَمَا هُوَ فِي دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَبَنِي ٱلْأَحْمَرِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ ٱلْعَشَرَةَ وَٱلْعِشْرِينَ كَمَا هُوَ عِنْدَ زَنَاتَةَ وَقَدْ بَلَغَتْ فِي

أيّام السُّلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائةً من الطُّبول ومائةً من البنود مُلوّنة بالحرير منسوجة بالذّهب ما بين كبير وصغير ويأذنون للوُلاة والعُمّال والقوّاد في اتّخاذ راية واحدة صغيرة من الكتّان بيضاء وطبل صغير أيّام الحرب لا يتجاوزون ذلك وأمّا دولة التُّرك لهذا العهد بالمشرق فيتّخذون راية واحدة عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة من الشّعر يسمّونها الشّالش والجتر وهي شعار السُّلطان عندهم ثمّ تتعدّد الرّايات ويسمّونها السّناجق واحدها سنجق وهي الرّاية بلسانهم. وأمّا الطُّبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمّونها الكوسات ويبيحون لكلّ أمير أو قائد عسكر أن يتّخذ من ذلك ما يشاء إلّا الجتر فإنّه خاصّ بالسُّلطان. وأمّا الجلالقة لهذا العهد من أمم الإفرنجة بالأندلس فأكثر شأنهم اتّخاذ الألوية القليلة ذاهبة في الجوّ صعداً ومعها قرع الأوتار من الطّنابير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم هكذا يبلغنا عنهم وعمّن وراءهم من ملوك العجم ومن آياته خلق السّموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين

(السرير). وأمّا السّرير والمنبر والتّخت والكرسيّ فهي أعواد منصوبة أو أرائك منضّدة لجلوس السُّلطان عليها مرتفعاً عن أهل مجلسه أن يساويهم في الصّعيد ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الإسلام وفي دول العجم وقد كانوا يجلسون على أسرّة الذّهب وكان لسليمان بن داود صلوات الله عليهما وسلامه كرسيّ وسرير من عاج مغشّى بالذّهب إلّا أنّه لا تأخذ به الدّول إلّا بعد الاستفحال والتّرف شأن الأبّهة كلّها كما قلناه وأمّا في أوّل الدّولة عند البداوة فلا يتشوّقون إليه. وأوّل من اتّخذه في الإسلام معاوية واستأذن النّاس فيه وقال لهم إنّي قد بدنت فأذنوا له فاتّخذه واتّبعه الملوك الإسلاميّون فيه وصار من منازع الأبّهة ولقد كان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الأرض مع العرب ويأتيه المقوقس إلى قصره ومعه سرير من الذّهب محمولاً على الأيدي لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهو أمامه ولا يغيّرون عليه وفاء له بما اعتقد معهم من الذّمّة واطّراحاً لأبّهة الملك ثمّ كان بعد ذلك لبني العبّاس والعبيديّين وسائر ملوك الإسلام شرقاً وغرباً من الأسرّة والمنابر والتّخوت ما عفا عن الأكاسرة والقياصرة والله مقلّب اللّيل والنّهار

(السكة)*وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددا وإن لم تتقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولفظ السكة كان اسما للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علما عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم . ولما جاء الإسلام أغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم ويردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها بينهم إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجهين بركة الله وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دوانق والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم

أيَّامَ ٱلْفُرْسِ كَانَتْ مُخْتَلِفَةً وَكَانَ مِنْهَا عَلَى وَزْنِ ٱلْمِثْقَالِ عِشْرُونَ قِيرَاطاً وَمِنْهَا ٱثْنَا عَشَر وَمِنْهَا عَشَرَةٌ فَلَمَّا ٱحْتِيجَ إِلَى تَقْدِيرِهِ فِي ٱلزَّكَاةِ أُخِذَ ٱلْوَسَطُ وَذَٰلِكَ ٱثْنَا عَشَرَ قِيرَاطاً فَكَانَ ٱلْمِثْقَالُ دِرْهَماً وَثَلَاثَةَ أَسْبَاعِ دِرْهَمٍ وَقِيلَ كَانَ مِنْهَا ٱلْبَغْلِيُّ بِثَمَانِيَةِ دَوَانِقَ وَٱلطَّبَرِيُّ أَرْبَعَةَ دَوَانِقَ وَٱلْمَغْرِبِيُّ ثَمَانِيَةَ دَوَانِقَ وَٱلْيَمَنِيُّ سِتَّةَ دَوَانِقَ فَأَمَرَ عُمَرُ أَنْ يُنظَرَ ٱلْأَغْلَبُ فِي ٱلتَّعَامُلِ فَكَانَ ٱلْبَغْلِيُّ وَٱلطَّبَرِيُّ ٱثْنَيْ عَشَرَ دَانِقاً وَكَانَ ٱلدِّرْهَمُ سِتَّةَ دَوَانِقَ وَإِنْ زِدتَ ثَلَاثَةَ أَسْبَاعِهِ كَانَ مِثْقَالاً وَإِذَا أَنقَصْتَ ثَلَاثَةَ أَعْشَارِ ٱلْمِثْقَالِ كَانَ دِرْهَماً فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ ٱلْمَلِكِ ٱتِّخَاذَ ٱلسِّكَّةِ لِصِيَانَةِ ٱلنَّقْدَيْنِ ٱلْجَارِيَيْنِ فِي مُعَامَلَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنَ ٱلْغِشِّ عَيَّنَ مِقْدَارَهَا عَلَى هَـٰذَا ٱلَّذِي ٱسْتَقَرَّ لِعَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وَٱتَّخَذَ فِيهِ كَلِمَاتٍ لَا صُوَراً لِأَنَّ ٱلْعَرَبَ كَانَ ٱلْكَلَامُ وَٱلْبَلَاغَةُ أَقْرَبَ مَنَاحِيهِمْ وَأَظْهَرَهَا مَعَ أَنَّ ٱلشَّرْعَ يَنْهَى عَنِ ٱلصُّوَرِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَٰلِكَ ٱسْتَمَرَّ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِي أَيَّامِ ٱلْمِلَّةِ كُلِّهَا وَكَانَ ٱلدِّينَارُ وَٱلدِّرْهَمُ عَلَى شَكْلَيْنِ مُدَوَّرَيْنِ وَٱلْكِتَابَةُ عَلَيْهِمَا فِي دَوَائِرَ مُتَوَازِيَةٍ يُكْتَبُ فِيهَا مِنْ أَحَدِ ٱلْوَجْهَيْنِ أَسْمَاءُ ٱللَّهِ تَهْلِيلاً وَتَحْمِيداً وَصَلَاةً عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَآلِهِ وَفِي ٱلْوَجْهِ ٱلثَّانِي ٱلتَّارِيخُ وَٱسْمُ ٱلْخَلِيفَةِ وَهَـٰكَذَا أَيَّامَ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ وَٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَٱلْأُمَوِيِّينَ وَأَمَّا صَنْهَاجَةُ فَلَمْ يَتَّخِذُوا سِكَّةً إِلَّا آخِرَ ٱلْأَمْرِ ٱتَّخَذَهَا مَنْصُورٌ صَاحِبُ بِجَايَةَ ذَكَرَ ذَٰلِكَ ٱبْنُ حَمَّادٍ فِي تَارِيخِهِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ كَانَ مِمَّا سَنَّ لَهُمُ ٱلْمَهْدِيُّ ٱتِّخَاذُ سِكَّةِ ٱلدِّرْهَمِ مُرَبَّعَ ٱلشَّكْلِ وَأَنْ يُرْسَمَ فِي دَائِرَةِ ٱلدِّينَارِ شَكْلٌ مُرَبَّعٌ فِي وَسَطِهِ وَيُمْلَأُ مِنْ أَحَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ تَهْلِيلاً وَتَحْمِيداً وَمِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ كَتْباً فِي ٱلسُّطُورِ بِٱسْمِهِ وَٱسْمِ ٱلْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ ذَٰلِكَ ٱلْمُوَحِّدُونَ وَكَانَتْ سِكَّتُهُمْ عَلَى هَٰذَا ٱلشَّكْلِ لِهَـٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلَقَدْ كَانَ ٱلْمَهْدِيُّ فِيمَا يُنْقَلُ يُنْعَتُ قَبْلَ ظُهُورِهِ بِصَاحِبِ ٱلدِّرْهَمِ ٱلْمُرَبَّعِ نَعَتَهُ بِذَٰلِكَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ بِٱلْحَدَثَانِ مِنْ قَبْلِهِ ٱلْمُخْبِرُونَ فِي مَلَاحِمِهِمْ عَنْ دَوْلَتِهِ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ لِهَـٰذَا ٱلْعَهْدِ فَسِكَّتُهُمْ غَيْرُ مُقَدَّرَةٍ وَإِنَّمَا يَتَعَامَلُونَ بِٱلدَّنَانِيرِ وَٱلدَّرَاهِمِ وَزْناً بِٱلصَّنَجَاتِ ٱلْمُقَدَّرَةِ بِعِدَّةٍ مِنْهَا وَلَا يَطْبَعُونَ عَلَيْهَا بِٱلسِّكَّةِ نُقُوشَ ٱلْكَلِمَاتِ بِٱلتَّهْلِيلِ وَٱلصَّلَاةِ وَٱسْمِ ٱلسُّلْطَانِ كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ

وَلْنَخْتِمِ ٱلْكَلَامَ فِي ٱلسِّكَّةِ بِذِكْرِ حَقِيقَةِ ٱلدِّرْهَمِ وَٱلدِّينَارِ ٱلشَّرْعِيَّيْنِ وَبَيَانِ حَقِيقَةِ مِقْدَارِهِمَا

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلدِّينَـارَ وَٱلدِّرْهَمَ مُخْتَلِفَا ٱلسِّـكَّةِ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَٱلْمَوَازِينِ بِٱلْآفَاقِ وَٱلْأَمْصَارِ وَسَائِرِ ٱلْأَعْمَالِ وَٱلشَّرْعُ قَدْ تَعَرَّضَ لِذِكْرِهِمَا وَعَلَّقَ كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحْـكَامِ بِهِمَا فِي ٱلزَّكَاةِ وَٱلْأَنْـكِحَةِ وَٱلْحُدُودِ وَغَيْرِهَا فَلَا بُدَّ لَهُمَا عِنْدَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ وَمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ فِي تَقْدِيرٍ تَجْرِي عَلَيْهِمَا أَحْكَامُهُ دُونَ غَيْرِ ٱلشَّرْعِيِّ مِنْهُمَا فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْإِجْمَاعَ مُنْعَقِدٌ مُنْذُ صَدْرِ ٱلْإِسْلَامِ وَعَهْدِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ أَنَّ ٱلدِّرْهَمَ ٱلشَّرْعِيَّ هُوَ ٱلَّذِي تَزِنُ ٱلْعَشَرَةُ مِنْهُ سَبْعَةَ مَثَاقِيلَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْأُوقِيَّةُ مِنْهُ أَرْبَعِينَ دِرْهَماً وَهُوَ عَلَى هٰذَا سَبْعَةُ أَعْشَارِ ٱلدِّينَارِ وَوَزْنُ ٱلْمِثْقَالِ مِنَ ٱلذَّهَبِ ٱثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ حَبَّةً مِنَ ٱلشَّعِيرِ فَٱلدِّرْهَمُ ٱلَّذِي هُوَ سَبْعَةُ أَعْشَارِهِ خَمْسُونَ حَبَّةً وَخُمْسَا حَبَّةٍ وَهٰذِهِ ٱلْمَقَادِيرُ كُلُّهَا ثَابِتَةٌ بِٱلْإِجْمَاعِ فَإِنَّ ٱلدِّرْهَمَ ٱلْجَاهِلِيَّ كَانَ بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْوَاعٍ أَجْوَدُهَا ٱلطَّبَرِيُّ وَهُوَ أَرْبَعَةُ دَوَانِقَ وَٱلْبَغْلِيُّ وَهُوَ ثَمَانِيَةُ دَوَانِقَ فَجَعَلُوا ٱلشَّرْعِيَّ بَيْنَهُمَا وَهُوَ سِتَّةُ دَوَانِقَ فَكَانُوا يُوجِبُونَ ٱلزَّكَاةَ فِي مِائَةِ دِرْهَمٍ بَغْلِيَّةٍ وَمِائَةٍ طَبَرِيَّةٍ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ وَسَطاً وَقَدِ ٱخْتَلَفَ ٱلنَّاسُ هَلْ كَانَ ذٰلِكَ مِنْ وَضْعِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَوْ إِجْمَاعِ ٱلنَّاسِ بَعْدُ عَلَيْهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ

ذَكَرَ ذٰلِكَ ٱلْخَطَّابِيُّ فِي كِتَابِ مَعَالِمِ ٱلسُّنَنِ وَٱلْمَاوَرْدِيُّ فِي ٱلْأَحْـكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّـةِ وَأَنْـكَرَهُ ٱلْمُحَقِّقُونَ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ لِمَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ يَـكُونَ ٱلدِّينَارُ وَٱلدِّرْهَمُ ٱلشَّرْعِيَّانِ مَجْهُولَيْنِ فِي عَهْدِ ٱلصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مَعَ تَعَلُّقِ ٱلْحُقُوقِ ٱلشَّرْعِيَّةِ بِهِمَا فِي ٱلزَّكَاةِ وَٱلْأَنْـكِحَةِ وَٱلْحُدُودِ وَغَيْرِهَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَٱلْحَقُّ أَنَّهُمَا كَانَا مَعْلُومَيِ ٱلْمِقْدَارِ فِي ذٰلِكَ ٱلْعَصْرِ لِجَرَيَانِ ٱلْأَحْـكَامِ يَوْمَئِذٍ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا مِنَ ٱلْحُقُوقِ وَكَانَ مِقْدَارُهُمَا غَيْرَ مُشَخَّصٍ فِي ٱلْخَارِجِ وَإِنَّمَا كَانَ مُتَعَارَفاً بَيْنَهُمْ بِٱلْحُكْمِ ٱلشَّرْعِيِّ عَلَى ٱلْمِقْدَارِ فِي مِقْدَارِهِمَا وَزِنَتِهِمَا حَتَّى ٱسْتَفْحَلَ ٱلْإِسْلَامُ وَعَظُمَتِ ٱلدَّوْلَةُ وَدَعَتِ ٱلْحَـالُ إِلَى تَشْخِيصِهِمَا فِي ٱلْمِقْدَارِ وَٱلْوَزْنِ كَمَا هُوَ عِنْدَ ٱلشَّرْعِ لِيَسْتَرِيحُوا مِنْ كُلْفَةِ ٱلتَّقْدِيرِ وَقَارَنَ ذٰلِكَ أَيَّامَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ فَشَخَّصَ مِقْدَارَهُمَا وَعَيَّنَهُمَا فِي ٱلْخَارِجِ كَمَا هُوَ فِي ٱلذِّهْنِ وَنَقَشَ عَلَيْهِمَا ٱلسِّـكَّةَ بِٱسْمِهِ وَتَأْرِيخِهِ أَثَرَ ٱلشَّهَادَتَيْنِ ٱلْإِيمَانِيَّتَيْنِ وَطَرَحَ ٱلنُّقُودَ ٱلْجَـاهِلِيَّةَ رَأْساً حَتَّى خَلَصَتْ وَنَقَشَ عَلَيْهَا سِكَّةً وَتَلَاشَى وُجُودُهَا فَهٰذَا هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَمِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَقَعَ ٱخْتِيَارُ أَهْلِ ٱلسِّـكَّةِ فِي ٱلدُّوَلِ عَلَى مُخَالَفَةِ ٱلْمِقْدَارِ ٱلشَّرْعِيِّ فِي ٱلدِّينَارِ وَٱلدِّرْهَمِ وَٱخْتَلَفَتْ فِي كُلِّ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْآفَاقِ وَرَجَعَ ٱلنَّاسُ إِلَى تَصَوُّرِ مَقَادِيرِهِمَا

ٱلشَّرْعِيَّةِ ذِهْناً كَمَا كَانَ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ وَصَارَ أَهْلُ كُلِّ أُفُقٍ يَسْتَخْرِجُونَ ٱلْحُقُوقَ ٱلشَّرْعِيَّةَ مِنْ سِكَّتِهِمْ بِمَعْرِفَةِ ٱلنِّسْبَةِ ٱلَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَقَادِيرِهَا ٱلشَّرْعِيَّةِ وَأَمَّا وَزْنُ ٱلدِّينَارِ بِٱثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ حَبَّةً مِنَ ٱلشَّعِيرِ ٱلْوَسَطِ فَهُوَ ٱلَّذِى نَقَلَهُ ٱلْمُحَقِّقُونَ وَعَلَيْهِ ٱلْإِجْمَاعُ إِلَّا ٱبْنَ حَزْمٍ خَالَفَ ذَٰلِكَ وَزَعَمَ أَنَّ وَزْنَهُ أَرْبَعٌ وَثَمَانُونَ حَبَّةً . نَقَلَ ذَٰلِكَ عَنْهُ ٱلْقَاضِي عَبْدُ ٱلْحَقِّ وَرَدَّهُ ٱلْمُحَقِّقُونَ وَعَدُّوهُ وَهْماً وَغَلَطاً وَهُوَ ٱلصَّحِيحُ وَٱللهُ يُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَكَذَٰلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلْأُوقِيَّةَ ٱلشَّرْعِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ ٱلْمُتَعَارَفَةَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْمُتَعَارَفَةَ مُخْتَلِفَةٌ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلشَّرْعِيَّةَ مُتَّحِدَةٌ ذِهْناً لا ٱخْتِلَافَ فِيهَا وَٱللهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً

(الخاتم) وَأَمَّا ٱلْخَاتَمُ فَهُوَ مِنَ ٱلْخُطَطِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلْوَظَائِفِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ وَٱلْخَتْمُ عَلَى ٱلرَّسَائِلِ وَٱلصُّكُوكِ مَعْرُوفٌ لِلْمُلُوكِ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ وَقَدْ ثَبَتَ فِي ٱلصَّحِيحَيْنِ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَيْصَرَ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ ٱلْعَجَمَ لا يَقْبَلُونَ كِتَاباً إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُوماً فَٱتَّخَذَ خَاتَماً مِنْ فِضَّةٍ وَنَقَشَ فِيهِ . مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ . قَالَ ٱلْبُخَارِيُّ جَعَلَ ٱلثَّلَاثَ ٱلْكَلِمَاتِ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ وَخَتَمَ بِهِ وَقَالَ لا يَنْقُشُ أَحَدٌ مِثْلَهُ قَالَ وَتَخَتَّمَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بِئْرِ أَرِيسَ وَكَانَتْ قَلِيلَةَ ٱلْمَاءِ فَلَمْ يُدْرَكْ قَعْرُهَا بَعْدُ وَٱغْتَمَّ عُثْمَانُ وَتَطَيَّرَ مِنْهُ وَصَنَعَ آخَرَ عَلَى مِثْلِهِ وَفِي كَيْفِيَّةِ نَقْشِ ٱلْخَاتَمِ وَٱلْخَتْمِ بِهِ وُجُوهٌ وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْخَاتَمَ يُطْلَقُ عَلَى ٱلْآلَةِ ٱلَّتِي تُجْعَلُ فِي ٱلْإِصْبَعِ وَمِنْهُ تَخَتَّمَ إِذَا لَبِسَهُ وَيُطْلَقُ عَلَى ٱلنِّهَايَةِ وَٱلتَّمَامِ وَمِنْهُ خَتَمْتُ ٱلْأَمْرَ إِذَا بَلَغْتُ آخِرَهُ وَخَتَمْتُ ٱلْقُرْآنَ كَذَٰلِكَ وَمِنْهُ خَاتَمُ ٱلنَّبِيِّينَ وَخَاتَمُ ٱلْأَمْرِ وَيُطْلَقُ عَلَى ٱلسِّدَادِ ٱلَّذِي يُسَدُّ بِهِ ٱلْأَوَانِي وَٱلدِّنَانِ وَيُقَالُ فِيهِ خِتَامٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى خِتَامُهُ مِسْكٌ وَقَدْ غَلِطَ مَنْ فَسَّرَ ذَٰلِكَ بِٱلنِّهَايَةِ وَٱلتَّمَامِ قَالَ لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجِدُونَهُ فِي شَرَابِهِمْ رِيحُ ٱلْمِسْكِ وَلَيْسَ ٱلْمَعْنَى عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ ٱلْخِتَامِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلسِّدَادُ لِأَنَّ ٱلْخَمْرَ يُجْعَلُ لَهَا فِي ٱلدَّنِّ سِدَادُ ٱلطِّينِ أَوِ ٱلْقَارِ يَحْفَظُهَا وَيُطَيِّبُ عَرْفَهَا وَذَوْقَهَا فَبُولِغَ فِي وَصْفِ خَمْرِ ٱلْجَنَّةِ بِأَنَّ سِدَادَهَا مِنَ ٱلْمِسْكِ وَهُوَ أَطْيَبُ عَرْفاً وَذَوْقاً مِنَ ٱلْقَارِ وَٱلطِّينِ ٱلْمَعْهُودَيْنِ فِي ٱلدُّنْيَا فَإِذَا صَحَّ إِطْلَاقُ ٱلْخَاتَمِ عَلَى هَٰذِهِ كُلِّهَا صَحَّ إِطْلَاقُهُ عَلَى أَثَرِهَا ٱلنَّاشِىءِ عَنْهَا وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْخَاتَمَ إِذَا نُقِشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ ثُمَّ غُمِسَ فِي مَدَافٍ مِنَ ٱلطِّينِ أَوْ مِدَادٍ وَوُضِعَ عَلَى صَفْحِ ٱلْقِرْطَاسِ بَقِيَ أَكْثَرُ ٱلْكَلِمَاتِ

في ذٰلِكَ ٱلصَّفحِ وَكَذٰلِكَ إِذَا طُبِعَ بِهِ عَلَى جِسْمٍ لَيِّنٍ كَالشَّمعِ فَإِنَّهُ يَبْقَى نَقْشُ ذٰلِكَ ٱلْمَكْتُوبِ مُرْتَسِماً فِيهِ وَإِذَا كَانَتْ كَلِمَاتٌ وَٱرْتَسَمَتْ فَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْيُسْرَى إِذَا كَانَ ٱلنَّقْشُ عَلَى ٱلاِسْتِقَامَةِ مِنَ ٱلْيُمْنَى وَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْيُمْنَى إِذَا كَانَ ٱلنَّقْشُ مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْيُسْرَى لِأَنَّ ٱلْخَتْمَ يُقْلِبُ جِهَةَ ٱلْخَطِّ فِي ٱلصَّفْحِ عَمَّا كَانَ فِي ٱلنَّقْشِ مِنْ يَمِينٍ أَوْ يَسَارٍ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَتْمُ بِهٰذَا ٱلْخَاتَمِ بِغَمْسِهِ فِي ٱلْمِدَادِ أَوِ ٱلطِّينِ وَوَضْعِهِ فِي ٱلصفحِ فَتَنْتَقِشَ ٱلْكَلِمَاتُ فِيهِ وَيَكُونُ هٰذَا مِنْ مَعْنَى ٱلنِّهَايَةِ وَٱلتَّمَامِ بِمَعْنَى صِحَّةِ ذٰلِكَ ٱلْمَكْتُوبِ وَنُفُوذِهِ كَأَنَّ ٱلْكِتَابَ إِنَّمَا يَتِمُّ ٱلْعَمَلُ بِهِ بِهٰذِهِ ٱلْعَلَامَاتِ وَهُوَ مِنْ دُونِهَا مُلْغًى لَيْسَ بِتَامٍّ وَقَدْ يَكُونُ هٰذَا ٱلْخَتْمُ بِٱلْخَطِّ آخِرَ ٱلْكِتَابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ تَسْبِيحٍ أَوْ بِٱسْمِ ٱلسُّلْطَانِ أَوِ ٱلْأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ ٱلْكِتَابِ مَنْ كَانَ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نُعُوتِهِ يَكُونُ ذٰلِكَ ٱلْخَطُّ عَلَامَةً عَلَى صِحَّةِ ٱلْكِتَابِ وَنُفُوذِهِ وَيُسَمَّى ذٰلِكَ فِي ٱلْمُتَعَارَفِ عَلَامَةً وَيُسَمَّى خَتْماً تَشْبِيهاً لَهُ بِأَثَرِ ٱلْخَاتَمِ ٱلْآصِفِيِّ فِي ٱلنَّقْشِ وَمِنْ هٰذَا خَاتَمُ ٱلْقَاضِي ٱلَّذِي يَبْعَثُ بِهِ لِلْخُصُومِ أَيْ عَلَامَتُهُ وَخَطُّهُ ٱلَّذِي يُنَفِّذُ بِهِمَا أَحْكَامَهُ وَمِنْهُ خَاتَمُ ٱلسُّلْطَانِ أَوِ ٱلْخَلِيفَةِ أَيْ عَلَامَتُهُ قَالَ ٱلرَّشِيدُ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَوْزِرَ جَعْفَراً وَيَسْتَبْدِلَ بِهِ مِنَ ٱلْفَضْلِ أَخِيهِ فَقَالَ لِأَبِيهِمَا يَحْيَى يَا أَبَتِ إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُحَوِّلَ ٱلْخَاتَمَ مِنْ يَمِينِي إِلَى شِمَالِي فَكَنَّى لَهُ بِٱلْخَاتَمِ عَنِ ٱلْوِزَارَةِ لِمَا كَانَتِ ٱلْعَلَامَةُ عَلَى ٱلرَّسَائِلِ وَٱلصُّكُوكِ مِنْ وَظَائِفِ ٱلْوِزَارَةِ لِعَهْدِهِمْ وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ هٰذَا ٱلْإِطْلَاقِ مَا نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ أَنَّ مُعَاوِيَةَ أَرْسَلَ إِلَى ٱلْحَسَنِ عِنْدَ مُرَاوَدَتِهِ إِيَّاهُ فِي ٱلصُّلْحِ صَحِيفَةً بَيْضَاءَ خَتَمَ عَلَى أَسْفَلِهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنِ ٱشْتَرِطْ فِي هٰذِهِ ٱلصَّحِيفَةِ ٱلَّتِي خَتَمْتُ أَسْفَلَهَا مَا شِئْتَ فَهُوَ لَكَ وَمَعْنَى ٱلْخَتْمِ هُنَا عَلَامَةٌ فِي آخِرِ ٱلصَّحِيفَةِ بِخَطِّهِ أَوْ غَيْرِهِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُخْتَمَ بِهِ فِي جِسْمٍ لَيِّنٍ فَتَنْتَقِشُ فِيهِ حُرُوفُهُ وَيُجْعَلُ عَلَى مَوْضِعِ ٱلْحَزْمِ مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا حُزِمَ وَعَلَى ٱلْمَوْدُوعَاتِ وَهُوَ مِنَ ٱلسِّدَادِ كَمَا مَرَّ وَهُوَ فِي ٱلْوَجْهَيْنِ آثَارُ ٱلْخَاتَمِ فَيُطْلَقُ عَلَيْهِ خَاتَمٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَطْلَقَ ٱلْخَتْمَ عَلَى ٱلْكِتَابِ أَيِ ٱلْعَلَامَةَ مُعَاوِيَةُ لِأَنَّهُ أَمَرَ لِعُمَرَ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ عِنْدَ زِيَادٍ بِٱلْكُوفَةِ بِمِائَةِ أَلْفٍ فَفَتَحَ ٱلْكِتَابَ وَصَيَّرَ ٱلْمِائَةَ مِائَتَيْنِ وَرَفَعَ زِيَادٌ حِسَابَهُ فَأَنْكَرَهَا مُعَاوِيَةُ وَطَلَبَ بِهَا عُمَرَ وَحَبَسَهُ حَتَّى قَضَاهَا عَنْهُ أَخُوهُ عَبْدُ ٱللهِ وَٱتَّخَذَ مُعَاوِيَةُ عِنْدَ ذٰلِكَ دِيوَانَ ٱلْخَاتَمِ ذَكَرَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَقَالَ آخَرُونَ وَحَزَمَ ٱلْكُتُبَ وَلَمْ تَكُنْ

تخزمُ أيْ جعَلَ لهَا ٱلسَّدَادَ وَدِيوَانُ ٱلْخَتْمِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْكُتَّابِ ٱلْقَائِمِينَ عَلَى إِنْفَاذِ كُتُبِ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْخَتْمِ عَلَيْهَا إِمَّا بِٱلْعَلاَمَةِ أَوْ بِٱلْحَزْمِ وَقَدْ يُطْلَقُ ٱلدِّيوَانُ عَلَى مَكَانِ جُلُوسِ هٰؤُلاَءِ ٱلْكُتَّابِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي دِيوَانِ ٱلأَعْمَالِ وَٱلْحَزْمُ لِلْكُتُبِ يَكُونُ إِمَّا بِدَسِّ ٱلْوَرَقِ كَمَا فِي عُرْفِ كُتَّابِ ٱلْمَغْرِبِ وَإِمَّا بِإِلْصَاقِ رَأْسِ ٱلصَّحِيفَةِ عَلَى مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ كَمَا فِي عُرْفِ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ وَقَدْ يُجْعَلُ عَلَى مَكَانِ ٱلدَّسِّ أَوِ ٱلإِلْصَاقِ عَلاَمَةٌ يُؤْمَنُ مَعَهَا مِنْ فَتْحِهِ وَٱلاِطِّلاَعِ عَلَى مَا فِيهِ فَأَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ يَجْعَلُونَ عَلَى مَكَانِ ٱلدَّسِّ قِطْعَةً مِنَ ٱلشَّمْعِ وَيَخْتِمُونَ عَلَيْهَا بِخَاتَمٍ نُقِشَتْ فِيهِ عَلاَمَةٌ لِذٰلِكَ فَيَرْتَسِمُ ٱلنَّقْشُ فِي ٱلشَّمْعِ وَكَانَ فِي ٱلْمَشْرِقِ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلْقَدِيمَةِ يُخْتَمُ عَلَى مَكَانِ ٱللَّصْقِ بِخَاتَمٍ مَنْقُوشٍ أَيْضاً قَدْ غُمِسَ فِي مَدَافٍ مِنَ ٱلطِّينِ مُعَدٍّ لِذٰلِكَ صِبْغُهُ أَحْمَرُ فَيَرْتَسِمُ ذٰلِكَ ٱلنَّقْشُ عَلَيْهِ وَكَانَ هٰذَا ٱلطِّينُ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ يُعْرَفُ بِطِينِ ٱلْخَتْمِ وَكَانَ يُجْلَبُ مِنْ سِيرَافَ فَيَظْهَرُ أَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِهَا فَهٰذَا ٱلْخَاتَمُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعَلاَمَةُ ٱلْمَكْتُوبَةُ أَوِ ٱلنَّقْشُ لِلسَّدَادِ وَٱلْحَزْمُ لِلْكُتُبِ خَاصٌّ بِدِيوَانِ ٱلرَّسَائِلِ وَكَانَ ذٰلِكَ لِلْوَزِيرِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ ثُمَّ ٱخْتَلَفَ ٱلْعُرْفُ وَصَارَ لِمَنْ إِلَيْهِ ٱلتَّرْسِيلُ وَدِيوَانِ ٱلْكُتَّابِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ثُمَّ صَارُوا فِي دُوَلِ ٱلْمَغْرِبِ يَعُدُّونَ مِنْ عَلاَمَاتِ ٱلْمُلْكِ وَشَارَاتِهِ ٱلْخَاتَمَ ٱلإِصْبَعِ فَيَسْتَجِيدُونَ صَوْغَهُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَيُرَصِّعُونَهُ بِٱلْفُصُوصِ مِنَ ٱلْيَاقُوتِ وَٱلْفَيْرُوزَجِ وَٱلزُّمُرُّدِ وَيَلْبَسُهُ ٱلسُّلْطَانُ شَارَةً فِي عُرْفِهِمْ كَمَا كَانَتِ ٱلْبُرْدَةُ وَٱلْقَضِيبُ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ وَٱلْمِظَلَّةُ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيَّةِ وَٱللهُ مُصَرِّفُ ٱلأُمُورِ بِحُكْمِهِ

(الطراز) * مِنْ أُبَّهَةِ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَمَذَاهِبِ ٱلدُّوَلِ أَنْ تُرْسَمَ أَسْمَاؤُهُمْ أَوْ عَلاَمَاتٌ تَخْتَصُّ بِهِمْ فِي طِرَازِ أَثْوَابِهِمِ ٱلْمُعَدَّةِ لِلِبَاسِهِمْ مِنَ ٱلْحَرِيرِ أَوِ ٱلدِّيبَاجِ أَوِ ٱلإِبْرِيسِمِ تُعْتَبَرُ كِتَابَةُ خَطِّهَا فِي نَسْجِ ٱلثَّوْبِ أَلْحَاماً وَإِسْدَاءً بِخَيْطِ ٱلذَّهَبِ أَوْ مَا يُخَالِفُ لَوْنَ ٱلثَّوْبِ مِنَ ٱلْخُيُوطِ ٱلْمُلَوَّنَةِ مِنْ غَيْرِ ٱلذَّهَبِ عَلَى مَا يُحْكِمُهُ ٱلصُّنَّاعُ فِي تَقْدِيرِ ذٰلِكَ وَوَضْعِهِ فِي صِنَاعَةِ نَسْجِهِمْ فَتَصِيرُ ٱلثِّيَابُ ٱلْمُلُوكِيَّةُ مُعْلَمَةً بِذٰلِكَ ٱلطِّرَازِ قَصْدَ ٱلتَّنْوِيهِ بِلاَبِسِهَا مِنَ ٱلسُّلْطَانِ فَمَنْ دُونَهُ أَوِ ٱلتَّنْوِيهِ بِمَنْ يَخْتَصُّهُ ٱلسُّلْطَانُ بِمَلْبُوسِهِ إِذَا قَصَدَ تَشْرِيفَهُ بِذٰلِكَ أَوْ وِلاَيَتَهُ لِوَظِيفَةٍ مِنْ وَظَائِفِ دَوْلَتِهِ وَكَانَ مُلُوكُ ٱلْعَجَمِ مِنْ قَبْلِ ٱلإِسْلاَمِ يَجْعَلُونَ ذٰلِكَ ٱلطِّرَازَ بِصُوَرِ ٱلْمُلُوكِ وَأَشْكَالِهِمْ أَوْ أَشْكَالٍ وَصُوَرٍ مُعَيَّنَةٍ لِذٰلِكَ ثُمَّ

اعْتَاضَ مُلُوكُ ٱلْإِسْلَامِ عَنْ ذٰلِكَ بِكَتْبِ أَسْمَائِهِمْ مَعَ كَلِمَاتٍ أُخْرَى تَجْرِي مَجْرَى ٱلْفَأْلِ أَوِ ٱلسِّجِلَّاتِ وَكَانَ ذٰلِكَ فِي ٱلدَّوْلَتَيْنِ مِنْ أُبَّهَةِ ٱلْأُمُورِ وَأَفْخَمِ ٱلْأَحْوَالِ وَكَانَتِ ٱلدُّورُ ٱلْمُعَدَّةُ لِنَسْجِ أَثْوَابِهِمْ فِي قُصُورِهِمْ تُسَمَّى دُورَ ٱلطِّرَازِ لِذٰلِكَ وَكَانَ ٱلْقَائِمُ عَلَى ٱلنَّظَرِ فِيهَا يُسَمَّى صَاحِبَ ٱلطِّرَازِ يَنْظُرُ فِي أُمُورِ ٱلصِّبَاغِ وَٱلْآلَةِ وَٱلْحَاكَةِ فِيهَا وَإِجْرَاءِ أَرْزَاقِهِمْ وَتَسْهِيلِ آلَاتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ أَعْمَالِهِمْ وَكَانُوا يُقَلِّدُونَ ذٰلِكَ لِخَوَاصِّ دَوْلَتِهِمْ وَثِقَاتِ مَوَالِيهِمْ وَكَذٰلِكَ كَانَ ٱلْحَالُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلطَّوَائِفِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَفِي دَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَمَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ مِنْ مُلُوكِ ٱلْعَجَمِ بِٱلْمَشْرِقِ ثُمَّ لَمَّا ضَاقَ نِطَاقُ ٱلدُّوَلِ عَنِ ٱلتَّرَفِ وَٱلتَّفَنُّنِ فِيهِ لِضِيقِ نِطَاقِهَا فِي ٱلِاسْتِيلَاءِ وَتَعَدَّدَتِ ٱلدُّوَلُ تَعَطَّلَتْ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ وَٱلْوِلَايَةُ عَلَيْهَا مِنْ أَكْثَرِ ٱلدُّوَلِ بِٱلْجُمْلَةِ وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ بِٱلْمَغْرِبِ بَعْدَ بَنِي أُمَيَّةَ أَوَّلَ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّادِسَةِ لَمْ يَأْخُذُوا بِذٰلِكَ أَوَّلَ دَوْلَتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِعِ ٱلدِّيَانَةِ وَٱلسَّذَاجَةِ ٱلَّتِي لُقِّنُوهَا عَنْ إِمَامِهِمْ مُحَمَّدِ بْنِ تُومَرْتَ ٱلْمَهْدِيِّ وَكَانُوا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ لِبَاسِ ٱلْحَرِيرِ وَٱلذَّهَبِ فَسَقَطَتْ هٰذِهِ ٱلْوَظِيفَةُ مِنْ دَوْلَتِهِمْ وَٱسْتَدْرَكَ مِنْهَا أَعْقَابُهُمْ آخِرَ ٱلدَّوْلَةِ طَرَفًا لَمْ يَكُنْ بِتِلْكَ ٱلنَّبَاهَةِ وَأَمَّا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَأَدْرَكْنَا بِٱلْمَغْرِبِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمَرِينِيَّةِ لِعُنْفُوَانِهَا وَشُمُوخِهَا رَسْمًا جَلِيلًا لُقِّنُوهُ مِنْ دَوْلَةِ ٱبْنِ ٱلْأَحْمَرِ مُعَاصِرِهِمْ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَٱتَّبَعَ هُوَ فِي ذٰلِكَ مُلُوكَ ٱلطَّوَائِفِ فَأَتَى مِنْهُ بِلَمْحَةٍ شَاهِدَةٍ بِٱلْأَثَرِ. وَأَمَّا دَوْلَةُ ٱلتُّرْكِ بِمِصْرَ وَٱلشَّامِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَفِيهَا مِنَ ٱلطِّرَازِ تَحْرِيرٌ آخَرُ عَلَى مِقْدَارِ مُلْكِهِمْ وَعُمْرَانِ بِلَادِهِمْ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ لَا يُصْنَعُ فِي دُورِهِمْ وَقُصُورِهِمْ وَلَيْسَتْ مِنْ وَظَائِفِ دَوْلَتِهِمْ وَإِنَّمَا يُنْسَجُ مَا تَطْلُبُهُ ٱلدَّوْلَةُ مِنْ ذٰلِكَ عِنْدَ صُنَّاعِهِ مِنَ ٱلْحَرِيرِ وَمِنَ ٱلذَّهَبِ ٱلْخَالِصِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْمُزَرْكَشَ لَفْظَةٌ أَعْجَمِيَّةٌ وَيُرْسَمُ ٱسْمُ ٱلسُّلْطَانِ أَوِ ٱلْأَمِيرِ عَلَيْهِ وَيُعِدُّهُ ٱلصُّنَّاعُ لَهُمْ فِيمَا يُعِدُّونَهُ لِلدَّوْلَةِ مِنْ طَرَفِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱللَّائِقَةِ بِهَا وَٱللّٰهُ مُقَدِّرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

ٱلْفَسَاطِيطُ وَٱلسِّيَاجُ

إِعْلَمْ أَنَّ مِنْ شَارَاتِ ٱلْمُلْكِ وَتَرَفِهِ ٱتِّخَاذُ ٱلْأَخْبِيَةِ وَٱلْفَسَاطِيطِ وَٱلْفَازَاتِ مِنْ ثِيَابِ ٱلْكَتَّانِ وَٱلصُّوفِ وَٱلْقُطْنِ فَيُبَاهَى بِهَا فِي ٱلْأَسْفَارِ وَتُنَوَّعُ مِنْهَا ٱلْأَلْوَانُ مَا بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ عَلَى نِسْبَةِ ٱلدَّوْلَةِ فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلْأَمْرُ فِي أَوَّلِ ٱلدَّوْلَةِ فِي بُيُوتِهِمُ ٱلَّتِي جَرَتْ عَادَتُهُمْ بِٱتِّخَاذِهَا قَبْلَ ٱلْمُلْكِ وَكَانَ ٱلْعَرَبُ لِعَهْدِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْأَوَّلِينَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ

إنَّمَا يَسْكُنُونَ بُيُوتَهُمْ ٱلَّتِي كَانَتْ لَهُمْ خِيَامًا مِنَ ٱلْوَبَرِ وَٱلصُّوفِ وَلَمْ تَزَلِ ٱلْعَرَبُ لِذَٰلِكَ ٱلْعَهْدِ بَادِينَ إِلَّا ٱلْأَقَلَّ مِنْهُمْ فَكَانَتْ أَسْفَارُهُمْ لِغَزَوَاتِهِمْ وَحُرُوبُهُمْ بِظُعُونِهِمْ وَسَائِرِ حِلَلِهِمْ وَأَحْيَائِهِمْ مِنَ ٱلْأَهْلِ وَٱلْوَلَدِ كَمَا هُوَ شَأْنُ ٱلْعَرَبِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَكَانَتْ عَسَاكِرُهُمْ لِذَٰلِكَ كَثِيرَةَ ٱلْحِلَلِ بَعِيدَةَ مَا بَيْنَ ٱلْمَنَازِلِ مُتَفَرِّقَةَ ٱلْأَحْيَاءِ يَغِيبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَنْ نَظَرِ صَاحِبِهِ مِنَ ٱلْأُخْرَى كَشَأْنِ ٱلْعَرَبِ وَلِذَٰلِكَ مَا كَانَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ يَحْتَاجُ إِلَى سَاقَةٍ تَحْشُدُ ٱلنَّاسَ عَلَى أَثَرِهِ أَنْ يُقِيمُوا إِذَا ظَعَنَ وَنُقِلَ أَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ فِي ذَٰلِكَ ٱلْحَجَّاجَ حِينَ أَشَارَ بِهِ رَوْحُ بْنُ زِنْبَاعٍ وَقِصَّتُهُمَا فِي إِحْرَاقِ فَسَاطِيطِ رَوْحٍ وَخِيَامِهِ لِأَوَّلِ وِلَايَتِهِ حِينَ وَجَدَهُمْ مُقِيمِينَ فِي يَوْمِ رَحِيلِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ قِصَّةٌ مَشْهُورَةٌ وَمِنْ هَٰذِهِ ٱلْوِلَايَةِ تُعْرَفُ رُتْبَةُ ٱلْحَجَّاجِ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى إِرَادَتَهُمْ عَلَى ٱلظَّعْنِ إِلَّا مَنْ يَأْمَنُ بَوَادِرَ ٱلسُّفَهَاءِ مِنْ أَحْيَائِهِمْ بِمَا لَهُ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلْحَائِلَةِ دُونَ ذَٰلِكَ وَلِذَٰلِكَ ٱخْتَصَّهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بِهَٰذِهِ ٱلرُّتْبَةِ ثِقَةً بِغَنَائِهِ فِيهَا بِعَصَبِيَّتِهِ وَصَرَامَتِهِ فَلَمَّا تَفَنَّنَتِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ فِي مَذَاهِبِ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلْبَذَخِ وَنَزَلُوا ٱلْمُدُنَ وَٱلْأَمْصَارَ وَٱنْتَقَلُوا مِنْ سُكْنَى ٱلْخِيَامِ إِلَى سُكْنَى ٱلْقُصُورِ وَمِنْ ظَهْرِ ٱلْخُفِّ إِلَى ظَهْرِ ٱلْحَافِرِ ٱتَّخَذُوا لِلسُّكْنَى فِي أَسْفَارِهِمْ ثِيَابَ ٱلْكَتَّانِ يَسْتَعْمِلُونَ مِنْهَا بُيُوتًا مُخْتَلِفَةَ ٱلْأَشْكَالِ مُقَدَّرَةَ ٱلْأَمْثَالِ مِنَ ٱلْقَوْرَاءِ وَٱلْمُسْتَطِيلَةِ وَٱلْمُرَبَّعَةِ وَيَحْتَفِلُونَ فِيهَا بِأَبْلَغِ مَذَاهِبِ ٱلِٱحْتِفَالِ وَٱلزِّينَةِ وَيُدِيرُ ٱلْأَمِيرُ وَٱلْقَائِدُ لِلْعَسَاكِرِ عَلَى فَسَاطِيطِهِ وَفَازَاتِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ سِيَاجًا مِنَ ٱلْكَتَّانِ يُسَمَّى فِي ٱلْمَغْرِبِ بِلِسَانِ ٱلْبَرْبَرِ ٱلَّذِي هُوَ لِسَانُ أَهْلِهِ أَفْرَاكَ بِٱلْكَافِ وَٱلْقَافِ وَيَخْتَصُّ بِهِ ٱلسُّلْطَانُ بِذَٰلِكَ ٱلْقُطْرِ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ. وَأَمَّا فِي ٱلْمَشْرِقِ فَيَتَّخِذُهُ كُلُّ أَمِيرٍ وَإِنْ كَانَ دُونَ ٱلسُّلْطَانِ ثُمَّ جَنَحَتِ ٱلدَّعَةُ بِٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ إِلَى ٱلْمُقَامِ. بِقُصُورِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ فَخَفَّ لِذَٰلِكَ ظَهْرُهُمْ وَتَقَارَبَتِ ٱلسِّيَاجُ بَيْنَ مَنَازِلِ ٱلْعَسْكَرِ وَٱجْتَمَعَ ٱلْجَيْشُ وَٱلسُّلْطَانُ فِي مُعَسْكَرٍ وَاحِدٍ يَحْصُرُهُ ٱلْبَصَرُ فِي بَسِيطَةٍ زَهْوًا أَنِيقًا لِٱخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَٱسْتَمَرَّ ٱلْحَالُ عَلَى ذَٰلِكَ فِي مَذَاهِبِ ٱلدُّوَلِ فِي بَذَخِهَا وَتَرَفِهَا وَكَذَا كَانَتْ دَوْلَةُ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَزَنَاتَةُ ٱلَّتِي أَظَلَّتْنَا كَانَ سَفَرُهُمْ أَوَّلَ أَمْرِهِمْ فِي بُيُوتِ سُكْنَاهُمْ قَبْلَ ٱلْمُلْكِ مِنَ ٱلْخِيَامِ وَٱلْقَيَاطِينِ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ ٱلدَّوْلَةُ فِي مَذَاهِبِ ٱلتَّرَفِ وَسُكْنَى ٱلْقُصُورِ وَعَادُوا إِلَى سُكْنَى ٱلْأَخْبِيَةِ وَٱلْفَسَاطِيطِ بَلَغُوا مِنْ ذَٰلِكَ فَوْقَ مَا أَرَادُوهُ وَهُوَ مِنَ ٱلتَّرَفِ بِمَكَانٍ إِلَّا أَنَّ ٱلْعَسَاكِرَ بِهِ تَصِيرُ عُرْضَةً لِلْبَيَاتِ لِٱجْتِمَاعِهِمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ تَشْمَلُهُمْ

فيه الصيحة ولخشيتهم من الأهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك إلى تحفظ آخر والله القوي العزيز

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وهما من الأمور الخلافية ومن شارات الملك الإسلامي ولم يعرف في غير دول الإسلام. فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجا على المحراب فيحوزه وما يليه فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي والقصة معروفة وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة وهي إنما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال شأن أحوال الأبهة كلها وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالمشرق وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف وأما المغرب فكان بنو الأغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بفاس وبنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدون سائر المغرب والأندلس ومحوا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من الترف وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والأندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده. وأما الدعاء على المنابر في الخطبة فكان الشأن أولا عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضى عن أصحابه وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعه بمصر وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهم انصر عليا على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب إليه عمر بن الخطاب أما بعد فقد بلغني أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين أو ما يكفيك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبك فعزمت عليك إلا ما كسرته فلما حدثت الأبهة وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا

فيهما فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويهاً باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء الحجر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر أن يشاركه فيه أحد أو يسمو إليه وكثيراً ما يغفل المعاهدون من أهل الدول هذا الرسم عند ما تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والخشونة ويقتعون بالدعاء على الإبهام والإجمال لمن ولي أمور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عباسية يعنون بذلك أن الدعاء على الإجمال إنما يتناول العباسي تقليداً في ذلك لما سلف من الأمر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه يحكى أن يغمراسن بن زيان عاهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو زكرياء يحيى بن أبي حفص على تلمسان ثم بدا له في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاءوا وكذلك يعقوب بن عبد الحق عاهد دولة بني مرين حضره رسول المنتصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم وتخلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقيل له لم يحضر هذا الرسول كراهية لخلو الخطبة من ذكر سلطانه فأذن في الدعاء له وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعوته وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة فإذا انتبهت عيون سياستهم ونظروا في أعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة ومعاني البذخ والأبهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها وتجاروا إلى غايتها وأنفوا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من آثارها والعالم بستان والله على كل شيء رقيب

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الامم وترتيبها

إعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ براها الله وأصلها

إِرَادَةُ ٱنْتِقَامِ بَعْضِ ٱلْبَشَرِ مِنْ بَعْضٍ وَيَتَعَصَّبُ لِكُلٍّ مِنْهَا أَهْلُ عَصَبِيَّتِهِ فَإِذَا تَذَامَرُوا لِذٰلِكَ وَتَوَافَقَتِ ٱلطَّائِفَتَانِ إِحْدَاهُمَا تَطْلُبُ ٱلِٱنْتِقَامَ وَٱلْأُخْرَى تُدَافِعُ كَانَتِ ٱلْحَرْبُ وَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلْبَشَرِ لَا تَخْلُو عَنْهُ أُمَّةٌ وَلَا جِيلٌ وَسَبَبُ هٰذَا ٱلِٱنْتِقَامِ فِي ٱلْأَكْثَرِ إِمَّا غِيرَةٌ وَمُنَافَسَةٌ وَإِمَّا عُدْوَانٌ وَإِمَّا غَضَبٌ لِلّٰهِ وَلِدِينِهِ وَإِمَّا غَضَبٌ لِلْمُلْكِ وَسَعْيٌ فِي تَمْهِيدِهِ فَٱلْأَوَّلُ أَكْثَرُ مَا يَجْرِي بَيْنَ ٱلْقَبَائِلِ ٱلْمُتَجَاوِرَةِ وَٱلْعَشَائِرِ ٱلْمُتَنَاظِرَةِ وَٱلثَّانِي وَهُوَ ٱلْعُدْوَانُ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْوَحْشِيَّةِ ٱلسَّاكِنِينَ بِٱلْقَفْرِ كَٱلْعَرَبِ وَٱلتُّرْكِ وَٱلتُّرْكُمَانِ وَٱلْأَكْرَادِ وَأَشْبَاهِهِمْ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا أَرْزَاقَهُمْ فِي رِمَاحِهِمْ وَمَعَاشَهُمْ فِيمَا بِأَيْدِي غَيْرِهِمْ وَمَنْ دَافَعَهُمْ عَنْ مَتَاعِهِ آذَنُوهُ بِٱلْحَرْبِ وَلَا بُغْيَةَ لَهُمْ فِيمَا وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنْ رُتْبَةٍ وَلَا مُلْكٍ وَإِنَّمَا هَمُّهُمْ وَنُصْبُ أَعْيُنِهِمْ غَلْبُ ٱلنَّاسِ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَٱلثَّالِثُ هُوَ ٱلْمُسَمَّى فِي ٱلشَّرِيعَةِ بِٱلْجِهَادِ وَٱلرَّابِعُ هُوَ حُرُوبُ ٱلدُّوَلِ مَعَ ٱلْخَارِجِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمَانِعِينَ لِطَاعَتِهَا فَهٰذِهِ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلصِّنْفَانِ ٱلْأَوَّلَانِ مِنْهَا حُرُوبُ بَغْيٍ وَفِتْنَةٍ وَٱلصِّنْفَانِ ٱلْأَخِيرَانِ حُرُوبُ جِهَادٍ وَعَدْلٍ وَصِفَةُ ٱلْحُرُوبِ ٱلْوَاقِعَةِ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْخَلِيقَةِ مُنْذُ أَوَّلِ وُجُودِهِمْ عَلَى نَوْعَيْنِ نَوْعٍ بِٱلزَّحْفِ صُفُوفاً وَنَوْعٍ بِٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ أَمَّا ٱلَّذِي بِٱلزَّحْفِ فَهُوَ قِتَالُ ٱلْعَجَمِ كُلِّهِمْ عَلَى تَعَاقُبِ أَجْيَالِهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِي بِٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ فَهُوَ قِتَالُ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَرْبَرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَقِتَالُ ٱلزَّحْفِ أَوْثَقُ وَأَشَدُّ مِنْ قِتَالِ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ وَذٰلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ ٱلزَّحْفِ تُرَتَّبُ فِيهِ ٱلصُّفُوفُ وَتُسَوَّى كَمَا تُسَوَّى ٱلْقِدَاحُ أَوْ صُفُوفُ ٱلصَّلَاةِ وَيَمْشُونَ بِصُفُوفِهِمْ إِلَى ٱلْعَدُوِّ قُدُماً فَلِذٰلِكَ تَكُونُ أَثْبَتَ عِنْدَ ٱلْمَصَارِعِ وَأَصْدَقَ فِي ٱلْقِتَالِ وَأَرْهَبَ لِلْعَدُوِّ لِأَنَّهُ كَٱلْحَائِطِ ٱلْمُمْتَدِّ وَٱلْقَصْرِ ٱلْمَشِيدِ لَا يُطْمَعُ فِي إِزَالَتِهِ وَفِي ٱلتَّنْزِيلِ إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ أَيْ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِٱلثَّبَاتِ وَفِي ٱلْحَدِيثِ ٱلْكَرِيمِ ٱلْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَٱلْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ لَكَ حِكْمَةُ إِيجَابِ ٱلثَّبَاتِ وَتَحْرِيمُ ٱلتَّوَلِّي فِي ٱلزَّحْفِ فَإِنَّ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ ٱلصَّفِّ فِي ٱلْقِتَالِ حِفْظُ ٱلنِّظَامِ كَمَا قُلْنَاهُ فَمَنْ وَلَّى ٱلْعَدُوَّ ظَهْرَهُ فَقَدْ أَخَلَّ بِٱلْمَصَافِ وَبَاءَ بِإِثْمِ ٱلْهَزِيمَةِ إِنْ وَقَعَتْ وَصَارَ كَأَنَّهُ جَرَّهَا عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَمْكَنَ مِنْهُمْ عَدُوَّهُمْ فَعَظُمَ ٱلذَّنْبُ لِعُمُومِ ٱلْمَفْسَدَةِ وَتَعَدِّيهَا إِلَى ٱلدِّينِ بِخَرْقِ سِيَاجِهِ فَعُدَّ مِنَ ٱلْكَبَائِرِ وَيَظْهَرُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَدِلَّةِ أَنَّ قِتَالَ ٱلزَّحْفِ أَشَدُّ عِنْدَ ٱلشَّارِعِ وَأَمَّا قِتَالُ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ فَلَيْسَ فِيهِ

منَ ٱلشِدَّةِ وَٱلْأَمنِ مِنَ ٱلْهَزِيمَةِ مَا فِي قِتَالِ ٱلزَّحفِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ يَتَّخِذُونَ وَرَاءَهُمْ فِي ٱلْقِتَالِ مَصَافاً ثَابِتاً يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ فِي ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ وَيَقُومُ لَهُمْ مَقَامَ قِتَالِ ٱلزَّحفِ كَمَا نَذْكُرُهُ بَعْدُ . ثُمَّ إِنَّ ٱلدُّوَلَ ٱلْقَدِيمَةَ ٱلْكَثِيرَةَ ٱلْجُنُودِ ٱلْمُتَّسِعَةَ ٱلْمَمَالِكِ كَانُوا يَقْسِمُونَ ٱلْجُيُوشَ وَٱلْعَسَاكِرَ أَقْسَاماً يُسَمُّونَهَا كَرَادِيسَ وَيُسَوُّونَ فِي كُلِّ كُرْدُوسٍ صُفُوفَهُ وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ جُنُودُهُمْ ٱلْكَثْرَةَ ٱلْبَالِغَةَ وَحُشِدُوا مِنْ قَاصِيَةِ ٱلنَّوَاحِي ٱسْتَدْعَى ذٰلِكَ أَنْ يَجْهَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِذَا ٱخْتَلَطُوا فِي مَجَالِ ٱلْحَرْبِ وَٱعْتَوَرُوا مَعَ عَدُوِّهِمْ ٱلطَّعْنَ وَٱلضَّرْبَ فَيُخْشَى مِنْ تَدَافُعِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَجْلِ ٱلنُّكْرَاءِ وَجَهْلِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فَلِذٰلِكَ كَانُوا يَقْسِمُونَ ٱلْعَسَاكِرَ جُمُوعاً وَيَضُمُّونَ ٱلْمُتَعَارِفِينَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ وَيُرَتِّبُونَهَا قَرِيباً مِنَ ٱلتَّرْتِيبِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي ٱلْجِهَاتِ ٱلْأَرْبَعِ وَرَئِيسُ ٱلْعَسَاكِرِ كُلِّهَا مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ قَائِدٍ فِي ٱلْقَلْبِ وَيُسَمُّونَ هٰذَا ٱلتَّرْتِيبَ ٱلتَّعْبِئَةَ وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي أَخْبَارِ فَارِسَ وَٱلرُّومِ وَٱلدَّوْلَتَيْنِ وَصَدْرِ ٱلْإِسْلَامِ فَيَجْعَلُونَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَلِكِ عَسْكَراً مُنْفَرِداً بِصُفُوفِهِ مُتَمَيِّزاً بِقَائِدِهِ وَرَايَتِهِ وَشِعَارِهِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْمُقَدَّمَةَ ثُمَّ عَسْكَراً آخَرَ نَاحِيَةَ ٱلْيَمِينِ عَنْ مَوْقِفِ ٱلْمَلِكِ وَعَلَى سَمْتِهِ يُسَمُّونَهُ ٱلْمَيْمَنَةَ ثُمَّ عَسْكَراً آخَرَ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلشِّمَالِ كَذٰلِكَ يُسَمُّونَهُ ٱلْمَيْسَرَةَ ثُمَّ عَسْكَراً آخَرَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْعَسْكَرِ يُسَمُّونَهُ ٱلسَّاقَةَ وَيَقِفُ ٱلْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ فِي ٱلْوَسَطِ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعِ وَيُسَمُّونَ مَوْقِفَهُ ٱلْقَلْبَ فَإِذَا تَمَّ لَهُمْ هٰذَا ٱلتَّرْتِيبُ ٱلْمُحْكَمُ إِمَّا فِي مَدًى وَاحِدٍ لِلْبَصَرِ أَوْ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ أَكْثَرُهَا ٱلْيَوْمُ وَٱلْيَوْمَانِ بَيْنَ كُلِّ عَسْكَرَيْنِ مِنْهَا أَوْ كَيْفَمَا أَعْطَاهُ حَالُ ٱلْعَسَاكِرِ فِي ٱلْقِلَّةِ وَٱلْكَثْرَةِ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ٱلزَّحْفُ مِنْ بَعْدِ هٰذِهِ ٱلتَّعْبِئَةِ وَٱنْظُرْ ذٰلِكَ فِي أَخْبَارِ ٱلْفُتُوحَاتِ وَأَخْبَارِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ بِٱلْمَشْرِقِ وَكَيْفَ كَانَتِ ٱلْعَسَاكِرُ لِعَهْدِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ تَتَخَلَّفُ عَنْ رَحِيلِهِ لِبُعْدِ ٱلْمَدَى فِي ٱلتَّعْبِئَةِ فَٱحْتِيجَ لِمَنْ يَسُوقُهَا مِنْ خَلْفِهِ وَعُيِّنَ لِذٰلِكَ ٱلْحَجَّاجُ ٱبْنُ يُوسُفَ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ وَكَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي أَخْبَارِهِ وَكَانَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ أَيْضاً كَثِيرٌ مِنْهُ وَهُوَ مَجْهُولٌ فِيمَا لَدَيْنَا لِأَنَّا إِنَّمَا أَدْرَكْنَا دُوَلاً قَلِيلَةَ ٱلْعَسَاكِرِ لَا تَنْتَهِي فِي مَجَالِ ٱلْحَرْبِ إِلَى ٱلتَّنَاكُرِ بَلْ أَكْثَرُ ٱلْجُيُوشِ مِنَ ٱلطَّائِفَتَيْنِ مَعاً يَجْمَعُهُمْ لَدَيْنَا حِلَّةٌ أَوْ مَدِينَةٌ وَيَعْرِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قِرْنَهُ وَيُنَادِيهِ فِي حَوْمَةِ ٱلْحَرْبِ بِٱسْمِهِ وَلَقَبِهِ فَٱسْتَغْنَى عَنْ تِلْكَ ٱلتَّعْبِئَةِ

وَمِنْ مَذَاهِبِ أَهْلِ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ فِي ٱلْحُرُوبِ ضَرْبُ ٱلْمَصَافِّ وَرَاءَ عَسْكَرِهِمْ مِنْ

الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأ للخيالة في كرّهم وفرّهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنها حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وإن فارس في اليوم الثالث اشتدوا بهم على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبعجوها بالسيوف على خراطيمها فنفرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن فجفا معسكر فارس لذلك وانهزموا في اليوم الرابع * وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأسرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكر والفر وجعل ذلك الفرس أيام القادسية وكان رستم جالساً على سرير نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه إلى الفرات وقتل* وأما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون لذلك إبلهم والظهر الذي يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمونها المجبودة وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للأثقال والفساطيط يجعلونها ساقة من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والإبل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف * وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم الثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الإيمان والزحف إلى الاستماتة أقرب * وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبئة كراديس مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي والجبيري بعده

قَالَ ٱلطَّبَرِيُّ لَمَّا ذَكَرَ قِتَالَ ٱلْجَيْرِيِّ فَوَلَّى ٱلْخَوَارِجُ عَلَيْهِمْ شَيْبَانَ بْنَ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْيَشْكُرِيَّ وَيُلَقَّبُ أَبَا ٱلذَّلْفَاءِ قَاتَلَهُمْ مَرْوَانُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِٱلْكَرَادِيسِ وَأَبْطَلَ ٱلصَّفَّ مِنْ يَوْمَئِذٍ ٱنْتَهَى . فَتُنُوسِيَ قِتَالُ ٱلزَّحْفِ بِإِبْطَالِ ٱلصَّفِّ ثُمَّ تُنُوسِيَ ٱلصَّفُّ وَرَاءَ ٱلْمُقَاتِلَةِ بِمَا دَاخَلَ ٱلدُّوَلَ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَذٰلِكَ أَنَّهَا حِينَمَا كَانَتْ بَدَوِيَّةً وَسُكْنَاهُمُ ٱلْخِيَامُ كَانُوا يَسْتَكْثِرُونَ مِنَ ٱلْإِبِلِ وَسُكْنَى ٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ مَعَهُمْ فِي ٱلْأَحْيَاءِ فَلَمَّا حَصَلُوا عَلَى تَرَفِ ٱلْمُلْكِ وَأَلِفُوا سُكْنَى ٱلْقُصُورِ وَٱلْحَوَاضِرِ وَتَرَكُوا شَأْنَ ٱلْبَادِيَةِ وَٱلْقَفْرِ نَسُوا لِذٰلِكَ عَهْدَ ٱلْإِبِلِ وَٱلظَّعَائِنِ وَصَعُبَ عَلَيْهِمُ ٱتِّخَاذُهَا فَخَلَّفُوا ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْأَسْفَارِ وَحَمَلَهُمُ ٱلْمُلْكُ وَٱلتَّرَفُ عَلَى ٱتِّخَاذِ ٱلْفَسَاطِيطِ وَٱلْأَخْبِيَةِ فَٱقْتَصَرُوا عَلَى ٱلظَّهْرِ ٱلْحَامِلِ لِلْأَثْقَالِ(١) وَٱلْأَبْنِيَةِ وَكَانَ ذٰلِكَ صِفَتَهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ وَلَا يُغْنِي كُلَّ ٱلْغَنَاءِ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَى ٱلِٱسْتِمَاتَةِ كَمَا يَدْعُو إِلَيْهَا ٱلْأَهْلُ وَٱلْمَالُ فَيَخِفُّ ٱلصَّبْرُ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ وَتَصْرِفُهُمُ ٱلْهَيْعَاتُ وَتُخَرِّمُ صُفُوفَهُمْ . وَلِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ ضَرْبِ ٱلْمَصَافِّ وَرَاءَ ٱلْعَسَاكِرِ وَتَأَكُّدِهِ فِي قِتَالِ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ صَارَ مُلُوكُ ٱلْمَغْرِبِ يَتَّخِذُونَ طَائِفَةً مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ فِي جُنْدِهِمْ وَٱخْتَصُّوا بِذٰلِكَ لِأَنَّ قِتَالَ أَهْلِ وَطَنِهِمْ كُلِّهِ بِٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ وَٱلسُّلْطَانُ يَتَأَكَّدُ فِي حَقِّهِ ضَرْبُ ٱلْمَصَافِّ لِيَكُونَ رِدْءًا لِلْمُقَاتِلَةِ أَمَامَهُ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ ذٰلِكَ ٱلصَّفِّ مِنْ قَوْمٍ مُتَعَوِّدِينَ لِلثَّبَاتِ فِي ٱلزَّحْفِ وَإِلَّا أَجْفَلُوا عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ ٱلْكَرِّ وَٱلْفَرِّ فَٱنْهَزَمَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱلْعَسَاكِرُ بِإِجْفَالِهِمْ فَٱحْتَاجَ ٱلْمُلُوكُ بِٱلْمَغْرِبِ أَنْ يَتَّخِذُوا جُنْدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ ٱلْمُتَعَوِّدَةِ ٱلثَّبَاتَ فِي ٱلزَّحْفِ وَهُمُ ٱلْإِفْرَنْجُ وَيُرَتِّبُونَ مَصَافَّهُمُ ٱلْمُحْدِقَ بِهِمْ مِنْهَا هٰذَا عَلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِأَهْلِ ٱلْكُفْرِ وَإِنَّهُمُ ٱسْتَخَفُّوا ذٰلِكَ لِلضَّرُورَةِ ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَهَا مِنْ تَخَوُّفِ ٱلْإِجْفَالِ عَلَى مَصَافِّ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْإِفْرَنْجُ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ ٱلثَّبَاتِ فِي ذٰلِكَ لِأَنَّ عَادَتَهُمْ فِي ٱلْقِتَالِ ٱلزَّحْفُ فَكَانُوا أَقْوَمَ بِذٰلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ مَعَ أَنَّ ٱلْمُلُوكَ فِي ٱلْمَغْرِبِ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْحَرْبِ مَعَ أُمَمِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَرْبَرِ وَقِتَالِهِمْ عَلَى ٱلطَّاعَةِ وَأَمَّا فِي ٱلْجِهَادِ فَلَا يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ حَذَرًا مِنْ مُمَالَأَتِهِمْ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ هٰذَا هُوَ ٱلْوَاقِعُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَقَدْ أَبْدَيْنَا سَبَبَهُ وَٱللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَبَلَغَنَا أَنَّ أُمَمَ ٱلتُّرْكِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ قِتَالُهُمْ مُنَاضَلَةٌ بِٱلسِّهَامِ وَأَنَّ تَعْبِئَةَ ٱلْحَرْبِ عِنْدَهُمْ بِٱلْمَصَافِّ وَأَنَّهُمْ يُقَسِّمُونَ بِثَلَاثَةِ صُفُوفٍ يَضْرِبُونَ صَفًّا وَرَاءَ صَفٍّ وَيَتَرَجَّلُونَ عَنْ خُيُولِهِمْ وَيُفَرِّغُونَ سِهَامَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَتَنَاضَلُونَ

(١) قوله للاثقال والابنية مراده بالابنية الخيام كما يدل عليه قوله في فصل الخندق الآتي قريباً اذا نزلوا وضربوا ابنيتهم اهـ

كُلُّ رِدْءٍ لِلَّذِي أَمَامَهُ خَوْفاً أَنْ يَكْبِسَهُمُ ٱلْعَدُوُّ إِلَى أَنْ يَتَهَيَّأَ ٱلنَّصْرُ لِإِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَهِيَ تَعْبِئَةٌ مُحْكَمَةٌ غَرِيبَةٌ * وَكَانَ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلْأُوَلِ فِي حُرُوبِهِمْ حَفْرُ ٱلْخَنَادِقِ عَلَى مُعَسْكَرِهِمْ عِنْدَمَا يَتَقَارَبُونَ لِلزَّحْفِ حَذَراً مِنْ مَعَرَّةِ ٱلْبَيَاتِ وَٱلْهُجُومِ عَلَى ٱلْعَسْكَرِ بِٱللَّيْلِ لِمَا فِي ظُلْمَتِهِ وَوَحْشَتِهِ مِنْ مُضَاعَفَةِ ٱلْخَوْفِ فَيَلُوذُ ٱلْجَيْشُ بِٱلْفِرَارِ وَتَجِدُ ٱلنُّفُوسُ فِي ٱلظُّلْمَةِ سِتْراً مِنْ عَارِهِ فَإِذَا تَسَاوَوْا فِي ذٰلِكَ أَرْجَفَ ٱلْعَسْكَرُ وَوَقَعَتِ ٱلْهَزِيمَةُ فَكَانُوا لِذٰلِكَ يَحْتَفِرُونَ ٱلْخَنَادِقَ عَلَى مُعَسْكَرِهِمْ إِذَا نَزَلُوا وَضَرَبُوا أَبْنِيَتَهُمْ وَيُدِيرُونَ ٱلْحَفَائِرَ نِطَاقاً عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ حِرْصاً أَنْ يُخَالِطَهُمُ ٱلْعَدُوُّ بِٱلْبَيَاتِ فَيَتَخَاذَلُوا وَكَانَتْ لِلدُّوَلِ فِي أَمْثَالِ هٰذَا قُوَّةٌ وَعَلَيْهِ ٱقْتِدَارٌ بِٱحْتِشَادِ ٱلرِّجَالِ وَجَمْعِ ٱلْأَيْدِي عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ وُفُورِ ٱلْعُمْرَانِ وَضَخَامَةِ ٱلْمُلْكِ فَلَمَّا خَرِبَ ٱلْعُمْرَانُ وَتَبِعَهُ ضَعْفُ ٱلدُّوَلِ وَقِلَّةُ ٱلْجُنُودِ وَعَدَمُ ٱلْفَعَلَةِ نُسِيَ هٰذَا ٱلشَّأْنُ جُمْلَةً كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَٱللّٰهُ خَيْرُ ٱلْقَادِرِينَ وَٱنْظُرْ وَصِيَّةَ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ وَتَحْرِيضَهُ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ صِفِّينَ تَجِدْ كَثِيراً مِنْ عِلْمِ ٱلْحَرْبِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَبْصَرَ بِهَا مِنْهُ قَالَ فِي كَلَامٍ لَهُ فَسَوُّوا صُفُوفَكُمْ كَٱلْبُنْيَانِ ٱلْمَرْصُوصِ وَقَدِّمُوا ٱلدَّارِعَ وَأَخِّرُوا ٱلْحَاسِرَ وَعَضُّوا عَلَى ٱلْأَضْرَاسِ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ ٱلْهَامِ وَٱلْتَوُوا عَلَى أَطْرَافِ ٱلرِّمَاحِ فَإِنَّهُ أَصْوَنُ لِلْأَسِنَّةِ وَغُضُّوا ٱلْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ وَٱخْفُتُوا ٱلْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ وَأَوْلَى بِٱلْوَقَارِ وَأَقِيمُوا رَايَاتِكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصِّدْقِ وَٱلصَّبْرِ فَإِنَّهُ بِقَدْرِ ٱلصَّبْرِ يَنْزِلُ ٱلنَّصْرُ وَقَالَ ٱلْأَشْتَرُ يَوْمَئِذٍ يُحَرِّضُ ٱلْأَزْدَ عَضُّوا عَلَى ٱلنَّوَاجِذِ مِنَ ٱلْأَضْرَاسِ وَٱسْتَقْبِلُوا ٱلْقَوْمَ بِهَامِكُمْ وَشُدُّوا شِدَّةَ قَوْمٍ مَوْتُورِينَ يَثْأَرُونَ بِآبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِنَاقاً عَلَى عَدُوِّهِمْ وَقَدْ وَطَّنُوا عَلَى ٱلْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ لِئَلَّا يُسْبَقُوا بِوِتْرٍ وَلَا يَلْحَقَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا عَارٌ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ ذٰلِكَ أَبُو بَكْرٍ ٱلصَّيْرَفِيُّ شَاعِرُ لَمْتُونَةَ وَأَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي كَلِمَةٍ يَمْدَحُ بِهَا تَاشْفِينَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَرْبٍ شَهِدَهَا وَيُذَكِّرُهُ بِأُمُورِ ٱلْحَرْبِ فِي وَصَايَا تَحْذِيرَاتٍ تُنَبِّهُكَ عَلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنْ سِيَاسَةِ ٱلْحَرْبِ يَقُولُ فِيهَا

يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِي يَتَقَنَّعُ ... مَنْ مِنْكُمُ ٱلْمَلِكُ ٱلْهُمَامُ ٱلْأَرْوَعُ
وَمَنِ ٱلَّذِي غَدَرَ ٱلْعَدُوُّ بِهِ دُجًى ... فَٱنْفَضَّ كُلٌّ وَهْوَ لَا يَتَزَعْزَعُ

تمْضِي ٱلْفَوَارِسُ وَٱلطِّعَانُ يَصُدُّهَا عَنْـهُ وَيُدْبِرُهَا ٱلْوَفَاءُ فَتَرْجِعُ
وَٱللَّيْلُ مِنْ وَضَحِ ٱلتَّرَائِكِ إِنَّـهُ صُبْحٌ عَلَى هَامِ ٱلْجُيُوشِ يُلَمِّعُ
أَنَّى فَزِعْتُمْ يَا بَنِي صَنْهَاجَـةٍ وَإِلَيْـكُمُ فِي ٱلرَّوْعِ كَانَ ٱلْمَفْزَعُ
إِنْسَانُ عَيْنٍ لَمْ يُصِبْهَا مِنْـكُمُ حُضْنٌ وَقَلْبٌ أَسْلَمَتْهُ ٱلْأَضْلُـعُ
وَصَدَدْتُمُ عَنْ تَاشِفِينَ وَإِنَّـهُ لِعِقَابِــهِ لَوْ شَاءَ فِيكُمْ مَوْضِعُ
مَا أَنْتُمُ إِلَّا أُسُودُ خَفِيَّـةٍ كُلٌّ لِكُلِّ كَرِيهَةٍ مُسْتَطْلِعُ
يَا تَاشِفِينُ أَقِمْ لِجَيْشِكَ عُـذْرَهُ بِٱللَّيْلِ وَٱلْعُذْرُ ٱلَّذِي لَا يُدْفَعُ

ومنها في سياسة الحرب

أُهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ ٱلسِّيَاسَةِ مَا بِهِ كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْفُرْسِ قَبْلَكَ تُولَعُ
لَا إِنَّنِي أَدْرَى بِهَـا لٰكِنَّهَـا ذِكْرَى تَحُضُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَٱلْبَسْ مِنَ ٱلْحَلَقِ ٱلْمُضَاعَفَةِ ٱلَّتِي وَصَّى بِهَـا صَنِعُ ٱلصَّنَائِـعِ تُبَّعُ
وَٱلْهِنْدُوَانِيَّ ٱلرَّقِيقَ فَإِنَّـهُ أَمْضَى عَلَى حَدِّ ٱلدِّلَاصِ وَأَقْطَعُ
وَٱرْكَبْ مِنَ ٱلْخَيْلِ ٱلسَّوَابِقِ عِدَّةً حُصْنًا حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مِدْفَعُ
خَنْدِقْ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ مَحَلَّةً سِيَّانِ تَتْبَـعُ ظَافِرًا أَوْ تُتْبَعُ
وَٱلْوَادِ لَا تَعْبُرْهُ وَٱنْزِلْ عِنْـدَهُ بَيْنَ ٱلْعَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يَقْطَعُ
وَٱجْعَلْ مُنَاجَزَةَ ٱلْجُيُوشِ عَشِيَّـةً وَوَرَاءَكَ ٱلصِّدْقُ ٱلَّذِي هُوَ أَمْنَعُ
وَإِذَا تَضَايَقَتِ ٱلْجُيُوشُ بِمَعْرَكٍ ضَنْكٍ فَأَطْرَافُ ٱلرِّمَاحِ تُوَسِّعُ
وَٱصْدُمْهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَـكْتَرِثْ شَيْئًا فَإِظْهَـارُ ٱلنُّكُولِ يُضَعْضِعُ
وَٱجْعَلْ مِنَ ٱلطُّلَّاعِ أَهْلَ شَهَامَةٍ لِلصِّدْقِ فِيهِمْ شِيمَةٌ لَا تَخْدَعُ
لَا تَسْمَعِ ٱلْـكَذَّابَ جَاءَكَ مُرْجِفًا لَا رَأْيَ لِلْـكَذَّابِ فِيمَا يَصْنَعُ

قَوْلُهُ وَٱصْدُمْهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَـكْتَرِثْ ٱلْبَيْتُ مُخَالِفٌ لِمَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي أَمْرِ ٱلْحَرْبِ فَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ ٱلثَّقَفِيِّ لَمَّا وَلَّاهُ حَرْبَ فَارِسَ وَٱلْعِرَاقِ فَقَالَ لَهُ ٱسْمَعْ وَأَطِعْ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْرِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَا تُجِيبَنَّ مُسْرِعًا حَتَّى تَتَبَيَّنَ فَإِنَّهَا ٱلْحَرْبُ وَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَـكِيثُ ٱلَّذِي يَعْرِفُ ٱلْفُرْصَةَ وَٱلْـكَفَّ وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى إِنَّهُ لَنْ يَمْنَعَنِي أَنْ أُؤَمِّرَ سَلِيطًا إِلَّا سُرْعَتُهُ فِي ٱلْحَرْبِ

وَفِي ٱلتَّسَرُّعِ فِي ٱلْحَرْبِ إِلَّا عَنْ بَيَانٍ ضِيَاعٌ وَٱللَّهِ لَوْلَا ذٰلِكَ لَأَمَّرْتُهُ لَكِنَّ ٱلْحَرْبَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَكِيثُ هٰذَا كَلَامُ عُمَرَ وَهُوَ شَاهِدٌ بِأَنَّ ٱلتَّثَاقُلَ فِي ٱلْحَرْبِ أَوْلَى مِنَ ٱلْخُفُوفِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَالُ تِلْكَ ٱلْحَرْبِ وَذٰلِكَ عَكْسُ مَا قَالَهُ ٱلصَّيْرَفِيُّ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّ ٱلصَّدْمَ بَعْدَ ٱلْبَيَانِ فَلَهُ وَجْهٌ وَٱللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ * وَلَا وُثُوقَ فِي ٱلْحَرْبِ بِٱلظَّفَرِ وَإِنْ حَصَلَتْ أَسْبَابُهُ مِنَ ٱلْعِدَّةِ وَٱلْعَدِيدِ وَإِنَّمَا ٱلظَّفَرُ فِيهَا وَٱلْغَلَبُ مِنْ قَبِيلِ ٱلْبَخْتِ وَٱلِٱتِّفَاقِ وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّ أَسْبَابَ ٱلْغَلَبِ فِي ٱلْأَكْثَرِ مُجْتَمِعَةٌ مِنْ أُمُورٍ ظَاهِرَةٍ وَهِيَ ٱلْجُيُوشُ وَوُفُورُهَا وَكَمَالُ ٱلْأَسْلِحَةِ وَٱسْتِجَادَتُهَا وَكَثْرَةُ ٱلشُّجْعَانِ وَتَرْتِيبُ ٱلْمَصَافِّ وَمِنْهُ صِدْقُ ٱلْقِتَالِ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذٰلِكَ وَمِنْ أُمُورٍ خَفِيَّةٍ وَهِيَ إِمَّا مِنْ خِدَاعِ ٱلْبَشَرِ وَحِيَلِهِمْ فِي ٱلْإِرْجَافِ وَٱلتَّشَانِيعِ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا ٱلتَّخْذِيلُ وَفِي ٱلتَّقَدُّمِ إِلَى ٱلْأَمَاكِنِ ٱلْمُرْتَفِعَةِ لِيَكُونَ ٱلْحَرْبُ مِنْ أَعْلَى فَيَتَوَهَّمُ ٱلْمُنْخَفِضُ لِذٰلِكَ وَفِي ٱلْكُمُونِ فِي ٱلْغِيَاضِ وَمُطْمَئِنِّ ٱلْأَرْضِ وَٱلتَّوَارِي بِٱلْكُدَى حَوْلَ ٱلْعَدُوِّ حَتَّى يَتَدَاوَلَهُمُ ٱلْعَسْكَرُ دَفْعَةً وَقَدْ تَوَرَّطُوا فَيَتَلَمَّمُونَ إِلَى ٱلنَّجَاةِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ تِلْكَ ٱلْأَسْبَابُ ٱلْخَفِيَّةُ أُمُوراً سَمَاوِيَّةً لَا قُدْرَةَ لِلْبَشَرِ عَلَى ٱكْتِسَابِهَا تُلْقَى فِي ٱلْقُلُوبِ فَيَسْتَوْلِي ٱلرَّهَبُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِهَا فَتَخْتَلُّ مَرَاكِزُهُمْ فَتَقَعُ ٱلْهَزِيمَةُ وَأَكْثَرُ مَا تَقَعُ ٱلْهَزَائِمُ عَنْ هٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْخَفِيَّةِ لِكَثْرَةِ مَا يَعْتَمِلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ فِيهَا حِرْصاً عَلَى ٱلْغَلَبِ فَلَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّأْثِيرِ فِي ذٰلِكَ لِأَحَدِهِمَا ضَرُورَةً وَلِذٰلِكَ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْحَرْبُ خُدْعَةٌ وَمِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ رُبَّ حِيلَةٍ أَنْفَعُ مِنْ قَبِيلَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وُقُوعَ ٱلْغَلَبِ فِي ٱلْحُرُوبِ غَالِباً عَنْ أَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ غَيْرِ ظَاهِرَةٍ وَوُقُوعَ ٱلْأَشْيَاءِ عَنِ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْخَفِيَّةِ هُوَ مَعْنَى ٱلْبَخْتِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ فَٱعْتَبِرْهُ وَتَفَهَّمْ مِنْ وُقُوعِ ٱلْغَلَبِ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ كَمَا شَرَحْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُصِرْتُ بِٱلرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَمَا وَقَعَ مِنْ غَلَبِهِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي حَيَاتِهِ بِٱلْعَدَدِ ٱلْقَلِيلِ وَغَلَبِ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِ كَذٰلِكَ فِي ٱلْفُتُوحَاتِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَكَفَّلَ لِنَبِيِّهِ بِإِلْقَاءِ ٱلرُّعْبِ فِي قُلُوبِ ٱلْكَافِرِينَ حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَيَنْهَزِمُوا مُعْجِزَةً لِرَسُولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ ٱلرُّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ سَبَباً لِلْهَزَائِمِ فِي ٱلْفُتُوحَاتِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا إِلَّا أَنَّهُ خَفِيٌّ عَنِ ٱلْعُيُونِ * وَقَدْ ذَكَرَ ٱلطَّرْطُوشِيُّ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْغَلَبِ فِي ٱلْحَرْبِ أَنْ تَفْضُلَ عِدَّةُ ٱلْفُرْسَانِ ٱلْمَشَاهِيرِ مِنَ ٱلشُّجْعَانِ فِي أَحَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ عَلَى عِدَّتِهِمْ فِي ٱلْجَانِبِ

الآخر مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب وأعاد في ذلك وأبدى وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح وإنما الصحيح المعتبر في الغلب حال العصبية أن يكون في أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم وفي الجانب الآخر عصائب متعددة لأن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصبته واحدة لأجل ذلك فتفهمه واعلم أنه أصح في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي ولم يحمله على ذلك إلا نسيان شأن العصبية في حلة وبلدة وأنهم إنما يرون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة إلى الوحدان والجماعة الناشئة عنهم لا يعتبرون في ذلك عصبية ولا نسباً وقد بينا ذلك أول الكتاب مع أن هذا وأمثاله على تقدير صحته إنما هو من الأسباب الظاهرة مثل اتفاق الجيش في العدة وصدق القتال وكثرة الأسلحة وما أشبهها فكيف يجعل ذلك كفيلا بالغلب ونحن قد قررنا لك الآن أن شيئاً منها لا يعارض الأسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الأمور السماوية من الرعب والخذلان الالهي فافهمه وتفهم أحوال الكون والله مقدر الليل والنهار * ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة والصيت فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل على العموم وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها وقد تصادف موضعها وتكون طبقاً على صاحبها والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما بالإخبار والإخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصب والتشيع ويدخلها الأوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال لخفائها بالتلبيس والتصنع أو لجهل الناقل ويدخلها التقرب لأصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وليسوا من الأكثر براغبين في الفضائل ولا منافسين في أهلها وأين مطابقة الحق مع هذه كلها فتختل الشهرة عن

أَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ مِنْ هٰذِهِ وَتَكُونُ غَيْرَ مُطَابِقَةٍ وَكُلُّ مَا حَصَلَ بِسَبَبٍ خَفِيٍّ فَهُوَ ٱلَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِٱلْبَخْتِ كَمَا تَقَرَّرَ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْجِبَايَةَ أَوَّلَ ٱلدَّوْلَةِ تَكُونُ قَلِيلَةَ ٱلْوَزَائِعِ كَثِيرَةَ ٱلْجُمْلَةِ وَآخِرَ ٱلدَّوْلَةِ تَكُونُ كَثِيرَةَ ٱلْوَزَائِعِ قَلِيلَةَ ٱلْجُمْلَةِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ ٱلدِّينِ فَلَيْسَتْ تَقْتَضِي إِلَّا ٱلْمَغَارِمَ ٱلشَّرْعِيَّةَ مِنَ ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلْخَرَاجِ وَٱلْجِزْيَةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ ٱلْوَزَائِعِ لِأَنَّ مِقْدَارَ ٱلزَّكَاةِ مِنَ ٱلْمَالِ قَلِيلٌ كَمَا عَلِمْتَ وَكَذَا زَكَاةُ ٱلْحُبُوبِ وَٱلْمَاشِيَةِ وَكَذَا ٱلْجِزْيَةُ وَٱلْخَرَاجُ وَجَمِيعُ ٱلْمَغَارِمِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ حُدُودٌ لَا تُتَعَدَّى وَإِنْ كَانَتْ عَلَى سُنَنِ ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلْبِدَاوَةِ فِي أَوَّلِهَا كَمَا تَقَدَّمَ وَٱلْبِدَاوَةُ تَقْتَضِي ٱلْمُسَامَحَةَ وَٱلْمُكَارَمَةَ وَخَفْضَ ٱلْجَنَاحِ وَٱلتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ وَٱلْغَفْلَةَ عَنْ تَحْصِيلِ ذٰلِكَ إِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ فَيَقِلُّ لِذٰلِكَ مِقْدَارُ ٱلْوَظِيفَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْوَزِيعَةِ ٱلَّتِي تُجْمَعُ ٱلْأَمْوَالُ مِنْ مَجْمُوعِهَا وَإِذَا قَلَّتِ ٱلْوَزَائِعُ وَٱلْوَظَائِفُ عَلَى ٱلرَّعَايَا نَشِطُوا لِلْعَمَلِ وَرَغِبُوا فِيهِ فَيَكْثُرُ ٱلِٱعْتِمَارُ وَيَتَزَايَدُ لِحُصُولِ ٱلِٱغْتِبَاطِ بِقِلَّةِ ٱلْمَغْرَمِ وَإِذَا كَثُرَ ٱلِٱعْتِمَارُ كَثُرَتْ أَعْدَادُ تِلْكَ ٱلْوَظَائِفِ وَٱلْوَزَائِعِ فَكَثُرَتِ ٱلْجِبَايَةُ ٱلَّتِي هِيَ جُمْلَتُهَا فَإِذَا ٱسْتَمَرَّتِ ٱلدَّوْلَةُ وَٱتَّصَلَتْ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ وَٱتَّصَفُوا بِٱلْكَيْسِ وَذَهَبَ سِرُّ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلسَّذَاجَةِ وَخُلُقُهَا مِنَ ٱلْإِغْضَاءِ وَٱلتَّجَافِي وَجَاءَ ٱلْمُلْكُ ٱلْعَضُوضُ وَٱلْحَضَارَةُ ٱلدَّاعِيَةُ إِلَى ٱلْكَيْسِ وَتَخَلَّقَ أَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِخُلُقِ ٱلتَّحَذْلُقِ وَتَكَثَّرَتْ عَوَائِدُهُمْ وَحَوَائِجُهُمْ بِسَبَبِ مَا ٱنْغَمَسُوا فِيهِ مِنَ ٱلنَّعِيمِ وَٱلتَّرَفِ فَيُكَثِّرُونَ ٱلْوَظَائِفَ وَٱلْوَزَائِعَ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلرَّعَايَا وَٱلْأَكَرَةِ وَٱلْفَلَاحِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ ٱلْمَغَارِمِ وَيَزِيدُونَ فِي كُلِّ وَظِيفَةٍ وَوَزِيعَةٍ مِقْدَاراً عَظِيماً لِتَكْثُرَ لَهُمُ ٱلْجِبَايَةُ وَيَضَعُونَ ٱلْمُكُوسَ عَلَى ٱلْمُبَايَعَاتِ وَفِي ٱلْأَبْوَابِ كَمَا نَذْكُرُ بَعْدُ ثُمَّ تَتَدَرَّجُ ٱلزِّيَادَاتُ فِيهَا بِمِقْدَارٍ بَعْدَ مِقْدَارٍ لِتَدَرُّجِ عَوَائِدِ ٱلدَّوْلَةِ فِي ٱلتَّرَفِ وَكَثْرَةِ ٱلْحَاجَاتِ وَٱلْإِنْفَاقِ بِسَبَبِهِ حَتَّى تَثْقُلَ ٱلْمَغَارِمُ عَلَى ٱلرَّعَايَا وَتَهْضِمَهُمْ وَتَصِيرَ عَادَةً مَفْرُوضَةً لِأَنَّ تِلْكَ ٱلزِّيَادَةَ تَدَرَّجَتْ قَلِيلاً قَلِيلاً وَلَمْ يَشْعُرْ أَحَدٌ بِمَنْ زَادَهَا عَلَى ٱلتَّعْيِينِ وَلَا مَنْ هُوَ وَاضِعُهَا إِنَّمَا تَثْبُتُ عَلَى ٱلرَّعَايَا فِي ٱلِٱعْتِمَارِ لِذَهَابِ ٱلْأَمَلِ مِنْ نُفُوسِهِمْ بِقِلَّةِ ٱلنَّفْعِ إِذَا قَابَلَ بَيْنَ نَفْعِهِ وَمَغَارِمِهِ وَبَيْنَ

ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الأيدي عن الاعتمار جملة فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها وربما يزيدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الإنفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها إلى أن ينتقص العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة لأن فائدة الاعتمار عائدة إليها وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما أمكن فبذلك تنبسط النفوس إليه لثقتها بإدراك المنفعة فيه والله سبحانه وتعالى مالك الأمور كلها وبيده ملكوت كل شيء

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس اواخر الدولة

إعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وإنفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف وعوائدها وتجري على نهج الدول السابقة قبلها فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولا تفي بذلك الجباية فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولا كما قلناه ثم يزيد الخراج والحاجات والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية فتقل الجباية وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدرا معلوما على الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه طرق الناس من كثرة العطاء من زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد

ٱلْأَسوَاقُ لِفَسَادِ ٱلآمَالِ وَيُؤْذِنُ ذٰلِكَ بِٱخْتِلالِ ٱلعُمْرَانِ وَيَعُودُ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَلا يَزَالُ ذٰلِكَ يَتَزَايَدُ إِلى أَنْ تَضْمَحِلَّ وَقَدْ كَانَ وَقَعَ مِنْهُ بِأَمْصَارِ ٱلمَشْرِقِ فِي أُخْرَيَاتِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلعَبَّاسِيَّةِ وَٱلعُبَيْدِيَّةِ كَثِيرٌ وَفُرِضَتِ ٱلمَغَارِمُ حَتَّى عَلَى ٱلحَاجِّ فِي ٱلمَوْسِمِ وَأَسْقَطَ صلاحُ ٱلدِّينِ أَيُّوبُ تِلْكَ ٱلرُّسُومَ جُمْلَةً وَأَعَاضَهَا بِآثَارِ ٱلخَيْرِ وَكَذٰلِكَ وَقَعَ بِٱلأَنْدَلُسِ لِعَهْدِ ٱلطَّوَائِفِ حَتَّى مَحَى رَسْمَهُ يُوسُفُ بْنُ تَاشِفِينَ أَمِيرُ ٱلمُرَابِطِينَ وَكَذٰلِكَ وَقَعَ بِأَمْصَارِ ٱلجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةَ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ حِينَ ٱسْتَبَدَّ بِهَا رُؤَسَاؤُهَا وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الاربعون

في ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِذَا ضَاقَتْ جِبَايَتُهَا بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَكَثْرَةِ ٱلعَوَائِدِ وَٱلنَّفَقَاتِ وَقَصَّرَ ٱلحَاصِلُ مِنْ جِبَايَتِهَا عَلَى ٱلوَفَاءِ بِحَاجَاتِهَا وَنَفَقَاتِهَا وَٱحْتَاجَتْ إِلى مَزِيدِ ٱلمَالِ وَٱلجِبَايَةِ فَتَارَةً تُوضَعُ ٱلمُكُوسُ عَلَى بِيَاعَاتِ ٱلرَّعَايَا وَأَسْوَاقِهِمْ كَمَا قَدَّمنا ذٰلِكَ فِي ٱلفَصْلِ قَبْلَهُ وَتَارَةً بِٱلزِّيَادَةِ فِي أَلقَابِ ٱلمُكُوسِ إِنْ كَانَ قَدِ ٱسْتُحْدِثَ مِنْ قَبْلُ وَتَارَةً بِمُقَاسَمَةِ ٱلعُمَّالِ وَٱلجُبَاةِ وَٱمْتِكَاكِ عِظَامِهِمْ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى شَيْءٍ طَائِلٍ مِنْ أَمْوَالِ ٱلجِبَايَةِ لا يُظْهِرُهُ ٱلحُسْبَانُ وَتَارَةً بِٱسْتِحْدَاثِ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلفِلاحَةِ لِلسُّلْطَانِ عَلَى تَسْمِيَةِ ٱلجِبَايَةِ لِمَا يَرَوْنَ ٱلتُّجَّارَ وَٱلفَلاحِينَ يَحْصُلُونَ عَلَى ٱلفَوَائِدِ وَٱلغَلاتِ مَعَ يَسَارَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَنَّ ٱلأَرْبَاحَ تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ رُؤُوسِ ٱلأَمْوَالِ فَيَأْخُذُونَ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ لِٱسْتِغْلالِهِ فِي شِرَاءِ ٱلبَضَائِعِ وَٱلتَّعَرُّضِ بِهَا لِحَوَالَةِ ٱلأَسْوَاقِ وَيَحْسَبُونَ ذٰلِكَ مِنْ إِدْرَارِ ٱلجِبَايَةِ وَتَكْثِيرِ ٱلفَوَائِدِ وَهُوَ غَلَطٌ عَظِيمٌ وَإِدْخَالُ ٱلضَّرَرِ عَلَى ٱلرَّعَايَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَأَوَّلاً مُضَايَقَةُ ٱلفَلاحِينَ وَٱلتُّجَّارِ فِي شِرَاءِ ٱلحَيَوَانِ وَٱلبَضَائِعِ وَتَيْسِيرِ أَسْبَابِ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلرَّعَايَا مُتَكَافِئُونَ فِي ٱليَسَارِ مُتَقَارِبُونَ وَمُزَاحَمَةُ بَعْضِهِمْ بَعْضاً تَنْتَهِي إِلى غَايَةِ مَوْجُودِهِمْ أَوْ تَقْرُبُ وَإِذَا رَافَقَهُمُ ٱلسُّلْطَانُ فِي ذٰلِكَ وَمَالُهُ أَعْظَمُ كَثِيراً مِنْهُمْ فَلا يَكَادُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَحْصُلُ عَلَى غَرَضِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ حَاجَاتِهِ وَيَدْخُلُ عَلَى ٱلنُّفُوسِ مِنْ ذٰلِكَ غَمٌّ وَنَكَدٌ ثُمَّ إِنَّ ٱلسُّلْطَانَ قَدْ يَنْتَزِعُ ٱلكَثِيرَ مِنْ ذٰلِكَ إِذَا تَعَرَّضَ لَهُ غَصْباً أَوْ بِأَيْسَرِ ثَمَنٍ أَوْ لا يَجِدُ مَنْ يُنَاقِشُهُ فِي شِرَائِهِ فَيَبْخَسُ ثَمَنَهُ عَلَى بَائِعِهِ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ فَوَائِدُ ٱلفِلاحَةِ وَمُغَلُّهَا كُلُّهُ مِنْ زَرْعٍ أَوْ حَرِيرٍ أَوْ عَسَلٍ أَوْ سُكَّرٍ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ

الغَلّاتِ وَحصَلَتْ بضَائعُ التِّجارَةِ مِنْ سَائِرِ الأنْوَاعِ فلا يَنْتَظِرُونَ بِهِ حَوالَةَ الأسْوَاقِ وَلا نفَاقَ البِيَاعَاتِ لِمَا يَدْعُوهُمْ إلَيْهِ تَكَالِيفُ الدَّوْلَةِ فيكلِّفونَ أهْلَ تِلْكَ الأصْنَافِ مِن تاجِرٍ أوْ فَلّاحٍ بِشِرَاءِ تِلْكَ البَضَائعِ وَلا يَرْضَوْنَ في أثْمَانِهَا إلّا القِيَمَ وَأزْيَدَ فَيَسْتَوْعِبُونَ في ذٰلِكَ نَاضَّ أموالِهِمْ وَتَبْقَى تِلْكَ البَضَائعُ بِأيْدِيهِمْ عُرُوضاً جامِدَةً وَيَمْكُثُونَ عُطْلاً مِنَ الإدارَةِ الَّتي فِيهَا كَسْبُهُمْ وَمَعَاشُهُمْ وَرُبَّمَا تَدْعُوهُمُ الضَّرُورَةُ إلى شَيْءٍ مِنَ المَالِ فَيَبِيعُونَ تِلْكَ السِّلَعَ عَلَى كَسَادٍ مِنَ الأسْوَاقِ بِأبْخَسِ ثَمَنٍ وَرُبَّمَا يَتَكَرَّرُ ذٰلِكَ عَلى التَّاجِرِ وَالفَلّاحِ مِنْهُمْ بِمَا يُذْهِبُ رَأْسَ مَالِهِ فَيَقْعُدُ عَنْ سُوقِهِ وَيَتَعَدَّدُ ذٰلِكَ وَيَتَكَرَّرُ وَيَدْخُلُ بِهِ عَلَى الرَّعَايَا مِنَ العَنَتِ وَالمُضَايَقَةِ وَفَسَادِ الأرْبَاحِ مَا يَقْبِضُ آمالَهُمْ عَنِ السَّعْيِ في ذٰلِكَ جُمْلَةً وَيُؤَدِّي إلى فَسَادِ الجِبَايَةِ فَإنَّ مُعْظَمَ الجِبَايَةِ إنَّمَا هِيَ مِنَ الفَلّاحِينَ وَالتُّجَّارِ وَلا سِيَّمَا بَعْدَ وَضْعِ المُكُوسِ وَنُمُوِّ الجِبَايَةِ بِهَا فَإذَا انْقَبَضَ الفَلّاحُونَ عَنِ الفِلاحَةِ وَقَعَدَ التُّجَّارُ عَنِ التِّجارَةِ وَذَهَبَتِ الجِبَايَةُ جُمْلَةً أوْ دَخَلَهَا النَّقْصُ المُتَفَاحِشُ وَإذَا قَايَسَ السُّلْطَانُ بَيْنَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الجِبَايَةِ وَبَيْنَ هٰذِهِ الأرْبَاحِ القَلِيلَةِ وَجَدَهَا بِالنِّسْبَةِ إلى الجِبَايَةِ أقَلَّ مِنَ القَلِيلِ ثُمَّ إنَّهُ وَلَوْ كَانَ مُفِيداً فَيَذْهَبُ لَهُ بِحَظٍّ عَظِيمٍ مِنَ الجِبَايَةِ فِيمَا يُعَانِيهِ مِنْ شِرَاءٍ أوْ بَيْعٍ فَإنَّهُ مِنَ البَعِيدِ أنْ يُوجَدَ فِيهِ مِنَ المَكْسِ وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ في تِلْكَ الصَّفَقَاتِ لَكَانَ تَكَسُّبُهَا كُلُّهَا حَاصِلاً مِنْ جِهَةِ الجِبَايَةِ ثُمَّ فِيهِ التَّعَرُّضُ لِأهْلِ عُمْرَانِهِ وَاخْتِلالُ الدَّوْلَةِ بِفَسَادِهِمْ وَنَقْصِهِمْ فَإنَّ الرَّعَايَا إذَا قَعَدُوا عَنْ تَثْمِيرِ أمْوَالِهِمْ بِالفِلاحَةِ وَالتِّجارَةِ نَقَصَتْ وَتَلاشَتْ بِالنَّفَقَاتِ وَكَانَ فِيهَا تَلافُ أحْوَالِهِمْ فَافْهَمْ ذٰلِكَ وَكَانَ الفُرْسُ لا يُمَلِّكُونَ عَلَيْهِمْ إلّا مِنْ أهْلِ بَيْتِ المَمْلَكَةِ ثُمَّ يَخْتَارُونَهُ مِنْ أهْلِ الفَضْلِ وَالدِّينِ وَالأدَبِ وَالسَّخَاءِ وَالشَّجَاعَةِ وَالكَرَمِ ثُمَّ يَشْتَرِطُونَ عَلَيْهِ مَعَ ذٰلِكَ العَدْلَ وَأنْ لا يَتَّخِذَ صَنْعَةً فَيُضِرَّ بِجِيرَانِهِ وَلا يُتَاجِرَ فَيُحِبَّ غَلاءَ الأسْعَارِ في البَضَائعِ وَأنْ لا يَسْتَخْدِمَ العَبِيدَ فَإنَّهُمْ لا يُشِيرُونَ بِخَيْرٍ وَلا مَصْلَحَةٍ. وَاعْلَمْ أنَّ السُّلْطَانَ لا يُنَمِّي مَالَهُ وَلا يُدِرُّ مَوْجُودَهُ إلّا الجِبَايَةُ وَإدْرَارُهَا إنَّمَا يَكُونُ بِالعَدْلِ في أهْلِ الأمْوَالِ وَالنَّظَرِ لَهُمْ بِذٰلِكَ فَبِذٰلِكَ تَنْبَسِطُ آمَالُهُمْ وَتَنْشَرِحُ صُدُورُهُمْ لِلأخْذِ في تَثْمِيرِ الأمْوَالِ وَتَنْمِيَتِهَا فَتَعْظُمُ مِنْهَا جِبَايَةُ السُّلْطَانِ وَأمَّا غَيْرُ ذٰلِكَ مِنْ تِجارَةٍ أوْ فَلْحٍ فَإنَّمَا هُوَ مَضَرَّةٌ عَاجِلَةٌ لِلرَّعَايَا وَفَسَادٌ لِلجِبَايَةِ وَنَقْصٌ لِلعِمَارَةِ وَقَدْ يَنْتَهِي الحَالُ بِهٰؤُلاءِ المُنْسَلِخِينَ لِلتِّجارَةِ

وَالْفِلاَحَةِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْمُتَغَلِّبِينَ فِي الْبُلْدَانِ أَنَّهُمْ يَتَعَرَّضُونَ لِشِرَاءِ الْغَلاَّتِ وَالسِّلَعِ مِنْ أَرْبَابِهَا الْوَارِدِينَ عَلَى بَلَدِهِمْ وَيَفْرُضُونَ لِذَلِكَ مِنَ الثَّمَنِ مَا يَشَاؤُونَ وَيَبِيعُونَهَا فِي وَقْتِهَا لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الرَّعَايَا بِمَا يَفْرِضُونَ مِنَ الثَّمَنِ وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى وَأَقْرَبُ إِلَى فَسَادِ الرَّعِيَّةِ وَاخْتِلاَلِ أَحْوَالِهِمْ وَرُبَّمَا يَحْمِلُ السُّلْطَانَ عَلَى ذَلِكَ مَنْ يُدَاخِلُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَعْنِي التُّجَّارَ وَالْفَلاَّحِينَ لِمَا هِيَ صِنَاعَتُهُ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا فَيَحْمِلُ السُّلْطَانَ عَلَى ذَلِكَ وَيَضْرِبُ مَعَهُ بِسَهْمٍ لِنَفْسِهِ لِيَحْصُلَ عَلَى غَرَضِهِ مِنْ جَمْعِ الْمَالِ سَرِيعاً وَلاَ سِيَّمَا مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ التِّجَارَةِ بِلاَ مَغْرَمٍ وَلاَ مَكْسٍ فَإِنَّهَا أَجْدَرُ بِنُمُوِّ الْأَمْوَالِ وَأَسْرَعُ فِي تَثْمِيرِهِ وَلاَ يَفْهَمُ مَا يَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ مِنَ الضَّرَرِ بِنَقْصِ جِبَايَتِهِ فَيَنْبَغِي لِلسُّلْطَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هَؤُلاَءِ وَيُعْرِضَ عَنْ سِعَايَتِهِمِ الْمُضِرَّةِ بِجِبَايَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَاللَّهُ يُلْهِمُنَا رُشْدَ أَنْفُسِنَا وَيَنْفَعُنَا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل الواحد والاربعون

في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْجِبَايَةَ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ تَتَوَزَّعُ عَلَى أَهْلِ الْقَبِيلِ وَالْعَصَبِيَّةِ بِمِقْدَارِ غِنَائِهِمْ وَعَصَبِيَّتِهِمْ وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ فِي تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ فَرَئِيسُهُمْ فِي ذَلِكَ مُتَجَافٍ لَهُمْ عَمَّا يَسْمُونَ إِلَيْهِ مِنَ الاِسْتِبْدَادِ عَلَيْهِمْ فَلَهُ عَلَيْهِمْ عِزَّةٌ وَلَهُ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ فَلاَ يَطِيرُ فِي سُهْمَانِهِ مِنَ الْجِبَايَةِ إِلاَّ الْأَقَلُّ مِنْ حَاجَتِهِ فَتَجِدُ حَاشِيَتَهُ لِذَلِكَ وَأَذْيَالَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكُتَّابِ وَالْمَوَالِي مُتَمَلِّقِينَ فِي الْغَالِبِ وَجَاهُهُمْ مُتَقَلِّصٌ لِأَنَّهُ مِنْ جَاهِ مَخْدُومِهِمْ وَنِطَاقُهُ قَدْ ضَاقَ بِمَنْ يُزَاحِمُهُ فِيهِ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ فَإِذَا اسْتَفْحَلَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ وَحَصَلَ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ الاِسْتِبْدَادُ عَلَى قَوْمِهِ قَبَضَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْجِبَايَاتِ إِلاَّ مَا يَطِيرُ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي سُهْمَانِهِمْ وَتَقِلُّ حُظُوظُهُمْ إِذْ ذَاكَ لِقِلَّةِ غِنَائِهِمْ فِي الدَّوْلَةِ بِمَا انْكَبَحَ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَصَارَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعُ مُسَاهِمِينَ لَهُمْ فِي الْقِيَامِ بِالدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ الْأَمْرِ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ بِالْجِبَايَةِ أَوْ مُعْظَمِهَا وَيَحْتَوِي عَلَى الْأَمْوَالِ وَيَحْتَجِنُهَا لِلنَّفَقَاتِ فِي مُهِمَّاتِ الْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ ثَرْوَتُهُ وَتَمْتَلِئُ خَزَائِنُهُ وَيَتَّسِعُ نِطَاقُ جَاهِهِ وَيَعْتَزُّ عَلَى سَائِرِ قَوْمِهِ فَيَعْظُمُ حَالُ حَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ مِنْ وَزِيرٍ وَكَاتِبٍ وَحَاجِبٍ وَمَوْلًى وَشُرْطِيٍّ وَيَتَّسِعُ جَاهُهُمْ وَيَقْتَنُونَ الْأَمْوَالَ وَيَتَأَثَّلُونَهَا ثُمَّ إِذَا أَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فِي

ٱلهَرَم بِتَلاشِي ٱلعَصَبيَّةِ وَفَنَاءِ ٱلقَلِيلِ ٱلمُمَاهِدِينَ لِلدَّوْلَةِ ٱحتَاجَ صَاحِبُ ٱلأَمْرِ حِينَئِذٍ إِلَى ٱلأَعْوَانِ وَٱلأَنصَارِ لِكَثْرَةِ ٱلخَوَارِجِ وَٱلمُنَازِعِينَ وَٱلثُّوَّارِ وَتَوَهُّمِ ٱلإِنْتِقَاضِ فَصَارَ خَرَاجُهُ لِظُهَرَائِهِ وَأَعْوَانِهِ وَهُمْ أَرْبَابُ ٱلسُّيُوفِ وَأَهْلُ ٱلعَصَبِيَّاتِ وَأَنفَقَ خَزَائِنَهُ وَحَاصِلَهُ فِي مُهِمَّاتِ ٱلدَّوْلَةِ وَقَلَّتْ مَعَ ذَلِكَ ٱلجِبَايَةُ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلعَطَاءِ وَٱلإِنْفَاقِ فَيَقِلُّ ٱلخَرَاجُ وَتَشْتَدُّ حَاجَةُ ٱلدَّوْلَةِ إِلَى ٱلمَالِ فَيَتَقَلَّصُ ظِلُّ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلتَّرَفِ عَنِ ٱلخَوَاصِّ وَٱلحُجَّابِ وَٱلكُتَّابِ بِتَقَلُّصِ ٱلجَاهِ عَنْهُمْ وَضِيقِ نِطَاقِهِ عَلَى صَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ ثُمَّ تَشْتَدُّ حَاجَةُ صَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ إِلَى ٱلمَالِ وَتُنْفِقُ أَبْنَاءُ ٱلبِطَانَةِ وَٱلحَاشِيَةِ مَا تَأَثَّلَهُ آبَاؤُهُمْ مِنَ ٱلأَمْوَالِ فِي غَيْرِ سَبِيلِهَا مِنْ إِعَانَةِ صَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ وَيُقْبِلُونَ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُم وَسَلَفُهُمْ مِنَ ٱلمُنَاصَحَةِ وَيَرَى صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ أَنَّهُ أَحَقُّ بِتِلْكَ ٱلأَمْوَالِ ٱلَّتِي ٱكْتُسِبَتْ فِي دَوْلَةِ سَلَفِهِ وَبِجَاهِهِمْ فَيَصْطَلِمُهَا وَيَنْتَزِعُهَا مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ شَيْئاً فَشَيْئاً وَوَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ عَلَى نِسْبَةِ رُتَبِهِمْ وَتَتَنَكَّرُ ٱلدَّوْلَةُ لَهُمْ وَيَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ بِفَنَاءِ حَاشِيَتِهَا وَرِجَالَاتِهَا وَأَهْلِ ٱلثَّرْوَةِ وَٱلنِّعْمَةِ مِنْ بِطَانَتِهَا وَيَتَقَوَّضُ بِذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ مَبَانِي ٱلمَجْدِ بَعْدَ أَنْ يَدْعَمَهُ أَهْلُهُ وَيَرْفَعُوهُ . وَٱنْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ لِوُزَرَاءِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلعَبَّاسِيَّةِ فِي بَنِي قَحْطَبَةَ وَبَنِي بَرْمَكَ وَبَنِي سَهْلٍ وَبَنِي طَاهِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ ثُمَّ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلأُمَوِيَّةِ بِٱلأَنْدَلُسِ عِنْدَ ٱنْحِلَالِهَا أَيَّامَ ٱلطَّوَائِفِ فِي بَنِي شُهَيْدٍ وَبَنِي أَبِي عَبْدَةَ وَبَنِي حُدَيْرٍ وَبَنِي بُرْدٍ وَأَمْثَالِهِمْ وَكَذَا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي أَدْرَكْنَاهَا لِعَهْدِنَا سُنَّةَ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ

فصل * وَلِمَا يَتَوَقَّعُهُ أَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلمَعَاطِبِ صَارَ ٱلكَثِيرُ مِنْهُم يَنْزِعُونَ إِلَى ٱلفِرَارِ عَنِ ٱلرُّتَبِ وَٱلتَّخَلُّصِ مِنْ رِبْقَةِ ٱلسُّلْطَانِ بِمَا حَصَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ مَالِ ٱلدَّوْلَةِ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ وَيَرَوْنَ أَنَّهُ أَهْنَأُ لَهُمْ وَأَسْلَمُ فِي إِنْفَاقِهِ وَحُصُولِ ثَمَرَتِهِ وَهُوَ مِنَ ٱلأَغْلَاطِ ٱلفَاحِشَةِ وَٱلأَوْهَامِ ٱلمُفْسِدَةِ لِأَحْوَالِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلخَلَاصَ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ ٱلحُصُولِ فِيهِ عَسِيرٌ مُمْتَنِعٌ فَإِنَّ صَاحِبَ هٰذَا ٱلغَرَضِ إِذَا كَانَ هُوَ ٱلمَلِكُ نَفْسُهُ فَلَا تُمَكِّنُهُ ٱلرَّعِيَّةُ مِنْ ذَلِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَهْلُ ٱلعَصَبِيَّةِ ٱلمُزَاحِمُونَ لَهُ بَلْ فِي ظُهُورِ ذَلِكَ مِنْهُ هَدْمٌ لِمُلْكِهِ وَإِتْلَافٌ لِنَفْسِهِ بِمَجَارِي ٱلعَادَةِ بِذَلِكَ لِأَنَّ رِبْقَةَ ٱلمُلْكِ يَعْسُرُ ٱلخَلَاصُ مِنْهَا وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ ٱسْتِفْحَالِ ٱلدَّوْلَةِ وَضِيقِ نِطَاقِهَا وَمَا يَعْرِضُ فِيهَا مِنَ ٱلبُعْدِ عَنِ ٱلمَجْدِ وَٱلخِلَالِ وَٱلتَّخَلُّقِ بِٱلشَّرِّ وَأَمَّا إِذَا كَانَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلغَرَضِ مِنْ بِطَانَةِ ٱلسُّلْطَانِ

وَحَاشِيَتِهِ وَأَهلِ ٱلرُّتَبِ في دَوْلَتِهِ فَقَلَّ أَنْ يَخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذٰلِكَ أَمَّا أَوَّلاً فَلِمَا يَرَاهُ ٱلْمُلُوكُ أَنَّ ذَوِيهِمْ وَحَاشِيَتَهُمْ بَلْ وَسَائِرَ رَعَايَاهُمْ مَمَالِيكُ لَهُمْ مُطَّلِعُونَ عَلى ذَاتِ صُدُورِهِمْ فلا يَسْمَحُونُ بِحَلِّ رِبْقَتِهِ مِنَ ٱلْخِدْمَةِ ضِنًّا بِأَسْرَارِهِمْ وَأَحوالِهِمْ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهَا أَحدٌ وَغِيرَةً مِنْ خِدْمَتِهِ لِسِوَاهُمْ وَلَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ بِالأَنْدَلُسِ يَمْنَعُونَ أَهلَ دَوْلَتِهِمْ مِنَ ٱلسَّفَرِ لِفَرِيضَةِ ٱلحَجِّ لِمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ وُقُوعِهِمْ بِأَيْدِي بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فَلَمْ يَحُجَّ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ أَحدٌ مِنْ أَهلِ دَوْلَتِهِمْ وَمَا أُبِيحَ ٱلحَجُّ لِأَهلِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ شَأْنِ ٱلأُمَوِيَّةِ وَرُجُوعِهَا إِلى ٱلطَّوَائِفِ وَأَمَّا ثَانِياً فَلِأَنَّهُمْ وَإِنْ سَمَحُوا بِحَلِّ رِبْقَتِهِ فَلا يَسْمَحُونَ بِالتَّجَافِي عَنْ ذٰلِكَ ٱلمَالِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ مَالِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ دَوْلَتِهِمْ إِذْ لَمْ يُكْتَسَبْ إِلَّا بِهَا وَفي ظِلِّ جَاهِهَا فَتَحُومُ نُفُوسُهُمْ عَلى ٱنْتِزَاعِ ذٰلِكَ ٱلمَالِ وَٱلْتِقَامِهِ كَمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ يَنْتَفِعُونَ بِهِ ثُمَّ إِذَا تَوَهَّمْنَا أَنَّهُ خَلَصَ بِذٰلِكَ ٱلمَالِ إِلى قُطْرٍ آخَرَ وَهُوَ في ٱلنَّادِرِ ٱلأَقَلِّ فَتَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْيُنُ ٱلْمُلُوكِ بِذٰلِكَ ٱلقُطْرِ وَيَنْتَزِعُونَهُ بِٱلإِرْهَابِ وَٱلتَّخْوِيفِ تَعْرِيضاً أَوْ بِٱلْقَهْرِ ظَاهِراً لِمَا يَرَوْنَ أَنَّهُ مَالُ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلدُّوَلِ وَأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلإِنْفَاقِ في ٱلمَصَالِحِ وَإِذَا كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ تَمْتَدُّ إِلى أَهلِ ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ ٱلمُتَكَسِّبِينَ مِنْ وُجُوهِ ٱلمَعَاشِ فَأَحْرَى بِنَا أَنْ تَمْتَدَّ إِلى أَمْوَالِ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلدُّوَلِ ٱلَّتِي تَجِدُ ٱلسَّبِيلَ إِلَيْهِ بِٱلشَّرْعِ وَٱلعَادَةِ وَلَقَدْ حَاوَلَ ٱلسُّلْطَانُ أَبو يَحْيَى زَكَرِيَّا بْنُ أَحْمَدَ ٱللِّحْيَانِيُّ تَاسِعُ أَوْ عَاشِرُ مُلُوكِ ٱلحَفْصِيِّينَ بِأَفرِيقَةَ ٱلخُرُوجَ عَنْ عِهْدَةِ ٱلمُلْكِ وَٱللِّحَاقِ بِمِصْرَ فِرَاراً مِنْ طَلَبِ صَاحِبِ ٱلثُّغُورِ ٱلغَرْبِيَّةِ لَمَّا ٱسْتَجْمَعَ لِغَزْوِ تُونِسَ فَٱسْتَعْمَلَ ٱللِّحْيَانِيُّ ٱلرِّحْلَةَ إِلى ثَغْرِ طَرَابُلُسَ يُوَرِّي بِتَمْهِيدِهِ وَرَكِبَ ٱلسُّفُنَ مِنْ هُنَالِكَ وَخَلَصَ إِلى ٱلإِسْكَنْدَرِيَّةِ بَعْدَ أَنْ حَمَلَ جَمِيعَ مَا وَجَدَهُ بِبَيْتِ ٱلمَالِ مِنَ ٱلصَّامِتِ وَٱلذَّخِيرَةِ وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ بِخَزَائِنِهِمْ مِنَ ٱلمَتَاعِ وَٱلعَقَارِ وَٱلجَوْهَرِ حَتَّى ٱلكُتُبِ وَٱحْتَمَلَ ذٰلِكَ كُلَّهُ إِلى مِصْرَ وَنَزَلَ عَلى ٱلمَلِكِ ٱلنَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلاوُونَ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلمِائَةِ ٱلثَّامِنَةِ فَأَكْرَمَ نُزُلَهُ وَرَفَعَ مَجْلِسَهُ وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَخْلِصُ ذَخِيرَتَهُ شَيْئاً فَشَيْئاً بِٱلتَّعْرِيضِ إِلى أَنْ حَصَلَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ مَعَاشُ ٱبْنِ ٱللِّحْيَانِيِّ إِلَّا في جِرَايَتِهِ ٱلَّتِي فَرَضَ لَهُ إِلى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ حَسْبَمَا نَذْكُرُهُ في أَخْبارِهِ فَهٰذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلوَسْوَاسِ ٱلَّذِي يَعْتَرِي أَهلَ ٱلدُّوَلِ لِمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ مُلُوكِهِمْ مِنَ ٱلمَعَاطِبِ وَإِنَّمَا يَخْلُصُونَ إِنِ ٱتَّفَقَ لَهُمُ ٱلخَلاصُ بِأَنْفُسِهِمْ

وَمَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنَ ٱلحَاجَةِ فَغَلَطٌ وَوَهْمٌ وَٱلَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنَ ٱلشُّهْرَةِ بِخِدْمَةِ ٱلدُّوَلِ كَافٍ فِي وِجْدَانِ ٱلمَعَاشِ لَهُمْ بِٱلجِرَايَاتِ ٱلسُّلطَانِيَّةِ أَوْ بِٱلجَاهِ فِي ٱنْتِحَالِ طُرُقِ ٱلكَسْبِ مِنَ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلفِلاحَةِ وَٱلدُّوَلُ أَنْسَابٌ لَكِنْ

أَلنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا ‌ ‌ ‌ وَإِذَا تُرَدُّ إِلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وَٱللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ وَهُوَ ٱلمُوَفِّقُ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَٱللهُ أَعْلَمُ

الفصل الثاني والاربعون

في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ وَٱلسُّلْطَانَ هِيَ ٱلسُّوقُ ٱلأَعْظَمُ لِلعَالَمِ وَمِنْهُ مَادَّةُ ٱلعُمْرَانِ فَإِذَا ٱحْتَجَنَ ٱلسُّلْطَانُ ٱلأَمْوَالَ أَوِ ٱلجِبَايَاتِ أَوْ فُقِدَتْ فَلَمْ يَصْرِفْهَا فِي مَصَارِفِهَا قَلَّ حِينَئِذٍ بِأَيْدِي ٱلحَاشِيَةِ وَٱلحَامِيَةِ وَٱنْقَطَعَ أَيْضاً مَا كَانَ يَصِلُ مِنْهُمْ لِحَاشِيَتِهِمْ وَذَوِيهِمْ وَقَلَّتْ نَفَقَاتُهُمْ جُمْلَةً وَهُمْ مُعْظَمُ ٱلسَّوَادِ وَنَفَقَاتُهُمْ أَكْثَرُ مَادَّةً لِلأَسْوَاقِ مِمَّنْ سِوَاهُمْ فَيَقَعُ ٱلكَسَادُ حِينَئِذٍ فِي ٱلأَسْوَاقِ وَتَضْعُفُ ٱلأَرْبَاحُ فِي ٱلمَتَاجِرِ فَيَقِلُّ ٱلخَرَاجُ لِذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلخَرَاجَ وَٱلجِبَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ ٱلاعْتِمَارِ وَٱلمُعَامَلاتِ وَنَفَاقِ ٱلأَسْوَاقِ وَطَلَبِ ٱلنَّاسِ لِلفَوَائِدِ وَٱلأَرْبَاحِ وَوَبَالُ ذٰلِكَ عَائِدٌ عَلى ٱلدَّوْلَةِ بِٱلنَّقْصِ لِقِلَّةِ أَمْوَالِ ٱلسُّلْطَانِ حِينَئِذٍ بِقِلَّةِ ٱلخَرَاجِ فَإِنَّ ٱلدَّوْلَةَ كَمَا قُلْنَاهُ هِيَ ٱلسُّوقُ ٱلأَعْظَمُ أُمُّ ٱلأَسْوَاقِ كُلِّهَا وَأَصْلُهَا وَمَادَّتُهَا فِي ٱلدَّخْلِ وَٱلخَرْجِ فَإِنْ كَسَدَتْ وَقَلَّتْ مَصَارِفُهَا فَأَجْدِرْ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلأَسْوَاقِ أَنْ يَلْحَقَهَا مِثْلُ ذٰلِكَ وَأَشَدُّ مِنْهُ وَأَيْضاً فَٱلمَالُ إِنَّمَا هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلسُّلْطَانِ مِنْهُمْ إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا حَبَسَهُ ٱلسُّلْطَانُ عِنْدَهُ فَقَدَتْهُ ٱلرَّعِيَّةُ سُنَّةُ ٱللهِ فِي عِبَادِهِ

الفصل الثالث والاربعون

في ان الظلم موذن بخراب العمران

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلعُدْوَانَ عَلى ٱلنَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ ذَاهِبٌ بِآمَالِهِمْ فِي تَحْصِيلِهَا وَٱكْتِسَابِهَا لِمَا يَرَوْنَهُ حِينَئِذٍ مِنْ أَنَّ غَايَتَهَا وَمَصِيرَهَا ٱنْتِهَابُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَإِذَا ذَهَبَتْ آمَالُهُمْ فِي ٱكْتِسَابِهَا وَتَحْصِيلِهَا ٱنْقَبَضَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ ٱلسَّعْيِ فِي ذٰلِكَ وَعَلى قَدَرِ ٱلاعْتِدَاءِ وَنِسْبَتِهِ يَكُونُ ٱنْقِبَاضُ ٱلرَّعَايَا عَنِ ٱلسَّعْيِ فِي ٱلاكْتِسَابِ فَإِذَا كَانَ ٱلاعْتِدَاءُ كَثِيراً عَامًّا فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ ٱلمَعَاشِ كَانَ ٱلقُعُودُ عَنِ ٱلكَسْبِ كَذٰلِكَ لِذَهَابِهِ بِٱلآمَالِ جُمْلَةً بِدُخُولِهِ

،ن جميع أبوابها وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال وانذعر الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق [فيما خرج عن نطاقها فخف ساكن القطر وخلت دياره وخرجت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له إن بوماً ذكراً يروم نكاح بوم أنثى وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام فتنبه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيماً وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع من أيدي الخاصة وردت على أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوي

من ضعف منهم فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران وأن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض ولا تنظر في ذلك إلى أن الاعتداء قد يوجد بالأمصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب واعلم أن ذلك إنما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله متسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً لأن النقص إنما يقع بالتدريج فإذا خفي بكثرة الأحوال واتساع الأعمال في المصر لم يظهر أثره إلا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الأخرى فترفعه بجدتها وتجبر النقص الذي كان خفياً فيه فلا يكاد يشعر به إلا أن ذلك في الأقل النادر والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه ووباله عائد على الدول ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم أعم من ذلك وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه فجباة الأموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق الناس ظلمة وغصاب الأملاك على العموم ظلمة ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهماً وأدلته من القرآن والسنة كثيرة أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر ولو كان كل واحد قادراً على الظلم لوضع بإزائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بإزاء غيره من المفسدات للنوع التي يقدر كل أحد على

أقترافها من الزنا والقتل والسكر إلا أن الظلم لا يقدر عليه إلا من يقدر عليه لأنه إنما يقع من أهل القدرة والسلطان فبولغ في ذمه وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع فيه للقادر عليه في نفسه وما ربك بظلام للعبيد. ولا تقولن إن العقوبة قد وضعت بإزاء الحرابة في الشرع وهي من ظلم القادر لأن المحارب زمن حرابته قادر فإن في الجواب عن ذلك طريقين : أحدهما أن تقول العقوبة على ما يقترفه من الجنايات في نفس أموال على ما ذهب إليه كثير وذلك إنما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته وأما نفس الحرابة فهي خلو من العقوبة الطريق الثاني أن تقول المحارب لا يوصف بالقدرة لأنا إنما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة بالخراب وأما قدرة المحارب فإنما هي إخافة يجعلها ذريعة لأخذ الأموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعاً وسياسة فليست من القدر المؤذن بالخراب والله قادر على ما يشاء . ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق لأن الرزق والكسب إنما هو قيم أعمال أهل العمران فإذا مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخرياً في معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى ذلك إلى انتقاض العمران وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع وربما تفرض عليهم تلك الأثمان على التواحي والتعجيل فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطامع من جبر ذلك بحوالة الأسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤوس أموالهم وقد يعم ذلك أصناف

ٱلتُّجَّارِ ٱلْمُقِيمِينَ بِٱلْمَدِينَةِ وَٱلْوَارِدِينَ مِنَ ٱلْآفَاقِ فِي ٱلْبَضَائِعِ وَسَائِرِ ٱلسُّوقَةِ وَأَهْلِ ٱلدَّكَاكِينِ فِي ٱلْمَآكِلِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَأَهْلِ ٱلصَّنَائِعِ فِيمَا يُتَّخَذُ مِنَ ٱلْآلَاتِ وَٱلْمَوَاعِينِ فَتَشْمُلُ ٱلْخَسَارَةُ سَائِرَ ٱلْأَصْنَافِ وَٱلطَّبَقَاتِ وَتَتَوَالَى عَلَى ٱلسَّاعَاتِ وَتُجْحِفُ بِرُؤُوسِ ٱلْأَمْوَالِ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا وَلِيجَةً إِلَّا ٱلْقُعُودَ عَنِ ٱلْأَسْوَاقِ لِذَهَابِ رُؤُوسِ ٱلْأَمْوَالِ فِي جَبْرِهَا بِٱلْأَرْبَاحِ وَيَتَثَاقَلُ ٱلْوَارِدُونَ مِنَ ٱلْآفَاقِ لِشِرَاءِ ٱلْبَضَائِعِ وَبَيْعِهَا مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ فَتَكْسُدُ ٱلْأَسْوَاقُ وَيَبْطُلُ مَعَاشُ ٱلرَّعَايَا لِأَنَّ عَامَّتَهُ مِنَ ٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْأَسْوَاقُ عُطُلًا مِنْهَا بَطَلَ مَعَاشُهُمْ وَتَنْقُصُ جِبَايَةُ ٱلسُّلْطَانِ أَوْ تَفْسُدُ لِأَنَّ مُعْظَمَهَا مِنْ أَوْسَطِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَا بَعْدَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ ٱلْمُكُوسِ عَلَى ٱلْبِيَاعَاتِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَيَؤُولُ ذَٰلِكَ إِلَى تَلَاشِي ٱلدَّوْلَةِ وَفَسَادِ عُمْرَانِ ٱلْمَدِينَةِ وَيَتَطَرَّقُ هَٰذَا ٱلْخَلَلُ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ وَلَا يُشْعَرُ بِهِ هَٰذَا مَا كَانَ بِأَمْثَالِ هَٰذِهِ ٱلذَّرَائِعِ وَٱلْأَسْبَابِ إِلَى أَخْذِ ٱلْأَمْوَالِ وَأَمَّا أَخْذُهَا مَجَّانًا وَٱلْعُدْوَانُ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحُرَمِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ فَهُوَ يُفْضِي إِلَى ٱلْخَلَلِ وَٱلْفَسَادِ دَفْعَةً وَتَنْتَقِضُ ٱلدَّوْلَةُ سَرِيعًا بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ ٱلْهَرْجِ ٱلْمُفْضِي إِلَى ٱلِٱنْتِقَاضِ وَمِنْ أَجْلِ هَٰذِهِ ٱلْمَفَاسِدِ حَظَرَ ٱلشَّرْعُ ذَٰلِكَ كُلَّهُ وَشَرَعَ ٱلْمُكَايَسَةَ فِي ٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَحَظَرَ أَكْلَ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ سَدًّا لِأَبْوَابِ ٱلْمَفَاسِدِ ٱلْمُفْضِيَةِ إِلَى ٱنْتِقَاضِ ٱلْعُمْرَانِ بِٱلْهَرْجِ أَوْ بُطْلَانِ ٱلْمَعَاشِ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّاعِيَ لِذَٰلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ حَاجَةُ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلسُّلْطَانِ إِلَى ٱلْإِكْثَارِ مِنَ ٱلْمَالِ بِمَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّرَفِ فِي ٱلْأَحْوَالِ فَتَكْثُرُ نَفَقَاتُهُمْ وَيَعْظُمُ ٱلْخَرْجُ وَلَا يَفِي بِهِ ٱلدَّخْلُ عَلَى ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُعْتَادَةِ يَسْتَحْدِثُونَ أَلْقَابًا وَوُجُوهًا يُوَسِّعُونَ بِهَا ٱلْجِبَايَةَ لِيَفِيَ لَهُمُ ٱلدَّخْلُ بِٱلْخَرْجِ ثُمَّ لَا يَزَالُ ٱلتَّرَفُ يَزِيدُ وَٱلْخَرْجُ بِسَبَبِهِ يَكْثُرُ وَٱلْحَاجَةُ إِلَى أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ تَشْتَدُّ وَنِطَاقُ ٱلدَّوْلَةِ بِذَٰلِكَ يَزِيدُ إِلَى أَنْ تَمَّحِيَ دَائِرَتُهَا وَيَذْهَبَ بِرَسْمِهَا وَيَغْلِبَهَا طَالِبُهَا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

الفصل الرابع والاربعون

في ان الحجاب كيف يقع في الدول وفي انه يعظم عند الهرم

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَكُونُ بَعِيدَةً عَنْ مَنَازِعِ ٱلْمُلْكِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلَّتِي بِهَا يَتِمُّ أَمْرُهَا وَيَحْصُلُ ٱسْتِيلَاؤُهَا وَٱلْبِدَاوَةُ هِيَ شِعَارُ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلدَّوْلَةُ إِنْ كَانَ قِيَامُهَا بِٱلدِّينِ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنْ مَنَازِعِ ٱلْمُلْكِ وَإِنْ كَانَ قِيَامُهَا

بعز الغلب فقط فالبداوة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضاً عن منازع الملك ومذاهبه فإذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة والقرب من الناس وسهولة الإذن فإذا رسخ عزه وصار إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه في خواص شؤونه لما يكثر حينئذ بحاشيته فيطلب الانفراد من العامة ما استطاع ويتخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته ويتخذ حاجباً له عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة ثم إذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت أخلاق صاحب الدولة إلى أخلاق الملك وهي أخلاق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها إلى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها وربما جهل تلك الأخلاق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فسخطوا وصاروا إلى حالة الانتقام منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم وحجبوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حفظاً على أنفسهم من معاينة ما يسخطهم على الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول يفضي إليهم منه خواصهم من الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الثاني يفضي إلى مجالس الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا كما حدث لأيام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جرياً على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملت خلق الملك على ما يجب فيها فدعا ذلك إلى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب أخص به وصار بباب الخلفاء داران للعباسية دار الخاصة ودار العامة كما هو مسطور في أخبارهم ثم حدث في الدول حجاب ثالث أخص من الأولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة وذلك أن أهل الدولة وخواص الملك إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة أبيه وخواص أوليائه يوهمه أن في مباشرتهم إياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الأدب ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوده ملابسة أخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواه إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في

ٱلْغَالِبِ إِلَّا أَوَاخِرَ ٱلدَّوْلَةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي ٱلْحَجْرِ وَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى هَرَمِ ٱلدَّوْلَةِ وَنَفَادِ قُوَّتِهَا وَهُوَ مِمَّا يَخْشَاهُ أَهْلُ ٱلدُّوَلِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّ ٱلْقَائِمِينَ بِٱلدَّوْلَةِ يُحَاوِلُونَ عَلَى ذٰلِكَ بِطِبَاعِهِمْ عِنْدَ هَرَمِ ٱلدَّوْلَةِ وَذَهَابِ ٱلِاسْتِبْدَادِ مِنْ أَعْقَابِ مُلُوكِهِمْ لِمَا رُكِّبَ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنْ مَحَبَّةِ ٱلِاسْتِبْدَادِ بِٱلْمُلْكِ وَخُصُوصاً مَعَ ٱلتَّرْشِيحِ لِذٰلِكَ وَحُصُولِ دَوَاعِيهِ وَمَبَادِيهِ

الفصل الخامس والاربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

إِعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَقَعُ مِنْ آثَارِ ٱلْهَرَمِ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱنْقِسَامُهَا وَذٰلِكَ إِنَّ ٱلْمُلْكَ عِنْدَ مَا يَسْتَفْحِلُ وَيَبْلُغُ مِنْ أَحْوَالِ ٱلتَّرَفِ وَٱلنَّعِيمِ إِلَى غَايَتِهَا وَيَسْتَبِدُّ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ بِٱلْمَجْدِ وَيَنْفَرِدُ بِهِ وَيَأْنَفُ حِينَئِذٍ عَنِ ٱلْمُشَارَكَةِ وَيَصِيرُ إِلَى قَطْعِ أَسْبَابِهَا مَا ٱسْتَطَاعَ بِإِهْلَاكِ مَنِ ٱسْتَرَابَ بِهِ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ ٱلْمُرَشَّحِينَ لِمَنْصِبِهِ فَرُبَّمَا ٱرْتَابَ ٱلْمُسَاهِمُونَ لَهُ فِي ذٰلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَنَزَعُوا إِلَى ٱلْقَاصِيَةِ إِلَيْهِمْ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِثْلَ حَالِهِمْ مِنَ ٱلِاغْتِرَارِ وَٱلِاسْتِرَابَةِ وَيَكُونُ نِطَاقُ ٱلدَّوْلَةِ قَدْ أَخَذَ فِي ٱلتَّضَايُقِ وَرَجَعَ عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ فَيَسْتَبِدُّ ذٰلِكَ ٱلنَّازِعُ مِنَ ٱلْقَرَابَةِ فِيهَا وَلَا يَزَالُ أَمْرُهُ يَعْظُمُ بِتَرَاجُعِ نِطَاقِ ٱلدَّوْلَةِ حَتَّى يُقَاسِمَ ٱلدَّوْلَةَ أَوْ يَكَادَ وَٱنْظُرْ ذٰلِكَ فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ حِينَ كَانَ أَمْرُهَا حَرِيزاً مُجْتَمِعاً وَنِطَاقاً مُمْتَداً فِي ٱلِاتِّسَاعِ وَعَصَبِيَّةُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَاحِدَةٌ غَالِبَةٌ عَلَى سَائِرِ مُضَرَ فَلَمْ يَنْبِضْ عِرْقٌ مِنَ ٱلْخِلَافَةِ سَائِرَ أَيَّامِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بِدْعَةِ ٱلْخَوَارِجِ ٱلْمُسْتَمِيتِينَ فِي شَأْنِ بِدْعَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ لِنَزْعَةِ مُلْكٍ وَلَا رِئَاسَةٍ وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُمْ لِمُزَاحَمَتِهِمُ ٱلْعَصَبِيَّةَ ٱلْقَوِيَّةَ ثُمَّ لَمَّا خَرَجَ ٱلْأَمْرُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَٱسْتَقَلَّ بَنُو ٱلْعَبَّاسِ بِٱلْأَمْرِ وَكَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ قَدْ بَلَغَتِ ٱلْغَايَةَ مِنَ ٱلْغَلَبِ وَٱلتَّرَفِ وَأَذِنَتْ بِٱلتَّقَلُّصِ عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ نَزَعَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلُ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ قَاصِيَةِ دَوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِ فَٱسْتَحْدَثَ بِهَا مُلْكاً وَٱقْتَطَعَهَا عَنْ دَوْلَتِهِمْ وَصَيَّرَ ٱلدَّوْلَةَ دَوْلَتَيْنِ ثُمَّ نَزَعَ أَدْرِيسُ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَخَرَجَ بِهِ وَقَامَ بِأَمْرِهِ وَأَمْرِ ٱبْنِهِ مِنْ بَعْدِهِ ٱلْبَرَابِرَةُ مِنْ أَوْرَبَةَ وَمُغِيلَةَ وَزَنَاتَةَ وَٱسْتَوْلَى عَلَى نَاحِيَةِ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ثُمَّ ٱزْدَادَتِ ٱلدَّوْلَةُ تَقَلُّصاً فَٱضْطَرَبَ ٱلْأَغَالِبَةُ فِي ٱلِامْتِنَاعِ عَلَيْهِمْ ثُمَّ خَرَجَ ٱلشِّيعَةُ وَقَامَ بِأَمْرِهِمْ كُتَامَةُ وَصَنْهَاجَةُ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ ثُمَّ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَٱلْحِجَازِ وَغَلَبُوا عَلَى ٱلْأَدَارِسَةِ وَقَسَمُوا ٱلدَّوْلَةَ دَوْلَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ وَصَارَتِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ثَلَاثَ دُوَلٍ دَوْلَةَ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ

مركز العرب وأصلهم ومادتهم الإسلام ودولة بني أمية المجددين بالأندلس لملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة العبيديين بأفريقية ومصر والشام والحجاز ولم تزل هذه الدولة إلى أن أصبح انتزاعها متقاربا أو جميعا وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى وكان بالقاصية بنو ساسان فيما وراء النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقين وعلى بغداد والخلفاء ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضا بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وأفريقية لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك العرب لنفسه ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية واختط القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تيطرى واستحدث ملكا آخر قسيما لملك آل باديس وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها ولم يزل ذلك إلى أن انقرض أمرهما جميعا وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها ثار بأفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكا لأعقابهم بنواحيها ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكرياء يحيى ابن السلطان أبي إسحق إبراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكا بجاية وقسنطينة وما إليها أورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولوا على كرسي الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاث وفي غير أعياص الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالأندلس وملوك العجم بالمشرق وفي ملك صنهاجة بأفريقية فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون أفريقية ثائر مستقل بأمره كما تقدم ذكره وكذا حال الجريد والزاب من أفريقية قبيل هذا العهد كما نذكره وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن تعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب فينقسم أعياصها أو من يغلب من رجال دولتها الأمر ويتعدد فيها الدول والله وارث الأرض ومن عليها

الفصل السادس والاربعون

في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم وأسبابه واحدا بعد واحد وبينا أنها

تحدثُ لِلدَّوْلَةِ بِالطَّبعِ وَأَنها كُلّها أُمورٌ طَبيعيَّةٌ لها وَإِذَا كانَ الْهَرَمُ طَبيعياً في الدَّوْلَة كانَ حُدوثُهُ بِمَثَابَةِ حُدوثِ الأُمورِ الطَّبِيعِيَّةِ كَمَا يَحْدُثُ الهَرَمُ في المِزَاجِ الحَيَوَاني وَالهرَمُ مِنَ الأَمْرَاضِ المُزْمِنَةِ الَّتِي لا يُمْكِنُ دَوَاؤُهَا وَلا ارْتِفَاعُهَا لِمَا أَنَّهُ طَبِيعِيٌّ وَالأُمور الطَّبِيعيَّةُ لا تَتَبَدَّلُ وَقَدْ يَتَنَبَّهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهلِ الدُّوَلِ مِمَّنْ لَهُ يَقْظَةٌ في السِّيَاسَةِ فيَرَى مَا نَزَلَ بِدَوْلَتِهِم مِنْ عَوَارِضِ الهرَمِ وَيَظُنُّ أَنَّهُ مُمْكِنُ الإِرْتِفَاعِ فَيَأْخُذُ نَفْسَهُ بِتَلافِي الدَّوْلَة وَإِصْلاحِ مِزَاجِهَا عَنْ ذَلِكَ الهَرَمِ وَيَحْسَبُهُ أَنَّهُ لَحِقَهَا بِتَقْصِيرِ مَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَهلِ الدَّوْلَة وَغَفْلَتِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّهَا أُمورٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلدَّوْلَةِ وَالْعَوَائِدُ هِيَ المَانِعَةُ لَهُ مِنْ تَلافِيهَا وَالعَوَائِدُ مَنْزِلَةٌ طَبِيعِيَّةٌ أُخْرَى فَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ مَثَلًا أَبَاهُ وَأَكْثَرَ أَهلِ بَيْتِهِ يَلْبَسُون الحَرِيرَ وَالدِّيبَاجَ وَيَتَحَلَّوْنَ بِالذَّهَبِ في السِّلاحِ وَالمَرَاكِبِ وَيَحْتَجِبُونَ عَنِ النَّاسِ في المَجَالِسِ وَالصَّلَوَاتِ فَلا يُمْكِنُهُ مُخَالَفَةُ سَلَفِهِ في ذَلِكَ إِلى الخُشُونَةِ في اللِّبَاسِ وَالزِّي وَالاخْتِلاطِ بِالنَّاسِ إِذِ العَوَائِدُ حِينَئِذٍ تَمْنَعُهُ وَتُقَبِّحُ عَلَيْهِ مُرْتَكَبَهُ وَلَوْ فَعَلَهُ لَرُمِي بِالجُنُونِ وَالوَسْوَاسِ في الخُرُوجِ عَنِ العَوَائِدِ دَفْعَةً وَخُشِيَ عَلَيْهِ عَائِدَةُ ذَلِكَ وَعَاقِبَتُهُ في سلْطَانِهِ وَانْظُرْ شَأْنَ الأَنْبِيَاءِ في إِنْكَارِ العَوَائِدِ وَمُخَالَفَتِهَا لَوْلا التَّأْيِيدُ الإِلهيُّ وَالنَّصر السَّمَاوِيُّ وَرُبَّمَا تَكُونُ العَصَبِيَّةُ قَدْ ذَهَبَتْ فَتَكُونُ الأُبَّهَةُ تُعَوِّضُ عَنْ مَوْقِعِهَا مِن النُّفُوسِ فَإِذَا أُزِيلَتْ تِلْكَ الأُبَّهَةُ مَعَ ضُعْفِ العَصَبِيَّةِ تَجَاسَرَتِ الرَّعَايَا على الدَّوْلَةِ بِذَهَاب أَوْهَامِ الأُبَّهَةِ فَتَتَدَرَّعُ الدَّوْلَةُ بِتِلْكَ الأُبَّهَةِ مَا أَمْكَنَهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ الأَمْرُ وَرُبَّمَا يَحْدُث عِنْدَ آخِرِ الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ تُوهِمُ أَنَّ الهَرَمَ قَدِ ارْتَفَعَ عَنْهَا وَيُومِضُ ذُبَالُهَا إِيمَاضَةَ الخُمُود كَمَا يَقَعُ في الذُّبَالِ المُشْتَعِلِ فَإِنَّهُ عِنْدَ مُقَارَبَةِ انْطِفَائِهِ يُومِضُ إِيمَاضَةً تُوهِمُ أَنَّهَا اشْتِعَال وَهِيَ انْطِفَاءٌ فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ وَلا تُغْفِلْ سِرَّ اللهِ تَعَالَى وَحِكْمَتَهُ في اطِّرَادِ وُجُودِهِ عَلى مَا قَدَّرَ فِيهِ وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ

الفصل السابع والاربعون

في كيفية طروق الخلل للدولة

إِعلَمْ أَنَّ مَبْنَى المُلْكِ عَلى أَسَاسَيْنِ لا بُدَّ مِنْهُمَا فَالأَوَّلُ الشَّوْكَةُ وَالعَصَبِيَّةُ وَهُوَ المُعَبَّرُ عَنْهُ بِالجُنْدِ وَالثَّانِي المَالُ الذِي هُوَ قِوَامُ أُولَئِكَ الجُنْدِ وَإِقَامَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ المَلِكُ مِن الأَحْوَالِ وَالخَلَلُ إِذَا طَرَقَ الدَّوْلَةَ طَرَقَهَا في هَذَيْنِ الأَسَاسَيْنِ فَلْنَذْكُرْ أَوَّلاً طُرُوق

ٱلْخَلَلِ فِي ٱلشَّوْكَةِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى طُرُوقِهِ فِي ٱلْمَالِ وَٱلْجِبَايَةِ وَٱعْلَمْ أَنَّ تَمْهِيد ٱلدَّوْلَةِ وَتَأْسِيسَهَا كَمَا قُلْنَاهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهُ لَابُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ كُبْرَى جَامِعَة لِلْعَصَائِبِ مُسْتَتْبِعَةٍ لَهَا وَهِيَ عَصَبِيَّةُ صَاحِبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْخَاصَّةِ مِنْ عَشِيرَةٍ وَقَبِيلَةٍ فَإِذَا جَاءَت ٱلدَّوْلَةَ طَبِيعَةُ ٱلْمُلْكِ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَجَدْعِ أُنُوفِ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ كَانَ أَوَّلُ مَا يُجْدَعُ أُنُوف عَشِيرَتِهِ وَذَوِي قُرْبَاهُ ٱلْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي ٱسْمِ ٱلْمَلِكِ فَيَسْتَبِدُّ فِي جَدْعِ أُنُوفِهِمْ بِمَا بَلَغ مِنْ سَوَادِهِمْ لِمَكَانِهِمْ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلْعِزِّ وَٱلْغَلَبِ فَيُحِيطُ بِهِمْ هَادِمَانِ وَهُمَا ٱلتَّرَفُ وَٱلْقَهْر ثُمَّ يَصِيرُ ٱلْقَهْرُ آخِراً إِلَى ٱلْقَتْلِ لِمَا يَحْصُلُ مِنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ رُسُوخِ ٱلْمُلْكِ لِصَاحِب ٱلْأَمْرِ فَيَنْقَلِبُ غَيْرَتُهُ مِنْهُمْ إِلَى ٱلْخَوْفِ عَلَى مُلْكِهِ فَيَأْخُذُهُمْ بِٱلْقَتْلِ وَٱلْإِهَانَةِ وَسَلْب ٱلنِّعْمَةِ وَٱلتَّرَفِ ٱلَّذِي تَعَوَّدُوا ٱلْكَثِيرَ مِنْهُ فَيَهْلِكُونَ وَيَقِلُّونَ وَتَفْسُدُ عَصَبِيَّةُ صَاحِب ٱلدَّوْلَةِ مِنْهُمْ وَهِيَ ٱلْعَصَبِيَّةُ ٱلْكُبْرَى ٱلَّتِي كَانَتْ تُجْمَعُ بِهَا ٱلْعَصَائِبُ وَتَسْتَتْبِعُهَا فَتَنْحَل عُرْوَتُهَا وَتَضْعُفُ شَكِيمَتُهَا وَتُسْتَبْدَلُ عَنْهَا بِٱلْبِطَانَةِ مِنْ مَوَالِي ٱلنِّعْمَةِ وَصَنَائِعِ ٱلْإِحْسَان وَتُتَّخَذُ مِنْهُمْ عَصَبِيَّةٌ إِلَّا أَنَّهَا لَيْسَتْ مِثْلَ تِلْكَ ٱلشِّدَّةِ ٱلشَّكِيمَةِ لِفُقْدَانِ ٱلرَّحِمِ وَٱلْقَرَابَة مِنْهَا وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ شَأْنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَقُوَّتَهَا إِنَّمَا هِيَ بِٱلْقَرَابَةِ وَٱلرَّحِمِ لِمَا جَعَلَ ٱللهُ فِي ذَٰلِكَ فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ عَنِ ٱلْعَشِيرِ وَٱلْأَنْصَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَيُحِسُّ بِذَٰلِكَ أَهْل ٱلْعَصَائِبِ ٱلْأُخْرَى فَيَتَجَاسَرُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى بِطَانَتِهِ تَجَاسُراً طَبِيعِياً فَيُهْلِكُهُمْ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَة وَيَتْبَعُهُمْ بِٱلْقَتْلِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ وَيُقَلِّدُ ٱلْآخِرَ مِنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ فِي ذَٰلِكَ ٱلْأَوَّلَ مَعَ مَا يَكُونُ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ مَهْلَكَةِ ٱلتَّرَفِ ٱلَّذِي قَدَّمْنَا فَيَسْتَوْلِي عَلَيْهِمِ ٱلْهَلَاكُ بِٱلتَّرَف وَٱلْقَتْلِ حَتَّى يَخْرُجُوا عَنْ صِبْغَةِ تِلْكَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَيُفْشُوا بِعِزَّتِهَا وَتَوَرُّتِهَا وَيَصِيرُوا أَوْجَز عَلَى ٱلْحِمَايَةِ وَيَقِلُّونَ لِذَٰلِكَ فَتَقِلُّ ٱلْحِمَايَةُ ٱلَّتِي تَنْزِلُ بِٱلْأَطْرَافِ وَٱلثُّغُورِ فَتَتَجَاسَرُ ٱلرَّعَايَا عَلَى بَعْضِ ٱلدَّعْوَةِ فِي ٱلْأَطْرَافِ وَيُبَادِرُ ٱلْخَوَارِجُ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْأَعْيَاصِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى تِلْكَ ٱلْأَطْرَافِ لِمَا يَرْجُونَ حِينَئِذٍ مِنْ حُصُولِ غَرَضِهِمْ بِمُبَايَعَةِ أَهْلِ ٱلْقَاصِيَةِ لَهُم وَأَمْنِهِمْ مِنْ وُصُولِ ٱلْحَامِيَةِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَزَالُ ذَٰلِكَ يَتَدَرَّجُ وَنِطَاقُ ٱلدَّوْلَةِ يَتَضَايَقُ حَتَّى تَصِيرَ ٱلْخَوَارِجُ فِي أَقْرَبِ ٱلْأَمَاكِنِ إِلَى مَرْكَزِ ٱلدَّوْلَةِ وَرُبَّمَا ٱنْقَسَمَتِ ٱلدَّوْلَةُ عِنْد ذَٰلِكَ بِدَوْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ عَلَى قَدَرِ قُوَّتِهَا فِي ٱلْأَصْلِ كَمَا قُلْنَاهُ وَيَقُومُ بِأَمْرِهَا غَيْرُ أَهْل عَصَبِيَّتِهَا لَكِنْ إِذْعَاناً لِأَهْلِ عَصَبِيَّتِهَا وَلِغَلَبِهِمِ ٱلْمَعْهُودِ وَٱعْتَبِرْ هٰذَا فِي دَوْلَةِ ٱلْعَرَبِ فِي

ٱلإسلام كَيفَ ٱنتَهَتْ أوّلاً إلى ٱلأندلس وٱلهند وٱلصين وكانَ أمرُ بني أُميَّةَ نافذاً في جميع ٱلعرب بعَصبيّةِ بني مناف حتى لقد أمَرَ سليمانُ بنُ عبدِ ٱلمَلِكِ بدمشقَ بقتل عبدِ ٱلعزيزِ بنِ موسى بن نُصَير بقرطبة فقُتِلَ ولم يُرَدَّ أمرُهُ ثمَّ تلاشت عصبيَّةُ بني أُميَّة بما أصابهم من ٱلتّرف فٱنقرضوا وجاء بنو ٱلعبّاس فغَضُّوا من أعنَّةِ بني هاشم وقتلوا ٱلطّالبيّين وشرّدوهم فٱنحلّت عصبيّةُ عبدِ مناف وتلاشت وتجاسر ٱلعربُ عليهم فٱستبدّ عليهم أهلُ ٱلقاصية مثلُ بني ٱلأغلب بأفريقيّة وأهل ٱلأندلس وغيرهم وٱنقسمت ٱلدّولةُ ثمّ خرج بنو أدريس بٱلمغرب وقام ٱلبربرُ بأمرهم إذعاناً للعصبيّة ٱلتي لهم وأمناً أن تصلهم مقاتلةٌ أو حاميةٌ للدّولة فإذا خرج ٱلدّعاةُ آخراً فيتغلّبون على ٱلأطراف وٱلقاصية وتحصلُ لهم هناك دعوةٌ وملكٌ تنقسمُ به ٱلدّولةُ وربّما يزيدُ ذلك متى زادت ٱلدّولةُ تقلّصاً إلى أن ينتهي إلى ٱلمركز وتضعفَ ٱلبطانةُ بعد ذلك بما أخذ منها ٱلتّرف فتهلِكُ وتضمحلُّ وتضعفُ ٱلدّولةُ ٱلمنقسمةُ كلُّها وربّما طال أمدُها بعد ذلك فتستغني عن ٱلعصبيّة بما حصل لها من ٱلصّبغة في نفوس أهل إيالتها وهي صبغةُ ٱلإنقياد وٱلتّسليم منذ ٱلسّنين ٱلطّويلة ٱلتي لا يعقلُ أحدٌ من ٱلأجيال مبدأها ولا أوّليّتها فلا يعقلون إلّا ٱلتّسليمَ لصاحب ٱلدّولة فيستغني بذلك عن قوّة ٱلعصائب ويكفي صاحبها بما حصل لها في تمهيد أمرها ٱلإجراءُ على ٱلحامية من جنديٍّ ومرتزقٍ ويعضُدُ ذلك ما وقع في ٱلنّفوس عامّةً من ٱلتّسليم فلا يكادُ أحدٌ يتصوّرُ عصياناً أو خروجاً إلّا وٱلجمهور منكرون عليه مخالفون له فلا يقدرُ على ٱلتّصدّي لذلك ولو جهد جهدَهُ وربّما كانت ٱلدّولةُ في هذا ٱلحال أسلمَ من ٱلخوارج وٱلمنازعة لٱستحكام صبغةِ ٱلتّسليم وٱلإنقياد لهم فلا تكادُ ٱلنّفوسُ تحدّثُ سرَّها بمخالفةٍ ولا يختلجُ في ضميرها ٱنحرافٌ عن ٱلطّاعة فيكونُ أسلمَ من ٱلهرج وٱلإنتقاض ٱلذي يحدثُ من ٱلعصائب وٱلعشائر ثمّ لا يزالُ أمرُ ٱلدّولة كذلك وهي تتلاشى في ذاتها شأنَ ٱلحرارة ٱلغريزيّة في ٱلبدن ٱلعادم للغذاء إلى أن تنتهي إلى وقتها ٱلمقدور ولكلّ أجلٍ كتابٌ ولكلّ دولةٍ أمدٌ وٱللهُ يقدّرُ ٱللّيلَ وٱلنّهارَ وهو ٱلواحدُ ٱلقهّارُ . وأمّا ٱلخللُ ٱلذي يتطرّقُ من جهة ٱلمال فٱعلم أنّ ٱلدّولة في أوّلها تكونُ بدويّةً كما مرّ فيكونُ خلقُ ٱلرّفق بٱلرّعايا وٱلقصدِ في ٱلنّفقات وٱلتّعفّف عن ٱلأموال فتتجافى عن ٱلإمعان في ٱلجباية وٱلتّحذلق

وَالْكَيْسُ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ وَحِسَانِ الْعُمَّالِ وَلا دَاعِيَةَ حِينَئِذٍ إِلى الْإِسْرَافِ فِي النَّفَقَة فلا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلى كَثْرَةِ الْمَالِ ثُمَّ يَحْصُلُ الِاسْتِيلاءُ وَيَعْظُمُ وَيَسْتَفْحِلُ الْمُلْكُ فَيَدْعُو إِلى التَّرَفِ وَيَكْثُرُ الْإِنْفَاقُ بِسَبَبِهِ فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْعُمُومِ بَلْ يَتَعَدَّى ذٰلِكَ إِلى أَهْلِ الْمِصْرِ وَيَدْعُو ذٰلِكَ إِلى الزِّيَادَةِ فِي أَعْطِيَاتِ الْجُنْدِ وَأَرْزَاقِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ يَعْظُمُ التَّرَفُ فَيَكْثُرُ الْإِسْرَافُ فِي النَّفَقَاتِ وَيَنْتَشِرُ ذٰلِكَ فِي الرَّعِيَّة لِأَنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ مُلُوكِهَا وَعَوَائِدِهَا وَيَحْتَاجُ السُّلْطَانُ إِلى ضَرْبِ الْمُكُوسِ عَلى أَثْمَانِ الْبِيَاعَاتِ فِي الْأَسْوَاقِ لِإِدْرَارِ الْجِبَايَةِ لِمَا يَرَاهُ مِنْ تَرَفِ الْمَدِينَةِ الشَّاهِدِ عَلَيْهِم بِالرَّفْهِ وَلِمَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ نَفَقَاتِ سُلْطَانِهِ وَأَرْزَاقِ جُنْدِهِ ثُمَّ تَزِيدُ عَوَائِدُ التَّرَف فلا تَفِي بِهَا الْمُكُوسُ وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ قَدِ اسْتَفْحَلَتْ فِي الِاسْتِطَالَةِ وَالْقَهْرِ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ الرَّعَايَا فَتَمْتَدُّ أَيْدِيهِمْ إِلى جَمْعِ الْمَالِ مِنْ أَمْوَالِ الرَّعَايَا مِنْ مَكْسٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ نَقْد فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بِشُبْهَةٍ أَوْ بِغَيْرِ شُبْهَةٍ وَيَكُونُ الْجُنْدُ فِي ذٰلِكَ الطَّوْرِ قَدْ تَجَاسَرَ عَلى الدَّوْلَةِ بِمَا لَحِقَهَا مِنَ الْفَشَلِ وَالْهَرَمِ فِي الْعَصَبِيَّةِ فَتَتَوَقَّعُ ذٰلِكَ مِنْهُمْ وَتُدَاوِي بِسَكِينَة الْعَطَايَا وَكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فِيهِمْ وَلا تَجِدُ عَنْ ذٰلِكَ وَلِيجَةً وَتَكُونُ جُبَاةُ الْأَمْوَالِ فِي الدَّوْلَة قَدْ عَظُمَتْ ثَرْوَتُهُمْ فِي هٰذَا الطَّوْرِ بِكَثْرَةِ الْجِبَايَةِ وَكَوْنِهَا بِأَيْدِيهِمْ وَبِمَا اتَّسَعَ لِذٰلِك مِنْ جَاهِهِمْ فَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ بِاحْتِجَانِ الْأَمْوَالِ مِنَ الْجِبَايَةِ وَتَفْشُو السِّعَايَةُ فِيهِمْ بَعْضِهِم مِنْ بَعْضٍ لِلْمُنَافَسَةِ وَالْحِقْدِ فَتَعُمُّهُمُ النَّكَبَاتُ وَالْمُصَادَرَاتُ وَاحِداً وَاحِداً إِلى أَنْ تَذْهَبَ ثَرْوَتُهُم وَتَتَلاشَى أَحْوَالُهُمْ وَيُفْقَدَ مَا كَانَ لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْأُبَّهَةِ وَالْجَمَالِ بِهِمْ وَإِذَا اصْطُلِمَتْ نِعْمَتُهُمْ تَجَاوَزَتْهُمُ الدَّوْلَةُ إِلى أَهْلِ الثَّرْوَةِ مِنَ الرَّعَايَا سِوَاهُمْ وَيَكُونُ الْوَهَن فِي هٰذَا الطَّوْرِ قَدْ لَحِقَ الشَّوْكَةَ وَضَعُفَتْ عَنِ الِاسْتِطَالَةِ وَالْقَهْرِ فَتَنْصَرِفُ سِيَاسَةُ صَاحِب الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلى مُدَارَاةِ الْأُمُورِ بِبَذْلِ الْمَالِ وَيَرَاهُ أَرْفَعَ مِنَ السَّيْفِ لِقِلَّةِ غَنَائِهِ فَتَعْظُم حَاجَتُهُ إِلى الْأَمْوَالِ زِيَادَةً عَلَى النَّفَقَاتِ وَأَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَلا يُغْنِي فِيمَا يُرِيدُ وَيَعْظُمُ الْهَرَم بِالدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا أَهْلُ النَّوَاحِي وَالدَّوْلَةُ تَنْحَلُّ عُرَاهَا فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هٰذِهِ إِلى أَنْ تُفْضِيَ إِلى الْهَلاكِ وَتَتَعَوَّضَ مِنَ الِاسْتِيلاءِ الْكَلَالَ فَإِنْ قَصَدَهَا طَالِبٌ انْتَزَعَهَا مِن أَيْدِي الْقَائِمِينَ بِهَا وَإِلَّا بَقِيَتْ وَهِيَ تَتَلاشَى إِلى أَنْ تَضْمَحِلَّ كَالذُّبَالِ فِي السِّرَاجِ إِذَا فَنِيَ زَيْتُهُ وَطَفِيءَ وَاللهُ مَالِكُ الْأُمُورِ وَمُدَبِّرُ الْأَكْوَانِ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ

الفصل الثامن والاربعون

في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع

إعلَمْ أنَّ نَشأَةَ ٱلدُّوَلِ وَبِدَايَتَهَا إِذَا أَخَذَتِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْمُسْتَقِرَّةُ في ٱلْهَرَمِ وَٱلِانْتِقَاصِ تَكُونُ عَلَى نَوْعَيْنِ إِمَّا بِأَنْ يَسْتَبِدَّ وُلاةُ ٱلْأَعْمَالِ في ٱلدَّوْلَةِ بِٱلْقَاصِيَةِ عِنْدَ مَا يَتَقَلَّص ظِلُّهَا عَنْهُمْ فَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دَوْلَةٌ يَسْتَجِدُّهَا لِقَوْمِهِ وَمَا يَسْتَقِرُّ في نِصَابِهِ يَرِثُهُ عَنْهُ أَبْنَاؤُهُ أَوْ مَوَالِيهِ وَيَسْتَفْحِلُ لَهُمُ ٱلْمُلْكُ بِٱلتَّدْرِيجِ وَرُبَّمَا يَزْدَحِمُونَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمُلْكِ وَيَتَقَارَعُونَ عَلَيْهِ وَيَتَنَازَعُونَ في ٱلِاسْتِئْثَارِ بِهِ وَيَغْلِبُ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ فَضْلُ قُوَّةٍ عَلَى صَاحِبِهِ وَيَنْتَزِعُ مَا في يَدِهِ كَمَا وَقَعَ في دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ حِينَ أَخَذَتْ دَوْلَتُهُمْ في ٱلْهَرَمِ وَتَقَلَّصَ ظِلُّهَا عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ وَٱسْتَبَدَّ بَنُو سَاسَانَ بِمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَبَنُو حَمْدَانَ بِٱلْمَوْصِلِ وَٱلشَّامِ وَبَنُو طُولُونَ بِمِصْرَ وَكَمَا وَقَعَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَٱفْتَرَقَ مُلْكُهَا في ٱلطَّوَائِفِ ٱلَّذِينَ كَانُوا وُلاتَهَا في ٱلْأَعْمَالِ وَٱنْقَسَمَتْ دُوَلاً وَمُلُوكاً أَوْرَثُوهَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِمْ أَوْ مَوَالِيهِمْ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ حَرْباً لِأَنَّهُمْ مُسْتَقِرُّونَ في رِئَاسَتِهِمْ وَلا يَطْمَعُونَ في ٱلِاسْتِيلاءِ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ بِحَرْبٍ وَإِنَّمَا ٱلدَّوْلَةُ أَدْرَكَهَا ٱلْهَرَمُ وَتَقَلَّصَ ظِلُّهَا عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ وَعَجِزَتْ عَنِ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهَا وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّانِي بِأَنْ يَخْرُجَ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ خَارِجٌ مِمَّنْ يُجَاوِرُهَا مِنَ ٱلْأُمَمِ وَٱلْقَبَائِلِ إِمَّا بِدَعْوَةٍ يَحْمِلُ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ أَوْ يَكُونُ صَاحِبُ شَوْكَةٍ وَعَصَبِيَّةٍ كَبِيراً في قَوْمِهِ قَدِ ٱسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ فَيَسْمُو بِهِمْ إِلَى ٱلْمُلْكِ وَقَدْ حَدَّثُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ ٱلِاعْتِزَازِ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ وَمَا نَزَلَ بِهَا مِنَ ٱلْهَرَمِ فَيَتَعَيَّنُ لَهُ وَلِقَوْمِهِ ٱلِاسْتِيلاءُ عَلَيْهَا وَيُمَارِسُونَهَا بِٱلْمُطَالَبَةِ إِلَى أَنْ يَظْفَرُوا بِهَا وَيَرِثُونَ (١) كَمَا يَتَبَيَّنُ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والاربعون

في ان الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ ٱلدُّوَلَ ٱلْحَادِثَةَ ٱلْمُتَجَدِّدَةَ نَوْعَانِ نَوْعٌ مِنْ وِلايَةِ ٱلْأَطْرَافِ إِذَا تَقَلَّصَ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ عَنْهُمْ وَٱنْحَسَرَ تَيَّارُهَا وَهٰؤُلاءِ لا يَقَعُ مِنْهُمْ مُطَالَبَةٌ لِلدَّوْلَةِ في ٱلْأَكْثَرِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ لِأَنَّ قُصَارَاهُمُ ٱلْقُنُوعُ بِمَا في أَيْدِيهِمْ وَهُوَ نِهَايَةُ قُوَّتِهِمْ وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّانِي نَوْع

---

(١) قوله ويرثون وفي نسخة ويرفون من الرفو بالراء والفاء . اهـ

الدُّعَاةِ وَالْخَوَارِجِ عَلَى الدَّوْلَةِ وَهؤُلاَءِ لاَ بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْمُطَالَبَةِ لِأَنَّ قُوَّتَهُمْ وَافِيَةٌ بِهَا فَإِنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي نِصَابٍ يَكُونُ لَهُ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَالْاِعْتِزَازِ مَا هُوَ كُفَاءُ ذٰلِكَ وَوَافٍ بِهِ فَيَقَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ حُرُوبٌ سِجَالٌ تَتَكَرَّرُ وَتَتَّصِلُ إِلَى أَنْ يَقَعَ لَهُمُ الْاِسْتِيلاَءُ وَالظَّفَرُ بِالْمَطْلُوبِ وَلاَ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي الْغَالِبِ ظَفَرٌ بِالْمُنَاجَزَةِ وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ الظَّفَرَ فِي الْحُرُوبِ إِنَّمَا يَقَعُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ بِأُمُورٍ نَفْسَانِيَّةٍ وَهْمِيَّةٍ وَإِنْ كَانَ الْعَدَدُ وَالسِّلاَحُ وَصِدْقُ الْقِتَالِ كَفِيلاً بِهِ لٰكِنَّهُ قَاصِرٌ مَعَ تِلْكَ الْأُمُورِ الْوَهْمِيَّةِ كَمَا مَرَّ وَلِذٰلِكَ كَانَ الْخِدَاعُ مِنْ أَنْفَعِ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْحَرْبِ وَأَكْثَرِ مَا يَقَعُ الظَّفَرُ بِهِ وَفِي الْحَدِيثِ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ وَالدَّوْلَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ قَدْ صَيَّرَتِ الْعَوَائِدَ الْمَأْلُوفَةَ طَاعَتَهَا ضَرُورِيَّةً وَاجِبَةً كَمَا تَقَدَّمَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَتَكْثُرُ بِذٰلِكَ الْعَوَائِقُ لِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ وَيَكْثُرُ مِنْ هِمَمِ أَتْبَاعِهِ وَأَهْلِ شَوْكَتِهِ وَإِنْ كَانَ الْأَقْرَبُونَ مِنْ بِطَانَتِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ فِي طَاعَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ إِلَّا أَنَّ الْآخَرِينَ أَكْثَرُ وَقَدْ دَاخَلَهُمُ الْفَشَلُ بِتِلْكَ الْعَقَائِدِ فِي التَّسْلِيمِ لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ فَيَحْصُلُ بَعْضُ الْفُتُورِ مِنْهُمْ وَلاَ يَكَادُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ يُرَجِّعُ إِلَى الصَّبْرِ وَالْمُطَاوَلَةِ حَتَّى يَتَّضِحَ هَرَمُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ فَتَضْمَحِلَّ عَقَائِدُ التَّسْلِيمِ لَهَا مِنْ قَوْمِهِ وَتَنْبَعِثَ مِنْهُمُ الْهِمَمُ لِصِدْقِ الْمُطَالَبَةِ مَعَهُ فَيَقَعُ الظَّفَرُ وَالْاِسْتِيلاَءُ وَأَيْضاً فَالدَّوْلَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ كَثِيرَةُ الرِّزْقِ بِمَا اسْتَحْكَمَ لَهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَتَوَسَّعَ مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ وَاخْتَصُّوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَمْوَالِ الْجِبَايَةِ فَيَكْثُرُ عِنْدَهُمُ ارْتِبَاطُ الْخُيُولِ وَاسْتِجَادَةُ الْأَسْلِحَةِ وَتَعْظُمُ فِيهِمِ الْأُبَّهَةُ الْمُلْكِيَّةُ وَيَفِيضُ الْعَطَاءُ بَيْنَهُمْ مِنْ مُلُوكِهِمُ اخْتِيَاراً وَاضْطِرَاراً فَيُرْهِبُونَ بِذٰلِكَ كُلِّهِ عَدُوَّهُمْ وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذٰلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبِدَاوَةِ وَأَحْوَالِ الْفَقْرِ وَالْخَصَاصَةِ فَيَسْبِقُ إِلَى قُلُوبِهِمْ أَوْهَامُ الرُّعْبِ بِمَا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ وَيُحْرَمُونَ عَنْ قِتَالِهِمْ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ فَيَصِيرُ أَمْرُهُمْ إِلَى الْمُطَاوَلَةِ حَتَّى تَأْخُذَ الْمُسْتَقِرَّةُ مَأْخَذَهَا مِنَ الْهَرَمِ وَيَسْتَحْكِمَ الْخَلَلُ فِيهَا فِي الْعَصَبِيَّةِ وَالْجِبَايَةِ فَيَنْتَهِزُ حِينَئِذٍ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ فُرْصَتَهُ فِي الْاِسْتِيلاَءِ عَلَيْهَا بَعْدَ حِينٍ مُنْذُ الْمُطَالَبَةِ سُنَّةَ اللّٰهِ فِي عِبَادِهِ وَأَيْضاً فَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الْمُسْتَجِدَّةِ كُلُّهُمْ مُبَايِنُونَ لِلدَّوْلَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ بِأَنْسَابِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَفِي سَائِرِ مَنَاحِيهِمْ ثُمَّ هُمْ مُفَاخِرُونَ لَهُمْ وَمُنَابِذُونَ بِمَا وَقَعَ مِنْ هٰذِهِ الْمُطَالَبَةِ وَبِطَمَعِهِمْ فِي الْاِسْتِيلاَءِ عَلَيْهِ فَتَتَمَكَّنُ

ٱلْمُبَاعَدَةُ بَيْنَ أَهْلِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ سِراً وَجَهْراً وَلاَ يَصِلُ إِلَى أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ يُصِيبُونَ مِنْهُ غِرَّةً [1] بَاطِناً وَظَاهِراً لِٱنْقِطَاعِ ٱلْمُدَاخَلَةِ بَيْنَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ فَيُقِيمُونَ عَلَى ٱلْمُطَالَبَةِ وَهُمْ فِي إِحْجَامٍ وَيَنْكِلُونَ عَنِ ٱلْمُنَاجَزَةِ حَتَّى يَأْذَنَ ٱللهُ بِزَوَالِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَقِرَّةِ وَفَنَاءِ عُمُرِهَا وَوُفُورِ ٱلْخَلَلِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا وَٱتَّضَحَ لِأَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ مَعَ مَا كَانَ يَخْفَى مِنْهُمْ مِنْ هَرَمِهَا وَتَلاَشِيهَا وَقَدْ عَظُمَتْ قُوَّتُهُمْ بِمَا ٱقْتَطَعُوهُ مِنْ أَعْمَالِهَا وَنَقَصُوهُ مِنْ أَطْرَافِهَا فَتَنْبَعِثُ هِمَمُهُمْ يَداً وَاحِدَةً لِلْمُنَاجَزَةِ وَيَذْهَبُ مَا كَانَ بُثَّ فِي عَزَائِمِهِمْ مِنَ ٱلتَّوَهُّمَاتِ وَتَنْتَهِي ٱلْمُطَاوَلَةُ إِلَى حَدِّهَا وَيَقَعُ ٱلْإِسْتِيلاَءُ آخِراً بِٱلْمُعَاجَلَةِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ حِينَ ظُهُورِهَا حِينَ قَامَ ٱلشِّيعَةُ بِخُرَاسَانَ بَعْدَ ٱنْعِقَادِ ٱلدَّعْوَةِ وَٱجْتِمَاعِهِمْ عَلَى ٱلْمُطَالَبَةِ عَشْرَ سِنِينَ أَوْ تَزِيدُ وَحِينَئِذٍ تَمَّ لَهُمُ ٱلظَّفَرُ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَكَذَا ٱلْعَلَوِيَّةِ بِطَبَرِسْتَانَ عِنْدَ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ فِي ٱلدَّيْلَمِ كَيْفَ كَانَتْ مُطَاوَلَتُهُمْ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى تِلْكَ ٱلنَّاحِيَةِ ثُمَّ لَمَّا ٱنْقَضَى أَمْرُ ٱلْعَلَوِيَّةِ وَسَمَا ٱلدَّيْلَمُ إِلَى مُلْكِ فَارِسَ وَٱلْعِرَاقَيْنِ فَمَكَثُوا سِنِينَ كَثِيرَةً يُطَاوِلُونَ حَتَّى ٱقْتَطَعُوا أَصْبَهَانَ ثُمَّ ٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلْخَلِيفَةِ بِبَغْدَادَ وَكَذَا ٱلْعُبَيْدِيُّونَ أَقَامَ دَاعِيَتُهُمْ بِٱلْمَغْرِبِ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلشِّيعِيُّ بِبَنِي كُتَامَةَ مِنْ قَبَائِلِ ٱلْبَرْبَرِ عَشْرَ سِنِينَ وَيَزِيدُ يُطَاوِلُ بَنِي ٱلْأَغْلَبِ بِأَفْرِيقِيَّةَ حَتَّى ظَفِرَ بِهِمْ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلْمَغْرِبِ كُلِّهِ وَسَمَوْا إِلَى مُلْكِ مِصْرَ فَمَكَثُوا ثَلاَثِينَ سَنَةً أَوْ نَحْوَهَا فِي طَلَبِهَا يُجَهِّزُونَ إِلَيْهَا ٱلْعَسَاكِرَ وَٱلْأَسَاطِيلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجِيءُ ٱلْمَدَدُ لِمُدَافَعَتِهِمْ بَرّاً وَبَحْراً مِنْ بَغْدَادَ وَٱلشَّامِ وَمَلَكُوا ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَٱلْفَيُّومَ وَٱلصَّعِيدَ وَتَخَطَّتْ دَعْوَتُهُمْ مِنْ هُنَالِكَ إِلَى ٱلْحِجَازِ وَأُقِيمَتْ بِٱلْحَرَمَيْنِ ثُمَّ نَازَلَ قَائِدُهُمْ جَوْهَرٌ ٱلْكَاتِبُ بِعَسَاكِرِهِ مَدِينَةَ مِصْرَ وَٱسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَٱقْتَلَعَ دَوْلَةَ بَنِي طُغْجٍ مِنْ أُصُولِهَا وَٱخْتَطَّ ٱلْقَاهِرَةَ فَجَاءَ ٱلْخَلِيفَةُ بَعْدَ ٱلْمُعِزِّ لِدِينِ ٱللهِ فَنَزَلَهَا لِسِتِّينَ سَنَةً أَوْ نَحْوِهَا مُنْذُ ٱسْتِيلاَئِهِمْ عَلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَذَا ٱلسَّلْجُوقِيَّةُ مُلُوكُ ٱلتُّرْكِ لَمَّا ٱسْتَوْلَوْا عَلَى بَنِي سَامَانَ وَأَجَازُوا مِنْ وَرَاءِ ٱلنَّهْرِ مَكَثُوا نَحْواً مِنْ ثَلاَثِينَ سَنَةً يُطَاوِلُونَ بَنِي سُبُكْتِكِينَ بِخُرَاسَانَ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى دَوْلَتِهِ ثُمَّ زَحَفُوا إِلَى بَغْدَادَ فَٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْخَلِيفَةِ بِهَا بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ ٱلدَّهْرِ وَكَذَا ٱلتَّتَرُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَرَجُوا مِنَ ٱلْمَفَازَةِ عَامَ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسِتِّمِائَةٍ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُمُ ٱلْإِسْتِيلاَءُ إِلاَّ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَكَذَا أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ خَرَجَ بِهِ ٱلْمُرَابِطُونَ مِنْ

(١) قوله غرة بكسر الغين اي غفلة

لِمتُونَةَ على مُلُوكِهِ مِنْ مِغرَاوَةَ فطَاوَلُوهُمْ سِنِينَ ثُمَّ ٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ ٱلمُوَحِّدُون بدَعْوَتِهِمْ عَلى لِمتُونَةَ فَمَكَثُوا نَحواً مِنْ ثَلاثِينَ سَنَةً يُحَارِبُونَهُمْ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَّاكِشَ وَكَذَا بَنُو مُرَيْنَ مِنْ زَنَاتَةَ خَرَجُوا عَلى ٱلمُوَحِّدِينَ فَمَكَثُوا يُطَاوِلُونَهُم نَحواً مِنْ ثَلاثِينَ سَنَةً وَٱسْتَوْلَوْا عَلى فَاسَ وَٱقْتَطَعُوهَا وَأَعْمَالَهَا مِنْ مُلْكِهِمْ ثُمَّ أَقَامُوا فِي مُحَارَبَتِهِمْ ثَلاثِينَ أُخرَى حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلى كُرْسِيِّهِمْ بِمَرَّاكِشَ حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِي تَوَارِيخِ هذِهِ ٱلدُّوَلِ فَهٰكَذَا حَالُ ٱلدُّوَلِ ٱلمُسْتَجِدَّةِ مَعَ ٱلمُسْتَقِرَّةِ فِي ٱلمُطَالَبَةِ وَٱلمُطَاوَلَةِ سُنَّةُ ٱللهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً وَلَا يُعَارِضُ ذٰلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي ٱلفُتُوحَاتِ ٱلإِسْلامِيَّةِ وَكَيْفَ كَانَ ٱسْتِيلاؤُهُمْ عَلى فَارِسَ وَٱلرُّومِ لِثَلاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ مِنْ وَفَاةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا كَانَ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا سِرُّهَا ٱسْتِمَاتَةُ ٱلمُسْلِمِينَ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمِ ٱسْتِبْصَاراً بِٱلإِيمَانِ وَمَا أَوْقَعَ ٱللهُ فِي قُلُوبِ عَدُوِّهِمْ مِنَ ٱلرُّعْبِ وَٱلتَّخَاذُلِ فَكَانَ ذٰلِكَ كُلُّهُ خَارِقاً لِلعَادَةِ ٱلمُقَرَّرَةِ فِي مُطَاوَلَةِ ٱلدُّوَلِ ٱلمُسْتَجِدَّةِ لِلمُسْتَقِرَّةِ وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ خَارِقاً فَهُوَ مِنْ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ ٱلمُتَعَارَفِ ظُهُورُهَا فِي ٱلمِلَّةِ ٱلإِسْلامِيَّةِ وَٱلمُعْجِزَاتُ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا ٱلأُمُورُ ٱلعَادِيَّةُ وَلَا يُعْتَرَضُ بِهَا وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الخمسون

في وفور العمران اخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

إِعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لَابُدَّ لَهَا مِنَ ٱلرِّفْقِ فِي مَلَكَتِهَا وَٱلِاعْتِدَالِ فِي إِيَالَتِهَا إِمَّا مِنَ ٱلدِّينِ إِنْ كَانَتِ ٱلدَّعْوَةُ دِينِيَّةً أَوْ مِنَ ٱلمُكَارَمَةِ وَٱلمُحَاسَنَةِ ٱلَّتِي تَقْتَضِيهَا ٱلبَدَاوَةُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ لِلدُّوَلِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلمَلَكَةُ رَفِيقَةً مُحسِنَةً ٱنْبَسَطَتْ آمَالُ ٱلرَّعَايَا وَٱنْتَشَطُوا لِلعُمْرَانِ وَأَسْبَابِهِ فَتَوَفَّرَ وَيَكْثُرُ ٱلتَّنَاسُلُ وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كُلُّهُ بِٱلتَّدْرِيجِ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ فِي ٱلأَقَلِّ وَفِي ٱنْقِضَاءِ ٱلجِيلَيْنِ تُشْرِفُ ٱلدَّوْلَةُ عَلى نِهَايَةِ عُمْرِهَا ٱلطَّبِيعِيِّ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ ٱلعُمْرَانُ فِي غَايَةِ ٱلوُفُورِ وَٱلنَّمَاءِ وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ أَوَاخِرَ ٱلدَّوْلَةِ يَكُونُ فِيهَا ٱلإِجْحَافُ بِٱلرَّعَايَا وَسُوءُ ٱلمَلَكَةِ فَذٰلِكَ صَحِيحٌ وَلَا يُعَارِضُ مَا قُلنَاهُ لِأَنَّ ٱلإِجْحَافَ وَإِنْ حَدَثَ حِينَئِذٍ وَقَلَّتِ ٱلجِبَايَاتُ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي تَنَاقُصِ ٱلعُمْرَانِ بَعْدَ حِينٍ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّدْرِيجِ

فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْمَجَاعَاتِ وَٱلْمَوَتَانَ تَكْثُرُ عِنْدَ ذٰلِكَ فِي أَوَاخِرِ ٱلدُّوَلِ وَٱلسَّبَبُ فِيهِ إِمَّا ٱلْمَجَاعَاتُ فَلِقَبْضِ ٱلنَّاسِ أَيْدِيَهُمْ عَنِ ٱلْفَلْحِ فِي ٱلْأَكْثَرِ بِسَبَبِ مَا يَقَعُ فِي آخِرِ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْعُدْوَانِ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْجِبَايَاتِ أَوِ ٱلْفِتَنِ ٱلْوَاقِعَةِ فِي ٱنْتِقَاصِ ٱلرَّعَايَا وَكَثْرَةِ ٱلْخَوَارِجِ لِهَرَمِ ٱلدَّوْلَةِ فَيَقِلُّ ٱحْتِكَارُ ٱلزَّرْعِ غَالِبًا وَلَيْسَ صَلَاحُ ٱلزَّرْعِ وَثَمَرَتُهُ بِمُسْتَمِرِّ ٱلْوُجُودِ وَلَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فَطَبِيعَةُ ٱلْعَالَمِ فِي كَثْرَةِ ٱلْأَمْطَارِ وَقِلَّتِهَا مُخْتَلِفَةٌ وَٱلْمَطَرُ يَقْوَى وَيَضْعُفُ وَيَقِلُّ وَيَكْثُرُ وَٱلزَّرْعُ وَٱلثِّمَارُ وَٱلضَّرْعُ عَلَى نِسْبَتِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلنَّاسَ وَاثِقُونَ فِي أَقْوَاتِهِمْ بِٱلِٱحْتِكَارِ فَإِذَا فُقِدَ ٱلِٱحْتِكَارُ عَظُمَ تَوَقُّعُ ٱلنَّاسِ لِلْمَجَاعَاتِ فَغَلَا ٱلزَّرْعُ وَعَجَزَ عَنْهُ أُولُو ٱلْخَصَاصَةِ فَهَلَكُوا وَكَانَ بَعْضَ ٱلسَّنَوَاتِ ٱلِٱحْتِكَارُ مَفْقُودًا فَشَمَلَ ٱلنَّاسَ ٱلْجُوعُ وَأَمَّا كَثْرَةُ ٱلْمَوَتَانِ فَلَهَا أَسْبَابٌ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْمَجَاعَاتِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَوْ كَثْرَةِ ٱلْفِتَنِ لِٱخْتِلَالِ ٱلدَّوْلَةِ فَيَكْثُرُ ٱلْهَرْجُ وَٱلْقَتْلُ أَوْ وُقُوعُ ٱلْوَبَاءِ وَسَبَبُهُ فِي ٱلْغَالِبِ فَسَادُ ٱلْهَوَاءِ بِكَثْرَةِ ٱلْعُمْرَانِ لِكَثْرَةِ مَا يُخَالِطُهُ مِنَ ٱلْعَفَنِ وَٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْفَاسِدَةِ وَإِذَا فَسَدَ ٱلْهَوَاءُ وَهُوَ غِذَاءُ ٱلرُّوحِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَمُلَابِسُهُ دَائِمًا فَيَسْرِي ٱلْفَسَادُ إِلَى مِزَاجِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلْفَسَادُ قَوِيًّا وَقَعَ ٱلْمَرَضُ فِي ٱلرِّئَةِ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلطَّوَاعِينُ وَأَمْرَاضُهَا مَخْصُوصَةٌ بِٱلرِّئَةِ وَإِنْ كَانَ ٱلْفَسَادُ دُونَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْكَثِيرِ فَيَكْثُرُ ٱلْعَفَنُ وَيَتَضَاعَفُ فَتَكْثُرُ ٱلْحُمَّيَاتُ فِي ٱلْأَمْزِجَةِ وَتَمْرَضُ ٱلْأَبْدَانُ وَتَهْلِكُ وَسَبَبُ كَثْرَةِ ٱلْعَفَنِ وَٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْفَاسِدَةِ فِي هٰذَا كُلِّهِ كَثْرَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَوُفُورُهُ آخِرَ ٱلدَّوْلَةِ لِمَا كَانَ فِي أَوَائِلِهَا مِنْ حُسْنِ ٱلْمَلَكَةِ وَرِفْقِهَا وَقِلَّةِ ٱلْمَغْرَمِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَلِهٰذَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ أَنَّ تَخَلُّلَ ٱلْخَلَاءِ وَٱلْقَفْرِ بَيْنَ ٱلْعُمْرَانِ ضَرُورِيٌّ لِيَكُونَ تَمَوُّجُ ٱلْهَوَاءِ يَذْهَبُ بِمَا يَحْصُلُ فِي ٱلْهَوَاءِ مِنَ ٱلْفَسَادِ وَٱلْعَفَنِ بِمُخَالَطَةِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَيَأْتِي بِٱلْهَوَاءِ ٱلصَّحِيحِ وَلِهٰذَا أَيْضًا فَإِنَّ ٱلْمَوَتَانَ يَكُونُ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلْمَوْفُورَةِ ٱلْعُمْرَانِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا بِكَثِيرٍ كَمِصْرَ بِٱلْمَشْرِقِ وَفَاسَ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱللهُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ

الفصل الحادي والخمسون

في ان العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها امره

إِعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ ٱلِٱجْتِمَاعَ لِلْبَشَرِ ضَرُورِيٌّ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْعُمْرَانِ ٱلَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ فِي ٱلِٱجْتِمَاعِ مِنْ وَازِعٍ حَاكِمٍ يَرْجِعُونَ

إليه وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأساً ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدينة الفاضلة والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة فإن هذه غير تلك وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة وأحكام الملك مندرجة فيها . الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وغيره إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم فقوانينها إذاً مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية والاقتداء فيها بالشرع أولاً ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سيرهم ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك

وَلا سُرقَةٌ . وَنَصُّ ٱلْكِتَابِ (بسم ٱلله الرحمن الرحيم) أَمَّا بَعْدُ :فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى ٱللهِ وَحْدَه لا شَرِيكَ لَهُ وَخَشْيَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ عَزَّ وَجلَّ وَمُزَايَلَةِ سُخْطِهِ وَٱحْفَظْ رَعِيَّتَكَ فِي ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَار وَٱلْزَمْ مَا أَلْبَسَكَ ٱللهُ مِنَ ٱلْعَافِيَةِ بِٱلذِّكْرِ لِمَعَادِكَ وَمَا أَنْتَ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَمَوْقُوفٌ عَلَيْه وَمَسْئُولٌ عَنْهُ وَٱلْعَمَلِ فِي ذَٰلِكَ كُلِّهِ بِمَا يَعْصِمُكَ ٱللهُ عَزَّ وَجلَّ وَيُنَجِّيكَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مِن عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَأَوْجَبَ ٱلرَّأْفَةَ عَلَيْكَ بِمَنِ ٱسْتَرْعَاكَ أَمْرَهُم مِنْ عِبَادِهِ وَأَلْزَمَكَ ٱلْعَدْلَ فِيهِمْ وَٱلْقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحُدُودِهِ عَلَيْهِمْ وَٱلذَّبِّ عَنْهُمْ وَٱلدَّفْع عَنْ حَرِيمِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ وَٱلْحَقْنِ لِدِمَائِهِمْ وَٱلْأَمْنِ لِسِرْبِهِمْ وَإِدْخَالِ ٱلرَّاحَةِ عَلَيْهِم وَمُؤَاخِذُكَ بِمَا فُرِضَ عَلَيْكَ وَمُوقِفُكَ عَلَيْهِ وَسَائِلُكَ عَنْهُ وَمُثِيبُكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ فَفَرِّغْ لِذَٰلِكَ فَهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَبَصَرَكَ وَلا يُشْغِلُكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ وَمِلاكُ شَأْنِكَ وَأَوَّلُ مَا يُوقِفُكَ ٱللهُ عَلَيْهِ وَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تُلْزِمُ بِهِ نَفْسَكَ وَتَنْتَسِبُ إِلَيْهِ فِعْلُكَ ٱلْمُوَاظَبَةَ عَلَى مَا فَرَضَ ٱللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْكَ مِنَ ٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ وَٱلْجَمَاعَةِ عَلَيْهَا بِٱلنَّاس قِبَلَكَ وَتَوَابِعِهَا عَلَى سُنَنِهَا مِنْ إِسْبَاغِ ٱلْوُضُوءِ لَهَا وَٱفْتِتَاحِ ذِكْرِ ٱللهِ عَزَّ وَجلَّ فِيهَا وَرَتِّل فِي قِرَاءَتِكَ وَتَمَكَّنْ فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشَهُّدِكَ وَلْتَصْرِفْ فِيهِ رَأْيَكَ وَنِيَّتَكَ وَٱحْضُضْ عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِمَّنْ مَعَكَ وَتَحْتَ يَدِكَ وَٱدْأَبْ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا كَمَا قَالَ ٱللهُ عَزَّ وَجَل تَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ ثُمَّ أَتْبِعْ ذَٰلِكَ بِٱلْأَخْذِ بِسُنَنِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَٱلْمُثَابَرَةِ عَلَى خَلائِقِهِ وَٱقْتِفَاءِ أَثَرِ ٱلسَّلَفِ ٱلصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَٱسْتَعِن عَلَيْهِ بِٱسْتِخَارَةِ ٱللهِ عَزَّ وَجلَّ وَتَقْوَاهُ وَبِلُزُومِ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرِه وَنَهْيِهِ وَحَلالِهِ وَحَرَامِهِ وَٱئْتِمَامِ مَا جَاءَتْ بِهِ ٱلْآثَارُ عَنْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِٱلْحَقِّ لِلّٰهِ عَزَّ وَجلَّ وَلا تَمِيلَنَّ عَنِ ٱلْعَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ أَوْ كَرِهْتَ لِقَرِيب مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِبَعِيدٍ وَآثِرِ ٱلْفِقْهَ وَأَهْلَهُ وَٱلدِّينَ وَحَمَلَتَهُ وَكِتَابَ ٱللهِ عَزَّ وَجلَّ وَٱلْعَامِلِين بِهِ فَإِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَزَيَّنُ بِهِ ٱلْمَرْءُ ٱلْفِقْهُ فِي ٱلدِّينِ وَٱلطَّلَبُ لَهُ وَٱلْحَثُّ عَلَيْهِ وَٱلْمَعْرِفَة بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى ٱللهِ عَزَّ وَجلَّ فَإِنَّهُ ٱلدَّلِيلُ عَلَى ٱلْخَيْرِ كُلِّهِ وَٱلْقَائِدُ إِلَيْهِ وَٱلْآمِرُ بِهِ وَٱلنَّاهِي عَنِ ٱلْمَعَاصِي وَٱلْمُوبِقَاتِ كُلِّهَا وَمَعَ تَوْفِيقِ ٱللهِ عَزَّ وَجلَّ يَزْدَادُ ٱلْمَرْءُ مَعْرِفَةً وَإِجْلالا لَهُ وَدَرَكاً لِلدَّرَجَاتِ ٱلْعُلَى فِي ٱلْمَعَادِ مَعَ مَا فِي ظُهُورِهِ لِلنَّاسِ مِنَ ٱلتَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ وَٱلْهَيْبَة لِسُلْطَانِكَ وَٱلْأَنَسَةِ بِكَ وَٱلثِّقَةِ بِعَدْلِكَ وَعَلَيْكَ بِٱلِاقْتِصَادِ فِي ٱلْأُمُورِ كُلِّهَا فَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْيَن

نفعاً ولاَ أخصَّ أمناً ولاَ أجمعَ فضلاً منهُ وَالقصدُ داعيةٌ إلى الرُّشدِ وَالرُّشدُ دليلٌ على التَّوفيقِ وَالتَّوفيقُ قائدٌ إلى السَّعادةِ وَقِوامُ الدِّينِ وَالسُّنَنِ الهَادِيَةِ بالاقتصادِ وَكذا في دُنياكَ كلِّها وَلاَ تقصرْ في طَلَبِ الآخرةِ وَالأجرِ وَالأعمالِ الصَّالحةِ وَالسُّننِ المعروفةِ وَمَعالمِ الرُّشدِ وَالإعانةِ وَالاستكثارِ مِنَ البِرِّ وَالسَّعيِ لهُ إذا كانَ يُطلبُ بهِ وَجهُ اللهِ تعالى وَمَرضاتُهُ وَمُرافقةُ أولياءِ اللهِ في دارِ كرامتِهِ أما تعلمُ أنَّ القصدَ في شأنِ الدُّنيا يورثُ العِزَّ وَيُمحِّصُ مِنَ الذُّنوبِ وَأنَّكَ لَنْ تحوطَ نفسَكَ مِنْ قائلٍ وَلاَ تنصلحُ أمورُكَ بأفضلَ منهُ فأتِهِ وَاهتدِ بهِ تتمَّ أمورُكَ وَتزدْ مقدرتُكَ وَتصلحْ عامّتُكَ وَخاصّتُكَ وَأحسنْ ظنَّكَ باللهِ عزَّ وَجلَّ تستقمْ لكَ رعيّتُكَ وَالتمسِ الوسيلةَ إليهِ في الأمورِ كلِّها تستدمْ بهِ النِّعمةَ عليكَ وَلاَ تتَّهِمَنَّ أحداً مِنَ النَّاسِ فيما تولِّيهِ مِنْ عملِكَ قبلَ أنْ تكشفَ أمرَهُ فإنَّ إيقاعَ التُّهمِ بالبُرآءِ وَالظُّنونَ السَّيئةَ بهمْ آثمٌ إثمٍ فاجعلْ مِنْ شأنِكَ حسنَ الظَّنِّ بأصحابِكَ وَاطردْ عنكَ سوءَ الظَّنِّ بهمْ وَارفضْهُ فيهمْ يُعنكَ ذلكَ على استطاعتِهمْ وَرياضتِهمْ وَلاَ يجدنَّ عدوُّ اللهِ الشَّيطانُ في أمرِكَ مغمزاً فإنَّهُ يكتفي بالقليلِ مِنْ وَهنِكَ وَيُدخلُ عليكَ مِنَ الغمِّ بسوءِ الظَّنِّ بهمْ ما يُنغِّصُ لذاذةَ عيشِكَ وَاعلمْ أنَّكَ تجدُ بحسنِ الظَّنِّ قوّةً وَراحةً وَتكتفي بهِ ما أحببتَ كفايتَهُ مِنْ أمورِكَ وَتدعو بهِ النَّاسَ إلى محبّتِكَ وَالاستقامةِ في الأمورِ كلِّها وَلاَ يمنعكَ حسنُ الظَّنِّ بأصحابِكَ وَالرَّأفةُ برعيّتِكَ أنْ تستعملَ المسألةَ وَالبحثَ عنْ أمورِكَ وَالمباشرةَ لأمورِ الأولياءِ وَحياطةِ الرَّعيّةِ وَالنَّظرِ في حوائجِهمْ وَحملِ مؤوناتِهمْ أيسرُ عندكَ ممّا سوى ذلكَ فإنَّهُ أقومُ للدِّينِ وَأحيا للسُّنَّةِ وَأخلصْ نيَّتَكَ في جميعِ هذا وَتفرَّدْ بتقويمِ نفسِكَ تفرُّدَ مَنْ يعلمُ أنَّهُ مسؤولٌ عمّا صنعَ وَمجزيٌّ بما أحسنَ وَمؤاخذٌ بما أساءَ فإنَّ اللهَ عزَّ وَجلَّ جعلَ الدِّينَ حِرزاً وَعِزّاً وَرفعَ مَنِ اتَّبعَهُ وَعزَّزَهُ وَاسلكْ بمَنْ تسوسُهُ وَترعاهُ نهجَ الدِّينِ وَطريقةَ الهُدى وَأقمْ حدودَ اللهِ تعالى في أصحابِ الجرائمِ على قدرِ منازلِهمْ وَما استحقُّوهُ وَلاَ تعطِّلْ ذلكَ وَلاَ تتهاونْ بهِ وَلاَ تؤخِّرْ عقوبةَ أهلِ العقوبةِ فإنَّ في تفريطِكَ في ذلكَ ما يُفسدُ عليكَ حسنَ ظنِّكَ وَاعتزمْ على أمرِكَ في ذلكَ بالسُّننِ المعروفةِ وَجانبِ البِدعَ وَالشُّبهاتِ يسلمْ لكَ دينُكَ وَتتمْ لكَ مروءتُكَ وَإذا عاهدتَ عهداً فأوفِ بهِ وَإذا وعدتَ خيراً فأنجزْهُ وَاقبلِ الحسنةَ وَادفعْ بها وَأغمضْ عنْ عيبِ

كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَٱشْدُدْ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلِ ٱلْكَذِبِ وَٱلزُّورِ وَأَبْغِضْ أَهْلَ ٱلنَّمِيمَةِ فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أُمُورِكَ فِي عَاجِلِهَا وَآجِلِهَا تَقْرِيبُ ٱلْكَذُوبِ وَٱلْجَرَاءَةُ عَلَى ٱلْكَذِبِ لِأَنَّ ٱلْكَذِبَ رَأْسُ ٱلْمَآثِمِ وَٱلزُّورَ وَٱلنَّمِيمَةَ خَاتِمَتُهَا لِأَنَّ ٱلنَّمِيمَةَ لا يَسْلَمُ صَاحِبُهَا وَقَائِلُهَا لاَ يَسْلَمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلاَ يَسْتَقِيمُ لَهُ أَمْرٌ وَأَحِبَّ أَهْلَ ٱلصَّلاَحِ وَٱلصِّدْقِ وَأَعِزَّ ٱلْأَشْرَافَ بِٱلْحَقِّ وَآسِ ٱلضُّعَفَاءَ وَصِلِ ٱلرَّحِمَ وَٱبْتَغِ بِذَٰلِكَ وَجْهَ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَإِعْزَازَ أَمْرِهِ وَٱلْتَمِسْ فِيهِ ثَوَابَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَٱجْتَنِبْ سُوءَ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلْجَوْرِ وَٱصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ وَأَظْهِرْ بَرَاءَتَكَ مِنْ ذَٰلِكَ لِرَعِيَّتِكَ وَأَنْعِمْ بِٱلْعَدْلِ فِي سِيَاسَتِهِمْ وَقُمْ بِٱلْحَقِّ فِيهِمْ وَبِٱلْمَعْرِفَةِ ٱلَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ ٱلْهُدَى وَٱمْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ ٱلْغَضَبِ وَآثِرِ ٱلْحِلْمَ وَٱلْوَقَارَ وَإِيَّاكَ وَٱلْحِدَّةَ وَٱلطَّيْشَ وَٱلْغُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ أَنَا مُسَلَّطٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَٰلِكَ سَرِيعٌ إِلَى نَقْصِ ٱلرَّأْيِ وَقِلَّةِ ٱلْيَقِينِ بِٱللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَخْلِصْ لِلّٰهِ وَحْدَهُ ٱلنِّيَّةَ فِيهِ وَٱلْيَقِينَ بِهِ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمُلْكَ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ وَلَنْ تَجِدَ تَغَيُّرَ ٱلنِّعْمَةِ وَحُلُولَ ٱلنِّقْمَةِ عَلَى أَحَدٍ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى حَمَلَةِ ٱلنِّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْمَبْسُوطِ لَهُمْ فِي ٱلدَّوْلَةِ إِذَا كَفَرُوا نِعَمَ ٱللّٰهِ وَإِحْسَانَهُ وَٱسْتَطَالُوا بِمَا أَعْطَاهُمُ ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ وَدَعْ عَنْكَ شَرَهَ نَفْسِكَ وَلْتَكُنْ ذَخَائِرُكَ وَكُنُوزُكَ ٱلَّتِي تَدَّخِرُ وَتَكْنِزُ ٱلْبِرَّ وَٱلتَّقْوَى وَٱسْتِصْلاَحَ ٱلرَّعِيَّةِ وَعِمَارَةَ بِلاَدِهِمْ وَٱلتَّفَقُّدَ لِأُمُورِهِمْ وَٱلْحِفْظَ لِدِمَائِهِمْ وَٱلْإِغَاثَةَ لِمَلْهُوفِهِمْ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَمْوَالَ إِذَا كَثُرَتْ وَٱدُّخِرَتْ فِي ٱلْخَزَائِنِ لاَ تَنْمُو وَإِذَا كَانَتْ فِي صَلاَحِ ٱلرَّعِيَّةِ وَإِعْطَاءِ حُقُوقِهِمْ وَكَفِّ ٱلْأَذِيَّةِ عَنْهُمْ نَمَتْ وَزَكَتْ وَصَلَحَتْ بِهَا ٱلْعَامَّةُ وَتَرَتَّبَتْ بِهَا ٱلْوِلاَيَةُ وَطَابَ بِهَا ٱلزَّمَانُ وَٱعْتُقِدَ فِيهَا ٱلْعِزُّ وَٱلْمَنْفَعَةُ فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ ٱلْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ ٱلْإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ وَوَفِّرْ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قِبَلَكَ حُقُوقَهُمْ وَأَوْفِ مِنْ ذَٰلِكَ حِصَصَهُمْ وَتَعَهَّدْ مَا يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَٰلِكَ قَرَّتِ ٱلنِّعْمَةُ عَلَيْكَ وَٱسْتَوْجَبْتَ ٱلْمَزِيدَ مِنَ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَكُنْتَ بِذَٰلِكَ عَلَى جِبَايَةِ خَرَاجِكَ وَجَمْعِ أَمْوَالِ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ وَكَانَ ٱلْجَمِيعُ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لِطَاعَتِكَ وَأَطْيَبَ أَنْفُساً بِكُلِّ مَا أَرَدْتَ وَأَجْهِدْ نَفْسَكَ فِيمَا حَدَّدْتُ لَكَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ وَلْيَعْظُمْ حَقُّكَ فِيهِ وَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ ٱلْمَالِ مَا أُنْفِقَ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَٱعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ حَقَّهُمْ وَأَثِبْهُمْ عَلَيْهِ وَإِيَّاكَ أَنْ

تنسيكَ الدُّنيا وَغُرُورُها هولَ الآخرةِ فتتهاونَ بما يحقُّ عليكَ فإنَّ التّهاونَ يورثُ التّفريط وَالتّفريطَ يورثُ البَوارَ وَليكُنْ عملُكَ للهِ عزَّ وجلَّ وَارْجُ الثّوابَ فيهِ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ قدْ أسبغَ عليكَ فضلَهُ وَاعتصِمْ بالشّكرِ وَعليهِ فاعتمدْ يزدكَ اللهُ خيراً وَإحساناً فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يثيبُ بقدرِ شكرِ الشّاكرينَ وَإحسانِ المُحسنينَ وَلا تحقِرَنَّ ذنباً وَلا تُمالِئَنَّ حاسِداً وَلا ترحَمَنَّ فاجِراً وَلا تصِلَنَّ كفُوراً وَلا تُداهِنَنَّ عدُوّاً وَلا تُصدِّقَنَّ نمّاماً وَلا تأمَنَنَّ غدّاراً وَلا تُوالِيَنَّ فاسِقاً وَلا تتبعَنَّ غاوِياً وَلا تحمُدَنَّ مرائياً وَلا تحتَقِرَنَّ إنساناً وَلا تردَّنَّ سائلاً فقيراً وَلا تُحسِنَنَّ باطِلاً وَلا تُلاحِظَنَّ مُضحِكاً وَلا تُخلِفَنَّ وَعداً وَلا تزهُوَنَّ فخراً وَلا تُظهِرَنَّ غضباً وَلا تُباينَنَّ رجاء وَلا تمشِيَنَّ مرحاً وَلا تُفرِطَنَّ في طلبِ الآخرةِ وَلا ترفعْ للنّمّامِ عيناً وَلا تُغمِضَنَّ عنْ ظالمٍ رَهبةً منهُ أوْ مُحاباةً وَلا تطلُبَنَّ ثوابَ الآخرةِ في الدّنيا وَأكثِرْ مُشاورةَ الفُقهاءِ وَاستعمِلْ نفسَكَ بالحِلمِ وَخُذْ عنْ أهلِ التّجارِبِ وَذوي العقلِ وَالرّأيِ وَالحِكمةِ وَلا تُدخِلَنَّ في مشورتِكَ أهلَ الرّقّةِ وَالبُخلِ وَلا تسمَعَنَّ لهمْ قولاً فإنَّ ضررَهُمْ أكثرُ منْ نفعِهِمْ وَليسَ شيءٌ أسرعَ فساداً لِما استقبلتَ فيهِ أمرَ رعيّتِكَ منَ الشّحِّ وَاعلمْ أنّكَ إذا كنتَ حريصاً كنتَ كثيرَ الأخذِ قليلَ العطيّةِ وَإذا كنتَ كذلكَ لمْ يستقِمْ لكَ أمرُكَ إلّا قليلاً فإنَّ رعيّتَكَ إنّما تعقِدُ على محبّتِكَ بالكفِّ عنْ أموالِهِمْ وَتركِ الجورِ عليهِمْ وَابتدئْ منْ صافاكَ منْ أوليائِكَ بالإفضالِ عليهِمْ وَحُسنِ العطيّةِ لهمْ وَاجتنِبِ الشّحَّ وَاعلمْ أنّهُ أوّلُ ما عصى الإنسانُ بهِ ربَّهُ وَإنَّ العاصي بمنزلةِ خزيٍ وَهوَ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ وَمنْ يوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئكَ هُمُ المُفلِحونَ فسهِّلْ طريقَ الجودِ بالحقِّ وَاجعلْ للمُسلمينَ كلِّهِمْ منْ فيئِكَ حظّاً وَنصيباً وَأيقِنْ أنَّ الجودَ أفضلُ أعمالِ العِبادِ فأعِدَّهُ لنفسِكَ خُلُقاً وَارضَ بهِ عملاً وَمذهباً وَتفقّدِ الجُندَ في دواوينِهِمْ وَمكاتبِهِمْ وَأدِرَّ عليهِمْ أرزاقَهُمْ وَوسِّعْ عليهِمْ في معايشِهِمْ يُذهِبِ اللهُ عزَّ وجلَّ بذلكَ فاقتَهُمْ فيقوى لكَ أمرُهُمْ وَتزيدُ قلوبُهُمْ في طاعتِكَ وَأمرِكَ خُلوصاً وَانشراحاً وَحسبُ ذي السّلطانِ منَ السّعادةِ أنْ يكونَ على جُندِهِ وَرعيّتِهِ ذا رحمةٍ في عدلِهِ وَحيطتِهِ وَإنصافِهِ وَعنايتِهِ وَشفقتِهِ وَبِرِّهِ وَتوسعتِهِ فزايِلْ مكروهَ احدِ البابينِ باستشعارِ فضيلةِ البابِ الآخرِ وَلزومِ العملِ بهِ تلقَ إنْ شاءَ اللهُ تعالى نجاحاً وَصلاحاً وَفلاحاً وَاعلمْ أنَّ القضاءَ منَ اللهِ تعالى بالمكانِ

ٱلَّذِي لَيسَ فَوقَهُ شَيْءٌ مِنَ ٱلأُمورِ لِأَنَّهُ مِيزَانُ ٱللهِ ٱلَّذِي تعدَّلُ عَلَيْهِ أَحوَالُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلأَرْضِ وَبِإِقَامَةِ ٱلعَدْلِ فِي ٱلقَضَاءِ وَٱلعَمَلِ تَصْلُحُ أَحوَالُ ٱلرَّعِيَّــةِ وَتَأْمَنُ ٱلسُّبُل وَيَنْتَصِفُ ٱلمَظْلُومُ وَتَأْخذُ ٱلنَّاسُ حُقُوقَهُمْ وَتَحْسُنُ ٱلمَعِيشَةُ وَيُؤَدَّى حَقُّ ٱلطَّــاعَةِ وَيَرزُقُ ٱللهُ ٱلعَافِيَةَ وَٱلسَّلامَةَ وَيُقِيمُ ٱلدِّينَ وَيُجْرِي ٱلسُّنَنَ وَٱلشَّرَائِـعَ فِي مَجَارِيهَا وَٱشْتَد فِي أَمرِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَوَرَّعْ عَنِ ٱلنَّطَفِ وَٱمْضِ لِإِقَامَةِ ٱلحُدُودِ وَأَقِلَّ ٱلعَجَلَةَ وَٱبْعُــد عَنِ ٱلضَّجَرِ وَٱلقَلَقِ وَٱقْنَعْ بِٱلقِسَمِ وَٱنْتَفِعْ بِتَجرِبَتِكَ وَٱنْتَبِهْ فِي صَمْتِكَ وَٱسْدُدْ فِي مَنْطِقِك وَأَنْصِفِ ٱلخَصْمَ وَقِفْ عِنْدَ ٱلشُّبْهَةِ وَأَبْلِـغْ فِي ٱلحُجَّةِ وَلَا يَأْخُذْكَ فِي أَحدٍ مِنْ رَعِيَّتِك مُحَابَاةٌ وَلا مُجَامَلَةٌ وَلا لَوْمَةُ لائِمٍ وَتَثَبَّتْ وَتَأَنَّ وَرَاقِبْ وَٱنظُرْ وَتَفَكَّرْ وَتَدَبَّرْ وَٱعْتَبِر وَتَوَاضَعْ لِرَبِّكَ وَٱرْفِق بِجَمِيعِ ٱلرَّعِيَّةِ وَسَلِّطِ ٱلحَقَّ عَلى نَفْسِكَ وَلا تُسرِعَنَّ إِلَى سَفكِ دَمٍ فَإِنَّ ٱلدِّمَاءَ مِنَ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ عَظِيمٍ ٱنتِهَاكاً لَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا وَٱنظُرْ هَــذَا ٱلخَرَاجَ ٱلَّذِي ٱستَقَامَتْ عَلَيْهِ ٱلرَّعِيَّةُ وَجَعَلَهُ ٱللهُ لِلإِسْلامِ عِزّاً وَرِفْعَــةً وَلِأَهْلِــهِ تَوسِعَةً وَمَنَعَةً وَلِعَدُوِّهِ وَعَدُوِّهِم كَبْتاً وَغَيظاً وَلِأَهلِ ٱلكُفْرِ مِنْ مُعَادِيهِمْ ذُلاً وَصَغَاراً فَوَزِّعْهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ بِٱلحَقِّ وَٱلعَدْلِ وَٱلتَّسْوِيَةِ وَٱلعُمُومِ وَلَا تَدفَعَنَّ شَيْئاً مِنْهُ عَنْ شَرِيف لِشَرَفِهِ وَلا عَنْ غَنِيٍّ لِغِنَاهُ وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لكَ وَلا عَنْ أَحدٍ مِنْ خَاصَّتِكَ وَلا حَاشِيَتِكَ وَلا تَأْخُذَنَّ مِنْــهُ فَوْقَ ٱلِاحتِمَالِ وَلا تُكَلِّفْ أَمراً فِيهِ شَطَطٌ وَٱحْمِــلِ ٱلنَّاسَ كُلَّهُم عَلى أَمرِ ٱلحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ أَجمَعُ لِأَنفُسِهِمْ وَأَلْزَمُ لِرِضَاءِ ٱلعَامَّةِ وَٱعْلَمْ أَنَّكَ جُعِلتَ بِوِلَايَتِك خَازِناً وَحَافِظاً وَرَاعِياً وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتَكَ لِأَنَّكَ رَاعِيهِمْ وَقَيِّمُهُمْ فَخُــذ مِنهُمْ مَا أَعْطَوكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَنَفِّذْهُ فِي قِوَامِ أَمرِهِمْ وَصَلاحِهِمْ وَتَقوِيمِ أَوَدِهِمْ وَٱستَعْمِل عَلَيْهِمْ أُولِي ٱلرَّأْيِ وَٱلتَّدبِيرِ وَٱلتَّجرِبَةِ وَٱلخِبْرَةِ بِٱلعِلْمِ وَٱلعَمَلِ بِٱلسِّيَاسَةِ وَٱلعَفَافِ وَوَسِّع عَلَيْهِمْ فِي ٱلرِّزْقِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ ٱلحُقُوقِ ٱللَّازِمَةِ لَكَ فِيمَا تَقَلَّدْتَ وَأُسْنِدَ إِلَيْكَ فَلا يَشغَلكَ عَنْهُ شَاغِلٌ وَلَا يَصْرِفْكَ عَنْهُ صَارِفٌ فَإِنَّكَ مَتَى آثَرْتَــهُ وَقُمْتَ فِيهِ بِٱلوَاجِب ٱستَدعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ ٱلنِّعمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحُسْنَ ٱلأُحدُوثَةِ فِي عَمَلِكَ وَٱحْتَرَزْتَ بِــهِ ٱلمَحَبَّةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَأَعَنْتَ عَــلى ٱلصَّلاحِ فَدَرَّتِ ٱلخَيْرَاتُ بِبَلَدِكَ وَفَشَتِ ٱلعِمَارَةُ بِنَاحِيَتِكَ وَظَهَرَ ٱلخِصْبُ فِي كُوَرِكَ وَكَثُرَ خَرَاجُكَ وَتَوَفَّرَتْ أَموَالُكَ وَقَوِيتَ بِذَلِكَ عَلى ٱرْتِيَاضِ جُندِكَ وَإِرْضَاءِ ٱلعَامَّةِ بِإِفَاضَةِ ٱلعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفسِكَ وَكُنْتَ مَحمُودَ ٱلسِّيَاسَةِ

مرضيٍّ ٱلعَدْلِ في ذٰلِكَ عِندَ عَدُوِّكَ وَكُنتَ في أُمورِكَ كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَآلَةٍ وَقُوَّةٍ وَعُدَّةٍ فنَافِسْ في ذٰلِكَ وَلا تُقَدِّمْ عَلَيْهِ شَيْئاً تُحْمَدْ عَاقِبَةُ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالى وَٱجْعَلْ في كلِّ كُورَةٍ مِن عَمَلِكَ أَمِيناً يُخبِرُكَ أَخبَارَ عُمَّالِكَ وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِيَرِهِمْ وَأَعمَالِهِم حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ في عَمَلِهِ مُعَايِنٌ لِأُمورِهِ كُلِّهَا فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِأَمرٍ فَٱنظُرْ في عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذٰلِكَ فَإِنْ رَأَيتَ ٱلسَّلامَةَ فِيهِ وَٱلعَافِيَةَ وَرَجَوْتَ فِيهِ حسْنَ ٱلدِّفَاعِ وَٱلصُّنعِ فَأَمضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ وَرَاجِعْ أَهلَ ٱلبَصَرِ وَٱلعِلمِ بِهِ ثُمَّ خُذ فِيهِ عُدَّتَهُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ ٱلرَّجلُ في أَمرِهِ وَقَدَّرَهُ وَأَتَاهُ عَلَى مَا يَهوَى فَأَغوَاهُ ذٰلِكَ وَأَعجَبَهُ فإِنْ لَمْ يَنظُرْ في عَوَاقِبِهِ أَهلَكَهُ وَنُقِضَ عَلَيهِ أَمرُهُ فَٱستَعمِلِ ٱلحَزْمَ في كُلِّ مَا أَرَدت وَبَاشِرْهُ بَعْدَ عَونِ ٱللهِ عَزَّ وَجلَّ بِٱلقُوَّةِ وَأَكثِرْ مِن ٱستِخَارَةِ رَبِّكَ في جَمِيعِ أُمورِكَ وَٱفرَغْ مِنْ عَمَلِ يَوْمِكَ وَلا تُؤَخِّرهُ لِغَدِكَ وَأَكثِرْ مُبَاشَرَتَهُ بِنَفسِكَ فَإِنَّ لِلغَدِ أُموراً وَحَوَادِث تُلهِيكَ عَنْ عَمَلِ يَوْمِكَ ٱلَّذِي أَخَّرتَ وَٱعلَمْ أَنَّ ٱليَوْمَ إِذَا مَضَى ذَهَبَ بِمَا فِيهِ وَإِذَا أَخَّرتَ عَمَلَهُ ٱجتَمَعَ عَلَيكَ عَمَلُ يَوْمَيْنِ فَيَثْقُلُكَ ذٰلِكَ حَتَّى تَمرَضَ مِنْهُ وَإِذَا أَمضَيت لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ أَرَحتَ بَدَنَكَ وَنَفسَكَ وَجَمَعتَ أَمرَ سُلطَانِكَ وَٱنظُرْ أَحرَارَ ٱلنَّاس وَذَوِي ٱلفَضلِ مِنهُم مِمَّنْ بَلَوْتَ صَفَاءَ طَوِيَّتِهِمْ وَشَهِدتَ مَوَدَّتَهُمْ لَكَ وَمُظَاهَرَتَهُم بِٱلنُّصحِ وَٱلمُحَافَظَةِ عَلَى أَمرِكَ فَٱستَخلِصْهُمْ وَأَحسِنْ إِلَيهِمْ وَتَعَاهَدْ أَهلَ ٱلبُيُوتَاتِ مِمَّن قَدْ دَخَلَتْ عَلَيهِمِ ٱلحَاجَةُ وَٱحتَمِلْ مَؤُونَتَهُمْ وَأَصلِحْ حَالَهُمْ حَتَّى لا يَجِدُوا لِخَلَّتِهِمْ مَسّاً وَأَفرِدْ نَفسَكَ لِلنَّظَرِ في أُمورِ ٱلفُقَرَاءِ وَٱلمَسَاكِينِ وَمَنْ لا يَقدِرُ عَلَى رَفعِ مَظلَمَتِهِ إِلَيكَ وَٱلمُحتَقَرُ ٱلَّذِي لا عِلمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ فَسَلْ عَنْهُ أَخفَى مَسْأَلَةٍ وَوَكِّلْ بِأَمثَالِهِ أَهلَ ٱلصَّلاح مِنْ رَعِيَّتِكَ وَمُرهُم بِرَفعِ حَوَائِجِهِمْ وَحَالاتِهِمْ إِلَيْكَ لِتَنظُرَ فِيمَا يُصلِحُ ٱللهُ بِهِ أَمرَهُم وَتَعَاهَدْ ذَوِي ٱلبَأسَاءِ وَأَيتَامَهُمْ وَأَرَامِلَهُمْ وَٱجعَلْ لَهُمْ أَرزَاقاً مِنْ بَيتِ ٱلمَالِ ٱقتِدَاءً بِأَمِيرِ ٱلمُؤمِنِينَ أَعَزَّهُ ٱللهُ تَعَالى في ٱلعَطفِ عَلَيهِمْ وَٱلصِّلَةِ لَهُمْ لِيُصلِحَ ٱللهُ بِذٰلِكَ عَيشَهُمْ وَيَرزُقَكَ بِهِ بَرَكَةً وَزِيَادَةً وَأَجرِ لِلأَضِرَّاءِ مِنْ بَيتِ ٱلمَالِ وَقَدِّمْ حَمَلَةَ ٱلقُرآن مِنهُمْ وَٱلحَافِظِينَ لِأَكثَرِهِ في ٱلجِرَايَةِ عَلَى غَيرِهِمْ وَٱنصُبْ لِمَرضَى ٱلمُسلِمِينَ دُوراً تَأوِيهِمْ وَقُوَّاماً يَرفُقُونَ بِهِمْ وَأَطِبَّاءَ يُعَالِجُونَ أَسقَامَهُمْ وَأَسعِفْهُم بِشَهَوَاتِهِمْ مَا لَمْ يُؤَدِّ ذٰلِكَ إِلى إِسرَافٍ في بَيتِ ٱلمَالِ وَٱعلَمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا أُعطُوا حُقُوقَهُمْ وَأَفضَلَ أَمَانِيهِم

لم يُرضِهم ذلكَ ولَمْ تطِبْ أنفسُهم دُونَ رَفعِ حوائجِهِمْ إلى وُلاتِهِمْ طَمَعاً في نَيلِ الزِّيادَةِ وَفَضْلِ الرِّفْقِ مِنْهُمْ وَرُبَّمَا تَبَرَّمَ المُتَصَفِّحُ لِأُمورِ النَّاسِ لِكَثْرَةِ ما يَرِدُ عَلَيْهِ وَيُشْغِلُ فِكْرَهُ وَذِهْنَهُ فِيهَا مَا يَنالُهُ بِهِ مِنْ مَؤُونَةٍ وَلَيسَ مَنْ يَرْغَبُ في العَدْلِ وَيَعْرِفُ مَحَاسِنَ أُمورِهِ في العَاجِلِ وَفَضْلَ ثَوَابِ الآجِلِ كَالذِي يَسْتَقْبِلُ مَا يُقَرِّبُهُ إلى اللهِ تَعالى وَيَلْتَمِسُ رَحْمَتَهُ وَأَكْثِرِ الإذْنَ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ وَأَبرِزْ لَهُمْ وَجهَكَ وَسَكِّنْ لَهُمْ حَوَاسَّكَ وَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ وَأَظْهِرْ لَهُمْ بِشْرَكَ وَلِنْ لَهُمْ في المَسْألَةِ وَالنُّطْقِ وَاعْطِفْ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ وَإذَا أعْطَيْتَ فَأَعْطِ بِسَمَاحَةٍ وَطِيبِ نَفْسٍ وَالْتِمَاسٍ لِلصَّنِيعَةِ وَالأَجْرِ مِنْ غَيرِ تَكْدِيرٍ وَلا امْتِنَانٍ فَإنَّ العَطِيَّةَ عَلَى ذلِكَ تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ إنْ شَاءَ اللهُ تَعالى وَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ أُمورِ الدُّنْيا وَمَنْ مَضَى قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ وَالرِّئَاسَةِ في القُرُونِ الخَالِيَةِ وَالأُمَمِ البَائِدَةِ ثُمَّ اعْتَصِمْ في أَحوالِكَ كُلِّهَا بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعالى وَالوُقُوفِ عِنْدَ مَحَبَّتِهِ وَالعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ وَبِإقَامَةِ دِينِهِ وَكِتابِهِ وَاجْتَنِبْ ما فَارَقَ ذلِكَ وَخَالَفَهُ وَدَعَا إلى سُخْطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاعْرِفْ مَا يَجْمَعُ عُمَّالُكَ مِنَ الأَمْوالِ وَمَا يُنْفِقُونَ مِنْهَا وَلا تَجْمَعْ حَرَاماً وَلا تُنفِقْ إسْرَافاً وَأَكْثِرْ مُجَالَسَةَ العُلَماءِ وَمُشَاوَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَتَهُمْ وَلْيَكُنْ هَوَاكَ اتِّبَاعَ السُّنَنِ وَإقَامَتَهَا وَإيثَارَ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ وَمَعَالِيهَا وَلْيَكُنْ أَكْرَمُ دُخَلائِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إذَا رَأَى عَيْباً فِيكَ لَمْ تَمْنَعْهُ هَيْبَتُكَ عَنْ إنْهَاءِ ذلِكَ إلَيْكَ في سِرِّكَ وَإعْلامِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ النَّقْصِ فَإنَّ أُولَئِكَ أَنْصَحُ أَوْلِيائِكَ وَمُظَاهِرُونَ لَكَ وَانْظُرْ عُمَّالَكَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ وَكُتَّابَكَ فَوَقِّتْ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ في كُلِّ يَوْمٍ وَقْتاً يَدْخُلُ فِيهِ عَلَيْكَ بِكُتُبِهِ وَمُؤَامَرَاتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ حَوَائِجِ عُمَّالِكَ وَأُمورِ الدَّوْلَةِ وَرَعِيَّتِكَ ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُورِدُ عَلَيْكَ مِنْ ذلِكَ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ وَفَهْمَكَ وَعَقْلَكَ وَكَرِّرِ النَّظَرَ فِيهِ وَالتَّدَبُّرَ لَهُ فَمَا كَانَ مُوَافِقاً لِلْحَقِّ وَالحَزْمِ فَأَمْضِهِ وَاسْتَخِرِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ وَمَا كَانَ مُخَالِفاً لِذلِكَ فَاصْرِفْهُ إلى المَسْأَلَةِ عَنْهُ وَالتَّثَبُّتِ فِيهِ وَلا تَمْتَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ وَلا غَيْرِهِمْ بِمَعْرُوفٍ تُؤْتِيهِ إلَيْهِمْ وَلا تَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ إلَّا الوَفَاءَ وَالاسْتِقَامَةَ وَالعَوْنَ في أُمورِ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ وَلا تَضَعَنَّ المَعْرُوفَ إلَّا عَلَى ذلِكَ وَتَفَهَّمْ كِتَابِي إلَيْكَ وَأَنْعِمِ النَّظَرَ فِيهِ وَالعَمَلَ بِهِ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَى جَمِيعِ أُمورِكَ وَاسْتَخِرْهُ فَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الصَّلاحِ وَأَهْلِهِ وَلْيَكُنْ أَعْظَمُ سِيرَتِكَ وَأَفْضَلُ رَغْبَتِكَ مَا كَانَ لِلهِ عَزَّ

وجلّ رضى ولدينه نظاماً ولأهله عزّاً وتمكيناً وللملّة والذمّة عدلاً وصلاحاً وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام . وحدّث الإخباريّون أنّ هذا الكتاب لمّا ظهر وشاع أمره أعجب به الناس واتّصل بالمأمون فلمّا قرىء عليه قال ما أبقى أبو الطّيّب يعني طاهراً شيئاً من أمور الدّنيا والدّين والتّدبير والرّأي والسّياسة وصلاح الملك والرّعيّة وحفظ السّلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلّا وقد أحكمه وأوصى به ثمّ أمر المأمون فكتب به إلى جميع العمّال في النّواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السّياسة والله أعلم

الفصل الثاني والخمسون

في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

إعلم أنّ في المشهور بين الكافّة من أهل الإسلام على ممرّ الأعصار أنّه لا بدّ في آخر الزّمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيّد الدّين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلاميّة ويسمّى بالمهديّ ويكون خروج الدّجّال وما بعده من أشراط السّاعة الثّابتة في الصّحيح على أثره وأنّ عيسى ينزل من بعده فيقتل الدّجّال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتمّ بالمهديّ في صلاته ويحتجّون في الشّأن بأحاديث خرّجها الأئمّة وتكلّم فيها المنكرون لذلك وربّما عارضوها ببعض الأخبار وللمتصوّفة المتأخّرين في أمر هذا الفاطميّ طريقة أخرى ونوع من الإستدلال وربّما يعتمدون في ذلك على الكشف الّذي هو أصل طرائقهم . ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشّأن وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في إنكارهم من المستند ثمّ نتبعه بذكر كلام المتصوّفة ورأيهم ليتبيّن لك الصّحيح من ذلك إن شاء الله تعالى فنقول إنّ جماعة من الأئمّة خرّجوا أحاديث المهديّ منهم التّرمذيّ وأبو داود والبزّار ابن ماجة والحاكم والطّبرانيّ وأبو يعلى الموصليّ وأسندوها إلى جماعة من الصّحابة مثل عليّ وابن عبّاس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدريّ وأمّ حبيبة وأمّ سلمة وثوبان وقرّة بن إياس وعليّ الهلاليّ وعبد الله بن الحارث بن جزء بأسانيد ربّما يعرض لها

ٱلْمُنْكِرُونَ كَمَا نَذْكُرُهُ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَعْرُوفَ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْحَدِيثِ أَنَّ ٱلْجَرْحَ مُقَدَّمٌ عَلَى ٱلتَّعْدِيلِ فَإِذَا وَجَدْنَا طَعْناً فِي بَعْضِ رِجَالِ ٱلْأَسَانِيدِ بِغَفْلَةٍ أَوْ بِسُوءِ حِفْظٍ أَوْ ضُعْفٍ أَو سوءِ رَأْيٍ تَطَرَّقَ ذٰلِكَ إِلَى صِحَّةِ ٱلْحَدِيثِ وَأَوْهَنَ مِنْهَا وَلَا تَقُولَنَّ مِثْلُ ذٰلِكَ رُبَّمَا يَتَطَرَّقُ إِلَى رِجَالِ ٱلصَّحِيحَيْنِ فَإِنَّ ٱلْإِجْمَاعَ قَدِ ٱتَّصَلَ فِي ٱلْأُمَّةِ عَلَى تَلَقِّيهِمَا بِٱلْقَبُولِ وَٱلْعَمَلِ بِمَا فِيهِمَا وَفِي ٱلْإِجْمَاعِ أَعْظَمُ حِمَايَةً وَأَحْسَنُ دَفْعاً وَلَيْسَ غَيْرُ ٱلصَّحِيحَيْنِ بِمَثَابَتِهِمَا فِي ذٰلِكَ فَقَدْ تَجِدُ مَجَالاً لِلْكَلَامِ فِي أَسَانِيدِهَا بِمَا نُقِلَ عَنْ أَئِمَّةِ ٱلْحَدِيثِ فِي ذٰلِكَ .

وَلَقَدْ تَوَغَّلَ أَبُو بَكْرِ بْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ عَلَى مَا نَقَلَ ٱلسُّهَيْلِيُّ عَنْهُ فِي جَمْعِهِ لِلْأَحَادِيثِ ٱلْوَارِدَةِ فِي ٱلْمَهْدِيِّ فَقَالَ وَمِنْ أَغْرَبِهَا إِسْنَاداً مَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ ٱلْإِسْكَافُ فِي فَوَائِدِ ٱلْأَخْبَارِ مُسْتَنِداً إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَذَّبَ بِٱلْمَهْدِيِّ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ كَذَّبَ بِٱلدَّجَّالِ فَقَدْ كَذَبَ وَقَالَ فِي طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا مِثْلَ ذٰلِكَ فِيمَا أَحْسِبُ وَحَسْبُكَ هٰذَا غُلُوّاً وَٱللهُ أَعْلَم بِصِحَّةِ طَرِيقِهِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ٱلْإِسْكَافَ عِنْدَهُمْ مُتَّهَمٌ وَضَّاعٌ .

وَأَمَّا ٱلتِّرْمِذِيُّ فَخَرَّجَ هُوَ وَأَبُو دَاوُدَ بِسَنَدَيْهِمَا إِلَى ٱبْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ عَاصِمِ بْنِ أَبِي ٱلنُّجُودِ أَحَدِ ٱلْقُرَّاءِ ٱلسَّبْعَةِ إِلَى زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ عَنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ لَطَوَّلَ ٱللهُ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ ٱللهُ فِيهِ رَجُلًا مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِىءُ ٱسْمُهُ ٱسْمِي وَٱسْمُ أَبِيهِ ٱسْمَ أَبِي . هٰذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُد وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي رِسَالَتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ إِنَّ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَلَفْظُ ٱلتِّرْمِذِيِّ لَا تَذْهَبُ ٱلدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ ٱلْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِىءُ ٱسْمُهُ ٱسْمِي وَفِي لَفْظٍ آخَرَ حَتَّى يَلِيَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي وَكِلَاهُمَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَرَوَاهُ أَيْضاً مِنْ طَرِيقٍ مَوْقُوفاً عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ ٱلْحَاكِمُ رَوَاهُ ٱلثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَزَائِدَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلْمُسْلِمِينَ عَنْ عَاصِمٍ قَالَ وَطُرُقُ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ ٱللهِ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ عَلَى مَا أَصَّلْتُهُ مِنَ ٱلِاحْتِجَاجِ بِأَخْبَارِ عَاصِمٍ إِذْ هُوَ إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلْمُسْلِمِينَ (إِنْتَهَى) إِلَّا أَنَّ عَاصِماً قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ كَانَ رَجُلًا صَالِحاً قَارِئاً لِلْقُرْآنِ خَيِّراً ثِقَةً وَٱلْأَعْمَشُ أَحْفَظُ مِنْهُ وَكَانَ شُعْبَةُ يَخْتَارُ ٱلْأَعْمَشَ عَلَيْهِ فِي تَثْبِيتِ ٱلْحَدِيثِ وَقَالَ ٱلْعِجْلِيُّ كَانَ يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ فِي زِرٍّ وَأَبِي وَائِلٍ يُشِيرُ بِذٰلِكَ إِلَى ضُعْفِ رِوَايَتِهِ عَنْهُمَا وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْد

كَانَ ثِقَةً إِلَّا أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْخَطَإِ فِي حَدِيثِهِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ فِي حَدِيثِهِ ٱضْطِرَابٌ وَقَالَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَٰنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ قُلْتُ لِأَبِي إِنَّ أَبَا زُرْعَةَ يَقُولُ عَاصِمٌ ثِقَةٌ فَقَالَ لَيْسَ مَحَلُّهُ هٰذَا وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ ٱبْنُ عُلَيَّةَ فَقَالَ كُلُّ مَنِ ٱسْمُهُ عَاصِمٌ سَيِّءُ ٱلْحِفْظِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ مَحَلُّهُ عِنْدِي مَحَلُّ ٱلصِّدْقِ صَالِحُ ٱلْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ بِذٰلِكَ ٱلْحَافِظِ وَٱخْتَلَفَ فِيهِ قَوْلُ ٱلنَّسَائِيِّ وَقَالَ ٱبْنُ خِرَاشٍ فِي حَدِيثِهِ نُكْرَةٌ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ٱلْعُقَيْلِيُّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا سُوءُ ٱلْحِفْظِ وَقَالَ ٱلدَّارَقُطْنِيُّ فِي حِفْظِهِ شَيْءٌ وَقَالَ يَحْيَى ٱلْقَطَّانُ مَا وَجَدْتُ رَجُلاً ٱسْمُهُ عَاصِمٌ إِلَّا وَجَدْتُهُ رَدِيءَ ٱلْحِفْظِ وَقَالَ أَيْضاً سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُولُ حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ أَبِي ٱلنُّجُودِ وَفِي ٱلنَّاسِ مَا فِيهَا وَقَالَ ٱلذَّهَبِيُّ ثَبْتٌ فِي ٱلْقِرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ ٱلْحَدِيثِ وَإِنِ ٱحْتَجَّ أَحَدٌ بِأَنَّ ٱلشَّيْخَيْنِ أَخْرَجَا لَهُ فَنَقُولُ أَخْرَجَا لَهُ مَقْرُوناً بِغَيْرِهِ لَا أَصْلاً وَٱللهُ أَعْلَمُ وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ فِي ٱلْبَابِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ قِطْرِ بْنِ خَلِيفَةَ عَنِ ٱلْقَاسِمِ بْنِ أَبِي بَزَّةَ عَنْ أَبِي ٱلطُّفَيْلِ عَنْ عَلِيٍّ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلدَّهْرِ إِلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ ٱللهُ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَأُهَا عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَقِطْرُ بْنُ خَلِيفَةَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَى بْنُ ٱلْقَطَّانِ وَٱبْنُ مَعِينٍ وَٱلنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ إِلَّا أَنَّ ٱلْعِجْلِيَّ قَالَ حَسَنُ ٱلْحَدِيثِ وَفِيهِ تَشَيُّعٌ قَلِيلٌ وَقَالَ ٱبْنُ مَعِينٍ مَرَّةً ثِقَةٌ شِيعِيٌّ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنُ يُونُسَ كُنَّا نَمُرُّ عَلَى قِطْرٍ وَهُوَ مَطْرُوحٌ لَا نَكْتُبُ عَنْهُ وَقَالَ مَرَّةً كُنْتُ أَمُرُّ بِهِ وَأَدَعُهُ مِثْلَ ٱلْكَلْبِ وَقَالَ ٱلدَّارَقُطْنِيُّ لَا يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ مَا تَرَكْتُ ٱلرِّوَايَةَ عَنْهُ إِلَّا لِسُوءِ مَذْهَبِهِ وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ زَائِغٌ غَيْرُ ثِقَةٍ ٱنْتَهَى وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً بِسَنَدِهِ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَنْ مَرْوَانَ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ٱلنَّسَفِيِّ قَالَ قَالَ عَلِيٌّ وَنَظَرَ إِلَى ٱبْنِهِ ٱلْحَسَنِ إِنَّ ٱبْنِي هٰذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَّاهُ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِٱسْمِ نَبِيِّكُمْ يُشْبِهُهُ فِي ٱلْخُلُقِ وَلَا يُشْبِهُهُ فِي ٱلْخَلْقِ يَمْلَأُ ٱلْأَرْضَ عَدْلاً وَقَالَ هَارُونُ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْ أَبِي ٱلْحَسَنِ عَنْ هِلَالِ بْنِ عُمَرَ سَمِعْتُ عَلِيّاً يَقُولُ قَالَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ وَرَاءِ ٱلنَّهْرِ يُقَالُ لَهُ ٱلْحَارِثُ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَنْصُورٌ يُوَطِّئُ أَوْ يُمَكِّنُ لِآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا مَكَّنَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَبَ

على كُلِّ مُؤْمِنٍ نَصْرُهُ أَوْ قَالَ إِجَابَتُهُ سَكَتَ أَبُو دَاوُدَ عَلَيْهِ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي هَارُونَ هُوَ مِنْ وُلْدِ الشِّيعَةِ وَقَالَ السُّلَيْمَانِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي عَمْرِ بْنِ أَبِي قَيْس لا بَأْسَ فِي حَدِيثِهِ خَطَأٌ وَقَالَ الذَّهَبِي صَدُوقٌ لَهُ أَوْهَامٌ وَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقَ السَّبِيعِيُّ وَإِنْ خَرَّجَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ اخْتَلَطَ آخِرَ عُمْرِهِ وَرِوَايَتُهُ عَنْ عَلِيٍّ مُنْقَطِعَة وَكَذَٰلِكَ رِوَايَةُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ هَارُونَ بْنِ الْمُغِيرَةِ . وَأَمَّا السَّنَدُ الثَّانِي فَأَبُو الْحَسَنِ فِيهِ وَهِلَالُ بْنُ عُمَرَ مَجْهُولَانِ وَلَمْ يُعْرَفْ أَبُو الْحَسَنِ إِلَّا مِنْ رِوَايَةِ مُطَرِّفِ بْنِ طَرِيفٍ عَنْهُ انْتَهَى وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ مِنْ طَرِيقِ عَلِي بْنِ نُفَيْلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الْمَهْدِيُّ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ وَلَفْظُ الْحَاكِمِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الْمَهْدِيَّ فَقَالَ نَعَمْ هُوَ حَقٌّ وَهُوَ مِنْ بَنِي فَاطِمَةَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهِ بِالصَّحِيحِ وَلَا غَيْرِهِ وَقَدْ ضَعَّفَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْعَقِيلِيُّ وَقَالَ لَا يُتَابَعُ عَلِيُّ بْنُ نُفَيْلٍ عَلَيْهِ وَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ مِنْ رِوَايَةِ صَالِحٍ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ صَاحِبٍ لَهُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَ يَكُونُ اخْتِلَافٌ عِنْدَ مَوْتِ خَلِيفَةٍ فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَارِباً إِلَى مَكَّةَ فَيَأْتِيهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَيُخْرِجُونَهُ وَهُوَ كَارِهٌ فَيُبَايِعُونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ مِنَ الشَّامِ فَيُخْسَفُ بِهِمْ بِالْبَيْدَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذَٰلِكَ أَتَاهُ أَبْدَالُ أَهْلِ الشَّامِ وَعَصَائِبُ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَيُبَايِعُونَهُ ثُمَّ يَنْشَأُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْش أَخْوَالُهُ كَلْبٌ فَيَبْعَثُ إِلَيْهِمْ بَعْثاً فَيَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ وَذَٰلِكَ بَعْثُ كَلْبٍ وَالْخَيْبَةُ لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ غَنِيمَةَ كَلْبٍ فَيَقْسِمُ الْمَالَ وَيَعْمَلُ فِي النَّاسِ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُلْقِي الْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَيَلْبَثُ سَبْعَ سِنِينَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ تِسْعَ سِنِينَ ثُمَّ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ فَتَبَيَّنَ بِذَٰلِكَ الْمُبْهَمُ فِي الْإِسْنَادِ الْأَوَّلِ وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحَيْنِ لَا مَطْعَنَ فِيهِمْ وَلَا مَغْمَزَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْخَلِيلِ وَقَتَادَةُ مُدَلِّسٌ وَقَدْ عَنْعَنَهُ وَالْمُدَلِّسُ لَا يُقْبَلُ مِنْ حَدِيثِهِ إِلَّا مَا صَرَّحَ فِيهِ بِالسَّمَاعِ مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ الْمَهْدِي نَعَمْ ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي أَبْوَابِهِ وَخَرَّجَ أَبُو دَاوُدَ أَيْضاً وَتَابَعَهُ الْحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الْجَبْهَةِ اقْنَى

ٱلْأَنف يَمْلَأُ ٱلْأَرضَ قِسطاً وَعدلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلماً وَجوراً يَمْلِكُ سَبعَ سِنِينَ هٰذَا لَفظ أَبِي دَاوُدَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ وَلَفظُ ٱلْحَاكِمِ ٱلْمَهْدِيِّ مِنَّا أَهلَ ٱلبَيْتِ أَشَمُّ ٱلْأَنفِ أَقنَى أَجلَى يَمْلَأُ ٱلْأَرْضَ قِسطاً وَعدلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوراً وَظُلماً يَعِيشُ هٰكَذَا وَيَبْسُطُ يَسَارَه وَإِصبَعَيْنِ مِنْ يَمِينِهِ ٱلسَّبَّابَةِ وَٱلْإِبْهَامِ وَعُقَدَ ثَلَاثٍ قَالَ ٱلْحَاكِمُ هٰذَا حَدِيثٌ صَحِيح عَلَى شَرْطِ مُسلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ . اه . وَعِمْرَانُ ٱلْقَطَّانُ مُخْتَلَفٌ فِي ٱلِاحْتِجَاجِ بِهِ إِنَّمَا أَخرج لَهُ ٱلْبُخَارِيُّ ٱسْتِشْهَاداً لاَ أَصلاً وَكَانَ يَحْيَ ٱلقَطَّانُ لاَ يُحَدِّثُ عَنهُ وَقَالَ يَحيَى بْنُ مَعِين لَيسَ بِٱلْقَوِيِّ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِشَيْءٍ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَالِح ٱلْحَدِيثِ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ كَانَ حَرُورِيّاً وَكَانَ يَرَى ٱلسَّيْفَ عَلَى أَهلِ ٱلقِبْلَةِ وَقَالَ ٱلنَّسَائِيُّ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ ٱلآجرِيُّ سَأَلْتُ أَبَا دَاوُدَ عَنهُ فَقَالَ مِنْ أَصحَابِ ٱلْحَسَن وَمَا سَمِعْتُ إِلَّا خَيْراً وَسَمِعْتُهُ مَرَّةً أُخرَى ذَكَرَهُ فَقَالَ ضَعِيفٌ أَفْتَى فِي إِبْرَاهِيمَ بْن عَبْدِ ٱللهِ بْنِ حَسَنٍ بِفَتْوَى شَدِيدَةٍ فِيهَا سَفْكُ ٱلدِّمَاءِ وَخَرَّجَ ٱلتِّرمِذِيُّ وَٱبْنُ مَاجَةَ وَٱلْحَاكِم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ مِنْ طَرِيقِ زَيْدٍ ٱلْعَمِّيِّ عَنْ أَبِي صَدِيقٍ ٱلنَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيد ٱلْخُدْرِيِّ قَالَ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ بَعضُ شَيْءٍ حَدَثَ فَسَأَلْنَا نَبِيَّ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِنَّ فِي أُمَّتِي ٱلْمَهْدِيَّ يَخْرُجُ وَيَعِيشُ خَمساً أَوْ سَبعاً أَوْ تِسعاً زَيْدُ ٱلشَّاكُّ قَالَ قُلْنَا وَمَا ذَاكَ قَالَ سِنِينَ قَالَ فَيَجِيءُ إِلَيْهِ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيُّ أَعطِنِي قَالَ فَيَحْثُو لَهُ فِي ثَوْبِهِ مَا ٱسْتَطَاعَ أَن يَحمِلَهُ لَفظُ ٱلتِّرْمِذِيِّ وَقَالَ هٰذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجهٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَن ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَفظُ ٱبْنِ مَاجَةَ وَٱلْحَاكِمِ يَكُونُ فِي أُمَّتِي ٱلْمَهْدِيُّ إِنْ قَصُر فَسَبْعٌ وَإِلَّا فَتِسْعٌ فَتَنعَمُ أُمَّتِي فِيهِ نِعْمَةً لَمْ يَسْمَعُوا بِمِثْلِهَا قَطُّ تُؤْتَى ٱلْأَرْضُ أُكُلَهَا وَلَا يدَّخَرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَٱلْمَالُ يَوْمَئِذٍ كُدُوسٌ فَيَقُومُ ٱلرَّجُلُ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيُّ أَعطِنِي فَيَقُولُ خُذْ . إِنْتَهَى وَزَيْدٌ ٱلعَمِّيُّ وَإِنْ قَالَ فِيهِ ٱلدَّارَقُطْنِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ إِنَّهُ صَالِح وَزَادَ أَحْمَدُ إِنَّهُ فَوْقَ يَزِيدَ ٱلرَّقَاشِيِّ وَفَضَلَ بْنَ عِيسَى إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ ضَعِيف يُكْتَبُ حَدِيثُهُ وَلاَ يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لاَ شَيْءَ وَقَالَ مَرَّةً يُكْتَبُ حَدِيثُهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ مُتَمَاسِكٌ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ بِقَوِيٍّ وَاهِي ٱلْحَدِيثِ ضَعِيفاً وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيسَ بِذَاكَ وَقَدْ حَدَّثَ عَنْهُ شُعْبَةُ وَقَالَ ٱلنَّسَائِيُّ ضَعِيف وَقَالَ بْنُ عَدِيٍّ عَامَّةُ مَا يَرْوِيهِ وَمَنْ يُرْوَى عَنْهُمْ ضُعَفَاءُ عَلَى أَنَّ شُعْبَةَ قَدْ رَوَى عَنْهُ وَلَعَل

شعْبَةَ لَمْ يَرْوِ عَنْ أَضْعَفَ مِنْهُ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ حَدِيثَ ٱلتِّرْمِذِيِّ وَقَعَ تَفْسِيراً لِمَا رَوَاهُ مُسْلِم فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْثُو ٱلْمَالَ حَثْواً لاَ يَعُدُّهُ عَداً وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَة يَحْثُو ٱلْمَالَ حَثْواً وَمِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْهُمَا قَالَ يَكُونُ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ خَلِيفَةٌ يَقْسِمُ ٱلْمَالَ وَلاَ يَعُدُّهُ ٱنْتَهى وَأَحَادِيثُ مُسْلِمٍ لَمْ يَقَعْ فِيهَا ذِكْرُ ٱلْمَهْدِيِّ وَلاَ دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى أَنَّهُ ٱلْمُرَاد مِنْهَا وَرَوَاهُ ٱلْحَاكِمُ أَيْضاً مِنْ طَرِيقِ عَوْفٍ ٱلْأَعْرَابِيِّ عَنْ أَبِي ٱلصِّدِّيقِ ٱلنَّاجِي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ حَتَّى تُمْلأَ ٱلْأَرْض جَوْراً وَظُلْماً وَعُدْوَاناً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي رَجُلٌ يَمْلأُهَا قِسْطاً وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَعُدْوَاناً وَقَالَ فِيهِ ٱلْحَاكِمُ هٰذَا صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ ٱلشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ وَرَوَاهُ ٱلْحَاكِم أَيْضاً عَنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ أَبِي ٱلصِّدِّيقِ ٱلنَّاجِي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ٱلْخُدْرِيِّ عَن رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَخْرُجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي ٱلْمَهْدِيُّ يَسْقِيهِ ٱللهُ ٱلْغَيْث وَتُخْرِجُ ٱلْأَرْضُ نَبَاتَهَا وَيُعْطِي ٱلْمَالَ صِحَاحاً وَتَكْثُرُ ٱلْمَاشِيَةُ وَتَعْظُمُ ٱلْأُمَّةُ يَعِيشُ سَبْعاً أَوْ ثَمَانِياً يَعْنِي حِجَجاً وَقَالَ فِيهِ حَدِيثٌ صَحِيحُ ٱلْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ مَعَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْن عُبَيْدٍ لَمْ يُخَرِّجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلسِّتَّةِ لٰكِنْ ذَكَرَهُ ٱبْنُ حِبَّانَ فِي ٱلثِّقَاتِ وَلَمْ يَرِدْ أَنَّ أَحداً تَكَلَّمَ فِيهِ ثُمَّ رَوَاهُ ٱلْحَاكِمُ أَيْضاً مِنْ طَرِيقِ أَسَدِ بْنِ مُوسَى عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَن مَطَرٍ ٱلْوَرَّاقِ وَأَبِي هَارُونَ ٱلْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِي ٱلصِّدِّيقِ ٱلنَّاجِي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُول ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تُمْلأُ ٱلْأَرْضُ جَوْراً وَظُلْماً فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي فَيَمْلِكُ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً فَيَمْلأُ ٱلْأَرْضَ عَدْلاً وَقِسْطاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً وَقَالَ ٱلْحَاكِم فِيهِ هٰذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ لِأَنَّهُ أَخْرَجَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ وَعَنْ شَيْخِهِ مَطَرٍ ٱلْوَرَّاقِ وَأَمَّا شَيْخُهُ ٱلْآخَرُ وَهُوَ أَبُو هَارُونَ ٱلْعَبْدِيُّ فَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ وَهُوَ ضَعِيف جِدّاً مُتَّهَمٌ بِٱلْكَذِبِ وَلاَ حَاجَةَ إِلَى بَسْطِ أَقْوَالِ ٱلْأَئِمَّةِ فِي تَضْعِيفِهِ . وَأَمَّا ٱلرَّاوِي لَهُ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ فَهُوَ أَسَدُ بْنُ مُوسَى يُلَقَّبُ أَسَدَ ٱلسُّنَّةِ وَإِنْ قَالَ ٱلْبُخَارِيُّ مَشْهُور ٱلْحَدِيثِ وَٱسْتَشْهَدَ بِهِ فِي صَحِيحِهِ وَٱحْتَجَّ بِهِ أَبُو دَاوُدَ وَٱلنَّسَائِيُّ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً أُخْرَى ثِقَةٌ لَوْ لَمْ يُصَنِّفْ كَانَ خَيْراً لَهُ وَقَالَ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَزْمٍ مُنْكَرُ ٱلْحَدِيثِ وَرَوَاهُ ٱلطَّبَرَانِي فِي مُعْجَمِهِ ٱلْأَوْسَطِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ٱلْوَاصِلِ عَبْدِ ٱلْحَمِيدِ بْنِ وَاصِلٍ عَنْ أَبِي ٱلصِّدِّيقِ

النَّاجِي عَنِ الحسنِ بْنِ يَزِيدَ السَّعْدِيِّ أَحدِ بَنِي بَهْدَلَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يَقُولُ بِسُنَّتِي يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا وَتُمْلَأُ الْأَرْضُ مِنْهُ قِسْطاً وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً يَعْمَلُ عَلَى هٰذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعَ سِنِينَ وَيَنْزِلُ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ فِيهِ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ أَبِي الصِّدِّيقِ وَلَمْ يُدْخِلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي سَعِيدٍ أَحَداً إِلَّا أَبَا الْوَاصِلِ فَإِنَّهُ رَوَاهُ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ انْتَهَى وَهٰذَا الْحَسَنُ بْنُ يَزِيدَ ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَلَمْ يُعَرِّفْهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا فِي هٰذَا الْإِسْنَادِ مِنْ رِوَايَتِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَرِوَايَةِ أَبِي الصِّدِّيقِ عَنْهُ وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي الْمِيزَانِ إِنَّهُ مَجْهُولٌ لٰكِنْ ذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ وَأَمَّا أَبُو الْوَاصِلِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ أَبِي الصِّدِّيقِ فَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ أَحَدٌ مِنَ السِّتَّةِ وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ وَقَالَ فِيهِ يَرْوِي عَنْ أَنَسٍ رَوَى عَنْهُ شُعْبَةُ وَعَتَّابُ بْنُ بِشْرٍ وَخَرَّجَ ابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مِنْ طَرِيقِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَقْبَلَ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَمَّا رَآهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ قَالَ فَقُلْتُ مَا نَزَالُ نَرَى فِي وَجْهِكَ شَيْئاً نَكْرَهُهُ فَقَالَ إِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا وَإِنَّ أَهْلَ بَيْتِي سَيَلْقَوْنَ بَعْدِي بَلَاءً وَتَشْرِيداً وَتَطْرِيداً حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُمْ رَايَاتٌ سُودٌ فَيَسْأَلُونَ الْخَيْرَ فَلَا يُعْطَوْنَهُ فَيُقَاتِلُونَ وَيُنْصَرُونَ فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا فَلَا يَقْبَلُونَهُ حَتَّى يَدْفَعُوهَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلَأُهَا قِسْطاً كَمَا مَلَؤُوهَا جَوْراً فَمَنْ أَدْرَكَ ذٰلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَأْتِهِمْ وَلَوْ حَبْواً عَلَى الثَّلْجِ انْتَهَى. وَهٰذَا الْحَدِيثُ يُعْرَفُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ بِحَدِيثِ الرَّايَاتِ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ رَاوِيهِ قَالَ فِيهِ شُعْبَةُ كَانَ رَفَّاعاً يَعْنِي يَرْفَعُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي لَا تُعْرَفُ مَرْفُوعَةً وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفُضَيْلِ مِنْ كِبَارِ أَئِمَّةِ الشِّيعَةِ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لَمْ يَكُنْ بِالْحَافِظِ وَقَالَ مَرَّةً حَدِيثُهُ لَيْسَ بِذٰلِكَ وَقَالَ يَحْيَى ابْنُ مَعِينٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ الْعِجْلِيُّ جَائِزُ الْحَدِيثِ وَكَانَ بِآخِرِهِ يُلَقَّنُ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيِّنٌ يُكْتَبُ حَدِيثُهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَقَالَ الْجُرْجَانِيُّ سَمِعْتُهُمْ يُضَعِّفُونَ حَدِيثَهُ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ لَا أَعْلَمُ أَحَداً تَرَكَ حَدِيثَهُ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ وَقَالَ

ٱبْنُ عدِيٍّ هُوَ مِنْ شِيعَةِ أَهلِ ٱلكُوفَةِ وَمعَ ضُعفِهِ يـكْتَبُ حَدِيثُهُ وَرَوَى لَهُ مُسلِم لَـكِنْ مقرُوناً بِغَيْرِهِ وَبِٱلجُمْلَةِ فَالأَكثَرُونَ عَلَى ضُعفِهِ وَقَدْ صَرَّحَ ٱلأَئِمَّةُ بِتَضْعِيف هذَا ٱلحَدِيثِ ٱلَّذِي رَوَاهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ ٱللهِ وَهُوَ حَدِيثُ ٱلرَّايَاتِ وَقَال وَكِيعُ بْنُ ٱلجَرَّاحِ فِيهِ لَيسَ بِشَيْءٍ وَكَذٰلِكَ قَالَ أَحمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ أَبُو قُدَامَةَ سَمِعْت أَبَا أُسَامَةَ يَقُولُ فِي حدِيثِ يَزِيدَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي ٱلرَّايَاتِ لَوْ حَلَفَ عِنْدِي خَمْسِينَ يَمِيناً أُسَامَةُ مَا صَدَّقْتُهُ أَهذَا مَذْهَبُ إِبْرَاهِيمَ أَهذَا مَذْهَبُ عَلْقَمَةَ أَهذَا مَذْهَبُ عَبْدِ ٱللهِ وَأَوْرَد ٱلعُقَيلِيُّ هذَا ٱلحَدِيثَ فِي ٱلضُّعَفَاءِ وَقَالَ ٱلذَّهَبِيُّ لَيسَ بِصَحِيحٍ وَخَرَّجَ ٱبْنُ مَاجَةَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عنْهُ مِنْ رِوَايَةِ يَاسِينَ ٱلعِجْلِيِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلحَنَفِيَّةِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَال رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلمَهْدِيُّ مِنَّا أَهلَ ٱلبَيْتِ يُصلِحُ ٱللهُ بِهِ فِي لَيلَةٍ وَيَاسِينُ ٱلعِجْلِي وَإِنْ قَالَ فِيهِ ٱبْنُ مُعِينٍ لَيسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدْ قَالَ ٱلبُخَارِيُّ فِيهِ نَظَرٌ وَهذِهِ ٱللَّفْظَةُ مِنَ ٱصطِلاحِهِ قَوِيَّةٌ فِي ٱلتَّضْعِيفِ جِدًّا وَأَوْرَدَ لَهُ ٱبْنُ عَدِيٍّ فِي ٱلكَامِلِ وَٱلذَّهَبِيُّ فِي ٱلمِيزَانِ هذَا ٱلحَدِيثَ عَلَى وَجْهِ ٱلإِسْتِنْكَارِ لَهُ وَقَالَ هُوَ مَعرُوفٌ بِهِ وَخَرَّجَ ٱلطَّبَرَانِيُّ فِي مُعجَمِهِ ٱلأَوْسَط عنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِنَّا ٱلمَهْدِيُّ أَمْ مِنْ غَيْرِنَا يا رَسُولَ ٱللهِ فَقَالَ بَلْ مِنَّا بِنَا يَخْتِمُ ٱللهُ كَمَا بِنَا فَتَحَ وَبِنَا يَسْتَنْقِذُونَ مِنَ ٱلشِّرْكِ وَبِنَا يؤَلِّفُ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ عَدَاوَةٍ بَيِّنَةٍ كَمَا بِنَا أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ عَدَاوَةِ ٱلشِّرْكِ قَال عَلِيٌّ أَمُؤْمِنُونَ أَمْ كَافِرُونَ قَالَ مَفْتُونٌ وَكَافِرٌ انتهى. وَفِيهِ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ لَهِيعَةَ وَهُوَ ضَعِيف مَعرُوفُ ٱلحَالِ وَفِيهِ عُمَرُ بْنُ جَابِرٍ ٱلحَضْرَمِيِّ وَهُوَ أَضْعَفُ مِنْهُ قَالَ أَحمَدُ بْنُ حَنْبَل رُوِيَ عَنْ جَابِرٍ مَنَاكِيرُ وَبَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ يَـكْذِبُ وَقَالَ ٱلنَّسَائِيُّ لَيسَ بِثِقَةٍ وَقَالَ كَانَ ٱبن لَهِيعَةَ شَيْخاً أَحمَقَ ضَعِيفَ ٱلعَقْلِ وَكَانَ يَقُولُ عَلِيٌّ فِي ٱلسَّحَابِ وَكَانَ يَجْلِسُ مَعَنَا فَيُبْصِر سَحَابَةً فَيَقُولُ هذَا عَلِيٌّ قَدْ مَرَّ فِي ٱلسَّحَابِ وَخَرَّجَ ٱلطَّبَرَانِيُّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالى عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَـكُونُ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ فِتْنَةٌ يَحْصُلُ ٱلنَّاسُ فِيهَا كَمَا يَحْصُلُ ٱلذَّهَبُ فِي ٱلمَعْدِنِ فَلا تَسُبُّوا أَهلَ ٱلشَّامِ وَلَـكِنْ سُبُّوا أَشْرَارَهُمْ فَإِنَّ فِيهِم ٱلأَبْدَالَ يُوشِكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهلِ ٱلشَّامِ صَيِّبٌ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَيُفَرِّقُ جَمَاعَتَهُمْ حَتَّى لَو قَاتَلَتْهُمُ ٱلثَّعَالِبُ غَلَبَتْهُمْ فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَخْرُجُ خَارِجٌ مِنْ أَهلِ بَيْتِي فِي ثَلاثِ رَايَاتٍ ٱلمُـكْثِر يَقُولُ بِهِمْ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلفاً وَٱلمُقِلُّ يَقُولُ بِهِمِ ٱثْنَا عَشَرَ أَلفاً وَأَمَارَتُهُمْ امت امت يَلْقَوْن

سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك فيقتلهم الله جميعاً ويرد الله إلى المسلمين إلفتهم ونعمتهم وقاصيتهم ورأيهم اه . وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال ورواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه في روايته ثم يظهر الهاشمي فيرد الله الناس إلى إلفتهم الخ وليس في طريقه ابن لهيعة وهو إسناد صحيح كما ذكر وخرج الحاكم في المستدرك عن علي رضي الله عنه من رواية أبي الطفيل عن محمد بن الحنفية قال كنا عند علي رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال له هيهات ثم عقد بيده سبعاً فقال ذلك يخرج في آخر الزمان إذا قال الرجل الله الله قتل ويجمع الله له قوماً قزعاً كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم فلا يستوحشون إلى أحد ولا يفرحون بأحد دخل فيهم عدتهم على عدة أهل بدر لم يسبقهم الأولون ولا يدركهم الآخرون وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر قال أبو الطفيل قال ابن الحنفية أتريده قلت نعم قال فإنه يخرج من بين هذين الأخشبين قلت لا جرم والله ولا أدعها حتى أموت ومات بها يعني مكة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وإنما هو على شرط مسلم فقط فإن فيه عماراً الذهبي ويونس بن أبي إسحاق ولم يخرج لهما البخاري وفيه عمرو بن محمد العبقري ولم يخرج له البخاري احتجاجاً بل استشهاداً مع ما ينضم إلى ذلك من تشيع عمار الذهبي وهو وإن وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم النسائي وغيرهم فقد قال علي بن المديني عن سفيان أن بشر بن مروان قطع عرقوبيه قلت في أي شيء قال في التشيع وخرج ابن ماجة عن أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر عن علي بن زياد اليمامي عن عكرمة بن عمار عن إسحاق بن عبد الله عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي انتهى وعكرمة بن عمار وإن أخرج له مسلم فإنما أخرج له متابعة وقد ضعفه بعض ووثقه آخرون وقال أبو حاتم الرازي هو مدلس فلا يقبل إلى أن يصرح بالسماع علي بن زياد قال الذهبي في الميزان لا ندري من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد وسعد بن عبد الحميد وإن وثقه يعقوب بن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن

معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الثوري قالوا لأنه رآه يفتي في مسائل ويخطيء فيها وقال ابن حبان كان ممن فحش خطاؤه فلا يحتج فيه وقال احمد بن حنبل سعيد بن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو ههنا ببغداد لم يحتج فكيف سمعها وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه وخرج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفاً عليه قال مجاهد قال لي ابن عباس لو لم أسمع أنك مثل أهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث قال فقال مجاهد فإنه في ستر لا أذكره لمن يكره قال فقال ابن عباس منا أهل البيت أربعة منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي قال فقال مجاهد بين لي هؤلاء الأربعة فقال ابن عباس أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه وأما المنذر فإنه يعطي المال الكثير ولا يتعاظم في نفسه ويمسك القليل من حقه وأما المنصور فإنه يعطى النصر على عدوه الشطر مما كان يعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر وأما المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وتأمن البهائم السباع وتلقي الأرض أفلاذ كبدها قال قلت وما أفلاذ كبدها قال أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه وإسماعيل ضعيف وإبراهيم أبوه وإن خرج له مسلم فالأكثرون على تضعيفه اه. وخرج ابن ماجة عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلا لم يقتله قوم ثم ذكر شيئاً لا أحفظه قال فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي اه. ورجاله رجال الصحيحين إلا أن فيه أبا قلابة الجرمي وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس وفيه سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهوراً بالتشيع وعمي في آخر وقته فخلط قال ابن عدي حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد ونسبوه إلى التشيع إنتهى. وخرج ابن ماجة عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي من طريق ابن

لَهِيعَةَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ جَابِرٍ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ نَاسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ فَيُوَطِّئُونَ لِلْمَهْدِيِّ يَعْنِي سُلْطَانَهُ قَالَ الطَّبَرَانِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ ابْنُ لَهِيعَةَ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ الَّذِي خَرَّجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ أَنَّ ابْنَ لَهِيعَةَ ضَعِيفٌ وَأَنَّ شَيْخَهُ عُمَرَ بْنَ جَابِرٍ أَضْعَفُ مِنْهُ وَخَرَّجَ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ وَاللَّفْظُ لِلطَّبَرَانِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصُرَ فَسَبْعٌ وَإِلَّا فَثَمَانٍ وَإِلَّا فَتِسْعٌ تَنْعَمُ فِيهَا أُمَّتِي نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا بِمِثْلِهَا تُرْسِلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَلَا تَدَّخِرُ الْأَرْضُ شَيْئاً مِنَ النَّبَاتِ وَالْمَالُ كُدُوسٌ يَقُومُ الرَّجُلُ يَقُولُ يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ قَالَ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَزَّارُ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ الْعِجْلِيُّ زَادَ الْبَزَّارُ وَلَا نَعْلَمُ أَنَّهُ تَابَعَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَهُوَ وَإِنْ وَثَّقَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ حِبَّانَ أَيْضاً بِمَا ذَكَرَهُ فِي الثِّقَاتِ وَقَالَ فِيهِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ صَالِحٌ وَقَالَ مَرَّةً لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ فَقَدِ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ لَيْسَ عِنْدِي بِذَلِكَ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ الْعِجْلِيَّ حَدَّثَ بِأَحَادِيثَ وَأَنَا شَاهِدٌ لَمْ نَكْتُبْهَا تَرَكْتُهَا عَلَى عَمْدٍ وَكَتَبَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْهُ كَأَنَّهُ ضَعَّفَهُ وَخَرَّجَهُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ حَدَّثَنِي خَلِيلِي أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَضْرِبَهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ قَالَ قُلْتُ وَكَمْ يَمْلِكُ قَالَ خَمْساً وَاثْنَتَيْنِ قَالَ قُلْتُ وَمَا خَمْساً وَاثْنَتَيْنِ قَالَ لَا أَدْرِي اه. وَهَذَا السَّنَدُ غَيْرُ مُحْتَجٍّ بِهِ وَإِنْ قَالَ فِيهِ بَشِيرُ بْنُ نَهِيكٍ وَقَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ فَقَدِ احْتَجَّ بِهِ الشَّيْخَانِ وَوَثَّقَهُ النَّاسُ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى قَوْلِ أَبِي حَاتِمٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهِ رَجَاءُ ابْنُ أَبِي رَجَاءٍ الْيَشْكُرِيُّ وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ قَالَ أَبُو زُرْعَةَ ثِقَةٌ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ ضَعِيفٌ وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ ضَعِيفٌ وَقَالَ مَرَّةً صَالِحٌ وَعَلَّقَ لَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ حَدِيثاً وَاحِداً وَخَرَّجَ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ عَنْ قُرَّةَ بْنِ إِيَاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَتُمْلَأَنَّ الْأَرْضُ جَوْراً وَظُلْماً فَإِذَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً بَعَثَ اللَّهُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي يَمْلَأُهَا عَدْلاً وَقِسْطاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً فَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ مِنْ قَطْرِهَا شَيْئاً وَلَا تَدَّخِرُ الْأَرْضُ شَيْئاً مِنْ نَبَاتِهَا يَلْبَثُ فِيكُمْ سَبْعاً أَوْ ثَمَانِياً أَوْ تِسْعاً

يعني سِنِينَ اهـ . وَفِيهِ دَاوُدُ بْنُ ٱلْمُحَبِّي بْنُ ٱلْمُحْرِمِ عَنْ أَبِيهِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ جِدًّا وَخَرَّجَ ٱلطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ ٱلْأَوْسَطِ عَنِ ٱبْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَفَرٍ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ يَسَارِهِ وَٱلْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ إِذْ تَلَاحَى ٱلْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ ٱلْأَنْصَارِ فَأَغْلَظَ ٱلْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ فَأَخَذَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ ٱلْعَبَّاسِ وَبِيَدِ عَلِيٍّ وَقَالَ سَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هٰذَا حَتَّى يَمْلَأَ ٱلْأَرْضَ جَوْراً وَظُلْماً وَسَيَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ هٰذَا حَتَّى يَمْلَأَ ٱلْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذٰلِكَ فَعَلَيْكُمْ بِٱلْفَتَى ٱلتَّمِيمِيِّ فَإِنَّهُ يُقْبِلُ مِنْ قِبَلِ ٱلْمَشْرِقِ وَهُوَ صَاحِبُ رَايَةِ ٱلْمَهْدِيِّ . انتهى . وَفِيهِ عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ لَهِيعَةَ وَهُمَا ضَعِيفَانِ . اهـ . وَخَرَّجَ ٱلطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ ٱلْأَوْسَطِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ ٱللَّهِ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَتَكُونُ فِتْنَةٌ لَا يَسْكُنُ مِنْهَا جَانِبٌ إِلَّا تَشَاجَرَ جَانِبٌ حَتَّى يُنَادِيَ مُنَادٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِنَّ أَمِيرَكُمْ فُلَانٌ . اهـ . وَفِيهِ ٱلْمُثَنَّى بْنُ ٱلصَّبَّاحِ وَهُوَ ضَعِيفٌ جِدًّا وَلَيْسَ فِي ٱلْحَدِيثِ تَصْرِيحٌ بِذِكْرِ ٱلْمَهْدِيِّ وَإِنَّمَا ذَكَرُوهُ فِي أَبْوَابِهِ وَتَرْجَمَتِهِ ٱسْتِئْنَاساً فَهٰذِهِ جُمْلَةُ ٱلْأَحَادِيثِ ٱلَّتِي خَرَّجَهَا ٱلْأَئِمَّةُ فِي شَأْنِ ٱلْمَهْدِيِّ وَخُرُوجِهِ آخِرَ ٱلزَّمَانِ وَهِيَ كَمَا رَأَيْتَ لَمْ يَخْلُصْ مِنْهَا مِنَ ٱلنَّقْدِ إِلَّا ٱلْقَلِيلُ وَٱلْأَقَلُّ مِنْهُ وَرُبَّمَا تَمَسَّكَ ٱلْمُنْكِرُونَ لِشَأْنِهِ بِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ ٱلْجُنْدِيُّ عَنْ أَبَانَ بْنِ صَالِحِ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ عَنِ ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ فِي مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ إِنَّهُ ثِقَةٌ وَقَالَ ٱلْبَيْهَقِيُّ تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدٍ وَقَالَ ٱلْحَاكِمُ فِيهِ إِنَّهُ رَجُلٌ مَجْهُولٌ وَٱخْتُلِفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ فَمَرَّةً يَرْوُونَهُ كَمَا تَقَدَّمَ وَيُنْسَبُ ذٰلِكَ لِمُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ ٱلشَّافِعِيِّ وَمَرَّةً يَرْوُونَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبَانَ عَنِ ٱلْحَسَنِ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلاً قَالَ ٱلْبَيْهَقِيُّ فَرَجَعَ إِلَى رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ مَجْهُولٌ عَنْ أَبَانَ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ وَهُوَ مَتْرُوكٌ عَنِ ٱلْحَسَنِ عَنِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَٱلْحَدِيثُ ضَعِيفٌ مُضْطَرِبٌ وَقَدْ قِيلَ أَنْ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى أَيْ لَا يَتَكَلَّمُ فِي ٱلْمَهْدِ إِلَّا عِيسَى يُحَاوِلُونَ بِهٰذَا ٱلتَّأْوِيلِ رَدَّ ٱلِٱحْتِجَاجِ بِهِ أَوِ ٱلْجَمْعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْأَحَادِيثِ وَهُوَ مَدْفُوعٌ بِحَدِيثِ جُرَيْجٍ وَمِثْلِهِ مِنَ ٱلْخَوَارِقِ . وَأَمَّا ٱلْمُتَصَوِّفَةُ فَلَمْ يَكُنِ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ مِنْهُمْ يَخُوضُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ هٰذَا وَإِنَّمَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِي ٱلْمُجَاهَدَةِ

بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والأحوال وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه والقول بإمامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبرؤ من الشيخين كما ذكرناه في مذاهبهم ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم وكثرت التآليف في مذاهبهم وجاء الإسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه من الأحاديث في المهدي وغيرها ثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء الحس وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم وظهر منهم أيضاً القول بالقطب والأبدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والنقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم حتى جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرقة أن علياً رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في طريق الهدى وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها من القوم دخولهم في التشيع وانخراطهم في سلكه وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم عن بعض وكأنه مبني على أصول واهية من الفريقين وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرانات وهو من نوع الكلام في الملاحم ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب وابن قسي في كتاب خلع النعلين وعبد الحق بن سبعين وابن أبي واصل تلميذه في شرحه لكتاب خلع النعلين وأكثر كلماتهم في شأنه ألغاز وأمثال وربما يصرحون في الأقل أو يصرح مفسرو

كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن أبي واصل أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وأنها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود تجبرا وتكبرا وباطلا قالوا ولما كان في المعهود من سنة الله رجوع الأمور إلى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية ثم بخلافتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط ثم يعود الكفر بحاله يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة والخلافة بعدها والملك بعد الخلافة هذه ثلاث مراتب وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي والدجل بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره والكفر من بعد ذلك فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث المراتب الأولى قالوا ولما كان أمر الخلافة لقريش حكما شرعيا بالإجماع الذي لا يوهنه إنكار من لم يزاول علمه وجب أن تكون الإمامة فيمن هو أخص من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم إما ظاهرا كبني عبد المطلب وإما باطنا ممن كان من حقيقة الآل والآل من إذا حضر لم يلقب إمن هو آله وابن العربي الحاتمي سماه في كتابه عنقاء مغرب من تآليفه خاتم الأولياء وكنى عنه بلبنة الفضة إشارة إلى حديث البخاري في باب خاتم النبيين قال صلى الله عليه وسلم مثلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتا وأكمله حتى إذا لم يبق منه إلا موضع لبنة فأنا تلك اللبنة فيفسرون خاتم النبيين باللبنة حتى أكملت البنيان ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء أي حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية كما كان خاتم الأنبياء حائزا للمرتبة التي هي خاتمة النبوة فكنى الشارح عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة البيت في الحديث المذكور وهما على نسبة واحدة فيهما فهي لبنة واحدة في التمثيل ففي النبوة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبتين كما بين الذهب والفضة فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي الفاطمي المنتظر وذلك خاتم الأنبياء وهذا خاتم الأولياء وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واصل عنه وهذا الإمام المنتظر هو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون من بعد مضي خ ف ج من الهجرة ورسم حروفا ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل وهو الخاء المعجمة بواحدة من

فوقَ سِتِّمائَةٍ وَٱلفاءُ أُختُ ٱلقافِ بِثَمانِينَ وَٱلجِيمُ ٱلمُعجَمَةُ بِواحِدَةٍ مِنْ أَسفَلُ ثَلاثَة وَذٰلِكَ سِتِّمائَةٍ وَثَلاثٌ وَثَمانُونَ سَنَةً وَهِيَ آخِرُ ٱلقَرْنِ ٱلسَّابِعِ وَلَمَّا ٱنصَرَمَ هٰذا ٱلعَصْر وَلَمْ يَظْهَرْ حَمَلَ ذٰلِكَ بَعضُ ٱلمُقَلِّدِينَ لَهُمْ عَلَى أَنَّ ٱلمُرادَ بِتِلْكَ ٱلمُدَّةِ مَولِدُهُ وَعَبَّر بِظُهُورِهِ عَنْ مَولِدِهِ وَأَنَّ خُرُوجَهُ يَكُونُ بَعدَ ٱلعَشرِ وَٱلسَّبعِ ٱلمِائَةِ فَإِنَّهُ ٱلإِمامُ ٱلنَّاجِمُ مِن ناحِيَةِ ٱلمَغرِبِ قالَ وَإِذا كانَ مَولِدُهُ كَما زَعَمَ ٱبنُ ٱلعَرَبِيِّ سَنَةَ ثَلاثٍ وَثَمانِين وَسِتِّمائَةٍ فَيَكُونُ عُمرُهُ عِندَ خُرُوجِهِ سِتًّا وَعِشرِينَ سَنَةً قالَ وَزَعَمُوا أَنَّ خُرُوجَ ٱلدَّجّال يَكُونُ سَنَةَ ثَلاثٍ وَأَربَعِينَ وَسَبعِمائَةٍ مِنَ ٱليَومِ ٱلمُحَمَّدِيِّ وَٱبتِداءُ ٱليَومِ ٱلمُحَمَّدِيِّ عِندَهُمْ مِنْ يَومِ وَفاةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِلَى تَمامِ أَلفِ سَنَةٍ قالَ ٱبنُ أَبِي واصِل فِي شَرحِهِ كِتابَ خَلعِ ٱلنَّعلَينِ ٱلوَلِيُّ ٱلمُنتَظَرُ ٱلقائِمُ بِأَمرِ ٱللهِ ٱلمُشارُ إِلَيهِ بِمُحَمَّد ٱلمَهدِيِّ وَخاتَمِ ٱلأَولِياءِ وَلَيسَ هُوَ بِنَبِيٍّ وَإِنَّما هُوَ وَلِيٌّ ٱبتَعَثَهُ رُوحُهُ وَحَبِيبُهُ قال صَلَّى ٱللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ٱلعالِمُ فِي قَومِهِ كَٱلنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ وَقالَ عُلَماءُ أُمَّتِي كَأَنبِياءِ بَنِي إِسرائِيل وَلَمْ تَزَلِ ٱلبُشرَى تَتابَعُ بِهِ مِنْ أَوَّلِ ٱليَومِ ٱلمُحَمَّدِيِّ إِلَى قُبَيلِ ٱلخَمسِمائَةِ نِصفِ ٱليَوم وَتَأَكَّدَتْ وَتَضاعَفَتْ بِتَباشِيرِ ٱلمَشايِخِ بِتَقرِيبِ وَقتِهِ وَٱزدِلافِ زَمانِهِ مُنذُ ٱنقَضَت إِلَى هَلُمَّ جَرًّا قالَ وَذَكَرَ ٱلكِندِيُّ أَنَّ هٰذا ٱلوَلِيَّ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي بِٱلنّاسِ صَلاةَ ٱلظُّهر وَيُجَدِّدُ ٱلإِسلامَ وَيُظهِرُ ٱلعَدلَ وَيَفتَحُ جَزِيرَةَ ٱلأَندَلُسِ وَيَصِلُ إِلَى رُومِيَةَ فَيَفتَحُها وَيَسِيرُ إِلَى ٱلمَشرِقِ فَيَفتَحُهُ وَيَفتَحُ ٱلقُسطَنطِينِيَّةَ وَيَصِيرُ لَهُ مُلكُ ٱلأَرضِ فَيَتَقَوَّى ٱلمُسلِمُونَ وَيَعلُو ٱلإِسلامُ وَيُظهَرُ دِينُ ٱلحَنِيفِيَّةِ فَإِنَّ مِنْ صَلاةِ ٱلظُّهرِ إِلَى صَلاةِ ٱلعَصر وَقتَ صَلاةٍ قالَ عَلَيهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ ما بَينَ هٰذَينِ وَقتٌ وَقالَ ٱلكِندِيُّ أَيضاً ٱلحُرُوفُ ٱلعَرَبِيَّةُ غَيرُ ٱلمُعجَمَةِ يَعنِي ٱلمُفتَتَحَ بِها سُوَرُ ٱلقُرآنِ جُملَةُ عَدَدِها سَبعُمِائَة وَثَلاثٌ وَأَربَعُونَ وَسَبعٌ دَجّالِيَّةٌ ثُمَّ يَنزِلُ عِيسَى فِي وَقتِ صَلاةِ ٱلعَصرِ فَيُصلِحُ ٱلدُّنيا وَتَمشِي ٱلشّاةُ مَعَ ٱلذِّئبِ ثُمَّ مَبلَغُ مُلكِ ٱلعَجَمِ بَعدَ إِسلامِهِمْ مَعَ عِيسَى مِائَةٌ وَسِتُّونَ عاماً عَدَدُ حُرُوفِ ٱلمُعجَمِ وَهِيَ ق ي ن دَولَةُ ٱلعَدلِ مِنها أَربَعُونَ عاماً قالَ ٱبنُ أَبِي واصِل وَما وَرَدَ مِنْ قَولِهِ لا مَهدِيَّ إِلَّا عِيسَى فَمَعناهُ لا مَهدِيَّ تُساوِي هِدايَتُهُ هِدايَتَهُ وَقِيلَ لا يَتَكَلَّمُ فِي ٱلمَهدِ إِلَّا عِيسَى وَهٰذا مَدفُوعٌ بِحَدِيثِ جُرَيجٍ وَغَيرِهِ وَقَدْ جاءَ فِي ٱلصَّحِيح أَنَّهُ قالَ لا يَزالُ هٰذا ٱلأَمرُ قائِماً حَتَّى تَقُومَ ٱلسّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيهِمِ ٱثنا عَشَرَ خَلِيفَة

يعني قريشاً وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في أول الإسلام ومنهم من سيكون في آخره وقال الخلافة بعدي ثلاثون أو إحدى وثلاثون أو ست وثلاثون وانقضاؤها في خلافة الحسن وأول أمر معاوية فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذاً بأوائل الأسماء فهو سادس الخلفاء وأما سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز والباقون خمسة من أهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله إنك لذو قرنيها يريد الأمة أي إنك لخليفة في أولها وذريتك في آخرها وربما استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة فالأول هو المشار إليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدة حكمه بضع والبضع من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر وجاء ذكر أربعين وفي بعض الروايات سبعين وأما الأربعون فإنها مدته ومدة الخلفاء الأربعة الباقين من أهله القائمين بأمره من بعده على جميعهم السلام قال وذكر أصحاب النجوم والقرانات أن مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاماً فيكون الأمر على هذا جارياً على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين ثم تختلف الأحوال فتكون ملكاً انتهى كلام ابن أبي واصل وقال في موضع آخر نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم المحمدي حين تمضي ثلاثة أرباعه قال وذكر الكندي يعقوب بن إسحاق في كتاب الجفر الذي ذكر فيه القرانات أنه إذا وصل القران إلى الثور على رأس ضح بحرفين الضاد[1] المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة ينزل المسيح فيحكم في الأرض ما شاء الله تعالى قال وقد ورد في الحديث أن عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ينزل بين مهرودتين يعني حلتين مزعفرتين صفراوين ممصرتين واضعاً كفيه على أجنحة الملكين له لمة كأنما خرج من ديماس إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان

(١) الضاد عند المغاربة بتسعين والصاد لستين . اهـ . قاله نصر

كاللُّؤلُوءِ كَثِيرُ خِيلَانِ الْوَجْهِ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ وَإِلَى الْبَيَاضِ وَالْحُمْرَةِ وَفِي آخَرَ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ فِي الْغَرْبِ وَالْغَرْبُ دَلْوُ الْبَادِيَةِ يُرِيدُ أَنَّهُ يَتَزَوَّجُ مِنْهَا وَتَلِدُ زَوْجَتُهُ وَذَكَرَ وَفَاتَهُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ عَاماً وَجَاءَ أَنَّ عِيسَى يَمُوتُ بِالْمَدِينَةِ وَيُدْفَنُ إِلَى جَانِبِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَجَاءَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يُحْشَرَانِ بَيْنَ نَبِيَّيْنِ قَالَ ابْنُ أَبِي وَاصِلٍ وَالشِّيعَةُ تَقُولُ إِنَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ مَسِيحُ الْمَسَائِحِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ قُلْتُ وَعَلَيْهِ حَمَلَ بَعْضُ الْمُتَصَوِّفَةِ حَدِيثَ لَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَى أَيْ لَا يَكُونُ مَهْدِيٌّ إِلَّا الْمَهْدِيُّ الَّذِي نِسْبَتُهُ إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ نِسْبَةُ عِيسَى إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُوسَوِيَّةِ فِي الِاتِّبَاعِ وَعَدَمِ النَّسْخِ إِلَى كَلَامٍ مِنْ أَمْثَالِ هٰذَا يُعَيِّنُونَ فِيهِ الْوَقْتَ وَالرَّجُلَ وَالْمَكَانَ بِأَدِلَّةٍ وَاهِيَةٍ وَتَحَكُّمَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فَيَنْقَضِي الزَّمَانُ وَلَا أَثَرَ لِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ فَيَرْجِعُونَ إِلَى تَجْدِيدِ رَأْيٍ آخَرَ مُنْتَحَلٍ كَمَا تَرَاهُ مِنْ مَفْهُومَاتٍ لُغَوِيَّةٍ وَأَشْيَاءَ تَخْيِيلِيَّةٍ وَأَحْكَامٍ نُجُومِيَّةٍ فِي هٰذَا انْقَضَتْ أَعْمَارُ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَالْآخِرِ . وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ الَّذِينَ عَاصَرْنَاهُمْ فَأَكْثَرُهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى ظُهُورِ رَجُلٍ مُجَدِّدٍ لِأَحْكَامِ الْمِلَّةِ وَمَرَاسِمِ الْحَقِّ وَيَتَحَيَّنُونَ ظُهُورَهُ لِمَا قَرُبَ مِنْ عَصْرِنَا فَبَعْضُهُمْ يَقُولُ مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ وَبَعْضُهُمْ يُطْلِقُ الْقَوْلَ فِيهِ سَمِعْنَاهُ مِنْ جَمَاعَةٍ أَكْبَرُهُمْ أَبُو يَعْقُوبَ الْبَادِسِيُّ كَبِيرُ الْأَوْلِيَاءِ بِالْمَغْرِبِ كَانَ فِي أَوَّلِ هٰذِهِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ وَأَخْبَرَنِي عَنْهُ حَافِدُهُ صَاحِبُنَا أَبُو يَحْيَى زَكَرِيَّاءُ عَنْ أَبِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ عَنْ أَبِيهِ الْوَلِيِّ أَبِي يَعْقُوبَ الْمَذْكُورِ هٰذَا آخِرُ مَا اطَّلَعْنَا عَلَيْهِ أَوْ بَلَغَنَا مِنْ كَلَامِ هٰؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَمَا أَوْرَدَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ مِنْ أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ قَدِ اسْتَوْفَيْنَا جَمِيعَهُ بِمَبْلَغِ طَاقَتِنَا وَالْحَقُّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَقَرَّرَ لَدَيْكَ أَنَّهُ لَا تَتِمُّ دَعْوَةٌ مِنَ الدِّينِ وَالْمُلْكِ إِلَّا بِوُجُودِ شَوْكَةِ عَصَبِيَّةٍ تُظْهِرُهُ وَتُدَافِعُ عَنْهُ مَنْ يَدْفَعُهُ حَتَّى يَتِمَّ أَمْرُ اللهِ فِيهِ وَقَدْ قَرَّرْنَا ذٰلِكَ مِنْ قَبْلُ بِالْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ الَّتِي أَرَيْنَاكَ هُنَاكَ وَعَصَبِيَّةُ الْفَاطِمِيِّينَ بَلْ وَقُرَيْشٍ أَجْمَعَ قَدْ تَلَاشَتْ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاقِ وَوُجِدَ أُمَمٌ آخَرُونَ قَدِ اسْتَعْلَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ عَلَى عَصَبِيَّةِ قُرَيْشٍ إِلَّا مَا بَقِيَ بِالْحِجَازِ فِي مَكَّةَ وَيَنْبُعَ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الطَّالِبِيِّينَ مِنْ بَنِي حَسَنٍ وَبَنِي حُسَيْنٍ وَبَنِي جَعْفَرٍ وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَغَالِبُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَصَائِبُ بَدَوِيَّةٌ مُتَفَرِّقُونَ فِي مَوَاطِنِهِمْ وَإِمَارَاتِهِمْ وَآرَائِهِمْ يَبْلُغُونَ الْآلَافَ مِنَ الْكَثْرَةِ فَإِنْ صَحَّ ظُهُورُ هٰذَا الْمَهْدِيِّ فَلَا وَجْهَ لِظُهُورِ دَعْوَتِهِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ وَيُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِ حَتَّى تَتِمَّ لَهُ شَوْكَةٌ وَعَصَبِيَّةٌ وَافِيَةٌ بِإِظْهَارِ

كَلِمَتِهِ وَحَمْلِ ٱلنَّاسِ عَلَيْهَا وَأَمَّا عَلَى غَيْرِ هٰذَا ٱلْوَجْهِ مِثْلِ أَنْ يَدْعُوَ فَاطِمِيٌّ مِنْهُمْ إِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ فِي أُفُقٍ مِنَ ٱلْآفَاقِ مِنْ غَيْرِ عَصَبِيَّةٍ وَلَا شَوْكَةٍ إِلَّا مُجَرَّدَ نِسْبَةٍ فِي أَهْلِ ٱلْبَيْتِ فَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ وَلَا يُمْكِنُ لِمَا أَسْلَفْنَاهُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ ٱلصَّحِيحَةِ وَأَمَّا مَا تَدَّعِيهِ ٱلْعَامَّةُ وَٱلْأَغْمَارُ مِنَ ٱلدَّهْمَاءِ مِمَّنْ لَا يَرْجِعُ فِي ذٰلِكَ إِلَى عَقْلٍ يَهْدِيهِ وَلَا عِلْمٍ يُفِيدُهُ فَيُجِيبُونَ ذٰلِكَ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَفِي غَيْرِ مَكَانٍ تَقْلِيداً لِمَا ٱشْتَهَرَ مِنْ ظُهُورِ فَاطِمِيٍّ وَلَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ ٱلْأَمْرِ كَمَا بَيَّنَّاهُ وَأَكْثَرَ مَا يُجِيبُونَ فِي ذٰلِكَ ٱلْقَاصِيَةَ مِنَ ٱلْمَمَالِكِ وَأَطْرَافَ ٱلْعُمْرَانِ مِثْلِ ٱلزَّابِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلسُّوسِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَنَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْبَصَائِرِ يَقْصِدُونَ رِبَاطاً بِمَاسَةَ لِمَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلرِّبَاطُ بِٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْمُلَثَّمِينَ مِنْ كُدَالَةَ وَٱعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ مِنْهُمْ أَوْ قَائِمُونَ بِدَعْوَتِهِ زَعْماً لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ إِلَّا غَرَابَةُ تِلْكَ ٱلْأُمَمِ وَبُعْدُهُمْ عَنْ يَقِينِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِأَحْوَالِهَا مِنْ كَثْرَةٍ أَوْ قِلَّةٍ أَوْ ضَعْفٍ أَوْ قُوَّةٍ وَلِبُعْدِ ٱلْقَاصِيَةِ عَنْ مَنَالِ ٱلدَّوْلَةِ وَخُرُوجِهَا عَنْ نِطَاقِهَا فَتَقْوَى عِنْدَهُمُ ٱلْأَوْهَامُ فِي ظُهُورِهِ هُنَاكَ بِخُرُوجِهِ عَنْ رِبْقَةِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَنَالِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلْقَهْرِ وَلَا مَحْصُولَ لَدَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ إِلَّا هٰذَا وَقَدْ يَقْصِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعَ كَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْعُقُولِ لِلتَّلْبِيسِ بِدَعْوَةٍ يُمَنِّيهِ تَمَامَهَا وَسْوَاساً وَحُمْقاً وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ٱلْأُبُلِّيُّ قَالَ خَرَجَ بِرِبَاطِ مَاسَةَ لِأَوَّلِ ٱلْمِائَةِ ٱلثَّامِنَةِ وَعَصْرِ ٱلسُّلْطَانِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ رَجُلٌ مِنْ مُنْتَحِلِي ٱلتَّصَوُّفِ يُعْرَفُ بِٱلتُّوَيْزِرِيِّ نِسْبَةً إِلَى تُوزَرَ مُصَغَّراً وَٱدَّعَى أَنَّهُ ٱلْفَاطِمِيُّ ٱلْمُنْتَظَرُ وَٱتَّبَعَهُ ٱلْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِ ٱلسُّوسِ مِنْ ضَالَةَ وَكَزُولَةَ وَعَظُمَ أَمْرُهُ وَخَافَهُ رُؤَسَاءُ ٱلْمَصَامِدَةِ عَلَى أَمْرِهِمْ فَدَسَّ عَلَيْهِ ٱلسَّكْسَوِيُّ مَنْ قَتَلَهُ بَيَاتاً وَٱنْحَلَّ أَمْرُهُ وَكَذٰلِكَ ظَهَرَ فِي غُمَارَةَ فِي آخِرِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَعُشْرِ ٱلتِّسْعِينَ مِنْهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِٱلْعَبَّاسِ وَٱدَّعَى أَنَّهُ ٱلْفَاطِمِيُّ وَٱتَّبَعَهُ ٱلدَّهْمَاءُ مِنْ غُمَارَةَ وَدَخَلَ مَدِينَةَ فَاسَ عَنْوَةً وَحَرَقَ أَسْوَاقَهَا وَٱرْتَحَلَ إِلَى بَلَدِ ٱلْمَزْمَةِ فَقُتِلَ بِهَا غِيلَةً وَلَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ وَكَثِيرٌ مِنْ هٰذَا ٱلنَّمَطِ وَأَخْبَرَنِي شَيْخُنَا ٱلْمَذْكُورُ بِغَرِيبَةٍ فِي مِثْلِ هٰذَا وَهُوَ أَنَّهُ صَحِبَ فِي حَجِّهِ فِي رِبَاطِ ٱلْعُبَّادِ وَهُوَ مَدْفَنُ ٱلشَّيْخِ أَبِي مَدْيَنَ فِي جَبَلِ تِلِمْسَانَ ٱلْمُطِلِّ عَلَيْهَا رَجُلاً مِنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ مِنْ سُكَّانِ كَرْبَلَاءَ كَانَ مَتْبُوعاً مُعَظَّماً كَثِيرَ ٱلتِّلْمِيذِ وَٱلْخَادِمِ قَالَ وَكَانَ ٱلرِّجَالُ مِنْ مَوْطِنِهِ يَتَلَقَّوْنَهُ بِٱلنَّفَقَاتِ فِي أَكْثَرِ ٱلْبُلْدَانِ قَالَ وَتَأَكَّدَتِ ٱلصُّحْبَةُ بَيْنَنَا فِي ذٰلِكَ ٱلطَّرِيقِ فَٱنْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا جَاءُوا

مِنْ مَوْطِنِهِمْ بِكَرْبَلاءَ لِطَلَبِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ وَٱنْتِحَالِ دَعْوَةِ ٱلْفَاطِمِيِّ بِٱلْمَغْرِبِ فَلَمَّا عَايَنَ دَوْلَةَ بَنِي مَرِينَ وَيُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ مُنَازِلٌ تِلِمْسَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ ٱرْجِعُوا فَقَدْ أَزْرَى بِنَا ٱلْغَلَطُ وَلَيْسَ هٰذَا ٱلْوَقْتُ وَقْتَنَا وَيَدُلُّ هٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ لا يَتِمُّ إِلَّا بِٱلْعَصَبِيَّةِ ٱلْمُكَافِئَةِ لِأَهْلِ ٱلْوَقْتِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْوَطَنِ وَلا شَوْكَةَ لَهُ وَأَنَّ عَصَبِيَّةَ بَنِي مَرِينَ لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ لا يُقَاوِمُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ ٱسْتَكَانَ وَرَجَعَ إِلَى ٱلْحَقِّ وَأَقْصَرَ عَنْ مَطَامِعِهِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ أَنَّ عَصَبِيَّةَ ٱلْفَوَاطِمِ وَقُرَيْشٍ أَجْمَعَ قَدْ ذَهَبَتْ لا سِيَّمَا فِي ٱلْمَغْرِبِ إِلَّا أَنَّ ٱلتَّعَصُّبَ لِشَأْنِهِ لَمْ يَتْرُكْهُ لِهٰذَا ٱلْقَوْلِ وَٱللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ وَقَدْ كَانَتْ بِٱلْمَغْرِبِ لِهٰذِهِ ٱلْعُصُورِ ٱلْقَرِيبَةِ نَزْعَةٌ مِنَ ٱلدُّعَاةِ إِلَى ٱلْحَقِّ وَٱلْقِيَامِ بِٱلسُّنَّةِ لا يَنْتَحِلُونَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمِيٍّ وَلا غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَنْزِعُ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ ٱلْوَاحِدُ فَٱلْوَاحِدُ إِلَى إِقَامَةِ ٱلسُّنَّةِ وَتَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ وَيَعْتَنِي بِذٰلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ وَأَكْثَرُ مَا يُعْنَوْنَ بِإِصْلاحِ ٱلسَّابِلَةِ لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ فَسَادِ ٱلْأَعْرَابِ فِيهَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ طَبِيعَةِ مَعَاشِهِمْ فَيَأْخُذُونَ فِي تَغْيِيرِ ٱلْمُنْكَرِ بِمَا ٱسْتَطَاعُوا إِلَّا أَنَّ ٱلصِّبْغَةَ ٱلدِّينِيَّةَ فِيهِمْ لَمْ تَسْتَحْكِمْ لِمَا أَنَّ تَوْبَةَ ٱلْعَرَبِ وَرُجُوعَهُمْ إِلَى ٱلدِّينِ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا ٱلْإِقْصَارَ عَنِ ٱلْغَارَةِ وَٱلنَّهْبِ لا يَعْقِلُونَ فِي تَوْبَتِهِمْ وَإِقْبَالِهِمْ إِلَى مَنَاحِي ٱلدِّيَانَةِ غَيْرَ ذٰلِكَ لِأَنَّهَا ٱلْمَعْصِيَةُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ ٱلْمَقْرُبَةِ وَمِنْهَا تَوْبَتُهُمْ فَتَجِدُ ذٰلِكَ ٱلْمُنْتَحِلَ لِلدَّعْوَةِ وَٱلْقَائِمَ بِزَعْمِهِ بِٱلسُّنَّةِ غَيْرَ مُتَعَمِّقِينَ فِي فُرُوعِ ٱلْاقْتِدَاءِ وَٱلْاتِّبَاعِ إِنَّمَا دِينُهُمُ ٱلْإِعْرَاضُ عَنِ ٱلنَّهْبِ وَٱلْبَغْيِ وَإِفْسَادِ ٱلسَّابِلَةِ ثُمَّ ٱلْإِقْبَالُ عَلَى طَلَبِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمَعَاشِ بِأَقْصَى جُهْدِهِمْ وَشَتَّانَ بَيْنَ هٰذَا ٱلْأَجْرِ مِنْ إِصْلاحِ ٱلْخَلْقِ وَمِنْ طَلَبِ ٱلدُّنْيَا فَٱتِّفَاقُهُمَا مُمْتَنِعٌ لا تَسْتَحْكِمُ لَهُ صِبْغَةٌ فِي ٱلدِّينِ وَلا يَكْمُلُ لَهُ نُزُوعٌ عَنِ ٱلْبَاطِلِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَلا يَكْثُرُونَ وَيَخْتَلِفُ حَالُ صَاحِبِ ٱلدَّعْوَةِ مَعَهُمْ فِي ٱسْتِحْكَامِ دِينِهِ وَوِلايَتِهِ فِي نَفْسِهِ دُونَ تَابِعِهِ فَإِذَا هَلَكَ ٱنْحَلَّ أَمْرُهُمْ وَتَلاشَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ وَقَدْ وَقَعَ ذٰلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةَ لِرَجُلٍ مِنْ كَعْبٍ مِنْ سُلَيْمٍ يُسَمَّى قَاسِمَ بْنَ مِرَّةَ بْنِ أَحْمَدَ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ لِرَجُلٍ آخَرَ مِنْ بَادِيَةِ رِيَاحٍ مِنْ بَطْنٍ مِنْهُمْ يُعْرَفُونَ بِمُسَلَّمٍ وَكَانَ يُسَمَّى سَعَادَةَ وَكَانَ أَشَدَّ دِينًا مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَأَقْوَمَ طَرِيقَةً فِي نَفْسِهِ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَمْ يَسْتَتِبَّ أَمْرُ تَابِعِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ حَسْبَمَا يَأْتِي ذِكْرُ ذٰلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ ذِكْرِ قَبَائِلِ

سلَيمٍ ورِيَاحَ وَبَعْدَ ذٰلِكَ ظَهَرَ نَاسٌ بِهٰذِهِ ٱلدَّعْوَةِ يَتَشَبَّهُونَ بِمِثْلِ ذٰلِكَ وَيُلَبِّسُون فِيهَا وَيَنْتَحِلُونَ ٱسْمَ ٱلسُّنَّةِ وَلَيْسُوا عَلَيْهَا إِلَّا ٱلأَقَلَّ فَلا يَتِمُّ لَهُمْ وَلا لِمَنْ بَعْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِمْ . انتهى.

الفصل الثالث والخمسون

في ابتداء الدول والامم وفي الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

إِعْلَمْ أَنَّ مِنْ خَوَاصِّ ٱلنُّفُوسِ ٱلبَشَرِيَّةِ ٱلتَّشَوُّقَ إِلى عَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَعِلْمِ مَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنْ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ سِيَّمَا ٱلحَوَادِثُ ٱلعَامَّةُ كَمَعْرِفَةِ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَمَعْرِفَةِ مدَدِ ٱلدُّوَلِ أَوْ تَفَاوُتِهَا وَٱلتَّطَلُّعُ إِلى هٰذَا طَبِيعَةٌ مَجْبُولُونَ عَلَيْهَا وَلِذٰلِكَ تَجِدُ ٱلكَثِيرَ مِن ٱلنَّاسِ يَتَشَوَّقُونَ إِلى ٱلوُقُوفِ عَلى ذٰلِكَ فِي ٱلمَنَامِ وَٱلأَخْبَارُ مِنَ ٱلكُهَّانِ لِمَنْ قَصَدَهُمْ بِمِثْلِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلمُلُوكِ وَٱلسُّوقَةِ مَعْرُوفَةٌ وَلَقَدْ نَجِدُ فِي ٱلمُدُنِ صِنفاً مِنَ ٱلنَّاسِ يَنْتَحِلُونَ ٱلمَعَاشَ مِنْ ذٰلِكَ لِعِلْمِهِمْ بِحِرْصِ ٱلنَّاسِ عَلَيْهِ فَيَنْتَصِبُونَ لَهُمْ فِي ٱلطُّرُقَاتِ وَٱلدَّكَاكِينِ يَتَعَرَّضُونَ لِمَن يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ فَتَغْدُو عَلَيْهِمْ وَتَرُوحُ نِسْوَانُ ٱلمَدِينَةِ وَصِبْيَانُهَا وَكَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلعُقُول يَسْتَكْشِفُونَ عَوَاقِبَ أَمْرِهِمْ فِي ٱلكَسْبِ وَٱلجَاهِ وَٱلمَعَاشِ وَٱلمُعَاشَرَةِ وَٱلعَدَاوَةِ وَأَمْثَال ذٰلِكَ مَا بَيْنَ خَطٍّ فِي ٱلرَّمْلِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلمُنَجِّمَ وَطَرْقٍ بِٱلحَصَى وَٱلحُبُوبِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلحَاسِب وَنَظَرٍ فِي ٱلمَرَايَا وَٱلمِيَاهِ وَيُسَمُّونَهُ ضَارِبَ ٱلمَندَلِ وَهُوَ مِنَ ٱلمُنْكَرَاتِ ٱلفَاشِيَةِ فِي ٱلأَمْصَارِ لِمَا تَقَرَّرَ فِي ٱلشَّرِيعَةِ مِنْ ذَمِّ ذٰلِكَ وَإِنَّ ٱلبَشَرَ مَحْجُوبُونَ عَنِ ٱلغَيْبِ إِلَّا مَن أَطْلَعَهُ ٱللهُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِهِ فِي نَوْمٍ أَوْ وِلَايَةٍ وَأَكْثَرُ مَا يَعْتَنِي بِذٰلِكَ وَيَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ ٱلأُمَرَاءُ وَٱلمُلُوكُ فِي آمَادِ دَوْلَتِهِمْ وَلِذٰلِكَ ٱنْصَرَفَتِ ٱلعِنَايَةُ مِنْ أَهْلِ ٱلعِلْمِ إِلَيْهِ وَكُلُّ أُمَّةٍ مِن ٱلأُمَمِ يُوجَدُ لَهُمْ كَلَامٌ مِنْ كَاهِنٍ أَوْ مُنَجِّمٍ أَوْ وَلِيٍّ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكٍ يَرْتَقِبُونَهُ أَو دَوْلَةٍ يُحَدِّثُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنَ ٱلحَرْبِ وَٱلمَلَاحِمِ وَمُدَّةِ بَقَاءِ ٱلدَّوْلَةِ وَعَدَد ٱلمُلُوكِ فِيهَا وَٱلتَّعَرُّضِ لِأَسْمَائِهِمْ وَيُسَمَّى مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلحَدَثَانَ وَكَانَ فِي ٱلعَرَبِ ٱلكُهَّان وَٱلعَرَّافُونَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ وَقَدْ أَخْبَرُوا بِمَا سَيَكُونُ لِلعَرَبِ مِنَ ٱلمُلْكِ وَٱلدَّوْلَة كَمَا وَقَعَ لِشِقٍّ وَسَطِيحٍ فِي تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ نَصْرٍ مِنْ مُلُوكِ ٱليَمَنِ أَخْبَرَهُمْ بِمُلْك ٱلحَبَشَةِ بِلَادَهُمْ ثُمَّ رُجُوعِهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ ظَهَرَ ٱلمُلْكُ وَٱلدَّوْلَةُ لِلعَرَبِ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَكَذَا

تأويلُ سَطِيح لِرُؤْيَا ٱلْمُوبَذَانِ حَيْثُ بَعَثَ إِلَيْهِ كِسْرَى بِهَا مَعَ عَبْدِ ٱلْمَسِيحِ وَأَخْبَرَهُم بِظُهُورِ دَوْلَةِ ٱلْعَرَبِ وَكَذَا كَانَ فِي جِيلِ ٱلْبَرْبَرِ كُهَّانٌ مِنْ أَشْهَرِهِمْ مُوسَى بْنُ صَالِحٍ مِن بَنِي يَفْرِنَ وَيُقَالُ مِنْ غُمْرَةَ لَهُ كَلِمَاتٌ حَدَثَانِيَّةٌ عَلَى طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ بِرَطَانَتِهِمْ وَفِيهَا حَدَثَانٌ كَثِيرٌ وَمُعْظَمُهُ فِيمَا يَكُونُ لِزَنَاتَةَ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلدَّوْلَةِ بِٱلْمَغْرِبِ وَهِيَ مُتَدَاوَلَةٌ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْجِيلِ وَهُمْ يَزْعُمُونَ تَارَةً أَنَّهُ وَلِيٌّ وَتَارَةً أَنَّهُ كَاهِنٌ وَقَدْ يَزْعُمُ بَعْضُ مَزَاعِمِهِمْ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا لِأَنَّ تَأْرِيخَهُ عِنْدَهُمْ قَبْلَ ٱلْهِجْرَةِ بِكَثِيرٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ وَقَدْ يَسْتَنِدُ ٱلْجِيلُ إِلَى خَبَرِ ٱلْأَنْبِيَاءِ إِنْ كَانَ لِعَهْدِهِمْ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ أَنْبِيَاءَهُمُ ٱلْمُتَعَاقِبِينَ فِيهِم كَانُوا يُخْبِرُونَهُمْ بِمِثْلِهِ عِنْدَمَا يَعْنُونَهُمْ فِي ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ. وَأَمَّا فِي ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ فَوَقَعَ مِنْهُ كَثِيرٌ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى بَقَاءِ ٱلدُّنْيَا وَمُدَّتِهَا عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِيمَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلدَّوْلَةِ وَأَعْمَارِهَا عَلَى ٱلْخُصُوصِ وَكَانَ ٱلْمُعْتَمِدُ فِي ذَٰلِكَ فِي صَدْرِ ٱلْإِسْلَامِ لِآثَارٍ مَنْقُولَةٍ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ وَخُصُوصاً مُسْلِمَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلِ كَعْبِ ٱلْأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَأَمْثَالِهِمَا وَرُبَّمَا ٱقْتَبَسُوا بَعْضَ ذَٰلِكَ مِنْ ظَوَاهِرَ مَأْثُورَةٍ وَتَأْوِيلَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ وَوَقَعَ لِجَعْفَرٍ وَأَمْثَالِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ ذَٰلِكَ مُسْتَنَدُهُمْ فِيهِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ ٱلْكَشْفُ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْوِلَايَةِ وَإِذَا كَانَ مِثْلُهُ لَا يُنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِم مِنَ ٱلْأَوْلِيَاءِ فِي ذَوِيهِمْ وَأَعْقَابِهِمْ وَقَدْ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ فِيكُمْ مُحَدَّثِينَ فَهُمْ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِهَٰذِهِ ٱلرُّتَبِ ٱلشَّرِيفَةِ وَٱلْكَرَامَاتِ ٱلْمَوْهُوبَةِ وَأَمَّا بَعْدَ صَدْرِ ٱلْمِلَّةِ وَحِينَ عَلِقَ ٱلنَّاسُ عَلَى ٱلْعُلُومِ وَٱلِاصْطِلَاحَاتِ وَتُرْجِمَتْ كُتُبُ ٱلْحُكَمَاءِ إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ فَأَكْثَرُ مُعْتَمَدِهِمْ فِي ذَٰلِكَ كَلَامُ ٱلْمُنَجِّمِينَ فِي ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ وَسَائِرِ ٱلْأُمُورِ ٱلْعَامَّةِ مِنَ ٱلْقِرَانَاتِ وَفِي ٱلْمَوَالِيدِ وَٱلْمَسَائِلِ وَسَائِرِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَاصَّةِ مِنَ ٱلطَّوَالِعِ لَهَا وَهِيَ شَكْلُ ٱلْفَلَكِ عِنْدَ حُدُوثِهَا فَلْنَذْكُرِ ٱلْآنَ مَا وَقَعَ لِأَهْلِ ٱلْأَثَرِ فِي ذَٰلِكَ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى كَلَامِ ٱلْمُنَجِّمِينَ. أَمَّا أَهْلُ ٱلْأَثَرِ فَلَهُمْ فِي مُدَّةِ ٱلْمِلَلِ وَبَقَاءِ ٱلدُّنْيَا عَلَى مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ ٱلسُّهَيْلِيِّ فَإِنَّهُ نَقَلَ عَنِ ٱلطَّبَرِيِّ مَا يَقْتَضِي أَنَّ مُدَّةَ بَقَاءِ ٱلدُّنْيَا مُنْذُ ٱلْمِلَّةِ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَنُقِضَ ذَٰلِكَ بِظُهُورِ كَذِبِهِ وَمُسْتَنَدُ ٱلطَّبَرِيِّ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُ نَقَلَ عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ٱلدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جُمَعِ ٱلْآخِرَةِ وَلَمْ يَذْكُرْ لِذَٰلِكَ دَلِيلًا وَسِرُّهُ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ تَقْدِيرُ ٱلدُّنْيَا بِأَيَّامِ خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهِيَ سَبْعَةٌ ثُمَّ ٱلْيَوْمُ بِأَلْفِ سَنَةٍ لِقَوْلِهِ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي

ٱلصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم مِنْ صَلاَةِ ٱلْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ ٱلشَّمْسِ وَقَالَ بُعِثْتُ أَنَا وَٱلسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِٱلسَّبَّابَةِ وَٱلْوُسْطَى وَقَدَّرَ مَا بَيْنَ صَلاَةِ ٱلْعَصْرِ وَغُرُوبِ ٱلشَّمْسِ حِينَ صَيْرُورَةِ ظِلِّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَيْهِ يَكُونُ عَلَى ٱلتَّقْرِيبِ نِصْفَ سُبْعٍ وَكَذَٰلِكَ وَصْلُ ٱلْوُسْطَى عَلَى ٱلسَّبَّابَةِ فَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْمُدَّةُ نِصْفَ سُبْعِ ٱلْجُمْعَةِ كُلِّهَا وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَنْ يُعْجِزَ ٱللهُ أَنْ يُؤَخِّرَ هٰذِهِ ٱلأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَدَلَّ ذٰلِكَ عَلَى أَنَّ مُدَّةَ ٱلدُّنْيَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ خَمْسَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهَا خَمْسَةُ آلاَفٍ وَسِتُّمِائَةِ سَنَةٍ أَعْنِي ٱلْمَاضِيَ وَعَنْ كَعْبٍ أَنَّ مُدَّةَ ٱلدُّنْيَا كُلَّهَا سِتَّةُ آلاَفِ سَنَةٍ قَالَ ٱلسُّهَيْلِيُّ وَلَيْسَ فِي ٱلْحَدِيثَيْنِ مَا يَشْهَدُ لِشَيْءٍ مِمَّا ذَكَرَهُ مَعَ وُقُوعِ ٱلْوُجُودِ بِخِلاَفِهِ فَأَمَّا قَوْلُهُ لَنْ يُعْجِزَ ٱللهَ أَنْ يُؤَخِّرَ هٰذِهِ ٱلأُمَّةَ نِصْفَ يَوْمٍ فَلاَ يَقْتَضِي نَفْيَ ٱلزِّيَادَةِ عَلَى ٱلنِّصْفِ وَأَمَّا قَوْلُهُ بُعِثْتُ أَنَا وَٱلسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ فَإِنَّمَا فِيهِ ٱلإِشَارَةُ إِلَى ٱلْقُرْبِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلسَّاعَةِ نَبِيٌّ غَيْرُهُ وَلاَ شَرْعٌ غَيْرُ شَرْعِهِ ثُمَّ رَجَعَ ٱلسُّهَيْلِيُّ إِلَى تَعْيِينِ أَمَدِ ٱلْمِلَّةِ مِنْ مُدْرَكٍ آخَرَ لَوْ سَاعَدَهُ ٱلتَّحْقِيقُ وَهُوَ أَنَّهُ جَمَعَ ٱلْحُرُوفَ ٱلْمُقَطَّعَةَ فِي أَوَائِلِ ٱلسُّوَرِ بَعْدَ حَذْفِ ٱلْمُكَرَّرِ قَالَ وَهِيَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفاً يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ (الم يسطع نص حق كره) فَأَخَذَ عَدَدَهَا بِحِسَابِ ٱلْجُمَّلِ فَكَانَ سَبْعُمِائَةٍ وَثَلاَثَةً [1] أَضَافَهُ إِلَى ٱلْمُنْقَضِي مِنَ ٱلأَلْفِ ٱلآخِرِ قَبْلَ بَعْثَتِهِ فَهٰذِهِ هِيَ مُدَّةُ ٱلْمِلَّةِ قَالَ وَلاَ يَبْعُدُ ذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ هٰذِهِ ٱلْحُرُوفِ وَفَوَائِدِهَا قُلْتُ وَكَوْنُهُ لاَ يَبْعُدُ لاَ يَقْتَضِي ظُهُورَهُ وَلاَ ٱلتَّعْوِيلَ عَلَيْهِ وَٱلَّذِي حَمَلَ ٱلسُّهَيْلِيَّ عَلَى ذٰلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ ٱلسِّيَرِ لِٱبْنِ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِ ٱبْنَيْ أَخْطَبَ مِنْ أَحْبَارِ ٱلْيَهُودِ وَهُمَا أَبُو يَاسِرٍ وَأَخُوهُ حُيَيٌّ حِينَ سَمِعَا مِنَ ٱلأَحْرُفِ ٱلْمُقَطَّعَةِ أَلَمْ وَتَأَوَّلاَهَا عَلَى بَيَانِ ٱلْمُدَّةِ بِهٰذَا ٱلْحِسَابِ فَبَلَغَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ فَٱسْتَقَلاَّ ٱلْمُدَّةَ وَجَاءَ حُيَيٌّ إِلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ هَلْ مَعَ هٰذَا غَيْرُهُ فَقَالَ ٱلْمَص ثُمَّ ٱسْتَزَادَ ٱلر ثُمَّ ٱسْتَزَادَ ٱلْمَر فَكَانَتْ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ فَٱسْتَطَالَ ٱلْمُدَّةَ وَقَالَ قَدْ لُبِسَ عَلَيْنَا أَمْرُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى لاَ نَدْرِي أَقَلِيلاً أَعْطَيْتَ أَمْ كَثِيراً ثُمَّ ذَهَبُوا عَنْهُ وَقَالَ لَهُمْ أَبُو يَاسِرٍ مَا يُدْرِيكُمْ لَعَلَّهُ أَعْطَى عَدَدَهَا كُلَّهَا تِسْعُمِائَةٍ وَأَرْبَعَ سِنِينَ قَالَ ٱبْنُ إِسْحَاقَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْهُ

---

١ هذا العدد غير مطابق كما ان المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٣٠ وانما المطابق للحروف المذكورة ٦٩٣

آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ . اه. وَلَا يَقُومُ مِنَ الْقِصَّةِ دَلِيلٌ عَلَى تَقْدِيرِ الْمِلَّةِ بِهَذَا الْعَدَدِ لِأَنَّ دَلَالَةَ هَذِهِ الْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ الْأَعْدَادِ لَيْسَتْ طَبِيعِيَّةً وَلَا عَقْلِيَّةً وَإِنَّمَا هِيَ بِالتَّوَاضُعِ وَالِاصْطِلَاحِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ حِسَابَ الْجُمَّلِ نَعَمْ إِنَّهُ قَدِيمٌ مَشْهُورٌ وَقِدَمُ الِاصْطِلَاحِ لَا يَصِيرُ حُجَّةً وَلَيْسَ أَبُو يَاسِرَ وَأَخُوهُ حُيَيٌّ مِمَّنْ يُؤْخَذُ رَأْيُهُ فِي ذَلِكَ دَلِيلاً وَلَا مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَادِيَةً بِالْحِجَازِ غُفْلاً عَنِ الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ حَتَّى عَنْ عِلْمِ شَرِيعَتِهِمْ وَفِقْهِ كِتَابِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَإِنَّمَا يَتَلَقَّفُونَ مِثْلَ هَذَا الْحِسَابِ كَمَا تَتَلَقَّفُهُ الْعَوَامُّ فِي كُلِّ مِلَّةٍ فَلَا يَنْهَضُ لِلسُّهَيْلِيِّ دَلِيلٌ عَلَى مَا ادَّعَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَوَقَعَ فِي الْمِلَّةِ فِي حَدَثَانِ دَوْلَتِهَا عَلَى الْخُصُوصِ مُسْنَدٌ مِنَ الْأَثَرِ إِجْمَالِيٌّ فِي حَدِيثٍ خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ مِنْ طَرِيقِ شَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الذُّهْلِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ فَرُّوخَ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِي قَبِيصَةَ بْنِ ذُؤَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ وَاللهِ مَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْهُ وَاللهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَائِدِ فِتْنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الدُّنْيَا لَا يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلَاثَمِائَةٍ فَصَاعِداً إِلَّا قَدْ سَمَّاهُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَقَبِيلَتِهِ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَبُو دَاوُدَ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ وَهَذَا الْحَدِيثُ إِذَا كَانَ صَحِيحاً فَهُوَ مُجْمَلٌ وَيَفْتَقِرُ فِي بَيَانِ إِجْمَالِهِ وَتَعْيِينِ مُبْهَمَاتِهِ إِلَى آثَارٍ أُخْرَى يُجَوَّدُ أَسَانِيدُهَا وَقَدْ وَقَعَ إِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ كِتَابِ السُّنَنِ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ فَوَقَعَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ أَيْضاً قَالَ قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا خَطِيباً فَمَا تَرَكَ شَيْئاً يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَاكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ عَنْهُ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابُهُ هَؤُلَاءِ . اه. وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ مَا تَرَكَ شَيْئاً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ وَفِي كِتَابِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْماً صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيباً فَلَمْ يَدَعْ شَيْئاً يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ اه وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ كُلُّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ أَحَادِيثِ الْفِتَنِ وَالْأَشْرَاطِ لَا غَيْرُ لِأَنَّهُ الْمَعْهُودُ مِنَ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْعُمُومَاتِ وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ الَّتِي تَفَرَّدَ بِهَا أَبُو دَاوُدَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ شَاذَّةٌ مُنْكَرَةٌ مَعَ أَنَّ الْأَئِمَّةَ اخْتَلَفُوا فِي رِجَالِهِ فَقَالَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ فِي

ٱبْنِ فَرُّوخَ أَحَادِيثُهُ مَنَاكِيرُ وَقَالَ ٱلْبُخَارِيُّ يُعْرَفُ مِنْـهُ وَيُنْـكَرُ وَقَالَ ٱبْنُ عَدِيٍّ أَحَادِيثُهُ غَيْرُ مَحْفُوظَةٍ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَإِنْ خَرَّجَ لَهُ فِي ٱلصَّحِيحَيْنِ وَوَثَّقَهُ ٱبْنُ مَعِينٍ فَإِنَّمَا خَرَّجَ لَهُ ٱلْبُخَارِيُّ ٱسْتِشْهَاداً وَضَعَّفَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَقَالَ ٱبْنُ حَاتِمٍ يُكْتَبُ حَدِيثُهُ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ وَأَبُو قَبِيصَةَ بْنُ ذُؤَيْبٍ مَجْهُولٌ فَتَضْعُفُ هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ ٱلَّتِي وَقَعَتْ لِأَبِي دَاوُدَ فِي هٰذَا ٱلْحَدِيثِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَاتِ مَعَ شُذُوذِهَا كَمَا مَرَّ . وَقَد يَسْتَنِدُونَ فِي حَدَثَانِ ٱلدُّوَلِ عَلَى ٱلْخُصُوصِ إِلَى كِتَابِ ٱلْجَفْرِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ فِيهِ عِلْمَ ذٰلِكَ كُلِّهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْآثَارِ وَٱلنُّجُومِ لَا يَزِيدُونَ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَعْرِفُونَ أَصْلَ ذٰلِكَ وَلَا مُسْتَنَدِهِ وَٱعْلَمْ أَنَّ كِتَابَ ٱلْجَفْرِ كَانَ أَصْلُهُ أَنَّ هَارُونَ بْنَ سَعِيدٍ ٱلْعِجْلِيَّ وَهُوَ رَأْسُ ٱلزَّيْدِيَّةِ كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَرْوِيهِ عَنْ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ وَفِيهِ عِلْمُ مَا سَيَقَعُ لِأَهْلِ ٱلْبَيْتِ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَلِبَعْضِ ٱلْأَشْخَاصِ مِنْهُمْ عَلَى ٱلْخُصُوصِ وَقَعَ ذٰلِكَ لِجَعْفَرٍ وَنَظَائِرِهِ مِنْ رِجَالَاتِهِم عَلَى طَرِيقِ ٱلْكَرَامَةِ وَٱلْكَشْفِ ٱلَّذِي يَقَعُ لِمِثْلِهِمْ مِنَ ٱلْأَوْلِيَاءِ وَكَانَ مَكْتُوباً عِنْدَ جَعْفَرٍ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ صَغِيرٍ فَرَوَاهُ عَنْهُ هَارُونُ ٱلْعِجْلِيُّ وَكَتَبَهُ وَسَمَّاهُ ٱلْجَفْرَ بِٱسْمِ ٱلْجِلْدِ ٱلَّذِي كُتِبَ فِيهِ لِأَنَّ ٱلْجَفْرَ فِي ٱللُّغَةِ هُوَ ٱلصَّغِيرُ وَصَارَ هٰذَا ٱلْإِسْمُ عَلَماً عَلَى هٰذَا ٱلْكِتَابِ عِنْدَهُمْ وَكَانَ فِيهِ تَفْسِيرُ ٱلْقُرْآنِ وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ غَرَائِبِ ٱلْمَعَانِي مَرْوِيَّةً عَنْ جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ لَمْ تَتَّصِلْ رِوَايَتُـهُ وَلَا عُرِفَ عَيْنُهُ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْهُ شَوَاذُّ مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ لَا يَصْحَبُهَا دَلِيلٌ وَلَوْ صَحَّ ٱلسَّنَدُ إِلَى جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ لَكَانَ فِيهِ نِعْمَ ٱلْمُسْتَنَدُ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ فَهُمْ أَهْلُ ٱلْكَرَامَاتِ وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُحَذِّرُ بَعْضَ قَرَابَتِهِ بِوَقَائِعَ تَكُونُ لَهُمْ فَتَصِحُّ كَمَا يَقُولُ وَقَدْ حَذَّرَ يَحْيَى ٱبْنَ عَمِّهِ زَيْدٍ مِنْ مَصْرَعِهِ وَعَصَاهُ فَخَرَجَ وَقُتِلَ بِٱلْجَوْزَجَانِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْكَرَامَةُ تَقَعُ لِغَيْرِهِم فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ عِلْماً وَدِيناً وَآثَاراً مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ وَعِنَايَةً مِنَ ٱللّٰهِ بِٱلْأَصْلِ ٱلْكَرِيمِ تَشْهَد لِفُرُوعِهِ ٱلطَّيِّبَةِ وَقَدْ يُنْقَلُ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ هٰـذَا ٱلْكَلَامِ غَيْرُ مَنْسُوبٍ إِلَى أَحَدٍ وَفِي أَخْبَارِ دَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَٱنْظُرْ مَا حَكَاهُ ٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ فِي لِقَاءِ أَبِي عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلشِّيعِيِّ لِعُبَيْدِ ٱللّٰهِ ٱلْمَهْدِيِّ مَعَ ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ ٱلْحَبِيبِ وَمَا حَدَّثَاهُ بِهِ وَكَيْفَ بَعَثَاهُ إِلَى ٱبْنِ حَوْشَبٍ دَاعِيَتِهِمْ بِٱلْيَمَنِ فَأَمَرَهُ بِٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَبَثَّ ٱلدَّعْوَةَ فِيهِ عَلَى عِلْمٍ لَقَّنَهُ أَنَّ دَعْوَتَهُ تَتِمُّ هُنَاكَ وَأَنَّ عُبَيْدَ ٱللّٰهِ لَمَّا بَنَى ٱلْمَهْدِيَّةَ بَعْدَ ٱسْتِفْحَالِ

دَوْلَتِهِمْ بِأَفْرِيقِيَّةَ قَالَ بَنَيْتُهَا لِيَعْتَصِمَ بِهَا ٱلْفَوَاطِمُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَأَرَاهُمْ مَوْقِفَ صَاحِبِ ٱلْحِمَارِ أَبِي يَزِيدَ بِٱلْمَهْدِيَّةِ وَكَانَ يَسْأَلُ عَنْ مُنْتَهَى مَوْقِفِهِ حَتَّى جَاءَهُ ٱلْخَبَرُ بِبُلُوغِهِ إِلَى ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي عَيَّنَهُ جَدُّهُ أَبُو عُبَيْدِ ٱللهِ فَأَيْقَنَ بِٱلظَّفَرِ وَبَرَزَ مِنَ ٱلْبَلَدِ فَهَزَمَهُ وَٱتَّبَعَهُ إِلَى نَاحِيَةِ ٱلزَّابِ فَظَفِرَ بِهِ وَقَتَلَهُ وَمِثْلُ هٰذِهِ ٱلْأَخْبَارِ كَثِيرَةٌ . وَأَمَّا ٱلْمُنَجِّمُونَ فَيَسْتَنِدُونَ فِي حَدَثَانِ ٱلدُّوَلِ إِلَى ٱلْأَحْكَامِ ٱلنُّجُومِيَّةِ أَمَّا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْعَامَّةِ مِثْلِ ٱلْمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ فَمِنَ ٱلْقِرَانَاتِ وَخُصُوصاً بَيْنَ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ زُحَلَ وَٱلْمُشْتَرِي يَقْتَرِنَانِ فِي كُلِّ عِشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً ثُمَّ يَعُودُ ٱلْقِرَانُ إِلَى بُرْجٍ آخَرَ فِي تِلْكَ ٱلْمُثَلَّثَةِ مِنَ ٱلتَّثْلِيثِ ٱلْأَيْمَنِ ثُمَّ بَعْدَهُ إِلَى آخَرَ كَذٰلِكَ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ فِي ٱلْمُثَلَّثَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً تَسْتَوِي بُرُوجُهُ ٱلثَّلَاثَةُ فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ فَيَسْتَوِي بِهَا فِي سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَعُودُ ثَالِثَةً ثُمَّ رَابِعَةً فَيَسْتَوِي فِي ٱلْمُثَلَّثَةِ بِٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَأَرْبَعِ عَوْدَاتٍ فِي مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَيَكُونُ ٱنْتِقَالُهُ فِي كُلِّ بُرْجٍ عَلَى ٱلتَّثْلِيثِ ٱلْأَيْمَنِ وَيَنْتَقِلُ مِنَ ٱلْمُثَلَّثَةِ إِلَى ٱلْمُثَلَّثَةِ ٱلَّتِي تَلِيهَا أَعْنِي ٱلْبُرْجَ ٱلَّذِي يَلِي ٱلْبُرْجَ ٱلْأَخِيرَ مِنَ ٱلْقِرَانِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ فِي ٱلْمُثَلَّثَةِ وَهٰذَا ٱلْقِرَانُ ٱلَّذِي هُوَ قِرَانُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ يَنْقَسِمُ إِلَى كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَوَسَطٍ فَٱلْكَبِيرُ هُوَ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْفَلَكِ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا بَعْدَ تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً مَرَّةً وَاحِدَةً وَٱلْوَسَطُ هُوَ ٱقْتِرَانُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ فِي كُلِّ مُثَلَّثَةٍ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً وَبَعْدَ مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً يَنْتَقِلُ إِلَى مُثَلَّثَةٍ أُخْرَى وَٱلصَّغِيرُ هُوَ ٱقْتِرَانُ ٱلْعَلَوِيَّيْنِ فِي دَرَجَةِ بُرْجٍ وَبَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً يَقْتَرِنَانِ فِي بُرْجٍ آخَرَ عَلَى تَثْلِيثِهِ ٱلْأَيْمَنِ فِي مِثْلِ دَرَجِهِ أَوْ دَقَائِقِهِ مِثَالُ ذٰلِكَ وَقَعَ ٱلْقِرَانُ يَكُونُ أَوَّلَ دَقِيقَةٍ مِنَ ٱلْحَمَلِ وَبَعْدَ عِشْرِينَ يَكُونُ فِي أَوَّلِ دَقِيقَةٍ مِنَ ٱلْأَسَدِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا نَارِيَّةٌ وَهٰذَا كُلُّهُ قِرَانٌ صَغِيرٌ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَوَّلِ ٱلْحَمَلِ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً وَيُسَمَّى دَوْرَ ٱلْقِرَانِ وَعَوْدَ ٱلْقِرَانِ وَبَعْدَ مِائَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ يَنْتَقِلُ مِنَ ٱلنَّارِيَّةِ إِلَى ٱلتُّرَابِيَّةِ لِأَنَّهَا بَعْدَهَا وَهٰذَا قِرَانٌ وَسَطٌ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى ٱلْهَوَائِيَّةِ ثُمَّ ٱلْمَائِيَّةِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ ٱلْحَمَلِ فِي تِسْعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَهُوَ ٱلْكَبِيرُ وَٱلْقِرَانُ ٱلْكَبِيرُ يَدُلُّ عَلَى عِظَامِ ٱلْأُمُورِ مِثْلَ تَغْيِيرِ ٱلْمُلْكِ وَٱلدَّوْلَةِ وَٱنْتِقَالِ ٱلْمُلْكِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ وَٱلْوَسَطُ عَلَى ظُهُورِ ٱلْمُتَغَلِّبِينَ وَٱلطَّالِبِينَ لِلْمُلْكِ وَٱلصَّغِيرُ عَلَى ظُهُورِ ٱلْخَوَارِجِ وَٱلدُّعَاةِ وَخَرَابِ ٱلْمُدُنِ أَوْ عُمْرَانِهَا وَيَقَعُ فِي أَثْنَاءِ هٰذِهِ ٱلْقِرَانَاتِ قِرَانُ ٱلنَّحْسَيْنِ فِي بُرْجِ ٱلسَّرَطَانِ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ

سنةً مرّةً ويُسمّى الرّابع وبُرجُ السّرطان هو طالعُ العالَم وفيه وبالُ زُحلَ وهُبوط المريخ فتعظُمُ دلالةُ هذا القرانِ في الفِتَنِ والحُروب وسفكِ الدماء وظهورِ الخوارج وحركةِ العساكرِ وعِصيانِ الجُندِ والوباءِ والقحطِ ويدومُ ذلكَ أو ينتهي على قدر السّعادةِ والنُّحوسةِ في وقتِ قِرانِهما على قدرِ تيسيرِ الدّليلِ فيه قالَ جراسُ بنُ أحمد الحاسبُ في الكتابِ الّذي ألّفهُ لنِظام المُلكِ ورُجوعُ المرّيخِ إلى العقربِ لهُ أثرٌ عظيمٌ في المِلّةِ الإسلاميّةِ لأنّهُ كانَ دليلَها فالمولدُ النّبويُّ كانَ عِندَ قِرانِ العلويّين ببُرجِ العقربِ فلمّا رجعَ هُنالكَ حدثَ التّشويشُ على الخُلفاءِ وكثُرَ المرضُ في أهلِ العلمِ والدّينِ ونقصتْ أحوالُهم وربّما انهدمَ بعضُ بُيوتِ العبادةِ وقد يُقالُ إنّهُ كانَ عندَ قتلِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ومروانَ من بني أُميّةَ والمُتوكّلِ من بني العبّاسِ فإذا رُوعيتْ هذهِ الأحكامُ معَ أحكامِ القِراناتِ كانتْ في غايةِ الإحكامِ وذكرَ شاذانُ البلخيُّ أنّ المِلّةَ تنتهي إلى ثلاثمائةٍ وعشرينَ وقد ظهرَ كذبُ هذا القولِ وقالَ أبو معشرٍ يظهرُ بعدَ المائةِ والخمسينَ منها اختلافٌ كثيرٌ ولم يصِحّ ذلكَ وقالَ خراش رأيتُ في كُتبِ القُدماءِ أنّ المُنجّمينَ أخبروا كسرى عن مُلكِ العربِ وظهورِ النّبوّةِ فيهم وأنّ دليلَهمُ الزُّهرةُ وكانتْ في شرفِها فيبقى المُلكُ فيهم أربعينَ سنةً وقالَ أبو معشرٍ في كتابِ القِراناتِ التِّسعةُ إذا انتهتْ إلى السّابعةِ والعشرينَ منَ الحوتِ فيها شرفُ الزُّهرةِ ووقعَ القِرانُ معَ ذلكَ ببُرجِ العقربِ وهوَ دليلُ العربِ ظهرتْ حينئذ دولةُ العربِ وكانَ منهم نبيٌّ ويكونُ قُوّةُ مُلكِهِ ومُدّتُهُ على ما بقيَ من درجاتِ شرفِ الزُّهرةِ وهيَ إحدى عشرةَ درجةً بتقريبٍ من بُرجِ الحوتِ ومُدّةُ ذلكَ ستّمائةٍ وعشرِ سنينَ وكانَ ظُهورُ أبي مُسلمٍ عندَ انتقالِ الزُّهرةِ ووقوعِ التِّسعةِ أوّلَ الحَمَلِ وصاحبِ الجَدِّ المُشتري وقالَ يعقوبُ بنُ إسحاقَ الكنديُّ إنّ مُدّةَ المِلّةِ تنتهي إلى ستّمائةٍ وثلاثٍ وتسعينَ سنةً قالَ لأنّ الزُّهرةَ كانتْ عندَ قِرانِ المِلّةِ في ثمانٍ وعشرينَ درجةً وثلاثينَ دقيقةً منَ الحوتِ فالباقي إحدى عشرةَ درجةً وثماني عشرةَ دقيقةً ودقائقُها ستّونَ فيكونُ ستّمائةٍ وثلاثاً وتسعينَ سنةً قالَ وهذهِ مُدّةُ المِلّةِ باتّفاقِ الحُكماءِ ويعضُدُهُ الحُروفُ الواقعةُ في أوّلِ السُّوَرِ بحذفِ المُكرّرِ واعتبارِهِ بحسابِ الجُمّلِ قلتُ وهذا هوَ الّذي ذكرَهُ السُّهيليُّ والغالبُ أنّ الأوّلَ هوَ مُستندُ السُّهيليِّ فيما نقلناه

عنهُ قالَ خِرَاشٌ سَأَلَ هِرمزُ إفريذَ الحكيمَ عَنْ مُدَّةِ أَرْدَشِيرَ وَوُلْدِهِ مُلوكِ السَّاسانيَّة فقالَ دَلِيلُ مُلكِهِ المُشتَرِي وَكَانَ في شَرَفِهِ فيُعطَى أطوَلَ السِّنِينَ وأَجوَدَها أربعمائة وَسَبعاً وَعِشرِينَ سَنَةً ثُمَّ يَزِيدُ الزُّهرَةُ وتَكُونُ في شَرَفِهَا وَهِيَ دَلِيلُ العَرَبِ فَيَملِكُون لِأَنَّ طَالِعَ القِرَانِ المِيزانُ وَصَاحِبِهِ الزُّهرَةُ وكَانَتْ عِندَ القِرَانِ في شَرَفِهَا فَدَلَّ أَنَّهُم يملِكُونَ أَلفَ سَنَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَسَأَلَ كِسرَى أَنُو شِروَانَ وَزِيرَهُ بُزُرْجُمهرَ الحَكِيمِ عنْ خُرُوجِ المُلكِ مِنْ فَارِسَ إلى العَرَبِ فَأَخبَرَهُ أَنَّ القَائِمَ مِنهُم يُولَدُ لِخَمسٍ وَأَربَعِين مِنْ دَولَتِهِ وَيَملِكُ المَشرِقَ وَالمَغرِبَ وَالمُشتَرِي يَغُوصُ إلى الزُّهرَةِ وَيَنتَقِلُ القِرَان مِنَ الهَوَائِيَّةِ إلى العَقرَبِ وَهُوَ مَائِيٌّ وَهُوَ دَلِيلُ العَرَبِ فَهذِهِ الأَدِلَّةُ تُقضِي لِلمِلَّةِ بِمُدة دَوْرِ الزُّهرَةِ وَهِيَ أَلفٌ وَسِتُّونَ سَنَةً وَسَأَلَ كِسرَى أَبرَوِيزُ أَلِيُوسَ الحَكِيمَ عَنْ ذَلِكَ فقَالَ مِثلَ قَولِ بُزُرْجُمهرَ وَقَالَ تُوفِيلُ الرُّومِيُّ المُنَجِّمُ في أيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ إنَّ مِلَّةَ الإسلام تبقَى مُدَّةَ القِرَانِ الكَبِيرِ تِسعَمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً فَإذَا عَادَ القِرَانُ إلى بُرجِ العَقرَب كَمَا كَانَ في ابتِدَاءِ المِلَّةِ وَتَغَيَّرَ وَضعُ الكَوَاكِبِ عَنْ هَيئَتِهَا في قِرَانِ المِلَّةِ فَحِينَئذ إمَّا أَنْ يَفتُرَ العَمَلُ بِهِ أَوْ يَتَجَدَّدَ مِنَ الأَحكَامِ مَا يُوجِبُ خِلافَ الظَّنِّ قَالَ خِرَاش وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ خَرَابَ العَالَمِ يَكُونُ بِاستِيلاءِ المَاءِ وَالنَّارِ حَتَّى تَهلِكَ سَائِرُ المُكَوَّنَات وَذَلِكَ عِندَمَا يَقطَعُ قَلبُ الأَسَدِ أَربعاً وَعِشرِينَ دَرَجَةً وَهِيَ حَدُّ المِرِّيخِ وَذَلِكَ بَعد مُضِيِّ تِسعِمِائَةٍ وَسِتِّينَ سَنَةً وَذَكَرَ خِرَاشٌ أَنَّ مَلِكَ زَابلستَانَ بَعَثَ إلى المَأمُون بِحَكِيمِهِ ذُوبَانَ أَتحَفَهُ بِهِ في هَدِيَّةٍ وَأَنَّهُ تَصَرَّفَ لِلمَأمُونِ في الاختِيَارَاتِ بِحُرُوبِ أَخِيهِ وَبِعَقدِ اللِّوَاءِ لِطَاهِرٍ وَأَنَّ المَأمُونَ أَعظَمَ حِكمَتَهُ فَسَأَلَهُ عَنْ مُدَّةِ مُلكِهِم فَأَخبَرَه بِانقِطَاعِ المُلكِ مِنْ عَقِبِهِ وَاتِّصَالِهِ في وُلدِ أَخِيهِ وَأَنَّ العَجَمَ يَتَغَلَّبُونَ عَلَى الخِلافَةِ مِن الدَّيلَمِ في دَولَةِ سَنَةِ خَمسِينَ وَيَكُونُ مَا يُرِيدُهُ اللهُ ثُمَّ يَسُوءُ حَالُهُم ثُمَّ تَظهَرُ التُّركُ مِن شَمَالِ المَشرِقِ فَيَملِكُونَ إلى الشَّامِ وَالفُرَاتِ وَسَيحُونَ وَسَيَملِكُونَ بِلادَ الرُّومِ وَيَكُون مَا يُرِيدُهُ اللهُ فَقَالَ لَهُ المَأمُونُ مِنْ أَينَ لَكَ هذَا فَقَالَ مِنْ كُتُبِ الحُكَمَاءِ وَمِنْ أَحكَام صَصَّةَ بنِ دَاهِرٍ الهِندِيِّ الَّذِي وَضَعَ الشِّطرَنجَ قُلتُ وَالتُّركُ الَّذِينَ أَشَارَ إلى ظُهُورِهِم بعدَ الدَّيلَمِ هُمُ السَّلجُوقِيَّةُ وَقَدِ انقَضَتْ دَولَتُهُم أَوَّلَ القَرنِ السَّابِعِ قَالَ خِرَاشٌ وَانتِقَال القِرَانِ إلى المُثَلَّثَةِ المَائِيَّةِ مِنْ بُرجِ الحُوتِ يَكُونُ سَنَةَ ثَلاثٍ وَثَلاثِينَ وَثَمَانِمائة

لِيَزْدَجِرْدَ وَبَعْدَهَا إِلَى بُرْجِ ٱلْعَقْرَبِ حَيْثُ كَانَ قِرَانُ ٱلْمِلَّةِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ قَالَ وَٱلَّذِي فِي ٱلْحُوتِ هُوَ أَوَّلُ ٱلِٱنْتِقَالِ وَٱلَّذِي فِي ٱلْعَقْرَبِ يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ دَلَائِلُ ٱلْمِلَّةِ قَالَ وَتَحْوِيلُ ٱلسَّنَةِ ٱلْأُولَى مِنَ ٱلْقِرَانِ ٱلْأَوَّلِ فِي ٱلْمُثَلَّثَاتِ ٱلْمَائِيَّةِ فِي ثَانِي رَجَبٍ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَمَانِمَائَةٍ وَلَمْ يَسْتَوْفِ ٱلْكَلَامَ عَلَى ذٰلِكَ. وَأَمَّا مُسْتَنَدُ ٱلْمُنَجِّمِينَ فِي دَوْلَةٍ عَلَى ٱلْخُصُوصِ فَمِنَ ٱلْقِرَانِ ٱلْأَوْسَطِ وَهَيْئَةِ ٱلْفَلَكِ عِنْدَ وُقُوعِهِ لِأَنَّ لَهُ دِلَالَةً عِنْدَهُمْ عَلَى حُدُوثِ ٱلدَّوْلَةِ وَجِهَاتِهَا مِنَ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْقَائِمِينَ بِهَا مِنَ ٱلْأُمَمِ وَعَدَدِ مُلُوكِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ وَنِحَلِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ فِي كِتَابِهِ فِي ٱلْقِرَانَاتِ وَقَدْ تُوجَدُ هٰذِهِ ٱلدِّلَالَةُ مِنَ ٱلْقِرَانِ ٱلْأَصْغَرِ إِذَا كَانَ ٱلْأَوْسَطُ دَالًّا عَلَيْهِ فَمِنْ هٰذَا يُوجَدُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلدُّوَلِ. وَقَدْ كَانَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ ٱلْكِنْدِيُّ مُنَجِّمَ ٱلرَّشِيدِ وَٱلْمَأْمُونِ وَضَعَ فِي ٱلْقِرَانَاتِ ٱلْكَائِنَةِ فِي ٱلْمِلَّةِ كِتَابًا سَمَّاهُ ٱلشِّيعَةُ بِٱلْجَفْرِ بِٱسْمِ كِتَابِهِمِ ٱلْمَنْسُوبِ إِلَى جَعْفَرٍ ٱلصَّادِقِ وَذَكَرَ فِيهِ فِيمَا يُقَالُ حَدَثَانَ دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَأَنَّهَا نِهَايَتُهُ وَأَشَارَ إِلَى ٱنْقِرَاضِهَا وَٱلْحَادِثَةِ عَلَى بَغْدَادَ أَنَّهَا تَقَعُ فِي ٱنْتِصَافِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَأَنَّهُ بِٱنْقِرَاضِهَا يَكُونُ ٱنْقِرَاضُ ٱلْمِلَّةِ وَلَمْ نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَبَرِ هٰذَا ٱلْكِتَابِ وَلَا رَأَيْنَا مَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ وَلَعَلَّهُ غَرِقَ فِي كُتُبِهِمُ ٱلَّتِي طَرَحَهَا هُلَاكُو مَلِكُ ٱلتَّتَرِ فِي دِجْلَةَ عِنْدَ ٱسْتِيلَائِهِمْ عَلَى بَغْدَادَ وَقَتْلِ ٱلْمُسْتَعْصِمِ آخِرِ ٱلْخُلَفَاءِ وَقَدْ وَقَعَ بِٱلْمَغْرِبِ جُزْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى هٰذَا ٱلْكِتَابِ يُسَمُّونَهُ ٱلْجَفْرَ ٱلصَّغِيرَ وَٱلظَّاهِرُ أَنَّهُ وُضِعَ لِبَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ لِذِكْرِ ٱلْأَوَّلِينَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْمُوَحِّدِينَ فِيهِ عَلَى ٱلتَّفْصِيلِ وَمُطَابَقَةِ مَنْ تَقَدَّمَ عَنْ ذٰلِكَ مِنْ حَدَثَانِهِ وَكَذَّبَ مَا بَعْدَهُ وَكَانَ فِي دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ مِنْ بَعْدِ ٱلْكِنْدِيِّ مُنَجِّمُونَ وَكُتُبٌ فِي ٱلْحَدَثَانِ وَٱنْظُرْ مَا نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ فِي أَخْبَارِ ٱلْمَهْدِيِّ عَنْ أَبِي بُدَيْلٍ مِنْ أَصْحَابِ صَنَائِعِ ٱلدَّوْلَةِ قَالَ بَعَثَ إِلَيَّ ٱلرَّبِيعُ وَٱلْحَسَنُ فِي غَزَاتِهِمَا مَعَ ٱلرَّشِيدِ أَيَّامَ أَبِيهِ فَجِئْتُهُمَا جَوْفَ ٱللَّيْلِ فَإِذَا عِنْدَهُمَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ ٱلدَّوْلَةِ يَعْنِي ٱلْحَدَثَانَ وَإِذَا مُدَّةُ ٱلْمَهْدِيِّ فِيهِ عَشْرُ سِنِينَ فَقُلْتُ هٰذَا ٱلْكِتَابُ لَا يَخْفَى عَلَى ٱلْمَهْدِيِّ وَقَدْ مَضَى مِنْ دَوْلَتِهِ مَا مَضَى فَإِذَا وَقَفَ عَلَيْهِ كُنْتُمْ قَدْ نَعَيْتُمْ إِلَيْهِ نَفْسَهُ قَالَا فَمَا ٱلْحِيلَةُ فَٱسْتَدْعَيْتُ عَنْبَسَةَ ٱلْوَرَّاقَ مَوْلَى آلِ بُدَيْلٍ وَقُلْتُ لَهُ ٱنْسَخْ هٰذِهِ ٱلْوَرَقَةَ وَٱكْتُبْ مَكَانَ عَشْرٍ أَرْبَعِينَ فَفَعَلَ فَوَٱللّٰهِ لَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ ٱلْعَشَرَةَ فِي تِلْكَ ٱلْوَرَقَةِ وَٱلْأَرْبَعِينَ فِي هٰذِهِ مَا كُنْتُ أَشُكُّ أَنَّهَا هِيَ ثُمَّ كَتَبَ ٱلنَّاسُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فِي حَدَثَانِ ٱلدُّوَلِ مَنْظُومًا وَمَنْثُورًا وَرَجَزًا مَا شَاءَ ٱللّٰهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ.

وَبِأَيدِي النَّاسِ مُتفَرِّقَةٌ كَثِيرٌ مِنهَا وَتُسَمَّى ٱلمَلاَحِمَ وَبَعضُهَا فِي حَدَثَانِ ٱلمِلَّةِ عَلَى ٱلعُمُومِ وَبَعضُهَا فِي دَولَةٍ عَلَى ٱلخُصُوصِ وَكُلُّهَا مَنسُوبَةٌ إِلَى مَشَاهِيرَ مِنْ أَهلِ ٱلخَلِيقَةِ وَلَيسَ مِنهَا أَصلٌ يعتَمَدُ عَلَى رِوَايَتِهِ عَن وَاضِعِهِ ٱلمَنسُوبِ إِلَيهِ فَمِنْ هٰذِهِ ٱلمَلاَحِمِ بِٱلمَغرِبِ قَصِيدَةُ ٱبنِ مُرَّانَةَ مِنْ بَحرِ ٱلطَّوِيلِ عَلَى رَوِيِّ ٱلرَّاءِ وَهِيَ مُتَدَاوَلَةٌ بَينَ ٱلنَّاسِ وَتَحسِبُ ٱلعَامَّةُ أَنَّهَا مِنَ ٱلحَدَثَانِ ٱلعَامِّ فَيُطلِقُونَ ٱلكَثِيرَ مِنهَا عَلَى ٱلحَاضِرِ وَٱلمُستَقبَلِ وَٱلَّذِي سَمِعنَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا أَنَّهَا مَخصُوصَةٌ بِدَولَةِ لِمتُونَةَ لِأَنَّ ٱلرَّجُلَ كَانَ قُبَيلَ دَولَتِهِمْ وَذَكَرَ فِيهَا ٱستِيلاَءَهُمْ عَلَى سَبتَةَ مِنْ يَدِ مَوَالِي بَنِي حَمُّودٍ وَمُلكَهُمْ لِعُدوَةِ ٱلأَندَلُسِ وَمِنَ ٱلمَلاَحِمِ بِيَدِ أَهلِ ٱلمَغرِبِ أَيضاً قَصِيدَةٌ تُسَمَّى ٱلتُّبَّعِيَّةَ أَوَّلُهَا

طَرِبْتُ وَمَا ذَاكَ مِنِّي طَرَبْ ... وَقَدْ يَطرَبُ ٱلطَّائِرُ ٱلمُغتَصَبْ
وَمَا ذَاكَ مِنِّي لِلَهوٍ أَرَاهُ ... وَلٰكِنْ لِتَذكَارِ بَعضِ ٱلسَّبَبْ

قريباً مِنْ خَمسِمِائَةِ بَيتٍ أَوْ أَلفٍ فِيمَا يُقَالُ ذَكَرَ فِيهَا كَثِيراً مِنْ دَولَةِ ٱلمُوَحِّدِينَ وَأَشَار فِيهَا إِلَى ٱلفَاطِمِيِّ وَغَيرِهِ وَٱلظَّاهِرُ أَنَّهَا مَصنُوعَةٌ وَمِنَ ٱلمَلاَحِمِ بِٱلمَغرِبِ أَيضاً مُلعَبَةٌ مِنَ ٱلشِّعرِ ٱلزَّجَلِيِّ مَنسُوبَةٌ لِبَعضِ ٱليَهُودِ ذَكَرَ فِيهَا أَحكَامَ ٱلقِرَانَاتِ لِعَصرِهِ ٱلعَلَوِيَّينِ وَٱلنَّحسَينِ وَغَيرِهِمَا وَذَكَرَ مِيتَتَهُ قَتِيلاً بِفَاسَ وَكَانَ كَذٰلِكَ فِيمَا زَعَمُوهُ وَأَوَّلُهُ

في صبغ ذا الازرق لشرفه خيارا ... فافهموا يا قوم هذي الاشارا
نجم زحل اخبر بذي العلاما ... وبدّل الشكلا وهي سلاما
شاشية زرقا بدل العماما ... وشاش ازرق بدل الغرارا

يقول في آخره

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودي ... يصلب في بلدة فاس في يوم عيد
حتى يجيه الناس من البوادي ... وقتله يا قوم على انفرادِ

وَأَبيَاتُهُ نَحوَ ٱلخَمسِمِائَةِ وَهِيَ فِي ٱلقِرَانَاتِ ٱلَّتِي دَلَّتْ عَلَى دَولَةِ ٱلمُوَحِّدِينَ وَمِنْ مَلاَحِمِ ٱلمَغرِبِ أَيضاً قَصِيدَةٌ مِنْ عَرُوضِ ٱلمُتَقَارِبِ عَلَى رَوِيِّ ٱلبَاءِ فِي حَدَثَانِ دَولَةِ بَنِي أَبِي حَفصٍ بِتُونِسَ مِنَ ٱلمُوَحِّدِينَ مَنسُوبَةٌ لِٱبنِ ٱلأَبَّارِ وَقَالَ لِي قَاضِي قُسَنطِينِيَّةَ ٱلخَطِيبُ ٱلكَبِيرُ أَبُو عَلِيِّ بنُ بَادِيسَ وَكَانَ بَصِيراً بِمَا يَقُولُهُ وَلَهُ قَدَمٌ فِي ٱلتَّنجِيمِ فَقَالَ لِي إِنَّ هٰذَا ٱبنَ ٱلأَبَّار لَيسَ هُوَ ٱلحَافِظَ ٱلأَندَلُسِيَّ ٱلكَاتِبَ مَقتُولَ ٱلمُستَنصِرِ وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ خَيَّاطٌ مِنْ أَهل

تونس تَوَاطَأَتْ شُهْرَتُهُ مَعَ شُهْرَةِ ٱلْحَافِظِ وَكَانَ وَالِدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى يُنْشِدُ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَلْحَمَةِ وَبَقِيَ بَعْضُهَا فِي حِفْظِي مَطْلَعُهَا

عَذِيرِيَ مِنْ زَمَنٍ قُلَّبٍ ... يَغُرُّ بِبَارِقِهِ ٱلْأَشْنَبِ

ومنها

وَيَبْعَثُ مِنْ جَيْشِهِ قَائِداً ... وَيَبْقَى هُنَاكَ عَلَى مَرْقَبِ

فَتَأْتِي إِلَى ٱلشَّيْخِ أَخْبَارُهُ ... فَيَمْثُلُ كَٱلْجَمَلِ ٱلْأَجْرَبِ

وَيُظْهِرُ مِنْ عَدْلِهِ سِيرَةً ... وَتِلْكَ سِيَاسَةُ مُسْتَجْلِبِ

ومنها في ذكر احوال تونس على العموم

فَإِمَّا (١) رَأَيْتَ ٱلرُّسُومَ ٱمَّحَتْ ... وَلَمْ يُرْعَ حَقٌّ لِذِي مَنْصِبِ

فَخُذْ فِي ٱلتَّرَحُّلِ عَنْ تُونِسٍ ... وَوَدِّعْ مَعَالِمَهَـــا وَٱذْهَبِ

فَسَوْفَ تَكُونُ بِهَـــا فِتْنَةٌ ... تُضِيفُ ٱلْبَرِيءَ إِلَى ٱلْمُذْنِبِ

وَوَقَفْتُ بِٱلْمَغْرِبِ عَلَى مَلْحَمَةٍ أُخْرَى فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ هٰؤُلَاءِ بِتُونِسَ فِيهَا بَعْدَ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى ٱلشَّهِيدِ عَاشِرِ مُلُوكِهِمْ ذِكْرُ مُحَمَّدٍ أَخِيهِ مِنْ بَعْدِهِ يَقُولُ فِيهَا

وَبَعْدَ أَبِي عَبْدِ ٱلْإِلٰهِ شَقِيقُهُ ... وَيُعْرَفُ بِٱلْوَثَّابِ فِي نُسْخَةِ ٱلْأَصْلِ

إِلَّا أَنَّ هٰذَا ٱلرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْهَا بَعْدَ أَخِيهِ وَكَانَ يُمَنِّي بِذٰلِكَ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ وَمِنَ ٱلْمَلَاحِمِ فِي ٱلْمَغْرِبِ أَيْضاً ٱلْمُلْعَبَةُ ٱلْمَنْسُوبَةُ إِلَى ٱلْهَوْثَنِيِّ عَلَى لُغَةِ ٱلْعَامَّةِ فِي عَرُوضِ ٱلْبَلَدِ

دعـــني بدمعي الهتان ... فترت الامطـــار ولم تفتر

واستفت كلها الويدان ... وانى تملـــى وتنغـــدر

وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَمَحْفُوظَةٌ بَيْنَ عَامَّةِ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهَا ٱلْوَضْعُ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ مِنْهَا قَوْلٌ إِلَّا عَلَى تَأْوِيلٍ تُحَرِّفُهُ ٱلْعَامَّةُ أَوِ ٱلْخَارِفُ فِيهِ مَنْ يَنْتَحِلُهَا مِنَ ٱلْخَاصَّةِ وَوَقَفْتُ بِٱلْمَشْرِقِ عَلَى مَلْحَمَةٍ مَنْسُوبَةٍ لِٱبْنِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلْحَاتِمِيِّ فِي كَلَامٍ طَوِيلٍ شِبْهِ ٱلْأَلْغَازِ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ لِتَخَلُّلِهِ إِلَى أَوْفَاقٍ عَدَدِيَّةٍ وَرُمُوزٍ مَلْغُوزَةٍ وَأَشْكَالِ حَيَوَانَاتٍ تَامَّةٍ وَرُؤُوسٍ مُقَطَّعَةٍ وَتَمَاثِيلَ مِنْ حَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ وَفِي آخِرِهَا قَصِيدَةٌ عَلَى رَوِيِّ ٱللَّامِ وَٱلْغَالِبُ أَنَّهَا كُلَّهَا غَيْرُ صَحِيحَةٍ لِأَنَّهَا لَمْ تَنْشَأْ عَنْ أَصْلٍ عِلْمِيٍّ مِنْ نِجَامَةٍ وَلَا غَيْرِهَا وَسَمِعْتُ أَيْضاً أَنَّ هُنَاكَ

---

(١) قوله فاما رأيت اصله فان رأيت زيدت ما وادغمت في ان الشرطية المحذوف نونها خطاوفي نسخةفلما رأيت والاولى هي الموجودة في النسخة التونسية . ا هـ . قاله نصر

ملاحم أخرى منسوبة لابن سيناء وابن عقاب وليس في شيء منها دليل على الصحة لأن ذلك إنما يؤخذ من القرانات ووقفت بالمشرق أيضاً على ملحمة من حدثان دولة الترك منسوبة إلى رجل من الصوفية يسمى الباجربقي وكلها إلغاز بالحروف أولها

إن شئت تكشف سر الجفر يا سؤلي ... من علم جفر وصي والد الحسن
فافهم وكن واعياً حرفاً وجملته ... والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن
أما الذي قبل عصري لست أذكره ... لكنني أذكر الآتي من الزمن
بشهر بيبرس يبقى بعد خمستها ... بحاء ميم بطيش نام في الكنن
شين له أثر من تحت سرته ... له القضاء قضى أي ذلك المنن
فمصر والشام مع أرض العراق له ... وأذربيجان في ملك إلى اليمن

وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ومثل صنعتها كان في القديم كثير ومعروف الانتحال

حكى المؤرخون لأخبار بغداد أنه كان بها أيام المقتدر وراق ذكي يعرف بالدانيالي يبل الأوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة ويشير بها إلى ما يعرف ميلهم إليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم ويحصل على ما يريده منهم من الدنيا وإنه وضع في بعض دفاتره ميماً مكررة ثلاث مرات وجاء به إلى مفلح مولى المقتدر فقال له هذا كناية عنك وهو مفلح مولى المقتدر وذكر عنه ما يرضاه وينالُه من الدولة ونصب لذلك علامات يموه بها عليه فبذل له ما أغناه به ثم وضعه للوزير ابن القاسم بن وهب على مفلح هذا وكان معزولاً فجاءه بأوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف وبعلامات ذكرها وأنه يلي الوزارة للثاني عشر من الخلفاء وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعداء وتعمر الدنيا في أيامه وأوقف مفلحاً هذا على الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى وملاحم من هذا النوع مما وقع ومما لم يقع ونسب جميعه إلى دانيال فأعجب به مفلح ووقف عليه المقتدر واهتدى من تلك الأمور والعلامات إلى ابن وهب وكان ذلك سبباً لوزارته بمثل هذه الحيلة العريقة في الكذب والجهل بمثل هذه الألغاز والظاهر أن هذه الملحمة التي ينسبونها إلى الباجربقي من هذا النوع . ولقد سألت أكمل الدين ابن

شَيْخِ ٱلْحَنَفِيَّةِ مِنَ ٱلْعَجَمِ بِٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ عَنْ هٰـذِهِ ٱلْمَلْحَمَةِ وَعَنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلصُّوفِيَّةِ وَهُوَ ٱلْبَاجَرْبَقِيّ وَكَانَ عَارِفاً بِطَرَائِقِهِمْ فَقَالَ كَانَ مِنَ ٱلْقَلَنْدَرِيَّةِ ٱلْمُبْتَدِعَةِ فِي حَلْقِ ٱللِّحْيَةِ وَكَانَ يَتَحَدَّثُ عَمَّا يَكُونُ بِطَرِيقِ ٱلْكَشْفِ وَيُومِي إِلَى رِجَالٍ مُعَيَّنِينَ عِنْدَهُ وَيُلْغِزُ عَلَيْهِمْ بِحُرُوفٍ يُعَيِّنُهَا فِي ضِمْنِهَا لِمَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ وَرُبَّمَا يُظْهِرُ نَظْمُ ذٰلِكَ فِي أَبْيَاتٍ قَلِيلَةٍ كَانَ يَتَعَاهَدُهَا فَتُنُوقِلَتْ عَنْهُ وَوَلِعَ ٱلنَّاسُ بِهَا وَجَعَلُوهَا مَلْحَمَةً مَرْمُوزَةً وَزَادَ فِيهَا ٱلْخَرَّاصُونَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَشُغِلَ ٱلْعَامَّةُ بِفَكِّ رُمُوزِهَا وَهُوَ أَمْرٌ مُمْتَنِعٌ إِذِ ٱلرَّمْزُ إِنَّمَا يَهْدِي إِلَى كَشْفِهِ قَانُونٌ يُعْرَفُ قَبْلَهُ وَيُوضَعُ لَهُ وَأَمَّا مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْحُرُوفِ فَدِلَالَتُهَا عَلَى ٱلْمُرَادِ مِنْهَا مَخْصُوصَةٌ بِهٰذَا ٱلنَّظْمِ لَا يَتَجَاوَزُهُ فَرَأَيْتُ مِنْ كَلَامِ هٰذَا ٱلرَّجُلِ ٱلْفَاضِلِ شِفَاءً لِمَا كَانَ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ أَمْرِ هٰذِهِ ٱلْمَلْحَمَةِ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا ٱللّٰهُ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الباب الرابع

من الكتاب الاول

في البلدان والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال

وفيه سوابق ولواحق

الفصل الاول

في ان الدول من المدن والامصار وانها انما توجد ثانية عن الملك

وَبَيَانُهُ أَنَّ ٱلْبِنَاءَ وَٱخْتِطَاطَ ٱلْمَنَازِلِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنَازِعِ ٱلْحَضَارَةِ ٱلَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا ٱلتَّرَفُ وَٱلدَّعَةُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَذٰلِكَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ ٱلْبَدَاوَةِ وَمَنَازِعِهَا وَأَيْضاً فَٱلْمُدُنُ وَٱلْأَمْصَارُ ذَاتُ هَيَاكِلَ وَأَجْرَامٍ عَظِيمَةٍ وَبِنَاءٍ كَبِيرٍ وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ لِلْعُمُومِ لَا لِلْخُصُوصِ فَتَحْتَاجُ إِلَى ٱجْتِمَاعِ ٱلْأَيْدِي وَكَثْرَةِ ٱلتَّعَاوُنِ وَلَيْسَتْ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلضَّرُورِيَّةِ لِلنَّاسِ ٱلَّتِي تَعُمُّ بِهَا ٱلْبَلْوَى حَتَّى يَكُونَ نُزُوعُهُمْ إِلَيْهَا ٱضْطِرَاراً بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِكْرَاهِهِمْ عَلَى ذٰلِكَ وَسَوْقِهِمْ إِلَيْهِ مُضْطَهَدِينَ بِعَصَا ٱلْمُلْكِ أَوْ مُرَغَّبِينَ فِي ٱلثَّوَابِ وَٱلْأَجْرِ ٱلَّذِي لَا يَفِي بِكَثْرَتِهِ إِلَّا

ٱلْمُلْكُ وَٱلدَّوْلَةُ فَلَا بُدَّ فِي تَمْصِيرِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱخْتِطَاطِ ٱلْمُدُنِ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْمُلْكِ ثُمَّ إِذَا بُنِيَتِ ٱلْمَدِينَةُ وَكَمُلَ تَشْيِيدُهَا بِحَسَبِ نَظَرِ مَنْ شَيَّدَهَا وَبِمَا ٱقْتَضَتْهُ ٱلْأَحْوَالُ ٱلسَّمَاوِيَّةُ وَٱلْأَرْضِيَّةُ فِيهَا فَعُمْرُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ عُمْرٌ لَهَا فَإِنْ كَانَ عُمْرُ ٱلدَّوْلَةِ قَصِيرًا وَقَفَ ٱلْحَالُ فِيهَا عِنْدَ ٱنْتِهَاءِ ٱلدَّوْلَةِ وَتَرَاجَعَ عُمْرَانُهَا وَخَرِبَتْ وَإِنْ كَانَ أَمَدُ ٱلدَّوْلَةِ طَوِيلًا وَمُدَّتُهَا مُنْفَسِحَةً فَلَا تَزَالُ ٱلْمَصَانِعُ فِيهَا تُشَادُ وَٱلْمَنَازِلُ ٱلرَّحِيبَةُ تَكْثُرُ وَتَتَعَدَّدُ وَنِطَاقُ ٱلْأَسْوَاقِ يَتَبَاعَدُ وَيَنْفَسِحُ إِلَى أَنْ تَتَّسِعَ ٱلْخِطَّةُ وَتَبْعُدَ ٱلْمَسَافَةُ وَيَنْفَسِحَ ذَرْعُ ٱلْمِسَاحَةِ كَمَا وَقَعَ بِبَغْدَادَ وَأَمْثَالِهَا . ذَكَرَ ٱلْخَطِيبُ فِي تَارِيخِهِ أَنَّ ٱلْحَمَّامَاتِ بَلَغَ عَدَدُهَا بِبَغْدَادَ لِعَهْدِ ٱلْمَأْمُونِ خَمْسَةً وَسِتِّينَ أَلْفَ حَمَّامٍ وَكَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ مُتَلَاصِقَةٍ وَمُتَقَارِبَةٍ تُجَاوِزُ ٱلْأَرْبَعِينَ وَلَمْ تَكُنْ مَدِينَةٌ وَحْدَهَا يَجْمَعُهَا سُورٌ وَاحِدٌ لِإِفْرَاطِ ٱلْعُمْرَانِ وَكَذَا حَالُ ٱلْقَيْرَوَانِ وَقُرْطُبَةَ وَٱلْمَهْدِيَّةِ فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَحَالُ مِصْرَ ٱلْقَاهِرَةِ بَعْدَهَا فِيمَا بَلَغَنَا لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَأَمَّا بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُشَيِّدَةِ لِلْمَدِينَةِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِضَوَاحِي تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ وَمَا قَارَبَهَا مِنَ ٱلْجِبَالِ وَٱلْبَسَائِطِ بَادِيَةٌ يُمِدُّهَا ٱلْعُمْرَانُ دَائِمًا فَيَكُونُ ذَلِكَ حَافِظًا لِوُجُودِهَا وَيَسْتَمِرُّ عُمْرُهَا بَعْدَ ٱلدَّوْلَةِ كَمَا تَرَاهُ بِفَاسَ وَبِجَايَةَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَبِعِرَاقِ ٱلْعَجَمِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ٱلْمَوْجُودِ لَهَا ٱلْعُمْرَانُ مِنَ ٱلْجِبَالِ لِأَنَّ أَهْلَ ٱلْبَدَاوَةِ إِذَا ٱنْتَهَتْ أَحْوَالُهُمْ إِلَى غَايَاتِهَا مِنَ ٱلرَّفْهِ وَٱلْكَسْبِ تَدْعُو إِلَى ٱلدَّعَةِ وَٱلسُّكُونِ ٱلَّذِي فِي طَبِيعَةِ ٱلْبَشَرِ فَيَنْزِلُونَ ٱلْمُدُنَ وَٱلْأَمْصَارَ وَيَتَأَهَّلُونَ وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِتِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمُؤَسَّسَةِ مَادَّةٌ تُفِيدُهَا ٱلْعُمْرَانَ بِتَرَادُفِ ٱلسَّاكِنِ مِنْ بَدْوِهَا فَيَكُونُ ٱنْقِرَاضُ ٱلدَّوْلَةِ خَرْقًا لِسِيَاجِهَا فَيَزُولُ حِفْظُهَا وَيَتَنَاقَصُ عُمْرَانُهَا شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَبْذَعِرَّ سَاكِنُهَا وَتَخْرَبَ كَمَا وَقَعَ بِمِصْرَ وَبَغْدَادَ وَٱلْكُوفَةِ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْقَيْرَوَانِ وَٱلْمَهْدِيَّةِ وَقَلْعَةِ بَنِي حَمَّادٍ بِٱلْمَغْرِبِ وَأَمْثَالِهَا فَتَفَهَّمْهُ وَرُبَّمَا يَنْزِلُ ٱلْمَدِينَةَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ مُخْتَطِّيهَا ٱلْأَوَّلِينَ مَلِكٌ آخَرُ وَدَوْلَةٌ ثَانِيَةٌ يَتَّخِذُهَا قَرَارًا وَكُرْسِيًّا يَسْتَغْنِي بِهَا عَنِ ٱخْتِطَاطِ مَدِينَةٍ يَنْزِلُهَا فَتَحْفَظُ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةُ سِيَاجَهَا وَتَتَزَايَدُ مَبَانِيهَا وَمَصَانِعُهَا بِتَزَايُدِ أَحْوَالِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَتَرَفِهَا وَتَسْتَجِدُّ بِعُمْرَانِهَا عُمْرًا آخَرَ كَمَا وَقَعَ بِفَاسَ وَٱلْقَاهِرَةِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الثاني

في ان الملك يدعو الى نزول الامصار

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقَبَائِلَ وَٱلْعَصَائِبَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ ٱلْمُلْكُ ٱضْطُرُّوا لِلٱسْتِيلَاءِ عَلَى ٱلْأَمْصَارِ لِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ ٱلْمُلْكُ مِنَ ٱلدَّعَةِ وَٱلرَّاحَةِ وَحَطِّ ٱلْأَثْقَالِ وَٱسْتِكْمَالِ مَا كَانَ نَاقِصاً مِنْ أُمُورِ ٱلْعُمْرَانِ فِي ٱلْبَدْوِ وَٱلثَّانِي دَفْعُ مَا يُتَوَقَّعُ عَلَى ٱلْمُلْكِ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُنَازِعِينَ وَٱلْمُشَاغِبِينَ لِأَنَّ ٱلْمِصْرَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي نَوَاحِيهِمْ رُبَّمَا يَكُونُ مَلْجَأً لِمَنْ يَرُومُ مُنَازَعَتَهُمْ وَٱلْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ وَٱنْتِزَاعَ ذٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي سَمَوْا إِلَيْهِ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَيَعْتَصِمُ بِذٰلِكَ ٱلْمِصْرِ وَيُغَالِبُهُمْ وَمُغَالَبَةُ ٱلْمِصْرِ عَلَى نِهَايَةٍ مِنَ ٱلصُّعُوبَةِ وَٱلْمَشَقَّةِ وَٱلْمِصْرُ يَقُومُ مَقَامَ ٱلْعَسَاكِرِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلِٱمْتِنَاعِ وَنِكَايَةِ ٱلْحَرْبِ مِنْ وَرَاءِ ٱلْجُدْرَانِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كَثِيرِ عَدَدٍ وَلَا عَظِيمِ شَوْكَةٍ لِأَنَّ ٱلشَّوْكَةَ وَٱلْعِصَابَةَ إِنَّمَا ٱحْتِيجَ إِلَيْهِمَا فِي ٱلْحَرْبِ لِلثَّبَاتِ لِمَا يَقَعُ مِنْ بَعْدِ كَرَّةِ ٱلْقَوْمِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ عِنْدَ ٱلْجَوْلَةِ وَثَبَاتُ هٰؤُلَاءِ بِٱلْجُدْرَانِ فَلَا يَضْطَرُّونَ إِلَى كَثِيرِ عِصَابَةٍ وَلَا عَدَدٍ فَيَكُونُ حَالُ هٰذَا ٱلْحِصْنِ وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِهِ مِنَ ٱلْمُنَازِعِينَ مِمَّا يَفُتُّ فِي عَضُدِ ٱلْأُمَّةِ ٱلَّتِي تَرُومُ ٱلِٱسْتِيلَاءَ وَيَخْضُدُ شَوْكَةَ ٱسْتِيلَائِهَا فَإِذَا كَانَتْ بَيْنَ أَجْنَابِهِمْ أَمْصَارٌ ٱنْتَظَمُوهَا فِي ٱسْتِيلَائِهِمْ لِلْأَمْنِ مِنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلِٱنْخِرَامِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِصْرٌ ٱسْتَحْدَثُوهُ ضَرُورَةً لِتَكْمِيلِ عُمْرَانِهِمْ أَوَّلاً وَحَطِّ أَثْقَالِهِمْ وَلِيَكُونَ شَجاً فِي حَلْقِ مَنْ يَرُومُ ٱلْعِزَّةَ وَٱلِٱمْتِنَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَوَائِفِهِمْ وَعَصَائِبِهِمْ فَتَعَيَّنَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ يَدْعُو إِلَى نُزُولِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلِٱسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث

في ان المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير

قَدْ قَدَّمْنَا ذٰلِكَ فِي آثَارِ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْمَبَانِي وَغَيْرِهَا وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ تَشْيِيدَ ٱلْمُدُنِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِٱجْتِمَاعِ ٱلْفَعَلَةِ وَكَثْرَتِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ فَإِذَا كَانَتِ ٱلدَّوْلَةُ عَظِيمَةً مُتَّسِعَةَ ٱلْمَمَالِكِ حُشِرَ ٱلْفَعَلَةُ مِنْ أَقْطَارِهَا وَجُمِعَتْ أَيْدِيهِمْ عَلَى عَمَلِهَا وَرُبَّمَا ٱسْتُعِينَ فِي ذٰلِكَ فِي أَكْثَرِ ٱلْأَمْرِ بِٱلْهِنْدَامِ ٱلَّذِي يُضَاعِفُ ٱلْقُوَى وَٱلْقُدَرَ فِي حَمْلِ أَثْقَالِ ٱلْبِنَاءِ

لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك كالمخال وغيره وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب إنما كانت بقدرهم متفرقين او مجتمعين فيتخيل لهم أجساماً تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير في طولها وقدرها لتناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمخال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الأجرام عند أهل الدولة المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عياناً وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد تسميها العامة عادية نسبة إلى قوم عاد لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم إنما عظمت لعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم وليس كذلك فقد نجد آثاراً كثيرة من آثار الذين تعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهي في مثل ذلك العظم أو أعظم كإيوان كسرى ومباني العبيديين من الشيعة بأفريقية والصنهاجيين وأثرهم باد إلى اليوم في صومعة قلعة بني حماد وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتح ورباط السلطان أبي سعيد لعهد أربعين سنة في المنصورة بإزاء تلمسان وكذلك الحنايا التي جلب إليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة لهذا العهد وغير ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها قريباً وبعيداً وتيقنا أنهم لم يكونوا بإفراط في مقادير أجسامهم وإنما هذا رأي ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة ونجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة إلى هذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوها ومساحتها وسمكها على المتعاهد وإنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى إنهم ليزعمون أن عوج بن عناق من جيل العمالقة كان يتناول السمك من البحر طرياً فيشويه في الشمس يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا أن الحر فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة وإنما هي كوكب مضيء لا مزاج له وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها والله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد

الفصل الرابع

في ان الهياكل العظيمة جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَاجَةِ ٱلْبِنَاءِ إِلَى ٱلتَّعَاوُنِ وَمُضَاعَفَةِ ٱلْقُدَرِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَقَدْ تَكُونُ ٱلْمَبَانِي فِي عِظَمِهَا أَكْثَرَ مِنَ ٱلْقُدَرِ مُفْرَدَةً أَوْ مُضَاعَفَةً بِٱلْهِنْدَامِ كَمَا قُلْنَاه فَيُحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قُدَرٍ أُخْرَى مِثْلِهَا فِي أَزْمِنَةٍ مُتَعَاقِبَةٍ إِلَى أَنْ تَتِمَّ فَيَبْتَدِئُ ٱلْأَوَّلُ مِنْهُمْ بِٱلْبِنَاءِ وَيَعْقُبُهُ ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدِ ٱسْتَكْمَلَ شَأْنَهُ فِي حَشْرِ ٱلْفَعَلَةِ وَجَمْعِ ٱلْأَيْدِي حَتَّى يَتِمَّ ٱلْقَصْدُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَكْمُلَ وَيَكُونَ مَاثِلًا لِلْعِيَانِ يَظُنُّهُ مَنْ يَرَاهُ مِنَ ٱلْآخَرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَٱنْظُرْ فِي ذٰلِكَ مَا نَقَلَهُ ٱلْمُؤَرِّخُونَ فِي بِنَاءِ سَدِّ مَأْرِبَ وَأَنَّ ٱلَّذِي بَنَاهُ سَبَأُ بْنُ يَشْجُبَ وَسَاقَ إِلَيْهِ سَبْعِينَ وَادِيًا وَعَاقَهُ ٱلْمَوْتُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَأَتَمَّهُ مُلُوكُ حِمْيَرَ مِنْ بَعْدِهِ وَمِثْلُ هٰذَا نُقِلَ فِي بِنَاءِ قَرْطَاجَنَّةَ وَقَنَاتِهَا ٱلرَّاكِبَةِ عَلَى ٱلْحَنَايَا ٱلْعَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ ٱلْمَبَانِي ٱلْعَظِيمَةِ فِي ٱلْغَالِبِ هٰذَا شَأْنُهَا وَيَشْهَدُ لِذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَبَانِيَ ٱلْعَظِيمَةَ لِعَهْدِنَا نَجِدُ ٱلْمَلِكَ ٱلْوَاحِدَ يَشْرَعُ فِي ٱخْتِطَاطِهَا وَتَأْسِيسِهَا فَإِذَا لَمْ يَتْبَعْ أَثَرَهُ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُلُوكِ فِي إِتْمَامِهَا بَقِيَتْ بِحَالِهَا وَلَمْ يَكْمُلِ ٱلْقَصْدُ فِيهَا وَيَشْهَدُ لِذٰلِكَ أَيْضًا أَنَّا نَجِدُ آثَارًا كَثِيرَةً مِنَ ٱلْمَبَانِي ٱلْعَظِيمَةِ تَعْجِزُ ٱلدُّوَلُ عَنْ هَدْمِهَا وَتَخْرِيبِهَا مَعَ أَنَّ ٱلْهَدْمَ أَيْسَرُ مِنَ ٱلْبِنَاءِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّ ٱلْهَدْمَ رُجُوعٌ إِلَى ٱلْأَصْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعَدَمُ وَٱلْبِنَاءُ عَلَى خِلَافِ ٱلْأَصْلِ فَإِذَا وَجَدْنَا بِنَاءً تَضْعُفُ قُوَّتُنَا ٱلْبَشَرِيَّةُ عَنْ هَدْمِهِ مَعَ سُهُولَةِ ٱلْهَدْمِ عَلِمْنَا أَنَّ ٱلْقُدْرَةَ ٱلَّتِي أَسَّسَتْهُ مُفْرِطَةُ ٱلْقُوَّةِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ أَثَرَ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهٰذَا مِثْلُ مَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ فِي إِيوَانِ كِسْرَى لَمَّا ٱعْتَزَمَ ٱلرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وَبَعَثَ إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَهُوَ فِي مَحْبَسِهِ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذٰلِكَ فَقَالَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا تَفْعَلْ وَٱتْرُكْهُ مَاثِلًا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى عِظَمِ مُلْكِ آبَائِكَ ٱلَّذِينَ سَلَبُوا ٱلْمُلْكَ لِأَهْلِ ذٰلِكَ ٱلْهَيْكَلِ فَٱتَّهَمَهُ فِي ٱلنَّصِيحَةِ وَقَالَ أَخَذَتْهُ ٱلنُّعْرَةُ لِلْعَجَمِ وَٱللّٰهِ لَأَصْرَعَنَّهُ وَشَرَعَ فِي هَدْمِهِ وَجَمَعَ ٱلْأَيْدِي عَلَيْهِ وَٱتَّخَذَ لَهُ ٱلْفُؤُوسَ وَحَمَاهُ بِٱلنَّارِ وَصَبَّ عَلَيْهِ ٱلْخَلَّ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْعَجْزُ بَعْدَ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَخَافَ ٱلْفَضِيحَةَ بَعَثَ إِلَى يَحْيَى يَسْتَشِيرُهُ ثَانِيًا فِي ٱلتَّجَافِي عَنِ ٱلْهَدْمِ فَقَالَ لَا تَفْعَلْ وَٱسْتَمِرَّ عَلَى ذٰلِكَ لِئَلَّا يُقَالَ عَجَزَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَلِكُ ٱلْعَرَبِ عَنْ هَدْمِ مَصْنَعٍ مِنْ مَصَانِعِ ٱلْعَجَمِ فَعَرَفَهَا ٱلرَّشِيدُ وَأَقْصَرَ عَنْ هَدْمِهِ وَكَذٰلِكَ ٱتَّفَقَ لِلْمَأْمُونِ فِي هَدْمِ ٱلْأَهْرَامِ ٱلَّتِي بِمِصْرَ

وَجمعَ ٱلفَعَلَةَ لِهَدْمِهَا فَلَمْ يَحُلْ بِطَائِلٍ وَشَرَعُوا فِي نَقْبِهِ فَٱنْتَهَوا إِلىٰ جَوٍّ بَيْنَ ٱلحَائِطِ وَٱلظَّاهِرِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ ٱلحِيطَانِ وَهُنَالِكَ كَانَ مُنْتَهَى هَدْمِهِمْ وَهُوَ إِلىٰ ٱلْيَوْمِ فِيمَا يُقَالُ مَنْفَذٌ ظَاهِرٌ وَيَزْعُمُ ٱلزَّاعِمُونَ أَنَّهُ وَجَدَ رِكَازاً بَيْنَ تِلْكَ ٱلحِيطَانِ وَٱللهُ أَعْلَمُ وَكَذٰلِكَ حَنَايَا ٱلمُعَلَّقَةِ إِلىٰ هٰذَا ٱلعَهْدِ تَحْتَاجُ أَهْلُ مَدِينَةِ تُونِسَ إِلىٰ ٱنْتِخَابِ ٱلحِجَارَةِ لِبِنَائِهِمْ وَتَسْتَجِيدُ ٱلصُّنَّاعُ حِجَارَةَ تِلْكَ ٱلحَنَايَا فَيُحَاوِلُونَ عَلىٰ هَدْمِهَا ٱلأَيَّامَ ٱلعَدِيدَةَ وَلَا يَسْقُطُ ٱلصَّغِيرُ مِنْ جُدْرَانِهَا إِلَّا بَعْدَ عَصَبِ ٱلرِّيقِ وَتَجْتَمِعُ لَهُ ٱلمَحَافِلُ ٱلمَشْهُورَةُ شَهِدْتُ مِنْهَا فِي أَيَّامِ صِبَايَ كَثِيراً وَٱللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ

الفصل الخامس

فيما تجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن المراعاة

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلمُدُنَ قَرَارٌ يَتَّخِذُهُ ٱلأُمَمُ عِنْدَ حُصُولِ ٱلغَايَةِ ٱلمَطْلُوبَةِ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَدَوَاعِيهِ فَتُؤْثِرُ ٱلدَّعَةَ وَٱلسُّكُونَ وَتَتَوَجَّهُ إِلىٰ ٱتِّخَاذِ ٱلمَنَازِلِ لِلقَرَارِ وَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ ٱلقَرَارُ وَٱلمَأْوَى وَجَبَ أَنْ يُرَاعَى فِيهِ دَفْعُ ٱلمَضَارِّ بِٱلحِمَايَةِ مِنْ طَوَارِقِهَا وَجَلْبُ ٱلمَنَافِعِ وَتَسْهِيلُ ٱلمَرَافِقِ لَهَا فَأَمَّا ٱلحِمَايَةُ مِنَ ٱلمَضَارِّ فَيُرَاعَى لَهَا أَنْ يُدَارَ عَلىٰ مَنَازِلِهَا جَمِيعاً سِيَاجُ ٱلأَسْوَارِ وَأَنْ يَكُونَ وَضْعُ ذٰلِكَ فِي مُتَمَنِّعٍ مِنَ ٱلأَمْكِنَةِ إِمَّا عَلىٰ هَضْبَةٍ مُتَوَعِّرَةٍ مِنَ ٱلجَبَلِ وَإِمَّا بِٱسْتِدَارَةِ بَحْرٍ أَوْ نَهْرٍ بِهَا حَتَّى لَا يُوصَلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ ٱلعُبُورِ عَلىٰ جِسْرٍ أَوْ قَنْطَرَةٍ فَيَصْعُبُ مَنَالُهَا عَلىٰ ٱلعَدُوِّ وَيَتَضَاعَفُ ٱمْتِنَاعُهَا وَحُصْنُهَا وَمِمَّا يُرَاعَى فِي ذٰلِكَ لِلحِمَايَةِ مِنَ ٱلآفَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ طِيبُ ٱلهَوَاءِ لِلسَّلَامَةِ مِنَ ٱلأَمْرَاضِ فَإِنَّ ٱلهَوَاءَ إِذَا كَانَ رَاكِداً خَبِيثاً أَوْ مُجَاوِراً لِلمِيَاهِ ٱلفَاسِدَةِ أَوْ مَنَافِعَ مُتَعَفِّنَةٍ أَوْ مُرُوجٍ خَبِيثَةٍ أَسْرَعَ إِلَيْهَا ٱلعَفَنُ مِنْ مُجَاوَرَتِهَا فَأَسْرَعَ ٱلمَرَضُ لِلحَيَوَانِ ٱلكَائِنِ فِيهِ لَا مَحَالَةَ وَهٰذَا مُشَاهَدٌ وَٱلمُدُنُ ٱلَّتِي لَمْ يُرَاعَ فِيهَا طِيبُ ٱلهَوَاءِ كَثِيرَةُ ٱلأَمْرَاضِ فِي ٱلغَالِبِ وَقَدِ ٱشْتَهَرَ بِذٰلِكَ فِي قُطْرِ ٱلمَغْرِبِ بَلَدُ قَابِسَ مِنْ بِلَادِ ٱلجَرِيدِ بِأَفْرِيقِيَّةَ فَلَا يَكَادُ سَاكِنُهَا أَوْ طَارِقُهَا يَخْلُصُ مِنْ حُمَّى ٱلعَفَنِ بِوَجْهٍ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ ذٰلِكَ حَادِثٌ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ كَذٰلِكَ مِنْ قَبْلُ وَنَقَلَ ٱلبَكْرِيُّ فِي سَبَبِ حُدُوثِهِ أَنَّهُ وَقَعَ فِيهَا حَفْرٌ ظَهَرَ فِيهِ إِنَاءٌ مِنْ نُحَاسٍ مَخْتُومٌ بِٱلرَّصَاصِ فَلَمَّا فُضَّ خِتَامُهُ صَعِدَ مِنْهُ دُخَانٌ إِلىٰ ٱلجَوِّ وَٱنْقَطَعَ وَكَانَ ذٰلِكَ مَبْدَأَ أَمْرَاضِ ٱلحُمَّيَاتِ فِيهِ وَأَرَادَ بِذٰلِكَ أَنَّ ٱلإِنَاءَ كَانَ مُشْتَمِلاً عَلىٰ بَعْضِ أَعْمَالِ ٱلطِّلَّسْمَاتِ لِوَبَائِهِ وَأَنَّــهُ

ذَهَبَ سِرُّهُ بِذَهَابِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهَا الْعَفَنُ وَالْوَبَاءُ وَهٰذِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعَامَّةِ وَمَبَاحِثِهِمِ الرَّكِيكَةِ وَالْبَكْرِيُّ لَمْ يَكُنْ مِنْ نَبَاهَةِ الْعِلْمِ وَاسْتِنَارَةِ الْبَصِيرَةِ بِحَيْثُ يَدْفَعُ مِثْلَ هٰذَا أَوْ يَتَبَيَّنُ خُرَفَهُ فَنَقَلَهُ كَمَا سَمِعَهُ وَالَّذِي يَكْشِفُ لَكَ الْحَقَّ فِي ذٰلِكَ أَنَّ هٰذِهِ الْأَهْوِيَةَ الْعَفِنَةَ أَكْثَرُ مَا يُهَيِّئُهَا لِتَعْفِينِ الْأَجْسَامِ وَأَمْرَاضِ الْحُمِّيَاتِ رُكُودُهَا فَإِذَا تَخَلَّلَتْهَا الرِّيحُ وَتَفَشَّتْ وَذَهَبَتْ بِهَا يَمِيناً وَشِمَالاً خَفَّ شَأْنُ الْعَفَنِ وَالْمَرَضِ الْبَادِي مِنْهَا لِلْحَيَوَانَاتِ وَالْبَلَدُ إِذَا كَانَ كَثِيرَ السَّاكِنِ وَكَثُرَتْ حَرَكَاتُ أَهْلِهِ فَيَتَمَوَّجُ الْهَوَاءُ ضَرُورَةً وَتَحْدُثُ الرِّيحُ الْمُتَخَلِّلَةُ لِلْهَوَاءِ الرَّاكِدِ وَيَكُونُ ذٰلِكَ مُعِيناً لَهُ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالتَّمَوُّجِ وَإِذَا خَفَّ السَّاكِنُ لَمْ يَجِدِ الْهَوَاءُ مُعِيناً عَلَى حَرَكَتِهِ وَتَمَوُّجِهِ وَبَقِيَ سَاكِناً رَاكِداً وَعَظُمَ عَفَنُهُ وَكَثُرَ ضَرَرُهُ وَبَلَدُ نَابِسَ هٰذِهِ كَانَتْ عِنْدَمَا كَانَتْ أَفْرِيقِيَّةُ مُسْتَجِدَّةَ الْعُمْرَانِ كَثِيرَةَ السَّاكِنِ تَمُوجُ بِأَهْلِهَا مَوْجاً فَكَانَ ذٰلِكَ مُعِيناً عَلَى تَمَوُّجِ الْهَوَاءِ وَاضْطِرَابِهِ وَتَخْفِيفِ الْأَذَى مِنْهُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَثِيرُ عَفَنٍ وَلَا مَرَضٍ وَعِنْدَمَا خَفَّ سَاكِنُهَا رَكَدَ هَوَاؤُهَا الْمُتَعَفِّنُ بِفَسَادِ مِيَاهِهَا فَكَثُرَ الْعَفَنُ وَالْمَرَضُ فَهٰذَا وَجْهُهُ لَا غَيْرُ وَقَدْ رَأَيْنَا عَكْسَ ذٰلِكَ فِي بِلَادٍ وُضِعَتْ وَلَمْ يُرَاعَ فِيهَا طِيبُ الْهَوَاءِ وَكَانَتْ أَوَّلاً قَلِيلَةَ السَّاكِنِ فَكَانَتْ أَمْرَاضُهَا كَثِيرَةً فَلَمَّا كَثُرَ سُكَّانُهَا انْتَقَلَ حَالُهَا عَنْ ذٰلِكَ وَهٰذَا مِثْلُ دَارِ الْمُلْكِ بِفَاسَ لِهٰذَا الْعَهْدِ الْمُسَمَّى بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ وَكَثِيرٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي الْعَالَمِ فَتَفَهَّمْهُ تَجِدْ مَا قُلْتُهُ لَكَ وَأَمَّا جَلْبُ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ فَيُرَاعَى فِيهِ أُمُورٌ مِنْهَا الْمَاءُ بِأَنْ يَكُونَ الْبَلَدُ عَلَى نَهْرٍ أَوْ بِإِزَائِهَا عُيُونٌ عَذْبَةٌ ثَرَّةٌ فَإِنَّ وُجُودَ الْمَاءِ قَرِيباً مِنَ الْبَلَدِ يُسَهِّلُ عَلَى السَّاكِنِ حَاجَةَ الْمَاءِ وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ فَيَكُونُ لَهُمْ فِي وُجُودِهِ مَرْفِقَةٌ عَظِيمَةٌ عَامَّةٌ وَمِمَّا يُرَاعَى مِنَ الْمَرَافِقِ فِي الْمُدُنِ طِيبُ الْمَرَاعِي لِسَائِمَتِهِمْ إِذْ صَاحِبُ كُلِّ قَرَارٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ دَوَاجِنِ الْحَيَوَانِ لِلنِّتَاجِ وَالضَّرْعِ وَالرُّكُوبِ وَلَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْمَرْعَى فَإِذَا كَانَ قَرِيباً طَيِّباً كَانَ ذٰلِكَ أَرْفَقَ بِحَالِهِمْ لِمَا يُعَانُونَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي بُعْدِهِ وَمِمَّا يُرَاعَى أَيْضاً الْمَزَارِعُ فَإِنَّ الزُّرُوعَ هِيَ الْأَقْوَاتُ فَإِذَا كَانَتْ مَزَارِعُ الْبَلَدِ بِالْقُرْبِ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ أَسْهَلَ فِي اتِّخَاذِهِ وَأَقْرَبَ فِي تَحْصِيلِهِ وَمِنْ ذٰلِكَ الشَّجَرُ لِلْحَطَبِ وَالْبِنَاءِ فَإِنَّ الْحَطَبَ مِمَّا تَعُمُّ الْبَلْوَى فِي اتِّخَاذِهِ لِوُقُودِ النِّيرَانِ لِلِاصْطِلَاءِ وَالطَّبْخِ وَالْخَشَبُ أَيْضاً ضَرُورِيٌّ لِسُقُفِهِمْ وَكَثِيرٌ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ الْخَشَبُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَقَدْ يُرَاعَى أَيْضاً قُرْبُهَا مِنَ

اَلْبَحْرِ لِتَسْهِيلِ اَلْحَاجَاتِ اَلْقَاصِيَةِ مِنَ اَلْبِلَادِ اَلنَّائِيَةِ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ اَلْأَوَّلِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِتَفَاوُتِ اَلْحَاجَاتِ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَةُ اَلسَّاكِنِ وَقَدْ يَكُونُ اَلْوَاضِعُ غَافِلًا عَنْ حُسْنِ اَلِاخْتِيَارِ اَلطَّبِيعِيِّ أَوْ إِنَّمَا يُرَاعِي مَا هُوَ أَهَمُّ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ وَلَا يَذْكُرُ حَاجَةَ غَيْرِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ اَلْعَرَبُ لِأَوَّلِ اَلْإِسْلَامِ فِي اَلْمُدُنِ اَلَّتِي اَخْتَطُّوهَا بِالْعِرَاقِ وَأَفْرِيقِيَّةَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُرَاعُوا فِيهَا إِلَّا اَلْأَهَمَّ عِنْدَهُمْ مِنْ مَرَاعِي اَلْإِبِلِ وَمَا يَصْلُحُ لَهَا مِنَ اَلشَّجَرِ وَالْمَاءِ اَلْمِلْحِ وَلَمْ يُرَاعُوا اَلْمَاءَ وَلَا اَلْمَزَارِعَ وَلَا اَلْحَطَبَ وَلَا مَرَاعِيَ اَلسَّائِمَةِ مِنْ ذَوَاتِ اَلظِّلْفِ وَلَا غَيْرِ ذٰلِكَ كَالْقَيْرَوَانِ وَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ وَأَمْثَالِهَا وَلِهٰذَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى اَلْخَرَابِ مَا لَمْ تُرَاعَ فِيهَا اَلْأُمُورُ اَلطَّبِيعِيَّةُ

وَمِمَّا يُرَاعَى فِي اَلْبِلَادِ اَلسَّاحِلِيَّةِ اَلَّتِي عَلَى اَلْبَحْرِ أَنْ تَكُونَ فِي جَبَلٍ أَوْ تَكُونَ بَيْنَ أُمَّةٍ مِنَ اَلْأُمَمِ مَوْفُورَةِ اَلْعَدَدِ تَكُونُ صَرِيخًا لِلْمَدِينَةِ مَتَى طَرَقَهَا طَارِقٌ مِنَ اَلْعَدُوِّ وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ اَلْمَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةَ اَلْبَحْرِ وَلَمْ يَكُنْ بِسَاحَتِهَا عُمْرَانُ لِلْقَبَائِلِ أَهْلِ اَلْعَصَبِيَّاتِ وَلَا مَوْضِعُهَا مُتَوَعِّرٌ مِنَ اَلْجَبَلِ كَانَتْ فِي غِرَّةٍ لِلْبَيَاتِ وَسَهُلَ طُرُوقُهَا فِي اَلْأَسَاطِيلِ اَلْبَحْرِيَّةِ عَلَى عَدُوِّهَا وَتَحَيُّفُهُ لَهَا لِمَا يَأْمَنُ مِنْ وُجُودِ اَلصَّرِيخِ لَهَا. وَأَنَّ اَلْحَضَرَ اَلْمُتَعَوِّدِينَ لِلدَّعَةِ قَدْ صَارُوا عِيَالًا وَخَرَجُوا عَنْ حُكْمِ اَلْمُقَاتِلَةِ وَهٰذِهِ كَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنَ اَلْمَشْرِقِ وَطَرَابُلُسَ مِنَ اَلْمَغْرِبِ وَبُونَةَ وَسَلَا وَمَتَى كَانَتِ اَلْقَبَائِلُ وَالْعَصَائِبُ مُوَطَّنِينَ بِقُرْبِهَا بِحَيْثُ يَبْلُغُهُمُ اَلصَّرِيخُ وَالنَّعِيرُ وَكَانَتْ مُتَوَعِّرَةَ اَلْمَسَالِكِ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا بِاخْتِطَاطِهَا فِي هِضَابِ اَلْجِبَالِ وَعَلَى أَسْنِمَتِهَا كَانَ لَهَا بِذٰلِكَ مَنَعَةٌ مِنَ اَلْعَدُوِّ وَيَئِسُوا مِنْ طُرُوقِهَا لِمَا يُكَابِدُونَهُ مِنْ وَعْرِهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ إِجَابَةِ صَرِيخِهَا كَمَا فِي سَبْتَةَ وَبِجَايَةَ وَبَلَدِ اَلْقُلِّ عَلَى صِغَرِهَا فَافْهَمْ ذٰلِكَ وَاعْتَبِرْهُ فِي اَخْتِصَاصِ اَلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بِاسْمِ اَلثَّغْرِ مِنْ لَدُنِ اَلدَّوْلَةِ اَلْعَبَّاسِيَّةِ مَعَ أَنَّ اَلدَّعْوَةَ مِنْ وَرَائِهَا بِبَرْقَةَ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَإِنَّمَا اَعْتُبِرَ فِي ذٰلِكَ اَلْمَخَافَةُ اَلْمُتَوَقَّعَةُ فِيهَا مِنَ اَلْبَحْرِ لِسُهُولَةِ وَضْعِهَا وَلِذٰلِكَ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ كَانَ طُرُوقُ اَلْعَدُوِّ لِلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَطَرَابُلُسَ فِي اَلْمِلَّةِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَاللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل السادس

في المساجد والبيوت العظيمة في العالم

إِعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَضَّلَ مِنَ اَلْأَرْضِ بِقَاعًا اَخْتَصَّهَا بِتَشْرِيفِهِ وَجَعَلَهَا مَوَاطِنَ

لِعِبَادَتِهِ يُضَاعِفُ فِيهَا الثَّوَابَ وَيَنْمُو بِهَا الْأُجُورُ وَأَخْبَرَنَا بِذَلِكَ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ لُطْفًا بِعِبَادِهِ وَتَسْهِيلًا لِطُرُقِ السَّعَادَةِ لَهُمْ. وَكَانَتِ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَفْضَلَ بِقَاعِ الْأَرْضِ حَسْبَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَهِيَ مَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ أَمَّا الْبَيْتُ الْحَرَامُ الَّذِي بِمَكَّةَ فَهُوَ بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمَرَهُ اللَّهُ بِبِنَائِهِ وَأَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ إِلَيْهِ فَبَنَاهُ هُوَ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ كَمَا نَصَّهُ الْقُرْآنُ وَقَامَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ فِيهِ وَسَكَنَ إِسْمَاعِيلُ بِهِ مَعَ هَاجَرَ وَمَنْ نَزَلَ مَعَهُمْ مِنْ جُرْهُمَ إِلَى أَنْ قَبَضَهُمَا اللَّهُ وَدُفِنَا بِالْحِجْرِ مِنْهُ. وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ بَنَاهُ دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَمَرَهُمَا اللَّهُ بِبِنَاءِ مَسْجِدِهِ وَنَصْبِ هَيَاكِلِهِ وَدُفِنَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وُلْدِ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوَالَيْهِ. وَالْمَدِينَةُ مُهَاجَرُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهِجْرَةِ إِلَيْهَا وَإِقَامَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ بِهَا فَبَنَى مَسْجِدَهُ الْحَرَامَ بِهَا وَكَانَ مَلْحَدُهُ الشَّرِيفُ فِي تُرْبَتِهَا فَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ قُرَّةُ عَيْنِ الْمُسْلِمِينَ وَمَهْوَى أَفْئِدَتِهِمْ وَعَظَمَةُ دِينِهِمْ وَفِي الْآثَارِ مِنْ فَضْلِهَا وَمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ فِي مُجَاوَرَتِهَا وَالصَّلَاةِ فِيهَا كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ فَلْنُشِرْ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ أَوَّلِيَّةِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ وَكَيْفَ تَدَرَّجَتْ أَحْوَالُهَا إِلَى أَنْ كَمُلَ ظُهُورُهَا فِي الْعَالَمِ فَأَمَّا مَكَّةُ فَأَوَّلِيَّتُهَا فِيمَا يُقَالُ أَنَّ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بَنَاهَا قُبَالَةَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ثُمَّ هَدَمَهَا الطُّوفَانُ بَعْدَ ذَلِكَ وَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا اقْتَبَسُوهُ مِنْ مُحْتَمَلِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَشَأْنِ زَوْجَتِهِ سَارَةَ وَغَيْرَتِهَا مِنْ هَاجَرَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ هَاجَرَ بِالْفَلَاةِ فَوَضَعَهُمَا فِي مَكَانِ الْبَيْتِ وَسَارَ عَنْهُمَا وَكَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمَا مِنَ اللُّطْفِ فِي نَبْعِ مَاءِ زَمْزَمَ وَمُرُورِ الرُّفْقَةِ مِنْ جُرْهُمَ بِهَا حَتَّى احْتَمَلُوهُمَا وَسَكَنُوا إِلَيْهِمَا وَنَزَلُوا مَعَهُمَا حَوَالَيْ زَمْزَمَ كَمَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِهِ فَاتَّخَذَ إِسْمَاعِيلُ بِمَوْضِعِ الْكَعْبَةِ بَيْتًا يَأْوِي إِلَيْهِ وَأَدَارَ عَلَيْهِ سِيَاجًا مِنَ الرَّدْمِ وَجَعَلَهُ زَرْبًا لِغَنَمِهِ وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِرَارًا لِزِيَارَتِهِ مِنَ الشَّامِ أُمِرَ فِي آخِرِهَا بِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ مَكَانَ ذَلِكَ الزَّرْبِ فَبَنَاهُ وَاسْتَعَانَ فِيهِ بِابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى حَجِّهِ وَبَقِيَ إِسْمَاعِيلُ سَاكِنًا بِهِ وَلَمَّا قُبِضَتْ أُمُّهُ هَاجَرُ وَقَامَ بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرِ الْبَيْتِ مَعَ أَخْوَالِهِمْ مِنْ جُرْهُمَ ثُمَّ الْعَمَالِيقُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ وَالنَّاسُ يَهْرَعُونَ

لَيهَا مِنْ كُلِّ أُفقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهلِ الخَلِيقَةِ لَا مِنْ بَنِي إِسمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيرِهِمْ مِمَّنْ دَنَا أَوْ نَأَى فَقَدْ نُقِلَ أَنَّ التَّبَابِعَةَ كَانَتْ تَحُجُّ البَيْتَ وَتُعَظِّمُهُ وَأَنَّ تُبَّعاً كَسَاهَا المُلاءَ وَالوَصَائِلَ وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا وَجَعَلَ لَهَا مِفْتَاحاً وَنُقِلَ أَيضاً أَنَّ الفُرْسَ كَانَتْ تَحُجُّهُ وَتَتَقَرَّبُ إِلَيهِ وَأَنَّ غَزَالَيِ الذَّهَبِ اللَّذَيْنِ وَجَدَهُمَا عَبْدُ المُطَّلِبِ حِينَ احتَفَرَ زَمْزَمَ كَانَا مِنْ قَرَابِينِهِمْ وَلَمْ يَزَلْ لِجُرْهُمَ الوِلَايَةُ عَلَيهِ مِنْ بَعْدِ وَلَدِ إِسمَاعِيلَ مِنْ قِبَلِ خُؤُولَتِهِمْ حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ خُزَاعَةُ وَأَقَامُوا بِهَا بَعْدَهُمْ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ كَثُرَ وُلْدُ إِسمَاعِيلَ وَانْتَشَرُوا وَتَشَعَّبُوا إِلى كِنَانَةَ ثُمَّ كِنَانَةُ إِلى قُرَيشٍ وَغَيرِهِمْ وَسَاءَتْ وِلَايَةُ خُزَاعَةَ فَغَلَبَتْهُمْ قُرَيشٌ عَلَى أَمرِهِ وَأَخرَجُوهُمْ مِنَ البَيْتِ وَمَلَكُوا عَلَيهِمْ يَوْمَئِذٍ قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ فَبَنَى البَيْتَ وَسَقَفَهُ بِخَشَبِ الدَّوْمِ وَجَرِيدِ النَّخْلِ وَقَالَ الأَعْشَى

حَلَفْتُ بِثَوْبَي رَاهِبِ الدُّورِ وَالَّتِي بَنَاهَا قُصَيٌّ وَالمُضَاضُ بْنُ جُرْهُمِ

ثُمَّ أَصَابَ البَيْتَ سَيْلٌ وَيُقَالُ حَرِيقٌ وَتَهَدَّمَ وَأَعَادُوا بِنَاءَهُ وَجَمَعُوا النَّفَقَةَ لِذَلِكَ مِنْ أَموَالِهِمْ وَانْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جُدَّةَ فَاشْتَرَوا خَشَبَهَا لِلسَّقْفِ وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ فَوقَ القَامَةِ فَجَعَلُوهَا ثَمَانِيَ عَشْرَةَ ذِرَاعاً وَكَانَ البَابُ لَاصِقاً بِالأَرْضِ فَجَعَلُوهُ فَوقَ القَامَةِ لِئَلَّا تَدْخُلَهُ السُّيُولُ وَقَصَرَتْ بِهِمِ النَّفَقَةُ عَنْ إِتْمَامِهِ فَقَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِهِ وَتَرَكُوا مِنْهُ سِتَّ أَذْرُعٍ وَشِبْراً أَدَارُوهَا بِجِدَارٍ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ الحِجْرُ وَبَقِيَ البَيْتُ عَلى هَذَا البِنَاءِ إِلى أَنْ تَحَصَّنَ ابْنُ الزُّبَيرِ بِمَكَّةَ حِينَ دَعَا لِنَفْسِهِ وَزَحَفَتْ إِلَيهِ جُيُوشُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ مَعَ الحُصَينِ بْنِ نُمَيرٍ السَّكُونِيِّ وَرَمَى البَيْتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ فَأَصَابَهُ حَرِيقٌ يُقَالُ مِنَ النَّفْطِ الَّذِي رَمُوا بِهِ عَلى ابْنِ الزُّبَيرِ فَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحسَنَ مِمَّا كَانَ بَعْدَ أَنِ اخْتَلَفَتْ عَلَيهِ الصَّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ وَاحْتَجَّ عَلَيهِمْ بِقَولِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَرَدَدْتُ البَيْتَ عَلى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ شَرْقِيّاً وَغَرْبِيّاً فَهَدَمَهُ وَكَشَفَ عَنْ أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيهِ السَّلَامُ وَجَمَعَ الوُجُوهَ وَالأَكَابِرَ حَتَّى عَايَنُوهُ وَأَشَارَ عَلَيهِ ابْنُ عَبَّاسٍ بِالتَّحَرِّي فِي حِفْظِ القِبْلَةِ عَلى النَّاسِ فَأَدَارَ عَلى الأَسَاسِ الخَشَبَ وَنَصَبَ مِنْ فَوقِهَا الأَسْتَارَ حِفْظاً لِلقِبْلَةِ وَبَعَثَ إِلى صَنْعَاءَ فِي الفِضَّةِ وَالكِلْسِ فَحَمَلَهَا وَسَأَلَ عَنْ مَقْطَعِ الحِجَارَةِ الأَوَّلِ فَجَمَعَ مِنهَا مَا احْتَاجَ إِلَيهِ ثُمَّ شَرَعَ فِي البِنَاءِ عَلى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيهِ السَّلَامُ وَرَفَعَ جُدْرَانَهَا . سَبْعاً وَعِشْرِينَ

ذِرَاعاً وَجَعَلَ لَهَا بَابَيْنِ لاَصِقَيْنِ بِالْأَرْضِ كَمَا رَوَى فِي حَدِيثِهِ وَجَعَلَ فَرْشَهَا وَإِزْرَهَا بِالرُّخَامِ وَصَاغَ لَهَا الْمَفَاتِيحَ وَصَفَائِحَ الْأَبْوَابِ مِنَ الذَّهَبِ ثُمَّ جَاءَ الْحَجَّاجُ لِحِصَارِهِ أَيَّامَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَرَمَى عَلَى الْمَسْجِدِ بِالْمَنْجَنِيقَاتِ . إِلَى أَنْ تَصَدَّعَتْ حِيطَانُهَا ثُمَّ لَمَّا ظَفِرَ بِابْنِ الزُّبَيْرِ شَاوَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ فِيمَا بَنَاهُ وَزَادَهُ فِي الْبَيْتِ فَأَمَرَهُ بِهَدْمِهِ وَرَدِّ الْبَيْتِ عَلَى قَوَاعِدِ قُرَيْشٍ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ وَيُقَالُ إِنَّهُ نَدِمَ عَلَى ذٰلِكَ حِينَ عَلِمَ صِحَّةَ رِوَايَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ وَقَالَ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ حَمَّلْتُ أَبَا حُبَيْبٍ فِي أَمْرِ الْبَيْتِ وَبِنَائِهِ مَا تَحَمَّلَ فَهَدَمَ الْحَجَّاجُ مِنْهَا سِتَّ أَذْرُعٍ وَشِبْراً مَكَانَ الْحِجْرِ وَبَنَاهَا عَلَى أَسَاسِ قُرَيْشٍ وَسَدَّ الْبَابَ الْغَرْبِيَّ وَمَا تَحْتَ عَتَبَةِ بَابِهَا الْيَوْمَ مِنَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ وَتَرَكَ سَائِرَهَا لَمْ يُغَيِّرْ مِنْهُ شَيْئاً فَكُلُّ الْبِنَاءِ الَّذِي فِيهِ الْيَوْمَ بِنَاءُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَبِنَاءُ الْحَجَّاجِ فِي الْحَائِطِ صِلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْعِيَانِ لُحْمَةٌ ظَاهِرَةٌ بَيْنَ الْبِنَاءَيْنِ وَالْبِنَاءُ مُتَمَيِّزٌ عَنِ الْبِنَاءِ بِمِقْدَارِ إِصْبَعٍ شِبْهُ الصَّدْعِ وَقَدْ لُحِمَ . وَيَعْرِضُ هٰهُنَا إِشْكَالٌ قَوِيٌّ لِمُنَافَاتِهِ لِمَا يَقُولُهُ الْفُقَهَاءُ فِي أَمْرِ الطَّوَافِ وَيَحْذَرُ الطَّائِفُ أَنْ يَمِيلَ عَلَى الشَّاذِرْوَانِ الدَّائِرِ عَلَى أَسَاسِ الْجُدُرِ مِنْ أَسْفَلِهَا فَيَقَعُ طَوَافُهُ دَاخِلَ الْبَيْتِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجُدُرَ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَى بَعْضِ الْأَسَاسِ وَتَرْكِ بَعْضِهِ وَهُوَ مَكَانُ الشَّاذِرْوَانِ وَكَذَا قَالُوا فِي تَقْبِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ لَا بُدَّ مِنْ رُجُوعِ الطَّائِفِ مِنَ التَّقْبِيلِ حَتَّى يَسْتَوِيَ قَائِماً لِئَلَّا يَقَعَ بَعْضُ طَوَافِهِ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَإِذَا كَانَتِ الْجُدْرَانُ كُلُّهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ إِنَّمَا بُنِيَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَكَيْفَ يَقَعُ هٰذَا الَّذِي قَالُوهُ وَلَا مَخْلَصَ مِنْ هٰذَا إِلَّا بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ الْحَجَّاجُ هَدَمَ جَمِيعَهُ وَأَعَادَهُ وَقَدْ نَقَلَ ذٰلِكَ جَمَاعَةٌ إِلَّا أَنَّ الْعِيَانَ فِي شَوَاهِدِ الْبِنَاءِ بِالْتِحَامِ مَا بَيْنَ الْبِنَاءَيْنِ وَتَمْيِيزِ أَحَدِ الشِّقَّيْنِ مِنْ أَعْلَاهُ عَلَى الْآخَرِ فِي الصِّنَاعَةِ يَرُدُّ ذٰلِكَ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَمْ يَرُدَّ الْبَيْتَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَإِنَّمَا فَعَلَ ذٰلِكَ فِي الْحِجْرِ فَقَطْ لِيُدْخِلَهُ فَهِيَ الْآنَ مَعَ كَوْنِهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ وَهٰذَا بَعِيدٌ وَلَا مَحِيصَ مِنْ هٰذَيْنِ وَاللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ ثُمَّ إِنَّ مَسَاحَةَ الْبَيْتِ وَهُوَ الْمَسْجِدُ كَانَ فَضَاءً لِلطَّائِفِينَ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جُدُرٌ أَيَّامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ كَثُرَ النَّاسُ فَاشْتَرَى عُمَرُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ دُوراً هَدَمَهَا وَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ وَأَدَارَ عَلَيْهَا جِدَاراً دُونَ الْقَامَةِ وَفَعَلَ مِثْلَ ذٰلِكَ عُثْمَانُ ثُمَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبَنَاهُ بِعُمُدِ

ٱلرُّخَامِ ثُمَّ زَادَ فِيهِ ٱلْمَنْصُورُ وَٱبْنُهُ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ بَعْدِهِ وَوَقَفَتِ ٱلزِّيَادَةُ وَٱسْتَقَرَّتْ عَلى ذٰلِكَ لِعَهْدِنَا . وَتَشْرِيفُ ٱللّٰهِ لِهٰذَا ٱلْبَيْتِ وَعِنَايَتُهُ بِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ وَكَفَى بِذٰلِكَ أَنْ جَعَلَهُ مَهْبِطاً لِلْوَحْيِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَمَكَاناً لِلْعِبَادَةِ وَفَرْضِ شَرَائِعِ ٱلْحَجِّ وَمَنَاسِكِهِ وَأَوْجَبَ لِحَرَمِهِ مِنْ سَائِرِ نَوَاحِيهِ مِنْ حُقُوقِ ٱلتَّعْظِيمِ وَٱلْحَقِّ مَا لَمْ يُوجِبْهُ لِغَيْرِهِ فَمَنَعَ كُلَّ مَنْ خَالَفَ دِينَ ٱلْإِسْلَامِ مِنْ دُخُولِ ذٰلِكَ ٱلْحَرَمِ وَأَوْجَبَ عَلَى دَاخِلِهِ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنَ ٱلْمَخِيطِ إِلَّا إِزَاراً يَسْتُرُهُ وَحَمَى ٱلْعَائِذَ بِهِ وَٱلرَّاتِعَ فِي مَسَارِحِهِ مِنْ مَوَاقِعِ ٱلْآفَاتِ فَلَا يُرَامُ فِيهِ خَائِفٌ وَلَا يُصَادُ لَهُ وَحْشٌ وَلَا يُحْتَطَبُ لَهُ شَجَرٌ وَحَدُّ ٱلْحَرَمِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِهٰذِهِ ٱلْحُرْمَةِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَدِينَةِ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ إِلَى ٱلتَّنْعِيمِ وَمِنْ طَرِيقِ ٱلْعِرَاقِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى ٱلثَّنِيَّةِ مِنْ جَبَلِ ٱلْمُنْقَطَعِ وَمِنْ طَرِيقِ ٱلطَّائِفِ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى بَطْنِ نَمِرَةَ وَمِنْ طَرِيقِ جُدَّةَ سَبْعَةُ أَمْيَالٍ إِلَى مُنْقَطَعِ ٱلْعَشَائِرِ . هٰذَا شَأْنُ مَكَّةَ وَخَبَرُهَا وَتُسَمَّى أُمَّ ٱلْقُرَى وَتُسَمَّى ٱلْكَعْبَةَ لِعُلُوِّهَا مِنِ ٱسْمِ ٱلْكَعْبِ وَيُقَالُ لَهَا أَيْضاً بَكَّةُ قَالَ ٱلْأَصْمَعِي لِأَنَّ ٱلنَّاسَ يَبُكُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَيْهَا أَيْ يَدْفَعُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ بَاءُ بَكَّةَ أَبْدَلُوهَا مِيماً كَمَا قَالُوا لَازِبٌ وَلَازِمٌ لِقُرْبِ ٱلْمَخْرَجَيْنِ وَقَالَ ٱلنَّخَعِيُّ بِٱلْبَاءِ وَبِٱلْمِيمِ ٱلْبَلَدُ وَقَالَ ٱلزُّهْرِي بِٱلْبَاءِ لِلْمَسْجِدِ كُلِّهِ وَبِٱلْمِيمِ لِلْحَرَمِ وَقَدْ كَانَتِ ٱلْأُمَمُ مُنْذُ عَهْدِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تُعَظِّمُهُ وَٱلْمُلُوكُ تَبْعَثُ إِلَيْهِ بِٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ مِثْلَ كِسْرَى وَغَيْرِهِ وَقِصَّةُ ٱلْأَسْيَافِ وَغَزَالَيِ ٱلذَّهَبِ ٱللَّذَيْنِ وَجَدَهُمَا عَبْدُ ٱلْمُطَّلِبِ حِينَ ٱحْتَفَرَ زَمْزَمَ مَعْرُوفَةٌ وَقَدْ وَجَدَ رَسُولُ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ ٱفْتَتَحَ مَكَّةَ فِي ٱلْجُبِّ ٱلَّذِي كَانَ فِيهَا سَبْعِينَ أَلْفَ أُوقِيَّةٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ مِمَّا كَانَ ٱلْمُلُوكُ يُهْدُونَ لِلْبَيْتِ فِيهَا أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ مُكَرَّرَةً مَرَّتَيْنِ بِمِائَتَيْ قِنْطَارٍ وَزْناً وَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ ٱللّٰهِ لَوِ ٱسْتَعَنْتَ بِهٰذَا ٱلْمَالِ عَلَى حَرْبِكَ فَلَمْ يَفْعَلْ ثُمَّ ذُكِرَ لِأَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يُحَرِّكْهُ هٰكَذَا قَالَ ٱلْأَزْرَقِيُّ وَفِي ٱلْبُخَارِي بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي وَائِلٍ قَالَ جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ بْنِ عُثْمَانَ وَقَالَ جَلَسَ إِلَيَّ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ فَقَالَ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدَعَ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ قُلْتُ مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ قَالَ وَلِمَ قُلْتُ فَلَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبَاكَ فَقَالَ هُمَا ٱللَّذَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا وَخَرَّجَهُ أَبُو دَاوُود وَٱبْنُ مَاجَةَ وَأَقَامَ ذٰلِكَ ٱلْمَالُ إِلَى أَنْ كَانَتْ فِتْنَةُ ٱلْأَفْطَسِ وَهُوَ ٱلْحَسَنُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ ٱلْعَابِدِينَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ حِينَ غَلَبَ مَكَّةَ عَمَدَ إِلَى

ٱلْـكَعْبَةِ فَأَخَذَ مَا فِي خَزَائِنِهَا وَقَالَ «مَا تَصْنَعُ ٱلْـكَعْبَةُ بِهَذَا ٱلْمَالِ مَوْضُوعاً فِيهَا لاَ يُنْتَفَعُ بِهِ نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى حَرْبِنَا وَأَخْرَجَهُ وَتَصَرَّفَ فِيهِ وَبَطَلَتِ ٱلذَّخِيرَةُ مِنَ ٱلْـكَعْبَةِ مِنْ يَوْمَئِذٍ . (وأما بيت المقدس) وَهُوَ ٱلْمَسْجِدُ ٱلْأَقْصَى فَـكَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ أَيَّامَ ٱلصَّابِئَةِ مَوضِعَ ٱلزُّهَرَةِ وَكَانُوا يُقَرِّبُونَ إِلَيْهِ ٱلزَّيْتَ فِيمَا يُقَرِّبُونَهُ يَصُبُّونَهُ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ ٱلَّتِي هُنَاكَ ثُمَّ دُثِرَ ذٰلِكَ ٱلْهَيْـكَلُ وَٱتَّخَذَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ مَلَـكُوهَا قِبْلَةً لِصَلاَتِهِمْ . وَذٰلِكَ أَنَّ مُوسَى صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ لِتَمْلِيـكِهِمْ بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ كَمَا وَعَدَ ٱللهُ أَبَاهُمْ إِسْرَائِيلَ وَأَبَاهُ إِسْحَقَ مِنْ قَبْلِهِ وَأَقَامُوا بِأَرْضِ ٱلتِّيهِ أَمَرَهُ ٱللهُ بِٱتِّخَاذِ قُبَّةٍ مِنْ خَشَبِ ٱلسَّنْطِ عُيِّنَ بِٱلْوَحْيِ مِقْدَارُهَا وَصِفَتُهَا وَهَيَاكِلُهَا وَتَمَاثِيلُهَا وَأَنْ يَـكُونَ فِيهَا ٱلتَّابُوتُ وَمَائِدَةٌ بِصِحَافِهَا وَمَنَارَةٌ بِقَنَادِيلِهَا وَأَنْ يَصْنَعَ مَذْبَحاً لِلْقُرْبَانِ وَصَفَ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِي ٱلتَّوْرَاةِ أَكْمَلَ وَصْفٍ فَصَنَعَ ٱلْقُبَّةَ وَوَضَعَ فِيهَا تَابُوتَ ٱلْعَهْدِ وَهُوَ ٱلتَّابُوتُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْأَلْوَاحُ ٱلْمَصْنُوعَةُ عِوَضاً عَنِ ٱلْأَلْوَاحِ ٱلْمُنَزَّلَةِ بِٱلْـكَلِمَاتِ ٱلْعَشْرِ لَمَّا تَـكَسَّرَتْ وَوَضَعَ ٱلْمَذْبَحَ عِنْدَهَا . وَعَهِدَ ٱللهُ إِلَى مُوسَى بِأَنْ يَـكُونَ هَارُونُ صَاحِبَ ٱلْقُرْبَانِ وَنَصَبُوا تِلْكَ ٱلْقُبَّةَ بَيْنَ خِيَامِهِمْ فِي ٱلتِّيهِ يُصَلُّونَ إِلَيْهَا وَيَتَقَرَّبُونَ فِي ٱلْمَذْبَحِ أَمَامَهَا وَيَتَعَرَّضُونَ لِلْوَحْيِ عِنْدَهَا . وَلَمَّا مَلَـكُوا ٱلشَّامَ وَبَقِيَتْ تِلْكَ ٱلْقُبَّةُ قِبْلَتَهُمْ وَوَضَعُوهَا عَلَى ٱلصَّخْرَةِ بِبَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَأَرَادَ دَاوُدُ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ بِنَاءَ مَسْجِدِهِ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ مَـكَانَهَا فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذٰلِكَ وَعَهِدَ بِهِ إِلَى ٱبْنِهِ سُلَيْمَانَ فَبَنَاهُ لِأَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ مُلْـكِهِ وَلِخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ وَفَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ وَٱتَّخَذَ عُمُدَهُ مِنَ ٱلصُّفْرِ وَجَعَلَ بِهِ صَرْحَ ٱلزُّجَاجِ وَغَشَّى أَبْوَابَهُ وَحِيطَانَهُ بِٱلذَّهَبِ وَصَاغَ هَيَاكِلَهُ وَتَمَاثِيلَهُ وَأَوْعِيَتَهُ وَمَنَارَتَهُ وَمِفْتَاحَهُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَجَعَلَ فِي ظَهْرِهِ قَبْراً لِيَضَعَ فِيهِ تَابُوتَ ٱلْعَهْدِ وَهُوَ ٱلتَّابُوتُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْأَلْوَاحُ وَجَاءَ بِهِ مِنْ صِهْيُونَ بَلَدِ أَبِيهِ دَاوُدَ تَحْمِلُهُ ٱلْأَسْبَاطُ وَٱلْـكَهَنُوتِيَّةُ حَتَّى وَضَعَهُ فِي ٱلْقَبْرِ وَوُضِعَتِ ٱلْقُبَّةُ وَٱلْأَوْعِيَةُ وَٱلْمَذْبَحُ كُلٌّ وَاحِدٍ حَيْثُ أُعِدَّ لَهُ مِنَ ٱلْمَسْجِدِ وَأَقَامَ كَذٰلِكَ مَا شَاءَ ٱللهُ ثُمَّ خَرَّبَهُ بُخْتُ نَصَّرَ بَعْدَ ثَمَانِمِائَةِ سَنَةٍ مِنْ بِنَائِهِ وَأَحْرَقَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْعَصَا وَصَاغَ ٱلْهَيَاكِلَ وَنَثَرَ ٱلْأَحْجَارَ ثُمَّ لَمَّا أَعَادَهُمْ مُلُوكُ ٱلْفُرْسِ بَنَاهُ عُزَيْرٌ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِعَهْدِهِ بِإِعَانَةِ بَهْمَنَ مَلِكِ ٱلْفُرْسِ ٱلَّذِي كَانَتِ ٱلْوِلاَدَةُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ مِنْ سَبْيِ بُخْتَ نَصَّرَ وَحَدَّ لَهُمْ فِي بُنْيَانِهِ حُدُوداً دُونَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلاَمُ فَلَمْ يَتَجَاوَزُوهَا ثُمَّ تَدَاوَلَتْهُم

ملوكُ يونانَ وَٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ وَٱسْتَفْحَلَ ٱلمَلكُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هٰـذِهِ ٱلمُدَّةِ ثُمَّ لِبَنِي حشمَنَايَ مِنْ كَهَنَتِهِمْ ثُمَّ لِصُهْرِهِمْ هِيرُودُسَ وَلِبَنِيهِ مِنْ بَعْدِهِ وَبَنَى هِيرُودُسُ بَيْتَ ٱلمَقْدِسِ على بِنَاءِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ وَتَأَنَّقَ فِيهِ حَتَّى أَكْمَلَهُ فِي سِتِّ سِنِينَ فَلَمَّا جَاءَ طِيطِشُ مِنْ مُلُوكِ ٱلرُّومِ وَغَلَبَهُمْ وَمَلَكَ أَمْرَهُمْ خَرَّبَ بَيْتَ ٱلمَقْدِسِ وَمَسْجِدَهَا وَأَمَرَ أَنْ يُزْرَعَ مَكَانَهُ ثُمَّ أَخَذَ ٱلرُّومُ بِدِينِ ٱلمَسِيحِ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ وَدَانُوا بِتَعْظِيمِهِ ثُمَّ ٱخْتَلَفَ حَالُ مُلُوكِ ٱلرُّومِ فِي ٱلْأَخْـذِ بِدِينِ ٱلنَّصَارَى تَارَةً وَتَرْكِهِ أُخْرَى إِلَى أَنْ جَاءَ قُسْطَنْطِينُ وَتَنَصَّرَتْ أُمُّهُ هِيلانَةُ وَٱرْتَحَلَتْ إِلَى ٱلقُدْسِ فِي طَلَبِ ٱلخَشَبَةِ ٱلَّتِي صُلِبَ عَلَيْهَا ٱلمَسِيحُ بِزَعْمِهِمْ فَأَخْبَرَهَا ٱلقَسَاوِسَةُ بِأَنَّهُ رُمِيَ بِخَشَبَتِهِ عَلَى ٱلْأَرْضِ وَأُلْقِيَ عَلَيْهَا ٱلقُمَامَاتُ وَٱلقَاذُورَاتُ فَٱسْتَخْرَجَتِ ٱلخَشَبَةَ وَبَنَتْ مَكَانَ تِلْكَ ٱلقُمَامَاتِ كَنِيسَةَ ٱلقُمَامَةِ كَأَنَّهَا عَلَى قَبْرِهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَرَّبَتْ مَا وَجَدَتْ مِنْ عِمَارَةِ ٱلبَيْتِ وَأَمَرَتْ بِطَرْحِ ٱلزِّبْلِ وَٱلقُمَامَاتِ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ حَتَّى غَطَّاهَا وَخَفِيَ مَكَانُهَا جَزَاءً بِزَعْمِهَا لِمَا فَعَلُوهُ بِقَبْرِ ٱلمَسِيحِ ثُمَّ بَنَوْا بِإِزَاءِ ٱلقُمَامَةِ بَيْتَ لَحْمٍ وَهُوَ ٱلبَيْتُ ٱلَّذِي وُلِدَ فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ وَبَقِيَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ ٱلْإِسْلامُ وَحَضَرَ عُمَرُ لِفَتْحِ بَيْتِ ٱلمَقْدِسِ وَسَأَلَ عَنِ ٱلصَّخْرَةِ فَأُرِيَ مَكَانَهَا وَقَدْ عَلاهَا ٱلزِّبْلُ وَٱلتُّرَابُ فَكَشَفَ عَنْهَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِداً عَلَى طَرِيقِ ٱلبِدَاوَةِ وَعَظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ مَا أَذِنَ ٱللهُ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَمَا سَبَقَ مِنْ أُمِّ ٱلكِتَابِ فِي فَضْلِهِ حَسْبَمَا ثَبَتَ ثُمَّ ٱحْتَفَـلَ ٱلوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَـلَى سُنَنِ مَسَاجِدِ ٱلْإِسْلامِ بِمَا شَاءَ ٱللهُ مِنَ ٱلْاِحْتِفَالِ كَمَا فَعَـلَ فِي ٱلمَسْجِدِ ٱلحَرَامِ وَفِي مَسْجِدِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِٱلمَدِينَةِ وَفِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَكَانَتِ ٱلعَرَبُ تُسَمِّيهِ بَلاطَ ٱلوَلِيدِ وَأَلْزَمَ مَلِكَ ٱلرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ ٱلفَعَلَةَ وَٱلمَالَ لِبِنَاءِ هٰذِهِ ٱلمَسَاجِدِ وَأَنْ يُنَمِّقُوهَا بِٱلفُسَيْفِسَاءِ فَأَطَاعَ لِذٰلِكَ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى مَا ٱقْتَرَحَهُ ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ ٱلخِلافَـةِ أَعْوَامَ ٱلخَمْسِمِائَةِ مِنَ ٱلهِجْرَةِ فِي آخِرِهَـا وَكَانَتْ فِي مَلَكَةِ ٱلعُبَيْدِيِّينَ خُلَفَاءِ ٱلقَاهِرِ مِنَ ٱلشِّيعَةِ وَٱخْتَلَّ أَمْرُهُمْ زَحَفَ ٱلفَرَنْجَةُ إِلَى بَيْتِ ٱلمَقْدِسِ فَمَلَكُوهُ وَمَلَكُوا مَعَهُ عَامَّةَ ثُغُورِ ٱلشَّامِ وَبَنَوْا عَلَى ٱلصَّخْرَةِ ٱلمُقَدَّسَةِ مِنْهُ كَنِيسَةً كَانُوا يُعَظِّمُونَهَا وَيَفْتَخِرُونَ بِبِنَائِهَا حَتَّى إِذَا ٱسْتَقَلَّ صَلاحُ ٱلدِّينِ بْنُ أَيُّوبَ ٱلكُرْدِيُّ بِمُلْكِ مِصْرَ وَٱلشَّامِ وَمَحَا أَثَرَ ٱلعُبَيْدِيِّينَ وَبِدَعَهُمْ زَحَفَ إِلَى ٱلشَّامِ وَجَاهَدَ مَنْ كَانَ بِهِ مِنَ ٱلفَرَنْجَةِ حَتَّى غَلَبَهُمْ عَلَى بَيْتِ ٱلمَقْدِسِ وَعَلَى مَا كَانُوا مَلَكُوهُ

مِنْ ثُغُورِ ٱلشَّامِ وَذَلِكَ لِنَحْوِ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ وَهَدَمَ تِلْكَ ٱلْكَنِيسَةَ وَأَظْهَرَ ٱلصَّخْرَةَ وَبَنَى ٱلْمَسْجِدَ عَلَى ٱلنَّحْوِ ٱلذِي هُوَ عَلَيْهِ ٱلْيَوْمَ لِهَـٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلَا يَعْرِضْ لَكَ ٱلْإِشْكَالُ ٱلْمَعْرُوفُ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلصَّحِيحِ أَنَّ ٱلنَّبِي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ فَقَالَ بَيْنَ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ قِيلَ فَكَمْ بَيْنَهُمَا قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً فَإِنَّ ٱلْمُدَّةَ بَيْنَ بِنَاءِ مَكَّةَ وَبَيْنَ بِنَاءِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ بِمِقْدَارِ مَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَسُلَيْمَانَ لِأَنَّ سُلَيْمَانَ بَانِيهِ وَهُوَ يُنِيفُ عَلَى ٱلْأَلْفِ بِكَثِيرٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمُرَادَ بِٱلْوَضْعِ فِي ٱلْحَدِيثِ لَيْسَ ٱلْبِنَاءَ وَإِنَّمَا ٱلْمُرَادُ أَوَّلُ بَيْتٍ عُيِّنَ لِلْعِبَادَةِ وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ بَيْتُ ٱلْمَقْدِسِ عُيِّنَ لِلْعِبَادَةِ قَبْلَ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ وَقَدْ نُقِلَ أَنَّ ٱلصَّابِئَةَ بَنَوْا عَلَى ٱلصَّخْرَةِ هَيْكَلَ ٱلزُّهَرَةِ فَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مَكَانًا لِلْعِبَادَةِ كَمَا كَانَتِ ٱلْجَاهِلِيَّةُ تَضَعُ ٱلْأَصْنَامَ وَٱلتَّمَاثِيلَ حَوَالَيِ ٱلْكَعْبَةِ وَفِي جَوْفِهَا وَٱلصَّابِئَةُ ٱلَّذِينَ بَنَوْا هَيْكَلَ ٱلزُّهَرَةِ كَانُوا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَلَا تَبْعُدُ مُدَّةُ ٱلْأَرْبَعِينَ سَنَةً بَيْنَ وَضْعِ مَكَّةَ لِلْعِبَادَةِ وَوَضْعِ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بِنَاءٌ كَمَا هُوَ ٱلْمَعْرُوفُ وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَتَفَهَّمْهُ فَفِيهِ حَلُّ هٰذَا ٱلْإِشْكَالِ. وَأَمَّا ٱلْمَدِينَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ بِيَثْرِبَ فَهِيَ مِنْ بِنَاءِ يَثْرِبَ بْنِ مَهْلَائِيلَ مِنَ ٱلْعَمَالِقَةِ وَمَلَكَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَيْدِيهِمْ فِيمَا مَلَكُوهُ مِنْ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ ثُمَّ جَاوَرَهُمْ بَنُو قَيْلَةَ مِنْ غَسَّانَ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهَا وَعَلَى حُصُونِهَا.

ثُمَّ أَمَرَ ٱلنَّبِي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِٱلْهِجْرَةِ إِلَيْهَا لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ ٱللَّهِ بِهَا فَهَاجَرَ إِلَيْهَا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَتَبِعَهُ أَصْحَابُهُ وَنَزَلَ بِهَا وَبَنَى مَسْجِدَهُ وَبُيُوتَهُ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلذِي كَانَ ٱللَّهُ قَدْ أَعَدَّهُ لِذَلِكَ وَشَرَّفَهُ فِي سَابِقِ أَزَلِهِ وَآوَاهُ أَبْنَاءُ قَيْلَةَ وَنَصَرُوهُ فَلِذَلِكَ سُمُّوا ٱلْأَنْصَارَ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ٱلْإِسْلَامِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى ٱلْكَلِمَاتِ وَغَلَبَ عَلَى قَوْمِهِ وَفَتَحَ مَكَّةَ وَمَلَكَهَا وَظَنَّ ٱلْأَنْصَارُ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى بَلَدِهِ فَأَهَمَّهُمْ ذَلِكَ فَخَاطَبَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَحَوِّلٍ حَتَّى إِذَا قُبِضَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُلْحَدُهُ ٱلشَّرِيفُ بِهَا وَجَاءَ فِي فَضْلِهَا مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ ٱلصَّحِيحَةِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ وَوَقَعَ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ ٱلْعُلَمَاءِ فِي تَفْضِيلِهَا عَلَى مَكَّةَ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِمَا ثَبَتَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ ٱلنَّصِّ ٱلصَّرِيحِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خُدَيْجٍ أَنَّ ٱلنَّبِي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ٱلْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ نَقَلَ ذَلِكَ أَبُو ٱلْوَهَّابِ فِي ٱلْمَعُونَةِ إِلَى أَحَادِيثَ أُخْرَى

تدلُّ بظاهِرِهَا عَلَى ذٰلِكَ وَخَالَفَ أَبو حَنِيفَةَ وَٱلشَّافِعِيُّ . وَأَصبَحَتْ عَلَى كُلِّ حَالٍ ثَانِيَةَ ٱلمِسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَجَنَحَ إِلَيْهَا ٱلأُمَمُ بِأَفْئِدَتِهِمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ فَٱنظُرْ كَيْفَ تَدَرَّجَتْ ٱلفَضِيلَةُ فِي هٰذِهِ ٱلمَسَاجِدِ ٱلمُعَظَّمَةِ لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ ٱللهِ لَهَا وَتَفَهَّمْ سِرَّ ٱللهِ فِي ٱلكَوْنِ وَتَدْرِيجَهُ عَلَى تَرْتِيبٍ مُحْكَمٍ فِي أُمُورِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا . وَأَمَّا غَيْرُ هٰذِهِ ٱلمَسَاجِدِ ٱلثَّلَاثَةِ فلا نَعْلَمُهُ فِي ٱلأَرْضِ إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَأْنِ مَسْجِدِ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ بِسَرَنْدِيبَ مِن جزائِرِ ٱلهِنْدِ لٰكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ شَيْءٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَتْ لِلأُمَمِ فِي ٱلقَدِيمِ مَسَاجِد يعَظِّمُونَهَا عَلَى جِهَةِ ٱلدِّيَانَةِ بِزَعْمِهِمْ مِنْهَا بُيُوتُ ٱلنَّارِ لِلفُرْسِ وَهَيَاكِلُ يُونَانَ وَبُيُوتُ ٱلعَرَبِ بِٱلحِجَازِ ٱلَّتِي أَمَرَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَدْمِهَا فِي غَزَوَاتِهِ وَقَدْ ذَكَرَ ٱلمَسْعُودِيُّ مِنْهَا بيُوتاً لَسْنَا مِنْ ذِكْرِهَا فِي شَيْءٍ إِذْ هِيَ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ ولا هِيَ عَلَى طَرِيقٍ دِينِيٍّ وَلا يُلتَفَتُ إِلَيْهَا وَلا إلى ٱلخَبَرِ عَنْهَا وَيَكْفِي فِي ذٰلِكَ مَا وَقَعَ فِي ٱلتَّوَارِيخِ فَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ ٱلأَخْبَارِ فَعَلَيْهِ بِهَا وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السابع

في ان المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلأَقْطَارَ كَانَتْ لِلبَرْبَرِ مُنْذُ آلافٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ قَبْلَ ٱلإِسْلَام وَكَانَ عُمْرَانُهَا كُلُّهُ بَدَوِيّاً وَلَمْ تَسْتَمِرَّ فِيهِمِ ٱلحَضَارَةُ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَحوَالَهَا وَٱلدُّوَلُ ٱلَّتِي مَلَكَتْهُمْ مِنَ ٱلإِفْرَنْجَةِ وَٱلعَرَبِ لَمْ يَطُلْ أَمَدُ مُلْكِهِمْ فِيهِمْ حَتَّى تَرْسَخَ ٱلحَضَارَةُ مِنْهَا فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ ٱلبِدَاوَةِ وَشُؤُونُهَا فَكَانُوا إِلَيْهَا أَقْرَبَ فَلَمْ تَكْثُرْ مَبَانِيهِمْ وَأَيْضاً فَٱلصَّنَائِعُ بَعِيدَةٌ عَنِ ٱلبَرْبَرِ لِأَنَّهُمْ أَعرَقُ فِي ٱلبَدْوِ وَٱلصَّنَائِعِ مِنْ تَوَابِعِ ٱلحَضَارَةِ وَإِنَّمَا تَتِمُّ ٱلمَبَانِي بِهَا فَلا بُدَّ مِنَ ٱلحِذْقِ فِي تَعَلُّمِهَا فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلبَرْبَرِ ٱنْتِحَالٌ لَهَا لَمْ يَكُن لَهُمْ تَشَوُّقٌ إلى ٱلمَبَانِي فَضْلاً عَنِ ٱلمُدُنِ وَأَيْضاً فَهُمْ أَهلُ عَصَبِيَّاتٍ وَأَنسَابٍ لا يَخْلُو عنْ ذٰلِكَ جَمْعٌ مِنْهُمْ وَٱلأَنْسَابُ وَٱلعَصَبِيَّةُ أَجْنَحُ إِلى ٱلبَدْوِ وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلى ٱلمُدُنِ ٱلدَّعَةُ وَٱلسُّكُونُ وَيَصِيرُ سَاكِنُهَا عِيَالاً عَلَى حَامِيَتِهَا فَتَجِدُ أَهلَ ٱلبَدْوِ لِذٰلِكَ يَسْتَنْكِفُون عنْ سُكْنَى ٱلمَدِينَةِ أَوِ ٱلإِقَامَةِ بِهَا فَلا يَدْعُو إِلى ذٰلِكَ إِلَّا ٱلتَّرَفُ وَٱلغِنَى وقَلِيلٌ مَا هُو فِي ٱلنَّاسِ فَلِذٰلِكَ كَانَ عُمْرَانُ أَفرِيقِيَّةَ وَٱلمَغْرِبِ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ بَدَوِيّاً أَهلَ خِيَام وَظَوَاعِنَ وَقَيَاطِنَ وَكُنٍ فِي ٱلجِبَالِ وَكَانَ عُمْرَانُ بِلادُ ٱلعَجَمِ كُلُّهُ أَوْ أَكْثَرُهُ قُرَى

وَأَمْصَاراً وَرَسَاتِيقَ مِنْ بِلادِ الْأَنْدَلُسِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَعِرَاقِ الْعَجَمِ وَأَمْثَالِهَا لِأَنَّ الْعَجَمَ لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا وَيَتَبَاهَوْنَ فِي صَرَاحَتِهَا وَالْتِحَامِهَا إِلَّا فِي الْأَقَلِّ وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ سُكْنَى الْبَدْوِ لِأَهْلِ الْأَنْسَابِ لِأَنَّ لُحْمَةَ النَّسَبِ أَقْرَبُ وَأَشَدُّ فَتَكُونُ عَصَبِيَّتُهُ كَذَلِكَ وَتَنْزِعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى سُكْنَى الْبَدْوِ وَالتَّجَافِي عَنِ الْمِصْرِ الَّذِي يَذْهَبُ بِالْبَسَالَةِ وَيُصَيِّرُهُ عِيَالاً عَلَى غَيْرِهِ فَافْهَمْهُ وَقِسْ عَلَيْهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ

الفصل الثامن

في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي الْبَرْبَرِ بِعَيْنِهِ إِذِ الْعَرَبُ أَيْضاً أَعْرَقُ فِي الْبَدْوِ وَأَبْعَدُ عَنِ الصَّنَائِعِ وَأَيْضاً فَكَانُوا أَجَانِبَ مِنَ الْمَمَالِكِ الَّتِي اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَلَمَّا تَمَلَّكُوهَا لَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رُسُومَ الْحَضَارَةِ مَعَ أَنَّهُمُ اسْتَغْنَوْا بِمَا وَجَدُوا مِنْ مَبَانِي غَيْرِهِمْ وَأَيْضاً فَكَانَ الدِّينُ أَوَّلَ الْأَمْرِ مَانِعاً مِنَ الْمُغَالاةِ أَوِ الْبُنْيَانِ وَالْإِسْرَافِ فِيهِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ كَمَا عَهِدَ لَهُمْ عُمَرُ حِينَ اسْتَأْذَنُوهُ فِي بِنَاءِ الْكُوفَةِ بِالْحِجَارَةِ وَقَدْ وَقَعَ الْحَرِيقُ فِي الْقَصَبِ الَّذِي كَانُوا بَنَوْا بِهِ مِنْ قَبْلُ فَقَالَ افْعَلُوا وَلَا يَزِيدَنَّ أَحَدٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ وَلَا تُطَاوِلُوا فِي الْبُنْيَانِ وَالْزَمُوا السُّنَّةَ تَلْزَمْكُمُ الدَّوْلَةُ وَعَهِدَ إِلَى الْوَفْدِ وَتَقَدَّمَ إِلَى النَّاسِ أَنْ لَا يَرْفَعُوا بُنْيَاناً فَوْقَ الْقَدْرِ قَالُوا وَمَا الْقَدْرُ قَالَ لَا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ السَّرَفِ وَلَا يُخْرِجُكُمْ عَنِ الْقَصْدِ فَلَمَّا بَعُدَ الْعَهْدُ بِالدِّينِ وَالتَّحَرُّجُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ وَغَلَبَتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ وَالتَّرَفِ وَاسْتَخْدَمَ الْعَرَبُ أُمَّةَ الْفُرْسِ وَأَخَذُوا عَنْهُمُ الصَّنَائِعَ وَالْمَبَانِيَ وَدَعَتْهُمْ إِلَيْهَا أَحْوَالُ الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ فَحِينَئِذٍ شَيَّدُوا الْمَبَانِيَ وَالْمَصَانِعَ وَكَانَ عَهْدُ ذَلِكَ قَرِيباً بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَلَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ لِكَثْرَةِ الْبِنَاءِ وَاخْتِطَاطِ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ إِلَّا قَلِيلاً وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فَالْفُرْسُ طَالَتْ مُدَّتُهُمْ آلافاً مِنَ السِّنِينَ وَكَذَلِكَ الْقِبْطُ وَالنَّبَطُ وَالرُّومُ وَكَذَلِكَ الْعَرَبُ الْأُولَى مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةِ وَالتَّبَابِعَةِ طَالَتْ آمَادُهُمْ وَرَسَخَتِ الصَّنَائِعُ فِيهِمْ فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وَهَيَاكِلُهُمْ أَكْثَرَ عَدَداً وَأَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ أَثَراً وَاسْتَبْصِرْ فِي هَذَا تَجِدْهُ كَمَا قُلْتُ وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا

الفصل التاسع

في ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ شَأْنُ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلْبُعْدُ عَنِ ٱلصَّنَائِعِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلاَ تَكُونُ ٱلْمَبَانِي وَثِيقَةً فِي تَشْيِيدِهَا وَلَهُ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَمَسُّ بِهِ وَذٰلِكَ قِلَّةُ مُرَاعَاتِهِمْ لِحُسْنِ ٱلِٱخْتِيَارِ فِي ٱخْتِطَاطِ ٱلْمُدُنِ كَمَا قُلْنَاهُ فِي ٱلْمَكَانِ وَطِيبِ ٱلْهَوَاءِ وَٱلْمِيَاهِ وَٱلْمَزَارِعِ وَٱلْمَرَاعِي فَإِنَّهُ بِٱلتَّفَاوُتِ فِي هٰذَا تَتَفَاوَتُ جُودَةُ ٱلْمِصْرِ وَرَدَاءَتُهُ مِنْ حَيْثُ ٱلْعُمْرَانِ ٱلطَّبِيعِيُّ وَٱلْعَرَبُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هٰذَا وَإِنَّمَا يُرَاعُونَ مَرَاعِيَ إِبِلِهِمْ خَاصَّةً لاَ يُبَالُونَ بِٱلْمَاءِ طَابَ أَوْ خَبُثَ وَلاَ قَلَّ أَوْ كَثُرَ وَلاَ يَسْأَلُونَ عَنْ زَكَاءِ ٱلْمَزَارِعِ وَٱلْمَنَابِتِ وَٱلْأَهْوِيَةِ لاِنْتِقَالِهِمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَقْلِهِمِ ٱلْحُبُوبَ مِنَ ٱلْبَلَدِ ٱلْبَعِيدِ وَأَمَّا ٱلرِّيَاحُ فَٱلْقَفْرُ مُخْتَلِفٌ لِلْمَهَابِّ كُلِّهَا وَٱلظَّعْنُ كَفِيلٌ لَهُمْ بِطِيبِهَا لِأَنَّ ٱلرِّيَاحَ إِنَّمَا تَخْبُثُ مَعَ ٱلْقَرَارِ وَٱلسُّكْنَى وَكَثْرَةِ ٱلْفَضَلاَتِ وَٱنْظُرْ لَمَّا ٱخْتَطُّوا ٱلْكُوفَةَ وَٱلْبَصْرَةَ وَٱلْقَيْرَوَانَ كَيْفَ لَمْ يُرَاعُوا فِي ٱخْتِطَاطِهَا إِلَّا مَرَاعِيَ إِبِلِهِمْ وَمَا يَقْرُبُ مِنَ ٱلْقَفْرِ وَمَسَالِكَ ٱلظَّعْنِ فَكَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ ٱلْوَضْعِ ٱلطَّبِيعِيِّ لِلْمُدُنِ وَلَمْ تَكُنْ لَهَا مَادَّةٌ تُمِدُّ عُمْرَانَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا أَنَّهُ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَقَدْ كَانَتْ مَوَاطِنُهَا غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ لِلْقَرَارِ وَلَمْ تَكُنْ فِي وَسَطِ ٱلْأُمَمِ فَيَعْمُرُهَا ٱلنَّاسُ فَلِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنَ ٱنْحِلاَلِ أَمْرِهِمْ وَذَهَابِ عَصَبِيَّتِهِمِ ٱلَّتِي كَانَتْ سِيَاجاً لَهَا أَتَى عَلَيْهَا ٱلْخَرَابُ وَٱلِٱنْحِلاَلُ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَٱللّٰهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل العاشر

في مبادي الخراب في الامصار

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَمْصَارَ إِذَا ٱخْتُطَّتْ أَوَّلاً تَكُونُ قَلِيلَةَ ٱلْمَسَاكِنِ وَقَلِيلَةَ آلاَتِ ٱلْبِنَاءِ مِنَ ٱلْحَجَرِ وَٱلْجِيرِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يُعَالَى عَلَى ٱلْحِيطَانِ عِنْدَ ٱلتَّأَنُّقِ كَٱلزُّلْجِ وَٱلرُّخَامِ وَٱلرَّبْجِ وَٱلزُّجَاجِ وَٱلْفُسَيْفِسَاءِ وَٱلصَّدَفِ فَيَكُونُ بِنَاؤُهَا يَوْمَئِذٍ بَدَوِيًّا وَآلاَتُهَا فَاسِدَةً فَإِذَا عَظُمَ عُمْرَانُ ٱلْمَدِينَةِ وَكَثُرَ سَاكِنُهَا كَثُرَتِ ٱلْآلاَتُ بِكَثْرَةِ ٱلْأَعْمَالِ حِينَئِذٍ وَكَثُرَتِ ٱلصُّنَّاعُ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْ ذٰلِكَ كَمَا سَبَقَ بِشَأْنِهَا فَإِذَا تَرَاجَعَ عُمْرَانُهَا وَخَفَّ سَاكِنُهَا قَلَّتِ ٱلصَّنَائِعُ لِأَجْلِ ذٰلِكَ وَفُقِدَتِ ٱلْإِجَادَةُ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلْإِحْكَامِ وَٱلْمُغَالاَةُ عَلَيْهِ بِٱلتَّنْمِيقِ ثُمَّ تَقِلُّ ٱلْأَعْمَالُ لِعَدَمِ ٱلسَّاكِنِ فَيَقِلُّ جَلْبُ ٱلْآلاَتِ مِنَ ٱلْحَجَرِ وَٱلرُّخَامِ وَغَيْرِهِمَا

فتُفقَدُ وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَشْيِيدُهُمْ مِنَ ٱلآلاتِ ٱلَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ فَيَنقُلُونَهَا مِنْ مَصْنَعٍ إِلَى مَصْنَعٍ لِأَجلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ ٱلْمَصَانِعِ وَٱلْقُصُورِ وَٱلْمَنَازِلِ بِقِلَّةِ ٱلْعُمْرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوَّلاً ثُمَّ لاَ تَزَالُ تُنقَلُ مِنْ قَصْرٍ إِلَى قَصْرٍ وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ إِلَى أَنْ يُفْقَدَ ٱلْكَثِيرُ مِنهَا جُمْلَةً فَيَعُودُونَ إِلَى ٱلْبِدَاوَةِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱتِّخَاذِ ٱلطُّوبِ عِوَضاً عَنِ ٱلْحِجَارَةِ وَٱلْقُصُورِ عَنِ ٱلتَّنْمِيقِ بِٱلْكُلِّيَّةِ فَيَعُودُ بِنَاءُ ٱلْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ ٱلْقُرَى وَٱلْمَدَرِ وَتَظْهَرُ عَلَيْهَا سِيمَاءُ ٱلْبِدَاوَةِ ثُمَّ تَمُرُّ فِي ٱلتَّنَاقُصِ إِلَى غَايَتِهَا مِنَ ٱلْخَرَابِ إِنْ قُدِّرَ لَهَا بِهِ سُنَّةُ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ

الفصل الحادي عشر

في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لاهلها ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُرِفَ وَثَبَتَ أَنَّ ٱلْوَاحِدَ مِنَ ٱلْبَشَرِ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِتَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ وَأَنَّهُمْ مُتَعَاوِنُونَ جَمِيعاً فِي عُمْرَانِهِمْ عَلَى ذَٰلِكَ وَٱلْحَاجَةُ ٱلَّتِي تَحْصُلُ بِتَعَاوُنِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَشْتَدُّ ضَرُورَةُ ٱلْأَكْثَرِ مِنْ عَدَدِهِمْ أَضْعَافاً فَٱلْقُوتُ مِنَ ٱلْحِنْطَةِ مَثَلًا لاَ يَسْتَقِلُّ ٱلْوَاحِدُ بِتَحْصِيلِ حِصَّتِهِ مِنْهُ وَإِذَا ٱنْتَدَبَ لِتَحْصِيلِهِ ٱلسِّتَّةُ أَوِ ٱلْعَشَرَةُ مِن حَدَّادٍ وَنَجَّارٍ لِلْآلَاتِ وَقَائِمٍ عَلَى ٱلْبَقَرِ وَإِثَارَةِ ٱلْأَرْضِ وَحَصَادِ ٱلسُّنْبُلِ وَسَائِرِ مُؤَنِ ٱلْفَلْحِ وَتَوَزَّعُوا عَلَى تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ أَوِ ٱجْتَمَعُوا وَحَصَلَ بِعَمَلِهِمْ ذَٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْقُوتِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قُوتٌ لِأَضْعَافِهِمْ مَرَّاتٍ فَٱلْأَعْمَالُ بَعْدَ ٱلِاجْتِمَاعِ زَائِدَةٌ عَلَى حَاجَاتِ ٱلْعَامِلِينَ وَضَرُورَاتِهِمْ فَأَهْلُ مَدِينَةٍ أَوْ مِصْرٍ إِذَا وُزِّعَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عَلَى مِقْدَارِ ضَرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمُ ٱكْتُفِيَ فِيهَا بِٱلْأَقَلِّ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَبَقِيَتِ ٱلْأَعْمَالُ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى ٱلضَّرُورَاتِ فَتُصْرَفُ فِي حَالَاتِ ٱلتَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَيَسْتَجْلِبُونَهُ مِنْهُمْ بِأَعْوَاضِهِ وَقِيَمِهِ فَيَكُونُ لَهُمْ بِذَٰلِكَ حَظٌّ مِنَ ٱلْغِنَى وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْخَامِسِ فِي بَابِ ٱلْكَسْبِ وَٱلرِّزْقِ أَنَّ ٱلْمَكَاسِبَ إِنَّمَا هِيَ قِيَمُ ٱلْأَعْمَالِ فَإِذَا كَثُرَتِ ٱلْأَعْمَالُ كَثُرَتْ قِيَمُهَا بَيْنَهُمْ فَكَثُرَتْ مَكَاسِبُهُمْ ضَرُورَةً وَدَعَتْهُمْ أَحْوَالُ ٱلرَّفْهِ وَٱلْغِنَى إِلَى ٱلتَّرَفِ وَحَاجَاتِهِ مِنَ ٱلتَّأَنُّقِ فِي ٱلْمَسَاكِنِ وَٱلْمَلَابِسِ وَٱسْتِجَادَةِ ٱلْآنِيَةِ وَٱلْمَاعُونِ وَٱتِّخَاذِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْمَرَاكِبِ وَهَٰذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ تُسْتَدْعَى بِقِيَمِهَا وَيُخْتَارُ ٱلْمَهَرَةُ فِي صِنَاعَتِهَا وَٱلْقِيَامِ عَلَيْهَا فَتَنْفُقُ أَسْوَاقُ ٱلْأَعْمَالِ وَٱلصَّنَائِعِ وَيَكْثُرُ دَخْلُ ٱلْمِصْرِ

وَخَرْجُهُ وَيَحْصُلُ ٱلْيَسَارُ لِمُنْتَحِلِي ذٰلِكَ مِنْ قِبَلِ أَعْمَالِهِمْ وَمَتَى زَادَ ٱلْعُمْرَانُ زَادَتِ ٱلْأَعْمَالُ ثَانِيَةً ثُمَّ زَادَ ٱلتَّرَفُ تَابِعاً لِلْكَسْبِ وَزَادَتْ عَوَائِدُهُ وَحَاجَاتُهُ وَٱسْتُنْبِطَتِ ٱلصَّنَائِعُ لِتَحْصِيلِهَا فَزَادَتْ قِيَمُهَا وَتَضَاعَفَ ٱلْكَسْبُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِذٰلِكَ ثَانِيَةً وَنَفَقَتْ سُوقُ ٱلْأَعْمَالِ بِهَا أَكْثَرَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَكَذَا فِي ٱلزِّيَادَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَٱلثَّالِثَةِ لِأَنَّ ٱلْأَعْمَالَ ٱلزَّائِدَةَ كُلَّهَا تَخْتَصُّ بِٱلتَّرَفِ وَٱلْغِنَى بِخِلَافِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْأَصْلِيَّةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلْمَعَاشِ فَٱلْمِصْرُ إِذَا فَضَلَ بِعُمْرَانٍ وَاحِدٍ فَفَضْلُهُ بِزِيَادَةِ كَسْبٍ وَرَفْهٍ بِعَوَائِدَ مِنَ ٱلتَّرَفِ لَا تُوجَدُ فِي ٱلْآخَرِ فَمَا كَانَ عُمْرَانُهُ مِنَ ٱلْأَمْصَارِ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ كَانَ حَالُ أَهْلِهِ فِي ٱلتَّرَفِ أَبْلَغَ مِنْ حَالِ ٱلْمِصْرِ ٱلَّذِي دُونَهُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي ٱلْأَصْنَافِ ٱلْقَاضِي مَعَ ٱلْقَاضِي وَٱلتَّاجِرِ مَعَ ٱلتَّاجِرِ وَٱلصَّانِعِ مَعَ ٱلصَّانِعِ وَٱلسُّوقِيِّ مَعَ ٱلسُّوقِيِّ وَٱلْأَمِيرِ مَعَ ٱلْأَمِيرِ وَٱلشُّرَطِيِّ مَعَ ٱلشُّرَطِيِّ * وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَغْرِبِ مَثَلًا بِحَالِ فَاسَ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِهِ مِثْلِ بِجَايَةَ وَتِلِمْسَانَ وَسَبْتَةَ تَجِدْ بَيْنَهُمَا بَوْناً كَثِيراً عَلَى ٱلْجُمْلَةِ ثُمَّ عَلَى ٱلْخُصُوصِيَّاتِ فَحَالُ ٱلْقَاضِي بِفَاسَ أَوْسَعُ مِنْ حَالِ ٱلْقَاضِي بِتِلِمْسَانَ وَهٰكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفِ أَهْلِهِ وَكَذَا أَيْضاً حَالُ تِلِمْسَانَ مَعَ وَهْرَانَ أَوِ ٱلْجَزَائِرِ وَحَالُ وَهْرَانَ وَٱلْجَزَائِرِ مَعَ مَا دُونَهُمَا إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْمَدَرِ ٱلَّذِينَ ٱعْتِمَالُهُمْ فِي ضَرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فَقَطْ وَيُقَصِّرُونَ عَنْهَا وَمَا ذٰلِكَ إِلَّا لِتَفَاوُتِ ٱلْأَعْمَالِ فِيهَا فَكَأَنَّهَا كُلَّهَا أَسْوَاقٌ لِلْأَعْمَالِ وَٱلْخَرْجُ فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَى نِسْبَتِهِ فَٱلْقَاضِي بِفَاسَ دَخْلُهُ كِفَاءُ خَرْجِهِ وَكَذَا ٱلْقَاضِي بِتِلِمْسَانَ وَحَيْثُ ٱلدَّخْلُ وَٱلْخَرْجُ أَكْثَرُ تَكُونُ ٱلْأَحْوَالُ أَعْظَمَ وَهُمَا بِفَاسَ أَكْثَرُ لِنَفَاقِ سُوقِ ٱلْأَعْمَالِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ٱلتَّرَفُ فَٱلْأَحْوَالُ أَضْخَمُ ثُمَّ كَذَا حَالُ وَهْرَانَ وَقُسَنْطِينِيَّةَ وَٱلْجَزَائِرِ وَبِسْكَرَةَ حَتَّى تَنْتَهِيَ كَمَا قُلْنَاهُ إِلَى ٱلْأَمْصَارِ ٱلَّتِي لَا تُوَفِّي أَعْمَالُهَا بِضَرُورَاتِهَا وَلَا تُعَدُّ فِي ٱلْأَمْصَارِ إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ ٱلْقُرَى وَٱلْمَدَرِ فَلِذٰلِكَ تَجِدُ أَهْلَ هٰذِهِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلصَّغِيرَةِ ضُعَفَاءَ ٱلْأَحْوَالِ مُتَقَارِبِينَ فِي ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ لِمَا أَنَّ أَعْمَالَهُمْ لَا تَفِي بِضَرُورَاتِهِمْ وَلَا يَفْضُلُ مَا يَتَأَثَّلُونَهُ كَسْباً فَلَا تَنْمُو مَكَاسِبُهُمْ وَهُمْ لِذٰلِكَ مَسَاكِينُ مَحَاوِيجُ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ حَتَّى فِي أَحْوَالِ ٱلْفُقَرَاءِ وَٱلسُّؤَّالِ فَإِنَّ ٱلسَّائِلَ بِفَاسَ أَحْسَنُ حَالاً مِنَ ٱلسَّائِلِ بِتِلِمْسَانَ أَوْ وَهْرَانَ وَلَقَدْ شَاهَدْتُ بِفَاسَ ٱلسُّؤَّالَ يَسْأَلُونَ أَيَّامَ ٱلْأَضَاحِي أَثْمَانَ ضَحَايَاهُمْ وَرَأَيْتُهُمْ يَسْأَلُونَ كَثِيراً مِنْ أَحْوَالِ ٱلتَّرَفِ وَٱقْتِرَاحِ ٱلْمَآكِلِ مِثْلَ سُؤَالِ ٱللَّحْمِ وَٱلسَّمْنِ

وَمِلاجِ ٱلطَّبْخِ وَٱلمَلابِسِ وَٱلمَاعُونِ كَالغِرْبَالِ وَٱلآنِيَةِ وَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ مِثْلَ هٰذَا بِتِلْمِسَانَ أَوْ وَهْرَانَ لاَسْتُنْكِرَ وَعُنِّفَ وَزُجِرَ وَيَبْلُغُنَا لِهٰذَا ٱلعَهْدِ عَنْ أَحْوَالِ ٱلقَاهِرَةِ وَمِصْرَ مِنَ ٱلتَّرَفِ وَٱلغِنَى فِي عَوَائِدِهِمْ مَا يُقْضَى مِنْهُ ٱلعَجَبُ حَتَّى أَنَّ كَثِيراً مِنَ الفُقَرَاءِ بِٱلمَغْرِبِ يَنْزِعُونَ مِنَ ٱلنُّقْلَةِ إِلَى مِصْرَ لِذٰلِكَ وَلِمَا يَبْلُغُهُمْ مِنْ أَنَّ شَأْنَ ٱلرَّفَهِ بِمِصْرَ أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهَا وَيَعْتَقِدُ ٱلعَامَّةُ مِنَ ٱلنَّاسِ أَنَّ ذٰلِكَ لِزِيَادَةِ إِيثَارٍ فِي أَهْلِ تِلْكَ ٱلآفَاقِ عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْ أَمْوَالٍ مُخْتَزَنَةٍ لَدَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةً وَإِيثَاراً مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ ٱلأَمْصَارِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا تَعْرِفُهُ مِنْ أَنَّ عُمْرَانَ مِصْرَ وَٱلقَاهِرَةِ أَكْثَرُ مِنْ عُمْرَانِ هٰذِهِ ٱلأَمْصَارِ ٱلَّتِي لَدَيْكَ فَعَظُمَتْ لِذٰلِكَ أَحْوَالُهُمْ. وَأَمَّا حَالُ ٱلدَّخْلِ وَٱلخَرْجِ فَمُتَكَافِىءٌ فِي جَمِيعِ ٱلأَمْصَارِ وَمَتَى عَظُمَ ٱلدَّخْلُ عَظُمَ ٱلخَرْجُ وَبِٱلعَكْسِ وَمَتَى عَظُمَ ٱلدَّخْلُ وَٱلخَرْجُ ٱتَّسَعَتْ أَحْوَالُ ٱلسَّاكِنِ وَوَسِعَ ٱلمِصْرُ كُلُّ شَيْءٍ يُبْلِغُكَ مِنْ مِثْلِ هٰذَا فَلا تُنْكِرْهُ وَٱعْتَبِرْهُ بِكَثْرَةِ ٱلعُمْرَانِ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلمُكَاسَبَةِ ٱلَّتِي يَسْهُلُ بِسَبَبِهَا ٱلبَذْلُ وَٱلإِيثَارُ عَلَى مُبْتَغِيهِ وَمِثْلُهُ بِشَأْنِ ٱلحَيَوَانَاتِ ٱلعُجْمِ مَعَ بُيُوتِ ٱلمَدِينَةِ ٱلوَاحِدَةِ وَكَيْفَ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهَا فِي هِجْرَانِهَا أَوْ غِشْيَانِهَا فَإِنَّ بُيُوتَ أَهْلِ ٱلنِّعَمِ وَٱلثَّرْوَةِ وَٱلمَوَائِدِ ٱلخَصِبَةِ مِنْهَا تَكْثُرُ بِسَاحَتِهَا وَأَفْنِيَتِهَا بِنَثْرِ ٱلحُبُوبِ وَسَوَاقِطِ ٱلفُتَاتِ فَيَزْدَحِمُ عَلَيْهَا غَوَاشِي ٱلنَّمْلِ وَٱلخَشَاشِ وَيُحَلِّقُ فَوْقَهَا عَصَائِبُ ٱلطُّيُورِ حَتَّى تَرُوحَ بِطَاناً وَتَمْتَلِئَ شِبَعاً وَرِيًّا وَبُيُوتُ أَهْلِ ٱلخَصَاصَةِ وَٱلفُقَرَاءِ ٱلكَاسِدَةِ أَرْزَاقُهُمْ لا يَسْرِي بِسَاحَتِهَا دَبِيبٌ وَلا يُحَلِّقُ بِجَوِّهَا طَائِرٌ وَلا تَأْوِي إِلَى زَوَايَا بُيُوتِهِمْ فَأْرَةٌ وَلا هِرَّةٌ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ

تَسْقُطُ ٱلطَّيْرُ حَيْثُ تَلْتَقِطُ ٱلْحَبَّ م وَتُغْشَى مَنَازِلَ ٱلكُرَمَاءِ

فَتَأَمَّلْ سِرَّ ٱللهِ تَعَالَى فِي ذٰلِكَ وَٱعْتَبِرْ غَاشِيَةَ ٱلأَنَاسِيِّ بِغَاشِيَةِ ٱلعُجْمِ مِنَ ٱلحَيَوَانَاتِ وَفُتَاتِ ٱلمَوَائِدِ بِفَضَلاتِ ٱلرِّزْقِ وَٱلتَّرَفِ وَسُهُولَتِهَا عَلَى مَنْ يَبْذُلُهَا لِٱسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهَا فِي ٱلأَكْثَرِ لِوُجُودِ أَمْثَالِهَا لَدَيْهِمْ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱتِّسَاعَ ٱلأَحْوَالِ وَكَثْرَةَ ٱلنِّعَمِ فِي ٱلعُمْرَانِ تَابِعٌ لِكَثْرَتِهِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلعَالَمِينَ

الفصل الثاني عشر

في اسعار المدن

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلأَسْوَاقَ كُلَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى حَاجَاتِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهَا ٱلضَّرُورِيُّ وَهِيَ ٱلأَقْوَاتُ

مِنَ ٱلْحِنْطَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا . كَٱلْبَاقِلاءِ وَٱلْبَصَلِ وَٱلثُّومِ وَأَشْبَاهِهِ وَمِنْهَا ٱلْحَاجِيُّ وَٱلْكَمَالِي مِثْلُ ٱلْأُدْمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَٱلْمَلابِسِ وَٱلْمَاعُونِ وَٱلْمَرَاكِبِ وَسَائِرِ ٱلْمَصَانِعِ وَٱلْمَبَانِي فَإِذَا ٱسْتَبْحَرَ ٱلْمِصْرُ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ رَخُصَتْ أَسْعَارُ ٱلضَّرُورِيِّ مِنَ ٱلْقُوتِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَغَلَتْ أَسْعَارُ ٱلْكَمَالِيِّ مِنَ ٱلْأُدْمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَمَا يَتْبَعُهَا وَإِذَا قَلَّ سَاكِنُ ٱلْمِصْرِ وَضَعُفَ عُمْرَانُهُ كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ . وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُبُوبَ مِنْ ضَرُورَاتِ ٱلْقُوتِ فَتَتَوَفَّرُ ٱلدَّوَاعِي عَلَى ٱتِّخَاذِهَا إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لا يُهْمِلُ قُوتَ نَفْسِهِ وَلا قُوتَ مَنْزِلِهِ لِشَهْرِهِ أَوْ سَنَتِهِ فَيَعُمُّ ٱتِّخَاذُهَا أَهْلَ ٱلْمِصْرِ أَجْمَعَ أَوِ ٱلْأَكْثَرَ مِنْهُمْ فِي ذٰلِكَ ٱلْمِصْرِ أَوْ فِيمَا قَرُبَ مِنْهُ لا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ وَكُلُّ مُتَّخِذٍ لِقُوتِهِ فَتَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَضْلَةٌ كَبِيرَةٌ تَسُدُّ خَلَّةَ كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ ذٰلِكَ ٱلْمِصْرِ فَتَفْضُلُ ٱلْأَقْوَاتُ عَنْ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ فَتَرْخُصُ أَسْعَارُهَا فِي ٱلْغَالِبِ إِلَّا مَا يُصِيبُهَا فِي بَعْضِ ٱلسِّنِينَ مِنَ ٱلْآفَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ وَلَوْلا ٱحْتِكَارُ ٱلنَّاسِ لَهَا لِمَا يُتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ ٱلْآفَاتِ لَبُذِلَتْ دُونَ ثَمَنٍ وَلا عِوَضٍ لِكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ ٱلْعُمْرَانِ . وَأَمَّا سَائِرُ ٱلْمَرَافِقِ مِنَ ٱلْأُدْمِ وَٱلْفَوَاكِهِ وَمَا إِلَيْهَا فَإِنَّهَا لا تَعُمُّ بِهَا ٱلْبَلْوَى وَلا يَسْتَغْرِقُ ٱتِّخَاذُهَا أَعْمَالَ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ أَجْمَعِينَ وَلا ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ ثُمَّ إِنَّ ٱلْمِصْرَ إِذَا كَانَ مُسْتَبْحِراً مَوْفُورَ ٱلْعُمْرَانِ كَثِيرَ حَاجَاتِ ٱلتَّرَفِ تَوَفَّرَتْ حِينَئِذٍ ٱلدَّوَاعِي عَلَى طَلَبِ تِلْكَ ٱلْمَرَافِقِ وَٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنْهَا كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ فَيَقْصُرُ ٱلْمَوْجُودُ مِنْهَا عَلَى ٱلْحَاجَاتِ قُصُوراً بَالِغاً وَيَكْثُرُ ٱلْمُسْتَامُونَ لَهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي نَفْسِهَا فَتَزْدَحِمُ أَهْلُ ٱلْأَغْرَاضِ وَيَبْذُلُ أَهْلُ ٱلرَّفْهِ وَٱلتَّرَفِ أَثْمَانَهَا بِإِسْرَافٍ فِي ٱلْغَلاءِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَقَعُ فِيهَا ٱلْغَلاءُ كَمَا تَرَاهُ . وَأَمَّا ٱلصَّنَائِعُ وَٱلْأَعْمَالُ أَيْضاً فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمَوْفُورَةِ ٱلْعُمْرَانِ فَسَبَبُ ٱلْغَلاءِ فِيهَا أُمُورٌ ثَلاثَةٌ ٱلْأَوَّلُ كَثْرَةُ ٱلْحَاجَةِ لِمَكَانِ ٱلتَّرَفِ فِي ٱلْمِصْرِ بِكَثْرَةِ عُمْرَانِهِ وَٱلثَّانِي ٱعْتِزَازُ أَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ لِخِدْمَتِهِمْ وَٱمْتِهَانِ أَنْفُسِهِمْ لِسُهُولَةِ ٱلْمَعَاشِ فِي ٱلْمَدِينَةِ بِكَثْرَةِ أَقْوَاتِهَا وَٱلثَّالِثُ كَثْرَةُ ٱلْمُتْرَفِينَ وَكَثْرَةُ حَاجَاتِهِمْ إِلَى ٱمْتِهَانِ غَيْرِهِمْ وَإِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلصُّنَّاعِ فِي مِهَنِهِمْ فَيَبْذُلُونَ فِي ذٰلِكَ لِأَهْلِ ٱلْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِنْ قِيمَةِ أَعْمَالِهِمْ مُزَاحَمَةً وَمُنَافَسَةً فِي ٱلِٱسْتِئْثَارِ بِهَا فَيَعْتَزُّ ٱلْعُمَّالُ وَٱلصُّنَّاعُ وَأَهْلُ ٱلْحِرَفِ وَتَغْلُو أَعْمَالُهُمْ وَتَكْثُرُ نَفَقَاتُ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ فِي ذٰلِكَ . وَأَمَّا ٱلْأَمْصَارُ ٱلصَّغِيرَةُ وَٱلْقَلِيلَةُ ٱلسَّاكِنِ فَأَقْوَاتُهُمْ قَلِيلَةٌ لِقِلَّةِ ٱلْعَمَلِ فِيهَا وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ لِصِغَرِ مِصْرِهِمْ مِنْ عَدَمِ ٱلْقُوتِ

فَيَتَمَسَّكُونَ بِمَا يَحْصُلُ مِنْهُ فِي أَيْدِيهِمْ وَيَحْتَكِرُونَهُ فَيَعِزُّ وُجُودُهُ لَدَيْهِمْ وَيَغْلُو ثَمَنُهُ عَلَى مُسْتَامِهِ وَأَمَّا مَرَافِقُهُمْ فَلَا تَدْعُو إِلَيْهَا أَيْضاً حَاجَةٌ بِقِلَّةِ السَّاكِنِ وَضُعْفِ الْأَحْوَالِ فَلَا تَنْفُقُ لَدَيْهِمْ سُوقُهُ فَيَخْتَصُّ بِالرُّخْصِ فِي سِعْرِهِ وَقَدْ يَدْخُلُ أَيْضاً فِي قِيمَةِ الْأَقْوَاتِ قِيمَةُ مَا يَعْرِضُ عَلَيْهَا مِنَ الْمُكُوسِ وَالْمَغَارِمِ لِلسُّلْطَانِ فِي الْأَسْوَاقِ وَبِابِ الْحَفْرِ وَالْجِبَاةِ فِي مَنَافِعِ وُصُولِهَا عَنِ الْبُيُوعَاتِ لِمَا يَمَسُّهُمْ وَبِذَلِكَ كَانَتِ الْأَسْعَارُ فِي الْأَمْصَارِ أَغْلَى مِنَ الْأَسْعَارِ فِي الْبَادِيَةِ إِذِ الْمُكُوسُ وَالْمَغَارِمُ وَالْفَرَائِضُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِمْ أَوْ مَعْدُومَةٌ وَكَثْرَتُهَا فِي الْأَمْصَارِ لَاسِيَّمَا فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ تَدْخُلُ أَيْضاً فِي قِيمَةِ الْأَقْوَاتِ قِيمَةُ عِلَاجِهَا فِي الْفَلْحِ وَيُحَافِظُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَسْعَارِهَا كَمَا وَقَعَ بِالْأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا أَلْجَأَهُمُ النَّصَارَى إِلَى سِيفِ الْبَحْرِ وَبِلَادِهِ الْمُتَوَعِّرَةِ الْخَبِيثَةِ الزِّرَاعَةِ النَّكِدَةِ النَّبَاتِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمِ الْأَرْضَ الزَّكِيَّةَ وَالْبَلَدَ الطَّيِّبَ فَاحْتَاجُوا إِلَى عِلَاجِ الْمَزَارِعِ وَالْفُدُنِ لِإِصْلَاحِ نَبَاتِهَا وَفَلْحِهَا وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْعِلَاجُ بِأَعْمَالٍ ذَاتِ قِيَمٍ وَمَوَادَّ مِنَ الزِّبْلِ وَغَيْرِهِ لَهَا مَؤُونَةٌ وَصَارَتْ فِي فَلْحِهِمْ نَفَقَاتٌ لَهَا خَطَرٌ فَاعْتَبَرُوهَا فِي سِعْرِهِمْ وَاخْتَصَّ قُطْرُ الْأَنْدَلُسِ بِالْغَلَاءِ مُنْذُ أَضْطَرَّهُمُ النَّصَارَى إِلَى هَذَا الْمَعْمُورِ بِالْإِسْلَامِ مَعَ سَوَاحِلِهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ وَيَحْسِبُ النَّاسُ إِذَا سَمِعُوا بِغَلَاءِ الْأَسْعَارِ فِي قُطْرِهِمْ أَنَّهَا لِقِلَّةِ الْأَقْوَاتِ وَالْحُبُوبِ فِي أَرْضِهِمْ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَعْمُورِ فَلْحاً فِيمَا عَلِمْنَاهُ وَأَقْوَمُهُمْ عَلَيْهِ وَقَلَّ أَنْ يَخْلُوَ مِنْهُمْ سُلْطَانٌ أَوْ سُوقَةٌ عَنْ فَدَّانٍ أَوْ مَزْرَعَةٍ أَوْ فَلْحٍ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ أَهْلِ الصِّنَاعَاتِ وَالْمِهَنِ أَوِ الطُّرَّاءِ عَلَى الْوَطَنِ مِنَ الْغُزَاةِ الْمُجَاهِدِينَ وَلِهَذَا يَخْتَصُّهُمُ السُّلْطَانُ فِي عَطَائِهِمْ بِالْعُولَةِ وَهِيَ أَقْوَاتُهُمْ وَعُلُوفَاتُهُمْ مِنَ الزَّرْعِ وَإِنَّمَا السَّبَبُ فِي غَلَاءِ سِعْرِ الْحُبُوبِ عِنْدَهُمْ مَا ذَكَرْنَاهُ. وَلَمَّا كَانَتْ بِلَادُ الْبَرْبَرِ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فِي زَكَاءِ مَنَابِتِهِمْ وَطِيبِ أَرْضِهِمِ ارْتَفَعَتْ عَنْهُمُ الْمُؤَنُ جُمْلَةً فِي الْفَلْحِ مَعَ كَثْرَتِهِ وَعُمُومِهِ فَصَارَ ذَلِكَ سَبَباً لِرُخْصِ الْأَقْوَاتِ بِبَلَدِهِمْ وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

الفصل الثالث عشر

في قصور اهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمِصْرَ الْكَثِيرَ الْعُمْرَانِ يَكْثُرُ تَرَفُهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَتَكْثُرُ

حاجاتُ ساكنِهِ مِنْ أجلِ التَّرَفِ وتُعتادُ تلكَ الحاجاتُ لِما يَدعو إليها فتنقلبُ ضروراتٍ وتصيرُ فيهِ الأعمالُ كلُّها معَ ذلكَ عزيزةً والمرافقُ غاليةً بازدحامِ الأغراضِ عليها من أجلِ الترفِ وبالمغارمِ السلطانيةِ التي توضعُ على الأسواقِ والبياعاتِ وتُعتبرُ في قيمِ المبيعاتِ ويعظُمُ فيها الغلاءُ في المرافقِ والأقواتِ والأعمالِ فتكثرُ لذلكَ نفقاتُ ساكنِهِ كثرةً بالغةً على نسبةِ عمرانِهِ ويعظُمُ خرجُهُ فيحتاجُ حينئذٍ إلى المالِ الكثيرِ للنفقةِ على نفسِهِ وعيالِهِ في ضروراتِ عيشِهِم وسائرِ مؤونتِهِم والبدويُّ لم يكنْ دخلُهُ كثيراً ساكناً بمكانٍ كاسدِ الأسواقِ في الأعمالِ التي هي سببُ الكسبِ فلمْ يتأثّلْ كسباً ولا مالاً فيتعذّرُ عليهِ مِنْ أجلِ ذلكَ سكنى المصرِ الكبيرِ لغلاءِ مرافقِهِ وعزّةِ حاجاتِهِ وهوَ في بدوِهِ يسدُّ خلّتَهُ بأقلِّ الأعمالِ لأنّهُ قليلُ عوائدِ الترفِ في معاشِهِ وسائرِ مؤونتِهِ فلا يضطرُّ إلى المالِ وكلُّ من يتشوّفُ إلى المصرِ وسكناهُ من الباديةِ فسريعاً ما يظهرُ عجزُهُ ويفتضحُ في استيطانِهِ إلّا من يقدّمُ منهم تأثّلَ المالِ ويحصلُ لهُ منهُ فوقَ الحاجةِ ويجري إلى الغايةِ الطبيعيةِ لأهلِ العمرانِ من الدعةِ والترفِ فحينئذٍ ينتقلُ إلى المصرِ وينتظمُ حالُهُ معَ أحوالِ أهلِهِ في عوائدِهِم وترفِهِم وهكذا شأنُ بداءةِ عمرانِ الأمصارِ واللهُ بكلِّ شيءٍ محيطٌ

الفصل الرابع عشر

في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار

إعلمْ أنَّ ما توفّرَ عمرانُهُ من الأقطارِ وتعدّدتِ الأممُ في جهاتِهِ وكثُرَ ساكنُهُ اتّسعتْ أحوالُ أهلِهِ وكثُرتْ أموالُهُم وأمصارُهُم وعظُمتْ دولُهُم وممالكُهُم والسببُ في ذلكَ كلِّهِ ما ذكرناهُ من كثرةِ الأعمالِ وما سيأتي ذكرُهُ من أنّها سببُ للثروةِ بما يفضلُ عنها بعدَ الوفاءِ بالضروريّاتِ في حاجاتِ الساكنِ من الفضلةِ البالغةِ على مقدارِ العمرانِ وكثرتِهِ فيعودُ على الناسِ كسباً يتأثّلونَهُ حسبما نذكرُ ذلكَ في فصلِ المعاشِ وبيانِ الرزقِ والكسبِ فيتزيّدُ الرفهُ لذلكَ وتتّسعُ الأحوالُ ويجيءُ الترفُ والغنى وتكثرُ الجبايةُ للدولةِ بنفاقِ الأسواقِ فيكثرُ مالُها ويشمخُ سلطانُها وتتفنّنُ في اتخاذِ المعاقلِ والحصونِ واختطاطِ المدنِ وتشييدِ الأمصارِ . واعتبرْ ذلكَ بأقطارِ المشرقِ مثلَ مصرَ والشامِ وعراقِ العجمِ والهندِ والصينِ وناحيةِ الشمالِ كلِّها

وَأَقْطَارِهَا وَرَاءَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا كَيْفَ كَثُرَ ٱلْمَالُ فِيهِمْ وَعَظُمَتْ دَوْلَتُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ مُدُنُهُمْ وَحَوَاضِرُهُمْ وَعَظُمَتْ مَتَاجِرُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ فَالَّذِي نُشَاهِدُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مِنْ أَحْوَالِ تُجَّارِ ٱلْأُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ ٱلْوَارِدِينَ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ بِٱلْمَغْرِبِ فِي رَفْهِهِمْ وَٱتِّسَاعِ أَحْوَالِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ ٱلْوَصْفُ وَكَذَا تُجَّارُ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ ٱلْأَقْصَى مِنْ عِرَاقِ ٱلْعَجَمِ وَٱلْهِنْدِ وَٱلصِّينِ فَإِنَّهُ يَبْلُغُنَا عَنْهُمْ فِي بَابِ ٱلْغِنَى وَٱلرَّفْهِ غَرَائِبُ تَسِيرُ ٱلرُّكْبَانُ بِحَدِيثِهَا وَرُبَّمَا تُتَلَقَّى بِٱلْإِنْكَارِ فِي غَالِبِ ٱلْأَمْرِ وَيَحْسَبُ مَنْ يَسْمَعُهَا مِنَ ٱلْعَامَّةِ أَنَّ ذٰلِكَ لِزِيَادَةٍ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ لِأَنَّ ٱلْمَعَادِنَ ٱلذَّهَبِيَّةَ وَٱلْفِضِّيَّةَ أَكْثَرُ بِأَرْضِهِمْ أَوْ لِأَنَّ ذَهَبَ ٱلْأَقْدَمِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱسْتَأْثَرُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فَمَعْدِنُ ٱلذَّهَبِ ٱلَّذِي نَعْرِفُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقْطَارِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بِلَادِ ٱلسُّودَانِ وَهِيَ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ أَقْرَبُ وَجَمِيعُ مَا فِي أَرْضِهِمْ مِنَ ٱلْبِضَاعَةِ فَإِنَّمَا يَجْلُبُونَهُ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ لِلتِّجَارَةِ فَلَوْ كَانَ ٱلْمَالُ عَتِيداً مَوْفُوراً لَدَيْهِمْ لَمَا جَلَبُوا بَضَائِعَهُمْ إِلَى سِوَاهُمْ يَبْتَغُونَ بِهَا ٱلْأَمْوَالَ وَلَا ٱسْتَغْنَوْا عَنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْجُمْلَةِ . وَلَقَدْ ذَهَبَ ٱلْمُنَجِّمُونَ لَمَّا رَأَوْا مِثْلَ ذٰلِكَ وَٱسْتَغْرَبُوا مَا فِي ٱلْمَشْرِقِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱتِّسَاعِهَا وَوُفُورِ أَمْوَالِهَا فَقَالُوا بِأَنَّ عَطَايَا ٱلْكَوَاكِبِ وَٱلسِّهَامِ فِي مَوَالِيدِ ٱلْمَشْرِقِ أَكْثَرُ مِنْهَا حِصَصاً فِي مَوَالِيدِ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَذٰلِكَ صَحِيحٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْأَحْكَامِ ٱلنُّجُومِيَّةِ وَٱلْأَحْوَالِ ٱلْأَرْضِيَّةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهُمْ إِنَّمَا أَعْطَوْا فِي ذٰلِكَ ٱلسَّبَبَ ٱلنُّجُومِيَّ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْطُوا ٱلسَّبَبَ ٱلْأَرْضِيَّ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْعُمْرَانِ وَٱخْتِصَاصِهِ بِأَرْضِ ٱلْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ وَكَثْرَةُ ٱلْعُمْرَانِ تُفِيدُ كَثْرَةَ ٱلْكَسْبِ بِكَثْرَةِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ سَبَبُهُ فَلِذٰلِكَ ٱخْتَصَّ ٱلْمَشْرِقُ بِٱلرَّفْهِ مِنْ بَيْنِ ٱلْآفَاقِ لَا إِنَّ ذٰلِكَ لِمُجَرَّدِ ٱلْأَثَرِ ٱلنُّجُومِيِّ فَقَدْ فَهِمْتَ مِمَّا أَشَرْنَا لَكَ أَوَّلاً أَنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ بِذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ بَيْنَ حُكْمِهِ وَعُمْرَانِ ٱلْأَرْضِ وَطَبِيعَتِهَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ .

وَٱعْتَبِرْ حَالَ هٰذَا ٱلرَّفْهِ مِنَ ٱلْعُمْرَانِ فِي قُطْرِ أَفْرِيقِيَّةَ وَبَرْقَةَ لَمَّا خَفَّ سَكْنُهَا وَتَنَاقَصَ عُمْرَانُهَا كَيْفَ تَلَاشَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهَا وَٱنْتَهَوْا إِلَى ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ وَضَعُفَتْ جِبَايَاتُهَا فَقَلَّتْ أَمْوَالُ دُوَلِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دُوَلُ ٱلشِّيعَةِ وَصِنْهَاجَةَ بِهَا عَلَى مَا بَلَغَكَ مِنَ ٱلرَّفْهِ وَكَثْرَةِ ٱلْجِبَايَاتِ وَٱتِّسَاعِ ٱلْأَحْوَالِ فِي نَفَقَاتِهِمْ وَأَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى لَقَدْ كَانَتِ ٱلْأَمْوَالُ تُرْفَعُ مِنَ ٱلْقَيْرَوَانِ إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ لِحَاجَاتِهِ وَمُهِمَّاتِهِ وَكَانَتْ أَمْوَالُ ٱلدَّوْلَةِ بِحَيْثُ حَمَلَ

جوهَرُ ٱلكَاتِبُ في سَفَرِهِ إلى فَتحِ مِصْرَ أَلفَ حِمْلٍ مِنَ ٱلمَالِ يَستَعِدُّ بِهَا لأَرزَاقِ ٱلجُنودِ وَأَعطِيَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِ ٱلغُزَاةِ وَقُطرُ ٱلمَغربِ وَإِنْ كَانَ في ٱلقَدِيمِ دُونَ أَفريقِيَّةَ فلَمْ يَكُنْ بِٱلقَلِيلِ في ذٰلِكَ وَكَانَتْ أَحوَالُهُ في دُوَلِ ٱلمُوَحِّدِينَ مُتَّسِعَةً وَجِبَايَاتُهُ مَوفُورَةً وَهُوَ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ قَدْ أَقصَرَ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِ ٱلعُمْرَانِ فِيهِ وَتَنَاقُصِهِ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمرَانِ ٱلبَرْبَرِ فِيهِ أَكْثَرُهُ وَنَقَصَ عَنْ مَعهُودِهِ نَقْصاً ظَاهِراً مَحسُوساً وَكَادَ أَنْ يَلحَقَ في أَحوَالِهِ بِمِثْلِ أَحوَالِ أَفريقِيَّةَ بَعدَ أَنْ كَانَ عُمرَانُهُ مُتَّصِلاً مِنَ ٱلبَحرِ ٱلرُّومِيِّ إلى بِلادِ ٱلسُّودَانِ في طُولِ مَا بَيْنَ ٱلسُّوسِ ٱلأَقصَى وَبَرْقَةَ وَهِيَ ٱليَوْمَ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا قِفَارٌ وَخَلاءٌ وَصَحَارَى إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا بِسِيفِ ٱلبَحْرِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ مِنَ ٱلتُّلُولِ وَٱللهُ وَارِثُ ٱلأَرْضِ وَمَنْ عَلَيهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلوَارِثِينَ

الفصل الخامس عشر

في تأثل العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها

إِعلَمْ أَنَّ تَأَثُّلَ ٱلعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ ٱلكَثِيرَةِ لِأَهلِ ٱلأَمصَارِ وَٱلمُدُنِ لا يَكُونُ دَفْعَةً وَاحِدَةً وَلا في عَصرٍ وَاحِدٍ إِذْ لَيسَ يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنهُمْ مِنَ ٱلثَّروَةِ مَا يَملِكُ بِهِ ٱلأَملاكَ ٱلَّتِي تَخرُجُ قِيمَتُهَا عَنِ ٱلحَدِّ وَلَوْ بَلَغَتْ أَحوَالُهُمْ في ٱلرَّفْهِ مَا عَسَى أَنْ تَبلُغَ وَإِنَّمَا يَكُونُ مِلْكُهُمْ وَتَأَثُّلُهُمْ لَهَا تَدرِيجاً إِمَّا بِٱلوِرَاثَةِ مِنْ آبَائِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ حَتَّى تَتَأَدَّى أَملاكُ ٱلكَثِيرِينَ مِنهُمْ إِلى ٱلوَاحِدِ وَأَكْثَرَ لِذٰلِكَ أَوْ أَنْ يَكُونَ بِحَوَالَةِ ٱلأَسوَاقِ فَإِنَّ ٱلعَقَارَ في آخِرِ ٱلدَّولَةِ وَأَوَّلِ ٱلأُخرَى عِندَ فَنَاءِ ٱلحَامِيَةِ وَخَرْقِ ٱلسِّيَاجِ وَتَدَاعِي ٱلمِصْرِ إِلى ٱلخَرَابِ تَقِلُّ ٱلغِبطَةُ بِهِ لِقِلَّةِ ٱلمَنفَعَةِ فِيهَا بِتَلاشِي ٱلأَحوَالِ فَتَرْخُصُ قِيَمُهَا وَتُتَمَلَّكُ بِٱلأَثمَانِ ٱليَسِيرَةِ وَتَتَخَطَّى بِٱلمِيرَاثِ إِلى مُلْكٍ آخَرَ وَقَدِ ٱستَجَدَّ ٱلمِصْرُ شَبَابَهُ بِٱستِفحَالِ ٱلدَّولَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَٱنتَظَمَتْ لَهُ أَحوَالٌ رَائِقَةٌ حَسَنَةٌ تَحصُلُ مَعَهَا ٱلغِبطَةُ في ٱلعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا حِينَئِذٍ فَتَعظُمُ قِيَمُهَا وَيَكُونُ لَهَا خَطَرٌ لَمْ يَكُنْ في ٱلأَوَّلِ وَهٰذَا مَعنَى ٱلحَوَالَةِ فِيهَا وَيُصبِحُ مَالِكُهَا مِنْ أَغنَى أَهلِ ٱلمِصْرِ وَلَيسَ ذٰلِكَ بِسَعيِهِ وَٱكتِسَابِهِ إِذْ قُدرَتُهُ تَعجِزُ عَنْ مِثْلِ ذٰلِكَ . وَأَمَّا فَوَائِدُ ٱلعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ فَهِيَ غَيرُ كَافِيَةٍ لِمَالِكِهَا في حَاجَاتِ مَعَاشِهِ إِذْ هِيَ لا تَفِي بِعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَأَسبَابِهِ وَإِنَّمَا هِيَ في ٱلغَالِبِ لِسَدِّ ٱلخَلَّةِ وَضَرُورَةِ ٱلمَعَاشِ وَٱلَّذِي سَمِعنَاهُ مِنْ مَشْيَخَةِ ٱلبُلْدَانِ أَنَّ ٱلقَصْدَ بِٱقتِنَاءِ ٱلمُلْكِ مِنَ ٱلعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ

إِنَّمَا هُوَ ٱلْخَشْيَةُ عَلَى مَنْ يَتْرُكُ خَلْفَهُ مِنَ ٱلذُّرِّيَّةِ ٱلضُّعَفَاءِ لِيَكُونَ مَرْبَاهُمْ بِهِ وَرِزْقُهُ فِيهِ وَنُشُوؤُهُمْ بِفَائِدَتِهِ مَا دَامُوا عَاجِزِينَ عَنِ ٱلِاكْتِسَابِ فَإِذَا ٱقْتَدَرُوا عَلَى تَحْصِيلِ ٱلْمَكَاسِبِ سَعَوا فِيهَا بِأَنْفُسِهِمْ وَرُبَّمَا يَكُونُ مِنَ ٱلْوُلْدِ مَنْ يَعْجِزُ عَنِ ٱلتَّكَسُّبِ لِضُعْفٍ فِي بَدَنِهِ أَوْ آفَةٍ فِي عَقْلِهِ ٱلْمَعَاشِيِّ فَيَكُونُ ذَلِكَ ٱلْعَقَارُ قِوَاماً لِحَالِهِ هٰذَا قَصْدُ ٱلْمُتْرَفِينَ فِي ٱقْتِنَائِهِ وَأَمَّا ٱلتَّمَوُّلُ مِنْهُ وَإِجْرَاءُ أَحْوَالِ ٱلْمُتْرَفِينَ فَلا وَقَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ مِنْهُ لِلْقَلِيلِ أَوِ ٱلنَّادِرِ بِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ وَحُصُولِ ٱلْكَثْرَةِ ٱلْبَالِغَةِ مِنْهُ وَٱلْعَالِي فِي جِنْسِهِ وَقِيمَتِهِ فِي ٱلْمِصْرِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ رُبَّمَا ٱمْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَعْيُنُ ٱلْأُمَرَاءِ وَٱلْوُلَاةِ وَٱغْتَصَبُوهُ فِي ٱلْغَالِبِ أَوْ أَرَادُوهُ عَلَى بَيْعِهِ مِنْهُمْ وَنَالَتْ أَصْحَابَهُ مِنْهُ مَضَارُّ وَمَعَاطِبُ وَٱللّٰهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ

الفصل السادس عشر

في حاجات المتمولين من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة

وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْحَضَرِيَّ إِذَا عَظُمَ تَمَوُّلُهُ وَكَثُرَ لِلْعَقَارِ وَٱلضِّيَاعِ تَأَثُّلُهُ وَأَصْبَحَ أَغْنَى أَهْلِ ٱلْمِصْرِ وَرَمَقَتْهُ ٱلْعُيُونُ بِذَلِكَ وَٱنْفَسَحَتْ أَحْوَالُهُ فِي ٱلتَّرَفِ وَٱلْعَوَائِدِ زَاحَمَ عَلَيْهَا ٱلْأُمَرَاءَ وَٱلْمُلُوكَ وَغَصُّوا بِهِ وَلِمَا فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلْعُدْوَانِ تَمْتَدُّ أَعْيُنُهُمْ إِلَى تَمَلُّكِ مَا بِيَدِهِ وَيُنَافِسُونَهُ فِيهِ وَيَتَحَيَّلُونَ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ حَتَّى يُحَصِّلُوهُ فِي رِبْقَةِ حُكْمٍ سُلْطَانِيٍّ وَسَبَبٍ مِنَ ٱلْمُؤَاخَذَةِ ظَاهِرٍ يُنْتَزَعُ بِهِ مَالُهُ وَأَكْثَرُ ٱلْأَحْكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ جَائِرَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ إِذِ ٱلْعَدْلُ ٱلْمَحْضُ إِنَّمَا هُوَ فِي ٱلْخِلَافَةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَهِيَ قَلِيلَةُ ٱللُّبْثِ قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَعُودُ مُلْكاً عَضُوضاً فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ لِصَاحِبِ ٱلْمَالِ وَٱلثَّرْوَةِ ٱلشَّهِيرَةِ فِي ٱلْعُمْرَانِ مِنْ حَامِيَةٍ تَذُودُ عَنْهُ وَجَاهٍ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ لِلْمَلِكِ أَوْ خَالِصَةٍ لَهُ أَوْ عَصَبِيَّةٍ يَتَحَامَاهَا ٱلسُّلْطَانُ فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَرْتَعُ فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ ٱلتَّعَدِّي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ أَصْبَحَ نَهْباً بِوُجُوهِ ٱلتَّحَيُّلَاتِ وَأَسْبَابِ ٱلْحُكَّامِ وَٱللّٰهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل السابع عشر

في ان الحضارة في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ هِيَ أَحْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِ

ٱلْعُمْرَانِ زِيَادَةً تَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِ ٱلرَّفْهِ وَتَفَاوُتِ ٱلْأُمَمِ فِي ٱلْقِلَّةِ وَٱلْكَثْرَةِ تَفَاوُتاً غَيْرَ مُنْحَصِرٍ وَتَقَعُ فِيهَا عِنْدَ كَثْرَةِ ٱلتَّفَنُّنِ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ ٱلصَّنَائِعِ وَيَحْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى ٱلْقَوْمَةِ عَلَيْهِ وَٱلْمَهَرَةِ فِيهِ وَبِقَدْرِ مَا يَتَزَيَّدُ مِنْ أَصْنَافِهَا تَتَزَيَّدُ أَهْلُ صِنَاعَتِهَا وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ ٱلْجِيلُ بِهَا وَمَتَى ٱتَّصَلَتِ ٱلْأَيَّامُ وَتَعَاقَبَتْ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَاتُ حَذَقَ أُولَئِكَ ٱلصُّنَّاعُ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَعْرِفَتِهَا وَٱلْأَعْصَارُ بِطُولِهَا وَٱنْفِسَاحِ أَمَدِهَا وَتَكْرِيرِ أَمْثَالِهَا تَزِيدُهَا ٱسْتِحْكَاماً وَرُسُوخاً وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي ٱلْأَمْصَارِ لِٱسْتِبْحَارِ ٱلْعُمْرَانِ وَكَثْرَةِ ٱلرَّفْهِ فِي أَهْلِهَا وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ ٱلدَّوْلَةِ لِأَنَّ ٱلدَّوْلَةَ تَجْمَعُ أَمْوَالَ ٱلرَّعِيَّةِ وَتُنْفِقُهَا فِي بِطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا وَتَتَّسِعُ أَحْوَالُهُمْ بِٱلْجَاهِ أَكْثَرَ مِنِ ٱتِّسَاعِهَا بِٱلْمَالِ فَيَكُونُ دَخْلُ تِلْكَ ٱلْأَمْوَالِ مِنَ ٱلرَّعَايَا وَخَرْجُهَا فِي أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ثُمَّ فِي مَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ وَهُمُ ٱلْأَكْثَرُ فَتَعْظُمُ لِذَلِكَ ثَرْوَتُهُمْ وَيَكْثُرُ غِنَاهُمْ وَتَتَزَيَّدُ عَوَائِدُ ٱلتَّرَفِ وَمَذَاهِبُهُ وَتَسْتَحْكِمُ لَدَيْهِمُ ٱلصَّنَائِعُ فِي سَائِرِ فُنُونِهِ وَهَذِهِ هِيَ ٱلْحَضَارَةُ .

وَلِهَذَا تَجِدُ ٱلْأَمْصَارَ ٱلَّتِي فِي ٱلْقَاصِيَةِ وَلَوْ كَانَتْ مَوْفُورَةَ ٱلْعُمْرَانِ تَغْلِبُ عَلَيْهَا أَحْوَالُ ٱلْبَدَاوَةِ وَتَبْعُدُ عَنِ ٱلْحَضَارَةِ فِي جَمِيعِ مَذَاهِبِهَا بِخِلَافِ ٱلْمُدُنِ ٱلْمُتَوَسِّطَةِ فِي ٱلْأَقْطَارِ ٱلَّتِي هِيَ مَرْكَزُ ٱلدَّوْلَةِ وَمَقَرُّهَا وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمُجَاوَرَةِ ٱلسُّلْطَانِ لَهُمْ وَفَيْضِ أَمْوَالِهِ فِيهِمْ كَٱلْمَاءِ يَخْضَرُّ مَا قَرُبَ مِنْهُ فَمَا قَرُبَ مِنَ ٱلْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْجُفُوفِ عَلَى ٱلْبُعْدِ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلسُّلْطَانَ وَٱلدَّوْلَةَ سُوقٌ لِلْعَالَمِ فَٱلْبَضَائِعُ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلسُّوقِ وَمَا قَرُبَ مِنْهُ وَإِذَا أَبْعَدَتْ عَنِ ٱلسُّوقِ ٱفْتُقِدَتِ ٱلْبَضَائِعُ جُمْلَةً ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا ٱتَّصَلَتْ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةُ وَتَعَاقَبَ مُلُوكُهَا فِي ذَلِكَ ٱلْمِصْرِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلْحَضَارَةُ فِيهِمْ وَزَادَتْ رُسُوخاً وَٱعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي ٱلْيَهُودِ لَمَّا طَالَ مُلْكُهُمْ بِٱلشَّامِ نَحْواً مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ رَسَخَتْ حَضَارَتُهُمْ وَحَذَقُوا فِي أَحْوَالِ ٱلْمَعَاشِ وَعَوَائِدِهِ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي صِنَاعَاتِهِ مِنَ ٱلْمَطَاعِمِ وَٱلْمَلَابِسِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ ٱلْمَنْزِلِ حَتَّى إِنَّهَا لَتُؤْخَذُ عَنْهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ إِلَى ٱلْيَوْمِ وَرَسَخَتِ ٱلْحَضَارَةُ أَيْضاً وَعَوَائِدُهَا فِي ٱلشَّامِ مِنْهُمْ وَمِنْ دَوْلَةِ ٱلرُّومِ بَعْدَهُمْ سِتَّمِائَةِ سَنَةٍ فَكَانُوا فِي غَايَةِ ٱلْحَضَارَةِ . وَكَذَلِكَ أَيْضاً ٱلْقِبْطُ دَامَ مُلْكُهُمْ فِي ٱلْخَلِيقَةِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ فَرَسَخَتْ عَوَائِدُ ٱلْحَضَارَةِ فِي بَلَدِهِمْ مِصْرَ وَأَعْقَبَهُمْ بِهَا مُلْكُ ٱلْيُونَانِ وَٱلرُّومِ ثُمَّ مُلْكُ ٱلْإِسْلَامِ ٱلنَّاسِخُ لِلْكُلِّ فَلَمْ تَزَلْ عَوَائِدُ ٱلْحَضَارَةِ بِهَا مُتَّصِلَةً وَكَذَلِكَ أَيْضاً رَسَخَتْ

عوائدُ الحضارةِ باليمنِ لاتّصالِ دولةِ العربِ بها منذُ عهدِ العمالقةِ والتبابعةِ آلافاً من السنينَ وأعقبهم مُلكُ مضرَ وكذلكَ الحضارةُ بالعراقِ لاتّصالِ دولةِ النبطِ والفرسِ بها من لدنِ الكلدانيّينَ والكيانيّةِ والكسرويّةِ والعربِ بعدهم آلافاً من السنينَ فلم يكنْ على وجهِ الأرضِ لهذا العهدِ أحضرَ من أهلِ الشامِ والعراقِ ومصرَ وكذا أيضاً رسختْ عوائدُ الحضارةِ واستحكمتْ بالأندلسِ لاتّصالِ الدولةِ العظيمةِ فيها للقوطِ ثمّ ما أعقبها من مُلكِ بني أميّةَ آلافاً من السنينَ وكلتا الدولتينِ عظيمةٌ فاتّصلتْ فيها عوائدُ الحضارةِ واستحكمتْ. وأمّا أفريقيّةُ والمغربُ فلم يكنْ بها قبلَ الإسلامِ ملكٌ ضخمٌ إنّما قطعَ الإفرنجةُ إلى أفريقيّةَ البحرَ وملكوا الساحلَ وكانتْ طاعةُ البربرِ أهلِ الضاحيةِ لهم طاعةً غيرَ مستحكمةٍ فكانوا على قلعةٍ وأوفازٍ وأهلُ المغربِ لم تجاورْهم دولةٌ وإنّما كانوا يبعثونَ بطاعتِهم إلى القوطِ من وراءِ البحرِ ولمّا جاءَ اللهُ بالإسلامِ وملكَ العربُ أفريقيّةَ والمغربَ لم يلبثْ فيهم مُلكُ العربِ إلّا قليلاً أوّلَ الإسلامِ وكانوا لذلكَ العهدِ في طورِ البداوةِ ومن استقرَّ منهم بأفريقيّةَ والمغربِ لم يجدْ بهما من الحضارةِ ما يقلّدُ فيهِ من سلفهُ إذ كانوا برابرَ منغمسينَ في البداوةِ ثمّ انتقضَ برابرةُ المغربِ الأقصى لأقربِ العهودِ على يدِ ميسرةَ المطغريِّ أيّامَ هشامِ ابنِ عبدِ الملكِ ولم يراجعوا أمرَ العربِ بعدُ واستقلّوا بأمرِ أنفسِهم وإنْ بايعوا لإدريسَ فلا تعدُّ دولتُهُ فيهم عربيةً لأنَّ البرابرَ هُمُ الذينَ تولّوها ولم يكنْ منَ العربِ فيها كثيرُ عددٍ وبقيتْ أفريقيّةُ للأغالبةِ ومن إليهم منَ العربِ فكانَ لهم منَ الحضارةِ بعضُ الشيءِ بما حصلَ لهم من ترفِ الملكِ ونعيمهِ وكثرةِ عمرانِ القيروانِ وورثَ ذلكَ عنهم كتامةُ ثمّ صنهاجةُ من بعدِهم وذلكَ كلّهُ قليلٌ لم يبلغْ أربعمائةِ سنةٍ وانصرمتْ دولتُهم واستحالتْ صبغةُ الحضارةِ بما كانتْ غيرَ مستحكمةٍ وتغلّبَ بدوُ العربِ الهلاليّينَ عليها وخرّبوها وبقيَ أثرٌ خفيٌّ من حضارةِ العمرانِ فيها وإلى هذا العهدِ يونسُ فيمن سلفَ لهُ بالقلعةِ أو القيروانِ أو المهديّةِ سلفٌ فتجدُ لهُ منَ الحضارةِ في شؤونِ منزلهِ وعوائدِ أحوالهِ آثاراً ملتبسةً بغيرِها يميّزُها الحضريُّ البصيرُ بها وكذا في أكثرِ أمصارِ أفريقيّةَ وليسَ كذلكَ في المغربِ وأمصارهِ لرسوخِ الدولةِ بأفريقيّةَ أكثرَ أمداً منذُ عهدِ الأغالبةِ والشيعةِ وصنهاجةَ وأمّا المغربُ فانتقلَ إليهِ منذُ دولةِ

ٱلْمُوَحِّدِينَ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ حَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱسْتَحْكَمَتْ بِهِ عَوَائِدُهَا بِمَا كَانَ لِدَوْلَتِهِمْ مِنَ ٱلِاسْتِيلَاءِ عَلَى بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱنْتَقَلَ ٱلْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِهَا إِلَيْهِمْ طَوْعاً وَكُرْهاً وَكَانَتْ مِنِ ٱتِّسَاعِ ٱلنِّطَاقِ مَا عَلِمْتَ فَكَانَ فِيهَا حَظٌّ صَالِحٌ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱسْتِحْكَامِهَا وَمُعْظَمُهَا مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ أَهْلُ شَرْقِ ٱلْأَنْدَلُسِ عِنْدَ جَالِيَةِ ٱلنَّصَارَى إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ فَأَبْقَوْا فِيهَا وَبِأَمْصَارِهَا مِنَ ٱلْحَضَارَةِ آثَاراً وَمُعْظَمُهَا بِتُونِسَ ٱمْتَزَجَتْ بِحَضَارَةِ مِصْرَ وَمَا يَنْقُلُهُ ٱلْمُسَافِرُونَ مِنْ عَوَائِدِهَا فَكَانَ بِذَلِكَ لِلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ حَظٌّ صَالِحٌ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ عَفَى عَلَيْهِ ٱلْخَلَاءُ وَرَجَعَ إِلَى أَعْقَابِهِ وَعَادَ ٱلْبَرْبَرُ بِٱلْمَغْرِبِ إِلَى أَدْيَانِهِمْ مِنَ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلْخُشُونَةِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَآثَارُ ٱلْحَضَارَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ أَكْثَرُ مِنْهَا بِٱلْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ لِمَا تَدَاوَلَ فِيهَا مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلسَّالِفَةِ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ وَلِقُرْبِ عَوَائِدِهِمْ مِنْ عَوَائِدِ أَهْلِ مِصْرَ بِكَثْرَةِ ٱلْمُتَرَدِّدِينَ بَيْنَهُمْ . فَتَفَطَّنْ لِهَذَا ٱلسِّرِّ فَإِنَّهُ خَفِيٌّ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱعْلَمْ أَنَّهَا أُمُورٌ مُتَنَاسِبَةٌ وَهِيَ حَالُ ٱلدَّوْلَةِ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ وَكَثْرَةِ ٱلْأُمَّةِ أَوِ ٱلْجِيلِ وَعِظَمِ ٱلْمَدِينَةِ أَوِ ٱلْمِصْرِ وَكَثْرَةِ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلْيَسَارِ وَذَلِكَ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ وَٱلْمُلْكَ صُورَةُ ٱلْخَلِيقَةِ وَٱلْعُمْرَانِ وَكُلُّهَا مَادَّةٌ لَهَا مِنَ ٱلرَّعَايَا وَٱلْأَمْصَارِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَأَمْوَالُ ٱلْجِبَايَةِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ وَيَسَارُهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ وَإِذَا أَفَاضَ ٱلسُّلْطَانُ عَطَاءَهُ وَأَمْوَالَهُ فِي أَهْلِهَا ٱنْبَثَّتْ فِيهِمْ وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ ثُمَّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ فَهِيَ ذَاهِبَةٌ عَنْهُمْ فِي ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْخَرَاجِ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي ٱلْعَطَاءِ فَعَلَى نِسْبَةِ حَالِ ٱلدَّوْلَةِ يَكُونُ يَسَارُ ٱلرَّعَايَا وَعَلَى نِسْبَةِ يَسَارِ ٱلرَّعَايَا وَكَثْرَتِهِمْ يَكُونُ مَالُ ٱلدَّوْلَةِ وَأَصْلُهُ كُلُّهُ ٱلْعُمْرَانُ وَكَثْرَتُهُ فَٱعْتَبِرْهُ وَتَأَمَّلْهُ فِي ٱلدُّوَلِ تَجِدْهُ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ

الفصل الثامن عشر

في ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده

قَدْ بَيَّنَّا لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ ٱلْمُلْكَ وَٱلدَّوْلَةَ غَايَةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّ ٱلْحَضَارَةَ غَايَةٌ لِلْبِدَاوَةِ وَأَنَّ ٱلْعُمْرَانَ كُلَّهُ مِنْ بِدَاوَةٍ وَحِضَارَةٍ وَمُلْكٍ وَسُوقَةٍ لَهُ عُمْرٌ مَحْسُوسٌ كَمَا أَنَّ لِلشَّخْصِ ٱلْوَاحِدِ مِنْ أَشْخَاصِ ٱلْمُكَوَّنَاتِ عُمْراً مَحْسُوساً وَتَبَيَّنَ فِي ٱلْمَعْقُولِ وَٱلْمَنْقُولِ أَنَّ ٱلْأَرْبَعِينَ لِلْإِنْسَانِ غَايَةٌ فِي تَزَايُدِ قُوَاهُ وَنُمُوِّهَا وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ سِنَّ ٱلْأَرْبَعِينَ وَقَفَتِ ٱلطَّبِيعَةُ عَنْ أَثَرِ ٱلنُّشُوءِ وَٱلنُّمُوِّ بُرْهَةً ثُمَّ تَأْخُذُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي ٱلِانْحِطَاطِ فَلْتَعْلَمْ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ فِي ٱلْعُمْرَانِ أَيْضاً

كذٰلكَ لِأَنَّهُ غَايَةٌ لاَ مَزِيدَ وَرَاءَهَا وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلتَّرَفَ وَٱلنِّعْمَةَ إِذَا حَصَلاَ لِأَهْلِ ٱلعُمْرَانِ دَعَاهُمْ بِطَبْعِهِ إِلَى مَذَاهِبِ ٱلحَضَارَةِ وَٱلتَّخَلُّقِ بِعَوَائِدِهَا وَٱلحَضَارَةُ كَمَا عَلِمْتَ هِيَ ٱلتَّفَنُّنُ فِي ٱلتَّرَفِ وَٱسْتِجَادَةِ أَحْوَالِهِ وَٱلكَلَفُ بِٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي تُؤَنِّقُ مِنْ أَصْنَافِهِ وَسَائِرِ فُنُونِهِ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلمُهَيِّئَةِ لِلْمَطَابِخِ أَوِ ٱلمَلاَبِسِ أَوِ ٱلمَبَانِي أَوِ ٱلفُرُشِ أَوِ ٱلآنِيَةِ وَلِسَائِرِ أَحْوَالِ ٱلمَنْزِلِ وَلِلتَّأَنُّقِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ صَنَائِعُ كَثِيرَةٌ لاَ يُحْتَاجُ إِلَيْهَا عِنْدَ ٱلبِدَاوَةِ وَعَدَمِ ٱلتَّأَنُّقِ فِيهَا وَإِذَا بَلَغَ ٱلتَّأَنُّقُ فِي هٰذِهِ ٱلأَحْوَالِ ٱلمَنْزِلِيَّةِ ٱلغَايَةَ تَبِعَهُ طَاعَةُ ٱلشَّهَوَاتِ فَتَتَلَوَّنُ ٱلنَّفْسُ مِنْ تِلْكَ ٱلعَوَائِدِ بِأَلْوَانٍ كَثِيرَةٍ لاَ يَسْتَقِيمُ حَالُهَا مَعَهَا فِي دِينِهَا وَلاَ دُنْيَاهَا أَمَّا دِينُهَا فَلِٱسْتِحْكَامِ صِبْغَةِ ٱلعَوَائِدِ ٱلَّتِي يَعْسُرُ نَزْعُهَا وَأَمَّا دُنْيَاهَا فَلِكَثْرَةِ ٱلحَاجَاتِ وَٱلمُؤْنَاتِ ٱلَّتِي تُطَالِبُ بِهَا ٱلعَوَائِدُ وَيَعْجِزُ ٱلكَسْبُ عَنِ ٱلوَفَاءِ بِهَا . وَبَيَانُهُ أَنَّ ٱلمِصْرَ بِٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلحَضَارَةِ تَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِهِ وَٱلحَضَارَةُ تَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِ ٱلعُمْرَانِ فَمَتَى كَانَ ٱلعُمْرَانُ أَكْثَرَ كَانَتِ ٱلحَضَارَةُ أَكْمَلَ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلمِصْرَ ٱلكَثِيرَ ٱلعُمْرَانِ يَخْتَصُّ بِٱلغَلاَءِ فِي أَسْوَاقِهِ وَأَسْعَارِ حَاجَتِهِ ثُمَّ تَزِيدُهَا ٱلمُكُوسُ غَلاَءً لِأَنَّ ٱلحَضَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عِنْدَ ٱنْتِهَاءِ ٱلدَّوْلَةِ فِي ٱسْتِفْحَالِهَا وَهُوَ زَمَنُ وَضْعِ ٱلمُكُوسِ فِي ٱلدُّوَلِ لِكَثْرَةِ خَرْجِهَا حِينَئِذٍ كَمَا تَقَدَّمَ وَٱلمُكُوسُ تَعُودُ إِلَى ٱلبِيَاعَاتِ بِٱلغَلاَءِ لِأَنَّ ٱلسُّوقَةَ وَٱلتُّجَّارَ كُلُّهُمْ يَحْتَسِبُونَ عَلَى سِلَعِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ جَمِيعَ مَا يُنْفِقُونَهُ حَتَّى فِي مُؤْنَةِ أَنْفُسِهِمْ فَيَكُونُ ٱلمَكْسُ لِذٰلِكَ دَاخِلاً فِي قِيَمِ ٱلمَبِيعَاتِ وَأَثْمَانِهَا فَتَعْظُمُ نَفَقَاتُ أَهْلِ ٱلحَضَارَةِ وَتَخْرُجُ عَنِ ٱلقَصْدِ إِلَى ٱلإِسْرَافِ وَلاَ يَجِدُونَ وَلِيجَةً عَنْ ذٰلِكَ لِمَا مَلَكَهُمْ مِنْ أَثَرِ ٱلعَوَائِدِ وَطَاعَتِهَا وَتَذْهَبُ مَكَاسِبُهُمْ كُلُّهَا فِي ٱلنَّفَقَاتِ وَيَتَتَابَعُونَ فِي ٱلإِمْلاَقِ وَٱلخَصَاصَةِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمِ ٱلفَقْرُ وَيَقِلُّ ٱلمُسْتَامُونَ لِلْمَبَائِعِ فَتَكْسُدُ ٱلأَسْوَاقُ وَيَفْسُدُ حَالُ ٱلمَدِينَةِ وَدَاعِيَةُ ذٰلِكَ كُلِّهِ إِفْرَاطُ ٱلحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ وَهٰذِهِ مُفْسِدَاتٌ فِي ٱلمَدِينَةِ عَلَى ٱلعُمُومِ فِي ٱلأَسْوَاقِ وَٱلعُمْرَانِ وَأَمَّا فَسَادُ أَهْلِهَا فِي ذَاتِهِمْ وَاحِداً وَاحِداً عَلَى ٱلخُصُوصِ فَمِنَ ٱلكَدِّ وَٱلتَّعَبِ فِي حَاجَاتِ ٱلعَوَائِدِ وَٱلتَّلَوُّنِ بِأَلْوَانِ ٱلشَّرِّ فِي تَحْصِيلِهَا وَمَا يَعُودُ عَلَى ٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلضَّرَرِ بَعْدَ تَحْصِيلِهَا بِحُصُولِ لَوْنٍ آخَرَ مِنْ أَلْوَانِهَا فَلِذٰلِكَ يَكْثُرُ مِنْهُمُ ٱلفِسْقُ وَٱلشَّرُّ وَٱلسَّفْسَفَةُ وَٱلتَّحَيُّلُ عَلَى تَحْصِيلِ ٱلمَعَاشِ مِنْ وَجْهِهِ وَمِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ وَتَنْصَرِفُ ٱلنَّفْسُ إِلَى ٱلفِكْرِ فِي ذٰلِكَ وَٱلغَوْصِ عَلَيْهِ وَٱسْتِجْمَاعِ ٱلحِيلَةِ لَهُ فَتَجِدُهُمْ أَجْرِيَاءَ عَلَى

الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الأيمان والربا في البياعات ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الأقارب وذوي المحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك وتجدهم أيضاً أبصر بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ما عساه أن ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وغلب عليه خلق الجوار وإن كانوا أهل أنساب وبيوتات وذلك أن الناس بشر متماثلون وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل فمن استحكمت فيه صبغة الرذيلة بأي وجه كان وفسد خلق الخير فيه لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدول منطرحين في الغمار منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله تعالى وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . ووجهه حينئذ ان مكاسبهم حينئذ لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم أحوالهم وإذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً اختل نظام المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله بعض أهل الخواص أن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب حتى أن كثيراً من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور وليس المراد ذلك ولا أنه خاصية في النارنج وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة ثم إن النارنج والليم والسرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط ولا تغرس إلا بعد التفنن في مذاهب الترف وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى وهو من هذا الباب إذ الدفلى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف . ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنن في شهوات

ٱلْبَطْنِ مِنَ ٱلْمَآكِلِ وَٱلْمَلَاذِّ فَيُفْضِي ذٰلِكَ إِلَى فَسَادِ ٱلنَّوْعِ فَٱفْهَمْ ذٰلِكَ وَٱعْتَبِرْ بِهِ أَنَّ غَايَةَ ٱلْعُمْرَانِ هِيَ ٱلْحَضَارَةُ وَٱلتَّرَفُ وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ غَايَتَهُ ٱنْقَلَبَ إِلَى ٱلْفَسَادِ وَأَخَذَ فِي ٱلْهَرَمِ كَالْأَعْمَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْحَيَوَانَاتِ بَلْ نَقُولُ إِنَّ ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْحَاصِلَةَ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ هِيَ عَيْنُ ٱلْفَسَادِ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا هُوَ إِنْسَانٌ بِٱقْتِدَارِهِ عَلَى جَلْبِ مَنَافِعِهِ وَدَفْعِ مَضَارِّهِ وَٱسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذٰلِكَ وَٱلْحَضَرِيُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ حَاجَاتِهِ إِمَّا عَجْزاً لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلدَّعَةِ أَوْ تَرَفُّعاً لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْبَى فِي ٱلنَّعِيمِ وَٱلتَّرَفِ وَكِلَا ٱلْأَمْرَيْنِ ذَمِيمٌ وَكَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ ٱلْمَضَارِّ وَٱسْتِقَامَةِ خُلُقِهِ لِلسَّعْيِ فِي ذٰلِكَ وَٱلْحَضَرِيُّ بِمَا قَدْ فَقَدَ مِنْ خُلُقِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلتَّرَفِ وَٱلنَّعِيمِ فِي قَهْرِ ٱلتَّأْدِيبِ فَهُوَ بِذٰلِكَ عِيَالٌ عَلَى ٱلْحَامِيَةِ ٱلَّتِي تُدَافِعُ عَنْهُ ثُمَّ هُوَ فَاسِدٌ أَيْضاً غَالِباً بِمَا فَسَدَتْ مِنْهُ ٱلْعَوَائِدُ وَطَاعَتُهَا وَمَا تَلَوَّنَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ مِنْ مَكَانَتِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَإِذَا فَسَدَ ٱلْإِنْسَانُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى أَخْلَاقِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ فَسَدَتْ إِنْسَانِيَّتُهُ وَصَارَ مَسْخاً عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَبِهَا ٱلْاعْتِبَارُ كَانَ ٱلَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ عَلَى ٱلْحَضَارَةِ وَخُلُقِهَا مَوْجُودُونَ فِي كُلِّ دَوْلَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلْحَضَارَةَ هِيَ سِنُّ ٱلْوُقُوفِ لِعُمْرِ ٱلْعَالَمِ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَٱلدَّوْلَةِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ

الفصل التاسع عشر

في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها

قَدِ ٱسْتَقْرَيْنَا فِي ٱلْعُمْرَانِ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ إِذَا ٱخْتَلَّتْ وَٱنْتَقَضَتْ فَإِنَّ ٱلْمِصْرَ ٱلَّذِي يَكُونُ كُرْسِيًّا لِسُلْطَانِهَا يَنْتَقِضُ عُمْرَانُهُ وَرُبَّمَا يَنْتَهِي فِي ٱنْتِقَاضِهِ إِلَى ٱلْخَرَابِ . وَلَا يَكَادُ ذٰلِكَ يَتَخَلَّفُ وَٱلسَّبَبُ فِيهِ أُمُورٌ . ٱلْأَوَّلُ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ لَا بُدَّ فِي أَوَّلِهَا مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ ٱلْمُقْتَضِيَةِ لِلتَّجَافِي عَنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ وَٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلتَّحَذْلُقِ وَيَدْعُو ذٰلِكَ إِلَى تَخْفِيفِ ٱلْجِبَايَةِ وَٱلْمَغَارِمِ ٱلَّتِي مِنْهَا مَادَّةُ ٱلدَّوْلَةِ فَتَقِلُّ ٱلنَّفَقَاتُ وَيَقِلُّ ٱلتَّرَفُ فَإِذَا صَارَ ٱلْمِصْرُ ٱلَّذِي كَانَ كُرْسِيًا لِلْمُلْكِ فِي مَلَكَةِ هٰذِهِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُتَجَدِّدَةِ وَنَقَصَتْ أَحْوَالُ ٱلتَّرَفِ فِيهَا نَقَصَ ٱلتَّرَفُ فِيمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهَا مِنْ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ لِأَنَّ ٱلرَّعَايَا تَبَعٌ لِلدَّوْلَةِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى خُلُقِ ٱلدَّوْلَةِ إِمَّا طَوْعاً لِمَا فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنْ تَقْلِيدِ مَتْبُوعِهِمْ أَوْ كُرْهاً لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ خُلُقُ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْانْقِبَاضِ عَنِ ٱلتَّرَفِ فِي جَمِيعِ ٱلْأَحْوَالِ وَقِلَّةِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي هِيَ مَادَّةُ ٱلْعَوَائِدِ فَتَقْصُر

لذلك حضارة المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصر . الأمر الثاني أن الدولة إنما يحصل لها الملك والإستيلاء بالغلب وإنما يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر إحداهما على الأخرى في العوائد والأحوال وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمنافي الآخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكرة عند أهل الدولة ومستبشعة وقبيحة وخصوصاً أحوال الترف فتفقد في عرفهم بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف فتكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك قصور الحضارة الأولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران في المصر . الأمر الثالث أن كل أمة لا بد لهم من وطن وهو منشأهم ومنه أولية ملكهم وإذا ملكوا ملكاً آخر صار تبعاً للأول وأمصاره تابعة لأمصار الأول واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط الكرسي تخوم الممالك التي للدولة لأنه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوى أفئدة الناس من أجل الدولة والسلطان فينتقل إليه العمران ويخف من مصر الكرسي الأول والحضارة إنما هي توفر العمران كما قدمناه فتنقص حضارته وتمدنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسلجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد إلى أصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن إلى الكوفة والبصرة ولبني العباس في العدول عن دمشق إلى بغداد ولبني مرين بالغرب في العدول عن مراكش إلى فاس وبالجملة فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعمران الكرسي الأول . الأمر الرابع أن الدولة الثانية لا بد فيها من تتبع أهل الدولة السابقة وأشياعها بتحويلهم إلى قطر آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثر أهل المصر الكرسي أشياع الدولة إما من الحامية الذين نزلوا به أول الدولة أو أعيان المصر لأن لهم في الغالب مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع أصنافهم بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعة لها وإن لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة السابقة فينقلهم من مصر الكرسي إلى وطنها المتمكن في ملكتها فبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة حتى لا يبقى في

مصر الكرسي إلا الباعة والهمل من أهل الفلح والعيارة وسواد العامة ويتزل مكانهم حاميتها وأشياعها من يشتد به المصر وإذا ذهب من المصر أعيانهم على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه ثم لابد من أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة وإنما ذلك بمثابة من له بيت على أوصاف مخصوصة فأظهر من قدرته على تغيير تلك الأوصاف وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانياً وقد وقع من ذلك كثير في الأمصار التي هي كراسي للملك وشاهدناه وعلمناه والله يقدر الليل والنهار . والسبب الطبيعي الأول في ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع فتتعين السياسة لذلك إما الشرعية أو الملكية وهو معنى الدولة وإذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر كما أن عدمه مؤثر في عدمه والخلل العظيم إنما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم أو الفرس أو العرب على العموم أو بني أمية أو بني العباس كذلك وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنو شروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من بعض فلا تؤثر كثير اختلال لأن الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة على أشخاص الدولة فإذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران ذهبت أهل الشوكة بأجمعهم وعظم الخلل كما قررناه أولاً والله سبحانه وتعالى أعلم

الفصل العشرون

في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضاً لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم

ٱلْبَلْوَى بِهِ فِي ٱلْمِصْرِ وَٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَمَا لا يَسْتَدْعِي فِي ٱلْمِصْرِ يَكُونُ غُفْلًا إِذْ لا فَائِدَةَ لِمُنْتَحِلِهِ فِي ٱلِاحْتِرَافِ بِهِ وَمَا يَسْتَدْعِي مِنْ ذَٰلِكَ لِضَرُورَةِ ٱلْمَعَاشِ فَيُوجَدُ فِي كُلِّ مِصْرٍ كَالْخَيَّاطِ وَٱلْحَدَّادِ وَٱلنَّجَّارِ وَأَمْثَالِهَا وَمَا يَسْتَدْعِي لِعَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَأَحْوَالِهِ فَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلْمُسْتَبْحِرَةِ فِي ٱلْعِمَارَةِ ٱلْآخِذَةِ فِي عَوَائِدِ ٱلتَّرَفِ وَٱلْحَضَارَةِ مِثْلِ ٱلزَّجَّاجِ وَٱلصَّائِغِ وَٱلدَّهَّانِ وَٱلطَّبَّاخِ وَٱلصَّفَّارِ وَٱلْفَرَّاشِ وَٱلذَّبَّاحِ وَأَمْثَالِ هٰذِهِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ وَبِقَدَرِ مَا تَزِيدُ عَوَائِدُ ٱلْحَضَارَةِ وَتَسْتَدْعِي أَحْوَالُ ٱلتَّرَفِ تَحْدُثُ صَنَائِعُ لِذَٰلِكَ ٱلنَّوْعِ فَتُوجَدُ بِذَٰلِكَ ٱلْمِصْرِ دُونَ غَيْرِهِ وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ ٱلْحَمَّامَاتُ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُوجَدُ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمُسْتَحْضِرَةِ ٱلْمُسْتَبْحِرَةِ ٱلْعُمْرَانِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ٱلتَّرَفُ وَٱلْغِنَى مِنَ ٱلتَّنَعُّمِ وَلِذَٰلِكَ لا تَكُونُ فِي ٱلْمُدُنِ ٱلْمُتَوَسِّطَةِ وَإِنْ نَزَعَ بَعْضُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ إِلَيْهَا فَيَخْتَطُّهَا وَيُجْرِي أَحْوَالَهَا إِلَّا أَنَّهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهَا دَاعِيَةٌ مِنْ كَافَّةِ ٱلنَّاسِ فَسُرْعَانَ مَا تُهْجَرُ وَتَخْرَبُ وَتَفِرُّ عَنْهَا ٱلْقَوَمَةُ لِقِلَّةِ فَائِدَتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ مِنْهَا وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ

الفصل الحادي والعشرون

في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض

مِنَ ٱلْبَيِّنِ أَنَّ ٱلِالْتِحَامَ وَٱلِاتِّصَالَ مَوْجُودٌ فِي طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ إِلَّا أَنَّهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَضْعَفُ مِمَّا يَكُونُ بِٱلنَّسَبِ وَأَنَّهُ تَحْصُلُ بِهِ ٱلْعَصَبِيَّةُ بَعْضاً مِمَّا تَحْصُلُ بِٱلنَّسَبِ وَأَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مُلْتَحِمُونَ بِٱلصِّهْرِ يَجْذِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَى أَنْ يَكُونُوا لُحْماً لُحْماً وَقَرَابَةً قَرَابَةً وَتَجِدُ بَيْنَهُمْ مِنَ ٱلْعَدَاوَةِ وَٱلصَّدَاقَةِ مَا يَكُونُ بَيْنَ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَشَائِرِ مِثْلَهُ فَيَفْتَرِقُونَ شِيَعاً وَعَصَائِبَ فَإِذَا نَزَلَ ٱلْهَرَمُ بِٱلدَّوْلَةِ وَتَقَلَّصَ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ عَنِ ٱلْقَاصِيَةِ ٱحْتَاجَ أَهْلُ أَمْصَارِهَا إِلَى ٱلْقِيَامِ عَلَى أَمْرِهِمْ وَٱلنَّظَرِ فِي حِمَايَةِ بَلَدِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلشُّورَى وَتَمَيَّزَ ٱلْعِلْيَةُ عَنِ ٱلسَّفَلَةِ وَٱلنُّفُوسُ بِطِبَاعِهَا مُتَطَاوِلَةٌ إِلَى ٱلْغَلَبِ وَٱلرِّئَاسَةِ فَتَطْمَحُ ٱلْمَشْيَخَةُ لِخَلَاءِ ٱلْجَوِّ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْقَاهِرَةِ إِلَى ٱلِاسْتِبْدَادِ وَيُنَازِعُ كُلٌّ صَاحِبَهُ وَيَسْتَوْصِلُونَ بِٱلْأَتْبَاعِ مِنَ ٱلْمَوَالِي وَٱلشِّيَعِ وَٱلْأَحْلَافِ وَيَبْذُلُونَ

10 فِي أَيْدِيهِمْ لِلْأَوْغَادِ وَٱلْأَوْشَابِ فَيَعْصَوْصِبُ كُلٌّ لِصَاحِبِهِ وَيَتَعَيَّنُ ٱلْغَلَبُ لِبَعْضِهِمْ فَيَعْطِفُ عَلَى أَكْفَائِهِ لِيَقُصَّ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَيَتَتَبَّعُهُمْ بِٱلْقَتْلِ أَوِ ٱلتَّغْرِيبِ حَتَّى يَخْضُدَ مِنْهُمُ ٱلشَّوْكَاتِ ٱلنَّافِذَةَ وَيُقَلِّمَ ٱلْأَظْفَارَ ٱلْخَادِشَةَ وَيَسْتَبِدَّ بِمِصْرِهِ أَجْمَعَ وَيَرَى أَنَّهُ قَدِ ٱسْتَحْدَثَ مُلْكاً

يورثه عتبة فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم من عوارض الجدّة والهرم وربّما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعاظم أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزّحوف والحروب والأقطار والممالك فينتحلون بها من الجلوس على السّرير واتّخاذ الآلة وإعداد المواكب للسّير في أقطار البلد والتّختّم والتّحيّة والخطاب بالتّهويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوه من شارات الملك الّتي ليسوا لها بأهل إنّما دفعهم إلى ذلك تقلّص الدّولة والتحام بعض القرابات حتّى صارت عصبيّة وقد يتنزّه بعضهم عن ذلك ويجري على مذهب السّذاجة فرارا من التّعريض بنفسه للسّخرية والعبث وقد وقع هذا بأفريقية لهذا العهد في آخر الدّولة الحفصيّة لأهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزّاب وما إلى ذلك سموا إلى مثلها عند تقلّص ظلّ الدّولة عنهم منذ عقود من السّنين فاستغلبوا على أمصارهم واستبدّوا بأمرها على الدّولة في الأحكام والجباية وأعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرّضة وأقطعوها جانبا من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمعزل عنه وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم من الغلظة والتّجبّر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم ونظموا أنفسهم في عداد السّلاطين على قرب عهدهم بالسّوقة حتّى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العبّاس وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار الدّولة وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدّولة الصّنهاجيّة واستقلّ بأمصار الجريد أهلها واستبدّوا على الدّولة حتّى انتزع ذلك منهم شيخ الموحّدين وملكهم عبد المؤمن بن عليّ ونقلهم كلّهم من إماراتهم بها إلى المغرب ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر في أخباره وكذا وقع بسبتة لآخر دولة بني عبد المؤمن وهذا التّغلّب يكون غالبا في أهل السّروات والبيوتات المرشّحين للمشيخة والرّئاسة في المصر وقد يحدث التّغلّب لبعض السّفلة من الغوغاء والدّهماء وإذا حصلت له العصبيّة والالتحام بالأوغاد لأسباب يجرّها له المقدار فيتغلّب على المشيخة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصابة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره

الفصل الثاني والعشرون

في لغات اهل الامصار

إِعلَمْ أَنَّ لُغَاتِ أَهلِ ٱلأَمْصَارِ إِنَّمَا تَكُونُ بِلِسَانِ ٱلأُمَّةِ أَوِ ٱلجِيلِ ٱلغَالِبِينَ عَلَيهَا أَوِ ٱلمُختَطِّينَ لَهَا وَلِذٰلِكَ كَانَتْ لُغَاتُ ٱلأَمْصَارِ ٱلإِسلَامِيَّةِ كُلِّهَا بِٱلمَشْرِقِ وَٱلمَغْرِبِ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ عَرَبِيَّةً وَإِنْ كَانَ ٱللِّسَانُ ٱلعَرَبِيُّ ٱلمُضَرِيُّ قَدْ فَسَدَتْ مَلَكَتُهُ وَتَغَيَّرَ إِعرَابُهُ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ مَا وَقَعَ لِلدَّولَةِ ٱلإِسلَامِيَّةِ مِنَ ٱلغَلَبِ عَلَى ٱلأُمَمِ وَٱلدِّينِ وَٱلمِلَّةِ صُورَةٌ لِلوُجُودِ وَلِلمُلكِ وَكُلُّهَا مَوَادُّ لَهُ وَٱلصُّورَةُ مُقَدَّمَةٌ عَلَى ٱلمَادَّةِ وَٱلدِّينُ إِنَّمَا يُستَفَادُ مِنَ ٱلشَّرِيعَةِ وَهِيَ بِلِسَانِ ٱلعَرَبِ لِمَا أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عَرَبِيٌّ فَوَجَبَ هَجْرُ مَا سِوَى ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ مِنَ ٱلأَلسُنِ فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا وَٱعتَبِرْ ذٰلِكَ فِي نَهْيِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ عن رِطَانَةِ ٱلأَعَاجِمِ وَقَالَ إِنَّهَا خِبٌّ أَيْ مَكْرٌ وَخَدِيعَةٌ فَلَمَّا هَجَرَ ٱلدِّينُ ٱللُّغَاتِ ٱلأَعجَمِيَّةَ وَكَانَ لِسَانُ ٱلقَائِمِينَ بِٱلدَّولَةِ ٱلإِسلَامِيَّةِ عَرَبِيًّا هُجِرَتْ كُلُّهَا فِي جَمِيعِ مَمَالِكِهَا لِأَنَّ ٱلنَّاسَ تَبَعٌ لِلسُّلطَانِ وَعَلَى دِينِهِ فَصَارَ ٱستِعمَالُ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ مِنْ شَعَائِرِ ٱلإِسلَامِ وَطَاعَةِ ٱلعَرَبِ وَهَجَرَ ٱلأُمَمُ لُغَاتِهِمْ وَأَلسِنَتَهُمْ فِي جَمِيعِ ٱلأَمْصَارِ وَٱلمَمَالِكِ وَصَارَ ٱللِّسَانُ ٱلعَرَبِيُّ لِسَانَهُمْ حَتَّى رَسَخَ ذٰلِكَ لُغَةً فِي جَمِيعِ أَمْصَارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ وَصَارَتِ ٱلأَلسِنَةُ ٱلعَجَمِيَّةُ دَخِيلَةً فِيهَا وَغَرِيبَةً ثُمَّ فَسَدَ ٱللِّسَانُ ٱلعَرَبِيُّ بِمُخَالَطَتِهَا فِي بَعْضِ أَحكَامِهِ وَتَغَيُّرِ أَوَاخِرِهِ وَإِنْ كَانَ بَقِيَ فِي ٱلدِّلَالَاتِ عَلَى أَصلِهِ وَسُمِّيَ لِسَانًا حَضَرِيًّا فِي جَمِيعِ أَمْصَارِ ٱلإِسلَامِ وَأَيضًا فَأَكْثَرُ أَهلِ ٱلأَمْصَارِ فِي ٱلمِلَّةِ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ مِنْ أَعقَابِ ٱلعَرَبِ ٱلمَالِكِينَ لَهَا ٱلهَالِكِينَ فِي تَرَفِهَا بِمَا كَثَّرُوا ٱلعَجَمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِهَا وَوَرِثُوا أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَٱللُّغَاتُ مُتَوَارَثَةٌ فَبَقِيَتْ لُغَةُ ٱلأَعقَابِ عَلَى حِيَالِ لُغَةِ ٱلآبَاءِ وَإِنْ فَسَدَتْ أَحكَامُهَا بِمُخَالَطَةِ ٱلأَعجَامِ شَيئًا فَشَيئًا وَسُمِّيَتْ لُغَتُهُمْ حَضَرِيَّةً مَنسُوبَةً إِلَى أَهلِ ٱلحَوَاضِرِ وَٱلأَمْصَارِ بِخِلَافِ لُغَةِ ٱلبَدْوِ مِنَ ٱلعَرَبِ فَإِنَّهَا كَانَتْ أَعرَقَ فِي ٱلعُرُوبِيَّةِ وَلَمَّا تَمَلَّكَ ٱلعَجَمُ مِنَ ٱلدَّيلَمِ وَٱلسَّلجُوقِيَّةِ بَعدَهُم بِٱلمَشْرِقِ وَزَنَاتَةُ وَٱلبَرْبَرُ بِٱلمَغْرِبِ وَصَارَ لَهُمُ ٱلمُلكُ وَٱلِاستِيلَاءُ عَلَى جَمِيعِ ٱلمَمَالِكِ ٱلإِسلَامِيَّةِ فَسَدَ ٱللِّسَانُ ٱلعَرَبِيُّ لِذٰلِكَ وَكَادَ يَذْهَبُ لَوْلَا مَا حَفِظَهُ مِنْ عِنَايَةِ ٱلمُسلِمِينَ بِٱلكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ ٱللَّذَيْنِ بِهِمَا حُفِظَ ٱلدِّينُ وَسَارَ ذٰلِكَ مُرَجِّحًا لِبَقَاءِ ٱللُّغَةِ ٱلعَرَبِيَّةِ ٱلمُضَرِيَّةِ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَٱلكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا بِٱلأَمْصَارِ فَلَمَّا مَلَكَ ٱلتَّتَرُ

وَٱلْمُغُولُ بِٱلْمَشْرِقِ وَلَمْ يَكُونُوا عَلَى دِينِ ٱلْإِسْلَامِ ذَهَبَ ذَٰلِكَ ٱلْمُرَجِّحُ وَفَسَدَتِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ فِي ٱلْمَمَالِكِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ بِٱلْعِرَاقِ وَخُرَاسَان وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ ٱلْهِنْدِ وَٱلسِّنْدِ وَمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَبِلَادِ ٱلشَّمَالِ وَبِلَادِ ٱلرُّومِ وَذَهَبَتْ أَسَالِيبُ ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَٱلْكَلَامِ إِلَّا قَلِيلًا يَقَعُ تَعْلِيمُهُ صِنَاعِيًّا بِٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُتَدَارَسَةِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَحِفْظِ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسَّرَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى لِذَٰلِكَ وَرُبَّمَا بَقِيَتِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ٱلْمُضَرِيَّةُ بِمِصْرَ وَٱلشَّامِ وَٱلْأَنْدَلُسِ بِٱلْمَغْرِبِ لِبَقَاءِ ٱلدِّينِ طَلَبًا لَهَا فَٱنْحَفَظَتْ بِبَعْضِ ٱلشَّيْءِ وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ ٱلْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا عَيْن حَتَّى إِنَّ كُتُبَ ٱلْعُلُومِ صَارَتْ تُكْتَبُ بِٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ وَكَذَا تَدْرِيسُهُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلصَّوَابِ.

الباب الخامس

من الكتاب الاول

في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل

الفصل الاول

في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ بِٱلطَّبْعِ إِلَىٰ مَا يَقُوتُهُ وَيَمُونُهُ فِي حَالَاتِهِ وَأَطْوَارِهِ مِنْ لَدُنْ نُشُوئِهِ إِلَىٰ أَشُدِّهِ إِلَىٰ كِبَرِهِ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ ٱلْفُقَرَاءُ وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ جَمِيعَ مَا فِي ٱلْعَالَمِ لِلْإِنْسَانِ وَٱمْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ وَكَثِيرٌ مِنْ شَوَاهِدِهِ وَيَدُ ٱلْإِنْسَانِ مَبْسُوطَةٌ عَلَى ٱلْعَالَمِ وَمَا فِيهِ بِمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَهُ مِنَ ٱلِٱسْتِخْلَافِ وَأَيْدِي ٱلْبَشَرِ مُنْتَشِرَةٌ فَهِيَ مُشْتَرَكَةٌ فِي ذَٰلِكَ وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ يَدُ هَٰذَا ٱمْتَنَعَ عَنِ ٱلْآخَرِ إِلَّا بِعِوَضٍ فَٱلْإِنْسَانُ مَتَى ٱقْتَدَرَ عَلَى نَفْسِهِ وَتَجَاوَزَ ٱلضَّعْفَ سَعَى فِي ٱقْتِنَاءِ ٱلْمَكَاسِبِ لِيُنْفِقَ مَا آتَاهُ ٱللَّهُ مِنْهَا فِي تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ وَضَرُورَاتِهِ بِدَفْعِ ٱلْأَعْوَاضِ عَنْهَا قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَى فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللَّهِ

ٱلرِّزْقَ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ ذٰلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ كَٱلْمَطَرِ ٱلْمُصْلِحِ لِلزِّرَاعَةِ وَأَمْثَالِهِ إِلَّا أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ مُعِينَةً وَلَا بُدَّ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ ٱلْمَكَاسِبُ مَعَاشاً إِنْ كَانَتْ بِمِقْدَارِ ٱلضَّرُورَةِ وَٱلْحَاجَةِ وَرِيَاشاً وَمُتَمَوَّلاً إِنْ زَادَتْ عَلَى ذٰلِكَ ثُمَّ إِنَّ ذٰلِكَ ٱلْحَاصِلَ أَوِ ٱلْمُقْتَنَى إِنْ عَادَتْ مَنْفَعَتُهُ عَلَى ٱلْعَبْدِ وَحَصَلَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ إِنْفَاقِهِ فِي مَصَالِحِهِ وَحَاجَاتِهِ سُمِّيَ ذٰلِكَ رِزْقاً قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَمَّى بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْمَالِكِ رِزْقاً وَٱلْمُتَمَلَّكُ مِنْهُ حِينَئِذٍ بِسَعْيِ ٱلْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْباً وَهٰذَا مِثْلُ ٱلتُّرَاثِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْهَالِكِ كَسْباً وَلَا يُسَمَّى رِزْقاً إِذْ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ مُنْتَفَعٌ وَبِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْوَارِثِينَ مَتَى ٱنْتَفَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقاً هٰذَا حَقِيقَةُ مُسَمَّى ٱلرِّزْقِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ وَقَدِ ٱشْتَرَطَ ٱلْمُعْتَزِلَةُ فِي تَسْمِيَتِهِ رِزْقاً أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يَصِحُّ تَمَلُّكُهُ وَمَا لَا يُتَمَلَّكُ عِنْدَهُمْ لَا يُسَمَّى رِزْقاً وَأَخْرَجُوا ٱلْغُصُوبَاتِ وَٱلْحَرَامَ كُلَّهُ عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقاً وَٱللَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ ٱلْغَاصِبَ وَٱلظَّالِمَ وَٱلْمُؤْمِنَ وَٱلْكَافِرَ بِرَحْمَتِهِ وَهِدَايَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَلَهُمْ فِي ذٰلِكَ حُجَجٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَسْبَ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلسَّعْيِ فِي ٱلِٱقْتِنَاءِ وَٱلْقَصْدِ إِلَى ٱلتَّحْصِيلِ فَلَا بُدَّ فِي ٱلرِّزْقِ مِنْ سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَلَوْ فِي تَنَاوُلِهِ وَٱبْتِغَائِهِ مِنْ وُجُوهِهِ قَالَ تَعَالَى فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱلسَّعْيُ إِلَيْهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِقْدَارِ ٱللَّهِ تَعَالَى وَإِلْهَامِهِ فَٱلْكُلُّ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ فِي كُلِّ مَكْسُوبٍ وَمُتَمَوَّلٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ عَمَلاً بِنَفْسِهِ مِثْلَ ٱلصَّنَائِعِ فَظَاهِرٌ وَإِنْ كَانَ مُقْتَنًى مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ وَٱلْمَعْدِنِ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ ٱلْعَمَلِ ٱلْإِنْسَانِيِّ كَمَا تَرَاهُ وَإِلَّا لَمْ يَحْصُلْ وَلَمْ يَقَعْ بِهِ ٱنْتِفَاعٌ ثُمَّ إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ ٱلْحَجَرَيْنِ ٱلْمَعْدِنِيَّيْنِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ قِيمَةً لِكُلِّ مُتَمَوَّلٍ وَهُمَا ٱلذَّخِيرَةُ وَٱلْقِنْيَةُ لِأَهْلِ ٱلْعَالَمِ فِي ٱلْغَالِبِ وَإِنِ ٱقْتَنَى سِوَاهُمَا فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ فَإِنَّمَا هُوَ لِقَصْدِ تَحْصِيلِهِمَا بِمَا يَقَعُ فِي غَيْرِهِمَا مِنْ حَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ ٱلَّتِي هُمَا عَنْهَا بِمَعْزِلٍ فَهُمَا أَصْلُ ٱلْمَكَاسِبِ وَٱلْقِنْيَةِ وَٱلذَّخِيرَةِ وَإِذَا تَقَرَّرَ هٰذَا كُلُّهُ فَٱعْلَمْ أَنَّ مَا يُفِيدُهُ ٱلْإِنْسَانُ وَيَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْمُتَمَوَّلَاتِ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ فَٱلْمُفَادُ ٱلْمُقْتَنَى مِنْهُ قِيمَةُ عَمَلِهِ وَهُوَ ٱلْقَصْدُ بِٱلْقِنْيَةِ إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا ٱلْعَمَلُ وَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ بِنَفْسِهِ لِلْقِنْيَةِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ ٱلصَّنَائِعِ فِي بَعْضِهَا غَيْرُهَا مِثْلُ ٱلنِّجَارَةِ وَٱلْحِيَاكَةِ

معهما الخشب والغزل إلا أن العمل فيهما أكثر فقيمته أكثر وإن كان من غير الصنائع فلا بد من قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به إذ لولا العمل لم تحصل قنيتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الأقوات بين الناس فإن اعتبار الأعمال والنفقات فيها ملاحظ في أسعار الحبوب كما قدمناه لكنه خفي في الأقطار التي علاج الفلح فيها ومؤونته يسيرة فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية وتبين مسمى الرزق وأنه المنتفع به فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مسماهما واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية وكذلك الأمصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالاً وأشد رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد إذا تناقص عمرانها إنها قد ذهب رزقها حتى أن الأنهار والعيون ينقطع جريها في القفر لما أن فور العيون إنما يكون بالإنباط والامتراء الذي هو بالعمل الإنساني كالحال في ضروع الأنعام فما لم يكن إنباط ولا امتراء نضبت وغارت بالجملة كما يجف الضرع إذا ترك امتراؤه وانظره في البلاد التي تعهد فيها العيون لأيام عمرانها ثم يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنها لم تكن والله مقدر الليل والنهار

الفصل الثاني

في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

إعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مفعل من العيش كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جعلت موضعاً له على طريق المبالغة ثم إن تحصيل الرزق وكسبه إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرماً وجباية وإما أن يكون من الحيوان الوحشي بافتراسه وأخذه برميه من البر أو البحر ويسمى اصطياداً

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ بِاسْتِخْرَاجِ فُضُولِهِ الْمُنْصَرِفَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَنَافِعِهِمْ كَاللَّبَنِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرِيرِ مِنْ دُودِهِ وَالْعَسَلِ مِنْ نَحْلِهِ أَوْ يَكُونَ مِنَ النَّبَاتِ فِي الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ بِالْقِيَامِ عَلَيْهِ وَإِعْدَادِهِ لِاسْتِخْرَاجِ ثَمَرَتِهِ وَيُسَمَّى هٰذَا كُلُّهُ فَلْحاً وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِمَّا فِي مَوَادَّ مُعَيَّنَةٍ وَتُسَمَّى الصَّنَائِعَ مِنْ كِتَابَةٍ وَنِجَارَةٍ وَخِيَاطَةٍ وَحِيَاكَةٍ وَفُرُوسِيَّةٍ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ أَوْ فِي مَوَادَّ غَيْرِ مُعَيَّنَةٍ وَهِيَ جَمِيعُ الْامْتِهَانَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكَسْبُ مِنَ الْبَضَائِعِ وَإِعْدَادِهَا لِلْأَعْرَاضِ إِمَّا بِالتَّقَلُّبِ بِهَا فِي الْبِلَادِ وَاحْتِكَارِهَا وَارْتِقَابِ حَوَالَةِ الْأَسْوَاقِ فِيهَا وَيُسَمَّى هٰذَا تِجَارَةً فَهٰذِهِ وُجُوهُ الْمَعَاشِ وَأَصْنَافُهُ وَهِيَ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ كَالْحَرِيرِيِّ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا الْمَعَاشُ إِمَارَةٌ وَتِجَارَةٌ وَفِلَاحَةٌ وَصِنَاعَةٌ فَأَمَّا الْإِمَارَةُ فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ طَبِيعِيٍّ لِلْمَعَاشِ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذِكْرِهَا وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْجِبَايَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي الْفَصْلِ الثَّانِي وَأَمَّا الْفِلَاحَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ فَهِيَ وُجُوهٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَعَاشِ أَمَّا الْفِلَاحَةُ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالذَّاتِ إِذْ هِيَ بَسِيطَةٌ وَطَبِيعِيَّةٌ فِطْرِيَّةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا عِلْمٍ وَلِهٰذَا تُنْسَبُ فِي الْخَلِيقَةِ إِلَى آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ وَأَنَّهُ مُعَلِّمُهَا وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا أَقْدَمُ وُجُوهِ الْمَعَاشِ وَأَنْسَبُهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ وَأَمَّا الصَّنَائِعُ فَهِيَ ثَانِيَتُهَا وَمُتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُصْرَفُ فِيهَا الْأَفْكَارُ وَالْأَنْظَارُ وَلِهٰذَا لَا يُوجَدُ غَالِباً إِلَّا فِي أَهْلِ الْحَضَرِ الَّذِي هُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الْبَدْوِ وَثَانٍ عَنْهُ وَمِنْ هٰذَا الْمَعْنَى نُسِبَتْ إِلَى أَدْرِيسَ الْأَبِ الثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَنْبِطُهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْبَشَرِ بِالْوَحْيِ مِنَ اللّٰهِ تَعَالَى وَأَمَّا التِّجَارَةُ وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعِيَّةً فِي الْكَسْبِ فَالْأَكْثَرُ مِنْ طُرُقِهَا وَمَذَاهِبِهَا إِنَّمَا هِيَ تَحَيُّلَاتٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى مَا بَيْنَ الْقِيمَتَيْنِ فِي الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ لِتَحْصُلَ فَائِدَةُ الْكَسْبِ مِنْ تِلْكَ الْفَضْلَةِ وَلِذٰلِكَ أَبَاحَ الشَّرْعُ فِيهِ الْمُكَاسَبَةَ لِمَا أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْمُقَامَرَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ أَخْذاً لِمَالِ الْغَيْرِ مَجَّاناً فَلِهٰذَا اخْتُصَّ بِالْمَشْرُوعِيَّةِ

الفصل الثالث

في ان الخدمة ليست من الطبيعي

إِعْلَمْ أَنَّ السُّلْطَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنِ اتِّخَاذِ الْخِدْمَةِ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ الْإِمَارَةِ وَالْمُلْكِ الَّذِي هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْجُنْدِيِّ وَالشُّرَطِيِّ وَالْكَاتِبِ وَيَسْتَكْفِي فِي كُلِّ بَابٍ بِمَنْ يَعْلَم

غَنَاءَهُ فِيهِ وَيَتَكَفَّلُ بِأَرْزَاقِهِمْ مِنْ بَيْتِ مَالِهِ وَهٰذَا كُلُّهُ مُنْدَرِجٌ فِي ٱلْإِمَارَةِ وَمَعَاشِهَا إِذْ كُلُّهُمْ يَنْسَحِبُ عَلَيْهِمْ حُكْمُ ٱلْإِمَارَةِ وَٱلْمُلْكُ ٱلْأَعْظَمُ هُوَ يَنْبُوعُ جَدَاوِلِهِمْ وَأَمَّا مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْخِدْمَةِ فَسَبَبُهَا أَنَّ أَكْثَرَ ٱلْمُتْرَفِينَ يَتَرَفَّعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ حَاجَاتِهِ أَوْ يَكُون عَاجِزاً عَنْهَا لِمَا رُبِّيَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُقِ ٱلتَّنَعُّمِ وَٱلتَّرَفِ فَيَتَّخِذُ مَنْ يَتَوَلَّى ذٰلِكَ لَهُ وَيُقْطِعُهُ عَلَيْهِ أَجْراً مِنْ مَالِهِ وَهٰذِهِ ٱلْحَالَةُ غَيْرُ مَحْمُودَةٍ بِحَسَبِ ٱلرُّجُولِيَّةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ إِذِ ٱلثِّقَةُ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجْزٌ وَلِأَنَّهَا تَزِيدُ فِي ٱلْوَظَائِفِ وَٱلْخَرْجِ وَتَدُلُّ عَلَى ٱلْعَجْزِ وَٱلْخَنَثِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي فِي مَذَاهِبِ ٱلرُّجُولِيَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ عَنْهُمَا إِلَّا أَنَّ ٱلْعَوَائِدَ تَقْلِبُ طِبَاعَ ٱلْإِنْسَانِ إِلَى مَأْلُوفِهَا فَهُوَ ٱبْنُ عَوَائِدِهِ لَا ٱبْنُ نَسَبِهِ وَمَعَ ذٰلِكَ فَٱلْخَدِيمُ ٱلَّذِي يُسْتَكْفَى بِهِ وَيُوثَقُ بِغَنَائِهِ كَٱلْمَفْقُود إِذِ ٱلْخَدِيمُ ٱلْقَائِمُ بِذٰلِكَ لَا يَعْدُو أَرْبَعَ حَالَاتٍ إِمَّا مُضْطَلِعٌ بِأَمْرِهِ وَلَا مَوْثُوقاً فِيمَا يَحْصل بِيَدِهِ وَإِمَّا بِٱلْعَكْسِ فِي إِحْدَاهُمَا فَقَطْ مِثْلَ أَنْ يَكُونَ مُضْطَلِعاً غَيْرَ مَوْثُوقٍ أَوْ مَوْثُوقاً غَيْرَ مُضْطَلِعٍ فَأَمَّا ٱلْأَوَّلُ وَهُوَ ٱلْمُضْطَلِعُ ٱلْمَوْثُوقُ فَلَا يُمْكِنُ أَحَداً ٱسْتِعْمَالُهُ بِوَجْهٍ إِذْ هُوَ بِٱضْطِلَاعِهِ وَثِقَتِهِ غَنِيٌّ عَنْ أَهْلِ ٱلرُّتَبِ ٱلدَّنِيئَةِ وَمُحْتَقِرٌ لِمِثَالِ ٱلْأَجْرِ مِنَ ٱلْخِدْمَةِ لِٱقْتِدَارِهِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا ٱلْأُمَرَاءُ أَهْلُ ٱلْجَاهِ ٱلْعَرِيضِ لِعُمُوم ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْجَاهِ وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي وَهُوَ مِمَّنْ لَيْسَ بِمُضْطَلِعٍ وَلَا مَوْثُوقٍ فَلَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ ٱسْتِعْمَالُهُ لِأَنَّهُ يُجْحِفُ بِمَخْدُومِهِ فِي ٱلْأَمْرَيْنِ مَعاً فَيَضِيعُ عَلَيْهِ لِعَدَمِ ٱلْاِصْطِنَاعِ تَارَةً وَيَذْهَبُ مَالُهُ بِٱلْخِيَانَةِ أُخْرَى فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ فَهٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي ٱسْتِعْمَالِهِمَا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلصِّنْفَيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ مَوْثُوقٍ غَيْرِ مُضْطَلِعٍ وَمُضْطَلِعٍ غَيْرِ مَوْثُوقٍ وَلِلنَّاسِ فِي ٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَهُمَا مَذْهَبَانِ وَلِكُلٍّ مِنَ ٱلتَّرْجِيحَيْنِ وَجْه إِلَّا أَنَّ ٱلْمُضْطَلِعَ وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مَوْثُوقٍ أَرْجَحُ لِأَنَّهُ يُؤْمَنُ مِنْ تَضْيِيعِهِ وَيُحَاوِلُ عَلَى ٱلتَّحَرُّزِ مِنْ خِيَانَتِهِ جُهْدَ ٱلِاسْتِطَاعَةِ وَأَمَّا ٱلْمُضَيِّعُ وَلَوْ كَانَ مَأْمُوناً فَضَرَرُهُ بِٱلتَّضْيِيعِ أَكْثَرُ مِن نَفْعِهِ فَٱعْلَمْ ذٰلِكَ وَٱتَّخِذْهُ قَانُوناً فِي ٱلِاسْتِكْفَاءِ بِٱلْخِدْمَةِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِر عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

الفصل الرابع

في ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي

إِعْلَمْ أَنَّ كَثِيراً مِنْ ضُعَفَاءِ ٱلْعُقُولِ فِي ٱلْأَمْصَارِ يَحْرِصُونَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْأَمْوَالِ مِن

تحتَ ٱلأرضِ ويبتغونَ ٱلكسبَ مِنْ ذٰلكَ ويعتقدونَ أنَّ أموالَ ٱلأممِ ٱلسالفةِ مختزنةٌ كلُّها تحتَ ٱلأرضِ مختومٌ عليها كلِّها بطلاسمَ سحريّةٍ لا يفضُّ ختامَها ذٰلكَ إلّا مَنْ عثرَ على علمِهِ وٱستحضرَ ما يحلُّهُ مِنَ ٱلبخورِ وٱلدعاءِ وٱلقربانِ فأهلُ ٱلأمصارِ بإفريقيّةَ يرونَ أنَّ ٱلإفرنجةَ ٱلذينَ كانوا قبلَ ٱلإسلامِ بها دفنوا أموالَهم كذٰلكَ وأودعوها في ٱلصحفِ بٱلكتابِ إلى أنْ يجدوا ٱلسبيلَ إلى ٱستخراجِها وأهلُ ٱلأمصارِ بٱلمشرقِ يرونَ مثلَ ذٰلكَ في أممِ ٱلقبطِ وٱلرومِ وٱلفرسِ ويتناقلونَ في ذٰلكَ أحاديثَ تشبهُ حديثَ خرافةَ مِنِ ٱنتهاءِ بعضِ ٱلطالبينَ لذٰلكَ إلى حفرِ موضعِ ٱلمالِ ممّنْ لمْ يعرفْ طلسمَهُ ولا خبرَهُ فيجدونَهُ خالياً أوْ معموراً بٱلديدانِ أوْ يشاهدُ ٱلأموالَ وٱلجواهرَ موضوعةً وٱلحرسَ دونَها منتضينَ سيوفَهم أوْ تميدُ بهِ ٱلأرضُ حتّى يظنَّهُ خسفاً أوْ مثلَ ذٰلكَ مِنَ ٱلهذرِ ونجدُ كثيراً مِنْ طلبةِ ٱلبربرِ بٱلمغربِ ٱلعاجزينَ عنِ ٱلمعاشِ ٱلطبيعيِّ وأسبابِهِ يتقرّبونَ إلى أهلِ ٱلدنيا بٱلأوراقِ ٱلمتخرّمةِ ٱلحواشي إمّا بخطوطٍ عجميّةٍ أو بما ترجمَ بزعمِهم منها مِنْ خطوطِ أهلِ ٱلدفائنِ بإعطاءِ ٱلأماراتِ عليها في أماكنِها يبتغونَ بذٰلكَ ٱلرزقَ منهم بما يبعثونَهُ على ٱلحفرِ وٱلطلبِ ويموّهونَ عليهم بأنّهم إنّما حملَهم على ٱلاستعانةِ بهم طلبُ ٱلجاهِ في مثلِ هٰذا مِنْ منالِ ٱلحكّامِ وٱلعقوباتِ وربّما تكونُ عندَ بعضِهم نادرةٌ أوْ غريبةٌ مِنَ ٱلأعمالِ ٱلسحريّةِ يموّهُ بها على تصديقِ ما بقيَ مِنْ دعواهُ وهوَ بمعزلٍ عنِ ٱلسحرِ وطرقِهِ فتولعَ كثيرٌ مِنْ ضعفاءِ ٱلعقولِ بجمعِ ٱلأيدي على ٱلاحتفارِ وٱلتستّرِ فيهِ بظلماتِ ٱلليلِ مخافةَ ٱلرقباءِ وعيونِ أهلِ ٱلدولِ فإذا لمْ يعثروا على شيءٍ ردّوا ذٰلكَ إلى ٱلجهلِ بٱلطلسمِ ٱلذي ختمَ بهِ على ذٰلكَ ٱلمالِ يخادعونَ بهِ أنفسَهم عنْ إخفاقِ مطامعِهم وٱلذي يحملُ على ذٰلكَ في ٱلغالبِ زيادةً على ضعفِ ٱلعقلِ إنّما هوَ ٱلعجزُ عنْ طلبِ ٱلمعاشِ بٱلوجوهِ ٱلطبيعيّةِ للكسبِ مِنَ ٱلتجارةِ وٱلفلحِ وٱلصناعةِ فيطلبونَهُ بٱلوجوهِ ٱلمنحرفةِ وعلى غيرِ ٱلمجرى ٱلطبيعيِّ مِنْ هٰذا وأمثالِهِ عجزاً عنِ ٱلسعيِ في ٱلمكاسبِ وركوناً إلى تناولِ ٱلرزقِ مِنْ غيرِ تعبٍ ولا نصبٍ في تحصيلِهِ وٱكتسابِهِ ولا يعلمونَ أنّهم يوقعونَ أنفسَهم بٱبتغاءِ ذٰلكَ مِنْ غيرِ وجهِهِ في نصبٍ ومتاعبَ وجهدٍ شديدٍ أشدَّ مِنَ ٱلأوّلِ ويعرّضونَ أنفسَهم معَ ذٰلكَ لمنالِ ٱلعقوباتِ وربّما يحملُ على ذٰلكَ في ٱلأكثرِ زيادةُ ٱلترفِ وعوائدُهُ وخروجُها

عنْ حَدِّ ٱلنِّهَايَةِ حَتَّى تُقَصِّرَ عَنهَا وُجوهُ ٱلْكَسْبِ وَمَذَاهِبُهُ وَلاَ تَفِي بِمَطَالِبِهَا فَإِذَا عجز عن ٱلْكَسْبِ بِٱلْمَجْرَى ٱلطَّبِيعِيِّ لَمْ يَجِدْ وَلِيجَةً فِي نَفْسِهِ إِلَّا ٱلتَّمَنِّيَ لِوُجُودِ ٱلْمَالِ ٱلْعَظِيمِ دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كِلفَةٍ لِيَفِيَ لَهُ ذٰلِكَ بِٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي حَصَلَ فِي أَسْرِهَا فَيَحْرَصُ عَلَى ٱبْتِغَاءِ ذٰلِكَ وَيَسْعَى فِيهِ جُهْدَهُ وَلِهٰذَا فَأَكْثَرُ مَنْ تَرَاهُمْ يَحْرَصُونَ عَلَى ذٰلِكَ هُمُ ٱلْمُتْرَفُونَ مِنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَمِنْ سُكَّانِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلتَّرَفِ ٱلْمُتَّسِعَةِ ٱلْأَحْوَالِ مِثْلِ مِصْرَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا فَنَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُغْرَمِينَ بِٱبْتِغَاءِ ذٰلِكَ وَتَحْصِيلِهِ وَمُسَاءَلَةِ ٱلرُّكْبَانِ عَنْ شَوَاذِّهِ كَمَا يَحْرَصُونَ عَلَى ٱلْكِيمِيَاءِ هٰكَذَا بَلَغَنِي عَنْ أَهْلِ مِصْرَ فِي مُفَاوَضَةِ مَنْ يَلْقَوْنَهُ مِن طَلَبَةِ ٱلْمَغَارِبَةِ لَعَلَّهُمْ يَعْثُرُونَ مِنْهُ عَلَى دَفِينٍ أَوْ كَنْزٍ وَيَزِيدُونَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْبَحْثَ عَن تَغْوِيرِ ٱلْمِيَاهِ لِمَا يَرَوْنَ أَنَّ غَالِبَ هٰذِهِ ٱلْأَمْوَالِ ٱلدَّفِينَةِ كُلِّهَا فِي مَجَارِي ٱلنِّيلِ وَأَنَّهُ أَعْظَمُ مَا يَسْتُرُ دَفِيناً أَوْ مُخْتَزَناً فِي تِلْكَ ٱلْآفَاقِ وَيُمَوِّهُ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ تِلْكَ ٱلدَّفَاتِرِ ٱلْمُفْتَعَلَةِ فِي ٱلِٱعْتِذَارِ عَنِ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهَا بِجَرْيَةِ ٱلنِّيلِ تَسَتُّراً بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَذِبِ حَتَّى يَحْصُلَ عَلَى مَعَاشِهِ فَيَحْرِصُ سَامِعُ ذٰلِكَ مِنْهُمْ عَلَى نُضُوبِ ٱلْمَاءِ بِٱلْأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ لِتَحْصِيلِ مُبْتَغَاهُ مِنْ هٰذِهِ كَلِفاً بِشَأْنِ ٱلسِّحْرِ مُتَوَارِثاً فِي ذٰلِكَ ٱلْقُطْرِ عَنْ أَوَّلِيهِ فَعُلُومُهُمُ ٱلسِّحْرِيَّةُ وَآثَارُهَا بَاقِيَةٌ بِأَرْضِهِمْ فِي ٱلْبَرَارِي وَغَيْرِهَا وَقِصَّةُ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ شَاهِدَةٌ بِٱخْتِصَاصِهِمْ بِذٰلِكَ وَقَدْ تَنَاقَلَ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ قَصِيدَةً يَنْسِبُونَهَا إِلَى حُكَمَاءِ ٱلْمَشْرِقِ تُعْطَى فِيهَا كَيْفِيَّةُ ٱلْعَمَلِ بِٱلتَّغْوِيرِ بِصِنَاعَةٍ سِحْرِيَّةٍ حَسْبَمَا تَرَاهُ فِيهَا وَهِيَ هٰذِهِ

يَا طَالِباً لِلسِّرِّ فِي ٱلتَّغْوِيرِ ۞ إِسْمَعْ كَلَامَ ٱلصِّدْقِ مِنْ خَبِيرِ
دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ صَنَّفُوا فِي كُتْبِهِمْ ۞ مِنْ قَوْلِ بُهْتَانٍ وَلَفْظِ غُرُورِ
وَٱسْمَعْ لِصِدْقِ مَقَالَتِي وَنَصِيحَتِي ۞ إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ لاَ يَرَى بِٱلزُّورِ
فَإِذَا أَرَدْتَ تَغَوُّرَ ٱلْبِئْرِ ٱلَّتِي ۞ حَارَتْ لَهَا ٱلْأَوْهَامُ فِي ٱلتَّدْبِيرِ
صَوِّرْ كَصُورَتِكَ ٱلَّتِي أَوْقَفْتَهَا ۞ وَٱلرَّأْسُ رَأْسُ ٱلشِّبْلِ فِي ٱلتَّقْوِيرِ
وَيَدَاهُ مَاسِكَتَانِ لِلْحَبْلِ ٱلَّذِي ۞ فِي ٱلدَّلْوِ يُنْشَلُ مِنْ قَرَارِ ٱلْبِيرِ
وَبِصَدْرِهِ هَاءٌ كَمَا عَايَنْتَهَا ۞ عَدَدُ ٱلطَّلَاقِ ٱحْذَرْ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ
وَيَطَا عَلَى ٱلطَّاءَاتِ غَيْرَ مُلَامِسٍ ۞ مَشْيَ ٱللَّبِيبِ ٱلْكَيِّسِ ٱلنِّحْرِيرِ
وَيَكُونُ حَوْلَ ٱلْكُلِّ خَطٌّ دَائِرٌ ۞ تَرْبِيعُهُ أَوْلَى مِنَ ٱلتَّكْوِيرِ

وَٱذْبَحْ عَلَيْهِ ٱلطَّيْرَ وَٱلطَّخْهُ بِهِ وَٱقْصِدْهُ عُقْبَ ٱلذَّبْحِ بِٱلتَّبْخِيرِ
بِٱلسَّنْدَرُوسِ وَبِٱللُّبَانِ وَمَيْعَةٍ وَٱلْبَسْطِ وَٱلْبِسْهُ بِثَوْبِ حَرِيرِ
مِنْ أَحْمَرٍ أَوْ أَصْفَرٍ لا أَزْرَقٍ لا أَخْضَرٍ فِيهِ وَلا تَكْدِيرِ
وَيَشُدُّهُ خِيطَانُ صُوفٍ أَبْيَضٍ أَوْ أَحْمَرٍ مِنْ خَالِصِ ٱلتَّحْمِيرِ
وَٱلطَّالِعُ ٱلْأَسَدُ ٱلَّذِي قَدْ بَيَّنُوا وَيَكُونُ بَدْءُ ٱلشَّهْرِ غَيْرَ مُنِيرِ
وَٱلْبَدْرُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ عُطَارِدٍ فِي يَوْمِ سَبْتٍ سَاعَةَ ٱلتَّدْبِيرِ

يعني أَنْ تَكُونَ الطَّاءَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا وَعِنْدِي أَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِن تَمْوِيهَاتِ ٱلْمُتَخَرِّفِينَ فَلَهُمْ فِي ذٰلِكَ أَحْوَالٌ غَرِيبَةٌ وَٱصْطِلاحَاتٌ عَجِيبَةٌ وَتَنْتَهِي ٱلتَّخَرُّفَةُ وَٱلْكَذِبُ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَسْكُنُوا ٱلْمَنَازِلَ ٱلْمَشْهُورَةَ وَٱلدُّورَ ٱلْمَعْرُوفَةَ لِمِثْلِ هٰذِهِ وَيَحْتَفِرُونَ ٱلْحُفَرَ وَيَضَعُونَ ٱلْمَطَابِقَ فِيهَا وَٱلشَّوَاهِدَ ٱلَّتِي يَكْتُبُونَهَا فِي صَحَائِفِ كَذِبِهِمْ ثُمَّ يَقْصِدُونَ ضُعَفَاءَ ٱلْعُقُولِ بِأَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلصَّحَائِفِ وَيَبْعَثُونَ عَلَى كِرَاءِ ذٰلِكَ ٱلْمَنْزِلِ وَسُكْنَاهُ وَيُوهِمُونَ أَنَّ بِهِ دَفِيناً مِنَ ٱلْمَالِ لا يُعَبَّرُ عَنْ كَثْرَتِهِ وَيُطَالِبُونَ بِٱلْمَالِ لِٱشْتِرَاءِ ٱلْعَقَاقِيرِ وَٱلْبَخُورَاتِ لِحَلِّ ٱلطَّلاسِمِ وَيَعِدُونَهُ بِظُهُورِ ٱلشَّوَاهِدِ ٱلَّتِي قَدْ أَعَدُّوهَا هُنَالِكَ بِأَنْفُسِهِمْ وَمِنْ فِعْلِهِمْ فَيَنْبَعِثُ لِمَا يَرَاهُ مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ قَدْ خُدِعَ وَلُبِّسَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ وَبَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ ٱصْطِلاحٌ فِي كَلامِهِمْ يُلَبِّسُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ لِيَخْفَى عِنْدَ مُحَاوَرَتِهِمْ فِيمَا يَتَلُونَهُ مِنْ حَفْرٍ وَبَخُورٍ وَذَبْحِ حَيَوَانٍ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَأَمَّا ٱلْكَلامُ فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَلا أَصْلَ لَهُ فِي عِلْمٍ وَلا خَبَرٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكُنُوزَ وَإِنْ كَانَتْ تُوجَدُ لٰكِنَّهَا فِي حُكْمِ ٱلنَّادِرِ وَعَلَى وَجْهِ ٱلِٱتِّفَاقِ لا عَلَى وَجْهِ ٱلْقَصْدِ إِلَيْهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِأَمْرٍ تَعُمُّ بِهِ ٱلْبَلْوَى حَتَّى يَدَّخِرَ ٱلنَّاسُ أَمْوَالَهُمْ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ وَيَخْتِمُونَ عَلَيْهَا بِٱلطَّلاسِمِ لا فِي ٱلْقَدِيمِ وَلا فِي ٱلْحَدِيثِ وَٱلرِّكَازُ ٱلَّذِي وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَفَرَضَهُ ٱلْفُقَهَاءُ وَهُوَ دَفِينُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا يُوجَدُ بِٱلْعُثُورِ وَٱلِٱتِّفَاقِ لا بِٱلْقَصْدِ وَٱلطَّلَبِ وَأَيْضاً فَمَنِ ٱخْتَزَنَ مَالَهُ وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِٱلْأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ فَقَدْ بَالَغَ فِي إِخْفَائِهِ فَكَيْفَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ ٱلْأَدِلَّةَ وَٱلْأَمَارَاتِ لِمَنْ يَبْتَغِيهِ وَيَكْتُبُ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّحَائِفِ حَتَّى يَطَّلِعَ عَلَى ذَخِيرَتِهِ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْآفَاقِ هٰذَا يُنَاقِضُ قَصْدَ ٱلْإِخْفَاءِ وَأَيْضاً فَأَفْعَالُ ٱلْعُقَلاءِ لا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ لِغَرَضٍ مَقْصُودٍ فِي ٱلِٱنْتِفَاعِ وَمَنِ ٱخْتَزَنَ ٱلْمَالَ فَإِنَّهُ يَخْتَزِنُهُ لِوُلْدِهِ أَوْ قَرِيبِهِ أَوْ مَنْ يُؤْثِرُهُ وَأَمَّا أَنْ

يقصِدَ إخفاءَهُ بِالكُلِّيَّةِ عن كُلِّ أحدٍ وإنَّمَا هُوَ لِلبَلاءِ وَالهَلاكِ أو لِمَنْ لا يَعرِفُهُ بِالكُلِّيَّةِ مِمَّنْ سيأتِي مِنَ الأُمَمِ فهَذَا لَيسَ مِنْ مَقَاصِدِ العُقَلاءِ بِوَجْهٍ وأمَّا قولُهم أينَ أموالُ الأُمَمِ مِنْ قَبلِنا وما عُلِمَ فِيهَا مِنَ الكَثرةِ والوُفُورِ فاعلَمْ أنَّ الأموالَ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والجَوَاهِرِ والأمتِعَةِ إنَّمَا هِيَ مَعَادِنُ ومَكَاسِبُ مِثْلُ الحَدِيدِ والنُّحَاسِ والرَّصَاصِ وسائِرِ العَقَارَاتِ والمَعَادِنِ والعُمرانُ يُظهِرُهَا بِالأعمالِ الإنسانِيَّةِ ويَزِيدُ فِيهَا أو يُنقِصُهَا ومَا يُوجَدُ مِنهَا بِأيدِي النَّاسِ فهُوَ مُتَنَاقَلٌ مُتَوَارَثٌ ورُبَّمَا انتَقَلَ مِن قُطرٍ إلى قُطرٍ ومِنْ دَولَةٍ إلى أُخرَى بِحَسَبِ أغرَاضِهِ والعُمرانُ الَّذِي يَستَدعِي لَهُ فإن نقَصَ المَالُ فِي المَغرِبِ وأفرِيقِيَّةَ فلَمْ يَنقُصْ بِبِلادِ الصَّقَالِبَةِ والإفرَنجِ وإنْ نقَصَ فِي مِصرَ والشَّامِ فلَمْ يَنقُصْ فِي الهِندِ والصِّينِ وإنَّمَا هِيَ الآلاتُ والمَكَاسِبُ والعُمرانُ يُوَفِّرُهَا أو يُنقِصُهَا مَعَ أنَّ المَعَادِنَ يُدرِكُهَا البَلاءُ كمَا يُدرِكُ سائِرَ المَوجُودَاتِ ويُسرِعُ إلى اللُّؤلُؤِ والجَوهَرِ أعظَمَ مِمَّا يُسرِعُ إلى غَيرِهِ وكَذَا الذَّهَبُ والفِضَّةُ والنُّحَاسُ والحَدِيدُ والرَّصَاصُ والقَصدِيرُ يَنَالُهَا مِنَ البَلاءِ والفَنَاءِ مَا يُذهِبُ بِأعيَانِهَا لِأقرَبِ وَقتٍ وأمَّا مَا وَقَعَ فِي مِصرَ مِنْ أمرِ المَطَالِبِ والكُنُوزِ فسَبَبُهُ أنَّ مِصرَ فِي مَلَكَةِ القِبطِ مُنذُ آلافٍ أو يَزِيدُ مِنَ السِّنِينَ وكَانَ مَوتَاهُم يُدفَنُونَ بِمَوجُودِهِم مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والجَوهَرِ واللَّآلِيءِ عَلَى مَذهَبِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أهلِ الدُّوَلِ فلَمَّا انقَضَتْ دَولَةُ القِبطِ ومَلَكَ الفُرسُ بِلادَهُم نَقَّرُوا عَلَى ذَلِكَ فِي قُبُورِهِم فكَشَفُوا عَنهُ فأخَذُوا مِنْ قُبُورِهِم مَا لا يُوصَفُ كالأهرَامِ مِنْ قُبُورِ المُلُوكِ وغَيرِهَا وكَذَا فَعَلَ اليُونَانِيُّونَ مِنْ بَعدِهِم وصَارَتْ قُبُورُهُم مَظِنَّةً لِذَلِكَ لِهَذَا العَهدِ ويُعثَرُ عَلَى الدَّفِينِ فِيهَا كَثِيراً مِنَ الأوقَاتِ أمَّا مَا يَدفِنُونَهُ مِن أموَالِهِم أو مَا يُكَرِّمُونَ بِهِ مَوتَاهُم فِي الدَّفنِ مِنْ أوعِيَةٍ وتَوَابِيتَ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ مُعَدَّةٍ لِذَلِكَ فصَارَتْ قُبُورُ القِبطِ مُنذُ آلافٍ مِنَ السِّنِينَ مَظِنَّةً لِوُجُودِ ذَلِكَ فِيهَا فلِذَلِكَ عُنِيَ أهلُ مِصرَ بِالبَحثِ عَنِ المَطَالِبِ لِوُجُودِ ذَلِكَ فِيهَا واستِخرَاجِهَا حَتَّى إنَّهُم حِينَ ضُرِبَت المُكُوسُ عَلَى الأصنَافِ آخِرَ الدَّولَةِ ضُرِبَتْ عَلَى أهلِ المَطَالِبِ وصَدَرَتْ ضَرِيبَةٌ عَلَى مَنْ يَشتَغِلُ بِذَلِكَ مِنَ الحَمقَى والمَهَوَّسِينَ فوَجَدَ بِذَلِكَ المُتَعَاطُونَ مِنْ أهلِ الأطمَاعِ الذَّرِيعَةَ إلى الكَشفِ عَنهُ والذَّرْعِ بِاستِخرَاجِهِ ومَا حَصَلُوا إلَّا عَلَى الخَيبَةِ فِي جَمِيعِ مَسَاعِيهِم نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الخُسرَانِ فيَحتَاجُ مَنْ وَقَعَ لَهُ شَيءٌ مِنْ هَذَا الوَسوَاسِ وابتُلِيَ بِهِ أن

يتعوّذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوّذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

الفصل الخامس

في ان الجاه مفيد للمال

وذلك أنا نجد صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروة من فاقد الجاه. والسبب في ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يتقرب بها إليه في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه فالناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمالي فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه وجميع معاشاته أن تبذل فيه الأعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه فهو بين قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتتوفر عليه والأعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لأقرب وقت ويزداد مع الأيام يساراً وثروة ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم أكثر التجار ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير ومما يشهد لذلك أنا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا حسن الظن بهم واعتقد الجمهور معاملة الله في إرفادهم فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال في مصالحهم وأسرعت إليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى إلا ما يحصل لهم من قيم الأعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم رأينا من ذلك أعداداً في الأمصار والمدن وفي البدو يسعى لهم الناس في الفلح والتجر وكل هو قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأثل الغنى من غير سعي ويعجب من لا يفطن لهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه ويساره والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب

الفصل السادس

في ان السعادة والكسب انما يحصل غالباً لاهل الخضوع والتملق وان هذا الخلق من اسباب السعادة

قَدْ سَلَفَ لَنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ ٱلْكَسْبَ ٱلَّذِي يَسْتَفِيدُهُ ٱلْبَشَرُ إِنَّمَا هُوَ قِيَمُ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ قُدِّرَ أَحَدٌ عُطِّلَ عَنِ ٱلْعَمَلِ جُمْلَةً لَكَانَ فَاقِدَ ٱلْكَسْبِ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَعَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ وَشَرَفِهِ بَيْنَ ٱلْأَعْمَالِ وَحَاجَةِ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ يَكُونُ قَدْرُ قِيمَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ ذَٰلِكَ نُمُوُّ كَسْبِهِ أَوْ نُقْصَانُهُ وَقَدْ بَيَّنَّا آنِفاً أَنَّ ٱلْجَاهَ يُفِيدُ ٱلْمَالَ لِمَا يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ تَقَرُّبِ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَفْعِ ٱلْمَضَارِّ وَجَلْبِ ٱلْمَنَافِعِ وَكَانَ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ أَوْ مَالٍ عِوَضاً عَمَّا يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ ٱلْجَاهِ مِنَ ٱلْأَغْرَاضِ فِي صَالِحٍ أَوْ طَالِحٍ وَتَصِيرُ تِلْكَ ٱلْأَعْمَالُ فِي كَسْبِهِ وَقِيَمُهَا أَمْوَالٌ وَثَرْوَةٌ لَهُ فَيَسْتَفِيدُ ٱلْغِنَى وَٱلْيَسَارَ لِأَقْرَبِ وَقْتٍ ثُمَّ إِنَّ ٱلْجَاهَ مُتَوَزَّعٌ فِي ٱلنَّاسِ وَمُتَرَتِّبٌ فِيهِمْ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ يَنْتَهِي فِي ٱلْعُلُوِّ إِلَى ٱلْمُلُوكِ ٱلَّذِينَ لَيْسَ فَوْقَهُمْ يَدٌ عَالِيَةٌ وَفِي ٱلسَّفَلِ إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ ضُرّاً وَلَا نَفْعاً بَيْنَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَبَيْنَ ذَٰلِكَ طَبَقَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ حِكْمَةُ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَنْتَظِمُ مَعَاشُهُمْ وَتَتَيَسَّرُ مَصَالِحُهُمْ وَيَتِمُّ بَقَاؤُهُمْ لِأَنَّ ٱلنَّوْعَ ٱلْإِنْسَانِيَّ لَا يَتِمُّ وُجُودُهُ إِلَّا بِٱلتَّعَاوُنِ وَإِنَّهُ وَإِنْ نَدَرَ فَقْدُ ذَٰلِكَ فِي صُورَةٍ مَفْرُوضَةٍ لَا يَصِحُّ بَقَاؤُهُ ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلتَّعَاوُنَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِٱلْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ لِجَهْلِهِمْ فِي ٱلْأَكْثَرِ بِمَصَالِحِ ٱلنَّوْعِ وَلِمَا جُعِلَ لَهُمْ مِنَ ٱلْاِخْتِيَارِ وَأَنَّ أَفْعَالَهُمْ إِنَّمَا تَصْدُرُ بِٱلْفِكْرِ وَٱلرَّوِيَّةِ لَا بِٱلطَّبْعِ وَقَدْ يَمْتَنِعُ مِنَ ٱلْمُعَاوَنَةِ فَيَتَعَيَّنُ حَمْلُهُ عَلَيْهَا فَلَا بُدَّ مِنْ حَامِلٍ يُكْرِهُ أَبْنَاءَ ٱلنَّوْعِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ لِتَتِمَّ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ فِي بَقَاءِ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلْجَاهَ هُوَ ٱلْقُدْرَةُ ٱلْحَامِلَةُ لِلْبَشَرِ عَلَى ٱلتَّصَرُّفِ فِي مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ بِٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلتَّسَلُّطِ بِٱلْقَهْرِ وَٱلْغَلَبَةِ لِيَحْمِلَهُمْ عَلَى دَفْعِ مَضَارِّهِمْ وَجَلْبِ مَنَافِعِهِمْ فِي ٱلْعَدْلِ بِأَحْكَامِ ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَعَلَى أَغْرَاضِهِ فِيمَا سِوَى ذَٰلِكَ وَلٰكِنَّ ٱلْأَوَّلَ مَقْصُودٌ فِي ٱلْعِنَايَةِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ بِٱلذَّاتِ وَٱلثَّانِي دَاخِلٌ فِيهَا بِٱلْعَرَضِ كَسَائِرِ ٱلشُّرُورِ ٱلدَّاخِلَةِ فِي ٱلْقَضَاءِ ٱلْإِلٰهِيِّ لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَتِمُّ وُجُودُ ٱلْخَيْرِ ٱلْكَثِيرِ إِلَّا بِوُجُودِ شَرٍّ يَسِيرٍ مِنْ أَجْلِ ٱلْمَوَادِّ فَلَا يَفُوتُ ٱلْخَيْرُ بِذَٰلِكَ بَلْ يَقَعُ

علَى مَا يَنطَوِي عَلَيْهِ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلْيَسِيرِ وَهٰذَا مَعْنَى وُقُوعِ ٱلظُّلْمِ فِي ٱلْخَلِيقَةِ فَتَفَهَّمْ ثُمَّ إِنَّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ طِبَاقِ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى مَنْ دُونَهَا مِنَ ٱلطِّبَاقِ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلطَّبَقَةِ ٱلسُّفْلَى يَسْتَمِدُّ بِذِي ٱلْجَاهِ مِنْ أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلَّتِي فَوْقَهُ وَيَزْدَادُ كَسْبُهُ تَصَرُّفًا فِيمَنْ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدَرِ مَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ وَٱلْجَاهُ عَلَى ذٰلِكَ دَاخِلٌ عَلَى ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ ٱلْمَعَاشِ وَيَتَّسِعُ وَيَضِيقُ بِحَسَبِ ٱلطَّبَقَةِ وَٱلطَّوْرِ ٱلَّذِي فِيهِ صَاحِبُهُ فَإِنْ كَانَ ٱلْجَاهُ مُتَّسِعًا كَانَ ٱلْكَسْبُ ٱلنَّاشِئُ عَنْهُ كَذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ ضَيِّقًا قَلِيلًا فَمِثْلُهُ وَفَاقِدُ ٱلْجَاهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فَلَا يَكُونُ يَسَارُهُ إِلَّا بِمِقْدَارِ عَمَلِهِ أَوْ مَالِهِ وَنِسْبَةِ سَعْيِهِ ذَاهِبًا وَآيِبًا فِي تَنْمِيَتِهِ كَأَكْثَرِ ٱلتُّجَّارِ وَأَهْلُ ٱلْفِلَاحَةِ فِي ٱلْغَالِبِ وَأَهْلُ ٱلصَّنَائِعِ كَذٰلِكَ إِذَا فَقَدُوا ٱلْجَاهَ وَٱقْتَصَرُوا عَلَى فَوَائِدِ صَنَائِعِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَى ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَلَا تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ ثَرْوَةٌ وَإِنَّمَا يَرْمُقُونَ ٱلْعَيْشَ تَرْمِيقًا وَيُدَافِعُونَ ضَرُورَةَ ٱلْفَقْرِ مُدَافَعَةً وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلْجَاهَ مُتَفَرِّعٌ وَأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ وَٱلْخَيْرَ مُقْتَرِنَانِ بِحُصُولِهِ عَلِمْتَ أَنَّ بَذْلَهُ وَإِفَادَتَهُ مِنْ أَعْظَمِ ٱلنِّعَمِ وَأَجَلِّهَا وَأَنَّ بَاذِلَهُ مِنْ أَجَلِّ ٱلْمُنْعِمِينَ وَإِنَّمَا يَبْذُلُهُ لِمَنْ تَحْتَ يَدَيْهِ فَيَكُونُ بَذْلُهُ بِيَدٍ عَالِيَةٍ وَعِزَّةٍ فَيَحْتَاجُ طَالِبُهُ وَمُبْتَغِيهِ إِلَى خُضُوعٍ وَتَمَلُّقٍ كَمَا يَسْأَلُ أَهْلُ ٱلْعِزِّ وَٱلْمُلُوكُ وَإِلَّا فَيَتَعَذَّرُ حُصُولُهُ فَلِذٰلِكَ قُلْنَا إِنَّ ٱلْخُضُوعَ وَٱلتَّمَلُّقَ مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ هٰذَا ٱلْجَاهِ ٱلْمُحَصِّلِ لِلسَّعَادَةِ وَٱلْكَسْبِ وَإِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ ٱلثَّرْوَةِ وَٱلسَّعَادَةِ بِهٰذَا ٱلتَّمَلُّقِ وَلِهٰذَا نَجِدُ ٱلْكَثِيرَ مِمَّنْ يَتَخَلَّقُ بِٱلتَّرَفُّعِ وَٱلشَّمَمِ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ غَرَضُ ٱلْجَاهِ فَيَقْتَصِرُونَ فِي ٱلتَّكَسُّبِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلْكِبْرَ وَٱلتَّرَفُّعَ مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَذْمُومَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ مِنْ تَوَهُّمِ ٱلْكَمَالِ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى بِضَاعَتِهِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ كَٱلْعَالِمِ ٱلْمُتَبَحِّرِ فِي عِلْمِهِ وَٱلْكَاتِبِ ٱلْمُجِيدِ فِي كِتَابَتِهِ أَوِ ٱلشَّاعِرِ ٱلْبَلِيغِ فِي شِعْرِهِ وَكُلُّ مُحْسِنٍ فِي صِنَاعَتِهِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ ٱلنَّاسَ مُحْتَاجُونَ لِمَا بِيَدِهِ فَيَحْدُثُ لَهُ تَرَفُّعٌ عَلَيْهِمْ بِذٰلِكَ وَكَذَا يَتَوَهَّمُ أَهْلُ ٱلْأَنْسَابِ مِمَّنْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ أَوْ عَالِمٌ مَشْهُورٌ أَوْ كَامِلٌ فِي طَوْرٍ يَعْتَزُّونَ بِهِ بِمَا رَأَوْهُ أَوْ سَمِعُوهُ مِنْ حَالِ آبَائِهِمْ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمُ ٱسْتَحَقُّوا مِثْلَ ذٰلِكَ بِقَرَابَتِهِمْ إِلَيْهِمْ وَوِرَاثَتِهِمْ عَنْهُمْ فَهُمْ مُتَمَسِّكُونَ فِي ٱلْحَاضِرِ بِٱلْأَمْرِ ٱلْمَعْدُومِ وَكَذٰلِكَ أَهْلُ ٱلْحِيلَةِ وَٱلْبَصَرِ وَٱلتَّجَارِبِ بِٱلْأُمُورِ قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُهُمْ كَمَالًا فِي نَفْسِهِ بِذٰلِكَ وَٱحْتِيَاجًا

إِلَيْهِ وَتَجِدُ هؤُلَاءِ ٱلْأَصْنَافَ كُلَّهُمْ مُتَرَفِّعِينَ لَا يَخْضَعُونَ لِصَاحِبِ ٱلْجَاهِ وَلَا يَتَمَلَّقُونَ لِمَنْ هوَ أَعلى مِنْهُمْ وَيَسْتَصْغِرُونَ مَنْ سِوَاهُمْ لِاعْتِقَادِهِمِ ٱلْفَضْلَ عَلى ٱلنَّاسِ فَيَسْتَنْكِفُ أَحَدُهُم عنِ ٱلْخُضُوعِ وَلَوْ كَانَ لِلْمَلِكِ وَيَعُدُّهُ مَذَلَّةً وَهَوَاناً وَسَفَهاً وَيُحَاسِبُ ٱلنَّاسَ في مُعَامَلَتِهِم إِيَّاهُ بِمِقْدَارِ مَا يَتَوَهَّمُ فِي نَفْسِهِ وَيَحْقِدُ عَلى مَنْ قَصَّرَ لَهُ في شَيْءٍ مِمَّا يَتَوَهَّمُهُ مِنْ ذٰلِكَ وَرُبَّمَا يَدْخُلُ عَلى نَفْسِهِ ٱلْهُمُومُ وَٱلْأَحْزَانُ مِنْ تَقْصِيرِهِمْ فِيهِ وَيَسْتَمِرُّ في عَنَاءٍ عَظِيمٍ مِنْ إِيجَابِ ٱلْحَقِّ لِنَفْسِهِ أَوْ إِبَايَةِ ٱلنَّاسِ لَهُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَحْصُلُ لَهُ ٱلْمَقْتُ مِنَ ٱلنَّاسِ لِمَا في طِبَاعِ ٱلْبَشَرِ مِنَ ٱلتَّأَلُّهِ وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَحَدٍ في ٱلْكَمَالِ وَٱلتَّرَفُّعِ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْقَهْرِ وَٱلْغَلَبَةِ وَٱلِاسْتِطَالَةِ وَهٰذَا كُلُّهُ في ضِمْنِ ٱلْجَاهِ فَإِذَا فَقَدَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْخُلُقِ ٱلْجَاهَ وَهُوَ مَفْقُودٌ لَهُ كَمَا تَبَيَّنَ لَكَ مَقَتَهُ ٱلنَّاسُ بِهٰذَا ٱلتَّرَفُّعِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَظٌّ مِنْ إِحْسَانِهِمْ وَفَقَدَ ٱلْجَاهَ لِذٰلِكَ مِنْ أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْلَى مِنْهُ لِأَجْلِ ٱلْمَقْتِ وَمَا يَحْصُلُ لَهُ بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُعُودِ عَنْ تَعَاهُدِهِمْ وَغِشْيَانِ مَنَازِلِهِمْ فَفَسَدَ مَعَاشُهُ وَبَقِيَ في خَصَاصَةٍ وَفَقْرٍ أَوْ فَوْقَ ذٰلِكَ بِقَلِيلٍ وَأَمَّا ٱلثَّرْوَةُ فَلَا تَحْصُلُ لَهُ أَصْلاً وَمِنْ هٰذَا ٱشْتَهَرَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنَّ ٱلْكَامِلَ في ٱلْمَعْرِفَةِ مَحْرُومٌ مِنَ ٱلْحَظِّ وَأَنَّهُ قَدْ حُوسِبَ بِمَا رُزِقَ مِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَٱقْتُطِعَ لَهُ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْحَظِّ وَهٰذَا مَعْنَاهُ وَمَنْ خُلِقَ لِشَيْءٍ يُسِّرَ لَهُ وَٱللهُ ٱلْمُقَدِّرُ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَلَقَدْ يَقَعُ فِي ٱلدُّوَلِ أَضْرَابٌ في ٱلْمَرَاتِبِ مِنْ أَهْلِ ٱلْخُلُقِ وَيَرْتَفِعُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلسَّفَلَةِ وَيَنْزِلُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْعِلْيَةِ بِسَبَبِ ذٰلِكَ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّوَلَ إِذَا بَلَغَتْ نِهَايَتَهَا مِنَ ٱلتَّغَلُّبِ وَٱلِاسْتِيلَاءِ ٱنْفَرَدَ مِنْهَا مَنْبِتُ ٱلْمُلْكِ بِمُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَيَئِسَ مَنْ سِوَاهُم مِنْ ذٰلِكَ وَإِنَّمَا صَارُوا في مَرَاتِبَ دُونَ مَرْتَبَةِ ٱلْمَلِكِ وَتَحْتَ يَدِ ٱلسُّلْطَانِ وَكَأَنَّهُمْ خَوَلٌ لَهُ فَإِذَا ٱسْتَمَرَّتِ ٱلدَّوْلَةُ وَشَمَخَ ٱلْمَلِكُ تَسَاوَى حِينَئِذٍ في ٱلْمَنْزِلَةِ عِنْدَ ٱلسُّلْطَانِ كُلُّ مَنِ ٱنْتَمَى إِلى خِدْمَتِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِنَصِيحَةٍ وَٱصْطَنَعَهُ ٱلسُّلْطَانُ لِغَنَائِهِ في كَثِيرٍ مِنْ مُهِمَّاتِهِ فَتَجِدُ كَثِيراً مِنَ ٱلسُّوقَةِ يَسْعَى في ٱلتَّقَرُّبِ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ بِجِدِّهِ وَنُصْحِهِ وَيَتَزَلَّفُ إِلَيْهِ بِوُجُوهِ خِدْمَتِهِ وَيَسْتَعِينُ عَلى ذٰلِكَ بِعَظِيمٍ مِنَ ٱلْخُضُوعِ وَٱلتَّمَلُّقِ لَهُ وَلِحَاشِيَتِهِ وَأَهْلِ نَسَبِهِ حَتَّى يُرَسِّخَ قَدَمَهُ مَعَهُمْ وَيَنْظِمَهُ ٱلسُّلْطَانُ في جُمْلَتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُ بِذٰلِكَ حَظٌّ عَظِيمٌ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ وَيَنْتَظِمُ في عَدَدِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَنَاشِئَةُ ٱلدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنْ أَبْنَاءِ قَوْمِهَا ٱلَّذِينَ ذَلَّلُوا أَضْغَانَهُمْ وَمَهَّدُوا أَكْنَافَهُمْ مُغْتَرِّينَ بِمَا كَانَ لِآبَائِهِمْ في ذٰلِكَ مِنَ ٱلْآثَارِ لَمْ

تَسْمَحُ بِهِ نُفُوسُهُمْ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَيَعْتَدُونَ بِآثَارِهِ وَيَجْرُونَ فِي مِضْمَارِ ٱلدَّوْلَةِ بِسَبَبِهِ فَيَمْقُتُهُمُ ٱلسُّلْطَانُ لِذَلِكَ وَيُبَاعِدُهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى هٰؤُلاءِ ٱلْمُصْطَنَعِينَ ٱلَّذِينَ لا يَعْتَدُّونَ بِقَدِيمٍ وَلا يَذْهَبُونَ إِلَى دَالَّةٍ وَلا تَرَفُّعٍ إِنَّمَا دَأْبُهُمُ ٱلْخُضُوعُ لَهُ وَٱلتَّمَلُّقُ وَٱلِاعْتِمَالُ فِي غَرَضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ فَيَتَّسِعُ جَاهُهُمْ وَتَعْلُو مَنَازِلُهُمْ وَتَنْصَرِفُ إِلَيْهِمُ ٱلْوُجُوهُ وَٱلْخَوَاطِرُ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ ٱلسُّلْطَانِ وَٱلْمَكَانَةِ عِنْدَهُ وَيَبْقَى نَاشِئَةُ ٱلدَّوْلَةِ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ ٱلتَّرَفُّعِ وَٱلِاعْتِدَادِ بِٱلْقَدِيمِ لا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا بُعْداً مِنَ ٱلسُّلْطَانِ وَمَقْتاً وَإِيثَاراً لِهٰؤُلاءِ ٱلْمُصْطَنَعِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ ٱلدَّوْلَةُ وَهٰذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلدَّوْلَةِ وَمِنْهُ جَاءَ شَأْنُ ٱلْمُصْطَنَعِينَ فِي ٱلْغَالِبِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل السابع

في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

وَٱلسَّبَبُ لِذَلِكَ أَنَّ ٱلْكَسْبَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ قِيمَةُ ٱلْأَعْمَالِ وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي ٱلْعُمْرَانِ عَامَّةَ ٱلْبَلْوَى بِهِ كَانَتْ قِيمَتُهَا أَعْظَمَ وَكَانَتِ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ وَأَهْلُ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلدِّينِيَّةِ لا تُضْطَرُّ إِلَيْهِمْ عَامَّةُ ٱلْخَلْقِ وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ ٱلْخَوَاصُّ مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَى دِينِهِ وَإِنِ ٱحْتِيجَ إِلَى ٱلْفُتْيَا وَٱلْقَضَاءِ فِي ٱلْخُصُومَاتِ فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ ٱلِاضْطِرَارِ وَٱلْعُمُومِ فَيَقَعُ ٱلِاسْتِغْنَاءُ عَنْ هٰؤُلاءِ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَإِنَّمَا يَهْتَمُّ بِإِقَامَةِ مَرَاسِمِهِمْ صَاحِبُ ٱلدَّوْلَةِ بِمَا نَالَهُ مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَصَالِحِ فَيَقْسِمُ لَهُمْ حَظّاً مِنَ ٱلرِّزْقِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ عَلَى ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي قَرَّرْنَاهُ لا يُسَاوِيهِمْ بِأَهْلِ ٱلشَّوْكَةِ وَلا بِأَهْلِ ٱلصَّنَائِعِ مِنْ حَيْثُ ٱلدِّينُ وَٱلْمَرَاسِمُ ٱلشَّرْعِيَّةُ لٰكِنَّهُ يَقْسِمُ بِحَسَبِ عُمُومِ ٱلْحَاجَةِ وَضَرُورَةِ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ فَلا يَصِحُّ فِي قَسْمِهِمْ إِلَّا ٱلْقَلِيلُ وَهُمْ أَيْضاً لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ أَعِزَّةٌ عَلَى ٱلْخَلْقِ وَعِنْدَ نُفُوسِهِمْ فَلا يَخْضَعُونَ لِأَهْلِ ٱلْجَاهِ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهُ حَظّاً يَسْتَدِرُّونَ بِهِ ٱلرِّزْقَ بَلْ وَلا تَفْرَغُ أَوْقَاتُهُمْ لِذَلِكَ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ ٱلشُّغْلِ بِهٰذِهِ ٱلْبَضَائِعِ ٱلشَّرِيفَةِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى إِعْمَالِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْبَدَنِ بَلْ وَلا يَسَعُهُمُ ٱبْتِذَالُ أَنْفُسِهِمْ لِأَهْلِ ٱلدُّنْيَا لِشَرَفِ بَضَائِعِهِمْ فَهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذَلِكَ فَلِذَلِكَ لا تَعْظُمُ ثَرْوَتُهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ وَلَقَدْ بَاحَثْتُ بَعْضَ ٱلْفُضَلاءِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيَّ فَوَقَعَ بِيَدِي أَوْرَاقٌ مُخَرَّقَةٌ مِنْ حِسَابَاتِ ٱلدَّوَاوِينِ

بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين فوقفته عليه وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه والله الخالق القادر لا رب سواه

الفصل الثامن

في ان الفلاحة من معاش المتضعين واهل العافية من البدو

وذلك لأنه أصيل في الطبيعة وبسيط في منحاه ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضر في الغالب ولا من المترفين ويختص منتحله بالمذلة قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة ببعض دور الأنصار ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل وحمله البخاري على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضي إلى التحكم واليد العالية فيكون الغارم ذليلا بائسا بما تتناوله أيدي القهر والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرما إشارة إلى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور ونسيان حقوق الله تعالى في المتمولات واعتبار الحقوق كلها مغرم للملوك والدول والله قادر على ما يشاء والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل التاسع

في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها

إعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيام كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمى ربحا فالمحاول لذلك الربح إما أن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه وإما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة أنا أعلمها لك في كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالي فقد حصلت التجارة إشارة منه بذلك إلى المعنى الذي قررناه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه

الفصل العاشر

في اي اصناف الناس يحترف بالتجارة وايهم ينبغي له اجتناب حرفها

قد قدمنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء إما بانتظار حوالة الأسواق أو نقلها إلى بلد هي فيه أنفق وأغلى أو بيعها بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال يسير إلا أن المال إذا كان كثيراً عظم الربح لأن القليل في الكثير كثير ثم لا بد في محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بأيدي الباعة في شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في تقاضي أثمانها وأهل النصفة قليل فلا بد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ومن المطل في الأثمان المجحف بالربح كتعطيل المحاولة في تلك المدة وبها نماؤه ومن الجحود والإنكار المسحت لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة وغنى الحكام في ذلك قليل لأن الحكم إنما هو على الظاهر فيعاني التاجر من ذلك أحوالاً صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ماله فإن كان جريئاً على الخصومة بصيراً بالحسبان شديد المماحكة مقداماً على الحكام كان ذلك أقرب له إلى النصفة بجراءته منهم ومماحكته وإلا فلا بد له من جاه يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من معامليه فيحصل له بذلك النصفة في ماله طوعاً في الأول وكرهاً في الثاني وأما من كان فاقداً للجراءة والإقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكام فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة لأنه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير مأكلة للباعة ولا يكاد ينتصف منهم لأن الغالب في الناس وخصوصاً الرعاع والباعة شرهون إلى ما في أيدي الناس سواهم متوثبون عليه ولولا وازع الأحكام لأصبحت أموال الناس نهباً ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين.

الفصل الحادي عشر

في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء ولا بد فيه من

ٱلْمُكَايَسَةِ ضَرُورَةٌ فَإِنِ ٱقْتُصِرَ عَلَيْهَا ٱقْتَصِرَتْ بِهِ عَلَى خُلُقِهَا وَهِيَ أَعْنِي خُلُقَ ٱلْمُكَايَسَةِ بَعِيدَةٌ عَنِ ٱلْمُرُوءَةِ ٱلَّتِي تَتَخَلَّقُ بِهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْأَشْرَافُ وَأَمَّا إِنِ ٱسْتُرْذِلَ خُلُقُهُ بِمَا يَتْبَعُ ذَٰلِكَ فِي أَهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلسُّفْلَى مِنْهُمْ مِنَ ٱلْمُمَاحَكَةِ وَٱلْغِشِّ وَٱلْخِلَابَةِ وَتَعَاهُدِ ٱلْأَيْمَانِ ٱلْكَاذِبَةِ عَلَى ٱلْأَثْمَانِ رَدًّا وَقُبُولًا فَأَجْدِرْ بِذَٰلِكَ ٱلْخُلُقِ أَنْ يَكُونَ فِي غَايَةِ ٱلْمَذَلَّةِ لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَلِذَٰلِكَ تَجِدُ أَهْلَ ٱلرِّئَاسَةِ يَتَحَامَوْنَ ٱلِٱحْتِرَافَ بِهَٰذِهِ ٱلْحِرْفَةِ لِأَجْلِ مَا يُكْسِبُ مِنْ هَٰذَا ٱلْخُلُقِ وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَٰذَا ٱلْخُلُقِ وَيَتَحَامَاهُ لِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ جِلَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ فِي ٱلنَّادِرِ بَيْنَ ٱلْوُجُودِ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَهُوَ رَبُّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ

الفصل الثاني عشر

في نقل التاجر للسلع

ٱلتَّاجِرُ ٱلْبَصِيرُ بِٱلتِّجَارَةِ لَا يَنْقُلُ مِنَ ٱلسِّلَعِ إِلَّا مَا تَعُمُّ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْغَنِيِّ وَٱلْفَقِيرِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلسُّوقَةِ إِذْ فِي ذَٰلِكَ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ وَأَمَّا إِذَا ٱخْتَصَّ نَقْلُهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْبَعْضُ فَقَطْ فَقَدْ يَتَعَذَّرُ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ حِينَئِذٍ بِإِعْوَازِ ٱلشِّرَاءِ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْبَعْضِ لِعَارِضٍ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ فَتَكْسُدُ سُوقُهُ وَتَفْسُدُ أَرْبَاحُهُ وَكَذَٰلِكَ إِذَا نَقَلَ ٱلسِّلْعَةَ ٱلْمُحْتَاجَ إِلَيْهَا فَإِنَّمَا يَنْقُلُ ٱلْوَسَطَ مِنْ صِنْفِهَا فَإِنَّ ٱلْعَالِيَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلسِّلَعِ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِ أَهْلُ ٱلثَّرْوَةِ وَحَاشِيَةُ ٱلدَّوْلَةِ وَهُمُ ٱلْأَقَلُّ وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلنَّاسُ أُسْوَةً فِي ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْوَسَطِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ فَلْيَتَحَرَّ ذَٰلِكَ جُهْدَهُ فَفِيهِ نَفَاقُ سِلْعَتِهِ أَوْ كَسَادُهَا وَكَذَٰلِكَ نَقْلُ ٱلسِّلَعِ مِنَ ٱلْبَلَدِ ٱلْبَعِيدِ ٱلْمَسَافَةِ أَوْ فِي شِدَّةِ ٱلْخَطَرِ فِي ٱلطُّرُقَاتِ يَكُونُ أَكْثَرَ فَائِدَةً لِلتُّجَّارِ وَأَعْظَمَ أَرْبَاحًا وَأَكْفَلَ بِحَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ لِأَنَّ ٱلسِّلْعَةَ ٱلْمَنْقُولَةَ حِينَئِذٍ تَكُونُ قَلِيلَةً مُعْوِزَةً لِبُعْدِ مَكَانِهَا أَوْ شِدَّةِ ٱلْغَرَرِ فِي طَرِيقِهَا فَيَقِلُّ حَامِلُوهَا وَيَعِزُّ وُجُودُهَا وَإِذَا قَلَّتْ وَعَزَّتْ غَلَتْ أَثْمَانُهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَ ٱلْبَلَدُ قَرِيبَ ٱلْمَسَافَةِ وَٱلطَّرِيقُ سَابِلًا بِٱلْأَمْنِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكْثُرُ نَاقِلُوهَا فَتَكْثُرُ وَتَرْخُصُ أَثْمَانُهَا وَلِهَٰذَا تَجِدُ ٱلتُّجَّارَ ٱلَّذِينَ يُولَعُونَ بِٱلدُّخُولِ إِلَى بِلَادِ ٱلسُّودَانِ أَرْفَهَ ٱلنَّاسِ وَأَكْثَرَهُمْ أَمْوَالًا لِبُعْدِ طَرِيقِهِمْ وَمَشَقَّتِهِ وَٱعْتِرَاضِ ٱلْمَفَازَةِ ٱلصَّعْبَةِ ٱلْمُخْطِرَةِ بِٱلْخَوْفِ وَٱلْعَطَشِ لَا يُوجَدُ فِيهَا ٱلْمَاءُ إِلَّا فِي أَمَاكِنَ مَعْلُومَةٍ يَهْتَدِي إِلَيْهَا أَدِلَّاءُ ٱلرُّكْبَانِ فَلَا يَرْتَكِبُ خَطَرَ هَٰذَا ٱلطَّرِيقِ وَبُعْدَهُ إِلَّا ٱلْأَقَلُّ مِنَ ٱلنَّاسِ فَتَجِدُ

سلعَ بلادِ ٱلسُّودَانِ قَلِيلَةٌ لَدَيْنَا فَتَخْتَصُّ بِٱلغَلاءِ وَكَذٰلِكَ سِلَعُنَا لَدَيْهِمْ فَتَعْظُمُ بَضَائِعُ ٱلتُّجَّارِ مِنْ تَنَاقُلِهَا وَيُسْرِعُ إِلَيْهِمِ ٱلغِنَى وَٱلثَّرْوَةُ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ وَكَذٰلِكَ ٱلْمُسَافِرُونَ مِنْ بِلادِنَا إِلى ٱلمَشْرِقِ لِبُعْدِ ٱلشُّقَّةِ أَيْضاً وَأَمَّا ٱلْمُتَرَدِّدُونَ فِي أُفُقٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ أَمْصَارِهِ وَبُلْدَانِهِ فَفَائِدَتُهُمْ قَلِيلَةٌ وَأَرْبَاحُهُمْ تَافِهَةٌ لِكَثْرَةِ ٱلسِّلَعِ وَكَثْرَةِ نَاقِلِيهَا وَٱللهُ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلقُوَّةِ ٱلمَتِينُ

الفصل الثالث عشر

في الاحتكار

وَمِمَّا ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ذَوِي ٱلبَصَرِ وَٱلتَّجْرِبَةِ فِي ٱلأَمْصَارِ أَنَّ ٱحْتِكَارَ ٱلزَّرْعِ لِتَحَيُّنِ أَوْقَاتِ ٱلغَلاءِ مَشْؤُومٌ وَأَنَّهُ يَعُودُ عَلَى فَائِدَتِهِ بِٱلتَّلَفِ وَٱلْخُسْرَانِ وَسَبَبُهُ وَٱللهُ أَعْلَمُ أَنَّ ٱلنَّاسَ لِحَاجَتِهِمْ إِلى ٱلأَقْوَاتِ مُضْطَرُّونَ إِلى مَا يَبْذُلُونَ فِيهَا مِنَ ٱلمَالِ ٱضْطِرَاراً فَتَبْقَى ٱلنُّفُوسُ مُتَعَلِّقَةً بِهِ وَفِي تَعَلُّقِ ٱلنُّفُوسِ بِمَا لَهَا سِرٌّ كَبِيرٌ فِي وَبَالِهِ عَلَى مَنْ يَأْخُذُهُ مَجَّاناً وَلَعَلَّهُ ٱلَّذِي ٱعْتَبَرَهُ ٱلشَّارِعُ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلبَاطِلِ وَهٰذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَجَّاناً فَٱلنُّفُوسُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِإِعْطَائِهِ ضَرُورَةً مِنْ غَيْرِ سَعَةٍ فِي ٱلعُذْرِ فَهُوَ كَٱلْمُكْرَهِ وَمَا عَدَا ٱلأَقْوَاتِ وَٱلمَأْكُولاتِ مِنَ ٱلمَبِيعَاتِ لا ٱضْطِرَارَ لِلنَّاسِ إِلَيْهَا وَإِنَّمَا يَبْعَثُهُمْ عَلَيْهَا ٱلتَّفَنُّنُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ فَلا يَبْذُلُونَ أَمْوَالَهُمْ فِيهَا إِلَّا بِٱخْتِيَارٍ وَحِرْصٍ وَلا يَبْقَى لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِمَا أَعْطَوْهُ فَلِهٰذَا يَكُونُ مَنْ عُرِفَ بِٱلاحْتِكَارِ تَجْتَمِعُ ٱلقُوَى ٱلنَّفْسَانِيَّةُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ لِمَا يَأْخُذُهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَفْسُدُ رِبْحُهُ وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَسَمِعْتُ فِيمَا يُنَاسِبُ هٰذَا حِكَايَةً ظَرِيفَةً عَنْ بَعْضِ مَشْيَخَةِ ٱلمَغْرِبِ أَخْبَرَنِي شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلأَبُلِيُّ قَالَ حَضَرْتُ عِنْدَ ٱلقَاضِي بِفَاسَ لِعَهْدِ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ وَهُوَ ٱلفَقِيهُ أَبُو ٱلحَسَنِ ٱلمَلِيلِيُّ وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضَ ٱلأَلْقَابِ ٱلمَخْزَنِيَّةِ لِجِرَايَتِهِ قَالَ فَأَطْرَقَ مَلِيّاً ثُمَّ قَالَ مِنْ مَكْسِ ٱلْخَمْرِ فَٱسْتَضْحَكَ ٱلحَاضِرُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَعَجِبُوا وَسَأَلُوهُ عَنْ حِكْمَةِ ذٰلِكَ فَقَالَ إِذَا كَانَتِ ٱلجِبَايَاتُ كُلُّهَا حَرَاماً فَأَخْتَارُ مِنْهَا مَا لا تُتَابِعُهُ نَفْسُ مُعْطِيهِ وَٱلْخَمْرُ قَلَّ أَنْ يَبْذُلَ فِيهَا أَحَدٌ مَالَهُ إِلَّا وَهُوَ طَرِبٌ مَسْرُورٌ بِوُجْدَانِهِ غَيْرُ أَسِفٍ عَلَيْهِ وَلا مُتَعَلِّقَةٍ بِهِ نَفْسُهُ وَهٰذِهِ مُلاحَظَةٌ غَرِيبَةٌ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ٱلصُّدُورُ

الفصل الرابع عشر

في ان رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخص

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْكَسْبَ وَٱلْمَعَاشَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِٱلصَّنَائِعِ أَوِ ٱلتِّجَارَةِ وَٱلتِّجَارَةُ هِيَ شِرَاءُ ٱلْبَضَائِعِ وَٱلسِّلَعِ وَٱدِّخَارُهَا يَتَحَيَّنُ بِهَا حَوَالَةَ ٱلْأَسْوَاقِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي أَثْمَانِهَا وَيُسَمَّى رِبْحاً وَيَحْصُلُ مِنْهُ ٱلْكَسْبُ وَٱلْمَعَاشُ لِلْمُحْتَرِفِينَ بِٱلتِّجَارَةِ دَائِماً فَإِذَا ٱسْتُدِيمَ ٱلرُّخْصُ فِي سِلْعَةٍ أَوْ عَرَضٍ مِنْ مَأْكُولٍ أَوْ مَلْبُوسٍ أَوْ مُتَمَوَّلٍ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَلَمْ يَحْصُلْ لِلتَّاجِرِ حَوَالَةُ ٱلْأَسْوَاقِ فَسَدَ ٱلرِّبْحُ وَٱلنَّمَاءُ بِطُولِ تِلْكَ ٱلْمُدَّةِ وَكَسَدَتْ سُوقُ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفِ فَقَعَدَ ٱلتُّجَّارُ عَنِ ٱلسَّعْيِ فِيهَا وَفَسَدَتْ رُؤُوسُ أَمْوَالِهِمْ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ أَوَّلاً بِٱلزَّرْعِ فَإِنَّهُ إِذَا ٱسْتُدِيمَ رُخْصُهُ يَفْسُدُ بِهِ حَالُ ٱلْمُحْتَرِفِينَ بِسَائِرِ أَطْوَارِهِ مِنَ ٱلْفَلْحِ وَٱلزِّرَاعَةِ لِقِلَّةِ ٱلرِّبْحِ فِيهِ وَنَدَارَتِهِ أَوْ فَقْدِهِ فَيَفْقِدُونَ ٱلنَّمَاءَ فِي أَمْوَالِهِمْ أَوْ يَجِدُونَهُ عَلَى قِلَّةٍ وَيَعُودُونَ بِٱلْإِنْفَاقِ عَلَى رُؤُوسِ أَمْوَالِهِمْ وَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَيَصِيرُونَ إِلَى ٱلْفَقْرِ وَٱلْخَصَاصَةِ وَيَتْبَعُ ذٰلِكَ فَسَادُ حَالِ ٱلْمُحْتَرِفِينَ أَيْضاً بِٱلطَّحْنِ وَٱلْخَبْزِ وَسَائِرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلزِّرَاعَةِ مِنَ ٱلْحَرْثِ إِلَى صَيْرُورَتِهِ مَأْكُولاً وَكَذَا يَفْسُدُ حَالُ ٱلْجُنْدِ إِذَا كَانَتْ أَرْزَاقُهُمْ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ عَلَى أَهْلِ ٱلْفَلْحِ زَرْعاً فَإِنَّهَا تَقِلُّ جِبَايَتُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ وَيَعْجِزُونَ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْجُنْدِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ بِسَبَبِهَا وَمُطَالَبُونَ بِهَا وَمُنْقَطِعُونَ لَهَا فَتَفْسُدُ أَحْوَالُهُمْ وَكَذَا إِذَا ٱسْتُدِيمَ ٱلرُّخْصُ فِي ٱلسُّكَّرِ أَوِ ٱلْعَسَلِ فَسَدَ جَمِيعُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَقَعَدَ ٱلْمُحْتَرِفُونَ عَنِ ٱلتِّجَارَةِ فِيهِ وَكَذَا ٱلْمَلْبُوسَاتُ إِذَا ٱسْتُدِيمَ فِيهَا ٱلرُّخْصُ فَإِذَا ٱلرُّخْصُ ٱلْمُفْرِطُ يُجْحِفُ بِمَعَاشِ ٱلْمُحْتَرِفِينَ بِذٰلِكَ ٱلصِّنْفِ ٱلرَّخِيصِ وَكَذَا ٱلْغَلَاءُ ٱلْمُفْرِطُ أَيْضاً وَإِنَّمَا مَعَاشُ ٱلنَّاسِ وَكَسْبُهُمْ فِي ٱلتَّوَسُّطِ مِنْ ذٰلِكَ وَسُرْعَةِ حَوَالَةِ ٱلْأَسْوَاقِ وَعِلْمُ ذٰلِكَ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْعَوَائِدِ ٱلْمُتَقَرِّرَةِ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ وَإِنَّمَا يُحْمَدُ ٱلرُّخْصُ فِي ٱلزَّرْعِ مِنْ بَيْنِ ٱلْمَبِيعَاتِ لِعُمُومِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَٱضْطِرَارِ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْأَقْوَاتِ مِنْ بَيْنِ ٱلْغَنِيِّ وَٱلْفَقِيرِ وَٱلْعَالَةُ مِنَ ٱلْخَلْقِ هُمُ ٱلْأَكْثَرُ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَيَعُمُّ ٱلرِّفْقُ بِذٰلِكَ وَيَرْجَحُ جَانِبُ ٱلْقُوتِ عَلَى جَانِبِ ٱلتِّجَارَةِ فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ ٱلْخَاصِّ وَٱللّٰهُ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمُ

الفصل الخامس عشر

في ان خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة

قَدْ قَدَّمْنَا فِي الفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ التَّاجِرَ مَدْفُوعٌ إِلَى مُعَانَاةِ البَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَجَلْبِ الفَوَائِدِ وَالأَرْبَاحِ وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ المُكَايَسَةِ وَالمُمَاحَكَةِ وَالتَّحَذْلُقِ وَمُمَارَسَةِ الخُصُومَاتِ وَاللَّجَاجِ وَهِيَ عَوَارِضُ هَذِهِ الحِرْفَةِ وَهَذِهِ الأَوْصَافُ نَقْصٌ مِنَ الذَّكَاءِ وَالمُرُوءَةِ وَتَجْرَحُ فِيهَا لِأَنَّ الأَفْعَالَ لَا بُدَّ مِنْ عَوْدِ آثَارِهَا عَلَى النَّفْسِ فَأَفْعَالُ الخَيْرِ تَعُودُ بِآثَارِ الخَيْرِ وَالزَّكَاءِ وَأَفْعَالُ الشَّرِّ وَالسَّفْسَفَةِ تَعُودُ بِضِدِّ ذَلِكَ فَتَتَمَكَّنُ وَتَرْسَخُ إِنْ سَبَقَتْ وَتَكَرَّرَتْ وَتَنْقُصُ خِلَالُ الخَيْرِ إِنْ تَأَخَّرَتْ عَنْهَا بِمَا يَنْطَبِعُ مِنْ آثَارِهَا المَذْمُومَةِ فِي النَّفْسِ شَأْنَ المَلَكَاتِ النَّاشِئَةِ عَنِ الأَفْعَالِ وَتَتَفَاوَتُ هَذِهِ الآثَارُ بِتَفَاوُتِ أَصْنَافِ التُّجَّارِ فِي أَطْوَارِهِمْ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ سَافِلَ الطَّوْرِ مُحَالِفًا لِأَشْرَارِ البَاعَةِ أَهْلِ الغِشِّ وَالخِلَابَةِ وَالفُجُورِ فِي الأَثْمَانِ وَإِقْرَارًا وَإِنْكَارًا كَانَتْ رَدَاءَةُ تِلْكَ الخُلُقِ عِنْدَهُ أَشَدَّ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ السَّفْسَفَةُ وَبَعُدَ عَنِ المُرُوءَةِ وَاكْتِسَابِهَا بِالجُمْلَةِ وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَأْثِيرِ المُكَايَسَةِ وَالمُمَاحَكَةِ فِي مُرُوءَتِهِ وَفِقْدَانِ ذَلِكَ مِنْهُمْ فِي الجُمْلَةِ وَوُجُودُ الصِّنْفِ الثَّانِي مِنْهُمُ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي الفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّهُمْ يَدَّرِعُونَ بِالجَاهِ وَيُعَوِّضُ لَهُمْ مِنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ فَهُمْ نَادِرٌ وَأَقَلُّ مِنَ النَّادِرِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ المَالُ قَدْ يُوجَدُ عِنْدَهُ دَفْعَةً بِنَوْعٍ غَرِيبٍ أَوْ وَرِثَهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَحَصَلَتْ لَهُ ثَرْوَةٌ تُعِينُهُ عَلَى الاتِّصَالِ بِأَهْلِ الدَّوْلَةِ وَتُكْسِبُهُ ظُهُورًا وَشُهْرَةً بَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ فَيَرْتَفِعُ عَنْ مُبَاشَرَةِ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَيَدْفَعُهُ إِلَى مَنْ يَقُومُ لَهُ بِهِ مِنْ وُكَلَائِهِ وَحَشَمِهِ وَيَسْهُلُ لَهُ الحُكَّامُ النَّصَفَةَ فِي حُقُوقِهِمْ بِمَا يُؤْنِسُونَهُ مِنْ بِرِّهِ وَإِتْحَافِهِ فَيُبْعِدُونَهُ عَنْ تِلْكَ الخُلُقِ بِالبُعْدِ عَنْ مُعَانَاةِ الأَفْعَالِ المُقْتَضِيَةِ لَهَا كَمَا مَرَّ فَتَكُونُ مُرُوءَتُهُمْ أَرْسَخَ وَأَبْعَدَ عَنْ تِلْكَ المُحَاجَاةِ إِلَّا مَا يَسْرِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ الأَفْعَالِ مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ فَإِنَّهُمْ يَضْطَرُّونَ إِلَى مُشَارَفَةِ أَحْوَالِ أُولَئِكَ الوُكَلَاءِ وَوِفَاقِهِمْ أَوْ خِلَافِهِمْ فِيمَا يَأْتُونَ أَوْ يَذَرُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ وَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ أَثَرُهُ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

الفصل السادس عشر

في ان الصنائع لا بد لها من العلم

إِعْلَمْ أَنَّ الصِّنَاعَةَ هِيَ مَلَكَةٌ فِي أَمْرٍ عَمَلِيٍّ فِكْرِيٍّ وَبِكَوْنِهِ عَمَلِيًّا هُوَ جِسْمَانِي

محسوس والأحوال الجسمانية المحسوسة فنقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الأصل تكون الملكة ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم فالملكة الحاصلة عن الخبر على قدر جودة التعليم وملكة المتعلم في الصناعة وحصول ملكته ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون للكماليات والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته أولاً ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقاً في التعليم ويكون تعليمه ناقصاً ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدريج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة وإنما يحصل في أزمان وأجيال إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لا سيما في الأمور الصناعية فلا بد له إذن من زمان ولهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل وتنقسم الصنائع أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها ومن الثاني الوراقة وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك ومن الثالث الجندية وأمثالها والله أعلم

الفصل السابع عشر

في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته

والسبب في ذلك أن الناس ما لم يستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ إلى الكمالات من المعاش ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو

مقدَّمٌ لِضَرُورِيَّتِهِ عَلَى ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَهِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنِ ٱلضَّرُورِيِّ وَعَلَى مِقْدَارِ عُمْرَانِ ٱلْبَلَدِ تَكُونُ جُودَةُ ٱلصَّنَائِعِ لِلتَّأَنُّقِ فِيهَا حِينَئِذٍ وَٱسْتِجَادَةِ مَا يُطْلَبُ مِنْهَا بِحَيْثُ تَتَوَفَّرُ دَوَاعِي ٱلتَّرَفِ وَٱلثَّرْوَةِ وَأَمَّا ٱلْعُمْرَانُ ٱلْبَدَوِيُّ أَوِ ٱلْقَلِيلُ فَلاَ يَحْتَاجُ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ إِلَّا ٱلْبَسِيطَ خَاصَّةً ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي ٱلضَّرُورِيَّاتِ مِنْ نَجَّارٍ أَوْ حَدَّادٍ أَوْ خَيَّاطٍ أَوْ حَائِكٍ أَوْ جَزَّارٍ وَإِذَا وُجِدَتْ هٰذِهِ بَعْدُ فَلاَ تُوجَدُ فِيهِ كَامِلَةً وَلاَ مُسْتَجَادَةً وَإِنَّمَا يُوجَدُ مِنْهَا بِمِقْدَارِ ٱلضَّرُورَةِ إِذْ هِيَ كُلُّهَا وَسَائِلُ إِلَى غَيْرِهَا وَلَيْسَتْ مَقْصُودَةً لِذَاتِهَا وَإِذَا زَخَرَ بَحْرُ ٱلْعُمْرَانِ وَطُلِبَتْ فِيهِ ٱلْكَمَالاَتُ كَانَ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱلتَّأَنُّقُ فِي ٱلصَّنَائِعِ وَٱسْتِجَادَتُهَا فَكَمُلَتْ بِجَمِيعِ مُتَمِّمَاتِهَا وَتَزَايَدَتْ صَنَائِعُ أُخْرَى مَعَهَا مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ ٱلتَّرَفِ وَأَحْوَالُهُ مِنْ جَزَّارٍ وَدَبَّاغٍ وَخَرَّازٍ وَصَائِغٍ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَقَدْ تَنْتَهِي هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافُ إِذَا ٱسْتَبْحَرَ ٱلْعُمْرَانُ إِلَى أَنْ يُوجَدَ مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلْكَمَالاَتِ وَٱلتَّأَنُّقُ فِيهَا فِي ٱلْغَايَةِ وَتَكُونُ مِنْ وُجُوهِ ٱلْمَعَاشِ فِي ٱلْمِصْرِ لِمُنْتَحِلِهَا بَلْ تَكُونُ فَائِدَتُهَا مِنْ أَعْظَمِ فَوَائِدِ ٱلْأَعْمَالِ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ٱلتَّرَفُ فِي ٱلْمَدِينَةِ مِثْلَ ٱلدَّهَّانِ وَٱلصَّفَّارِ وَٱلْحَمَّامِيِّ وَٱلطَّبَّاخِ وَٱلشَّمَّاعِ وَٱلْهَرَّاسِ وَمُعَلِّمِ ٱلْغِنَاءِ وَٱلرَّقْصِ وَقَرْعِ ٱلطُّبُولِ عَلَى ٱلتَّوْقِيعِ وَمِثْلَ ٱلْوَرَّاقِينَ ٱلَّذِينَ يُعَانُونَ صِنَاعَةَ ٱنْتِسَاخِ ٱلْكُتُبِ وَتَجْلِيدِهَا وَتَصْحِيحِهَا فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَيْهَا ٱلتَّرَفُ فِي ٱلْمَدِينَةِ مِنَ ٱلِٱشْتِغَالِ بِٱلْأُمُورِ ٱلْفِكْرِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَقَدْ تَخْرُجُ عَنِ ٱلْحَدِّ إِذَا كَانَ ٱلْعُمْرَانُ خَارِجاً عَنِ ٱلْحَدِّ كَمَا بَلَغَنَا عَنْ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يُعَلِّمُ ٱلطُّيُورَ ٱلْعُجْمَ وَٱلْحُمُرَ ٱلْإِنْسِيَّةَ وَيَتَخَيَّلُ أَشْيَاءَ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ بِإِيهَامِ قَلْبِ ٱلْأَعْيَانِ وَتَعْلِيمِ ٱلْحُدَاءِ وَٱلرَّقْصِ وَٱلْمَشْيِ عَلَى ٱلْخُيُوطِ فِي ٱلْهَوَاءِ وَرَفْعِ ٱلْأَثْقَالِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلْحِجَارَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي لاَ تُوجَدُ عِنْدَنَا بِٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّ عُمْرَانَ أَمْصَارِهِ لَمْ يَبْلُغْ عُمْرَانَ مِصْرَ وَٱلْقَاهِرَةِ أَدَامَ ٱللهُ عُمْرَانَهَا بِٱلْمُسْلِمِينَ

الفصل الثامن عشر

في ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امده

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا عَوَائِدُ لِلْعُمْرَانِ وَٱلْأَلْوَانِ وَٱلْعَوَائِدُ إِنَّمَا تَرْسُخُ بِكَثْرَةِ ٱلتَّكْرَارِ وَطُولِ ٱلْأَمَدِ فَتَسْتَحْكِمُ صِبْغَةُ ذٰلِكَ وَتَرْسَخُ فِي ٱلْأَجْيَالِ وَإِذَا ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلصِّبْغَةُ عَسُرَ نَزْعُهَا وَلِهٰذَا نَجِدُ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلَّتِي كَانَتِ ٱسْتَبْحَرَتْ فِي

ٱلحضَارَةِ لَمَّا تَرَاجَعَ عُمْرَانُهَا وَتَنَاقَصَ بَقِيَتْ فِيهَا آثَارٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمُسْتَحْدَثَةِ ٱلْعُمْرَانِ وَلَوْ بَلَغَتْ مَبَالِغَهَا فِي ٱلْوُفُورِ وَٱلْكَثْرَةِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ أَحْوَالَ تِلْكَ ٱلْقَدِيمَةِ ٱلْعُمْرَانِ مُسْتَحْكِمَةٌ رَاسِخَةٌ بِطُولِ ٱلْأَحْقَابِ وَتَدَاوُلِ ٱلْأَحْوَالِ وَتَكَرُّرِهَا وَهٰذِهِ لَمْ تَبْلُغِ ٱلْغَايَةَ بَعْدُ وَهٰذَا كَٱلْحَالِ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فَإِنَّا نَجِدُ فِيهَا رُسُومَ ٱلصَّنَائِعِ قَائِمَةً وَأَحْوَالَهَا مُسْتَحْكِمَةً رَاسِخَةً فِي جَمِيعِ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ أَمْصَارِهَا كَٱلْمَبَانِي وَٱلطَّبْخِ وَأَصْنَافِ ٱلْغِنَاءِ وَٱللَّهْوِ مِنَ ٱلْآلَاتِ وَٱلْأَوْتَارِ وَٱلرَّقْصِ وَتَنْضِيدِ ٱلْفُرُشِ فِي ٱلْقُصُورِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْتِيبِ وَٱلْأَوْضَاعِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَصَوْغِ ٱلْآنِيَةِ مِنَ ٱلْمَعَادِنِ وَٱلْخَزَفِ وَجَمِيعِ ٱلْمَوَاعِينِ وَإِقَامَةِ ٱلْوَلَائِمِ وَٱلْأَعْرَاسِ وَسَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا ٱلتَّرَفُ وَعَوَائِدُهُ فَنَجِدُهُمْ أَقْوَمَ عَلَيْهَا وَأَبْصَرَ بِهَا وَنَجِدُ صَنَائِعَهَا مُسْتَحْكِمَةً لَدَيْهِمْ فَهُمْ عَلَى حِصَّةٍ مَوْفُورَةٍ مِنْ ذٰلِكَ وَحَظٍّ مُتَمَيِّزٍ بَيْنَ جَمِيعِ ٱلْأَمْصَارِ وَإِنْ كَانَ عُمْرَانُهَا قَدْ تَنَاقَصَ وَٱلْكَثِيرُ مِنْهُ لَا يُسَاوِي عُمْرَانَ غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ ٱلْعُدْوَةِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ رُسُوخِ ٱلْحَضَارَةِ فِيهِمْ بِرُسُوخِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ دَوْلَةِ ٱلْقُوطِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ دَوْلَةِ ٱلطَّوَائِفِ وَهَلُمَّ جَرًّا فَبَلَغَتِ ٱلْحَضَارَةُ فِيهَا مَبْلَغًا لَمْ تَبْلُغْهُ فِي قُطْرٍ إِلَّا مَا يُنْقَلُ عَنِ ٱلْعِرَاقِ وَٱلشَّامِ وَمِصْرَ أَيْضًا لِطُولِ آمَادِ ٱلدُّوَلِ فِيهَا فَٱسْتَحْكَمَتْ فِيهَا ٱلصَّنَائِعُ وَكَمُلَتْ جَمِيعُ أَصْنَافِهَا عَلَى ٱلْاسْتِجَادَةِ وَٱلتَّنْمِيقِ وَبَقِيَتْ صِبْغَتُهَا ثَابِتَةً فِي ذٰلِكَ ٱلْعُمْرَانِ لَا تُفَارِقُهُ إِلَى أَنْ يَنْتَقِضَ بِٱلْكُلِّيَّةِ حَالُ ٱلصِّبْغِ إِذَا رَسَخَ فِي ٱلثَّوْبِ وَكَذَا أَيْضًا حَالُ تُونِسَ فِيمَا حَصَلَ فِيهَا بِٱلْحَضَارَةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ ٱلصِّنْهَاجِيَّةِ وَٱلْمُوَحِّدِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱسْتَكْمَلَ لَهَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ فِي سَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ دُونَ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَّا أَنَّهُ مُتَضَاعِفٌ بِرُسُومٍ مِنْهَا تُنْقَلُ إِلَيْهَا مِنْ مِصْرَ لِقُرْبِ ٱلْمَسَافَةِ بَيْنَهُمَا وَتَرَدُّدِ ٱلْمُسَافِرِينَ مِنْ قُطْرِهَا إِلَى قُطْرِ مِصْرَ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَرُبَّمَا سَكَنَ أَهْلُهَا هُنَاكَ عُصُورًا فَيَنْقُلُونَ مِنْ عَوَائِدِ تَرَفِهِمْ وَمُحْكَمِ صَنَائِعِهِمْ مَا يَقَعُ لَدَيْهِمْ مَوْقِعَ ٱلِٱسْتِحْسَانِ فَصَارَتْ أَحْوَالُهَا فِي ذٰلِكَ مُتَشَابِهَةً مِنْ أَحْوَالِ مِصْرَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ أَحْوَالِ ٱلْأَنْدَلُسِ لِمَا أَنَّ أَكْثَرَ سَاكِنِهَا مِنْ شَرْقِ ٱلْأَنْدَلُسِ حِينَ ٱلْجَلَاءِ لِعَهْدِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَرَسَخَ فِيهَا مِنْ ذٰلِكَ أَحْوَالٌ وَإِنْ كَانَ عُمْرَانُهَا لَيْسَ بِمُنَاسِبٍ لِذٰلِكَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ إِلَّا أَنَّ ٱلصِّبْغَةَ إِذَا ٱسْتَحْكَمَتْ فَقَلِيلًا مَا تَحُولُ إِلَّا بِزَوَالِ مَحَلِّهَا وَكَذَا نَجِدُ بِٱلْقَيْرَوَانِ وَمَرَّاكُشَ وَقَلْعَةِ

ٱبْنِ حَمَّادٍ أَثَرًا بَاقِياً مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ كَانَتْ هٰذِهِ كُلُّهَا ٱلْيَوْمَ خَرَاباً أَوْ فِي حُكْمِ ٱلْخَرَابِ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهَا إِلَّا ٱلْبَصِيرُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَيَجِدُ مِنْ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ آثَاراً تَدُلُّهُ عَلَى مَا كَانَ بِهَا كَأَثَرِ ٱلْخَطِّ ٱلْمَمْحُوِّ فِي ٱلْكِتَابِ وَٱللهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ

الفصل التاسع عشر

ان الصنائع انما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبها

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَسْمَحُ بِعَمَلِهِ أَنْ يَقَعَ مَجَّاناً لِأَنَّهُ كَسْبُهُ وَمِنْهُ مَعَاشُهُ إِذْ لَا فَائِدَةَ لَهُ فِي جَمِيعِ عُمْرِهِ فِي شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ فَلَا يَصْرِفُهُ إِلَّا فِيمَا لَهُ قِيمَةٌ فِي مِصْرِهِ لِيَعُودَ عَلَيْهِ بِٱلنَّفْعِ وَإِنْ كَانَتِ ٱلصِّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً وَتُوَجَّهُ إِلَيْهَا ٱلنَّفَاقُ كَانَتْ حِينَئِذٍ ٱلصِّنَاعَةُ بِمَثَابَةِ ٱلسِّلْعَةِ ٱلَّتِي تَنْفُقُ سُوقُهَا وَتُجْلَبُ لِلْبَيْعِ فَتَجْتَهِدُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتَعَلُّمِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ لِيَكُونَ مِنْهَا مَعَاشُهُمْ وَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلصِّنَاعَةُ مَطْلُوبَةً لَمْ تَنْفُقْ سُوقُهَا وَلَا يُوَجَّهُ قَصْدٌ إِلَى تَعَلُّمِهَا فَٱخْتُصَّتْ بِٱلتَّرْكِ وَفُقِدَتْ لِلْإِهْمَالِ وَلِهٰذَا يُقَالُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُ بِمَعْنَى أَنَّ صِنَاعَتَهُ هِيَ قِيمَتُهُ أَيْ قِيمَةُ عَمَلِهِ ٱلَّذِي هُوَ مَعَاشُهُ وَأَيْضاً فَهُنَا سِرٌّ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ وَإِجَادَتَهَا إِنَّمَا تَطْلُبُهَا ٱلدَّوْلَةُ فَهِيَ ٱلَّتِي تَنْفُقُ سُوقُهَا وَتُوَجَّهُ ٱلطَّلَبَاتُ إِلَيْهَا وَمَا لَمْ تَطْلُبْهُ ٱلدَّوْلَةُ وَإِنَّمَا يَطْلُبُهَا غَيْرُهَا مِنْ أَهْلِ ٱلْمِصْرِ فَلَيْسَ عَلَى نِسْبَتِهَا لِأَنَّ ٱلدَّوْلَةَ هِيَ ٱلسُّوقُ ٱلْأَعْظَمُ وَفِيهَا نَفَاقُ كُلِّ شَيْءٍ وَٱلْقَلِيلُ وَٱلْكَثِيرُ فِيهَا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فَمَا نَفَقَ مِنْهَا كَانَ أَكْثَرِيّاً ضَرُورَةً وَٱلسُّوقَةُ وَإِنْ طَلَبُوا ٱلصِّنَاعَةَ فَلَيْسَ طَلَبُهُمْ بِعَامٍّ وَلَا سُوقُهُمْ بِنَافِقَةٍ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ

الفصل العشرون

في ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وَذٰلِكَ لِمَا بَيَّنَّا أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ إِنَّمَا تُسْتَجَادُ إِذَا ٱحْتِيجَ إِلَيْهَا وَكَثُرَ طَالِبُهَا وَإِذَا ضَعُفَتْ أَحْوَالُ ٱلْمِصْرِ وَأَخَذَ فِي ٱلْهَرَمِ بِٱنْتِقَاصِ عُمْرَانِهِ وَقِلَّةِ سَاكِنِهِ تَنَاقَصَ فِيهِ ٱلتَّرَفُ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلِٱقْتِصَارِ عَلَى ٱلضَّرُورِيِّ مِنْ أَحْوَالِهِمْ فَتَقِلُّ ٱلصَّنَائِعُ ٱلَّتِي كَانَتْ مِنْ تَوَابِعِ ٱلتَّرَفِ لِأَنَّ صَاحِبَهَا حِينَئِذٍ لَا يَصِحُّ لَهُ بِهَا مَعَاشُهُ فَيَفِرُّ إِلَى غَيْرِهَا أَوْ يَمُوتُ وَلَا يَكُونُ خَلَفٌ مِنْهُ

فَيَذْهَبُ رَسْمُ تِلْكَ ٱلصَّنَائِعِ جُمْلَةً كَمَا يَذْهَبُ ٱلنَّقَّاشُونَ وَٱلصُّوَّاغُ وَٱلْكُتَّابُ وَٱلنُّسَّاخُ وَأَمْثَالُهُمْ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ لِحَاجَاتِ ٱلتَّرَفِ وَلَا تَزَالُ ٱلصِّنَاعَاتُ فِي ٱلتَّنَاقُصِ إِلَى أَنْ تَضْمَحِلَ وَٱللَّهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلعَلِيمُ وَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

الفصل الحادي والعشرون

في ان العرب ابعد الناس عن الصنائع

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ أَعْرَقُ فِي ٱلْبَدْوِ وَأَبْعَدُ عَنِ ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا وَٱلْعَجَمُ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ وَأُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ عُدْوَةَ ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِي أَقْوَمُ ٱلنَّاسِ عَلَيْهَا لِأَنَّهُمْ أَعْرَقُ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَأَبْعَدُ عَنِ ٱلْبَدْوِ وَعُمْرَانِهِ حَتَّى إِنَّ ٱلْإِبِلَ ٱلَّتِي أَعَانَتِ ٱلْعَرَبَ عَلَى ٱلتَّوَحُّشِ فِي ٱلْقَفْرِ وَٱلْإِعْرَاقِ فِي ٱلْبَدْوِ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ بِٱلْجُمْلَةِ وَمَفْقُودَةٌ مَرَاعِيهَا وَٱلرِّمَالُ ٱلْمُهَيَّئَةُ لِنِتَاجِهَا وَلِهَـٰذَا نَجِدُ أَوْطَانَ ٱلْعَرَبِ وَمَا مَلَكُوهُ فِي ٱلْإِسْلَامِ قَلِيلَ ٱلصَّنَائِعِ بِٱلْجُمْلَةِ حَتَّى تُجْلَبَ إِلَيْهِ مِنْ قُطْرٍ آخَرَ وَٱنْظُرْ بِلَادَ ٱلْعَجَمِ مِنَ ٱلصِّينِ وَٱلْهِنْدِ وَأَرْضِ ٱلتُّرْكِ وَأُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ كَيْفَ ٱسْتَكْثَرَتْ فِيهِمِ ٱلصَّنَائِعُ وَٱسْتَجْلَبَهَا ٱلْأُمَمُ مِنْ عِنْدِهِمْ وَعَجَمُ ٱلْمَغْرِبِ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ مِثْلُ ٱلْعَرَبِ فِي ذَٰلِكَ لِرُسُوخِهِمْ فِي ٱلْبَدَاوَةِ مُنْذُ أَحْقَابٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ وَيَشْهَدُ لَكَ بِذَٰلِكَ قِلَّةُ ٱلْأَمْصَارِ بِقُطْرِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَٱلصَّنَائِعُ بِٱلْمَغْرِبِ لِذَٰلِكَ قَلِيلَةٌ وَغَيْرُ مُسْتَحْكِمَةٍ ٱلْأَمَاكِنِ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلصُّوفِ مِنْ نَسْجِهِ وَٱلْجِلْدِ فِي خَرْزِهِ وَدَبْغِهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا ٱسْتَحْضَرُوا بَلَغُوا فِيهَا ٱلْمَبَالِغَ لِعُمُومِ ٱلْبَلْوَى بِهَا وَكَوْنِ هَـٰذَيْنِ أَغْلَبَ ٱلسِّلَعِ فِي قُطْرِهِمْ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حَالِ ٱلْبَدَاوَةِ وَأَمَّا ٱلْمَشْرِقُ فَقَدْ رَسَخَتِ ٱلصَّنَائِعُ فِيهِ مُنْذُ مُلْكِ ٱلْأُمَمِ ٱلْأَقْدَمِينَ مِنَ ٱلْفُرْسِ وَٱلنَّبَطِ وَٱلْقِبْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَيُونَانَ وَٱلرُّومِ أَحْقَاباً مُتَطَاوِلَةً فَرَسَخَتْ فِيهِمْ أَحْوَالُ ٱلْحَضَارَةِ وَمِنْ جُمْلَتِهَا ٱلصَّنَائِعُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَلَمْ يُمْحَ رَسْمُهَـا وَأَمَّا ٱلْيَمَنُ وَٱلْبَحْرَانِ وَعُمَانُ وَٱلْجَزِيرَةُ وَإِنْ مَلَكَهُ ٱلْعَرَبُ إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَاوَلُوا مُلْكَهُ ٱلْآفاً مِنَ ٱلسِّنِينَ فِي أُمَمٍ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ وَٱخْتَطُّوا أَمْصَارَهُ وَمُدُنَهُ وَبَلَغُوا ٱلْغَايَةَ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ مِثْلَ عَادٍ وَثَمُودَ وَٱلْعَمَالِقَةِ وَحِمْيَرَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَٱلتَّبَابِعَةِ وَٱلْأَذْوَاءِ فَطَالَ أَمَدُ ٱلْمُلْكِ وَٱلْحَضَارَةِ وَٱسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهَا وَتَوَفَّرَتِ ٱلصَّنَائِعُ وَرَسَخَتْ فَلَمْ تَبْلَ بِبِلَى ٱلدَّوْلَةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَبَقِيَتْ مُسْتَجِدَّةً حَتَّى ٱلْآنَ وَٱخْتُصَّتْ بِذَٰلِكَ ٱلْوَطَنِ كَصِنَاعَةِ ٱلْوَشْيِ وَٱلْعَصْبِ وَمَا يُسْتَجَادُ مِنْ حَوْكِ ٱلثِّيَابِ وَٱلْحَرِيرِ فِيهَا وَٱللَّهُ وَارِثُ

ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

الفصل الثاني والعشرون

فيمن حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعد في ملكة اخرى

وَمِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْخَيَّاطُ إِذَا أَجَادَ مَلَكَةَ ٱلْخِيَاطَةِ وَأَحْكَمَهَا وَرَسَخَتْ فِي نَفْسِهِ فَلَا يُجِيدُ مِنْ بَعْدِهَا مَلَكَةَ ٱلتِّجَارَةِ أَوِ ٱلْبِنَاءِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ ٱلْأُولَى لَمْ تَسْتَحْكِمْ بَعْدُ وَلَمْ تَرْسَخْ صِبْغَتُهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَلَكَاتِ صِفَاتٌ لِلنَّفْسِ وَأَلْوَانٌ فَلَا تَزْدَحِمُ دَفْعَةً وَمَنْ كَانَ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ كَانَ أَسْهَلَ لِقَبُولِ ٱلْمَلَكَاتِ وَأَحْسَنَ ٱسْتِعْدَاداً لِحُصُولِهَا فَإِذَا تَلَوَّنَتِ ٱلنَّفْسُ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُخْرَى وَخَرَجَتْ عَنِ ٱلْفِطْرَةِ ضَعُفَ فِيهَا ٱلِٱسْتِعْدَادُ بِٱللَّوْنِ ٱلْحَاصِلِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فَكَانَ قَبُولُهَا لِلْمَلَكَةِ أَضْعَفَ وَهٰذَا بَيِّنٌ يَشْهَدُ لَهُ ٱلْوُجُودُ فَقَلَّ أَنْ تَجِدَ صَاحِبَ صِنَاعَةٍ يُحْكِمُهَا ثُمَّ يُحْكِمُ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرَى وَيَكُونُ فِيهِمَا مَعاً عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْإِجَادَةِ حَتَّى أَنَّ أَهْلَ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِينَ مَلَكَتُهُمْ فِكْرِيَّةٌ فَهُمْ بِهٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ وَمَنْ حَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلَكَةِ عِلْمٍ مِنَ ٱلْعُلُومِ وَأَجَادَهَا فِي ٱلْغَايَةِ فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ مَلَكَةَ عِلْمٍ آخَرَ عَلَى نِسْبَتِهِ بَلْ يَكُونُ مُقَصِّراً فِيهِ إِنْ طَلَبَهُ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَمَبْنِيُّ سَبَبِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلِٱسْتِعْدَادِ وَتَلْوِينِهِ بِلَوْنِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ فِي ٱلنَّفْسِ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الثالث والعشرون

في الاشارة الى امهات الصنائع

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ فِي ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ كَثِيرَةٌ لِكَثْرَةِ ٱلْأَعْمَالِ ٱلْمُتَدَاوَلَةِ فِي ٱلْعُمْرَانِ فَهِيَ بِحَيْثُ تَشِذُّ عَنِ ٱلْحَصْرِ وَلَا يَأْخُذُهَا ٱلْعَدُّ إِلَّا أَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ فِي ٱلْعُمْرَانِ أَوْ شَرِيفٌ بِٱلْمَوْضِعِ فَنَخُصُّهَا بِٱلذِّكْرِ وَنَتْرُكُ مَا سِوَاهَا فَأَمَّا ٱلضَّرُورِيُّ فَٱلْفِلَاحَةُ وَٱلْبِنَاءُ وَٱلْخِيَاطَةُ وَٱلتِّجَارَةُ وَٱلْحِيَاكَةُ وَأَمَّا ٱلشَّرِيفَةُ بِٱلْمَوْضِعِ فَكَٱلتَّوْلِيدِ وَٱلْكِتَابَةِ وَٱلْوِرَاقَةِ وَٱلْغِنَاءِ وَٱلطِّبِّ فَأَمَّا ٱلتَّوْلِيدُ فَإِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَعَامَّةُ ٱلْبَلْوَى إِذْ بِهَا تَحْصُلُ حَيَاةُ ٱلْمَوْلُودِ وَتَتِمُّ غَالِباً وَمَوْضُوعُهَا مَعَ ذٰلِكَ ٱلْمَوْلُودُونَ وَأُمَّهَاتُهُمْ وَأَمَّا ٱلطِّبُّ فَهُوَ حِفْظُ ٱلصِّحَّةِ لِلْإِنْسَانِ وَدَفْعُ ٱلْمَرَضِ عَنْهُ وَيَتَفَرَّعُ

عنْ عِلْمِ ٱلطَّبِيعَةِ وَمَوْضُوعُهُ مَعَ ذَٰلِكَ بَدَنُ ٱلْإِنْسَانِ وَأَمَّا ٱلْكِتَابَةُ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ ٱلْوِرَاقَةِ فَهِيَ حَافِظَةٌ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ حَاجَتَهُ وَمُقَيِّدَةٌ لَهَا عَنِ ٱلنِّسْيَانِ وَمُبَلِّغَةٌ ضَمَائِرَ ٱلنَّفْسِ إِلَى ٱلْبَعِيدِ ٱلْغَائِبِ وَمُخَلِّدَةٌ نَتَائِجَ ٱلْأَفْكَارِ وَٱلْعُلُومِ فِي ٱلصُّحُفِ وَرَافِعَةٌ رُتَبَ ٱلْوُجُودِ لِلْمَعَانِي وَأَمَّا ٱلْغِنَاءُ فَهُوَ نِسَبُ ٱلْأَصْوَاتِ وَمَظْهَرُ جَمَالِهَا لِلْأَسْمَاعِ وَكُلُّ هَٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلثَّلَاثِ دَاعٍ إِلَى مُخَالَطَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْأَعَاظِمِ فِي خَلَوَاتِهِمْ وَمَجَالِسِ أُنْسِهِمْ فَلَهَا بِذَٰلِكَ شَرَفٌ لَيْسَ لِغَيْرِهَا وَمَا سِوَى ذَٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ فَتَابِعَةٌ وَمُمْتَهَنَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ وَقَدْ يَخْتَلِفُ ذَٰلِكَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْأَغْرَاضِ وَٱلدَّوَاعِي وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلصَّوَابِ

الفصل الرابع والعشرون

في صناعة الفلاحة

هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ثَمَرَتُهَا ٱتِّخَاذُ ٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْحُبُوبِ بِٱلْقِيَامِ عَلَى إِثَارَةِ ٱلْأَرْضِ لَهَا وَٱزْدِرَاعِهَا وَعِلَاجِ نَبَاتِهَا وَتَعَهُّدِهِ بِٱلسَّقْيِ وَٱلتَّنْمِيَةِ إِلَى بُلُوغِ غَايَتِهِ ثُمَّ حَصَادِ سُنْبُلِهِ وَٱسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ مِنْ غِلَافِهِ وَإِحْكَامِ ٱلْأَعْمَالِ لِذَٰلِكَ وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ وَهِيَ أَقْدَمُ ٱلصَّنَائِعِ لِمَا أَنَّهَا مُحَصِّلَةٌ لِلْقُوتِ ٱلْمُكَمِّلِ لِحَيَاةِ ٱلْإِنْسَانِ غَالِباً إِذْ يُمْكِنُ وُجُودُهُ مِنْ دُونِ ٱلْقُوتِ وَلِهَٰذَا ٱخْتَصَّتْ هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ بِٱلْبَدْوِ إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ أَقْدَمُ مِنَ ٱلْحَضَرِ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ فَكَانَتْ هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِذَٰلِكَ بَدَوِيَّةً لَا يَقُومُ عَلَيْهَا ٱلْحَضَرُ وَلَا يَعْرِفُونَهَا لِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ كُلَّهَا ثَانِيَةٌ عَلَى ٱلْبِدَاوَةِ فَصَنَائِعُهُمْ ثَانِيَةٌ عَنْ صَنَائِعِهَا وَتَابِعَةٌ لَهَا وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُقِيمُ ٱلْعِبَادِ فِيمَا أَرَادَ

الفصل الخامس والعشرون

في صناعة البناء

هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ أَوَّلُ صَنَائِعِ ٱلْعُمْرَانِ ٱلْحَضَرِيِّ وَأَقْدَمُهَا وَهِيَ مَعْرِفَةُ ٱلْعَمَلِ فِي ٱتِّخَاذِ ٱلْبُيُوتِ وَٱلْمَنَازِلِ لِلْكِنِّ وَٱلْمَأْوَى لِلْأَبْدَانِ فِي ٱلْمُدُنِ وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ أَحْوَالِهِ لَا بُدَّ أَنْ يُفَكِّرَ فِيمَا يَدْفَعُ عَنْهُ ٱلْأَذَى مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ كَٱتِّخَاذِ ٱلْبُيُوتِ ٱلْمُكْتَنِفَةِ بِٱلسُّقُفِ وَٱلْحِيطَانِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا وَٱلْبَشَرُ مُخْتَلِفٌ فِي هَٰذِهِ ٱلْجِبِلَّةِ ٱلْفِكْرِيَّةِ فَمِنْهُمُ ٱلْمُعْتَدِلُونَ فِيهَا فَيَتَّخِذُونَ ذَٰلِكَ بِٱعْتِدَالٍ أَهَالِي ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثِ وَٱلرَّابِعِ وَٱلْخَامِسِ وَٱلسَّادِسِ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْبَدْوِ فَيَبْعُدُونَ عَنِ ٱتِّخَاذِ ذَٰلِكَ لِقُصُورِ

أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون في البسيط الواحد بحيث يتنا كرون ولا يتعارفون فيخشون طرق بعضهم بعضاً فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة سياج أو أسوار تحوطهم ويصير جميعاً مدينة واحدة ومصراً واحداً ويحوطهم الحكام من داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون إلى الانتصاف ويتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معناهم من الأمراء وكبار القبائل في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر وكذا حال أهل المدينة الواحدة فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالأصبغة والجص ويبالغ في ذلك بالتنجيد والتنميق إظهاراً للبسطة بالعناية في شأن المأوى ويهيئ مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأقواته والإسطبلات لربط مقرباته إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن في معناهم ومنهم من يبني الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة ويبالغون في إتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الإحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الأقاليم المعتدلة من الرابع وما حواليه إذ الأقاليم المنحرفة لا بناء فيها وإنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين وإنما يوجد في الأقاليم المعتدلة له وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع أنواعاً كثيرة فمنها البناء بالحجارة المنجدة يقام بها الجدران ملصقاً بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربع أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد

مَا بَيْنَهُمَا بِمَا يَرَاهُ صَاحِبُ ٱلْبِنَاءِ فِي عَرْضِ ٱلْأَسَاسِ وَيُوصِلُ بَيْنَهُمَا بِأَذْرُعٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ يَرْبِطُ عَلَيْهَا بِٱلْحِبَالِ وَٱلْجُدُرِ وَيُسَدُّ ٱلْجِهَتَانِ ٱلْبَاقِيَتَانِ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْخَلَاءِ بَيْنَهُمَا بِلَوْحَيْنِ آخَرَيْنِ صَغِيرَيْنِ ثُمَّ يُوضَعُ فِيهِ ٱلتُّرَابُ مُخْتَلِطًا بِٱلْكِلْسِ وَيُرْكَزُ بِٱلْمَرَاكِزِ ٱلْمُعَدَّةِ حَتَّى يَنْعَمَ رَكْزُهُ وَيَخْتَلِطَ أَجْزَاؤُهُ ثُمَّ يُزَادُ ٱلتُّرَابُ ثَانِيًا وَثَالِثًا إِلَى أَنْ يَمْتَلِئَ ذَلِكَ ٱلْخَلَاءُ بَيْنَ ٱللَّوْحَيْنِ وَقَدْ تَدَاخَلَتْ أَجْزَاءُ ٱلْكِلْسِ وَٱلتُّرَابِ وَصَارَتْ جِسْمًا وَاحِدًا ثُمَّ يُعَادُ نَصْبُ ٱللَّوْحَيْنِ عَلَى صُورَةٍ وَيُرْكَزُ كَذَٰلِكَ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَيُنْظَمَ ٱلْأَلْوَاحُ كُلُّهَا سَطْرًا مِنْ فَوْقِ سَطْرٍ إِلَى أَنْ يَنْتَظِمَ ٱلْحَائِطُ كُلُّهُ مُلْتَحِمًا كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى ٱلطَّابِيَةَ وَصَانِعُهُ ٱلطَّوَّابَ وَمِنْ صَنَائِعِ ٱلْبِنَاءِ أَيْضًا أَنْ تُجَلَّلَ ٱلْحِيطَانُ بِٱلْكِلْسِ بَعْدَ أَنْ يُحَلَّ بِٱلْمَاءِ وَيُخَمَّرَ أُسْبُوعًا أَوْ أُسْبُوعَيْنِ عَلَى قَدَرِ مَا يَعْتَدِلُ مِزَاجُهُ عَنْ إِفْرَاطِ ٱلنَّارِيَّةِ ٱلْمُفْسِدَةِ لِلْإِلْحَامِ فَإِذَا تَمَّ لَهُ مَا يَرْضَاهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَاهُ مِنْ فَوْقِ ٱلْحَائِطِ وَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَحِمَ وَمِنْ صَنَائِعِ ٱلْبِنَاءِ عَمَلُ ٱلسُّقُفِ بِأَنْ تُمَدَّ ٱلْخُشُبُ ٱلْمُحْكَمَةُ ٱلنِّجَارَةِ أَوِ ٱلسَّاذَجَةُ عَلَى حَائِطَيِ ٱلْبَيْتِ وَمِنْ فَوْقِهَا ٱلْأَلْوَاحُ كَذَلِكَ مَوْصُولَةً بِٱلدَّسَاتِرِ وَيُصَبُّ عَلَيْهَا ٱلتُّرَابُ وَٱلْكِلْسُ وَيُبْسَطُ بِٱلْمَرَاكِزِ حَتَّى تَتَدَاخَلَ أَجْزَاؤُهَا وَتَلْتَحِمَ وَيُعَالَى عَلَيْهَا ٱلْكِلْسُ كَمَا يُعَالَى عَلَى ٱلْحَائِطِ وَمِنْ صِنَاعَةِ ٱلْبِنَاءِ مَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلتَّنْمِيقِ وَٱلتَّزْيِينِ كَمَا يُصْنَعُ مِنْ فَوْقِ ٱلْحِيطَانِ ٱلْأَشْكَالُ ٱلْمُجَسَّمَةُ مِنَ ٱلْجِصِّ يُخَمَّرُ بِٱلْمَاءِ ثُمَّ يَرْجِعُ جَسَدًا وَفِيهِ بَقِيَّةُ ٱلْبَلَلِ فَيُشَكَّلُ عَلَى ٱلتَّنَاسُبِ تَخْرِيمًا بِمَثَاقِبِ ٱلْحَدِيدِ إِلَى أَنْ يَبْقَى لَهُ رَوْنَقٌ وَرُوَاءٌ وَرُبَّمَا عُولِيَ عَلَى ٱلْحِيطَانِ أَيْضًا بِقِطَعِ ٱلرُّخَامِ وَٱلْآجُرِّ وَٱلْخَزَفِ أَوْ بِٱلصَّدَفِ أَوِ ٱلسَّبَجِ يُفَصَّلُ أَجْزَاءً مُتَجَانِسَةً أَوْ مُخْتَلِفَةً وَتُوضَعُ فِي ٱلْكِلْسِ عَلَى نِسَبٍ وَأَوْضَاعٍ مُقَدَّرَةٍ عِنْدَهُمْ يَبْدُو بِهِ ٱلْحَائِطُ لِلْعِيَانِ كَأَنَّهُ قِطَعُ ٱلرِّيَاضِ ٱلْمُنَمْنَمَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بِنَاءِ ٱلْجِبَابِ وَٱلصَّهَارِيجِ لِسَفْحِ ٱلْمَاءِ بَعْدَ أَنْ تُعَدَّ فِي ٱلْبُيُوتِ قِصَاعُ ٱلرُّخَامِ ٱلْقَوْرَاءُ ٱلْمُحْكَمَةُ ٱلْخَرْطِ بِٱلْفُوهَاتِ فِي وَسَطِهَا لِنَبْعِ ٱلْمَاءِ ٱلْجَارِي إِلَى ٱلصِّهْرِيجِ يُجْلَبُ إِلَيْهِ مِنْ خَارِجِ ٱلْقَنَوَاتِ ٱلْمُفْضِيَةِ إِلَى ٱلْبُيُوتِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبِنَاءِ وَتَخْتَلِفُ ٱلصُّنَّاعُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْحِذْقِ وَٱلْبَصَرِ وَيَعْظُمُ عُمْرَانُ ٱلْمَدِينَةِ وَيَتَّسِعُ فَيَكْثُرُونَ وَرُبَّمَا يَرْجِعُ ٱلْحُكَّامُ إِلَى نَظَرِ هَؤُلَاءِ فِيمَا هُمْ أَبْصَرُ بِهِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْبِنَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمُدُنِ لِكَثْرَةِ ٱلِٱزْدِحَامِ وَٱلْعُمْرَانِ يَتَشَاحُّونَ حَتَّى فِي ٱلْفَضَاءِ وَٱلْهَوَاءِ ٱلْأَعْلَى

وَٱلْأَسْفَلِ وَمِنَ ٱلِٱنْتِفَاعِ بِظَاهِرِ ٱلْبِنَاءِ مِمَّا يَتَوَقَّعُ مَعَهُ حُصُولُ ٱلضَّرَرِ فِي ٱلْحِيطَانِ فَيَمْنَعُ جَارَهُ مِنْ ذَٰلِكَ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ وَيَخْتَلِفُونَ أَيْضاً فِي ٱسْتِحْقَاقِ ٱلطُّرُقِ وَٱلْمَنَافِذِ لِلْمِيَاهِ ٱلْجَارِيَةِ وَٱلْفَضَلَاتِ ٱلْمُسَرَّبَةِ فِي ٱلْقَنَوَاتِ وَرُبَّمَا يَدَّعِي بَعْضُهُمْ حَقَّ بَعْضٍ فِي حَائِطِهِ أَوْ عُلُوِّهِ أَوْ قَنَاتِهِ لِتَضَايُقِ ٱلْجِوَارِ أَوْ يَدَّعِي بَعْضُهُمْ عَلَى جَارِهِ ٱخْتِلَالَ حَائِطِهِ خَشْيَةَ سُقُوطِهِ وَيَحْتَاجُ إِلَى ٱلْحُكْمِ عَلَيْهِ بِهَدْمِهِ وَدَفْعِ ضَرَرِهِ عَنْ جَارِهِ عِنْدَ مَنْ يَرَاهُ أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى قِسْمَةِ دَارٍ أَوْ عَرْصَةٍ بَيْنَ شَرِيكَيْنِ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ مَعَهَا فَسَادٌ فِي ٱلدَّارِ وَلَا إِهْمَالٌ لِمَنْفَعَتِهَا وَأَمْثَالُ ذَٰلِكَ وَيَخْفَى جَمِيعُ ذَٰلِكَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ ٱلْبَصَرِ ٱلْعَارِفِينَ بِٱلْبِنَاءِ وَأَحْوَالِهِ ٱلْمُسْتَدِلِّينَ عَلَيْهَا بِٱلْمَعَاقِدِ وَٱلْقُمُطِ وَمَرَاكِزِ ٱلْخَشَبِ وَمَيْلِ ٱلْحِيطَانِ وَٱعْتِدَالِهَا وَقَسْمِ ٱلْمَسَاكِنِ عَلَى نِسْبَةِ أَوْضَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا وَتَسْرِيبِ ٱلْمِيَاهِ فِي ٱلْقَنَوَاتِ مَجْلُوبَةً وَمَرْفُوعَةً بِحَيْثُ لَا تَضُرُّ بِمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْبُيُوتِ وَٱلْحِيطَانِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ فَلَهُمْ بِهَذَا كُلِّهِ ٱلْبَصَرُ وَٱلْخِبْرَةُ ٱلَّتِي لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ وَهُمْ مَعَ ذَٰلِكَ يَخْتَلِفُونَ بِٱلْجَوْدَةِ وَٱلْقُصُورِ فِي ٱلْأَجْيَالِ بِٱعْتِبَارِ ٱلدُّوَلِ وَقُوَّتِهَا فَإِنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ وَكَمَالَهَا إِنَّمَا هُوَ بِكَمَالِ ٱلْحَضَارَةِ وَكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ ٱلطَّالِبِ لَهَا فَلِذَٰلِكَ عِنْدَمَا تَكُونُ ٱلدَّوْلَةُ بَدَوِيَّةً فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا تَفْتَقِرُ فِي أَمْرِ ٱلْبِنَاءِ إِلَى غَيْرِ قُطْرِهَا كَمَا وَقَعَ لِلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ حِينَ أَجْمَعَ عَلَى بِنَاءِ مَسْجِدِ ٱلْمَدِينَةِ وَٱلْقُدْسِ وَمَسْجِدِهِ بِٱلشَّامِ فَبَعَثَ إِلَى مَلِكِ ٱلرُّومِ بِٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي ٱلْفَعَلَةِ ٱلْمَهَرَةِ فِي ٱلْبِنَاءِ فَبَعَثَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مَنْ حَصَّلَ لَهُ غَرَضَهُ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَسَاجِدِ وَقَدْ يَعْرِفُ صَاحِبُ هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَشْيَاءَ مِنَ ٱلْهَنْدَسَةِ مِثْلَ تَسْوِيَةِ ٱلْحِيطَانِ بِٱلْوَزْنِ وَإِجْرَاءِ ٱلْمِيَاهِ بِأَخْذِ ٱلِٱرْتِفَاعِ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ فَيَحْتَاجُ إِلَى ٱلْبَصَرِ بِشَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ وَكَذَٰلِكَ فِي جَرِّ ٱلْأَثْقَالِ بِٱلْهِنْدَامِ فَإِنَّ ٱلْأَجْرَامَ ٱلْعَظِيمَةَ إِذَا شُيِّدَتْ بِٱلْحِجَارَةِ ٱلْكَبِيرَةِ يَعْجِزُ قُدَرُ ٱلْفَعَلَةِ عَنْ رَفْعِهَا إِلَى مَكَانِهَا مِنَ ٱلْحَائِطِ فَيَتَحَيَّلُ لِذَٰلِكَ بِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ ٱلْحَبْلِ بِإِدْخَالِهِ فِي ٱلْمَعَالِقِ مِنْ أَثْقَابٍ مُقَدَّرَةٍ عَلَى نِسَبٍ هَنْدَسِيَّةٍ تُصَيِّرُ ٱلثَّقِيلَ عِنْدَ مُعَانَاةِ ٱلرَّفْعِ خَفِيفاً فَيَتِمُّ ٱلْمُرَادُ مِنْ ذَٰلِكَ بِغَيْرِ كُلْفَةٍ وَهَٰذَا إِنَّمَا يَتِمُّ بِأُصُولٍ هَنْدَسِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ مُتَدَاوَلَةٍ بَيْنَ ٱلْبَشَرِ وَبِمِثْلِهَا كَانَ بِنَاءُ ٱلْهَيَاكِلِ ٱلْمَاثِلَةِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ ٱلَّتِي يُحْسَبُ أَنَّهَا مِنْ بِنَاءِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّ أَبْدَانَهُمْ كَانَتْ عَلَى نِسْبَتِهَا فِي ٱلْعِظَمِ ٱلْجُسْمَانِيِّ وَلَيْسَ كَذَٰلِكَ وَإِنَّمَا تَمَّ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِٱلْحِيَلِ ٱلْهَنْدَسِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فَتَفَهَّمْ ذَٰلِكَ وَٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ

الفصل السادس والعشرون

في صناعة النجارة

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ ٱلْعُمْرَانِ وَمَادَّتُهَا ٱلْخَشَبُ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ لِلْآدَمِيِّ فِي كُلِّ مُكَوَّنٍ مِنَ ٱلْمُكَوَّنَاتِ مَنَافِعَ تَكْمُلُ بِهَا ضَرُورَاتُهُ أَوْ حَاجَاتُهُ وَكَانَ مِنْهَا ٱلشَّجَرُ فَإِنَّ لَهُ فِيهِ مِنَ ٱلْمَنَافِعِ مَا لَا يَنْحَصِرُ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ لِكُلِّ أَحَد وَمِنْ مَنَافِعِهَا ٱتِّخَاذُهَا خَشَباً إِذَا يَبِسَتْ وَأَوَّلُ مَنَافِعِهِ أَنْ يَكُونَ وَقُوداً لِلنِّيرَانِ فِي مَعَاشِهِم وَعِصِيّاً لِلِٱتِّكَاءِ وَٱلذَّوْدِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ وَدَعَائِمَ لِمَا يُخْشَى مَيْلُهُ مِنْ أَثْقَالِهِم ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ مَنَافِعُ أُخْرَى لِأَهْلِ ٱلْبَدْوِ وَٱلْحَضَرِ فَأَمَّا أَهْلُ ٱلْبَدْوِ فَيَتَّخِذُونَ مِنْهَا ٱلْعُمُد وَٱلْأَوْتَادَ لِخِيَامِهِمْ وَٱلْحُدُوجَ لِظَعَائِنِهِمْ وَٱلرِّمَاحَ وَٱلْقِسِيَّ وَٱلسِّهَامَ لِسِلَاحِهِمْ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْحَضَرِ فَٱلسُّقُفُ لِبُيُوتِهِمْ وَٱلْأَغْلَاقُ لِأَبْوَابِهِمْ وَٱلْكَرَاسِيُّ لِجُلُوسِهِمْ وَكُل وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ فَٱلْخَشَبَةُ مَادَّةٌ لَهَا وَلَا تَصِيرُ إِلَى ٱلصُّورَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهَا إِلَّا بِٱلصِّنَاعَة وَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمُتَكَفِّلَةُ بِذٰلِكَ ٱلْمُحَصِّلَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ صُوَرِهَا هِيَ ٱلنِّجَارَةُ عَلَى ٱخْتِلَافِ رُتَبِهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلَى تَفْصِيلِ ٱلْخَشَبِ أَوَّلاً إِمَّا بِخَشَبٍ أَصْغَرَ مِنْهُ أَوْ أَلْوَاحٍ ثُمَّ تُرَكَّبُ تِلْكَ ٱلْفَصَائِلُ بِحَسَبِ ٱلصُّوَرِ ٱلْمَطْلُوبَةِ وَهُوَ فِي كُلِّ ذٰلِكَ يُحَاوِلُ بِصَنْعَتِهِ إِعْدَادَ تِلْكَ ٱلْفَصَائِلِ بِٱلِٱنْتِظَامِ إِلَى أَنْ تَصِيرَ أَعْضَاءً لِذٰلِكَ ٱلشَّكْلِ ٱلْمَخْصُوصِ وَٱلْقَائِم عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ ٱلنَّجَّارُ وَهُوَ ضَرُورِيٌّ فِي ٱلْعُمْرَانِ ثُمَّ إِذَا عَظُمَتِ ٱلْحَضَارَةُ وَجَاءَ ٱلتَّرَفُ وَتَأَنَّقَ ٱلنَّاسُ فِيمَا يَتَّخِذُونَهُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ سَقْفٍ أَوْ بَابٍ أَوْ كُرْسِيٍّ أَو مَاعُونٍ حَدَثَ ٱلتَّأَنُّقُ فِي صِنَاعَةِ ذٰلِكَ وَٱسْتِجَادَتِهِ بِغَرَائِبَ مِنَ ٱلصِّنَاعَةِ كَمَالِيَّةٍ لَيْسَتْ مِن ٱلضَّرُورِيِّ فِي شَيْءٍ مِثْلَ ٱلتَّخْطِيطِ فِي ٱلْأَبْوَابِ وَٱلْكَرَاسِيِّ وَمِثْلَ تَهْيِئَةِ ٱلْقِطَعِ مِن ٱلْخَشَبِ بِصِنَاعَةِ ٱلْخَرْطِ يُحْكِمُ بَرْيَهَا وَتَشْكِيلَهَا ثُمَّ تُؤَلَّفُ عَلَى نِسَبٍ مُقَدَّرَةٍ وَتُلْحَم بِٱلدَّسَائِرِ فَتَبْدُو لِرَأْيِ ٱلْعَيْنِ مُلْتَحِمَةً وَقَدْ أُخِذَ مِنْهَا ٱخْتِلَافُ ٱلْأَشْكَالِ عَلَى تَنَاسُب يُصْنَعُ هٰذَا فِي كُلِّ شَيْءٍ يُتَّخَذُ مِنَ ٱلْخَشَبِ فَيَجِيءُ آنَقَ مَا يَكُونُ وَكَذٰلِكَ فِي جَمِيعِ مَا يُحْتَاج إِلَيْهِ مِنَ ٱلْآلَاتِ ٱلْمُتَّخَذَةِ مِنَ ٱلْخَشَبِ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ وَكَذٰلِكَ قَدْ يُحْتَاجُ إِلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي إِنْشَاءِ ٱلْمَرَاكِبِ ٱلْبَحْرِيَّةِ ذَاتِ ٱلْأَلْوَاحِ وَٱلدُّسُرِ وَهِيَ أَجْرَامٌ هَنْدَسِيَّةٌ صُنِعَت عَلَى قَالَبِ ٱلْحُوتِ وَٱعْتِبَارِ سَبْحِهِ فِي ٱلْمَاءِ بِقَوَادِمِهِ وَكَلْكَلِهِ لِيَكُونَ ذٰلِكَ ٱلشَّكْلُ أَعْوَن

لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما في الأساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير إما عموماً أو خصوصاً وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس ولهذا كانت أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليدوس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجاراً وبها كان يعرف وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال إن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته عند الطوفان وهذا الخبر وإن كان ممكناً أعني كونه نجاراً إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد وإنما معناه والله أعلم الإشارة إلى قدم النجارة لأنه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها فتفهم أسرار الصنائع في الخليقة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

الفصل السابع والعشرون

في صناعة الحياكة والخياطة

هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وإلحاماً في العرض لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تنبيتاً أو تفسحاً على حسب نوع الصناعة وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذه في سر تحريم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى

كَمَا خَلَقَنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ حَتَّى لا يُعَلِّقُ ٱلْعَبْدُ قَلْبَهُ بِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِ تَرَفِهِ لا طِيباً وَلا نِسَاءً وَلا مَخِيطاً وَلا خُفّاً وَلا يَتَعَرَّضُ لِصَيْدٍ وَلا لِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِهِ ٱلَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا نَفْسُهُ وَخُلُقُهُ مَعَ أَنَّهُ يَفْقِدُهَا بِٱلْمَوْتِ ضَرُورَةً وَإِنَّمَا يَجِيءُ كَأَنَّهُ وَارِدٌ إِلَى ٱلْمَحْشَرِ ضَارِعاً بِقَلْبِهِ مُخْلِصاً لِرَبِّهِ وَكَانَ جَزَاؤُهُ إِنْ تَمَّ لَهُ إِخْلاصُهُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ سُبْحَانَكَ مَا أَرْفَقَكَ بِعِبَادِكَ وَأَرْحَمَكَ بِهِمْ فِي طَلَبِ هِدَايَتِهِمْ إِلَيْكَ . وَهَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ قَدِيمَتَانِ فِي ٱلْخَلِيقَةِ لِمَا أَنَّ ٱلدِّفْءَ ضَرُورِيٌّ لِلْبَشَرِ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْمُعْتَدِلِ وَأَمَّا ٱلْمُنْحَرِفُ إِلَى ٱلْحَرِّ فَلا يَحْتَاجُ أَهْلُهُ إِلَى دِفْءٍ وَلِهٰذَا يَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ ٱلإِقْلِيمِ ٱلأَوَّلِ مِنَ ٱلسُّودَانِ أَنَّهُمْ عُرَاةٌ فِي ٱلْغَالِبِ وَلِقِدَمِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ يَنْسِبُهَا ٱلْعَامَّةُ إِلَى أَدْرِيسَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامِ وَهُوَ أَقْدَمُ ٱلأَنْبِيَاءِ وَرُبَّمَا يَنْسِبُونَهَا إِلَى هِرْمِسَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هِرْمِسَ هُوَ أَدْرِيسُ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ

الفصل الثامن والعشرون

في صناعة التوليد

وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُعْرَفُ بِهَا ٱلْعَمَلُ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَوْلُودِ ٱلآدَمِيِّ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ مِنَ ٱلرِّفْقِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ رَحِمِهَا وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ ذٰلِكَ ثُمَّ مَا يُصْلِحُهُ بَعْدَ ٱلْخُرُوجِ عَلَى مَا نَذْكُرُ وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِٱلنِّسَاءِ فِي غَالِبِ ٱلأَمْرِ لِمَا أَنَّهُنَّ ٱلظَّاهِرَاتُ بَعْضُهُنَّ عَلَى عَوْرَاتِ بَعْضٍ وَتُسَمَّى ٱلْقَائِمَةُ عَلَى ذٰلِكَ مِنْهُنَّ ٱلْقَابِلَةَ ٱسْتُعِيرَ فِيهَا مَعْنَى ٱلإِعْطَاءِ وَٱلْقَبُولِ كَأَنَّ ٱلنُّفَسَاءَ تُعْطِيهَا ٱلْجَنِينَ وَكَأَنَّهَا تَقْبَلُهُ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجَنِينَ إِذَا ٱسْتَكْمَلَ خَلْقَهُ فِي ٱلرَّحِمِ وَأَطْوَارَهُ وَبَلَغَ إِلَى غَايَتِهِ وَٱلْمُدَّةُ ٱلَّتِي قَدَّرَهَا ٱللّٰهُ لِمَكْثِهِ هِيَ تِسْعَةُ أَشْهُرٍ فِي ٱلْغَالِبِ فَيَطْلُبُ ٱلْخُرُوجَ بِمَا جَعَلَ ٱللّٰهُ فِي ٱلْمَوْلُودِ مِنَ ٱلنُّزُوعِ لِذٰلِكَ وَيَضِيقُ عَلَيْهِ ٱلْمَنْفَذُ فَيَعْسُرُ وَرُبَّمَا مَزَّقَ بَعْضَ جَوَانِبِ ٱلْفَرْجِ بِٱلضَّغْطِ وَرُبَّمَا ٱنْقَطَعَ بَعْضُ مَا كَانَ مِنَ ٱلأَغْشِيَةِ مِنَ ٱلإِلْتِصَاقِ وَٱلإِلْتِحَامِ بِٱلرَّحِمِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا آلامٌ يَشْتَدُّ لَهَا ٱلْوَجَعُ وَهُوَ مَعْنَى ٱلطَّلْقِ فَتَكُونُ ٱلْقَابِلَةُ مُعِينَةً فِي ذٰلِكَ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ بِغَمْزِ ٱلظَّهْرِ وَٱلْوَرِكَيْنِ وَمَا يُحَاذِي ٱلرَّحِمَ مِنَ ٱلأَسَافِلِ تُسَاوِقُ بِذٰلِكَ فِعْلَ ٱلدَّافِعَةِ فِي إِخْرَاجِ ٱلْجَنِينِ وَتَسْهِيلِ مَا يَصْعُبُ مِنْهُ بِمَا يُمْكِنُهَا وَعَلَى مَا تَهْتَدِي إِلَى مَعْرِفَةِ عُسْرِهِ ثُمَّ إِنْ أُخْرِجَ ٱلْجَنِينُ بَقِيَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلرَّحِمِ ٱلْوُصْلَةُ حَيْثُ كَانَ يَتَغَذَّى مِنْهَا مُتَّصِلَةً مِنْ سُرَّتِهِ بِمِعَاهُ وَتِلْكَ

ٱلْوُصلَةُ عُضوٌ فَضلِيٌّ لِتَغذِيَةِ ٱلمَوْلُودِ خَاصَةً فَتَقْطَعُهَا ٱلقَابِلَةُ مِنْ حَيثُ لا تَتَعَدَّى مَكَانَ ٱلفَضْلَةِ وَلا تُضِرُّ بِمِعَاهُ وَلا بِرَحِمِ أُمِهِ ثُمَّ تَدمِلُ مَكَانَ ٱلجِرَاحَةِ مِنهُ بِٱلكَيِّ أَوْ بِمَا تَرَاهُ مِنْ وُجُوهِ ٱلإِندِمَالِ ثُمَّ إِنَّ ٱلجَنِينَ عِندَ خُرُوجِهِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلمَنفَذِ ٱلضَّيِّقِ وَهُوَ رَطْبُ العِظَامِ سَهْلُ ٱلإِنعِطَافِ وَٱلإِنثِنَاءِ فَرُبَّمَا تَتَغَيَّرُ أَشْكَالُ أَعضَائِهِ وَأَوْضَاعُهَا لِقُرْبِ ٱلتَّكْوِينِ وَرُطُوبَةِ ٱلمَوَادِ فَتَتَنَاوَلُهُ ٱلقَابِلَةُ بِٱلغَمْزِ وَٱلإِصلاحِ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عُضوٍ إِلى شَكْلِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَوَضعِهِ ٱلمُقَدَّرِ لَهُ وَيَرْتَدَّ خَلْقُهُ سَوِيّاً ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ تُرَاجِعُ ٱلنُّفَسَاءَ وَتُحَاذِيهَا بِٱلغَمْزِ وَٱلمُلايَنَةِ لِخُرُوجِ أَغشِيَةِ ٱلجَنِينِ لِأَنَّهَا رُبَّمَا تَتَأَخَّرُ عَنْ خُرُوجِهِ قَلِيلاً وَيُخْشَى عِندَ ذٰلِكَ أَنْ تُرَاجِعَ ٱلمَاسِكَةَ حَالُهَا ٱلطَّبِيعِيَّةُ قَبلَ ٱستِكْمَالِ خُرُوجِ ٱلأَغشِيَةِ وَهِيَ فَضَلاتٌ فَتُعَفِّنُ وَيَسْرِي عَفَنُهَا إِلى ٱلرَّحِمِ فَيَقَعُ ٱلهَلاكُ فَتُحَاذِرُ ٱلقَابِلَةُ هٰذَا وَتُحَاوِلُ فِي إِعَانَةِ ٱلدَّفعِ إِلى أَنْ تَخْرُجَ تِلْكَ ٱلأَغشِيَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ قَدْ تَأَخَّرَتْ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلى ٱلمَوْلُودِ فَتُمَرِّخُ أَعضَاءَهُ بِٱلأَدهَانِ وَٱلذَّرُورَاتِ ٱلقَابِضَةِ لِتَشُدَّهُ وَتُجَفِّفَ رُطُوبَاتِ ٱلرَّحِمِ وَتُحَنِّكُهُ لِرَفعِ لَهَاتِهِ وَتُسْعِطُهُ لِٱستِفرَاغِ بُطُونِ دِمَاغِهِ وَتُغَرْغِرُهُ بِٱللَّعُوقِ لِدَفعِ ٱلسُّدَدِ مِنْ مِعَاهُ وَتَجْوِيفِهَا عَنِ ٱلإِلتِصَاقِ ثُمَّ تُدَاوِي ٱلنُّفَسَاءَ بَعدَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلوَهنِ ٱلَّذِي أَصَابَهَا بِٱلطَّلْقِ وَمَا لَحِقَ رَحِمَهَا مِنْ أَلَمِ ٱلإِنفِصَالِ إِذِ ٱلمَوْلُودُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عُضْواً طَبِيعِيّاً فَحَالَةُ ٱلتَّكْوِينِ فِي ٱلرَّحِمِ صَيَّرَتْهُ بِٱلإِلتِحَامِ كَٱلعُضوِ ٱلمُتَّصِلِ فَلِذٰلِكَ كَانَ فِي ٱنفِصَالِهِ أَلَمٌ يَقْرُبُ مِنْ أَلَمِ ٱلقَطعِ وَتُدَاوِي مَعَ ذٰلِكَ مَا يَلْحَقُ ٱلفَرْجَ مِنْ أَلَمٍ مِنْ جِرَاحَةِ ٱلتَّمزِيقِ عِندَ ٱلضَّغطِ فِي ٱلخُرُوجِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا أَدوَاءٌ نَجِدُ هٰؤُلاءِ ٱلقَوَابِلَ أَبصَرَ بِدَائِهَا وَكَذٰلِكَ مَا يَعرِضُ لِلمَوْلُودِ مُدَّةَ ٱلرَّضَاعِ مِنْ أَدوَاءٍ فِي بَدَنِهِ إِلى حِينِ ٱلفِصَالِ نَجِدُهُنَّ أَبصَرَ بِهَا مِنَ ٱلطَّبِيبِ ٱلمَاهِرِ . وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ بَدَنَ ٱلإِنسَانِ فِي تِلْكَ ٱلحَالَةِ إِنَّمَا هُوَ بَدَنٌ إِنسَانِيٌّ بِٱلقُوَّةِ فَقَطْ فَإِذَا جَاوَزَ ٱلفِصَالَ صَارَ بَدَناً إِنسَانِيّاً بِٱلفِعلِ فَكَانَتْ حَاجَتُهُ حِينَئِذٍ إِلى ٱلطَّبِيبِ أَشَدَّ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَمَا تَرَاهُ ضَرُورِيَّةٌ فِي ٱلعُمْرَانِ لِلنَّوعِ ٱلإِنسَانِيِّ لا يَتِمُّ كَوْنُ أَشخَاصِهِ فِي ٱلغَالِبِ دُونَهَا وَقَدْ يَعرِضُ لِبَعضِ أَشخَاصِ ٱلنَّوعِ ٱلإِستِغنَاءُ عَنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِمَّا بِخَلْقِ ٱللّٰهِ ذٰلِكَ لَهُمْ مُعجِزَةً وَخَرْقاً لِلعَادَةِ كَمَا فِي حَقِّ ٱلأَنبِيَاءِ صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِمْ أَوْ بِإِلهَامٍ وَهِدَايَةٍ يُلْهَمُ لَهَا ٱلمَوْلُودُ وَيُفطَرُ عَلَيهَا فَيَتِمُّ وُجُودُهُم مِنْ دُونِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَأَمَّا شَأْنُ ٱلمُعجِزَةِ مِنْ ذٰلِكَ فَقَدْ وَقَعَ كَثِيراً وَمِنهُ مَا رُوِيَ أَنَّ

النبيَّ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ وُلِدَ مَسْرُوراً مَخْتُوناً واضِعاً يَدَيْهِ عَلَى الأَرْضِ شَاخِصاً بِبَصَرِهِ إلى السَّماءِ وكَذلِكَ شَأْنُ عِيسَى في المَهْدِ وَغَيْرُ ذلِكَ وأمّا شأنُ الإلهامِ فلا يُنكَرُ وَإذا كانَتِ الحَيَوَاناتُ العُجْمُ تُخْتَصُّ بِغَرائِبِ الإلهاماتِ كالنَّحْلِ وغيرِها فما ظَنُّكَ بالإنسانِ المُفَضَّلِ عَلَيْهَا وَخُصُوصاً بِمَنِ اخْتُصَّ بِكَرَامَةِ اللهِ. ثُمَّ الإلهامُ العامُ لِلْمَوْلُودِينَ في الإقبالِ عَلَى الثَّدْيِ أَوْضَحُ شاهِدٍ عَلَى وُجُودِ الإلهامِ العامِّ لَهُمْ فَشَأْنُ العِنايَةِ الإلهِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحاطَ بِهِ وَمِنْ هُنا يُفْهَمُ بُطْلانُ رَأْيِ الفارابِيِّ وحُكَماءِ الأَنْدَلُسِ فِيمَا احْتَجُّوا بِهِ لِعَدَمِ انْقِرَاضِ الأَنْوَاعِ وَاسْتِحَالَةِ انْقِطَاعِ المُكَوَّنَاتِ وَخُصُوصاً في النَّوْعِ الإنْسانِيِّ وَقالُوا لَوِ انْقَطَعَتْ أَشْخاصُهُ لاسْتَحالَ وُجودُهَا بَعْدَ ذلِكَ لِتَوَقُّفِهِ عَلَى هذِهِ الصِّناعَةِ الَّتي لا يَتِمُّ كَوْنُ الإنْسانِ إلّا بِهَا إذْ لَوْ قَدَّرْنَا مَوْلُوداً دُونَ هذِهِ الصِّناعَةِ وَكَفالَتِهَا إلى حِينِ الفِصالِ لَمْ يَتِمَّ بَقاؤُهُ أَصْلاً وَوُجُودُ الصَّنائِعِ دُونَ الفِكْرِ مُمْتَنِعٌ لِأَنَّها ثَمَرَتُهُ وَتابِعَةٌ لَهُ وَتَكَلَّفَ ابْنُ سِينا في الرَّدِّ عَلَى هذا الرَّأْيِ لِمُخالَفَتِهِ إيّاهُ وَذَهابِهِ إلى إمْكانِ انْقِطاعِ الأَنْوَاعِ وَخَرابِ عالَمِ التَّكْوِينِ ثُمَّ عَوْدِهِ ثانِياً لاقْتِضاءاتٍ فَلَكِيَّةٍ وَأَوْضاعٍ غَرِيبَةٍ تَنْدُرُ في الأَحْقابِ بِزَعْمِهِ فَتَقْتَضِي تَخْمِيرَ طِينَةٍ مُناسِبَةٍ لِمِزاجِهِ بِحَرارَةٍ مُناسِبَةٍ فَيَتِمُّ كَوْنُهُ إنْساناً ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ حَيَوانٌ يُخْلَقُ فِيهِ إلْهامٌ لِتَرْبِيَتِهِ وَالحُنُوِّ عَلَيْهِ إلى أَنْ يَتِمَّ وُجودُهُ وَفِصالُهُ وَأَطْنَبَ في بَيانِ ذلِكَ في الرِّسالَةِ الَّتي سَمّاها رِسالَةَ حَيِّ بْنِ يَقْظانَ وَهذا الاسْتِدْلالُ غَيْرُ صَحِيحٍ وَإنْ كُنَّا نُوافِقُهُ عَلَى انْقِطاعِ الأَنْوَاعِ لٰكِنْ مِنْ غَيْرِ ما اسْتَدَلَّ بِهِ فَإنَّ دَلِيلَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى إسْنادِ الأَفْعالِ إلى العِلَّةِ المُوجِبَةِ وَدَلِيلُ القَوْلِ بِالفاعِلِ المُخْتارِ يَرُدُّ عَلَيْهِ وَلا واسِطَةَ عَلَى القَوْلِ بِالفاعِلِ المُخْتارِ بَيْنَ الأَفْعالِ وَالقُدْرَةِ القَدِيمَةِ وَلا حاجَةَ إلى هذا التَّكَلُّفِ. ثُمَّ لَوْ سَلَّمْناهُ جَدَلاً فَغايَةُ ما يَنْبَنِي عَلَيْهِ اطِّرادُ وُجودِ هذا الشَّخْصِ بِخَلْقِ الإلْهامِ لِتَرْبِيَتِهِ في الحَيَوانِ الأَعْجَمِ وَما الضَّرُورَةُ الدّاعِيَةُ لِذلِكَ وَإذا كانَ الإلْهامُ يُخْلَقُ في الحَيَوانِ الأَعْجَمِ فَما المانِعُ مِنْ خَلْقِهِ لِلْمَوْلُودِ نَفْسِهِ كَما قَرَّرْناهُ أَوَّلاً وَخَلْقُ الإلْهامِ في شَخْصٍ لِمَصالِحِ نَفْسِهِ أَقْرَبُ مِنْ خَلْقِهِ فِيهِ لِمَصالِحِ غَيْرِهِ فَكِلا المَذْهَبَيْنِ شاهِدانِ عَلَى أَنْفُسِهِما بِالبُطْلانِ في مَناحِيهِما لِمَا قَرَّرْتُهُ لَكَ وَاللهُ تَعالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في صناعة الطب وانها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ضَرُورِيَّةٌ فِي ٱلْمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ لِمَا عُرِفَ مِنْ فَائِدَتِهَا فَإِنَّ ثَمَرَتَهَا حِفْظُ ٱلصِّحَّةِ لِلْأَصِحَّاءِ وَدَفْعُ ٱلْمَرَضِ عَنِ ٱلْمَرْضَى بِٱلْمُدَاوَاةِ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُمُ ٱلْبُرْءُ مِنْ أَمْرَاضِهِمْ وَٱعْلَمْ أَنَّ أَصْلَ ٱلْأَمْرَاضِ كُلِّهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ ٱلْأَغْذِيَةِ كَمَا قَالَ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلْجَامِعِ لِلطِّبِّ وَهُوَ قَوْلُهُ ٱلْمَعِدَةُ بَيْتُ ٱلدَّاءِ وَٱلْحِمْيَةُ رَأْسُ ٱلدَّوَاءِ وَأَصْلُ كُلِّ دَاءٍ ٱلْبَرْدَةُ فَأَمَّا قَوْلُهُ ٱلْمَعِدَةُ بَيْتُ ٱلدَّاءِ فَهُوَ ظَاهِرٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ ٱلْحِمْيَةُ رَأْسُ ٱلدَّوَاءِ فَٱلْحِمْيَةُ ٱلْجُوعُ وَهُوَ ٱلِٱحْتِمَاءُ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلْمَعْنَى أَنَّ ٱلْجُوعَ هُوَ ٱلدَّوَاءُ ٱلْعَظِيمُ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلْأَدْوِيَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُ أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ ٱلْبَرْدَةُ فَمَعْنَى ٱلْبَرْدَةِ إِدْخَالُ ٱلطَّعَامِ عَلَى ٱلطَّعَامِ فِي ٱلْمَعِدَةِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ هَضْمُ ٱلْأَوَّلِ وَشَرْحُ هٰذَا أَنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ وَحَفِظَ حَيَاتَهُ بِٱلْغِذَاءِ يَسْتَعْمِلُهُ بِٱلْأَكْلِ وَيُنْفِذُ فِيهِ ٱلْقُوَى ٱلْهَاضِمَةَ وَٱلْغَاذِيَةَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ دَمًا مُلَائِمًا لِأَجْزَاءِ ٱلْبَدَنِ مِنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْعَظْمِ ثُمَّ تَأْخُذُهُ ٱلنَّامِيَةُ فَيَنْقَلِبُ لَحْمًا وَعَظْمًا وَمَعْنَى ٱلْهَضْمِ طَبْخُ ٱلْغِذَاءِ بِٱلْحَرَارَةِ ٱلْغَرِيزِيَّةِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ حَتَّى يَصِيرَ جُزْءًا بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْبَدَنِ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ ٱلْغِذَاءَ إِذَا حَصَلَ فِي ٱلْفَمِ وَلَاكَتْهُ ٱلْأَشْدَاقُ أَثَّرَتْ فِيهِ حَرَارَةُ ٱلْفَمِ طَبْخًا يَسِيرًا وَقَلَبَتْ مِزَاجَهُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ كَمَا تَرَاهُ فِي ٱللُّقْمَةِ إِذَا تَنَاوَلْتَهَا طَعَامًا ثُمَّ أَجَدْتَهَا مَضْغًا فَتَرَى مِزَاجَهَا غَيْرَ مِزَاجِ ٱلطَّعَامِ ثُمَّ يَحْصُلُ فِي ٱلْمَعِدَةِ فَتَطْبُخُهُ حَرَارَةُ ٱلْمَعِدَةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ كَيْمُوسًا وَهُوَ صَفْوُ ذٰلِكَ ٱلْمَطْبُوخِ وَتُرْسِلُهُ إِلَى ٱلْكَبِدِ وَتُرْسِلُ مَا رَسَبَ مِنْهُ فِي ٱلْمِعَى ثُفْلًا يَنْفُذُ إِلَى ٱلْمَخْرَجَيْنِ ثُمَّ تَطْبُخُ حَرَارَةُ ٱلْكَبِدِ ذٰلِكَ ٱلْكَيْمُوسَ إِلَى أَنْ يَصِيرَ عَبِيطًا وَتَطْفُو عَلَيْهِ رَغْوَةٌ مِنَ ٱلطَّبْخِ هِيَ ٱلصَّفْرَاءُ وَتَرْسُبُ مِنْهُ أَجْزَاءٌ يَابِسَةٌ هِيَ ٱلسَّوْدَاءُ وَيَقْصُرُ ٱلْحَارُّ ٱلْغَرِيزِيُّ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ عَنْ طَبْخِ ٱلْغَلِيظِ مِنْهُ فَهُوَ ٱلْبَلْغَمُ ثُمَّ تُرْسِلُهَا ٱلْكَبِدُ كُلَّهَا فِي ٱلْعُرُوقِ وَٱلْجَدَاوِلِ وَيَأْخُذُهَا طَبْخُ ٱلْحَارِّ ٱلْغَرِيزِيِّ هُنَاكَ فَيَكُونُ عَنِ ٱلدَّمِ ٱلْخَالِصِ بُخَارٌ حَارٌّ رَطْبٌ يُمِدُّ ٱلرُّوحَ ٱلْحَيَوَانِيَّ وَتَأْخُذُ ٱلنَّامِيَةُ مَأْخَذَهَا فِي ٱلدَّمِ فَيَكُونُ لَحْمًا ثُمَّ غَلِيظُهُ عِظَامًا ثُمَّ يُرْسِلُ ٱلْبَدَنُ مَا يَفْضُلُ عَنْ حَاجَاتِهِ مِنْ ذٰلِكَ فَضَلَاتٍ مُخْتَلِفَةً مِنَ ٱلْعَرَقِ وَٱللُّعَابِ وَٱلْمُخَاطِ وَٱلدَّمْعِ هٰذِهِ صُورَةُ ٱلْغِذَاءِ وَخُرُوجِهِ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ لَحْمًا ثُمَّ إِنَّ أَصْلَ ٱلْأَمْرَاضِ وَمُعْظَمَهَا هِيَ

ٱلْحُمَّيَاتُ وَسَبَبُهَا أَنَّ ٱلْحَارَّ ٱلْغَرِيزِيَّ قَدْ يَضْعُفُ عَنْ تَمَامِ ٱلنُّضْجِ فِي طَبْخِهِ فِي كُلِّ طَوْرٍ مِنْ هٰذِهِ فَيَبْقَى ذٰلِكَ ٱلْغِذَاءُ دُونَ نُضْجٍ وَسَبَبُهُ غَالِباً كَثْرَةُ ٱلْغِذَاءِ فِي ٱلْمَعِدَةِ حَتَّى يَكُونَ أَغْلَبَ عَلَى ٱلْحَارِّ ٱلْغَرِيزِيِّ أَوْ إِدْخَالُ ٱلطَّعَامِ إِلَى ٱلْمَعِدَةِ قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْفِيَ طَبْخَ ٱلْأَوَّلِ فَيَشْتَغِلُ بِهِ ٱلْحَارُّ ٱلْغَرِيزِيُّ وَيُتْرَكُ ٱلْأَوَّلُ بِحَالَةٍ أَوْ يَتَوَزَّعُ عَلَيْهِمَا فَيَقْصُرُ عَنْ تَمَامِ ٱلطَّبْخِ وَٱلنُّضْجِ وَتُرْسِلُهُ ٱلْمَعِدَةُ كَذٰلِكَ إِلَى ٱلْكَبِدِ فَلَا تَقْوَى حَرَارَةُ ٱلْكَبِدِ أَيْضاً عَلَى إِنْضَاجِهِ وَرُبَّمَا بَقِيَ فِي ٱلْكَبِدِ مِنَ ٱلْغِذَاءِ ٱلْأَوَّلِ فَضْلَةٌ غَيْرُ نَاضِجَةٍ وَتُرْسِلُ ٱلْكَبِدُ جَمِيعَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْعُرُوقِ غَيْرَ نَاضِجٍ كَمَا هُوَ فَإِذَا أَخَذَ ٱلْبَدَنُ حَاجَتَهُ ٱلْمُلَائِمَةَ أَرْسَلَهُ مَعَ ٱلْفَضَلَاتِ ٱلْأُخْرَى مِنَ ٱلْعَرَقِ وَٱلدَّمْعِ وَٱللُّعَابِ إِنِ ٱقْتَدَرَ عَلَى ذٰلِكَ وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلْكَثِيرِ مِنْهُ فَيَبْقَى فِي ٱلْعُرُوقِ وَٱلْكَبِدِ وَٱلْمَعِدَةِ وَتَتَزَايَدُ مَعَ ٱلْأَيَّامِ وَكُلُّ ذِي رُطُوبَةٍ مِنَ ٱلْمُمْتَزِجَاتِ إِذَا لَمْ يَأْخُذْهُ ٱلطَّبْخُ وَٱلنُّضْجُ يَعْفَنُ فَيَتَعَفَّنُ ذٰلِكَ ٱلْغِذَاءُ غَيْرُ ٱلنَّاضِجِ وَهُوَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْخِلْطِ وَكُلُّ مُتَعَفِّنٍ فَفِيهِ حَرَارَةٌ غَرِيبَةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ فِي بَدَنِ ٱلْإِنْسَانِ بِٱلْحُمَّى وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِٱلطَّعَامِ إِذَا تُرِكَ حَتَّى يَتَعَفَّنَ وَفِي ٱلزِّبْلِ إِذَا تَعَفَّنَ أَيْضاً كَيْفَ تَنْبَعِثُ فِيهِ ٱلْحَرَارَةُ وَتَأْخُذُ مَأْخَذَهَا فَهٰذَا مَعْنَى ٱلْحُمَّيَاتِ فِي ٱلْأَبْدَانِ وَهِيَ رَأْسُ ٱلْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَهٰذِهِ ٱلْحُمَّيَاتُ عِلَاجُهَا بِقَطْعِ ٱلْغِذَاءِ عَنِ ٱلْمَرِيضِ أَسَابِيعَ مَعْلُومَةً ثُمَّ يَتَنَاوَلُ ٱلْأَغْذِيَةَ ٱلْمُلَائِمَةَ حَتَّى يَتِمَّ بُرْؤُهُ وَذٰلِكَ فِي حَالِ ٱلصِّحَّةِ عِلَاجٌ فِي ٱلتَّحَفُّظِ مِنْ هٰذَا ٱلْمَرَضِ وَأَصْلُهُ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَقَدْ يَكُونُ ذٰلِكَ ٱلْعَفَنُ فِي عُضْوٍ مَخْصُوصٍ فَيَتَوَلَّدُ عَنْهُ مَرَضٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْعُضْوِ وَيَحْدُثُ جِرَاحَاتٌ فِي ٱلْبَدَنِ إِمَّا فِي ٱلْأَعْضَاءِ ٱلرَّئِيسِيَّةِ أَوْ فِي غَيْرِهَا وَقَدْ يَمْرَضُ ٱلْعُضْوُ وَيَحْدُثُ عَنْهُ مَرَضُ ٱلْقُوَى ٱلْمَوْجُودَةِ لَهُ هٰذِهِ كُلُّهَا جِمَاعُ ٱلْأَمْرَاضِ وَأَصْلُهَا فِي ٱلْغَالِبِ مِنَ ٱلْأَغْذِيَةِ وَهٰذَا كُلُّهُ مَرْفُوعٌ إِلَى ٱلطَّبِيبِ وَوُقُوعُ هٰذِهِ ٱلْأَمْرَاضِ فِي أَهْلِ ٱلْحَضَرِ وَٱلْأَمْصَارِ أَكْثَرُ لِخِصْبِ عَيْشِهِمْ وَكَثْرَةِ مَآكِلِهِمْ وَقِلَّةِ ٱقْتِصَارِهِمْ عَلَى نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَغْذِيَةِ وَعَدَمِ تَوْقِيتِهِمْ لِتَنَاوُلِهَا وَكَثِيراً مَا يَخْلِطُونَ بِٱلْأَغْذِيَةِ مِنَ ٱلتَّوَابِلِ وَٱلْبُقُولِ وَٱلْفَوَاكِهِ رَطْباً وَيَابِساً فِي سَبِيلِ ٱلْعِلَاجِ بِٱلطَّبْخِ وَلَا يَقْتَصِرُونَ فِي ذٰلِكَ عَلَى نَوْعٍ أَوْ أَنْوَاعٍ فَرُبَّمَا عَدَدْنَا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْوَاحِدِ مِنْ أَلْوَانِ ٱلطَّبْخِ أَرْبَعِينَ نَوْعاً مِنَ ٱلنَّبَاتِ وَٱلْحَيَوَانِ فَيَصِيرُ لِلْغِذَاءِ مِزَاجٌ غَرِيبٌ وَرُبَّمَا يَكُونُ غَرِيباً عَنْ مُلَاءَمَةِ ٱلْبَدَنِ وَأَجْزَائِهِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْأَهْوِيَةَ فِي ٱلْأَمْصَارِ

تفسُدُ بِمُخَالَطَةِ ٱلْأَبخِرةِ ٱلعَفِنَةِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلفَضَلاتِ وَٱلْأَهوِيَةِ مُنَشِّطَةً لِلْأَرْوَاحِ وَمُقَوِّيَةً بِنَشَاطِهَا ٱلْأَثَرَ ٱلحَارَّ ٱلغَرِيزِيَّ فِي ٱلهَضْمِ ثُمَّ ٱلرِّيَاضَةُ مَفْقُودَةٌ لِأَهلِ ٱلْأَمْصَارِ إِذْ هُم فِي ٱلغَالِبِ وَادِعُونَ سَاكِنُونَ لَا تَأْخُذُ مِنْهُمُ ٱلرِّيَاضَةُ شَيْئاً وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِمْ أَثَراً فَكَانَ وُقُوعُ ٱلْأَمْرَاضِ كَثِيراً فِي ٱلمُدُنِ وَٱلْأَمْصَارِ وَعَلَى قَدَرِ وُقُوعِهِ كَانَتْ حَاجَتُهُمْ إِلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وأَمَّا أَهلُ ٱلبَدْوِ فَمَأْكُولُهُمْ قَلِيلٌ فِي ٱلغَالِبِ وَٱلجُوعُ أَغْلَبُ عَلَيْهِم لِقِلَّةِ ٱلحُبُوبِ حَتَّى صَارَ لَهُمْ ذٰلِكَ عَادَةً وَرُبَّمَا يُظَنُّ أَنَّهَا جِبِلَّةٌ لِٱسْتِمْرَارِهَا ثُمَّ ٱلْأُدْمُ قَلِيلَةٌ لَدَيْهِم أَوْ مَفْقُودَةٌ بِٱلجُمْلَةِ وَعِلاجُ ٱلطَّبْخِ بِٱلتَّوَابِلِ وَٱلفَوَاكِهِ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَى تَرَفِ ٱلحَضَارَةِ ٱلَّذِينَ هُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْهُ فَيَتَنَاوَلُونَ أَغْذِيَتَهُمْ بَسِيطَةً بَعِيدَةً عَمَّا يُخَالِطُهَا وَيُقَرِّبُ مِزَاجَهَا مِنْ مُلاءَمَةِ ٱلبَدَنِ وَأَمَّا أَهوِيَتُهُمْ فَقَلِيلَةُ ٱلعَفَنِ لِقِلَّةِ ٱلرُّطُوبَاتِ وَٱلعُفُونَاتِ إِنْ كَانُوا ظَوَاعِنَ ثُمَّ إِنَّ ٱلرِّيَاضَةَ مَوْجُودَةٌ فِيهِم لِكَثْرَةِ ٱلحَرَكَةِ فِي رَكْضِ ٱلخَيْلِ أَوِ ٱلصَّيْدِ أَوْ طَلَبِ ٱلحَاجَاتِ لِمِهْنَةِ أَنْفُسِهِمْ فِي حَاجَاتِهِمْ فَيَحْسُنُ بِذٰلِكَ كُلِّهِ ٱلهَضْمُ وَيَجُودُ وَيُفْقَد إِدْخَالُ ٱلطَّعَامِ عَلَى ٱلطَّعَامِ فَتَكُونُ أَمْزِجَتُهُمْ أَصْلَحَ وَأَبْعَدَ مِنَ ٱلْأَمْرَاضِ فَتَقِلُّ حَاجَتُهُم إِلَى ٱلطِّبِّ وَلِهٰذَا لَا يُوجَدُ ٱلطَّبِيبُ فِي ٱلبَادِيَةِ بِوَجْهٍ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِلِٱسْتِغْنَاءِ عَنْهُ إِذْ لَوِ ٱحْتِيجَ إِلَيْهِ لَوُجِدَ لِأَنَّهُ يَكُونُ لَهُ بِذٰلِكَ فِي ٱلبَدْوِ مَعَاشٌ يَدْعُوهُ إِلَى سُكْنَاهُ سُنَّةُ ٱللهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً

الفصل الثلاثون

في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية

وَهُوَ رُسُومٌ وَأَشْكَالٌ حَرْفِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلكَلِمَاتِ ٱلمَسْمُوعَةِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى مَا فِي ٱلنَّفْسِ فَهُوَ ثَانِي رُتْبَةٍ مِنَ ٱلدِّلَالَةِ ٱللُّغَوِيَّةِ وَهُوَ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ إِذِ ٱلكِتَابَةُ مِنْ خَوَاصِّ ٱلإِنْسَانِ ٱلَّتِي يُمَيَّزُ بِهَا عَنِ ٱلحَيَوَانِ وَأَيْضاً فَهِيَ تُطْلِعُ عَلَى مَا فِي ٱلضَّمَائِرِ وَتَتَأَدَّى بِهَا ٱلْأَغْرَاضُ إِلَى ٱلبِلَادِ ٱلبَعِيدَةِ فَتُقْضَى ٱلحَاجَاتُ وَقَدْ دُفِعَتْ مَؤُونَةُ ٱلمُبَاشَرَةِ لَهَا وَيُطَّلَعُ بِهَا عَلَى ٱلعُلُومِ وَٱلمَعَارِفِ وَصُحُفِ ٱلْأَوَّلِينَ وَمَا كَتَبُوهُ مِنْ عُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ فَهِيَ شَرِيفَةٌ بِهٰذِهِ ٱلوُجُوهِ وَٱلمَنَافِعِ وَخُرُوجُهَا فِي ٱلإِنْسَانِ مِنَ ٱلقُوَّةِ إِلَى ٱلفِعْلِ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلتَّعْلِيمِ وَعَلَى قَدَرِ ٱلِٱجْتِمَاعِ وَٱلعُمْرَانِ وَٱلتَّنَاغِي فِي ٱلكَمَالَاتِ وَٱلطَّلَبِ لِذٰلِكَ تَكُونُ جَوْدَةُ ٱلخَطِّ فِي ٱلمَدِينَةِ إِذْ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّنَائِعِ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هٰذَا شَأْنُهَا وَأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِلْعُمْرَانِ وَلِهٰذَا

نجِدُ أَكْثَرَ ٱلبَدْوِ أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يَقْرَأُونَ وَمَنْ قَرَأَ مِنهُمْ أَوْ كَتَبَ فَيَكُون خطُّهُ قَاصِراً أَوْ قِرَاءَتُهُ غَيْرَ نَافِذَةٍ وَنَجِدُ تَعْلِيمَ ٱلخَطِّ فِي ٱلأَمْصَارِ ٱلخَارِجِ عُمْرَانُهَا عَنِ ٱلحَدِّ أَبْلَغ وَأَحسَنَ وَأَسهلَ طَرِيقاً لِاسْتِحْكَامِ ٱلصَّنْعَةِ فِيهَا كَمَا يُحْكَى لَنَا عَنْ مِصر لِهٰذَا ٱلعَهْدِ وَانَّ بِهَا مُعلِّمِينَ مُنْتَصِبِينَ لِتَعْلِيمِ ٱلخَطِّ يُلْقُونَ عَلَى ٱلمُتَعَلِّمِ قَوَانِينَ وَأَحكَاماً فِي وَضْعِ كُلِّ حَرفٍ وَيَزِيدُونَ إِلَى ذَٰلِكَ ٱلمُبَاشَرَةَ بِتَعْلِيمِ وَضْعِه فَتَعْتَضِدُ لَدَيْهِ رُتْبَةُ ٱلعِلْمِ وَٱلحِسِّ فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَتَأْتِي مَلَكَتُهُ عَلَى أَتَمِّ ٱلوُجُوهِ وَإِنَّمَا أَتَى هٰذَا مِنْ كَمَالِ ٱلصَّنَائِع وَوُفُورِهَا بِكَثْرَةِ ٱلعُمْرَانِ وَٱنْفِسَاحِ ٱلأَعْمَالِ وَقَدْ كَانَ ٱلخَطُّ ٱلعَرَبِيُّ بَالِغاً مَبَالِغ مِنَ ٱلإِحْكَامِ وَٱلإِتْقَانِ وَٱلجُودَةِ فِي دَوْلَةِ ٱلتَّبَابِعَةِ لِمَا بَلَغَتْ مِنَ ٱلحَضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ وَهُوَ ٱلمُسَمَّى بِٱلخَطِّ ٱلحِمْيَرِيِّ وَٱنْتَقَلَ مِنهَا إِلَى ٱلحِيرَةِ لِمَا كَانَ بِهَا مِنْ دَوْلَةِ آلِ ٱلمُنْذِر نَسبَاءِ ٱلتَّبَابِعَةِ فِي ٱلعَصَبِيَّةِ وَٱلمُجَدِّدِينَ لِمُلْكِ ٱلعَرَبِ بِأَرْضِ ٱلعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنِ ٱلخَطُّ عِنْدَهُم مِنَ ٱلإِجَادَةِ كَمَا كَانَ عِنْدَ ٱلتَّبَابِعَةِ لِقُصُورِ مَا بَيْنَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ وَكَانَتِ ٱلحَضَارَةُ وَتَوَابِعُهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا قَاصِرَةً عَنْ ذَٰلِكَ وَمِنَ ٱلحِيرَةِ لُقِّنَهُ أَهْلُ ٱلطَّائِفِ وَقُرَيْشٌ فِيمَا ذُكِر وَيُقَالُ إِنَّ ٱلَّذِي تَعَلَّمَ ٱلكِتَابَةَ مِنَ ٱلحِيرَةِ هُوَ سُفيَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَيُقَالُ حَرْبُ بْنُ أُمَيَّةَ وَأَخَذَهَا مِنْ أَسْلَمَ بْنِ سِدْرَةَ وَهُوَ قَوْلٌ مُمْكِنٌ وَأَقْرَبُ مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوهَا مِنْ إِيَادَ أَهلِ ٱلعِرَاقِ لِقَوْلِ شَاعِرِهِمْ

قَوْمٌ لَهُمْ سَاحَةُ ٱلعِرَاقِ إِذَا ... سَارُوا جَمِيعاً وَٱلخَطُّ وَٱلقَلَمُ

وَهُوَ قَوْلٌ بَعِيدٌ لِأَنَّ إِيَادَ وَإِنْ نَزَلُوا سَاحَةَ ٱلعِرَاقِ فَلَمْ يَزَالُوا عَلَى شَأْنِهِمْ مِنَ ٱلبَدَاوَةِ وَٱلخَطُّ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلحَضَرِيَّةِ وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى ٱلخَطِّ وَٱلقَلَم مِنَ ٱلعَرَبِ لِقُرْبِهِمْ مِنْ سَاحَةِ ٱلأَمْصَارِ وَضَوَاحِيهَا فَٱلقَوْلُ بِأَنَّ أَهْلَ ٱلحِجَازِ إِنَّمَا لُقِّنُوهَا مِنَ ٱلحِيرَةِ وَلُقِّنَهَا ٱلحِيرَةُ مِنَ ٱلتَّبَابِعَةِ وَحِمْيَرَ هُوَ ٱلأَلْيَقُ مِنَ ٱلأَقْوَالِ وَكَانَ لِحِمْيَرَ كِتَابَةٌ تُسَمَّى ٱلمُسْنَدَ حُرُوفُهَا مُنْفَصِلَةٌ وَكَانُوا يَمْنَعُونَ مِنْ تَعَلُّمِهَا إِلَّا بِإِذْنِهِمْ وَمِنْ حِمْيَرَ تَعَلَّمَت مُضَرُ ٱلكِتَابَةَ ٱلعَرَبِيَّةَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُجِيدِينَ لَهَا شَأْنَ ٱلصَّنَائِعِ إِذَا وَقَعَتْ بِٱلبَدْو فَلا تَكُونُ مُحْكَمَةَ ٱلمَذَاهِبِ وَلَا مَائِلَةً إِلَى ٱلإِتْقَانِ وَٱلتَّنْمِيقِ لِبَوْنِ مَا بَيْنَ ٱلبَدْو وَٱلصِّنَاعَةِ وَٱسْتِغْنَاءِ ٱلبَدْوِ عَنْهَا فِي ٱلأَكْثَرِ وَكَانَتْ كِتَابَةُ ٱلعَرَبِ بَدَوِيَّةً مِثْلَ كِتَابَتِهِمْ أَو قَرِيباً مِنْ كِتَابَتِهِمْ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ أَوْ نَقُولُ إِنَّ كِتَابَتَهُمْ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ أَحسَنُ صِنَاعَةً لِأَنَّ هؤُلاء

أَقْرَبُ إِلَى ٱلْحَضَارَةِ وَمُخَالَطَةِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلدُّوَلِ وَأَمَّا مُضَرُ فَكَانُوا أَعْرَقَ فِي ٱلْبَدْوِ وَأَبْعَد عَنِ ٱلْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْيَمَنِ وَأَهْلِ ٱلْعِرَاقِ وَأَهْلِ ٱلشَّامِ وَمِصْرَ فَكَانَ ٱلْخَطُّ ٱلْعَرَبِيُّ لِأَوَّلِ ٱلْإِسْلَامِ غَيْرَ بَالِغٍ إِلَى ٱلْغَايَةِ مِنَ ٱلْإِحْكَامِ وَٱلْإِتْقَانِ وَٱلْإِجَادَةِ وَلَا إِلَى ٱلتَّوَسُّط لِمَكَانِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ وَٱلتَّوَحُّشِ وَبُعْدِهِمْ عَنِ ٱلصَّنَائِعِ وَٱنْظُرْ مَا وَقَعَ لِأَجْلِ ذَٰلِكَ فِي رَسْمِهِمِ ٱلْمُصْحَفَ حَيْثُ رَسَمَهُ ٱلصَّحَابَةُ بِخُطُوطِهِمْ وَكَانَتْ غَيْرَ مُسْتَحْكَمَةٍ فِي ٱلْإِجَادَة فَخَالَفَ ٱلْكَثِيرُ مِنْ رُسُومِهِمْ مَا ٱقْتَضَتْهُ رُسُومُ صِنَاعَةِ ٱلْخَطِّ عِنْدَ أَهْلِهَا ثُمَّ ٱقْتَفَى ٱلتَّابِعُون مِنَ ٱلسَّلَفِ رَسْمَهُمْ فِيهَا تَبَرُّكاً بِمَا رَسَمَهُ أَصْحَابُ ٱلرَّسُولِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرِ ٱلْخَلْقِ مِنْ بَعْدِهِ ٱلْمُتَلَقُّونَ لِوَحْيِهِ مِنْ كِتَابِ ٱللهِ وَكَلَامِهِ كَمَا يُقْتَفَى لِهَذَا ٱلْعَهْدِ خَطُّ وَلِيٍّ أَوْ عَالِمٍ تَبَرُّكاً وَيُتَّبَعُ رَسْمُهُ خَطَأً أَوْ صَوَابًا وَأَيْنَ نِسْبَةُ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ فِيمَا كَتَبُوه فَٱتُّبِعَ ذَٰلِكَ وَأُثْبِتَ رَسْماً وَنَبَّهَ ٱلْعُلَمَاءُ بِٱلرَّسْمِ عَلَى مَوَاضِعِهِ وَلَا تَلْتَفِتَنَّ فِي ذَٰلِكَ إِلَى مَا يَزْعُمُهُ بَعْضُ ٱلْمُغَفَّلِينَ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُحْكِمِينَ لِصِنَاعَةِ ٱلْخَطِّ وَأَنَّ مَا يُتَخَيَّلُ مِن مُخَالَفَةِ خُطُوطِهِمْ لِأُصُولِ ٱلرَّسْمِ لَيْسَ كَمَا يُتَخَيَّلُ بَلْ لِكُلِّهَا وَجْهٌ يَقُولُونَ فِي مِثْل زِيَادَةِ ٱلْأَلِفِ فِي لَا أَذْبَحَنَّهُ إِنَّهُ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ ٱلذَّبْحَ لَمْ يَقَعْ وَفِي زِيَادَةِ ٱلْيَاءِ فِي بِأَيْيد إِنَّهُ تَنْبِيهٌ عَلَى كَمَالِ ٱلْقُدْرَةِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ مِمَّا لَا أَصْلَ لَهُ إِلَّا ٱلتَّحَكُّم ٱلْمَحْضُ وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَٰلِكَ إِلَّا ٱعْتِقَادُهُمْ أَنَّ فِي ذَٰلِكَ تَنْزِيهاً لِلصَّحَابَةِ عَنْ تَوَهُّمِ ٱلنَّقْصِ فِي قِلَّةِ إِجَادَةِ ٱلْخَطِّ وَحَسِبُوا أَنَّ ٱلْخَطَّ كَمَالٌ فَنَزَّهُوهُمْ عَنْ نَقْصِهِ وَنَسَبُوا إِلَيْهِم ٱلْكَمَالَ بِإِجَادَتِهِ وَطَلَبُوا تَعْلِيلَ مَا خَالَفَ ٱلْإِجَادَةَ مِنْ رَسْمِهِ وَذَٰلِكَ لَيْسَ بِصَحِيح وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْخَطَّ لَيْسَ بِكَمَالٍ فِي حَقِّهِمْ إِذِ ٱلْخَطُّ مِنْ جُمْلَةِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلْمَعَاشِيَّة كَمَا رَأَيْتَهُ فِيمَا مَرَّ وَٱلْكَمَالُ فِي ٱلصَّنَائِعِ إِضَافِيٌّ بِكَمَالٍ مُطْلَقٍ إِذْ لَا يَعُودُ نَقْصُهُ عَلَى ٱلذَّاتِ فِي ٱلدِّينِ وَلَا فِي ٱلْخِلَالِ وَإِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَسْبَابِ ٱلْمَعَاشِ وَبِحَسَبِ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلتَّعَاوُن عَلَيْهِ لِأَجْلِ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا فِي ٱلنُّفُوسِ . وَقَدْ كَانَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِّياً وَكَان ذَٰلِكَ كَمَالاً فِي حَقِّهِ وَبِٱلنِّسْبَةِ إِلَى مَقَامِهِ لِشَرَفِهِ وَتَنَزُّهِهِ عَنِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْعَمَلِيَّةِ ٱلَّتِي هِي أَسْبَابُ ٱلْمَعَاشِ وَٱلْعُمْرَانِ كُلِّهَا وَلَيْسَتِ ٱلْأُمِّيَّةُ كَمَالاً فِي حَقِّنَا نَحْنُ إِذْ هُوَ مُنْقَطِعٌ إِلَى رَبِّهِ وَنَحْنُ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا شَأْنَ ٱلصَّنَائِعِ كُلِّهَا حَتَّى ٱلْعُلُومِ ٱلِٱصْطِلَاحِيَّةِ فَإِن ٱلْكَمَالَ فِي حَقِّهِ هُوَ تَنَزُّهُهُ عَنْهَا جُمْلَةً بِخِلَافِنَا ثُمَّ لَمَّا جَاءَ ٱلْمُلْكُ لِلْعَرَبِ وَفَتَحُوا

ٱلْأَمْصَارَ وَمَلَكُوا ٱلْمَمَالِكَ وَنَزَلُوا ٱلْبَصْرَةَ وَٱلْكُوفَةَ وَٱحْتَاجَتِ ٱلدَّوْلَةُ إِلَى ٱلْكِتَابَة ٱسْتَعْمَلُوا ٱلْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعَلُّمَهُ وَتَدَاوَلُوهُ فَتَرَقَّتِ ٱلْإِجَادَةُ فِيهِ وَٱسْتَحْكَمَ وَبَلَغ فِي ٱلْكُوفَةِ وَٱلْبَصْرَةِ رُتْبَةً مِنَ ٱلْإِتْقَانِ إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ دُونَ ٱلْغَايَةِ وَٱلْخَطُّ ٱلْكُوفِيُّ مَعْرُوفُ ٱلرَّسْمِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ ثُمَّ ٱنْتَشَرَ ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْمَمَالِكِ وَٱفْتَتَحُوا أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْأَنْدَلُسَ وَٱخْتَطَّ بَنُو ٱلْعَبَّاسِ بَغْدَادَ وَتَرَقَّتِ ٱلْخُطُوطُ فِيهَا إِلَى ٱلْغَايَةِ لَمَّا ٱسْتَبْحَرَتْ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَكَانَتْ دَارَ ٱلْإِسْلَامِ وَمَرْكَزَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَكَانَ ٱلْخَطُّ ٱلْبَغْدَادِيُّ مَعْرُوف ٱلرَّسْمِ وَتَبِعَهُ ٱلْأَفْرِيقِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ رَسْمُهُ ٱلْقَدِيمُ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَيَقْرُبُ مِنْ أَوْضَاعِ ٱلْخَط ٱلْمَشْرِقِيِّ وَتَحَيَّزَ مُلْكُ ٱلْأَنْدَلُسِ بِٱلْأُمَوِيِّينَ فَتَمَيَّزُوا بِأَحْوَالِهِمْ مِنَ ٱلْحِضَارَةِ وَٱلصَّنَائِع وَٱلْخُطُوطِ فَتَمَيَّزَ صِنْفُ خَطِّهِمِ ٱلْأَنْدَلُسِيِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفُ ٱلرَّسْمِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَطَمَا بَحْر ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْحِضَارَةِ فِي ٱلدُّوَلِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَعَظُمَ ٱلْمُلْكُ وَنَفَقَتْ أَسْوَاق ٱلْعُلُومِ وَٱنْتَسَخَتِ ٱلْكُتُبُ وَأُجِيدَ كَتْبُهَا وَتَجْلِيدُهَا وَمُلِئَتْ بِهَا ٱلْقُصُورُ وَٱلْخَزَائِن ٱلْمُلُوكِيَّةُ بِمَا لَا كِفَاءَ لَهُ وَتَنَافَسَ أَهْلُ ٱلْأَقْطَارِ فِي ذَلِكَ وَتَنَاغَوْا فِيهِ ثُمَّ لَمَّا ٱنْحَلَّ نِظَام ٱلدَّوْلَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَتَنَاقَصَتْ تَنَاقَصَ ذَلِكَ أَجْمَعُ وَدُرِسَتْ مَعَالِمُ بَغْدَادَ بِدُرُوسِ ٱلْخِلَافَة فَٱنْتَقَلَ شَأْنُهَا مِنَ ٱلْخَطِّ وَٱلْكِتَابَةِ بَلْ وَٱلْعِلْمِ إِلَى مِصْرَ وَٱلْقَاهِرَةِ فَلَمْ تَزَلْ أَسْوَاقُهُ بِهَا نَافِقَةً لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَلَهُ بِهَا مُعَلِّمُونَ يَرْسُمُونَ لِتَعْلِيمِ ٱلْحُرُوفِ بِقَوَانِينَ فِي وَضْعِهَا وَأَشْكَالِهَا مُتَعَارَفَةٍ بَيْنَهُمْ فَلَا يَلْبَثُ ٱلْمُتَعَلِّمُ أَنْ يُحْكِمَ أَشْكَالَ تِلْكَ ٱلْحُرُوفِ عَلَى تِلْكَ ٱلْأَوْضَاع وَقَدْ لَقِنَهَا حِسًّا وَحَذِقَ فِيهَا دُرْبَةً وَكِتَابًا وَأَخَذَهَا قَوَانِينَ عِلْمِيَّةً فَتَجِيءُ أَحْسَنَ مَا يَكُون وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ فَٱفْتَرَقُوا فِي ٱلْأَقْطَارِ عِنْدَ تَلَاشِي مُلْكِ ٱلْعَرَبِ بِهَا وَمَنْ خَلَفَهُمْ مِن ٱلْبَرْبَرِ وَتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ أُمَمُ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ فَٱنْتَشَرُوا فِي عُدْوَةِ ٱلْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ مِنْ لَدُن ٱلدَّوْلَةِ ٱللَّمْتُونِيَّةِ إِلَى هَذَا ٱلْعَهْدِ وَشَارَكُوا أَهْلَ ٱلْعُمْرَانِ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَتَعَلَّقُوا بِأَذْيَالِ ٱلدَّوْلَةِ فَغَلَبَ خَطُّهُمْ عَلَى ٱلْخَطِّ ٱلْأَفْرِيقِيِّ وَعَفَى عَلَيْهِ وَنُسِيَ خَطُّ ٱلْقَيْرَوَان وَٱلْمَهْدِيَّةُ بِنِسْيَانِ عَوَائِدِهِمَا وَصَنَائِعِهِمَا وَصَارَتْ خُطُوطُ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ كُلُّهَا عَلَى ٱلرَّسْم ٱلْأَنْدَلُسِيِّ بِتُونِسَ وَمَا إِلَيْهَا لِتَوَفُّرِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ بِهَا عِنْدَ ٱلْجَالِيَةِ مِنْ شَرْقِ ٱلْأَنْدَلُس وَبَقِيَ مِنْهُ رَسْمٌ بِبِلَادِ ٱلْجَرِيدِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُخَالِطُوا كُتَّابَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَلَا تَمَرَّسُوا بِجِوَارِهِم إِنَّمَا كَانُوا يَغْدُونَ عَلَى دَارِ ٱلْمُلْكِ بِتُونِسَ فَصَارَ خَطُّ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ مِنْ أَحْسَنِ خُطُوط

أَهلِ ٱلأَندلُسِ حتَّى إذا تَقلَّصَ ظِلُّ ٱلدَّوْلَةِ ٱلمُوَحِّدِيَّةِ بَعضَ ٱلشَّيءِ وَتَرَاجعَ أَمْرُ ٱلحضَارَةِ وَٱلتَّرَفِ بِتَرَاجُعِ ٱلعُمْرَانِ نَقَصَ حِينَئِذٍ حالُ ٱلخطِّ وَفَسَدَتْ رُسُومُهُ وَجُهِلَ فِيهِ وَجْهُ ٱلتَّعْلِيمِ بِفَسَادِ ٱلحَضَارَةِ وَتَنَاقُصِ ٱلعُمْرَانُ وَبَقِيَتْ فِيهِ آثَارُ ٱلخَطِّ ٱلأَنْدَلُسِيِّ تَشْهَدُ بِمَا كانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ لِمَا قَدَّمْناهُ مِنْ أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ إِذَا رَسَخَتْ بِٱلحَضَارَةِ فَيَعْسُرُ مَحْوُهَا وَحَصَلَ فِي دَوْلَةِ بَنِي مَرِينَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بِٱلمَغْرِبِ ٱلأَقصَى لَوْنٌ مِنَ ٱلخَطِّ ٱلأَنْدَلُسِي لِقُرْبِ جِوَارِهِمْ وَسُقُوطِ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ إِلَى فَارِسَ قَرِيباً وَٱسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهُمْ سَائِرَ ٱلدَّوْلَةِ وَنُسِيَ عَهْدُ ٱلخَطِّ فِيمَا بَعُدَ عَنْ سدَّةِ ٱلمُلْكِ وَدَارِهِ كَأَنَّهُ لَمْ يُعْرَفْ فَصَارَتِ ٱلخُطُوطُ بِأَفْرِيقِيَّـةَ وَٱلمَغْرِبَيْنِ مَائِلَةً إِلى ٱلرَّدَاءَةِ بَعِيدَةً عَنِ ٱلجُودَةِ وَصَارَتِ ٱلكُتُبُ إِذَا ٱنْتُسِخَتْ فَلا فَائِدَةَ تَحْصُلُ لِمُتَصَفِّحِهَا مِنْهَا إِلَّا ٱلعَنَاءُ وَٱلمَشَقَّةُ لِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ ٱلفَسَادِ وَٱلتَّصْحِيفِ وَتَغْيِيرِ ٱلأَشْكَالِ ٱلخَطِّيَّةِ عَنِ ٱلجُودَةِ حَتَّى لا تَكَادُ تُقْرَأُ إِلَّا بَعْدَ عُسْرٍ وَوَقَعَ فِيهِ مَا وَقَعَ فِي سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ بِنَقْصِ ٱلحَضَارَةِ وَفَسَادِ ٱلدُّوَلِ وَٱللهُ أَعْلَمُ

الفصل الحادي والثلاثون

في صناعة الوراقة

كانَتِ ٱلعِنَايَةُ قَدِيماً بِٱلدَّوَاوِينِ ٱلعِلْمِيَةِ وَٱلسِّجِلَّاتِ فِي نَسْخِهَا وَتَجْلِيدِهَا وَتَصْحِيحِهَا بِٱلرِّوَايَةِ وَٱلضَّبْطِ وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ مَا وَقَعَ مِنْ ضَخَامَةِ ٱلدَّوْلَةِ وَتَوَابِعِ ٱلحَضَارَةِ وَقَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ لِهَذَا ٱلعَهْدِ بِذَهَابِ ٱلدَّوْلَةِ وَتَنَاقُصِ ٱلعُمْرَانِ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْهُ فِي ٱلمِلَّةِ ٱلإِسْلامِيَّةِ بَحْرٌ زَاخِرٌ بِٱلعِرَاقِ وَٱلأَنْدَلُسِ إِذْ هُوَ كُلُّهُ مِنْ تَوَابِعِ ٱلعُمْرَانِ وَٱتِّسَاعِ نِطَاقِ ٱلدَّوْلَةِ وَنَفَاقِ أَسْوَاقِ ذَلِكَ لَدَيْهِمَا فَكَثُرَتِ ٱلتَّآلِيفُ ٱلعِلْمِيَّةُ وَٱلدَّوَاوِينُ وَحَرِصَ ٱلنَّاسُ عَلى تَنَاقُلِهِمَا فِي ٱلآفَاقِ وَٱلأَعْصَارِ فَٱنْتُسِخَتْ وَجُلِّدَتْ وَجَاءَتْ صِنَاعَةُ ٱلوَرَّاقِينَ ٱلمُعَانِينَ لِلِٱنْتِسَاخِ وَٱلتَّصْحِيحِ وَٱلتَّجْلِيدِ وَسَائِرِ ٱلأُمُورِ ٱلكُتُبِيَّةِ وَٱلدَّوَاوِينِ وَٱخْتَصَّتْ بِٱلأَمْصَارِ ٱلعَظِيمَةِ ٱلعُمْرَانِ وَكَانَتِ ٱلسِّجِلَّاتُ أَوَّلاً لِٱنْتِسَاخِ ٱلعُلُومِ وَكُتُبِ ٱلرَّسَائِلِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلإِقْطَاعَاتِ وَٱلصُّكُوكِ فِي ٱلرُّقُوقِ ٱلمُهَيَّأَةِ بِٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلجِلْدِ لِكَثْرَةِ ٱلرَّفْهِ وَقِلَّةِ ٱلرَّسَائِلِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلصُّكُوكِ مَعَ ذَلِكَ فَٱقْتَصَرُوا عَلى ٱلكِتَابِ فِي ٱلرَّقِّ تَشْرِيفاً لِلْمَكْتُوبَاتِ وَمَيْلًا بِهَا إِلى ٱلصِّحَّةِ وَٱلإِتْقَانِ ثُمَّ طَمَا بَحْرُ ٱلتَّآلِيفِ وَٱلتَّدْوِينِ وَكَثُرَ تَرْسِيلُ ٱلسُّلْطَانِ وَصُكُوكُهُ وَضَاقَ ٱلرَّقُّ عَنْ ذَلِكَ فَأَشَارَ ٱلفَضْلُ بْنُ يَحْيَى بِصِنَاعَةِ

الكاغد وصنعة وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها وواضعيها لأنه الشأن الأهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها والفتيا إلى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها وما لم يكن تصحيح المتون بإسنادها إلى مدونها فلا يصح إسناد قول لهم ولا فتيا وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في العصور والأجيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط إذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمخضت زبدة في ذلك الأمهات المتلقاة بالقبول عند الأمة وصار القصد إلى ذلك لغواً من العمل ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها إلا في تصحيح تلك الأمهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتآليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والإسناد إليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبدة الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضنانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاض عمرانه وبداوة أهله وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة إلا في الأقل النادر وأيضاً فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فإن غالب الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب وإنما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه وتبع ذلك أيضاً ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التآليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم بالأندلس إلا إثارة خفية بالإمحاء وهي الاضمحلال فقد كاد العلم ينقطع بالكلية من المغرب والله غالب على أمره ويبلغنا لهذا العهد

أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلرِّوَايَةِ قَائِمَةٌ بِٱلْمَشْرِقِ وَتَصْحِيحُ ٱلدَّوَاوِينِ لِمَنْ يَرُومُهُ بِذٰلِكَ سَهْلٌ عَلَى مُبْتَغِيهِ لِنَفَاقِ أَسْوَاقِ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ كَمَا نَذْكُرُهُ بَعْدُ إِلَّا أَنَّ ٱلْخَطَّ ٱلَّذِي بَقِيَ مِنَ ٱلْإِجَادَةِ فِي ٱلِٱنْتِسَاخِ هُنَالِكَ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَجَمِ وَفِي خُطُوطِهِمْ وَأَمَّا ٱلنَّسْخُ بِمِصْرَ فَفَسَدَ كَمَا فَسَدَ بِٱلْمَغْرِبِ وَأَشَدَّ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الثاني والثلاثون

في صناعة الغناء

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ تَلْحِينُ ٱلْأَشْعَارِ ٱلْمَوْزُونَةِ بِتَقْطِيعِ ٱلْأَصْوَاتِ عَلَى نِسَبٍ مُنْتَظِمَةٍ مَعْرُوفَةٍ يُوَقَّعُ كُلُّ صَوْتٍ مِنْهَا تَوْقِيعاً عِنْدَ قَطْعِهِ فَيَكُونُ نَغْمَةً ثُمَّ تُؤَلَّفُ تِلْكَ ٱلنَّغَمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى نِسَبٍ مُتَعَارَفَةٍ فَيَلَذُّ سَمَاعُهَا لِأَجْلِ ذٰلِكَ ٱلتَّنَاسُبِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ ٱلْكَيْفِيَّةِ فِي تِلْكَ ٱلْأَصْوَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ ٱلْمُوسِيقَى أَنَّ ٱلْأَصْوَاتَ تَتَنَاسَبُ فَيَكُونُ صَوْتٌ نِصْفَ صَوْتٍ وَرُبْعَ آخَرَ وَخُمْسَ آخَرَ وَجُزْءاً مِنْ أَحَدَ عَشَرَ مِنْ آخَرَ وَٱخْتِلَافُ هٰذِهِ ٱلنِّسَبِ عِنْدَ تَأْدِيَتِهَا إِلَى ٱلسَّمْعِ بِخُرُوجِهَا مِنَ ٱلْبَسَاطَةِ إِلَى ٱلتَّرْكِيبِ وَلَيْسَ كُلُّ تَرْكِيبٍ مِنْهَا مَلْذُوذاً عِنْدَ ٱلسَّمَاعِ بَلْ لِلْمَلْذُوذِ تَرَاكِيبُ خَاصَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي حَصَرَهَا أَهْلُ عِلْمِ ٱلْمُوسِيقَى وَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ وَقَدْ يُسَاوِقُ ذٰلِكَ ٱلتَّلْحِينَ فِي ٱلنَّغَمَاتِ ٱلْغِنَائِيَّةِ بِتَقْطِيعِ أَصْوَاتٍ أُخْرَى مِنَ ٱلْجَمَادَاتِ إِمَّا بِٱلْقَرْعِ أَوْ بِٱلنَّفْخِ فِي ٱلْآلَاتِ تُتَّخَذُ لِذٰلِكَ فَتَرَى لَهَا لَذَّةً عِنْدَ ٱلسَّمَاعِ فَمِنْهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ أَصْنَافٌ مِنْهَا مَا يُسَمُّونَهُ ٱلشَّبَّابَةَ وَهِيَ قَصَبَةٌ جَوْفَاءُ بِأَبْخَاشٍ فِي جَوَانِبِهَا مَعْدُودَةٍ يُنْفَخُ فِيهَا فَتُصَوِّتُ فَيَخْرُجُ ٱلصَّوْتُ مِنْ جَوْفِهَا عَلَى سِدَادِهِ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَبْخَاشِ وَيُقَطَّعُ ٱلصَّوْتُ بِوَضْعِ ٱلْأَصَابِعِ مِنَ ٱلْيَدَيْنِ جَمِيعاً عَلَى تِلْكَ ٱلْأَبْخَاشِ وَضْعاً مُتَعَارَفاً حَتَّى تَحْدُثَ ٱلنِّسَبُ بَيْنَ ٱلْأَصْوَاتِ فِيهِ وَتَتَّصِلَ كَذٰلِكَ مُتَنَاسِبَةً فَيَلْتَذُّ ٱلسَّمْعُ بِإِدْرَاكِهَا لِلتَّنَاسُبِ ٱلَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَمِنْ جِنْسِ هٰذِهِ ٱلْآلَةِ ٱلْمِزْمَارُ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلزُّلَامِيَّ وَهُوَ شَكْلُ ٱلْقَصَبَةِ مَنْحُوتَةَ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلْخَشَبِ جَوْفَاءَ مِنْ غَيْرِ تَدْوِيرٍ لِأَجْلِ ٱئْتِلَافِهَا مِنْ قِطْعَتَيْنِ مُنْفَرِدَتَيْنِ كَذٰلِكَ بِأَبْخَاشٍ مَعْدُودَةٍ يُنْفَخُ فِيهَا بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُوصَلُ فَيَنْفُذُ ٱلنَّفْخُ بِوَاسِطَتِهَا إِلَيْهَا وَتُصَوِّتُ بِنَغْمَةٍ حَادَّةٍ يُجْرَى فِيهَا مِنْ تَقْطِيعِ ٱلْأَصْوَاتِ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَبْخَاشِ بِٱلْأَصَابِعِ مِثْلَ مَا يَجْرِي فِي ٱلشَّبَّابَةِ وَمِنْ أَحْسَنِ آلَاتِ ٱلزَّمْرِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱلْبُوقُ وَهُوَ بُوقٌ مِنْ نُحَاسٍ أَجْوَفُ فِي مِقْدَارِ

ٱلذِّرَاعِ يَتَّسِعُ إلى أنْ يَكُونَ ٱنفِرَاجُ مَخْرَجِهِ في مِقْدَارِ دُونَ ٱلْكَفِّ في شَكْلِ بَرْيِ ٱلْقَلَمِ وَيُنْفَخُ فِيهِ بِقَصَبَةٍ صَغِيرَةٍ تُؤَدِّي ٱلرِّيحَ مِنَ ٱلْفَمِ إِلَيْهِ فَيَخْرُجُ ٱلصَّوْتُ تَخِيناً دَوِيّاً وَفِيهِ أَبْخَاشٌ أَيضاً مَعْدُودَةٌ وَتُقَطَّعُ نَغْمَةٌ مِنْهَا كَذٰلِكَ بِٱلْأَصَابِعِ عَلى ٱلتَّنَاسُبِ فَيَكُونُ مَلْذُوذاً وَمِنْهَا آلَاتُ ٱلْأَوْتَارِ وَهِيَ جَوْفَاءُ كُلُّهَا إِمَّا عَلى شَكْلِ قِطْعَةٍ مِنَ ٱلْكُرَةِ مِثْلِ ٱلْبِرْبَطِ وَٱلرَّبَابِ أَوْ عَلى شَكْلٍ مُرَبَّعٍ كَٱلْقَانُونِ تُوضَعُ ٱلْأَوْتَارُ عَلى بَسَائِطِهَا مَشْدُودَةً في رَأْسِهَا إلى دُسُرٍ جَائِلَةٍ لِيَأْتِيَ شَدُّ ٱلْأَوْتَارِ وَرَخْوُهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ بِإِدَارَتِهَا ثُمَّ تُقْرَعُ ٱلْأَوْتَارُ إِمَّا بِعُودٍ آخَرَ أَوْ بِوَتَرٍ مَشْدُودٍ بَيْنَ طَرَفَيْ قَوْسٍ يَمُرُّ عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ يُطْلَى بِٱلشَّمْعِ وَٱلْكُنْدُرِ وَيُقَطَّعُ ٱلصَّوْتُ فِيهِ بِتَخْفِيفِ ٱلْيَدِ في إِمْرَارِهِ أَوْ نَقْلِهِ مِنْ وَتَرٍ إِلى وَتَرٍ وَٱلْيَدُ ٱلْيُسْرَى مَعَ ذٰلِكَ في جَمِيعِ آلَاتِ ٱلْأَوْتَارِ تُوَقِّعُ بِأَصَابِعِهَا عَلى أَطْرَافِ ٱلْأَوْتَارِ فِيمَا يُقْرَعُ أَوْ يُحَكُّ بِٱلْوَتَرِ فَتَحْدُثُ ٱلْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً مَلْذُوذَةً وَقَدْ يَكُونُ ٱلْقَرْعُ في ٱلطُّسُوتِ بِٱلْقُضْبَانِ أَوْ في ٱلْأَعْوَادِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ عَلى تَوْقِيعٍ مُنَاسِبٍ يَحْدُثُ عَنْهُ ٱلْتِذَاذٌ بِٱلْمَسْمُوعِ وَلْنُبَيِّنْ لَكَ ٱلسَّبَبَ في ٱللَّذَّةِ ٱلنَّاشِئَةِ عَنِ ٱلْغِنَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱللَّذَّةَ كَمَا تَقَرَّرَ في مَوْضِعِهِ هِيَ إِدْرَاكُ ٱلْمُلَائِمِ وَٱلْمَحْسُوسُ إِنَّمَا تُدْرَكُ مِنْهُ كَيْفِيَّةٌ فَإِذَا كَانَتْ مُنَاسِبَةً لِلْمُدْرِكِ وَمُلَائِمَةً كَانَتْ مَلْذُوذَةً وَإِذَا كَانَتْ مُنَافِيَةً لَهُ مُنَافِرَةً كَانَتْ مُؤْلِمَةً فَٱلْمُلَائِمُ مِنَ ٱلطُّعُومِ مَا نَاسَبَتْ كَيْفِيَّتُهُ حَاسَّةَ ٱلذَّوْقِ في مِزَاجِهَا وَكَذَا ٱلْمُلَائِمُ مِنَ ٱلْمَلْمُوسَاتِ وَفي ٱلرَّوَائِحِ مَا نَاسَبَ مِزَاجَ ٱلرُّوحِ ٱلْقَلْبِيِّ ٱلْحَارِّيِّ لِأَنَّهُ ٱلْمُدْرِكُ وَإِلَيْهِ تُؤَدِّيهِ ٱلْحَاسَّةُ وَلِهٰذَا كَانَتِ ٱلرَّيَاحِينُ وَٱلْأَزْهَارُ ٱلْعِطْرِيَّاتُ أَحْسَنَ رَائِحَةً وَأَشَدَّ مُلَاءَمَةً لِلرُّوحِ لِغَلَبَةِ ٱلْحَرَارَةِ فِيهَا ٱلَّتِي هِيَ مِزَاجُ ٱلرُّوحِ ٱلْقَلْبِيِّ وَأَمَّا ٱلْمَرْئِيَّاتُ وَٱلْمَسْمُوعَاتُ فَٱلْمُلَائِمُ فِيهَا تَنَاسُبُ ٱلْأَوْضَاعِ في أَشْكَالِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا فَهُوَ أَنْسَبُ عِنْدَ ٱلنَّفْسِ وَأَشَدُّ مُلَاءَمَةً لَهَا فَإِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ مُتَنَاسِباً في أَشْكَالِهِ وَتَخَاطِيطِهِ ٱلَّتِي لَهُ بِحَسَبِ مَادَّتِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ عَمَّا تَقْتَضِيهِ مَادَّتُهُ ٱلْخَاصَّةُ مِنْ كَمَالِ ٱلْمُنَاسَبَةِ وَٱلْوَضْعِ وَذٰلِكَ هُوَ مَعْنَى ٱلْجَمَالِ وَٱلْحُسْنِ في كُلِّ مُدْرَكٍ كَانَ ذٰلِكَ حِينَئِذٍ مُنَاسِباً لِلنَّفْسِ ٱلْمُدْرِكَةِ فَتَلْتَذُّ بِإِدْرَاكِ مُلَائِمِهَا وَلِهٰذَا تَجِدُ ٱلْعَاشِقِينَ ٱلْمُسْتَهْتَرِينَ في ٱلْمَحَبَّةِ يُعَبِّرُونَ عَنْ غَايَةِ مَحَبَّتِهِمْ وَعِشْقِهِمْ بِٱمْتِزَاجِ أَرْوَاحِهِمْ بِرُوحِ ٱلْمَحْبُوبِ وَفي هٰذَا سِرٌّ تَفْهَمُهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَهُوَ ٱتِّحَادُ ٱلْمَبْدَإِ وَإِنْ كَانَ مَا سِوَاكَ إِذَا نَظَرْتَهُ وَتَأَمَّلْتَهُ

رأيتَ بينَكَ وبينَهُ اتحاداً في البداءةِ يشهدُ لكَ بهِ اتحادُ كما في الكونِ ومعناهُ من وجهٍ آخرَ أنَّ الوجودَ يُشركُ بينَ الموجوداتِ كما تقولُهُ الحكماءُ فتودُّ أنْ يمتزجَ بشاهداتٍ فيهِ الكمالُ لتتّحدَ بهِ بلْ ترومُ النفسُ حينئذٍ الخروجَ عنِ الوهمِ إلى الحقيقةِ التي هيَ اتحادُ المبدإِ والكونِ ولمّا كانَ أنسبُ الأشياءِ إلى الإنسانِ وأقربُها إلى أنْ يُدرِكَ الكمالَ في تناسُبِ موضوعِها هوَ شكلُهُ الإنسانيَّ كانَ إدراكُهُ للجمالِ والحُسنِ في تخاطيطِهِ وأصواتِهِ منَ المداركِ التي هيَ أقربُ إلى فطرتِهِ فيلْهَجُ كلُّ إنسانٍ بالحُسنِ منَ المرئيِّ أوِ المسموعِ بمقتضى الفطرةِ والحُسنُ في المسموعِ أنْ تكونَ الأصواتُ متناسبةً لا متنافرةً وذلكَ أنَّ الأصواتَ لها كيفيّاتٌ منَ الهمسِ والجهرِ والرخاوةِ والشدّةِ والقلقلةِ والضغطِ وغيرِ ذلكَ والتناسبُ فيها هوَ الذي يوجبُ لها الحُسنَ فأوّلاً أنْ لا يخرجَ منَ الصوتِ إلى مدِّهِ دفعةً بلْ بتدريجٍ ثمَّ يرجعُ كذلكَ وهكذا إلى المِثلِ بلْ لا بُدَّ منْ توسُّطِ المغايرِ بينَ الصوتينِ وتأمَّلْ هذا منِ افتتاحِ أهلِ اللسانِ التراكيبَ منَ الحروفِ المتنافرةِ أوِ المتقاربةِ المخارجِ فإنَّهُ منْ بابهِ وثانياً تناسُبُها في الأجزاءِ كما مرَّ أوّلَ البابِ فيخرجُ منَ الصوتِ إلى نصفِهِ أوْ ثلثِهِ أوْ جزءٍ منْ كذا منهُ على حسبِ ما يكونُ التنقّلُ متناسباً على ما حصرَهُ أهلُ الصناعةِ فإذا كانتِ الأصواتُ على تناسُبٍ في الكيفيّاتِ كما ذكرَهُ أهلُ تلكَ الصناعةِ كانتْ ملائمةً ملذوذةً ومنْ هذا التناسبِ ما يكونُ بسيطاً ويكونُ الكثيرُ منَ الناسِ مطبوعاً عليهِ لا يحتاجونَ فيهِ إلى تعليمٍ ولا صناعةٍ كما نجدُ المطبوعينَ على الموازينِ الشعريّةِ وتوقيعِ الرقصِ وأمثالِ ذلكَ وتسمّي العامّةُ هذهِ القابليّةَ بالمضمارِ وكثيرٌ منَ القرّاءِ بهذهِ المثابةِ يقرأونَ القرآنَ فيُجيدونَ في تلاحينِ أصواتِهمْ كأنّها المزاميرُ فيُطربونَ بحُسنِ مساقِهمْ وتناسُبِ نغماتِهمْ ومنْ هذا التناسبِ ما يحدثُ بالتركيبِ وليسَ كلُّ الناسِ يستوي في معرفتِهِ ولا كلُّ الطباعِ توافقُ صاحبَها في العملِ بهِ إذا علِمَ وهذا هوَ التلحينُ الذي يتكفّلُ بهِ علمُ الموسيقى كما نشرحُهُ بعدُ عندَ ذكرِ العلومِ وقدْ أنكرَ مالكٌ رحمَهُ اللهُ تعالى القراءةَ بالتلحينِ وأجازَها الشافعيُّ رضيَ اللهُ تعالى عنهُ وليسَ المرادُ تلحينَ الموسيقى الصناعيَّ فإنَّهُ لا ينبغي أنْ يختلفَ في حظرِهِ إذْ صناعةُ الغناءِ مباينةٌ للقرآنِ بكلِّ وجهٍ لأنَّ القراءةَ والأداءَ تحتاجُ إلى مقدارٍ منَ الصوتِ لتعيّنِ أداءِ الحروفِ لا

مِنْ حَيْثُ ٱتِّبَاعُ ٱلْحَرَكَاتِ فِي مَوْضِعِهَا وَمِقْدَارِ ٱلْمَدِّ عِنْدَ مَنْ يُطْلِقُهُ أَوْ يُقَصِّرُهُ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَٱلتَّلْحِينُ أَيْضاً يَتَعَيَّنُ لَهُ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلصَّوْتِ لا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّنَاسُبِ ٱلَّذِي قُلْنَاهُ فِي حَقِيقَةِ ٱلتَّلْحِينِ وَٱعْتِبَارُ أَحَدِهِمَا قَدْ يُخِلُّ بِٱلْآخَرِ إِذَا تَعَارَضَا وَتَقْدِيمُ ٱلرِّوَايَةِ مُتَعَيِّنٌ مِنْ تَغْيِيرِ ٱلرِّوَايَةِ ٱلْمَنْقُولَةِ فِي ٱلْقُرْآنِ فَلا يُمْكِنُ ٱجْتِمَاعُ ٱلتَّلْحِينِ وَٱلْأَدَاءِ ٱلْمُعْتَبَرِ فِي ٱلْقُرْآنِ بِوَجْهٍ وَإِنَّمَا مُرَادُهُمُ ٱلتَّلْحِينُ ٱلْبَسِيطُ ٱلَّذِي يَهْتَدِي إِلَيْهِ صَاحِبُ ٱلْمِضْمَارِ بِطَبْعِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَيُرَدِّدُ أَصْوَاتَهُ تَرْدِيداً عَلَى نِسَبٍ يُدْرِكُهَا ٱلْعَالِمُ بِٱلْغِنَاءِ وَغَيْرُهُ وَلا يَنْبَغِي ذٰلِكَ بِوَجْهٍ كَمَا قَالَهُ مَالِكٌ هٰذَا هُوَ مَحَلُّ ٱلْخِلَافِ وَٱلظَّاهِرُ تَنْزِيهُ ٱلْقُرْآنِ عَنْ هٰذَا كُلِّهِ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلْإِمَامُ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى لِأَنَّ ٱلْقُرْآنَ مَحَلُّ خُشُوعٍ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ وَلَيْسَ مَقَامَ ٱلْتِذَاذٍ بِإِدْرَاكِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلْأَصْوَاتِ وَهٰكَذَا كَانَتْ قِرَاءَةُ ٱلصَّحَابَةِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ كَمَا فِي أَخْبَارِهِمْ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ فَلَيْسَ ٱلْمُرَادُ بِهِ ٱلتَّرْدِيدَ وَٱلتَّلْحِينَ إِنَّمَا مَعْنَاهُ حُسْنُ ٱلصَّوْتِ وَأَدَاءُ ٱلْقِرَاءَةِ وَٱلْإِبَانَةُ فِي مَخَارِجِ ٱلْحُرُوفِ وَٱلنُّطْقُ بِهَا وَإِذْ قَدْ ذَكَرْنَا مَعْنَى ٱلْغِنَاءِ فَٱعْلَمْ أَنَّهُ يَحْدُثُ فِي ٱلْعُمْرَانِ إِذَا تَوَفَّرَ وَتَجَاوَزَ حَدَّ ٱلضَّرُورِيِّ إِلَى ٱلْحَاجِيِّ ثُمَّ إِلَى ٱلْكَمَالِيِّ وَتَفَنَّنُوا فَتَحْدُثُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِأَنَّهُ لا يَسْتَدْعِيهَا إِلَّا مَنْ فَرَغَ مِنْ جَمِيعِ حَاجَاتِهِ ٱلضَّرُورِيَّةِ وَٱلْمُهِمَّةِ مِنَ ٱلْمَعَاشِ وَٱلْمَنْزِلِ وَغَيْرِهِ فَلا يَطْلُبُهَا إِلَّا ٱلْفَارِغُونَ عَنْ سَائِرِ أَحْوَالِهِم تَفَنُّناً فِي مَذَاهِبِ ٱلْمَلْذُوذَاتِ وَكَانَ فِي سُلْطَانِ ٱلْعَجَمِ قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنْهَا بَحْرٌ زَاخِرٌ فِي أَمْصَارِهِمْ وَمُدُنِهِمْ وَكَانَ مُلُوكُهُمْ يَتَّخِذُونَ ذٰلِكَ وَيُولَعُونَ بِهِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ لِمُلُوكِ ٱلْفُرْسِ ٱهْتِمَامٌ بِأَهْلِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَلَهُمْ مَكَانٌ فِي دَوْلَتِهِمْ وَكَانُوا يَحْضُرُونَ مَشَاهِدَهُم وَمَجَامِعَهُمْ وَيُغَنُّونَ فِيهَا وَهٰذَا شَأْنُ ٱلْعَجَمِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فِي كُلِّ أُفُقٍ مِنْ آفَاقِهِمْ وَمَمْلَكَةٍ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَأَمَّا ٱلْعَرَبُ فَكَانَ لَهُمْ أَوَّلاً فَنُّ ٱلشِّعْرِ يُؤَلِّفُونَ فِيهِ ٱلْكَلَامَ أَجْزَاءً مُتَسَاوِيَةً عَلَى تَنَاسُبٍ بَيْنَهَا فِي عِدَّةِ حُرُوفِهَا ٱلْمُتَحَرِّكَةِ وَٱلسَّاكِنَةِ وَيُفَصِّلُونَ ٱلْكَلَامَ فِي تِلْكَ ٱلْأَجْزَاءِ تَفْصِيلاً يَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مُسْتَقِلّاً بِٱلْإِفَادَةِ لا يَنْعَطِفُ عَلَى ٱلْآخَرِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْبَيْتَ فَتُلَائِمُ ٱلطَّبْعَ بِٱلتَّجْزِئَةِ أَوَّلاً ثُمَّ بِتَنَاسُبِ ٱلْأَجْزَاءِ فِي ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَبَادِىءِ ثُمَّ بِتَأْدِيَةِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ وَتَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهَا فَلَهِجُوا بِهِ فَٱمْتَازَ مِنْ بَيْنِ كَلَامِهِم بِحَظٍّ مِنَ ٱلشَّرَفِ لَيْسَ لِغَيْرِهِ لِأَجْلِ ٱخْتِصَاصِهِ بِهٰذَا ٱلتَّنَاسُبِ وَجَعَلُوهُ دِيوَاناً لِأَخْبَارِهِم

وَحُكْمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَمَحَكًّا لِقَرَائِحِهِمْ فِي إِصَابَةِ ٱلْمَعَانِي وَإِجَادَةِ ٱلْأَسَالِيبِ وَٱسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا ٱلتَّنَاسُبُ ٱلَّذِي مِنْ أَجْلِ ٱلْأَجْزَاءِ وَٱلْمُتَحَرِّكِ وَٱلسَّاكِنِ مِنَ ٱلْحُرُوفِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ مِنْ تَنَاسُبِ ٱلْأَصْوَاتِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ ٱلْمُوسِيقَى إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا بِمَا سِوَاهُ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ لَمْ يَنْتَحِلُوا عِلْماً وَلَا عَرَفُوا صِنَاعَةً وَكَانَتِ ٱلْبِدَاوَةُ أَغْلَبَ نِحَلِهِمْ ثُمَّ تَغَنَّى ٱلْحُدَاةُ مِنْهُمْ فِي حِدَاءِ إِبِلِهِمْ وَٱلْفِتْيَانُ فِي فَضَاءِ خَلَوَاتِهِمْ فَرَجَّعُوا ٱلْأَصْوَاتَ وَتَرَنَّمُوا وَكَانُوا يُسَمُّونَ ٱلتَّرَنُّمَ إِذَا كَانَ بِٱلشِّعْرِ غِنَاءً وَإِذَا كَانَ بِٱلتَّهْلِيلِ أَوْ نَوْعِ ٱلْقِرَاءَةِ تَغْبِيراً بِٱلْغَيْنِ ٱلْمُعْجَمَةِ وَٱلْبَاءِ ٱلْمُوَحَّدَةِ وَعَلَّلَهَا أَبُو إِسْحَاقَ ٱلزَّجَّاجُ بِأَنَّهَا تُذَكِّرُ بِٱلْغَابِرِ وَهُوَ ٱلْبَاقِي أَيْ بِأَحْوَالِ ٱلْآخِرَةِ وَرُبَّمَا نَاسَبُوا فِي غِنَائِهِمْ بَيْنَ ٱلنَّغَمَاتِ مُنَاسَبَةً بَسِيطَةً كَمَا ذَكَرَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ آخِرَ كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ وَغَيْرُهُ وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ ٱلسِّنَادَ وَكَانَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي ٱلْخَفِيفِ ٱلَّذِي يُرْقَصُ عَلَيْهِ وَيُمْشَى بِٱلدُّفِّ وَٱلْمِزْمَارِ فَيَضْطَرِبُ وَيَسْتَخِفُّ ٱلْحُلُومَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ هَذَا ٱلْهَزَجَ وَهَذَا ٱلْبَسِيطُ كُلُّهُ مِنَ ٱلتَّلَاحِينِ هُوَ مِنْ أَوَائِلِهَا وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَتَفَطَّنَ لَهُ ٱلطِّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ شَأْنَ ٱلْبَسَائِطِ كُلِّهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا شَأْنَ ٱلْعَرَبِ فِي بِدَاوَتِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ فَلَمَّا جَاءَ ٱلْإِسْلَامُ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى مَمَالِكِ ٱلدُّنْيَا وَحَازُوا سُلْطَانَ ٱلْعَجَمِ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَكَانُوا مِنَ ٱلْبِدَاوَةِ وَٱلْغَضَاضَةِ عَلَى ٱلْحَالِ ٱلَّتِي عَرَفْتَ لَهُمْ مَعَ غَضَارَةِ ٱلدِّينِ وَشِدَّتِهِ فِي تَرْكِ أَحْوَالِ ٱلْفَرَاغِ وَمَا لَيْسَ بِنَافِعٍ فِي دِينٍ وَلَا مَعَاشٍ فَهَجَرُوا ذَلِكَ شَيْئاً مَا وَلَمْ يَكُنِ ٱلْمَلْذُوذُ عِنْدَهُمْ إِلَّا تَرْجِيعَ ٱلْقِرَاءَةِ وَٱلتَّرَنُّمَ بِٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي هُوَ دَيْدَنُهُمْ وَمَذْهَبُهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلتَّرَفُ وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ ٱلرَّفَهُ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ غَنَائِمِ ٱلْأُمَمِ صَارُوا إِلَى نَضَارَةِ ٱلْعَيْشِ وَرِقَّةِ ٱلْحَاشِيَةِ وَٱسْتِحْلَاءِ ٱلْفَرَاغِ وَٱفْتَرَقَ ٱلْمُغَنُّونَ مِنَ ٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ فَوَقَعُوا إِلَى ٱلْحِجَازِ وَصَارُوا مَوَالِيَ لِلْعَرَبِ وَغَنَّوْا جَمِيعاً بِٱلْعِيدَانِ وَٱلطَّنَابِيرِ وَٱلْمَعَازِفِ وَٱلْمَزَامِيرِ وَسَمِعَ ٱلْعَرَبُ تَلْحِينَهُمْ لِلْأَصْوَاتِ فَلَحَّنُوا عَلَيْهَا أَشْعَارَهُمْ وَظَهَرَ بِٱلْمَدِينَةِ نَشِيطٌ ٱلْفَارِسِيُّ وَطُوَيْسٌ وَسَائِبُ بْنُ جَابِرٍ مَوْلَى عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ جَعْفَرٍ فَسَمِعُوا شِعْرَ ٱلْعَرَبِ وَلَحَّنُوهُ وَأَجَادُوا فِيهِ وَطَارَ لَهُمْ ذِكْرٌ ثُمَّ أَخَذَ عَنْهُمْ مَعْبَدٌ وَطَبَقَتُهُ وَٱبْنُ سُرَيْجٍ وَأَنْظَارُهُ وَمَا زَالَتْ تَتَدَرَّجُ إِلَى أَنْ كَمُلَتْ أَيَّامَ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْمَهْدِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ وَٱبْنِهِ إِسْحَاقَ وَٱبْنِهِ حَمَّادٍ وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي دَوْلَتِهِمْ بِبَغْدَادَ مَا تَبِعَهُ ٱلْحَدِيثُ بَعْدَهُ بِهِ وَبِمَجَالِسِهِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ وَأَمْعَنُوا فِي ٱللَّهْوِ

وَٱللَّعِبِ وَٱتُّخِذَتْ آلاَتُ ٱلرَّقْصِ فِي ٱلمَلْبَسِ وَٱلقُضْبَانُ وَٱلأَشْعَارُ ٱلَّتِي يُتَرَنَّمُ بِهَا عَلَيْهِ وَجُعِلَ صِنْفاً وَحْدَهُ وَٱتُّخِذَتْ آلاَتٌ أُخْرَى لِلرَّقْصِ تُسَمَّى بِٱلكُرَّجِ وَهِيَ تَمَاثِيلُ خَيْلٍ مُسْرَجَةٍ مِنَ ٱلخَشَبِ مُعَلَّقَةٌ بِأَطْرَافِ أَقْبِيَةٍ يَلْبَسُهَا ٱلنِّسْوَانُ وَيُحَاكِينَ بِهَا ٱمْتِطَاءَ ٱلخَيْلِ فَيَكِرُّونَ وَيَفِرُّونَ وَيَثَاقَفُونَ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ مِنَ ٱللَّعِبِ ٱلمُعَدِّ لِلْوَلاَئِمِ وَٱلأَعْرَاسِ وَأَيَّامِ ٱلأَعْيَادِ وَمَجَالِسِ ٱلفَرَاغِ وَٱللَّهْوِ وَكَثُرَ ذٰلِكَ بِبَغْدَادَ وَأَمْصَارِ ٱلعِرَاقِ وَٱنْتَشَرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا وَكَانَ لِلْمَوْصِلِيِّينَ غُلاَمٌ ٱسْمُهُ زِرْيَابُ أَخَذَ عَنْهُمُ ٱلغِنَاءَ فَأَجَادَ فَصَرَفُوهُ إِلَى ٱلمَغْرِبِ غَيْرَةً مِنْهُ فَلَحِقَ بِٱلحَكَمِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلِ أَمِيرِ ٱلأَنْدَلُسِ فَبَالَغَ فِي تَكْرِمَتِهِ وَرَكِبَ لِلِقَائِهِ وَأَسْنَى لَهُ ٱلجَوَائِزَ وَٱلإِقْطَاعَاتِ وَٱلجِرَايَاتِ وَأَحَلَّهُ مِنْ دَوْلَتِهِ وَنُدَمَائِهِ بِمَكَانٍ فَأَوْرَثَ بِٱلأَنْدَلُسِ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلغِنَاءِ مَا تَنَاقَلُوهُ إِلَى أَزْمَانِ ٱلطَّوَائِفِ وَطَمَا مِنْهَا بِإِشْبِيلِيَّةَ بَحْرٌ زَاخِرٌ وَتَنَاقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهَابِ غَضَارَتِهَا إِلَى بِلاَدِ ٱلعُدْوَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَٱلمَغْرِبِ وَٱنْقَسَمَ عَلَى أَمْصَارِهَا وَبِهَا ٱلآنَ مِنْهَا صُبَابَةٌ عَلَى تَرَاجُعِ عُمْرَانِهَا وَتَنَاقُصِ دُوَلِهَا وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ آخِرُ مَا يَحْصُلُ فِي ٱلعُمْرَانِ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ لِأَنَّهَا كَمَالِيَّةٌ فِي غَيْرِ وَظِيفَةٍ مِنَ ٱلوَظَائِفِ إِلَّا وَظِيفَةَ ٱلفَرَاغِ وَٱلفَرَحِ وَهُوَ أَيْضاً أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنَ ٱلعُمْرَانِ عِنْدَ ٱخْتِلاَلِهِ وَتَرَاجُعِهِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الصنائع تكسب صاحبها عقلًا وخصوصاً الكتابة والحساب

قَدْ ذَكَرْنَا فِي ٱلكِتَابِ أَنَّ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّاطِقَةَ لِلْإِنْسَانِ إِنَّمَا تُوجَدُ فِيهِ بِٱلقُوَّةِ وَأَنَّ خُرُوجَهَا مِنَ ٱلقُوَّةِ إِلَى ٱلفِعْلِ إِنَّمَا هُوَ بِتَجَدُّدِ ٱلعُلُومِ وَٱلإِدْرَاكَاتِ عَنِ ٱلمَحْسُوسَاتِ أَوَّلاً ثُمَّ مَا يُكْتَسَبُ بَعْدَهَا بِٱلقُوَّةِ ٱلنَّظَرِيَّةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ إِدْرَاكاً بِٱلفِعْلِ وَعَقْلاً مَحْضاً فَتَكُونُ ذَاتاً رُوحَانِيَّةً وَيَسْتَكْمِلُ حِينَئِذٍ وُجُودُهَا فَوَجَبَ لِذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ نَوْعٍ مِنَ ٱلعِلْمِ وَٱلنَّظَرِ يُفِيدُهَا عَقْلاً فَرِيداً وَٱلصَّنَائِعُ أَبَداً يَحْصُلُ عَنْهَا وَعَنْ مَلَكَتِهَا قَانُونٌ عِلْمِيٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ تِلْكَ ٱلمَلَكَةِ فَلِهٰذَا كَانَتِ ٱلحُنْكَةُ فِي ٱلتَّجْرِبَةِ تُفِيدُ عَقْلاً وَٱلحَضَارَةُ ٱلكَامِلَةُ تُفِيدُ عَقْلاً لِأَنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مِنْ صَنَائِعَ فِي شَأْنِ تَدْبِيرِ ٱلمَنْزِلِ وَمُعَاشَرَةِ أَبْنَاءِ ٱلجِنْسِ وَتَحْصِيلِ ٱلآدَابِ فِي مُخَالَطَتِهِمْ ثُمَّ ٱلقِيَامِ بِأُمُورِ ٱلدِّينِ وَٱعْتِبَارِ آدَابِهَا وَشَرَائِطِهَا وَهٰذِهِ كُلُّهَا قَوَانِينُ تَنْتَظِمُ عُلُوماً فَيَحْصُلُ مِنْهَا زِيَادَةُ عَقْلٍ وَٱلكِتَابَةُ مِنْ بَيْنِ ٱلصَّنَائِعِ

أَكْثَرُ إِفَادَةً لِذٰلِكَ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْعُلُومِ وَٱلْأَنْظَارِ بِخِلَافِ ٱلصَّنَائِعِ وَبَيَانُهُ أَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ ٱنْتِقَالاً مِنَ ٱلْحُرُوفِ ٱلْخَطِّيَّةِ إِلَى ٱلْكَلِمَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فِي ٱلْخَيَالِ وَمِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فِي ٱلْخَيَالِ إِلَى ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ ذٰلِكَ دَائِماً فَيَحْصُلُ لَهَا مَلَكَةُ ٱلْإِنْتِقَالِ مِنَ ٱلْأَدِلَّةِ إِلَى ٱلْمَدْلُولَاتِ وَهُوَ مَعْنَى ٱلنَّظَرِ ٱلْعَقْلِيِّ ٱلَّذِي يُكْسِبُ ٱلْعُلُومَ ٱلْمَجْهُولَةَ فَيُكْسِبُ بِذٰلِكَ مَلَكَةً مِنَ ٱلتَّعَقُّلِ تَكُونُ زِيَادَةَ عَقْلٍ وَيَحْصُلُ بِهِ قُوَّةُ فِطْنَةٍ وَكَيْسٍ فِي ٱلْأُمُورِ لِمَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْإِنْتِقَالِ وَلِذٰلِكَ قَالَ كِسْرَى فِي كِتَابِهِ لَمَّا رَآهُمْ بِتِلْكَ ٱلْفِطْنَةِ وَٱلْكَيْسِ فَقَالَ دِيوَانَهْ أَيْ شَيَاطِينُ وَجُنُونٌ قَالُوا وَذٰلِكَ أَصْلُ ٱشْتِقَاقِ ٱلدِّيوَانِ لِأَهْلِ ٱلْكِتَابَةِ وَيُلْحَقُ بِذٰلِكَ ٱلْحِسَابُ فَإِنَّ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحِسَابِ نَوْعَ تَصَرُّفٍ فِي ٱلْعَدَدِ بِٱلضَّمِّ وَٱلتَّفْرِيقِ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱسْتِدْلَالٍ كَثِيرٍ فَيَبْقَى مُتَعَوِّداً لِلِٱسْتِدْلَالِ وَٱلنَّظَرِ وَهُوَ مَعْنَى ٱلْعَقْلِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

الباب السادس

من الكتاب الاول

في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

الفصل الاول

في ان العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ قَدْ شَارَكَتْهُ جَمِيعُ ٱلْحَيَوَانَاتِ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ مِنَ ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ وَٱلْغِذَاءِ وَٱلْكِنِّ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَإِنَّمَا تَمَيَّزَ عَنْهَا بِٱلْفِكْرِ ٱلَّذِي يَهْتَدِي بِهِ لِتَحْصِيلِ مَعَاشِهِ وَٱلتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْمُهَيِّءِ لِذٰلِكَ ٱلتَّعَاوُنِ وَقَبُولِ مَا جَاءَتْ بِهِ ٱلْأَنْبِيَاءُ عَنِ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَٱلْعَمَلِ بِهِ وَٱتِّبَاعِ صَلَاحِ أُخْرَاهُ فَهُوَ مُفَكِّرٌ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ دَائِماً لَا يَفْتُرُ عَنِ ٱلْفِكْرِ فِيهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ بَلِ ٱخْتِلَاجُ ٱلْفِكْرِ أَسْرَعُ مِنْ لَمْحِ ٱلْبَصَرِ وَعَنْ هٰذَا ٱلْفِكْرِ تَنْشَأُ ٱلْعُلُومُ وَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ثُمَّ لِأَجْلِ هٰذَا ٱلْفِكْرِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ بَلِ ٱلْحَيَوَانُ مِنْ تَحْصِيلِ مَا تَسْتَدْعِيهِ ٱلطِّبَاعُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ رَاغِباً فِي تَحْصِيلِ مَا لَيْسَ

عِنْدَهُ مِنَ ٱلْإِدْرَاكَاتِ فَيَرْجِعُ إِلى مَنْ سَبَقَهُ بِعِلْمٍ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَةٍ أَوْ إِدْرَاكٍ أَو أَخَذَهُ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَهُ لِمَنْ تَلَقَّاهُ فَيُلَقَّنُ ذٰلِكَ عَنْهُم وَيَحْرِصُ عَلى أَخْذِهِ وَعِلْمِهِ ثُمَّ إِنَّ فِكْرَهُ وَنَظَرَهُ يَتَوَجَّهُ إِلى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْحَقَائِقِ وَيَنْظُرُ مَا يَعْرِض لَهُ لِذَاتِهِ وَاحِداً بَعْدَ آخَرَ وَيَتَمَرَّنُ عَلى ذٰلِكَ حَتَّى يَصِيرَ إِلْحَاقُ ٱلْعَوَارِضِ بِتِلْكَ ٱلْحَقِيقَةِ مَلَكَةً لَهُ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ عِلْمُهُ بِمَا يَعْرِضُ لِتِلْكَ ٱلْحَقِيقَةِ عِلْماً مَخْصُوصاً وَتَتَشَوَّفُ نُفُوس أَهْلِ ٱلْجِيلِ ٱلنَّاشِيءِ إِلى تَحْصِيلِ ذٰلِكَ فَيَفْزَعُونَ إِلى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ وَيَجِيءُ ٱلتَّعْلِيمُ مِنْ هٰذَا فَقَدْ تَبَيَّنَ بِذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعِلْمَ وَٱلتَّعْلِيمَ طَبِيعِيٌّ فِي ٱلْبَشَرِ

الفصل الثاني

في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحِذْقَ فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّفَنُّنَ فِيهِ وَٱلْإِسْتِيلَاءَ عَلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ مَلَكَةٍ فِي ٱلْإِحَاطَةِ بِمَبَادِئِهِ وَقَوَاعِدِهِ وَٱلْوُقُوفِ عَلى مَسَائِلِهِ وَٱسْتِنْبَاطِ فُرُوعِهِ مِنْ أُصُولِهِ وَمَا لَمْ تَحْصُلْ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لَمْ يَكُنِ ٱلْحِذْقُ فِي ذٰلِكَ ٱلْفَنِّ ٱلْمُتَنَاوَلِ حَاصِلاً وَهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ هِيَ فِي غَيْرِ ٱلْفَهْمِ وَٱلْوَعْيِ لِأَنَّا نَجِدُ فَهْمَ ٱلْمَسْأَلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْفَنِّ ٱلْوَاحِدِ وَوَعْيَهَا مُشْتَرَكاً بَيْنَ مَنْ شَدا فِي ذٰلِكَ ٱلْفَنِّ وَبَيْنَ مَنْ هُوَ مُبْتَدِئٌ فِيهِ وَبَيْنَ ٱلْعَامِّيِّ ٱلَّذِي لَمْ يَعْرِفْ عِلْماً وَبَيْنَ ٱلْعَالِمِ ٱلنِّحْرِيرِ وَٱلْمَلَكَةُ إِنَّمَا هِيَ لِلْعَالِمِ أَوِ ٱلشَّادِي فِي ٱلْفُنُونِ دُونَ مَن سِوَاهُمَا فَدَلَّ عَلى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةَ غَيْرُ ٱلْفَهْمِ وَٱلْوَعْيِ وَٱلْمَلَكَاتُ كُلُّهَا جِسْمَانِيَّةٌ سِوَاءٌ كَانَتْ فِي ٱلْبَدَنِ أَوْ فِي ٱلدِّمَاغِ مِنَ ٱلْفِكْرِ وَغَيْرِهِ كَٱلْحِسَابِ وَٱلْجِسْمَانِيَّاتُ كُلُّهَا مَحْسُوسَة فَتَفْتَقِرُ إِلى ٱلتَّعْلِيمِ وَلِهٰذَا كَانَ ٱلسَّنَدُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ فِي كُلِّ عِلْمٍ أَوْ صِنَاعَةٍ إِلى مَشَاهِيرِ ٱلْمُعَلِّمِينَ فِيهَا مُعْتَبَراً عِنْدَ كُلِّ أَهْلِ أُفُقٍ وَجِيلٍ وَيَدُلُّ أَيْضاً عَلى أَنَّ تَعْلِيمَ ٱلْعِلْمِ صِنَاعَة ٱخْتِلَافُ ٱلْاِصْطِلَاحَاتِ فِيهِ فَلِكُلِّ إِمَامٍ مِنَ ٱلْأَئِمَّةِ ٱلْمَشَاهِيرِ ٱصْطِلَاحٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ يَخْتَصُّ بِهِ شَأْنَ ٱلصَّنَائِعِ كُلِّهَا فَدَلَّ عَلى أَنَّ ذٰلِكَ ٱلْاِصْطِلَاحَ لَيْسَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَإِلَّا لَكَانَ وَاحِداً عِنْدَ جَمِيعِهِمْ أَلا تَرَى إِلى عِلْمِ ٱلْكَلَامِ كَيْفَ تَخَالَفَ فِي تَعْلِيمِهِ ٱصْطِلَاحُ ٱلْمُتَقَدِّمِين وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَكَذَا أُصُولُ ٱلْفِقْهِ وَكَذَا ٱلْعَرَبِيَّةُ وَكَذَا كُلُّ عِلْمٍ يُتَوَجَّهُ إِلى مُطَالَعَتِهِ تَجِد ٱلْاِصْطِلَاحَاتِ فِي تَعْلِيمِهِ مُتَخَالِفَةً فَدَلَّ عَلى أَنَّهَا صِنَاعَاتٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَٱلْعِلْمُ وَاحِد فِي نَفْسِهِ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ سَنَدَ تَعْلِيمِ ٱلْعِلْمِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ قَدْ كَادَ يَنْقَطِعُ عَنْ أَهْلِ ٱلْمَغْرِب

بٱختِلالِ عُمْرَانِهِ وَتَنَاقُصِ ٱلدُّوَلِ فِيهِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْ ذٰلِكَ مِنْ نَقْصِ ٱلصَّنَائِعِ وفِقْدَانِهَا كَمَا مَرَّ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلقَيْرَوَانَ وَقُرْطُبَةَ كَانَتَا حَاضِرَتَيِ ٱلمَغْرِبِ وَٱلأَنْدَلُسِ وَٱسْتَبْحَرَ عُمْرَانُهُمَا وَكَانَ فِيهِمَا لِلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ أَسْوَاقٌ نَافِقَةٌ وَبُحُورٌ زَاخِرَةٌ وَرَسَخَ فِيهِمَا ٱلتَّعْلِيمُ لِٱمْتِدَادِ عُصُورِهِمَا وَمَا كَانَ فِيهِمَا مِنَ ٱلحَضَارَةِ فَلَمَّا خَرِبَتَا ٱنْقَطَعَ ٱلتَّعْلِيمُ مِنَ ٱلمَغْرِبِ إِلَّا قَلِيلاً كَانَ فِي دَوْلَةِ ٱلمُوَحِّدِينَ بِمَرَّاكِشَ مُسْتَفَاداً مِنْهَا وَلَمْ تَرْسَخِ ٱلحَضَارَةُ بِمَرَّاكِشَ لِبَدَاوَةِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلمُوَحِّدِيَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَقُرْبِ عَهْدِ ٱنْقِرَاضِهَا بِمَبْدَإِهَا فَلَمْ تَتَّصِلْ أَحْوَالُ ٱلحَضَارَةِ فِيهَا إِلَّا فِي ٱلأَقَلِّ وَبَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلدَّوْلَةِ بِمَرَّاكِشَ ٱرْتَحَلَ إِلَى ٱلمَشْرِقِ مِنْ أَفْرِيقِيَّةَ ٱلقَاضِي أَبُو ٱلقَاسِمِ بْنُ زَيْتُونَ لِعَهْدِ أَوَاسِطِ ٱلمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ فَأَدْرَكَ تِلْمِيذَ ٱلإِمَامِ ٱبْنِ ٱلخَطِيبِ فَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلُقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ وَحَذِقَ فِي ٱلعَقْلِيَّاتِ وَٱلنَّقْلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ بِعِلْمٍ كَثِيرٍ وَتَعْلِيمٍ حَسَنٍ وَجَاءَ عَلَى أَثَرِهِ مِنَ ٱلمَشْرِقِ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ بْنُ شُعَيْبٍ ٱلدَّكَّالِيُّ كَانَ ٱرْتَحَلَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلمَغْرِبِ فَأَخَذَ عَنْ مَشْيَخَةِ مِصْرَ وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ وَٱسْتَقَرَّ بِهَا وَكَانَ تَعْلِيمُهُ مُفِيداً فَأَخَذَ عَنْهُمَا أَهْلُ تُونِسَ وَٱتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِمَا فِي تَلَامِيذِهِمَا جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ حَتَّى ٱنْتَهَى إِلَى ٱلقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ شَارِحِ ٱبْنِ ٱلحَاجِبِ وَتِلْمِيذِهِ وَٱنْتَقَلَ مِنْ تُونِسَ إِلَى تِلِمْسَانَ فِي ٱبْنِ ٱلإِمَامِ وَتِلْمِيذِهِ فَإِنَّهُ قَرَأَ مَعَ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ عَلَى مَشْيَخَةٍ وَاحِدَةٍ فِي مَجَالِسَ بِأَعْيَانِهَا وَتِلْمِيذُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ بِتُونِسَ وَٱبْنِ ٱلإِمَامِ بِتِلِمْسَانَ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنَ ٱلقِلَّةِ بِحَيْثُ يُخْشَى ٱنْقِطَاعُ سَنَدِهِمْ ثُمَّ ٱرْتَحَلَ مِنْ زَوَاوَةَ فِي آخِرِ ٱلمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ ٱلدِّينِ ٱلمِشْدَالِيُّ وَأَدْرَكَ تِلْمِيذَ أَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلحَاجِبِ وَأَخَذَ عَنْهُمْ وَلُقِّنَ تَعْلِيمَهُمْ وَقَرَأَ مَعَ شِهَابِ ٱلدِّينِ ٱلقَرَافِيِّ فِي مَجَالِسَ وَاحِدَةٍ وَحَذِقَ فِي ٱلعَقْلِيَّاتِ وَٱلنَّقْلِيَّاتِ وَرَجَعَ إِلَى ٱلمَغْرِبِ بِعِلْمٍ كَثِيرٍ وَتَعْلِيمٍ مُفِيدٍ وَنَزَلَ بِبِجَايَةَ وَٱتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهِ فِي طَلَبَتِهَا وَرُبَّمَا ٱنْتَقَلَ إِلَى تِلِمْسَانَ عِمْرَانُ ٱلمِشْدَالِيُّ مِنْ تِلْمِيذِهِ وَأَوْطَنَهَا وَبَثَّ طَرِيقَتَهُ فِيهَا وَتِلْمِيذُهُ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ بِبِجَايَةَ وَتِلِمْسَانَ قَلِيلٌ أَوْ أَقَلُّ مِنَ ٱلقَلِيلِ وَبَقِيَتْ فَاسُ وَسَائِرُ أَقْطَارِ ٱلمَغْرِبِ خُلُوّاً مِنْ حُسْنِ ٱلتَّعْلِيمِ مِنْ لَدُنِ ٱنْقِرَاضِ تَعْلِيمِ قُرْطُبَةَ وَٱلقَيْرَوَانِ وَلَمْ يَتَّصِلْ سَنَدُ ٱلتَّعْلِيمِ فِيهِمْ فَعَسُرَ عَلَيْهِمْ حُصُولُ ٱلمَلَكَةِ وَٱلحِذْقُ فِي ٱلعُلُومِ وَأَيْسَرُ طُرُقِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ فَتْقُ ٱللِّسَانِ بِٱلمُحَاوَرَةِ وَٱلمُنَاظَرَةِ فِي ٱلمَسَائِلِ ٱلعِلْمِيَّةِ فَهُوَ ٱلَّذِي يُقَرِّبُ شَأْنَهَا وَيُحَصِّلُ مَرَامَهَا فَتَجِدُ طَالِبَ ٱلعِلْمِ مِنْهُمْ بَعْدَ

ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علم وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين وأما العقليات فلا أثر ولا عين وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها إلا قليلاً بسيف البحر شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها والله غالب على أمره. وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة إلا أن الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً وسند التعليم بها قائماً فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم وفي سائر الصنائع حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك

وَيُولَعُونَ بِهِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ كَيْسِهِمْ في ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَلَيْسَ بَيْنَ قطْرِ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ تَفَاوُتٌ بِهٰذَا ٱلْمِقْدَارِ ٱلَّذِي هُوَ تَفَاوُتٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْوَاحِدَةِ أَللَّهُمَّ إِلَّا ٱلْأَقَالِيمَ ٱلْمُنْحَرِفَةَ مِثْلَ ٱلْأَوَّلِ وَٱلسَّابِعِ فَإِنَّ ٱلْأَمْزِجَةَ فِيهَا مُنْحَرِفَةٌ وَٱلنُّفُوسَ عَلى نِسْبَتِهَا كَمَا مَرَّ وَإِنَّمَا ٱلَّذِي فَضَلَ بِهِ أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ أَهْلَ ٱلْمَغْرِبِ هوَ مَا يَحْصُلُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ آثَارِ ٱلْحَضَارَةِ مِنَ ٱلْعَقْلِ ٱلْمَزِيدِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي ٱلصَّنَائِعِ وَنَزِيدُهُ ٱلْآنَ تَحْقِيقاً وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَضَرَ لَهُمْ آدَابٌ فِي أَحْوَالِهِمْ فِي ٱلْمَعَاشِ وَٱلْمَسْكَنِ وَٱلْبِنَاءِ وَأُمُورِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا وَكَذَا سَائِرُ أَعْمَالِهِمْ وَعَادَاتِهِم وَمُعَامَلاتِهِمْ وَجَمِيعُ تَصَرُّفَاتِهِمْ فَلَهُمْ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ آدَابٌ يُوقَفُ عِنْدَهَا فِي جَمِيعِ ما يَتَنَاوَلُونَهُ وَيَتَلَبَّسُونَ بِهِ مِنْ أَخْذٍ وَتَرْكٍ حَتَّى كَأَنَّهَا حُدُودٌ لا تُتَعَدَّى وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ صَنَائِعُ يَتَلَقَّاهَا ٱلْآخِرُ عَنِ ٱلْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَلا شَكَّ أَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ مُرَتَّبَةٍ يَرْجِعُ مِنْهَا إِلى ٱلنَّفْسِ أَثَرٌ يُكْسِبُهَا عَقْلًا جَدِيداً تَسْتَعِدُّ بِهِ لِقَبُولِ صِنَاعَةٍ أُخْرَى وَيَتَهَيَّأُ بِهَا ٱلْعَقْلُ بِسُرْعَةِ ٱلْإِدْرَاكِ لِلْمَعَارِفِ وَلَقَدْ بَلَغَنَا فِي تَعْلِيمِ ٱلصَّنَائِعِ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ غَايَاتٌ لا تُدْرَكُ مِثْلَ أَنَّهُمْ يُعَلِّمُونَ ٱلْحُمُرَ ٱلْإِنْسِيَّةَ وَٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعُجْمَ مِنَ ٱلْمَاشِي وَٱلطَّائِرِ مُفْرَدَاتٍ مِنَ ٱلْكَلامِ وَٱلْأَفْعَالِ يُسْتَغْرَبُ نُدُورُهَا وَيَعْجِزُ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ عَنْ فَهْمِهَا وَحُسْنُ ٱلْمَلَكَاتِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَٱلصَّنَائِعِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْعَادِيَّةِ يَزِيدُ ٱلْإِنْسَانَ ذَكَاءً فِي عَقْلِهِ وَإِضَاءَةً فِي فِكْرِهِ بِكَثْرَةِ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلْحَاصِلَةِ لِلنَّفْسِ إِذْ قَدَّمْنَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ إِنَّمَا تَنْشَأُ بِٱلْإِدْرَاكَاتِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مِنَ ٱلْمَلَكَاتِ فَيَزْدَادُونَ بِذٰلِكَ كَيْساً لِمَا يَرْجِعُ إِلى ٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فَيَظُنُّهُ ٱلْعَامِيُّ تَفَاوُتاً فِي ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ أَلا تَرَى إِلى أَهْلِ ٱلْحَضَرِ مَعَ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ كَيْفَ تَجِدُ ٱلْحَضَرِيَّ مُتَحَلِّياً بِٱلذَّكَاءِ مُمْتَلِئاً مِنَ ٱلْكَيْسِ حَتَّى أَنَّ ٱلْبَدَوِيَّ لَيَظُنُّهُ أَنَّهُ قَدْ فَاتَهُ فِي حَقِيقَةِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَلَيْس كَذٰلِكَ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِجَادَتِهِ فِي مَلَكَاتِ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلْعَوَائِدِ وَٱلْأَحْوَالِ ٱلْحَضَرِيَّةِ مَا لا يَعْرِفُهُ ٱلْبَدَوِيُّ فَلَمَّا ٱمْتَلَأَ ٱلْحَضَرِيُّ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ وَمَلَكَاتِهَا وَحُسْنِ تَعْلِيمِهَا ظَنَّ كُلُّ مَنْ قَصَّرَ عَنْ تِلْكَ ٱلْمَلَكَاتِ أَنَّهَا لِكَمَالٍ فِي عَقْلِهِ وَأَنَّ نُفُوسَ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ قَاصِرَةٌ بِفِطْرَتِهَا وَجِبِلَّتِهَا عَنْ فِطْرَتِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فَإِنَّا نَجِدُ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَدْوِ مَنْ هُوَ فِي أَعْلى رُتْبَةٍ مِنَ ٱلْفَهْمِ وَٱلْكَمَالِ فِي عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ إِنَّمَا ٱلَّذِي ظَهَرَ عَلى أَهْلِ ٱلْحَضَرِ مِنْ

ذٰلِكَ هُوَ رَوْنَقُ الصَّنائِعِ وَالتَّعْلِيمِ فَإِنَّ لَهَا آثاراً تَرْجِعُ إِلى النَّفْسِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَكَذَا أَهلُ الْمَشْرِقِ لَمَّا كَانُوا في التَّعْليمِ وَالصَّنائِعِ أَرْسَخَ رُتْبَةً وَأَعْلى قَدَماً وَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ أَقْرَبَ إِلى الْبِدَاوَةِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ في الْفَصْلِ قَبْلَ هٰذا ظَنَّ الْمُغَفَّلُونَ في بَادِيءِ الرَّأْيِ أَنَّهُ لِكَمَالٍ في حَقِيقَةِ الْإِنسانِيَّةِ اخْتَصُّوا بِهِ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِصَحيحٍ فَتَفَهَّمْهُ وَاللهُ يَزِيدُ في الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ وَهُوَ إِلٰهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ

الفصل الثالث

في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

وَالسَّبَبُ في ذٰلِكَ أَنَّ تَعْليمَ الْعِلْمِ كَما قَدَّمْناهُ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنائِعِ وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنا أَنَّ الصَّنائِعَ إِنَّمَا تَكْثُرُ في الْأَمْصارِ وَعَلى نِسْبَةِ عُمْرَانِهَا في الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ وَالْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ تَكُونُ نِسْبَةُ الصَّنائِعِ في الْجَوْدَةِ وَالْكَثْرَةِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلى الْمَعَاشِ فَمَتى فَضَلَتْ أَعْمَالُ أَهْلِ الْعُمْرَانِ عَنْ مَعَاشِهِمِ انْصَرَفَتْ إِلى مَا وَرَاءَ الْمَعَاشِ مِنَ التَّصَرُّفِ في خَاصِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ الْعُلُومُ وَالصَّنائِعُ وَمَنْ تَشَوَّفَ بِفِطْرَتِهِ إِلى الْعِلْمِ مِمَّنْ نَشَأَ في الْقُرَى وَالْأَمْصَارِ غَيْرِ الْمُتَمَدِّنَةِ فَلا يَجِدُ فِيهَا التَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ صِنَاعِيٌّ لِفُقْدَانِ الصَّنائِعِ في أَهْلِ الْبَدْوِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَلا بُدَّ لَهُ مِنَ الرِّحْلَةِ في طَلَبِهِ إِلى الْأَمْصَارِ الْمُسْتَبْحِرَةِ شَأْنَ الصَّنائِعِ كُلِّهَا وَاعْتَبِرْ مَا قَرَّرْنَاهُ بِحَالِ بَغْدَادَ وَقُرْطُبَةَ وَالْقَيْرَوَانِ وَالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ لَمَّا كَثُرَ عُمْرَانُهَا صَدْرَ الْإِسْلامِ وَاسْتَوَتْ فِيهَا الْحَضَارَةُ كَيْفَ زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ الْعِلْمِ وَتَفَنَّنُوا في اصْطِلاحَاتِ التَّعْلِيمِ وَأَصْنَافِ الْعُلُومِ وَاسْتِنْبَاطِ الْمَسَائِلِ وَالْفُنُونِ حَتَّى أَرْبَوْا عَلى الْمُتَقَدِّمِينَ وَفَاتُوا الْمُتَأَخِّرِينَ وَلَمَّا تَنَاقَصَ عُمْرَانُهَا وَابْذَعَرَّ سُكَّانُهَا انْطَوَى ذٰلِكَ الْبِسَاطُ بِمَا عَلَيْهِ جُمْلَةً وَفُقِدَ الْعِلْمُ بِهَا وَالتَّعْلِيمُ وَانْتَقَلَ إِلى غَيْرِهَا مِنْ أَمْصَارِ الْإِسْلامِ وَنَحْنُ لِهٰذا الْعَهْدِ نَرَى أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ إِنَّمَا هُوَ بِالْقَاهِرَةِ مِنْ بِلادِ مِصْرَ لِمَا أَنَّ عُمْرَانَهَا مُسْتَبْحِرٌ وَحِضَارَتَهَا مُسْتَحْكِمَةٌ مُنْذُ آلافٍ مِنَ السِّنِينَ فَاسْتَحْكَمَتْ فِيهَا الصَّنائِعُ وَتَفَنَّنَتْ وَمِنْ جُمْلَتِهَا تَعْلِيمُ الْعِلْمِ وَأَكَّدَ ذٰلِكَ فِيهَا وَحَفِظَهُ مَا وَقَعَ لِهٰذِهِ الْعُصُورِ بِهَا مُنْذُ مِائَتَيْنِ مِنَ السِّنِينَ في دَوْلَةِ التُّرْكِ مِنْ أَيَّامِ صَلاحِ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ وَهَلُمَّ جَرًّا وَذٰلِكَ أَنَّ أُمَرَاءَ التُّرْكِ في دَوْلَتِهِمْ يَخْشَوْنَ عَادِيَةَ سُلْطَانِهِمْ عَلى مَنْ يَتَخَلَّفُونَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ لِمَا لَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّقِّ أَوِ الْوَلاءِ وَلِمَا يُخْشَى مِنْ مَعَاطِبِ الْمُلْكِ وَنَكَبَاتِهِ فَاسْتَكْثَرُوا مِنْ بِنَاءِ الْمَدَارِسِ

وَٱلزَّوَايَا وَٱلرُّبُطِ وَوَقَفُوا عَلَيْهَا ٱلْأَوْقَافَ ٱلْمُغِلَّةَ يَجْعَلُونَ فِيهَا شِرْكاً لِوُلْدِهِمْ يَنْظُرُ عَلَيْهَا أَو يُصِيبُ مِنْهَا مَعَ مَا فِيهِمْ غَالِباً مِنَ ٱلْجُنُوحِ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْتِمَاسِ ٱلْأُجُورِ فِي ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَفْعَالِ فَكَثُرَتِ ٱلْأَوْقَافُ لِذٰلِكَ وَعَظُمَتِ ٱلْغَلَّاتُ وَٱلْفَوَائِدُ وَكَثُرَ طَالِبُ ٱلْعِلْمِ وَمُعَلِّمُهُ بِكَثْرَةِ جِرَايَتِهِمْ مِنْهَا وَٱرْتَحَلَ إِلَيْهَا ٱلنَّاسُ فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ مِنَ ٱلْعِرَاقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَنَفَقَتْ بِهَا أَسْوَاقُ ٱلْعُلُومِ وَزَخَرَتْ بِحَارُهَا وَٱللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

الفصل الرابع

في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْعُلُومَ ٱلَّتِي يَخُوضُ فِيهَا ٱلْبَشَرُ وَيَتَدَاوَلُونَهَا فِي ٱلْأَمْصَارِ تَحْصِيلاً وَتَعْلِيماً هِيَ عَلَى صِنْفَيْنِ صِنْفٍ طَبِيعِيٍّ لِلْإِنْسَانِ يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِفِكْرِهِ وَصِنْفٍ نَقْلِيٍّ يَأْخُذُهُ عَمَّنْ وَضَعَهُ وَٱلْأَوَّلُ هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلْحِكْمِيَّةُ ٱلْفَلْسَفِيَّةُ وَهِيَ ٱلَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا ٱلْإِنْسَانُ بِطَبِيعَةِ فِكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ ٱلْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضُوعَاتِهَا وَمَسَائِلِهَا وَأَنْحَاءِ بَرَاهِينِهَا وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا حَتَّى يَقِفَهُ [1] نَظَرُهُ وَبَحْثُهُ عَلَى ٱلصَّوَابِ مِنَ ٱلْخَطَإِ فِيهَا مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ذُو فِكْرٍ وَٱلثَّانِي هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّقْلِيَّةُ ٱلْوَضْعِيَّةُ وَهِيَ كُلُّهَا مُسْتَنِدَةٌ إِلَى ٱلْخَبَرِ عَنِ ٱلْوَاضِعِ ٱلشَّرْعِيِّ وَلاَ مَجَالَ فِيهَا لِلْعَقْلِ إِلَّا فِي إِلْحَاقِ ٱلْفُرُوعِ مِنْ مَسَائِلِهَا بِٱلْأُصُولِ لِأَنَّ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلْحَادِثَةَ ٱلْمُتَعَاقِبَةَ لاَ تَنْدَرِجُ تَحْتَ ٱلنَّقْلِ ٱلْكُلِّيِّ بِمُجَرَّدِ وَضْعِهِ فَتَحْتَاجُ إِلَى ٱلْإِلْحَاقِ بِوَجْهٍ قِيَاسِيٍّ إِلَّا أَنَّ هٰذَا ٱلْقِيَاسَ يَتَفَرَّعُ عَنِ ٱلْخَبَرِ بِثُبُوتِ ٱلْحُكْمِ فِي ٱلْأَصْلِ وَهُوَ نَقْلِيٌّ فَرَجَعَ هٰذَا ٱلْقِيَاسُ إِلَى ٱلنَّقْلِ لِتَفَرُّعِهِ عَنْهُ وَأَصْلُ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ ٱلنَّقْلِيَّةِ كُلِّهَا هِيَ ٱلشَّرْعِيَّاتُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ ٱلَّتِي هِيَ مَشْرُوعَةٌ لَنَا مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلَّتِي تُهَيِّئُهَا لِلْإِفَادَةِ ثُمَّ يَسْتَتْبِعُ ذٰلِكَ عُلُومَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّذِي هُوَ لِسَانُ ٱلْمِلَّةِ وَبِهِ نَزَلَ ٱلْقُرْآنُ وَأَصْنَافُ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ ٱلنَّقْلِيَّةِ كَثِيرَةٌ لِأَنَّ ٱلْمُكَلَّفَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَحْكَامَ ٱللهِ تَعَالَى ٱلْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ بِٱلنَّصِّ أَوْ بِٱلْإِجْمَاعِ أَو بِٱلْإِلْحَاقِ فَلاَ بُدَّ مِنَ ٱلنَّظَرِ بِٱلْكِتَابِ بِبَيَانِ أَلْفَاظِهِ أَوَّلاً وَهٰذَا هُوَ عِلْمُ ٱلتَّفْسِيرِ ثُمَّ بِإِسْنَادِ نَقْلِهِ وَرِوَايَتِهِ إِلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَٱخْتِلَافِ

---

(١) قوله حتى يقفه نظره يستعمل وقف متعدياً فتقول وقفته على كذا أي أطلعته عليه قاله نصر

روايات القرّاء في قراءته وهذا هو علم القراءات ثمّ بإسناد السنّة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث ثمّ لا بدّ في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانونيّ يفيد العلم بكيفيّة هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلّفين وهذا هو الفقه ثمّ إنّ التكاليف منها بدنيّ ومنها قلبيّ وهو المختصّ بالإيمان وما يجب أن يعتقد ممّا لا يعتقد وهذه هي العقائد الإيمانيّة في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالأدلّة العقليّة هو علم الكلام ثمّ النظر في القرآن والحديث لا بدّ أن تتقدّمه العلوم اللسانيّة لأنّه متوقّف عليها وهي أصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب حسبما نتكلّم عليها كلّها وهذه العلوم النقليّة كلّها مختصّة بالملّة الإسلاميّة وأهلها وإن كانت كلّ ملّة على الجملة لا بدّ فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث إنّها العلوم الشرعيّة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلّغ لها وأمّا على الخصوص فمباينة لجميع الملل لأنّها ناسخة لها وكلّ ما قبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلّى الله عليه وسلّم لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا آمنّا بالّذي أنزل علينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ورأى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتّى تبيّن الغضب في وجهه ثمّ قال ألم آتكم بها بيضاء نقيّة والله لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلّا اتّباعي ثمّ إنّ هذه العلوم الشرعيّة النقليّة قد نفقت أسواقها في هذه الملّة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية الّتي لا شيء فوقها وهذّبت الاصطلاحات ورتّبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق وكان لكلّ فنّ رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم واختصّ المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما قدّمناه في الفصل قبله وما أدري ما فعل الله

بِالْمَشْرِقِ وَالظَّنُّ بِهِ نَفَاقُ الْعِلْمِ فِيهِ وَاتِّصَالُ التَّعْلِيمِ فِي الْعُلُومِ وَفِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ الضَّرُورِيَّةِ وَالْكَمَالِيَّةِ لِكَثْرَةِ عُمْرَانِهِ وَالْحَضَارَةِ وَوُجُودِ الْإِعَانَةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِالْجِرَايَةِ مِنَ الْأَوْقَافِ الَّتِي اتَّسَعَتْ بِهَا أَرْزَاقُهُمْ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ وَبِيَدِهِ التَّوْفِيقُ وَالْإِعَانَةُ

الفصل الخامس

في علوم القرآن من التفسير والقراءات

الْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنَزَّلُ عَلَى نَبِيِّهِ الْمَكْتُوبُ بَيْنَ دَفَّتَيِ الْمُصْحَفِ وَهُوَ مُتَوَاتِرٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَوَوْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ وَكَيْفِيَّاتِ الْحُرُوفِ فِي أَدَائِهَا وَتُنُوقِلَ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ إِلَى أَنِ اسْتَقَرَّتْ مِنْهَا سَبْعُ طُرُقٍ مُعَيَّنَةٌ تَوَاتَرَ نَقْلُهَا أَيْضاً بِأَدَائِهَا وَاخْتَصَّتْ بِالِانْتِسَابِ إِلَى مَنِ اشْتَهَرَ بِرِوَايَتِهَا مِنَ الْجَمِّ الْغَفِيرِ فَصَارَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ أُصُولاً لِلْقِرَاءَةِ وَرُبَّمَا زِيدَ بَعْدَ ذَلِكَ قِرَاءَاتٌ أُخَرُ لَحِقَتْ بِالسَّبْعِ إِلَّا أَنَّهَا عِنْدَ أَئِمَّةِ الْقِرَاءَةِ لَا تَقْوَى قُوَّتَهَا فِي النَّقْلِ وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِهَا وَقَدْ خَالَفَ بَعْضُ النَّاسِ فِي تَوَاتُرِ طُرُقِهَا لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ كَيْفِيَّاتٌ لِلْأَدَاءِ وَهُوَ غَيْرُ مُنْضَبِطٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ بِقَادِحٍ فِي تَوَاتُرِ الْقُرْآنِ وَأَبَاهُ الْأَكْثَرُ وَقَالُوا بِتَوَاتُرِهَا وَقَالَ آخَرُونَ بِتَوَاتُرِ غَيْرِ الْأَدَاءِ مِنْهَا كَالْمَدِّ وَالتَّسْهِيلِ لِعَدَمِ الْوُقُوفِ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ بِالسَّمْعِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَلَمْ يَزَلِ الْقُرَّاءُ يَتَدَاوَلُونَ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ وَرِوَايَتَهَا إِلَى أَنْ كُتِبَتِ الْعُلُومُ وَدُوِّنَتْ فَكُتِبَتْ فِيمَا كُتِبَ مِنَ الْعُلُومِ وَصَارَتْ صِنَاعَةً مَخْصُوصَةً وَعِلْماً مُنْفَرِداً وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ بِالْمَشْرِقِ وَالْأَنْدَلُسِ فِي جِيلٍ بَعْدَ جِيلٍ إِلَى أَنْ مَلَكَ بِشَرْقِ الْأَنْدَلُسِ مُجَاهِدٌ مِنْ مَوَالِي الْعَامِرِيِّينَ وَكَانَ مَعْنِيّاً بِهَذَا الْفَنِّ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْقُرْآنِ لِمَا أَخَذَهُ بِهِ مَوْلَاهُ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي الْعَامِرِ وَاجْتَهَدَ فِي تَعْلِيمِهِ وَعَرْضِهِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ الْقُرَّاءِ بِحَضْرَتِهِ فَكَانَ سَهْمُهُ فِي ذَلِكَ وَافِراً وَاخْتَصَّ مُجَاهِدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِمَارَةِ دَانِيَةَ وَالْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ فَنَفَقَتْ بِهَا سُوقُ الْقِرَاءَةِ لِمَا كَانَ هُوَ مِنْ أَئِمَّتِهَا وَبِمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِسَائِرِ الْعُلُومِ عُمُوماً وَبِالْقِرَاءَاتِ خُصُوصاً فَظَهَرَ لِعَهْدِهِ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ وَبَلَغَ الْغَايَةَ فِيهَا وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا وَانْتَهَتْ إِلَى رِوَايَتِهِ أَسَانِيدُهَا وَتَعَدَّدَتْ تَآلِيفُهُ فِيهَا وَعَوَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَعَدَلُوا عَنْ غَيْرِهَا وَاعْتَمَدُوا

منْ بَيْنِهَا كِتَابَ ٱلتَّيْسِيرِ لَهُ ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فِيمَا يَلِيهِ مِنَ ٱلْعُصُورِ وَٱلْأَجْيَالِ أَبُو ٱلقَاسِم ٱبْنُ فِيرُّهْ مِنْ أَهْلِ شَاطِبَةَ فَعَمَدَ إِلَى تَهْذِيبِ مَا دَوَّنَهُ أَبُو عَمْرٍو وَتَلْخِيصِهِ فَنَظَمَ ذٰلِكَ كُلَّهُ فِي قَصِيدَةٍ لَغَزَ فِيهَا أَسْمَاءَ ٱلْقُرَّاءِ بِحُرُوفِ ا ب ج د تَرْتِيباً أَحْكَمَهُ لِيَتَيَسَّرَ عَلَيْهِ مَا قَصَدَهُ مِنَ ٱلِاخْتِصَارِ وَلِيَكُونَ أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ نَظْمِهَا فَٱسْتَوْعَبَ فِيهَا ٱلْفَنَّ ٱسْتِيعَاباً حَسَناً وَعُنِيَ ٱلنَّاسُ بِحِفْظِهَا وَتَلْقِينِهَا لِلْوِلْدَانِ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ وَجَرَى ٱلْعَمَلُ عَلَى ذٰلِكَ فِي أَمْصَار ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُس وَرُبَّمَا أُضِيفَ إِلَى فَنِّ ٱلْقِرَاءَاتِ فَنُّ ٱلرَّسْمِ أَيْضاً وَهِيَ أَوْضَاع حُرُوفِ ٱلْقُرْآنِ فِي ٱلْمُصْحَفِ وَرُسُومُهُ ٱلْخَطِّيَّةُ لِأَنَّ فِيهِ حُرُوفاً كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى غَيْرِ ٱلْمَعْرُوف مِنْ قِيَاسِ ٱلْخَطِّ كَزِيَادَةِ ٱلْيَاءِ فِي بِأَيْيدٍ وَزِيَادَةِ ٱلْأَلِفِ فِي لَاأَذْبَحَنَّهُ وَلَاأَوْضَعُوا وَٱلْوَاوِ فِي جَزَاءِ وَٱلظَّالِمِينَ وَحَذْفِ ٱلْأَلِفَاتِ فِي مَوَاضِعَ دُونَ أُخْرَى وَمَا رُسِمَ فِيهِ مِنَ ٱلتَّاءَاتِ مَمْدُوداً وَٱلْأَصْلُ فِيهِ مَرْبُوطٌ عَلَى شَكْلِ ٱلْهَاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَقَدْ مَرَّ تَعْلِيلُ هٰذَا ٱلرَّسْمِ ٱلْمُصْحَفِيِّ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْخَطِّ فَلَمَّا جَاءَتْ هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَة لِأَوْضَاعِ ٱلْخَطِّ وَقَانُونِهِ ٱحْتِيجَ إِلَى حَصْرِهَا فَكَتَبَ ٱلنَّاسُ فِيهَا أَيْضاً عِنْدَ كَتْبِهِم فِي ٱلْعُلُومِ وَٱنْتَهَتْ بِٱلْمَغْرِبِ إِلَى أَبِي عَمْرٍو ٱلدَّانِيِّ ٱلْمَذْكُورِ فَكَتَبَ فِيهَا كُتُباً مِن أَشْهَرِهَا كِتَابُ ٱلْمُقْنِعِ وَأَخَذَ بِهِ ٱلنَّاسُ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَنَظَمَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلشَّاطِبِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ عَلَى رَوِيِّ ٱلرَّاءِ وَوَلِعَ ٱلنَّاسُ بِحِفْظِهَا ثُمَّ كَثُرَ ٱ . فُ فِي ٱلرَّسْمِ فِي كَلِمَاتٍ وَحُرُوفٍ أُخْرَى ذَكَرَهَا أَبُو دَاوُد سُلَيْمَانُ بْنُ نَجَاحٍ مِنْ مَوَالِي مُجَاهِدٍ فِي كُتُبِهِ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ أَبِي عَمْرٍو ٱلدَّانِيِّ وَٱلْمُشْتَهِرُ بِحَمْلِ عُلُومِهِ وَرِوَايَةِ كُتُبِهِ ثُمَّ نُقِل بَعْدَهُ خِلَاف آخَرُ فَنَظَمَ ٱلْخَرَّازُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ بِٱلْمَغْرِبِ أُرْجُوزَةً أُخْرَى زَادَ فِيهَا عَلَى ٱلْمُقْنِعِ خِلَافاً كَثِيراً وَعَزَاهُ لِنَاقِلِيهِ وَٱشْتَهَرَتْ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱقْتَصَرَ ٱلنَّاسُ عَلَى حِفْظِهَا وَهَجَرُوا بِهَا كُتُبَ أَبِي دَاوُدَ وَأَبِي عَمْرٍو وَٱلشَّاطِبِيِّ فِي ٱلرَّسْمِ .

(واما التفسير) فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ ٱلْعَرَبِ وَعَلَى أَسَالِيبِ بَلَاغَتِهِم فَكَانُوا كُلُّهُمْ يَفْهَمُونَهُ وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ فِي مُفْرَدَاتِهِ وَتَرَاكِيبِهِ وَكَانَ يُنَزَّلُ جُمَلاً جُمَلا وَآيَاتٍ آيَاتٍ لِبَيَانِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلْفُرُوضِ ٱلدِّينِيَّةِ بِحَسَبِ ٱلْوَقَائِعِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْعَقَائِد ٱلْإِيمَانِيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي أَحْكَامِ ٱلْجَوَارِحِ وَمِنْهَا مَا يَتَقَدَّمُ وَمِنْهَا مَا يَتَأَخَّرُ وَيَكُون نَاسِخاً لَهُ وَكَانَ ٱلنَّبِي صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ ٱلْمُجْمَلَ وَيُمَيِّزُ ٱلنَّاسِخَ مِنَ ٱلْمَنْسُوخ

وَيُعَرِّفُهُ أَصْحَابُهُ فَعَرَفُوهُ وَعَرَفُوا سَبَبَ نُزُولِ ٱلْآيَاتِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْهَا مَنْقُولاً عَنْهُ كَمَا عُلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ إِنَّهَا نَعْيُ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ رِضْوَانُ ٱللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ ٱلتَّابِعُونَ مِن بَعْدِهِمْ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَاقَلاً بَيْنَ ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلسَّلَفِ حَتَّى صَارَتِ ٱلْمَعَارِفُ عُلُوماً وَدُوِّنَتِ ٱلْكُتُبُ فَكُتِبَ ٱلْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ وَنُقِلَتِ ٱلْآثَارُ ٱلْوَارِدَةُ فِيهِ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَٱنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى ٱلطَّبَرِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ وَٱلثَّعَالِبِيِّ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ ٱلْمُفَسِّرِينَ فَكَتَبُوا فِيهِ مَا شَاءَ ٱللهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ مِنَ ٱلْآثَارِ ثُمَّ صَارَتْ عُلُومُ ٱللِّسَانِ صِنَاعِيَّةً مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مَوْضُوعَاتِ ٱللُّغَةِ وَأَحْكَامِ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِي ٱلتَّرَاكِيبِ فَوُضِعَتِ ٱلدَّوَاوِينُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَلَكَاتٍ لِلْعَرَبِ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى نَقْلٍ وَلَا كِتَابٍ فَتُنُوسِيَ ذَلِكَ وَصَارَتْ تُتَلَقَّى مِنْ كُتُبِ أَهْلِ ٱللِّسَانِ فَٱحْتِيجَ إِلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ ٱلْقُرْآنِ لِأَنَّهُ بِلِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَعَلَى مِنْهَاجِ بَلَاغَتِهِمْ وَصَارَ ٱلتَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ تَفْسِيرٍ نَقْلِيٍّ مُسْنَدٍ إِلَى ٱلْآثَارِ ٱلْمَنْقُولَةِ عَنِ ٱلسَّلَفِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ ٱلنَّاسِخِ وَٱلْمَنْسُوخِ وَأَسْبَابِ ٱلنُّزُولِ وَمَقَاصِدِ ٱلْآيِ وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِٱلنَّقْلِ عَنِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَقَدْ جَمَعَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ فِي ذَلِكَ وَأَوْعَوْا إِلَّا أَنَّ كُتُبَهُمْ وَمَنْقُولَاتِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْغَثِّ وَٱلسَّمِينِ وَٱلْمَقْبُولِ وَٱلْمَرْدُودِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا غَلَبَتْ عَلَيْهِمِ ٱلْبَدَاوَةُ وَٱلْأُمِّيَّةُ وَإِذَا تَشَوَّقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ ٱلنُّفُوسُ ٱلْبَشَرِيَّةُ فِي أَسْبَابِ ٱلْمُكَوَّنَاتِ وَبَدْءِ ٱلْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ ٱلْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَهُ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ ٱلتَّوْرَاةِ مِنَ ٱلْيَهُودِ وَمَنْ تَبِعَ دِينَهُمْ مِنَ ٱلنَّصَارَى وَأَهْلُ ٱلتَّوْرَاةِ ٱلَّذِينَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلُهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ حِمْيَرَ ٱلَّذِينَ أَخَذُوا بِدِينِ ٱلْيَهُودِيَّةِ فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلَّتِي يَحْتَاطُونَ لَهَا مِثْلَ أَخْبَارِ بَدْءِ ٱلْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى ٱلْحَدَثَانِ وَٱلْمَلَاحِمِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ كَعْبِ ٱلْأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَعَبْدِ ٱللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمْثَالِهِمْ فَٱمْتَلَأَتِ ٱلتَّفَاسِيرُ مِنَ ٱلْمَنْقُولَاتِ عِنْدَهُمْ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ ٱلْأَغْرَاضِ أَخْبَارٌ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى ٱلْأَحْكَامِ فَتُتَحَرَّى فِي ٱلصِّحَّةِ ٱلَّتِي يَجِبُ بِهَا ٱلْعَمَلُ وَتَسَاهَلَ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي

مثل ذلكَ وَملأُوا كُتُبَ ٱلتَّفسيرِ بِهَذِهِ ٱلمَنْقُولاتِ وَأَصلها كَمَا قُلْنَا عَنْ أَهلِ ٱلتَّورَاةِ ٱلَّذِينَ يَسكُنُونَ ٱلبَادِيَةَ وَلا تَحقِيقَ عِندَهُم بِمَعرِفَةِ مَا يَنقُلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ بَعُدَ صِيتُهُمْ وَعَظُمَتْ أَقدَارُهُم لِمَا كَانُوا عَلَيهِ مِنَ ٱلمَقَامَاتِ فِي ٱلدِّينِ وَٱلمِلَّةِ فَتُلُقِّيَتْ بِٱلقَبُولِ مِنْ يَومَئِذٍ فَلَمَّا رَجَعَ ٱلنَّاسُ إِلى ٱلتَّحقِيقِ وَٱلتَّمحِيصِ وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدِ بْن عَطِيَّةَ مِنَ ٱلمُتَأَخِّرِينَ بِٱلمَغرِبِ فَلَخَّصَ تِلكَ ٱلتَّفَاسِيرَ كُلَّهَا وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقرَبُ إِلى ٱلصِّحَّةِ مِنهَا وَوَضَعَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُتَدَاوَلٍ بَينَ أَهلِ ٱلمَغرِبِ وَٱلأَندَلُسِ حَسَنَ ٱلمَنحَى وَتَبِعَهُ ٱلقُرطُبِيُّ فِي تِلكَ ٱلطَّرِيقَةِ عَلى مِنهَاجٍ وَاحِدٍ فِي كِتَابٍ آخَرَ مَشهُورٍ بِٱلمَشرِقِ.

وَٱلصِّنفُ ٱلآخَرُ مِنَ ٱلتَّفسِيرِ وَهُوَ مَا يَرجِعُ إِلى ٱللِّسَانِ مِنْ مَعرِفَةِ ٱللُّغَةِ وَٱلإِعرَابِ وَٱلبَلاغَةِ فِي تَأْدِيَةِ ٱلمَعنَى بِحَسَبِ ٱلمَقَاصِدِ وَٱلأَسَالِيبِ وَهَذَا ٱلصِّنفُ مِنَ ٱلتَّفسِيرِ قَلَّ أَنْ يَنفَرِدَ عَنِ ٱلأَوَّلِ إِذِ ٱلأَوَّلُ هُوَ ٱلمَقصُودُ بِٱلذَّاتِ وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا بَعدَ أَنْ صَارَ ٱللِّسَانُ وَعُلُومُهُ صِنَاعَةً نَعَمْ قَدْ يَكُونُ فِي بَعضِ ٱلتَّفَاسِيرِ غَالِباً وَمِنْ أَحسَنِ مَا ٱشتَمَلَ عَلَيهِ هَذَا ٱلفَنُّ مِنَ ٱلتَّفَاسِيرِ كِتَابُ ٱلكَشَّافِ لِلزَّمَخشَرِيِّ مِنْ أَهلِ خَوَارَزْمِ ٱلعِرَاقِ إِلَّا أَنَّ مُؤَلِّفَهُ مِنْ أَهلِ ٱلاعتِزَالِ فِي ٱلعَقَائِدِ فَيَأْتِي بِٱلحِجَاجِ عَلى مَذَاهِبِهِمِ ٱلفَاسِدَةِ حَيثُ تَعرِضُ فِي آيِ ٱلقُرآنِ مِنْ طُرُقِ ٱلبَلاغَةِ فَصَارَ ذَلِكَ لِلمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهلِ ٱلسُّنَّةِ ٱنحِرَافٌ عَنهُ وَتَحذِيرٌ لِلجُمهُورِ مِنْ مَكَامِنِهِ مَعَ إِقرَارِهِمْ بِرُسُوخِ قَدَمِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِٱللِّسَانِ وَٱلبَلاغَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاظِرُ فِيهِ وَاقِفاً مَعَ ذَلِكَ عَلى ٱلمَذَاهِبِ ٱلسُّنِّيَّةِ مُحسِناً لِلحِجَاجِ عَنهَا فَلا جَرَمَ إِنَّهُ مَأْمُونٌ مِنْ غَوَائِلِهِ فَلْتُغتَنَمْ مُطَالَعَتُهُ لِغَرَابَةِ فُنُونِهِ فِي ٱللِّسَانِ وَلَقَدْ وَصَلَ إِلَينَا فِي هَذِهِ ٱلعُصُورِ تَأْلِيفٌ لِبَعضِ ٱلعِرَاقِيِّينَ وَهُوَ شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيُّ مِنْ أَهلِ تُورِيزَ مِنْ عِرَاقِ ٱلعَجَمِ شَرَحَ فِيهِ كِتَابَ ٱلزَّمَخشَرِيِّ هَذَا وَتَتَبَّعَ أَلفَاظَهُ وَتَعَرَّضَ لِمَذَاهِبِهِ فِي ٱلاعتِزَالِ بِأَدِلَّةٍ تُزَيِّفُهَا وَيُبَيِّنُ أَنَّ ٱلبَلاغَةَ إِنَّمَا تَقَعُ فِي ٱلآيَةِ عَلى مَا يَرَاهُ أَهلُ ٱلسُّنَّةِ لا عَلى مَا يَرَاهُ ٱلمُعتَزِلَةُ فَأَحسَنَ فِي ذَلِكَ مَا شَاءَ مَعَ إِمتَاعِهِ فِي سَائِرِ فُنُونِ ٱلبَلاغَةِ وَفَوقَ كُلِّ ذِي عِلمٍ عَلِيمٌ

الفصل السادس

في علوم الحديث

وَأَمَّا عُلُومُ ٱلحَدِيثِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ لِأَنَّ مِنهَا مَا يُنظَرُ فِي نَاسِخِهِ وَمَنسُوخِهِ

وَذَلِكَ بِمَا ثَبَتَ فِي شَرِيعَتِنَا مِنْ جَوَازِ النَّسْخِ وَوُقُوعِهِ لُطْفاً مِنَ اللهِ بِعِبَادِهِ وَتَخْفِيفاً عَنْهُمْ بِاعْتِبَارِ مَصَالِحِهِمُ الَّتِي تَكَفَّلَ لَهُمْ بِهَا قَالَ تَعَالَى مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا فَإِذَا تَعَارَضَ الْخَبَرَانِ بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ وَتَعَذَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِبَعْضِ التَّأْوِيلِ وَعُلِمَ تَقَدُّمُ أَحَدِهِمَا تَعَيَّنَ أَنَّ الْمُتَأَخِّرَ نَاسِخٌ وَمَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ مِنْ أَهَمِّ عُلُومِ الْحَدِيثِ وَأَصْعَبِهَا قَالَ الزُّهْرِيُّ أَعْيَا الْفُقَهَاءَ وَأَعْجَزَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسِخَ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَنْسُوخِهِ وَكَانَ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيهِ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ وَمِنْ عُلُومِ الْأَحَادِيثِ النَّظَرُ فِي الْأَسَانِيدِ وَمَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِوُقُوعِهِ عَلَى السَّنَدِ الْكَامِلِ الشُّرُوطِ لِأَنَّ الْعَمَلَ إِنَّمَا وَجَبَ بِمَا يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ صِدْقُهُ مِنْ أَخْبَارِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُجْتَهَدُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تُحَصِّلُ ذَلِكَ الظَّنَّ وَهُوَ بِمَعْرِفَةِ رُوَاةِ الْحَدِيثِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَإِنَّمَا يَثْبُتُ ذَلِكَ بِالنَّقْلِ عَنْ أَعْلَامِ الدِّينِ بِتَعْدِيلِهِمْ وَبَرَاءَتِهِمْ مِنَ الْجَرْحِ وَالْغَفْلَةِ وَيَكُونُ لَنَا ذَلِكَ دَلِيلاً عَلَى الْقَبُولِ أَوِ التَّرْكِ وَكَذَلِكَ مَرَاتِبُ هَؤُلَاءِ النَّقَلَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفَاوُتُهُمْ فِي ذَلِكَ وَتَمَيُّزُهُمْ فِيهِ وَاحِداً وَاحِداً وَكَذَلِكَ الْأَسَانِيدُ تَتَفَاوَتُ بِاتِّصَالِهَا وَانْقِطَاعِهَا بِأَنْ يَكُونَ الرَّاوِي لَمْ يَلْقَ الرَّاوِيَ الَّذِي نَقَلَ عَنْهُ وَبِسَلَامَتِهَا مِنَ الْعِلَلِ الْمُوهِنَةِ لَهَا وَتَنْتَهِي بِالتَّفَاوُتِ إِلَى طَرَفَيْنِ فَحُكِمَ بِقَبُولِ الْأَعْلَى وَرَدِّ الْأَسْفَلِ وَيُخْتَلَفُ فِي الْمُتَوَسِّطِ بِحَسَبِ الْمَنْقُولِ عَنْ أَئِمَّةِ الشَّأْنِ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَلْفَاظٌ اصْطَلَحُوا عَلَى وَضْعِهَا لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْمُرَتَّبَةِ مِثْلِ الصَّحِيحِ وَالْحَسَنِ وَالضَّعِيفِ وَالْمُرْسَلِ وَالْمُنْقَطِعِ وَالْمُعْضَلِ وَالشَّاذِّ وَالْغَرِيبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَلْقَابِهِ الْمُتَدَاوَلَةِ بَيْنَهُمْ وَبَوَّبُوا عَلَى كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَنَقَلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْخِلَافِ لِأَئِمَّةِ اللِّسَانِ أَوِ الْوِفَاقِ ثُمَّ النَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ أَخْذِ الرِّوَايَةِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِقِرَاءَةٍ أَوْ كِتَابَةٍ أَوْ مُنَاوَلَةٍ أَوْ إِجَازَةٍ وَتَفَاوُتِ رُتَبِهَا وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخِلَافِ بِالْقَبُولِ وَالرَّدِّ ثُمَّ أَتْبَعُوا ذَلِكَ بِكَلَامٍ فِي أَلْفَاظٍ تَقَعُ فِي مُتُونِ الْحَدِيثِ مِنْ غَرِيبٍ أَوْ مُشْكِلٍ أَوْ تَصْحِيفٍ أَوْ مُفْتَرِقٍ مِنْهَا أَوْ مُخْتَلِفٍ وَمَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ هَذَا مُعْظَمُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَغَالِبُهُ وَكَانَتْ أَحْوَالُ نَقَلَةِ الْحَدِيثِ فِي عُصُورِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَعْرُوفَةً عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ فَمِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَمِنْهُمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ مِنَ الْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ بِالشَّامِ وَمِصْرَ بِالْجَمِيعِ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ فِي أَعْصَارِهِمْ وَكَانَتْ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ

في أَعصارِهِمْ في ٱلأَسانِيدِ أَعلى مِمَّنْ سِواهُمْ وَأَمتَنَ في ٱلصِّحَّةِ لِٱستِبدادِهِمْ في شُرُوطِ ٱلنَّقلِ مِنَ ٱلعَدالَةِ وَٱلضَّبطِ وَتَجافِيهِمْ عَنْ قَبُولِ ٱلمَجهُولِ ٱلحالِ في ذٰلِكَ وَسَنَدُ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلحِجازِيَّةِ بَعْدَ ٱلسَّلَفِ ٱلإِمامُ مالِكٌ عالِمُ ٱلمَدِينَةِ رَضِيَ ٱللهُ تَعالَى عَنْهُ ثُمَّ أَصحابُهُ مِثلِ ٱلإِمامِ مُحَمَّدِ بْنِ أَدرِيسَ ٱلشَّافِعِيِّ وَٱلإِمامِ أَحمَدَ بْنِ حَنبَلٍ وَأَمثالِهِمْ وَكانَ عِلمُ ٱلشَّرِيعَةِ في مَبدَإٍ هٰذا ٱلأَمرِ نَقلًا صِرفًا شَمَّرَ لَها ٱلسَّلَفُ وَتَحَرَّوا ٱلصَّحِيحَ حَتَّى أَكمَلُوها وَكَتَبَ مالِكٌ رَحِمَهُ ٱللهُ كِتابَ ٱلمُوَطَّإِ أَودَعَهُ أُصُولَ ٱلأَحكامِ مِنَ ٱلصَّحِيحِ ٱلمُتَّفَقِ عَلَيهِ وَرَتَّبَهُ عَلى أَبوابِ ٱلفِقهِ ثُمَّ عُنِيَ ٱلحُفّاظُ بِمَعرِفَةِ طُرُقِ ٱلأَحادِيثِ وَأَسانِيدِها ٱلمُختَلِفَةِ وَرُبَّما يَقَعُ إِسنادُ ٱلحَدِيثِ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنْ رُواةٍ مُختَلِفِينَ وَقَدْ يَقَعُ ٱلحَدِيثُ أَيضًا في أَبوابٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِٱختِلافِ ٱلمَعاني ٱلَّتي ٱشتَمَلَ عَلَيها وَجاءَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسماعِيلَ ٱلبُخارِيُّ إِمامُ ٱلمُحَدِّثِينَ في عَصرِهِ فَخَرَّجَ أَحادِيثَ ٱلسُّنَّةِ عَلى أَبوابِها في مُسنَدِهِ ٱلصَّحِيحِ بِجَمِيعِ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتي لِلحِجازِيِّينَ وَٱلعِراقِيِّينَ وَٱلشّامِيِّينَ وَٱعتَمَدُوا مِنها ما أَجمَعُوا عَلَيهِ دُونَ ما ٱختَلَفُوا فِيهِ وَكَرَّرَ ٱلأَحادِيثَ يَسُوقُها في كُلِّ بابٍ بِمَعنَى ذٰلِكَ ٱلبابِ ٱلَّذي تَضَمَّنَهُ ٱلحَدِيثُ فَتَكَرَّرَتْ لِذٰلِكَ أَحادِيثُهُ حَتَّى يُقالَ إِنَّهُ ٱشتَمَلَ عَلى تِسعَةِ (١) آلافِ حَدِيثٍ وَمِائَتَينِ مِنها ثَلاثَةُ آلافٍ مُتَكَرِّرَةٌ وَفَرَّقَ ٱلطُّرُقَ وَٱلأَسانِيدَ عَلَيها مُختَلِفَةً في كُلِّ بابٍ ثُمَّ جاءَ ٱلإِمامُ مُسلِمُ بْنُ ٱلحَجّاجِ ٱلقُشَيرِيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعالى فَأَلَّفَ مُسنَدَهُ ٱلصَّحِيحَ حَذا فِيهِ حَذوَ ٱلبُخارِيِّ في نَقلِ ٱلمُجمَعِ عَلَيهِ وَحَذَفَ ٱلمُتَكَرِّرَ مِنها وَجَمَعَ ٱلطُّرُقَ وَٱلأَسانِيدَ وَبَوَّبَهُ عَلى أَبوابِ ٱلفِقهِ وَتَراجِمِهِ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَمْ يَستَوعِبا ٱلصَّحِيحَ كُلَّهُ وَقَدِ ٱستَدرَكَ ٱلنّاسُ عَلَيهِما في ذٰلِكَ ثُمَّ كَتَبَ أَبُو داوُدَ ٱلسِّجِستانِيُّ وَأَبُو عِيسَى ٱلتِّرمِذِيُّ وَأَبُو عَبدِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلنَّسائِيُّ في ٱلسُّنَنِ بِأَوسَعَ مِنَ ٱلصَّحِيحِ وَقَصَدُوا ما تَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ ٱلعَمَلِ إِمّا مِنَ ٱلرُّتبَةِ ٱلعالِيَةِ في ٱلأَسانِيدِ وَهُوَ ٱلصَّحِيحُ كَما هُوَ مَعرُوفٌ وَإِمّا مِنَ ٱلَّذي دُونَهُ مِنَ ٱلحَسَنِ وَغَيرِهِ لِيَكُونَ ذٰلِكَ إِمامًا لِلسُّنَّةِ وَٱلعَمَلِ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلمَسانِيدُ ٱلمَشهُورَةُ في ٱلمِلَّةِ وَهِيَ أُمَّهاتُ كُتُبِ ٱلحَدِيثِ في ٱلسُّنَّةِ فَإِنَّها وَإِنْ تَعَدَّدَتْ تَرجِعُ إِلى هٰذِهِ في ٱلأَغلَبِ وَمَعرِفَةُ هٰذِهِ ٱلشُّرُوطِ وَٱلِٱصطِلاحاتِ كُلِّها هِيَ عِلمُ ٱلحَدِيثِ وَرُبَّما يُفرَدُ عَنها ٱلنّاسِخُ وَٱلمَنسُوخُ فَيُجعَلُ فَنًّا بِرَأسِهِ وَكَذا ٱلغَرِيبُ وَلِلنّاسِ فِيهِ تَآلِيفُ مَشهُورَةٌ

(١) قوله تسعة الذي في النووي على مسلم انها سبعة بتقديم السين محرره

ثمَّ ٱلمُؤْتَلِفُ وَٱلمُخْتَلِفُ وَقَدْ أَلَّفَ ٱلنَّاسُ فِي عُلُومِ ٱلْحَدِيثِ وَأَكْثَرُوا وَمِنْ فُحُولِ عُلَمَائِهِ وَأَئِمَّتِهِمْ أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ ٱلْحَاكِمُ وَتَآلِيفُهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ وَهُوَ ٱلَّذِي هَذَّبَهُ وَأَظْهَرَ مَحَاسِنَهُ وَأَشْهَرُ كِتَابٍ لِلْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ كِتَابُ أَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلصَّلَاحِ كَانَ لِعَهْدِ أَوَائِلِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَتَلَاهُ مُحْيِي ٱلدِّينِ ٱلنَّوَوِي بِمِثْلِ ذَٰلِكَ وَٱلْفَنُّ شَرِيفٌ فِي مَغْزَاهُ لِأَنَّهُ مَعْرِفَةُ مَا يُحْفَظُ بِهِ ٱلسُّنَنُ ٱلْمَنْقُولَةُ عَنْ صَاحِبِ ٱلشَّرِيعَةِ وَقَدِ ٱنْقَطَعَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ تَخْرِيجُ شَيْءٍ مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱسْتِدْرَاكُهَا عَلَى ٱلْمُتَقَدِّمِينَ إِذِ ٱلْعَادَةُ تَشْهَدُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ ٱلْأَئِمَّةَ عَلَى تَعَدُّدِهِمْ وَتَلَاحُقِ عُصُورِهِمْ وَكِفَايَتِهِمْ وَٱجْتِهَادِهِمْ لَمْ يَكُونُوا لِيُغْفِلُوا شَيْئًا مِنَ ٱلسُّنَّةِ أَوْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى يَعْثُرَ عَلَيْهِ ٱلْمُتَأَخِّرُ هَذَا بَعِيدٌ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا تَنْصَرِفُ ٱلْعِنَايَةُ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ إِلَى تَصْحِيحِ ٱلْأُمَّهَاتِ ٱلْمَكْتُوبَةِ وَضَبْطِهَا بِٱلرِّوَايَةِ عَنْ مُصَنِّفِيهَا وَٱلنَّظَرِ فِي أَسَانِيدِهَا إِلَى مُؤَلِّفِهَا وَعَرْضِ ذَٰلِكَ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ ٱلْحَدِيثِ مِنَ ٱلشُّرُوطِ وَٱلْأَحْكَامِ لِتَتَّصِلَ ٱلْأَسَانِيدُ مُحْكَمَةً إِلَى مُنْتَهَاهَا وَلَمْ يَزِيدُوا فِي ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْعِنَايَةِ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ ٱلْأُمَّهَاتِ ٱلْخَمْسِ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ . فَأَمَّا ٱلْبُخَارِيُّ وَهُوَ أَعْلَاهَا رُتْبَةً فَٱسْتَصْعَبَ ٱلنَّاسُ شَرْحَهُ وَٱسْتَغْلَقُوا مَنْحَاهُ مِنْ أَجْلِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلطُّرُقِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَرِجَالِهَا مِنْ أَهْلِ ٱلْحِجَازِ وَٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ وَٱخْتِلَافِ ٱلنَّاسِ فِيهِمْ وَلِذَٰلِكَ يُحْتَاجُ إِلَى إِمْعَانِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلتَّفَقُّهِ فِي تَرَاجِمِهِ لِأَنَّهُ يُتَرْجِمُ ٱلتَّرْجَمَةَ وَيُورِدُ فِيهَا ٱلْحَدِيثَ بِسَنَدٍ أَوْ طَرِيقٍ ثُمَّ يُتَرْجِمُ أُخْرَى وَيُورِدُ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْحَدِيثَ بِعَيْنِهِ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي تَرْجَمَ بِهِ ٱلْبَابَ وَكَذَٰلِكَ فِي تَرْجَمَةٍ وَتَرْجَمَةٍ إِلَى أَنْ يَتَكَرَّرَ ٱلْحَدِيثُ فِي أَبْوَابٍ كَثِيرَةٍ بِحَسَبِ مَعَانِيهِ وَٱخْتِلَافِهَا وَمَنْ شَرَحَهُ وَلَمْ يَسْتَوْفِ هَذَا فِيهِ فَلَمْ يُوفِ حَقَّ ٱلشَّرْحِ كَٱبْنِ بَطَّالٍ وَٱبْنِ ٱلْمُهَلَّبِ وَٱبْنِ ٱلتِّينِ وَنَحْوِهِمْ وَلَقَدْ سَمِعْتُ كَثِيرًا مِنْ شُيُوخِنَا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَقُولُونَ شَرْحُ كِتَابِ ٱلْبُخَارِيِّ دَيْنٌ عَلَى ٱلْأُمَّةِ يَعْنُونَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأُمَّةِ لَمْ يُوفِ مَا يَجِبُ لَهُ مِنَ ٱلشَّرْحِ بِهَذَا ٱلِٱعْتِبَارِ . وَأَمَّا صَحِيحُ مُسْلِمٍ فَكَثُرَتْ عِنَايَةُ عُلَمَاءِ ٱلْمَغْرِبِ بِهِ وَأَكَبُّوا عَلَيْهِ وَأَجْمَعُوا عَلَى تَفْضِيلِهِ عَلَى كِتَابِ ٱلْبُخَارِيِّ مِنْ غَيْرِ ٱلصَّحِيحِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ عَلَى شَرْطِهِ وَأَكْثَرُ مَا وَقَعَ لَهُ فِي ٱلتَّرَاجِمِ وَأَمْلَى ٱلْإِمَامُ ٱلْمَازِرِيُّ مِنْ فُقَهَاءِ ٱلْمَالِكِيَّةِ عَلَيْهِ شَرْحًا وَسَمَّاهُ ٱلْمُعْلِمَ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ ٱشْتَمَلَ عَلَى عُيُونٍ مِنْ عِلْمِ ٱلْحَدِيثِ وَفُنُونٍ مِنَ ٱلْفِقْهِ ثُمَّ أَكْمَلَهُ ٱلْقَاضِي عِيَاضٌ مِنْ بَعْدِهِ وَتَمَّمَهُ وَسَمَّاهُ إِكْمَالَ

ٱلْمُعَلِّمِ وَتَلاهُمَا مُحْيِي ٱلدِّينِ ٱلنَّوَوِيُّ بِشَرْحٍ ٱسْتَوْفَى مَا فِي ٱلْكِتَابَيْنِ وَزَادَ عَلَيْهِمَا فَجَاءَ شَرْحاً وَافِياً . وَأَمَّا كُتُبُ ٱلسُّنَنِ ٱلْأُخْرَى وَفِيهَا مُعْظَمُ مَآخِذِ ٱلْفُقَهَاءِ فَأَكْثَرُ شَرْحِهَا فِي كُتُبِ ٱلْفِقْهِ إِلَّا مَا يُخْتَصُّ بِعِلْمِ ٱلْحَدِيثِ فَكَتَبَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْفَوْا مِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عِلْمِ ٱلْحَدِيثِ وَمَوْضُوعَاتِهَا وَٱلْأَسَانِيدِ ٱلَّتِي ٱشْتَمَلَتْ عَلَى ٱلْأَحَادِيثِ ٱلْمَعْمُولِ بِهَا مِنَ ٱلسُّنَّةِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَحَادِيثَ قَدْ تَمَيَّزَتْ مَرَاتِبُهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بَيْنَ صَحِيحٍ وَحَسَنٍ وَضَعِيفٍ وَمَعْلُولٍ وَغَيْرِهَا تَنَزَّلَهَا أَئِمَّةُ ٱلْحَدِيثِ وَجَهَابِذَتُهُ وَعَرَّفُوهَا وَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ فِي تَصْحِيحِ مَا يَصِحُّ مِنْ قَبْلُ وَلَقَدْ كَانَ ٱلْأَئِمَّةُ فِي ٱلْحَدِيثِ يَعْرِفُونَ ٱلْأَحَادِيثَ بِطُرُقِهَا وَأَسَانِيدِهَا بِحَيْثُ لَوْ رُوِيَ حَدِيثٌ بِغَيْرِ سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ يَفْطَنُونَ إِلَى أَنَّهُ قَدْ قُلِبَ عَنْ وَضْعِهِ وَلَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذٰلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ٱلْبُخَارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ وَقَصَدَ ٱلْمُحَدِّثُونَ ٱمْتِحَانَهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قَلَبُوا أَسَانِيدَهَا فَقَالَ لَا أَعْرِفُ هٰذِهِ وَلٰكِنْ حَدَّثَنِي فُلَانٌ ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ ٱلْأَحَادِيثِ عَلَى ٱلْوَضْعِ ٱلصَّحِيحِ وَرَدَّ كُلَّ مَتْنٍ إِلَى سَنَدِهِ وَأَقَرُّوا لَهُ بِٱلْإِمَامَةِ . وَٱعْلَمْ أَيْضاً أَنَّ ٱلْأَئِمَّةَ ٱلْمُجْتَهِدِينَ تَفَاوَتُوا فِي ٱلْإِكْثَارِ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْإِقْلَالِ فَأَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ يُقَالُ بَلَغَتْ رِوَايَتُهُ إِلَى سَبْعَةَ عَشَرَ حَدِيثاً أَوْ نَحْوِهَا وَمَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللهُ إِنَّمَا صَحَّ عِنْدَهُ مَا فِي كِتَابِ ٱلْمُوَطَّإِ [1] وَغَايَتُهَا ثَلٰثُمِائَةِ حَدِيثٍ أَوْ نَحْوُهَا . وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى فِي مُسْنَدِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَدِيثٍ وَلِكُلٍّ مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ ٱجْتِهَادُهُ فِي ذٰلِكَ وَقَدْ تَقَوَّلَ بَعْضُ ٱلْمُبْغِضِينَ ٱلْمُتَعَسِّفِينَ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَلِيلَ ٱلْبِضَاعَةِ فِي ٱلْحَدِيثِ فَلِهٰذَا قَلَّتْ رِوَايَتُهُ وَلَا سَبِيلَ إِلَى هٰذَا ٱلْمُعْتَقَدِ فِي كِبَارِ ٱلْأَئِمَّةِ لِأَنَّ ٱلشَّرِيعَةَ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَمَنْ كَانَ قَلِيلَ ٱلْبِضَاعَةِ مِنَ ٱلْحَدِيثِ فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ طَلَبُهُ وَرِوَايَتُهُ وَٱلْجِدُّ وَٱلتَّشْمِيرُ فِي ذٰلِكَ لِيَأْخُذَ ٱلدِّينَ عَنْ أُصُولٍ صَحِيحَةٍ وَيَتَلَقَّى ٱلْأَحْكَامَ عَنْ صَاحِبِهَا ٱلْمُبَلِّغِ لَهَا وَإِنَّمَا قَلَّلَ مِنْهُمْ مَنْ قَلَّلَ ٱلرِّوَايَةَ لِأَجْلِ ٱلْمَطَاعِنِ ٱلَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيهَا وَٱلْعِلَلِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ فِي طُرُقِهَا سِيَّمَا وَٱلْجَرْحُ مُقَدَّمٌ عِنْدَ ٱلْأَكْثَرِ فَيُؤَدِّيهِ ٱلِاجْتِهَادُ إِلَى تَرْكِ ٱلْأَخْذِ بِمَا يَعْرِضُ مِثْلُ ذٰلِكَ فِيهِ مِنَ ٱلْأَحَادِيثِ وَطُرُقِ ٱلْأَسَانِيدِ وَيَكْثُرُ ذٰلِكَ فَتَقِلُّ رِوَايَتُهُ

(١) الذي في شرح الزرقاني على الموطأ حكاية اقوال خمسة في عدة احاديثه اولها ٥٠٠ ثانيها ٧٠٠ ثالثها الف ونيف رابعها ١٧٢٠ خامسها ٦٦٦ وليس فيه قول بما في هذه النسخة قاله نصر الهوريني

لِضُعْفٍ فِي ٱلطُّرُقِ هٰذَا مَعَ أَنَّ أَهْلَ ٱلْحِجَازِ أَكْثَرُ رِوَايَةً لِلْحَدِيثِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ لِأَنَّ ٱلْمَدِينَةَ دَارُ ٱلْهِجْرَةِ وَمَأْوَى ٱلصَّحَابَةِ وَمَنِ ٱنْتَقَلَ مِنْهُمْ إِلى ٱلْعِرَاقِ كَانَ شُغْلُهُمْ بِٱلْجِهَادِ أَكْثَرَ وَٱلْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ إِنَّمَا قَلَّتْ رِوَايَتُهُ لِمَا شَدَّدَ فِي شُرُوطِ ٱلرِّوَايَةِ وَٱلتَّحَمُّلِ وَضُعْفِ رِوَايَةِ ٱلْحَدِيثِ ٱلْيَقِينِيِّ إِذَا عَارَضَهَا ٱلْفِعْلُ ٱلنَّفْسِيُّ وَقَلَّتْ مِنْ أَجْلِهَا رِوَايَتُهُ فَقَلَّ حَدِيثُهُ لِأَنَّهُ تَرَكَ رِوَايَةَ ٱلْحَدِيثِ مُتَعَمِّداً فَحَاشَاهُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَدُلُّ عَلى أَنَّهُ مِنْ كِبَارِ ٱلْمُجْتَهِدِينَ فِي عِلْمِ ٱلْحَدِيثِ ٱعْتِمَادُ مَذْهَبِهِ بَيْنَهُمْ وَٱلتَّعْوِيلُ عَلَيْهِ وَٱعْتِبَارُهُ رَدّاً وَقَبُولاً وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُحَدِّثِينَ وَهُمُ ٱلْجُمْهُورُ فَتَوَسَّعُوا فِي ٱلشُّرُوطِ وَكَثُرَ حَدِيثُهُمْ وَٱلْكُلُّ عَنِ ٱجْتِهَادٍ وَقَدْ تَوَسَّعَ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ فِي ٱلشُّرُوطِ وَكَثُرَتْ رِوَايَتُهُمْ وَرَوَى ٱلطَّحَاوِيُّ فَأَكْثَرَ وَكَتَبَ مُسْنَدَهُ وَهُوَ جَلِيلُ ٱلْقَدْرِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْدِلُ ٱلصَّحِيحَيْنِ لِأَنَّ ٱلشُّرُوطَ ٱلَّتِي ٱعْتَمَدَهَا ٱلْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابَيْهِمَا مُجْمَعٌ عَلَيْهَا بَيْنَ ٱلْأُمَّةِ كَمَا قَالُوهُ وَشُرُوطُ ٱلطَّحَاوِيِّ غَيْرُ مُتَّفَقٍ عَلَيْهَا كَٱلرِّوَايَةِ عَنِ ٱلْمَسْتُورِ ٱلْحَالِ وَغَيْرِهِ فَلِهٰذَا قُدِّمَ ٱلصَّحِيحَانِ بَلْ وَكُتُبُ ٱلسُّنَنِ ٱلْمَعْرُوفَةُ عَلَيْهِ لِتَأَخُّرِ شَرْطِهِ عَنْ شُرُوطِهِمْ وَمِنْ أَجْلِ هٰذَا قِيلَ فِي ٱلصَّحِيحَيْنِ بِٱلْإِجْمَاعِ عَلى قَبُولِهِمَا مِنْ جِهَةِ ٱلْإِجْمَاعِ عَلى صِحَّةِ مَا فِيهِمَا مِنَ ٱلشُّرُوطِ ٱلْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا فَلَا تَأْخُذْكَ رِيبَةٌ فِي ذٰلِكَ فَٱلْقَوْمُ أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِٱلظَّنِّ ٱلْجَمِيلِ بِهِمْ وَٱلْتِمَاسِ ٱلْمَخَارِجِ ٱلصَّحِيحَةِ لَهُمْ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا فِي حَقَائِقِ ٱلْأُمُورِ

الفصل السابع

في علم الفقه وما يتبعه من الفرائض

أَلْفِقْهُ مَعْرِفَةُ أَحْكَامِ ٱللهِ تَعَالى فِي أَفْعَالِ ٱلْمُكَلَّفِينَ بِٱلْوُجُوبِ وَٱلْحَذَرِ وَٱلنَّدْبِ وَٱلْكَرَاهَةِ وَٱلْإِبَاحَةِ وَهِيَ مُتَلَقَّاةٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَمَا نَصَبَهُ ٱلشَّارِعُ لِمَعْرِفَتِهَا مِنَ ٱلْأَدِلَّةِ فَإِذَا ٱسْتُخْرِجَتِ ٱلْأَحْكَامُ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَدِلَّةِ قِيلَ لَهَا فِقْهٌ وَكَانَ ٱلسَّلَفُ يَسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ تِلْكَ ٱلْأَدِلَّةِ عَلى ٱخْتِلَافٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَلَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ ضَرُورَةَ أَنَّ ٱلْأَدِلَّةَ غَالِبُهَا مِنَ ٱلنُّصُوصِ وَهِيَ بِلُغَةِ ٱلْعَرَبِ وَفِي ٱقْتِضَاءَاتِ أَلْفَاظِهَا لِكَثِيرٍ مِنْ مَعَانِيهَا ٱخْتِلَافٌ بَيْنَهُمْ مَعْرُوفٌ وَأَيْضاً فَٱلسُّنَّةُ مُخْتَلِفَةُ ٱلطُّرُقِ فِي ٱلثُّبُوتِ وَتَتَعَارَضُ فِي ٱلْأَكْثَرِ أَحْكَامُهَا فَتَحْتَاجُ إِلى ٱلتَّرْجِيحِ وَهُوَ مُخْتَلِفٌ أَيْضاً فَٱلْأَدِلَّةُ مِنْ غَيْرِ ٱلنُّصُوصِ مُخْتَلَفٌ فِيهَا وَأَيْضاً فَٱلْوَقَائِعُ ٱلْمُتَجَدِّدَةُ لَا تُوَفِّي بِهَا ٱلنُّصُوصُ وَمَا كَانَ مِنْهَا غَيْرَ ظَاهِرٍ فِي ٱلْمَنْصُوصِ

فيُحمَلُ على المَنصوص لِمُشابَهةٍ بينَهما وهذه كُلُّها إشاراتٌ للخلاف ضَروريَّةُ الوُقوع ومن هُنا وَقعَ الخِلافُ بَينَ السَّلَفِ وَالأَئمَّةِ مِنْ بَعدِهم ثُمَّ إنَّ الصَّحابَةَ كُلَّهُم لَم يَكُونُوا أهلَ فُتيا ولا كانَ الدِّينُ يُؤخَذُ عَنْ جَميعِهِم وإنَّما كانَ ذلكَ مُختصًّا بالحامِلينَ للقرآن العارِفينَ بناسِخِهِ ومَنسُوخِهِ ومُتَشابِهِهِ ومُحكَمِهِ وسائِرِ دِلالَتِه بِما تَلقَّوهُ مِنَ النَّبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ أو مِمَّنْ سَمِعَهُ مِنهُم ومِنْ عِلْيَتِهِم وكانُوا يُسَمَّونَ لِذلكَ القُرَّاءَ أي الذين يقرأونَ الكِتابَ لأنَّ العربَ كانوا أُمَّةً أُمِّيَّةً فاختُصَّ مَنْ كانَ مِنهُم قارئًا للكِتاب بِهذا الاسمِ لِغَرابَتِهِ يومَئذٍ وبَقِيَ الأمرُ كذلكَ صدرَ المِلَّةِ ثُمَّ عَظُمَتْ أمصارُ الإسلام وذَهبَتِ الأُمِّيَّةُ مِنَ العربِ بِمُمارَسَةِ الكِتابِ وتَمَكَّنَ الاستِنباطُ وكَمُلَ الفِقهُ وأصبحَ صِناعَةً وعِلمًا فبُدِّلُوا باسمِ الفُقَهاءِ والعُلَماءِ مِنَ القُرَّاءِ وانقَسَمَ الفِقهُ فيهِم إلى طَريقتَيْنِ طَريقةِ أهلِ الرَّأيِ والقِياسِ وهُم أهلُ العِراقِ وطَريقةِ أهلِ الحَديثِ وهُم أهلُ الحِجازِ وكانَ الحديثُ قليلًا في أهلِ العِراقِ لِما قدَّمناهُ فاستَكثَرُوا مِنَ القِياس ومَهَرُوا فيهِ فلِذلكَ قيلَ أهلُ الرَّأيِ ومُقدَّمُ جَماعَتِهِم الَّذي استَقَرَّ المَذهَبُ فيهِ وفي أصحابِهِ أبو حَنيفةَ وإمامُ أهلِ الحِجازِ مالكُ بنُ أنسٍ والشَّافِعيُّ مِنْ بَعدِهِ ثُمَّ أنكَرَ القِياسَ طائِفَةٌ مِنَ العُلَماءِ وأبطَلُوا العَمَلَ بِهِ وهُمُ الظَّاهِرِيَّةُ وجَعَلُوا المَدارِكَ كُلَّها مُنحَصِرَةً في النُّصوصِ والإجماعِ ورَدُّوا القِياسَ الجَليَّ والعِلَّةَ المَنصُوصَةَ إلى النَّصّ لأنَّ النَّصَّ على العِلَّةِ نَصٌّ على الحُكمِ في جَميعِ مَحالِّها وكانَ إمامُ هذا المَذهَبِ داوُد ابنَ عَليٍّ وابنَهُ وأصحابَهُما وكانَتْ هذهِ المَذاهِبُ الثَّلاثَةُ هِيَ مَذاهِبَ الجُمهورِ المُشتَهِرَةَ بَينَ الأُمَّةِ وشَذَّ أهلُ البَيتِ بِمَذاهِبَ ابتَدَعُوها وفِقهٍ انفَرَدُوا بِهِ وبَنَوهُ على مَذهَبِهِم في تَناوُلِ بَعضِ الصَّحابَةِ بالقَدحِ وعلى قَولِهِم بِعِصمَةِ الأئمَّةِ ورَفعِ الخِلافِ عَن أقوالِهِم وهِيَ كُلُّها أُصولٌ واهِيَةٌ وشَذَّ بِمِثلِ ذلكَ الخَوارِجُ ولَم يَحتَفِلِ الجُمهورُ بِمَذاهِبِهِم بل أوسَعُوها جانِبَ الإنكارِ والقَدحِ فلا نَعرِفُ شَيئًا مِنْ مَذاهِبِهِم ولا نَروي كُتُبَهُم ولا أثَرَ لِشَيءٍ مِنها إلَّا في مَواطِنِهِم فكُتُبُ الشِّيعَةِ في بِلادِهِم وحَيثُ كانَتْ دَولَتُهُم قائِمَةً في المَغرِبِ والمَشرِقِ واليَمَنِ والخَوارِجُ كذلكَ ولِكُلٍّ مِنهُم كُتُبٌ وتَآليف وآراءٌ في الفِقهِ غَريبَةٌ ثُمَّ دَرَسَ مَذهَبُ أهلِ الظَّاهِرِ اليَومَ بِدُروسِ أئمَّتِهِ وإنكارِ الجُمهورِ على مُنتَحِلِهِ ولَم يَبقَ إلَّا في الكُتُبِ المُجَلَّدَةِ ورُبَّما يَعكِفُ كَثيرٌ مِنَ الطَّالِبين

ممّن تكلّف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يخلو بطائل ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه وربّما عدّ بهذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلّمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علوّ رتبته في حفظ الحديث وصار إلى مذهب أهل الظّاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف إمامهم داود وتعرّض للكثير من الأئمة المسلمين فنقم النّاس ذلك عليه وأوسعوا مذهبه استهجانا وإنكارا وتلقّوا كتبه بالإغفال والتّرك حتّى إنّها ليحظر بيعها بالأسواق وربّما تمزّق في بعض الأحيان ولم يبق إلّا مذهب أهل الرّأي من العراق وأهل الحديث من الحجاز. فأمّا أهل العراق فإمامهم الّذي استقرّت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النّعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصا مالك والشّافعيّ وأمّا أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحيّ إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى واختصّ بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره وهو عمل أهل المدينة لأنّه رأى أنّهم فيما ينفسون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الآخذين ذلك عنه وصار ذلك عنده من أصول الأدلّة الشّرعيّة وظنّ كثير أنّ ذلك من مسائل الإجماع فأنكره لأنّ دليل الإجماع لا يخصّ أهل المدينة من سواهم بل هو شامل للأمّة. واعلم أنّ الإجماع إنّما هو الاتّفاق على الأمر الدّينيّ عن اجتهاد ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى وإنّما اعتبره من حيث اتّباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشّارع صلوات الله وسلامه عليه وضرورة اقتدائهم بعين ذلك يعمّ الملّة ذكرت في باب الإجماع والأبواب بها من حيث ما فيها من الاتّفاق الجامع بينها وبين الإجماع إلّا أنّ اتّفاق أهل الإجماع عن نظر واجتهاد في الأدلّة واتّفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين إلى مشاهدة من قبلهم ولو ذكرت المسألة في باب فعل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتقريره أو مع الأدلّة المختلف فيها مثل مذهب الصّحابيّ وشرع من قبلنا والاستصحاب لكان أليق ثمّ كان من بعد مالك بن أنس محمّد بن إدريس المطّلبيّ الشّافعيّ رحمهما الله تعالى رحل إلى العراق

من بعد مالك والتي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب وخالف مالكاً رحمه الله تعالى في كثير من مذهبه وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه الله وكان من علية المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والإعواز وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولم يبق إلا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم للفقه غير هذا ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية وللأخبار بعضها ببعض وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث وأما أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد العجم كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس فكثرت تآليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافيات وجاءوا منها بعلم مستظرف وأنظار غريبة وهي بين أيدي الناس وبالمغرب منها شيء قليل نقله إليه القاضي بن العربي وأبو الوليد الباجي في رحلتهما وأما الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر وقاسموا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الأمصار وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشحنت كتب الخلافيات بأنواع استدلالاتهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره وكان الإمام محمد بن أدريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر أخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم وأشهب وابن القاسم

وَٱبْنُ ٱلْمَوازِ وَغَيْرُهُم ثُمَّ ٱلْحَارِسُ بْنُ مِسْكِينٍ وَبَنُوهُ ثُمَّ ٱنْقَرَضَ فِقْهُ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ مِنْ مِصْرَ بِظُهُورِ دَوْلَةِ ٱلرَّافِضَةِ وَتَدَاوَلَ بِهَا فِقْهُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَتَلَاشَى مَنْ سِوَاهُمْ إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ دَوْلَةُ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ مِنَ ٱلرَّافِضَةِ عَلَى يَدِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ وَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فِقْهُ ٱلشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ وَٱلشَّامِ فَعَادَ إِلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ وَنَفَقَتْ سُوقُهُ وَٱشْتَهَرَ مِنْهُمْ مُحْيِي ٱلدِّينِ ٱلنَّوَوِيُّ مِنَ ٱلْحَلْبَةِ ٱلَّتِي رَبِيَتْ فِي ظِلِّ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأَيُّوبِيَّةِ بِٱلشَّامِ وَعِزُّ ٱلدِّينِ بْنُ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ أَيْضاً ثُمَّ ٱبْنُ ٱلرِّفْعَةِ بِمِصْرَ وَتَقِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ دَقِيقِ ٱلْعِيدِ ثُمَّ تَقِيُّ ٱلدِّينِ ٱلسُّبْكِيُّ بَعْدَهُمَا إِلَى أَنِ ٱنْتَهَى ذَٰلِكَ إِلَى شَيْخِ ٱلْإِسْلَامِ بِمِصْرَ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَهُوَ سِرَاجُ ٱلدِّينِ ٱلْبَلْقِينِيُّ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ أَكْبَرُ ٱلشَّافِعِيَّةِ بِمِصْرَ كَبِيرُ ٱلْعُلَمَاءِ بَلْ أَكْبَرُ ٱلْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعَصْرِ وَأَمَّا مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى فَٱخْتَصَّ بِمَذْهَبِهِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَإِنْ كَانَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُقَلِّدُوا غَيْرَهُ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ لِمَا أَنَّ رِحْلَتَهُمْ كَانَتْ غَالِباً إِلَى ٱلْحِجَازِ وَهُوَ مُنْتَهَى سَفَرِهِمْ وَٱلْمَدِينَةُ يَوْمَئِذٍ دَارُ ٱلْعِلْمِ وَمِنْهَا خَرَجَ إِلَى ٱلْعِرَاقِ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْعِرَاقُ فِي طَرِيقِهِمْ فَٱقْتَصَرُوا عَنِ ٱلْأَخْذِ عَنْ عُلَمَاءِ ٱلْمَدِينَةِ وَشَيْخُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَإِمَامُهُمْ مَالِكٌ وَشُيُوخُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَتِلْمِيذُهُ مِنْ بَعْدِهِ فَرَجَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَقَلَّدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِمْ طَرِيقَتُهُ وَأَيْضاً فَٱلْبَدَاوَةُ كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَكُونُوا يُعَانُونَ ٱلْحَضَارَةَ ٱلَّتِي لِأَهْلِ ٱلْعِرَاقِ فَكَانُوا إِلَى أَهْلِ ٱلْحِجَازِ أَمْيَلَ لِمُنَاسَبَةِ ٱلْبَدَاوَةِ وَلِهَٰذَا لَمْ يَزَلِ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْمَالِكِيُّ غَضّاً عِنْدَهُمْ وَلَمْ يَأْخُذْهُ تَنْقِيحُ ٱلْحَضَارَةِ وَتَهْذِيبُهَا كَمَا وَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْمَذَاهِبِ وَلَمَّا صَارَ مَذْهَبُ كُلِّ إِمَامٍ عِلْماً مَخْصُوصاً عِنْدَ أَهْلِ مَذْهَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى ٱلِٱجْتِهَادِ وَٱلْقِيَاسِ فَٱحْتَاجُوا إِلَى تَنْظِيرِ ٱلْمَسَائِلِ فِي ٱلْإِلْحَاقِ وَتَفْرِيقِهَا عِنْدَ ٱلِٱشْتِبَاهِ بَعْدَ ٱلِٱسْتِنَادِ إِلَى ٱلْأُصُولِ ٱلْمُقَرَّرَةِ مِنْ مَذَاهِبِ إِمَامِهِمْ وَصَارَ ذَٰلِكَ كُلُّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَلَكَةٍ رَاسِخَةٍ يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى ذَٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّنْظِيرِ أَوِ ٱلتَّفْرِقَةِ وَٱتِّبَاعِ مَذْهَبِ إِمَامِهِمْ فِيهِمَا مَا ٱسْتَطَاعُوا وَهَٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ هِيَ عِلْمُ ٱلْفِقْهِ لِهَٰذَا ٱلْعَهْدِ وَأَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ جَمِيعاً مُقَلِّدُونَ لِمَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللهُ وَقَدْ كَانَ تَلَامِيذُهُ ٱفْتَرَقُوا بِمِصْرَ وَٱلْعِرَاقِ فَكَانَ بِٱلْعِرَاقِ مِنْهُمُ ٱلْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَطَبَقَتُهُ مِثْلُ ٱبْنِ خُوَيْزِ مَنْدَادَ وَٱبْنِ ٱللَّبَّانِ وَٱلْقَاضِي وَأَبِي بَكْرٍ ٱلْأَبْهَرِيِّ وَٱلْقَاضِي أَبِي حُسَيْنِ بْنِ ٱلْقَصَّارِ وَٱلْقَاضِي عَبْدِ ٱلْوَهَّابِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَكَانَ

بمِصْرَ ٱبْنُ ٱلْقَاسِمِ وَأَشْهَبُ وَٱبْنُ عَبْدِ ٱلْحَكَمِ وَٱلْحَارِثُ بْنُ مِسْكِينٍ وَطَبَقَتُهُمْ وَرَحَلَ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ حَبِيبٍ فَأَخَذَ عَنِ ٱبْنِ ٱلْقَاسِمِ وَطَبَقَتِهِ وَبَثَّ مَذْهَبَ مَالِكٍ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ وَدَوَّنَ فِيهِ كِتَابَ ٱلْوَاضِحَةِ ثُمَّ دَوَّنَ ٱلْعُتْبِيُّ مِنْ تَلَامِذَتِهِ كِتَابَ ٱلْعُتْبِيَّةِ وَرَحَلَ مِنْ أَفْرِيقِيَّةَ أَسَدُ بْنُ ٱلْفُرَاتِ فَكَتَبَ عَنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ أَوَّلًا ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ وَكَتَبَ عَلَى ٱبْنِ ٱلْقَاسِمِ فِي سَائِرِ أَبْوَابِ ٱلْفِقْهِ وَجَاءَ إِلَى ٱلْقَيْرَوَانِ بِكِتَابِهِ وَسُمِّيَ ٱلْأَسَدِيَّةَ نِسْبَةً إِلَى أَسَدِ بْنِ ٱلْفُرَاتِ فَقَرَأَ بِهَا سُحْنُونُ عَلَى أَسَدٍ ثُمَّ ٱرْتَحَلَ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ وَلَقِيَ ٱبْنَ ٱلْقَاسِمِ وَأَخَذَ عَنْهُ وَعَارَضَهُ بِمَسَائِلِ ٱلْأَسَدِيَّةِ فَرَجَعَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا وَكَتَبَ سُحْنُونُ مَسَائِلَهَا وَدَوَّنَهَا وَأَثْبَتَ مَا رَجَعَ عَنْهُ وَكَتَبَ لِأَسَدٍ أَنْ يَأْخُذَ بِكِتَابِ سُحْنُونٍ فَأَنِفَ مِنْ ذَٰلِكَ فَتَرَكَ ٱلنَّاسُ كِتَابَهُ وَٱتَّبَعُوا مُدَوَّنَةَ سُحْنُونٍ عَلَى مَا كَانَ فِيهَا مِنِ ٱخْتِلَاطِ ٱلْمَسَائِلِ فِي ٱلْأَبْوَابِ فَكَانَتْ تُسَمَّى ٱلْمُدَوَّنَةَ وَٱلْمُخْتَلِطَةَ وَعَكَفَ أَهْلُ ٱلْقَيْرَوَانِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُدَوَّنَةِ وَأَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ عَلَى ٱلْوَاضِحَةِ وَٱلْعُتْبِيَّةِ ثُمَّ ٱخْتَصَرَ ٱبْنُ أَبِي زَيْدٍ ٱلْمُدَوَّنَةَ وَٱلْمُخْتَلِطَةَ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْمُخْتَصَرِ وَلَخَّصَهُ أَيْضًا أَبُو سَعِيدٍ ٱلْبَرَادِعِيُّ مِنْ فُقَهَاءِ ٱلْقَيْرَوَانِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلتَّهْذِيبِ وَٱعْتَمَدَهُ ٱلْمَشْيَخَةُ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ وَأَخَذُوا بِهِ وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ وَكَذٰلِكَ ٱعْتَمَدَ أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ كِتَابَ ٱلْعُتْبِيَّةِ وَهَجَرُوا ٱلْوَاضِحَةَ وَمَا سِوَاهَا وَلَمْ تَزَلْ عُلَمَاءُ ٱلْمَذْهَبِ يَتَعَاهَدُونَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّهَاتِ بِٱلشَّرْحِ وَٱلْإِيضَاحِ وَٱلْجَمْعِ فَكَتَبَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ عَلَى ٱلْمُدَوَّنَةِ مَا شَاءَ ٱللّٰهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ ٱبْنِ يُونُسَ وَٱللَّخْمِيِّ وَٱبْنِ مُحْرِزٍ ٱلتُّونِسِيِّ وَٱبْنِ بَشِيرٍ وَأَمْثَالِهِمْ وَكَتَبَ أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ عَلَى ٱلْعُتْبِيَّةِ مَا شَاءَ ٱللّٰهُ أَنْ يَكْتُبُوا مِثْلَ ٱبْنِ رُشْدٍ وَأَمْثَالِهِ وَجَمَعَ ٱبْنُ أَبِي زَيْدٍ جَمِيعَ مَا فِي ٱلْأُمَّهَاتِ مِنَ ٱلْمَسَائِلِ وَٱلْخِلَافِ وَٱلْأَقْوَالِ فِي كِتَابِ ٱلنَّوَادِرِ فَٱشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ أَقْوَالِ ٱلْمَذَاهِبِ وَفَرَّعَ ٱلْأُمَّهَاتِ كُلَّهَا فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ وَنَقَلَ ٱبْنُ يُونُسَ مُعْظَمَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى ٱلْمُدَوَّنَةِ وَزَخَرَتْ بِحَارُ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْمَالِكِيِّ فِي ٱلْأُفُقَيْنِ إِلَى ٱنْقِرَاضِ دَوْلَةِ قُرْطُبَةَ وَٱلْقَيْرَوَانِ ثُمَّ تَمَسَّكَ بِهِمَا أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ كِتَابُ أَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْحَاجِبِ لَخَّصَ فِيهِ طُرُقَ أَهْلِ ٱلْمَذْهَبِ فِي كُلِّ بَابٍ وَتَعْدِيدَ أَقْوَالِهِمْ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ فَجَاءَ كَٱلْبَرْنَامَجِ لِلْمَذْهَبِ وَكَانَتِ ٱلطَّرِيقَةُ ٱلْمَالِكِيَّةُ بَقِيَتْ فِي مِصْرَ مِنْ لَدُنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ مِسْكِينٍ وَٱبْنِ ٱلْمُبَشِّرِ وَٱبْنِ ٱللَّهِيثِ وَٱبْنِ ٱلرَّشِيقِ وَٱبْنِ شَاسٍ وَكَانَتْ بِٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي بَنِي عَوْفٍ

وَبَنِي سَنَدٍ وَٱبْنِ عَطَاءِ ٱللهِ وَلَمْ أَدْرِ عَمَّنْ أَخَذَهَا أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْحَاجِبِ لَكِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ دَوْلَةِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ وَذَهَابِ فِقْهِ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَظُهُورِ فُقَهَاءِ ٱلسُّنَّةِ مِنَ ٱلشَّافِعِيَّةِ وَٱلْمَالِكِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ كِتَابُهُ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ آخِرَ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ عَكَفَ عَلَيْهِ ٱلْكَثِيرُ مِنْ طَلَبَةِ ٱلْمَغْرِبِ وَخُصُوصاً أَهْلُ بِجَايَةَ لِمَا كَانَ كَبِيرُ مَشْيَخَتِهِمْ أَبُو عَلِيٍّ نَاصِرُ ٱلدِّينِ ٱلزَّوَاوِيُّ هُوَ ٱلَّذِي جَلَبَهُ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ كَانَ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ بِمِصْرَ وَنَسَخَ مُخْتَصَرَهُ ذَلِكَ فَجَاءَ بِهِ وَٱنْتَشَرَ بِقُطْرِ بِجَايَةَ فِي تِلْمِيذِهِ وَمِنْهُمُ ٱنْتَقَلَ إِلَى سَائِرِ ٱلْأَمْصَارِ ٱلْمَغْرِبِيَّةِ وَطَلَبَةِ ٱلْفِقْهِ بِٱلْمَغْرِبِ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ يَتَدَاوَلُونَ قِرَاءَتَهُ وَيَتَدَارَسُونَهُ لِمَا يُؤْثَرُ عَنِ ٱلشَّيْخِ نَاصِرِ ٱلدِّينِ مِنَ ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ وَقَدْ شَرَحَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ كَٱبْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ وَٱبْنِ رُشْدٍ وَٱبْنِ هَارُونَ وَكُلُّهُمْ مِنْ مَشْيَخَةِ أَهْلِ تُونِسَ وَسَابِقُ حَلْبَتِهِمْ فِي ٱلْإِجَادَةِ فِي ذَلِكَ ٱبْنُ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَعَاهَدُونَ كِتَابَ ٱلتَّهْذِيبِ فِي دُرُوسِهِمْ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

الفصل الثامن

في علم الفرائض

وَهُوَ مَعْرِفَةُ فُرُوضِ ٱلْوِرَاثَةِ وَتَصْحِيحِ سِهَامِ ٱلْفَرِيضَةِ مِمَّا تَصِحُّ بِٱعْتِبَارِ فُرُوضِهَا ٱلْأُصُولُ أَوْ مُنَاسَخَتُهَا وَذَلِكَ إِذَا هَلَكَ أَحَدُ ٱلْوَرَثَةِ وَٱنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى فُرُوضِ وَرَثَتِهِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَى حِسَبِ تَصْحِيحِ ٱلْفَرِيضَةِ ٱلْأُولَى حَتَّى يَصِلَ أَهْلُ ٱلْفُرُوضِ جَمِيعاً فِي ٱلْفَرِيضَتَيْنِ إِلَى فُرُوضِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجْزِئَةٍ وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ ٱلْمُنَاسَخَاتُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ وَٱثْنَيْنِ وَتَتَعَدَّدُ لِذَلِكَ بِعَدَدٍ أَكْثَرَ وَبِقَدَرِ مَا تَحْتَاجُ إِلَى ٱلْحُسْبَانِ وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَتْ فَرِيضَةٌ ذَاتُ وَجْهَيْنِ مِثْلَ أَنْ يُقِرَّ بَعْضُ ٱلْوَرَثَةِ بِوَارِثٍ وَيُنْكِرَهُ ٱلْآخَرُ فَتُصَحَّحُ عَلَى ٱلْوَجْهَيْنِ حِينَئِذٍ وَيُنْظَرُ مَبْلَغُ ٱلسِّهَامِ ثُمَّ تُقْسَمُ ٱلتَّرِكَةُ عَلَى نِسَبِ سِهَامِ ٱلْوَرَثَةِ مِنْ أَصْلِ ٱلْفَرِيضَةِ وَكُلُّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْحُسْبَانِ وَكَانَ غَالِباً فِيهِ وَجَعَلُوهُ فَنّاً مُفْرَداً وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ أَشْهَرُ مَا عِنْدَ ٱلْمَالِكِيَّةِ مِنْ مُتَأَخِّرِي ٱلْأَنْدَلُسِ كِتَابُ ٱبْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ ٱلْقَاضِي أَبِي ٱلْقَاسِمِ ٱلْحَوْفِيِّ ثُمَّ ٱلْجَعْدِيِّ وَمِنْ مُتَأَخِّرِي أَفْرِيقِيَّةَ ٱبْنُ ٱلنَّمِرِ ٱلطَّرَابُلُسِيُّ وَأَمْثَالُهُمْ وَأَمَّا ٱلشَّافِعِيَّةُ وَٱلْحَنَفِيَّةُ وَٱلْحَنَابِلَةُ فَلَهُمْ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ وَأَعْمَالٌ عَظِيمَةٌ صَعْبَةٌ شَاهِدَةٌ لَهُمْ بِٱتِّسَاعِ ٱلْبَاعِ فِي ٱلْفِقْهِ وَٱلْحِسَابِ

وَخُصُوصاً أَبَا ٱلمَعَالِي رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَهْلِ ٱلمَذَاهِبِ وَهُوَ فَنٌّ شَرِيفٌ لِجَمْعِهِ بَيْنَ ٱلمَعْقُولِ وَٱلمَنْقُولِ وَٱلوُصُولِ بِهِ إِلَى ٱلحُقُوقِ فِي ٱلوِرَاثَاتِ بِوُجُوهٍ صَحِيحَةٍ يَقِينِيَّةٍ عِنْدَمَا تُجْهَلُ ٱلحُظُوظُ وَتُشْكِلُ عَلَى ٱلقَاسِمِينَ وَلِلْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ ٱلأَمْصَارِ بِهَا عِنَايَةٌ وَمِنَ ٱلمُصَنِّفِينَ مَنْ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى ٱلغُلُوِّ فِي ٱلحِسَابِ وَفَرْضِ ٱلمَسَائِلِ ٱلَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلمَجْهُولَاتِ مِنْ فُنُونِ ٱلحِسَابِ كَٱلجَبْرِ وَٱلمُقَابَلَةِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي ٱلجُذُورِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ فَيَمْلَأُونَ بِهَا تَآلِيفَهُمْ وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَدَاوَلاً بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُفِيدُ فِيمَا يَتَدَاوَلُونَهُ مِنْ وِرَاثَتِهِمْ لِغَرَابَتِهِ وَقِلَّةِ وُقُوعِهِ فَهُوَ يُفِيدُ ٱلمِرَانَ وَتَحْصِيلَ ٱلمَلَكَةِ فِي ٱلمُتَدَاوَلِ عَلَى أَكْمَلِ ٱلوُجُوهِ وَقَدْ يَحْتَجُّ ٱلأَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلفَنِّ عَلَى فَضْلِهِ بِٱلحَدِيثِ ٱلمَنْقُولِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ أَنَّ ٱلفَرَائِضَ ثُلُثُ ٱلعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُنْسَى وَفِي رِوَايَةٍ نِصْفُ ٱلعِلْمِ خَرَّجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ ٱلحَافِظُ وَٱحْتَجَّ بِهِ أَهْلُ ٱلفَرَائِضِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ ٱلمُرَادَ بِٱلفَرَائِضِ فُرُوضُ ٱلوِرَاثَةِ وَٱلَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ هٰذَا ٱلمَحْمَلَ بَعِيدٌ وَأَنَّ ٱلمُرَادَ بِٱلفَرَائِضِ إِنَّمَا هِيَ ٱلفَرَائِضُ ٱلتَّكْلِيفِيَّةُ فِي ٱلعِبَادَاتِ وَٱلعَادَاتِ وَٱلمَوَارِيثِ وَغَيْرِهَا وَبِهٰذَا ٱلمَعْنَى يَصِحُّ فِيهَا ٱلنِّصْفِيَّةُ وَٱلثُّلُثِيَّةُ وَأَمَّا فُرُوضُ ٱلوِرَاثَةِ فَهِيَ أَقَلُّ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِ ٱلشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَيُعَيِّنُ هٰذَا ٱلمُرَادَ أَنَّ حَمْلَ لَفْظِ ٱلفَرَائِضِ عَلَى هٰذَا ٱلفَنِّ ٱلمَخْصُوصِ أَوْ تَخْصِيصِهِ بِفُرُوضِ ٱلوِرَاثَةِ إِنَّمَا هُوَ ٱصْطِلَاحٌ نَاشِئٌ لِلْفُقَهَاءِ عِنْدَ حُدُوثِ ٱلفُنُونِ وَٱلِٱصْطِلَاحَاتِ وَلَمْ يَكُنْ صَدْرُ ٱلإِسْلَامِ يُطْلَقُ عَلَى هٰذَا إِلَّا عَلَى عُمُومِهِ مُشْتَقّاً مِنَ ٱلفَرْضِ ٱلَّذِي هُوَ لُغَةً ٱلتَّقْدِيرُ أَوِ ٱلقَطْعُ وَمَا كَانَ ٱلمُرَادُ بِهِ فِي إِطْلَاقِهِ إِلَّا جَمِيعَ ٱلفُرُوضِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهِيَ حَقِيقَتُهُ ٱلشَّرْعِيَّةُ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى مَا كَانَ يُحْمَلُ فِي عَصْرِهِمْ فَهُوَ أَلْيَقُ بِمُرَادِهِمْ مِنْهُ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل التاسع

في اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

إِعْلَمْ أَنَّ أُصُولَ ٱلفِقْهِ مِنْ أَعْظَمِ ٱلعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَأَجَلِّهَا قَدْراً وَأَكْثَرِهَا فَائِدَةً وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ تُؤْخَذُ مِنْهَا ٱلأَحْكَامُ وَٱلتَّآلِيفُ وَأُصُولُ ٱلأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ هِيَ ٱلكِتَابُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلقُرْآنُ ثُمَّ ٱلسُّنَّةُ ٱلمُبَيِّنَةُ لَهُ فَعَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتِ ٱلأَحْكَامُ تُتَلَقَّى مِنْهُ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ ٱلقُرْآنِ وَيُبَيِّنُهُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ

بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إلينا منها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الاجماع منزلتهما لإجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم ولا يكون ذلك إلا عن مستند لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة فصار الاجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منهما ويناظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فإن كثيراً من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس إلا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الأربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها لضعف مداركها وشذوذ القول فيها فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة فأما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في متنه والتواتر في نقله فلم يبق فيه مجال للاحتمال وأما السنة وما نقل إلينا منها فالإجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من إنفاذ الكتب والرسل إلى النواحي بالأحكام والشرائع آمراً وناهياً وأما الإجماع فلاتفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على إنكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للأمة وأما القياس فبإجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمناه هذه أصول الأدلة ثم إن المنقول من السنة محتاج إلى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه الذي هو مناط وجوب العمل وهذه أيضاً من قواعد الفن ويلحق بذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما

معرِفَةُ ٱلنَّاسِخِ وَٱلْمَنْسُوخِ وَهِيَ مِنْ فُصُولِهِ أَيضاً وَأَبْوَابِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ يَتَعَيَّنُ ٱلنَّظَرُ فِي دَلالَةِ ٱلأَلْفَاظِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱسْتِفَادَةَ ٱلْمَعَانِي عَلى ٱلإِطْلاقِ مِنْ تَرَاكِيبِ ٱلْكَلامِ عَلى ٱلإِطْلاقِ يَتَوَقَّفُ عَلى مَعرِفَةِ ٱلدَّلالاتِ ٱلْوَضْعِيَّةِ مُفْرَدَةً وَمُرَكَّبَةً وَٱلْقَوَانِينِ ٱللِّسَانِيَّةُ فِي ذٰلِكَ هِيَ عُلُومُ ٱلنَّحْوِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْبَيَانِ وَحِينَ كَانَ ٱلْكَلامُ مَلَكَةً لأَهْلِهِ لَمْ تَكُنْ هٰذِهِ عُلوماً وَلا قَوَانِينَ وَلَمْ يَكُنِ ٱلْفِقْهُ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لأَنَّهَا جِبِلَّةٌ وَمَلَكَةٌ فَلَمَّا فَسَدَتِ ٱلْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ قَيَّدَهَا ٱلْجَهَابِذَةُ ٱلْمُتَجَرِّدُونَ لِذٰلِكَ بِنَقْلٍ صَحِيحٍ وَمَقَايِيسَ مُسْتَنْبَطَةٍ صَحِيحَةٍ وَصَارَتْ عُلُوماً يَحْتَاجُ إِلَيْهَا ٱلْفَقِيهُ فِي مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ ٱللهِ تَعَالى ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ ٱسْتِفَادَاتٍ أُخْرَى خَاصَّةً مِنْ تَرَاكِيبِ ٱلْكَلامِ وَهِيَ ٱسْتِفَادَةُ ٱلأَحْكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي مِنْ أَدِلَّتِهَا ٱلْخَاصَّةِ مِنْ تَرَاكِيبِ ٱلْكَلامِ وَهُوَ ٱلْفِقْهُ وَلا يَكْفِي فِيهِ مَعْرِفَةُ ٱلدَّلالاتِ ٱلْوَضْعِيَّةِ عَلى ٱلإِطْلاقِ بَلْ لا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أُمُورٍ أُخْرَى تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تِلْكَ ٱلدَّلالاتُ ٱلْخَاصَّةُ وَبِهَا تُسْتَفَادُ ٱلأَحْكَامُ بِحَسَبِ مَا أَصَّلَ أَهْلُ ٱلشَّرْعِ وَجَهَابِذَةُ ٱلْعِلْمِ مِنْ ذٰلِكَ وَجَعَلُوهُ قَوَانِينَ لِهٰذِهِ ٱلإِسْتِفَادَةِ مِثْلَ أَنَّ ٱللُّغَةَ لا تَثْبُتُ قِيَاساً وَٱلْمُشْتَرَكَ لا يُرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ مَعاً وَٱلْوَاوَ لا تَقْتَضِي ٱلتَّرْتِيبَ وَٱلْعَامَّ إِذَا أُخْرِجَتْ أَفْرَادُ ٱلْخَاصِّ مِنْهُ هَلْ يَبْقَى حُجَّةً فِيمَا عَدَاهَا وَٱلأَمْرَ لِلْوُجُوبِ أَوِ ٱلنَّدْبِ وَلِلْفَوْرِ أَوِ ٱلتَّرَاخِي وَٱلنَّهْيِ يَقْتَضِي ٱلْفَسَادَ أَوِ ٱلصِّحَّةَ وَٱلْمُطْلَقَ هَلْ يُحْمَلُ عَلى ٱلْمُقَيَّدِ وَٱلنَّصِّ عَلى ٱلْعِلَّةِ كَافٍ فِي ٱلتَّعَدُّدِ أَمْ لا وَأَمْثَالُ هٰذِهِ فَكَانَتْ كُلُّهَا مِنْ قَوَاعِدِ هٰذَا ٱلْفَنِّ وَلِكَوْنِهَا مِنْ مَبَاحِثِ ٱلدَّلالَةِ كَانَتْ لُغَوِيَّةً ثُمَّ إِنَّ ٱلنَّظَرَ فِي ٱلْقِيَاسِ مِنْ أَعْظَمِ قَوَاعِدِ هٰذَا ٱلْفَنِّ لأَنَّ فِيهِ تَحْقِيقَ ٱلأَصْلِ وَٱلْفَرْعِ فِيمَا يُقَاسُ وَيُمَاثَلُ مِنَ ٱلأَحْكَامِ وَيَنْقَدِحُ ٱلْوَصْفُ ٱلَّذِي يَغْلِبُ عَلى ٱلظَّنِّ أَنَّ ٱلْحُكْمَ عُلِّقَ بِهِ فِي ٱلأَصْلِ مِنْ تَبَيُّنِ أَوْصَافِ ٱلْمَحَلِّ أَوْ وُجُودِ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ وَٱلْفَرْعِ مِنْ مُعَارِضٍ يَمْنَعُ مِنْ تَرْتِيبِ ٱلْحُكْمِ عَلَيْهِ فِي مَسَائِلَ أُخْرَى مِنْ تَوَابِعِ ذٰلِكَ كُلُّهَا قَوَاعِدُ لِهٰذَا ٱلْفَنِّ . (واعلم) أَنَّ هٰذا ٱلْفَنَّ مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسْتَحْدَثَةِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَكَانَ ٱلسَّلَفُ فِي غُنْيَةٍ عَنْهُ بِمَا أَنَّ ٱسْتِفَادَةَ ٱلْمَعَانِي مِنَ ٱلأَلْفَاظِ لا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلى أَزْيَدَ مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ ٱلْمَلَكَةِ ٱللِّسَانِيَّةِ وَأَمَّا ٱلْقَوَانِينُ ٱلَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي ٱسْتِفَادَةِ ٱلأَحْكَامِ خُصُوصاً فَمِنْهُمْ أُخِذَ مُعْظَمُهَا وَأَمَّا ٱلأَسَانِيدُ فَلَمْ يَكُونُوا يَحْتَاجُونَ إِلى ٱلنَّظَرِ فِيهَا لِقُرْبِ ٱلْعَصْرِ وَمُمَارَسَةِ ٱلنَّقَلَةِ وَخِبْرَتِهِمْ بِهِمْ فَلَمَّا ٱنْقَرَضَ ٱلسَّلَفُ وَذَهَبَ

لصَدْرُ الأَوَّلُ وَانْقَلَبَتِ العُلُومُ كُلُّهَا صِنَاعَةً كَمَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ احْتَاجَ الفُقَهَاءُ وَالمُجْتَهِدُونَ لَى تَحْصِيلِ هٰذِهِ القَوَانِينِ وَالقَوَاعِدِ لِاسْتِفَادَةِ الأَحْكَامِ مِنَ الأَدِلَّةِ فَكَتَبُوهَا فَنًّا قَائِماً بِرَأْسِهِ سَمَّوْهُ أُصُولَ الفِقْهِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ فِيهِ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أَمْلَى فِيهِ رِسَالَتَهُ المَشْهُورَةَ تَكَلَّمَ فِيهَا فِي الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالبَيَانِ وَالخَبَرِ وَالنَّسْخِ وَحُكْمِ العِلَّةِ المَنْصُوصَةِ مِنَ القِيَاسِ ثُمَّ كَتَبَ فُقَهَاءُ الحَنَفِيَّةِ فِيهِ وَحَقَّقُوا تِلْكَ القَوَاعِدَ وَأَوْسَعُوا القَوْلَ فِيهَا وَكَتَبَ المُتَكَلِّمُونَ أَيْضاً كَذٰلِكَ إِلَّا أَنَّ كِتَابَةَ الفُقَهَاءِ فِيهَا أَمَسُّ بِالفِقْهِ وَأَلْيَقُ بِالفُرُوعِ لِكَثْرَةِ الأَمْثِلَةِ مِنْهَا وَالشَّوَاهِدِ وَبِنَاءِ المَسَائِلِ فِيهَا عَلَى النُّكَتِ الفِقْهِيَّةِ وَالمُتَكَلِّمُونَ يُجَرِّدُونَ صُوَرَ تِلْكَ المَسَائِلِ عَلَى الفِقْهِ وَيَمِيلُونَ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ العَقْلِيِّ مَا أَمْكَنَ لِأَنَّهُ غَالِبُ فُنُونِهِمْ وَمُقْتَضَى طَرِيقَتِهِمْ فَكَانَ لِفُقَهَاءِ الحَنَفِيَّةِ فِيهَا اليَدُ الطُّولَى مِنَ الغَوْصِ عَلَى النُّكَتِ الفِقْهِيَّةِ وَالتِقَاطِ هٰذِهِ القَوَانِينِ مِنْ مَسَائِلِ الفِقْهِ مَا أَمْكَنَ وَجَاءَ أَبُو زَيْدٍ الدَّبُوسِيُّ مِنْ أَئِمَّتِهِمْ فَكَتَبَ فِي القِيَاسِ بِأَوْسَعَ مِنْ جَمِيعِهِمْ وَتَمَّمَ الأَبْحَاثَ وَالشُّرُوطَ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِيهِ وَكَمُلَتْ صِنَاعَةُ أُصُولِ الفِقْهِ بِكَمَالِهِ وَتَهَذَّبَتْ مَسَائِلُهُ وَتَمَهَّدَتْ قَوَاعِدُهُ وَعُنِيَ النَّاسُ بِطَرِيقَةِ المُتَكَلِّمِينَ فِيهِ وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ مَا كَتَبَ فِيهِ المُتَكَلِّمُونَ كِتَابُ البُرْهَانِ لِإِمَامِ الحَرَمَيْنِ وَالمُسْتَصْفَى لِلغَزَالِيِّ وَهُمَا مِنَ الأَشْعَرِيَّةِ وَكِتَابُ العَهْدِ لِعَبْدِ الجَبَّارِ وَشَرْحُهُ المُعْتَمَدُ لِأَبِي الحُسَيْنِ البَصْرِيِّ وَهُمَا مِنَ المُعْتَزِلَةِ وَكَانَتِ الأَرْبَعَةُ قَوَاعِدَ هٰذَا الفَنِّ وَأَرْكَانَهُ ثُمَّ لَخَّصَ هٰذِهِ الكُتُبَ الأَرْبَعَةَ فَحْلَانِ مِنَ المُتَكَلِّمِينَ المُتَأَخِّرِينَ وَهُمَا الإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ بْنُ الخَطِيبِ فِي كِتَابِ المَحْصُولِ وَسَيْفُ الدِّينِ الآمِدِيُّ فِي كِتَابِ الأَحْكَامِ وَاخْتَلَفَتْ طَرَائِقُهُمَا فِي الفَنِّ بَيْنَ التَّحْقِيقِ وَالحِجَاجِ فَابْنُ الخَطِيبِ أَمْيَلُ إِلَى الِاسْتِكْثَارِ مِنَ الأَدِلَّةِ وَالِاحْتِجَاجِ وَالآمِدِيُّ مُولَعٌ بِتَحْقِيقِ المَذَاهِبِ وَتَفْرِيعِ المَسَائِلِ وَأَمَّا كِتَابُ المَحْصُولِ فَاخْتَصَرَهُ تِلْمِيذُ الإِمَامِ سِرَاجُ الدِّينِ الأُرْمَوِيُّ فِي كِتَابِ التَّحْصِيلِ وَتَاجُ الدِّينِ الأُرْمَوِيُّ فِي كِتَابِ الحَاصِلِ وَاقْتَطَفَ شِهَابُ الدِّينِ القَرَافِيُّ مِنْهُمَا مُقَدِّمَاتٍ وَقَوَاعِدَ فِي كِتَابٍ صَغِيرٍ سَمَّاهُ التَّنْقِيحَاتِ وَكَذٰلِكَ فَعَلَ البَيْضَاوِيُّ فِي كِتَابِ المِنْهَاجِ وَعُنِيَ المُبْتَدِئُونَ بِهٰذَيْنِ الكِتَابَيْنِ وَشَرَحَهُمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَأَمَّا كِتَابُ الإِحْكَامِ لِلآمِدِيِّ وَهُوَ أَكْثَرُ تَحْقِيقاً فِي المَسَائِلِ فَلَخَّصَهُ أَبُو عَمْرِو بْنُ الحَاجِبِ فِي كِتَابِهِ

ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلْمُخْتَصَرِ ٱلْكَبِيرِ ثُمَّ ٱخْتَصَرَهُ فِي كِتَابٍ آخَرَ تَدَاوَلَهُ طَلَبَةُ ٱلْعِلْمِ وَعُنِيَ أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ بِهِ وَبِمُطَالَعَتِهِ وَشَرْحِهِ وَحَصَلَتْ زُبْدَةُ طَرِيقَةِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فِي هٰذَا ٱلْفَنِّ فِي هٰذِهِ ٱلْمُخْتَصَرَاتِ . وَأَمَّا طَرِيقَةُ ٱلْحَنَفِيَّةِ فَكَتَبُوا فِيهَا كَثِيراً وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ كِتَابَةٍ فِيهَا لِلْمُتَقَدِّمِينَ تَأْلِيفُ أَبِي زَيْدٍ ٱلدَّبُوسِيِّ وَأَحْسَنِ كِتَابَةِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِيهَا تَأْلِيفُ سَيْفِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْبَزْدَوِي مِنْ أَئِمَّتِهِمْ وَهُوَ مُسْتَوْعِبٌ وَجَاءَ ٱبْنُ ٱلسَّاعَاتِي مِنْ فُقَهَاءِ ٱلْحَنَفِيَّةِ فَجَمَعَ بَيْنَ كِتَابِ ٱلْإِحْكَامِ وَكِتَابِ ٱلْبَزْدَوِيِّ فِي ٱلطَّرِيقَتَيْنِ وَسُمِّيَ كِتَابُهُ بِٱلْبَدَائِعِ فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْأَوْضَاعِ وَأَبْدَعِهَا وَأَئِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ يَتَدَاوَلُونَهُ قِرَاءَةً وَبَحْثاً وَأُولِعَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْعَجَمِ بِشَرْحِهِ وَٱلْحَالُ عَلَى ذٰلِكَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ هٰذِهِ حَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْفَنِّ وَتَعْيِينُ مَوْضُوعَاتِهِ وَتَعْدِيدُ ٱلتَّآلِيفِ ٱلْمَشْهُورَةِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ فِيهِ وَٱللّٰهُ يَنْفَعُنَا بِٱلْعِلْمِ وَيَجْعَلُنَا مِنْ أَهْلِهِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(وأما الخلافات) فَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلْفِقْهَ ٱلْمُسْتَنْبَطَ مِنَ ٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ كَثُرَ فِيهِ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ ٱلْمُجْتَهِدِينَ بِٱخْتِلَافِ مَدَارِكِهِمْ وَأَنْظَارِهِمْ خِلَافاً لَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِهِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ وَٱتَّسَعَ ذٰلِكَ فِي ٱلْمِلَّةِ ٱتِّسَاعاً عَظِيماً وَكَانَ لِلْمُقَلِّدِينَ أَنْ يُقَلِّدُوا مَنْ شَاءُوا مِنْهُمْ ثُمَّ لَمَّا ٱنْتَهَى ذٰلِكَ إِلَى ٱلْأَئِمَّةِ ٱلْأَرْبَعَةِ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأَمْصَارِ وَكَانُوا بِمَكَانٍ مِنْ حُسْنِ ٱلظَّنِّ بِهِمِ ٱقْتَصَرَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْلِيدِهِمْ وَمَنَعُوا مِنْ تَقْلِيدِ سِوَاهُمْ لِذَهَابِ ٱلْاجْتِهَادِ لِصُعُوبَتِهِ وَتَشَعُّبِ ٱلْعُلُومِ ٱلَّتِي هِيَ مَوَادُّهُ بِٱتِّصَالِ ٱلزَّمَانِ وَٱفْتِقَادِ مَنْ يَقُومُ عَلَى سِوَى هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْأَرْبَعَةِ فَأُقِيمَتْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبُ ٱلْأَرْبَعَةُ أُصُولَ ٱلْمِلَّةِ وَأُجْرِيَ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ ٱلْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا وَٱلْآخِذِينَ بِأَحْكَامِهَا مَجْرَى ٱلْخِلَافِ فِي ٱلنُّصُوصِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَٱلْأُصُولِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَجَرَتْ بَيْنَهُمُ ٱلْمُنَاظَرَاتُ فِي تَصْحِيحِ كُلٍّ مِنْهُمْ مَذْهَبَ إِمَامِهِ تَجْرِي عَلَى أُصُولٍ صَحِيحَةٍ وَطَرَائِقَ قَوِيمَةٍ يَحْتَجُّ بِهَا كُلٌّ عَلَى مَذْهَبِهِ ٱلَّذِي قَلَّدَهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ وَأُجْرِيَتْ فِي مَسَائِلِ ٱلشَّرِيعَةِ كُلِّهَا وَفِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْفِقْهِ فَتَارَةً يَكُونُ ٱلْخِلَافُ بَيْنَ ٱلشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَبُو حَنِيفَةَ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَٱلشَّافِعِي يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَتَارَةً بَيْنَ ٱلشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ يُوَافِقُ أَحَدَهُمَا وَكَانَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُنَاظَرَاتِ بَيَانُ مَآخِذِ هٰؤُلَاءِ ٱلْأَئِمَّةِ وَمَثَارَاتُ ٱخْتِلَافِهِمْ وَمَوَاقِعُ ٱجْتِهَادِهِمْ كَانَ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلْعِلْمِ يُسَمَّى بِٱلْخِلَافِيَّاتِ وَلَا بُدَّ لِصَاحِبِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا

إلى ٱسْتِنْبَاطِ ٱلأَحْكَامِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا ٱلْمُجْتَهِدُ إِلَّا أَنَّ ٱلْمُجْتَهِدَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِلٱسْتِنْبَاطِ وَصَاحِبَ ٱلْخِلَافِيَّاتِ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِحِفْظِ تِلْكَ ٱلْمَسَائِلِ ٱلْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْ أَنْ يَهْدِمَهَا ٱلْمُخَالِفُ بِأَدِلَّتِهِ وَهُوَ لَعَمْرِي عِلْمٌ جَلِيلُ ٱلْفَائِدَةِ فِي مَعْرِفَةِ مَآخِذِ ٱلْأَئِمَّةِ وَأَدِلَّتِهِمْ وَمِرَانِ ٱلْمُطَالِعِينَ لَهُ عَلَى ٱلِٱسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ وَتَآلِيفُ ٱلْحَنَفِيَّةِ وَٱلشَّافِعِيَّةِ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ تَآلِيفِ ٱلْمَالِكِيَّةِ لِأَنَّ ٱلْقِيَاسَ عِنْدَ ٱلْحَنَفِيَّةِ أَصْلٌ لِلْكَثِيرِ مِنْ فُرُوعِ مَذْهَبِهِمْ كَمَا عَرَفْتَ فَهُمْ لِذَلِكَ أَهْلُ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَحْثِ وَأَمَّا ٱلْمَالِكِيَّةُ فَٱلأَثَرُ أَكْثَرُ مُعْتَمَدِهِمْ وَلَيْسُوا بِأَهْلِ نَظَرٍ وَأَيْضاً فَأَكْثَرُهُمْ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ وَهُمْ بَادِيَةٌ غُفْلٌ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ وَلِلْغَزَالِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى فِيهِ كِتَابُ ٱلْمَآخِذِ وَلِأَبِي زَيْدٍ ٱلدَّبُوسِيِّ كِتَابُ ٱلتَّعْلِيقَةِ وَلِٱبْنِ ٱلْقَصَّارِ مِنْ شُيُوخِ ٱلْمَالِكِيَّةِ عُيُونُ ٱلْأَدِلَّةِ وَقَدْ جَمَعَ ٱبْنُ ٱلسَّاعَاتِيِّ فِي مُخْتَصَرِهِ فِي أُصُولِ ٱلْفِقْهِ جَمِيعَ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا مِنَ ٱلْفِقْهِ ٱلْخِلَافِيِّ مُدْرِجاً فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا مِنَ ٱلْخِلَافِيَّاتِ

(واما الجدال) وَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ ٱلْمُنَاظَرَةِ فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ مُتَّسِعاً وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُتَنَاظِرَيْنِ فِي ٱلِٱسْتِدْلَالِ وَٱلْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي ٱلِٱحْتِجَاجِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَاباً وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَٱحْتَاجَ ٱلْأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَاباً وَأَحْكَاماً يَقِفُ ٱلْمُتَنَاظِرَانِ عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصاً مُنْقَطِعاً وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ أَوْ مُعَارَضَتِهِ وَأَيْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِٱسْتِدْلَالُ وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلْقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِٱسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلْفِقْهِ أَوْ غَيْرِهِ وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلْبَزْدَوِيِّ وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْإِجْمَاعِ وَٱلِٱسْتِدْلَالِ وَطَرِيقَةُ ٱلْعَمِيدِيِّ وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ أَيِّ عِلْمٍ كَانَ وَأَكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا ٱعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ أَشْبَهَ بِٱلْقِيَاسِ ٱلْمُغَالِطِيِّ وَٱلسُّوفَسْطَائِيِّ إِلَّا أَنَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ وَٱلْأَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِٱسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهَذَا ٱلْعَمِيدِيُّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْإِرْشَادِ مُخْتَصَراً وَتَبِعَهُ مَنْ بَعْدَهُ

مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ كَالنَّسَفِيِّ وَغَيْرِهِ جَاءُوا عَلَى أَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهَذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَمَالِيَّةٌ وَلَيْسَتْ ضَرُورِيَّةً وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل العاشر

في علم الكلام

هُوَ عِلْمٌ يَتَضَمَّنُ ٱلْحِجَاجَ عَنِ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلرَّدِّ عَلَى ٱلْمُبْتَدِعَةِ ٱلْمُنْحَرِفِينَ فِي ٱلِاعْتِقَادَاتِ عَنْ مَذَاهِبِ ٱلسَّلَفِ وَأَهْلِ ٱلسُّنَّةِ وَسِرُّ هَذِهِ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ هُوَ ٱلتَّوْحِيدُ فَلْنُقَدِّمْ هُنَا لَطِيفَةً فِي بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ يَكْشِفُ لَنَا عَنِ ٱلتَّوْحِيدِ عَلَى أَقْرَبِ ٱلطُّرُقِ وَٱلْمَآخِذِ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَحْقِيقِ عِلْمِهِ وَفِيمَا يَنْظُرُ وَيُشِيرُ إِلَى حُدُوثِهِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَمَا دَعَا إِلَى وَضْعِهِ فَنَقُولُ إِنَّ ٱلْحَوَادِثَ فِي عَالَمِ ٱلْكَائِنَاتِ سِوَاءٌ كَانَتْ مِنَ ٱلذَّوَاتِ أَوْ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْبَشَرِيَّةِ أَوِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَسْبَابٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَيْهَا بِهَا تَقَعُ فِي مُسْتَقَرِّ ٱلْعَادَةِ وَعَنْهَا يَتِمُّ كَوْنُهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ ٱلْأَسْبَابِ حَادِثٌ أَيْضاً فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَسْبَابٍ أُخَرَ وَلَا تَزَالُ تِلْكَ ٱلْأَسْبَابُ مُرْتَقِيَةً حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسَبِّبِ ٱلْأَسْبَابِ وَمُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَتِلْكَ ٱلْأَسْبَابُ فِي ٱرْتِقَائِهَا تَتَفَسَّحُ وَتَتَضَاعَفُ طُولاً وَعَرْضاً وَيَحَارُ ٱلْعَقْلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا فَإِذاً لَا يَحْصُرُهَا إِلَّا ٱلْعِلْمُ ٱلْمُحِيطُ سِيَّمَا ٱلْأَفْعَالُ ٱلْبَشَرِيَّةُ وَٱلْحَيَوَانِيَّةُ فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي ٱلشَّاهِدِ ٱلْقُصُودُ وَٱلْإِرَادَاتُ إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ ٱلْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَٱلْقَصْدِ إِلَيْهِ وَٱلْقُصُودُ وَٱلْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ نَاشِئَةٌ فِي ٱلْغَالِبِ عَنْ تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضاً وَتِلْكَ ٱلتَّصَوُّرَاتُ هِيَ أَسْبَابُ قَصْدِ ٱلْفِعْلِ وَقَدْ تَكُونُ أَسْبَابُ تِلْكَ ٱلتَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلتَّصَوُّرَاتِ مَجْهُولٌ سَبَبُهُ إِذْ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِىءِ ٱلْأُمُورِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى تَرْتِيبِهَا إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءُ يُلْقِيهَا ٱللَّهُ فِي ٱلْفِكْرِ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَٱلْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنْ مَعْرِفَةِ مَبَادِيهَا وَغَايَاتِهَا وَإِنَّمَا يُحِيطُ عِلْماً فِي ٱلْغَالِبِ بِٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ وَيَقَعُ فِي مَدَارِكِهَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ لِأَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ مَحْصُورَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَحْتَ طَوْرِهَا وَأَمَّا ٱلتَّصَوُّرَاتُ فَنِطَاقُهَا أَوْسَعُ مِنَ ٱلنَّفْسِ لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ ٱلَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ ٱلنَّفْسِ فَلَا تُدْرِكُ ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا فَضْلاً عَنِ ٱلْإِحَاطَةِ وَتَأَمَّلْ مِنْ ذَلِكَ حِكْمَةَ ٱلشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ ٱلنَّظَرِ

إلى ٱلْأَسْبابِ وَٱلْوُقوفِ مَعَهَا فَإِنَّهُ وَادٍ يَهِيمُ فِيهِ ٱلْفِكْرُ وَلا يَحْلُو مِنْهُ بِطَائِلٍ وَلا يَظْفَر بِحَقِيقَةٍ قَالَ ٱللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ وَرُبَّمَا ٱنْقَطَعَ فِي وُقُوفِهِ عَنِ ٱلْإِرْتِقَاءِ إِلى ما فَوْقَهُ فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَأَصْبَحَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ ٱلْهَالِكِينَ نَعُوذُ بِٱللهِ مِنَ ٱلْحِرْمَانِ وَٱلْخُسْرَانِ ٱلْمبِينِ وَلا تَحْسَبَنَّ أَنَّ هٰذا ٱلْوُقُوفَ أَوِ ٱلرُّجوعَ عَنْهُ فِي قُدْرَتِكَ وَٱخْتِيَارِكَ بَلْ هُوَ لَوْن يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ وَصِبْغَةٌ تَسْتَحْكِمُ مِنَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْأَسْبَابِ عَلى نِسْبَةٍ لا نَعْلَمُهَا إِذْ لَو عَلِمْنَاهَا لَتَحَرَّزْنَا مِنْهَا فَلْنَتَحَرَّزْ مِنْ ذٰلِكَ بِقَطْعِ ٱلنَّظَرِ عَنْهَا جُمْلَةً وَأَيْضاً فَوَجْهُ تَأْثِيرِ هٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ فِي ٱلْكَثِيرِ مِنْ مُسَبَّبَاتِهَا مَجْهُولٌ لِأَنَّهَا إِنَّمَا يُوقَفُ عَلَيْهَا بِٱلْعَادَةِ لِإِقْتِرَانِ ٱلشَّاهِدِ بِٱلْإِسْتِنَادِ إِلى ٱلظَّاهِرِ وَحَقِيقَةُ ٱلتَّأْثِيرِ وَكَيْفِيَّتُهُ مَجْهُولَةٌ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا فَلِذٰلِكَ أُمِرْنَا بِقَطْعِ ٱلنَّظَرِ عَنْهَا وَإِلْغَائِهَا جُمْلَةً وَٱلتَّوَجُّهِ إِلى مُسَبِّبِ ٱلْأَسْبَاب كُلِّهَا وَفَاعِلِهَا وَمُوجِدِهَا لِتَرْسَخَ صِفَةُ ٱلتَّوْحِيدِ فِي ٱلنَّفْسِ عَلى مَا عَلَّمَنَا ٱلشَّارِعُ ٱلَّذِي هُوَ أَعْرَفُ بِمَصَالِحِ دِينِنَا وَطُرُقِ سَعَادَتِنَا لِإِطِّلاعِهِ عَلى مَا وَرَاءَ ٱلْحِسِّ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ ٱلْأَسْبَاب فَقَدِ ٱنْقَطَعَ وَحَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْكُفْرِ وَإِنْ سَبَحَ فِي بَحْرِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَحْثِ عَنْهَا وَعَن أَسْبَابِهَا وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ فَأَنَا ٱلضَّامِنُ لَهُ أَنْ لا يَعُودَ إِلَّا بِٱلْخَيْبَةِ فَلِذٰلِكَ نَهَانَا ٱلشَّارِعُ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْأَسْبَابِ وَأَمَرَنَا بِٱلتَّوْحِيدِ ٱلْمُطْلَقِ قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ ٱللهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ وَلا تَثِقَنَّ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ ٱلْفِكْرُ مِن أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلى ٱلْإِحَاطَةِ بِٱلْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا وَٱلْوُقُوفِ عَلى تَفْصِيلِ ٱلْوُجودِ كُلِّهِ وَسَفِّهْ رَأْيَهُ فِي ذٰلِكَ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْوُجودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ فِي بَادِىءِ رَأْيِهِ مُنْحَصِرٌ فِي مَدَارِكِهِ لا يَعْدُوهَا وَٱلْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِخِلافِ ذٰلِكَ وَٱلْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ أَلا تَرَى ٱلْأَصَمَّ كَيْفَ يَنْحَصِرُ ٱلْوُجودُ عِنْدَهُ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلْأَرْبَعِ وَٱلْمَعْقُولاتِ وَيَسْقُطُ مِنَ ٱلْوُجودِ عِنْدَه صِنْفُ ٱلْمَسْمُوعَاتِ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَعْمَى أَيْضاً يَسْقُطُ عِنْدَهُ صِنْفُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ وَلَوْلا مَا يَرُدُّهُم إِلى ذٰلِكَ تَقْلِيدُ ٱلْآبَاءِ وَٱلْمَشْيَخَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِمْ وَٱلْكَافَّةِ لَمَا أَقَرُّوا بِهِ لٰكِنَّهُم يَتَّبِعُونَ ٱلْكَافَّةَ فِي إِثْبَاتِ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ لا بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ وَطَبِيعَةِ إِدْرَاكِهِمْ وَلَو سُئِلَ ٱلْحَيَوَانُ ٱلْأَعْجَمُ وَنَطَقَ لَوَجَدْنَاهُ مُنْكِراً لِلْمَعْقُولاتِ وَسَاقِطَةً لَدَيْهِ بِٱلْكُلِّيَّةِ فَإِذَا عَلِمْتَ هٰذا فَلَعَلَّ هُنَاكَ ضَرْباً مِنَ ٱلْإِدْرَاكَاتِ غَيْرَ مُدْرَكَاتِنَا لِأَنَّ إِدْرَاكَاتِنَا مَخْلُوقَة

محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ولله من ورائهم محيط فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره فإن ذلك طمع في محال ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه وتفطن في هذا الغلط ومن يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق من ذلك وإذ تبين ذلك فلعل الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة فيضل العقل في بيداء الأوهام ويحار وينقطع فإذاً التوحيد أو العجز عن إدراك الأسباب وكيفيات تأثيرها وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها إذ لا فاعل غيره وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته وعلمنا به إنما هو من حيث صدورنا عنه وهذا معنى ما نقل عن بعض الصديقين العجز عن الإدراك إدراك ثم إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديق حكمي فإن ذلك من حديث النفس وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات أيضاً حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانياً والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف وشرحه أن كثيراً من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قربة إلى الله تعالى مندوب إليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر مأخذه من الشريعة وهو لو رأى يتيماً أو مسكيناً من أبناء المستضعفين لفر عنه واستنكف أن يباشره فضلاً عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة فهذا إنما حصل له

مِنْ رَحْمَةِ ٱلْيَتِيمِ مَقَامَ ٱلْعِلْمِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ مَقَامُ ٱلْحَالِ وَٱلِاتِّصَافِ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَحْصُلُ لَهُ مَعَ مَقَامِ ٱلْعِلْمِ وَٱلِاعْتِرَافِ بِأَنَّ رَحْمَةَ ٱلْمِسْكِينِ قُرْبَةٌ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى مَقَامٌ آخَرُ أَعْلَى مِنَ ٱلْأَوَّلِ وَهُوَ ٱلِاتِّصَافُ بِٱلرَّحْمَةِ وَحُصُولُ مَلَكَتِهَا فَمَتَى رَأَى يَتِيماً أَوْ مِسْكِيناً بَادَرَ إِلَيْهِ وَمَسَحَ عَلَيْهِ وَٱلْتَمَسَ ٱلثَّوَابَ فِي ٱلشَّفَقَةِ عَلَيْهِ لَا يَكَادُ يَصْبِرُ عَن ذَٰلِكَ وَلَوْ دُفِعَ عَنْهُ ثُمَّ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ ذَاتِ يَدِهِ وَكَذَا عِلْمُكَ بِٱلتَّوْحِيدِ مَعَ ٱتِّصَافِكَ بِهِ وَٱلْعِلْمُ حَاصِلٌ عَنِ ٱلِاتِّصَافِ ضَرُورَةً وَهُوَ أَوْثَقُ مَبْنًى مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْحَاصِلِ قَبْلَ ٱلِاتِّصَافِ وَلَيْسَ ٱلِاتِّصَافُ بِحَاصِلٍ عَنْ مُجَرَّدِ ٱلْعِلْمِ حَتَّى يَقَعَ ٱلْعَمَلُ وَيَتَكَرَّرَ مِرَاراً غَيْرَ مُنْحَصِرَةٍ فَتَرْسَخَ ٱلْمَلَكَةُ وَيَحْصُلَ ٱلِاتِّصَافُ وَٱلتَّحْقِيقُ وَيَجِيءَ ٱلْعِلْمُ ٱلثَّانِي ٱلنَّافِعُ فِي ٱلْآخِرَةِ فَإِنَّ ٱلْعِلْمَ ٱلْأَوَّلَ ٱلْمُجَرَّدَ عَنِ ٱلِاتِّصَافِ قَلِيلُ ٱلْجَدْوَى وَٱلنَّفْعِ وَهَٰذَا عِلْمُ أَكْثَرِ ٱلنُّظَّارِ وَٱلْمَطْلُوبُ إِنَّمَا هُوَ ٱلْعِلْمُ ٱلْحَالِيُّ ٱلنَّاشِئُ عَنِ ٱلْعَادَةِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَمَالَ عِنْدَ ٱلشَّارِعِ فِي كُلِّ مَا كُلِّفَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي هَٰذَا فَمَا طُلِبَ ٱعْتِقَادُهُ فَٱلْكَمَالُ فِيهِ فِي ٱلْعِلْمِ ٱلثَّانِي ٱلْحَاصِلِ عَنِ ٱلِاتِّصَافِ وَمَا طُلِبَ عَمَلُهُ مِنَ ٱلْعِبَادَاتِ فَٱلْكَمَالُ فِيهَا فِي حُصُولِ ٱلِاتِّصَافِ وَٱلتَّحَقُّقِ بِهَا ثُمَّ إِنَّ ٱلْإِقْبَالَ عَلَى ٱلْعِبَادَاتِ وَٱلْمُوَاظَبَةَ عَلَيْهَا هُوَ ٱلْمُحَصِّلُ لِهَٰذِهِ ٱلثَّمَرَةِ ٱلشَّرِيفَةِ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَأْسِ ٱلْعِبَادَاتِ جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ فَإِنَّ ٱلصَّلَاةَ صَارَتْ لَهُ صِفَةً وَحَالاً يَجِدُ فِيهَا مُنْتَهَى لَذَّاتِهِ وَقُرَّةَ عَيْنِهِ وَأَيْنَ هَٰذَا مِنْ صَلَاةِ ٱلنَّاسِ وَمَنْ لَهُمْ بِهَا فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٱللَّهُمَّ وَفِّقْنَا وَٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ أَنَّ ٱلْمَطْلُوبَ فِي ٱلتَّكَالِيفِ كُلِّهَا حُصُولُ مَلَكَةٍ رَاسِخَةٍ فِي ٱلنَّفْسِ يَحْصُلُ عَنْهَا عِلْمٌ ٱضْطِرَارِيٌّ لِلنَّفْسِ هُوَ ٱلتَّوْحِيدُ وَهُوَ ٱلْعَقِيدَةُ ٱلْإِيمَانِيَّةُ وَهُوَ ٱلَّذِي تَحْصُلُ بِهِ ٱلسَّعَادَةُ وَأَنَّ ذَٰلِكَ سَوَاءٌ فِي ٱلتَّكَالِيفِ ٱلْقَلْبِيَّةِ وَٱلْبَدَنِيَّةِ وَيُتَفَهَّمُ مِنْهُ أَنَّ ٱلْإِيمَانَ ٱلَّذِي هُوَ أَصْلُ ٱلتَّكَالِيفِ وَيَنْبُوعُهَا هُوَ بِهَٰذِهِ ٱلْمَثَابَةِ ذُو مَرَاتِبَ أَوَّلُهَا ٱلتَّصْدِيقُ ٱلْقَلْبِيُّ ٱلْمُوَافِقُ لِلِّسَانِ وَأَعْلَاهَا حُصُولُ كَيْفِيَّةٍ مِن ذَٰلِكَ ٱلِاعْتِقَادُ ٱلْقَلْبِيُّ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ مُسْتَوْلِيَةً عَلَى ٱلْقَلْبِ فَيَسْتَتْبِعُ ٱلْجَوَارِحَ وَتَنْدَرِجُ فِي طَاعَتِهَا جَمِيعُ ٱلتَّصَرُّفَاتِ حَتَّى تَنْخَرِطَ ٱلْأَفْعَالُ كُلُّهَا فِي طَاعَةِ ذَٰلِكَ ٱلتَّصْدِيقِ ٱلْإِيمَانِيِّ وَهَٰذَا أَرْفَعُ مَرَاتِبِ ٱلْإِيمَانِ وَهُوَ ٱلْإِيمَانُ ٱلْكَامِلُ ٱلَّذِي لَا يُقَارِفُ ٱلْمُؤْمِنُ

معهُ صغيرةٌ ولا كبيرةٌ إذْ حصولُ المَلَكَةِ ورسوخُها مانعٌ مِنَ الانحرافِ عَنْ مَناهجِهِ طرفَةَ عَيْنٍ قالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لاَ يَزْني الزّاني حِينَ يَزْني وَهُوَ مؤمنٌ وفي حديث هرقلَ لمّا سألَ أبا سفيانَ بنَ حربٍ عنِ النبيِّ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأحوالِهِ فقالَ في أصحابِهِ هلْ يرتدُّ أحدٌ منهمْ سخطةً لدينهِ قالَ لا قالَ وكذلكَ الإيمانُ حينَ تُخالطُ بشاشتُهُ القلوبَ ومعناهُ أنَّ مَلَكَةَ الإيمانِ إذا استقرَّتْ عسُرَ على النفسِ مخالفتُها شأنَ المَلَكاتِ إذا استقرَّتْ فإنَّها تحصلُ بمثابةِ الجِبِلَّةِ والفطرةِ وهذهِ هيَ المرتبةُ العاليةُ منَ الإيمانِ وهيَ في المرتبةِ الثانيةِ منَ العصمةِ لأنَّ العصمةَ واجبةٌ للأنبياءِ وجوباً سابقاً وهذهِ حاصلةٌ للمؤمنينَ حصولاً تابعاً لأعمالِهمْ وتصديقِهِمْ وبهذهِ المَلَكَةِ ورسوخِها يقعُ التفاوتُ في الإيمانِ كالذي يُتلى عليكَ منْ أقاويلِ السلفِ وفي تراجمِ البخاريِّ رضيَ اللهُ عنهُ في بابِ الإيمانِ كثيرٌ منهُ مثلُ أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ ويزيدُ وينقصُ وأنَّ الصلاةَ والصيامَ منَ الإيمانِ وأنَّ تطوُّعَ رمضانَ منَ الإيمانِ والحياءَ منَ الإيمانِ والمرادُ بهذا كلِّهِ الإيمانُ الكاملُ الذي أشرنا إليهِ وإلى مَلَكَتِهِ وهوَ فعليٌّ وأمّا التصديقُ الذي هوَ أوّلُ مراتبِهِ فلا تفاوتَ فيهِ فمنِ اعتبرَ أوائلَ الأسماءِ وحملَهُ على التصديقِ منعَ منَ التفاوتِ كما قالَ أئمّةُ المتكلِّمينَ ومنِ اعتبرَ أواخرَ الأسماءِ وحملَهُ على هذهِ المَلَكَةِ التي هيَ الإيمانُ الكاملُ ظهرَ لهُ التفاوتُ وليسَ ذلكَ بقادحٍ في اتّحادِ حقيقتِهِ الأولى التي هيَ التصديقُ إذِ التصديقُ موجودٌ في جميعِ رُتَبِهِ لأنَّهُ أقلُّ ما يُطلقُ عليهِ اسمُ الإيمانِ وهوَ المُخلِّصُ منْ عهدةِ الكفرِ والفيصلُ بينَ الكافرِ والمسلمِ فلا يُجزي أقلُّ منهُ وهوَ في نفسِهِ حقيقةٌ واحدةٌ لا تتفاوتُ وإنّما التفاوتُ في الحالِ الحاصلةِ عنِ الأعمالِ كما قلناهُ فافهمْ واعلمْ أنَّ الشارعَ وصفَ لنا هذا الإيمانَ الذي في المرتبةِ الأولى الذي هوَ تصديقٌ وعيَّنَ أموراً مخصوصةً كلَّفنا التصديقَ بها بقلوبِنا واعتقادَها في أنفسِنا معَ الإقرارِ بألسنتِنا وهيَ العقائدُ التي تقرَّرتْ في الدينِ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ سُئلَ عنِ الإيمانِ فقالَ أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ وتؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ وهذهِ هيَ العقائدُ الإيمانيّةُ المقرَّرةُ في علمِ الكلامِ . ولنشرْ إليها مجملةً لتتبيَّنَ لكَ حقيقةُ هذا الفنِّ وكيفيّةُ حدوثِهِ فنقولُ . إعلمْ أنَّ الشارعَ لمّا أمرنا بالإيمانِ بهذا الخالقِ الذي ردَّ

ٱلْأَفعَالَ كُلَّهَا إِلَيْهِ وَأَفرَدَهُ بِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَعَرَفْنَا أَنَّ فِي هٰذَا ٱلْإِيمَانِ نَجَاتَنَا عِندَ ٱلْمَوْتِ إِذَا حَضِرنَا لَمْ يُعَرِّفْنَا بِكُنْهِ حَقِيقَةِ هٰذَا ٱلْخَالِقِ ٱلْمَعْبُودِ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ مُتَعَذِّرٌ عَلَى إِدرَاكِنَا وَمِنْ فَوْقِ طَوْرِنَا فَكَلَّفَنَا أَوَّلاً ٱعتِقَادَ تَنْزِيهِهِ فِي ذَاتِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ ٱلْمَخْلُوقِينَ وَإِلَّا لَمَا صَحَّ أَنَّهُ خَالِقٌ لَهُمْ لِعَدَمِ ٱلْفَارِقِ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْدِيرِ ثُمَّ تَنْزِيهِهِ عَنْ صِفَاتِ ٱلنَّقْصِ وَإِلَّا لَشَابَهَ ٱلْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ تَوْحِيدِهِ بِٱلْإِتِّحَادِ وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ ٱلْخَلْقُ لِلتَّمَانُعِ ثُمَّ ٱعتِقَادَ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ فَبِذٰلِكَ تَتِمُّ ٱلْأَفعَالُ شَاهِدَ قَضِيَّتِهِ لِكَمَالِ ٱلْإِتِّحَادِ وَٱلْخَلْقِ وَمُرِيدٌ وَإِلَّا لَمْ يَخُصَّ شَيْءٌ مِنَ ٱلْمَخْلُوقَاتِ وَمُقَدِّرٌ لِكُلِّ كَائِنٍ وَإِلَّا فَٱلْإِرَادَةُ حَادِثَةٌ وَأَنَّهُ يُعِيدُنَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ تَكْمِيلاً لِعِنَايَتِهِ بِٱلْإِيجَادِ وَلَوْ كَانَ لِأَمْرٍ فَإِنْ كَانَ عَبَثاً فَهُوَ لِلْبَقَاءِ ٱلسَّرْمَدِيِّ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ ٱعتِقَادَ بَعْثَةِ ٱلرُّسُلِ لِلنَّجَاةِ مِنْ شَقَاءِ هٰذَا ٱلْمَعَادِ لِٱخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ بِٱلشَّقَاءِ وَٱلسَّعَادَةِ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِنَا بِذٰلِكَ وَتَمَامِ لُطْفِهِ بِنَا فِي ٱلْإِيتَاءِ بِذٰلِكَ وَبَيَانِ ٱلطَّرِيقَيْنِ وَأَنَّ ٱلْجَنَّةَ لِلنَّعِيمِ وَجَهَنَّمَ لِلْعَذَابِ هٰذِهِ أُمَّهَاتُ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ مُعَلَّلَةً بِأَدِلَّتِهَا ٱلْعَقْلِيَّةِ وَأَدِلَّتُهَا مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كَثِيرٌ وَعَنْ تِلْكَ ٱلْأَدِلَّةِ أَخَذَهَا ٱلسَّلَفُ وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا ٱلْعُلَمَاءُ وَحَقَّقَهَا ٱلْأَئِمَّةُ إِلَّا أَنَّهُ عَرَضَ بَعْدَ ذٰلِكَ خِلَافٌ فِي تَفَاصِيلِ هٰذِهِ ٱلْعَقَائِدِ أَكْثَرُ مَثَارِهَا مِنَ ٱلْآيِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ فَدَعَا ذٰلِكَ إِلَى ٱلْخِصَامِ وَٱلتَّنَاظُرِ وَٱلْإِسْتِدْلَالِ بِٱلْعَقْلِ وَزِيَادَةٍ إِلَى ٱلنَّقْلِ فَحَدَثَ بِذٰلِكَ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ وَلْنُبَيِّنْ لَكَ تَفْصِيلَ هٰذَا ٱلْمُجْمَلِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقُرْآنَ وَرَدَ فِيهِ وَصْفُ ٱلْمَعْبُودِ بِٱلتَّنْزِيهِ ٱلْمُطْلَقِ ٱلظَّاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ وَهِيَ سُلُوبٌ كُلُّهَا وَصَرِيحَةٌ فِي بَابِهَا فَوَجَبَ ٱلْإِيمَانُ بِهَا وَوَقَعَ فِي كَلَامِ ٱلشَّارِعِ صَلَوَاتُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَكَلَامِ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ تَفْسِيرُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا ثُمَّ وَرَدَتْ فِي ٱلْقُرْآنِ آيٌ أُخْرَى قَلِيلَةٌ تُوهِمُ ٱلتَّشْبِيهَ وَقَضَوْا بِأَنَّ ٱلْآيَاتِ مِنْ كَلَامِ ٱللَّهِ فَآمَنُوا بِهَا وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِمَعْنَاهَا بِبَحْثٍ وَلَا تَأْوِيلٍ وَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِ ٱلْكَثِيرِ مِنْهُمْ إِقْرَأُوهَا كَمَا جَاءَتْ أَيْ آمِنُوا بِأَنَّهَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِتَأْوِيلِهَا وَلَا تَفْسِيرِهَا بِجَوَازِ أَنْ تَكُونَ ٱبْتِلَاءً فَيَجِبُ ٱلْوَقْفُ وَٱلْإِذْعَانُ لَهُ وَشَذَّ لِعَصْرِهِمْ مُبْتَدِعَةٌ ٱتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنَ ٱلْآيَاتِ وَتَوَغَّلُوا فِي ٱلتَّشْبِيهِ فَفَرِيقٌ أَشْبَهُوا فِي ٱلذَّاتِ بِٱعْتِقَادِ ٱلْيَدِ وَٱلْقَدَمِ وَٱلْوَجْهِ عَمَلاً بِظَوَاهِرَ وَرَدَتْ بِذٰلِكَ فَوَقَعُوا فِي ٱلتَّجْسِيمِ ٱلصَّرِيحِ وَمُخَالَفَةِ آيِ ٱلتَّنْزِيهِ ٱلْمُطْلَقِ ٱلَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةً لِأَنَّ مَعْقُولِيَّةَ ٱلْجِسْمِ تَقْتَضِي ٱلنَّقْصَ وَٱلْإِفْتِقَارَ وَتَغْلِيبُ

آياتِ ٱلسُّلُوبِ في ٱلتَّنْزِيهِ ٱلْمُطْلَقِ ٱلَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلالَةً أَوْلَى مِن ٱلتَّعَلُّقِ بِظَوَاهِرِ هٰذِهِ ٱلَّتِي لَنا عَنها غُنْيَةٌ وَجَمَعَ بَيْنَ ٱلدَّلِيلَيْنِ بِتَأْوِيلِهِمْ ثُمَّ يَفِرُّونَ مِنْ شَنَاعَةِ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِمْ جِسْمٌ لا كَالْأَجْسَامِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِدَافِعٍ عَنْهُمْ لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُتَنَاقِضٌ وَجَمْعٌ بَيْنَ نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ إِنْ كَانَ بِٱلْمَعْقُولِيَّةِ وَاحِدَةً مِنَ ٱلْجِسْمِ وَإِنْ خَالَفُوا بَيْنَهُمَا وَنَفَوا ٱلْمَعْقُولِيَّةَ ٱلْمُتَعَارَفَةَ فَقَدْ وَافَقُونا فِي ٱلتَّنْزِيهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا جَعْلُهُمْ لَفْظَ ٱلْجِسْمِ ٱسْماً مِن أَسْمَائِهِ وَيَتَوَقَّفُ مِثْلُهُ عَلَى ٱلْإِذْنِ وَفَرِيقٌ مِنْهُمْ ذَهَبُوا إِلَى ٱلتَّشْبِيهِ فِي ٱلصِّفَاتِ كَإِثْبَاتِ ٱلْجِهَةِ وَٱلِٱسْتِوَاءِ وَٱلنُّزُولِ وَٱلصَّوْتِ وَٱلْحَرْفِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَآلَ قَوْلُهُمْ إِلَى ٱلتَّجْسِيمِ فَنَزَعُوا مِثْلَ ٱلْأَوَّلِينَ إِلَى قَوْلِهِمْ صَوْتٌ لا كَالْأَصْواتِ جِهَةٌ لا كَالْجِهَاتِ نُزُولٌ لا كَالنُّزُولِ يَعْنُونَ مِنَ ٱلْأَجْسَامِ وَٱنْدَفَعَ ذٰلِكَ بِمَا ٱنْدَفَعَ بِهِ ٱلْأَوَّلُ وَلَمْ يَبْقَ فِي هٰذِهِ ٱلظَّوَاهِرِ إِلَّا ٱعْتِقَادَاتُ ٱلسَّلَفِ وَمَذاهِبُهُمْ وَٱلْإِيمَانُ بِهَا كَمَا هِيَ لِئَلَّا يَكُرَّ ٱلنَّفْيُ عَلَى مَعَانِيهَا بِنَفْيِهَا مَعَ أَنَّهَا صَحِيحَةٌ ثَابِتَةٌ مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَلِهٰذَا تَنْظُرُ مَا تَرَاهُ فِي عَقِيدَةِ ٱلرِّسَالَةِ لِٱبْنِ أَبِي زَيْدٍ وَكِتَابِ ٱلْمُخْتَصَرِ لَهُ وَفِي كِتَابِ ٱلْحَافِظِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْبَرِّ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَحُومُونَ عَلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَلا تَغْمُضْ عَيْنَكَ عَنِ ٱلْقَرَائِنِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى ذٰلِكَ فِي غُضُونِ كَلامِهِمْ ثُمَّ لَمَّا كَثُرَتِ ٱلْعُلُومُ وَٱلصَّنَائِعُ وَوَلِعَ ٱلنَّاسُ بِٱلتَّدْوِينِ وَٱلْبَحْثِ فِي سَائِرِ ٱلْأَنْحَاءِ وَأَلَّفَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ فِي ٱلتَّنْزِيهِ حَدَثَتْ بِدْعَةُ ٱلْمُعْتَزِلَةِ فِي تَعْمِيمِ هٰذَا ٱلتَّنْزِيهِ فِي آيِ ٱلسُّلُوبِ فَقَضَوْا بِنَفْيِ صِفَاتِ ٱلْمَعَانِي مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْقُدْرَةِ وَٱلْإِرَادَةِ وَٱلْحَيَاةِ زَائِدَةً عَلَى أَحْكَامِهَا لِمَا يَلْزَمُ عَلَى ذٰلِكَ مِنْ تَعَدُّدِ ٱلْقَدِيمِ بِزَعْمِهِمْ وَهُوَ مَرْدُودٌ بِأَنَّ ٱلصِّفَاتِ لَيْسَتْ عَيْنَ ٱلذَّاتِ وَلا غَيْرَهَا وَقَضَوْا بِنَفْيِ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ لِكَوْنِهِمَا مِنْ عَوَارِضِ ٱلْأَجْسَامِ وَهُوَ مَرْدُودٌ لِعَدَمِ ٱشْتِرَاطِ ٱلْبُنْيَةِ فِي مَدْلُولِ هٰذَا ٱللَّفْظِ وَإِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكُ ٱلْمَسْمُوعِ أَوِ ٱلْمُبْصَرِ وَقَضَوْا بِنَفْيِ ٱلْكَلامِ لِشَبَهِ مَا فِي ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ وَلَمْ يَعْقِلُوا صِفَةَ ٱلْكَلامِ ٱلَّتِي تَقُومُ بِٱلنَّفْسِ فَقَضَوْا بِأَنَّ ٱلْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ بِدْعَةً صَرَّحَ ٱلسَّلَفُ بِخِلافِهَا وَعَظُمَ ضَرَرُ هٰذِهِ ٱلْبِدْعَةِ وَلَقَّنَهَا بَعْضُ ٱلْخُلَفَاءِ عَنْ أَئِمَّتِهِمْ فَحَمَلَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا وَخَالَفَهُمْ أَئِمَّةُ ٱلسَّلَفِ فَٱسْتُحِلَّ لِخِلافِهِمْ إِيسَارُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ وَكَانَ ذٰلِكَ سَبَباً لِٱنْتِهَاضِ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْعَقَائِدِ دَفْعاً فِي صُدُورِ هٰذِهِ ٱلْبِدَعِ وَقَامَ بِذٰلِكَ ٱلشَّيْخُ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْأَشْعَرِيُّ إِمَامُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فَتَوَسَّطَ بَيْنَ ٱلطُّرُقِ وَنَفَى ٱلتَّشْبِيهَ وَأَثْبَتَ ٱلصِّفَاتِ

ٱلْمَعْنَوِيَّةَ وَقَصَرَ ٱلتَّنْزِيهَ عَلَى مَا قَصَرَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَفُ وَشَهِدَتْ لَهُ ٱلْأَدِلَّةُ ٱلْمُخَصَّصَةُ لِعُمُومِهِ فَأَثْبَتَ ٱلصِّفَاتِ ٱلْأَرْبَعَ ٱلْمَعْنَوِيَّةَ وَٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْكَلَامَ ٱلْقَائِمَ بِٱلنَّفْسِ بِطَرِيقِ ٱلنَّقْلِ وَٱلْعَقْلِ وَرَدَّ عَلَى ٱلْمُبْتَدِعَةِ فِي ذَٰلِكَ كُلِّهِ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِيمَا مَهَّدُوهُ لِهَٰذِهِ ٱلْبِدَعِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلصَّلَاحِ وَٱلْأَصْلَحِ وَٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّقْبِيحِ وَكَمَّلَ ٱلْعَقَائِدَ فِي ٱلْبَعْثَةِ وَأَحْوَالِ ٱلْجَنَّةِ وَٱلنَّارِ وَٱلثَّوَابِ وَٱلْعِقَابِ وَأَلْحَقَ بِذَٰلِكَ ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْإِمَامَةِ لِمَا ظَهَرَ حِينَئِذٍ مِنْ بِدْعَةِ ٱلْإِمَامِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنَّهَا مِنْ عَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِ وَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ تَعْيِينُهَا وَٱلْخُرُوجُ عَنِ ٱلْعُهْدَةِ فِي ذَٰلِكَ لِمَنْ هِيَ لَهُ وَكَذَٰلِكَ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَقُصَارَى أَمْرِ ٱلْإِمَامَةِ أَنَّهَا قَضِيَّةٌ مَصْلَحِيَّةٌ إِجْمَاعِيَّةٌ وَلَا تَلْحَقُ بِٱلْعَقَائِدِ فَلِذَٰلِكَ أَلْحَقُوهَا بِمَسَائِلِ هَٰذَا ٱلْفَنِّ وَسَمَّوْا مَجْمُوعَهُ عِلْمَ ٱلْكَلَامِ إِمَّا لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ عَلَى ٱلْبِدَعِ وَهِيَ كَلَامٌ صِرْفٌ وَلَيْسَتْ بِرَاجِعَةٍ إِلَى عَمَلٍ، وَإِمَّا لِأَنَّ سَبَبَ وَضْعِهِ وَٱلْخَوْضِ فِيهِ هُوَ تَنَازُعُهُمْ فِي إِثْبَاتِ ٱلْكَلَامِ ٱلنَّفْسِيِّ وَكَثُرَ أَتْبَاعُ ٱلشَّيْخِ أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلْأَشْعَرِيِّ وَٱقْتَفَى طَرِيقَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ تِلْمِيذُهُ كَٱبْنِ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ وَأَخَذَ عَنْهُمُ ٱلْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ ٱلْبَاقِلَّانِيُّ فَتَصَدَّرَ لِلْإِمَامَةِ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَهَذَّبَهَا وَوَضَعَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْعَقْلِيَّةَ ٱلَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا ٱلْأَدِلَّةُ وَٱلْأَنْظَارُ وَذَٰلِكَ مِثْلُ إِثْبَاتِ ٱلْجَوْهَرِ ٱلْفَرْدِ وَٱلْخَلَاءِ وَأَنَّ ٱلْعَرَضَ لَا يَقُومُ بِٱلْعَرَضِ وَأَنَّهُ لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ وَأَمْثَالِ ذَٰلِكَ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ أَدِلَّتُهُمْ وَجَعَلَ هَٰذِهِ ٱلْقَوَاعِدَ تَبَعاً لِلْعَقَائِدِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ فِي وُجُوبِ ٱعْتِقَادِهَا لِتَوَقُّفِ تِلْكَ ٱلْأَدِلَّةِ عَلَيْهَا وَأَنَّ بُطْلَانَ ٱلدَّلِيلِ يُؤْذِنُ بِبُطْلَانِ ٱلْمَدْلُولِ وَجُمِلَتْ هَٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةُ وَجَاءَتْ مِنْ أَحْسَنِ ٱلْفُنُونِ ٱلنَّظَرِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلدِّينِيَّةِ إِلَّا أَنَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ تُعْتَبَرُ بِهَا ٱلْأَقْيِسَةُ وَلَمْ تَكُنْ حِينَئِذٍ ظَاهِرَةً فِي ٱلْمِلَّةِ وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهَا بَعْضُ ٱلشَّيْءِ فَلَمْ يَأْخُذْ بِهِ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ لِمُلَابَسَتِهَا لِلْعُلُومِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ ٱلْمُبَايِنَةِ لِلْعَقَائِدِ ٱلشَّرْعِيَّةِ بِٱلْجُمْلَةِ فَكَانَتْ مَهْجُورَةً عِنْدَهُمْ لِذَٰلِكَ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ٱلْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ ٱلْبَاقِلَّانِيِّ إِمَامُ ٱلْحَرَمَيْنِ أَبُو ٱلْمَعَالِي فَأَمْلَى فِي ٱلطَّرِيقَةِ كِتَابَ ٱلشَّامِلِ وَأَوْسَعَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ ٱلْإِرْشَادِ وَٱتَّخَذَهُ ٱلنَّاسُ إِمَاماً لِعَقَائِدِهِمْ ثُمَّ ٱنْتَشَرَتْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عُلُومُ ٱلْمَنْطِقِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَقَرَأَهُ ٱلنَّاسُ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْعُلُومِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ بِأَنَّهُ قَانُونٌ وَمِعْيَارٌ لِلْأَدِلَّةِ فَقَطْ يُسْبَرُ بِهِ ٱلْأَدِلَّةُ مِنْهَا كَمَا يُسْبَرُ مِنْ سِوَاهَا ثُمَّ نَظَرُوا فِي تِلْكَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ فِي فَنِّ ٱلْكَلَامِ لِلْأَقْدَمِينَ فَخَالَفُوا ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلَّتِي

أَدَلَّتْ إلى ذلكَ وَرُبَّمَا أَنَّ كَثِيراً مِنهَا مُقْتَبَسٌ مِنْ كَلامِ ٱلفَلاسِفَةِ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ وَٱلإلٰهِيَّاتِ فَلَمَّا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلمَنْطِقِ رَدَّهُمْ إِلَى ذَٰلِكَ فِيهَا وَلَمْ يَعْتَقِدُوا بُطْلانَ ٱلمَدْلُولِ مِنْ بُطْلانِ دَلِيلِهِ كَمَا صَارَ إِلَيْهِ ٱلقَاضِي فَصَارَتْ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةُ مِنْ مُصْطَلَحِهِمْ مبَايِنَةً لِلطَّرِيقَةِ ٱلأُولَى وَتُسَمَّى طَرِيقَةَ ٱلمُتَأَخِّرِينَ وَرُبَّمَا أَدْخَلُوا فِيهَا ٱلرَّدَّ عَلَى ٱلفَلاسِفَةِ فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلعَقَائِدِ ٱلإِيمَانِيَّةِ وَجَعَلُوهُمْ مِنْ خُصُومِ ٱلعَقَائِدِ لِتَنَاسُبِ ٱلكَثِيرِ مِنْ مَذَاهِبِ ٱلمُبْتَدِعَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي طَرِيقَةِ ٱلكَلامِ عَلَى هٰذَا ٱلمَنْحَى ٱلغَزَالِيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ وَتَبِعَهُ ٱلإِمَامُ ٱبْنُ ٱلخَطِيبِ وَجَمَاعَةٌ قَفَوْا أَثَرَهُمْ وَٱعْتَمَدُوا تَقْلِيدَهُمْ ثُمَّ تَوَغَّلَ ٱلمُتَأَخِّرُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي مُخَالَطَةِ كُتُبِ ٱلفَلْسَفَةِ وَٱلتَبَسَ عَلَيْهِمْ شَأْنُ ٱلمَوْضُوعِ فِي ٱلعِلْمَيْنِ فَحَسِبُوهُ فِيهِمَا وَاحِداً مِنِ ٱشْتِبَاهِ ٱلمَسَائِلِ فِيهِمَا . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلمُتَكَلِّمِينَ لَمَّا كَانُوا يَسْتَدِلُّونَ فِي أَكْثَرِ أَحوَالِهِمْ بِٱلكَائِنَاتِ وَأَحوَالِهَا عَلَى وُجُودِ ٱلبَارِىءِ وَصِفَاتِهِ وَهُوَ نَوْعُ ٱسْتِدْلالِهِمْ غَالِباً وَٱلجِسْمُ ٱلطَّبِيعِيُّ يَنظُرُ فِيهِ ٱلفَيْلَسُوفُ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ وَهُوَ بَعْضٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلكَائِنَاتِ إِلاَّ أَنَّ نَظَرَهُ فِيهَا مُخَالِفٌ لِنَظَرِ ٱلمُتَكَلِّمِ وَهُوَ يَنظُرُ فِي ٱلجِسْمِ مِنْ حَيْثُ يَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ وَٱلمُتَكَلِّمُ يَنظُرُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى ٱلفَاعِلِ وَكَذَا نَظَرُ ٱلفَيْلَسُوفِ فِي ٱلإِلٰهِيَّاتِ إِنَّمَا هُوَ نَظَرٌ فِي ٱلوُجُودِ ٱلمُطْلَقِ وَمَا يَقْتَضِيهِ لِذَاتِهِ وَنَظَرُ ٱلمُتَكَلِّمِ فِي ٱلوُجُودِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلمُوجِدِ وَبِٱلجُمْلَةِ فَمَوْضُوعُ عِلْمِ ٱلكَلامِ عِنْدَ أَهْلِهِ إِنَّمَا هُوَ ٱلعَقَائِدُ ٱلإِيمَانِيَّةُ بَعْدَ فَرْضِهَا صَحِيحَةً مِنَ ٱلشَّرْعِ مِنْ حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهَا بِٱلأَدِلَّةِ ٱلعَقْلِيَّةِ فَتُرْفَعُ ٱلبِدَعُ وَتَزُولُ ٱلشُّكُوكُ وَٱلشُّبَهُ عَنْ تِلْكَ ٱلعَقَائِدِ وَإِذَا تَأَمَّلْتَ حَالَ ٱلفَنِّ فِي حُدُوثِهِ وَكَيْفَ تَدَرَّجَ كَلامُ ٱلنَّاسِ فِيهِ صَدْراً بَعْدَ صَدْرٍ وَكُلُّهُمْ يَفْرِضُ ٱلعَقَائِدَ صَحِيحَةً وَيَسْتَنْهِضُ ٱلحُجَجَ وَٱلأَدِلَّةَ عَلِمْتَ حِينَئِذٍ مَا قَرَّرْنَاهُ لَكَ فِي مَوْضُوعِ ٱلفَنِّ وَأَنَّهُ لاَ يَعْدُوهُ وَلَقَدِ ٱخْتَلَطَتِ ٱلطَّرِيقَتَانِ عِنْدَ هٰؤُلاءِ ٱلمُتَأَخِّرِينَ وَٱلتَبَسَتْ مَسَائِلُ ٱلكَلامِ بِمَسَائِلِ ٱلفَلْسَفَةِ بِحَيْثُ لاَ يَتَمَيَّزُ أَحدُ ٱلفَنَّيْنِ مِنَ ٱلآخَرِ وَلاَ يَحْصُلُ عَلَيْهِ طَالِبُهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَمَا فَعَلَهُ ٱلبَيْضَاوِيُّ فِي ٱلطَّوَالِعِ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلعَجَمِ فِي جَمِيعِ تَآلِيفِهِمْ إِلاَّ أَنَّ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةَ قَدْ يُعْنَى بِهَا بَعْضُ طَلَبَةِ ٱلعِلْمِ لِلاِطِّلاعِ عَلَى ٱلمَذَاهِبِ وَٱلإِغْرَاقِ فِي مَعْرِفَةِ ٱلحِجَاجِ لِوُفُورِ ذَٰلِكَ فِيهَا وَأَمَّا مُحَاذَاةُ طَرِيقَةِ ٱلسَّلَفِ بِعَقَائِدِ عِلْمِ ٱلكَلامِ فَإِنَّمَا هُوَ لِلطَّرِيقَةِ ٱلقَدِيمَةِ

للمُتَكلِّمِينَ وَأَصْلُهَا كِتَابُ ٱلْإِرْشَادِ وَمَا حَذا حَذْوَهُ وَمَنْ أَرَادَ إِدْخَالَ ٱلرَّدِّ عَلى ٱلْفَلاسِفَةِ فِي عَقَائِدِهِ فَعَلَيْهِ بِكُتُبِ ٱلْغَزَالِيِّ وَٱلْإِمَامِ ٱبْنِ ٱلْخَطِيبِ فَإِنَّهَا وَإِنْ وَقَعَ فِيهَا مُخَالَفَةٌ لِلْإِصْلاحِ ٱلْقَدِيمِ فَلَيْسَ فِيهَا مِنَ ٱلِٱخْتِلاطِ فِي ٱلْمَسَائِلِ وَٱلِٱلْتِبَاسِ فِي ٱلْمَوْضُوعِ مَا فِي طَرِيقَةِ هٰؤُلاءِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَعَلَى ٱلْجُمْلَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ هذا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْكَلامِ غَيْرُ ضَرُورِيٍّ لِهَذا ٱلْعَهْدِ عَلى طَالِبِ ٱلْعِلْمِ إِذِ ٱلْمُلْحِدَةُ وَٱلْمُبْتَدِعَةُ قَدِ ٱنْقَرَضُوا وَٱلْأَئِمَّةُ مِنْ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ كَفَوْنَا شَأْنَهُمْ فِيمَا كَتَبُوا وَدَوَّنُوا وَٱلْأَدِلَّةُ ٱلْعَقْلِيَّةُ إِنَّمَا ٱحْتَاجُوا إِلَيْهَا حِينَ دَافَعُوا وَنَصَرُوا وَأَمَّا ٱلْآنَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا كَلامٌ تَنَزَّهَ ٱلْبَارِيُّ عَنْ كَثِيرِ إِيهَامَاتِهِ وَإِطْلاقِهِ وَلَقَدْ سُئِلَ ٱلْجُنَيْدُ رَحِمَهُ ٱللهُ عَنْ قَوْمٍ مَرَّ بِهِمْ بَعْضُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ يُفِيضُونَ فِيهِ فَقَالَ مَا هٰؤُلاءِ فَقِيلَ قَوْمٌ يُنَزِّهُونَ ٱللهَ بِٱلْأَدِلَّةِ عَنْ صِفَاتِ ٱلْحُدُوثِ وَسِمَاتِ ٱلنَّقْصِ فَقَالَ نَفْيُ ٱلْعَيْبِ حَيْثُ يَسْتَحِيلُ ٱلْعَيْبُ عَيْبٌ لٰكِنَّ فَائِدَتَهُ فِي آحَادِ ٱلنَّاسِ وَطَلَبَةِ ٱلْعِلْمِ فَائِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ إِذْ لا يَحْسُنُ بِحَامِلِ ٱلسُّنَّةِ ٱلْجَهْلُ بِٱلْحُجَجِ ٱلنَّظَرِيَّةِ عَلى عَقَائِدِهَا وَٱللهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ

الفصل الحادي عشر
في علم التصوُّف

هٰذَا ٱلْعِلْمُ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلْحَادِثَةِ فِي ٱلْمِلَّةِ وَأَصْلُهُ أَنَّ طَرِيقَةَ هٰؤُلاءِ ٱلْقَوْمِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَ سَلَفِ ٱلْأُمَّةِ وَكِبَارِهَا مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ طَرِيقَةَ ٱلْحَقِّ وَٱلْهِدَايَةِ وَأَصْلُهَا ٱلْعُكُوفُ عَلى ٱلْعِبَادَةِ وَٱلِٱنْقِطَاعُ إِلى اللهِ تَعَالى وَٱلْإِعْرَاضُ عَنْ زُخْرُفِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَٱلزُّهْدُ فِيمَا يُقْبِلُ عَلَيْهِ ٱلْجُمْهُورُ مِنْ لَذَّةٍ وَمَالٍ وَجَاهٍ وَٱلِٱنْفِرَادُ عَنِ ٱلْخَلْقِ فِي ٱلْخَلْوَةِ لِلْعِبَادَةِ وَكَانَ ذٰلِكَ عَامًّا فِي ٱلصَّحَابَةِ وَٱلسَّلَفِ فَلَمَّا فَشَا ٱلْإِقْبَالُ عَلى ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْقَرْنِ ٱلثَّانِي وَمَا بَعْدَهُ وَجَنَحَ ٱلنَّاسُ إِلى مُخَالَطَةِ ٱلدُّنْيَا ٱخْتَصَّ ٱلْمُقْبِلُونَ عَلى ٱلْعِبَادَةِ بِٱسْمِ ٱلصُّوفِيَّةِ وَٱلْمُتَصَوِّفَةِ وَقَالَ ٱلْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ وَلا يَشْهَدُ لِهَذا ٱلِٱسْمِ ٱشْتِقَاقٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَلا قِيَاسٌ وَٱلظَّاهِرُ أَنَّهُ لَقَبٌ وَمَنْ قَالَ ٱشْتِقَاقُهُ مِنَ ٱلصَّفَا أَوْ مِنَ ٱلصُّفَّةِ فَبَعِيدٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْقِيَاسِ ٱللُّغَوِيِّ قَالَ وَكَذٰلِكَ مِنَ ٱلصُّوفِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَصُّوا بِلُبْسِهِ . قُلْتُ وَٱلْأَظْهَرُ إِنْ قِيلَ بِٱلِٱشْتِقَاقِ أَنَّهُ مِنَ ٱلصُّوفِ وَهُمْ فِي ٱلْغَالِبِ مُخْتَصُّونَ بِلُبْسِهِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ ٱلنَّاسِ فِي لُبْسِ فَاخِرِ ٱلثِّيَابِ إِلى لُبْسِ ٱلصُّوفِ

فلمّا اختص هؤلاء بمذهب الزهد والإنفراد عن الخلق والاقبال على العبادة اختصّوا بمآخذ مدركة لهم وذلك أنّ الإنسان بما هو إنسان إنّما يتميّز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظنّ والشكّ والوهم وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضى والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرّف في البدن تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال وهي التي يميّز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلّة والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذّذ به والنشاط عن الحمّام والكسل عن الاعياء وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بدّ وأن ينشأ له عن كلّ مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحال إمّا أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاماً للمريد وإمّا أن لا تكون عبادة وإنّما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقّى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة قال صلّى الله عليه وسلّم من مات يشهد أن لا إله إلّا الله دخل الجنّة فالمريد لا بدّ له من الترقّي في هذه الأطوار وأصلها كلّها الطاعة والاخلاص ويتقدّمها الايمان ويصاحبها وتنشأ عنها الأحوال والصفات نتائج وثمرات ثمّ تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعرفان وإذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فنعلم أنّه إنّما أتى من قبل التقصير في الذي قبله وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية فلهذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله وينظر في حقائقها لأنّ حصول النتائج عن الأعمال ضروريّ وقصورها من الخلل فيها كذلك والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه ولا يشاركهم في ذلك إلّا القليل من الناس لأنّ الغفلة عن هذا كأنّها شاملة وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع أنّهم يأتون بالطاعات مخلّصة من نظر الفقه في الأجزاء والامتثال وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطّلعوا على أنّها خالصة من التقصير أو لا فظهر أنّ أصل طريقتهم كلّها محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثمّ تستقرّ للمريد

مقاماً يَتَرَقّى مِنها إلى غيرِها ثُمَّ لَهُمْ مَعَ ذلِكَ آدابٌ مَخْصُوصةٌ بِهِمْ وَاصْطِلاحاتٌ في أَلفاظٍ تَدُورُ بَيْنَهُمْ إذِ الأَوْضاعُ اللُّغَوِيَّةُ إنَّما هِيَ لِلمَعاني المُتَعارَفَةِ فإذا عَرَضَ مِنَ المَعاني ما هُوَ غَيْرُ مُتَعارَفٍ اصْطَلَحْنا عَنِ التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِلَفْظٍ يَتَيَسَّرُ فَهْمُهُ مِنْهُ فَلِهذا اخْتُصَّ هؤلاءِ بِهذا النَّوْعِ مِنَ العِلْمِ الَّذي لَيْسَ لِواحِدٍ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ الكَلامُ فيهِ وَصارَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ عَلى صِنْفَيْنِ صِنْفٍ مَخْصُوصٍ بِالفُقَهاءِ وَأَهْلِ الفُتْيا وَهِيَ الأَحْكامُ العامَّةُ في العِباداتِ وَالعاداتِ وَالمُعامَلاتِ وَصِنْفٍ مَخْصُوصٍ بِالقَوْمِ في القِيامِ بِهذِهِ المُجاهَدَةِ وَمُحاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَيْها وَالكَلامِ في الأَذْواقِ وَالمَواجِدِ العارِضَةِ في طَرِيقِها وَكَيْفِيَّةِ التَّرَقِّي مِنْها مِنْ ذَوْقٍ إلى ذَوْقٍ وَشَرْحِ الاصْطِلاحاتِ الَّتي تَدُورُ بَيْنَهُمْ في ذلِكَ فَلَمّا كُتِبَتِ العُلُومُ وَدُوِّنَتْ وَأَلَّفَ الفُقَهاءُ في الفِقْهِ وَأُصُولِهِ وَالكَلامِ وَالتَّفْسِيرِ وَغَيْرِ ذلِكَ كَتَبَ رِجالٌ مِنْ أَهْلِ هذِهِ الطَّرِيقَةِ في طَرِيقِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ كَتَبَ في الوَرَعِ وَمُحاسَبَةِ النَّفْسِ عَلى الاقْتِداءِ في الأَخْذِ وَالتَّرْكِ كَما فَعَلَهُ القُشَيْرِيُّ في كِتابِ الرِّسالَةِ وَالسُّهْرَوَرْدِيُّ في كِتابِ عَوارِفِ المَعارِفِ وَأَمْثالُهُمْ وَجَمَعَ الغَزالِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ في كِتابِ الإحْياءِ فَدَوَّنَ فيهِ أَحْكامَ الوَرَعِ وَالاقْتِداءِ ثُمَّ بَيَّنَ آدابَ القَوْمِ وَسُنَنَهُمْ وَشَرَحَ اصْطِلاحاتِهِمْ في عِباراتِهِمْ وَصارَ عِلْمُ التَّصَوُّفِ في المِلَّةِ عِلْماً مدَوَّناً بَعْدَ أَنْ كانَتِ الطَّرِيقَةُ عِبادَةً فَقَطْ وَكانَتْ أَحْكامُها إنَّما تُتَلَقّى مِنْ صُدُورِ الرِّجالِ كَما وَقَعَ في سائِرِ العُلُومِ الَّتي دُوِّنَتْ بِالكِتابِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالحَدِيثِ وَالفِقْهِ وَالأُصُولِ وَغَيْرِ ذلِكَ . ثُمَّ إنَّ هذِهِ المُجاهَدَةَ وَالخَلْوَةَ وَالذِّكْرَ يَتْبَعُها غالِباً كَشْفُ حِجابِ الحِسِّ وَالاطِّلاعُ عَلى عَوالِمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ لَيْسَ لِصاحِبِ الحِسِّ إدْراكُ شَيْءٍ مِنْها وَالرُّوحُ مِنْ تِلْكَ العَوالِمِ وَسَبَبُ هذا الكَشْفِ أَنَّ الرُّوحَ إذا رَجَعَ عَنِ الحِسِّ الظّاهِرِ إلى الباطِنِ ضَعُفَتْ أَحْوالُ الحِسِّ وَقَوِيَتْ أَحْوالُ الرُّوحِ وَغَلَبَ سُلْطانُهُ وَتَجَدَّدَ نُشُوءُهُ وَأَعانَ عَلى ذلِكَ الذِّكْرُ فَإنَّهُ كَالغِذاءِ لِتَنْمِيَةِ الرُّوحِ وَلا يَزالُ في نُمُوٍّ وَتَزَيُّدٍ إلى أَنْ يَصِيرَ شُهُوداً بَعْدَ أَنْ كانَ عِلْماً وَيَكْشِفُ حِجابَ الحِسِّ وَيَتِمُّ وُجُودُ النَّفْسِ الَّذي لَها مِنْ ذاتِها وَهُوَ عَيْنُ الإدْراكِ فَيَتَعَرَّضُ حِينَئِذٍ لِلمَواهِبِ الرَّبّانِيَّةِ وَالعُلُومِ اللَّدُنِّيَّةِ وَالفَتْحِ الإلٰهِيِّ وَتَقْرُبُ ذاتُهُ في تَحْقِيقِ حَقِيقَتِها مِنَ الأُفُقِ الأَعْلى أُفُقِ المَلائِكَةِ وَهذا الكَشْفُ كَثِيراً ما يَعْرِضُ لِأَهْلِ المُجاهَدَةِ فَيُدْرِكُونَ مِنْ حَقائِقِ

ٱلْوُجودِ مَا لاَ يُدْرِكُ سِوَاهُمْ وَكَذٰلِكَ يُدْرِكُونَ كَثِيراً مِنَ ٱلْوَاقِعَاتِ قَبْلَ وُقُوعِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ بِهِمَمِهِمْ وَقُوَى نُفُوسِهِمْ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلسُّفْلِيَّةِ وَتَصِيرُ طَوْعَ إِرَادَتِهِمْ فَٱلْعُظَمَاءُ مِنْهُمْ لاَ يَعْتَبِرُونَ هٰذَا ٱلْكَشْفَ وَلاَ يَتَصَرَّفُونَ وَلاَ يُخْبِرُونَ عَنْ حَقِيقَةِ شَيْءٍ لَمْ يُؤْمَرُوا بِٱلتَّكَلُّمِ فِيهِ بَلْ يَعُدُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ مِحْنَةً وَيَتَعَوَّذُونَ مِنْهُ إِذَا هَاجَمَهُمْ وَقَدْ كَانَ ٱلصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ عَلَى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْمُجَاهَدَةِ وَكَانَ حَظُّهُمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْكَرَامَاتِ أَوْفَرَ ٱلْحُظُوظِ لٰكِنَّهُمْ لَمْ يَقَعْ لَهُمْ بِهَا عِنَايَةٌ وَفِي فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْهَا وَتَبِعَهُمْ فِي ذٰلِكَ أَهْلُ ٱلطَّرِيقَةِ مِمَّنِ ٱشْتَمَلَتْ رِسَالَةُ ٱلْقُشَيْرِيِّ عَلَى ذِكْرِهِمْ وَمَنْ تَبِعَ طَرِيقَتَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ. ثُمَّ إِنَّ قَوْماً مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ ٱنْصَرَفَتْ عِنَايَتُهُمْ إِلَى كَشْفِ ٱلْحِجَابِ وَٱلْمَدَارِكِ ٱلَّتِي وَرَاءَهُ وَٱخْتَلَفَتْ طُرُقُ ٱلرِّيَاضَةِ عَنْهُمْ فِي ذٰلِكَ بِٱخْتِلاَفِ تَعْلِيمِهِمْ فِي إِمَاتَةِ ٱلْقُوَى ٱلْحِسِّيَّةِ وَتَغْذِيَةِ ٱلرُّوحِ ٱلْعَاقِلِ بِٱلذِّكْرِ حَتَّى يَحْصُلَ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا بِتَمَامِ نَشْوَتِهَا وَتَغْذِيَتِهَا فَإِذَا حَصَلَ ذٰلِكَ زَعَمُوا أَنَّ ٱلْوُجُودَ قَدِ ٱنْحَصَرَ فِي مَدَارِكِهَا حِينَئِذٍ وَأَنَّهُمْ كَشَفُوا ذَوَاتِ ٱلْوُجُودِ وَتَصَوَّرُوا حَقَائِقَهَا كُلَّهَا مِنَ ٱلْعَرْشِ إِلَى ٱلطَّشِّ هٰكَذَا قَالَ ٱلْغَزَالِي رَحِمَهُ ٱللهُ فِي كِتَابِ ٱلْإِحْيَاءِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ صُورَةَ ٱلرِّيَاضَةِ. ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلْكَشْفَ لاَ يَكُونُ صَحِيحاً كَامِلاً عِنْدَهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ نَاشِئاً عَنِ ٱلْاِسْتِقَامَةِ لِأَنَّ ٱلْكَشْفَ قَدْ يَحْصُلُ لِصَاحِبِ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَلْوَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ٱسْتِقَامَةٌ كَالسَّحَرَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُرْتَاضِينَ وَلَيْسَ مُرَادُنَا إِلَّا ٱلْكَشْفَ ٱلنَّاشِئَ عَنِ ٱلْاِسْتِقَامَةِ وَمِثَالُهُ أَنَّ ٱلْمِرْآةَ ٱلصَّقِيلَةَ إِذَا كَانَتْ مُحَدَّبَةً أَوْ مُقَعَّرَةً وَحُوذِيَ بِهَا جِهَةَ ٱلْمَرْئِي فَإِنَّهُ يَتَشَكَّلُ فِيهِ مُعْوَجّاً عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِ وَإِنْ كَانَتْ مُسَطَّحَةً تَشَكَّلَ فِيهَا ٱلْمَرْئِيُّ صَحِيحاً فَٱلْاِسْتِقَامَةُ لِلنَّفْسِ كَٱلْاِنْبِسَاطِ لِلْمِرْآةِ فِيمَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنَ ٱلْأَحْوَالِ وَلَمَّا عُنِيَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بِهٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْكَشْفِ تَكَلَّمُوا فِي حَقَائِقِ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْعَلَوِيَّةِ وَٱلسُّفْلِيَّةِ وَحَقَائِقِ ٱلْمُلْكِ وَٱلرُّوحِ وَٱلْعَرْشِ وَٱلْكُرْسِيِّ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَقَصُرَتْ مَدَارِكُ مَنْ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ عَنْ فَهْمِ أَذْوَاقِهِمْ وَمَوَاجِدِهِمْ فِي ذٰلِكَ وَأَهْلُ ٱلْفُتْيَا بَيْنَ مُنْكِرٍ عَلَيْهِمْ وَمُسَلِّمٍ لَهُمْ وَلَيْسَ ٱلْبُرْهَانُ وَٱلدَّلِيلُ بِنَافِعٍ فِي هٰذَا ٱلطَّرِيقِ رَدّاً وَقَبُولاً إِذْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ ٱلْوُجْدَانِيَّاتِ وَرُبَّمَا قَصَدَ بَعْضُ ٱلْمُصَنِّفِينَ بَيَانَ مَذْهَبِهِمْ فِي كَشْفِ ٱلْوُجُودِ وَتَرْتِيبِ حَقَائِقِهِ فَأَتَى بِٱلْأَغْمَضِ

فالأغمض بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية التي هي مظهر الأحدية وهما معاً صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير ويسمون هذا الصدور بالتجلي وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور لقوله في الحديث الذي يتناقلونه كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني وهذا الكمال في الإيجاد المتنزل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمل من أهل الملة المحمدية وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الأفلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا في عالم الرتق فإذا تجلت فهي في عالم الفتق ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل النظر إلى تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة وهو رأي أغرب من الأول في تعقله وتفاريعه يزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيله بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها وزيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها وكذا القوة الإنسانية مع الحيوانية ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هي القوة الإلهية التي انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من

جهة المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الإلهية وهي في الحقيقة واحدة بسيطة والاعتبار هو المفصل لها كالإنسانية مع الحيوانية ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه وإنما أوجبها عندهم الوهم والخيال والذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء في الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء فإذا عدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك العقلي فإذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل الوجود بل هو بسيط واحد فالحر والبرد والصلابة واللين بل والأرض والماء والنار والسماء والكواكب إنما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل في المدرك من التفصيل الذي ليس في الموجود وإنما هو في المدارك فقط فإذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل إنما هو إدراك واحد وهو أنا لا غيره ويعتبرون ذلك بحال النائم فإنه إذا نام وفقد الحس الظاهر فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة إلا ما يفصله له الخيال قالوا فكذا اليقظان إنما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري ولو قدر فقد مدركه فقد التفصيل وهذا هو معنى قولهم الموهم لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية هذا ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهقان وهو في غاية السقوط لأنا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون عنه وإليه يقيناً مع غيبته عن أعيننا وبوجود السماء المظلة والكواكب وسائر الأشياء الغائبة عنا والإنسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد نفسه في اليقين مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون إن المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة لأنه يخشى على المريد من وقوفه عندها فتخسر صفقته فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة ثم

إنَّ هؤلاء المُتأخرينَ من المتصوِّفةِ المتكلِّمِينَ في الكشفِ وفيما وراءَ الحسِّ توغَّلوا في ذلكَ فذهبَ الكثيرُ منهم إلى الحلولِ والوحدةِ كما أشرنا إليه وملأوا الصُّحفَ منهُ مثلُ الهرويّ في كتابِ المقاماتِ له وغيرهُ وتبعهم ابنُ العربيِّ وابنُ سبعينَ وتلميذهما ابنُ العفيفِ وابنُ الفارضِ والنَّجمُ الإسرائيليُّ في قصائدهم وكان سلفهم مخالطينَ للإسماعيليّةِ المتأخرينَ من الرّافضةِ الدّائنينَ أيضاً بالحلولِ وإلهيّةِ الأئمّةِ مذهباً لم يُعرفْ لأوّلِهِم فأشربَ كلُّ واحدٍ من الفريقينِ مذهبَ الآخرِ واختلطَ كلامُهم وتشابهت عقائدُهم وظهرَ في كلامِ المتصوّفةِ القولُ بالقطبِ ومعناهُ رأسُ العارفينَ يزعمونَ أنّهُ لا يمكنُ أن يُساويهُ أحدٌ في مقامِهِ في المعرفةِ حتّى يقبضهُ اللهُ ثمّ يورّثَ مقامهُ لآخرَ من أهلِ العرفانِ وقد أشارَ إلى ذلكَ ابنُ سينا في كتابِ الإشاراتِ في فصولِ التّصوّفِ منها فقالَ جلَّ جنابُ الحقِّ أن يكونَ شرعةً لكلِّ واردٍ أو يطّلعَ عليه إلاّ الواحدَ بعدَ الواحدِ وهذا كلامٌ لا تقومُ عليهِ حجّةٌ عقليّةٌ ولا دليلٌ شرعيٌّ وإنّما هوَ من أنواعِ الخطابةِ وهوَ بعينِهِ ما تقولُهُ الرّافضةُ ودانوا به ثمّ قالوا بترتيبِ وجودِ الأبدالِ بعدَ هذا القطبِ كما قالهُ الشّيعةُ في النُّقباءِ حتّى أنّهم لمّا أسندوا لباسَ خرقةِ التّصوّفِ ليجعلوهُ أصلاً لطريقتِهم وتخليهم رفعوهُ إلى عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ من هذا المعنى أيضاً وإلاّ فعليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لم يختصَّ من بين الصّحابةِ بتخليةٍ ولا طريقةٍ في لباسٍ ولا حالٍ بل كانَ أبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهما أزهدَ النّاسِ بعدَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ وأكثرهم عبادةً ولم يختصَّ أحدٌ منهم في الدّينِ بشيءٍ يؤثرُ عنهُ في الخصوصِ بل كانَ الصّحابةُ كلّهم أسوةً في الدّينِ والزّهدِ والمجاهدةِ يشهدُ لذلكَ من كلامِ هؤلاءِ المتصوّفةِ في أمرِ الفاطميِّ وما شحنوا كتبهم في ذلكَ ممّا ليسَ لسلفِ المتصوّفةِ فيهِ كلامٌ بنفيٍ أو إثباتٍ وإنّما هو مأخوذٌ من كلامِ الشّيعةِ والرّافضةِ ومذاهبِهم في كتبِهم واللهُ يهدي إلى الحقِّ ثمّ إنَّ كثيراً من الفقهاءِ وأهلِ الفتيا انتدبوا للرّدِّ على هؤلاءِ المتأخرينَ في هذهِ المقالاتِ وأمثالِها وشملوا بالنّكيرِ سائرَ ما وقعَ لهم في الطّريقةِ والحقُّ أنَّ كلامهم معهم فيهِ تفصيلٌ فإنَّ كلامهم في أربعةِ مواضعَ أحدُها الكلامُ على المجاهداتِ وما يحصلُ من الأذواقِ والمواجدِ ومحاسبةِ النّفسِ على الأعمالِ لتحصلَ تلكَ الأذواقُ الّتي

تصير مقاماً ويترقى منه إلى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الأكوان في صدورها عن موجودها وتكونها كما مر وثالثها التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتأول فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لأحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة وأما الكلام في كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني من أئمة الأشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صفة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وإنكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك وهو معلوم مشهور وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطى له دلالة على مرادهم منه لأنها لم توضع إلا للمتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن

عِلْمَ مِنْهُمْ فَضْلُهُ وَاقْتِدَاؤُهُ حُمِلَ عَلَى الْقَصْدِ الْجَمِيلِ مِنْ هٰذَا وَأَنَّ الْعِبَارَةَ عَنِ الْمَوَاجِدِ صَعْبَةٌ لِفُقْدَانِ الْوَضْعِ لَهَا كَمَا وَقَعَ لِأَبِي يَزِيدَ وَأَمْثَالِهِ وَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ فَضْلُهُ وَلَا اشْتَهَرَ فَمُؤَاخَذٌ بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ ذٰلِكَ إِذَا لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا مَا يَحْمِلُنَا عَلَى تَأْوِيلِ كَلَامِهِ وَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمِثْلِهَا وَهُوَ حَاضِرٌ فِي حِسِّهِ وَلَمْ يَمْلِكْهُ الْحَالُ فَمُؤَاخَذٌ أَيْضاً وَلِهٰذَا أَفْتَى الْفُقَهَاءُ وَأَكَابِرُ الْمُتَصَوِّفَةِ بِقَتْلِ الْحَلَّاجِ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي حُضُورٍ وَهُوَ مَالِكٌ لِحَالِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ وَسَلَفُ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ أَهْلِ الرِّسَالَةِ أَعْلَامُ الْمِلَّةِ الَّذِينَ أَشَرْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حِرْصٌ عَلَى كَشْفِ الْحِجَابِ وَلَا هٰذَا النَّوْعِ مِنَ الْإِدْرَاكِ إِنَّمَا هَمُّهُمُ الْاِتِّبَاعُ وَالْاِقْتِدَاءُ مَا اسْتَطَاعُوا وَمَنْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَحْفَلْ بِهِ بَلْ يَفِرُّونَ مِنْهُ وَيَرَوْنَ أَنَّهُ مِنَ الْعَوَائِقِ وَالْمِحَنِ وَأَنَّهُ إِدْرَاكٌ مِنْ إِدْرَاكَاتِ النَّفْسِ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ وَأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ لَا تَنْحَصِرُ فِي مَدَارِكِ الْإِنْسَانِ وَعِلْمُ اللهِ أَوْسَعُ وَخَلْقُهُ أَكْبَرُ وَشَرِيعَتُهُ بِالْهِدَايَةِ أَمْلَكُ فَلَا يَنْطِقُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُدْرِكُونَ بَلْ حَظَرُوا الْخَوْضَ فِي ذٰلِكَ وَمَنَعُوا مَنْ يُكْشَفُ لَهُ الْحِجَابُ مِنْ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْخَوْضِ فِيهِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَهُ بَلْ يَلْتَزِمُونَ طَرِيقَتَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي عَالَمِ الْحِسِّ قَبْلَ الْكَشْفِ مِنَ الْاِتِّبَاعِ وَالْاِقْتِدَاءِ وَيَأْمُرُونَ أَصْحَابَهُمْ بِالْتِزَامِهَا وَهٰكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَالُ الْمُرِيدِ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ

الفصل الثاني عشر

في علم تعبير الرؤيا

هٰذَا الْعِلْمُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَهُوَ حَادِثٌ فِي الْمِلَّةِ عِنْدَمَا صَارَتِ الْعُلُومُ صَنَائِعَ وَكَتَبَ النَّاسُ فِيهَا وَأَمَّا الرُّؤْيَا وَالتَّعْبِيرُ لَهَا فَقَدْ كَانَ مَوْجُوداً فِي السَّلَفِ كَمَا هُوَ فِي الْخَلَفِ وَرُبَّمَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ وَالْأُمَمِ مِنْ قَبْلُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا لِلْاِكْتِفَاءِ فِيهِ بِكَلَامِ الْمُعَبِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَإِلَّا فَالرُّؤْيَا مَوْجُودَةٌ فِي صِنْفِ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلَا بُدَّ مِنْ تَعْبِيرِهَا فَلَقَدْ كَانَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ وَكَذٰلِكَ ثَبَتَ عَنِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَالرُّؤْيَا مُدْرَكٌ مِنْ مَدَارِكِ الْغَيْبِ وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ وَقَالَ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ إِلَّا الرُّؤْيَا

اَلصَّالِحَةُ يَرَاهَا ٱلرَّجُلُ ٱلصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ ٱلْوَحْيِ ٱلرُّؤْيَا فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ ٱلصُّبْحِ وَكَانَ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ٱنْفَتَلَ مِنْ صَلَاةِ ٱلْغَدَاةِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمُ ٱللَّيْلَةَ رُؤْيَا يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ لِيَسْتَبْشِرَ بِمَا وَقَعَ مِنْ ذٰلِكَ مِمَّا فِيهِ ظُهُورُ ٱلدِّينِ وَإِعْزَازُهُ وَأَمَّا ٱلسَّبَبُ فِي كَوْنِ ٱلرُّؤْيَا مُدْرِكًا لِلْغَيْبِ فَهُوَ أَنَّ ٱلرُّوحَ ٱلْقَلْبِيَّ وَهُوَ ٱلْبُخَارُ ٱللَّطِيفُ ٱلْمُنْبَعِثُ مِنْ تَجْوِيفِ ٱلْقَلْبِ ٱللَّحْمِيِّ يَنْتَشِرُ فِي ٱلشِّرْيَانَاتِ وَمَعَ ٱلدَّمِ فِي سَائِرِ ٱلْبَدَنِ وَبِهِ تَكْمُلُ أَفْعَالُ ٱلْقُوَى ٱلْحَيَوَانِيَّةِ وَإِحْسَاسُهَا فَإِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْمَلَالُ بِكَثْرَةِ ٱلتَّصَرُّفِ فِي ٱلْإِحْسَاسِ بِٱلْحَوَاسِّ ٱلْخَمْسِ وَتَصْرِيفِ ٱلْقُوَى ٱلظَّاهِرَةِ وَغَشِيَ سَطْحَ ٱلْبَدَنِ مَا يَغْشَاهُ مِنْ بَرْدِ ٱللَّيْلِ ٱنْخَنَسَ ٱلرُّوحُ مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِ ٱلْبَدَنِ إِلَى مَرْكَزِهِ ٱلْقَلْبِيِّ فَيَسْتَجِمُّ بِذٰلِكَ لِمُعَاوَدَةِ فِعْلِهِ فَتَعَطَّلَتِ ٱلْحَوَاسُّ ٱلظَّاهِرَةُ كُلُّهَا وَذٰلِكَ هُوَ مَعْنَى ٱلنَّوْمِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ ٱلْكِتَابِ ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلرُّوحَ ٱلْقَلْبِيَّ هُوَ مَطِيَّةٌ لِلرُّوحِ ٱلْعَاقِلِ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلرُّوحُ ٱلْعَاقِلُ مُدْرِكٌ لِجَمِيعِ مَا فِي عَالَمِ ٱلْأَمْرِ بِذَاتِهِ إِذْ حَقِيقَتُهُ وَذَاتُهُ عَيْنُ ٱلْإِدْرَاكِ وَإِنَّمَا يَمْنَعُ مِنْ تَعَقُّلِهِ لِلْمَدَارِكِ ٱلْغَيْبِيَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ حِجَابِ ٱلِٱشْتِغَالِ بِٱلْبَدَنِ وَقُوَاهُ وَحَوَاسِّهِ فَلَوْ قَدْ خَلَا مِنْ هٰذَا ٱلْحِجَابِ وَتَجَرَّدَ عَنْهُ لَرَجَعَ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَهُوَ عَيْنُ ٱلْإِدْرَاكِ فَيَعْقِلُ كُلَّ مُدْرَكٍ فَإِذَا تَجَرَّدَ عَنْ بَعْضِهَا خَفَّتْ شَوَاغِلُهُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ إِدْرَاكِ لَمْحَةٍ مِنْ عَالَمِهِ بِقَدْرِ مَا تَجَرَّدَ لَهُ وَهُوَ فِي هٰذِهِ ٱلْحَالَةِ قَدْ خَفَّتْ شَوَاغِلُ ٱلْحِسِّ ٱلظَّاهِرِ كُلُّهَا وَهِيَ ٱلشَّاغِلُ ٱلْأَعْظَمُ فَٱسْتَعَدَّ لِقَبُولِ مَا هُنَالِكَ مِنَ ٱلْمَدَارِكِ ٱللَّائِقَةِ مِنْ عَالَمِهِ وَإِذَا أَدْرَكَ مَا يُدْرِكُ مِنْ عَوَالِمِهِ رَجَعَ إِلَى بَدَنِهِ إِذْ هُوَ مَا دَامَ فِي بَدَنِهِ جِسْمَانِيٌّ لَا يُمْكِنُهُ ٱلتَّصَرُّفُ إِلَّا بِٱلْمَدَارِكِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَٱلْمَدَارِكُ ٱلْجِسْمَانِيَّةُ لِلْعِلْمِ إِنَّمَا هِيَ ٱلدِّمَاغِيَّةُ وَٱلْمُتَصَرِّفُ مِنْهَا هُوَ ٱلْخَيَالُ فَإِنَّهُ يَنْتَزِعُ مِنَ ٱلصُّوَرِ ٱلْمَحْسُوسَةِ صُوَرًا خَيَالِيَّةً ثُمَّ يَدْفَعُهَا إِلَى ٱلْحَافِظَةِ تَحْفَظُهَا لَهُ إِلَى وَقْتِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا عِنْدَ ٱلنَّظَرِ وَٱلِٱسْتِدْلَالِ وَكَذٰلِكَ تُجَرِّدُ ٱلنَّفْسُ مِنْهَا صُوَرًا أُخْرَى نَفْسَانِيَّةً عَقْلِيَّةً فَيَتَرَقَّى ٱلتَّجْرِيدُ مِنَ ٱلْمَحْسُوسِ إِلَى ٱلْمَعْقُولِ وَٱلْخَيَالُ وَاسِطَةٌ بَيْنَهُمَا وَلِذٰلِكَ إِذَا أَدْرَكَتِ ٱلنَّفْسُ مِنْ عَالَمِهَا مَا تُدْرِكُهُ أَلْقَتْهُ إِلَى ٱلْخَيَالِ يُصَوِّرُهُ بِٱلصُّورَةِ ٱلْمُنَاسِبَةِ لَهُ وَيَدْفَعُهُ إِلَى ٱلْحِسِّ ٱلْمُشْتَرَكِ فَيَرَاهُ ٱلنَّائِمُ كَأَنَّهُ مَحْسُوسٌ فَيَتَنَزَّلُ ٱلْمُدْرَكُ مِنَ ٱلرُّوحِ ٱلْعَقْلِيِّ إِلَى ٱلْحِسِّيِّ وَٱلْخَيَالُ أَيْضًا وَاسِطَةٌ هٰذِهِ حَقِيقَةُ

ٱلرُّؤْيا وَمِنْ هٰـذا ٱلتَّقْرِيرِ يَظْهَرُ لَكَ ٱلفَرْقُ بَيْنَ ٱلرُّؤْيا ٱلصَّالِحَةِ وَأَضْغاثِ ٱلأَحلام ٱلـكَاذِبَةِ فَإِنَّهَا كُلَّهَا صُوَرٌ فِي ٱلْخَيالِ حالَةَ ٱلنَّوْمِ وَلٰـكِنْ إِنْ كانَتْ تِلْكَ ٱلصُّوَر مُتَنَزِّلَةً مِنَ ٱلرُّوحِ ٱلعَقْلِيِّ ٱلمُدْرِكِ فَهُوَ رُؤْيا وَإِنْ كانَتْ مَأْخُوذَةً مِنَ ٱلصُّوَرِ ٱلَّتِي فِي ٱلْحافِظَةِ ٱلَّتِي كانَ ٱلْخَيالُ أَوْدَعَها إِيَّاهَا مُنْذُ ٱلْيَقْظَةِ فَهِيَ أَضْغاثُ أَحلامٍ وَأَمَّا مَعْنى ٱلتَّعْبِيرِ فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلرُّوحَ ٱلعَقْلِيَّ إِذا أَدْرَكَ مُدْرَكَهُ وَأَلْقَاهُ إِلى ٱلْخَيالِ فَصَوَّرَهُ فَإِنَّما يُصَوِّرُهُ فِي ٱلصُّوَرِ ٱلْمُناسِبَةِ لِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى بَعْضَ ٱلشَّيْءِ كَمَا يُدْرِكُ مَعْنَى ٱلسُّلْطَان ٱلأَعْظَمِ فَيُصَوِّرُهُ ٱلْخَيالُ بِصُورَةِ ٱلْبَحْرِ أَوْ يُدْرِكُ ٱلْعَداوَةَ فَيُصَوِّرُهَا ٱلْخَيالُ فِي صُورَةِ ٱلْحَيَّةِ فَإِذَا ٱسْتَيْقَظَ وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى ٱلْبَحْرَ أَوِ ٱلْحَيَّةَ فَيَنْظُرُ ٱلْمُعَبِّر بِقُوَّةِ ٱلتَّشْبِيهِ بَعْدَ أَنْ يَتَيَقَّنَ أَنَّ ٱلبَحْرَ صُورَةٌ مَحْسُوسَةٌ وَأَنَّ ٱلْمُدْرَكَ وَرَاءَهَـا وَهُو يَهْتَدِي بِقَرائِنَ أُخْرَى تُعَيِّنُ لَهُ ٱلْمُدْرَكَ فَيَقُولُ مَثَلًا هُوَ ٱلسُّلْطَانُ لِأَنَّ ٱلبَحْرَ خَلْقٌ عَظِيم يُناسِبُ أَنْ يُشَبَّهَ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَيَّةُ يُناسِبُ أَنْ تُشَبَّهَ بِٱلعَدُوِّ لِعِظَمِ ضَرَرِهَا وَكَذَا ٱلأَوَانِي تُشَبَّهُ بِٱلنِّسَاءِ لِأَنَّهُنَّ أَوْعِيَةٌ وَأَمْثالُ ذٰلِكَ وَمِنَ ٱلمَرْئِيِّ مَا يَـكُونُ صَرِيحًا لا يَفْتَقِرُ إِلى تَعْبِيرٍ لِجَلائِهَا وَوُضُوحِهَا أَوْ لِقُرْبِ ٱلشَّبَهِ فِيهَا بَيْنَ ٱلْمُدْرَكِ وَشِبْهِهِ وَلِهٰذا وَقَعَ فِي ٱلصَّحِيحِ ٱلرُّؤْيا ثَلاثٌ رُؤْيَا مِنَ ٱللهِ وَرُؤْيا مِنَ ٱلْمَلَكِ وَرُؤْيا مِنَ ٱلشَّيْطَان فَٱلرُّؤْيا ٱلَّتِي مِنَ ٱللهِ هِيَ ٱلصَّرِيحَةُ ٱلَّتِي لا تَفْتَقِرُ إِلى تَأْوِيلٍ وَٱلَّتِي مِنَ ٱلْمَلَكِ هِيَ ٱلرُّؤْيا ٱلصَّادِقَةُ تَفْتَقِرُ إِلى ٱلتَّعْبِيرِ وَٱلرُّؤْيا ٱلَّتِي مِنَ ٱلشَّيْطَانِ هِيَ ٱلأَضْغَاثُ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْخَيال إِذَا أَلْقَى إِلَيْهِ ٱلرُّوحُ مُدْرَكَهُ فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ فِي ٱلْقَوالِبِ ٱلْمُعْتَادَةِ لِلْحِسِّ وَمَا لَمْ يَـكُن ٱلْحِسُّ أَدْرَكَهُ قَطُّ فَلا يُصَوِّرُ فِيهِ فَلا يُمْـكِنُ مِنْ وَلَدٍ أَعْمَى أَنْ يُصَوَّرَ لَهُ ٱلسُّلْطَان بِٱلْبَحْرِ وَلا ٱلْعَدُوُّ بِٱلْحَيَّةِ وَلا ٱلنِّسَاءُ بِٱلأَوانِي لِأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا مِنْ هٰذِهِ وَإِنَّمَا يُصَوِّر لَهُ ٱلْخَيالُ أَمْثالَ هٰذِهِ فِي شِبْهِهَا وَمُناسِبِهَا مِنْ جِنْسِ مَدارِكِهِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَسْمُوعَات وَٱلْمَشْمُومَاتُ وَلْيَتَحَفَّظِ ٱلْمُعَبِّرُ مِنْ مِثْلِ هٰذَا فَرُبَّمَا ٱخْتَلَطَ بِهِ ٱلتَّعْبِيرُ وَفَسَدَ قانُونُهُ ثُمَّ إِنَّ عِلْمَ ٱلتَّعْبِيرِ عِلْمٌ بِقَوَانِينَ كُلِّيَّةٍ يَبْنِي عَلَيْهَا ٱلْمُعَبِّرُ عِبَارَةَ مَا يُقَصُّ عَلَيْهِ وَتَأْوِيلَهُ كَمَا يَقُولُونَ ٱلْبَحْرُ يَدُلُّ عَلى ٱلسُّلْطَانِ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ ٱلبَحْرُ يَدُلُّ عَلى ٱلْغَيْظِ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ ٱلْبَحْرُ يَدُلُّ عَلى ٱلْهَمِّ وَٱلأَمْرِ ٱلْفَادِحِ وَمِثْلَ مَا يَقُولُونَ ٱلْحَيَّةُ تَدُلُّ عَلى ٱلْعَدُوِّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ هِيَ كَاتِمُ سِرٍّ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُونَ تَدُلُّ عَلى

ٱلْحَيَاةِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ فَيَحْفَظُ ٱلْمُعَبِّرُ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ ٱلْكُلِّيَّةَ وَيُعَبِّرُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِمَا تَقْتَضِيهِ ٱلْقَرَائِنُ ٱلَّتِي تُعَيِّنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ مَا هُوَ أَلْيَقُ بِٱلرُّؤْيَا وَتِلْكَ ٱلْقَرَائِنُ مِنْهَا فِي ٱلْيَقْظَةِ وَمِنْهَا فِي ٱلنَّوْمِ وَمِنْهَا مَا يَنْقَدِحُ فِي نَفْسِ ٱلْمُعَبِّرِ بِٱلْخَاصِّيَّةِ ٱلَّتِي خُلِقَتْ فِيهِ وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَلَمْ يَزَلْ هٰذا ٱلْعِلْمُ مُتَنَاقَلًا بَيْنَ ٱلسَّلَفِ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ فِيهِ مِنْ أَشْهَرِ ٱلْعُلَمَاءِ وَكُتِبَ عَنْهُ فِي ذٰلِكَ ٱلْقَوَانِينُ وَتَنَاقَلَهَا ٱلنَّاسُ لِهٰذا ٱلْعَهْدِ وَأَلَّفَ ٱلْكَرْمَانِيُّ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ أَلَّفَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ وَأَكْثَرُوا وَٱلْمُتَدَاوَلُ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ لِهٰذا ٱلْعَهْدِ كُتُبُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱلْقَيْرَوَانِيِّ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْقَيْرَوَانِ مِثْلُ ٱلْمُمْتِعِ وَغَيْرِهِ وَكِتَابُ ٱلْإِشَارَةِ لِلسَّالِمِيِّ وَهُوَ عِلْمٌ مُضِيءٌ بِنُورِ ٱلنُّبُوَّةِ لِلْمُنَاسَبَةِ ٱلَّتِي بَيْنَهُمَا كَمَا وَقَعَ فِي ٱلصَّحِيحِ وَٱللهُ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ

الفصل الثالث عشر

في العلوم العقلية واصنافها

وَأَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ذُو فِكْرٍ فَهِيَ غَيْرُ مُخْتَصَّةٍ بِمِلَّةٍ بَلْ يُوَجَّهُ ٱلنَّظَرُ فِيهَا إِلَى أَهْلِ ٱلْمِلَلِ كُلِّهِمْ وَيَسْتَوُونَ فِي مَدَارِكِهَا وَمَبَاحِثِهَا وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلنَّوْعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ مُنْذُ كَانَ عُمْرَانُ ٱلْخَلِيقَةِ وَتُسَمَّى هٰذِهِ ٱلْعُلُومُ عُلُومَ ٱلْفَلْسَفَةِ وَٱلْحِكْمَةِ وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ ٱلْأَوَّلُ عِلْمُ ٱلْمَنْطِقِ وَهُوَ عِلْمٌ يَعْصِمُ ٱلذِّهْنَ عَنِ ٱلْخَطَإِ فِي ٱقْتِنَاصِ ٱلْمَطَالِبِ ٱلْمَجْهُولَةِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْحَاصِلَةِ ٱلْمَعْلُومَةِ وَفَائِدَتُهُ تَمْيِيزُ ٱلْخَطَإِ مِنَ ٱلصَّوَابِ فِيمَا يَلْتَمِسُهُ ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ وَعَوَارِضِهَا لِيَقِفَ عَلَى تَحْقِيقِ ٱلْحَقِّ فِي ٱلْكَائِنَاتِ بِمُنْتَهَى فِكْرِهِ ثُمَّ ٱلنَّظَرُ بَعْدَ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ إِمَّا فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ مِنَ ٱلْأَجْسَامِ ٱلْعُنْصُرِيَّةِ وَٱلْمُكَوَّنَةِ عَنْهَا مِنَ ٱلْمَعْدِنِ وَٱلنَّبَاتِ وَٱلْحَيَوَانِ وَٱلْأَجْسَامِ ٱلْفَلَكِيَّةِ وَٱلْحَرَكَاتِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَٱلنَّفْسِ ٱلَّتِي تَنْبَعِثُ عَنْهَا ٱلْحَرَكَاتُ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَيُسَمَّى هٰذا ٱلْفَنُّ بِٱلْعِلْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَهُوَ ٱلثَّانِي مِنْهَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي وَرَاءَ ٱلطَّبِيعَةِ مِنَ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْعِلْمَ ٱلْإِلٰهِيَّ وَهُوَ ٱلثَّالِثُ مِنْهَا وَٱلْعِلْمُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلْمَقَادِيرِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ وَتُسَمَّى ٱلتَّعَالِيمَ أَوَّلُهَا عِلْمُ ٱلْهَنْدَسَةِ وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْمَقَادِيرِ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ إِمَّا ٱلْمُنْفَصِلَةِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا مَعْدُودَةً أَوِ ٱلْمُتَّصِلَةِ وَهِيَ إِمَّا ذُو بُعْدٍ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْخَطُّ أَوْ ذُو بُعْدَيْنِ وَهُوَ ٱلسَّطْحُ أَوْ ذُو أَبْعَادٍ ثَلَاثَةٍ وَهُوَ

ٱلْجِسْمُ ٱلتَّعْلِيمِيُّ يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَقَادِيرِ وَمَا يَعْرِضُ لَهَا إِمَّا مِنْ حَيْثُ ذَاتُهَا أَوْ مِنْ حَيْثُ نِسْبَةُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَانِيهَا عِلْمُ ٱلْأَرْتَمَاطِيقِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا يَعْرِضُ لِلْكَمِّ ٱلْمُنْفَصِلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعَدَدُ وَيُؤْخَذُ لَهُ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ وَٱلْعَوَارِضِ ٱللَّاحِقَةِ وَثَالِثُهَا عِلْمُ ٱلْمُوسِيقَى وَهُوَ مَعْرِفَةُ نِسَبِ ٱلْأَصْوَاتِ وَٱلنَّغَمِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَتَقْدِيرُهَا بِٱلْعَدَدِ وَثَمَرَتُهُ مَعْرِفَةُ تَلَاحِينِ ٱلْغِنَاءِ وَرَابِعُهَا عِلْمُ ٱلْهَيْئَةِ وَهُوَ تَعْيِينُ ٱلْأَشْكَالِ لِلْأَفْلَاكِ وَحَصْرُ أَوْضَاعِهَا وَتَعَدُّدُهَا لِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنَ ٱلسَّيَّارَةِ وَٱلْقِيَامُ عَلَى مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ مِنْ قِبَلِ ٱلْحَرَكَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ ٱلْمُشَاهَدَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَمِنْ رُجُوعِهَا وَٱسْتِقَامَتِهَا وَإِقْبَالِهَا وَإِدْبَارِهَا فَهٰذِهِ أُصُولُ ٱلْعُلُومِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ وَهِيَ سَبْعَةٌ ٱلْمَنْطِقُ وَهُوَ ٱلْمُقَدَّمُ مِنْهَا وَبَعْدَهُ ٱلتَّعَالِيمُ فَٱلْأَرْتَمَاطِيقِي أَوَّلاً ثُمَّ ٱلْهَنْدَسَةُ ثُمَّ ٱلْهَيْئَةُ ثُمَّ ٱلْمُوسِيقَى ثُمَّ ٱلطَّبِيعِيَّاتُ ثُمَّ ٱلْإِلٰهِيَّاتُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فُرُوعٌ تَتَفَرَّعُ عَنْهُ فَمِنْ فُرُوعِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ ٱلطِّبُّ وَمِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلْعَدَدِ عِلْمُ ٱلْحِسَابِ وَٱلْفَرَائِضِ وَٱلْمُعَامَلَاتِ وَمِنْ فُرُوعِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلْأَزْيَاجُ وَهِيَ قَوَانِينُ لِحِسَابِ حَرَكَاتِ ٱلْكَوَاكِبِ وَتَعْدِيلِهَا لِلْوُقُوفِ عَلَى مَوَاضِعِهَا مَتَى قُصِدَ ذٰلِكَ وَمِنْ فُرُوعِهَا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلنُّجُومِ عَلَى ٱلْأَحْكَامِ ٱلنُّجُومِيَّةِ وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى آخِرِهَا وَٱعْلَمْ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ عُنِيَ بِهَا فِي ٱلْأَجْيَالِ ٱلَّذِينَ عَرَفْنَا أَخْبَارَهُمُ ٱلْأُمَّتَانِ ٱلْعَظِيمَتَانِ فِي ٱلدَّوْلَةِ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَهُمَا فَارِسُ وَٱلرُّومُ فَكَانَتْ أَسْوَاقُ ٱلْعُلُومِ نَافِقَةً لَدَيْهِمْ عَلَى مَا بَلَغَنَا لِمَا كَانَ ٱلْعُمْرَانُ مَوْفُوراً فِيهِمْ وَٱلدَّوْلَةُ وَٱلسُّلْطَانُ قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ وَعَصْرِهِ لَهُمْ فَكَانَ لِهٰذِهِ ٱلْعُلُومِ بُحُورٌ زَاخِرَةٌ فِي آفَاقِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ وَكَانَ لِلْكِلْدَانِيِّينَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلسِّرْيَانِيِّينَ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنَ ٱلْقِبْطِ عِنَايَةٌ بِٱلسِّحْرِ وَٱلنِّجَامَةِ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ ٱلطَّلَاسِمِ وَأَخَذَ ذٰلِكَ عَنْهُمُ ٱلْأُمَمُ مِنْ فَارِسَ وَيُونَانَ فَٱخْتُصَّ بِهَا ٱلْقِبْطُ وَطَمَى بَحْرُهَا فِيهِمْ كَمَا وَقَعَ فِي ٱلْمَتْلُوِّ مِنْ خَبَرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَشَأْنِ ٱلسَّحَرَةِ وَمَا نَقَلَهُ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ مِنْ شَأْنِ ٱلْبَرَابِي بِصَعِيدِ مِصْرَ ثُمَّ تَتَابَعَتِ ٱلْمِلَلُ بِحَظْرِ ذٰلِكَ وَتَحْرِيمِهِ فَدَرَسَتْ عُلُومُهُ وَبَطَلَتْ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَقَايَا يَتَنَاقَلُهَا مُنْتَحِلُو هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا مَعَ أَنَّ سُيُوفَ ٱلشَّرْعِ قَائِمَةٌ عَلَى ظُهُورِهَا مَانِعَةٌ مِنِ ٱخْتِبَارِهَا وَأَمَّا ٱلْفُرْسُ فَكَانَ شَأْنُ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ عِنْدَهُمْ عَظِيماً وَنِطَاقُهَا مُتَّسِعاً لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ دَوْلَتُهُمْ مِنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱتِّصَالِ ٱلْمُلْكِ وَلَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هٰذِهِ ٱلْعُلُومَ إِنَّمَا وَصَلَتْ إِلَى يُونَانَ مِنْهُمْ

حينَ قَتَلَ ٱلإسكَندَرُ دارًا وَغَلَبَ عَلَى مَملَكَةِ ٱلكِينيَّةِ فَٱستَولَى عَلَى كُتُبِهِمْ وَعُلُومِهِم مِمَّا لاَ يأْخُذُهُ ٱلحَصرُ وَلَمَّا فُتِحَتْ أَرضُ فَارِسَ وَوَجَدُوا فِيهَا كُتُباً كَثِيرَةً كَتَبَ سَعدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ إِلَى عُمَرَ بنِ ٱلخَطَّابِ لِيَستَأذِنَهُ فِي شَأنِهَا وَتَنقِيلِهَا لِلمُسلِمِينَ فَكَتَبَ إِلَيهِ عُمَرُ أَنِ ٱطرَحُوهَا فِي ٱلمَاءِ فَإِنْ يَكُنْ مَا فِيهَا هُدًى فَقَدْ هَدَانَا ٱللهُ بِأَهدَى مِنهُ وَإِن يَكُنْ ضَلاَلاً فَقَدْ كَفَانَا ٱللهُ فَطَرَحُوهَا فِي ٱلمَاءِ أَوْ فِي ٱلنَّارِ وَذَهَبَتْ عُلُومُ ٱلفُرسِ فِيهَا عنْ أَنْ تَصِلَ إِلَينَا . وَأَمَّا ٱلرُّومُ فَكَانَتِ ٱلدَّولَةُ مِنهُم لِيُونَانَ أَوَّلاً وَكَانَ لِهَذِهِ ٱلعُلُومِ بَينَهُمْ مَجَالٌ رَحبٌ وَحَمَلَهَا مَشَاهِيرُ مِنْ رِجَالِهِمْ مِثْلُ أَسَاطِينِ ٱلحِكمَةِ وَغَيرِهِم وَٱختُصَّ فِيهَا ٱلمَشَّاءُونَ مِنهُمْ أَصحَابُ ٱلرِّوَاقِ بِطَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ فِي ٱلتَّعلِيمِ كَانُوا يَقرَأُونَ فِي رِوَاقٍ يُظِلُّهُمْ مِنَ ٱلشَّمسِ وَٱلبَردِ عَلَى مَا زَعَمُوا وَٱتَّصَلَ فِيهَا سَنَدُ تَعلِيمِهِمْ عَلَى مَا يَزعُمُونَ مِنْ لَدُنْ لُقمَانَ ٱلحَكِيمِ فِي تِلمِيذِهِ بُقرَاطَ ٱلدَّنِّ ثُمَّ إِلَى تِلمِيذِهِ أَفلاَطُونَ ثُمَّ إِلَى تِلمِيذِهِ أَرِسطُو ثُمَّ إِلَى تِلمِيذِهِ ٱلإِسكَندَرِ ٱلأَفرُودَسِيِّ وَتَامِسطِيُونَ وَغَيرِهِم وَكَانَ أَرِسطُو مُعَلِّماً لِلإِسكَندَرِ مَلِكِهِمْ ٱلَّذِي غَلَبَ ٱلفُرسَ عَلَى مُلكِهِمْ وَٱنتَزَعَ ٱلمُلكَ مِنْ أَيدِيهِمْ وَكَانَ أَرسَخَهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلعُلُومِ قَدَماً وَأَبعَدَهُمْ فِيهِ صِيتاً وَكَانَ يُسَمَّى ٱلمُعَلِّمَ ٱلأَوَّلَ فَطَارَ لَهُ فِي ٱلعَالَمِ ذِكرٌ . وَلَمَّا ٱنقَرَضَ أَمرُ ٱليُونَانِ وَصَارَ ٱلأَمرُ لِلقَيَاصِرَةِ وَأَخَذُوا بِدِينِ ٱلنَّصرَانِيَّةِ هَجَرُوا تِلكَ ٱلعُلُومَ كَمَا تَقتَضِيهِ ٱلمِلَلُ وَٱلشَّرَائِعُ فِيهَا وَبَقِيَت فِي صُحُفِهَا وَدَوَاوِينِهَا مُخَلَّدَةً بَاقِيَةً فِي خَزَائِنِهِمْ قَدْ مَلَكُوا ٱلشَّامَ وَكُتُبُ هٰذِهِ ٱلعُلُومِ بَاقِيَةٌ فِيهِمْ ثُمَّ جَاءَ ٱللهُ بِٱلإِسلاَمِ وَكَانَ لِأَهلِهِ ٱلظُّهُورُ ٱلَّذِي لاَ كِفَاءَ لَهُ وَٱبتَزُّوا ٱلرُّومَ مُلكَهُمْ فِيمَا ٱبتَزُّوهُ لِلأُمَمِ وَٱبتَدَأَ أَمرُهُمْ بِٱلسَّذَاجَةِ وَٱلغَفلَةِ عَنِ ٱلصَّنَائِعِ حَتَّى إِذَا تَبَجَّحَ مِنَ ٱلسُّلطَانِ وَٱلدَّولَةِ وَأَخَذَ ٱلحَضَارَةَ بِٱلحَظِّ ٱلَّذِي لَمْ يَكُنْ لِغَيرِهِمْ مِنَ ٱلأُمَمِ وَتَفَنَّنُوا فِي ٱلصَّنَائِعِ وَٱلعُلُومِ تَشَوَّقُوا إِلَى ٱلاِطِّلاَعِ عَلَى هٰذِهِ ٱلعُلُومِ ٱلحِكمِيَّةِ بِمَا سَمِعُوا مِنَ ٱلأَسَاقِفَةِ وَٱلأَقِسَّةِ ٱلمُعَاهِدِينَ بَعضَ ذِكرٍ مِنهَا وَبِمَا تَسمُو إِلَيهِ أَفكَارُ ٱلإِنسَانِ فِيهَا فَبَعَثَ أَبُو جَعفَرٍ ٱلمَنصُورُ إِلَى مَلِكِ ٱلرُّومِ أَنْ يَبعَثَ إِلَيهِ بِكُتُبِ ٱلتَّعَالِيمِ مُتَرجَمَةً فَبَعَثَ إِلَيهِ بِكِتَابِ أُوقلِيدِسَ وَبَعضِ كُتُبِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ فَقَرَأَهَا ٱلمُسلِمُونَ وَٱطَّلَعُوا عَلَى مَا فِيهَا وَٱزدَادُوا حِرصاً عَلَى ٱلظَّفَرِ بِمَا بَقِيَ مِنهَا وَجَاءَ ٱلمَأمُونُ بَعدَ ذٰلِكَ وَكَانَتْ لَهُ فِي ٱلعِلمِ رَغبَةٌ بِمَا كَانَ يَنتَحِلُهُ فَٱنبَعَثَ لِهٰذِهِ ٱلعُلُومِ حِرصاً وَأَوفَدَ ٱلرُّسُلَ عَلَى مُلُوكِ ٱلرُّومِ

في ٱستِخْرَاجِ عُلُومِ ٱليُونانِيِّينَ وَٱنْتِسَاخِهَا بِٱلْخَطِّ ٱلعَرَبِيِّ وَبَعَثَ ٱلمُتَرْجِمِينَ لِذٰلِكَ فَأَوْعَى مِنْهُ وَٱسْتَوْعَبَ وَعَكَفَ عَلَيْهَا ٱلنُّظَّارُ مِنْ أَهْلِ ٱلإِسْلامِ وَحَذَقُوا في فُنُونِهَا وَٱنْتَهَتْ إلى ٱلغَايَةِ أَنْظَارُهُمْ فِيهَا وَخَالَفُوا كَثِيراً مِنْ آرَاءِ ٱلمُعَلِّمِ ٱلأَوَّلِ وَٱخْتَصُّوهُ بِٱلرَّدِّ وَٱلقَبُولِ لِوُقُوفِ ٱلشُّهْرَةِ عِنْدَهُ وَدَوَّنُوا في ذٰلِكَ ٱلدَّوَاوِينَ وَأَرْبَوْا عَلى مَنْ تَقَدَّمَهُمْ في هٰذِهِ ٱلعُلُومِ وَكَانَ مِنْ أَكَابِرِهِمْ في ٱلمِلَّةِ أَبُو نَصْرٍ ٱلفَارَابِيُّ وَأَبُو عَلِيِّ بْنُ سِينَا بِٱلمَشْرِقِ وَٱلقَاضِي أَبُو ٱلوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ وَٱلوَزِيرُ أَبُو بَكْرِ بْنُ ٱلصَّائِغِ بِٱلأَنْدَلُسِ إلى آخَرِينَ بَلَغُوا ٱلغَايَةَ في هٰذِهِ ٱلعُلُومِ وَٱخْتَصَّ هٰؤُلاءِ بِٱلشُّهْرَةِ وَٱلذِّكْرِ وَٱقْتَصَرَ كَثِيرُونَ عَلى ٱنْتِحَالِ ٱلتَّعَالِيمِ وَمَا يَنْضَافُ إِلَيْهَا مِنْ عُلُومِ ٱلنِّجَامَةِ وَٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَسْمَاتِ وَوَقَفَتِ ٱلشُّهْرَةُ في هٰذا ٱلمُنْتَحَلِ عَلى مَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ ٱلمَجْرِيطِيِّ مِنْ أَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ وَتِلْمِيذِهِ وَدَخَلَ عَلى ٱلمِلَّةِ مِن هٰذِهِ ٱلعُلُومِ وَأَهْلِهَا دَاخِلَةٌ وَٱسْتَهْوَتِ ٱلكَثِيرَ مِنَ ٱلنَّاسِ بِمَا جَنَحُوا إِلَيْهَا وَقَلَّدُوا آرَاءَهَا وَٱلذَّنْبُ في ذٰلِكَ لِمَنِ ٱرْتَكَبَهُ وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ مَا فَعَلُوهُ. ثُمَّ إِنَّ ٱلمَغْرِبَ وَٱلأَنْدَلُسَ لَمَّا رَكَدَتْ رِيحُ ٱلعُمْرَانِ بِهِمَا وَتَنَاقَصَتِ ٱلعُلُومُ بِتَنَاقُصِهِ ٱضْمَحَلَّ ذٰلِكَ مِنْهُمَا إِلَّا قَلِيلاً مِن رُسُومِهِ تَجِدُهَا في تَفَارِيقَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَتَحْتَ رَقَبَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلسُّنَّةِ وَيَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ ٱلمَشْرِقِ أَنَّ بَضَائِعَ هٰذِهِ ٱلعُلُومِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَهُمْ مَوْفُورَةً وَخُصُوصاً في عِرَاقِ ٱلعَجَمِ وَمَا بَعْدَهُ فِيمَا وَرَاءَ ٱلنَّهْرِ وَأَنَّهُمْ عَلى بَحْرٍ مِنَ ٱلعُلُومِ ٱلعَقْلِيَّةِ لِتَوَفُّرِ عُمْرَانِهِمْ وَٱسْتِحْكَامِ ٱلحَضَارَةِ فِيهِمْ وَلَقَدْ وَقَفْتُ بِمِصْرَ عَلى تَآلِيفَ مُتَعَدِّدَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ هَرَاةَ مِنْ بِلادِ خُرَاسَانَ يُشْهَرُ بِسَعْدِ ٱلدِّينِ ٱلتَّفْتَازَانِيِّ مِنْهَا في عِلْمِ ٱلكَلامِ. وَأُصُولِ ٱلفِقْهِ وَٱلبَيَانِ تَشْهَدُ بِأَنَّ لَهُ مَلَكَةً رَاسِخَةً في هٰذِهِ ٱلعُلُومِ وَفي أَثْنَائِهَا مَا يَدُلُّ عَلى أَنَّ لَهُ ٱطِّلاعاً عَلى ٱلعُلُومِ ٱلحِكْمِيَّةِ وَقَدَماً عَالِيَةً في سَائِرِ ٱلفُنُونِ ٱلعَقْلِيَّةِ وَٱللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ كَذٰلِكَ بَلَغَنَا لِهٰذَا ٱلعَهْدِ أَنَّ هٰذِهِ ٱلعُلُومَ ٱلفَلْسَفِيَّةَ بِبِلادِ ٱلإِفْرَنْجَةِ مِنْ أَرْضِ رُومَةَ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ ٱلعُدْوَةِ ٱلشَّمَالِيَّةِ نَافِقَةُ ٱلأَسْوَاقِ وَأَنَّ رُسُومَهَا هُنَالِكَ مُتَجَدِّدَةٌ وَمَجَالِسَ تَعْلِيمِهَا مُتَعَدِّدَةٌ وَدَوَاوِينَهَا جَامِعَةٌ مُتَوَفِّرَةٌ وَطَلَبَتَهَا مُتَكَثِّرَةٌ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا هُنَالِكَ وَهُوَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ.

الفصل الرابع عشر

في العلوم العددية

وَأَوَّلُهَا ٱلْأَرِتمَاطِيقِيُّ وَهُوَ مَعْرِفَةُ خَوَاصِّ ٱلْأَعْدَادِ مِنْ حَيْثُ ٱلتَّأْلِيفُ إِمَّا عَلَى ٱلتَّوَالِي أَوْ بِٱلتَّضْعِيفِ مِثْلَ أَنَّ ٱلْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ مُتَفَاضِلَةً بِعَدَدٍ وَاحِدٍ فَإِنَّ جَمْعَ ٱلطَّرَفَيْنِ مِنْهَا مُسَاوٍ لِجَمْعِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بُعْدُهُمَا مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ بُعْدٌ وَاحِدٌ وَمِثْلَ ضِعْفِ ٱلْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتْ عِدَّةُ تِلْكَ ٱلْأَعْدَادِ فَرْداً مِثْلَ ٱلْأَفْرَادِ عَلَى تَوَالِيهَا وَٱلْأَزْوَاجِ عَلَى تَوَالِيهَا وَمِثْلَ أَنَّ ٱلْأَعْدَادَ إِذَا تَوَالَتْ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ يَكُونُ أَوَّلُهَا نِصْفَ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا نِصْفَ ثَالِثِهَا الخ أَوْ يَكُونُ أَوَّلُهَا ثُلُثَ ثَانِيهَا وَثَانِيهَا ثُلُثَ ثَالِثِهَا الخ فَإِنَّ ضَرْبَ ٱلطَّرَفَيْنِ أَحَدِهِمَا فِي ٱلْآخَرِ كَضَرْبِ كُلِّ عَدَدَيْنِ بُعْدُهُمَا مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ بُعْدٌ وَاحِدٌ أَحَدُهُمَا فِي ٱلْآخَرِ وَمِثْلَ مُرَبَّعِ ٱلْوَاسِطَةِ إِنْ كَانَتِ ٱلْعِدَّةُ فَرْداً وَذَٰلِكَ مِثْلَ أَعْدَادِ زَوْجِ ٱلزَّوْجِ ٱلْمُتَوَالِيَةِ مِنِ ٱثْنَيْنِ فَأَرْبَعَةٍ فَثَمَانِيَةٍ فَسِتَّةَ عَشَرَ وَمِثْلَ مَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلْخَوَاصِّ ٱلْعَدَدِيَّةِ فِي وَضْعِ ٱلْمُثَلَّثَاتِ ٱلْعَدَدِيَّةِ وَٱلْمُرَبَّعَاتِ وَٱلْمُخَمَّسَاتِ وَٱلْمُسَدَّسَاتِ إِذَا وُضِعَتْ مُتَتَالِيَةً فِي سُطُورِهَا بِأَنْ يُجْمَعَ مِنَ ٱلْوَاحِدِ إِلَى ٱلْعَدَدِ ٱلْأَخِيرِ فَتَكُونَ مُثَلَّثَةً وَتَتَوَالَى ٱلْمُثَلَّثَاتُ هٰكَذَا فِي سَطْرٍ تَحْتَ ٱلْأَضْلَاعِ ثُمَّ تَزِيدُ عَلَى كُلِّ مُثَلَّثٍ ثُلُثَ ٱلضِّلْعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُرَبَّعَةً وَتَزِيدُ عَلَى كُلِّ مُرَبَّعٍ مُثَلَّثَ ٱلضِّلْعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ فَتَكُونُ مُخَمَّسَةً وَهَلُمَّ جَرّاً وَتَتَوَالَى ٱلْأَشْكَالُ عَلَى تَوَالِي ٱلْأَضْلَاعِ وَيَحْدُثُ جَدْوَلٌ ذُو طُولٍ وَعَرْضٍ فَفِي عَرْضِهِ ٱلْأَعْدَادُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ ٱلْمُثَلَّثَاتُ عَلَى تَوَالِيهَا ثُمَّ ٱلْمُرَبَّعَاتُ ثُمَّ ٱلْمُخَمَّسَاتُ الخ وَفِي طُولِهِ كُلُّ عَدَدٍ وَأَشْكَالُهُ بَالِغاً مَا بَلَغَ وَتَحْدُثُ فِي جَمْعِهَا وَقِسْمَةِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ طُولاً وَعَرْضاً خَوَاصُّ غَرِيبَةٌ ٱسْتُقْرِيَتْ مِنْهَا وَتَقَرَّرَتْ فِي دَوَاوِينِهِمْ مَسَائِلُهَا كَذَٰلِكَ مَا يَحْدُثُ لِلزَّوْجِ وَٱلْفَرْدِ وَزَوْجِ ٱلزَّوْجِ وَزَوْجِ ٱلْفَرْدِ وَزَوْجِ ٱلزَّوْجِ وَٱلْفَرْدِ فَإِنَّ لِكُلٍّ مِنْهَا خَوَاصَّ مُخْتَصَّةً بِهِ تَضَمَّنَهَا هٰذَا ٱلْفَنُّ وَلَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ وَهٰذَا ٱلْفَنُّ أَوَّلُ أَجْزَاءِ ٱلتَّعَالِيمِ وَأَثْبَتُهَا وَيَدْخُلُ فِي بَرَاهِينِ ٱلْحِسَابِ وَلِلْحُكَمَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِيهِ تَآلِيفُ وَأَكْثَرُهُمْ يُدْرِجُونَهُ فِي ٱلتَّعَالِيمِ وَلَا يُفْرِدُونَهُ بِٱلتَّآلِيفِ فَعَلَ ذَٰلِكَ ٱبْنُ سِينَا فِي كِتَابِ ٱلشِّفَاءِ وَٱلنَّجَا وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَأَمَّا ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ مَهْجُورٌ إِذْ هُوَ غَيْرُ مُتَدَاوَلٍ وَمَنْفَعَتُهُ فِي ٱلْبَرَاهِينِ لَا فِي ٱلْحِسَابِ فَهَجَرُوهُ لِذَٰلِكَ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَخْلَصُوا زُبْدَتَهُ فِي ٱلْبَرَاهِينِ ٱلْحِسَابِيَّةِ

كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ ٱلْبَنَّاءِ فِي كِتَابِ رَفْعِ ٱلْحِجَابِ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ . (ومن فروع علم العدد صناعة الحساب) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ عِلْمِيَّةٌ فِي حِسَابِ ٱلْأَعْدَادِ بِٱلضَّمِّ وَٱلتَّفْرِيقِ فَٱلضَّمُّ يَكُونُ فِي ٱلْأَعْدَادِ بِٱلْأَفْرَادِ وَهُوَ ٱلْجَمْعُ وَبِٱلتَّضْعِيفِ تُضَاعِفُ عَدَدًا بِآحَادِ عَدَدٍ آخَرَ وَهٰذَا هُوَ ٱلضَّرْبُ وَٱلتَّفْرِيقُ أَيْضاً يَكُونُ فِي ٱلْأَعْدَادِ إِمَّا بِٱلْإِفْرَادِ مِثْلِ إِزَالَةِ عَدَدٍ مِنْهُ عَدَدٍ وَمَعْرِفَةِ ٱلْبَاقِي وَهُوَ ٱلطَّرْحُ أَوْ تَفْصِيلِ عَدَدٍ بِأَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ تَكُونُ عِدَّتُهَا محصلةً وَهُوَ ٱلْقِسْمَةُ وَسَوَاءٌ كَانَ هٰذَا ٱلضَّمُّ وَٱلتَّفْرِيقُ فِي ٱلصَّحِيحِ مِنَ ٱلْعَدَدِ أَوِ ٱلْكَسْرِ وَمَعْنَى ٱلْكَسْرِ نِسْبَةُ عَدَدٍ إِلَى عَدَدٍ وَتِلْكَ ٱلنِّسْبَةُ تُسَمَّى كَسْراً وَكَذٰلِكَ يَكُونُ بِٱلضَّمِّ وَٱلتَّفْرِيقِ فِي ٱلْجُذُورِ وَمَعْنَاهَا ٱلْعَدَدُ ٱلَّذِي يُضْرَبُ فِي مِثْلِهِ فَيَكُونُ مِنْهُ ٱلْعَدَدُ ٱلْمُرَبَّعُ فَإِنَّ تِلْكَ ٱلْجُذُورَ أَيْضاً يَدْخُلُهَا ٱلضَّمُّ وَٱلتَّفْرِيقُ وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ حَادِثَةٌ ٱحْتِيجَ إِلَيْهَا لِلْحِسَابِ فِي ٱلْمُعَامَلَاتِ وَأَلَّفَ ٱلنَّاسُ فِيهَا كَثِيراً وَتَدَاوَلُوهَا فِي ٱلْأَمْصَارِ بِٱلتَّعْلِيمِ لِلْوِلْدَانِ وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلتَّعْلِيمِ عِنْدَهُمُ ٱلِٱبْتِدَاءُ بِهَا لِأَنَّهَا مَعَارِفُ مُتَّضِحَةٌ وَبَرَاهِينُ مُنْتَظِمَةٌ فَيَنْشَأُ عَنْهَا فِي ٱلْغَالِبِ عَقْلٌ مُضِيءٌ دربٌ عَلَى ٱلصَّوَابِ وَقَدْ يُقَالُ مَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِتَعْلِيمِ ٱلْحِسَابِ أَوَّلَ أَمْرِهِ إِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ ٱلصِّدْقُ لِمَا فِي ٱلْحِسَابِ مِنْ صِحَّةِ ٱلْمَبَانِي وَمُنَاقَشَةِ ٱلنَّفْسِ فَيَصِيرُ ذٰلِكَ خُلُقاً وَيَتَعَوَّدُ ٱلصِّدْقَ وَيُلَازِمُهُ مَذْهَباً وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلتَّآلِيفِ ٱلْمَبْسُوطَةِ فِيهَا لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ بِٱلْمَغْرِبِ كِتَابُ ٱلْحِصَارِ ٱلصَّغِيرِ وَلِٱبْنِ ٱلْبَنَّاءِ ٱلْمَرَّاكُشِيِّ فِيهِ تَلْخِيصٌ ضَابِطٌ لِقَوَانِينِ أَعْمَالِهِ مُفِيدٌ ثُمَّ شَرَحَهُ بِكِتَابٍ سَمَّاهُ رَفْعَ ٱلْحِجَابِ وَهُوَ مُسْتَغْلَقٌ عَلَى ٱلْمُبْتَدِئِ بِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ ٱلْوَثِيقَةِ ٱلْمَبَانِي وَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلُ ٱلْقَدْرِ أَدْرَكْنَا ٱلْمَشْيَخَةَ تُعَظِّمُهُ وَهُوَ كِتَابٌ جَدِيرٌ بِذٰلِكَ وَإِنَّمَا جَاءَهُ ٱلِٱسْتِغْلَاقُ مِنْ طَرِيقِ ٱلْبُرْهَانِ بِبَيَانِ عُلُومِ ٱلتَّعَالِيمِ لِأَنَّ مَسَائِلَهَا وَأَعْمَالَهَا وَاضِحَةٌ كُلَّهَا وَإِذَا قُصِدَ شَرْحُهَا فَإِنَّمَا هُوَ إِعْطَاءُ ٱلْعِلَلِ فِي تِلْكَ ٱلْأَعْمَالِ وَفِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعُسْرِ عَلَى ٱلْفَهْمِ مَا لَا يُوجَدُ فِي أَعْمَالِ ٱلْمَسَائِلِ فَتَأَمَّلْهُ وَٱللهُ يَهْدِي بِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْمَتِينُ . (ومن فروعه الجبر والمقابلة) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ يُسْتَخْرَجُ بِهَا ٱلْعَدَدُ ٱلْمَجْهُولُ مِنْ قِبَلِ ٱلْمَعْلُومِ ٱلْمَفْرُوضِ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ تَقْتَضِي ذٰلِكَ فَٱصْطَلَحُوا فِيهَا عَلَى أَنْ جَعَلُوا لِلْمَجْهُولَاتِ مَرَاتِبَ مِنْ طَرِيقِ ٱلتَّضْعِيفِ بِٱلضَّرْبِ أَوَّلُهَا ٱلْعَدَدُ لِأَنَّهُ بِهِ يَتَعَيَّنُ ٱلْمَطْلُوبُ ٱلْمَجْهُولُ بِٱسْتِخْرَاجِهِ مِنْ نِسْبَةِ ٱلْمَجْهُولِ إِلَيْهِ وَثَانِيهَا ٱلشَّيْءُ لِأَنَّ كُلَّ مَجْهُولٍ فَهُوَ مِنْ جِهَةِ إِبْهَامِهِ شَيْءٌ وَهُوَ أَيْضاً جَذْرٌ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ تَضْعِيفِهِ

في ٱلمَرْتَبَةِ ٱلثَّانِيَةِ وَثَالِثُهَا ٱلمَالُ وَهُوَ أَمْرٌ مُبْهَمٌ وَمَا بَعْدَ ذٰلِكَ فَعَلَى نِسْبَةِ ٱلأُسِّ فِي ٱلمَضْرُوبَيْنِ ثُمَّ يَقَعُ ٱلعَمَلُ ٱلمَفْرُوضُ فِي ٱلمَسْأَلَةِ فَتَخْرُجُ إِلَى مُعَادَلَةٍ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَجْنَاسِ فَيُقَابِلُونَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ وَيَجْبُرُونَ مَا فِيهَا مِنَ ٱلكَسْرِ حَتَّى يَصِيرَ صَحِيحاً وَيَحُطُّونَ ٱلمَرَاتِبَ إِلَى أَقَلِّ ٱلأُسُوسِ إِنْ أَمْكَنَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ ٱلجَبْرِ عِنْدَهُمْ وَهِيَ ٱلعَدَدُ وَٱلشَّيْءُ وَٱلمَالُ فَإِنْ كَانَتِ ٱلمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَوَاحِدٍ تَعَيَّنَ فَٱلمَالُ وَٱلجِذْرُ يَزُولُ إِبْهَامُهُ بِمُعَادَلَةِ ٱلعَدَدِ وَيَتَعَيَّنُ وَٱلمَالُ وَإِنْ عَادَلَ ٱلجُذُورَ فَيَتَعَيَّنُ بِعِدَّتِهَا وَإِنْ كَانَتِ ٱلمُعَادَلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَٱثْنَيْنِ أَخْرَجَهُ ٱلعَمَلُ ٱلهَنْدَسِيُّ مِنْ طَرِيقِ تَفْصِيلِ ٱلضَّرْبِ فِي ٱلِاثْنَيْنِ وَهِيَ مُبْهَمَةٌ فَيُعَيِّنُهَا ذٰلِكَ ٱلضَّرْبُ ٱلمُفَصَّلُ وَلَا يُمْكِنُ ٱلمُعَادَلَةُ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ وَٱثْنَيْنِ وَأَكْثَرُ مَا ٱنْتَهَتِ ٱلمُعَادَلَةُ بَيْنَهُمْ إِلَى سِتِّ مَسَائِلَ لِأَنَّ ٱلمُعَادَلَةَ بَيْنَ عَدَدٍ وَجِذْرٍ وَمَالٍ مُفْرَدَةٌ أَوْ مُرَكَّبَةٌ تَجِيءُ سِتَّةٌ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِي هٰذَا ٱلفَنِّ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلخُوَارَزْمِيُّ وَبَعْدَهُ أَبُو كَامِلٍ شُجَاعُ بْنُ أَسْلَمَ وَجَاءَ ٱلنَّاسُ عَلَى آثَرِهِ فِيهِ وَكِتَابُهُ فِي مَسَائِلِهِ ٱلسِّتِّ مِنْ أَحْسَنِ ٱلكُتُبِ ٱلمَوْضُوعَةِ فِيهِ وَشَرَحَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ فَأَجَادُوا وَمِنْ أَحْسَنِ شُرُوحَاتِهِ كِتَابُ ٱلقُرَشِيِّ وَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ بَعْضَ أَئِمَّةِ ٱلتَّعَالِيمِ مِنْ أَهْلِ ٱلمَشْرِقِ أَنْهَى ٱلمُعَامَلَاتِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّتَّةِ ٱلأَجْنَاسِ وَبَلَغَهَا إِلَى فَوْقِ ٱلعِشْرِينَ وَٱسْتَخْرَجَ لَهَا كُلِّهَا أَعْمَالاً وَأَتْبَعَهُ بِبَرَاهِينَ هَنْدَسِيَّةٍ وَٱللهُ يَزِيدُ فِي ٱلخَلْقِ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . (ومن فروعه ايضاً المعاملات) . وَهُوَ تَصْرِيفُ ٱلحِسَابِ فِي مُعَامَلَاتِ ٱلمُدُنِ فِي ٱلبِيَاعَاتِ وَٱلمِسَاحَاتِ وَٱلزَّكَوَاتِ وَسَائِرِ مَا يَعْرِضُ فِيهِ ٱلعَدَدُ مِنَ ٱلمُعَامَلَاتِ يُصَرَّفُ فِي صِنَاعَتَا ذٰلِكَ ٱلحِسَابُ فِي ٱلمَجْهُولِ وَٱلمَعْلُومِ وَٱلكَسْرِ وَٱلصَّحِيحِ وَٱلجُذُورِ وَغَيْرِهَا وَٱلغَرَضُ مِنْ تَكْثِيرِ ٱلمَسَائِلِ ٱلمَفْرُوضَةِ فِيهَا حُصُولُ ٱلمِرَانِ وَٱلدُّرْبَةِ بِتَكْرَارِ ٱلعَمَلِ حَتَّى تَرْسَخَ ٱلمَلَكَةُ فِي صِنَاعَةِ ٱلحِسَابِ وَلِأَهْلِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلحِسَابِيَّةِ مِنْ أَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ تَآلِيفُ فِيهَا مُتَعَدِّدَةٌ مِنْ أَشْهَرِهَا مُعَامَلَاتُ ٱلزَّهْرَاوِيِّ وَٱبْنِ ٱلسَّمْحِ وَأَبِي مُسْلِمِ بْنِ خَلْدُونَ مِنْ تِلْمِيذِ مَسْلَمَةَ ٱلمَجْرِيطِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ (ومن فروعه ايضاً الفرائض) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ فِي تَصْحِيحِ ٱلسِّهَامِ لِذَوِي ٱلفُرُوضِ فِي ٱلوِرَاثَاتِ إِذَا تَعَدَّدَتْ وَهَلَكَ بَعْضُ ٱلوَارِثِينَ وَٱنْكَسَرَتْ سِهَامُهُ عَلَى وَرَثَتِهِ أَوْ زَادَتِ ٱلفُرُوضُ عِنْدَ ٱجْتِمَاعِهَا وَتَزَاحُمِهَا عَلَى ٱلمَالِ كُلِّهِ أَوْ كَانَ فِي ٱلفَرِيضَةِ إِقْرَارٌ

وَإِنكَارٌ مِنْ بَعْضِ ٱلْوَرَثَةِ فَتَحْتَاجُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ إِلَى عَمَلٍ يُعَيَّنُ بِهِ سِهَامَ ٱلْفَرِيضَةِ مِن كَمْ تَصِحُّ وَسِهَامُ ٱلْوَرَثَةِ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مُصَحَّحاً حَتَّى تَكُونَ حُظُوظُ ٱلْوَارِثِينَ مِنَ ٱلْمَالِ عَلَى نِسْبَةِ سِهَامِهِمْ مِنْ جُمْلَةِ سِهَامِ ٱلْفَرِيضَةِ فَيَدْخُلُهَا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْحِسَابِ جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ صَحِيحِهِ وَكَسْرِهِ وَجَذْرِهِ وَمَعْلُومِهِ وَمَجْهُولِهِ وَتُرَتَّبُ عَلَى تَرْتِيبِ أَبْوَابِ ٱلْفَرَائِضِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَمَسَائِلِهَا فَتَشْتَمِلُ حِينَئِذٍ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ عَلَى جُزْءٍ مِنَ ٱلْفِقْهِ وَهُوَ أَحْكَامُ ٱلْوِرَاثَةِ مِنَ ٱلْفُرُوضِ وَٱلْعَوْلُ وَٱلْإِقْرَارُ وَٱلْإِنكَارُ وَٱلْوَصَايَا وَٱلتَّدْبِيرُ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِنْ مَسَائِلِهَا وَعَلَى جُزْءٍ مِنَ ٱلْحِسَابِ وَهُوَ تَصْحِيحُ ٱلسُّهْمَانِ بِٱعْتِبَارِ ٱلْحُكْمِ ٱلْفِقْهِيِّ وَهِيَ مِنْ أَجَلِّ ٱلْعُلُومِ وَقَدْ يُورِدُ أَهْلُهَا أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةً تَشْهَدُ بِفَضْلِهَا مِثْلَ ٱلْفَرَائِضُ ثُلُثُ ٱلْعِلْمِ وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ ٱلْعُلُومِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ وَعِنْدِي أَنَّ ظَوَاهِرَ تِلْكَ ٱلْأَحَادِيثِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْفَرَائِضِ ٱلْعَيْنِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ لاَ فَرَائِضِ ٱلْوِرَاثَاتِ فَإِنَّهَا أَقَلُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ فِي كَمِّيَّتِهَا ثُلُثَ ٱلْعِلْمِ وَأَمَّا ٱلْفَرَائِضُ ٱلْعَيْنِيَّةُ فَكَثِيرَةٌ وَقَدْ أَلَّفَ ٱلنَّاسُ فِي هٰذَا ٱلْفَنِّ قَدِيماً وَحَدِيثاً وَأَوْعَبُوا وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلتَّآلِيفِ فِيهِ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كِتَابُ ٱبْنِ ثَابِتٍ وَمُخْتَصَرُ ٱلْقَاضِي أَبِي ٱلْقَاسِمِ ٱلْحَوْفِيِّ وَكِتَابُ ٱبْنِ ٱلْمُنَمِّرِ وَٱلْجَعْدِيِّ وَٱلصُّرَدِيِّ وَغَيْرِهِمْ لَكِنِ ٱلْفَضْلُ لِلْحَوْفِيِّ فَكِتَابُهُ مُقَدَّمٌ عَلَى جَمِيعِهَا وَقَدْ شَرَحَهُ مِنْ شُيُوخِنَا أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ سُلَيْمَانُ ٱلشَّطِّيُّ كَبِيرُ مَشْيَخَةِ فَاسَ فَأَوْضَحَ وَأَوْعَبَ وَلِإِمَامِ ٱلْحَرَمَيْنِ فِيهَا تَآلِيفُ عَلَى مَذْهَبِ ٱلشَّافِعِيِّ تَشْهَدُ بِٱتِّسَاعِ بَاعِهِ فِي ٱلْعُلُومِ وَرُسُوخِ قَدَمِهِ وَكَذَا لِلْحَنَفِيَّةِ وَٱلْحَنَابِلَةِ وَمَقَامَاتُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْعُلُومِ مُخْتَلِفَةٌ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ لاَ رَبَّ سِوَاهُ

الفصل الخامس عشر

في العلوم الهندسية

هٰذَا ٱلْعِلْمُ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْمَقَادِيرِ إِمَّا ٱلْمُتَّصِلَةِ كَٱلْخَطِّ وَٱلسَّطْحِ وَٱلْجِسْمِ وَإِمَّا ٱلْمُنْفَصِلَةِ كَٱلْأَعْدَادِ وَفِيمَا يَعْرِضُ لَهَا مِنَ ٱلْعَوَارِضِ ٱلذَّاتِيَّةِ مِثْلَ أَنَّ كُلَّ مُثَلَّثٍ فَزَوَايَاهُ مِثْلُ قَائِمَتَيْنِ وَمِثْلَ أَنَّ كُلَّ خَطَّيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ لاَ يَلْتَقِيَانِ فِي وَجْهٍ وَلَوْ خَرَجَا إِلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ وَمِثْلَ أَنَّ كُلَّ خَطَّيْنِ مُتَقَاطِعَيْنِ فَٱلزَّاوِيَتَانِ ٱلْمُتَقَابِلَتَانِ مِنْهُمَا مُتَسَاوِيَتَانِ وَمِثْلَ أَنَّ ٱلْأَرْبَعَةَ مَقَادِيرَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ ضَرْبُ ٱلْأَوَّلِ مِنْهَا فِي ٱلثَّالِثِ كَضَرْبِ ٱلثَّانِي فِي ٱلرَّابِعِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ وَٱلْكِتَابُ ٱلْمُتَرْجَمُ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كِتَابُ أُوقْلِيدِسَ وَيُسَمَّى

كِتَابَ ٱلْأُصُولِ وَكِتَابَ ٱلْأَرْكَانِ وَهُوَ أَبْسَطُ مَا وُضِعَ فِيهَا لِلْمُتَعَلِّمِينَ وَأَوَّلُ مَا تُرْجِمَ مِنْ كِتَابِ ٱلْيُونَانِيِّينَ فِي ٱلْمِلَّةِ أَيَّامَ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ وَنُسَخُهُ مُخْتَلِفَةٌ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمُتَرْجِمِينَ فَمِنْهَا لِحُنَيْنِ بْنِ إِسْحَاقَ وَلِثَابِتِ بْنِ قُرَّةَ وَلِيُوسُفَ بْنِ ٱلْحَجَّاجِ وَيَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَ عَشْرَةَ مَقَالَةً أَرْبَعٌ فِي ٱلسُّطُوحِ وَوَاحِدَةٌ فِي ٱلْأَقْدَارِ ٱلْمُتَنَاسِبَةِ وَأُخْرَى فِي نِسَبِ ٱلسُّطُوحِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَثَلَاثٌ فِي ٱلْعَدَدِ وَٱلْعَاشِرَةُ فِي ٱلْمُنْطَقَاتِ وَٱلْقُوَى عَلَى ٱلْمُنْطَقَاتِ وَمَعْنَاهُ ٱلْجُذُورُ وَخَمْسٌ فِي ٱلْمُجَسَّمَاتِ وَقَدِ ٱخْتَصَرَهُ ٱلنَّاسُ ٱخْتِصَارَاتٍ كَثِيرَةً كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ سِينَا فِي تَعَالِيمِ ٱلشِّفَاءِ أَفْرَدَ لَهُ جُزْءًا مِنْهَا ٱخْتَصَّهُ بِهِ وَكَذٰلِكَ ٱبْنُ ٱلصَّلْتِ فِي كِتَابِ ٱلِٱقْتِصَارِ وَغَيْرِهِمْ وَشَرَحَهُ آخَرُونَ شُرُوحًا كَثِيرَةً وَهُوَ مَبْدَأُ ٱلْعُلُومِ ٱلْهَنْدَسِيَّةِ بِإِطْلَاقٍ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْهَنْدَسَةَ تُفِيدُ صَاحِبَهَا إِضَاءَةً فِي عَقْلِهِ وَٱسْتِقَامَةً فِي فِكْرِهِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا كُلَّهَا بَيِّنَةُ ٱلِٱنْتِظَامِ جَلِيَّةُ ٱلتَّرْتِيبِ لَا يَكَادُ ٱلْغَلَطُ يَدْخُلُ أَقْيِسَتَهَا لِتَرْتِيبِهَا وَٱنْتِظَامِهَا فَيَبْعُدُ ٱلْفِكْرُ بِمُمَارَسَتِهَا عَنِ ٱلْخَطَإِ وَيَنْشَأُ لِصَاحِبِهَا عَقْلٌ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمَهْيَعِ وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِ أَفْلَاطُونَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُهَنْدِسًا فَلَا يَدْخُلَنَّ مَنْزِلَنَا وَكَانَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ ٱللّٰهُ يَقُولُونَ مُمَارَسَةُ عِلْمِ ٱلْهَنْدَسَةِ لِلْفِكْرِ بِمَثَابَةِ ٱلصَّابُونِ لِلثَّوْبِ ٱلَّذِي يَغْسِلُ مِنْهُ ٱلْأَقْذَارَ وَيُنَقِّيهِ مِنَ ٱلْأَوْضَارِ وَٱلْأَدْرَانِ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ تَرْتِيبِهِ وَٱنْتِظَامِهِ . (ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكروية والمخروطات) . أَمَّا ٱلْأَشْكَالُ ٱلْكُرَوِيَّةُ فَفِيهَا كِتَابَانِ مِنْ كُتُبِ ٱلْيُونَانِيِّينَ لِثَاوُذُوسِيُوسَ وَمِيلَاوُشَ فِي سُطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَكِتَابُ ثَاوُذُوسِيُوسَ مُقَدَّمٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ عَلَى كِتَابِ مِيلَاوُشَ لِتَوَقُّفِ كَثِيرٍ مِنْ بَرَاهِينِهِ عَلَيْهِ وَلَا بُدَّ مِنْهُمَا لِمَنْ يُرِيدُ ٱلْخَوْضَ فِي عِلْمِ ٱلْهَيْئَةِ لِأَنَّ بَرَاهِينَهَا مُتَوَقِّفَةٌ عَلَيْهِ فَٱلْكَلَامُ فِي ٱلْهَيْئَةِ كُلُّهُ كَلَامٌ فِي ٱلْكُرَاتِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهَا مِنَ ٱلْقُطُوعِ وَٱلدَّوَائِرِ بِأَسْبَابِ ٱلْحَرَكَاتِ كَمَا نَذْكُرُهُ فَقَدْ يَتَوَقَّفُ عَلَى أَحْكَامِ ٱلْأَشْكَالِ ٱلْكُرَوِيَّةِ سُطُوحِهَا وَقُطُوعِهَا وَأَمَّا ٱلْمَخْرُوطَاتُ فَهُوَ مِنْ فُرُوعِ ٱلْهَنْدَسَةِ أَيْضًا وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِيمَا يَقَعُ فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلْمَخْرُوطَةِ مِنَ ٱلْأَشْكَالِ وَٱلْقُطُوعِ وَيُبَرْهِنُ عَلَى مَا يَعْرِضُ لِذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَوَارِضِ بِبَرَاهِينَ هَنْدَسِيَّةٍ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَفَائِدَتُهَا تَظْهَرُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلْعَمَلِيَّةِ ٱلَّتِي مَوَادُّهَا ٱلْأَجْسَامُ مِثْلَ ٱلنِّجَارَةِ وَٱلْبِنَاءِ وَكَيْفَ تُصْنَعُ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلْغَرِيبَةُ وَٱلْهَيَاكِلُ ٱلنَّادِرَةُ وَكَيْفَ يُتَحَيَّلُ عَلَى جَرِّ ٱلْأَثْقَالِ وَنَقْلِ ٱلْهَيَاكِلِ

بِالْهِنْدَامِ وَالْمِيخَالِ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ وَقَدْ أَفْرَدَ بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ فِي هٰذا الْفَنِّ كِتَاباً فِي الْحِيَلِ الْعِلْمِيَّةِ يَتَضَمَّنُ مِنَ الصِّنَاعَاتِ الْغَرِيبَةِ وَالْحِيَلِ الْمُسْتَطْرَفَةِ كُلَّ عَجِيبَةٍ وَرُبَّمَا اسْتَغْلَقَ عَلَى الْفُهُومِ لِصُعُوبَةِ بَرَاهِينِهِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَهُوَ مَوْجُودٌ بِأَيْدِي النَّاسِ يَنْسِبُونَهُ إِلَى بَنِي شَاكِرٍ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ (ومن فروع الهندسة المساحة) وَهُوَ فَنٌّ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مَسْحِ الْأَرْضِ وَمَعْنَاهُ اسْتِخْرَاجُ مِقْدَارِ الْأَرْضِ الْمَعْلُومَةِ بِنِسْبَةِ شِبْرٍ أَوْ ذِرَاعٍ أَوْ غَيْرِهِمَا وَنِسْبَةِ أَرْضٍ مِنْ أَرْضٍ إِذْ قُويِسَتْ بِمِثْلِ ذٰلِكَ وَيُحْتَاجُ إِلَى ذٰلِكَ فِي تَوْظِيفِ الْخَرَاجِ عَلَى الْمَزَارِعِ وَالْفُدُنِ وَبَسَاتِينِ الْغِرَاسَةِ وَفِي قِسْمَةِ الْحَوَائِطِ وَالْأَرَاضِي بَيْنَ الشُّرَكَاءِ أَوِ الْوَرَثَةِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَلِلنَّاسِ فِيهَا مَوْضُوعَاتٌ حَسَنَةٌ وَكَثِيرَةٌ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ (المناظرة من فروع الهندسة) وَهُوَ عِلْمٌ يَتَبَيَّنُ بِهِ أَسْبَابُ الْغَلَطِ فِي الْإِدْرَاكِ الْبَصَرِيِّ بِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ وُقُوعِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ إِدْرَاكَ الْبَصَرِ يَكُونُ بِمَخْرُوطٍ شُعَاعِيٍّ رَأْسُهُ نُقْطَةُ الْبَاصِرِ وَقَاعِدَتُهُ الْمَرْئِيُّ ثُمَّ يَقَعُ الْغَلَطُ كَثِيراً فِي رُؤْيَةِ الْقَرِيبِ كَبِيراً وَالْبَعِيدِ صَغِيراً وَكَذَا رُؤْيَةُ الْأَشْبَاحِ الصَّغِيرَةِ تَحْتَ الْمَاءِ وَوَرَاءَ الْأَجْسَامِ الشَّفَّافَةِ كَبِيرَةً وَرُؤْيَةُ النُّقْطَةِ النَّازِلَةِ مِنَ الْمَطَرِ خَطّاً مُسْتَقِيماً وَالسُّلْقَةِ دَائِرَةً وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ فَيَتَبَيَّنُ فِي هٰذا الْعِلْمِ أَسْبَابُ ذٰلِكَ وَكَيْفِيَّاتُهُ بِالْبَرَاهِينِ الْهَنْدَسِيَّةِ وَيَتَبَيَّنُ بِهِ أَيْضاً اخْتِلَافُ الْمَنْظَرِ فِي الْقَمَرِ بِاخْتِلَافِ الْعُرُوضِ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ رُؤْيَةِ الْأَهِلَّةِ وَحُصُولُ الْكُسُوفَاتِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَمْثَالِ هٰذا وَقَدْ أَلَّفَ فِي هٰذا الْفَنِّ كَثِيرٌ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ وَأَشْهَرُ مَنْ أَلَّفَ فِيهِ مِنَ الْإِسْلَامِيِّينَ ابْنُ الْهَيْثَمِ وَلِغَيْرِهِ أَيْضاً تَآلِيفُ وَهُوَ مِنْ هٰذِهِ الرِّيَاضَةِ وَتَفَارِيعِهَا

الفصل السادس عشر

في علم الهيئة

وَهُوَ عِلْمٌ يَنْظُرُ فِي حَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَالْمُتَحَرِّكَةِ وَالْمُتَحَيِّرَةِ وَيُسْتَدَلُّ مِنْ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ عَلَى أَشْكَالٍ وَأَوْضَاعٍ لِلْأَفْلَاكِ لَزِمَتْ عَنْهَا لِهٰذِهِ الْحَرَكَاتِ الْمَحْسُوسَةِ بِطُرُقٍ هَنْدَسِيَّةٍ كَمَا يُبَرْهَنُ عَلَى أَنَّ مَرْكَزَ الْأَرْضِ مُبَايِنٌ لِمَرْكَزِ فَلَكِ الشَّمْسِ بِوُجُودِ حَرَكَةِ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ وَكَمَا يُسْتَدَلُّ بِالرُّجُوعِ وَالِاسْتِقَامَةِ لِلْكَوَاكِبِ عَلَى وُجُودِ أَفْلَاكٍ صَغِيرَةٍ حَامِلَةٍ لَهَا مُتَحَرِّكَةٍ دَاخِلَ فَلَكِهَا الْأَعْظَمِ وَكَمَا يُبَرْهَنُ عَلَى وُجُودِ الْفَلَكِ الثَّامِنِ بِحَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ وَكَمَا يُبَرْهَنُ عَلَى تَعَدُّدِ الْأَفْلَاكِ لِلْكَوْكَبِ

ٱلْوَاحِدِ بِتَعْدَادِ ٱلْمُيُولِ لَهُ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَإِدْرَاكُ ٱلْمَوْجُودِ مِنَ ٱلْحَرَكَاتِ وَكَيْفِيَّاتِهَا وَأَجْنَاسِهَا إِنَّمَا هُوَ بِٱلرَّصْدِ فَإِنَّا إِنَّمَا عَلِمْنَا حَرَكَةَ ٱلْإِقْبَالِ وَٱلْإِدْبَارِ بِهِ وَكَذَا تَرْكِيبُ ٱلْأَفْلَاكِ فِي طَبَقَاتِهَا وَكَذَا ٱلرُّجُوعُ وَٱلِاسْتِقَامَةُ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ وَكَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يَعْتَنُونَ بِٱلرَّصْدِ كَثِيراً وَيَتَّخِذُونَ لَهُ ٱلْآلَاتِ ٱلَّتِي تُوضَعُ لِيُرْصَدَ بِهَا حَرَكَةُ ٱلْكَوْكَبِ ٱلْمُعَيَّنِ وَكَانَتْ تُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَاتَ ٱلْحَلَقِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِهَا وَٱلْبَرَاهِينُ عَلَيْهِ فِي مُطَابَقَةِ حَرَكَتِهَا بِحَرَكَةِ ٱلْفَلَكِ مَنْقُولٌ بِأَيْدِي ٱلنَّاسِ وَأَمَّا فِي ٱلْإِسْلَامِ فَلَمْ تَقَعْ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ وَكَانَ فِي أَيَّامِ ٱلْمَأْمُونِ شَيْءٌ مِنْهُ وَصَنَعَ ٱلْآلَةَ ٱلْمَعْرُوفَةَ لِلرَّصْدِ ٱلْمُسَمَّاةَ ذَاتَ ٱلْحَلَقِ وَشَرَعَ فِي ذٰلِكَ فَلَمْ يَتِمَّ وَلَمَّا مَاتَ ذَهَبَ رَسْمُهُ وَأُغْفِلَ وَٱعْتَمَدَ مَنْ بَعْدَهُ عَلَى ٱلْأَرْصَادِ ٱلْقَدِيمَةِ وَلَيْسَتْ بِمُغْنِيَةٍ لِٱخْتِلَافِ ٱلْحَرَكَاتِ بِٱتِّصَالِ ٱلْأَحْقَابِ وَأَنَّ مُطَابَقَةَ حَرَكَةِ ٱلْآلَةِ لِلرَّصْدِ بِحَرَكَةِ ٱلْأَفْلَاكِ وَٱلْكَوَاكِبِ إِنَّمَا هُوَ بِٱلتَّقْرِيبِ وَهٰذِهِ ٱلْهَيْئَةُ صِنَاعَةٌ شَرِيفَةٌ وَلَيْسَتْ عَلَى مَا يُفْهَمُ فِي ٱلْمَشْهُورِ أَنَّهَا تُعْطِي صُورَةَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَتَرْتِيبَ ٱلْأَفْلَاكِ وَٱلْكَوَاكِبِ بِٱلْحَقِيقَةِ بَلْ إِنَّمَا تُعْطِي أَنَّ هٰذِهِ ٱلصُّوَرَ وَٱلْهَيْئَاتِ لِلْأَفْلَاكِ لَزِمَتْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْحَرَكَاتِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ ٱلْوَاحِدُ لَازِماً لِمُخْتَلِفَيْنِ وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ ٱلْحَرَكَاتِ لَازِمَةٌ فَهُوَ ٱسْتِدْلَالٌ بِٱللَّازِمِ عَلَى وُجُودِ ٱلْمَلْزُومِ وَلَا يُعْطِي ٱلْحَقِيقَةَ بِوَجْهٍ عَلَى أَنَّهُ عِلْمٌ جَلِيلٌ وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ ٱلتَّعَالِيمِ وَمِنْ أَحْسَنِ ٱلتَّآلِيفِ فِيهِ كِتَابُ ٱلْمَجِسْطِي مَنْسُوبٌ لِبَطْلِيمُوسَ وَلَيْسَ مِنْ مُلُوكِ ٱلْيُونَانِ ٱلَّذِينَ أَسْمَاؤُهُمْ بَطْلِيمُوس عَلَى مَا حَقَّقَهُ شُرَّاحُ ٱلْكِتَابِ وَقَدِ ٱخْتَصَرَهُ ٱلْأَئِمَّةُ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ سِينَا وَأَدْرَجَهُ فِي تَعَالِيمِ ٱلشِّفَاءِ وَلَخَّصَهُ ٱبْنُ رُشْدٍ أَيْضاً مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْأَنْدَلُس وَٱبْنُ ٱلسَّمْحِ وَٱبْنُ ٱلصَّلْتِ فِي كِتَابِ ٱلِاقْتِصَارِ وَلِٱبْنِ ٱلْفَرْغَانِيِّ هَيْئَةٌ مُلَخَّصَةٌ قَرَّبَهَا وَحَذَفَ بَرَاهِينَهَا ٱلْهَنْدَسِيَّةَ وَٱللّٰهُ عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ سُبْحَانَهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ. (ومن فروعه علم الازياج) . وَهِيَ صِنَاعَةٌ حِسَابِيَّةٌ عَلَى قَوَانِينَ عَدَدِيَّةٍ فِيمَا يَخُصُّ كُلَّ كَوْكَبٍ مِنْ طَرِيقِ حَرَكَتِهِ وَمَا أَدَّى إِلَيْهِ بُرْهَانُ ٱلْهَيْئَةِ فِي وَضْعِهِ مِنْ سُرْعَةٍ وَبُطْءٍ وَٱسْتِقَامَةٍ وَرُجُوعٍ وَغَيْرِ ذٰلِكَ يُعْرَفُ بِهِ مَوَاضِعُ ٱلْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاكِهَا لِأَيِّ وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قِبَلِ حُسْبَانِ حَرَكَاتِهَا عَلَى تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ كُتُبِ ٱلْهَيْئَةِ وَلِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ قَوَانِينُ كَٱلْمُقَدِّمَاتِ وَٱلْأُصُولِ لَهَا فِي مَعْرِفَةِ ٱلشُّهُورِ وَٱلْأَيَّام

وَٱلتَّوَارِيخِ ٱلمَاضِيَةِ وَأُصولٌ مُتَقَرِّرَةٌ مِنْ مَعرفَةِ ٱلأَوْجِ وَٱلحَضِيضِ وَٱلمُيُولِ وَأَصْنَافِ ٱلحَرَكَاتِ وَٱسْتِخْرَاجِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يَضَعُونَهَا فِي جَدَاوِلَ مُرَتَّبَةٍ تَسْهِيلاً عَلَى ٱلمُتَعَلِّمِينَ وَتُسَمَّى ٱلأَزْيَاجَ وَيُسَمَّى ٱسْتِخْرَاجُ مَوَاضِعِ ٱلكَوَاكِبِ لِلْوَقْتِ ٱلمَفْرُوضِ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ تَعْدِيلاً وَتَقْوِيماً وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَآلِيفُ كَثِيرَةٌ لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَٱلمُتَأَخِّرِينَ مِثْلَ ٱلبَتَّانِيِّ (١) وَٱبْنِ ٱلكَمَّادِ وَقَدْ عَوَّلَ ٱلمُتَأَخِّرُونَ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ بِٱلمَغْرِبِ عَلَى زِيجٍ مَنْسُوبٍ لِٱبْنِ إِسْحَاقَ مِنْ مُنَجِّمِي تُونِسَ فِي أَوَّلِ ٱلمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ٱبْنَ إِسْحَاقَ عَوَّلَ فِيهِ عَلَى ٱلرَّصْدِ وَأَنَّ يَهُودِيّاً كَانَ بِصِقِلِّيَةَ مَاهِراً فِي ٱلهَيْئَةِ وَٱلتَّعَالِيمِ وَكَانَ قَدْ عُنِيَ بِٱلرَّصْدِ وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ بِمَا يَقَعُ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَحْوَالِ ٱلكَوَاكِبِ وَحَرَكَاتِهَا فَكَانَ أَهْلُ ٱلمَغْرِبِ لِذٰلِكَ عُنُوا بِهِ لِوَثَاقَةِ مَبْنَاهُ عَلَى مَا يَزْعُمُونَ وَلَخَّصَهُ ٱبْنُ ٱلبَنَّاءِ فِي آخَرَ سَمَّاهُ ٱلمِنْهَاجَ فَوَلِعَ بِهِ ٱلنَّاسُ لِمَا سَهُلَ مِنَ ٱلأَعْمَالِ فِيهِ وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى مَوَاضِعِ ٱلكَوَاكِبِ مِنَ ٱلفَلَكِ لِتَنْبَنِيَ عَلَيْهَا ٱلأَحْكَامُ ٱلنُّجُومِيَّةُ وَهُوَ مَعْرِفَةُ ٱلآثَارِ ٱلَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا بِأَوْضَاعِهَا فِي عَالَمِ ٱلإِنْسَانِ مِنَ ٱلمُلْكِ وَٱلدُّوَلِ وَٱلمَوَالِيدِ ٱلبَشَرِيَّةِ كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدُ وَنُوضِحُ فِيهِ أَدِلَّتَهُمْ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَٱللّٰهُ ٱلمُوَفِّقُ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ

الفصل السابع عشر

في علم المنطق

وَهُوَ قَوَانِينُ يُعْرَفُ بِهَا ٱلصَّحِيحُ مِنَ ٱلفَاسِدِ فِي ٱلحُدُودِ ٱلمُعَرِّفَةِ لِلْمَاهِيَّاتِ وَٱلحُجَجِ ٱلمُفِيدَةِ لِلتَّصْدِيقَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلأَصْلَ فِي ٱلإِدْرَاكِ إِنَّمَا هُوَ ٱلمَحْسُوسَاتُ بِٱلحَوَاسِّ ٱلخَمْسِ وَجَمِيعُ ٱلحَيَوَانَاتِ مُشْتَرِكَةٌ فِي هٰذَا ٱلإِدْرَاكِ مِنَ ٱلنَّاطِقِ وَغَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَتَمَيَّزُ ٱلإِنْسَانُ عَنْهَا بِإِدْرَاكِ ٱلكُلِّيَّاتِ وَهِيَ مُجَرَّدَةٌ مِنَ ٱلمَحْسُوسَاتِ وَذٰلِكَ بِأَنْ يَحْصُلَ فِي ٱلخَيَالِ مِنَ ٱلأَشْخَاصِ ٱلمُتَّفِقَةِ صُورَةٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ تِلْكَ ٱلأَشْخَاصِ ٱلمَحْسُوسَةِ وَهِيَ ٱلكُلِّيُّ ثُمَّ يَنْظُرُ ٱلذِّهْنُ بَيْنَ تِلْكَ ٱلأَشْخَاصِ ٱلمُتَّفِقَةِ وَأَشْخَاصٍ أُخْرَى تُوَافِقُهَا فِي بَعْضٍ فَيَحْصُلُ لَهُ صُورَةٌ تَنْطَبِقُ أَيْضاً عَلَيْهِمَا بِٱعْتِبَارِ مَا ٱتَّفَقَا فِيهِ وَلَا يَزَالُ يَرْتَقِي فِي ٱلتَّجْرِيدِ إِلَى ٱلكُلِّيِّ ٱلَّذِي لَا يَجِدُ كُلِّيّاً آخَرَ مَعَهُ يُوَافِقُهُ فَيَكُونُ لِأَجْلِ ذٰلِكَ بَسِيطاً وَهٰذَا مِثْلُ مَا يُجَرِّدُ مِنْ أَشْخَاصِ ٱلإِنْسَانِ صُورَةَ ٱلنَّوْعِ ٱلمُنْطَبِقَةَ عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَهُ

(١) قوله البتاني بفتح الموحدة وتشديد المثناة كما ضبطه ابن خلكان في ترجمته قبيل آخر المحمدين

وبَيْنَ ٱلْحَيَوَانِ وَيُجَرِّدُ صُورَةَ ٱلْجِنْسِ ٱلْمُنْطَبِقَةَ عَلَيْهَا ثُمَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ٱلنَّبَاتِ إِلَى أَن يَنْتَهِي إِلَى ٱلْجِنْسِ ٱلْعَالِي وَهُوَ ٱلْجَوْهَرُ فَلاَ يَجِدُ كُلِّيًّا يُوَافِقُهُ فِي شَيْءٍ فَيَقِفُ ٱلْعَقْلُ هُنَالِكَ عَنِ ٱلتَّجْرِيدِ ثُمَّ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَمَّا خَلَقَ ٱللهُ لَهُ ٱلْفِكْرَ ٱلَّذِي بِهِ يُدْرِكُ ٱلْعُلُومَ وَٱلصَّنَائِعَ وَكَانَ ٱلْعِلْمُ إِمَّا تَصَوُّراً لِلْمَاهِيَّاتِ وَيُعْنَى بِهِ إِدْرَاكٌ سَاذِجٌ مِنْ غَيْرِ حُكْمٍ مَعَهُ وَإِمَّا تَصْدِيقاً أَيْ حُكْماً بِثُبُوتِ أَمْرٍ لِأَمْرٍ فَصَارَ سَعْيُ ٱلْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ ٱلْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنْ تُجْمَعَ تِلْكَ ٱلْكُلِّيَّاتُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّأْلِيفِ فَتَحْصُلُ صُورَةٌ فِي ٱلذِّهْنِ كُلِّيَّةٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى أَفْرَادٍ فِي ٱلْخَارِجِ فَتَكُونُ تِلْكَ ٱلصُّورَةُ ٱلذِّهْنِيَّةُ مُفِيدَةً لِمَعْرِفَةِ مَاهِيَّةِ تِلْكَ ٱلْأَشْخَاصِ وَإِمَّا بِأَنْ يُحْكَمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيَثْبُتَ لَهُ وَيَكُونَ ذٰلِكَ تَصْدِيقاً وَغَايَتُهُ فِي ٱلْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِأَنَّ فَائِدَةَ ذٰلِكَ إِذَا حَصَلَ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ مُقْتَضَى ٱلْعِلْمِ وَهٰذَا ٱلسَّعْيُ مِنَ ٱلْفِكْرِ قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ فَاسِدٍ فَاقْتَضَى ذٰلِكَ تَمْيِيزَ ٱلطَّرِيقِ ٱلَّذِي يَسْعَى بِهِ ٱلْفِكْرُ فِي تَحْصِيلِ ٱلْمَطَالِبِ ٱلْعِلْمِيَّةِ لِيَتَمَيَّزَ ٱلصَّحِيحُ مِنَ ٱلْفَاسِدِ فَكَانَ ذٰلِكَ قَانُونَ ٱلْمَنْطِقِ وَتَكَلَّمَ فِيهِ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمُوا بِهِ جُمَلاً جُمَلاً وَمُفْتَرِقاً وَلَمْ تُهَذَّبْ طُرُقُهُ وَلَمْ تُجْمَعْ مَسَائِلُهُ حَتَّى ظَهَرَ فِي يُونَانَ أَرِسْطُو فَهَذَّبَ مَبَاحِثَهُ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصُولَهُ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ ٱلْعُلُومِ ٱلْحِكْمِيَّةِ وَفَاتِحَتَهَا وَلِذٰلِكَ يُسَمَّى بِٱلْمُعَلِّمِ ٱلْأَوَّلِ وَكِتَابُهُ ٱلْمَخْصُوصُ بِٱلْمَنْطِقِ يُسَمَّى ٱلنَّصَّ وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ أَرْبَعَةٍ مِنْهَا فِي صُورَةِ ٱلْقِيَاسِ وَأَرْبَعَةٍ فِي مَادَّتِهِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَطَالِبَ ٱلتَّصْدِيقِيَّةَ عَلَى أَنْحَاءٍ . فَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلْيَقِينُ بِطَبْعِهِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلظَّنُّ وَهُوَ عَلَى مَرَاتِبَ فَيُنْظَرُ فِي ٱلْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَطْلُوبُ ٱلَّذِي يُفِيدُهُ وَمَا يَنْبَغِي أَن تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ بِذٰلِكَ ٱلْاِعْتِبَارِ وَمِنْ أَيِّ جِنْسٍ يَكُونُ مِنَ ٱلْعِلْمِ أَوْ مِنَ ٱلظَّنِّ وَقَد يُنْظَرُ فِي ٱلْقِيَاسِ لاَ بِٱعْتِبَارِ مَطْلُوبٍ مَخْصُوصٍ بَلْ مِنْ جِهَةِ إِنْتَاجِهِ خَاصَّةً وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ ٱلْأَوَّلِ إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَادَّةُ وَنَعْنِي بِهِ ٱلْمَادَّةَ ٱلْمُنْتِجَةَ لِلْمَطْلُوبِ ٱلْمَخْصُوصِ مِنْ يَقِينٍ أَوْ ظَنٍّ وَيُقَالُ لِلنَّظَرِ ٱلثَّانِي إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ ٱلصُّورَةُ وَإِنْتَاجُ ٱلْقِيَاسِ عَلَى ٱلْإِطْلاَقِ فَكَانَتْ لِذٰلِكَ كُتُبُ ٱلْمَنْطِقِ ثَمَانِيَةً . ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْأَجْنَاسِ ٱلْعَالِيَةِ ٱلَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا تَجْرِيدُ ٱلْمَحْسُوسَاتِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا جِنْسٌ وَيُسَمَّى كِتَابَ ٱلْمَقُولاَتِ . وَٱلثَّانِي فِي ٱلْقَضَايَا ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَأَصْنَافِهَا وَيُسَمَّى كِتَابَ ٱلْعِبَارَةِ . وَٱلثَّالِثُ فِي ٱلْقِيَاسِ وَصُورَةِ إِنْتَاجِهِ عَلَى

ٱلْإِطْلَاقِ وَيُسَمَّى كِتَابَ ٱلْقِيَاسِ وَهٰذَا آخِرُ ٱلنَّظَرِ مِنْ حَيْثُ ٱلصُّورَةُ . ثُمَّ ٱلرَّابِعُ كِتَابُ ٱلْبُرْهَانِ وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْقِيَاسِ ٱلْمُنْتِجِ لِلْيَقِينِ وَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُقَدِّمَاتُهُ يَقِينِيَّةً وَيَخْتَصُّ بِشُرُوطٍ أُخْرَى لِإِفَادَةِ ٱلْيَقِينِ مَذْكُورَةٍ فِيهِ مِثْلَ كَوْنِهَا ذَاتِيَّةً وَأَوَّلِيَّةً وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَفِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْمُعَرِّفَاتِ وَٱلْحُدُودِ إِذِ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْيَقِينُ لِوُجُوبِ ٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْحَدِّ وَٱلْمَحْدُودِ لَا تَحْتَمِلُ غَيْرَهَا فَلِذٰلِكَ ٱخْتُصَّتْ عِنْدَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِهٰذَا ٱلْكِتَابِ . وَٱلْخَامِسُ كِتَابُ ٱلْجَدَلِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُفِيدُ قَطْعَ ٱلْمُشَاغِبِ وَإِفْحَامَ ٱلْخَصْمِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَيَخْتَصُّ أَيْضاً مِنْ جِهَةِ إِفَادَتِهِ لِهٰذَا ٱلْغَرَضِ بِشُرُوطٍ أُخْرَى مِنْ حَيْثُ إِفَادَتُهُ لِهٰذَا ٱلْغَرَضِ وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ وَفِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ يُذْكَرُ ٱلْمَوَاضِعُ ٱلَّتِي يَسْتَنْبِطُ مِنْهَا صَاحِبُ ٱلْقِيَاسِ قِيَاسَهُ وَفِيهِ عُكُوسُ ٱلْقَضَايَا . وَٱلسَّادِسُ كِتَابُ ٱلسَّفْسَطَةِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِي يُفِيدُ خِلَافَ ٱلْحَقِّ وَيُغَالِطُ بِهِ ٱلْمُنَاظِرُ صَاحِبَهُ وَهُوَ فَاسِدٌ وَهٰذَا إِنَّمَا كُتِبَ لِيُعْرَفَ بِهِ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُغَالِطِيُّ فَيُحْذَرَ مِنْهُ . وَٱلسَّابِعُ كِتَابُ ٱلْخَطَابَةِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُفِيدُ تَرْغِيبَ ٱلْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى ٱلْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَقَالَاتِ . وَٱلثَّامِنُ كِتَابُ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلتَّمْثِيلَ وَٱلتَّشْبِيهَ خَاصَّةً لِلْإِقْبَالِ عَلَى ٱلشَّيْءِ أَوِ ٱلنُّفْرَةِ عَنْهُ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ ٱلْقَضَايَا ٱلتَّخَيُّلِيَّةِ هٰذِهِ هِيَ كُتُبُ ٱلْمَنْطِقِ ٱلثَّمَانِيَةُ عِنْدَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ ثُمَّ إِنَّ حُكَمَاءَ ٱلْيُونَانِيِّينَ بَعْدَ أَنْ تَهَذَّبَتِ ٱلصِّنَاعَةُ وَرُتِّبَتْ رَأَوْا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْكُلِّيَّاتِ ٱلْخَمْسِ ٱلْمُفِيدَةِ لِلتَّصَوُّرِ فَٱسْتَدْرَكُوا فِيهَا مَقَالَةً تَخْتَصُّ بِهَا مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيِ ٱلْفَنِّ فَصَارَتْ تِسْعاً وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ وَكَتَبَهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَاسِفَةُ ٱلْإِسْلَامِ بِٱلشَّرْحِ وَٱلتَّلْخِيصِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْفَارَابِيُّ وَٱبْنُ سِينَا ثُمَّ ٱبْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَلِٱبْنِ سِينَا كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ ٱسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلسَّبْعَةَ كُلَّهَا ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا ٱصْطِلَاحَ ٱلْمَنْطِقِ وَأَلْحَقُوا بِٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكُلِّيَّاتِ ٱلْخَمْسِ ثَمَرَتَهُ وَهِيَ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْحُدُودِ وَٱلرُّسُومِ نَقَلُوهَا مِنْ كِتَابِ ٱلْبُرْهَانِ وَحَذَفُوا كِتَابَ ٱلْمَقُولَاتِ لِأَنَّ نَظَرَ ٱلْمَنْطِقِيِّ فِيهِ بِٱلْعَرَضِ لَا بِٱلذَّاتِ وَأَلْحَقُوا فِي كِتَابِ ٱلْعِبَارَةِ ٱلْكَلَامَ فِي ٱلْعَكْسِ لِأَنَّهُ مِنْ تَوَابِعِ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلْقَضَايَا بِبَعْضِ ٱلْوُجُوهِ ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِي ٱلْقِيَاسِ مِنْ حَيْثُ إِنْتَاجُهُ لِلْمَطَالِبِ عَلَى ٱلْعُمُومِ لَا بِحَسَبِ مَادَّةٍ وَحَذَفُوا ٱلنَّظَرَ فِيهِ

بِحَسَبِ ٱلمَادَّةِ وَهِيَ ٱلـكُتُبُ ٱلخَمسَةُ ٱلبُرْهَانُ وَٱلْجَدَلُ وَٱلخِطَابَةُ وَٱلشِّعْرُ وَٱلسَّفْسَطَة وَرُبَّمَا يُلِمُّ بَعْضُهُمْ بِٱليَسِيرِ مِنْهَا إِلمَاماً وَأَغْفَلُوهَا كَأَنْ لَمْ تَـكُنْ هِيَ ٱلمُهِمَّ ٱلمُعْتَمَد فِي ٱلفَنِّ ثُمَّ تَـكَلَّمُوا فِيمَا وَضَعُوهُ مِنْ ذٰلِكَ كَلاَماً مُسْتَبْحِراً وَنَظَرُوا فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَنٌّ بِرَأْسِهِ لاَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ آلَةٌ لِلعُلُومِ فَطَالَ ٱلـكَلاَمُ فِيهِ وَٱتَّسَعَ وَأَوَّلُ مَنْ فَعَل ذٰلِكَ ٱلإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ بن ٱلخَطِيبِ وَمِنْ بَعْدِهِ أَفضَلُ ٱلدِّينِ ٱلخُونَجِيُّ وَعَلَى كُتُبِهِ مُعْتَمَدُ ٱلمَشَارِقَةِ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ وَلَهُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كِتَابُ كَشْفِ ٱلأَسْرَارِ وَهُوَ طَوِيل وَٱخْتَصَرَ فِيهَا مُخْتَصَرَ ٱلمُوجَز وَهُوَ حَسَنٌ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ثُمَّ مُخْتَصَرَ ٱلجُمَلِ فِي قَدْرِ أَرْبَعَة أَوْرَاقٍ أَخَذَ بِمَجَامِعِ ٱلفَنِّ وَأُصُولِهِ فَتَدَاوَلَهُ ٱلمُتَعَلِّمُونَ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ فَيَنْتَفِعُونَ بِهِ وَهُجِرَتْ كُتُبُ ٱلمُتَقَدِّمِينَ وَطُرُقُهُمْ كَأَنْ لَمْ تَـكُنْ وَهِيَ مُمْتَلِئَةٌ مِنْ ثَمَرَةِ ٱلمَنْطِقِ وَفَائِدَتِهِ كَمَا قُلْنَاهُ وَٱللهُ ٱلهَـادِي لِلصَّوَابِ •

الفصل الثامن عشر

في الطبيعيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ ٱلجِسْمِ مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ ٱلحَرَكَةِ وَٱلسُّـكُونِ فَيَنْظُرُ فِي ٱلأَجْسَامِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ وَٱلعُنْصُرِيَّةِ وَمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهَا مِنْ حَيَوَانٍ وَإِنْسَانٍ وَنَبَاتٍ وَمَعْدِنٍ وَمَا يَتَـكَوَّنُ فِي ٱلأَرْضِ مِنَ ٱلعُيُونِ وَٱلزَّلاَزِلِ وَفِي ٱلجَوِّ مِنَ ٱلسَّحَابِ وَٱلبُخَارِ وَٱلرَّعْدِ وَٱلبَرْق وَٱلصَّوَاعِقِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَفِي مَبْدَإِ ٱلحَرَكَةِ لِلأَجْسَامِ وَهُوَ عَلَى تَنَوُّعِهَا فِي ٱلإِنْسَانِ وَٱلحَيَوَان وَٱلنَّبَاتِ وَكُتُبُ أَرِسْطُو فِيهِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي ٱلنَّاسِ تُرْجِمَتْ مَعَ مَا تُرْجِمَ مِنْ عُلُوم ٱلفَلْسَفَةِ أَيَّامَ ٱلمَأْمُونِ وَأَلَّفَ ٱلنَّاسُ عَلَى حَذْوِهَا وَأَوْعَبُ مَنْ أَلَّفَ فِي ذٰلِكَ ٱبْنُ سِينَا فِي كِتَابِ ٱلشِّفَاءِ جَمَعَ فِيهِ ٱلعُلُومَ ٱلسَّبْعَةَ لِلفَلاَسِفَةِ كَمَا قَدَّمْنَا ثُمَّ لَخَّصَهُ فِي كِتَابِ ٱلنَّجَا وَفِي كِتَابِ ٱلإِشَارَاتِ وَكَأَنَّهُ يُخَالِفُ أَرِسْطُو فِي ٱلـكَثِيرِ مِنْ مَسَائِلِهَا وَيَقُولُ بِرَأْيِهِ فِيهَا وَأَمَّا ٱبْنُ رُشْدٍ فَلَخَّصَ كُتُبَ أَرِسْطُو وَشَرَحَهَا مُتَّبِعاً لَهُ غَيْرَ مُخَالِفٍ وَأَلَّفَ ٱلنَّاسُ فِي ذٰلِكَ كَثِيراً لَـكِنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلمَشْهُورَةُ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ وَٱلمُعْتَبَرَةُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَلِأَهْلِ ٱلمَشْرِقِ عِنَايَة بِـكِتَابِ ٱلإِشَارَاتِ لِٱبْنِ سِينَا وَلِلإِمَامِ ٱبْنِ ٱلخَطِيبِ عَلَيْهِ شَرْحٌ حَسَنٌ وَكَذَا ٱلآمِدِي وَشَرَحَهُ أَيْضاً نَصِيرُ ٱلدِّينِ ٱلطُّوسِيُّ ٱلمَعْرُوفُ بِخَوَاجه مِنْ أَهْلِ ٱلمَشْرِقِ وَبَحَثَ مَع ٱلإِمَامِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِهِ فَأَوْفَى عَلَى أَنْظَارِهِ وَبُحُوثِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم

وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

الفصل التاسع عشر
في عالم الطب

وَمِنْ فُرُوعِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ صِنَاعَةُ ٱلطِّبِّ وَهِيَ صِنَاعَةٌ تَنْظُرُ في بَدَنِ ٱلْإِنْسَانِ مِن حَيْثُ يَمْرَضُ وَيَصِحُّ فَيُحَاوِلُ صَاحِبُهَا حِفْظَ ٱلصِّحَّةِ وَبُرْءَ ٱلْمَرَضِ بِٱلْأَدْوِيَةِ وَٱلْأَغْذِيَةِ بعدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ ٱلْمَرَضَ ٱلَّذِي يَخُصُّ كُلَّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ ٱلْبَدَنِ وَأَسْبَابَ تِلْكَ ٱلْأَمْرَاضِ ٱلَّتِي تَنْشَأُ عَنْهَا وَمَا لِكُلِّ مَرَضٍ مِنَ ٱلْأَدْوِيَةِ مُسْتَدِلِّينَ عَلى ذٰلِكَ بِأَمْزِجَةِ ٱلْأَدْوِيَةِ وَقُوَاهَا وَعلى ٱلْمَرَضِ بِٱلْعَلَامَاتِ ٱلْمُؤْذِنَةِ بِنُضْجِهِ وَقَبُولِهِ ٱلدَّوَاءَ أَوَّلاً في ٱلسَّجِيَّةِ وَٱلْفَضَلاتِ وَٱلنَّبْضِ مُحَاذِينَ لِذٰلِكَ قُوَّةَ ٱلطَّبِيعَةِ فَإِنَّهَا ٱلْمُدَبِّرَةُ في حَالَتَيِ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْمَرَضِ وَإِنَّمَا ٱلطَّبِيبُ يُحَاذِيهَا وَيُعِينُهَا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ ٱلْمَادَّةِ وَٱلْفَصْلِ وَٱلسِّنِّ وَيُسَمَّى ٱلْعِلْمُ ٱلْجَامِعُ لِهٰذا كُلِّهِ عِلْمَ ٱلطِّبِّ وَرُبَّمَا أَفْرَدُوا بَعْضَ ٱلْأَعْضَاءِ بِٱلْكَلامِ وَجَعَلُوهُ عِلْماً خَاصّاً كَٱلْعَيْنِ وَعِلَلِهَا وَأَكْحَالِهَا وَكَذٰلِكَ أَلْحَقُوا بِٱلْفَنِّ مِنْ مَنَافِعِ ٱلْأَعْضَاءِ وَمَعْنَاهَا ٱلْمَنْفَعَةَ ٱلَّتِي لِأَجْلِهَا خُلِقَ كُلُّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ ٱلْبَدَنِ ٱلْحَيَوَانِيِّ وَإِنْ لَمْ يَكُن ذٰلِكَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ ٱلطِّبِّ إِلَّا أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاحِقِهِ وَتَوَابِعِهِ وَإِمَامُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلَّتِي تُرْجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا مِنَ ٱلْأَقْدَمِينَ جَالِينُوسُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مُعَاصِراً لِعِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ وَيُقَالُ إِنَّهُ مَاتَ بِصِقِلِّيَّةَ في سَبِيلِ تَغَلُّبٍ وَمُطَاوَعَةِ ٱغْتِرَابٍ وَتَآلِيفُهُ فِيهَا هِيَ ٱلْأُمَّهَاتُ ٱلَّتِي ٱقْتَدَى بِهَا جَمِيعُ ٱلْأَطِبَّاءِ بَعْدَهُ وَكَانَ في ٱلْإِسْلامِ في هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَئِمَّةٌ جَاءُوا مِنْ وَرَاءِ ٱلْغَايَةِ مِثْلَ ٱلرَّازِي وَٱلْمَجُوسِيِّ وَٱبْنِ سِينَا وَمِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ أَيْضاً كَثِيرٌ وَأَشْهَرُهُمْ ٱبْنُ زُهْرٍ وَهِيَ لِهٰذا ٱلْعَهْدِ في ٱلْمُدُنِ ٱلْإِسْلامِيَّةِ كَأَنَّهَا نَقَصَتْ لِوُقُوفِ ٱلْعُمْرَانِ وَتَنَاقُصِهِ وَهِيَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي لا تَسْتَدْعِيهَا إِلَّا ٱلْحَضَارَةُ وَٱلتَّرَفُ كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدُ .

وَلِلْبَادِيَةِ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ طِبٌّ يَبْنُونَهُ في غَالِبِ ٱلْأَمْرِ عَلى تَجْرِبَةٍ قَاصِرَةٍ عَلى بَعْضِ ٱلْأَشْخَاصِ مُتَوَارَثاً عَنْ مَشَايِخِ ٱلْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ وَرُبَّمَا يَصِحُّ مِنْهُ ٱلْبَعْضُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ عَلى قَانُونٍ طَبِيعِيٍّ وَلا عَلى مُوَافَقَةِ ٱلْمِزَاجِ وَكَانَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ مِنْ هٰذا ٱلطِّبِّ كَثِيرٌ وَكَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ مَعْرُوفُونَ كَٱلْحَارِثِ بْنِ كَلَدَةَ وَغَيْرِهِ وَٱلطِّبُّ ٱلْمَنْقُولُ في ٱلشَّرْعِيَّاتِ مِنْ هٰذا ٱلْقَبِيلِ وَلَيْسَ مِنَ ٱلْوَحْيِ في شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ كَانَ عَادِيّاً لِلْعَرَبِ وَقَعَ في

ذِكْرِ أَحوَالِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَوْعِ ذِكْرِ أَحوَالِهِ ٱلَّتِي هِيَ عَادَةٌ وَجِبِلَّةٌ لا مِنْ جِهَةِ أَنَّ ذٰلِكَ مَشْرُوعٌ عَلى ذٰلِكَ ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلعَمَلِ فَإِنَّهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا بعِثَ لِيُعَلِّمَنَا ٱلشَّرَائِعَ وَلَمْ يُبْعَثْ لِتَعْرِيفِ ٱلطِّبِّ وَلا غَيْرِهِ مِنَ ٱلعَادِيَّاتِ وَقَدْ وَقَعَ لَهُ فِي شَأْنِ تَلْقِيحِ ٱلنَّخْلِ مَا وَقَعَ فَقَالَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ فَلا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ شَيْءٌ مِنَ ٱلطِّبِّ ٱلَّذِي وَقَعَ فِي ٱلْأَحَادِيثِ ٱلمَنْقُولَةِ عَلى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا ٱسْتُعْمِلَ عَلى جِهَةِ ٱلتَّبَرُّكِ وَصِدْقِ ٱلعَقْدِ ٱلْإِيمَانِيِّ فَيَكُونُ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي ٱلنَّفْعِ وَلَيْسَ ذٰلِكَ فِي ٱلطِّبِّ ٱلمِزَاجِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ آثَارِ ٱلكَلِمَةِ ٱلْإِيمَانِيَّةِ كَمَا وَقَعَ فِي مُدَاوَاةِ ٱلمَبْطُونِ بِٱلعَسَلِ وَٱللهُ ٱلْهَادِي إِلى ٱلصَّوَابِ لا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل العشرون

في الفلاحة

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنْ فُرُوعِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ وَهِيَ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ تَنْمِيَتُهُ وَنُشُوءُهُ بِٱلسَّقْيِ وَٱلعِلاجِ وَتَعَهُّدُهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ وَكَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ بِهَا عِنَايَةٌ كَثِيرَةٌ وَكَانَ ٱلنَّظَرُ فِيهَا عِنْدَهُمْ عَامًّا فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَتَنْمِيَتِهِ وَمِنْ جِهَةِ خَوَاصِّهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ وَمُشَاكَلَتِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ ٱلكَوَاكِبِ وَٱلْهَيَاكِلِ ٱلمُسْتَعْمَلِ ذٰلِكَ كُلُّهُ فِي بَابِ ٱلسِّحْرِ فَعَظُمَتْ عِنَايَتُهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذٰلِكَ وَتُرْجِمَ مِنْ كُتُبِ ٱليُونَانِيِّينَ كِتَابُ ٱلفِلاحَةِ ٱلنَّبَطِيَّةِ مَنْسُوبَةً لِعُلَمَاءِ ٱلنَّبَطِ مُشْتَمِلَةً مِنْ ذٰلِكَ عَلى عِلْمٍ كَبِيرٍ وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ ٱلمِلَّةِ فِيمَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلكِتَابُ وَكَانَ بَابُ ٱلسِّحْرِ مَسْدُوداً وَٱلنَّظَرُ فِيهِ مَحْظُوراً فَٱقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلى ٱلكَلامِ فِي ٱلنَّبَاتِ مِنْ جِهَةِ غَرْسِهِ وَعِلاجِهِ وَمَا يَعْرِضُ لَهُ فِي ذٰلِكَ وَحَذَفُوا ٱلكَلامَ فِي ٱلفَنِّ ٱلآخَرِ مِنْهُ جُمْلَةً وَٱخْتَصَرَ ٱبْنُ ٱلعَوَّامِ كِتَابَ ٱلفِلاحَةِ ٱلنَّبَطِيَّةِ عَلى هٰذَا ٱلمِنْهَاجِ وَبَقِيَ ٱلفَنُّ ٱلآخَرُ مِنْهُ مُغْفَلاً نَقَلَ مِنْهُ مَسْلَمَةُ فِي كُتُبِهِ ٱلسِّحْرِيَّةِ أُمَّهَاتٍ مِنْ مَسَائِلِهِ كَمَا نَذْكُرُهُ عِنْدَ ٱلكَلامِ عَلى ٱلسِّحْرِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالى وَكُتُبُ ٱلمُتَأَخِّرِينَ فِي ٱلفِلاحَةِ كَثِيرَةٌ وَلا يَعْدُونَ فِيهَا ٱلكَلامَ فِي ٱلغِرَاسِ وَٱلعِلاجِ وَحِفْظِ ٱلنَّبَاتِ مِنْ جَوَائِحِهِ وَعَوَائِقِهِ وَمَا يَعْرِضُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ .

الفصل الحادي والعشرون

في علم الالهيات

وَهُوَ عِلْمٌ يَنظُرُ فِي الْوُجودِ الْمُطلَقِ فَأَوَّلاً فِي الْأُمورِ الْعَامَّةِ لِلجِسْمانِيَّاتِ وَالرُّوحانِيَّاتِ مِنَ الْمَاهِيَّاتِ وَالْوَحدَةِ وَالْكَثْرَةِ وَالْوُجوبِ وَالْإِمْكانِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ ثُمَّ يَنظُرُ فِي مَبادِىءِ الْمَوجُوداتِ وَأَنَّها رُوحانِيَّاتٌ ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ صُدورِ الْمَوجُوداتِ عَنْها وَمَراتِبِها ثُمَّ فِي أَحوالِ النَّفسِ بَعْدَ مُفارَقَةِ الْأَجسامِ وَعَوْدِها إِلَى الْمَبْدَإِ وَهُوَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ شَرِيفٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُوقِفُهُمْ عَلَى مَعرِفَةِ الْوُجودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَأَنَّ ذٰلِكَ عَيْنُ السَّعادَةِ فِي زَعْمِهِمْ وَسَيَأْتِي الرَّدُّ عَلَيْهِمْ وَهُوَ تالِ الطَّبيعِيَّاتِ فِي تَرْتِيبِهِمْ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَهُ عِلْمَ مَا وَراءَ الطَّبِيعَةِ وَكُتُبُ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ فِيهِ مَوجُودَةٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ وَلَخَّصَهُ ابْنُ سِينَا فِي كِتابِ الشِّفاءِ وَالنَّجا وَكَذٰلِكَ لَخَّصَهُ ابْنُ رُشْدٍ مِنْ حُكَماءِ الْأَنْدَلُسِ وَلَمَّا وَضَعَ الْمُتَأَخِّرُونَ فِي عُلومِ الْقَوْمِ وَدَوَّنُوا فِيها وَرَدَّ عَلَيْهِمِ الْغَزالِيُّ مَا رَدَّ مِنْها ثُمَّ خَلَطَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَسائِلَ عِلْمِ الْكَلامِ بِمَوْضُوعِ الْإِلٰهِيَّاتِ وَمَسائِلَهُ بِمَسائِلِها فَصارَتْ كَأَنَّها فَنٌّ واحِدٌ ثُمَّ غَيَّرُوا تَرْتِيبَ الْحُكَماءِ فِي مَسائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلٰهِيَّاتِ وَخَلَطُوهُما فَنّاً واحِداً قَدَّمُوا الْكَلامَ فِي الْأُمورِ الْعامَّةِ ثُمَّ أَتْبَعُوهُ بِالْجِسْمانِيَّاتِ وَتَوابِعِها ثُمَّ بِالرُّوحانِيَّاتِ وَتَوابِعِها إِلَى آخِرِ الْعِلْمِ كَما فَعَلَهُ الْإِمامُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي الْمَباحِثِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَجَمِيعُ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ عُلَماءِ الْكَلامِ وَصارَ عِلْمُ الْكَلامِ مُخْتَلِطاً بِمَسائِلِ الْحِكْمَةِ وَكُتُبُهُ مَحْشُوَّةٌ بِها كَأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ مَوْضُوعِهِما وَمَسائِلِهِما واحِد وَالْتَبَسَ ذٰلِكَ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ صَوابٌ لِأَنَّ مَسائِلَ عِلْمِ الْكَلامِ إِنَّما هِيَ عَقائِدُ مُتَلَقَّاةٌ مِنَ الشَّرِيعَةِ كَما نَقَلَها السَّلَفُ مِنْ غَيْرِ رُجوعٍ فِيها إِلَى الْعَقْلِ وَلا تَعْوِيلٍ عَلَيْهِ بِمَعْنَى أَنَّها لا تَثْبُتُ إِلَّا بِهِ فَإِنَّ الْعَقْلَ مَعْزُولٌ عَنِ الشَّرْعِ وَأَنْظارِهِ وَما تَحَدَّثَ فِيهِ الْمُتَكَلِّمُون مِنْ إِقامَةِ الْحُجَجِ فَلَيْسَ بَحْثاً عَنِ الْحَقِّ فِيها فَالتَّعْلِيلُ بِالدَّلِيلِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُوماً هُوَ شَأْنُ الْفَلْسَفَةِ بَلْ إِنَّما هُوَ الْتِماسُ حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ تَعْضُدُ عَقائِدَ الْإِيمانِ وَمَذاهِبَ السَّلَفِ فِيها وَتَدْفَعُ شُبَهَ أَهْلِ الْبِدَعِ عَنْها الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ مَدارِكَهُمْ فِيها عَقْلِيَّةٌ وَذٰلِكَ بَعْدَ أَن تُفْرَضَ صَحِيحَةً بِالْأَدِلَّةِ النَّقْلِيَّةِ كَما تَلَقَّاها السَّلَفُ وَاعْتَقَدُوها وَكَثِيرٌ ما بَيْنَ الْمَقامَيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ مَدارِكَ صاحِبِ الشَّرِيعَةِ أَوْسَعُ لِاتِّساعِ نِطاقِها عَنْ مَدارِكِ الْأَنْظارِ الْعَقْلِيَّةِ

فهيَ فَوقَها ومُحيطَةٌ بِها لِاستِمدادِها مِنَ الأنوارِ الإلهيَّةِ فَلا تَدخُلُ تَحتَ قانونِ النَّظَرِ الضَّعيفِ والمَدارِكِ المُحاطِ بِها فَإذا هَدانا الشّارِعُ إلى مُدرَكٍ فَيَنبَغي أنْ نُقدِّمَهُ على مَدارِكِنا ونَثِقَ بِهِ دُونَها ولا نَنظُرُ في تَصحيحِهِ بِمَدارِكِ العَقلِ ولَوْ عارَضَهُ بَلْ نَعتَمِدُ ما أُمِرنا بِهِ اعتِقاداً وعِلماً ونَسكُتُ عَمّا لَمْ نَفهَمْ مِنْ ذلِكَ ونُفَوِّضُهُ إلى الشّارِعِ ونَعزِلُ العَقلَ عَنهُ والمُتَكَلِّمونَ إنَّما دَعاهُمْ إلى ذلِكَ كَلامُ أهلِ الإلحادِ في مُعارَضاتِ العَقائِدِ السَّلَفيَّةِ بِالبِدَعِ النَّظَريَّةِ فَاحتاجوا إلى الرَّدِّ عَلَيهِمْ مِنْ جِنسِ مُعارَضاتِهِم واستَدعى ذلِكَ الحُجَجَ النَّظَريَّةَ ومُحاذاةَ العَقائِدِ السَّلَفيَّةِ بِها وأمّا النَّظَرُ في مَسائِلِ الطَّبيعيّاتِ والإلهيّاتِ بِالتَّصحيحِ والبُطلانِ فَلَيسَ مِنْ مَوضوعِ عِلمِ الكَلامِ ولا مِنْ جِنسِ أنظارِ المُتَكَلِّمينَ فَاعلَمْ ذلِكَ لِتُمَيِّزَ بِهِ بَيْنَ الفَنَّيْنِ فَإنَّهُما مُختَلِطانِ عِندَ المُتَأخِّرينَ في الوَضعِ والتَّأليفِ والحَقُّ مُغايَرَةُ كُلٍّ مِنهُما لِصاحِبِهِ بِالمَوضوعِ والمَسائِلِ وإنَّما جاءَ الالتِباسُ مِنِ اتِّحادِ المَطالِبِ عِندَ الاستِدلالِ وصارَ احتِجاجُ أهلِ الكَلامِ كَأنَّهُ إنشاءٌ لِطَلَبِ الاعتِقادِ بِالدَّليلِ ولَيسَ كَذلِكَ بَلْ إنَّما هوَ رَدٌّ على المُلحِدينَ والمَطلوبُ مَفروضُ الصِّدقِ مَعلومُهُ وكَذا جاءَ المُتَأخِّرونَ مِنْ غُلاةِ المُتَصَوِّفَةِ المُتَكَلِّمينَ بِالمَواجِدِ أيضاً فَخَلَطوا مَسائِلَ الفَنَّيْنِ بِفَنِّهِمْ وجَعَلوا الكَلامَ واحِداً فيها كُلِّها مِثلَ كَلامِهِمْ في النُّبوّاتِ والاتِّحادِ والحُلولِ والوَحدَةِ وغَيرِ ذلِكَ والمَدارِكُ في هذِهِ الفُنونِ الثَّلاثَةِ مُتَغايِرَةٌ مُختَلِفَةٌ وأبعَدُها مِنْ جِنسِ الفُنونِ والعُلومِ مَدارِكُ المُتَصَوِّفَةِ لِأنَّهُمْ يَدَّعونَ فيها الوِجدانَ ويَفِرّونَ عَنِ الدَّليلِ والوِجدانُ بَعيدٌ عَنِ المَدارِكِ العِلميَّةِ وأبحاثِها وتَوابِعِها كَما بَيَّنّاهُ ونُبَيِّنُهُ واللهُ يَهدي مَنْ يَشاءُ إلى طَريقٍ مُستَقيمٍ واللهُ أعلَمُ بِالصَّوابِ

الفصل الثاني والعشرون

في علوم السحر والطلسمات

وهيَ عُلومٌ بِكَيفيَّةِ استِعداداتٍ تَقتَدِرُ النُّفوسُ البَشَريَّةُ بِها عَلى التَّأثيراتِ في عالَمِ العَناصِرِ إمّا بِغَيرِ مُعينٍ أوْ بِمُعينٍ مِنَ الأُمورِ السَّماويَّةِ والأوَّلُ هوَ السِّحرُ والثّاني هوَ الطِّلَّسْماتُ ولَمّا كانَتْ هذِهِ العُلومُ مَهجورَةً عِندَ الشَّرائِعِ لِما فيها مِنَ الضَّرَرِ ولِما يُشتَرَطُ فيها مِنَ الوِجهَةِ إلى غَيرِ اللهِ مِنْ كَوكَبٍ أوْ غَيرِهِ كانَتْ كُتُبُها كالمَفقودَةِ بَيْنَ النّاسِ

إلا ما وُجدَ في كُتُبِ ٱلأُمَمِ ٱلأَقدَمِينَ فِيمَا قَبلَ نُبُوَّةِ مُوسَى عَلَيهِ ٱلسَّلامُ مِثلَ ٱلنَّبط وَٱلكَلدَانِيِّينَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَن تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلأَنبِيَاءِ لَم يَشرَعُوا ٱلشَّرَائِعَ وَلا جَاءُوا بِالأَحكَام إِنَّمَا كَانَت كُتُبُهُم مَوَاعِظَ وَتَوحِيداً لِلّهِ وَتَذكِيراً بِالجَنَّةِ وَٱلنَّارِ وَكَانَت هٰذِهِ ٱلعُلُوم في أَهلِ بَابِلَ مِنَ ٱلسِّريَانِيِّينَ وَٱلكَلدَانِيِّينَ وَفي أَهلِ مِصرَ مِنَ ٱلقِبطِ وَغَيرِهِم وَكَان لَهُم فِيهَا ٱلتَّآلِيفُ وَٱلآثَارُ وَلَم يُتَرجَم لَنَا مِن كُتُبِهِم فِيهَا إِلَّا ٱلقَلِيلُ مِثلُ ٱلفِلاحَة ٱلنَّبَطِيَّةِ مِن أَوضَاعِ أَهلِ بَابِلَ فَأَخَذَ ٱلنَّاسُ مِنهَا هٰذَا ٱلعِلمَ وَتَفَنَّنُوا فِيهِ وَوُضِعَت بَعد ذٰلِكَ ٱلأَوضَاعُ مِثلُ مَصَاحِفِ ٱلكَوَاكِبِ ٱلسَّبعَةِ وَكِتَابِ طِمطِمَ ٱلهِندِيِّ فِي صُوَر ٱلدَّرَجِ وَٱلكَوَاكِبِ وَغَيرِهَا ثُمَّ ظَهَرَ بِالمَشرِقِ جَابِرُ بنُ حَيَّانَ كَبِيرُ ٱلسَّحَرَةِ في هٰذِهِ ٱلمِلَّةِ فَتَصَفَّحَ كُتُبَ ٱلقَومِ وَٱستَخرَجَ ٱلصِّنَاعَةَ وَغَاصَ في زُبدَتِهَا وَٱستَخرَجَهَا وَوَضَعَ فِيهَا غَيرَهَا مِنَ ٱلتَّآلِيفِ وَأَكثَرَ ٱلكَلامَ فِيهَا وَفي صِنَاعَةِ ٱلسِّيمِيَاءِ لِأَنَّهَا مِن تَوَابِعِهَا لِأَنَّ إِحَالَةَ ٱلأَجسَامِ ٱلنَّوعِيَّةِ مِن صُورَةٍ إِلى أُخرَى إِنَّمَا يَكُونُ بِالقُوَّةِ ٱلنَّفسِيَّةِ لا بِالصِّنَاعَة ٱلعَمَلِيَّةِ فَهُوَ مِن قَبِيلِ ٱلسِّحرِ كَمَا نَذكُرُهُ في مَوضِعِهِ. ثُمَّ جَاءَ مَسلَمَةُ بنُ أَحمَد ٱلمَجرِيطِيُّ إِمَامُ أَهلِ ٱلأَندَلُسِ في ٱلتَّعَالِيمِ وَٱلسِّحرِيَّاتِ فَلَخَّصَ جَمِيعَ تِلكَ ٱلكُتُب وَهَذَّبَهَا وَجَمَعَ طُرُقَهَا في كِتَابِهِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ ٱلحَكِيمِ وَلَم يَكتُب أَحَدٌ في هٰذَا ٱلعِلمِ بَعدَهُ. وَلنُقَدِّم هُنَا مُقَدِّمَةً يَتَبَيَّنُ بِهَا حَقِيقَةُ ٱلسِّحرِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنُّفُوسَ ٱلبَشَرِيَّة وَإِن كَانَت وَاحِدَةً بِالنَّوعِ فَهِيَ مُختَلِفَةٌ بِالخَوَاصِّ وَهِيَ أَصنَافٌ كُلُّ صِنفٍ مُختَص بِخَاصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ بِالنَّوعِ لا تُوجَدُ في ٱلصِّنفِ ٱلآخَرِ وَصَارَت تِلكَ ٱلخَوَاصُّ فِطرَةً وَجِبِلَّة لِصِنفِهَا فَنُفُوسُ ٱلأَنبِيَاءِ عَلَيهِمِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ لَهَا خَاصِيَّةٌ تَستَعِدُّ بِهَا لِلمَعرِفَةِ ٱلرَّبَّانِيَّة وَمُخَاطَبَةِ ٱلمَلائِكَةِ عَلَيهِمُ ٱلسَّلامُ عَنِ ٱللّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالى كَمَا مَرَّ وَمَا يَتَّبِعُ في ذٰلِك مِنَ ٱلتَّأثِيرِ في ٱلأَكوَانِ وَٱستِجلابِ رُوحَانِيَّةِ ٱلكَوَاكِبِ لِلتَّصَرُّفِ فِيهَا وَٱلتَّأثِير بِقُوَّةٍ نَفسَانِيَّةٍ أَو شَيطَانِيَّةٍ فَأَمَّا تَأثِيرُ ٱلأَنبِيَاءِ فَمَدَدٌ إِلٰهِيٌّ وَخَاصِيَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَنُفُوس ٱلكَهَنَةِ لَهَا خَاصِيَّةُ ٱلاِطِّلاعِ عَلى ٱلمُغَيَّبَاتِ بِقُوًى شَيطَانِيَّةٍ وَهٰكَذَا كُلُّ صِنف مُختَص بِخَاصِيَّةٍ لا تُوجَدُ في ٱلآخَرِ وَٱلنُّفُوسُ ٱلسَّاحِرَةُ عَلى مَرَاتِبَ ثَلاثٍ يَأتِي شَرحُهَا فَأَوَّلُهَا ٱلمُؤَثِّرَةُ بِالهِمَّةِ فَقَط مِن غَيرِ آلَةٍ وَلا مُعِينٍ وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي تُسَمِّيهِ ٱلفَلاسِفَة ٱلسِّحرَ وَٱلثَّانِي بِمُعِينٍ مِن مِزَاجِ ٱلأَفلاكِ أَوِ ٱلعَنَاصِرِ أَو خَوَاصِّ ٱلأَعدَادِ وَيُسَمُّونَهُ

الطِّلَّسْمَاتِ وَهُوَ أَضْعَفُ رُتْبَةً مِنَ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثُ تَأْثِيرٌ فِي الْقُوَى الْمُتَخَيِّلَةِ يَعْمِدُ صَاحِبُ هذا التَّأْثِيرِ إلى الْقُوَى الْمُتَخَيِّلَةِ فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ التَّصَرُّفِ وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَاعاً مِنَ الْخَيَالَاتِ وَالْمُحَاكَاةِ وَصُوَراً مِمَّا يَقْصِدُهُ مِنْ ذٰلِكَ ثُمَّ يُنْزِلُهَا إلى الْحِسِّ مِنَ الرَّائِينَ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ الْمُؤَثِّرَةِ فِيهِ فَيَنْظُرُ الرَّاؤُونَ كَأَنَّهَا فِي الْخَارِجِ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ كَمَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يُرِي الْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْقُصُورَ وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ وَيُسَمَّى هذا عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ الشَّعْوَذَةَ أَوِ الشَّعْبَذَةَ. هذا تَفْصِيلُ مَرَاتِبِهِ ثُمَّ هٰذِهِ الْخَاصِّيَّةُ تَكُونُ فِي السَّاحِرِ بِالْقُوَّةِ شَأْنَ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا وَإِنَّمَا تَخْرُجُ إلى الْفِعْلِ بِالرِّيَاضَةِ وَرِيَاضَةُ السِّحْرِ كُلُّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إلى الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْعَوَالِمِ الْعَلَوِيَّةِ وَالشَّيَاطِينِ بِأَنْوَاعِ التَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ فَهِيَ لِذٰلِكَ وِجْهَةٌ إلى غَيْرِ اللهِ وَسُجُودٌ لَهُ وَالْوِجْهَةُ إلى غَيْرِ اللهِ كُفْرٌ فَلِهٰذا كَانَ السِّحْرُ كُفْراً وَالْكُفْرُ مِنْ مَوَادِّهِ وَأَسْبَابِهِ كَمَا رَأَيْتَ وَلِهٰذا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قَتْلِ السَّاحِرِ هَلْ لِكُفْرِهِ السَّابِقِ عَلَى فِعْلِهِ أَوْ لِتَصَرُّفِهِ بِالْإِفْسَادِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَكْوَانِ وَالْكُلُّ حَاصِلٌ مِنْهُ وَلَمَّا كَانَتِ الْمَرْتَبَتَانِ الْأُولَيَانِ مِنَ السِّحْرِ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ وَالْمَرْتَبَةُ الْأَخِيرَةُ الثَّالِثَةُ لا حَقِيقَةَ لَهَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي السِّحْرِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيلٌ فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ لَهُ حَقِيقَةً نَظَرُوا إلى الْمَرْتَبَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ وَالْقَائِلُونَ بِأَنْ لا حَقِيقَةَ لَهُ نَظَرُوا إلى الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ الْأَخِيرَةِ فَلَيْسَ بَيْنَهُمُ اخْتِلَافٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَلْ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قِبَلِ اشْتِبَاهِ هٰذِهِ الْمَرَاتِبِ وَاللهُ أَعْلَمُ. وَاعْلَمْ أَنَّ وُجُودَ السِّحْرِ لا مِرْيَةَ فِيهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَجْلِ التَّأْثِيرِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ قَالَ اللهُ تَعَالَى وَلٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَسُحِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَلا يَفْعَلُهُ وَجُعِلَ سِحْرُهُ فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ وَدُفِنَ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي الْمُعَوِّذَتَيْنِ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كَانَ لا يَقْرَأُ عَلَى عُقْدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْعُقَدِ الَّتِي سُحِرَ فِيهَا إِلَّا انْحَلَّتْ وَأَمَّا وُجُودُ السِّحْرِ فِي أَهْلِ بَابِلَ وَهُمُ الْكَلْدَانِيُّونَ مِنَ النَّبَطِ وَالسِّرْيَانِيِّينَ

فكثيرٌ ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقي من آثار ذلك في البراري بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجودة بالمسحور وأمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق ثم يتكلم على تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو معنى ثم ينفث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب أعده لذلك تفاؤلاً بالعقد واللزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجن في نفثه في فعله ذلك استشعاراً للعزيمة بالعزم ولتلك البنية والأسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتنزل عنها أرواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضاً من المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فإذا هو مقطوع متخرق ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض وسمعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير إلى إنسان فيتحتت قلبه ويقع ميتاً وينقلب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير إلى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء وكذلك سمعنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتحابة وهي ر ك ر ف د أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثمانون ومعنى المتحابة أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلث وربع وسدس وخمس وأمثالها إذا جمع كان متساوياً للعدد الآخر صاحبه فتسمى لأجل ذلك المتحابة ونقل أصحاب الطلسمات أن لتلك الأعداد أثراً في الإلفة بين المتحابين واجتماعهما إذا وضع لهما مثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها أو شرفها ناظرة إلى القمر نظر مودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الأول ويضع على أحد التمثالين أحد العددين والآخر على الآخر ويقصد بالأكثر الذي يراد ائتلافه أعني المحبوب ما أدري الأكثر كمية أو الأكثر أجزاء فيكون لذلك

منَ ٱلتَّأَلُّفِ ٱلعَظِيمِ بَيْنَ ٱلمُتَحَابَّيْنِ مَا لاَ يَكَادُ يَنفَكُّ أَحَدُهُمَا عَنِ ٱلآخَرِ قَالَهُ صَاحِبُ ٱلغَايَةِ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ هٰذَا ٱلشَّأْنِ وَشَهِدَتْ لَهُ ٱلتَّجْرِبَةُ وَكَذَا طَابَعُ ٱلأَسَدِ وَيُسَمَّى أَيْضاً طَابَعَ ٱلحَصَى وَهُوَ أَنْ يُرْسَمَ فِي قَالَبِ هند اصبع صُورَةُ أَسَدٍ شَائِلًا ذَنَبَهُ عَاضّاً عَلَى حصَاةٍ قَدْ قَسَمَهَا بِنِصْفَيْنِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ صُورَةُ حَيَّةٍ مُنْسَابَةٍ مِنْ رِجْلَيْهِ إِلَى قُبَالَةِ وَجْهِهِ فَاغِرَةً فَاهَا فِيهِ وَعَلَى ظَهْرِهِ صُورَةُ عَقْرَبٍ تَدِبُّ وَيَتَحَيَّنُ بِرَسْمِهِ حُلُولَ ٱلشَّمْسِ بِٱلوَجْهِ ٱلأَوَّلِ أَوِ ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلأَسَدِ بِشَرْطِ صَلاَحِ ٱلنَّيِّرَيْنِ وَسَلاَمَتِهِمَا مِنَ ٱلنُّحُوسِ فَإِذَا وَجَدَ ذٰلِكَ وَعَثَرَ عَلَيْهِ طُبِعَ فِي ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ فِي مِقْدَارِ ٱلمِثْقَالِ فَمَا دُونَهُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَغُمِسَ بَعْدُ فِي ٱلزَّعْفَرَانِ مَحْلُولاً بِمَاءِ ٱلوَرْدِ وَرُفِعَ فِي خِرْقَةِ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لِمُمْسِكِهِ مِنَ ٱلعِزِّ عَلَى ٱلسَّلاَطِينِ فِي مُبَاشَرَتِهِمْ وَخِدْمَتِهِمْ وَتَسْخِيرِهِمْ لَهُ مَا لاَ يُعَبَّرُ وَكَذٰلِكَ لِلسَّلاَطِينِ فِيهِ مِنَ ٱلقُوَّةِ وَٱلعِزِّ عَلَى مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ذَكَرَ ذٰلِكَ أَيْضاً أَهْلُ هٰذَا ٱلشَّأْنِ فِي ٱلغَايَةِ وَغَيْرِهَا وَشَهِدَتْ لَهُ ٱلتَّجْرِبَةُ وَكَذٰلِكَ وَفْقُ ٱلمُسَدَّسِ ٱلمُخْتَصِّ بِٱلشَّمْسِ ذَكَرُوا أَنَّهُ يُوضَعُ عِنْدَ حُلُولِ ٱلشَّمْسِ فِي شَرَفِهَا وَسَلاَمَتِهَا مِنَ ٱلنُّحُوسِ وَسَلاَمَةِ ٱلقَمَرِ بِطَالِعٍ مُلُوكِيٍّ يُعْتَبَرُ فِيهِ نَظَرُ صَاحِبِ ٱلعَاشِرِ لِصَاحِبِ ٱلطَّالِعِ نَظَرَ مَوَدَّةٍ وَقَبُولٍ وَيَصْلُحُ فِيهِ مَا يَكُونُ مِنْ مَوَالِيدِ ٱلمُلُوكِ مِنَ ٱلأَدِلَّةِ ٱلشَّرِيفَةِ وَيُرْفَعُ فِي خِرْقَةِ حَرِيرٍ صَفْرَاءَ بَعْدَ أَنْ يُغْمَسَ فِي ٱلطِّيبِ فَزَعَمُوا أَنَّ لَهُ أَثَراً فِي صَحَابَةِ ٱلمُلُوكِ وَخِدْمَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ وَكِتَابُ ٱلغَايَةِ لِمَسْلَمَةَ بْنِ أَحْمَدَ ٱلمَجْرِيطِيِّ هُوَ مُدَوَّنَةُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَفِيهِ ٱسْتِيفَاؤُهَا وَكَمَالُ مَسَائِلِهَا وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ ٱلإِمَامَ ٱلفَخْرَ بْنَ ٱلخَطِيبِ وَضَعَ كِتَاباً فِي ذٰلِكَ وَسَمَّاهُ بِٱلسِّرِّ ٱلمَكْتُومِ وَأَنَّهُ بِٱلمَشْرِقِ يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُهُ وَنَحْنُ لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ وَٱلإِمَامُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَئِمَّةِ هٰذَا ٱلشَّأْنِ فِيمَا نَظُنُّ وَلَعَلَّ ٱلأَمْرَ بِخِلاَفِ ذٰلِكَ وَبِٱلمَغْرِبِ صِنْفٌ مِنْ هٰؤُلاَءِ ٱلمُنْتَحِلِينَ لِهٰذِهِ ٱلأَعْمَالِ ٱلسِّحْرِيَّةِ يُعْرَفُونَ بِٱلبَعَّاجِينَ وَهُمُ ٱلَّذِينَ ذَكَرْتُ أَوَّلاً أَنَّهُمْ يُشِيرُونَ إِلَى ٱلكِسَاءِ أَوِ ٱلجِلْدِ فَيَتَخَرَّقُ وَيُشِيرُونَ إِلَى بُطُونِ ٱلغَنَمِ بِٱلبَعْجِ فَتَنْبَعِجُ وَيُسَمَّى أَحَدُهُمْ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ بِٱسْمِ ٱلبَعَّاجِ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا يَنْتَحِلُ مِنَ ٱلسِّحْرِ بَعْجُ ٱلأَنْعَامِ يُرْهِبُ بِذٰلِكَ أَهْلَهَا لِيُعْطُوهُ مِنْ فَضْلِهَا وَهُمْ مُسْتَتِرُونَ بِذٰلِكَ فِي ٱلغَايَةِ خَوْفاً عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ ٱلحُكَّامِ لَقِيتُ مِنْهُمْ جَمَاعَةً وَشَاهَدْتُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ هٰذِهِ بِذٰلِكَ وَأَخْبَرُونِي أَنَّ لَهُمْ وِجْهَةً وَرِيَاضَةً

خاصَّةٌ بِدَعَوَاتٍ كُفْرِيَّةٍ وَإِشْرَاكِ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ ٱلْجِنِّ وَٱلْكَوَاكِبِ سُطِرَتْ فِيهَا صَحِيفَةٌ عِنْدَهُمْ تُسَمَّى ٱلْخُزَيْرِيَّةَ يَتَدَارَسُونَهَا وَأَنَّهُمْ بِهَذِهِ ٱلرِّيَاضَةِ وَٱلْوِجْهَةِ يَصِلُونَ إِلَى حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ لَهُمْ وَأَنَّ ٱلتَّأْثِيرَ ٱلَّذِي لَهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا سِوَى ٱلْإِنْسَانِ ٱلْحُرِّ مِنَ ٱلْمَتَاعِ وَٱلْحَيَوَانِ وَٱلرَّقِيقِ وَيُعَبِّرُونَ عَنْ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِمْ إِنَّمَا نَفْعَلُ فِيمَا تَمْشِي فِيهِ ٱلدَّرَاهِمُ أَيْ مَا يُمْلَكُ وَيُبَاعُ وَيُشْتَرَى مِنْ سَائِرِ ٱلْمُتَمَلَّكَاتِ هٰذَا مَا زَعَمُوهُ وَسَأَلْتُ بَعْضَهُمْ فَأَخْبَرَنِي بِهِ وَأَمَّا أَفْعَالُهُمْ فَظَاهِرَةٌ مَوْجُودَةٌ وَقَفْنَا عَلَى ٱلْكَثِيرِ مِنْهَا وَعَايَنَّاهَا مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ فِي ذٰلِكَ هٰـذَا شَأْنُ ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ وَآثَارُهُمَا فِي ٱلْعَالَمِ فَأَمَّا ٱلْفَلَاسِفَةُ فَفَرَّقُوا بَيْنَ ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ بَعْدَ أَنْ أَثْبَتُوا أَنَّهُمَا جَمِيعاً أَثَرٌ لِلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ ٱلْأَثَرِ لِلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِأَنَّ لَهَا آثَاراً فِي بَدَنِهَا عَلَى غَيْرِ ٱلْمَجْرَى ٱلطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ ٱلْجُسْمَانِيَّةِ بَلْ آثَارٌ عَارِضَةٌ مِنْ كَيْفِيَّاتِ ٱلْأَرْوَاحِ تَارَةً كَٱلسُّخُونَةِ ٱلْحَادِثَةِ عَنِ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ أُخْرَى كَٱلَّذِي يَقَعُ مِنْ قِبَلِ ٱلتَّوَهُّمِ فَإِنَّ ٱلْمَاشِي عَلَى حَرْفِ حَائِطٍ أَوْ حَبْلٍ مُنْتَصِبٍ إِذَا قَوِيَ عِنْدَهُ تَوَهُّمُ ٱلسُّقُوطِ سَقَطَ بِلَا شَكٍّ وَلِهَـذَا تَجِدُ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ يُعَوِّدُونَ أَنْفُسَهُمْ ذٰلِكَ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُمْ هٰذَا ٱلْوَهْمُ فَتَجِدُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى حَرْفِ ٱلْحَائِطِ وَٱلْحَبْلِ ٱلْمُنْتَصِبِ وَلَا يَخَافُونَ ٱلسُّقُوطَ فَثَبَتَ أَنَّ ذٰلِكَ مِنْ آثَارِ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَتَصَوُّرِهَا لِلسُّقُوطِ مِنْ أَجْلِ ٱلْوَهْمِ وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ أَثَرًا لِلنَّفْسِ فِي بَدَنِهَا مِنْ غَيْرِ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْجُسْمَانِيَّةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لَهَا مِثْلُ هٰـذَا ٱلْأَثَرِ فِي غَيْرِ بَدَنِهَا إِذْ نِسْبَتُهَا إِلَى ٱلْأَبْدَانِ فِي ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّأْثِيرِ وَاحِدَةٌ لِأَنَّهَا غَيْرُ حَالَّةٍ فِي ٱلْبَدَنِ وَلَا مُنْطَبِعَةٍ فِيهِ فَثَبَتَ أَنَّهَا مُؤَثِّرَةٌ فِي سَائِرِ ٱلْأَجْسَامِ وَأَمَّا ٱلتَّفْرِقَةُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ فَهُوَ أَنَّ ٱلسِّحْرَ لَا يَحْتَاجُ ٱلسَّاحِرُ فِيهِ إِلَى مُعِينٍ وَصَاحِبُ ٱلطِّلَّسْمَاتِ يَسْتَعِينُ بِرُوحَانِيَّاتِ ٱلْكَوَاكِبِ وَأَسْرَارِ ٱلْأَعْدَادِ وَخَوَاصِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَأَوْضَاعِ ٱلْفَلَكِ ٱلْمُؤَثِّرَةِ فِي عَالَمِ ٱلْعَنَاصِرِ كَمَا يَقُولُهُ ٱلْمُنَجِّمُونَ وَيَقُولُونَ ٱلسِّحْرُ ٱتِّحَادُ رُوحٍ بِرُوحٍ وَٱلطِّلَّسْمُ ٱتِّحَادُ رُوحٍ بِجِسْمٍ! وَمَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ رَبْطُ ٱلطَّبَائِعِ ٱلْعُلْوِيَّةِ ٱلسَّمَاوِيَّةِ بِٱلطَّبَائِعِ ٱلسُّفْلِيَّةِ وَٱلطَّبَائِعُ ٱلْعُلْوِيَّةُ هِيَ رُوحَانِيَّاتُ ٱلْكَوَاكِبِ وَلِذٰلِكَ يَسْتَعِينُ صَاحِبُهُ فِي غَالِبِ ٱلْأَمْرِ بِٱلنِّجَامَةِ وَٱلسَّاحِرُ عِنْدَهُمْ غَيْرُ مُكْتَسِبٍ لِسِحْرِهِ بَلْ هُوَ مَفْطُورٌ عِنْدَهُمْ عَلَى تِلْكَ ٱلْجِبِلَّةِ ٱلْمُخْتَصَّةِ بِذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّأْثِيرِ وَٱلْفَرْقُ عِنْدَهُم

بيْنَ ٱلْمُعْجِزَةِ وَٱلسحْرِ أنَّ ٱلْمُعْجِزَةَ قُوَّةٌ إِلَهِيَّةٌ تَبْعَثُ عَلى ٱلنَّفْسِ ذٰلِكَ ٱلتَّأْثِيرَ فَهوَ مُؤَيَّد بِرُوحِ ٱللهِ عَلَى فِعْلِهِ ذٰلِكَ وَٱلسَّاحِرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْ لَدُنْ نَفْسِهِ وَبِقُوَّتِهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ وَبِإِمْدَادِ ٱلشَّيَاطِينِ فِي بَعْضِ ٱلأَحْوَالِ فَبَيْنَهُمَا ٱلفَرْقُ فِي ٱلمَعْقُولِيَّةِ وَٱلْحَقِيقَةِ وَٱلذَّاتِ فِي نَفْسِ ٱلأَمْرِ وَإِنَّمَا نَسْتَدِلُّ نَحْنُ عَلَى ٱلتَّفْرِقَةِ بِٱلعَلَامَاتِ ٱلظَّاهِرَةِ وَهِيَ وُجُودُ ٱلمُعْجِزَةِ لِصَاحِبِ ٱلْخَيْرِ وَفِي مَقَاصِدِ ٱلْخَيْرِ وَلِلنُّفُوسِ ٱلْمُتَمَحِّضَةِ لِلْخَيْرِ وَٱلتَّحَدِّي بِهَا عَلَى دَعْوَى ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلسِّحْرِ إِنَّمَا يُوجَدُ لِصَاحِبِ ٱلشَّرِّ وَفِي أَفْعَالِ ٱلشَّرِّ فِي ٱلغَالِبِ مِنَ ٱلتَّفْرِيقِ بَيْنَ ٱلزَّوْجَيْنِ وَضَرَرِ ٱلأَعْدَاءِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَلِلنُّفُوسِ ٱلْمُتَمَحِّضَةِ لِلشَّرِّ . هٰذَا هُوَ ٱلفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلإِلَهِيِّينَ وَقَدْ يُوجَدُ لِبَعْضِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ وَأَصْحَابِ ٱلكَرَامَاتِ تَأْثِيرٌ أَيْضاً فِي أَحْوَالِ ٱلعَالَمِ وَلَيْسَ مَعْدُوداً مِنْ جِنْسِ ٱلسِّحْرِ وَإِنَّمَا هُوَ بِٱلإِمْدَادِ ٱلإِلَهِي لأَنَّ طَرِيقَتَهُم وَنِحْلَتَهُمْ مِنْ آثَارِ ٱلنُّبُوَّةِ وَتَوَابِعِهَا وَلَهُمْ فِي ٱلْمَدَدِ ٱلإِلَهِيِّ حَظٌّ عَلَى قَدَرِ حَالِهِمْ وَإِيمَانِهِم وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ ٱللهِ وَإِذَا ٱقْتَدَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَفْعَالِ ٱلشَّرِّ لاَ يَأْتِيهَا لأَنَّهُ مُتَقَيِّدٌ فِيمَا يَأْتِيهِ يَذَرُهُ لِلأَمْرِ ٱلإِلَهِيِّ فَمَا لاَ يَقَعُ لَهُمْ فِيهِ ٱلإِذْنُ لاَ يَأْتُونَهُ بِوَجْهٍ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَقَد عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ ٱلْحَقِّ وَرُبَّمَا سَلَبَ حَالَهُ وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمُعْجِزَةُ بِإِمْدَادِ رُوحِ ٱللهِ وَٱلقُوَى ٱلإِلَهِيَّةِ فَلِذٰلِكَ لاَ يُعَارِضُهَا شَيْءٌ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱنْظُرْ شَأْنَ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ مَعَ مُوسَى فِي مُعْجِزَةِ ٱلْعَصَا كَيْفَ تَلَقَّفَتْ مَا كَانُوا بِهِ يَأْفِكُونَ وَذَهَبَ سِحْرُهُمْ وَٱضْمَحَلَّ كَأَنْ لَمْ يَكُن وَكَذٰلِكَ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ٱلمُعَوِّذَتَيْنِ وَمِنْ شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِي ٱلعُقَدِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا فَكَانَ لاَ يَقْرَأُهَا عَلَى عُقْدَةٍ مِنَ ٱلعُقَدِ ٱلَّتِي سُحِرَ فِيهَا إِلَّا ٱنْحَلَّتْ فَٱلسِّحْرُ لاَ يَثْبُتُ مَعَ ٱسْمِ ٱللهِ وَذِكْرِهِ وَقَدْ نَقَلَ ٱلْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ زَرْكَشَ كَاوِيَانَ وَهِيَ رَايَةُ كِسْرَى كَانَ فِيهَا ٱلوَفْقُ ٱلمِئِينِيُّ ٱلعَدَدِيُّ مَنْسُوجاً بِٱلذَّهَبِ فِي أَوْضَاع فَلَكِيَّةٍ رُصِدَتْ لِذٰلِكَ ٱلوَفْقِ وَوُجِدَتِ ٱلرَّايَةُ يَوْمَ قُتِلَ رُسْتُمُ بِٱلقَادِسِيَّةِ وَاقِعَةً عَلى ٱلأَرْضِ بَعْدَ ٱنْهِزَامِ أَهْلِ فَارِسَ وَشَتَاتِهِمْ وَهُوَ فِيمَا تَزْعُمُ أَهْلُ ٱلطِّلَّسْمَاتِ وَٱلأَوْفَاق مَخْصُوصٌ بِٱلغَلَبِ فِي ٱلْحُرُوبِ وَأَنَّ ٱلرَّايَةَ ٱلَّتِي يَكُونُ فِيهَا أَوْ مَعَهَا لاَ تَنْهَزِمُ أَصْلاً إِلَّا أَنَّ هٰذِهِ عَارَضَهَا ٱلْمَدَدُ ٱلإِلَهِيُّ مِنْ إِيمَانِ أَصْحَابِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ ٱللهِ فَٱنْحَلَّ مَعَهَا كُلُّ عَقْدٍ سِحْرِيٍّ وَلَمْ يَثْبُتْ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا ٱلشَّرِيعَةُ فَلَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَ ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ وَجَعَلَتْهُ كُلَّهُ بَاباً وَاحِداً مَحْظُوراً

لان ٱلْأَفعَالَ إِنَّمَا أَباحَ لَنَا ٱلشَّارِعُ مِنهَا مَا يُهِمُّنَا فِي دِينِنَا ٱلَّذِي فِيهِ صَلاحُ آخِرَتِنَا أَوْ فِي مَعَاشِنَا ٱلَّذِي فِيهِ صَلاحُ دُنْيَانَا وَمَا لا يُهِمُّنَا فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا فَإِنْ كَانَ فِيهِ ضَرَرٌ أَوْ نَوْعُ ضَرَرٍ كَٱلسِّحْرِ ٱلْحَاصِلِ ضَرَرُهُ بِٱلْوُقُوعِ وَيُلْحَقُ بِهِ ٱلطِّلَّسْمَاتُ لِأَنَّ أَثَرَهُمَا وَاحِد وَكَٱلتِّجَامَةِ ٱلَّتِي فِيهَا نَوْعُ ضَرَرٍ بِٱعْتِقَادِ ٱلتَّأْثِيرِ فَتَفْسُدُ ٱلْعَقِيدَةُ ٱلْإِيمَانِيَّةُ بِرَدِّ ٱلْأُمُور إِلَى غَيْرِ ٱللهِ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ ذَٰلِكَ ٱلْفِعْلُ مَحْظُوراً عَلَى نِسْبَتِهِ فِي ٱلضَّرَرِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُهِمّاً عَلَيْنَا وَلا فِيهِ ضَرَرٌ فَلا أَقَلَّ مِنْ تَرْكِهِ قُرْبَةً إِلَى ٱللهِ فَإِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ ٱلْمَرْءِ تَرْكَهُ مَا لا يَعْنِيهِ فَجَعَلَتِ ٱلشَّرِيعَةُ بابَ ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ وَٱلشَّعْوَذَةِ بَاباً وَاحِداً لِمَا فِيهِمَا مِنَ ٱلضَّرَرِ وَخَصَّتْهُ بِٱلْحَظْرِ وَٱلتَّحْرِيمِ وَأَمَّا ٱلْفَرْقُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ ٱلْمُعْجِزَةِ وَٱلسِّحْرِ فَٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى ٱلتَّحَدِّي وَهُوَ دَعْوَى وُقُوعِهَا عَلَى وَفْقِ مَا ادَّعَاه قالُوا وَٱلسَّاحِرُ مَصْرُوفٌ عَنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلتَّحَدِّي فَلا يَقَعُ مِنْهُ وَوُقُوعُ ٱلْمُعْجِزَةِ عَلَى وَفْق دَعْوَى ٱلْكَاذِبِ غَيْرُ مَقْدُورٍ لِأَنَّ دَلالَةَ ٱلْمُعْجِزَةِ عَلَى ٱلصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ لِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِهَا ٱلتَّصْدِيقُ فَلَوْ وَقَعَتْ مَعَ ٱلْكَذِبِ لَٱسْتَحَالَ ٱلصَّادِقُ كَاذِباً وَهُوَ مُحَالٌ فَإِذاً لا تَقع ٱلْمُعْجِزَةُ مَعَ ٱلْكَاذِبِ بِإِطْلاقٍ وَأَمَّا ٱلْحُكَمَاءُ فَٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عِنْدَهُمْ كَمَا ذَكَرْنَاه فَرْقُ مَا بَيْنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ فِي نِهَايَةِ ٱلطَّرَفَيْنِ فَٱلسَّاحِرُ لا يَصْدُرُ مِنْهُ ٱلْخَيْرُ وَلا يَسْتَعْمِل فِي أَسْبَابِ ٱلْخَيْرِ وَصَاحِبُ ٱلْمُعْجِزَةِ لا يَصْدُرُ مِنْهُ ٱلشَّرُّ وَلا يَسْتَعْمِلُ فِي أَسْبَابِ ٱلشَّر وَكَأَنَّهُمَا عَلَى طَرَفَي ٱلنَّقِيضِ فِي أَصْلِ فِطْرَتِهِمَا وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيّ ٱلْعَزِيزُ لا رَبَّ سِوَاهُ وَمِنْ قَبِيلِ هٰذِهِ ٱلتَّأْثِيرَاتِ ٱلنَّفْسِيَّةِ ٱلْإِصَابَةُ بِٱلْعَيْنِ وَهُوَ تَأْثِير مِنْ نَفْسِ ٱلْمِعْيَانِ عِنْدَ مَا يَسْتَحْسِنُ بِعَيْنِهِ مُدْرَكاً مِنَ ٱلذَّوَاتِ أَوِ ٱلْأَحْوَالِ وَيُفْرِطُ فِي ٱسْتِحْسَانِهِ وَيَنْشَأُ عَنْ ذَٰلِكَ ٱلْإِسْتِحْسَانِ حِينَئِذٍ أَنَّهُ يَرُومُ مَعَهُ سَلْبَ ذَٰلِكَ ٱلشَّيْءِ عَمَّن ٱتَّصَفَ بِهِ فَيُؤَثِّرُ فَسَادَهُ وَهُوَ جِبِلَّةٌ فِطْرِيَّةٌ أَعْنِي هٰذِهِ ٱلْإِصَابَةَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلتَّأْثِيرَاتِ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مَا لا يُكْتَسَبُ فَصُدُورُهَا رَاجِعٌ إِلَى ٱخْتِيَارِ فَاعِلِهَا وَٱلْفِطْرِيُّ مِنْهَا قُوَّةُ صُدُورِهَا وَلِهَذَا قَالُوا ٱلْقَاتِلُ بِٱلسِّحْرِ أَوْ بِٱلْكَرَامَةِ يُقْتَلُ وَٱلْقَاتِل بِٱلْعَيْنِ لا يُقْتَلُ وَمَا ذَٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُرِيدُهُ وَيَقْصِدُهُ أَوْ يَتْرُكُهُ وَإِنَّمَا هُوَ مَجْبُور فِي صُدُورِهِ عَنْهُ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي ٱلْغُيُوبِ وَمُطَّلِعٌ عَلَى مَا فِي ٱلسَّرَائِرِ

الفصل الثالث والعشرون

في علم الكيمياء

وَهُوَ عِلْمٌ يَنظُرُ في ٱلْمَادَّةِ ٱلَّتِي يَتِمُّ بِهَا كَوْنُ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ بِٱلصِّنَاعَةِ وَيَشْرَحُ ٱلْعَمَلَ ٱلَّذِي يُوصِلُ إِلى ذٰلِكَ فَيَتَصَفَّحُونَ ٱلْمُكَوَّنَاتِ كُلَّهَا بَعْدَ مَعْرِفَةِ أَمْزِجَتِهَا وَقُوَاهَا لَعَلَّهُمْ يَعْثُرُونَ عَلى ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُسْتَعِدَّةِ لِذٰلِكَ حَتَّى مِنَ ٱلْفَضَلاتِ ٱلْحَيَوَانِيَّةِ كَٱلْعِظَامِ وَٱلرِّيشِ وَٱلْبَيْضِ وَٱلْعَذِرَاتِ فَضْلاً عَنِ ٱلْمَعَادِنِ ثُمَّ يَشْرَحُ ٱلأَعْمَالَ ٱلَّتِي تَخْرُجُ بِهَا تِلْكَ ٱلْمَادَّةُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلى ٱلْفِعْلِ مِثْلَ حَلِّ ٱلأَجْسَامِ إِلى أَجْزَائِهَا ٱلطَّبِيعِيَّةِ بِٱلتَّصْعِيدِ وَٱلتَّقْطِيرِ وَجَمْدِ ٱلذَّائِبِ مِنْهَا بِٱلتَّكْلِيسِ وَإِمْهَاءِ ٱلصُّلْبِ بِٱلْقِهْرِ وَٱلصَّلابَةِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَفي زَعْمِهِمْ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا جِسْمٌ طَبِيعِيٌّ يُسَمُّونَهُ ٱلإِكْسِيرَ وَأَنَّهُ يُلْقَى مِنْهُ عَلى ٱلْجِسْمِ ٱلْمَعْدِنِيِّ ٱلْمُسْتَعِدِّ لِقَبُولِ صُورَةِ ٱلذَّهَبِ أَوِ ٱلْفِضَّةِ بِٱلاِسْتِعْدَادِ ٱلْقَرِيبِ مِنَ ٱلْفِعْلِ مِثْلَ ٱلرَّصَاصِ وَٱلْقَصْدِيرِ وَٱلنُّحَاسِ بَعْدَ أَنْ يُحْمَى بِٱلنَّارِ فَيَعُودُ ذَهَباً إِبْرِيزاً وَيَكْنُونَ عَنْ ذٰلِكَ ٱلإِكْسِيرِ إِذَا أَلْغَزُوا في ٱصْطِلاحَاتِهِمْ بِٱلرُّوحِ وَعَنِ ٱلْجِسْمِ ٱلَّذِي يُلْقَى عَلَيْهِ بِٱلْجَسَدِ فَشَرْحُ هٰذِهِ ٱلاِصْطِلاحَاتِ وَصُورَةُ هٰذَا ٱلْعَمَلِ ٱلصِّنَاعِيِّ ٱلَّذِي يَقْلِبُ هٰذِهِ ٱلأَجْسَادَ ٱلْمُسْتَعِدَّةَ إِلى صُورَةِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ هُوَ عِلْمُ ٱلْكِيمِيَاءِ وَمَا زَالَ ٱلنَّاسُ يُؤَلِّفُونَ فِيهَا قَدِيماً وَحَدِيثاً وَرُبَّمَا يُعْزَى ٱلْكَلامُ فِيهَا إِلى مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا وَإِمَامُ ٱلْمُدَوِّنِينَ فِيهَا جَابِرُ بْنُ حَيَّانَ حَتَّى إِنَّهُمْ يَخُصُّونَهَا بِهِ فَيُسَمُّونَهَا عِلْمَ جَابِرٍ وَلَهُ فِيهَا سَبْعُونَ رِسَالَةً كُلُّهَا شَبِيهَةٌ بِٱلأَلْغَازِ وَزَعَمُوا أَنَّهُ لا يَفْتَحُ مُقْفَلَهَا إِلَّا مَنْ أَحَاطَ عِلْماً بِجَمِيعِ مَا فِيهَا وَٱلطُّغْرَائِيُّ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْمَشْرِقِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ لَهُ فِيهَا دَوَاوِينُ وَمُنَاظَرَاتٌ مَعَ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ وَكَتَبَ فِيهَا مَسْلَمَةُ ٱلْمَجْرِيطِيُّ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلأَنْدَلُسِ كِتَابَهُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ رُتْبَةَ ٱلْحَكِيمِ وَجَعَلَهُ قَرِيناً لِكِتَابِهِ ٱلآخَرِ في ٱلسِّحْرِ وَٱلطِّلَّسْمَاتِ ٱلَّذِي سَمَّاهُ غَايَةَ ٱلْحَكِيمِ وَزَعَمَ أَنَّ هَاتَيْنِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا نَتِيجَتَانِ لِلْحِكْمَةِ وَثَمَرَتَانِ لِلْعُلُومِ وَمَنْ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِمَا فَهُوَ فَاقِدٌ ثَمَرَةَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْحِكْمَةِ أَجْمَعَ وَكَلامُهُ في ذٰلِكَ ٱلْكِتَابِ وَكَلامُهُمْ أَجْمَعُ في تَآلِيفِهِمْ هِيَ أَلْغَازٌ يَتَعَذَّرُ فَهْمُهَا عَلى مَنْ لَمْ يُعَانِ ٱصْطِلاحَاتِهِمْ في ذٰلِكَ. وَنَحْنُ نَذْكُرُ سَبَبَ عُدُولِهِمْ إِلى هٰذِهِ ٱلرُّمُوزِ وَٱلأَلْغَازِ وَلاِبْنِ ٱلْمُغَيْرِبِيِّ مِنْ أَئِمَّةِ هٰذَا ٱلشَّأْنِ كَلِمَاتٌ شِعْرِيَّةٌ عَلى حُرُوفِ ٱلْمُعْجَمِ مِنْ أَبْدَعِ مَا يَجِيءُ

فِي ٱلشِّعْرِ مَلْغُوزَةً كُلُّهَا لُغْزَ ٱلْأَحَاجِي وَٱلْمُعَايَاةِ فَلَا تَكَادُ تُفْهَمُ وَقَدْ يَنْسِبُونَ لِلْغَزَالِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَعْضَ ٱلتَّآلِيفِ فِيهَا وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّ ٱلرَّجُلَ لَمْ تَكُنْ مَدَارِكُهُ ٱلْعَالِيَةُ لِتَقِفَ عَنْ خَطَإِ مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَنْتَحِلَهُ وَرُبَّمَا نَسَبُوا بَعْضَ ٱلْمَذَاهِبِ وَٱلْأَقْوَالِ فِيهَا لِخَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ رَبِيبِ مَرْوَانَ بْنِ ٱلْحَكَمِ وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ ٱلْبَيِّنِ أَنَّ خَالِداً مِنَ ٱلْجِيلِ ٱلْعَرَبِيِّ وَٱلْبِدَاوَةُ إِلَيْهِ أَقْرَبُ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ بِٱلْجُمْلَةِ فَكَيْفَ لَهُ بِصِنَاعَةٍ غَرِيبَةِ ٱلْمَنْحَى مَبْنِيَّةٍ عَلَى مَعْرِفَةِ طَبَائِعِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ وَأَمْزِجَتِهَا وَكُتُبُ ٱلنَّاظِرِينَ فِي ذَٰلِكَ مِنَ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ وَٱلطِّبِّ لَمْ تَظْهَرْ بَعْدُ وَلَمْ تُتَرْجَمْ أَللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ آخَرَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدَارِكِ ٱلصِّنَاعِيَّةِ تَشَبَّهَ بِٱسْمِهِ فَمُمْكِنٌ . وَأَنَا أَنْقُلُ لَكَ هُنَا رِسَالَةَ أَبِي بَكْرِ بْنِ بِشْرُونَ لِأَبِي ٱلسَّمْحِ فِي هَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَكِلَاهُمَا مِنْ تَلَامِيذِ مَسْلَمَةَ فَيُسْتَدَلُّ مِنْ كَلَامِهِ فِيهَا عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي شَأْنِهَا إِذَا أَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ مِنَ ٱلتَّأَمُّلِ قَالَ ٱبْنُ بِشْرُونَ بَعْدَ صَدْرٍ مِنَ ٱلرِّسَالَةِ خَارِجٍ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَٱلْمُقَدِّمَاتُ ٱلَّتِي لِهَٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْكَرِيمَةِ قَدْ ذَكَرَهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَٱقْتَصَّ جَمِيعَهَا أَهْلُ ٱلْفَلْسَفَةِ مِنْ مَعْرِفَةِ تَكْوِينِ ٱلْمَعَادِنِ وَتَخَلُّقِ ٱلْأَحْجَارِ وَٱلْجَوَاهِرِ وَطِبَاعِ ٱلْبِقَاعِ وَٱلْأَمَاكِنِ فَمَنَعَنَا ٱشْتِهَارُهَا مِنْ ذِكْرِهَا وَلَٰكِنْ أُبَيِّنُ لَكَ مِنْ هَٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فَنَبْدَأُ بِمَعْرِفَتِهِ فَقَدْ قَالُوا يَنْبَغِي لِطُلَّابِ هَٰذَا ٱلْعِلْمِ أَنْ يَعْلَمُوا أَوَّلاً ثَلَاثَ خِصَالٍ أَوَّلُهَا هَلْ تَكُونُ وَٱلثَّانِيَةُ مِنْ أَيِّ تَكُونُ وَٱلثَّالِثَةُ مِنْ أَيٍّ كَيْفَ تَكُونُ فَإِذَا عَرَفَ هَٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ وَأَحْكَمَهَا فَقَدْ ظَفِرَ بِمَطْلُوبِهِ وَبَلَغَ نِهَايَتَهُ مِنْ هَٰذَا ٱلْعِلْمِ وَأَمَّا ٱلْبَحْثُ عَنْ وُجُودِهَا وَٱلِٱسْتِدْلَالُ عَنْ تَكَوُّنِهَا فَقَدْ كَفَيْنَاكَهُ بِمَا بَعَثْنَا بِهِ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْإِكْسِيرِ وَأَمَّا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ فَإِنَّمَا يُرِيدُونَ بِذَٰلِكَ ٱلْبَحْثَ عَنِ ٱلْحَجَرِ ٱلَّذِي يُمْكِنُهُ ٱلْعَمَلُ وَإِنْ كَانَ ٱلْعَمَلُ مَوْجُوداً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِٱلْقُوَّةِ لِأَنَّهَا مِنَ ٱلطَّبَائِعِ ٱلْأَرْبَعِ مِنْهَا تَرَكَّبَتِ ٱبْتِدَاءً وَإِلَيْهَا تَرْجِعُ ٱنْتِهَاءً وَلَٰكِنَّ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ مَا يَكُونُ فِيهِ بِٱلْقُوَّةِ وَلَا يَكُونُ بِٱلْفِعْلِ وَذَٰلِكَ أَنَّ مِنْهَا مَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا تُعَالَجُ وَتُدَبَّرُ وَهِيَ ٱلَّتِي تَخْرُجُ مِنَ ٱلْقُوَّةِ إِلَى ٱلْفِعْلِ وَٱلَّتِي لَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا لَا تُعَالَجُ وَلَا تُدَبَّرُ لِأَنَّهَا فِيهَا بِٱلْقُوَّةِ فَقَطْ وَإِنَّمَا لَمْ يُمْكِنْ تَفْصِيلُهَا لِٱسْتِغْرَاقِ بَعْضِ طَبَائِعِهَا فِي بَعْضٍ وَفَضْلِ قُوَّةِ ٱلْكَبِيرِ مِنْهَا عَلَى ٱلصَّغِيرِ فَيَنْبَغِي لَكَ وَفَّقَكَ ٱللَّهُ أَنْ تَعْرِفَ أَوْفَقَ ٱلْأَحْجَارِ ٱلْمُنْفَصِلَةِ ٱلَّتِي يُمْكِنُ فِيهَا ٱلْعَمَلُ وَجِنْسَهُ وَقُوَّتَهُ وَعَمَلَهُ وَمَا يُدَبَّرُ مِنَ ٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ

وَالتَّنْقِيَةِ وَالتَّكْلِيسِ وَالتَّنْشِيفِ وَالتَّقْلِيبِ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ هٰذِهِ الْأُصُولَ الَّتِي هِيَ عِمَادُ هٰذِهِ الصَّنْعَةِ لَمْ يَنْجَحْ وَلَمْ يَظْفَرْ بِخَيْرٍ أَبَداً وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِغَيْرِهِ أَوْ يُكْتَفَى بِهِ وَحْدَهُ وَهَلْ هُوَ وَاحِدٌ فِي الْإِبْتِدَاءِ أَوْ شَارَكَهُ غَيْرُهُ فَصَارَ فِي التَّدْبِيرِ وَاحِداً فَسُمِّيَ حَجَراً وَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ كَيْفِيَّةَ عَمَلِهِ وَكَمِّيَّةَ أَوْزَانِهِ وَأَزْمَانِهِ وَكَيْفَ تَرْكِيبُ الرُّوحِ فِيهِ وَإِدْخَالُ النَّفْسِ عَلَيْهِ وَهَلْ تَقْدِرُ النَّارُ عَلَى تَفْصِيلِهَا مِنْهُ بَعْدَ تَرْكِيبِهَا فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَلِأَيِّ عِلَّةٍ وَمَا السَّبَبُ الْمُوجِبُ لِذٰلِكَ فَإِنَّ هٰذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ فَافْهَمْ وَاعْلَمْ أَنَّ الْفَلَاسِفَةَ كُلَّهَا مَدَحَتِ النَّفْسَ وَزَعَمَتْ أَنَّهَا الْمُدَبِّرَةُ لِلْجَسَدِ وَالْحَامِلَةُ لَهُ وَالدَّافِعَةُ عَنْهُ وَالْفَاعِلَةُ فِيهِ وَذٰلِكَ أَنَّ الْجَسَدَ إِذَا خَرَجَتِ النَّفْسُ مِنْهُ مَاتَ وَبَرَدَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالْإِمْتِنَاعِ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا نُورَ وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ الْجَسَدَ وَالنَّفْسَ لِأَنَّ هٰذِهِ الصِّفَاتِ شَبِيهَةٌ بِجَسَدِ الْإِنْسَانِ الَّذِي تَرْكِيبُهُ عَلَى الْغِذَاءِ وَالْعَشَاءِ وَقِوَامُهُ وَتَمَامُهُ بِالنَّفْسِ الْحَيَّةِ النُّورَانِيَّةِ الَّتِي بِهَا يَفْعَلُ الْعَظَائِمَ وَالْأَشْيَاءَ الْمُتَقَابِلَةَ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهَا بِالْقُوَّةِ الْحَيَّةِ الَّتِي فِيهَا وَإِنَّمَا انْفَعَلَ الْإِنْسَانُ لِاخْتِلَافِ تَرْكِيبِ طَبَائِعِهِ وَلَوِ اتَّفَقَتْ طَبَائِعُهُ لَسَلِمَتْ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالتَّضَادِّ وَلَمْ تَقْدِرِ النَّفْسُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَدَنِهِ وَلَكَانَ خَالِداً بَاقِياً فَسُبْحَانَ مُدَبِّرِ الْأَشْيَاءِ تَعَالَى. وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّبَائِعَ الَّتِي يَحْدُثُ عَنْهَا هٰذَا الْعَمَلُ كَيْفِيَّةٌ دَافِعَةٌ فِي الْإِبْتِدَاءِ فَيْضِيَّةٌ مُحْتَاجَةٌ إِلَى الْإِنْتِهَاءِ وَلَيْسَ لَهَا إِذَا صَارَتْ فِي هٰذَا الْحَدِّ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى مَا مِنْهُ تَرَكَّبَتْ كَمَا قُلْنَاهُ آنِفاً فِي الْإِنْسَانِ لِأَنَّ طَبَائِعَ هٰذَا الْجَوْهَرِ قَدْ لَزِمَ بَعْضُهَا بَعْضاً وَصَارَتْ شَيْئاً وَاحِداً شَبِيهاً بِالنَّفْسِ فِي قُوَّتِهَا وَفِعْلِهَا وَبِالْجَسَدِ فِي تَرْكِيبِهِ وَمَجَسَّتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ طَبَائِعَ مُفْرَدَةً بِأَعْيَانِهَا فَيَا عَجَبَا مِنْ أَفَاعِيلِ الطَّبَائِعِ إِنَّ الْقُوَّةَ لِلضَّعِيفِ الَّذِي يَقْوَى عَلَى تَفْصِيلِ الْأَشْيَاءِ وَتَرْكِيبِهَا وَتَمَامِهَا فَلِذٰلِكَ قُلْتُ قَوِيٌّ وَضَعِيفٌ وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّغْيِيرُ وَالْفَنَاءُ فِي التَّرْكِيبِ الْأَوَّلِ لِلْإِخْتِلَافِ وَعَدِمَ ذٰلِكَ فِي الثَّانِي لِلْإِتِّفَاقِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَوَّلِينَ التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هٰذَا الْعَمَلِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ وَالتَّرْكِيبُ مَوْتٌ وَفَنَاءٌ وَهٰذَا الْكَلَامُ دَقِيقُ الْمَعْنَى لِأَنَّ الْحَكِيمَ أَرَادَ بِقَوْلِهِ حَيَاةٌ وَبَقَاءٌ خُرُوجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ لِأَنَّهُ مَا دَامَ عَلَى تَرْكِيبِهِ الْأَوَّلِ فَهُوَ فَانٍ لَا مَحَالَةَ فَإِذَا رُكِّبَ التَّرْكِيبَ الثَّانِيَ عَدِمَ الْفَنَاءَ وَالتَّرْكِيبُ الثَّانِي لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ التَّفْصِيلِ وَالتَّقْطِيعِ فَإِذاً التَّفْصِيلُ وَالتَّقْطِيعُ فِي هٰذَا الْعَمَلِ خَاصَّةً فَإِذَا بَقِيَ الْجَسَدُ

المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لأنه قد صار في الجسد بمنزلة النفس التي لا صورة لها وذلك أنه لا وزن له فيه وسترى ذلك إن شاء الله تعالى وقد ينبغي لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف باللطيف أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ وإنما أريد بذلك التشاكل في الأرواح والأجساد لأن الأشياء تتصل بأشكالها وذكرت لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر من الطبائع اللطائف الروحانية منها من الغليظة الجسمانية وقد يتصور في العقل أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من الأرواح كما ترى الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الأرواح فأقول إن الأجساد قد كانت أرواحاً في بدنها فلما أصابها حر الكيان قلبها أجساداً لزجة غليظة فلم تقدر النار على أكلها لإفراط غلظها وتلزجها فإذا أفرطت النار عليها صيرتها أرواحاً كما كانت أول خلقها وإن تلك الأرواح اللطيفة إذا أصابتها النار أبقت ولم تقدر على البقاء عليها فينبغي لك أن تعلم ما صير الأجساد في هذه الحالة وصير الأرواح في هذا الحال فهو أجل ما تعرفه . أقول إنما أبقت تلك الأرواح لاشتعالها ولطافتها وإنما اشتعلت لكثرة رطوبتها ولأن النار إذا أحست بالرطوبة تعلقت بها لأنها هوائية تشاكل النار ولا تزال تغتذي بها إلى أن تفنى وكذلك الأجساد إذا أحست بوصول النار إليها ابلة تلزجها وغلظها وإنما صارت تلك الأجساد لا تشتعل لأنها مركبة من أرض وماء صابر على النار فلطيفه متحد بكثيفه لطول الطبخ اللين المازج للأشياء وذلك أن كل متلاش إنما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفه من كثيفه ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والموافقة فصار ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا ممازجة فسهل بذلك افتراقهما كالماء والدهن وما أشبههما وإنما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتقابلها فإذا علمت ذلك علماً شافياً فقد أخذت حظك منها وينبغي لك أن تعلم أن الأخلاط التي هي طبائع هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض متصلة من جوهر واحد يجمعها نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب في الجزء منه ولا في الكل كما قال الفيلسوف إنك إذا أحكمت تدبير الطبائع وتأليفها ولم تدخل عليها غريباً فقد أحكمت ما أردت إحكامه وقوامه إذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها فمن أدخل عليها غريباً

فقدْ زَاغَ عَنهَا وَوَقعَ فِي ٱلْخَطَإِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ ٱلطَّبِيعَةَ إِذَا حَلَّ لَهَا جَسَدٌ مِنْ قَرَائنِهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي فِي ٱلْحَلِّ حَتَّى يُشَاكِلَهَا فِي ٱلرِّقَّةِ وَٱللَّطَافَةِ ٱنْبَسَطَتْ فِيهِ وَجَرَتْ مَعَهُ حَيْثُمَا جرَى لِأَنَّ ٱلْأَجْسَادَ مَا دَامَتْ غَلِيظَةً جَافِيَةً لاَ تَنْبَسِطُ وَلاَ تَتَزَاوجُ وَحَلُّ ٱلْأَجْسَادِ لاَ يَكُون بِغَيْرِ ٱلْأَرْوَاحِ فَٱفْهَمْ هَدَاكَ ٱللهُ هٰذَا ٱلْقَوْلَ وَٱعْلَمْ هَدَاكَ ٱللهُ أَنَّ هٰذَا ٱلْحَلَّ فِي جَسَدِ ٱلْحَيَوَانِ هوَ ٱلحَقُّ ٱلَّذِي لاَ يَضْمَحِلُّ وَلاَ يَنْقُصُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْلِبُ ٱلطَّبَائِعَ وَيَمْسِكُهَا وَيُظْهِر لَهَا أَلْوَانًا وَأَزْهَاراً عَجِيبَةً وَلَيسَ كُلُّ جَسَدٍ يَحُلُّ خِلاَفَ هٰذَا هُوَ ٱلحَلَّ ٱلتَّامَّ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلْحَيَاةِ وَإِنَّمَا حَلُّهُ بِمَا يُوَافِقُهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ حَرقَ ٱلنَّار حَتَّى يَزُولَ عَنِ ٱلغِلَظِ وَتَنْقَلِبَ ٱلطَّبَائِع عنْ حَالاَتِهَا إلى مَا لَهَا أَنْ تَنقَلِبَ مِنَ ٱللَّطَافَةِ وَٱلغِلَظِ فَإِذَا بَلَغَتِ ٱلْأَجْسَادُ نِهَايَتَهَا مِن ٱلتَّحْلِيلِ وَٱلتَّلْطِيفِ ظَهرَتْ لَهَا هُنَالِكَ قُوَّةٌ تُمْسِكُ وَتَغُوصُ وَتَقْلِبُ وَتَنْفُذُ وَكُل عمَلٍ لاَ يُرَى لَهُ مِصْدَاقٌ فِي أَوَّلِهِ فَلاَ خَيْرَ فِيهِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلبَارِدَ مِنَ ٱلطَّبَائِع هوَ يُيَبِّسُ ٱلْأَشْيَاءَ وَيَعْقِدُ رُطُوبَتَهَا وَٱلحَارَّ مِنْهَا يُظْهِرُ رُطُوبَتَهَا وَيَعْقِدُ يَبَسَهَا وَإِنَّمَا أَفْرَدْتُ ٱلحَرَّ وَٱلبَرْدَ لِأَنَّهُمَا فَاعِلاَنِ وَٱلرُّطُوبَةُ وَٱليَبَسُ مُنْفَعِلاَنِ وَعَلَى ٱنْفِعَالِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ تَحْدُثُ ٱلْأَجْسَامُ وَتَتَكَوَّنُ وَإِنْ كَانَ ٱلحَرُّ أَكْثَرَ فِعلًا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلبَرْدِ لِأَن ٱلبَرْدَ لَيسَ لَهُ نَقلُ ٱلْأَشْيَاءِ وَلا تَحَرُّكُهَا وَٱلحَرُّ هُوَ عِلَّةُ ٱلحَرَكَةِ وَمَتَى ضَعُفَتْ عِلَّةُ ٱلكَوْن وَهُوَ ٱلحَرَارَةُ لَمْ يَتِمَّ مِنهَا شَيْءٌ أَبداً كَمَا أَنَّهُ إِذَا أُفرِطَتِ ٱلحَرَارَةُ عَلَى شَيْءٍ وَلَمْ يَكُن ثَمَّ بَرْدٌ أَحرَقَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ فَمِنْ أَجلِ هٰذِهِ ٱلعِلَّةِ ٱحتِيجَ إلى ٱلبَارِدِ فِي هٰذِهِ ٱلْأَعمَال لِيَقْوَى بِهِ كُلُّ ضِدٍّ عَلَى ضِدِّهِ وَيَدْفَعَ عَنْهُ حَرَّ ٱلنَّارِ وَلَمْ يَحْذَرِ ٱلفَلاسِفَةُ أَكْبَرَ شَيْءٍ إِلَّا مِنَ ٱلنِّيرَانِ ٱلمُحْرِقَةِ وَأَمَرَتْ بِتَطْهِيرِ ٱلطَّبَائِعِ وَٱلْأَنْفَاسِ وَإِخْرَاجِ دَنَسِهَا وَرُطُوبَتِهَا وَنَفْيِ آفَاتِهَا وَأَوْسَاخِهَا عَنهَا عَلَى ذٰلِكَ ٱستَقَامَ رَأْيُهُمْ وَتَدْبِيرُهُمْ فَإِنَّمَا عَمَلُهُمْ إِنَّمَا هُو معَ ٱلنَّارِ أَوَّلاً وَإِلَيْهَا يَصِيرُ أَخِيراً فَلِذٰلِكَ قَالُوا إِيَاكُم وَٱلنِّيرَانَ ٱلمُحْرِقَاتِ وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِذٰلِكَ نَفْيَ ٱلآفَاتِ ٱلَّتِي مَعهَا فَتَجْمَعُ عَلَى ٱلجَسَدِ آفَتَيْنِ فَتَكُونُ أَسرَعَ لِهَلاكِهِ وَكَذٰلِك كُلُّ شَيْءٍ إِنَّمَا يَتَلاَشَى وَيَفْسُدُ مِنْ ذَاتِهِ لِتَضَادِّ طَبَائِعِهِ وَٱختِلافِهِ فَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ شَيْئَيْن فَلَمْ يَجِدْ مَا يُقَوِّيهِ وَيُعِينُهُ إِلَّا قَهَرَتْهُ ٱلآفَةُ وَأَهْلَكَتْهُ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلحُكَمَاءَ كُلَّهَا ذَكَرَت تَرْدَادَ ٱلْأَرْوَاحِ عَلَى ٱلْأَجسَادِ مِرَاراً لِيَكُونَ أَلزَمَ إِلَيْهَا وَأَقوَى عَلَى قِتَالِ ٱلنَّارِ إِذَا هِيَ بَاشَرَتْهَا عِنْدَ ٱلإِلْفَةِ أَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلنَّارَ ٱلعُنْصُرِيَّةَ فَٱعْلَمْهُ . وَلنَقُلِ ٱلآنَ عَلَى ٱلحَجَرِ ٱلَّذِي

يمكن منهُ العمل على ما ذكرته الفلاسفة فقد اختلفوا فيه فمنهم من زعم أنهُ في الحيوان ومنهم من زعم أنهُ في النبات ومنهم من زعم أنهُ في المعادن ومنهم من زعم أنهُ في الجميع وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها لأنَّ الكلام يطول جداً وقد قلتُ فيما تقدم إنَّ العمل يكون في كل شيء بالقوة لأنَّ الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك فنريد أن نعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد إلى ما قالهُ الحراني إنَّ الصبغ كلَّهُ أحد صبغين إمَّا صبغ جسد كالزعفران في الثوب الأبيض حتَّى يحول فيه وهو مضمحل منتقض التركيب والصبغ الثاني تقليب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولونه كتقليب الشجر بل التراب إلى نفسه وقلب الحيوان والنبات إلى نفسه حتَّى يصير التراب نباتاً والنبات حيواناً ولا يكون إلَّا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي لهُ توليد الأجرام وقلب الأعيان فإذا كان هذا هكذا فنقول إنَّ العمل لا بدَّ أن يكون إمَّا في الحيوان وإمَّا في النبات وبرهان ذلك أنهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتمامهما فأمَّا النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قلَّ خوض الحكماء فيه وأمَّا الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها وذلك أنَّ المعدن يستحيل نباتاً والنبات يستحيل حيواناً والحيوان لا يستحيل إلى شيء هو ألطف منهُ إلَّا أن ينعكس راجعاً إلى الغلظ وأنَّهُ أيضاً لا يوجد في العالم شيء تتعلق فيه الروح الحيَّة غيره والروح ألطف ما في العالم ولم تتعلق الروح بالحيوان إلَّا بمشاكلته إيَّاها فأمَّا الروح التي في النبات فإنها يسيرة فيها غلظ وكثافة وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلظه وغلظ روحه والروح المتحركة ألطف من الروح الكامنة كثيراً وذلك أنَّ المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده ولا تجري إذا قيست بالروح الحيَّة إلَّا كالأرض عند الماء كذلك النبات عند الحيوان فالعمل في الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر فينبغي للعاقل إذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلاً ويترك ما يخشى فيه عسراً واعلم أنَّ الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساماً من الأمهات التي هي الطبائع والحديثة التي هي المواليد وهذا معروف متيسر الفهم فلذلك قسمت

ٱلْحُكَمَاءُ ٱلْعَنَاصِرَ وَٱلْمَوَالِيدَ أَقْسَاماً حَيَّةً وَأَقْسَاماً مَيِّتَةً فَجَعَلُوا كُلَّ مُتَحَرِّكٍ فَاعِلاً حَيًّا وَكُلَّ سَاكِنٍ مَفْعُولاً مَيِّتاً وَقَسَمُوا ذٰلِكَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ وَفِي ٱلْأَجْسَادِ ٱلذَّائِبَةِ وَفِي ٱلْعَقَاقِيرِ ٱلْمَعْدِنِيَّةِ فَسَمَّوْا كُلَّ شَيْءٍ يَذُوبُ فِي ٱلنَّارِ وَيَطِيرُ وَيَشْتَعِلُ حَيًّا وَمَا كَانَ عَلَى خِلَافِ ذٰلِكَ سَمَّوْهُ مَيِّتاً فَأَمَّا ٱلْحَيَوَانُ وَٱلنَّبَاتُ فَسَمَّوْا كُلَّ مَا ٱنْفَصَلَ مِنْهَا طَبَائِعَ أَرْبَعاً حَيًّا وَمَا لَمْ يَنْفَصِلْ سَمَّوْهُ مَيِّتاً ثُمَّ إِنَّهُمْ طَلَبُوا جَمِيعَ ٱلْأَقْسَامِ ٱلْحَيَّةِ فَلَمْ يَجِدُوا لِوَفْقِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِمَّا يَنْفَصِلُ فُصُولاً أَرْبَعَةً ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ وَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ ٱلْحَجَرِ ٱلَّذِي فِي ٱلْحَيَوَانِ فَبَحَثُوا عَنْ جِنْسِهِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَأَخَذُوهُ وَدَبَّرُوهُ فَتَكَيَّفَ لَهُمْ مِنْهُ ٱلَّذِي أَرَادُوا وَقَدْ يَتَكَيَّفُ مِثْلُ هٰذَا فِي ٱلْمَعَادِنِ وَٱلنَّبَاتِ بَعْدَ جَمْعِ ٱلْعَقَاقِيرِ وَخَلْطِهَا ثُمَّ تُفْصَلُ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأَمَّا ٱلنَّبَاتُ فَمِنْهُ مَا يَنْفَصِلُ بِبَعْضِ هٰذِهِ ٱلْفُصُولِ مِثْلَ ٱلْأُشْنَانِ وَأَمَّا ٱلْمَعَادِنُ فَفِيهَا أَجْسَادٌ وَأَرْوَاحٌ وَأَنْفَاسٌ إِذَا مُزِجَتْ وَدُبِّرَتْ كَانَ مِنْهَا مَا لَهُ تَأْثِيرٌ وَقَدْ دَبَّرْنَا كُلَّ ذٰلِكَ فَكَانَ ٱلْحَيَوَانُ مِنْهَا أَعْلَى وَأَرْفَعَ وَتَدْبِيرُهُ أَسْهَلَ وَأَيْسَرَ فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ مَا هُوَ ٱلْحَجَرُ ٱلْمَوْجُودُ فِي ٱلْحَيَوَانِ وَطَرِيقَ وُجُودِهِ إِنَّا بَيَّنَّا أَنَّ ٱلْحَيَوَانَ أَرْفَعُ ٱلْمَوَالِيدِ وَكَذَا مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ فَهُوَ أَلْطَفُ مِنْهُ كَٱلنَّبَاتِ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَإِنَّمَا كَانَ ٱلنَّبَاتُ أَلْطَفَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ جَوْهَرِهِ ٱلصَّافِي وَجَسَدِهِ ٱللَّطِيفِ فَوَجَبَ لَهُ بِذٰلِكَ ٱللَّطَافَةُ وَٱلرِّقَّةُ وَكَذَا هٰذَا ٱلْحَجَرُ ٱلْحَيَوَانِيُّ بِمَنْزِلَةِ ٱلنَّبَاتِ فِي ٱلتُّرَابِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي ٱلْحَيَوَانِ شَيْءٌ يَنْفَصِلُ طَبَائِعَ أَرْبَعاً غَيْرُهُ فَٱفْهَمْ هٰذَا ٱلْقَوْلَ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَخْفَى إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ بَيِّنِ ٱلْجَهَالَةِ وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ فَقَدْ أَخْبَرْتُكَ مَاهِيَّةَ هٰذَا ٱلْحَجَرِ وَأَعْلَمْتُكَ جِنْسَهُ وَأَنَا أُبَيِّنُ لَكَ وُجُوهَ تَدَابِيرِهِ حَتَّى يَكْمُلَ ٱلَّذِي شَرَطْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا مِنَ ٱلْإِنْصَافِ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ

(التدبير على بركة الله) خُذِ ٱلْحَجَرَ ٱلْكَرِيمَ فَأَوْدِعْهُ ٱلْقَرْعَةَ وَٱلْإِنْبِيقَ وَفَصِّلْ طَبَائِعَهُ ٱلْأَرْبَعَ ٱلَّتِي هِيَ ٱلنَّارُ وَٱلْهَوَاءُ وَٱلْأَرْضُ وَٱلْمَاءُ وَهِيَ ٱلْجَسَدُ وَٱلصِّبْغُ فَإِذَا عزلت ٱلْمَاءَ عَنِ ٱلتُّرَابِ وَٱلْهَوَاءَ عَنِ ٱلنَّارِ فَٱرْفَعْ كُلَّ وَاحِدٍ فِي إِنَائِهِ عَلَى حِدَةٍ وَخُذِ ٱلْهَابِطَ أَسْفَلَ ٱلْإِنَاءِ وَهُوَ ٱلثُّفْلُ فَٱغْسِلْهُ بِٱلنَّارِ ٱلْحَارَّةِ حَتَّى تَذْهَبَ ٱلنَّارُ عَنْهُ سَوَادَهُ وَيَزُولَ غِلَظُهُ وَجَفَاؤُهُ وَبَيِّضْهُ تَبْيِيضاً مُحْكَماً وَطَيِّرْ عَنْهُ فُضُولَ ٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْمُسْتَجِنَّةِ فِيهِ فَإِنَّهُ يَصِيرُ عِنْدَ ذٰلِكَ مَاءً أَبْيَضَ لَا ظُلْمَةَ فِيهِ وَلَا وَسَخَ وَلَا تَضَادَّ ثُمَّ ٱعْمِدْ إِلَى تِلْكَ ٱلطَّبَائِعِ ٱلْأُوَلِ ٱلصَّاعِدَةِ مِنْهُ فَطَهِّرْهَا أَيْضاً مِنَ ٱلسَّوَادِ وَٱلتَّضَادِّ وَكَرِّرْ عَلَيْهَا ٱلْغَسْلَ وَٱلتَّصْعِيدَ

حَتَّى تَلْطُفَ وَتَرِقَّ وَتَصْفُو فَإِذَا فَعَلْتَ ذٰلِكَ فَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكَ فَابْدَأْ بِالتَّرْكِيبِ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ الْعَمَلِ وَذٰلِكَ أَنَّ التَّرْكِيبَ لاَ يَكُونُ إِلَّا بِالتَّزْوِيجِ وَالتَّعْفِينِ فَأَمَّا التَّزْوِيجُ فَهُوَ اخْتِلاَطُ اللَّطِيفِ بِالْغَلِيظِ وَأَمَّا التَّعْفِينُ فَهُوَ التَّمْشِيَةُ وَالسَّحْقُ حَتَّى يَخْتَلِطَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَصِيرَ شَيْئاً وَاحِداً لاَ اخْتِلاَفَ فِيهِ وَلاَ نُقْصَانَ بِمَنْزِلَةِ الاِمْتِزَاجِ بِالْمَاءِ فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَقْوَى الْغَلِيظُ عَلَى إِمْسَاكِ اللَّطِيفِ وَتَقْوَى النَّفْسُ عَلَى الْغَوْصِ فِي الأَجْسَادِ وَالدَّبِيبِ فِيهَا وَإِنَّمَا وُجِدَ ذٰلِكَ بَعْدَ التَّرْكِيبِ لِأَنَّ الْجَسَدَ الْمَحْلُولَ لَمَّا ازْدَوَجَ بِالرُّوحِ مَازَجَهُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَدَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ لِتَشَاكُلِهَا فَصَارَ شَيْئاً وَاحِداً وَوَجَبَ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِضَ لِلرُّوحِ مِنَ الصَّلاَحِ وَالْفَسَادِ وَالْبَقَاءِ وَالثُّبُوتِ وَمَا يَعْرِضُ لِلْجَسَدِ لِمَوْضِعِ الاِمْتِزَاجِ وَكَذٰلِكَ النَّفْسُ إِذَا امْتَزَجَتْ بِهِمَا وَدَخَلَتْ فِيهِمَا بِخِدْمَةِ التَّدْبِيرِ اخْتَلَطَتْ أَجْزَاؤُهَا بِجَمِيعِ أَجْزَاءِ الآخَرَيْنِ أَعْنِي الرُّوحَ وَالْجَسَدَ وَصَارَتْ هِيَ وَهُمَا شَيْئاً وَاحِداً لاَ اخْتِلاَفَ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْجُزْءِ الْكُلِّيِّ الَّذِي سَلِمَتْ طَبَائِعُهُ وَاتَّفَقَتْ أَجْزَاؤُهُ فَإِذَا أَلْقَى هٰذَا الْمُرَكَّبُ الْجَسَدَ الْمَحْلُولَ وَأَلَحَّ عَلَيْهِ النَّارَ وَأَظْهَرَ مَا فِيهِ مِنَ الرُّطُوبَةِ عَلَى وَجْهِهِ ذَابَ فِي الْجَسَدِ الْمَحْلُولِ وَمِنْ شَأْنِ الرُّطُوبَةِ الاِشْتِعَالُ وَتَعَلُّقُ النَّارِ بِهَا فَإِذَا أَرَادَتِ النَّارُ التَّعَلُّقَ بِهَا مَنَعَهَا مِنَ الاِتِّحَادِ بِالنَّفْسِ مُمَازَجَةُ الْمَاءِ لَهَا فَإِنَّ النَّارَ لاَ تَتَّحِدُ بِالدُّهْنِ حَتَّى يَكُونَ خَالِصاً وَكَذٰلِكَ الْمَاءُ مِنْ شَأْنِهِ النُّفُورُ مِنَ النَّارِ فَإِذَا أَلَحَّتْ عَلَيْهِ النَّارُ وَأَرَادَتْ تَطْيِيرَهُ حَبَسَهُ الْجَسَدُ الْيَابِسُ الْمُمَازِجُ لَهُ فِي جَوْفِهِ فَمَنَعَهُ مِنَ الطَّيَرَانِ فَكَانَ الْجَسَدُ عِلَّةً لِإِمْسَاكِ الْمَاءِ وَالْمَاءُ عِلَّةً لِبَقَاءِ الدُّهْنِ وَالدُّهْنُ عِلَّةً لِثَبَاتِ الصِّبْغِ وَالصِّبْغُ عِلَّةً لِظُهُورِ الدُّهْنِ وَإِظْهَارِ الدُّهْنِيَّةِ فِي الأَشْيَاءِ الْمُظْلِمَةِ الَّتِي لاَ نُورَ لَهَا وَلاَ حَيَاةَ فِيهَا فَهٰذَا هُوَ الْجَسَدُ الْمُسْتَقِيمُ وَهٰكَذَا يَكُونُ الْعَمَلُ وَهٰذِهِ التَّصْفِيَةُ الَّتِي سَأَلْتُ عَنْهَا وَهِيَ الَّتِي سَمَّتْهَا الْحُكَمَاءُ بَيْضَةً وَإِيَّاهَا يَعْنُونَ لاَ بَيْضَةَ الدَّجَاجِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْحُكَمَاءَ لَمْ تُسَمِّهَا بِهٰذَا الاِسْمِ لِغَيْرِ مَعْنًى بَلْ أَشْبَهَتْهَا وَلَقَدْ سَأَلْتُ مَسْلَمَةَ عَنْ ذٰلِكَ يَوْماً وَلَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرِي فَقُلْتُ لَهُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ أَخْبِرْنِي لِأَيِّ شَيْءٍ سَمَّتِ الْحُكَمَاءُ مُرَكَّبَ الْحَيَوَانِ بَيْضَةً اخْتِيَاراً مِنْهُمْ لِذٰلِكَ أَمْ لِمَعْنًى دَعَاهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ هَلْ لِمَعْنًى غَامِضٍ فَقُلْتُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ وَمَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ مِنَ الْمَنْفَعَةِ وَالاِسْتِدْلاَلِ عَلَى الصِّنَاعَةِ حَتَّى شَبَّهُوهَا وَسَمَّوْهَا بَيْضَةً فَقَالَ لِشَبَهِهَا وَقَرَابَتِهَا مِنَ الْمُرَكَّبِ فَفَكِّرْ فِيهِ فَإِنَّهُ سَيَظْهَرُ لَكَ مَعْنَاه

فبقيتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مُفَكِّراً لا أقدِرُ على الوُصولِ إلى مَعْناهُ فلمّا رأى ما بي مِنَ الفِكْرِ وأنَّ نفسي قد مضَتْ فيها أخذَ بِعَضُدي وهزَّني هزَّةً خفيفةً وقالَ لي يا أبا بكرٍ ذلكَ للنِّسبَةِ الّتي بينَهما في كمّيّةِ الألوانِ عِندَ امتِزاجِ الطَّبائعِ وتأليفِها فلمّا قالَ ذلكَ انجلَتْ عنّي الظُّلمةُ وأضاءَ لي نورُ قلبي وقوِيَ عقلي على فهمِهِ فنهضتُ شاكِراً اللهَ عليهِ إلى منزلي وأقمتُ على ذلكَ شكلاً هندسيّاً يُبرهَنُ بهِ على صِحّةِ ما قالَهُ مسلَمةُ وأنا واضِعُهُ لكَ في هذا الكِتابِ . مِثالُ ذلكَ أنَّ المُركَّبَ إذا تَمَّ وكَمُلَ كانَ نِسبَةُ ما فيهِ مِن طبيعةِ الهواءِ كنِسبَةِ ما في المُركَّبِ مِنْ طبيعةِ النّارِ إلى ما في البَيْضَةِ مِنْ طبيعةِ النّارِ وكذلكَ الطَّبيعتانِ الأُخريانِ الأرضُ والماءُ فأقولُ إنَّ كلَّ شيئينِ متناسبَيْنِ على هذهِ الصِّفةِ هما مُتشابِهانِ ومِثالُ ذلكَ أنْ تجعَلَ لِسطحِ البَيْضةِ هزوح فإذا أردْنا ذلكَ فإنّا نأخُذُ أقلَّ طبائعِ المُركَّبِ وهيَ طبيعةُ اليُبوسةِ ونُضيفُ إليها مِثلَها مِنْ طبيعةِ الرُّطوبةِ ونُدبِّرُهما حتّى تُنشِّفَ طبيعةُ اليُبوسةِ طبيعةَ الرُّطوبةِ وتقبَلَ قوّتَها وكأنَّ في هذا الكلامِ رَمْزاً ولكنّهُ لا يَخفى عليكَ ثُمَّ تحمِلُ عليهِما جميعاً مِثليْهِما مِنَ الرّوحِ وهوَ الماءُ فيكونُ الجميعُ سِتّةَ أمثالٍ ثُمَّ تحمِلُ على الجميعِ بعدَ التَّدبيرِ مِثلاً مِن طبيعةِ الهواءِ الّتي هيَ النَّفسُ وذلكَ ثلاثةُ أجزاءٍ فيكونُ الجميعُ تِسعةَ أمثالِ اليُبوسةِ بالقوّةِ وتجعَلُ تحتَ كلِّ ضِلعَيْنِ مِنَ المُركَّبِ الّذي طبيعتُهُ مُحيطةٌ بِسطحِ المُركَّبِ طبيعتَيْنِ فتجعَلُ أوّلاً الضِّلعَيْنِ المُحيطَيْنِ بِسطحِهِ طبيعةَ الماءِ وطبيعةَ الهواءِ وهُما ضِلعا ا ح د وسطحِ ابجد وكذلكَ الضِّلعانِ المُحيطانِ بِسطحِ البَيْضةِ اللّذانِ هُما الماءُ والهواءُ ضِلعا هروح فأقولُ إنَّ سطحَ ابجد يُشبِهُ سطحَ هروح طبيعةِ الهواءِ الّتي تُسمّى نفساً وكذلكَ بج مِنْ سطحِ المُركَّبِ والحُكماءُ لم تُسمِّ شيئاً بِاسمِ شيءٍ إلّا لِشَبَهِهِ بهِ والكلماتُ الّتي سألتُ عنْ شرحِها الأرضُ المُقدَّسةُ وهيَ المُنعقِدةُ مِنَ الطَّبائعِ العُلويّةِ والسُّفليّةِ والنُّحاسُ هوَ الّذي أُخرِجَ سوادُهُ وقُطِعَ حتّى صارَ هباءً ثُمَّ حُمِّرَ بالزّاجِ حتّى صارَ نُحاسيّاً والمَغنيسيا حَجَرُهُمُ الّذي تجمُدُ فيهِ الأرواحُ وتُخرِجُهُ الطَّبيعةُ العُلويّةُ الّتي تُستجَنُّ فيها الأرواحُ لِتُقابِلَ عليها النّارُ والفرفرةُ لونٌ أحمرُ قانٍ يُحدِثُهُ الكِيانُ والرَّصاصُ حَجَرٌ لهُ ثلاثُ قُوًى مُختلِفةُ الشُّخوصِ ولكنّها مُتشاكِلةٌ ومُتجانِسةٌ فالواحِدةُ روحانيّةٌ نيّرةٌ صافيةٌ وهيَ الفاعِلةُ والثّانيةُ نفسانيّةٌ وهيَ مُتحرِّكةٌ حسّاسةٌ

غيرَ أنَّها أغلظُ مِنَ الأولى ومَرْكَزُها دُونَ مَرْكَزِ الأولى والثالثةُ قوّةٌ أرضيّةٌ حاسّةٌ قابضةٌ مُنعكسةٌ إلى مَرْكَزِ الأرضِ لِثِقَلِها وهِيَ الماسِكَةُ الرُّوحانيّةُ والنفسانيّةُ جميعاً والمُحيطةُ بهِما وأمّا سائِرُ الباقيةِ فمُبتَدَعةٌ ومُختَرَعةٌ إلباساً على الجاهلِ ومَن عرفَ المُقدَّماتِ استَغنَى عن غيرِها . فهذا جميعُ ما سألتني عنهُ وقد بعثتُ بهِ إليكَ مفسَّراً ونرجو بتوفيقِ اللهِ أنْ تبلُغَ أمَلَكَ والسَّلامُ انتَهَى كلامُ ابنِ بِشرونَ وهُوَ مِن كِبارِ تلاميذِ مَسلَمةَ المَجريطيِّ شيخِ الأندلسِ في علومِ الكيمياءِ والسيمياءِ والسِّحرِ في القرنِ الثالثِ وما بعدَهُ وأنتَ ترى كيفَ صرفَ ألفاظَهُم كُلَّها في الصِّناعةِ إلى الرَّمزِ والألغازِ التي لا تكادُ تبينُ ولا تُعرَفُ وذلكَ دليلٌ على أنَّها ليسَتْ بصِناعةٍ طبيعيّةٍ • والّذي يجبُ أنْ يُعتقَدَ في أمرِ الكيمياءِ وهُوَ الحقُّ الّذي يَعضُدُهُ الواقِعُ أنَّها مِنْ جنسِ آثارِ النُّفوسِ الرُّوحانيّةِ وتصرُّفِها في عالَمِ الطّبيعةِ إمّا مِنْ نوعِ الكرامةِ إنْ كانَتِ النُّفوسُ خيّرةً أو مِن نوعِ السِّحرِ إنْ كانَتِ النُّفوسُ شرّيرةً فاجرةً فأمّا الكرامةُ فظاهِرةٌ وأمّا السِّحرُ فلأنَّ السّاحِرَ كما ثبتَ في مكانِ تحقيقِهِ يَقلِبُ الأعيانَ المادّيّةَ بقُوَّتِهِ السِّحريّةِ ولا بُدَّ لهُ معَ ذلكَ عندَهُم مِنْ مادّةٍ يقعُ فِعلُهُ السِّحريُّ فيها كتخليقِ بعضِ الحيواناتِ من مادّةِ التُّرابِ أو الشَّعرِ والنّباتِ وبالجملةِ مِنْ غيرِ مادّتِها المخصوصةِ بها كما وقعَ لسَحَرةِ فِرعونَ في الحِبالِ والعِصيِّ وكما يُنقَلُ عن سَحَرةِ السُّودانِ والهُنودِ في قاصيةِ الجَنوبِ والتُّركِ في قاصيةِ الشَّمالِ أنَّهُم يَسحَرونَ الجوَّ للأمطارِ وغيرِ ذلكَ . ولمّا كانَتْ هذهِ تخليقاً للذَّهبِ في غيرِ مادّتِهِ الخاصّةِ بهِ كانَ مِنْ قَبيلِ السِّحرِ والمُتكلِّمونَ فيهِ مِنْ أعلامِ الحكماءِ مِثلَ جابرٍ ومَسلَمةَ ومَنْ كانَ قبلَهُم مِنْ حُكَماءِ الأُمَمِ إنّما نَحَوا هذا المَنحى ولِهذا كانَ كلامُهُم فيهِ ألغازاً حذراً عليها مِنْ إنكارِ الشّرائعِ على السِّحرِ وأنواعِهِ لا أنَّ ذلكَ يرجعُ إلى الضَّنانةِ بها كما هوَ رأيُ مَنْ لَمْ يَذهبْ إلى التّحقيقِ في ذلكَ وانظُرْ كيفَ سمّى مَسلَمةُ كتابَهُ فيها رُتبةَ الحكيمِ وسمّى كتابَهُ في السِّحرِ والطِّلَّسماتِ غايةَ الحكيمِ إشارةً إلى عُمومِ موضوعِ الغايةِ وخصوصِ موضوعِ هذهِ لأنَّ الغايةَ أعلى مِنَ الرُّتبةِ فكأنَّ مسائلَ الرُّتبةِ بعضٌ مِنْ مسائلِ الغايةِ وتُشارِكُها في الموضوعاتِ ومِنْ كلامِهِ في الفنَّينِ يتبيَّنُ ما قُلناهُ ونحنُ نُبيِّنُ فيما بعدُ غلطَ مَنْ يزعُمُ أنَّ مدارِكَ هذا الأمرِ بالصِّناعةِ

الطَّبِيعِيَّةِ وَٱللَّهُ ٱلعَلِيمُ ٱلخَبِيرُ

الفصل الرابع والعشرون

في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها

هٰذَا ٱلفَصْلُ وَمَا بَعْدَهُ مُهِمٌّ لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلعُلُومَ عَارِضَةٌ فِي ٱلعُمْرَانِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلمُدُنِ وَضَرَرُهَا فِي ٱلدِّينِ كَثِيرٌ فَوَجَبَ أَنْ يُصْدَعَ بِشَأْنِهَا وَيُكْشَفَ عَنِ ٱلمُعْتَقَدِ ٱلحَقِّ فِيهَا وَذٰلِكَ أَنَّ قَوْماً مِنْ عُقَلَاءِ ٱلنَّوْعِ ٱلإِنْسَانِيِّ زَعَمُوا أَنَّ ٱلوُجُودَ كُلَّهُ ٱلحِسِّيَّ مِنْهُ وَمَا وَرَاءَ ٱلحِسِّيِّ تُدْرَكُ أَدَوَاتُهُ وَأَحْوَالُهُ بِأَسْبَابِهَا وَعِلَلِهَا بِٱلأَنْظَارِ ٱلفِكْرِيَّةِ وَٱلأَقْيِسَةِ ٱلعَقْلِيَّةِ وَأَنَّ تَصْحِيحَ ٱلعَقَائِدِ ٱلإِيمَانِيَّةِ مِنْ قِبَلِ ٱلنَّظَرِ لا مِنْ جِهَةِ ٱلسَّمْعِ فَإِنَّهَا بَعْضٌ مِنْ مَدَارِكِ ٱلعَقْلِ وَهٰؤُلَاءِ يُسَمَّوْنَ فَلَاسِفَةً جَمْعَ فَيْلَسُوفٍ وَهُوَ بِٱللِّسَانِ ٱليُونَانِيِّ مُحِبُّ ٱلحِكْمَةِ فَبَحَثُوا عَنْ ذٰلِكَ وَشَمَّرُوا لَهُ وَحَوَّمُوا عَلَى إِصَابَةِ ٱلغَرَضِ مِنْهُ وَوَضَعُوا قَانُوناً يَهْتَدِي بِهِ ٱلعَقْلُ فِي نَظَرِهِ إِلَى ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ ٱلحَقِّ وَٱلبَاطِلِ وَسَمَّوْهُ بِٱلمَنْطِقِ وَمُحَصَّلُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي يُفِيدُ تَمْيِيزَ ٱلحَقِّ مِنَ ٱلبَاطِلِ إِنَّمَا هُوَ لِلذِّهْنِ فِي ٱلمَعَانِي ٱلمُنْتَزَعَةِ مِنَ ٱلمَوْجُودَاتِ ٱلشَّخْصِيَّةِ فَيُجَرِّدُ مِنْهَا أَوَّلاً صُوَرٌ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جَمِيعِ ٱلأَشْخَاصِ كَمَا يَنْطَبِقُ ٱلطَّابِعُ عَلَى جَمِيعِ ٱلنُّقُوشِ ٱلَّتِي تَرْسُمُهَا فِي طِينٍ أَوْ شَمْعٍ وَهٰذِهِ مُجَرَّدَةٌ مِنَ ٱلمَحْسُوسَاتِ تُسَمَّى ٱلمَعْقُولَاتِ ٱلأَوَائِلَ ثُمَّ تُجَرَّدُ مِنْ تِلْكَ ٱلمَعَانِي ٱلكُلِّيَّةِ إِذَا كَانَتْ مُشْتَرِكَةً مَعَ مَعَانٍ أُخْرَى وَقَدْ تَمَيَّزَتْ عَنْهَا فِي ٱلذِّهْنِ فَتُجَرَّدُ مِنْهَا مَعَانٍ أُخْرَى وَهِيَ ٱلَّتِي ٱشْتَرَكَتْ بِهَا ثُمَّ تُجَرَّدُ ثَانِياً إِنْ شَارَكَهَا غَيْرُهَا وَثَالِثاً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ٱلتَّجْرِيدُ إِلَى ٱلمَعَانِي ٱلبَسِيطَةِ ٱلكُلِّيَّةِ ٱلمُنْطَبِقَةِ عَلَى جَمِيعِ ٱلمَعَانِي وَٱلأَشْخَاصِ وَلَا يَكُونُ مِنْهَا تَجْرِيدٌ بَعْدَ هٰذَا وَهِيَ ٱلأَجْنَاسُ ٱلعَالِيَةُ وَهٰذِهِ ٱلمُجَرَّدَاتُ كُلُّهَا مِنْ غَيْرِ ٱلمَحْسُوسَاتِ هِيَ مِنْ حَيْثُ تَأْلِيفِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ لِتَحْصِيلِ ٱلعُلُومِ مِنْهَا تُسَمَّى ٱلمَعْقُولَاتِ ٱلثَّوَانِي فَإِذَا نَظَرَ ٱلفِكْرُ فِي هٰذِهِ ٱلمَعْقُولَاتِ ٱلمُجَرَّدَةِ وَطَلَبَ تَصَوُّرَ ٱلوُجُودِ كَمَا هُوَ فَلَا بُدَّ لِلذِّهْنِ مِنْ إِضَافَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَنَفْيِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِٱلبُرْهَانِ ٱلعَقْلِيِّ ٱليَقِينِيِّ لِيَحْصُلَ تَصَوُّرُ ٱلوُجُودِ تَصَوُّراً صَحِيحاً مُطَابِقاً إِذَا كَانَ ذٰلِكَ بِقَانُونٍ صَحِيحٍ كَمَا مَرَّ وَصِنْفُ ٱلتَّصْدِيقِ ٱلَّذِي هُوَ تِلْكَ ٱلإِضَافَةُ وَٱلحُكْمُ مُتَقَدِّمٌ عِنْدَهُمْ عَلَى صِنْفِ ٱلتَّصَوُّرِ فِي ٱلنِّهَايَةِ وَٱلتَّصَوُّرُ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ فِي ٱلبِدَاءَةِ وَٱلتَّعْلِيمِ لِأَنَّ ٱلتَّصَوُّرَ ٱلتَّامَّ عِنْدَهُمْ هُوَ غَايَةُ ٱلطَّلَبِ ٱلإِدْرَاكِيِّ وَإِنَّمَا

ٱلتَّصْدِيقُ وَسِيلَةٌ لَهُ وَمَا تَسْمَعُهُ فِي كُتُبِ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ مِنْ تَقَدُّمِ ٱلتَّصَوُّرِ وَتَوَقُّفِ ٱلتَّصْدِيقِ عَلَيْهِ فَبِمَعْنَى ٱلشُّعُورِ لاَ بِمَعْنَى ٱلْعِلْمِ ٱلتَّامِّ وَهٰذَا هُوَ مَذْهَبُ كَبِيرِهِمْ أَرِسْطُو ثُمَّ يَزْعُمُونَ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ ٱلْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مَا فِي ٱلْحِسِّ وَمَا وَرَاءَ ٱلْحِسِّ بِهٰذَا ٱلنَّظَرِ وَتِلْكَ ٱلْبَرَاهِينِ. وَحَاصِلُ مَدَارِكِهِمْ فِي ٱلْوُجُودِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ ٱلَّذِي فَرَّعُوا عَلَيْهِ قَضَايَا أَنْظَارِهِمْ أَنَّهُمْ عَثَرُوا أَوَّلاً عَلَى ٱلْجِسْمِ ٱلسُّفْلِيِّ بِحُكْمِ ٱلشُّهُودِ وَٱلْحِسِّ ثُمَّ تَرَقَّى إِدْرَاكُهُمْ قَلِيلاً فَشَعَرُوا بِوُجُودِ ٱلنَّفْسِ مِنْ قِبَلِ ٱلْحَرَكَةِ وَٱلْحِسِّ فِي ٱلْحَيَوَانَاتِ ثُمَّ أَحَسُّوا مِنْ قُوَى ٱلنَّفْسِ بِسُلْطَانِ ٱلْعَقْلِ وَوَقَفَ إِدْرَاكُهُمْ فَقَضَوْا عَلَى ٱلْجِسْمِ ٱلْعَالِي ٱلسَّمَاوِيِّ بِنَحْوٍ مِنَ ٱلْقَضَاءِ عَلَى أَمْرِ ٱلذَّاتِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَوَجَبَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ لِلْفَلَكِ نَفْسٌ وَعَقْلٌ كَمَا لِلْإِنْسَانِ ثُمَّ أَنْهَوْا ذٰلِكَ نِهَايَةَ عَدَدِ ٱلْآحَادِ وَهِيَ ٱلْعَشْرُ تِسْعٌ مُفَصَّلَةٌ ذَوَاتُهَا جُمَلٌ وَوَاحِدٌ أَوَّلُ مُفْرَدٌ وَهُوَ ٱلْعَاشِرُ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ ٱلْوُجُودِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلْقَضَاءِ مَعَ تَهْذِيبِ ٱلنَّفْسِ وَتَخَلُّقِهَا بِٱلْفَضَائِلِ وَأَنَّ ذٰلِكَ مُمْكِنٌ لِلْإِنْسَانِ وَلَوْ لَمْ يَرِدْ شَرْعٌ لِتَمْيِيزِهِ بَيْنَ ٱلْفَضِيلَةِ وَٱلرَّذِيلَةِ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ وَنَظَرِهِ وَمَيْلِهِ إِلَى ٱلْمَحْمُودِ مِنْهَا وَٱجْتِنَابِهِ لِلْمَذْمُومِ بِفِطْرَتِهِ وَأَنَّ ذٰلِكَ إِذَا حَصَلَ لِلنَّفْسِ حَصَلَتْ لَهَا ٱلْبَهْجَةُ وَٱللَّذَّةُ وَأَنَّ ٱلْجَهْلَ بِذٰلِكَ هُوَ ٱلشَّقَاءُ ٱلسَّرْمَدِيُّ وَهٰذَا عِنْدَهُمْ هُوَ مَعْنَى ٱلنَّعِيمِ وَٱلْعَذَابِ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَى خَبْطٍ لَهُمْ فِي تَفَاصِيلِ ذٰلِكَ مَعْرُوفٍ فِي كَلِمَاتِهِمْ وَإِمَامُ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلَّذِي حَصَّلَ مَسَائِلَهَا وَدَوَّنَ عِلْمَهَا وَسَطَّرَ حِجَجَهَا فِيمَا بَلَغَنَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَحْقَابِ هُوَ أَرِسْطُو ٱلْمَقْدُونِيُّ مِنْ أَهْلِ مَقْدُونِيَةَ مِنْ بِلَادِ ٱلرُّومِ مِنْ تَلَامِيذِ أَفْلَاطُونَ وَهُوَ مُعَلِّمُ ٱلْإِسْكَنْدَرِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْمُعَلِّمَ ٱلْأَوَّلَ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ يَعْنُونَ مُعَلِّمَ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ إِذْ لَمْ تَكُنْ قَبْلَهُ مُهَذَّبَةً وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَتَّبَ قَانُونَهَا وَٱسْتَوْفَى مَسَائِلَهَا وَأَحْسَنَ بَسْطَهَا وَلَقَدْ أَحْسَنَ فِي ذٰلِكَ ٱلْقَانُونِ مَا شَاءَ لَوْ تَكَفَّلَ لَهُ بِقَصْدِهِمْ فِي ٱلْإِلٰهِيَّاتِ ثُمَّ كَانَ مِنْ بَعْدِهِ فِي ٱلْإِسْلَامِ مَنْ أَخَذَ بِتِلْكَ ٱلْمَذَاهِبِ وَٱتَّبَعَ فِيهَا رَأْيَهُ حَذْوَ ٱلنَّعْلِ بِٱلنَّعْلِ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ وَذٰلِكَ أَنَّ كُتُبَ أُولٰئِكَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ لَمَّا تَرْجَمَهَا ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْيُونَانِيِّ إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ تَصَفَّحَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْمِلَّةِ وَأَخَذَ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ مَنْ أَضَلَّهُ ٱللهُ مِنْ مُنْتَحِلِي ٱلْعُلُومِ وَجَادَلُوا عَنْهَا وَٱخْتَلَفُوا فِي مَسَائِلَ مِنْ تَفَارِيعِهَا وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ أَبُو نَصْرٍ ٱلْفَارَابِيُّ فِي ٱلْمِائَةِ ٱلرَّابِعَةِ لِعَهْدِ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَبُو عَلِيِّ بْنُ سِينَا فِي ٱلْمِائَةِ ٱلْخَامِسَةِ لِعَهْدِ نِظَامِ

ٱلْمُلْكِ مِنْ بَنِي بُوَيْهِ بِأَصْبَهَانَ وَغَيْرُهُمَا وَٱعْلَمْ أَنَّ هٰذَا ٱلرَّأْيَ ٱلَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ بَاطِلٌ بِجَمِيعِ وُجُوهِهِ فَأَمَّا إِسْنَادُهُمُ ٱلْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا إِلَى ٱلْعَقْلِ ٱلْأَوَّلِ وَٱكْتِفَاؤُهُمْ بِهِ فِي ٱلتَّرَقِّي إِلَى ٱلْوَاجِبِ فَهُوَ قُصُورٌ عَمَّا وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنْ رُتَبِ خَلْقِ ٱللهِ فَٱلْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقاً مِنْ ذٰلِكَ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَكَأَنَّهُمْ فِي ٱقْتِصَارِهِمْ عَلَى إِثْبَاتِ ٱلْعَقْلِ فَقَطْ وَٱلْغَفْلَةِ عَمَّا وَرَاءَهُ بِمَثَابَةِ ٱلطَّبِيعِيِّينَ ٱلْمُقْتَصِرِينَ عَلَى إِثْبَاتِ ٱلْأَجْسَامِ خَاصَّةً ٱلْمُعْرِضِينَ عَنِ ٱلنَّقْلِ وَٱلْعَقْلِ ٱلْمُعْتَقِدِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ ٱلْجِسْمِ فِي حِكْمَةِ ٱللهِ شَيْءٌ وَأَمَّا ٱلْبَرَاهِينُ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَهَا عَلَى مُدَّعَيَاتِهِمْ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ وَيَعْرِضُونَهَا عَلَى مِعْيَارِ ٱلْمَنْطِقِ وَقَانُونِهِ فَهِيَ قَاصِرَةٌ وَغَيْرُ وَافِيَةٍ بِٱلْغَرَضِ أَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْعِلْمَ ٱلطَّبِيعِيَّ فَوَجْهُ قُصُورِهِ أَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ بَيْنَ تِلْكَ ٱلنَّتَائِجِ ٱلذِّهْنِيَّةِ ٱلَّتِي تُسْتَخْرَجُ بِٱلْحُدُودِ وَٱلْأَقْيِسَةِ كَمَا فِي زَعْمِهِمْ وَبَيْنَ مَا فِي ٱلْخَارِجِ غَيْرُ يَقِينِيٍّ لِأَنَّ تِلْكَ أَحْكَامٌ ذِهْنِيَّةٌ كُلِّيَّةٌ عَامَّةٌ وَٱلْمَوْجُودَاتُ ٱلْخَارِجِيَّةُ مُتَشَخِّصَةٌ بِمَوَادِّهَا وَلَعَلَّ فِي ٱلْمَوَادِّ مَا يَمْنَعُ مُطَابَقَةَ ٱلذِّهْنِيِّ ٱلْكُلِّيِّ لِلْخَارِجِيِّ ٱلشَّخْصِيِّ ٱللَّهُمَّ إِلَّا مَا لاَ يَشْهَدُ لَهُ ٱلْحِسُّ مِنْ ذٰلِكَ فَدَلِيلُهُ شُهُودُهُ لاَ تِلْكَ ٱلْبَرَاهِينُ فَأَيْنَ ٱلْيَقِينُ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ فِيهَا وَرُبَّمَا يَكُونُ تَصَرُّفُ ٱلذِّهْنِ أَيْضاً فِي ٱلْمَعْقُولاَتِ ٱلْأَوَّلِ ٱلْمُطَابِقَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ بِٱلصُّوَرِ ٱلْخَيَالِيَّةِ لاَ فِي ٱلْمَعْقُولاَتِ ٱلثَّوَانِي ٱلَّتِي تَجْرِيدُهَا فِي ٱلرُّتْبَةِ ٱلثَّانِيَةِ فَيَكُونُ ٱلْحُكْمُ حِينَئِذٍ يَقِينِيّاً بِمَثَابَةِ ٱلْمَحْسُوسَاتِ إِذِ ٱلْمَعْقُولاَتُ ٱلْأُوَلُ أَقْرَبُ إِلَى مُطَابَقَةِ ٱلْخَارِجِ لِكَمَالِ ٱلِٱنْطِبَاقِ فِيهَا فَنُسَلِّمُ لَهُمْ حِينَئِذٍ دَعَاوِيَهُمْ فِي ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا ٱلْإِعْرَاضُ عَنِ ٱلنَّظَرِ فِيهَا إِذْ هُوَ مِنْ تَرْكِ ٱلْمُسْلِمِ لِمَا لاَ يَعْنِيهِ فَإِنَّ مَسَائِلَ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ لاَ تُهِمُّنَا فِي دِينِنَا وَلاَ مَعَاشِنَا فَوَجَبَ عَلَيْنَا تَرْكُهَا .

وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي وَرَاءَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلرُّوحَانِيَّاتُ وَيُسَمُّونَهُ ٱلْعِلْمَ ٱلْإِلٰهِيَّ وَعِلْمَ مَا بَعْدَ ٱلطَّبِيعَةِ فَإِنَّ ذَوَاتِهَا مَجْهُولَةٌ رَأْساً وَلاَ يُمْكِنُ ٱلتَّوَصُّلُ إِلَيْهَا وَلاَ ٱلْبُرْهَانُ عَلَيْهَا لِأَنَّ تَجْرِيدَ ٱلْمَعْقُولاَتِ مِنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلْخَارِجِيَّةِ ٱلشَّخْصِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ مُمْكِنٌ فِيمَا هُوَ مُدْرَكٌ لَنَا وَنَحْنُ لاَ نُدْرِكُ ٱلذَّوَاتِ ٱلرُّوحَانِيَّةَ حَتَّى نُجَرِّدَ مِنْهَا مَاهِيَّاتٍ أُخْرَى بِحِجَابِ ٱلْحِسِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا فَلاَ يَتَأَتَّى لَنَا بُرْهَانٌ عَلَيْهَا وَلاَ مُدْرَكٌ لَنَا فِي إِثْبَاتِ وُجُودِهَا عَلَى ٱلْجُمْلَةِ إِلَّا مَا نَجِدُهُ بَيْنَ جَنْبَيْنَا مِنْ أَمْرِ ٱلنَّفْسِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَحْوَالِ مَدَارِكِهَا وَخُصُوصاً فِي ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي هِيَ وِجْدَانِيَّةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ وَمَا وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنْ حَقِيقَتِهَا وَصِفَاتِهَا

فأمرٌ غامضٌ لاَ سَبيلَ إلى ٱلْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَقَدْ صَرَّحَ بِذٰلِكَ مُحَقِّقُوهُمْ حَيْثُ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مالاَ مَادَّةَ لَهُ لاَ يُمْكِنُ ٱلْبُرْهَانُ عَلَيْهِ لِأَنَّ مُقَدِّمَاتِ ٱلْبُرْهَانِ مِنْ شَرْطِهَا أَنْ تَكُونَ ذَاتِيَّةً وَقَالَ كَبِيرُهُمْ أَفلاطُونُ إِنَّ ٱلإِلٰهِيَّاتِ لاَ يُوصَلُ فِيهَا إِلَى يَقِينٍ وَإِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا بِالأَخلَق وَٱلأَوْلَى يَعْنِي ٱلظَّنَّ وَإِذَا كُنَّا إِنَّمَا نَحْصُلُ بَعْدَ ٱلتَّعَبِ وَٱلنَّصَبِ عَلَى ٱلظَّنِّ فَقَطْ فَيَكْفِينَا ٱلظَّنُّ ٱلَّذِي كَانَ أَوَّلاً فَأَيُّ فَائِدَةٍ لِهٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَٱلِٱشْتِغَالِ بِهَا وَنَحْنُ إِنَّمَا عِنَايَتُنَا بِتَحْصِيلِ ٱلْيَقِينِ فِيمَا وَرَاءَ ٱلْحِسِّ مِنَ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَهٰذِهِ هِيَ غَايَةُ ٱلأَفْكَارِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ عِنْدَهُمْ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلسَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ ٱلْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ بِتِلْكَ ٱلْبَرَاهِينِ فَقَوْلٌ مُزَيَّفٌ مَرْدُودٌ وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ ٱلإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ جُزْءَيْنِ أَحَدُهُمَا جِسْمَانِيٌّ وَٱلآخَرُ رُوحَانِيٌّ مُمْتَزِجٌ بِهِ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْجُزْءَيْنِ مَدَارِكُ مُخْتَصَّةٌ بِهِ وَٱلْمُدْرِكُ فِيهِمَا وَاحِدٌ وَهُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلرُّوحَانِيُّ يُدْرِكُ تَارَةً مَدَارِكَ رُوحَانِيَّةً وَتَارَةً مَدَارِكَ جِسْمَانِيَّةً إِلَّا أَنَّ ٱلْمَدَارِكَ ٱلرُّوحَانِيَّةَ يُدْرِكُهَا بِذَاتِهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَٱلْمَدَارِكَ ٱلْجِسْمَانِيَّةَ بِوَاسِطَةِ ٱلآلاتِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلدِّمَاغِ وَٱلْحَوَاسِّ وَكُلُّ مُدْرِكٍ فَلَهُ ٱبْتِهَاجٌ بِمَا يُدْرِكُهُ وَٱعْتَبِرْهُ بِحَالِ ٱلصَّبِيِّ فِي أَوَّلِ مَدَارِكِهِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ ٱلَّتِي هِيَ بِوَاسِطَةٍ كَيْفَ يَبْتَهِجُ بِمَا يُبْصِرُهُ مِنَ ٱلضَّوْءِ وَبِمَا يَسْمَعُهُ مِنَ ٱلأَصْوَاتِ فَلا شَكَّ أَنَّ ٱلِٱبْتِهَاجَ بِٱلإِدْرَاكِ ٱلَّذِي لِلنَّفْسِ مِنْ ذَاتِهَا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ يَكُونُ أَشَدَّ وَأَلَذَّ فَٱلنَّفْسُ ٱلرُّوحَانِيَّةُ إِذَا شَعَرَتْ بِإِدْرَاكِهَا ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ حَصَلَ لَهَا ٱبْتِهَاجٌ وَلَذَّةٌ لاَ يُعَبَّرُ عَنْهُمَا وَهٰذَا ٱلإِدْرَاكُ لاَ يَحْصُلُ بِنَظَرٍ وَلا عِلْمٍ وَإِنَّمَا يَحْصُلُ بِكَشْفِ حِجَابِ ٱلْحِسِّ وَنِسْيَانِ ٱلْمَدَارِكِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ بِٱلْجُمْلَةِ وَٱلْمُتَصَوِّفَةُ كَثِيراً مَا يَعْنُونَ بِحُصُولِ هٰذَا ٱلإِدْرَاكِ لِلنَّفْسِ بِحُصُولِ هٰذِهِ ٱلْبَهْجَةِ فَيُحَاوِلُونَ بِٱلرِّيَاضَةِ إِمَاتَةَ ٱلْقُوَى ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَمَدَارِكِهَا حَتَّى ٱلْفِكْرِ مِنَ ٱلدِّمَاغِ وَلِيَحْصُلَ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا عِنْدَ زَوَالِ ٱلشَّوَاغِبِ وَٱلْمَوَانِعِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ يَحْصُلُ لَهُمْ بَهْجَةٌ وَلَذَّةٌ لاَ يُعَبَّرُ عَنْهُمَا وَهٰذَا ٱلَّذِي زَعَمُوهُ بِتَقْدِيرِ صِحَّتِهِ مُسَلَّمٌ لَهُمْ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ غَيْرُ وَافٍ بِمَقْصُودِهِمْ فَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْبَرَاهِينَ وَٱلأَدِلَّةَ ٱلْعَقْلِيَّةَ مُحَصِّلَةٌ لِهٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلإِدْرَاكِ وَٱلِٱبْتِهَاجِ عَنْهُ فَبَاطِلٌ كَمَا رَأَيْتَهُ إِذِ ٱلْبَرَاهِينُ وَٱلأَدِلَّةُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْمَدَارِكِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ لِأَنَّهَا بِٱلْقُوَى ٱلدِّمَاغِيَّةِ مِنَ ٱلْخَيَالِ وَٱلْفِكْرِ وَٱلذِّكْرِ وَنَحْنُ نَقُولُ إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نُعْنَى بِهِ فِي تَحْصِيلِ هٰذَا ٱلإِدْرَاكِ إِمَاتَةُ هٰذِهِ ٱلْقُوَى ٱلدِّمَاغِيَّةِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا مُنَازِعَةٌ لَهُ قَادِحَةٌ فِيهِ وَتَجِدُ ٱلْمَاهِرَ مِنْهُمْ عَاكِفاً

عَلَى كِتَابِ ٱلشِّفَاءِ وَٱلْإِشَارَاتِ وَٱلنَّجَاةِ وَتَلَاخِيصِ ٱبْنِ رُشْدٍ لِلْفَصِّ مِنْ تَأْلِيفِ أَرِسْطُو وَغَيْرِهِ يُبَعْثِرُ أَوْرَاقَهَا وَيَتَوَثَّقُ مِنْ بَرَاهِينِهَا وَيَلْتَمِسُ هٰذَا ٱلْقِسْطَ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ فِيهَا وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَكْثِرُ بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَوَانِعِ عَنْهَا وَمُسْتَنَدُهُمْ فِي ذٰلِكَ مَا يَنْقُلُونَهُ عَنْ أَرِسْطُو وَٱلْفَارَابِيِّ وَٱبْنِ سِينَا أَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ إِدْرَاكُ ٱلْعَقْلِ ٱلْفَعَّالِ وَٱتَّصَلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ فَقَدْ حَصَلَ حَظَّهُ مِنْ هٰذِهِ ٱلسَّعَادَةِ وَٱلْعَقْلُ ٱلْفَعَّالُ عِنْدَهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ أَوَّلِ رُتْبَةٍ يَنْكَشِفُ عَنْهَا ٱلْحِسُّ مِنْ رُتَبِ ٱلرُّوحَانِيَّاتِ وَيَحْمِلُونَ ٱلِٱتِّصَالَ بِٱلْعَقْلِ ٱلْفَعَّالِ عَلَى ٱلْإِدْرَاكِ ٱلْعِلْمِيِّ وَقَدْ رَأَيْتَ فَسَادَهُ وَإِنَّمَا يَعْنِي أَرِسْطُو وَأَصْحَابُهُ بِذٰلِكَ ٱلِٱتِّصَالِ وَٱلْإِدْرَاكِ إِدْرَاكَ ٱلنَّفْسِ ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وَبِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهُوَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِكَشْفِ حِجَابِ ٱلْحِسِّ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْبَهْجَةَ ٱلنَّاشِئَةَ عَنْ هٰذَا ٱلْإِدْرَاكِ هِيَ عَيْنُ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْمَوْعُودِ بِهَا فَبَاطِلٌ أَيْضاً لِأَنَّا إِنَّمَا تَبَيَّنَ لَنَا بِمَا قَرَّرُوهُ أَنَّ وَرَاءَ ٱلْحِسِّ مُدْرَكاً آخَرَ لِلنَّفْسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَأَنَّهَا تَبْتَهِجُ بِإِدْرَاكِهَا ذٰلِكَ ٱبْتِهَاجاً شَدِيداً وَذٰلِكَ لَا يُعَيِّنُ لَنَا أَنَّهُ عَيْنُ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْأُخْرَوِيَّةِ وَلَا بُدَّ بَلْ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْمَلَاذِ ٱلَّتِي لِتِلْكَ ٱلسَّعَادَةِ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلسَّعَادَةَ فِي إِدْرَاكِ هٰذِهِ ٱلْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فَقَوْلٌ بَاطِلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا كُنَّا قَدَّمْنَاهُ فِي أَصْلِ ٱلتَّوْحِيدِ مِنَ ٱلْأَوْهَامِ وَٱلْأَغْلَاطِ فِي أَنَّ ٱلْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ مُدْرِكٍ مُنْحَصِرٌ فِي مَدَارِكِهِ وَبَيَّنَّا فَسَادَ ذٰلِكَ وَإِنَّ ٱلْوُجُودَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ أَوْ يُسْتَوْفَى إِدْرَاكُهُ بِجُمْلَتِهِ رُوحَانِيّاً أَوْ جِسْمَانِيّاً وَٱلَّذِي يَحْصُلُ مِنْ جَمِيعِ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ أَنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلرُّوحَانِيَّ إِذَا فَارَقَ ٱلْقُوَى ٱلْجِسْمَانِيَّةَ أَدْرَكَ إِدْرَاكاً ذَاتِيّاً لَهُ مُخْتَصّاً بِصِنْفٍ مِنَ ٱلْمَدَارِكِ وَهِيَ ٱلْمَوْجُودَاتُ ٱلَّتِي أَحَاطَ بِهَا عِلْمُنَا وَلَيْسَ بِعَامٍّ ٱلْإِدْرَاكِ فِي ٱلْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا إِذْ لَمْ تَنْحَصِرْ وَأَنَّهُ يَبْتَهِجُ بِذٰلِكَ ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلْإِدْرَاكِ ٱبْتِهَاجاً شَدِيداً كَمَا يَبْتَهِجُ ٱلصَّبِيُّ بِمَدَارِكِهِ ٱلْحِسِّيَّةِ فِي أَوَّلِ نُشُوئِهِ وَمَنْ لَنَا بَعْدَ ذٰلِكَ بِإِدْرَاكِ جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ أَوْ بِحُصُولِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلَّتِي وَعَدَنَا بِهَا ٱلشَّارِعُ إِنْ لَمْ نَعْمَلْ لَهَا هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِهَا بِمُلَابَسَةِ ٱلْمَحْمُودِ مِنَ ٱلْخُلُقِ وَمُجَانَبَةِ ٱلْمَذْمُومِ فَأَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ ٱبْتِهَاجَ ٱلنَّفْسِ بِإِدْرَاكِهَا ٱلَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا هُوَ عَيْنُ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْمَوْعُودِ بِهَا لِأَنَّ ٱلرَّذَائِلَ عَائِقَةٌ لِلنَّفْسِ عَنْ تَمَامِ إِدْرَاكِهَا ذٰلِكَ بِمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَأَلْوَانِهَا وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَثَرَ ٱلسَّعَادَةِ وَٱلشَّقَاوَةِ مِنْ وَرَاءِ ٱلْإِدْرَاكَاتِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ وَٱلرُّوحَانِيَّةِ

فهذا التهذيب الذي توصلوا إلى معرفته إنما نفعه في البهجة الناشئة عن الإدراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين وأما ما وراء ذلك من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الأعمال والأخلاق فأمر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي بن سينا فقال في كتاب المبدإ والمعاد ما معناه إن المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان لأنه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها وليرجع في أحواله إليها فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها وليس له فيما علمنا إلا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهم كثيراً ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الإتقان والصواب في الحجج والاستدلالات لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار هذه ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزاً جهده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها والله الموفق للصواب وللحق والهادي إليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الفصل الخامس والعشرون

في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع

ٱلـكَائِنَاتِ ٱلـكُلِّيَّةِ وَٱلشَّخْصِيَّةِ فَالْمُتَقَدِّمُونَ مِنهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ قُوَى ٱلـكَوَاكِبِ وَتَأْثِيرَاتِهَا بِٱلتَّجْرِبَةِ وَهُوَ أَمْرٌ تَقْصُرُ ٱلْأَعْمَارُ كُلُّهَا لَوِ ٱجْتَمَعَتْ عَنْ تَحْصِيلِهِ إِذِ ٱلتَّجْرِبَةُ إِنَّمَا تَحْصُلُ فِي ٱلْمَرَّاتِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ بِٱلتَّكْرَارِ لِيَحْصُلَ عَنْهَا ٱلْعِلْمُ أَوِ ٱلظَّنُّ وَأَدْوَارُ ٱلـكَوَاكِبِ مِنْهَا مَا هُوَ طَوِيلُ ٱلزَّمَنِ فَيَحْتَاجُ تَكَرُّرُهُ إِلَى آمَادٍ وَأَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ يَتَقَاصَرُ عَنْهَا مَا هُوَ طَوِيلٌ مِنْ أَعْمَارِ ٱلْعَالَمِ وَرُبَّمَا ذَهَبَ ضُعَفَاءُ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ مَعْرِفَةَ قُوَى ٱلـكَوَاكِبِ وَتَأْثِيرَاتِهَا كَانَتْ بِٱلْوَحْيِ وَهُوَ رَأْيٌ فَائِلٌ وَقَدْ كَفَوْنَا مُؤْنَةَ إِبْطَالِهِ وَمِنْ أَوْضَحِ ٱلْأَدِلَّةِ فِيهِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ٱلْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَبْعَدُ ٱلنَّاسِ عَنِ ٱلصَّنَائِعِ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَعَرَّضُونَ لِلْإِخْبَارِ عَنِ ٱلْغَيْبِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَنِ ٱللهِ فَكَيْفَ يَدَّعُونَ ٱسْتِنْبَاطَهُ بِٱلصِّنَاعَةِ وَيُشِيرُونَ بِذَلِكَ لِتَابِعِيهِمْ مِنَ ٱلْخَلْقِ وَأَمَّا بَطْلِيمُوسُ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فَيَرَوْنَ أَنَّ دَلَالَةَ ٱلـكَوَاكِبِ عَلَى ذَلِكَ دَلَالَةٌ طَبِيعِيَّةٌ مِنْ قِبَلِ مِزَاجٍ يَحْصُلُ لِلـكَوَاكِبِ فِي ٱلْكَائِنَاتِ ٱلْعُنْصُرِيَّةِ قَالَ لِأَنَّ فِعْلَ ٱلنَّيِّرَيْنِ وَأَثَرَهُمَا فِي ٱلْعُنْصُرِيَّاتِ ظَاهِرٌ لَا يَسَعُ أَحَداً جَحْدُهُ مِثْلَ فِعْلِ ٱلشَّمْسِ فِي تَبَدُّلِ ٱلْفُصُولِ وَأَمْزِجَتِهَا وَنُضْجِ ٱلثِّمَارِ وَٱلزَّرْعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَفِعْلِ ٱلْقَمَرِ فِي ٱلرُّطُوبَاتِ وَٱلْمَاءِ وَإِنْضَاجِ ٱلْمَوَادِّ ٱلْمُتَعَفِّنَةِ وَفَوَاكِهِ ٱلْقِثَاءِ وَسَائِرِ أَفْعَالِهِ ثُمَّ قَالَ وَلَنَا فِيمَا بَعْدَهُمَا مِنَ ٱلـكَوَاكِبِ طَرِيقَانِ ٱلْأُولَى ٱلتَّقْلِيدُ لِمَنْ نَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُ مِنْ أَئِمَّةِ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُقْنِعٍ لِلنَّفْسِ ٱلثَّانِيَةُ ٱلْحَدْسُ وَٱلتَّجْرِبَةُ بِقِيَاسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى ٱلنَّيِّرِ ٱلْأَعْظَمِ ٱلَّذِي عَرَفْنَا طَبِيعَتَهُ وَأَثَرَهُ مَعْرِفَةً ظَاهِرَةً فَنَنْظُرُ هَلْ يَزِيدُ ذَلِكَ ٱلـكَوْكَبُ عِنْدَ ٱلْقِرَانِ فِي قُوَّتِهِ وَمِزَاجِهِ فَتُعْرَفُ مُوَافَقَتُهُ لَهُ فِي ٱلطَّبِيعَةِ أَوْ يَنْقُصُ عَنْهَا فَتُعْرَفُ مُضَادَّتُهُ ثُمَّ إِذَا عَرَفْنَا قُوَاهَا مُفْرَدَةً عَرَفْنَاهَا مُرَكَّبَةً وَذَلِكَ عِنْدَ تَنَاظُرِهَا بِأَشْكَالِ ٱلتَّثْلِيثِ وَٱلتَّرْبِيعِ وَغَيْرِهِمَا وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ طَبَائِعِ ٱلْبُرُوجِ بِٱلْقِيَاسِ أَيْضاً إِلَى ٱلنَّيِّرِ ٱلْأَعْظَمِ وَإِذَا عَرَفْنَا قُوَى ٱلـكَوَاكِبِ كُلِّهَا فَهِيَ مُؤَثِّرَةٌ فِي ٱلْهَوَاءِ وَذَلِكَ ظَاهِرٌ وَٱلْمِزَاجُ ٱلَّذِي يَحْصُلُ مِنْهَا لِلْهَوَاءِ يَحْصُلُ لِمَا تَحْتَهُ مِنَ ٱلْمُوَلَّدَاتِ وَتَتَخَلَّقُ بِهِ ٱلنُّطَفُ وَٱلْبِزْرُ فَتَصِيرُ حَالاً لِلْبَدَنِ ٱلْمُتَكَوِّنِ عَنْهَا وَلِلنَّفْسِ ٱلْمُتَعَلِّقَةِ بِهِ ٱلْفَائِضَةِ عَلَيْهِ ٱلْمُكْتَسِبَةِ لِمَا لَهَا مِنْهُ وَلِمَا يَتْبَعُ ٱلنَّفْسَ وَٱلْبَدَنَ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّ كَيْفِيَّاتِ ٱلْبِزْرَةِ وَٱلنُّطْفَةِ كَيْفِيَّاتٌ لِمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُمَا وَيَنْشَأُ مِنْهُمَا قَالَ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ ظَنِّي وَلَيْسَ هُوَ أَيْضاً مِنَ ٱلْقَضَاءِ ٱلْإِلٰهِيِّ يَعْنِي ٱلْقَدَرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْأَسْبَابِ

ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَائِنِ وَٱلْقَضَاءِ ٱلْإِلٰهِيِّ سَابِقٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ هٰذَا مُحَصَّلُ كَلَامِ بَطْلِيمُوسَ وَأَصْحَابِهِ وَهُوَ مَنْصُوصٌ فِي كِتَابِهِ ٱلْأَرْبَعِ وَغَيْرِهِ وَمِنْهُ يَتَبَيَّنُ ضُعْفُ مُدْرَكِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعِلْمَ ٱلْكَائِنَ أَوِ ٱلظَّنَّ بِهِ إِنَّمَا يَحْصُلُ عَنِ ٱلْعِلْمِ بِجُمْلَةِ أَسْبَابِهِ مِنَ ٱلْفَاعِلِ وَٱلْقَابِلِ وَٱلصُّورَةِ وَٱلْغَايَةِ عَلَى مَا يَتَبَيَّنُ فِي مَوْضِعِهِ وَٱلْقُوَى ٱلنُّجُومِيَّةُ عَلَى مَا قَرَّرُوهُ إِنَّمَا هِيَ فَاعِلَةٌ فَقَطْ وَٱلْجُزْءُ ٱلْعُنْصُرِيُّ هُوَ ٱلْقَابِلُ ثُمَّ إِنَّ ٱلْقُوَى ٱلنُّجُومِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ ٱلْفَاعِلَ بِجُمْلَتِهَا بَلْ هُنَاكَ قُوًى أُخْرَى فَاعِلَةٌ مَعَهَا فِي ٱلْجُزْءِ ٱلْمَادِّيِّ مِثْلَ قُوَّةِ ٱلتَّوْلِيدِ لِلْأَبِ وَٱلنَّوْعِ ٱلَّتِي فِي ٱلنُّطْفَةِ وَقُوَى ٱلْخَاصَّةِ ٱلَّتِي تَمَيَّزَ بِهَا صِنْفٌ مِنَ ٱلنَّوْعِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ فَٱلْقُوَى ٱلنُّجُومِيَّةُ إِذَا حَصَلَ كَمَالُهَا وَحَصَلَ ٱلْعِلْمُ فِيهَا إِنَّمَا هِيَ فَاعِلٌ وَاحِدٌ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْأَسْبَابِ ٱلْفَاعِلَةِ لِلْكَائِنِ ثُمَّ إِنَّهُ يُشْتَرَطُ مَعَ ٱلْعِلْمِ بِقُوَى ٱلنُّجُومِ وَتَأْثِيرَاتِهَا مَزِيدُ حَدْسٍ وَتَخْمِينٍ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ عِنْدَهُ ٱلظَّنُّ بِوُقُوعِ ٱلْكَائِنِ وَٱلْحَدْسُ وَٱلتَّخْمِينُ قُوًى لِلنَّاظِرِ فِي فِكْرِهِ وَلَيْسَ مِنْ عِلَلِ ٱلْكَائِنِ وَلَا مِنْ أُصُولِ ٱلصِّنَاعَةِ فَإِذَا فُقِدَ هٰذَا ٱلْحَدْسُ وَٱلتَّخْمِينُ رَجَعَتْ أَدْرَاجَهَا عَنِ ٱلظَّنِّ إِلَى ٱلشَّكِّ هٰذَا إِذَا حَصَلَ ٱلْعِلْمُ بِٱلْقُوَى ٱلنُّجُومِيَّةِ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْتَرِضْهُ آفَةٌ وَهٰذَا مُعْوِزٌ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْرِفَةِ حُسْبَانَاتِ ٱلْكَوَاكِبِ فِي سَيْرِهَا لِتَتَعَرَّفَ بِهِ أَوْضَاعُهَا وَلِمَا أَنَّ ٱخْتِصَاصَ كُلِّ كَوْكَبٍ بِقُوَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَمُدْرَكُ بَطْلِيمُوسَ فِي إِثْبَاتِ ٱلْقُوَى لِلْكَوَاكِبِ ٱلْخَمْسَةِ بِقِيَاسِهَا إِلَى ٱلشَّمْسِ مُدْرَكٌ ضَعِيفٌ لِأَنَّ قُوَّةَ ٱلشَّمْسِ غَالِبَةٌ لِجَمِيعِ ٱلْقُوَى مِنَ ٱلْكَوَاكِبِ وَمُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهَا فَقَلَّ أَنْ يُشْعَرَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا أَوِ ٱلنُّقْصَانِ مِنْهَا عِنْدَ ٱلْمُقَارَنَةِ كَمَا قَالَ وَهٰذِهِ كُلُّهَا قَادِحَةٌ فِي تَعْرِيفِ ٱلْكَائِنَاتِ ٱلْوَاقِعَةِ فِي عَالَمِ ٱلْعَنَاصِرِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ثُمَّ إِنَّ تَأْثِيرَ ٱلْكَوَاكِبِ فِيمَا تَحْتَهَا بَاطِلٌ إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ فِي بَابِ ٱلتَّوْحِيدِ أَنْ لَا فَاعِلَ إِلَّا ٱللّٰهُ بِطَرِيقٍ ٱسْتِدْلَالِيٍّ كَمَا رَأَيْتَهُ وَٱحْتَجَّ لَهُ أَهْلُ عِلْمِ ٱلْكَلَامِ بِمَا هُوَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْبَيَانِ مِنْ أَنَّ إِسْنَادَ ٱلْأَسْبَابِ إِلَى ٱلْمُسَبَّبَاتِ مَجْهُولُ ٱلْكَيْفِيَّةِ وَٱلْعَقْلُ مُتَّهَمٌ عَلَى مَا يَقْضِي بِهِ فِيمَا يَظْهَرُ بَادِيَ ٱلرَّأْيِ مِنَ ٱلتَّأْثِيرِ فَلَعَلَّ ٱسْتِنَادَهَا عَلَى غَيْرِ صُورَةِ ٱلتَّأْثِيرِ ٱلْمُتَعَارَفِ وَٱلْقُدْرَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ رَابِطَةٌ بَيْنَهُمَا كَمَا رَبَطَتْ جَمِيعَ ٱلْكَائِنَاتِ عُلْوًا وَسُفْلًا سِيَّمَا وَٱلشَّرْعُ يَرُدُّ ٱلْحَوَادِثَ كُلَّهَا إِلَى قُدْرَةِ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَيَبْرَأُ مِمَّا سِوَى ذٰلِكَ وَٱلنُّبُوَّاتُ أَيْضًا مُنْكِرَةٌ لِشَأْنِ ٱلنُّجُومِ وَتَأْثِيرَاتِهَا وَٱسْتِقْرَاءُ ٱلشَّرْعِيَّاتِ شَاهِدٌ بِذٰلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ إِنَّ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا

لِحَيَاتِهِ وَفِي قَوْلِهِ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ ٱللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذٰلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِٱلْكَوَاكِبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا فَذٰلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِٱلْكَوَاكِبِ ٱلْحَدِيثُ ٱلصَّحِيحُ فَقَدْ بَانَ لَكَ بُطْلَانُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ طَرِيقِ ٱلشَّرْعِ وَضَعْفُ مَدَارِكِهَا مَعَ ذٰلِكَ مِنْ طَرِيقِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا لَهَا مِنَ ٱلْمَضَارِّ فِي ٱلْعُمْرَانِ ٱلْإِنْسَانِيِّ بِمَا تَبْعَثُ مِنْ عَقَائِدِ ٱلْعَوَامِّ مِنَ ٱلْفَسَادِ إِذَا ٱتَّفَقَ ٱلصِّدْقُ مِنْ أَحْكَامِهَا فِي بَعْضِ ٱلْأَحَايِينِ ٱتِّفَاقًا لَا يَرْجِعُ إِلَى تَعْلِيلٍ وَلَا تَحْقِيقٍ فَيَلْهَجُ بِذٰلِكَ مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَيَظُنُّ ٱطِّرَادَ ٱلصِّدْقِ فِي سَائِرِ أَحْكَامِهَا وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فَيَقَعُ فِي رَدِّ ٱلْأَشْيَاءِ إِلَى غَيْرِ خَالِقِهَا ثُمَّ مَا يَنْشَأُ عَنْهَا كَثِيرًا فِي ٱلدُّوَلِ مِنْ تَوَقُّعِ ٱلْقَوَاطِعِ وَمَا يَبْعَثُ عَلَيْهِ ذٰلِكَ ٱلتَّوَقُّعُ مِنْ تَطَاوُلِ ٱلْأَعْدَاءِ وَٱلْمُتَرَبِّصِينَ بِٱلدَّوْلَةِ إِلَى ٱلْفَتْكِ وَٱلثَّوْرَةِ وَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ ذٰلِكَ كَثِيرًا فَيَنْبَغِي أَنْ تُحْظَرَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ ٱلْمَضَارِّ فِي ٱلدِّينِ وَٱلدُّوَلِ وَلَا يَقْدَحُ فِي ذٰلِكَ كَوْنُ وُجُودِهَا طَبِيعِيًّا لِلْبَشَرِ بِمُقْتَضَى مَدَارِكِهِمْ وَعُلُومِهِمْ فَٱلْخَيْرُ وَٱلشَّرُّ طَبِيعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي ٱلْعَالَمِ لَا يُمْكِنُ نَزْعُهُمَا وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ ٱلتَّكْلِيفُ بِأَسْبَابِ حُصُولِهِمَا فَيَتَعَيَّنُ ٱلسَّعْيُ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْخَيْرِ بِأَسْبَابِهِ وَدَفْعِ أَسْبَابِ ٱلشَّرِّ وَٱلْمَضَارِّ هٰذَا هُوَ ٱلْوَاجِبُ عَلَى مَنْ عَرَفَ مَفَاسِدَ هٰذَا ٱلْعِلْمِ وَمَضَارَّهُ وَلْيَعْلَمْ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ صَحِيحَةً فِي نَفْسِهَا فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ ٱلْمِلَّةِ تَحْصِيلُ عِلْمِهَا وَلَا مَلَكَتِهَا بَلْ إِنْ نَظَرَ فِيهَا نَاظِرٌ وَظَنَّ ٱلْإِحَاطَةَ بِهَا فَهُوَ فِي غَايَةِ ٱلْقُصُورِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ فَإِنَّ ٱلشَّرِيعَةَ لَمَّا حَظَرَتِ ٱلنَّظَرَ فِيهَا فُقِدَ ٱلِٱجْتِمَاعُ مِنْ أَهْلِ ٱلْعُمْرَانِ لِقِرَاءَتِهَا وَٱلتَّحْلِيقِ لِتَعْلِيمِهَا وَصَارَ ٱلْمُولَعُ بِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ وَهُمُ ٱلْأَقَلُّ وَأَقَلُّ مِنَ ٱلْأَقَلِّ إِنَّمَا يُطَالِعُ كُتُبَهَا وَمَقَالَاتِهَا فِي كِسْرِ بَيْتِهِ مُتَسَتِّرًا عَنِ ٱلنَّاسِ وَتَحْتَ رِبْقَةِ ٱلْجُمْهُورِ مَعَ تَشَعُّبِ ٱلصِّنَاعَةِ وَكَثْرَةِ فُرُوعِهَا وَٱعْتِيَاصِهَا عَلَى ٱلْفَهْمِ فَكَيْفَ يَحْصُلُ مِنْهَا عَلَى طَائِلٍ وَنَحْنُ نَجِدُ ٱلْفِقْهَ ٱلَّذِي عَمَّ نَفْعُهُ دِينًا وَدُنْيَا وَسَهُلَتْ مَآخِذُهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَعَكَفَ ٱلْجُمْهُورُ عَلَى قِرَاءَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ثُمَّ بَعْدَ ٱلتَّحْقِيقِ وَٱلتَّجْمِيعِ وَطُولِ ٱلْمُدَارَسَةِ وَكَثْرَةِ ٱلْمَجَالِسِ وَتَعَدُّدِهَا إِنَّمَا يَحْذَقُ فِيهِ ٱلْوَاحِدُ بَعْدَ ٱلْوَاحِدِ فِي ٱلْأَعْصَارِ وَٱلْأَجْيَالِ فَكَيْفَ بِعِلْمٍ مَهْجُورٍ لِلشَّرِيعَةِ مَضْرُوبٌ دُونَهُ سَدُّ ٱلْحَظْرِ وَٱلتَّحْرِيمِ مَكْتُومٌ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ صَعْبِ ٱلْمَآخِذِ مُحْتَاجٌ بَعْدَ ٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلتَّحْصِيلِ لِأُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ إِلَى مَزِيدِ حَدْسٍ وَتَخْمِينٍ

يكتنفان به من الناظر فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها ومدعى ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا إليه والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه احداً . ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر إرجاف الفريقين الأولياء والأعداء وقال في ذلك أبو القاسم الرُّوحي من شعراء أهل تونس

أستغفر الله كل حين ... قد ذهب العيش والهناء
أصبح في تونس وأمسي ... والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا ... يحدثها الهرج والوباء
والناس في مرية وحرب ... وما عسى ينفع المراء
فأحمدي يرى علياً ... حل به الهلك والتواء
وآخر قال سوف يأتي ... به إليكم صبا رخاء
والله من فوق ذا وهذا ... يقضي لعبديه ما يشاء
يا راصد الخنس الجواري ... ما فعلت هذه السماء
مطلتمونا وقد زعمتم ... أنكم اليوم أملياء
مر خميس على خميس ... وجاء سبت وأربعاء
ونصف شهر وعشر ثان ... وثالث ضمه القضاء
ولا نرى غير زور قول ... أذاك جهل أم ازدراء
إنا إلى الله قد علمنا ... أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي إلهاً ... حسبكم البدر أو ذكاء
ما هذه الأنجم السواري ... إلا عباديد أو إماء
يقضى عليها وليس تقضي ... وما لها في الورى اقتضاء
ضلت عقول ترى قديماً ... ما شأنه الجرم والفناء
وحكمت في الوجود طبعاً ... يحدثه الماء والهواء
لم تر حلواً إزاء مر ... تغذوهم تربة وماء

أَللهُ رَبِّي وَلَسْتُ أَدْرِي   مَا ٱلْجَوْهَرُ ٱلْفَرْدُ وَٱلْخَلَاءُ
وَلَا ٱلْهَيُولَى ٱلَّتِي تُنَادِي   مَا لِيَ عَنْ صُورَةٍ عَرَاءُ
وَلَا وُجُودٌ وَلَا ٱنْعِدَامٌ   وَلَا ثُبُوتٌ وَلَا ٱنْتِفَاءُ
وَٱلْكَسْبُ لَمْ أَدْرِ فِيهِ إِلَّا   مَا جَلَبَ ٱلْبَيْعُ وَٱلشِّرَاءُ
وَإِنَّمَا مَذْهَبِي وَدِينِي   مَا كَانَ لِلنَّاسِ أَوْلِيَاءُ
إِذْ لَا فُصُولٌ وَلَا أُصُولٌ   وَلَا جِدَالٌ وَلَا رِيَاءُ
مَا تَبِعَ ٱلصَّدْرَ وَٱقْتَفَيْنَا   يَا حَبَّذَا كَانَ ٱلِاقْتِفَاءُ
كَانُوا كَمَا يَعْلَمُونَ مِنْهُمْ   وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ ٱلْهَذَاءُ
يَا أَشْعَرِيَّ ٱلزَّمَانِ إِنِّي   أَشْعَرَنِي ٱلصَّيْفُ وَٱلشِّتَاءُ
لَمْ أُجْزَ بِٱلشَّرِّ غَيْرَ شَرٍّ   وَٱلْخَيْرُ عَنْ مِثْلِهِ جَزَاءُ
وَإِنَّنِي إِنْ أَكُنْ مُطِيعاً   فَلَسْتُ أَعْصِي وَلِي رَجَاءُ
وَإِنَّنِي تَحْتَ حُكْمِ بَارٍ   أَطَاعَهُ ٱلْعَرْشُ وَٱلثَّرَاءُ
لَيْسَ ٱنْتِصَارٌ بِكُمْ وَلَكِنْ   أَتَاحَهُ ٱلْحُكْمُ وَٱلْقَضَاءُ
لَوْ حَدَّثَ ٱلْأَشْعَرِيُّ عَمَّنْ   لَهُ إِلَى رَأْيِهِ ٱنْتِمَاءُ
لَقَالَ أَخْبِرْهُمُ بِأَنِّي   مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

الفصل السادس والعشرون

في انكار ثمرة الكيميا واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها

إِعْلَمْ أَنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلْعَاجِزِينَ عَنْ مَعَاشِهِمْ تَحمِلُهُمُ ٱلْمَطَامِعُ عَلَى ٱنْتِحَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَيَرَوْنَ أَنَّهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ ٱلْمَعَاشِ وَوُجُوهِهِ وَأَنَّ ٱقْتِنَاءَ ٱلْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ عَلَى مُبْتَغِيهِ فَيَرْتَكِبُونَ فِيهَا مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ وَٱلْمَشَاقِّ وَمُعَانَاةِ ٱلصِّعَابِ وَعَسْفِ ٱلْحُكَّامِ وَخَسَارَةِ ٱلْأَمْوَالِ فِي ٱلنَّفَقَاتِ زِيَادَةً عَلَى ٱلنَّيْلِ مِنْ غَرَضِهِ وَٱلْعَطَبِ آخِراً إِذَا ظَهَرَ عَلَى خَيْبَةٍ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً وَإِنَّمَا أَطْمَعَهُمْ فِي ذَلِكَ رُؤْيَةُ أَنَّ ٱلْمَعَادِنَ تَسْتَحِيلُ وَيَنْقَلِبُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ لِلْمَادَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ فَيُحَاوِلُونَ بِٱلْعِلَاجِ صَيْرُورَةَ ٱلْفِضَّةِ ذَهَباً وَٱلنُّحَاسِ وَٱلْقَصْدِيرِ فِضَّةً وَيَحْسَبُونَ أَنَّهَا مِنْ مُمْكِنَاتِ عَالَمِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَهُمْ فِي عِلَاجِ ذَلِكَ طُرُقٌ مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ فِي ٱلتَّدْبِيرِ وَصُورَتِهِ

وَفِي ٱلمَادَّةِ ٱلمَوْضُوعَةِ عِندَهُمْ لِلعِلاجِ ٱلمُسَمَّاةِ عِندَهُمْ بِٱلحَجَرِ ٱلمُكَرَّمِ هَلْ هِيَ ٱلعُذْرَةُ أَوِ ٱلدَّمُ أَوِ ٱلشَّعرُ أَوِ ٱلبَيْضُ أَوْ كَذا أَوْ كَذا مِمَّا سِوَى ذٰلِكَ وَجُمْلَةُ ٱلتَّدبِيرِ عِندَهُمْ بَعدَ تَعَيُّنِ ٱلمَادَّةِ أَنْ تُمْهَى بِٱلفِهْرِ عَلى حَجَرٍ صَلدٍ أَملَسَ وَتُسقَى أَثناءَ إِمهَائِهَا بِالمَاءِ وَبَعدَ أَنْ يُضَافَ إِلَيهَا مِنَ ٱلعَقَاقِيرِ وَٱلأَدوِيَةِ مَا يُنَاسِبُ ٱلقَصْدَ مِنهَا وَيُؤَثِّرُ فِي ٱنتِقالِهَا إِلى ٱلمَعْدِنِ ٱلمَطْلُوبِ ثُمَّ تُجَفَّفُ بِٱلشَّمسِ مِنْ بَعدِ ٱلسَّقْيِ أَوْ تُطبَخُ بِٱلنَّارِ أَو تُصَعَّدُ أَوْ تُكَلَّسُ لِٱستِخرَاجِ مَائِهَا أَوْ تُرَابِهَا فَإِذا رَضِيَ بِذٰلِكَ كُلِّهِ مِنْ عِلاجِهَا وَتَمَّ تَدبِيرُهُ عَلى مَا ٱقتَضَتهُ أُصُولُ صَنعَتِهِ حَصَلَ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ تُرَابٌ أَوْ مَائِعٌ يُسَمُّونَهُ ٱلإِكسِيرَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِذَا أُلقِيَ عَلى ٱلفِضَّةِ ٱلمُحْمَاةِ بِٱلنَّارِ عَادَتْ ذَهَباً أَوِ ٱلنُّحَاسِ ٱلمُحمَى بِٱلنَّارِ عَادَ فِضَّةً عَلى مَا قُصِدَ بِهِ فِي عَمَلِهِ وَيَزْعُمُ ٱلمُحَقِّقُونَ مِنهُمْ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلإِكسِيرَ مَادَّةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلعَنَاصِرِ ٱلأَربَعَةِ حَصَلَ فِيهَا بِذٰلِكَ ٱلعِلاجُ ٱلخَاصُّ وَٱلتَّدبِيرِ مِزاجٌ ذُو قُوىً طَبِيعِيَّةٍ تَصْرِفُ مَا حَصَلَتْ فِيهِ إِلَيهَا وَتَقلِبُهُ إِلى صُورَتِهَا وَمِزاجِهَا وَتَبُثُّ فِيهِ مَا حَصَلَ فِيهَا مِنَ ٱلكَيفِيَّاتِ وَٱلقُوَى كَٱلخَمِيرَةِ لِلخُبْزِ تَقلِبُ ٱلعَجِينَ إِلى ذَاتِهَا وَتَعمَلُ فِيهِ مَا حَصَلَ لَهَا مِنَ ٱلٱنفِشَاشِ وَٱلهَشَاشَةِ لِيَحْسُنَ هَضْمُهُ فِي ٱلمَعِدَةِ وَيَستَحِيلَ سَرِيعاً إِلى ٱلغِذاءِ وَكَذَا إِكسِيرُ ٱلذَّهَبِ وَٱلفِضَّةِ فِيمَا يَحصُلُ فِيهِ مِنَ ٱلمَعَادِنِ يَصرِفُهُ إِلَيهِمَا وَيَقلِبُهُ إِلى صُورَتِهِمَا هٰذَا مُحَصَّلُ زَعمِهِم عَلى ٱلجُملَةِ فَتَجِدُهُمْ عَاكِفِينَ عَلى هٰذَا ٱلعِلاجِ يَبتَغُونَ ٱلرِّزقَ وَٱلمَعَاشَ فِيهِ وَيَتَنَاقَلُونَ أَحكَامَهُ وَقَوَاعِدَهُ مِنْ كُتُبٍ لِأَئِمَّةِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ قَبلِهِمْ يَتَدَاوَلُونَهَا بَينَهُمْ وَيَتَنَاظَرُونَ فِي فَهمِ لُغُوزِهَا وَكَشفِ أَسرَارِهَا إِذْ هِيَ فِي ٱلأَكثَرِ تُشبِهُ ٱلمُعَمَّى كَتَآلِيفِ جَابِرِ بنِ حَيَّانَ فِي رَسَائِلِهِ ٱلسَّبعِينَ وَمَسلَمَةَ ٱلمَجرِيطِي فِي كِتَابِهِ رُتبَةِ ٱلحَكِيمِ وَٱلطُّغرَائِيِّ وَٱلمُغَيْرِبِيِّ فِي قَصَائِدِهِ ٱلعَرِيقَةِ فِي إِجَادَةِ ٱلنَّظمِ وَأَمثَالِهَا وَلا يَحلُونَ مِنْ بَعدِ هٰذا كُلِّهِ بِطَائِلٍ مِنهَا . فَفَاوَضتُ يَوماً شَيخَنَا أَبَا ٱلبَرَكَاتِ ٱلتَّلفِيقِيَّ كَبِيرَ مَشيَخَةِ ٱلأَندَلُسِ فِي مِثلِ ذٰلِكَ وَوَقَفتُهُ عَلى بَعضِ ٱلتَّآلِيفِ فِيهَا فَتَصَفَّحَهُ طَوِيلاً ثُمَّ رَدَّهُ إِلَيَّ وَقَالَ لِي وَأَنَا ٱلضَّامِنُ لَهُ أَنْ لا يَعُودَ إِلى بَيتِهِ إِلَّا بِٱلخَيبَةِ ثُمَّ مِنهُم مَنْ يَقتَصِرُ فِي ذٰلِكَ عَلى ٱلدُّلسَةِ فَقَطْ إِمَّا ٱلظَّاهِرَةِ كَتَموِيهِ ٱلفِضَّةِ بِٱلذَّهَبِ أَوِ ٱلنُّحَاسِ بِٱلفِضَّةِ أَوْ خَلطِهِمَا عَلى نِسبَةِ جُزءٍ أَوْ جُزءَينِ أَوْ ثَلاثَةٍ أَوِ ٱلخَفِيَّةِ كَإِلقَاءِ ٱلشِّبهِ بَينَ ٱلمَعَادِنِ بِٱلصِّنَاعَةِ مِثلَ تَبيِيضِ ٱلنُّحَاسِ وَتَليِينِهِ بِٱلزُّوقِ ٱلمُصَعَّدِ فَيَجِيءُ جِسماً مَعدِنِيّاً

شبيهاً بالفضة ويخفى إلا على النقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه الدلس مع دلستهم هذه سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويهاً على الجمهور بالخلاص وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة بتلبسهم بسرقة أموال الناس فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق أو شر من السارق ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار يأوون إلى مساجد البادية ويموهون على الأغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون إلى موضع آخر ويستجدون حالاً أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا بأطماعهم فيما لديهم ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة ولا حاسم لعلتهم إلا اشتداد الحكام عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم لأن فيه إفساداً للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس كافة والسلطان مكلف بإصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن إفساد سكة المسلمين ونقودهم وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والقصدير إلى الفضة بذلك النحو من العلاج وبالإكسير الحاصل عنده فلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك مع أنا لا نعلم أن أحداً من أهل العالم تم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية إنما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلاية والتصعيد والتكليس واعتيام الأخطار بجمع العقاقير والبحث عنها ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم له الغرض منها أو وقف على الوصول يقنعون باستماعها والمفاوضات فيها ولا يستريبون في تصديقها شأن الكلفين المغرمين بوساوس الأخبار فيما يكلفون به فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه وقالوا إنما سمعنا ولم نر هكذا شأنهم في كل عصر وجيل واعلم أن انتحال هذه الصنعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين فلتنقل مذاهبهم في ذلك

ثُمَّ نَتْلُوهُ بِمَا يَظْهَرُ فِيهَا مِنَ ٱلتَّحْقِيقِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ فَنَقُولُ إِنَّ مَبْنَى ٱلْكَلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ عَلَى حَالِ ٱلْمَعَادِنِ ٱلسَّبْعَةِ ٱلْمُتَطَرِّقَةِ وَهِيَ ٱلذَّهَبُ وَٱلْفِضَّةُ وَٱلرَّصَاصُ وَٱلْقَصْدِيرُ وَٱلنُّحَاسُ وَٱلْحَدِيدُ وَٱلْخَارِصِينُ هَلْ هِيَ مُخْتَلِفَاتٌ بِٱلْفُصُولِ وَكُلُّهَا أَنْوَاعٌ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا أَوْ إِنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ بِخَوَاصٍّ مِنَ ٱلْكَيْفِيَّاتِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ لِنَوْعٍ وَاحِدٍ فَٱلَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو ٱلنَّصْرِ ٱلْفَارَابِيُّ وَتَابَعَهُ عَلَيْهِ حُكَمَاءُ ٱلْأَنْدَلُسِ أَنَّهَا نَوْعٌ وَاحِدٌ وَأَنَّ ٱخْتِلَافَهَا إِنَّمَا هُوَ بِٱلْكَيْفِيَّاتِ مِنَ ٱلرُّطُوبَةِ وَٱلْيُبُوسَةِ وَٱللِّينِ وَٱلصَّلَابَةِ وَٱلْأَلْوَانِ مِنَ ٱلصُّفْرَةِ وَٱلْبَيَاضِ وَٱلسَّوَادِ وَهِيَ كُلُّهَا أَصْنَافٌ لِذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ ٱلْوَاحِدِ وَٱلَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱبْنُ سِينَا وَتَابَعَهُ عَلَيْهِ حُكَمَاءُ ٱلْمَشْرِقِ أَنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ بِٱلْفُصُولِ وَأَنَّهَا أَنْوَاعٌ مُتَبَايِنَةٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ مُتَحَقِّقٌ بِحَقِيقَتِهِ لَهُ فَصْلٌ وَجِنْسٌ شَأْنَ سَائِرِ ٱلْأَنْوَاعِ وَبَنَى أَبُو نَصْرٍ ٱلْفَارَابِيُّ عَلَى مَذْهَبِهِ فِي ٱتِّفَاقِهَا بِٱلنَّوْعِ إِمْكَانَ ٱنْقِلَابِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ لِإِمْكَانِ تَبَدُّلِ ٱلْأَعْرَاضِ حِينَئِذٍ وَعِلَاجِهَا بِٱلصَّنْعَةِ فَمِنْ هٰذَا ٱلْوَجْهِ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلْكِيمِيَاءِ عِنْدَهُ مُمْكِنَةً سَهْلَةَ ٱلْمَأْخَذِ وَبَنَى أَبُو عَلِيِّ بْنُ سِينَا عَلَى مَذْهَبِهِ فِي ٱخْتِلَافِهَا بِٱلنَّوْعِ إِنْكَارَ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ وَٱسْتِحَالَةَ وُجُودِهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ ٱلْفَصْلَ لَا سَبِيلَ بِٱلصِّنَاعَةِ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يَخْلُقُهُ خَالِقُ ٱلْأَشْيَاءِ وَمُقَدِّرُهَا وَهُوَ ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلْفُصُولُ مَجْهُولَةُ ٱلْحَقَائِقِ رَأْسًا بِٱلتَّصَوُّرِ فَكَيْفَ يُحَاوِلُ ٱنْقِلَابَهَا بِٱلصَّنْعَةِ وَغَلَّطَهُ ٱلطُّغْرَائِيُّ مِنْ أَكَابِرِ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي هٰذَا ٱلْقَوْلِ وَرَدَّ عَلَيْهِ بِأَنَّ ٱلتَّدْبِيرَ وَٱلْعِلَاجَ لَيْسَ فِي تَخْلِيقِ ٱلْفَصْلِ وَإِبْدَاعِهِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي إِعْدَادِ ٱلْمَادَّةِ لِقَبُولِهِ خَاصَّةً وَٱلْفَصْلُ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ٱلْإِعْدَادِ مِنْ لَدُنْ خَالِقِهِ وَبَارِئِهِ كَمَا يُفِيضُ ٱلنُّورُ عَلَى ٱلْأَجْسَامِ بِٱلصَّقْلِ وَٱلْإِمْهَاءِ وَلَا حَاجَةَ بِنَا فِي ذٰلِكَ إِلَى تَصَوُّرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ قَالَ وَإِذَا كُنَّا قَدْ عَثَرْنَا عَلَى تَخْلِيقِ بَعْضِ ٱلْحَيَوَانَاتِ مَعَ ٱلْجَهْلِ بِفُصُولِهَا مِثْلَ ٱلْعَقْرَبِ مِنَ ٱلتُّرَابِ وَٱلنَّتْنِ وَمِثْلَ ٱلْحَيَّاتِ ٱلْمُتَكَوِّنَةِ مِنَ ٱلشَّعْرِ وَمِثْلَ مَا ذَكَرَهُ أَصْحَابُ ٱلْفِلَاحَةِ مِنْ تَكْوِينِ ٱلنَّحْلِ إِذَا فُقِدَتْ مِنْ عَجَاجِيلِ ٱلْبَقَرِ وَتَكْوِينِ ٱلْقَصَبِ مِنْ قُرُونِ ذَوَاتِ ٱلظِّلْفِ وَتَصْيِيرِهِ سُكَّرًا بِحَشْوِ ٱلْقُرُونِ بِٱلْعَسَلِ بَيْنَ يَدَيْ ذٰلِكَ ٱلْفَلْحِ لِلْقُرُونِ فَمَا ٱلْمَانِعُ إِذًا مِنَ ٱلْعُثُورِ عَلَى مِثْلِ ذٰلِكَ فِي ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ فَتَتَّخِذُ مَادَّةً تُضِيفُهَا لِلتَّدْبِيرِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا ٱسْتِعْدَادٌ أَوَّلُ لِقَبُولِ صُورَةِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ثُمَّ تُحَاوِلُهَا بِٱلْعِلَاجِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ فِيهَا ٱلِٱسْتِعْدَادُ لِقَبُولِ فَصْلِهَا ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱلطُّغْرَائِيِّ بِمَعْنَاهُ وَهُوَ

ٱلَّذِي ذَكَرَهُ فِي ٱلرَّدِّ عَلَى ٱبْنِ سِينَا صَحِيحٌ لَكِنَّ لَنَا فِي ٱلرَّدِّ عَلَى أَهْلِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مأْخذاً آخَرَ يَتَبَيَّنُ مِنْهُ ٱسْتِحَالَةُ وُجُودِهَا وَبُطْلَانُ مَزْعَمِهِمْ أَجْمَعِينَ لاَ ٱلطُّغْرَائِيُّ وَلاَ ٱبْن سِينَا وَذٰلِكَ أَنَّ حَاصِلَ عِلَاجِهِمْ أَنَّهُمْ بَعْدَ ٱلْوُقُوفِ عَلَى ٱلمَادَّةِ ٱلْمُسْتَعِدَّةِ بِٱلٱسْتِعْدَادِ ٱلْأَوَّلِ يَجْعَلُونَهَا مَوْضُوعاً وَيُحَاذُونَ فِي تَدْبِيرِهَا وَعِلَاجِهَا تَدْبِيرَ ٱلطَّبِيعَةِ فِي ٱلْجِسْمِ ٱلْمَعْدِنِي حَتَّى أَحَالَتْهُ ذَهَباً أَوْ فِضَّةً وَيُضَاعِفُونَ ٱلْقُوَى ٱلْفَاعِلَةَ وَٱلْمُنْفَعِلَةَ لِيَتِمَّ فِي زَمَانٍ أَقْصَر لأَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي مَوْضُوعِهِ أَنَّ مُضَاعَفَةَ قُوَّةِ ٱلْفَاعِلِ تَنْقُصُ مِنْ زَمَنِ فِعْلِهِ وَتُبَيِّنُ أَنَّ ٱلذَّهَب إِنَّمَا يَتِمُّ كَوْنُهُ فِي مَعْدِنِهِ بَعْدَ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ مِنَ ٱلسِّنِينَ دَوْرَةَ ٱلشَّمْسِ ٱلْكُبْرَى فَإِذَا تَضَاعَفَتِ ٱلْقُوَى وَٱلْكَيْفِيَّاتُ فِي ٱلْعِلَاجِ كَانَ زَمَنُ كَوْنِهِ أَقْصَرَ مِنْ ذٰلِكَ ضَرُورَةً عَلى مَا قُلْنَاهُ أَوْ يَتَحَرَّوْنَ بِعِلَاجِهِمْ ذٰلِكَ حُصُولَ صُورَةٍ مِزَاجِيَّةٍ لِتِلْكَ ٱلمَادَّةِ تُصَيِّرُهَا كَٱلْخَمِيرَةِ فَتَفْعَلُ فِي ٱلْجِسْمِ ٱلْمُعَالَجِ ٱلْأَفَاعِيلَ ٱلْمَطْلُوبَةَ فِي إِحَالَتِهِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلإِكْسِير عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَٱعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مُتَكَوِّنٍ مِنَ ٱلْمُوَلَّدَاتِ ٱلْعُنْصُرِيَّةِ فَلاَ بُدَّ فِيهِ مِنَ ٱجْتِمَاعِ ٱلْعَنَاصِرِ ٱلْأَرْبَعَةِ عَلَى نِسْبَةٍ مُتَفَاوِتَةٍ إِذْ لَوْ كَانَتْ مُتَكَافِئَةً فِي ٱلنِّسْبَةِ لَمَا تَمَّ ٱمْتِزَاجُهَا فَلاَ بُدَّ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْغَالِبِ عَلَى ٱلْكُلِّ وَلاَ بُدَّ فِي كُلِّ مُمْتَزِجٍ مِنَ ٱلْمُوَلَّدَاتِ مِن حَرَارَةٍ غَرِيزِيَّةٍ هِيَ ٱلْفَاعِلَةُ لِكَوْنِهِ ٱلْحَافِظَةُ لِصُورَتِهِ ثُمَّ كُلُّ مُتَكَوِّنٍ فِي زَمَانٍ فَلاَ بُد مِن ٱخْتِلَافِ أَطْوَارِهِ وَٱنْتِقَالِهِ فِي زَمَنِ ٱلتَّكْوِينِ مِنْ طَوْرٍ إِلَى طَوْرٍ حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى غَايَتِهِ وَٱنْظُرْ شَأْنَ ٱلإِنْسَانِ فِي طَوْرِ ٱلنُّطْفَةِ ثُمَّ ٱلْعَلَقَةِ ثُمَّ ٱلْمُضْغَةِ ثُمَّ ٱلتَّصْوِيرِ ثُمَّ ٱلْجَنِين ثُمَّ ٱلْمَوْلُودِ ثُمَّ ٱلرَّضِيعِ ثُمَّ إِلَى نِهَايَتِهِ وَنِسَبُ ٱلْأَجْزَاءِ فِي كُلِّ طَوْرٍ تَخْتَلِفُ فِي مَقَادِيرِهَا وَكَيْفِيَّاتِهَا وَإِلَّا لَكَانَ ٱلطَّوْرُ ٱلْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ هُوَ ٱلآخِرُ وَكَذَا ٱلْحَرَارَةُ ٱلْغَرِيزِيَّةُ فِي كُل طَوْرٍ مُخَالِفَةٌ لَهَا فِي ٱلطَّوْرِ ٱلآخِرِ فَٱنْظُرْ إِلَى ٱلذَّهَبِ مَا يَكُونُ لَهُ فِي مَعْدِنِهِ مِن ٱلْأَطْوَارِ مُنْذُ أَلْفِ سَنَةٍ وَثَمَانِينَ وَمَا يَنْتَقِلُ فِيهِ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلْكِيمِيَاءِ إِلَى أَنْ يُسَاوِقَ فِعْلَ ٱلطَّبِيعَةِ فِي ٱلْمَعْدِنِ وَيُحَاذِيَهُ بِتَدْبِيرِهِ وَعِلَاجِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ وَمِن شَرْطِ ٱلصِّنَاعَةِ أَبَداً تَصَوُّرُ مَا يُقْصَدُ إِلَيْهِ بِٱلصَّنْعَةِ فَمِنَ ٱلْأَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ لِلْحُكَمَاءِ أَوَّلُ ٱلْعَمَلِ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْفِكْرَةِ أَوَّلُ ٱلْعَمَلِ فَلاَ بُدَّ مِنْ تَصَوُّرِ هٰذِهِ ٱلْحَالَاتِ لِلذَّهَب فِي أَحْوَالِهِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَنِسَبِهَا ٱلْمُتَفَاوِتَةِ فِي كُلِّ طَوْرٍ وَٱخْتِلَافِ ٱلْحَارِّ ٱلْغَرِيزِيِّ عِند ٱخْتِلَافِهَا وَمِقْدَارِ ٱلزَّمَانِ فِي كُلِّ طَوْرٍ وَمَا يَنُوبُ عَنْهُ مِنْ مِقْدَارِ ٱلْقُوَى ٱلْمُضَاعَفَةِ وَيَقُوم

مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعد لبعض المواد صورة مزاجية كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وإنما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعي بالصنعة تخليق إنسان من المني ونحن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علماً محصلاً بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الإنسان وأنى له ذلك ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول. حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به إلى أن يتم كون الجسم المعدني أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلاً طبيعياً فتصيره وتقلبه إلى صورتها والفعل الصناعي مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها أو فعل المادة ذات القوى فيها تصوراً مفصلاً واحدة بعد أخرى وتلك الأحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عن الإحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة إنما هو من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وذلك أن حكمة الله في الحجرين وندورهما أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء وله وجه آخر من الاستحالة أيضاً وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها أو أقل زماناً لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخلقهما وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فأمر صحيح في هذه أدى إليه العثور كما زعم وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العالم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون

فيها عشواء إلى هلم جرّاً ولا يظفرون إلّا بالحكايات الكاذبة ولو صحّ ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه وتنوقل في الأصدقاء وضمن تصديقه صحّة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا وإلى غيرنا. وأمّا قولهم إنّ الإكسير بمثابة الخميرة وإنّه مركّب يحيل ما يحصل فيه ويقلبه إلى ذلك فاعلم أنّ الخميرة إنّما تقلب العجين وتعدّه للهضم وهو فساد والفساد في الموادّ سهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطّبائع والمطلوب بالإكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه وأعلى فهو تكوين وصلاح والتّكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الإكسير بالخميرة وتحقيق الأمر في ذلك أنّ الكيمياء إن صحّ وجودها كما تزعم الحكماء المتكلّمون فيها مثل جابر بن حيّان ومسلمة بن أحمد المجريطيّ وأمثالهم فليست من باب الصّنائع الطّبيعيّة ولا تتمّ بأمر صناعيّ وليس كلامهم فيها من منحى الطّبيعيّات إنّما هو من منحى كلامهم في الأمور السّحريّة وسائر الخوارق وما كان من ذلك للحلّاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى وهذا كلام جابر في رسائله ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه وبالجملة فأمرها عندهم من كلّيّات الموادّ الخارجة عن حكم الصّنائع فكما لا يتدبّر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشباً أو حيواناً فيما عدا مجرى تخليقه كذلك لا يتدبّر ذهب من مادّة الذّهب في يوم ولا شهر ولا يتغيّر طريق عادته إلّا بإرفاد ما وراء عالم الطّبائع وعمل الصّنائع فكذلك من طلب الكيمياء طلباً صناعيّاً ضيّع ماله وعمله ويقال لهذا التّدبير الصّناعيّ التّدبير العقيم لأنّ نيله إن كان صحيحاً فهو واقع ممّا وراء الطّبائع والصّنائع كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنّفوذ في كثائف الأجساد ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة أو مثل تخليق الطّير ونحوها من معجزات الأنبياء قال تعالى وإذ تخلق من الطّين كهيئة الطّير بإذني فتنفخ فيه فتكون طيراً بإذني وعلى ذلك فسبيل تيسيرها مختلف بحسب حال من يؤتاها فربّما أوتيها الصّالح ويؤتيها غيره فتكون عنده معارة وربّما أوتيها الصّالح ولا يملك إيتاها فلا تتمّ في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها سحريّاً فقد تبيّن أنّها إنّما تقع بتأثيرات النّفوس وخوارق العادة إمّا معجزة أو

سحراً ولهذا كانَ كلامُ الحُكَمَاء كُلِّهِم فِيهَا إلغازاً لا يَظْفَرُ بحقيقَتِهِ إلّا مَنْ خَاضَ لُجَّة مِنْ عِلمِ ٱلسِّحْرِ وَٱطَّلَعَ عَلَى تَصرُّفَاتِ ٱلنَّفْسِ فِي عَالَمِ ٱلطَّبِيعَةِ وَأُمورُ خَرقِ ٱلعَادَةِ غَيرِ مُنْحَصِرَةٍ وَلاَ يَقْصِدُ أَحَدٌ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَٱللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَأَكْثَرُ مَا يَحْمِلُ عَلَى ٱلتِمَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱنْتِحَالِهَا هُوَ كَمَا قُلْنَاهُ ٱلعَجْزُ عَنِ ٱلطُّرُقِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْمَعَاشِ وَٱبْتِغَاؤُهُ مِنْ غَيرِ وُجُوهِهِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ كَٱلفِلَاحَةِ وَٱلتِّجَارَةِ وَٱلصِّنَاعَةِ فَيَسْتَصْعِبُ ٱلعَاجِزُ ٱبْتِغَاءَهُ مِنْ هٰذِهِ وَيَرُومُ ٱلحُصُولَ عَلَى ٱلكَثِيرِ مِنَ ٱلمَالِ دَفْعَةً بِوُجُوهٍ غَيرِ طَبِيعِيَّةٍ مِنَ ٱلكِيمِيَاءِ وَغَيرِهَا وَأَكْثَرُ مَنْ يُعْنَى بِذٰلِكَ ٱلفُقَرَاءُ مِنْ أَهْلِ ٱلعُمْرَانِ حَتَّى فِي ٱلحُكَمَاءِ ٱلمُتَكَلِّمِينَ فِي إِنْكَارِهَا وَٱسْتِحَالَتِهَا فَإِنَّ ٱبْنَ سِينَا ٱلقَائِلَ بِٱسْتِحَالَتِهَا كَانَ عِلْيَةَ ٱلوُزَرَاءِ فَكَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلغِنَى وَٱلثَّرْوَةِ وَٱلفَارَابِيَّ ٱلقَائِلَ بِإِمْكَانِهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلفَقْرِ ٱلَّذِينَ يُعوِزُهُم ادْنَى بُلْغَةٍ مِنَ ٱلمَعَاشِ وَأَسْبَابِهِ وَهٰذِهِ تُهْمَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي أَنْظَارِ ٱلنُّفُوسِ ٱلمُولَعَةِ بِطُرُقِهَا وَٱنْتِحَالِهَا وَٱللهُ ٱلرَّازِقُ ذُو ٱلقُوَّةِ ٱلمَتِينُ لاَ رَبَّ سِوَاهُ

الفصل السابع والعشرون

في ان كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل

إِعلَمْ أَنَّهُ مِمَّا أَضَرَّ بِٱلنَّاسِ فِي تَحْصِيلِ ٱلعِلْمِ وَٱلوُقُوفِ عَلَى غَايَاتِهِ كَثْرَةُ ٱلتَّآلِيفِ وَٱخْتِلَافُ ٱلإِصْطِلَاحَاتِ فِي ٱلتَّعَالِيمِ وَتَعَدُّدُ طُرُقِهَا ثُمَّ مُطَالَبَةُ ٱلمُتَعَلِّمِ وَٱلتِّلْمِيذِ بِٱسْتِحْضَارِ ذٰلِكَ وَحِينَئِذٍ يُسَلَّمُ لَهُ مَنْصِبُ ٱلتَّحْصِيلِ فَيَحْتَاجُ ٱلمُتَعَلِّمُ إِلَى حِفْظِهَا كُلِّهَا أَوْ أَكْثَرِهَا وَمُرَاعَاةِ طُرُقِهَا وَلا يَفِي عُمْرُهُ بِمَا كُتِبَ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذَا تَجَرَّدَ لَهَا فَيَقَعُ ٱلقُصُورُ وَلا بدَّ دُونَ رُتْبَةِ ٱلتَّحْصِيلِ وَيُمَثَّلُ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ ٱلفِقْهِ فِي ٱلمَذْهَبِ ٱلمَالِكِيِّ بِٱلكُتُبِ ٱلمُدَوَّنَةِ مَثَلًا وَمَا كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشُّرُوحَاتِ ٱلفِقْهِيَّةِ مِثْلِ كِتَابِ ٱبْنِ يُونِسَ وَٱللَّخْمِي وَٱبْنِ بَشِيرٍ وَٱلتَّنْبِيهَاتِ وَٱلمُقَدِّمَاتِ وَٱلبَيَانِ وَٱلتَّحْصِيلِ عَلَى ٱلعُتْبِيَّةِ وَكَذٰلِكَ كِتَابُ ٱبْنِ ٱلحَاجِبِ وَمَا كُتِبَ عَلَيْهِ ثُمَّ إِنَّهُ يُحْتَاجُ إِلَى تَمْيِيزِ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلقَيْرَوَانِيَّةِ مِنَ ٱلقُرْطُبِيَّةِ وَٱلبَغْدَادِيَّةِ وَٱلمِصْرِيَّةِ وَطُرُقِ ٱلمُتَأَخِّرِينَ عَنْهُمْ وَٱلإِحَاطَةِ بِذٰلِكَ كُلِّهِ وَحِينَئِذٍ يُسَلَّمُ لَهُ مَنْصِبُ ٱلفُتْيَا وَهِيَ كُلُّهَا مُتَكَرِّرَةٌ وَٱلمَعْنَى وَاحِدٌ وَٱلمُتَعَلِّمُ مُطَالَبٌ بِٱسْتِحْضَارِ جَمِيعِهَا وَتَمْيِيزِ مَا بَيْنَهَا وَٱلعُمْرُ يَنقَضِي فِي وَاحِدٍ مِنْهَا وَلَوِ ٱقْتَصَرَ ٱلمُعَلِّمُونَ بِٱلمُتَعَلِّمِينَ عَلَى ٱلمَسَائِلِ ٱلمَذْهَبِيَّةِ فَقَطْ لَكَانَ ٱلأَمْرُ دُونَ ذٰلِكَ بِكَثِيرٍ وَكَانَ ٱلتَّعْلِيمُ سَهْلًا وَمَأْخَذُه

قريباً وَلَكِنَّهُ دَاءٌ لا يَرْتَفِعُ لِاسْتِقْرَارِ الْعَوَائِدِ عَلَيْهِ فَصَارَتْ كَالطَّبِيعَةِ الَّتِي لا يُمْكِن نَقْلُهَا وَلاَ تَحْوِيلُهَا وَيُمَثَّلُ أيضاً عِلْمُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ عَلَيْهِ وَطُرُقِ الْبَصْرِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ وَالْبَغْدَادِيِّينَ وَالأَنْدَلُسِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَطُرُقِ الْمُتَقَدِّمِين وَالْمُتَأَخِّرِينَ مِثْلِ ابْنِ الْحَاجِبِ وَابْنِ مَالِكٍ وَجَمِيعِ مَا كُتِبَ فِي ذَلِكَ كَيْفَ يُطَالَب بِهِ الْمُتَعَلِّمُ وَيَنْقَضِي عُمْرُهُ دُونَهُ وَلا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي الْغَايَةِ مِنْهُ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ مِثْل مَا وَصَلَ إِلَيْنَا بِالْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ تَآلِيفِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهْل مِصْرَ يُعْرَفُ بِابْنِ هَاشِمٍ ظَهَرَ مِنْ كَلامِهِ فِيهَا أَنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى غَايَةٍ مِنْ مَلَكَةِ تِلْكَ الصِّنَاعَةِ لَمْ تَحْصُلْ إِلَّا لِسِيبَوَيْهِ وَابْنِ جِنِّي وَأَهْلِ طَبَقَتِهِمَا لِعِظَمِ مَلَكَتِهِ وَمَا أَحَاط بِهِ مِنْ أُصُولِ ذَلِكَ الْفَنِّ وَتَفَارِيعِهِ وَحُسْنِ تَصَرُّفِهِ فِيهِ وَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْفَضْلَ لَيْسَ مُنْحَصِراً فِي الْمُتَقَدِّمِينَ سِيَّمَا مَعَ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الشَّوَاغِبِ بِتَعَدُّدِ الْمَذَاهِبِ وَالطُّرُق وَالتَّآلِيفِ وَلَكِنَّ فَضْلَ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَهَذَا نَادِرٌ مِنْ نَوَادِرِ الْوُجُودِ وَإِلَّا فَالظَّاهِر أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ وَلَوْ قَطَعَ عُمْرَهُ فِي هَذَا كُلِّهِ فَلاَ يَفِي لَهُ بِتَحْصِيلِ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ مَثَلاً الَّذِي هوَ آلَةٌ مِنَ الآلاَتِ وَوَسِيلَةٌ فَكَيْفَ يَكُونُ فِي الْمَقْصُودِ الَّذِي هُوَ الثَّمَرَةُ وَلَكِن اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

الفصل الثامن والعشرون

في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ إِلَى اخْتِصَارِ الطُّرُقِ وَالأَنْحَاءِ فِي الْعُلُومِ يُولَعُونَ بِهَا وَيُدَوِّنُونَ مِنْهَا بِرْنَامِجاً مُخْتَصَراً فِي كُلِّ عِلْمٍ يَشْتَمِلُ عَلَى حَصْرِ مَسَائِلِهِ وَأَدِلَّتِهَا بِاخْتِصَار فِي الأَلْفَاظِ وَحَشْوِ الْقَلِيلِ مِنْهَا بِالْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ مِنْ ذَلِكَ الْفَنِّ وَصَارَ ذَلِكَ مُخِلًّا بِالْبَلاَغَةِ وَعَسِراً عَلَى الْفَهْمِ وَرُبَّمَا عَمَدُوا إِلى الْكُتُبِ الأُمَّهَاتِ الْمُطَوَّلَةِ فِي الْفُنُون لِلتَّفْسِيرِ وَالْبَيَانِ فَاخْتَصَرُوهَا تَقْرِيباً لِلْحِفْظِ كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْفِقْهِ وَابْنُ مَالِك فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالْخُونَجِيُّ فِي الْمَنْطِقِ وَأَمْثَالِهِمْ وَهُوَ فَسَادٌ فِي التَّعْلِيمِ وَفِيهِ إِخْلاَلٌ بِالتَّحْصِيل وَذَلِكَ لأَنَّ فِيهِ تَخْلِيطاً عَلَى الْمُبْتَدِيءِ بِإِلْقَاءِ الْغَايَاتِ مِنَ الْعِلْمِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَمْ يَسْتَعِد لِقَبُولِهَا بَعْدُ وَهُوَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ كَمَا سَيَأْتِي ثُمَّ فِيهِ مَعَ ذَلِكَ شُغْلٌ كَبِيرٌ عَلَى الْمُتَعَلِّم بِتَتَبُّعِ أَلْفَاظِ الاخْتِصَارِ الْعَوِيصَةِ لِلْفَهْمِ بِتَزَاحُمِ الْمَعَانِي عَلَيْهَا وَصُعُوبَةِ اسْتِخْرَاجِ الْمَسَائِل

من بَيْنِهَا لِأَنَّ أَلفَاظَ ٱلْمُخْتَصَرَاتِ تَجِدُهَا لِأَجْلِ ذٰلِكَ صَعْبَةً عَوِيصَةً فَيَنْقَطِعُ فِي فَهْمِهَا حَظٌّ صَالِحٌ عَنِ ٱلْوَقْتِ ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ فَٱلْمَلَكَةُ ٱلْحَاصِلَةُ مِنَ ٱلتَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ ٱلْمُخْتَصَرَاتِ إِذَا تَمَّ عَلَى سَدَادِهِ وَلَمْ تَعْقُبْهُ آفَةٌ فَهِيَ مَلَكَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلَّتِي تَحْصُلُ مِنَ ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْبَسِيطَةِ ٱلْمُطَوَّلَةِ بِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِي تِلْكَ مِنَ ٱلتَّكْرَارِ وَٱلْإِحَالَةِ ٱلْمُفِيدَيْنِ لِحُصُولِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلتَّامَّةِ وَإِذَا ٱقْتُصِرَ عَلَى ٱلتَّكْرَارِ قَصُرَتِ ٱلْمَلَكَةُ لِقِلَّتِهِ كَشَأْنِ هٰذِهِ ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْمُخْتَصَرَةِ فَقَصَدُوا إِلَى تَسْهِيلِ ٱلْحِفْظِ عَلَى ٱلْمُتَعَلِّمِينَ فَأَرْكَبُوهُمْ صَعْباً يَقْطَعُهُمْ عَنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَلَكَاتِ ٱلنَّافِعَةِ وَتَمَكُّنِهَا وَمَنْ يَهْدِ ٱللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ

الفصل التاسع والعشرون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته

إِعْلَمْ أَنَّ تَلْقِينَ ٱلْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيداً إِذَا كَانَ عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ شَيْئاً فَشَيْئاً وَقَلِيلاً قَلِيلاً يُلْقَى عَلَيْهِ أَوَّلاً مَسَائِلُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنَ ٱلْفَنِّ هِيَ أُصُولُ ذٰلِكَ ٱلْبَابِ وَيُقَرَّبُ لَهُ فِي شَرْحِهَا عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِجْمَالِ وَيُرَاعَى فِي ذٰلِكَ قُوَّةُ عَقْلِهِ وَٱسْتِعْدَادُهُ لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ ٱلْفَنِّ وَعِنْدَ ذٰلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلَكَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ وَغَايَتُهَا أَنَّهَا هَيَّأَتْهَا لِفَهْمِ ٱلْفَنِّ وَتَحْصِيلِ مَسَائِلِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى ٱلْفَنِّ ثَانِيَةً فَيَرْفَعُهُ فِي ٱلتَّلْقِينِ عَنْ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَيَسْتَوْفِي ٱلشَّرْحَ وَٱلْبَيَانَ وَيَخْرُجُ عَنِ ٱلْإِجْمَالِ وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَالِكَ مِنَ ٱلْخِلَافِ وَوَجْهِهِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ ٱلْفَنِّ فَتَجُودُ مَلَكَتُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَدَّ فَلَا يَتْرُكُ عَوِيصاً وَلَا مُهِمّاً وَلَا مُغْلَقاً إِلَّا وَضَّحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مُقْفَلَهُ فَيَخْلُصُ مِنَ ٱلْفَنِّ وَقَدِ ٱسْتَوْلَى عَلَى مَلَكَتِهِ هٰذَا وَجْهُ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْمُفِيدِ وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكْرَارَاتٍ وَقَدْ يَحْصُلُ لِلْبَعْضِ فِي أَقَلَّ مِنْ ذٰلِكَ بِحَسَبِ مَا يُخْلَقُ لَهُ وَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِ وَقَدْ شَاهَدْنَا كَثِيراً مِنَ ٱلْمُعَلِّمِينَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱلَّذِي أَدْرَكْنَا يَجْهَلُونَ طُرُقَ ٱلتَّعْلِيمِ وَإِفَادَاتِهِ وَيُحْضِرُونَ لِلْمُتَعَلِّمِ فِي أَوَّلِ تَعْلِيمِهِ ٱلْمَسَائِلَ ٱلْمُقْفَلَةَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَيُطَالِبُونَهُ بِإِحْضَارِ ذِهْنِهِ فِي حَلِّهَا وَيَحْسَبُونَ ذٰلِكَ مِرَاناً عَلَى ٱلتَّعْلِيمِ وَصَوَاباً فِيهِ وَيُكَلِّفُونَهُ رَعْيَ ذٰلِكَ وَتَحْصِيلَهُ وَيَخْلِطُونَ عَلَيْهِ بِمَا يُلْقُونَ لَهُ مِنْ غَايَاتِ ٱلْفُنُونِ فِي مَبَادِئِهَا وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِفَهْمِهَا فَإِنَّ قَبُولَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْاسْتِعْدَادَاتِ

لفهمه تنشأ تدريجاً ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن وإذا ألقيت عليه الغايات في البداءات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كلّ ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وإنما أتى ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستغلقان معاً ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة وإذا تفرغ الفكر لتعلم ما هو بسبيله مقتصراً عليه فربما كان ذلك أجدر لتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب. واعلم أيها المتعلم أني أتحفك بفائدة في تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها وذلك أن الفكر

الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته وهو وجدان حركة للنفس
في البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب
وتارة يكون مبدأ لعلم ما لم يكن حاصلا بأن يتوجه إلى المطلوب وقد يصور طرفيه
ويروم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما أسرع من لمح البصر إن
كان واحداً أو ينتقل إلى تحصيل آخر إن كان متعدداً ويصير إلى الظفر بمطلوبه
هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة
المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية نصفه لتعلم سداده من خطأه
وأنها وإن كان الصواب لها ذاتياً إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور
الطرفين على غير صورتهما من اشتباه الهيئات في نظم القضايا وترتيبها للنتاج فتعين
المنطق للتخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض فالمنطق إذاً أمر صناعي مساوق
للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها ولكونه أمراً صناعياً استغني عنه في الأكثر
ولذلك تجد كثيراً من فحول النظار في الخليقة يحصلون على المطالب في العلوم دون
صناعة المنطق ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله فإن ذلك أعظم معنى
ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها فيفضي بالطبع إلى حصول الوسط والعلم
بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق
مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودلالتها على المعاني الذهنية تردها من
مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك
هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك فأولاً دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ
المقولة وهي أخفها ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ثم القوانين في ترتيب
المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق ثم تلك المعاني مجردة في
الفكر اشتراطاً يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه
وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب في التعليم بسهولة
بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات أو عثر في اشتراك الأدلة بشغب
الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكد يتخلص من تلك الغمرة إلا
قليل ممن هداه الله فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو

تشغيبٌ بالشُبهاتِ في ذِهنِكَ فاطرحْ ذلكَ وانتبذْ حُجُبَ الألفاظِ وعوائقَ الشُبهاتِ وَاتْرُكِ الأَمرَ الصِناعِيَّ جملةً وَاخلُصْ إلى فضاءِ الفكرِ الطَّبيعيِّ الَّذي فُطِرتَ عليهِ وَسرِّحْ نَظَرَكَ فيهِ وَفرِّغْ ذِهنَكَ فيهِ للغوصِ على مَرامِكَ منهِ واضعاً لها حيثُ وضعها أكابرُ النُّظارِ قبلكَ مُستعرِضاً للفتحِ مِنَ اللهِ كما فتحَ عليهِم مِنْ ذِهنِهِم مِنْ رحمتِهِ وَعلَّمَهُمْ ما لَمْ يكونوا يعلمُونَ فإذا فعلتَ ذلكَ أشرقتْ عليكَ أنوارُ الفتحِ مِنَ اللهِ بالظَّفرِ بمطلوبِكَ وَحصلَ الإمامُ الوسطُ الَّذي جعلَهُ اللهُ مِنْ مُقتضياتِ هذا الفكرِ وَفَطرهِ عليهِ كما قُلناهُ وَحينئذٍ فارجعْ بهِ إلى قوالبِ الأدلَّةِ وصُورِها فأفرغْهُ فيها وَوَفِّهِ حقَّهُ مِنَ القانونِ الصِناعيِّ ثُمَّ اكسُهُ صُورَ الألفاظِ وأبرزْهُ إلى عالَمِ الخِطابِ وَالمُشافهةِ وثيقَ العُرى صحيحَ البُنيانِ . وأمَّا إنْ وقفتَ عندَ المُناقشةِ وَالشُّبهةِ في الأدلَّةِ الصِناعيَّةِ وتمحيصِ صوابِها مِنْ خطإِها وهذهِ أُمورٌ صِناعيَّةٌ وضعيَّةٌ تستوي جِهاتُها المُتعدِّدةُ وتتشابهُ لأجلِ الوضعِ والاصطلاحِ فلا تتميَّزُ جهةُ الحقِّ منها إذ جهةُ الحقِّ إنَّما تستبينُ إذا كانتْ بالطَّبعِ فيستمرُّ ما حصلَ مِنَ الشَّكِّ وَالارتيابِ وتُسدلُ الحُجُبُ على المطلوبِ وَتقعُدُ بالنَّاظرِ عنْ تحصيلِهِ وهذا شأنُ الأكثرينَ مِنَ النُّظارِ وَالمُتأخِّرينَ سيَّما مَنْ سبقتْ لهُ عُجمةٌ في لسانِهِ فربطتْ عنْ ذهنِهِ وَمَنْ حصلَ لهُ شغبٌ بالقانونِ المنطقيِّ تعصَّبَ لهُ فاعتقدَ أنَّهُ الذَّريعةُ إلى إدراكِ الحقِّ بالطَّبعِ فيقعُ في الحيرةِ بينَ شُبَهِ الأدلَّةِ وشُكوكِها ولا يكادُ يخلُصُ منها وَالذَّريعةُ إلى إدراكِ الحقِّ بالطَّبعِ إنَّما هوَ الفكرُ الطَّبيعيُّ كما قُلناهُ إذا جُرِّدَ عنْ جميعِ الأوهامِ وتعرَّضَ النَّاظرُ فيهِ إلى رحمةِ اللهِ تعالى وأمَّا المنطقُ فإنَّما هوَ واصفٌ لفعلِ هذا الفكرِ فيساوقُهُ في الأكثرِ فاعتبرْ ذلكَ واستمطرْ رحمةَ اللهِ تعالى متى أعوزكَ فهمُ المسائلِ تشرقْ عليكَ أنوارُهُ بالإلهامِ إلى الصَّوابِ واللهُ الهادي إلى رحمتِهِ وما العلمُ إلَّا مِنْ عندِ اللهِ

الفصل الثلاثون

في ان العلوم الالهية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل

إعلَمْ أنَّ العُلومَ المُتعارفةَ بينَ أهلِ العُمرانِ على صنفينِ عُلومٍ مقصودةٍ بالذَّاتِ كالشَّرعيَّاتِ مِنَ التَّفسيرِ وَالحديثِ وَالفقهِ وَعلمِ الكلامِ وَكالطَّبيعيَّاتِ وَالإلهيَّاتِ

مِنَ ٱلفَلسَفَةِ وَعُلُومٍ هِيَ وَسِيلَةٌ آلِيَّةٌ لِهٰذِهِ ٱلعُلُومِ كَالعَرَبِيَّةِ وَٱلحِسَابِ وَغَيرِهِمَا لِلشَّرْعِيَّاتِ كَٱلمَنطِقِ لِلفَلسَفَةِ وَرُبَّمَا كَانَ آلَةً لِعِلمِ ٱلكَلَامِ وَلِأُصُولِ ٱلفِقهِ عَلَى طَرِيقَةِ ٱلمُتَأَخِّرِينَ فَأَمَّا ٱلعُلُومُ ٱلَّتِي هِيَ مَقَاصِدُ فَلَا حَرَجَ فِي تَوسِعَةِ ٱلكَلَامِ فِيهَا وَتَفرِيعِ ٱلمَسَائِلِ وَٱستِكشَافِ ٱلأَدِلَّةِ وَٱلأَنظَارِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَزِيدُ طَالِبَهَا تَمَكُّناً فِي مَلَكَتِهِ وَإِيضَاحاً لِمَعَانِيهَا ٱلمَقصُودَةِ وَأَمَّا ٱلعُلُومُ ٱلَّتِي هِيَ آلَةٌ لِغَيرِهَا مِثلَ ٱلعَرَبِيَّةِ وَٱلمَنطِقِ وَأَمثَالِهَا فَلَا يَنبَغِي أَنْ يُنظَرَ فِيهَا إِلَّا مِن حَيثُ هِيَ آلَةٌ لِذٰلِكَ ٱلغَيرِ فَقَطْ وَلَا يُوَسَّعُ فِيهَا ٱلكَلَامُ وَلَا تُفَرَّعُ ٱلمَسَائِلُ لِأَنَّ ذٰلِكَ مُخرِجٌ لَهَا عَنِ ٱلمَقصُودِ إِذِ ٱلمَقصُودُ مِنهَا مَا هِيَ آلَةٌ لَهُ لَا غَيرِ فَكُلَّمَا خَرَجَتْ عَن ذٰلِكَ خَرَجَتْ عَنِ ٱلمَقصُودِ وَصَارَ ٱلِاشتِغَالُ بِهَا لَغواً مَعَ مَا فِيهِ مِن صُعُوبَةِ ٱلحُصُولِ عَلَى مَلَكَتِهَا بِطُولِهَا وَكَثرَةِ فُرُوعِهَا وَرُبَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ عَائِقاً عَن تَحصِيلِ ٱلعُلُومِ ٱلمَقصُودَةِ بِٱلذَّاتِ لِطُولِ وَسَائِلِهَا مَعَ أَنَّ شَأنَهَا أَهَمُّ وَٱلعُمرُ يَقصُرُ عَن تَحصِيلِ ٱلجَمِيعِ عَلَى هٰذِهِ ٱلصُّورَةِ فَيَكُونُ ٱلِاشتِغَالُ بِهٰذِهِ ٱلعُلُومِ ٱلآلِيَّةِ تَضيِيعاً لِلعُمرِ وَشُغلًا بِمَا لَا يَعنِي وَهٰذَا كَمَا فَعَلَ ٱلمُتَأَخِّرُونَ فِي صِنَاعَةِ ٱلنَّحوِ وَصِنَاعَةِ ٱلمَنطِقِ وَأُصُولِ ٱلفِقهِ لِأَنَّهُم أَوسَعُوا دَائِرَةَ ٱلكَلَامِ فِيهَا وَأَكثَرُوا مِنَ ٱلتَّفَارِيعِ وَٱلِاستِدلَالَاتِ بِمَا أَخرَجَهَا عَن كَونِهَا آلَةً وَصَيَّرَهَا مِنَ ٱلمَقَاصِدِ وَرُبَّمَا يَقَعُ فِيهَا أَنظَارٌ لَا حَاجَةَ بِهَا فِي ٱلعُلُومِ ٱلمَقصُودَةِ فَهِيَ مِن نَوعِ ٱللَّغوِ وَهِيَ أَيضاً مُضِرَّةٌ بِٱلمُتَعَلِّمِينَ عَلَى ٱلإِطلَاقِ لِأَنَّ ٱلمُتَعَلِّمِينَ ٱهتِمَامُهُم بِٱلعُلُومِ ٱلمَقصُودَةِ أَكثَرُ مِنَ ٱهتِمَامِهِم بِوَسَائِلِهَا فَإِذَا قَطَعُوا ٱلعُمرَ فِي تَحصِيلِ ٱلوَسَائِلِ فَمَتَى يَظفَرُونَ بِٱلمَقَاصِدِ فَلِهٰذَا يَجِبُ عَلَى ٱلمُعَلِّمِينَ لِهٰذِهِ ٱلعُلُومِ ٱلآلِيَّةِ أَن لَا يَستَبحِرُوا فِي شَأنِهَا وَيُنَبِّهُوا ٱلمُتَعَلِّمَ عَلَى ٱلغَرَضِ مِنهَا وَيَقِفُوا بِهِ عِندَهُ فَمَن نَزَعَتْ بِهِ هِمَّتُهُ بَعدَ ذٰلِكَ إِلَى شَيءٍ مِنَ ٱلتَّوَغُّلِ فَليَرقَ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ ٱلمَرَاقِي صَعباً أَو سَهلًا وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ .

الفصل الواحد والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه

إِعلَمْ أَنَّ تَعلِيمَ ٱلوِلدَانِ لِلقُرآنِ شِعَارُ ٱلدِّينِ أَخَذَ بِهِ أَهلُ ٱلمِلَّةِ وَدَرَجُوا عَلَيهِ فِي جَمِيعِ أَمصَارِهِم لِمَا يَسبِقُ فِيهِ إِلَى ٱلقُلُوبِ مِن رُسُوخِ ٱلإِيمَانِ وَعَقَائِدِهِ مِن آيَاتِ ٱلقُرآنِ وَبَعضِ مُتُونِ ٱلأَحَادِيثِ وَصَارَ ٱلقُرآنُ أَصلَ ٱلتَّعلِيمِ ٱلَّذِي يَنبَنِي عَلَيهِ

ما يَحْصُلُ بَعْدُ مِنَ ٱلْمَلَكَاتِ وَسَبَبُ ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ فِي ٱلصِّغَرِ أَشَدُّ رُسُوخاً وَهُوَ أَصْلٌ لِمَا بَعْدَهُ لِأَنَّ ٱلسَّابِقَ ٱلْأَوَّلَ لِلْقُلُوبِ كَالْأَسَاسِ لِلْمَلَكَاتِ وَعَلَى حَسَبِ ٱلْأَسَاسِ وَأَسَالِيبِهِ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَنْبَنِي عَلَيْهِ وَٱخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ ٱلْقُرْآنِ لِلْوِلْدَانِ بِٱخْتِلَافِهِمْ بِٱعْتِبَارِ مَا يَنْشَأُ عَنْ ذَٰلِكَ ٱلتَّعْلِيمِ مِنَ ٱلْمَلَكَاتِ فَأَمَّا أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ فَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلْوِلْدَانِ ٱلِاقْتِصَارُ عَلَى تَعْلِيمِ ٱلْقُرْآنِ فَقَطْ وَأَخْذُهُمْ أَثْنَاءَ ٱلْمُدَارَسَةِ بِٱلرَّسْمِ وَمَسَائِلِهِ وَٱخْتِلَافِ حَمَلَةِ ٱلْقُرْآنِ فِيهِ لَا يَخْلِطُونَ ذَٰلِكَ بِسِوَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ لَا مِنْ حَدِيثٍ وَلَا مِنْ فِقْهٍ وَلَا مِنْ شِعْرٍ وَلَا مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ إِلَى أَنْ يَحْذِقَ فِيهِ أَوْ يَنْقَطِعَ دُونَهُ فَيَكُونُ ٱنْقِطَاعُهُ فِي ٱلْغَالِبِ ٱنْقِطَاعاً عَنِ ٱلْعِلْمِ بِٱلْجُمْلَةِ وَهَٰذَا مَذْهَبُ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ بِٱلْمَغْرِبِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ قُرَى ٱلْبَرْبَرِ أُمَمِ ٱلْمَغْرِبِ فِي وِلْدَانِهِمْ إِلَى أَنْ يُجَاوِزُوا حَدَّ ٱلْبُلُوغِ إِلَى ٱلشَّبِيبَةِ وَكَذَا فِي ٱلْكَبِيرِ إِذَا رَجَعَ مُدَارَسَةَ ٱلْقُرْآنِ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنْ عُمُرِهِ فَهُمْ لِذَٰلِكَ أَقْوَمُ عَلَى رَسْمِ ٱلْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ مِنْ سِوَاهُمْ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ فَمَذْهَبُهُمْ تَعْلِيمُ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَهَٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُرَاعُونَهُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ ٱلْقُرْآنُ أَصْلَ ذَٰلِكَ وَأُسَّهُ وَمَنْبَعَ ٱلدِّينِ وَٱلْعُلُومِ جَعَلُوهُ أَصْلاً فِي ٱلتَّعْلِيمِ فَلَا يَقْتَصِرُونَ لِذَٰلِكَ عَلَيْهِ فَقَطْ بَلْ يَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوِلْدَانِ رِوَايَةَ ٱلشِّعْرِ فِي ٱلْغَالِبِ وَٱلتَّرَسُّلَ وَأَخْذَهُمْ بِقَوَانِينِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَحِفْظَهَا وَتَجْوِيدَ ٱلْخَطِّ وَٱلْكِتَابِ وَلَا تَخْتَصُّ عِنَايَتُهُمْ فِيهِ بِٱلْخَطِّ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِهَا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ ٱلْوَلَدُ مِنْ عُمُرِ ٱلْبُلُوغِ إِلَى ٱلشَّبِيبَةِ وَقَدْ شَدَا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلشِّعْرِ وَٱلْبَصَرِ بِهِمَا وَبَرَزَ فِي ٱلْخَطِّ وَٱلْكِتَابِ وَتَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ ٱلْعِلْمِ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ لَوْ كَانَ فِيهَا سَنَدٌ لِتَعْلِيمِ ٱلْعُلُومِ لَكِنَّهُمْ يَنْقَطِعُونَ عَنْ ذَٰلِكَ لِٱنْقِطَاعِ سَنَدِ ٱلتَّعْلِيمِ فِي آفَاقِهِمْ وَلَا يَحْصُلُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَّا مَا حَصَلَ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَفِيهِ كِفَايَةٌ لِمَنْ أَرْشَدَهُ ٱللهُ تَعَالَى وَٱسْتِعْدَادٌ إِذَا وُجِدَ ٱلْمُعَلِّمُ وَأَمَّا أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ فَيَخْلِطُونَ فِي تَعْلِيمِهِمْ لِلْوِلْدَانِ ٱلْقُرْآنَ بِٱلْحَدِيثِ فِي ٱلْغَالِبِ وَمُدَارَسَةِ قَوَانِينِ ٱلْعُلُومِ وَتَلْقِينِ بَعْضِ مَسَائِلِهَا إِلَّا أَنَّ عِنَايَتَهُمْ بِٱلْقُرْآنِ وَٱسْتِظْهَارَ ٱلْوِلْدَانِ إِيَّاهُ وَوُقُوفَهُمْ عَلَى ٱخْتِلَافِ رِوَايَاتِهِ وَقِرَاءَاتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا سِوَاهُ وَعِنَايَتَهُمْ بِٱلْخَطِّ تَبَعٌ لِذَٰلِكَ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَطَرِيقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ ٱلْقُرْآنِ أَقْرَبُ إِلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱسْتَقَرُّوا بِتُونِسَ وَعَنْهُمْ أَخَذَ وِلْدَانُهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ فَيَخْلِطُونَ فِي ٱلتَّعْلِيمِ كَذَٰلِكَ عَلَى مَا يَبْلُغُنَا

وَلا أدري بِمَ عِنَايَتُهُمْ مِنهَا وَٱلَّذِي يُنقَلُ لَنَا أَنَّ عِنَايَتَهُمْ بِدِرَاسَةِ ٱلقُرْآنِ وَصُحُفِ ٱلعِلْمِ وَقَوَانِينِهِ فِي زَمَنِ ٱلشَّبِيبَةِ وَلاَ يَخْلِطُونَ بِتَعْلِيمِ ٱلْخَطِّ بَلْ لِتَعْلِيمِ ٱلْخَطِّ عِنْدَهُمْ قَانُون وَمُعَلِّمُونَ لَهُ عَلَى ٱنفِرَادِهِ كَمَا تُتَعَلَّمُ سَائِرُ ٱلصَّنَائِعِ وَلا يَتَدَاوَلُونَهَا فِي مَكَاتِبِ ٱلصِّبْيَانِ وَإِذَا كَتَبُوا لَهُمُ ٱلأَلْوَاحَ فَبِخَطٍّ قَاصِرٍ عَنِ ٱلإِجَادَةِ وَمَنْ أَرَادَ تَعَلُّمَ ٱلْخَطِّ فَعَلَى قَدَرِ مَا يَسْنَح لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ ٱلْهِمَّةِ فِي طَلَبِهِ وَيَبْتَغِيهِ مِنْ أَهْلِ صَنْعَتِهِ فَأَمَّا أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِب فَأَفَادَهُمُ ٱلاِقْتِصَارُ عَلَى ٱلقُرْآنِ ٱلقُصُورَ عَنْ مَلَكَةِ ٱللِّسَانِ جُمْلَةً وَذَلِكَ أَنَّ ٱلقُرْآنَ لا يَنْشَأُ عَنْهُ فِي ٱلغَالِبِ مَلَكَةٌ لِمَا أَنَّ ٱلبَشَرَ مَصْرُوفُونَ عَنِ ٱلإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ فَهُمْ مَصْرُوفُون لِذَلِكَ عَنِ ٱلاِسْتِعْمَالِ عَلَى أَسَالِيبِهِ وَٱلاِحْتِذَاءِ بِهَا وَلَيْسَ لَهُمْ مَلَكَةٌ فِي غَيْرِ أَسَالِيبِهِ فَلاَ يَحْصُلُ لِصَاحِبِهِ مَلَكَةٌ فِي ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ وَحَظُّهُ ٱلْجُمُودُ فِي ٱلعِبَارَاتِ وَقِلَّةُ ٱلتَّصَرُّف فِي ٱلكَلامِ وَرُبَّمَا كَانَ أَهْلُ أَفْرِيقِيَّةَ فِي ذَلِكَ أَخَفَّ مِنْ أَهلِ ٱلمَغْرِبِ لِمَا يَخْلِطُون فِي تَعْلِيمِهِمُ ٱلقُرْآنَ بِعِبَارَاتِ ٱلعُلُومِ فِي قَوَانِينِهَا كَمَا قُلْنَاهُ فَيَقْتَدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن ٱلتَّصَرُّفِ وَمُحَاذَاةِ ٱلمِثْلِ بِٱلمِثْلِ إِلَّا أَنَّ مَلَكَتَهُمْ فِي ذَلِكَ قَاصِرَةٌ عَنِ ٱلبَلاغَةِ كَمَا سَيَأْتِي فِي فَصْلِهِ وَأَمَّا أَهلُ ٱلأَنْدَلُسِ فَأَفَادَهُمُ ٱلتَّفَنُّنُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ وَكَثْرَةُ رِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَٱلتَّرَسُّلُ وَمُدَارَسَةُ ٱلعَرَبِيَّةِ مِنْ أَوَّلِ ٱلعُمُرِ حُصُولَ مَلَكَةٍ صَارُوا بِهَا أَعْرَفَ فِي ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ وَقَصَّرُوا فِي سَائِرِ ٱلعُلُومِ لِبُعْدِهِمْ عَنْ مُدَارَسَةِ ٱلقُرْآنِ وَٱلْحَدِيثِ ٱلَّذِي هُو أَصْلُ ٱلعُلُومِ وَأَسَاسُهَا فَكَانُوا لِذَلِكَ أَهلَ خَطٍّ وَأَدَبٍ بَارِعٍ أَوْ مُقَصِّرٍ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ ٱلتَّعْلِيمُ ٱلثَّانِي مِنْ بَعْدِ تَعْلِيمِ ٱلصَّبِيِّ وَلَقَدْ ذَهَبَ ٱلقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ ٱلعَرَبِيِّ فِي كِتَابِ رِحْلَتِهِ إِلَى طَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ فِي وَجْهِ ٱلتَّعْلِيمِ وَأَعَادَ فِي ذَلِكَ وَأَبْدَأَ وَقَدَّمَ تَعْلِيم ٱلعَرَبِيَّةِ وَٱلشِّعْرِ عَلَى سَائِرِ ٱلعُلُومِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهلِ ٱلأَنْدَلُسِ قَالَ لِأَنَّ ٱلشِّعْرَ دِيوان ٱلعَرَبِ وَيَدْعُو عَلَى تَقْدِيمِهِ وَتَعْلِيمِ ٱلعَرَبِيَّةِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ضَرُورَةُ فَسَادِ ٱللُّغَةِ ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى ٱلْحِسَابِ فَيَتَمَرَّنُ فِيهِ حَتَّى يَرَى ٱلقَوَانِينَ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى دَرْسِ ٱلقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَتَيَسَّر عَلَيْكَ بِهَذِهِ ٱلمُقَدِّمَةِ ثُمَّ قَالَ وَيَا غَفْلَةَ أَهلِ بِلادِنَا فِي أَنْ يُؤْخَذَ ٱلصَّبِيُّ بِكِتَابِ ٱللهِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ يَقْرَأُ مَا لا يَفْهَمُ وَيَنْصَبُ فِي أَمْرٍ غَيْرِهِ أَهَمَّ مَا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ يَنْظُرُ فِي أُصُول ٱلدِّينِ ثُمَّ أُصُولِ ٱلفِقْهِ ثُمَّ ٱلْجَدَلِ ثُمَّ ٱلْحَدِيثِ وَعُلُومِهِ وَنَهَى مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُخْلَطَ فِي ٱلتَّعْلِيم عِلْمَانِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ٱلمُتَعَلِّمُ قَابِلًا لِذَلِكَ بِجُودَةِ ٱلفَهْمِ وَٱلنَّشَاطِ هَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ ٱلقَاضِي

أبو بكر رحمه الله وهو لعمري مذهب حسن إلّا أنّ العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالأحوال ووجه ما اختصّت به العوائد من تقدّم دراسة القرآن إيثاراً للتبرّك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبى من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن لأنّه ما دام في الحجر منقاد للحكم فإذا تجاوز البلوغ وانحلّ من ربقة القهر فربّما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلّا يذهب خلواً منه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق ولكنّ الله يحكم ما يشاء لا معقّب لحكمه

الفصل الثاني والثلاثون

في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وذلك أنّ إرهاف الحدّ بالتعليم مضرّ بالمتعلّم سيّما في أصاغر الولد لأنّه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلّمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيّق عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلّمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقاً وفسدت معاني الإنسانيّة التي له من حيث الاجتماع والتمرّن وهي الحميّة والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالاً على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيّتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين وهكذا وقع لكلّ أمّة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كلّ من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به وتجد ذلك فيهم استقراء وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتّى إنّهم يوصفون في كلّ أفق وعصر بالحرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد وسببه ما قلناه فينبغي للمعلّم في متعلّمه والوالد في ولده أن لا يستبدّا عليهما في التأديب وقد قال محمّد بن أبي زيد في كتابه الذي ألّفه في حكم المعلّمين والمتعلّمين لا ينبغي لمؤدّب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً ومن

كلامِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ ٱلشَّرْعُ لا أَدَّبَهُ ٱللهُ حِرصاً عَلى صَونِ ٱلنُّفُوسِ عنْ مَذَلَّةِ ٱلتَّأْديبِ وَعِلماً بِأَنَّ ٱلمِقْدارَ ٱلَّذي عَيَّنَهُ ٱلشَّرْعُ لِذٰلِكَ أَملَكُ لَهُ فَإِنَّهُ أَعلَم بِمَصْلَحَتِهِ وَمِنْ أَحسَنِ مَذاهِبِ ٱلتَّعليمِ مَا تَقَدَّمَ بِهِ ٱلرَّشيدُ لِمُعَلِّمِ وَلَدِهِ مُحَمَّدٍ ٱلأَمِينِ فقَالَ يا أَحمَرُ إِنَّ أَميرَ ٱلمُؤمِنينَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مُهجَةَ نَفْسِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَصيِّرْ يَدَكَ عَلَيْهِ مبْسُوطَةً وَطَاعَتَهُ لَكَ وَاجِبَةً وَكُنْ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَميرُ ٱلمُؤمِنينَ أَقرِئْهُ ٱلقُرْآنَ وَعرِّفْهُ ٱلأَخبَارَ وَرَوِّهِ ٱلأَشْعَارَ وَعَلِّمْهُ ٱلسُّنَنَ وَبَصِّرْهُ بِمَواقِعِ ٱلكَلامِ وَبدْئِهِ وَٱمنَعْهُ منَ ٱلضَّحِكِ إِلَّا في أَوقاتِهِ وَخُذْهُ بِتَعْظِيمِ مَشايِخِ بَني هَاشِمٍ إِذا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَرَفْعِ مجالِسِ ٱلقُوَّادِ إِذا حَضَرُوا مَجلِسَهُ ولا تَمُرَّنَّ بِكَ سَاعَةٌ إِلَّا وَأَنتَ مُغْتَنِمٌ فَائِدَةً تُفِيدُهُ إِيَّاها مِنْ غَيْرِ أَنْ تُحزِنَهُ فَتُميتَ ذِهْنَهُ وَلا تُمعِنْ في مُسامَحَتِهِ فَيَستَحْلِيَ ٱلفَرَاغَ وَيَأْلَفَهُ وَقَوِّمْهُ مَا ٱستَطَعْتَ بِٱلقُرْبِ وَٱلمُلايَنَةِ فَإِنْ أَبَاهُمَا فَعَلَيْكَ بِٱلشِّدَّةِ وَٱلغِلْظَةِ . انتهى .

الفصل الثالث والثلاثون

في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم

وَٱلسَّبَبُ في ذٰلِكَ أَنَّ ٱلبَشَرَ يَأْخُذُونَ مَعارِفَهُمْ وَأَخلاقَهُمْ وَمَا يَنْتَحِلُونَ بِهِ مِنَ ٱلمَذاهِبِ وَٱلفَضَائِلِ تارَةً عِلماً وَتَعليماً وَإِلقَاءً وَتارَةً مُحاكاةً وَتَلقِيناً بِٱلمُبَاشَرَةِ إِلَّا أَنَّ حصُولَ ٱلمَلَكَاتِ عَنِ ٱلمُبَاشَرَةِ وَٱلتَّلقِينِ أَشَدُّ ٱستِحكاماً وَأَقوى رُسُوخاً فَعَلى قَدَرِ كَثْرَةِ ٱلشُّيُوخِ يَكُونُ حُصُولُ ٱلمَلَكَاتِ وَرُسُوخُهَا وَٱلِاصطِلاحَاتُ أَيضاً في تَعلِيمِ ٱلعُلُومِ مُخَلِّطَةٌ عَلى ٱلمُتَعَلِّمِ حَتَّى لَقَدْ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنهُمْ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ ٱلعِلمِ وَلا يَدْفَعُ عَنهُ ذٰلِكَ إِلَّا مُبَاشَرَتُهُ لِٱختِلافِ ٱلطُّرُقِ فِيهَا مِنَ ٱلمُعَلِّمِينَ فَلِقَاءُ أَهلِ ٱلعُلُومِ وَتَعَدُّدُ ٱلمَشَايِخِ يفِيدُهُ تَمْيِيزَ ٱلِاصطِلاحَاتِ بِمَا يَرَاهُ مِنِ ٱختِلافِ طُرُقِهِمْ فيهَا فَيُجَرِّدُ ٱلعِلْمَ عَنهَا وَيَعلَم أَنَّهَا أَنحَاءُ تَعليمٍ وَطُرُقُ تُوصِلُ وَتَنهَضُ قُواهُ إِلى ٱلرُّسُوخِ وَٱلِاستِحكَامِ في ٱلمَلَكَاتِ وَتُصَحِّحُ مَعارِفَهُ وَتُمَيِّزُهَا عَنْ سِواهَا مَعَ تَقوِيَةِ مَلَكَتِهِ بِٱلمُبَاشَرَةِ وَٱلتَّلقِينِ وَكَثرَتِهِمَا مِنَ ٱلمَشْيَخَةِ عِنْدَ تَعَدُّدِهِمْ وَتَنَوُّعِهِمْ وَهٰذَا لِمَنْ يَسَّرَ ٱللهُ عَلَيْهِ طُرُقَ ٱلعِلْمِ وَٱلهِدَايَةِ فَٱلرِّحلَةُ لا بُدَّ مِنهَا في طَلَبِ ٱلعِلْمِ لِٱكتِسَابِ ٱلفَوائِدِ وَٱلكَمَالِ بِلِقَاءِ ٱلمَشَايِخِ وَمُبَاشَرَةِ ٱلرِّجالِ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ .

الفصل الرابع والثلاثون

في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها

وَٱلسَّبَبُ في ذٰلِكَ أَنَّهمْ مُعْتَادُونَ ٱلنَّظَرَ ٱلفِكْرِيَّ وَٱلغَوْصَ على ٱلمَعَاني وَٱنْتِزَاعَها مِنَ ٱلمَحْسُوسَاتِ وَتَجْرِيدَهَا في ٱلذِّهْنِ أُموراً كُلِّيَّةً عَامَّةً لِيُحْكَمَ عَلَيْهَا بِأَمْرِ ٱلعُمُوم لا بِخُصُوصِ مَادَّةٍ وَلا شَخْصٍ وَلا جِيلٍ وَلا أُمَّةٍ وَلا صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُطَبِّقُونَ مِنْ بَعْد ذٰلِكَ ٱلكُلِّيَّ عَلى ٱلخَارِجِيَّاتِ وَأَيْضاً يَقِيسُونَ ٱلأُمُورَ عَلى أَشْبَاهِهَا وَأَمْثَالِهَا بِمَا ٱعْتَادُوه مِنَ ٱلقِيَاسِ ٱلفِقْهِيِّ فَلا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ وَأَنْظَارُهُمْ كُلُّهَا في ٱلذِّهْنِ وَلا تَصِيرُ إِلى ٱلمُطَابَقَةِ إِلَّا بَعْدَ ٱلفَرَاغِ مِنَ ٱلبَحْثِ وَٱلنَّظَرِ وَلا تَصِيرُ بِٱلجُمْلَةِ إِلى ٱلمُطَابَقَةِ وَإِنَّمَا يَتَفَرَّع ما في ٱلخَارِجِ عَمَّا في ٱلذِّهْنِ مِنْ ذٰلِكَ كَٱلأَحكَامِ ٱلشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّهَا فُرُوعٌ عَمَّا في ٱلمَحْفُوظ مِنْ أَدِلَّةِ ٱلكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ فَتَطْلُبُ مُطَابَقَةَ مَا في ٱلخَارِجِ لَهَا عَكْسَ ٱلأَنْظَارِ في ٱلعُلُومِ ٱلعَقْلِيَّة ٱلَّتي تَطْلُبُ في صِحَّتِهَا مُطَابَقَتَهَا لِمَا في ٱلخَارِجِ فَهُمْ مُتَعَوِّدُونَ في سَائِرِ أَنْظَارِهِمِ ٱلأُمُورَ ٱلذِّهْنِيَّة وَٱلأَنْظَارَ ٱلفِكْرِيَّةَ لا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا وَٱلسِّيَاسَةُ يَحْتَاجُ صَاحِبُهَا إِلى مُرَاعَاةِ مَا في ٱلخَارِجِ وَما يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلأَحوالِ وَيَتْبَعُهَا فَإِنَّهَا خَفِيَّةٌ وَلَعَلَّ أَنْ يَكُونَ فيهَا مَا يَمْنَعُ مِنْ إِلْحَاقِهَا بِشِبْهٍ أَو مِثَالٍ وَيُنَافي ٱلكُلِّيَّ ٱلَّذي يُحَاوِلُ تَطْبِيقَهُ عَلَيْهَا وَلا يُقَاسُ شَيْءٌ مِنْ أَحوالِ ٱلعُمْرَانِ عَلى ٱلآخَرِ كَمَا ٱشْتَبَهَا في أَمْرٍ واحِدٍ فَلَعَلَّهُمَا ٱخْتَلَفَا في أُمُورٍ فَتَكُونُ ٱلعُلَمَاءُ لِأَجْلِ مَا تَعَوَّدُوهُ مِنْ تَعْمِيمِ ٱلأَحْكَامِ وَقِيَاسِ ٱلأُمُورِ بَعْضِهَا عَلى بَعْضٍ إِذا نَظَرُوا في ٱلسِّيَاسَة أَفْرَغُوا ذٰلِكَ في قَالَبِ أَنْظَارِهِمْ وَنَوْعِ ٱسْتِدْلالاتِهِمْ فَيَقَعُونَ في ٱلغَلَطِ كَثِيراً وَلا يؤْمَنُ عَلَيْهِمْ وَيَلْحَقُ بِهِمْ أَهْلُ ٱلذَّكَاءِ وَٱلكَيْسِ مِنْ أَهْلِ ٱلعُمْرَانِ لِأَنَّهُمْ يَنْزِعُون بِثُقُوبِ أَذْهَانِهِمْ إِلى مِثْلِ شَأْنِ ٱلفُقَهَاءِ مِنَ ٱلغَوْصِ عَلى ٱلمَعَاني وَٱلقِيَاسِ وَٱلمُحَاكَاة فَيَقَعُونَ في ٱلغَلَطِ وَٱلعَامِّيُّ ٱلسَّلِيمُ ٱلطَّبْعِ ٱلمُتَوَسِّطُ ٱلكَيْسِ لِقُصُورِ فِكْرِهِ عَنْ ذٰلِكَ وَعَدَمِ ٱعْتِيَادِهِ إِيَّاهُ يَقْتَصِرُ لِكُلِّ مَادَّةٍ عَلى حُكْمِهَا وَفي كُلِّ صِنْفٍ مِنَ ٱلأَحوال وَٱلأَشْخَاصِ عَلى مَا ٱخْتُصَّ بِهِ وَلا يُعَدِّي ٱلحُكْمَ بِقِيَاسٍ وَلا تَعْمِيمٍ وَلا يُفَارِقُ في أَكْثَر نَظَرِهِ ٱلمَوَادَّ ٱلمَحْسُوسَةَ وَلا يُجَاوِزُهَا في ذِهْنِهِ كَٱلسَّابِحِ لا يُفَارِقُ ٱلبَرَّ عِنْدَ ٱلمَوْج قَالَ ٱلشَّاعِرُ

فَلا تُوغِلَنَّ إِذا مَا سَبَحْتَ م فَإِنَّ ٱلسَّلامَةَ في ٱلسَّاحِلِ

فيكونُ مَأْمونًا مِنَ ٱلنَّظَرِ فِي سِيَاسَتِهِ مُسْتَقِيمَ ٱلنَّظَرِ فِي مُعَامَلَةِ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ فَيَحْسُن مَعَاشُهُ وَتَنْدَفِعُ آفَاتُهُ وَمَضَارُّهُ بِٱسْتِقَامَةِ نَظَرِهِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَنْطِقِ غَيْرُ مَأْمُونَةِ ٱلْغَلَطِ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلِٱنْتِزَاعِ وَبُعْدِهَا عَنِ ٱلْمَحْسُوسِ فَإِنَّهَا تَنْظُرُ فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلثَّوَانِي وَلَعَلَّ ٱلْمَوَادَّ فِيهَا مَا يُمَانِعُ تِلْكَ ٱلْأَحْكَامَ وَيُنَافِيهَا عِنْدَ مُرَاعَاةِ ٱلتَّطْبِيقِ ٱلْيَقِينِيِّ وَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلْأُوَلِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَجْرِيدُهَا قَرِيبٌ فَلَيْسَ كَذَٰلِكَ لِأَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ وَصُوَرُ ٱلْمَحْسُوسَاتِ حَافِظَةٌ مُؤْذِنَةٌ بِتَصْدِيقِ ٱنْطِبَاقِهِ وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ

الفصل الخامس والثلاثون

في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

مِنَ ٱلْغَرِيبِ ٱلْوَاقِعِ أَنَّ حَمَلَةَ ٱلْعِلْمِ فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ أَكْثَرُهُمُ ٱلْعَجَمُ لَا مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَلَا مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ إِلَّا فِي ٱلْقَلِيلِ ٱلنَّادِرِ وَإِنْ كَانَ مِنْهُمُ ٱلْعَرَبِيُّ فِي نِسْبَتِهِ فَهُوَ عَجَمِيٌّ فِي لُغَتِهِ وَمَرْبَاهُ وَمَشْيَخَتِهِ مَعَ أَنَّ ٱلْمِلَّةَ عَرَبِيَّةٌ وَصَاحِبُ شَرِيعَتِهَا عَرَبِيٌّ وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْمِلَّةَ فِي أَوَّلِهَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا عِلْمٌ وَلَا صِنَاعَةٌ لِمُقْتَضَى أَحْوَالِ ٱلسَّذَاجَةِ وَٱلْبَدَاوَةِ وَإِنَّمَا أَحْكَامُ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلَّتِي هِيَ أَوَامِرُ ٱللَّهِ وَنَوَاهِيهِ كَانَ ٱلرِّجَالُ يَنْقُلُونَهَا فِي صُدُورِهِمْ وَقَدْ عَرَفُوا مَأْخَذَهَا مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ بِمَا تَلَقَّوْهُ مِنْ صَاحِبِ ٱلشَّرْعِ وَأَصْحَابِهِ وَٱلْقَوْمُ يَوْمَئِذٍ عَرَبٌ لَمْ يَعْرِفُوا أَمْرَ ٱلتَّعْلِيمِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلتَّدْوِينِ وَلَا دُفِعُوا إِلَيْهِ وَلَا دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ وَجَرَى ٱلْأَمْرُ عَلَى ذَٰلِكَ زَمَنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلتَّابِعِينَ وَكَانُوا يُسَمُّونَ ٱلْمُخْتَصِّينَ بِحَمْلِ ذَٰلِكَ وَنَقْلِهِ إِلَى ٱلْقُرَّاءِ أَيِ ٱلَّذِينَ يَقْرَأُونَ ٱلْكِتَابَ وَلَيْسُوا أُمِّيِّينَ لِأَنَّ ٱلْأُمِّيَّةَ يَوْمَئِذٍ صِفَةٌ عَامَّةٌ فِي ٱلصَّحَابَةِ بِمَا كَانُوا عَرَبًا فَقِيلَ لِحَمَلَةِ ٱلْقُرْآنِ يَوْمَئِذٍ قُرَّاءٌ إِشَارَةٌ إِلَى هٰذَا فَهُمْ قُرَّاءٌ لِكِتَابِ ٱللَّهِ وَٱلسُّنَّةِ ٱلْمَأْثُورَةِ عَنِ ٱللَّهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا ٱلْأَحْكَامَ ٱلشَّرْعِيَّةَ إِلَّا مِنْهُ وَمِنَ ٱلْحَدِيثِ ٱلَّذِي هُوَ فِي غَالِبِ مَوَارِدِهِ تَفْسِيرٌ لَهُ وَشَرْحٌ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ ٱللَّهِ وَسُنَّتِي فَلَمَّا بَعُدَ ٱلنَّقْلُ مِنْ لَدُنْ دَوْلَةِ ٱلرَّشِيدِ فِيمَا بَعْدُ ٱحْتِيجَ إِلَى وَضْعِ ٱلتَّفَاسِيرِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ وَتَقْيِيدِ ٱلْحَدِيثِ مَخَافَةَ ضَيَاعِهِ ثُمَّ ٱحْتِيجَ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْأَسَانِيدِ وَتَعْدِيلِ ٱلنَّاقِلِينَ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ ٱلصَّحِيحِ مِنَ ٱلْأَسَانِيدِ وَمَا دُونَهُ ثُمَّ كَثُرَ ٱسْتِخْرَاجُ أَحْكَامِ ٱلْوَاقِعَاتِ مِنَ

الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى وهي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة وحاميتها وأولي سياستها مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين وما زالوا يرون لهم حق القيام به فإنه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبتها وامتهن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشتغلين بما لا يغني ولا يجدي عنهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في نقل المراتب الدينية فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم وأما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في الملة إلا بعد أن

تميّز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها إلا المعربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولا فلم يزل ذلك في الأمصار ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع وبقي بعض الحضارة في ما وراء النهر لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم من تآليف وصلت إلينا إلى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني وأما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاما يعول على نهايته في الإصابة فاعتبر ذلك وتأمله تر عجبا في أحوال الخليقة والله يخلق ما يشاء لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله

الفصل السادس والثلاثون

في علوم اللسان العربي

أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عليها فنا فنا والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك

ٱللُّغَةُ وَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيق

علم النحو

إِعلَمْ أَنَّ ٱللُّغة في ٱلمُتَعَارف هِيَ عِبَارَةُ ٱلمُتَكَلِّمِ عَنْ مَقْصُودِهِ وَتِلْكَ ٱلعِبَارَة فعلٌ لِسَانِيٌّ فَلا بُدَّ أَنْ تَصِيرَ مَلَكَةً مُتَقَرِّرَةً في ٱلعُضْوِ ٱلفَاعِلِ لَهَا وَهُوَ ٱللِّسَانُ وَهُوَ في كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ ٱصْطِلاحَاتِهِمْ وَكَانَتِ ٱلمَلَكَةُ ٱلحَاصِلَةُ لِلعَرَبِ مِنْ ذٰلِكَ أَحْسَن ٱلمَلَكَاتِ وَأَوْضَحَهَا إِبَانَةً عَنِ ٱلمَقَاصِدِ لِدَلالَةِ غَيْرِ ٱلكَلِمَاتِ فيهَا عَلى كَثِيرٍ من ٱلمَعَانِي مِنَ ٱلمَجْرُورِ أَعْنِي ٱلمُضَافَ وَمِثْلَ ٱلحُرُوفِ ٱلَّتِي تُفْضِي بِٱلأَفْعَالِ إِلى ٱلذَّوات مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفِ أَلفَاظٍ أُخرَى وَلَيسَ يُوجَدُ ذٰلِكَ إِلَّا في لُغَةِ ٱلعَرَبِ وَأَمَّا غَيْرُهَا مِن ٱللُّغَاتِ فَكُلُّ مَعنًى أَوْ حَالٍ لا بُدَّ لَهُ مِنْ أَلفَاظٍ تَخُصُّهُ بِٱلدَّلالَةِ وَلِذٰلِكَ نَجِدُ كَلام ٱلعَجَمِ مِنْ مُخَاطَبَاتِهِمْ أَطْوَلَ مِمَّا تُقَدِّرُهُ بِكَلامِ ٱلعَرَبِ وَهٰذا هُوَ مَعنَى قَوْلِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أُوتِيتُ جَوامِعَ ٱلكَلِمِ وَٱخْتُصِرَ لِيَ ٱلكَلامُ ٱخْتِصَاراً فَصَارَ لِلحُرُوفِ في لُغَتِهِمْ وَٱلحَرَكَاتِ وَٱلهَيئَاتِ أَيِ ٱلأَوْضَاعِ ٱعْتِبَارٌ في ٱلدَّلالَةِ عَلى ٱلمَقْصُودِ غَيْرَ مُتَكَلِّفِين فيهِ لِصِنَاعَةٍ يَسْتَفِيدُونَ ذٰلِكَ مِنْهَا إِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ في أَلسِنَتِهِمْ يَأْخُذُهَا ٱلآخِرُ عَنِ ٱلأَوَّل كَمَا تَأْخُذُ صِبيَانُنَا لِهٰذا ٱلعَهْدِ لُغَاتِنَا فَلَمَّا جَاءَ ٱلإِسلامُ وَفَارَقُوا ٱلحِجَازَ لِطَلَبِ ٱلمُلْك ٱلَّذِي كَانَ في أَيدِي ٱلأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ وَخَالَطُوا ٱلعَجَمَ تَغَيَّرَتْ تِلكَ ٱلمَلَكَةُ بِمَا أَلقَى إِلَيهَا ٱلسَّمْعُ مِنَ ٱلمُخَالَفَاتِ ٱلَّتِي لِلمُسْتَعْرِبِينَ وَٱلسَّمْعُ أَبُو ٱلمَلَكَاتِ ٱللِّسَانِيَّةِ فَفَسَدَتْ بِمَا أُلقِيَ إِلَيهَا مِمَّا يُغَايِرُهَا لِجُنُوحِهَا إِلَيهِ بِٱعْتِيَادِ ٱلسَّمْعِ وَخَشِيَ أَهلُ ٱلعُلُومِ مِنْهُمْ أَنْ تَفسُد تِلكَ ٱلمَلَكَةُ رَأْساً وَيَطُولَ ٱلعَهْدُ بِهَا فَيَنْغَلِقَ ٱلقُرْآنُ وَٱلحَدِيثُ عَلى ٱلمَفهُومِ فَٱسْتَنبَطُوا مِنْ مَجَارِي كَلامِهِمْ قَوانِينَ لِتِلكَ ٱلمَلَكَةِ مُطَّرِدَةً شِبْهَ ٱلكُلِّيَّاتِ وَٱلقَوَاعِدِ يَقِيسُون عَلَيهَا سَائِرَ أَنْوَاعِ ٱلكَلامِ وَيُلحِقُونَ ٱلأَشْبَاهَ بِٱلأَشْبَاهِ مِثْلَ أَنَّ ٱلفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَٱلمَفعُول مَنصُوبٌ وَٱلمُبْتَدَأَ مَرْفُوعٌ ثُمَّ رَأَوْا تَغَيُّرَ ٱلدَّلالَةِ بِتَغَيُّرِ حَرَكَاتِ هٰذِهِ ٱلكَلِمَاتِ فَٱصْطَلَحُوا عَلى تَسْمِيَتِهِ إِعْرَاباً وَتَسْمِيَةِ ٱلمُوجِبِ لِذٰلِكَ ٱلتَّغَيُّرِ عَامِلًا وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ وَصَارَتْ كُلُّهَا ٱصْطِلاحَاتٍ خَاصَّةً بِهِمْ فَقَيَّدُوهَا بِٱلكِتَابِ وَجَعَلُوهَا صِنَاعَةً لَهُمْ مَخْصُوصَةً وَٱصْطَلَحُوا عَلى تَسْمِيَتِهَا بِعِلْمِ ٱلنَّحْوِ وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا أَبُو ٱلأَسْوَدِ ٱلدُّؤَلِيُّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَيُقَال بِإِشَارَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ لِأَنَّهُ رَأَى تَغَيُّرَ ٱلمَلَكَةِ فَأَشَارَ عَلَيهِ بِحِفْظِهَا فَفَزِعَ إِلى

ضبطها بالقوانين الحاصرة المستقرأة ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد وكان الناس أحوج إليها لذهاب تلك الملكة من العرب فهذب الصناعة وكمل أبوابها وأخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتباً مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصرين القديمين للعرب وكثرت الأدلة والحجاج بينهم وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله أو اقتصارهم على المبادىء للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الأرجوزة الألفية وبالجملة فالتآليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين والكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت هذه الصناعة تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغني في الإعراب وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم سائرها فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه والله يزيد في الخلق ما يشاء

علم اللغة

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحداً فتكون كلها أعداداً على توالي العدد من واحد إلى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين لأن كل ثنائية يزيد عليها حرفاً فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفاً بعد الثنائية فتجمع من واحد إلى ستة وعشرين على توالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم

الشَّفَةِ وَجَعَلَ حُرُوفَ الْعِلَّةِ آخِراً وَهِيَ الْحُرُوفُ الْهَوَائِيَّةُ وَبَدَأَ مِنْ حُرُوفِ الْحَلْقِ بِالْعَيْنِ لأَنَّهُ الأَقْصَرُ مِنْهَا فَلِذَلِكَ سُمِّيَ كِتَابُهُ بِالْعَيْنِ لِأَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ كَانُوا يَذْهَبُونَ فِي تَسْمِيَةِ دَوَاوِينِهِمْ إِلَى مِثْلِ هَذَا وَهُوَ تَسْمِيَتُهُ بِأَوَّلِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْكَلِمَاتِ وَالْأَلْفَاظِ ثُمَّ بَيَّنَ الْمُهْمَلَ مِنْهَا مِنَ الْمُسْتَعْمَلِ وَكَانَ الْمُهْمَلُ فِي الرُّبَاعِيِّ وَالْخُمَاسِيِّ أَكْثَرَ لِقِلَّةِ اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ لَهُ لِثِقَلِهِ وَلَحِقَ بِهِ الثُّنَائِيُّ لِقِلَّةِ دَوَرَانِهِ وَكَانَ الِاسْتِعْمَالُ فِي الثُّلَاثِيِّ أَغْلَبَ فَكَانَتْ أَوْضَاعُهُ أَكْثَرَ لِدَوَرَانِهِ وَضَمَّنَ الْخَلِيلُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي كِتَابِ الْعَيْنِ وَاسْتَوْعَبَهُ أَحْسَنَ اسْتِيعَابٍ وَأَوْعَاهُ وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ الزُّبَيْدِيُّ وَكَتَبَ لِهِشَامٍ الْمُؤَيَّدِ بِالْأَنْدَلُسِ فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ فَاخْتَصَرَهُ مَعَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الِاسْتِيعَابِ وَحَذَفَ مِنْهُ الْمُهْمَلَ كُلَّهُ وَكَثِيراً مِنْ شَوَاهِدِ الْمُسْتَعْمَلِ وَلَخَّصَهُ لِلْحِفْظِ أَحْسَنَ تَلْخِيصٍ وَأَلَّفَ الْجَوْهَرِيُّ مِنَ الْمَشَارِقَةِ كِتَابَ الصِّحَاحِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمُتَعَارَفِ لِحُرُوفِ الْمُعْجَمِ فَجَعَلَ الْبُدَاءَةَ مِنْهَا بِالْهَمْزَةِ وَجَعَلَ التَّرْجَمَةَ بِالْحُرُوفِ عَلَى الْحَرْفِ الْأَخِيرِ مِنَ الْكَلِمَةِ لِاضْطِرَارِ النَّاسِ فِي الْأَكْثَرِ إِلَى أَوَاخِرِ الْكَلِمِ وَحَصَرَ اللُّغَةَ اقْتِدَاءً بِحَصْرِ الْخَلِيلِ ثُمَّ أَلَّفَ فِيهَا مِنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ ابْنُ سِيدَهْ مِنْ أَهْلِ دَانِيَةَ فِي دَوْلَةِ عَلِيِّ بْنِ مُجَاهِدٍ كِتَابَ الْمُحْكَمِ عَلَى ذَلِكَ الْمَنْحَى مِنَ الِاسْتِيعَابِ وَعَلَى نَحْوِ تَرْتِيبِ كِتَابِ الْعَيْنِ وَزَادَ فِيهِ التَّعَرُّضَ لِاشْتِقَاقَاتِ الْكَلِمِ وَتَصَارِيفِهَا فَجَاءَ مِنْ أَحْسَنِ الدَّوَاوِينِ وَلَخَّصَهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ صَاحِبُ الْمُسْتَنْصِرِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ بِتُونُسَ وَقَلَبَ تَرْتِيبَهُ إِلَى تَرْتِيبِ كِتَابِ الصِّحَاحِ فِي اعْتِبَارِ أَوَاخِرِ الْكَلِمِ وَبِنَاءِ التَّرَاجِمِ عَلَيْهَا فَكَانَا تَوْأَمَيْ رَحِمٍ وَسَلِيلَيْ أُبُوَّةٍ هَذِهِ أُصُولُ كُتُبِ اللُّغَةِ فِيمَا عَلِمْنَاهُ وَهُنَاكَ مُخْتَصَرَاتٌ أُخْرَى مُخْتَصَّةٌ بِصِنْفٍ مِنَ الْكَلِمِ وَمُسْتَوْعِبَةٌ لِبَعْضِ الْأَبْوَابِ أَوْ لِكُلِّهَا إِلَّا أَنَّ وَجْهَ الْحَصْرِ فِيهَا خَفِيٌّ وَوَجْهَ الْحَصْرِ فِي تِلْكَ جَلِيٌّ مِنْ قِبَلِ التَّرَاكِيبِ كَمَا رَأَيْتَ وَمِنَ الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ أَيْضاً فِي اللُّغَةِ كِتَابُ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي الْمَجَازِ بَيَّنَ فِيهِ كُلَّ مَا تَجَوَّزَتْ بِهِ الْعَرَبُ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَفِيمَا تَجَوَّزَتْ بِهِ مِنَ الْمَدْلُولَاتِ وَهُوَ كِتَابٌ شَرِيفُ الْإِفَادَةِ ثُمَّ لَمَّا كَانَتِ الْعَرَبُ تَضَعُ الشَّيْءَ عَلَى الْعُمُومِ ثُمَّ تَسْتَعْمِلُ فِي الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ أَلْفَاظاً أُخْرَى خَاصَّةً بِهَا فَرَّقَ ذَلِكَ عِنْدَنَا بَيْنَ الْوَضْعِ وَالِاسْتِعْمَالِ وَاحْتَاجَ إِلَى فِقْهٍ فِي اللُّغَةِ عَزِيزِ الْمَأْخَذِ كَمَا وُضِعَ الْأَبْيَضُ بِالْوَضْعِ الْعَامِّ لِكُلِّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ ثُمَّ اخْتُصَّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ مِنَ الْخَيْلِ بِالْأَشْهَبِ وَمِنَ الْإِنْسَانِ بِالْأَزْهَرِ وَمِنَ الْغَنَمِ بِالْأَمْلَحِ حَتَّى صَارَ اسْتِعْمَالُ

ٱلْأَبْيَضِ فِي هٰذِهِ كُلِّهَا لَحْناً وَخُرُوجاً عَن لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱخْتَصَّ بِٱلتَّأْلِيفِ فِي هٰذَا ٱلْمَنْحَى ٱلثَّعَالِبِيُّ وَأَفْرَدَهُ فِي كِتَابٍ لَهُ سَمَّاهُ فِقْهَ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مِنْ آكَدِ مَا يَأْخُذُ بِهِ ٱللُّغَوِيُّ نَفْسَهُ أَنْ يُحَرِّفَ ٱسْتِعْمَالَ ٱلْعَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِ فَلَيْسَ مَعْرِفَةُ ٱلْوَضْعِ ٱلْأَوَّلِ بِكَافٍ فِي ٱلتَّرْتِيبِ حَتَّى يَشْهَدَ لَهُ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْعَرَبِ لِذٰلِكَ وَأَكْثَرُ مَا يَحْتَاجُ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْأَدِيبُ فِي فَنَّي نَظْمِهِ وَنَثْرِهِ حَذَراً مِنْ أَنْ يَكْثُرَ لَحْنُهُ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱللُّغَوِيَّةِ فِي مُفْرَدَاتِهَا وَتَرَاكِيبِهَا وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ ٱللَّحْنِ فِي ٱلْإِعْرَابِ وَأَفْحَشُ وَكَذٰلِكَ أَلَّفَ بَعْضُ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ وَتَكَفَّلَ بِحَصْرِهَا وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ إِلَى ٱلنِّهَايَةِ فِي ذٰلِكَ فَهُوَ مُسْتَوْعِبٌ لِلْأَكْثَرِ وَأَمَّا ٱلْمُخْتَصَرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ فِي هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِٱلْمُتَدَاوَلِ مِنَ ٱللُّغَةِ ٱلْكَثِيرِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ تَسْهِيلاً لِحِفْظِهَا عَلَى ٱلطَّالِبِ فَكَثِيرَةٌ مِثْلَ ٱلْأَلْفَاظِ لِٱبْنِ ٱلسِّكِّيتِ وَٱلْفَصِيحِ لِثَعْلَبَ وَغَيْرِهِمَا وَبَعْضُهَا أَقَلُّ لُغَةً مِنْ بَعْضٍ لِٱخْتِلَافِ نَظَرِهِمْ فِي ٱلْأَهَمِّ عَلَى ٱلطَّالِبِ لِلْحِفْظِ وَٱللّٰهُ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ لَا رَبَّ سِوَاهُ

علم البيان

هٰذَا ٱلْعِلْمُ حَادِثٌ فِي ٱلْمِلَّةِ بَعْدَ عِلْمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱللُّغَةِ وَهُوَ مِنَ ٱلْعُلُومِ ٱللِّسَانِيَّةِ لِأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِٱلْأَلْفَاظِ وَمَا تُفِيدُهُ وَيُقْصَدُ بِهَا ٱلدَّلَالَةُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي يَقْصِدُ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِهَا إِفَادَةَ ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ هِيَ إِمَّا تَصَوُّرُ مُفْرَدَاتٍ تُسْنَدُ وَيُسْنَدُ إِلَيْهَا وَيُفْضِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَٱلدَّالَّةُ عَلَى هٰذِهِ هِيَ ٱلْمُفْرَدَاتُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ وَٱلْأَفْعَالِ وَٱلْحُرُوفِ وَإِمَّا تَمْيِيزُ ٱلْمُسْنَدَاتِ مِنَ ٱلْمُسْنَدِ إِلَيْهَا وَٱلْأَزْمِنَةِ وَيُدَلُّ عَلَيْهَا بِتَغَيُّرِ ٱلْحَرَكَاتِ مِنَ ٱلْإِعْرَابِ وَأَبْنِيَةِ ٱلْكَلِمَاتِ وَهٰذِهِ كُلُّهَا هِيَ صِنَاعَةُ ٱلنَّحْوِ وَيَبْقَى مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُكْتَنِفَةِ بِٱلْوَاقِعَاتِ ٱلْمُحْتَاجَةِ لِلدَّلَالَةِ أَحْوَالُ ٱلْمُتَخَاطِبِينَ أَوِ ٱلْفَاعِلِينَ وَمَا يَقْتَضِيهِ حَالُ ٱلْفِعْلِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ ٱلْإِفَادَةِ وَإِذَا حَصَلَتْ لِلْمُتَكَلِّمِ فَقَدْ بَلَغَ غَايَةَ ٱلْإِفَادَةِ فِي كَلَامِهِ وَإِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ فَإِنَّ كَلَامَهُمْ وَاسِعٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ عِنْدَهُمْ مَقَالٌ يَخْتَصُّ بِهِ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْإِبَانَةِ أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُمْ زَيْدٌ جَاءَنِي مُغَايِرٌ لِقَوْلِهِمْ جَاءَنِي زَيْدٌ مِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْمُتَقَدِّمَ مِنْهُمَا هُوَ ٱلْأَهَمُّ عِنْدَ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَمَنْ قَالَ جَاءَنِي زَيْدٌ أَفَادَ أَنَّ ٱهْتِمَامَهُ بِٱلْمَجِيءِ قَبْلَ ٱلشَّخْصِ ٱلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ وَمَنْ قَالَ زَيْدٌ جَاءَنِي أَفَادَ أَنَّ ٱهْتِمَامَهُ بِٱلشَّخْصِ

قبلَ ٱلمجيءِ ٱلمُسنَدِ وَكَذَا ٱلتَّعبِيرُ عَنْ أَجزاءِ ٱلجُملَةِ بِمَا يُناسِبُ ٱلمَقامَ مِنْ مَوصُولٍ أَو مبهَمٍ أَوْ مَعرِفَةٍ وَكَذا تَأْكِيدُ ٱلإِسْنَادِ عَلى ٱلجُملَةِ كَقَوْلِهِمْ زَيْدٌ قَائِمٌ وَإِنَّ زَيداً قائِمٌ وَإِنَّ زَيداً لَقَائِمٌ مُتَغَايِرَةٌ كُلهَا في ٱلدَّلالَةِ وَإِنِ ٱسْتَوَتْ مِنْ طَرِيقِ ٱلإِعْرَابِ فَإِن ٱلأَوَّلَ ٱلعَارِي عَنِ ٱلتَّأْكِيدِ إِنَّمَا يُفِيدُ ٱلخَالِيَ ٱلذِّهْنِ وَٱلثَّانِيَ ٱلمُؤَكَّدَ بِإِنَّ يُفِيد ٱلمُتَرَدِّدَ وَٱلثَّالِثُ يُفِيدُ ٱلمُنْكِرَ فَهِيَ مُختَلِفَةٌ وَكَذلِكَ تَقُولُ جَاءَنِي ٱلرَّجلُ ثُمَّ تَقُولُ مَكَانَهُ بِعَيْنِهِ جَاءَنِي رَجلٌ إِذا قَصَدْتَ بِذلِكَ ٱلتَّنكِيرِ تَعْظِيمَهُ وَأَنَّهُ رَجُلٌ لا يُعَادِلُهُ أَحَدٌ مِن ٱلرِّجالِ ثُمَّ ٱلجُملَةُ ٱلإِسْنَادِيَّةُ تَكُونُ خَبَرِيَّةً وَهِيَ ٱلَّتِي لَهَا خَارِجٌ تُطَابِقُهُ أَوْ لا وَإِنْشَائِيَّةً وَهِيَ ٱلَّتِي لا خَارِجَ لَهَا كَٱلطَّلَبِ وَأَنْوَاعِهِ ثُمَّ قَدْ يَتَعَيَّنُ تَرْكُ ٱلعَاطِفِ بَيْنَ ٱلجُملَتَيْنِ إِذا كانَ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ ٱلإِعرَابِ فَيُشْرِكُ بِذلِكَ مَنْزِلَةَ ٱلتَّابعِ ٱلمُفْرَدِ نَعتاً وَتَوْكِيداً وَبَدَلا بِلا عَطْفٍ أَوْ يَتَعَيَّنُ ٱلعَطْفُ إِذا لَمْ يَكُنْ لِلثَّانِيَةِ مَحَلٌّ مِنَ ٱلإِعْرَابِ ثُمَّ يَقْتَضِي ٱلمَحَل ٱلإِطْنَابَ وَٱلإِيجَازَ فَيُورَدُ ٱلكَلامُ عَلَيْهِمَا ثُمَّ قَدْ يُدَلُّ بِٱللَّفْظِ وَلا يُرَادُ مَنطُوقُهُ وَيُرَادُ لازِمُهُ إِنْ كانَ مُفرَداً كَمَا تَقُولُ زَيدٌ أَسَدٌ فَلا تُرِيدُ حَقِيقَةَ ٱلأَسَدِ ٱلمَنطُوقَة وَإِنَّمَا تُرِيدُ شَجَاعَتَهُ ٱللَّازِمَةَ وَتُسْنِدُهَا إِلى زَيْدٍ وَتُسَمِّي هذِهِ ٱسْتِعَارَةً وَقَدْ تُرِيدُ بِٱللَّفظ ٱلمُرَكَّبِ ٱلدَّلالَةَ عَلى مَلزُومِهِ كَمَا تَقُولُ زَيدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ وَتُرِيدُ مَا لَزِمَ ذلِكَ عَنْهُ مِنَ ٱلجُودِ وَقِرَى ٱلضَّيفِ لِأَنَّ كَثْرَةَ ٱلرَّمَادِ نَاشِئَةٌ عَنهُمَا فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَيْهِمَا وَهذِهِ كُلُّهَا دَلالَةٌ زَائِدَةٌ عَلى دَلالَةِ ٱلأَلفَاظِ مِنَ ٱلمُفْرَدِ وَٱلمُرَكَّبِ وَإِنَّمَا هِيَ هَيئَاتٌ وَأَحوالٌ لِلْوَاقِعَات جعِلَتْ لِلدَّلالَةِ عَلَيهَا أَحوالٌ وَهَيئَاتٌ فِي ٱلأَلفَاظِ كُلٌّ بِحَسَبِ مَا يَقتَضِيهِ مَقَامُهُ وَٱشْتَمَل هـذا ٱلعِلمُ ٱلمُسَمَّى بِٱلبَيَانِ عَلى ٱلبَحثِ عَنْ هذِهِ ٱلدَّلالَةِ ٱلَّتِي لِلهَيئَاتِ وَٱلأَحوَال وَٱلمَقَامَاتِ وَجُعِلَ عَلى ثَلاثَةِ أَصنَافٍ ٱلصِّنفُ ٱلأَوَّلُ يُبحَثُ فيهِ عَنْ هـذِهِ ٱلهَيآت وَٱلأَحوالِ ٱلَّتِي تُطَابِقُ بِٱللَّفظِ جَمِيعَ مُقتَضَيَاتِ ٱلحَالِ وَيُسَمَّى عِلمَ ٱلبَلاغَةِ وَٱلصِّنف ٱلثَّانِي يُبحَثُ فيهِ عَنِ ٱلدَّلالَةِ عَلى ٱللَّازِمِ ٱللَّفظِي وَمَلزُومِهِ وَهِيَ ٱلاسْتِعَارَةُ وَٱلكِنَايَةُ كَمَا قُلنَاهُ وَيُسَمَّى عِلمَ ٱلبَيَانِ وَأَلحَقُوا بِهِمَا صِنفاً آخَرَ وَهُوَ ٱلنَّظَرُ فِي تَزيِينِ ٱلكَلامِ وَتَحسِينِهِ بِنَوعٍ مِنَ ٱلتَّنمِيقِ إِمَّا بِسَجعٍ يَفصِلُهُ أَوْ تَجنِيسٍ يُشَابِهُ بَيْنَ أَلفَاظِهِ أَوْ تَرصِيعٍ يَقطَع أَوْ تَورِيَةٍ عَنِ ٱلمَعنَى ٱلمَقصُودِ بِإِيهَامِ مَعنًى أَخفَى مِنهُ لِٱشتِرَاكِ ٱللَّفظِ بَينَهُمَا وَأَمثَال ذلِكَ وَيُسَمَّى عِندَهُم عِلمَ ٱلبَدِيعِ وَأُطلِقَ عَلى ٱلأَصنَافِ ٱلثَّلاثَةِ عِندَ ٱلمُحدَثِينَ ٱسم

ٱلْبَيَانِ وَهُوَ ٱسْمُ ٱلصِّنْفِ ٱلثَّانِي لِأَنَّ ٱلْأَقْدَمِينَ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمُوا فِيهِ ثُمَّ تَلاحَقَتْ مَسَائِلُ ٱلْفَنِّ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى وَكَتَبَ فِيهَا جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَٱلْجَاحِظُ وَقُدَامَةُ وَأَمْثَالُهُمْ إِمْلاءَاتٍ غَيْرَ وَافِيَةٍ فِيهَا ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَسَائِلُ ٱلْفَنِّ تَكْمُلُ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى أَنْ مَحَّصَ ٱلسَّكَّاكِيُّ زُبْدَتَهُ وَهَذَّبَ مَسَائِلَهُ وَرَتَّبَ أَبْوَابَهُ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرْنَاهُ آنِفاً مِنَ ٱلتَّرْتِيبِ وَأَلَّفَ كِتَابَهُ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْمِفْتَاحِ فِي ٱلنَّحْوِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْبَيَانِ فَجَعَلَ هٰذَا ٱلْفَنَّ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ وَأَخَذَهُ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنْ كِتَابِهِ وَلَخَّصُوا مِنْهُ أُمَّهَاتٍ هِيَ ٱلْمُتَدَاوَلَةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلسَّكَّاكِي فِي كِتَابِ ٱلتِّبْيَانِ وَٱبْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ ٱلْمِصْبَاحِ وَجَلالُ ٱلدِّينِ ٱلْقَزْوِينِيُّ فِي كِتَابِ ٱلْإِيضَاحِ وَٱلتَّلْخِيصِ وَهُوَ أَصْغَرُ حَجْماً مِنَ ٱلْإِيضَاحِ وَٱلْعِنَايَةُ بِهِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ فِي ٱلشَّرْحِ وَٱلتَّعْلِيمِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَٱلْمَشَارِقَةُ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ أَقْوَمُ مِنَ ٱلْمَغَارِبَةِ وَسَبَبُهُ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَالِيٌّ فِي ٱلْعُلُومِ ٱللِّسَانِيَّةِ وَٱلصَّنَائِعُ ٱلْكَمَالِيَّةُ تُوجَدُ فِي ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْمَشْرِقُ أَوْفَرُ عُمْرَاناً مِنَ ٱلْمَغْرِبِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ أَوْ نَقُولُ لِعِنَايَةِ ٱلْعَجَمِ وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ كَتَفْسِيرِ ٱلزَّمَخْشَرِيِّ وَهُوَ كُلُّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ وَهُوَ أَصْلُهُ وَإِنَّمَا ٱخْتَصَّ بِأَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ مِنْ أَصْنَافِهِ عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ خَاصَّةً وَجَعَلُوهُ مِنْ جُمْلَةِ عُلُومِ ٱلْأَدَبِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَفَرَّعُوا لَهُ أَلْقَاباً وَعَدَّدُوا أَبْوَاباً وَنَوَّعُوا أَنْوَاعاً وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ أَحْصَوْهَا مِنْ لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْوُلُوعُ بِتَزْيِينِ ٱلْأَلْفَاظِ وَأَنَّ عِلْمَ ٱلْبَدِيعِ سَهْلُ ٱلْمَأْخَذِ وَصَعُبَتْ عَلَيْهِمْ مَآخِذُ ٱلْبَلاغَةِ وَٱلْبَيَانِ لِدِقَّةِ أَنْظَارِهِمَا وَغُمُوضِ مَعَانِيهِمَا فَتَجَافَوْا عَنْهُمَا وَمِمَّنْ أَلَّفَ فِي ٱلْبَدِيعِ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ ٱبْنُ رَشِيقٍ وَكِتَابُ ٱلْعُمْدَةِ لَهُ مَشْهُورٌ وَجَرَى كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْأَنْدَلُسِ عَلَى مَنْحَاهُ وَٱعْلَمْ أَنَّ ثَمَرَةَ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِنَّمَا هِيَ فِي فَهْمِ ٱلْإِعْجَازِ مِنَ ٱلْقُرْآنِ لِأَنَّ إِعْجَازَهُ فِي وَفَاءِ ٱلدَّلالَةِ مِنْهُ بِجَمِيعِ مُقْتَضَيَاتِ ٱلْأَحْوَالِ مَنْطُوقَةً وَمَفْهُومَةً وَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْكَلامِ مَعَ ٱلْكَمَالِ فِيمَا يُخْتَصُّ بِٱلْأَلْفَاظِ فِي ٱنْتِقَائِهَا وَجُودَةِ رَصْفِهَا وَتَرْكِيبِهَا وَهٰذَا هُوَ ٱلْإِعْجَازُ ٱلَّذِي تَقْصُرُ ٱلْأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ مِنْهُ مَنْ كَانَ لَهُ ذَوْقٌ بِمُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَحُصُولِ مَلَكَتِهِ فَيُدْرِكُ مِنْ إِعْجَازِهِ عَلَى قَدْرِ ذَوْقِهِ فَلِهٰذَا كَانَتْ مَدَارِكُ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ سَمِعُوهُ مِنْ مُبَلِّغِهِ أَعْلَى مَقَاماً فِي ذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ فُرْسَانُ ٱلْكَلامِ وَجَهَابِذَتُهُ وَٱلذَّوْقُ عِنْدَهُمْ مَوْجُودٌ بِأَوْفَرِ مَا يَكُونُ وَأَصَحِّهِ وَأَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى هٰذَا

ٱلفَنِّ ٱلمُفَسِّرُونَ وَأَكْثَرُ تَفَاسِيرِ ٱلمُتَقَدِّمِينَ غُفْلٌ عَنْهُ ظَهَرَ جَارُ ٱللهِ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ وَوَضَعَ كِتَابَهُ فِي ٱلتَّفْسِيرِ وَتَتَبَّعَ آيَ ٱلقُرْآنِ بِأَحْكَامِ هٰذَا ٱلفَنِّ بِمَا يُبْدِي ٱلبَعْضُ مِنْ إِعْجَازِهِ فَٱنْفَرَدَ بِهٰذَا ٱلفَضْلِ عَلَى جَمِيعِ ٱلتَّفَاسِيرِ لَوْلَا أَنَّهُ يُؤَيِّدُ عَقَائِدَ أَهْلِ ٱلبِدَعِ عِنْدَ ٱقْتِبَاسِهَا مِنَ ٱلقُرْآنِ بِوُجُوهِ ٱلبَلَاغَةِ وَلِأَجْلِ هٰذَا يَتَحَامَاهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ مَعَ وُفُورِ بِضَاعَتِهِ مِنَ ٱلبَلَاغَةِ فَمَنْ أَحْكَمَ عَقَائِدَ ٱلسُّنَّةِ وَشَارَكَ فِي هٰذَا ٱلفَنِّ بَعْضَ ٱلمُشَارَكَةِ حَتَّى يَقْتَدِرَ عَلَى ٱلرَّدِّ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِ كَلَامِهِ أَوْ يَعْلَمَ أَنَّهُ بِدْعَةٌ فَيُعْرِضَ عَنْهَا وَلَا تَضُرَّ فِي مُعْتَقَدِهِ فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ ٱلنَّظَرُ فِي هٰذَا ٱلكِتَابِ لِلظَّفَرِ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلإِعْجَازِ مَعَ ٱلسَّلَامَةِ مِنَ ٱلبِدَعِ وَٱلأَهْوَاءِ وَٱللهُ ٱلهَادِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ

علم الادب

هٰذَا ٱلعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يُنْظَرُ فِي إِثْبَاتِ عَوَارِضِهِ أَوْ نَفْيِهَا وَإِنَّمَا ٱلمَقْصُودُ مِنْهُ عِنْدَ أَهْلِ ٱللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ وَهِيَ ٱلإِجَادَةُ فِي فَنَّيِ ٱلمَنْظُومِ وَٱلمَنْثُورِ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلعَرَبِ وَمَنَاحِيهِمْ فَيَجْمَعُونَ لِذٰلِكَ مِنْ كَلَامِ ٱلعَرَبِ مَا عَسَاهُ تَحْصُلُ بِهِ ٱلكَلِمَةُ مِنْ شِعْرٍ عَالِي ٱلطَّبَقَةِ وَسَجْعٍ مُتَسَاوٍ فِي ٱلإِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ ٱللُّغَةِ وَٱلنَّحْوِ مَبْثُوثَةٍ أَثْنَاءَ ذٰلِكَ مُتَفَرِّقَةٍ يَسْتَقْرِي مِنْهَا ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلغَالِبِ مُعْظَمَ قَوَانِينِ ٱلعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ أَيَّامِ ٱلعَرَبِ يَفْهَمُ بِهِ مَا يَقَعُ فِي أَشْعَارِهِمْ مِنْهَا وَكَذٰلِكَ ذِكْرُ ٱلمُهِمِّ مِنَ ٱلأَنْسَابِ ٱلشَّهِيرَةِ وَٱلأَخْبَارِ ٱلعَامَّةِ وَٱلمَقْصُودُ بِذٰلِكَ كُلِّهِ أَنْ لَا يَخْفَى عَلَى ٱلنَّاظِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ ٱلعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ وَمَنَاحِي بَلَاغَتِهِمْ إِذَا تَصَفَّحَهُ لِأَنَّهُ لَا تَحْصُلُ ٱلمَلَكَةُ مِنْ حِفْظِهِ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيمِ جَمِيعِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُهُ ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا حَدَّ هٰذَا ٱلفَنِّ قَالُوا ٱلأَدَبُ هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَأَخْبَارِهَا وَٱلأَخْذُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِطَرَفٍ يُرِيدُونَ مِنْ عُلُومِ ٱللِّسَانِ أَوِ ٱلعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنْ حَيْثُ مُتُونُهَا فَقَطْ وَهِيَ ٱلقُرْآنُ وَٱلحَدِيثُ إِذْ لَا مَدْخَلَ لِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلعُلُومِ فِي كَلَامِ ٱلعَرَبِ إِلَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ٱلمُتَأَخِّرُونَ عِنْدَ كَلَفِهِمْ بِصِنَاعَةِ ٱلبَدِيعِ مِنَ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَتَرَسُّلِهِمْ بِٱلإِصْطِلَاحَاتِ ٱلعِلْمِيَّةِ فَٱحْتَاجَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلفَنِّ حِينَئِذٍ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱصْطِلَاحَاتِ ٱلعُلُومِ لِيَكُونَ قَائِماً عَلَى فَهْمِهَا وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوخِنَا فِي مَجَالِسِ ٱلتَّعْلِيمِ أَنَّ أُصُولَ هٰذَا ٱلفَنِّ وَأَرْكَانَهُ أَرْبَعَةُ دَوَاوِينَ وَهِيَ أَدَبُ ٱلكُتَّابِ لِٱبْنِ قُتَيْبَةَ وَكِتَابُ ٱلكَامِلِ لِلْمُبَرِّدِ وَكِتَابُ ٱلبَيَانِ وَٱلتَّبْيِينِ لِلْجَاحِظِ

وكتابُ النَّوادرِ لأبي عليّ القالي البغداديّ وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها وفروع عنها وكتبُ المُحدثين في ذلك كثيرةٌ وكانَ الغناء في الصّدر الأوّل من أجزاء هذا الفنّ لما هو تابعٌ للشّعر إذ الغناء إنّما هو تلحينهُ وكانَ الكُتّابُ والفضلاء من الخواصّ في الدّولة العبّاسيّة يأخذونَ أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشّعر وفنونه فلم يكن انتحالهُ قادحاً في العدالة والمروءة وقد ألّفَ القاضي أبو الفرج الأصبهانيّ كتابهُ في الأغاني جمعَ فيه أخبارَ العرب وأشعارَهم وأنسابَهم وأيّامهم ودولَهم وجعلَ مبناهُ على الغناء في المائة صوتاً الّتي اختارَها المُغنّونَ للرّشيد فاستوعبَ فيه ذلكَ أتمّ استيعاب وأوفاهُ ولعمري إنّهُ ديوانُ العرب وجامعُ أشتات المحاسن الّتي سلفَتْ لهم في كلّ فنّ من فنون الشّعر والتّاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدلُ به كتابٌ في ذلكَ فيما نعلمهُ وهوَ الغايةُ الّتي يسمو إليها الأديبُ ويقفُ عندَها وأنّى لهُ بها ونحنُ الآنَ نرجعُ بالتّحقيق على الإجمال فيما تكلّمنا عليه من علوم اللّسان والله الهادي للصّواب

الفصل السابع والثلاثون

في ان اللغة ملكة صناعية

إعلَمْ أنّ اللّغاتِ كلّها ملَكاتٌ شبيهةٌ بالصّناعة إذ هي ملَكاتٌ في اللّسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملَكة أو نقصانها وليسَ ذلك بالنّظر إلى المفردات وإنّما هوَ بالنّظر إلى التّراكيب فإذا حصلت الملَكةُ التّامّة في تركيب الألفاظ المفردة للتّعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التّأليف الّذي يطبّقُ الكلامَ على مقتضى الحال بلغَ المتكلّمُ حينئذٍ الغايةَ من إفادة مقصوده للسّامع وهذا هوَ معنى البلاغة والملَكاتُ لا تحصلُ إلّا بتكرار الأفعال لأنّ الفعل يقعُ أوّلاً وتعودُ منهُ للذّات صفةٌ ثمّ تتكرّرُ فتكونُ حالاً ومعنى الحال أنّها صفة غيرُ راسخة ثمّ يزيدُ التّكرارُ فتكونُ ملَكةً أي صفةً راسخةً فالمتكلّمُ من العرب حينَ كانَتْ ملَكةُ اللّغة العربيّةُ موجودةً فيهم يسمَعُ كلامَ أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفيّة تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمَعُ الصّبيُّ استعمال المفردات في معانيها فيلقّنها أوّلاً ثمّ يسمَعُ التّراكيبَ بعدَها فيلقّنها كذلكَ ثمّ لا يزال

سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ولم يأخذها عن غيرهم ثم إنه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضاً فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى وهذا معنى فساد اللسان العربي ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثامن والثلاثون

في ان لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير

وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد إلا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرف لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ويبقى ما تقتضيه الأحوال ويسمى بساط الحال محتاجاً إلى ما يدل عليه وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها من

تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الألسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة إني أجد في كلام العرب تكرارا في قولهم زيد قائم وإن زيدا قائم وإن زيدا لقائم والمعنى واحد فقال له إن معانيها مختلفة فالأول لإفادة الخالي الذهن من قيام زيد والثاني لمن سمعه فتردد فيه والثالث لمن عرف بالإصرار على إنكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة اهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجود في مخاطباتهم وفهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم والشاعر المفلق على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعا معروفا وهو الإعراب وهو بعض من أحكام اللسان وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولا فانقلب لغة اخرى وكان القرآن منزلا به والحديث النبوي منقولا بلغته وهما أصلا الدين والملة فخشي تناسيهما وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذي نزلا به فاحتيج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علما ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهله بعلم النحو وصناعة

الْعَرَبِيَّةِ فَأَصبَحَ فَنّاً مَحْفُوظاً وَعِلماً مَكْتُوباً وَسُلَّماً إِلَى فَهْمِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَافِياً وَلَعَلَّنَا لَوِ اعْتَنَيْنَا بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ وَاسْتَقْرَيْنَا أَحْكَامَهُ نَعْتَاضُ عَنِ الْحَرَكَاتِ الْإِعْرَابِيَّةِ فِي دَلَالَتِهَا بِأُمُورٍ أُخْرَى مَوْجُودَةٍ فِيهِ تَكُونُ بِهَا قَوَانِينُ تَخُصُّهَا وَلَعَلَّهَا تَكُونُ فِي أَوَاخِرِهِ عَلَى غَيْرِ الْمِنْهَاجِ الْأَوَّلِ فِي لُغَةِ مُضَرَ فَلَيْسَتِ اللُّغَاتُ وَمَلَكَاتُهَا مَجَّاناً وَلَقَدْ كَانَ اللِّسَانُ الْمُضَرِيُّ مَعَ اللِّسَانِ الْحِمْيَرِيِّ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ وَتَغَيَّرَ عِنْدَ مُضَرَ كَثِيرٌ مِنْ مَوْضُوعَاتِ اللِّسَانِ الْحِمْيَرِيِّ وَتَصَارِيفِ كَلِمَاتِهِ تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْأَنْقَالُ الْمَوْجُودَةُ لَدَيْنَا خِلَافاً لِمَنْ يَحْمِلُهُ الْقُصُورُ عَلَى أَنَّهَا لُغَةٌ وَاحِدَةٌ وَيَلْتَمِسُ إِجْرَاءَ اللُّغَةِ الْحِمْيَرِيَّةِ عَلَى مَقَايِيسِ اللُّغَةِ الْمُضَرِيَّةِ وَقَوَانِينِهَا كَمَا يَزْعُمُ بَعْضُهُمْ فِي اشْتِقَاقِ الْقَيْلِ فِي اللِّسَانِ الْحِمْيَرِيِّ أَنَّهُ مِنَ الْقَوْلِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَشْبَاهِ هَذَا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ وَلُغَةُ حِمْيَرَ لُغَةٌ أُخْرَى مُغَايِرَةٌ لِلُغَةِ مُضَرَ فِي الْكَثِيرِ مِنْ أَوْضَاعِهَا وَتَصَارِيفِهَا وَحَرَكَاتِ إِعْرَابِهَا كَمَا هِيَ لُغَةُ الْعَرَبِ لِعَهْدِنَا مَعَ لُغَةِ مُضَرَ إِلَّا أَنَّ الْعِنَايَةَ بِلِسَانِ مُضَرَ مِنْ أَجْلِ الشَّرِيعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى الِاسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِقْرَاءِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا لِهَذَا الْعَهْدِ مَا يَحْمِلُنَا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَيَدْعُونَا إِلَيْهِ وَمِمَّا وَقَعَ فِي لُغَةِ هَذَا الْجِيلِ الْعَرَبِيِّ لِهَذَا الْعَهْدِ حَيْثُ كَانُوا مِنَ الْأَقْطَارِ شَأْنُهُمْ فِي النُّطْقِ بِالْقَافِ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ بِهَا مِنْ مَخْرَجِ الْقَافِ عِنْدَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ مِنْ أَقْصَى اللِّسَانِ وَمَا فَوْقَهُ مِنَ الْحَنَكِ الْأَعْلَى وَمَا يَنْطِقُونَ بِهَا أَيْضاً مِنْ مَخْرَجِ الْكَافِ وَإِنْ كَانَ أَسْفَلَ مِنْ مَوْضِعِ الْقَافِ وَمَا يَلِيهِ مِنَ الْحَنَكِ الْأَعْلَى كَمَا هِيَ بَلْ يَجِيئُونَ بِهَا مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الْكَافِ وَالْقَافِ وَهُوَ مَوْجُودٌ لِلْجِيلِ أَجْمَعَ حَيْثُ كَانُوا مِنْ غَرْبٍ أَوْ شَرْقٍ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ عَلَامَةً عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ مُخْتَصّاً بِهِمْ لَا يُشَارِكُهُمْ بِهَا غَيْرُهُمْ حَتَّى إِنَّ مَنْ يُرِيدُ التَّقَرُّبَ وَالِانْتِسَابَ إِلَى الْجِيلِ وَالدُّخُولَ فِيهِ يُحَاكِيهِمْ فِي النُّطْقِ بِهَا وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ الْعَرَبِيُّ الصَّرِيحُ مِنَ الدَّخِيلِ فِي الْعُرُوبِيَّةِ وَالْحَضَرِيِّ بِالنُّطْقِ بِهَذِهِ الْقَافِ وَيَظْهَرُ بِذَلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرَ بِعَيْنِهَا فَإِنَّ هَذَا الْجِيلَ الْبَاقِينَ مُعْظَمُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ شَرْقاً وَغَرْباً فِي وُلْدِ مَنْصُورِ بْنِ عِكْرِمَةَ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ مِنْ سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ وَمِنْ بَنِي عَامِرِ ابْنِ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ بْنِ مَنْصُورٍ وَهُمْ لِهَذَا الْعَهْدِ أَكْثَرُ الْأُمَمِ فِي الْمَعْمُورِ وَأَغْلَبُهُمْ وَهُمْ مِنْ أَعْقَابِ مُضَرَ وَسَائِرُ الْجِيلِ مِنْهُمْ فِي النُّطْقِ بِهَذِهِ الْقَافِ

أُسوةٌ وَهٰذِهِ ٱللُّغَةُ لَمْ يَبْتَدِعْهَا هٰذَا ٱلْجِيلُ بَلْ هِيَ مُتَوارَثَةٌ فيهِم مُتَعاقِبَةٌ وَيَظْهَرُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّهَا لُغَةُ مُضَرَ ٱلْأَوَّلِينَ وَلَعَلَّهَا لُغَةُ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَيْنِهَا قَدِ ٱدَّعَى ذٰلِكَ فُقَهَاءُ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ وَزَعَمُوا مَنْ قَرَأَ فِي أُمِّ ٱلْقُرْآنِ إِهْـدِنا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ بِغَيْرِ ٱلْقَافِ ٱلَّتِي لِهٰذا ٱلْجِيلِ فَقَدْ لَحَنَ وَأَفْسَدَ صَلاتَهُ وَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَيْنَ جاءَ هٰذا فَإِنَّ لُغَةَ أَهْلِ ٱلْأَمْصارِ أَيْضاً لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا وَإِنَّمَا تَنَاقَلُوهَا مِنْ لَدُنْ سَلَفِهِمْ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ مُضَرَ لَمَّا نَزَلُوا ٱلْأَمْصارَ مِنْ لَدُنِ ٱلْفَتْحِ وَأَهْلُ ٱلْجِيلِ أَيْضاً لَمْ يَسْتَحْدِثُوهَا إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْعَدُ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱلْأَعاجِمِ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصارِ فَهٰذا يُرَجِّحُ فيمَا يُوجَدُ مِنَ ٱللُّغَةِ لَدَيْهِم أَنَّهُ مِنْ لُغَةِ سَلَفِهِم هٰذا مَعَ ٱتِّفاقِ أَهْلِ ٱلْجِيلِ كُلِّهِمْ شَرْقاً وَغَرْباً فِي ٱلنُّطْقِ بِهَا وَأَنَّهَا ٱلْخَاصِّيَّةُ ٱلَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا ٱلْعَرَبِيُّ مِنَ ٱلْهَجِينِ وَٱلْحَضَرِيِّ فَتَفَهَّمْ ذٰلِكَ وَٱللّٰهُ ٱلْهَادِي ٱلْمُبِينُ

الفصل التاسع والثلاثون

في أن لغة اهل الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها للغة مضر

إِعْلَمْ أَنَّ عُرْفَ ٱلتَّخَاطُبِ فِي ٱلْأَمْصارِ وَبَيْنَ ٱلْحَضَرِ لَيْسَ بِلُغَةِ مُضَرَ ٱلْقَدِيمَةِ وَلا بِلُغَةِ أَهْلِ ٱلْجِيلِ بَلْ هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا بَعِيدَةٌ عَنْ لُغَةِ مُضَرَ وَعَنْ لُغَةِ هٰذا ٱلْجِيلِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّذِي لِعَهْدِنا وَهِيَ عَنْ لُغَةِ مضَرَ أَبْعَدُ فَأَمَّا إِنَّهَا لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهُوَ ظَاهِرٌ يَشْهَدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنَ ٱلتَّغَايُرِ ٱلَّذِي يُعَدُّ عِنْدَ صِنَاعَةِ أَهْلِ ٱلنَّحْوِ لحناً وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ تَخْتَلِفُ بِٱخْتِلافِ ٱلْأَمْصارِ فِي ٱصْطِلاحَاتِهِمْ فَلُغَةُ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ مُبايِنَةٌ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ لِلُغَةِ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَكَذا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ مَعَهُمَا وَكُلٌّ مِنْهُمْ مُتَوَصِّلٌ بِلُغَتِهِ إِلى تَأْدِيَةِ مَقْصُودِهِ وَٱلْإِبانَةِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَهٰذَا مَعْنَى ٱللِّسَانِ وَٱللُّغَةِ وَفِقْدَانُ ٱلْإِعْرابِ لَيْسَ بِضَائِرٍ لَهُم كَمَا قُلْنَاهُ فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ لِهٰذا ٱلْعَهْدِ وَأَمَّا إِنَّهَا أَبْعَدُ عَنِ ٱللِّسَانِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ لُغَةِ هٰذا ٱلْجِيلِ فَلِأَنَّ ٱلْبُعْدَ عَنِ ٱللِّسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِمُخَالَطَةِ ٱلْعُجْمَةِ فَمَنْ خَالَطَ ٱلْعَجَمَ أَكْثَرَ كانَتْ لُغَتُهُ عَنْ ذٰلِكَ ٱللِّسَانِ ٱلْأَصْلِيِّ أَبْعَـدَ لِأَنَّ ٱلْمَلَكَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِٱلتَّعْلِيمِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهٰذِهِ مَلَكَةٌ مُمْتَزِجَةٌ مِنَ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُولى ٱلَّتِي كانَتْ لِلْعَرَبِ وَمِنَ ٱلْمَلَكَةِ ٱلثَّانِيَةِ ٱلَّتِي لِلْعَجَمِ فَعَلى مِقْدارِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ ٱلْعَجَمِ وَيَرْبَوْنَ عَلَيْهِ يَبْعُدُونَ عَنِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْأُولى وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ فِي أَمْصَارِ أَفْرِيقِيَّةَ وَٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَشْرِقِ أَمَّا أَفْرِيقِيَّةُ وَٱلْمَغْرِبُ فَخَالَطَتِ ٱلْعَرَبُ فِيهَا ٱلْبَرابِرَةَ مِنَ ٱلْعَجَمِ بِوُفُورِ عُمْرَانِهَا بِهِمْ وَلَمْ يَكَدْ يَخْلُو عَنْهُمْ مِصْر

وَلاَ جِيلٌ فَغَلَبَتِ ٱلْعُجْمَةُ فِيهَا عَلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلَّذِي كَانَ لَهُمْ وَصَارَتْ لُغَةً أُخْرَى مُمْتَزِجَةً وَٱلْعُجْمَةُ فِيهَا أَغْلَبَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَهِيَ عَنِ ٱللِّسَانِ ٱلْأَوَّلِ أَبْعَدُ وَكَذَا ٱلْمَشْرِقُ لَمَّا غَلَبَ ٱلْعَرَبُ عَلَى أُمَمِهِ مِنْ فَارِسَ وَٱلتُّرْكِ فَخَالَطُوهُمْ وَتَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمْ لُغَاتُهُمْ فِي ٱلْأَكَرَةِ وَٱلْفَلَّاحِينَ وَٱلسَّبْيِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوهُمْ خَوَلاً وَدَايَاتٍ وَأَظْآراً وَمَرَاضِعَ فَفَسَدَتْ لُغَتُهُمْ بِفَسَادِ ٱلْمَلَكَةِ حَتَّى ٱنْقَلَبَتْ لُغَةً أُخْرَى وَكَذَا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ مَعَ عَجَمِ ٱلْجَلَالِقَةِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَصَارَ أَهْلُ ٱلْأَمْصَارِ كُلُّهُمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَالِيمِ أَهْلَ لُغَةٍ أُخْرَى مَخْصُوصَةٍ بِهِمْ تُخَالِفُ لُغَةَ مُضَرَ وَيُخَالِفُ أَيْضاً بَعْضُهُمْ بَعْضاً كَمَا نَذْكُرُهُ وَكَأَنَّهُ لُغَةٌ أُخْرَى لِٱسْتِحْكَامِ مَلَكَتِهَا فِي أَجْيَالِهِمْ وَٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُقَدِّرُ

الفصل الاربعون

في تعليم اللسان المضري

إِعْلَمْ أَنَّ مَلَكَةَ ٱللِّسَانِ ٱلْمُضَرِيِّ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ وَلُغَةُ أَهْلِ ٱلْجِيلِ كُلِّهِمْ مُغَايِرَةٌ لِلُغَةِ مُضَرَ ٱلَّتِي نَزَلَ بِهَا ٱلْقُرْآنُ وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى مِنِ ٱمْتِزَاجِ ٱلْعُجْمَةِ بِهَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِلَّا أَنَّ ٱللُّغَاتِ لَمَّا كَانَتْ مَلَكَاتٍ كَمَا مَرَّ كَانَ تَعَلُّمُهَا مُمْكِناً شَأْنَ سَائِرِ ٱلْمَلَكَاتِ وَوَجْهُ ٱلتَّعْلِيمِ لِمَنْ يَبْتَغِي هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةَ وَيَرُومُ تَحْصِيلَهَا أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِحِفْظِ كَلَامِهِمُ ٱلْقَدِيمِ ٱلْجَارِي عَلَى أَسَالِيبِهِمْ مِنَ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْحَدِيثِ وَكَلَامِ ٱلسَّلَفِ وَمُخَاطَبَاتِ فُحُولِ ٱلْعَرَبِ فِي أَسْجَاعِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَكَلِمَاتِ ٱلْمُوَلَّدِينَ أَيْضاً فِي سَائِرِ فُنُونِهِمْ حَتَّى يَتَنَزَّلَ لِكَثْرَةِ حِفْظِهِ لِكَلَامِهِمْ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ مَنْزِلَةَ مَنْ نَشَأَ بَيْنَهُمْ وَلُقِّنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَقَاصِدِ مِنْهُمْ ثُمَّ يَتَصَرَّفُ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ عَلَى حَسَبِ عِبَارَاتِهِمْ وَتَأْلِيفِ كَلِمَاتِهِمْ وَمَا وَعَاهُ وَحَفِظَهُ مِنْ أَسَالِيبِهِمْ وَتَرْتِيبِ أَلْفَاظِهِمْ فَتَحْصُلُ لَهُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ بِهٰذَا ٱلْحِفْظِ وَٱلِٱسْتِعْمَالِ وَيَزْدَادُ بِكَثْرَتِهِمَا رُسُوخاً وَقُوَّةً وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ إِلَى سَلَامَةِ ٱلطَّبْعِ وَٱلتَّفَهُّمِ ٱلْحَسَنِ لِمَنَازِعِ ٱلْعَرَبِ وَأَسَالِيبِهِمْ فِي ٱلتَّرَاكِيبِ وَمُرَاعَاةِ ٱلتَّطْبِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُقْتَضَيَاتِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلذَّوْقُ يَشْهَدُ بِذٰلِكَ وَهُوَ يَنْشَأُ مَا بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ وَٱلطَّبْعِ ٱلسَّلِيمِ فِيهِمَا كَمَا نَذْكُرُ وَعَلَى قَدَرِ ٱلْمَحْفُوظِ وَكَثْرَةِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ تَكُونُ جَوْدَةُ ٱلْمَقُولِ ٱلْمَصْنُوعِ نَظْماً وَنَثْراً وَمَنْ حَصَلَ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمَلَكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لُغَةِ مُضَرَ وَهُوَ ٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ بِٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا وَهٰكَذَا يَنْبَغِي

أَنْ يَكُونَ تَعَلُّمُهَا وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ

الفصل الحادي والاربعون

في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

وَٱلسَّبَبُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْعَرَبِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ قَوَانِينِ هَٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ وَمَقَايِيسِهَا خَاصَّةً فَهُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةٍ لَا نَفْسُ كَيْفِيَّةٍ فَلَيْسَتْ نَفْسَ ٱلْمَلَكَةِ وَإِنَّمَا هِيَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَعْرِفُ صِنَاعَةً مِنَ ٱلصَّنَائِعِ عِلْمًا وَلَا يُحْكِمُهَا عَمَلًا مِثْلَ أَنْ يَقُولَ بَصِيرٌ بِٱلْخِيَاطَةِ غَيْرُ مُحْكِمٍ لِمَلَكَتِهَا فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنْ بَعْضِ أَنْوَاعِهَا ٱلْخِيَاطَةُ هِيَ أَنْ يُدْخِلَ ٱلْخَيْطَ فِي خَرْتِ ٱلْإِبْرَةِ ثُمَّ يَغْرِزَهَا فِي لِفْقَيِ ٱلثَّوْبِ مُجْتَمِعَيْنِ وَيُخْرِجَهَا مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ بِمِقْدَارِ كَذَا ثُمَّ يَرُدَّهَا إِلَى حَيْثُ ٱبْتَدَأَتْ وَيُخْرِجَهَا قُدَّامَ مَنْفَذِهَا ٱلْأَوَّلِ بِمَطْرَحٍ مَا بَيْنَ ٱلثُّقْبَيْنِ ٱلْأَوَّلَيْنِ ثُمَّ يَتَمَادَى عَلَى ذَٰلِكَ إِلَى آخِرِ ٱلْعَمَلِ وَيُعْطِي صُورَةَ ٱلْحَبْكِ وَٱلتَّنْبِيتِ وَٱلتَّفْتِيحِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ ٱلْخِيَاطَةِ وَأَعْمَالِهَا وَهُوَ إِذَا طُولِبَ أَنْ يَعْمَلَ ذَٰلِكَ بِيَدِهِ لَا يُحْكِمُ مِنْهُ شَيْئًا وَكَذَا لَوْ سُئِلَ عَالِمٌ بِٱلنِّجَارَةِ عَنْ تَفْصِيلِ ٱلْخَشَبِ فَيَقُولُ هُوَ أَنْ تَضَعَ ٱلْمِنْشَارَ عَلَى رَأْسِ ٱلْخَشَبَةِ وَتُمْسِكَ بِطَرَفِهِ وَآخَرُ قُبَالَتَكَ مُمْسِكٌ بِطَرَفِهِ وَتَتَعَاقَبَانِهِ بَيْنَكُمَا وَأَطْرَافُهُ ٱلْمُضَرَّسَةُ ٱلْمُحَدَّدَةُ تَقْطَعُ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ ذَاهِبَةً وَجَائِيَةً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ ٱلْخَشَبَةِ وَهُوَ لَوْ طُولِبَ بِهَذَا ٱلْعَمَلِ أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ لَمْ يُحْكِمْهُ وَهَكَذَا ٱلْعِلْمُ بِقَوَانِينِ ٱلْإِعْرَابِ مَعَ هَٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي نَفْسِهَا فَإِنَّ ٱلْعِلْمَ بِقَوَانِينِ ٱلْإِعْرَابِ إِنَّمَا هُوَ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ ٱلْعَمَلِ وَلِذَٰلِكَ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ جَهَابِذَةِ ٱلنُّحَاةِ وَٱلْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْمُحِيطِينَ عِلْمًا بِتِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ إِذَا سُئِلَ فِي كِتَابَةِ سَطْرَيْنِ إِلَى أَخِيهِ أَوْ ذِي مَوَدَّتِهِ أَوْ شَكْوَى ظُلَامَةٍ أَوْ قَصْدٍ مِنْ قُصُودِهِ أَخْطَأَ فِيهَا عَنِ ٱلصَّوَابِ وَأَكْثَرَ مِنَ ٱللَّحْنِ وَلَمْ يُجِدْ تَأْلِيفَ ٱلْكَلَامِ لِذَٰلِكَ وَٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَقْصُودِ عَلَى أَسَالِيبِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ وَكَذَا نَجِدُ كَثِيرًا مِمَّنْ يُحْسِنُ هَٰذِهِ ٱلْمَلَكَةَ وَيُجِيدُ ٱلْفَنَّيْنِ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ وَهُوَ لَا يُحْسِنُ إِعْرَابَ ٱلْفَاعِلِ مِنَ ٱلْمَفْعُولِ وَلَا ٱلْمَفْعُولِ مِنَ ٱلْمَجْرُورِ وَلَا شَيْئًا مِنْ قَوَانِينِ صِنَاعَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فَمِنْ هَذَا تَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ هِيَ غَيْرُ صِنَاعَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَأَنَّهَا مُسْتَغْنِيَةٌ عَنْهَا بِٱلْجُمْلَةِ وَقَدْ نَجِدُ بَعْضَ ٱلْمَهَرَةِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْإِعْرَابِ بَصِيرًا بِحَالِ هَٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ وَهُوَ قَلِيلٌ وَٱتِّفَاقِيٌّ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ لِلْمُخَالِطِينَ لِكِتَابِ سِيبَوَيْهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوَانِينِ ٱلْإِعْرَابِ فَقَطْ

بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته وتنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الإفادة ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية عن ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم فقل ما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو ينتبهون لشأنها فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق إلى المبتدىء كثير من الملكة أثناء التعليم فتنقطع النفس لها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها وأما من سواهم من أهل المغرب وأفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب إلا إن أعربوا شاهداً أو رجحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علماً بحتاً وبعدوا عن ثمرتها وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم والله مقدر الأمور كلها والله أعلم بالغيب.

الفصل الثاني والاربعون

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه وبيان انه لا يحصل للمستعربين من العجم

إعلَمْ أنَّ لَفْظَةَ ٱلذَّوْقِ يَتَدَاوَلُهَا ٱلْمُعْتَنُونَ بِفُنُونِ ٱلْبَيَانِ وَمَعْنَاهَا حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلْبَلاغَةِ لِلِّسَانِ وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ ٱلْبَلاغَةِ وَأَنَّهَا مُطَابَقَةُ ٱلْكَلامِ لِلْمَعْنَى مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ بِخَوَاصَّ تَقَعُ لِلتَّرَاكِيبِ فِي إِفَادَةِ ذٰلِكَ فَٱلْمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْبَلِيغُ فِيهِ يَتَحَرَّى ٱلْهَيْئَةَ ٱلْمُفِيدَةَ لِذٰلِكَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِ وَأَنْحَاءِ مُخَاطَبَاتِهِمْ وَيَنْظِمُ ٱلْكَلامَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْوَجْهِ جُهْدَهُ فَإِذَا ٱتَّصَلَتْ مَقَامَاتُهُ بِمُخَالَطَةِ كَلامِ ٱلْعَرَبِ حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ فِي نَظْمِ ٱلْكَلامِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْوَجْهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ أَمْرُ ٱلتَّرْكِيبِ حَتَّى لا يَكَادُ يَنْحُو فِيهِ غَيْرَ مَنْحَى ٱلْبَلاغَةِ ٱلَّتِي لِلْعَرَبِ وَإِنْ سَمِعَ تَرْكِيباً غَيْرَ جَارٍ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمَنْحَى مَجَّهُ وَنَبَا عَنْهُ سَمْعُهُ بِأَدْنَى فِكْرٍ بَلْ وَبِغَيْرِ فِكْرٍ إِلَّا بِمَا ٱسْتَفَادَ مِنْ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فَإِنَّ ٱلْمَلَكَاتِ إِذَا ٱسْتَقَرَّتْ وَرَسَخَتْ فِي مَحَالِّهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا طَبِيعَةٌ وَجِبِلَّةٌ لِذٰلِكَ ٱلْمَحَلِّ وَلِذٰلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ شَأْنَ ٱلْمَلَكَاتِ أَنَّ ٱلصَّوَابَ لِلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ إِعْرَاباً وَبَلاغَةً أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ وَيَقُولُ كَانَتِ ٱلْعَرَبُ تَنْطِقُ بِٱلطَّبْعِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسَانِيَّةٌ فِي نَظْمِ ٱلْكَلامِ وَتَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ فِي بَادِئِ ٱلرَّأْيِ أَنَّهَا جِبِلَّةٌ وَطَبْعٌ وَهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلامِ ٱلْعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَٱلتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهِ وَلَيْسَتْ تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فِي ذٰلِكَ ٱلَّتِي ٱسْتَنْبَطَهَا أَهْلُ صِنَاعَةِ ٱللِّسَانِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ إِنَّمَا تُفِيدُ عِلْماً بِذٰلِكَ ٱللِّسَانِ وَلا تُفِيدُ حُصُولَ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْفِعْلِ فِي مَحَلِّهَا وَقَدْ مَرَّ ذٰلِكَ وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَمَلَكَةُ ٱلْبَلاغَةِ فِي ٱللِّسَانِ تَهْدِي ٱلْبَلِيغَ إِلَى وُجُودِ ٱلنَّظْمِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْمُوَافِقِ لِتَرَاكِيبِ ٱلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلامِهِمْ وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ حَيْداً عَنْ هٰذِهِ ٱلسُّبُلِ ٱلْمُعَيَّنَةِ وَٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَلا وَافَقَهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِأَنَّهُ لا يَعْتَادُهُ وَلا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ ٱلرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ ٱلْكَلامُ حَائِداً عَنْ أُسْلُوبِ ٱلْعَرَبِ وَبَلاغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلامِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلامِ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ مَارَسَ كَلامَهُمْ وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلِاحْتِجَاجِ لِذٰلِكَ كَمَا تَصْنَعُ أَهْلُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ

وَٱلْبيَانِيَّةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُفَادَةِ بِٱلِاسْتِقْرَاءِ وَهٰذَا أَمْرٌ وِجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِيَ فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ وَكَذٰلِكَ تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطَبِهِمْ وَٱلْمُدَاوَمَةِ عَلَى ذٰلِكَ بِحَيْثُ يُحَصِّلُ ٱلْمَلَكَةَ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِيَ بَيْنَ أَجْيَالِهِمْ وَٱلْقَوَانِينُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هٰذَا وَٱسْتُعِيرَ لِهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ عِنْدَمَا تَرْسَخُ وَتَسْتَقِرُّ ٱسْمُ ٱلذَّوْقِ ٱلَّذِي ٱصْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ صِنَاعَةِ ٱلْبَيَانِ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِإِدْرَاكِ ٱلطُّعُومِ لٰكِنْ لَمَّا كَانَ مَحَلُّ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي ٱللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ ٱلنُّطْقُ بِٱلْكَلَامِ كَمَا هُوَ مَحَلٌّ لِإِدْرَاكِ ٱلطُّعُومِ ٱسْتُعِيرَ لَهَا ٱسْمُهُ وَأَيْضًا فَهُوَ وِجْدَانِيٌّ ٱللِّسَانِ كَمَا أَنَّ ٱلطُّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْقٌ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذٰلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ أَنَّ ٱلْأَعَاجِمَ ٱلدَّاخِلِينَ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلطَّارِئِينَ عَلَيْهِ ٱلْمُضْطَرِّينَ إِلَى ٱلنُّطْقِ بِهِ لِمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ كَٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَكَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هٰذَا ٱلذَّوْقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي قَرَّرْنَا أَمْرَهَا لِأَنَّ قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ وَسَبْقِ مَلَكَةٍ أُخْرَى إِلَى ٱللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ أَنْ يَعْتَنُوا بِمَا يَتَدَاوَلُهُ أَهْلُ مِصْرٍ بَيْنَهُمْ فِي ٱلْمُحَاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يُضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِأَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ وَبَعُدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ وَإِنَّمَا لَهُمْ فِي ذٰلِكَ مَلَكَةٌ أُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةُ ٱللِّسَانِ ٱلْمَطْلُوبَةِ وَمَنْ عَرَفَ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُسَطَّرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا حَصَّلَ أَحْكَامَهَا كَمَا عَرَفْتَ وَإِنَّمَا تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ بِٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلِاعْتِيَادِ وَٱلتَّكَرُّرِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ فَإِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ أَنَّ سِيبَوَيْهِ وَٱلْفَارِسِيَّ وَٱلزَّمَخْشَرِيَّ وَأَمْثَالَهُمْ مِنْ فُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ كَانُوا أَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ لَهُمْ فَٱعْلَمْ أَنَّ أُولٰئِكَ ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إِنَّمَا كَانُوا عَجَمًا فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ وَأَمَّا ٱلْمَرْبَى وَٱلنَّشْأَةُ فَكَانَتْ بَيْنَ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَٱسْتَوْلَوْا بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى غَايَةٍ لَا شَيْءَ وَرَاءَهَا وَكَأَنَّهُمْ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِمْ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ نَشَأُوا فِي أَجْيَالِهِمْ

حَتَّى أَدْرَكُوا كُنْهَ ٱللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عُجْماً فِي ٱلنَّسَبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَامٍ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا ٱلْمِلَّةَ فِي عُنْفُوَانِهَا وَٱللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبْ آثَارُ ٱلْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى غَايَتِهِ وَٱلْيَوْمَ ٱلْوَاحِدُ مِنَ ٱلْعَجَمِ إِذَا خَالَطَ أَهْلَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَمْصَارِ فَأَوَّلَ مَا يَجِدُ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ ٱلْمَقْصُودَةَ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ مُمْتَحِيَةَ ٱلْآثَارِ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمُ ٱلْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخْرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ بِٱلْمُدَارَسَةِ وَٱلْحِفْظِ يَسْتَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقَلَّ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ ٱلْمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى فِي ٱلْمَحَلِّ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مَخْدُوشَةً وَإِنْ فَرَضْنَا أَعْجَمِيّاً فِي ٱلنَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذٰلِكَ لٰكِنَّهُ مِنَ ٱلنُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا ٱلذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أَوْ مُغَالَطَةٌ وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ وَلَيْسَتْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلْعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَٱللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ .

الفصل الثالث والاربعون

في ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن اللسان العربي كان حصولها له اصعب واعسر

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ مَا يَسْبِقُ إِلَى ٱلْمُتَعَلِّمِ مِنْ حُصُولِ مَلَكَةٍ مُنَافِيَةٍ لِلْمَلَكَةِ ٱلْمَطْلُوبَةِ بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْحَضَرِيِّ ٱلَّذِي أَفَادَتْهُ ٱلْعُجْمَةُ حَتَّى نَزَلَ بِهَا ٱللِّسَانُ عَنْ مَلَكَتِهِ ٱلْأُولَى إِلَى مَلَكَةٍ أُخْرَى هِيَ لُغَةُ ٱلْحَضَرِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلِهٰذَا نَجِدُ ٱلْمُعَلِّمِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى ٱلْمُسَابَقَةِ بِتَعْلِيمِ ٱللِّسَانِ لِلْوِلْدَانِ وَتَعْتَقِدُ ٱلنُّحَاةُ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْمُسَابَقَةَ بِصِنَاعَتِهِمْ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ بِتَعْلِيمِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ وَكَلَامِ ٱلْعَرَبِ نَعَمْ صِنَاعَةُ ٱلنَّحْوِ أَقْرَبُ إِلَى مُخَالَطَةِ ذٰلِكَ وَمَا كَانَ مِنْ لُغَاتِ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ أَعْرَقَ فِي ٱلْعُجْمَةِ وَأَبْعَدَ عَنْ لِسَانِ مُضَرَ قَصَّرَ بِصَاحِبِهِ عَنْ تَعَلُّمِ ٱللُّغَةِ ٱلْمُضَرِيَّةِ وَحُصُولِ

ملكتها لتمكّن المنافاة حينئذ واعتبر ذلك في أهل الأمصار فأهل أفريقية والمغرب لمّا كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأوّل كان لهم قصور تامّ في تحصيل ملكته بالتعليم ولقد نقل ابن الرقيق أنّ بعض كتّاب القيروان كتب إلى صاحب له يا أخي ومن لا عدمتُ فقده أعلمني أبو سعيد كلاماً أنّك كنت ذكرت أنّك تكون مع الذين تأتي وعاقنا اليوم فلم يتهيّأ لنا الخروج وأمّا أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذّبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفاً واحداً وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري شبيه بما ذكرنا وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة ولم تزل كذلك لهذا العهد ولهذا ما كان بأفريقية من مشاهير الشعراء إلّا ابن رشيق وابن شرف وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتّى الآن مائلة إلى القصور وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظماً ونثراً وكان فيهم ابن حيّان المؤرّخ إمام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها وابن عبد ربّه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف لما زخرت فيها بحار اللسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين السنين حتّى كان الانفضاض والجلاء أيّام تغلّب النصرانية وشغلوا عن تعلّم ذلك وتناقص العمران فتناقص لذلك شأن الصنائع كلّها فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتّى بلغت الحضيض وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن مرحّل من تلاميذ الطبقة الإشبيليّين بسبتة وكتّاب دولة ابن الأحمر في أوّلها وألقت الأندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة بالجلاء إلى العدوة لعدوة الإشبيلية إلى سبتة ومن شرقيّ الأندلس إلى أفريقية ولم يلبثوا إلى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة لعسر قبول العدوة لها وصعوبتها عليهم بعوج ألسنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية وهي منافية لما قلناه ثمّ عادت الملكة من بعد ذلك إلى الأندلس كما كانت ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجياب وطبقتهم ثمّ إبراهيم الساحلي الطريحي وطبقته وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه وكان له في اللسان ملكة لا تدرك واتّبع أثره تلميذه وبالجملة

فشأنُ هــذهِ ٱلمَلَـكَةِ بِٱلأَنْدَلُسِ أَكْثَرُ وَتَعْلِيمُهَا أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ بِمَا عَلَيْهِ لِهَذَا ٱلعَهْدِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ مُعَانَاةِ عُلُومِ ٱللِّسَانِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهَا وَعَلَى عُلُومِ ٱلأَدَبِ وَسَنَدِ تعليمِهَا وَلِأَنَّ أَهْلَ ٱللِّسَانِ ٱلعَجَمِيِّ ٱلَّذِينَ تَفْسُدُ مَلَـكَتُهُمْ إِنَّمَا هُمْ طَارِئُونَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ عجْمَتُهُمْ أَصْلاً لِلُغَةِ أَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ وَٱلبَرْبَرِ فِي هٰذِهِ ٱلعُدْوَةِ وَهُمْ أَهْلُهَا وَلِسَانُهُمْ لِسَانُهَا إِلَّا فِي ٱلأَمْصَارِ فَقَطْ وَهُمْ فِيهَا مُنْغَمِسُونَ فِي بَحْرِ عُجْمَتِهِمْ وَرَطَانَتِهِمِ ٱلبَرْبَرِيَّةِ فَيَصْعُبُ عَلَيْهِمْ تَحْصِيلُ ٱلمَلَـكَةِ ٱللِّسَانِيَّةِ بِٱلتَّعْلِيمِ بِخِلَافِ أَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ وَٱعْتَبِرْ ذٰلِكَ بِحَالِ أَهْلِ ٱلمَشْرِقِ لِعَهْدِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلأُمَوِيَّةِ وَٱلعَبَّاسِيَّةِ فَكَانَ شَأْنُهُمْ شَأْنَ أَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ فِي تَمَامِ هذِهِ ٱلمَلَكَةِ وَإِجَادَتِهَا لِبُعْدِهِمْ لِذَلِكَ ٱلعَهْدِ عَنِ ٱلأَعَاجِمِ وَمُخَالَطَتِهِمْ إِلَّا فِي ٱلقَلِيلِ فَكَانَ أَمْرُ هٰذِهِ ٱلمَلَـكَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلعَهْدِ أَقْوَمَ وَكَانَ فُحُولُ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلكُتَّابِ أَوْفَرَ لِتَوَفُّرِ ٱلعَرَبِ وَأَبْنَائِهِمْ بِٱلمَشْرِقِ وَٱنْظُرْ مَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلأَغَانِي مِنْ نَظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱلكِتَابَ هُوَ كِتَابُ ٱلعَرَبِ وَدِيوَانُهُمْ وَفِيهِ لُغَتُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ وَأَيَّامُهُمْ وَمِلَّتُهُمُ ٱلعَرَبِيَّةُ وَسِيرَتُهُمْ وَآثَارُ خُلَفَائِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَغِنَاؤُهُمْ وَسَائِرُ مَغَانِيهِمْ لَهُ فَلَا كِتَابَ أَوْعَبُ مِنْهُ لِأَحْوَالِ ٱلعَرَبِ وَبَقِيَ أَمْرُ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ مُسْتَحْكِماً فِي ٱلمَشْرِقِ فِي ٱلدَّوْلَتَيْنِ وَرُبَّمَا كَانَتْ فِيهِمْ أَبْلَغَ مِمَّنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ كَانَ فِي ٱلجَاهِلِيَّةِ كَمَا نَذْكُرُهُ بَعْدُ حَتَّى تَلَاشَى أَمْرُ ٱلعَرَبِ وَدُرِسَتْ لُغَتُهُمْ وَفَسَدَ كَلَامُهُمْ وَٱنْقَضَى أَمْرُهُمْ وَدَوْلَتُهُمْ وَصَارَ ٱلأَمْرُ لِلأَعَاجِمِ وَٱلمُلْكُ فِي أَيْدِيهِمْ وَٱلتَّغَلُّبُ لَهُمْ وَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ ٱلدَّيْلَمِ وَٱلسلجُوقِيَّةِ وَخَالَطُوا أَهْلَ ٱلأَمْصَارِ وَٱلحَوَاضِرِ حَتَّى بَعُدُوا عَنِ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ وَمَلَـكَتِهِ وَصَارَ مُتَعَلِّمُهَا مِنْهُمْ مُقَصِّراً عَنْ تَحْصِيلِهَا وَعَلَى ذٰلِكَ نَجِدُ لِسَانَهُمْ لِهَذَا ٱلعَهْدِ فِي فَنَّيِ ٱلمَنْظُومِ وَٱلمَنْثُورِ وَإِنْ كَانُوا مُكْثِرِينَ مِنْهُ وَٱللّٰهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اعْلَمُ وَبِهِ ٱلتَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ ٠

الفصل الرابع والاربعون

في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر

إِعْلَمْ أَنَّ لِسَانَ ٱلعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَّيْنِ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلمَنْظُومِ وَهُوَ ٱلكَلَامُ ٱلمَوْزُونُ ٱلمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ ٱلَّذِي تَكُونُ أَوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلقَافِيَةُ وَفِي ٱلنَّثْرِ وَهُوَ ٱلكَلَامُ غَيْرُ ٱلمَوْزُونِ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ

في الكلام. فأما الشعر فمنه المدح والهجاء والرثاء وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فصلنا الآيات ويسمى آخر الآيات منها فواصل إذ ليست أسجاعاً ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني وانظر هذا مع ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه. واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا إلا في الوزن واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والإطناب في

ٱلْأَوْصَافِ وَضَرْبُ ٱلْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلِٱسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلى ذٰلِكَ فِي ٱلْخِطَابِ وَٱلْتِزَامُ ٱلتَّقْفِيَةِ أَيْضاً مِنَ ٱللَّوْذَعَةِ وَٱلتَّزْيِينِ وَجَلالُ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ وَخِطَابُ ٱلْجُمْهُورِ عَنِ ٱلْمُلُوكِ بِٱلتَّرْغِيبِ وَٱلتَّرْهِيبِ يُنَافِي ذٰلِكَ وَيُبَايِنُهُ وَٱلْمَحْمُودُ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلتَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلاقُ ٱلْكَلامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ ٱلْمَلَكَةُ إِرْسَالاً مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ ثُمَّ إِعْطَاءُ ٱلْكَلامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ ٱلْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ كِنَايَةٍ وَٱسْتِعَارَةٍ وَأَمَّا إِجْرَاءُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعَصْرِ إِلَّا ٱسْتِيلاءُ ٱلْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ ٱلْكَلامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ ٱلْكَلامِ ٱلْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ فِي ٱلْبَلاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خُطُوبِهِ وَوَلِعُوا بِهٰذَا ٱلْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلامِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذٰلِكَ ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلامِهِمْ كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللَّهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الخامس والاربعون

في انه لا تتفق الاجادة في فني المنظوم والمنثور معاً الا للاقل

وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ كَمَا بَيَّنَّاهُ مَلَكَةٌ فِي ٱللِّسَانِ فَإِذَا تَسَبَّقَتْ إِلى مَحَلِّهِ مَلَكَةٌ أُخْرَى قَصَّرَتْ بِٱلْمَحَلِّ عَنْ تَمَامِ ٱلْمَلَكَةِ ٱللَّاحِقَةِ لِأَنَّ تَمَامَ ٱلْمَلَكَاتِ وَحُصُولَهَا لِلطَّبَائِعِ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ٱلْأُولَى أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ وَإِذَا تَقَدَّمَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى كَانَتْ مُنَازِعَةً لَهَا فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْقَابِلَةِ وَعَائِقَةً عَنْ سُرْعَةِ ٱلْقَبُولِ فَوَقَعَتِ ٱلْمُنَافَاةُ وَتَعَذَّرَ ٱلتَّمَامُ فِي ٱلْمَلَكَاتِ ٱلصِّنَاعِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى ٱلْإِطْلاقِ وَقَدْ بَرْهَنَّا عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ بِنَحْوٍ مِنْ هٰذَا

ٱلبُرْهَانِ فَٱعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي ٱللُّغَاتِ فَإِنَّهَا مَلَكَاتُ ٱللِّسَانِ وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱنظُرْ مَن تَقَدَّمَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ ٱلعُجْمَةِ كَيْفَ يَكُونُ قَاصِراً فِي ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ أَبَداً فَٱلأَعْجَمِيُّ ٱلَّذِي سَبَقَتْ لَهُ ٱللُّغَةُ ٱلفَارِسِيَّةُ لَا يَسْتَوْلِي عَلَى مَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ وَلَا يَزَالُ قَاصِراً فِيهِ وَلَوْ تَعَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ وَكَذَا ٱلبَرْبَرِيُّ وَٱلرُّومِيُّ وَٱلإِفْرَنْجِيُّ قَلَّ أَنْ تَجِدَ أَحَداً مِنْهُمْ مُحْكِماً لِمَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ وَمَا ذَٰلِكَ إِلَّا لِمَا سَبَقَ إِلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ مَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلآخَرِ حَتَّى إِنَّ طَالِبَ ٱلعِلْمِ مِنْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلأَلْسُنِ إِذَا طَلَبَهُ بَيْنَ أَهْلِ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ جَاءَ مُقَصِّراً فِي مَعَارِفِهِ عَنِ ٱلغَايَةِ وَٱلتَّحْصِيلِ وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ ٱللِّسَانِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ مِنْ قَبْلُ أَنَّ ٱلأَلْسُنَ وَٱللُّغَاتِ شَبِيهَةٌ بِٱلصَّنَائِعِ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ أَنَّ ٱلصَّنَائِعَ وَمَلَكَاتِهَا لَا تَزْدَحِمُ وَأَنَّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ إِجَادَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ فِي أُخْرَى أَوْ يَسْتَوْلِيَ فِيهَا عَلَى ٱلغَايَةِ وَٱللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .

الفصل السادس والاربعون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هَٰذَا ٱلفَنُّ مِنْ فُنُونِ كَلَامِ ٱلعَرَبِ وَهُوَ ٱلمُسَمَّى بِٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَيُوجَدُ فِي سَائِرِ ٱللُّغَاتِ إِلَّا أَنَّنَا ٱلآنَ إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي لِلْعَرَبِ فَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ تَجِدَ فِيهِ أَهْلُ ٱلأَلْسُنِ ٱلأُخْرَى مَقْصُودَهُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ وَإِلَّا فَلِكُلِّ لِسَانٍ أَحْكَامٌ فِي ٱلبَلَاغَةِ تَخُصُّهُ وَهُوَ فِي لِسَانِ ٱلعَرَبِ غَرِيبُ ٱلنَّزْعَةِ عَزِيزُ ٱلمَنْحَى إِذْ هُوَ كَلَامٌ مُفَصَّلٌ قِطَعاً قِطَعاً مُتَسَاوِيَةً فِي ٱلوَزْنِ مُتَّحِدَةً فِي ٱلحَرْفِ ٱلأَخِيرِ مِنْ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنْ هَٰذِهِ ٱلقِطْعَاتِ عِنْدَهُمْ بَيْتاً وَيُسَمَّى ٱلحَرْفُ ٱلأَخِيرُ ٱلَّذِي تَتَّفِقُ فِيهِ رَوِيّاً وَقَافِيَةً وَيُسَمَّى جُمْلَةُ ٱلكَلَامِ إِلَى آخِرِهِ قَصِيدَةً وَكَلِمَةً وَيَنْفَرِدُ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ بِإِفَادَتِهِ فِي تَرَاكِيبِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ كَلَامٌ وَحْدَهُ مُسْتَقِلٌّ عَمَّا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ وَإِذَا أُفْرِدَ كَانَ تَامّاً فِي بَابِهِ فِي مَدْحٍ أَوْ تَشْبِيبٍ أَوْ رِثَاءٍ فَيَحْرِصُ ٱلشَّاعِرُ عَلَى إِعْطَاءِ ذَٰلِكَ ٱلبَيْتِ مَا يَسْتَقِلُّ فِي إِفَادَتِهِ ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ فِي ٱلبَيْتِ ٱلآخَرِ كَلَاماً آخَرَ كَذَٰلِكَ وَيَسْتَطْرِدُ لِلْخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ وَمِنْ مَقْصُودٍ إِلَى مَقْصُودٍ بِأَنْ يُوَطِّئَ ٱلمَقْصُودَ ٱلأَوَّلَ وَمَعَانِيَهُ إِلَى أَنْ تُنَاسِبَ ٱلمَقْصُودَ ٱلثَّانِي وَيُبْعِدُ ٱلكَلَامَ عَنِ ٱلتَّنَافُرِ كَمَا يَسْتَطْرِدُ مِنَ ٱلتَّشْبِيبِ إِلَى ٱلمَدْحِ وَمِنْ وَصْفِ ٱلبَيْدَاءِ وَٱلطُّلُولِ إِلَى وَصْفِ ٱلرِّكَابِ أَوِ ٱلخَيْلِ أَوِ ٱلطَّيْفِ وَمِنْ وَصْفِ ٱلمَمْدُوحِ إِلَى وَصْفِ

قومِهِ وَعَساكِرِهِ وَمِنَ التَّفَجُّعِ وَالْعَزاءِ فِي الرِّثاءِ إلى التَّأَثُّرِ وَأَمْثالِ ذٰلِكَ وَيُراعِي فِيهِ اتِّفاقَ الْقَصِيدَةِ كُلِّها فِي الْوَزْنِ الْواحِدِ حَذَراً مِنْ أَنْ يَتَساهَلَ الطَّبْعُ فِي الْخُروجِ مِن وَزْنٍ إلى وَزْنٍ يُقارِبُهُ فَقَدْ يَخْفَى ذٰلِكَ مِنْ أَجْلِ الْمُقارَبَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَلِهٰذِهِ الْمَوازِينِ شُرُوطٌ وَأَحْكامٌ تَضَمَّنَها عِلْمُ الْعَرُوضِ وَلَيْسَ كُلُّ وَزْنٍ يَتَّفِقُ فِي الطَّبْعِ اسْتَعْمَلَتْهُ الْعَرَبُ فِي هٰذا الْفَنِّ وَإِنَّما هِيَ أَوْزانٌ مَخْصُوصَةٌ تُسَمِّيها أَهْلُ تِلْكَ الصِّناعَةِ الْبُحُورَ وَقَدْ حَصَرُوها فِي خَمْسَةَ عَشَرَ بَحْراً بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِها مِن الْمَوازِينِ الطَّبِيعِيَّةِ نَظْماً . وَاعْلَمْ أَنَّ فَنَّ الشِّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلامِ كانَ شَرِيفاً عِنْد الْعَرَبِ وَلِذٰلِكَ جَعَلُوهُ دِيوانَ عُلُومِهِمْ وَأَخْبارِهِمْ وَشاهِدَ صَوابِهِمْ وَخَطَئِهِمْ وَأَصْلاً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ عُلُومِهِمْ وَحِكَمِهِمْ وَكانَتْ مَلَكَتُهُ مُسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ شَأْن الْمَلَكاتِ كُلِّها وَالْمَلَكاتُ اللِّسانِيَّةُ كُلُّها إِنَّما تُكْتَسَبُ بِالصِّناعَةِ وَالارْتِياض فِي كَلامِهِمْ حَتَّى يَحْصُلَ شَبَهٌ فِي تِلْكَ الْمَلَكَةِ وَالشِّعْرُ مِنْ بَيْنِ الْكَلامِ صَعْبُ الْمَأْخَذ عَلَى مَنْ يُرِيدُ اكْتِسابَ مَلَكَتِهِ بِالصِّناعَةِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ لِاسْتِقْلالِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ بِأَنَّهُ كَلامٌ تامٌّ فِي مَقْصُودِهِ وَيَصْلُحُ أَنْ يَنْفَرِدَ دُونَ ما سِواهُ فَيَحْتاجُ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ إلى نَوْعِ تَلَطُّفٍ فِي تِلْكَ الْمَلَكَةِ حَتَّى يُفْرِغَ الْكَلامَ الشِّعْرِيَّ فِي قَوالِبِهِ الَّتِي عُرِفَتْ لَهُ فِي ذٰلِكَ الْمَنْحَى مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ وَيُبْرِزَهُ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ ثُمَّ يَأْتِي بِبَيْتٍ آخر كَذٰلِكَ ثُمَّ بِبَيْتٍ وَيَسْتَكْمِلُ الْفُنُونَ الْوافِيَةَ بِمَقْصُودِهِ ثُمَّ يُناسِبُ بَيْنَ الْبُيُوتِ فِي مُوالاةِ بَعْضِها مَعَ بَعْضٍ بِحَسَبِ اخْتِلافِ الْفُنُونِ الَّتِي فِي الْقَصِيدَةِ وَلِصُعُوبَةِ مَنْحاه وَغَرابَةِ فَنِّهِ كانَ مِحَكًّا لِلْقَرائِحِ فِي اسْتِجادَةِ أَسالِيبِهِ وَشَحْذِ الأَفْكارِ فِي تَنْزِيلِ الْكَلامِ فِي قَوالِبِهِ وَلا يَكْفِي فِيهِ مَلَكَةُ الْكَلامِ الْعَرَبِيِّ عَلَى الإِطْلاقِ بَل يَحْتاجُ بِخُصُوصِهِ إلى تَلَطُّفٍ وَمُحاوَلَةٍ فِي رِعايَةِ الأَسالِيبِ الَّتِي اخْتَصَّتْهُ الْعَرَبُ بِها وَاسْتِعْمالِها وَلْنَذْكُرْ هُنا سُلُوكَ الأُسْلُوبِ عِنْدَ أَهْلِ هٰذِهِ الصِّناعَةِ وَما يُرِيدُونَ بِها فِي إِطْلاقِهِم فَاعْلَمْ أَنَّها عِبارَةٌ عِنْدَهُمْ عَنِ الْمِنْوالِ الَّذِي يُنْسَجُ فِيهِ التَّراكِيبُ أَوِ الْقالَبِ الَّذِي يُفْرَغ فِيهِ وَلا يَرْجِعُ إلى الْكَلامِ بِاعْتِبارِ إِفادَتِهِ أَصْلَ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الإِعْراب وَلا بِاعْتِبارِ إِفادَتِهِ كَمالَ الْمَعْنَى مِنْ خَواصِّ التَّراكِيبِ الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الْبَلاغَةِ وَالْبَيان وَلا بِاعْتِبارِ الْوَزْنِ كَما اسْتَعْمَلَهُ الْعَرَبُ فِيهِ الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ الْعَرُوضِ فَهٰذِهِ الْعُلُوم

اَلثَّلَاثَةُ خَارِجَةٌ عَنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَإِنَّمَا يُرْجِعُ إِلَى صُورَةٍ ذِهْنِيَّةٍ لِلتَّرَاكِيبِ ٱلْمُنْتَظِمَةِ كُلِّيَّةٍ بِٱعْتِبَارِ ٱنْطِبَاقِهَا عَلَى تَرْكِيبٍ خَاصٍّ وَتِلْكَ ٱلصُّورَةُ يَنْتَزِعُهَا ٱلذِّهْنُ مِنْ أَعْيَانِ ٱلتَّرَاكِيبِ وَأَشْخَاصِهَا وَيُصَيِّرُهَا فِي ٱلْخَيَالِ كَٱلْقَالَبِ أَوِ ٱلْمِنْوَالِ ثُمَّ يَنْتَقِي ٱلتَّرَاكِيبَ ٱلصَّحِيحَةَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ بِٱعْتِبَارِ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَيَانِ فَيَرُصُّهَا فِيهِ رَصًّا كَمَا يَفْعَلُهُ ٱلْبَنَّاءُ فِي ٱلْقَالَبِ أَوِ ٱلنَّسَّاجُ فِي ٱلْمِنْوَالِ حَتَّى يَتَّسِعَ ٱلْقَالَبُ بِحُصُولِ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْوَافِيَةِ بِمَقْصُودِ ٱلْكَلَامِ وَيَقَعَ عَلَى ٱلصُّورَةِ ٱلصَّحِيحَةِ بِٱعْتِبَارِ مَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ فِيهِ فَإِنَّ لِكُلِّ فَنٍّ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَسَالِيبَ تُخْتَصُّ بِهِ وَتُوجَدُ فِيهِ عَلَى أَنْحَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ فَسُؤَالُ ٱلطُّلُولِ فِي ٱلشِّعْرِ يَكُونُ بِخِطَابِ ٱلطُّلُولِ كَقَوْلِهِ يَا دَارَ مَيَّةَ بِٱلْعَلْيَاءِ فَٱلسَّنَدِ وَيَكُونُ بِٱسْتِدْعَاءِ ٱلصَّحْبِ لِلْوُقُوفِ وَٱلسُّؤَالِ كَقَوْلِهِ. قِفَا نَسْأَلِ ٱلدَّارَ ٱلَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا. أَوْ بِٱسْتِبْكَاءِ ٱلصَّحْبِ عَلَى ٱلطَّلَلِ كَقَوْلِهِ. قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ. أَوْ بِٱلِٱسْتِفْهَامِ عَنِ ٱلْجَوَابِ لِمُخَاطَبٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ كَقَوْلِهِ. أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرْكَ ٱلرُّسُومُ. وَمِثْلَ تَحِيَّةِ ٱلطُّلُولِ بِٱلْأَمْرِ لِمُخَاطَبٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ بِتَحِيَّتِهَا كَقَوْلِهِ. حَيِّ ٱلدِّيَارَ بِجَانِبِ ٱلْغَزَلِ. أَوْ بِٱلدُّعَاءِ لَهَا بِٱلسُّقْيَا كَقَوْلِهِ

أَسْقَى طُلُولَهُمْ أَجَشُّ هَزِيمُ ‏ ‏ ‏ وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمُ

أَوْ سُؤَالِهِ ٱلسُّقْيَا لَهَا مِنَ ٱلْبَرْقِ كَقَوْلِهِ

يَا بَرْقُ طَالِعْ مَنْزِلاً بِٱلْأَبْرَقِ ‏ ‏ ‏ وَٱحْدُ ٱلسَّحَابَ لَهَا حِدَاءَ ٱلْأَيْنُقِ

أَوْ مِثْلِ ٱلتَّفَجُّعِ فِي ٱلْجَزَعِ بِٱسْتِدْعَاءِ ٱلْبُكَاءِ كَقَوْلِهِ

كَذَا فَلْيَجِلَّ ٱلْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ ٱلْأَمْرُ ‏ ‏ ‏ وَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

أَوْ بِٱسْتِعْظَامِ ٱلْحَادِثِ كَقَوْلِهِ. أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى ٱلْأَعْوَادِ أَوْ بِٱلتَّسْجِيلِ عَلَى ٱلْأَكْوَانِ بِٱلْمُصِيبَةِ لِفَقْدِهِ كَقَوْلِهِ

مَنَابِتَ ٱلْعُشْبِ لَا حَامٍ وَلَا رَاعٍ ‏ ‏ ‏ مَضَى ٱلرَّدَى بِطَوِيلِ ٱلرُّمْحِ وَٱلْبَاعِ

أَوْ بِٱلْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتَفَجَّعْ لَهُ مِنَ ٱلْجَمَادَاتِ كَقَوْلِ ٱلْخَارِجِيَّةِ

أَيَا شَجَرَ ٱلْخَابُورِ مَالَكَ مُورِقاً ‏ ‏ ‏ كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ٱبْنِ طَرِيفِ

أَوْ بِتَهْنِئَةِ فَرِيقِهِ بِٱلرَّاحَةِ مِنْ ثِقَلِ وَطْأَتِهِ كَقَوْلِهِ

أَلْقَى ٱلرِّمَاحَ رَبِيعَةُ بْنُ نِزَارِ ‏ ‏ ‏ أَوْدَى ٱلرَّدَى بِفَرِيقِكَ ٱلْمِغْوَارِ

وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ مِنْ سَائِرِ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ وَمَذَاهِبِهِ وَتَنْتَظِمُ ٱلتَّرَاكِيبُ فِيهِ بِٱلْجُمَلِ وَغَيْرِ ٱلْجُمَلِ إِنْشَائِيَّةً وَخَبَرِيَّةً إِسْمِيَّةً وَفِعْلِيَّةً مُتَّفِقَةً وَغَيْرَ مُتَّفِقَةٍ مَفْصُولَةً وَمَوْصُولَةً عَلَى مَا هُوَ شَأْنُ ٱلتَّرَاكِيبِ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ فِي مَكَانِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ ٱلْأُخْرَى يُعَرِّفُكَ فِيهِ مَا تَسْتَفِيدُهُ بِٱلِارْتِيَاضِ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلْقَالَبِ ٱلْكُلِّيِّ ٱلمجرَّدِ فِي ٱلذِّهْنِ مِنَ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمُعَيَّنَةِ ٱلَّتِي يَنْطَبِقُ ذٰلِكَ ٱلْقَالَبُ عَلَى جَمِيعِهَا فَإِنَّ مُؤَلِّفَ ٱلْكَلَامِ هُوَ كَٱلْبَنَّاءِ أَوِ ٱلنَّسَّاجِ وَٱلصُّورَةَ ٱلذِّهْنِيَّةَ ٱلْمُنْطَبِقَةَ كَٱلْقَالَبِ ٱلَّذِي يُبْنَى فِيهِ أَوِ ٱلْمِنْوَالِ ٱلَّذِي يُنْسَجُ عَلَيْهِ فَإِنْ خَرَجَ عَنِ ٱلْقَالَبِ فِي بِنَائِهِ أَوْ عَنِ ٱلْمِنْوَالِ فِي نَسْجِهِ كَانَ فَاسِداً وَلَا تَقُولَنَّ إِنَّ مَعْرِفَةَ قَوَانِينِ ٱلْبَلَاغَةِ كَافِيَةٌ لِذٰلِكَ لِأَنَّا نَقُولُ قَوَانِينُ ٱلْبَلَاغَةِ إِنَّمَا هِيَ قَوَاعِد عِلْمِيَّةٌ قِيَاسِيَّةٌ تُفِيدُ جَوَازَ ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّرَاكِيبِ عَلَى هَيْئَتِهَا ٱلْخَاصَّةِ بِٱلْقِيَاسِ وَهُوَ قِيَاس عِلْمِيٌّ صَحِيحٌ مُطَّرِدٌ كَمَا هُوَ قِيَاسُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْإِعْرَابِيَّةِ وَهٰذِهِ ٱلْأَسَالِيبُ ٱلَّتِي نَحْن نُقَرِّرُهَا لَيْسَتْ مِنَ ٱلْقِيَاسِ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا هِيَ هَيْئَةٌ تَرْسَخُ فِي ٱلنَّفْسِ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلتَّرَاكِيبِ فِي شِعْرِ ٱلْعَرَبِ لِجَرَيَانِهَا عَلَى ٱللِّسَانِ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ صُورَتُهَا فَيَسْتَفِيدَ بِهَا ٱلْعَمَلَ عَلَى مِثَالِهَا وَٱلِاحْتِذَاءَ بِهَا فِي كُلِّ تَرْكِيبٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَمَا قَدَّمْنَا ذٰلِكَ فِي ٱلْكَلَامِ بِإِطْلَاقٍ وَإِنَّ ٱلْقَوَانِينَ ٱلْعِلْمِيَّةَ مِنَ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْبَيَانِ لَا تُفِيدُ تَعْلِيمَهُ بِوَجْهٍ وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَصِحُّ فِي قِيَاس كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَقَوَانِينِهِ ٱلْعِلْمِيَّةِ ٱسْتَعْمَلُوهُ وَإِنَّمَا ٱلْمُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ أَنْحَاء مَعْرُوفَةٌ يَطَّلِعُ عَلَيْهَا ٱلْحَافِظُونَ لِكَلَامِهِمْ تَنْدَرِجُ صُورَتُهَا تَحْتَ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ فَإِذَا نُظِرَ فِي شِعْرِ ٱلْعَرَبِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ وَبِهٰذِهِ ٱلْأَسَالِيبِ ٱلذِّهْنِيَّةِ ٱلَّتِي تَصِيرُ كَٱلْقَوَالِب كَانَ نَظَراً فِي ٱلْمُسْتَعْمَلِ مِنْ تَرَاكِيبِهِمْ لَا فِيمَا يَقْتَضِيهِ ٱلْقِيَاسُ وَلِهٰذَا قُلْنَا إِنَّ ٱلْمُحَصِّل لِهٰذِهِ ٱلْقَوَالِبِ فِي ٱلذِّهْنِ إِنَّمَا هُوَ حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ وَهٰذِهِ ٱلْقَوَالِبُ كَمَا تَكُونُ فِي ٱلْمَنْظُومِ تَكُونُ فِي ٱلْمَنْثُورِ فَإِنَّ ٱلْعَرَبَ ٱسْتَعْمَلُوا كَلَامَهُمْ فِي كِلَا ٱلْفَنَّيْن وَجَاءُوا بِهِ مُفَصَّلًا فِي ٱلنَّوْعَيْنِ فَفِي ٱلشِّعْرِ بِٱلْقِطَعِ ٱلْمَوْزُونَةِ وَٱلْقَوَافِي ٱلْمُقَيَّدَة وَٱسْتِقْلَالِ ٱلْكَلَامِ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ وَفِي ٱلْمَنْثُورِ يَعْتَبِرُونَ ٱلْمُوَازَنَةَ وَٱلتَّشَابُهَ بَيْنَ ٱلْقِطَعِ غَالِباً وَقَدْ يُقَيِّدُونَهُ بِٱلْأَسْجَاعِ وَقَدْ يُرْسِلُونَهُ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ مَعْرُوفَة فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُسْتَعْمَلُ مِنْهَا عِنْدَهُمْ هُوَ ٱلَّذِي يَبْنِي مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ تَأْلِيفَهُ وَلَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ كَلَامَهُمْ حَتَّى يَتَجَرَّدَ فِي ذِهْنِهِ مِنَ ٱلْقَوَالِبِ ٱلْمُعَيَّنَةِ ٱلشَّخْصِيَّة

قالَبٌ كُلِّيٌّ مُطْلَقٌ يَحْذُو حَذْوَهُ في التَّأْلِيفِ كَمَا يَحْذُو البَنَّاءُ عَلى القَالَبِ وَالنَّسَّاج على المِنْوالِ فلِهَذَا كانَ مِنْ تآليفِ الكَلامِ مُنْفَرِداً عَنْ نَظَرِ النَّحْوِيِّ وَالبَيَانِيِّ وَالعَرُوضِيِّ نَعَمْ إِنَّ مُرَاعَاةَ قوانِينِ هٰذِهِ العُلُومِ شَرْطٌ فِيهِ لا يَتِمُّ بِدُونِهَا فإذا تَحَصَّلَتْ هٰذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا في الكَلامِ اخْتُصَّ بِنَوْعٍ مِنَ النَّظَرِ لَطِيفٍ في هٰذِهِ القَوالِبِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا أَسَاليب وَلا يُفِيدُهُ إِلَّا حِفْظُ كَلامِ العَرَبِ نَظْماً وَنَثْراً وَإِذا تَقَرَّرَ مَعْنَى الأُسْلُوبِ مَا هُوَ فَلْنَذْكُرْ بَعْدَهُ حَدًّا أَوْ رَسْماً لِلشِّعْرِ بِهِ تُفْهَمُ حَقِيقَتُهُ عَلى صُعُوبَةِ هٰذَا الغَرَضِ فَإِنَّا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ لأَحَدٍ مِنَ المُتَقَدِّمِينَ فِيمَا رَأَيْنَاهُ وَقَوْلُ العَرُوضِيِّينَ فِي حَدِّهِ إِنَّهُ الكَلامُ المَوْزُونُ المُقَفَّى لَيْسَ بِحَدٍّ لِهٰذَا الشِّعْرِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ وَلا رَسْمٍ لَهُ وَصِنَاعَتُهُمْ إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي الشِّعْرِ بِاعْتِبَارِ مَا فِيهِ مِنَ الإِعْرَابِ وَالبَلاغَةِ وَالوَزْنِ وَالقَوالِبِ الخَاصَّةِ فَلا جَرَمَ إِنَّ حَدَّهُمْ ذٰلِكَ لا يَصْلُحُ لَهُ عِنْدَنَا فَلا بُدَّ مِنْ تَعْرِيفٍ يُعْطِينَا حَقِيقَتَهُ مِنْ هٰذِهِ الحَيْثِيَّةِ فَنَقُولُ أَلشِّعْرُ هُوَ الكَلامُ البَلِيغُ المَبْنِيُّ عَلى الاسْتِعَارَةِ وَالأَوْصَافِ المُفَصَّلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ فِي الوَزْنِ وَالرَّوِيِّ مُسْتَقِلٍّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصَدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ الجَارِي عَلى أَسَاليبِ العَرَبِ المَخْصُوصَةِ بِهِ فَقَوْلُنَا الكَلامُ البَلِيغُ جِنْسٌ وَقَوْلُنَا المَبْنِيُّ عَلى الاسْتِعَارَةِ وَالأَوْصَافِ فَصْلٌ عَمَّا يَخْلُو مِنْ هٰذِهِ فَإِنَّهُ فِي الغَالِبِ لَيْسَ بِشِعْرٍ وَقَوْلُنَا المُفَصَّلُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةِ الوَزْنِ وَالرَّوِيِّ فَصْلٌ لَهُ عَنِ الكَلامِ المَنْثُورِ الَّذِي لَيْسَ بِشِعْرٍ عِنْدَ الكُلِّ وَقَوْلُنَا مُسْتَقِلٌّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا فِي غَرَضِهِ وَمَقْصَدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ بَيَانٌ لِلْحَقِيقَةِ لِأَنَّ الشِّعْرَ لا تَكُونُ أَبْيَاتُهُ إِلَّا كَذٰلِكَ وَلَمْ يُفْصَلْ بِهِ شَيْءٌ وَقَوْلُنَا الجَارِي عَلى الأَسَاليبِ المَخْصُوصَةِ بِهِ فَصْلٌ لَهُ عَمَّا لَمْ يَجْرِ مِنْهُ عَلى أَسَاليبِ العَرَبِ المَعْرُوفَةِ وَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لا يَكُونُ شِعْراً إِنَّمَا هُوَ كَلامٌ مَنْظُومٌ لِأَنَّ الشِّعْرَ لَهُ أَسَاليبُ تَخُصُّهُ لا تَكُونُ لِلْمَنْثُورِ وَكَذَا أَسَاليبُ المَنْثُورِ لا تَكُونُ لِلشِّعْرِ فَمَا كَانَ مِنَ الكَلامِ مَنْظُوماً وَلَيْسَ عَلى تِلْكَ الأَسَاليبِ فَلا يَكُونُ شِعْراً وَبِهٰذَا الاعْتِبَارِ كَانَ الكَثِيرُ مِمَّنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ الأَدَبِيَّةِ يَرَوْنَ أَنَّ نَظْمَ المُتَنَبِّي وَالمَعَرِّي لَيْسَ هُوَ مِنَ الشِّعْرِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَجْرِيَا عَلى أَسَاليبِ العَرَبِ مِنَ الأُمَمِ عِنْدَمَا يَرَى أَنَّ الشِّعْرَ يُوجَدُ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَمَنْ يَرَى أَنَّهُ لا يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ فَلا يَحْتَاجُ إِلى ذٰلِكَ وَيَقُولُ مَكَانَهُ الجَارِي عَلى الأَسَاليبِ المَخْصُوصَةِ وَإِذْ قَدْ فَرَغْنَا مِنَ الكَلامِ عَلى حَقِيقَةِ الشِّعْرِ فَلْنَرْجِع

إلى ٱلكلام في كَيفِيَّةِ عَمَلِهِ فَنَقُولُ . إعْلَمْ أنَّ لِعَمَلِ ٱلشِّعْرِ وَإحكَامِ صِناعَتِهِ شُرُوطاً أوَّلُهَا ٱلحِفظُ مِنْ جِنْسِهِ أيْ مِنْ جِنْسِ شِعْرِ ٱلعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ في ٱلنَّفْسِ مَلَكَةٌ يُنْسَجُ على مِنْوالِهَا وَيُتَخَيَّرُ ٱلمَحْفُوظُ مِنَ ٱلحُرِّ ٱلنَّقِيِّ ٱلكَثِيرِ ٱلأساليبِ وَهذا ٱلمَحْفُوظُ ٱلمُخْتَارُ أقَلُّ مَا يَكْفِي فِيهِ شِعْرُ شاعِرٍ مِنَ ٱلفُحُولِ ٱلإسلامِيِّينَ مِثْلِ ٱبْنِ أبي رَبيعَةَ وَكُثَيِّرٍ وَذي ٱلرُّمَّةِ وَجَرِيرٍ وَأبي نُوَاسٍ وَحَبِيبٍ وَٱلبُحْتُرِيِّ وَٱلرَّضِيِّ وَأبي فِرَاسٍ وَأكْثَرُهُ شِعْرُ كِتَابِ ٱلأغاني لِأنَّهُ جَمَعَ شِعْرَ أهْلِ ٱلطَّبَقَةِ ٱلإسلامِيَّةِ كُلَّهُ وَٱلمُخْتَارُ مِنْ شِعْرِ ٱلجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ كانَ خَالِياً مِنَ ٱلمَحْفُوظِ فَنَظْمُهُ قاصِرٌ رَدِيءٌ وَلا يُعْطِيهِ ٱلرَّوْنَقَ وَٱلحَلاوَةَ إلَّا كَثْرَةُ ٱلمَحْفُوظِ فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أوْ عُدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ وَٱجْتِنَابُ ٱلشِّعْرِ أوْلَى بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحْفُوظٌ ثُمَّ بَعْدَ ٱلإمْتِلاءِ مِنَ ٱلحِفْظِ وَشَحْذِ ٱلقَرِيحَةِ لِلنَّسْجِ عَلى ٱلمِنْوالِ يُقْبِلُ عَلى ٱلنَّظْمِ وَبِٱلإكْثَارِ مِنْهُ تَسْتَحْكِمُ مَلَكَتُهُ وَتَرْسَخُ وَرُبَّمَا يُقَالُ إنَّ مِنْ شَرْطِهِ نِسْيَانَ ذَلِكَ ٱلمَحْفُوظِ لِتُمْحَى رُسُومُهُ ٱلحَرْفِيَّةُ ٱلظَّاهِرَةُ إذْ هِيَ صَادِرَةٌ عَنِ ٱسْتِعْمَالِهَا بِعَيْنِهَا فَإذا نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ ٱلنَّفْسُ بِهَا ٱنْتَقَشَ ٱلأُسْلُوبُ فِيهَا كَأنَّهُ مِنْوالٌ يُؤْخَذُ بِٱلنَّسْجِ عَلَيْهِ بِأمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةً ثُمَّ لا بُدَّ لَهُ مِنَ ٱلخَلْوَةِ وَٱسْتِجَادَةِ ٱلمَكَانِ ٱلمَنْظُورِ فِيهِ مِنَ ٱلمِيَاهِ وَٱلأزْهَارِ وَكَذا ٱلمَسْمُوعِ لِٱسْتِنَارَةِ ٱلقَرِيحَةِ بِٱسْتِجْمَاعِهَا وَتَنْشِيطِهَا بِمَلاذِّ ٱلسُّرُورِ ثُمَّ مَعَ هذا كُلِّهِ فَشَرْطُهُ أنْ يَكُونَ عَلى جَمَامٍ وَنَشَاطٍ فَذَلِكَ أجْمَعُ لَهُ وَأنْشَطُ لِلقَرِيحَةِ أنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ ذَلِكَ ٱلمِنْوالِ ٱلَّذي في حِفْظِهِ قالُوا وَخَيْرُ ٱلأوْقَاتِ لِذَلِكَ أوْقَاتُ ٱلبُكَرِ عِنْدَ ٱلهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ وَفَرَاغِ ٱلمَعِدَةِ وَنَشَاطِ ٱلفِكْرِ وَفي هؤُلاءِ ٱلجَمَامُ وَرُبَّمَا قالُوا إنَّ مِنْ بَوَاعِثِهِ ٱلعِشْقَ وَٱلإنْتِشَاءَ ذَكَرَ ذَلِكَ ٱبْنُ رَشِيقٍ في كِتَابِ ٱلعُمْدَةِ وَهُوَ ٱلكِتَابُ ٱلَّذي ٱنْفَرَدَ بِهذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَإعْطَاءِ حَقِّهَا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَا أحَدٌ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ قالُوا فَإنِ ٱسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ بَعدَ هذا كُلِّهِ فَلْيَتْرُكْهُ إلى وَقْتٍ آخَرَ وَلا يُكْرِهْ نَفْسَهُ عَلَيْهِ وَلْيَكُنْ بِنَاءُ ٱلبَيْتِ عَلى ٱلقَافِيَةِ مِنْ أوَّلِ صَوْغِهِ وَنَسْجِهِ بَعْضَهَا وَيَبْنِي ٱلكَلامَ عَلَيْهَا إلى آخِرِهِ لِأنَّهُ إنْ غَفَلَ عَنْ بِنَاءِ ٱلبَيْتِ عَلى ٱلقَافِيَةِ صَعُبَ عَلَيْهِ وَضْعُهَا في مَحَلِّهَا فَرُبَّمَا تَجِيءُ نافِرَةً قَلِقَةً وَإذا سَمَحَ ٱلخَاطِرُ بِٱلبَيْتِ وَلَمْ يُنَاسِبِ ٱلَّذي عِنْدَهُ فَلْيَتْرُكْهُ إلى مَوْضِعِهِ ٱلألْيَقِ بِهِ فَإنَّ كُلَّ بَيْتٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقَ إلَّا ٱلمُنَاسَبَةُ فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعدَ

ٱلْخَلَاصِ مِنْهُ بِٱلتَّنْقِيحِ وَٱلنَّقْدِ وَلَا يَضَنَّ بِهِ عَلَى ٱلتَّرْكِ إِذَا لَمْ يَبْلُغِ ٱلإِجَادَةَ فَإِنَّ ٱلإِنْسَانَ مَفْتُونٌ بِشِعْرِهِ إِذْ هُوَ نَبَاتُ فِكْرِهِ وَٱخْتِرَاعُ قَرِيحَتِهِ وَلَا يَسْتَعْمِلُ فِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِلَّا ٱلأَفْصَحَ مِنَ ٱلتَّرَاكِيبِ وَٱلْخَالِصَ مِنَ ٱلضَّرُورَاتِ ٱللِّسَانِيَّةِ فَلْيَهْجُرْهَا فَإِنَّهَا تَنْزِلُ بِٱلْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَقَدْ حَظَرَ أَئِمَّةُ ٱللِّسَانِ ٱلْمُوَلَّدَ مِنِ ٱرْتِكَابِ ٱلضَّرُورَةِ إِذْ هُوَ فِي سَعَةٍ مِنْهَا بِٱلْعُدُولِ عَنْهَا إِلَى ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْمُثْلَى مِنَ ٱلْمَلَكَةِ وَيَجْتَنِبُ أَيْضاً ٱلْمُعَقَّدَ مِنَ ٱلتَّرَاكِيبِ جُهْدَهُ وَإِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ أَلْفَاظَهُ إِلَى ٱلْفَهْمِ وَكَذٰلِكَ كَثْرَةُ ٱلْمَعَانِي فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ فَإِنَّ فِيهِ نَوْعَ تَعْقِيدٍ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَإِنَّمَا ٱلْمُخْتَارُ مِنْهُ مَا كَانَتْ أَلْفَاظُهُ طِبْقاً عَلَى مَعَانِيهِ أَوْ أَوْفَى فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي كَثِيرَةً كَانَ حَشْواً وَٱسْتُعْمِلَ ٱلذِّهْنُ بِٱلْغَوْصِ عَلَيْهَا فَمَنَعَ ٱلذَّوْقَ عَنِ ٱسْتِيفَاءِ مُدْرَكِهِ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ وَلَا يَكُونُ ٱلشِّعْرُ سَهْلًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ أَلْفَاظَهُ إِلَى ٱلذِّهْنِ وَلِهٰذَا كَانَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ ٱللهُ يَعِيبُونَ شِعْرَ أَبِي بَكْرِ [1] بْنِ خَفَاجَةَ شَاعِرِ ٱلأَنْدَلُسِ لِكَثْرَةِ مَعَانِيهِ وَٱزْدِحَامِهَا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ كَمَا كَانُوا يَعِيبُونَ شِعْرَ ٱلْمُتَنَبِّي وَٱلْمَعَرِّي بِعَدَمِ ٱلنَّسْجِ عَلَى ٱلأَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِيَّةِ كَمَا مَرَّ فَكَانَ شِعْرُهُمَا كَلَاماً مَنْظُوماً نَازِلاً عَنْ طَبَقَةِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْحَاكِمُ بِذٰلِكَ هُوَ ٱلذَّوْقُ وَلْيَجْتَنِبِ ٱلشَّاعِرُ أَيْضاً ٱلْحُوشِيَّ مِنَ ٱلأَلْفَاظِ وَٱلْمُقَصِّرَ وَكَذٰلِكَ ٱلسُّوقِيَّ ٱلْمُبْتَذَلَ بِٱلتَّدَاوُلِ بِٱلِٱسْتِعْمَالِ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ بِٱلْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْبَلَاغَةِ أَيْضاً فَيَصِيرُ مُبْتَذَلاً وَيَقْرُبُ مِنْ عَدَمِ ٱلإِفَادَةِ كَقَوْلِهِمِ ٱلنَّارُ حَارَّةٌ وَٱلسَّمَاءُ فَوْقَنَا وَبِمِقْدَارِ مَا يَقْرُبُ مِنْ طَبَقَةِ عَدَمِ ٱلإِفَادَةِ يَبْعُدُ عَنْ رُتْبَةِ ٱلْبَلَاغَةِ إِذْ هُمَا طَرَفَانِ وَلِهٰذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ فِي ٱلرَّبَّانِيَّاتِ وَٱلنَّبَوِيَّاتِ قَلِيلَ ٱلإِجَادَةِ فِي ٱلْغَالِبِ وَلَا يَحْذِقُ فِيهِ إِلَّا ٱلْفُحُولُ وَفِي ٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْعُسْرِ لِأَنَّ مَعَانِيَهَا مُتَدَاوَلَةٌ بَيْنَ ٱلْجُمْهُورِ فَتَصِيرُ مُبْتَذَلَةً لِذٰلِكَ وَإِذَا تَعَذَّرَ ٱلشِّعْرُ بَعْدَ هٰذَا كُلِّهِ فَلْيُرَاوِضْهُ وَيُعَاوِدْهُ فَإِنَّ ٱلْقَرِيحَةَ مِثْلُ ٱلضَّرْعِ يَدِرُّ بِٱلِٱمْتِرَاءِ وَيَجِفُّ بِٱلتَّرْكِ وَٱلإِهْمَالِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ وَتَعَلُّمُهَا مُسْتَوْفًى فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ لِٱبْنِ رَشِيقٍ وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا مَا حَضَرَنَا بِحَسَبِ ٱلْجُهْدِ وَمَنْ أَرَادَ ٱسْتِيفَاءَ ذٰلِكَ فَعَلَيْهِ بِذٰلِكَ ٱلْكِتَابِ فَفِيهِ ٱلْبُغْيَةُ مِنْ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ نُبْذَةٌ كَافِيَةٌ وَٱللهُ ٱلْمُعِينُ وَقَدْ نَظَمَ ٱلنَّاسُ فِي أَمْرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ مَا يَجِبُ فِيهَا وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي ذٰلِكَ وَأَظُنُّهُ لِٱبْنِ رَشِيقٍ

(١) قوله ابي بكر وفي نسخة ابي اسحاق الخ

لَعَنَ ٱللهُ صَنعَةَ ٱلشِّعْرِ مَاذَا مِنْ صُنُوفِ ٱلْجُهَّالِ مِنْهُ لَقِينَا
يُؤْثِرُونَ ٱلْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا كَانَ سَهْلاً لِلسَّامِعِينَ مُبِينَا
وَيَرَوْنَ ٱلْمُحَالَ مَعْنًى صَحِيحاً وَخَسِيسَ ٱلْكَلَامِ شَيْئاً ثَمِينَا
يَجْهَلُونَ ٱلصَّوَابَ مِنْهُ وَلاَ يَدْ رُونَ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَا
فَهُمُ عِنْدَ مَنْ سِوَانَا يُلاَمُو نَ وَفِي ٱلْحَقِّ عِنْدَنَا يُعْذَرُونَا
إِنَّمَا ٱلشِّعْرُ مَا يُنَاسِبُ فِي ٱلنَّظْـ مِ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلصِّفَاتِ فُنُونَا
فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضاً وَأَقَامَتْ لَهُ ٱلصُّدُورُ ٱلْمُتُونَا
كُلُّ مَعْنًى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا تَتَمَنَّى وَلَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ ٱلْبَيَانِ إِلَى أَنْ كَادَ حُسْناً يَبِينُ لِلنَّاظِرِينَا
فَكَأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ مِنْهُ وُجُوهٌ وَٱلْمَعَانِي رُكِّبْنَ فِيهَا عُيُونَا
إِنَّمَا فِي ٱلْمَرَامِ حَسْبُ ٱلْأَمَانِي يَتَحَلَّى بِحُسْنِهِ ٱلْمُنْشِدُونَا
فَإِذَا مَا مَدَحْتَ بِٱلشِّعْرِ حُرّاً رُمْتَ فِيهِ مَذَاهِبَ ٱلْمُشْتَهِينَا
فَجَعَلْتَ ٱلنَّسِيبَ سَهْلاً قَرِيباً وَجَعَلْتَ ٱلْمَدِيحَ صِدْقاً مُبِينَا
وَتَنَكَّبْتَ مَا يُهَجَّنُ فِي ٱلسَّمْـ عِ وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مَوْزُونَا
وَإِذَا مَا عَرَّضْتَهُ بِهِجَاءٍ عِبْتَ فِيهِ مَذَاهِبَ ٱلْمُرْقِينَا
فَجَعَلْتَ ٱلتَّصْرِيحَ مِنْهُ دَوَاءً وَجَعَلْتَ ٱلتَّعْرِيضَ دَاءً دَفِينَا
وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى ٱلْغَا دِينَ يَوْماً لِلْبَيْنِ وَٱلظَّاعِنِينَا
حُلْتَ دُونَ ٱلْأَسَى وَذَلَّلْتَ مَا كَا نَ مِنَ ٱلدَّمْعِ فِي ٱلْعُيُونِ مَصُونَا
ثُمَّ إِنْ كُنْتَ عَاتِباً جِئْتَ بِٱلْوَعْدِ وَعِيداً وَبِٱلصُّعُوبَةِ لِينَا
فَتَرَكْتَ ٱلَّذِي عَتَبْتَ عَلَيْهِ حَذِراً آمِناً عَزِيزاً مَهِينَا
وَأَصَحُّ ٱلْقَرِيضِ مَا قَارَبَ ٱلنَّظْـ مَ وَإِنْ كَانَ وَاضِحاً مُسْتَبِينَا
فَإِذَا قِيلَ أَطْمَعَ ٱلنَّاسَ طُرّاً وَإِذَا رِيمَ أَعْجَزَ ٱلْمُعْجِزِينَا

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم

أَٱلشِّعْرُ مَا قَوَّمْتَ زَيْغَ صُدُورِهِ وَشَدَدْتَ بِٱلتَّهْذِيبِ أُسَّ مُتُونِهِ
وَرَأَبْتَ بِٱلْإِطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ وَفَتَحْتَ بِٱلْإِيجَازِ عُورَ عُيُونِهِ

وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ وَجَمَعْتَ بَيْنَ مُجَمِّهِ وَمُعِينِهِ
وَإِذَا مَدَحْتَ بِهِ جَواداً مَاجِداً وَقَضَيْتَهُ بِالشُّكْرِ حَقَّ دُيُونِهِ
أَصْفَيْتَهُ بِتَفَنُّشٍ وَرَضِيتَهُ وَخَصَصْتَهُ بِخَطِيرِهِ وَثَمِينِهِ
فَيَكُونُ جَزْلاً في مَسَاقِ صُنُوفِهِ وَيَكُونُ سَهْلاً في اتِّفَاقِ فُنُونِهِ
وَإِذَا بَكَيْتَ بِهِ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا أَجْرَيْتَ لِلْمَحْزُونِ مَاءَ شُؤُونِهِ
وَإِذَا أَرَدْتَ كِتَايَةً عَنْ رِيبَةٍ بَايَنْتَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَبُطُونِهِ
فَجَعَلْتَ سَامِعَهُ يَشُوبُ شُكُوكَهُ بِثُبُوتِهِ وَظُنُونَهُ بِيَقِينِهِ

الفصل السابع والاربعون

في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني

إِعْلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ الْكَلَامِ نَظْماً وَنَثْراً إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَلْفَاظِ لا فِي الْمَعَانِي وَإِنَّمَا الْمَعَانِي تَبَعٌ لَهَا وَهِيَ أَصْلٌ فَالصَّانِعُ الَّذِي يُحَاوِلُ مَلَكَةَ الْكَلَامِ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ إِنَّمَا يُحَاوِلُهَا فِي الْأَلْفَاظِ بِحِفْظِ أَمْثَالِهَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ لِيَكْثُرَ اسْتِعْمَالُهُ وَجَرْيُهُ على لِسَانِهِ حَتَّى تَسْتَقِرَّ لَهُ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ مُضَرَ وَيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعُجْمَةِ الَّتِي رَبِيَ عَلَيْهَا في جِيلِهِ وَيَفْرِضَ نَفْسَهُ مِثْلَ وَلِيدٍ نَشَأَ فِي جِيلِ الْعَرَبِ وَيُلَقَّنُ لُغَتَهُمْ كَمَا يُلَقَّنُهَا الصَّبِيُّ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي لِسَانِهِمْ وَذَلِكَ أَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ لِلِّسَانِ مَلَكَةً مِنَ الْمَلَكَاتِ فِي النُّطْقِ يُحَاوِلُ تَحْصِيلَهَا بِتَكْرَارِهَا عَلَى اللِّسَانِ حَتَّى تَحْصُلَ وَالَّذِي فِي اللِّسَانِ وَالنُّطْقِ إِنَّمَا هُوَ الْأَلْفَاظُ وَأَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ فِي الضَّمَائِرِ وَأَيْضاً فَالْمَعَانِي مَوْجُودَةٌ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ وَفِي طَوْعِ كُلِّ فِكْرٍ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَرْضَى فَلا يَحْتَاجُ إلى صِنَاعَةٍ وَتَأْلِيفُ الْكَلَامِ لِلْعِبَارَةِ عَنْهَا هُوَ الْمُحْتَاجُ لِلصِّنَاعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَهُوَ بِمَثَابَةِ الْقَوَالِبِ لِلْمَعَانِي فَكَمَا أَنَّ الْأَوَانِيَ الَّتِي يُغْتَرَفُ بِهَا الْمَاءُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْهَا آنِيَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالصَّدَفِ وَالزُّجَاجِ وَالْخَزَفِ وَالْمَاءُ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ وَتَخْتَلِفُ الْجَوْدَةُ فِي الْأَوَانِي الْمَمْلُوءَةِ بِالْمَاءِ بِاخْتِلَافِ جِنْسِهَا لا بِاخْتِلافِ الْمَاءِ كَذَلِكَ جَوْدَةُ اللُّغَةِ وَبَلَاغَتُهَا فِي الْاِسْتِعْمَالِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ طَبَقَاتِ الْكَلَامِ فِي تَأْلِيفِهِ بِاعْتِبَارِ تَطْبِيقِهِ عَلَى الْمَقَاصِدِ وَالْمَعَانِي وَاحِدَةٌ فِي نَفْسِهَا وَإِنَّمَا الْجَاهِلُ بِتَأْلِيفِ الْكَلَامِ وَأَسَالِيبِهِ عَلَى مُقْتَضَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ إِذَا حَاوَلَ الْعِبَارَةَ عَنْ مَقْصُودِهِ وَلَمْ يُحْسِنْ بِمَثَابَةِ الْمُقْعَدِ الَّذِي يَرُومُ النُّهُوضَ

وَلا يَسْتَطِيعُهُ لِفِقْدَانِ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَٱللّهُ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .

الفصل الثامن والاربعون

في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْحِفْظِ لِمَنْ يَرُومُ تَعَلُّمَ ٱللِّسَانِ ٱلعَرَبِيِّ وَعَلى قَدَرِ جودَةِ ٱلمَحْفُوظِ وَطَبَقَتِهِ فِي جِنْسِهِ وَكَثْرَتِهِ مِنْ قِلَّتِهِ تَكُونُ جودَةُ ٱلمَلَكَةِ ٱلحاصِلَةِ عَنْهُ لِلحافِظِ فَمَنْ كانَ مَحْفُوظُهُ شِعْرَ حَبِيبٍ أَوِ ٱلعَتَّابِيِّ أَوِ ٱبْنِ ٱلمُعْتَزِّ أَوِ ٱبْنِ هانِىءٍ أَوِ ٱلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ أَوْ رَسائِلَ ٱبْنِ ٱلمُقَفَّعِ أَوْ سَهْلِ ٱبْنِ هارُونَ أَوِ ٱبْنِ ٱلزَّيَّاتِ أَوِ ٱلبَدِيعِ أَوِ ٱلصَّابِيءِ تَكُونُ مَلَكَتُهُ أَجْوَدَ وَأَعْلى مَقاماً وَرُتْبَةً فِي ٱلبَلاغَةِ مِمَّنْ يَحْفَظُ شِعْرَ ٱبْنِ سَهْلٍ مِنَ ٱلمُتَأَخِّرِينَ أَوِ ٱبْنِ ٱلنَّبِيهِ أَوْ تَرَسُّلَ ٱلبَيْسانِيِّ أَوِ ٱلعِمادِ ٱلأَصْبَهانِيِّ لِنُزُولِ طَبَقَةِ هؤُلاءِ عَنْ أُولئِكَ يَظْهَرُ ذلِكَ لِلبَصِيرِ ٱلنَّاقِدِ صاحِبِ ٱلذَّوْقِ وَعَلى مِقْدارِ جودَةِ ٱلمَحْفُوظِ أَوِ ٱلمَسْمُوعِ تَكُونُ جودَةُ ٱلإِسْتِعْمالِ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ إِجادَةُ ٱلمَلَكَةِ مِن بَعْدِهِما فَبِٱرْتِقاءِ ٱلمَحْفُوظِ فِي طَبَقَتِهِ مِنَ ٱلكَلامِ تَرْتَقِي ٱلمَلَكَةُ ٱلحاصِلَةُ لِأَنَّ ٱلطَّبْعَ إِنَّما يَنْسِجُ عَلى مِنْوالِها وَتَنْمُو قُوَى ٱلمَلَكَةِ بِتَغْذِيَتِها وَذلِكَ أَنَّ ٱلنَّفْسَ وَإِنْ كانَتْ فِي جِبِلَّتِها واحِدَةً بِٱلنَّوْعِ فَهِيَ تَخْتَلِفُ فِي ٱلبَشَرِ بِٱلقُوَّةِ وَٱلضَّعْفِ فِي ٱلإِدْراكاتِ وَٱخْتِلافُها إِنَّما هُوَ بِٱخْتِلافِ ما يَرِدُ عَلَيْها مِنَ ٱلإِدْراكاتِ وَٱلمَلَكاتِ وَٱلأَلْوانِ ٱلَّتِي تُكَيِّفُها مِنْ خارِجٍ فَبِهذِهِ يَتِمُّ وُجُودُها وَتَخْرُجُ مِنَ ٱلقُوَّةِ إِلى ٱلفِعْلِ صُورَتُها وَٱلمَلَكاتُ ٱلَّتِي تَحْصُلُ لَها إِنَّما تَحْصُلُ عَلى ٱلتَّدْرِيجِ كَما قَدَّمْناهُ فَٱلمَلَكَةُ ٱلشِّعْرِيَّةُ تَنْشَأُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَمَلَكَةُ ٱلكِتابَةِ بِحِفْظِ ٱلأَسْجاعِ وَٱلتَّرْسِيلِ وَٱلعِلْمِيَّةُ بِمُخالَطَةِ ٱلعُلُومِ وَٱلإِدْراكاتِ وَٱلأَبْحاثِ وَٱلأَنْظارِ وَٱلفِقْهِيَّةُ بِمُخالَطَةِ ٱلفِقْهِ وَتَنْظِيرِ ٱلمَسائِلِ وَتَفْرِيعِها وَتَخْرِيجِ ٱلفُرُوعِ عَلى ٱلأُصُولِ وَٱلتَّصَوُّفِيَّةُ ٱلرَّبَّانِيَّةُ بِٱلعِباداتِ وَٱلأَذْكارِ وَتَعْطِيلِ ٱلحَواسِّ ٱلظَّاهِرَةِ بِٱلخَلْوَةِ وَٱلإِنْفِرادِ عَنِ ٱلخَلْقِ ما ٱسْتَطاعَ حَتَّى تَحْصُلَ لَهُ مَلَكَةُ ٱلرُّجُوعِ إِلى حِسِّهِ ٱلباطِنِ وَرُوحِهِ وَيَنْقَلِبُ رَبَّانِيّاً وَكَذا سائِرُها وَلِلنَّفْسِ فِي كُلِّ واحِدٍ مِنْها لَوْنٌ تَتَكَيَّفُ بِهِ وَعَلى حَسَبِ ما نَشَأَتِ ٱلمَلَكَةُ عَلَيْهِ مِنْ جودَةٍ أَوْ رَداءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ ٱلمَلَكَةُ فِي نَفْسِها فَمَلَكَةُ ٱلبَلاغَةِ ٱلعالِيَةِ ٱلطَّبَقَةِ فِي جِنْسِها إِنَّما تَحْصُلُ بِحِفْظِ ٱلعالِي فِي طَبَقَتِهِ مِنَ ٱلكَلامِ وَلِهذا كانَ ٱلفُقَهاءُ وَأَهْلُ ٱلعُلُومِ كُلُّهُمْ قاصِرِينَ فِي ٱلبَلاغَةِ وَما ذلِكَ إِلَّا لِما

يسبق إلى محفوظهم ويمتلىء به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها في البلاغة فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلىء من حفظ النقي الحر من كلام العرب. أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له وهو هذا

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن أين لك ذلك فقال من قوله ما الفرق إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب فقلت له لله أبوك إنه ابن النحوي. وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل وانتقائهم لهم الجيد من الكلام. ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له أجد استصعاباً علي في نظم الشعر متى رمته مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وإن كان محفوظي قليلاً وإنما أتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس فامتلأ محفوظي من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب فعاق القريحة عن بلوغها فنظر إلي ساعة معجباً ثم قال لله أنت وهل يقول هذا إلا مثلك. ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها

من كلامِ الجاهليّةِ في منثورِهِمْ ومنظومِهِمْ فإنّا نجدُ شِعْرَ حسّانَ بنِ ثابتٍ وعُمَرَ بنِ أبي ربيعةَ والحطيئةِ وجريرٍ والفرزدقِ ونُصَيبٍ وغيلانَ ذي الرُّمّةِ والأحوصِ وبشّارٍ ثمّ كلامَ السّلفِ من العربِ في الدّولةِ الأمويّةِ وصدراً من الدّولةِ العبّاسيّةِ في خُطَبِهِمْ وترسيلِهِمْ ومحاوراتِهِمْ للملوكِ أرفعَ طبقةً في البلاغةِ من شِعْرِ النّابغةِ وعنترةَ وابنِ كلثومٍ وزهيرٍ وعلقمةَ بنِ عَبَدةَ وطَرَفةَ بنِ العبدِ ومن كلامِ الجاهليّةِ في منثورِهِم ومحاوراتِهِمْ والطّبعُ السّليمُ والذّوقُ الصّحيحُ شاهدانِ بذلكَ للنّاقدِ البصيرِ بالبلاغةِ والسّببُ في ذلكَ أنّ هؤلاءِ الّذينَ أدركوا الإسلامَ سمعوا الطّبقةَ العاليةَ من الكلامِ في القرآنِ والحديثِ اللّذينِ عجزَ البشرُ عن الإتيانِ بمثليهما لكونِها ولجتْ في قلوبِهِمْ ونشأتْ على أساليبِها نفوسُهُمْ فنهضتْ طباعُهُمْ وارتقتْ ملكاتُهُمْ في البلاغةِ على ملكاتِ من قبلَهُمْ من أهلِ الجاهليّةِ ممّنْ لم يسمعْ هذهِ الطّبقةَ ولا نشأَ عليها فكانَ كلامُهُمْ في نظمِهِمْ ونثرِهِمْ أحسنَ ديباجةً وأصفى رونقاً من أولئكَ وأرصفَ مبنًى وأعدلَ تثقيفاً بما استفادوهُ من الكلامِ العالي الطّبقةِ وتأمّلْ ذلكَ يشهدْ لكَ بهِ ذوقُكَ إنْ كنتَ من أهلِ الذّوقِ والبصرِ بالبلاغةِ. ولقدْ سألتُ يوماً شيخَنا الشّريفَ أبا القاسمِ قاضيَ غرناطةَ لعهدِنا وكانَ شيخَ هذهِ الصّناعةِ أخذَ بسبتةَ عن جماعةٍ من مشيختِها من تلاميذِ الشّلوبينِ واستبحرَ في علمِ اللّسانِ وجاءَ من وراءِ الغايةِ فيهِ فسألتُهُ يوماً ما بالُ العربِ الإسلاميّينَ أعلى طبقةً في البلاغةِ من الجاهليّينَ ولم يكنْ ليستنكرَ ذلكَ بذوقِهِ فسكتَ طويلاً ثمّ قالَ لي واللهِ ما أدري فقلتُ أعرضُ عليكَ شيئاً ظهرَ لي في ذلكَ ولعلّهُ السّببُ فيهِ وذكرتُ لهُ هذا الّذي كتبتُ فسكتَ معجباً ثمّ قالَ لي يا فقيهُ هذا كلامٌ من حقّهِ أنْ يُكتبَ بالذّهبِ وكانَ من بعدِها يؤثرُ محلّي ويُصيخُ في مجالسِ التّعليمِ إلى قولي ويشهدُ لي بالنّباهةِ في العلومِ واللهُ خلقَ الإنسانَ وعلّمَهُ البيانَ .

الفصل التاسع والاربعون

في ترفع اهل المراتب عن انتحال الشعر

إعلَمْ أنّ الشِّعرَ كانَ ديواناً للعربِ فيهِ علومُهُمْ وأخبارُهُمْ وحِكَمُهُمْ وكانَ رؤساءُ العربِ متنافسينَ فيهِ وكانوا يقفونَ بسوقِ عكاظَ لإنشادِهِ وعرضِ كلِّ واحدٍ منهُم

دِيبَاجَةٌ عَلَى فُحُولِ ٱلشَّأْنِ وَأَهْلِ ٱلْبَصَرِ لِتَمْيِيزِ حَوْلِهِ حَتَّى ٱنْتَهَوْا إِلَى ٱلْمُنَاغَاةِ فِي تَعْلِيقِ أَشْعَارِهِمْ بِأَرْكَانِ ٱلْبَيْتِ ٱلْحَرَامِ مَوْضِعِ حَجِّهِمْ وَبَيْتِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا فَعَلَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ ٱبْنُ حُجْرٍ وَٱلنَّابِغَةُ ٱلذُّبْيَانِيُّ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى وَعَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادٍ وَطَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدَةَ وَٱلْأَعْشَى وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلسَّبْعِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَتَوَصَّلُ الى تَعْلِيقِ ٱلشِّعْرِ بِهَا مَنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى ذَٰلِكَ بِقَوْمِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ وَمَكَانِهِ فِي مُضَرَ عَلَى مَا قِيلَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَتِهَا بِٱلْمُعَلَّقَاتِ ثُمَّ ٱنْصَرَفَ ٱلْعَرَبُ عَنْ ذَٰلِكَ أَوَّلَ ٱلْإِسْلَامِ بِمَا شَغَلَهُمْ مِنْ أَمْرِ ٱلدِّينِ وَٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْوَحْيِ وَمَا أَدْهَشَهُمْ مِنْ أُسْلُوبِ ٱلْقُرْآنِ وَنَظْمِهِ فَأُخْرِسُوا عَنْ ذَٰلِكَ وَسَكَتُوا عَنِ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ زَمَانًا ثُمَّ ٱسْتَقَرَّ ذَٰلِكَ وَأُونِسَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْمِلَّةِ وَلَمْ يَنْزِلِ ٱلْوَحْيُ فِي تَحْرِيمِ ٱلشِّعْرِ وَحَظْرِهِ وَسَمِعَهُ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَثَابَ عَلَيْهِ فَرَجَعُوا حِينَئِذٍ إِلَى دَيْدَنِهِمْ مِنْهُ وَكَانَ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ كَبِيرِ قُرَيْشٍ لِذَٰلِكَ ٱلْعَهْدِ مَقَامَاتٌ فِيهِ عَالِيَةٌ وَطَبَقَةٌ مُرْتَفِعَةٌ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ شِعْرَهُ عَلَى ٱبْنِ عَبَّاسٍ فَيَقِفُ لِٱسْتِمَاعِهِ مُعْجَبًا بِهِ ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ٱلْمُلْكُ وَٱلدَّوْلَةُ ٱلْعَزِيزَةُ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِم ٱلْعَرَبُ بِأَشْعَارِهِمْ يَمْتَدِحُونَهُمْ بِهَا وَيُجِيزُهُمُ ٱلْخُلَفَاءُ بِأَعْظَمِ ٱلْجَوَائِزِ عَلَى نِسْبَةِ ٱلْجَوْدَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ وَمَكَانِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَيَحْرِصُونَ عَلَى ٱسْتِهْدَاءِ أَشْعَارِهِمْ يَطَّلِعُونَ مِنْهَا عَلَى ٱلْآثَارِ وَٱلْأَخْبَارِ وَٱللُّغَةِ وَشَرَفِ ٱللِّسَانِ وَٱلْعَرَبُ يُطَالِبُونَ وُلْدَهُمْ بِحِفْظِهَا وَلَمْ يَزَلْ هٰذَا ٱلشَّأْنُ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ وَصَدْرًا مِنْ دَوْلَةِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَٱنْظُرْ مَا نَقَلَهُ صَاحِبُ ٱلْعِقْدِ فِي مُسَامَرَةِ ٱلرَّشِيدِ لِلْأَصْمَعِيِّ فِي بَابِ ٱلشِّعْرِ وَٱلشُّعَرَاءِ تَجِدْ مَا كَانَ عَلَيْهِ ٱلرَّشِيدُ مِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ بِذَٰلِكَ وَٱلرُّسُوخِ فِيهِ وَٱلْعِنَايَةِ بِٱنْتِحَالِهِ وَٱلتَّبَصُّرِ بِجَيِّدِ ٱلْكَلَامِ وَرَدِيئِهِ وَكَثْرَةِ مَحْفُوظِهِ مِنْهُ ثُمَّ جَاءَ خَلْقٌ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ يَكُنِ ٱللِّسَانُ لِسَانَهُمْ مِنْ أَجْلِ ٱلْعُجْمَةِ وَتَقْصِيرِهَا بِٱللِّسَانِ وَإِنَّمَا تَعَلَّمُوهُ صِنَاعَةً ثُمَّ مَدَحُوا بِأَشْعَارِهِمْ أُمَرَاءَ ٱلْعَجَمِ ٱلَّذِينَ لَيْسَ ٱللِّسَانُ لَهُمْ طَالِبِينَ مَعْرُوفَهُمْ فَقَطْ لَا سِوَى ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْأَغْرَاضِ كَمَا فَعَلَهُ حَبِيبٌ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَٱلْمُتَنَبِّي وَٱبْنُ هَانِئٍ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَهَلُمَّ جَرًّا فَصَارَ غَرَضُ ٱلشِّعْرِ فِي ٱلْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْكَذِبُ وَٱلِٱسْتِجْدَاءُ لِذَهَابِ ٱلْمَنَافِعِ ٱلَّتِي كَانَتْ فِيهِ لِلْأَوَّلِينَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا وَأَنِفَ مِنْهُ لِذَٰلِكَ أَهْلُ ٱلْهِمَمِ وَٱلْمَرَاتِبِ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَتَغَيَّرَ ٱلْحَالُ وَأَصْبَحَ تَعَاطِيهِ هُجْنَةً فِي ٱلرِّئَاسَةِ وَمَذَمَّةً لِأَهْلِ ٱلْمَنَاصِبِ ٱلْكَبِيرَةِ وَٱللهُ مُقَلِّبُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ .

الفصل الخمسون

في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد

إعلَم أنَّ الشِعرَ لا يَختَصُّ بِاللِّسانِ العَرَبِيِّ فَقَطْ بَلْ هُوَ مَوجُودٌ في كُلِّ لُغَةٍ سَواءٌ كانَتْ عَرَبِيَّةً أَوْ عَجَمِيَّةً وَقَدْ كانَ في الفُرسِ شُعَراءُ وَفي يُونانَ كَذَلِكَ وَذَكَرَ مِنهُم أَرِسطُو في كِتابِ المَنطِقِ أُومِيرُوسَ الشّاعِرَ وَأَثنَى عَلَيهِ وَكانَ في حِمْيَرَ أَيضاً شُعَراءُ مُتَقَدِّمُونَ وَلَمّا فَسَدَ لِسانُ مُضَرَ وَلُغَتُهُمُ الَّتي دُوِّنَتْ مَقايِيسُها وَقَوانِينُ إِعرابِها وَفَسَدَتِ اللُّغاتُ مِنْ بَعْدُ بِحَسَبِ ما خالَطَها وَمازَجَها مِنَ العُجمَةِ فَكانَتْ تُجيلُ العَرَبُ بِأَنفُسِهِمْ لُغَةً خالَفَت لُغَةَ سَلَفِهِم مِنْ مُضَرَ في الإِعرابِ جُملَةً وَفي كَثيرٍ مِنَ المَوْضُوعاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَبِناءِ الكَلِماتِ وَكَذَلِكَ الحَضَرُ أَهلُ الأَمصارِ نَشَأَتْ فِيهِمْ لُغَةٌ أُخرَى خالَفَتْ لِسانَ مُضَرَ في الإِعرابِ وَأَكثَرِ الأَوضاعِ وَالتَّصارِيفِ وَخالَفَتْ أَيضاً لُغَةَ الجِيلِ مِنَ العَرَبِ لِهَذا العَهدِ وَاختَلَفَتْ هِيَ في نَفسِها بِحَسَبِ اصطِلاحاتِ أَهلِ الآفاقِ فَلِأَهلِ الشَّرقِ وَأَمصارِهِ لُغَةٌ غَيرُ لُغَةِ أَهلِ المَغرِبِ وَأَمصارِهِ وَتُخالِفُهُما أَيضاً لُغَةُ أَهلِ الأَندَلُسِ وَأَمصارِهِ ثُمَّ لَمّا كانَ الشِعرُ مَوجُوداً بِالطَّبعِ في أَهلِ كُلِّ لِسانٍ لِأَنَّ المَوازِينَ عَلَى نِسبَةٍ واحِدَةٍ في أَعدادِ المُتَحَرِّكاتِ وَالسَّواكِنِ وَتَقابُلِها مَوجُودَةٌ في طِباعِ البَشَرِ فَلَمْ يُهجَرِ الشِعرُ بِفِقدانِ لُغَةٍ واحِدَةٍ وَهِيَ لُغَةُ مُضَرَ الَّذينَ كانُوا فُحُولَهُ وَفُرسانَ مَيدانِهِ حَسبَما اشتَهَرَ بَينَ أَهلِ الخَليقَةِ بَلْ كُلُّ جِيلٍ وَأَهلُ كُلِّ لُغَةٍ مِنَ العَرَبِ المُستَعجِمِينَ وَالحَضَرِ أَهلِ الأَمصارِ يَتَعاطَونَ مِنهُ ما يُطاوِعُهُمْ في انتِحالِهِ وَرَصفِ بِنائِهِ عَلَى مَهيَعِ كَلامِهِم فَأَمّا العَرَبُ أَهلُ هَذا الجِيلِ المُستَعجِمُونَ عَنْ لُغَةِ سَلَفِهِمْ مِنْ مُضَرَ فَيَقرِضُونَ الشِعرَ لِهَذا العَهدِ في سائِرِ الأَعارِيضِ عَلَى ما كانَ عَلَيهِ سَلَفُهُمُ المُستَعرِبُونَ وَيَأتُونَ مِنهُ بِالمُطَوَّلاتِ مُشتَمِلَةً عَلَى مَذاهِبِ الشِعرِ وَأَغراضِهِ مِنَ النَّسيبِ وَالمَدحِ وَالرِّثاءِ وَالهِجاءِ وَيَستَطرِدُونَ في الخُرُوجِ مِنْ فَنٍّ إِلى فَنٍّ في الكَلامِ وَرُبَّما هَجَمُوا عَلَى المَقصُودِ لِأَوَّلِ كَلامِهِمْ وَأَكثَرُ ابتِدائِهِمْ في قَصائِدِهِمْ بِاسمِ الشّاعِرِ ثُمَّ بَعدَ ذَلِكَ يَنسِبُونَ فَأَهلُ أَمصارِ المَغرِبِ مِنَ العَرَبِ يُسَمُّونَ هَذِهِ القَصائِدَ بِالأَصمَعِيّاتِ نِسبَةً إِلى الأَصمَعِيِّ راوِيَةِ العَرَبِ في أَشعارِهِمْ وَأَهلُ المَشرِقِ مِنَ العَرَبِ يُسَمُّونَ هَذا النَّوعَ مِنَ الشِعرِ بِالبَدَوِيِّ وَرُبَّما يُلَحِّنُونَ فِيهِ أَلحاناً بَسيطَةً لا عَلَى طَريقَةِ الصِّناعَةِ المُوسيقِيَّةِ ثُمَّ

يغنُّونَ بِهِ وَيُسَمُّونَ ٱلْغِنَاءَ بِهِ بِٱسْمِ ٱلْحُورَانِيِّ نِسْبَةً إِلى حُورَانَ مِنْ أَطْرَافِ ٱلْعِرَاقِ وَٱلشَّامِ وَهِيَ مِنْ مَنَازِلِ ٱلْعَرَبِ ٱلْبَادِيَةِ وَمَسَاكِنِهِمْ إِلى هٰذَا ٱلْعَهْدِ. وَلَهُمْ فَنٌّ آخَرُ كَثِيرُ ٱلتَّدَاوُلِ فِي نَظْمِهِمْ يَجِيئُونَ بِهِ مُعَصَّباً عَلى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ يُخَالِفُ آخِرُهَا ٱلثَّلَاثَةَ فِي رَوِيِّهِ وَيَلْتَزِمُونَ ٱلْقَافِيَةَ ٱلرَّابِعَةَ فِي كُلِّ بَيْتٍ إِلى آخِرِ ٱلْقَصِيدَةِ شَبِيهاً بِٱلْمُرَبَّعِ وَٱلْمُخَمَّسِ ٱلَّذِي أَحْدَثَهُ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ وَلِهٰؤُلَاءِ ٱلْعَرَبِ فِي هٰذَا ٱلشِّعْرِ بَلَاغَةٌ فَائِقَةٌ وَفِيهِمِ ٱلْفُحُولُ وَٱلْمُتَأَخِّرُونَ وَٱلْكَثِيرُ مِنَ ٱلْمُنْتَحِلِينَ لِلْعُلُومِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَخُصُوصاً عِلْمِ ٱللِّسَانِ يَسْتَنْكِرُ صَاحِبُهَا هٰذِهِ ٱلْفُنُونَ ٱلَّتِي لَهُمْ إِذَا سَمِعَهَا وَيَمُجُّ نَظْمَهُمْ إِذَا أُنْشِدَ وَيَعْتَقِدُ أَنَّ ذَوْقَهُ إِنَّمَا نَبَا عَنْهَا لِٱسْتِهْجَانِهَا وَفِقْدَانِ ٱلْإِعْرَابِ مِنْهَا وَهٰذَا إِنَّمَا أَتَى مِنْ فِقْدَانِ ٱلْمَلَكَةِ فِي لُغَتِهِمْ فَلَوْ حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَةٌ مِنْ مَلَكَاتِهِمْ لَشَهِدَ لَهُ طَبْعُهُ وَذَوْقُهُ بِبَلَاغَتِهَا إِنْ كَانَ سَلِيماً مِنَ ٱلْآفَاتِ فِي فِطْرَتِهِ وَنَظَرِهِ وَإِلَّا فَٱلْإِعْرَابُ لَا مَدْخَلَ لَهُ فِي ٱلْبَلَاغَةِ إِنَّمَا ٱلْبَلَاغَةُ مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِلْمَقْصُودِ وَلِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْوُجُودِ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَ ٱلرَّفْعُ دَالاً عَلى ٱلْفَاعِلِ وَٱلنَّصْبُ دَالاً عَلى ٱلْمَفْعُولِ أَوْ بِٱلْعَكْسِ وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلى ذٰلِكَ قَرَائِنُ ٱلْكَلَامِ كَمَا هُوَ فِي لُغَتِهِمْ هٰذِهِ فَٱلدَّلَالَةُ بِحَسَبِ مَا يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْمَلَكَةِ فَإِذَا عُرِفَ ٱصْطِلَاحٌ فِي مَلَكَةٍ وَٱشْتَهَرَ صَحَّتِ ٱلدَّلَالَةُ وَإِذَا طَابَقَتْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَةُ ٱلْمَقْصُودَ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ صَحَّتِ ٱلْبَلَاغَةُ وَلَا عِبْرَةَ بِقَوَانِينِ ٱلنُّحَاةِ فِي ذٰلِكَ وَأَسَالِيبُ ٱلشِّعْرِ وَفُنُونُهُ مَوْجُودَةٌ فِي أَشْعَارِهِمْ هٰذِهِ مَا عَدَا حَرَكَاتِ ٱلْإِعْرَابِ فِي أَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ فَإِنَّ غَالِبَ كَلِمَاتِهِمْ مَوْقُوفَةُ ٱلْآخِرِ وَيَتَمَيَّزُ عِنْدَهُمُ ٱلْفَاعِلُ مِنَ ٱلْمَفْعُولِ وَٱلْمُبْتَدَأُ مِنَ ٱلْخَبَرِ بِقَرَائِنِ ٱلْكَلَامِ لَا بِحَرَكَاتِ ٱلْإِعْرَابِ.

(الموشحات والازجال للاندلس)

وَأَمَّا أَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ فَلَمَّا كَثُرَ ٱلشِّعْرُ فِي قُطْرِهِمْ وَتَهَذَّبَتْ مَنَاحِيهِ وَفُنُونُهُ وَبَلَغَ ٱلتَّنْمِيقُ فِيهِ ٱلْغَايَةَ ٱسْتَحْدَثَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ فَنّاً مِنْهُ سَمَّوْهُ بِٱلْمُوَشَّحِ يَنْظِمُونَهُ أَسْمَاطاً أَسْمَاطاً وَأَغْصَاناً أَغْصَاناً يُكْثِرُونَ مِنْ أَعَارِيضِهَا ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَيُسَمُّونَ ٱلْمُتَعَدِّدَ مِنْهَا بَيْتاً وَاحِداً وَيَلْتَزِمُونَ عِنْدَ قَوَافِي تِلْكَ ٱلْأَغْصَانِ وَأَوْزَانِهَا مُتَتَالِياً فِيمَا بَعْدُ إِلى آخِرِ ٱلْقِطْعَةِ وَأَكْثَرَ مَا تَنْتَهِي عِنْدَهُمْ إِلى سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ وَيَشْتَمِلُ كُلُّ بَيْتٍ عَلى أَغْصَانٍ عَدَدُهَا بِحَسَبِ ٱلْأَغْرَاضِ وَٱلْمَذَاهِبِ وَيَنْسِبُونَ فِيهَا وَيَمْدَحُونَ كَمَا يُفْعَلُ فِي ٱلْقَصَائِدِ وَتَجَارَوْا

فِي ذٰلِكَ إِلى ٱلْغَايَةِ وَٱسْتَطْرَفَهُ ٱلنَّاسُ جُمْلَةَ ٱلْخَاصَّةُ وَٱلْكَافَّةُ لِسُهُولَةِ تَنَاوُلِهِ وَقُرْبِ طَرِيقِهِ وَكَانَ ٱلْمُخْتَرِعُ لَهَا بِجَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ مُقَدَّمَ بْنُ مُعَافِرٍ ٱلْقَرِيرِيَّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْأَمِيرِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْمَرْوَانِيِّ وَأَخَذَ ذٰلِكَ عَنْهُ أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ كِتَابِ ٱلْعِقْدِ وَلَمْ يَظْهَرْ لَهُمَا مَعَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ ذِكْرٌ وَكَسَدَتْ مُوَشَّحَاتُهُمَا فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَرَعَ فِي هٰذَا ٱلشَّأْنِ عُبَادَةَ ٱلْقَزَّازُ شَاعِرَ ٱلْمُعْتَصِمِ ٱبْنَ صُمَادِحٍ صَاحِبِ ٱلْمِرِيَّةِ

بدرُ تم . شمسُ ضحا غصنُ نقا . مسكٌ شم

ما اتم ما اوضحا ما اورقا . ما انم

لا جرم . من لمحا قد عشقا . قد حُرِم

وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْهُ وَشَّاحٌ مِنْ مُعَاصِرِيهِ ٱلَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ ٱلطَّوَائِفِ

وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمَشَايِخِ أَنَّ أَهْلَ هٰذَا ٱلشَّأْنِ بِٱلْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْوَشَّاحِينَ ٱجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ بِإِشْبِيلِيَّةَ وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ٱصْطَنَعَ مُوَشَّحَةً وَتَأَنَّقَ فِيهَا فَتَقَدَّمَ ٱلْأَعْمَى ٱلطُّلَيْطِلِيُّ لِلْإِنْشَادِ فَلَمَّا ٱفْتَتَحَ مُوَشَّحَتَهُ ٱلْمَشْهُورَةَ بِقَوْلِهِ

ضَاحِكٌ عَنْ جُمَانٍ . سَافِرٌ عَنْ دُرِّ ضَاقَ عَنْهُ ٱلزَّمَانُ . وَحَوَاهُ صَدْرِي

صَرَفَ ٱبْنُ بَقِيٍّ مُوَشَّحَتَهُ وَتَبِعَهُ ٱلْبَاقُونَ وَذَكَرَ ٱلْأَعْلَمُ ٱلْبَطَلْيُوسِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ ٱبْنَ زُهَيْرٍ يَقُولُ مَا حَسَدْتُ قَطُّ وَشَّاحاً عَلَى قَوْلٍ إِلَّا ٱبْنَ بَقِيٍّ حِينَ وَقَعَ لَهُ

أَمَا تَرَى أَحْمَدَ . فِي مَجْدِهِ ٱلْعَالِي لَا يُلْحَقْ أَطْلَعَهُ ٱلْغَرْبُ فَأَرِنَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقْ

وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا مِنَ ٱلْمُوَشِّحِينَ ٱلْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ ٱلْأَبْيَضُ وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا أَيْضاً ٱلْحَكِيمُ أَبُو بَكْرِ بْنُ بَاجَةَ صَاحِبُ ٱلتَّلَاحِينِ ٱلْمَعْرُوفَةِ وَمِنَ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَ مَخْدُومِهِ ٱبْنِ تِيفَلْوِيتَ صَاحِبِ سَرَقُسْطَةَ فَأَلْقَى عَلَى بَعْضِ قَيْنَاتِهِ مُوَشَّحَتَهُ

جَرِّرِ ٱلذَّيْلَ أَيَّمَا جَرِّ وَصِلِ ٱلشُّكْرَ مِنْكَ بِٱلشُّكْرِ

فَطَرِبَ ٱلْمَمْدُوحُ لِذٰلِكَ لَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ

عَقَدَ ٱللّٰهُ رَايَةَ ٱلنَّصْرِ لِأَمِيرِ ٱلْعُلَا أَبِي بَكْرِ

فَلَمَّا طَرَقَ ذٰلِكَ ٱلتَّلْحِينُ سَمْعَ ٱبْنِ تِيفَلْوِيتَ صَاحَ وَاطَرَبَاهُ وَشَقَّ ثِيَابَهُ وَقَالَ مَا أَحْسَنَ مَا بَدَأْتَ وَخَتَمْتَ وَحَلَفَ بِٱلْأَيْمَانِ ٱلْمُغَلَّظَةِ لَا يَمْشِي ٱبْنُ بَاجَةَ إِلَى دَارِهِ إِلَّا عَلَى ٱلذَّهَبِ فَخَافَ ٱلْحَكِيمُ سُوءَ ٱلْعَاقِبَةِ فَٱحْتَالَ بِأَنْ جَعَلَ ذَهَباً فِي نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ

وَذَكَرَ أَبُو ٱلْخَطَّابِ بْنُ زُهْرٍ أَنَّهُ جَرَى فِي مَجْلِسِ أَبِي بَكْرِ بْنِ زُهَيْرٍ ذِكْرُ أَبِي بَكْرٍ ٱلْأَبْيَضِ ٱلْوَشَّاحِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ٱلذِّكْرِ فَغَضَّ مِنْهُ بَعْضُ ٱلْحَاضِرِينَ فَقَالَ كَيْفَ تَغُضُّ مِمَّنْ يَقُولُ

ما لَذَّ لِي شَرَابُ رَاح « عَلَى رِيَاضِ ٱلْأَقَاح لَوْلَا هَضِيمُ ٱلْوَشَاح » إِذَا أَسَا فِي ٱلصَّبَاح أَوْ فِي ٱلْأَصِيلِ . أَضْحَى يَقُولُ مَا لِلشَّمُولِ . لَطَمَتْ خَدِّي وَلِلشَّمَالِ « هَبَّتْ فَمَالَ غُصْنُ ٱعْتِدَالِ » ضَمَّهُ بُرْدِي مِمَّا أَبَادَ ٱلْقُلُوبَا « يَمْشِي لَنَا مُسْتَرِيبَا يَا لَحْظَهُ رُدَّ نُوبَا . وَيَا لَمَاهُ ٱلشَّنِيبَا بَرِّدْ غَلِيل « صَبٍّ عَلِيل لَا يَسْتَحِيل » فِيهِ عَنْ عَهْدِي وَلَا يَزَال « فِي كُلِّ حَال يَرْجُو ٱلْوِصَال » وَهْوَ فِي ٱلصَّدِّ

وَٱشْتَهَرَ بَعْدَ هٰؤُلَاءِ فِي صَدْرِ دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْفَضْلِ بْنِ شَرَفٍ قَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ دُوَيْدَةَ رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ عَلَى هٰذَا ٱلِافْتِتَاحِ

شَمْسٌ قارنت بدراً راحٌ ونديمْ

وابن بهرودس الذي لهُ يا ليلة الوصل والسعودِ بالله عودي

وَٱبْنُ مُوَهَّلٍ ٱلَّذِي لَهُ . مَا ٱلْعِيدُ فِي حُلَّةٍ وَطَاقٍ . وَشَمٍّ وَطِيبْ . وَإِنَّمَا ٱلْعِيدُ فِي ٱلتَّلَاقِي . مَعَ ٱلْحَبِيبْ . وَأَبُو إِسْحَاقَ ٱلرُّوَيْنِيُّ قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ سَمِعْتُ أَبَا ٱلْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى ٱبْنِ زُهَيْرٍ وَقَدْ أَسَنَّ وَعَلَيْهِ زِيُّ ٱلْبَادِيَةِ إِذْ كَانَ يَسْكُنُ بِحِصْنِ سَبْتَةَ فَلَمْ يَعْرِفْهُ فَجَلَسَ حَيْثُ ٱنْتَهَى بِهِ ٱلْمَجْلِسُ وَجَرَتِ ٱلْمُحَاضَرَةُ فَأَنْشَدَ لِنَفْسِهِ مُوَشَّحَةً وَقَعَ فِيهَا

كُحْلُ ٱلدُّجَى يَجْرِي مِنْ مُقْلَةِ ٱلْفَجْرِ « عَلَى ٱلصَّبَاح

وَمِعْصَمُ ٱلنَّهْرِ » فِي حُلَلٍ خُضْرٍ . مِنَ ٱلْبِطَاح

فَتَحَرَّكَ ٱبْنُ زُهَيْرٍ وَقَالَ أَنْتَ تَقُولُ هٰذَا قَالَ ٱخْتَبِرْ قَالَ وَمَنْ تَكُونُ فَعَرَّفَهُ فَقَالَ ٱرْتَفِعْ فَوَٱللّٰهِ مَا عَرَفْتُكَ قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ وَسَابِقُ ٱلْحَلْبَةِ ٱلَّذِي أَدْرَكَ هٰؤُلَاءِ أَبُو بَكْرِ بْنُ زُهَيْرٍ وَقَدْ شَرَّقَتْ مُوَشَّحَاتُهُ وَغَرَّبَتْ قَالَ وَسَمِعْتُ أَبَا ٱلْحَسَنِ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قِيلَ لِٱبْنِ زُهَيْرٍ لَوْ قِيلَ لَكَ مَا أَبْدَعَ وَأَرْفَعَ مَا وَقَعَ لَكَ فِي ٱلتَّوْشِيحِ قَالَ كُنْتُ أَقُولُ

ما لِلْمُوَلَّهِ من سكرهِ لا يُفِيقْ . يا لهُ سكران . من غير خمر . ما للكئيب المشوق . يندب الاوطان

هل تستعادْ . ايامُنا بالخليجْ . ولياليِنا

او نستفادْ . من النسيم الاريجْ . مِسْكَ دارينا

وادٍ يكادُ. حُسْنُ المكان البهيج. ان يُحيِّيَا

نهرٌ اظلّه. دَوْحٌ عليهِ أنيق. مُورقٌ فيْنان. وَٱلْمَاءُ يَجْري .وَعَائِمٌ وَغَريق. مِنْ جَنَى ٱلرَّيحَان

وَمِنْ مَحَاسِنِ ٱلْمُوَشَّحَاتِ لِلْمُتَأَخِّرِينَ مُوَشَّحَةُ ٱبْنِ سَهْلٍ شَاعِرِ أَشْبِيلِيَّةَ وَسَبْتَةَ مِن بعْدِهَا فَمِنْهَا قَوْلُهُ

هَلْ دَرَى ظَبْيُ ٱلْحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى   قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهُ عَنْ مَكْنَسِ
فَهْوَ فِي نَارٍ وَخَفْقٍ مِثْلَ مَا   لَعِبَتْ رِيحُ ٱلصَّبَا بِٱلْقَبَسِ

وَقَدْ نَسَجَ عَلَى مِنْوَالِهِ فِيهَا صَاحِبُنَا ٱلْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنُ ٱلْخَطِيبِ شَاعِرُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَغْرِبِ لِعَصْرِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ فَقَالَ

جَادَكَ ٱلْغَيْثُ إِذَا ٱلْغَيْثُ هَمَى   يَا زَمَانَ ٱلْوَصْلِ بِٱلْأَنْدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلُمَا   فِي ٱلْكَرَى أَوْ خِلْسَةَ ٱلْمُخْتَلِسِ
إِذْ يَقُودُ ٱلدَّهْرُ أَشْتَاتَ ٱلْمُنَى   يَنْقُلُ ٱلْخَطْوَ عَلَى مَا يَرْسِمُ
زُمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثُنَا   مِثْلَ مَا يَدْعُو ٱلْوُفُودَ ٱلْمَوْسِمُ
وَٱلْحَيَا قَدْ جَلَّلَ ٱلرَّوْضَ سَنَى   فَثُغُورُ ٱلزَّهْرِ فِيهِ تَبْسِمُ
وَرَوَى ٱلنُّعْمَانُ عَنْ مَاءِ ٱلسَّمَا   كَيْفَ يَرْوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسِ
فَكَسَاهُ ٱلْحُسْنُ ثَوْباً مُعْلَمَا   يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسِ
فِي لَيَالٍ كَتَمَتْ سِرَّ ٱلْهَوَى   بِٱلدُّجَى لَوْلَا شُمُوسُ ٱلْغُرَرِ
مَالَ نَجْمُ ٱلْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى   مُسْتَقِيمَ ٱلسَّيْرِ سَعْدَ ٱلْأَثَرِ
وَطَرٌ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سِوَى   أَنَّهُ مَرَّ كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ
حِينَ لَذَّ ٱلنَّوْمُ مِنَّا أَوْ كَمَا   هَجَمَ ٱلصُّبْحُ هُجُومَ ٱلْحَرَسِ
غَارَتِ ٱلشُّهْبُ بِنَا أَوْ رُبَّمَا   أَثَّرَتْ فِينَا عُيُونُ ٱلنَّرْجِسِ
أَيُّ شَيْءٍ لِٱمْرِىءٍ قَدْ خَلُصَا   فَيَكُونُ ٱلرَّوْضُ قَدْ مُكِّنَ فِيهْ
تَنْهَبُ ٱلْأَزْهَارُ فِيهِ ٱلْفُرَصَا   أَمِنَتْ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهْ
فَإِذَا ٱلْمَاءُ يُنَاجِي وَٱلْحَصَا   وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهْ
تُبْصِرُ ٱلْوَرْدَ غَيُوراً بَرِمَا   يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
وَتَرَى ٱلْآسَ لَبِيباً فَهِمَا   يَسْرِقُ ٱلسَّمْعَ بِأُذْنَيْ فَرَسِ

يَا أُهَيْلَ ٱلْحَيِّ مِنْ وَادِي ٱلْغَضَا وَبِقَلْبِي مَسْكَنٌ أَنْتُمْ بِهِ
ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ ٱلْفَضَا لَا أُبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
فَأَعِيدُوا عَهْدَ أُنْسٍ قَدْ مَضَى تُنْقِذُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ
وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَحْيُوا مُغْرَمًا يَتَلَاشَى نَفَسًا فِي نَفَسٍ
حَبَسَ ٱلْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا أَفَتَرْضَوْنَ خَرَابَ ٱلْحَبَسِ
وَبِقَلْبِي مِنْكُمُ مُقْتَرِبُ بِأَحَادِيثِ ٱلْمُنَى وَهُوَ بَعِيدْ
قَمَرًا أَطْلَعَ مِنْهُ ٱلْمَغْرِبُ شَقْوَةَ ٱلْمُغْرَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدْ
قَدْ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَوْ مُذْنِبُ فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدْ
سَاحِرُ ٱلْمُقْلَةِ مَعْسُولُ ٱللَّمَى جَالَ فِي ٱلنَّفْسِ مَجَالَ ٱلنَّفَسِ
سَدَّدَ ٱلسَّهْمَ فَأَصْمَى إِذْ رَمَى بِفُؤَادِي نَبْلَةَ ٱلْمُفْتَرِسِ
إِنْ يَكُنْ جَارَ وَخَابَ ٱلْأَمَلُ وَفُؤَادُ ٱلصَّبِّ بِٱلشَّوْقِ يَذُوبْ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَبِيبٌ أَوَّلُ لَيْسَ فِي ٱلْحُبِّ لِمَحْبُوبٍ ذُنُوبْ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثَلُ فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَاهَا وَقُلُوبْ
حَكَمَ ٱللَّحْظُ بِهَا فَٱحْتَكَمَا لَمْ يُرَاقِبْ فِي ضِعَافِ ٱلْأَنْفُسِ
يُنْصِفُ ٱلْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا وَيُجَازِي ٱلْبَرَّ مِنْهَا وَٱلْمُسِي
مَا لِقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا عَادَهُ عِيدٌ مِنَ ٱلشَّوْقِ جَدِيدْ
كَانَ فِي ٱللَّوْحِ لَهُ مُكْتَتَبَا قَوْلُهُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدْ
جَلَبَ ٱلْهَمَّ لَهُ وَٱلْوَصَبَا فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جُهْدٍ جَهِيدْ
لَاعِجٌ فِي أَضْلُعِي قَدْ أُضْرِمَا فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ ٱلْيَبَسِ
لَمْ يَدَعْ مِنْ مُهْجَتِي إِلَّا ٱلدِّمَا كَبَقَاءِ ٱلصُّبْحِ بَعْدَ ٱلْغَلَسِ
سَلِّمِي يَا نَفْسُ فِي حُكْمِ ٱلْقَضَا وَٱعْبُرِي ٱلْوَقْتَ بِرُجْعَى وَمَتَابْ
وَٱتْرُكِي ذِكْرَى زَمَانٍ قَدْ مَضَى بَيْنَ عُتْبَى قَدْ تَقَضَّتْ وَعِتَابْ
وَٱصْرِفِي ٱلْقَوْلَ إِلَى ٱلْمَوْلَى ٱلرِّضَى مُلْهَمِ ٱلتَّوْفِيقِ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابْ
أَلْكَرِيمِ ٱلْمُنْتَهَى وَٱلْمُنْتَمَى أَسَدِ ٱلسَّرْجِ وَبَدْرِ ٱلْمَجْلِسِ
يَنْزِلُ ٱلنَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا يَنْزِلُ ٱلْوَحْيُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأَذْوَاقَ كُلَّهَا فِي مَعْرِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ إِنَّمَا تَحْصُلُ لِمَنْ خَالَطَ تِلْكَ ٱللُّغَةَ وَكَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهُ لَهَا وَمُخَاطَبَتُهُ بَيْنَ أَجْيَالِهَا حَتَّى يُحَصِّلَ مَلَكَتَهَا كَمَا قُلْنَاهُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فَلَا ٱلْأَنْدَلُسِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ وَلَا ٱلْمَغْرِبِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَشْرِقِ وَلَا ٱلْمَشْرِقِيُّ بِٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي فِي شِعْرِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّ ٱللِّسَانَ ٱلْحَضَرِيَّ وَتَرَاكِيبَهُ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِمْ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدْرِكٌ لِبَلَاغَةِ لُغَتِهِ وَذَائِقٌ لِمَحَاسِنِ ٱلشِّعْرِ مِنْ أَهْلِ جِلْدَتِهِ وَفِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ آيَاتٌ وَقَدْ كِدْنَا نَخْرُجُ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلِذَٰلِكَ عَزَمْنَا أَنْ نَقْبِضَ ٱلْعِنَانَ عَنِ ٱلْقَوْلِ فِي هَٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ ٱلَّذِي هُوَ طَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهِ وَقَدِ ٱسْتَوْفَيْنَا مِنْ مَسَائِلِهِ مَا حَسِبْنَاهُ كِفَايَةً وَلَعَلَّ مَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا مِمَّنْ يُؤَيِّدُهُ ٱللَّهُ بِفِكْرٍ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ مُبِينٍ يَغُوصُ مِنْ مَسَائِلِهِ عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا كَتَبْنَا فَلَيْسَ عَلَى مُسْتَنْبِطِ ٱلْفَنِّ إِحْصَاءُ مَسَائِلِهِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ تَعْيِينُ مَوْضِعِ ٱلْعِلْمِ وَتَنْوِيعُ فُصُولِهِ وَمَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَٱلْمُتَأَخِّرُونَ يُلْحِقُونَ ٱلْمَسَائِلَ مِنْ بَعْدِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ يَكْمُلَ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ



قال مؤلف الكتاب عفى الله عنه اتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة اشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم نقحته بعد ذلك وهذبته والحقت به تاريخ الامم كما ذكرت في اوله وشرطته وما العلم الا من عند الله العزيز الحكيم .

فهرست

مُقَدِّمَة

العلامة ابن خلدون

« فهرست مقدمة ابن خلدون »

تمت الفهرست



مطبعة الكشاف بيروت